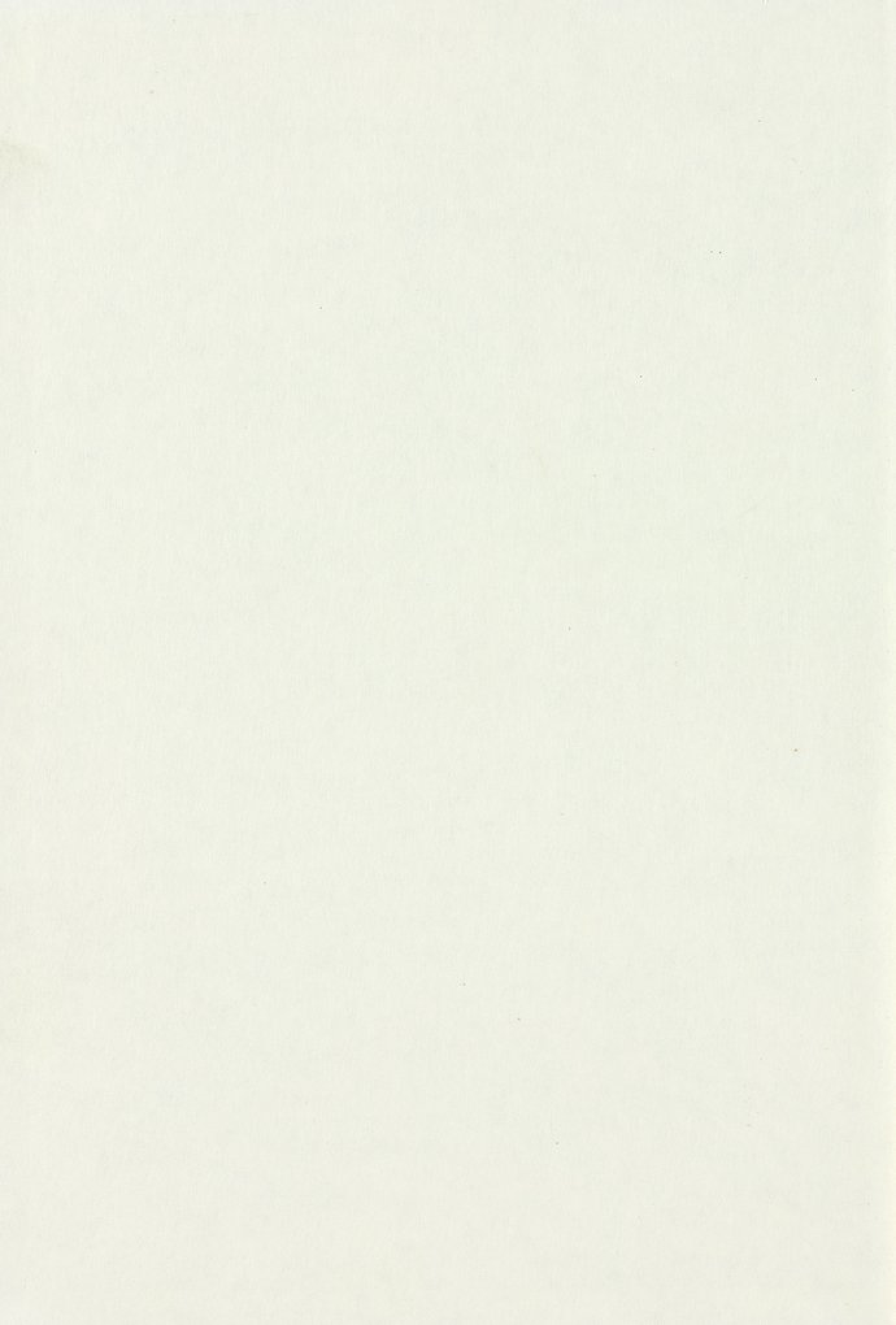



COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES
0056945299





لجنة
نشر الثقافة الإسلامية
بدار جمعية الجهاد الإسلامي

إحياء علوم الدين

للإمام أبي حامد الغزالي

الجزء الثالث عشر

مضاف إليه
تخريج الحافظ العراقي

مطبعة لجنة نشر الثقافة الاسلامية شارع الناصرية رقم ١٣ القاهرة - سنة ١٣٥٧ تليفون ٤٢٥٠٩

الشطر الثانى

من الكتاب فى الخوف

وفيه بيان حقيقة الخوف ، وبيان درجاته ، وبيان أقسام المخاوف ، وبيان فضيلة الخوف وبيان الأفضل من الخوف والرجاء ، وبيان دواء الخوف ، وبيان معنى سوء الخاتمة ، وبيان أحوال الخائفين من الأنبياء صلوات الله عليهم ، والصالحين رحمة الله عليهم ، ونسأل الله حسن التوفيق

بيان

حقيقة الخوف

اعلم أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه ، بسبب توقع مكروه فى الاستقبال . وقد ظهر هذا فى بيان حقيقة الرجاء ، ومن أنس بالله ، وملك الحق قلبه ، وصار ابن وقته ، مشاهدا لجمال الحق على الدوام ، لم يبق له التفات إلى المستقبل ، فلم يكن له خوف ولا رجاء ، بل صار حاله أعلى من الخوف والرجاء ، فإنهما زمامان يمنعان النفس عن الخروج إلى رعوناتها وإلى هذا أشار الواسطى حيث قال : الخوف حجاب بين الله و بين العبد . وقال أيضا : إذا ظهر الحق على السرائر ، لايبقى فيها فضلة لرجاء ولا لخوف . وبالجملة فالمحب إذا شغل قلبه فى مشاهدة المحبوب بخوف الفراق ، كان ذلك نقصا فى الشهود . وإنما دوام الشهود غاية المقامات . ولكنا الآن إنما نتكلم فى أوائل المقامات فنقول :

بواعث الخوف

حال الخوف ينتظم أيضا من علم ، وحال ، وعمل . أما العلم ، فهو العلم بالسبب المفضى إلى المكروه . وذلك كمن جنى على ملك ، ثم وقع فى يده ، فيخاف القتل مثلا ، ويجوّز العفو والإفلات . ولكن يكون تألم قلبه بالخوف بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية إلى قتله ، وهو تفاحش جنايته . وكون الملك فى نفسه حقودا ، غضوبا ، منتقما . وكونه محفوفا بمن يحثه على الانتقام ، خاليا عمن يتشفع إليه فى حقه . وكان هذا الخائف عاطلا عن كل وسيلة وحسنة تمحو أثر جنايته عند الملك . فالعلم بتظاهر هذه الأسباب سبب لقوة الخوف ، وشدة تألم القلب . وبحسب ضعف هذه الأسباب يضعف الخوف . وقد يكون الخوف لا عن سبب

جناية قارفها الخائف ، بل عن صفة المخوف ، كالذى وقع فى مخالب سبع ، فإنه يخاف السبع لصفة ذات السبع ، وهى حرصه وسطوته على الافتراس غالبا ، وإن كان افتراسه بالاختيار

وقد يكون من صفة جبلّية للمخوف منه ، كخوف من وقع فى مجرى سيل ، أو جوار حريق ، فإن الماء يُخاف لأنه بطبعه مجبول على السيلان والإغراق ، وكذا النار على الإحراق

فالعلم بأسباب المكروه هو السبب الباعث المثير لإحراق القلب وتألمه . وذلك الإحراق هو الخوف . فكذلك الخوف من الله تعالى تارة يكون لمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وأنه لو أهلك العالمين لم يبال ولم يمنعه مانع ، وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد بمقارفة المعاصى ، وتارة يكون بهما جميعا . وبحسب معرفته بعيوب نفسه ، ومعرفته بجلال الله تعالى واستغنائه ، وأنه لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ، تكون قوة خوفه . فأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وبربه . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [1] « أَنَا أَخْوَفُكُمْ لِلّهِ » وكذلك قال الله تعالى (إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ [1]) . ثم إذا كملت المعرفة أورثت جلال الخوف واحتراق القلب ، ثم يفيض أثر الحرقة من القلب على البدن ، وعلى الجوارح ، وعلى الصفات

أما فى البدن فبالنحول ، والصفار ، والغشية ، والزعقة ، والبكاء ، وقد تنشق به المرارة فيفضى إلى الموت ، أو يصعد إلى الدماغ فيفسد العقل ، أو يقوى فيورث القنوط واليأس

وأما فى الجوارح فبكفها عن المعاصى ، وتقييدها بالطاعات ، تلافيا لما فرط ، واستعدادا للمستقبل . ولذلك قيل : ليس الخائف من يبكى ويمسح عينيه ، بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه . وقال أبو القاسم الحكيم : من خاف شيئا هرب منه ، ومن خاف الله هرب إليه . وقيل لذى النون : متى يكون العبد خائفا ؟ قال إذا نزّل نفسه منزلة السقيم الذى يحتمى مخافة طول السقام

وأما فى الصفات ، فبأن يقمع الشهوات ، ويكدر اللذات ، فتصير المعاصى المحبوبة عنده مكروهة ، كما يصير العسل مكروها عند من يشتهيه إذا عرف أن فيه سما . فتحترق الشهوات بالخوف ، وتتأدب الجوارح ، ويحصل فى القلب الذبول ، والخشوع ، والذلة ، والاستكانة ،

---

(١) حديث أنا أخوفكم : البخارى من حديث أنس والله انى لأخشاكم لله واتقاكم له وللشيخين من حديث عائشة والله انى لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية

---

(١) فاطر : ٢٨

ويفارقه الكبر، والحقد، والحسد، بل يصير مستوعب الهم بخوفه والنظر في خطر عاقبته، فلا يتفرغ لغيره، ولا يكون له شغل إلا المراقبة، والمحاسبة، والمجاهدة، والضنة بالأنفاس واللحظات، ومؤاخذة النفس بالخطرات والخطوات والكلمات، ويكون حاله حال من وقع في مخالب سبع ضار، لا يدرى أنه يغفل عنه فيفلت، أو يهجم عليه فيهلك. فيكون ظاهره وباطنه مشغولا بما هو خائف منه، لا متسع فيه لغيره. هذا حال من غلبه الخوف، واستولى عليه. وهكذا كان حال جماعة من الصحابة والتابعين. وقوة المراقبة والمحاسبة والمجاهدة بحسب قوة الخوف الذى هو تألم القلب واحتراقه. وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله وصفاته وأفعاله، وبعيوب النفس وما بين يديها من الأخطار والأهوال. وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره في الأعمال، أن يمنع عن المحظورات. ويسمى الكف الحاصل عن المحظورات ورعا. فإن زادت قوته كف عما يتطرق إليه إمكان التحريم، فيكف أيضا عما لا يتيقن تحريمه. ويسمى ذلك تقوى. إذ التقوى أن يترك ما يريبه إلى ما لا يريبه. وقد يحمله على أن يترك ما لا بأس به، مخافة ما به بأس. وهو الصدق في التقوى. فإذا انضم إليه التجرد للخدمة، فصار لا يبني ما لا يسكنه، ولا يجمع ما لا يأكله، ولا يلتفت إلى دنيا يعلم أنها تفارقه، ولا يصرف إلى غير الله تعالى نفسا من أنفاسه، فهو الصدق. وصاحبه جدير بأن يسمى صديقا. ويدخل في الصدق التقوى، ويدخل في التقوى الورع، ويدخل في الورع العفة، فإنها عبارة عن الامتناع عن مقتضى الشهوات خاصة. فإذاً الخوف يؤثر في الجوارح بالكف والإقدام، ويتجدد له بسبب الكف اسم العفة، وهو كف عن مقتضى الشهوة. وأعلى منه الورع، فإنه أعم، لأنه كف عن كل محظور. وأعلى منه التقوى، فإنه اسم للكف عن المحظور والشبهة جميعا. ووراءه اسم الصديق والمقرب، وتجرى الرتبة الآخرة مما قبلها مجرى الأخص من الأعم، فإذا ذكرت الأخص فقد ذكرت الكل، كما أنك تقول الإنسان إما عربي وإما عجمي، والعربي إما قرشي أو غيره، والقرشي إما هاشمي أو غيره، والهاشمي إما علوي أو غيره، والعلوي إما حسني أو حسيني. فإذا ذكرت أنه حسني مثلا، فقد وصفته بالجميع. وإن وصفته بأنه علوي، وصفته بما هو فوقه مما هو أعم منه. فكذلك إذا قلت صديق، فقد قلت إنه تقي، وورع، وعفيف. فلا ينبغي أن تظن أن كثرة هذه الأسامي تدل على معان كثيرة متباينة، فيختلط عليك كما اختلط

تأثير الخوف في الجوارح

على من طلب المعانى من الألفاظ ، ولم يتبع الألفاظ المعانى

فهذه إشارة إلى مجامع معانى الخوف ، وما يكتنفه من جانب العلو ، كالمعرفة الموجبة له، ومن جانب السفل . كالأعمال الصادرة منه كفا وإقداما

بيان
درجات الخوف واختلافه فى القوة والضعف

اعلم أن الخوف محمود ، وربما يظن أن كل ما هو خوف محمود ، فكل ما كان أقوى وأكثر كان أحمد . وهو غلط ؛ بل الخوف سوط الله يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل ، لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى . والأصلح للبهيمة أن لا تخلو عن سوط ، وكذا الصبى . ولكن ذلك لا يدل على أن المبالغة فى الضرب محمودة . وكذلك الخوف له قصور ؛ وله إفراط ، وله اعتدال . والمحمود هو الاعتدال والوسط . فأما القاصر منه فهو الذى يجرى مجرى رقة النساء ، يخطر بالبال عند سماع آية من القرءان ، فيورث البكاء ، وتفيض الدموع . وكذلك عند مشاهدة سبب هائل . فإذا غاب ذلك السبب عن الحس رجع القلب إلى الغفلة . فهذا خوف قاصر قليل الجدوى ضعيف النفع . وهو كالقضيب الضعيف الذى تضرب به دابة قوية ، لا يؤلمها ألما مبرحا ، فلا يسوقها إلى المقصد ، ولا يصلح لرياضتها . وهكذا خوف الناس كلهم إلا العارفين والعلماء . ولست أعنى بالعلماء المترسمين برسوم العلماء ، والمتسمين بأسمائهم ، فإنهم أبعد الناس عن الخوف . بل أعنى العلماء بالله وبأيامه وأفعاله ، وذلك مما قد عز وجوده الآن ولذلك قال الفضيل بن عياض : إذا قيل لك هل تخاف الله فاسكت . فإنك إن قلت : لا ، كفرت ، وإن قلت : نعم ، كذبت . وأشار به إلى أن الخوف هو الذى يكف الجوارح عن المعاصى ، ويقيدها بالطاعات . وما لم يؤثر فى الجوارح فهو حديث نفس وحركة خاطر ، لا يستحق أن يسمى خوفا

وأما المفرط ، فإنه الذى يقوى ويجاوز حد الاعتدال ، حتى يخرج إلى اليأس والقنوط ، وهو مذموم أيضا ، لأنه يمنع من العمل . وقد يخرج الخوف أيضا إلى المرض والضعف ، وإلى الوله والدهشة وزوال العقل . فالمراد من الخوف ما هو المراد من السوط ، وهو الحمل على العمل . ولولاه لما كان الخوف كمالا لأنه بالحقيقة نقصان ، لأن منشأه الجهل والعجز . أما الجهل ،

فإنه ليس يدرى عاقبة أمره ، ولو عرف لم يكن خائفا ، لأن المخوف هو الذى يتردد فيه .
وأما العجز ، فهو أنه متعرض لمحذور لا يقدر على دفعه . فإذاً هو محمود بالإضافة إلى نقص الآدمى .
وإنما المحمود فى نفسه وذاته هو العلم والقدرة ، وكل ما يجوز أن يوصف الله تعالى به . وما لا يجوز
وصف الله به فليس بكمال فى ذاته ؛ وإنما يصير محمودا بالإضافة إلى نقص هو أعظم منه ، كما يكون
احتمال ألم الدواء محمودا لأنه أهون من ألم المرض والموت . فما يخرج إلى القنوط فهو مذموم

الخوف المذموم

وقد يخرج الخوف أيضا إلى المرض والضعف ، وإلى الوله والدهشة وزوال العقل .
وقد يخرج إلى الموت . وكل ذلك مذموم ، وهو كالضرب الذى يقتل الصبي ، والسوط
الذي يهلك الدابة أو يمرضها ، أو يكسر عضوا من أعضائها . وإنما ذكر رسول الله صلى الله
عليه وسلم أسباب الرجاء وأكثر منها ، ليعالج به صدمة الخوف المفرط المفضى إلى القنوط
أو أحد هذه الأمور . فكل ما يراد لأمر فالمحمود منه ما يفضى إلى المراد المقصود منه .
وما يقصر عنه أو يجاوزه فهو مذموم . وفائدة الخوف الحذر ، والورع ، والتقوى ، والمجاهدة
والعبادة ، والفكر ، والذكر ، وسائر الأسباب الموصلة إلى الله تعالى . وكل ذلك يستدعى
الحياة مع صحة البدن وسلامة العقل . فكل ما يقدح فى هذه الأسباب فهو مذموم

فإن قلت : من خاف فمات من خوفه فهو شهيد ؛ فكيف يكون حاله مذموما ؟
فاعلم أن معنى كونه شهيدا أن له رتبة بسبب موته من الخوف ، كان لا ينالها لو مات
فى ذلك الوقت لا بسبب الخوف . فهو بالإضافة إليه فضيلة . فأما بالإضافة إلى تقدير
بقائه وطول عمره فى طاعة الله وسلوك سبله ، فليس بفضيلة . بل للسالك إلى الله تعالى بطريق
الفكر ، والمجاهدة ، والترقى فى درجات المعارف ، فى كل لحظة رتبة شهيد وشهداء . ولولا هذا
لكانت رتبة صبي يقتل ، أو مجنون يفترسه سبع ، أعلى من رتبة نبي أو ولى يموت حتف أنفه
وهو محال . فلا ينبغى أن يظن هذا . بل أفضل السعادات طول العمر فى طاعة الله تعالى
فكل ما أبطل العمر ، أو العقل ، أو الصحة التى يتعطل العمر بتعطيلها ، فهو خسران ونقصان
بالإضافة إلى أمور ، وإن كان بعض أقسامها فضيلة بالإضافة إلى أمور أخر ، كما كانت الشهادة
فضيلة بالإضافة إلى ما دونها ، لا بالإضافة إلى درجة المتقين والصديقين

فإذاً : الخوف إن لم يؤثر فى العمل فوجوده كعدمه ، مثل السوط الذى لا يزيد فى حركة

الدابة . وإن أثر فله درجات بحسب ظهور أثره . فإن لم يحمل إلا على العفة ، وهي الكف عن مقتضى الشهوات ، فله درجة . فإذا أثمر الورع ، فهو أعلى . وأقصى درجاته أن يثمر درجات الصديقين ، وهو أن يسلب الظاهر والباطن عما سوى الله تعالى ، حتى لا يبقى لغير الله تعالى فيه متسع . فهذ أقصى مايحمد منه . وذلك مع بقاء الصحة والعقل . فإن جاوز هذا إلى إزالة العقل والصحة ، فهو مرض يجب علاجه إن قدر عليه . ولو كان محمودا لما وجب علاجه بأسباب الرجاء وبغيره حتى يزول . ولذلك كان سهل رحمه الله يقول للمريدين الملازمين للجوع أياما كثيرة : احفظوا عقولكم ، فإنه لم يكن لله تعالى وليّ ناقص العقل

بيان

أقسام الخوف بالإضافة إلى مايخاف منه

اعلم أن الخوف لا يتحقق إلا بانتظار مكروه . والمكروه إما أن يكون مكروها في ذاته كالنار ، وإما أن يكون مكروها لأنه يفضي إلى المكروه ، كما تكره المعاصي لأدائها إلى مكروه في الآخرة ، كما يكره المريض الفواكه المضرة لأدائها إلى الموت . فلابد لكل خائف من أن يتمثل في نفسه مكروها من أحد القسمين ، ويقوى انتظاره في قلبه ، حتى يحرق قلبه بسبب استشعاره ذلك المكروه . ومقام الخائفين يختلف فيما يغلب على قلوبهم من المكروهات المحذورة فالذين يغلب على قلوبهم ماليس مكروها لذاته بل لغيره ، كالذين يغلب عليهم خوف الموت قبل التوبة ، أو خوف نقض التوبة ونكث العهد ، أو خوف ضعف القوة عن الوفاء بتمام حقوق الله تعالى ، أو خوف زوال رقة القلب وتبدلها بالقساوة ، أو خوف الميل عن الاستقامة أو خوف استيلاء العادة في اتباع الشهوات المألوفة ، أو خوف أن يكله الله تعالى إلى حسناته التي اتكل عليها وتعزز بها في عباد الله ، أو خوف البطر بكثرة نعم الله عليه ، أو خوف الاشتغال عن الله بغير الله ، أو خوف الاستدراج بتواتر النعم ، أو خوف انكشاف غوائل طاعاته حيث يبدو له من الله مالم يكن يحتسب ، أو خوف تبعات الناس عنده في الغيبة ، والخيانة ، والغش ، وإضمار السوء ، أو خوف مالا يدري أنه يحدث في بقية عمره ، أو خوف تعجيل العقوبة في الدنيا والافتضاح قبل الموت ، أو خوف الاغترار بزخارف الدنيا

أوخوف اطلاع الله على سريرته فى حال غفلته عنه ، أوخوف الختم له عند الموت بخاتمة السوء ، أوخوف السابقة التى سبقت له فى الأزل ، فهذه كلها مخاوف العارفين . ولكل واحد خصوص فائدة ، وهو سلوك سبيل الحذر عما يفضى إلى المخوف .

فمن يخاف استيلاء العادة عليه فيواظب على الفطام عن العادة . والذى يخاف من اطلاع الله تعالى على سريرته يشتغل بتطهير قلبه عن الوساوس . وهكذا إلى بقية الأقسام

وأغلب هذه المخاوف على اليقين خوف الخاتمة ، فإن الأمر فيه مخطر . وأعلى الأقسام وأدلها على كمال المعرفة خوف السابقة ، لأن الخاتمة تتبع السابقة ، وفرع يتفرع عنها بعد تخلل أسباب كثيرة . فالخاتمة تظهر ماسبق به القضاء فى أم الكتاب ، والخائف من الخاتمة بالإضافة إلى الخائف من السابقة ، كرجلين وقع الملك فى حقهما بتوقيع ، يحتمل أن يكون فيه حز الرقبة ، ويحتمل أن يكون فيه تسليم الوزارة إليه . ولم يصل التوقيع إليهما بعد فيرتبط قلب أحدهما بحالة وصول التوقيع ونشره ، وأنه عماذا يظهر ، ويرتبط قلب الآخر بحالة توقيع الملك وكيفيته ، وأنه ما الذى خطر له فى حال التوقيع من رحمة أوغضب . وهذا التفات إلى السبب ، فهو أعلى من الالتفات إلى ما هو فرع . فكذلك الالتفات إلى القضاء الأزلى الذى جرى بتوقيعه القلم ، أعلى من الالتفات إلى ما يظهر فى الأبد .

وإليه أشار النبى صلى الله عليه وسلم حيث كان على المنبر ، فقبض كفه اليمنى ثم قال[1] « هَذَا كِتَابُ اللهِ كَتَبَ فِيهِ أَهْلَ الْجَنَّةِ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ لَا يُزَادُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقَصُ » ثم قبض كفه اليسرى وقال « هَذَا كِتَابُ اللهِ كَتَبَ فِيهِ أَهْلَ النَّارِ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ لَا يُزَادُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقَصُ وَلَيَعْمَلَنَّ أَهْلُ السَّعَادَةِ بِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ حَتَّى يُقَالَ كَأَنَّهُمْ مِنْهُمْ بَلْ هُمْ هُمْ ثُمَّ يَسْتَنْقِذُهُمُ اللهُ قَبْلَ الْمَوْتِ وَلَوْ بِفُوَاقِ* نَاقَةٍ وَلَيَعْمَلَنَّ أَهْلُ الشَّقَاوَةِ بِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ حَتَّى يُقَالَ كَأَنَّهُمْ مِنْهُمْ بَلْ هُمْ هُمْ ثُمَّ يَسْتَخْرِجُهُمُ اللهُ قَبْلَ الْمَوْتِ وَلَوْ بِفُوَاقِ نَاقَةٍ السَّعِيدُ مَنْ سَعِدَ بِقَضَاءِ اللهِ وَالشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَ بِقَضَاءِ اللهِ وَالْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ » . وهذا كانقسام الخائفين إلى من يخاف معصيته وجنايته، إلى من يخاف

(١) حديث هذا كتاب من الله كتب فيه أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم ـ الحديث : الترمذى من حديث عبد الله ابن عمرو بن العاص وقال حسن صحيح غريب

* الفواق : هو ما بين الحلبتين من الراحة ، وتضم فاؤه وتفتح

الله تعالى نفسه لصفته وجلاله، وأوصافه التى تقتضى الهيبة لامحالة، فهذا أعلى رتبة، ولذلك يبقى خوفه وإن كان فى طاعة الصديقين وأما الآخر فهو فى عرصة الغرور. والآمن إن واظب على الطاعات فالخوف من المعصية خوف الصالحين ، والخوف من الله خوف الموحدين والصديقين ، وهو ثمرة المعرفة بالله تعالى . وكل من عرفه وعرف صفاته علم من صفاته ما هو جدير بأن يخاف من غير جناية . بل العاصى لو عرف الله حق المعرفة لخاف الله ولم يخف معصيته ولولا أنه مخوف فى نفسه لما سخره للمعصية ، ويسر له سبيلها ، ومهد له أسبابها، فإن تيسير أسباب المعصية إبعاد، ولم يسبق منه قبل المعصية معصية استحق بها أن يسخر للمعصية وتجرى عليه أسبابها ولا سبق قبل الطاعة وسيلة توسل بها من يسرت له الطاعات، ومهد له سبيل القربات . فالعاصى قد قضى عليه بالمعصية شاء أم أبى، وكذا المطيع . فالذى يرفع محمدا صلى الله عليه وسلم إلى أعلى عليين من غير وسيلة سبقت منه قبل وجوده ، ويضع أبا جهل فى أسفل سافلين من غير جناية سبقت منه قبل وجوده ، جدير بأن يخاف منه لصفة جلاله . فإن من أطاع الله أطاع بأن سلط عليه إرادة الطاعة ، وآتاه القدرة . وبعد خلق الإرادة الجازمة والقدرة التامة، يصير الفعل ضروريا . والذى عصى عصى لأنه سلط عليه إرادة قوية جازمة ، وآتاه الأسباب والقدرة ، فكان الفعل بعد الإرادة والقدرة ضروريا . فليت شعرى ما الذى أوجب إكرام هذا وتخصيصه بتسليط إرادة الطاعات عليه، وما الذى أوجب إهانة الآخر وإبعاده بتسليط دواعى المعصية عليه ؟ وكيف يحال ذلك على العبد ؟ وإذا كانت الحوالة ترجع إلى القضاء الأزلى من غير جناية ولا وسيلة ، فالخوف ممن يقضى بما يشاء ويحكم بما يريد حزم عند كل عاقل . ووراء هذا المعنى سر القدر الذى لا يجوز إفشاؤه

ولا يمكن تفهم الخوف منه فى صفاته جل جلاله إلا بمثال ، لولا إذن الشرع لم يستجرىء على ذكره ذو بصيرة . فقد جاء فى الخبر [1] أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام : ياداود ، خفنى كما تخاف السبع الضارى . فهذا المثال يفهمك حاصل المعنى ، وإن كان لا يقف بك على سببه . فإن الوقوف على سببه وقوف على سر القدر، ولا يكشف ذلك إلا لأهله

(١) حديث ان الله تعالى أوحى الى داود ياداود خفنى كما تخاف السبع الضارى: لم أجد له أصلا ولعل المصنف قصد بايراده انه من الاسرائيليات فانه عبر عنه بقوله جاء فى الخبر وكثيرا ما يعبر بذلك عن الاسرائيليات التى هى غير مرفوعة

والحاصل أن السبع يُخاف لا لجناية سبقت إليه منك، بل لصفته، وبطشه، وسطوته، وكبره، وهيبته، ولأنه يفعل ما يفعل ولا يبالي. فإن قتلك لم يرق قلبه ولا يتألم بقتلك، وإن خلاك لم يخلك شفقة عليك وإبقاء على روحك، بل أنت عنده أخس من أن يلتفت إليك حيا كنت أو ميتا. بل إهلاك ألف مثلك وإهلاك نملة عنده على وتيرة واحدة، إذ لا يقدح ذلك في عالم سبعيته، وما هو موصوف به من قدرته وسطوته. ولله المثل الأعلى. ولكن من عرفه عرف بالمشاهدة الباطنة التي هي أقوى وأوثق وأجلى من المشاهدة الظاهرة، أنه صادق في قوله هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي، وهؤلاء إلى النار ولا أبالي. ويكفيك من موجبات الهيبة والخوف المعرفة بالاستغناء وعدم المبالاة

الطبقة الثانية من الخائفين: أن يتمثل في أنفسهم ما هو المكروه، وذلك مثل سكرات الموت وشدته، أو سؤال منكر ونكير، أو عذاب القبر، أو هول المطلع، أو هيبة الموقف بين يدي الله تعالى، والحياء من كشف الستر، والسؤال عن النقير والقطمير، أو الخوف من الصراط وحدته وكيفية العبور عليه، أو الخوف من النار وأغلالها وأهوالها، أو الخوف من الحرمان عن الجنة دار النعيم والملك المقيم، وعن نقصان الدرجات، أو الخوف من الحجاب عن الله تعالى

وكل هذه الأسباب مكروهة في نفسها، فهي لا محالة مخوفة. وتختلف أحوال الخائفين فيها وأعلاها رتبة هو خوف الفراق والحجاب عن الله تعالى، وهو خوف العارفين. وما قبل ذلك خوف العاملين، والصالحين، والزاهدين، وكافة العالمين. ومن لم تكمل معرفته، ولم تنفتح بصيرته، لم يشعر بلذة الوصال، ولا بألم البعد والفراق. وإذا ذكر له أن العارف لا يخاف النار، وإنما يخاف الحجاب، وجد ذلك في باطنه منكرا وتعجب منه في نفسه، وربما أنكر لذة النظر إلى وجه الله الكريم؛ لولا منع الشرع إياه من إنكاره، فيكون اعترافه به باللسان عن ضرورة التقليد، وإلا فباطنه لا يصدق به لأنه لا يعرف إلا لذة البطن والفرج والعين بالنظر إلى الألوان والوجوه الحسان، وبالجملة كل لذة تشاركه فيها البهائم. فأما لذة العارفين فلا يدركها غيرهم، وتفصيل ذلك وشرحه حرام مع من ليس أهلا له ومن كان أهلا له استبصر بنفسه واستغنى عن أن يشرحه له غيره

فإلى هذه الأقسام يرجع خوف الخائفين، نسأل الله تعالى حسن التوفيق بكرمه

بيان
فضيلة الخوف والترغيب فيه

اعلم أن فضل الخوف تارة يعرف بالتأمل والاعتبار، وتارة بالآيات والأخبار
أما الاعتبار فسبيله أن فضيلة الشيء بقدر غنائه في الإفضاء إلى سعادة لقاء الله تعالى في الآخرة. إذ لا مقصود سوى السعادة، ولا سعادة للعبد إلا في لقاء مولاه والقرب منه. فكل ما أعان عليه فله فضيلة، وفضيلته بقدر غايته. وقد ظهر أنه لا وصول إلى سعادة لقاء الله في الآخرة إلا بتحصيل محبته، والأنس به في الدنيا. ولا تحصل المحبة إلا بالمعرفة. ولا تحصل المعرفة إلا بدوام الفكر. ولا يحصل الأنس إلا بالمحبة ودوام الذكر. ولا تتيسر المواظبة على الذكر والفكر إلا بانقطاع حب الدنيا من القلب ولا ينقطع ذلك إلا بترك لذات الدنيا وشهواتها، ولا يمكن ترك المشتهيات إلا بقمع الشهوات. ولا تنقمع الشهوة بشيء كما تنقمع بنار الخوف. فالخوف هو النار المحرقة للشهوات، فإن فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوات، وبقدر ما يكف عن المعاصي ويحث على الطاعات، ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف كما سبق. وكيف لا يكون الخوف ذا فضيلة وبه تحصل العفة، والورع، والتقوى، والمجاهدة، وهي الأعمال الفاضلة المحمودة التي تقرب إلى الله زلفى . وأما بطريق الاقتباس من الآيات والأخبار، فما ورد في فضيلة الخوف خارج عن الحصر، وناهيك دلالة على فضيلته جمع الله تعالى للخائفين الهدى، والرحمة، والعلم، والرضوان، وهي مجامع مقامات أهل الجنان. قال الله تعالى (هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ [1]) وقال تعالى (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ [2]) وصفهم بالعلم لخشيتهم. وقال عز وجل (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ [3]) . وكل ما دل على فضيلة العلم دل على فضيلة الخوف، لأن الخوف ثمرة العلم. ولذلك جاء في خبر موسى عليه أفضل الصلاة والسلام، وأما الخائفون فإن لهم الرفيق الأعلى لا يشاركون فيه. فانظر كيف أفردهم بمرافقة الرفيق الأعلى، وذلك لأنهم العلماء والعلماء لهم رتبة مرافقة الأنبياء، لأنهم ورثة الأنبياء. ومرافقة الرفيق الأعلى للأنبياء ومن يلحق بهم

(١) الأعراف : ١٥٤ (٢) فاطر : ٢٨ (٣) البينة : ٨

ولذلك [١] لما خُيِّر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرض موته بين البقاء فى الدنيا وبين القدوم على الله تعالى ، كان يقول « أَسْأَلُكَ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى » فإذن إن نظر إلى مثمره فهو العلم ، وإن نظر إلى ثمرته فالورع والتقوى ، ولا يخفى ماورد فى فضائلهما ، حتى أن العاقبة صارت موسومة بالتقوى ، مخصوصة بها ، كما صار الحمد مخصوصا بالله تعالى ، والصلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى يقال الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، والصلاة على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وآله أجمعين ، وقد خصص الله تعالى التقوى بالإضافة إلى نفسه ، فقال تعالى (لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ [١]) وإنما التقوى عبارة عن كف بمقتضى الخوف كما سبق . ولذلك قال تعالى (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ [٢]) ولذلك أوصى الله تعالى الأولين والآخرين بالتقوى ، فقال تعالى (وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ [٣]) وقال عز وجل (وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [٤]) فأمر بالخوف وأوجبه وشرطه في الإيمان . فلذلك لا يتصور أن ينفك مؤمن عن خوف وإن ضعف ، ويكون ضعف خوفه بحسب ضعف معرفته وإيمانه

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى فضيلة التقوى [٢] « إِذَا جَمَعَ اللهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ فَإِذَا هُمْ بِصَوْتٍ يُسْمِعُ أَقْصَاهُمْ كَمَا يُسْمِعُ أَدْنَاهُمْ فَيَقُولُ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قَدْ أَنْصَتُّ لَكُمْ مُنْذُ خَلَقْتُكُمْ إِلَى يَوْمِكُمْ هٰذَا فَأَنْصِتُوا إِلَيَّ الْيَوْمَ إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ تُرَدُّ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قَدْ جَعَلْتُ نَسَبًا وَجَعَلْتُمْ نَسَبًا فَوَضَعْتُمْ نَسَبِي وَرَفَعْتُمْ نَسَبَكُمْ قُلْتُ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ وَأَبَيْتُمْ إِلَّا أَنْ تَقُولُوا فُلَانُ بْنُ

---

(١) حديث لما خير فى مرض موته كان يقول أسألك الرفيق الأعلى : متفق عليه من حديث عائشة قالت كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول وهو صحيح انه لم يقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة ثم يخير فلما نزل به ورأسه فى حجرى غشى عليه ثم أفاق فأشخص بصره الى سقف البيت ثم قال اللهم الرفيق الأعلى فعلمت انه لا يختارنا وعرفت انه الحديث الذى كان يحدثنا وهو صحيح ـ الحديث :

(٢) حديث اذا جمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم ناداهم بصوت يسمعه اقصاهم كما يسمعه ادناهم فيقول يا أيها الناس انى قد انصت اليكم منذ خلقتكم الى يومكم هذا فأنصتوا الى اليوم انما هى اعمالكم ترد عليكم أيها الناس انى جعلت نسبا ـ الحديث : الطبرانى فى الأوسط والحاكم فى المستدرك بسند ضعيف والثعلبى فى التفسير مقتصرا على آخره انى جعلت نسبا ـ الحديث : من حديث ابى هريرة

---

(١) الحج : ٣٧ (٢) الحجرات : ١٣ (٣) النساء : ١٣١ (٤) آل عمران : ١٧٥

فُلَانٍ وَفُلَانٌ أَغْنَى مِنْ فُلَانٍ فَالْيَوْمَ أَضَعُ نَسَبَكُمْ وَأَرْفَعُ نَسَبِي أَيْنَ الْمُتَّقُونَ ؟ فَيُرْفَعُ لِلْقَوْمِ لِوَاءٌ فَيَتْبَعُ الْقَوْمُ لِوَاءَهُمْ إِلَى مَنَازِلِهِمْ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ »

وقال عليه الصلاة والسلام [١] « رَأْسُ الْحِكْمَةِ مَخَافَةُ اللهِ » وقال عليه الصلاة والسلام لابن مسعود [٢] « إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَلْقَانِي فَأَكْثِرْ مِنَ الْخَوْفِ بَعْدِي »

وقال الفضيل : من خاف الله دله الخوف على كل خير وقال الشبلى رحمه الله : ماخفت الله يوما إلا رأيت له بابا من الحكمة والعبرة ما رأيته قط . وقال يحي بن معاذ : مامن مؤمن يعمل سيئة إلا ويلحقها حسنتان : خوف العقاب ، ورجاء العفو ، كثعلب بين أسدين

وفى خبر موسى عليه الصلاة والسلام : وأما الورعون فإنه لايبقى أحد إلا ناقشته الحساب وفتشت عما فى يديه ، إلا الورعين ، فإنى استحى منهم ، وأجلهم أن أوقفهم للحساب . والورع والتقوى أسام اشتقت من معان شرطها الخوف فإن خلت عن الخوف لم تسم بهذه الأسامى وكذلك ماورد فى فضائل الذكر لايخفى ، وقد جعله الله تعالى مخصوصا بالخائفين . فقال (سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى [١]) وقال تعالى (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ [٢])

وقال صلى الله عليه وسلم « قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَعِزَّتِي [٣] لَا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ وَلَا أَجْمَعُ لَهُ أَمْنَيْنِ فَإِنْ أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَإِنْ خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وقال صلى الله عليه وسلم [٤] « مَنْ خَافَ اللهَ تَعَالَى خَافَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَمَنْ خَافَ غَيْرَ اللهِ خَوَّفَهُ اللهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ » وقال صلى الله عليه وسلم [٥] « أَتَمُّكُمْ عَقْلاً أَشَدُّكُمْ خَوْفاً لِلّهِ تَعَالَى وَأَحْسَنُكُمْ فِيمَا أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِهِ وَنَهَى عَنْهُ نَظَراً »

---

(١) حديث رأس الحكمة مخافة الله :ابو بكر بن لال الفقيه فى مكارم الأخلاق والبيهقى فى الشعب وضعفه من حديث ابن مسعود ورواه فى دلائل النبوة من حديث عقبة بن عامر ولا يصح ايضا

(٢) حديث ان اردت ان تلقانى فأكثر من الخوف بعدى قاله لابن مسعود :لم اقف له على اصل

(٣) حديث لا أجمع على عبدى خوفين ولا أجمع له أمنين :ابن حبان فى صحيحه والبيهقى فى الشعب من حديث أبى هريرة ورواه ابن المبارك فى الزهد وابن أبى الدنيا فى كتاب الخائفين من رواية الحسن مرسلا

(٤) حديث من خاف الله خافه كل شىء ـ الحديث : أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب الثواب من حديث أبى امامة بسند ضعيف جدا ورواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الخائفين باسناد ضعيف معضل وقد تقدم

(٥) حديث أتمكم عقلا أشدكم لله خوفا ـ الحديث : لم أقف له على أصل ولم يصح فى فضل العقل شىء

---

[١] الأعلى : ١٠ [٢] الرحمن : ٤٦

وقال يحيى بن معاذ رحمة الله عليه : مسكين ابن آدم ، لو خاف النار كما يخاف الفقر دخل الجنة . وقال ذو النون رحمه الله تعالى : من خاف الله تعالى ذاب قلبه ، واشتد لله حبه، وصح له لبه . وقال ذو النون أيضا : ينبغى أن يكون الخوف أبلغ من الرجاء ، فإذا غلب الرجاء تشوش القلب . وكان أبو الحسين الضرير يقول : علامة السعادة خوف الشقاوة ، لأن الخوف زمام بين الله تعالى و بين عبده ، فإن انقطع زمامه هلك مع الهالكين

وقيل ليحيى بن معاذ : من آمنُ الخلق غدا ؟ فقال : أشدهم خوفا اليوم . وقال سهل رحمه الله : لاتجد الخوف حتى تأكل الحلال . وقيل للحسن : ياأبا سعيد ، كيف نصنع ؟ نجالس أقواما يخوفوننا حتى تكاد قلوبنا تطير . فقال : والله إنك إن تخالط أقواما يخوفونك حتى يدركك أمن ، خير لك من أن تصحب أقواما يؤمنونك حتى يدركك الخوف . وقال أبو سليمان الدارانى رحمه الله : مافارق الخوف قلبا إلا خرب

وقالت [1] عائشة رضى الله عنها . قلت يارسول الله (الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ [1]) هو الرجل يسرق ويزنى؟ قال « لَا بَلِ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيُصَلِّي وَيَتَصَدَّقُ وَيَخَافُ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُ » . والتشديدات الواردة فى الأمن من مكر الله وعذابه لاتنحصر . وكل ذلك ثناء على الخوف ، لأن مذمة الشيء ثناء على ضده الذى ينفيه ، وضد الخوف الأمن ، كما أن ضد الرجاء اليأس . وكما دلت مذمة القنوط على فضيلة الرجاء ، فكذلك تدل مذمة الأمن على فضيلة الخوف المضاد له . بل نقول كل ماورد فى فضل الرجاء فهو دليل على فضل الخوف ، لأنهما متلازمان ، فإن كل من رجا محبوبا فلابد وأن يخاف فوته ، فإن كان لايخاف فوته فهو إذاً لايحبه فلا يكون بانتظاره راجيا

فالخوف والرجاء متلازمان ، يستحيل انفكاك أحدهما عن الآخر . نعم يجوز أن يغلب أحدهما على الآخر وهما مجتمعان ، ويجوز أن يشتغل القلب بأحدهما ولا يلتفت إلى الآخر فى الحال لغفلته عنه ، وهذا لأن من شرط الرجاء والخوف تعلقهما بما هو مشكوك فيه ، إذ المعلوم لا يرجى ولا يخاف

---

(١) حديث عائشة قلت يارسول الله ـ الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة ـ هو الرجل يسرق ويزنى قال لا ـ الحديث : الترمذى وابن ماجه والحاكم وقال صحيح الاسناد * قلت بل منقطع بين عائشة وبين عبد الرحمن بن سعد بن وهب قال الترمذى وروى عن عبد الرحمن بن سعد عن أبى حازم عن أبى هريرة

(١) المؤمنون ٦٠

فإذاً المحبوب الذى يجوز وجوده يجوز عدمه لامحالة . فتقدير وجوده يروح القلب وهو الرجاء ، وتقدير عدمه يوجع القلب وهو الخوف . والتقديران يتقابلان لامحالة إذا كان ذلك الأمر المنتظر مشكوكا فيه . نعم أحد طرفى الشك قد يترجح على الآخر بحضور بعض الأسباب ، ويسمى ذلك ظنا ، فيكون ذلك سبب غلبة أحدهما على الآخر . فإذا غلب على الظن وجود المحبوب ، قوى الرجاء وخفى الخوف بالإضافة إليه ، وكذا بالعكس ، وعلى كل حال فهما متلازمان . ولذلك قال تعالى (وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً [١]) وقال عز وجل (يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً [٢]) ولذلك عبّر العرب عن الخوف بالرجاء . فقال تعالى (مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً [٣]) أى لاتخافون . وكثيرا ماورد فى القرآن الرجاء بمعنى الخوف ، وذلك لتلازمهما ، إذ عادة العرب التعبير عن الشىء بما يلازمه

بل أقول كل ماورد فى فضل البكاء من خشية الله فهو إظهار لفضيلة الخشية ، فإن البكاء ثمرة الخشية . فقد قال تعالى (فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً [٤]) وقال تعالى (يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً [٥]) وقال عز وجل (أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ وَتَضْحَكُونَ وَلاَ تَبْكُونَ وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ [٦])

وقال صلى الله عليه وسلم [١] « مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ تَخْرُجُ مِنْ عَيْنَيْهِ دَمْعَةٌ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ رَأْسِ الذُّبَابِ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ تَعَالَى ثُمَّ تُصِيبُ شَيْئاً مِنْ حَرِّ وَجْهِهِ إِلَّا حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّارِ » وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « إِذَا اقْشَعَرَّ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ تَحَاتَّتْ عَنْهُ خَطَايَاهُ كَمَا يَتَحَاتُّ مِنَ الشَّجَرَةِ وَرَقُهَا » وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « لاَ يَلِجُ النَّارَ أَحَدٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللهِ تَعَالَى حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِى الضَّرْعِ »

---

(١) حديث مامن مؤمن يخرج من عينه دمعة وان كانت مثل راس الذباب ـ الحديث : الطبرانى والبيهقى فى الشعب من حديث ابن مسعود بسند ضعيف

(٢) حديث اذا اقشعر جلد المؤمن من خشية الله تحاتت عنه ذنوبه ـ الحديث : الطبرانى والبيهقى فيه من حديث العباس بسند ضعيف

(٣) حديث لايلج النار عبد بكى من خشية الله ـ الحديث : الترمذى وقال حسن صحيح والنسائى وابن ماجه من حديث أبى هريرة

---

(١) الأنبياء : ٩٠ (٢) السجدة : ١٦ (٣) نوح : ١٣ (٤) التوبة : ٨٣ (٥) الأسراء : ١٠٩ (٦) النجم : ٥٩ - ٦١

[١] وقال عقبة بن عامر. ماالنجاة يارسول الله ؟ قال « أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ » وقالت [٢] عائشة رضي الله عنها . قلت يارسول الله ،أيدخل أحد من أمتك الجنة بغير حساب ؟ قال « نَعَمْ مَنْ ذَكَرَ ذُنُوبَهُ فَبَكَى »

وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « مَامِنْ قَطْرَةٍ أَحَبُّ إِلَى اللهِ تَعَالَى مِنْ قَطْرَةِ دَمْعٍ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ تَعَالَى أَوْ قَطْرَةِ دَمٍ أُهْرِيقَتْ فِي سَبِيلِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى »

وقال صلى الله عليه وسلم [٤] « اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي عَيْنَيْنِ هَطَّالَتَيْنِ تَشْفِيَانِ بِذُرُوفِ الدَّمْعِ قَبْلَ أَنْ تَصِيرَ الدُّمُوعُ دَماً وَالْأَضْرَاسُ جَمْراً » وقال صلى الله عليه وسلم [٥] « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ يَوْمَ لَاظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ » وذكر منهم رجلا ذكر الله خاليا ففاضت عيناه

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : من استطاع أن يبكي فليبك ، ومن لم يستطع فليتباك . وكان محمد بن المنكدر رحمه الله إذا بكى مسح وجهه ولحيته بدموعه ويقول : بلغني أن النار لاتأكل موضعا مسته الدموع .

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما : ابكوا فإن لم تبكوا ، فتباكوا ، فوالذي نفسي بيده لو يعلم العلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته ، وصلى حتى ينكسر صلبه

(١) حديث قال عقبة بن عامر ماالنجاة يارسول الله قال أمسك عليك لسانك ـ الحديث : تقدم
(٢) حديث عائشة قلت يدخل الجنة أحدمن امتك بغير حساب قال نعم من ذكر ذنوبه فبكى : لم أقف له على أصل
(٣) حديث مامن قطرة أحب إلى الله من قطرة دمعة من خشية الله ـ الحديث : الترمذى من حديث أبى أمامة وقال حسن غريب وقدتقدم
(٤) حديث اللهم ارزقنى عينين هطالتين تشفيان بذروف الدمع ـ الحديث :الطبرانى فى الكبير وفى الدعاء وابو نعيم فى الحلية من حديث ابن عمر باسناد حسن ورواه الحسين المروزى فى زياداته على الزهد والرقائق لابن المبارك من رواية سالم بن عبد الله مرسلا دون ذكر الله وذكر الدارقطنى فى العلل ان من قال فيه عن ابيه وهم وانما هو عن سالم بن عبد الله مرسلا قال وسالم هذا يشبه ان يكون سالم بن عبد الله المحاربى وليس بابن عمر انتهى وماذكره من انه سالم المحاربى هو الذى يدل عليه كلام البخارى فى التاريخ ومسلم فى الكنى وابن أبى حاتم عن ابيه وابى احمد الحاكم فان الراوى له عن سالم عبد الله ابوسلمة وانما ذكروا له رواية عن سالم المحاربى والله اعلم نعم حكى ابن عساكر فى تاريخه الخلاف فى أن الذى يروى عن سالم المحاربى اوسالم بن عبد الله بن عمر
(٥) حديث سبعة يظلهم الله فى ظله ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبى هريرة وقد تقدم

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله : ما تغرغرت عين بمائها إلا لم يرهق وجه صاحبها قتر ولا ذلة يوم القيامة ، فإن سالت دموعه أطفأ الله بأول قطرة منها بحارا من النيران . ولو أن رجلا بكى في أمة ما عذبت تلك الأمة .

وقال أبو سليمان : البكاء من الخوف ، والرجاء والطرب من الشوق وقال كعب الأحبار رضي الله عنه : والذي نفسي بيده لأن أبكي من خشية الله حتى تسيل دموعي على وجنتي ، أحب إلي من أن أتصدق بجبل من ذهب . وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لأن أدمع دمعة من خشية الله أحب إلي من أن أتصدق بألف دينار

وروي [1] عن حنظلة قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوعظنا موعظة رقت لها القلوب ، وذرفت منها العيون ، وعرفنا أنفسنا : فرجعت إلى أهلي ، فدنت مني المرأة ، وجرى بيننا من حديث الدنيا ، فنسيت ما كنا عليه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذنا في الدنيا . ثم تذكرت ما كنا فيه ، فقلت في نفسي قد نافقتُ حيث تحول عني ما كنت فيه من الخوف والرقة . فخرجت وجعلت أنادي نافق حنظلة . فاستقبلني أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال : كلا لم ينافق حنظلة . فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أقول نافق حنظلة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كَلاَّ لَمْ يُنَافِقْ حَنْظَلَةُ » فقلت يا رسول الله ، كنا عندك فوعظتنا موعظة وجلت منها القلوب ، وذرفت منها العيون وعرفنا أنفسنا . فرجعت إلى أهلي ، فأخذنا في حديث الدنيا ، ونسيت ما كنا عندك عليه فقال صلى الله عليه وسلم « يَاحَنْظَلَةُ لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ أَبَداً عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلاَئِكَةُ فِي الطُّرُقِ وَعَلَى فِرَاشِكُمْ وَلَكِنْ يَاحَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً »

فإذاً : كل ما ورد في فضل الرجاء والبكاء ، وفضل التقوى والورع ، وفضل العلم ومذمة الأمن ، فهو دلالة على فضل الخوف ، لأن جملة ذلك متعلقة به ، إما تعلق السبب ، أو تعلق المسبب

---

(١) حديث حنظلة كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعظنا ـ الحديث : وفيه نافق حنظلة ـ الحديث : وفيه ولكن يا حنظلة ساعة وساعة مسلم مختصراً

بيان

أن الأفضل هو غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالهما

اعلم أن الأخبار فى فضل الخوف والرجاء قد كثرت . وربما ينظر الناظر إليهما، فيعتريه شك فى أن الأفضل أيهما . وقول القائل الخوف أفضل أم الرجاء سؤال فاسد ، يضاهى قول القائل الخبز أفضل أم الماء . وجوابه أن يقال الخبز أفضل للجائع ، والماء أفضل للعطشان ، فإن اجتمعا نظر إلى الأغلب ، فإن كان الجوع أغلب فالخبز أفضل ، وإن كان العطش أغلب فالماء أفضل ، وإن استويا فهما متساويان : وهذا لأن كل مايراد لمقصود ففضله يظهر بالإضافة إلى مقصوده لا إلى نفسه . والخوف والرجاء دواآن يداوى بهما القلوب ففضلهما بحسب الداء الموجود . فإن كان الغالب على القلب داء الأمن من مكر الله تعالى والاغترار به ، فالخوف أفضل . وإن كان الأغلب هو اليأس والقنوط من رحمة الله ، فالرجاء أفضل . وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية ، فالخوف أفضل

ويجوز أن يقال مطلقا الخوف أفضل ، على التأويل الذى يقال فيه الخبز أفضل من السكنجبين ، إذ يعالج بالخبز مرض الجوع ، وبالسكنجبين مرض الصفراء . ومرض الجوع أغلب وأكثر ، فالحاجة إلى الخبز أكثر ، فهو أفضل . فبهذا الاعتبار غلبة الخوف أفضل ، لأن المعاصى والاغترار على الخلق أغلب

وإن نظر إلى مطلع الخوف والرجاء ،فالرجاء أفضل، لأنه مستقى من بحر الرحمة، ومستقى الخوف من بحر الغضب . ومن لاحظ من صفات الله تعالى مايقتضى اللطف والرحمة كانت المحبة عليه أغلب،وليس وراء المحبة مقام،وأما الخوف فمستنده الالتفات إلى الصفات التى تقتضى العنف ، فلا تمازجه المحبة ممازجتها للرجاء

وعلى الجملة فما يراد لغيره ينبغى أن يستعمل فيه لفظ الأصلح لا لفظ الأفضل . فنقول أكثر الخلق الخوفُ لهم أصلح من الرجاء ، وذلك لأجل غلبة المعاصى . فأما التقى الذى ترك ظاهر الإثم وباطنه ، وخفيه وجليه ، فالأصح أن يعتدل خوفه ورجاؤه . ولذلك قيل لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا . وروي أن عليا كرم الله وجهه قال لبعض ولده:

خوف عمر رضى الله عنه

يابني ، خف الله خوفا ترى أنك لو أتيته بحسنات أهل الأرض لم يتقبلها منك ، وارج الله رجاء ترى أنك لو أتيته بسيئات أهل الأرض غفرها لك . ولذلك قال عمر رضي الله عنه لو نودي ليدخل النار كل الناس إلا رجلا واحدا ، لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل . ولو نودي ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلا واحدا ، لخشيت أن أكون أنا ذلك الرجل . وهذا عبارة عن غاية الخوف والرجاء، واعتدالهما مع الغلبة والاستيلاء. ولكن على سبيل التقاوم والتساوي . فمثل عمر رضى الله عنه ينبغى أن يستوي خوفه ورجاؤه . فأما العاصى إذا ظن أنه الرجل الذى استثني من الذين أمروا بدخول النار ، كان ذلك دليلا على اغتراره

فإن قلت : مثل عمر رضي الله عنه لا ينبغى أن يتساوى خوفه ورجاؤه ، بل ينبغى أن يغلب رجاؤه كما سبق فى أول كتاب الرجاء ، وأن قوته ينبغى أن تكون بحسب قوة أسبابه كما مثل بالزرع والبذر ، ومعلوم أن من بث البذر الصحيح فى أرض نقية . وواظب على تعهدها ، وجاء بشروط الزراعة جميعها ، غلب على قلبه رجاء الإدراك ، ولم يكن خوفه مساويا لرجائه . فهكذا ينبغى أن تكون أحوال المتقين

فاعلم أن من يأخذ المعارف من الألفاظ والأمثلة يكثر زلله . وذلك وإن أوردناه مثالا ، فليس يضاهى ما نحن فيه من كل وجه ، لأن سبب غلبة الرجاء العلم الحاصل بالتجربة إذ علم بالتجربة صحة الأرض ونقاءها ، وصحة البذر ، وصحة الهواء ، وقلة الصواعق المهلكة فى تلك البقاع وغيرها . وإنما مثال مسألتنا بذر لم يجرب جنسه ، وقد بث فى أرض غريبة لم يتعهدها الزارع ولم يختبرها ، وهى فى بلاد ليس يدرى أتكثر الصواعق فيها أم لا . فمثل هذا الزارع وإن أدى كنه مجهوده ، وجاء بكل مقدوره ، فلا يغلب رجاؤه على خوفه . والبذر فى مسألتنا هو الإيمان ، وشروط صحته دقيقة ، والأرض القلب ، وخفايا خبثه وصفائه من الشرك الخفى ، والنفاق ، والرياء ، وخفايا الأخلاق فيه غامضة ، والآفات هي الشهوات وزخارف الدنيا ، والتفات القلب إليها فى مستقبل الزمان وإن سلم فى الحال ، وذلك مما لا يتحقق ولا يعرف بالتجربة ، إذ قد يعرض من الأسباب ما لا يطاق مخالفته ، ولم يجرب مثله ، والصواعق هى أهوال سكرات الموت ، واضطراب الاعتقاد عنده ، وذلك مما لا يجرب مثله . ثم الحصاد والإدراك عند المنصرف من القيامة إلى الجنة ، وذلك لم يجرب

فمن عرف حقائق هذه الأمور ، فإن كان ضعيف القلب ، جبانا فى نفسه ، غلب خوفه على رجائه لامحالة ، كما سيحكى فى أحوال الخائفين من الصحابة والتابعين . وإن كان قوي القلب ، ثابت الجأش ، تام المعرفة ، استوى خوفه ورجاؤه . فأما أن يغلب رجاؤه فلا

ولقد كان عمر رضي الله عنه يبالغ فى تفتيش قلبه ، حتى كان يسأل حذيفة رضي الله عنه أنه هل يعرف به من آثار النفاق شيئا ، إذ كان قد خصه رسول الله صلى الله عليه وسلم[(١)] بعلم المنافقين . فمن ذا الذى يقدر على تطهير قلبه من خفايا النفاق والشرك الخفى ؟ وإن اعتقد نقاء قلبه عن ذلك فمن أين يأمن مكر الله تعالى بتلبيس حاله عليه ، وإخفاء عيبه عنه وإن وثق به فمن أين يثق ببقائه على ذلك إلى تمام حسن الخاتمة ؟

وقد قال صلى الله عليه وسلم[(٢)] « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ خَمْسِينَ سَنَةً حَتَّى لَا يَبْقَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إِلَّا شِبْرٌ » وفى رواية « إِلَّا قَدْرُ فُوَاقِ نَاقَةٍ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ » وقدر فوق الناقة لايحتمل عملا بالجوارح ، إنما هو بمقدار خاطر يختلج فى القلب عند الموت ، فيقتضى خاتمة السوء . فكيف يؤمن ذلك ؟

فإذاً أقصى غايات المؤمن أن يعتدل خوفه ورجاؤه . وغلبة الرجاء فى غالب الناس تكون مستندة للاغترار وقلة المعرفة . ولذلك جمع الله تعالى بينهما فى وصف من أثنى عليهم فقال تعالى (يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً[(١)]) وقال عز وجل (وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً[(٢)]) وأين مثل عمر رضي الله عنه ؟

فالخلق الموجودون فى هذا الزمان كلهم الأصلح لهم غلبة الخوف ، بشرط أن لا يخرجهم

---

(١) حديث ان حذيفة كان خصه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلم المنافقين : مسلم من حديث حذيفة فى أصحابى اثنا عشر منافقا تمامه لايدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط - الحديث :

(٢) حديث ان الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لايبقى بينه وبين الجنة الاشبر وفى رواية الاقدر فواق ناقة - الحديث : مسلم من حديث أبى هريرة ان الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له بعمل أهل النار وللبزار والطبرانى فى الأوسط سبعين سنة واسناده حسن وللشيخين فى اثناء حديث لابن مسعود ان أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع - الحديث : ليس فيه تقدير زمن العمل بخمسين سنة ولا ذكر شبر ولا فواق ناقة

---

(١) السجده : ١٦　(٢) الأنبياء : ٩٠

إلى اليأس وترك العمل ، وقطع الطمع من المغفرة ، فيكون ذلك سببا للتكاسل عن العمل ، وداعيا إلى الانهماك في المعاصي ، فإن ذلك قنوط وليس بخوف . إنما الخوف هو الذي يحث على العمل ، ويكدر جميع الشهوات ، ويزعج القلب عن الركون إلى الدنيا ، ويدعوه إلى التجافي عن دار الغرور ، فهو الخوف المحمود . دون حديث النفس الذي لا يؤثر في الكف والحث ، ودون اليأس الموجب للقنوط

وقد قال يحيى بن معاذ : من عبد الله تعالى بمحض الخوف غرق في بحار الأفكار ، ومن عبده بمحض الرجاء تاه في مفازة الاغترار ، ومن عبده بالخوف والرجاء استقام في محجة الادكار . وقال مكحول الدمشقي . من عبد الله بالخوف فهو حروري ، ومن عبده بالرجاء فهو مرجيء ، ومن عبده بالمحبة فهو زنديق ، ومن عبده بالخوف والرجاء والمحبة فهو موحد

فإذاً لابد من الجمع بين هذه الأمور ، وغلبة الخوف هو الأصلح ولكن قبل الإشراف على الموت . أما عند الموت فالأصلح غلبة الرجاء وحسن الظن ، لأن الخوف جار مجرى السوط الباعث على العمل ، وقد انقضى وقت العمل . فالمشرف على الموت لا يقدر على العمل ثم لا يطيق أسباب الخوف ، فإن ذلك يقطع نياط قلبه ، ويعين على تعجيل موته . وأما روح الرجاء فإنه يقوى قلبه ، ويحبب إليه ربه الذي إليه رجاؤه

ولا ينبغي أن يفارق أحد الدنيا إلا محباً لله تعالى ، ليكون محبا للقاء الله تعالى . فإن من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه . والرجاء تقارنه المحبة . فمن ارتجى كرمه فهو محبوب والمقصود من العلوم والأعمال كلها معرفة الله تعالى ، حتى تثمر المعرفة المحبة ، فإن المصير إليه ، والقدوم بالموت عليه . ومن قدم على محبوبه عظم سروره بقدر محبته ، ومن فارق محبوبه اشتدت محنته وعذابه

فمهما كان القلب الغالب عليه عند الموت حب الأهل ، والولد ، والمال ، والمسكن والعقار ، والرفقاء ، والأصحاب ، فهذا رجل محابه كلها في الدنيا ، فالدنيا جنته . إذ الجنة عبارة عن البقعة الجامعة لجميع المحاب . فموته خروج من الجنة ، وحيلولة بينه وبين ما يشتهيه . ولا يخفى حال من يحال بينه وبين ما يشتهيه

فإذا لم يكن له محبوب سوى الله تعالى ، وسوى ذكره ، ومعرفته ، والفكر فيه ، والدنيا

وعلائقها شاغلة له عن المحبوب ، فالدنيا إذاً سجنه ، لأن السجن عبارة عن البقعة المانعة للمحبوس عن الاسترواح إلى محابه ، فموته قدوم على محبوبه وخلاص من السجن . ولايخفى حال من أفلت من السجن ، وخلى بينه وبين محبوبه بلامانع ولا مكدر

فهذا أول مايلقاه كل من فارق الدنيا عقيب موته من الثواب والعقاب ، فضلاً عما أعده الله لعباده الصالحين ، مما لم تره عين ، ولم تسمعه أذن ، ولاخطر على قلب بشر ، وفضلا عما أعده الله تعالى للذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، ورضوابها ، واطمأنوا إليها ، من الأنكال ، والسلاسل . والأغلال ، وضروب الخزي والنكال ، فنسأل الله تعالى أن يتوفانا مسلمين ، ويلحقنا بالصالحين

ولا مطمع فى إجابة هذا الدعاء إلا باكتساب حب الله تعالى ، ولاسبيل إليه إلا بإخراج حب غيره من القلب ، وقطع العلائق عن كل ماسوى الله تعالى من جاه ، ومال ، ووطن فالأولى أن ندعو بما دعا به نبينا صلى الله عليه وسلم [1] « اَللَّهُمَّ ارْزُقْنِي حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ أَحَبَّكَ وَحُبَّ مَا يُقَرِّبُنِي إِلَى حُبِّكَ وَاجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ »

والغرض أن غلبة الرجاء عند الموت أصلح ، لأنه أجلب للمحبة . وغلبة الخوف قبل الموت أصلح ، لأنه أحرق لنار الشهوات ، وأقمع لمحبة الدنيا عن القلب . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [2] « لاَ يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلاَّ وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّهِ » وقال تعالى : أنا عند ظن عبدى بى ، فليظن بى ماشاء . ولما حضرت سليمان التيمى الوفاة ، قال لابنه : يابني ، حدثنى بالرخص ، واذكر لى الرجاء ، حتى ألقى الله على حسن الظن به . وكذلك لما حضرت الثورى الوفاة ، واشتد جزعه ، جمع العلماء حوله يرجّونه . وقال أحمد بن حنبل رضي الله عنه لابنه عند الموت : اذكر لى الأخبار التى فيها الرجاء وحسن الظن

والمقصود من ذلك كله أن يحبب الله تعالى إلى نفسه . ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام ، أن حببنى إلى عبادى . فقال بماذا؟ قال بأن تذكرلهم آلائى ونعمائى

فإذاً غاية السعادة أن يموت محبا لله تعالى ، وإنما تحصل المحبة بالمعرفة ، وبإخراج حب الدنيا

---

(١) حديث اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك ـ الحديث : الترمذى من حديث معاذ وتقدم فى الاذكار والدعوات

(٢) حديث لايموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه : مسلم من حديث جابر وقد تقدم

من القلب ، حتى تصير الدنيا كلها كالسجن المانع من المحبوب . ولذلك رأى بعض الصالحين أباسليمان الدارانى فى المنام وهو يطير ، فسأله ، فقال الآن أفلتّ . فلما أصبح سأل عن حاله ، فقيل له إنه مات البارحة

بيان

الدواء الذى به يستجلب حال الخوف

اعلم أن ماذكرناه فى دواء الصبر ، وشرحناه فى كتاب الصبر والشكر ، هو كاف فى هذا الغرض . لأن الصبر لا يمكن إلا بعد حصول الخوف والرجاء . لأن أول مقامات الدين اليقينُ الذى هو عبارة عن قوة الإيمان بالله تعالى ، وباليوم الآخر ، والجنة ، والنار . وهذا اليقين بالضرورة يهيّج الخوف من النار ، والرجاء للجنة . والرجاء والخوف يقويان على الصبر . فإن الجنة قد حفت بالمكاره ، فلا يصبر على تحملها إلا بقوة الرجاء ، والنار قد حفت بالشهوات فلا يصبر على قمعها إلا بقوة الخوف . ولذلك قال علي كرم الله وجهه . من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات ، ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات . ثم يؤدى مقام الصبر المستفاد من الخوف والرجاء إلى مقام المجاهدة ، والتجرد لذكر الله تعالى ، والفكر فيه على الدوام . ويؤدى دوام الذكر إلى الأنس ، ودوام الفكر إلى كمال المعرفة . ويؤدى كمال المعرفة والأنس إلى المحبة ، ويتبعها مقام الرضا ، والتوكل ، وسائر المقامات . فهذا هو الترتيب فى سلوك منازل الدين . وليس بعد أصل اليقين مقام سوى الخوف والرجاء ، ولا بعدهما مقام سوى الصبر ، وبه المجاهدة والتجرد لله ظاهرا وباطنا . ولا مقام بعد المجاهدة لمن فتح له الطريق إلا الهداية والمعرفة ، ولا مقام بعد المعرفة إلا المحبة والأنس ، ومن ضرورة المحبة الرضا بفعل المحبوب ، والثقة بعنايته ، وهو التوكل . فإذاً فيما ذكرناه فى علاج الصبر كفاية . ولكنا نفرد الخوف بكلام جملى فنقول :

الخوف يحصل بطريقين مختلفين . أحدهما أعلى من الآخر . ومثاله أن الصبى إذا كان فى بيت ، فدخل عليه سبع أوحية . ربما كان لا يخاف ، وربما مدّ اليد إلى الحية ليأخذها ويلعب بها

ولكن إذا كان معه أبوه وهو عاقل ، خاف من الحية وهرب منها . فإذا نظر الصبي إلى أبيه وهو ترتعد فرائصه ، ويحتال فى الهرب منها ، قام معه ، وغلب عليه الخوف ، ووافقه فى الهرب . فخوف الأب عن بصيرة ومعرفة بصفة الحية ، وسمها ، وخاصيتها ، وسطوة السبع ، وبطشه ، وقلة مبالاته . وأما خوف الابن فإيمان بمجرد التقليد، لأنه يحسن الظن بأبيه، ويعلم أنه لا يخاف إلا من سبب مخوف فى نفسه، فيعلم أن السبع مخوف، ولا يعرف وجهه

مقامات الخوف من الله تعالى

وإذا عرفت هذا المثال فاعلم أن الخوف من الله تعالى على مقامين . أحدهما الخوف من عذابه ، والثانى الخوف منه . فأما الخوف منه ، فهو خوف العلماء وأرباب القلوب العارفين من صفاته ما يقتضى الهيبة ، والخوف، والحذر ، المطلعين على سر قوله تعالى (وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ [١]) وقوله عز وجل (اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ [٢])

وأما الأول فهو خوف عموم الخلق ، وهو حاصل بأصل الإيمان بالجنة والنار، وكونهما جزاءين على الطاعة والمعصية ، وضعفه بسبب الغفلة وسبب ضعف الإيمان ، وإنما تزول الغفلة بالتذكير ، والوعظ ، وملازمة الفكر فى أهوال يوم القيامة، وأصناف العذاب فى الآخرة وتزول أيضا بالنظر إلى الخائفين ، ومجالستهم ، ومشاهدة أحوالهم . فإن فاتت المشاهدة فالسماع لا يخلو عن تأثير .

وأما الثانى وهو الأعلى ، فأن يكون الله هو المخوف ، أعنى أن يخاف البعد والحجاب عنه ، ويرجو القرب منه . قال ذو النون رحمه الله تعالى ، خوف النار عند خوف الفراق كقطرة قطرت فى بحر لجي . وهذه خشية العلماء حيث قال الله تعالى (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ [٣]) ولعموم المؤمنين أيضا حظ من هذه الخشية ؛ ولكن هو بمجرد التقليد ، يضاهى خوف الصبي من الحية تقليدا لأبيه ، وذلك لا يستند إلى بصيرة ،فلاجرم يضعف ويزول على قرب . حتى أن الصبي ربما يرى المعزم يقدم على أخذ الحية ، فينظر إليه ويغترّ به ، فيتجرأ على أخذها تقليدا له ، كما احترز من أخذها تقليدا لأبيه . والعقائد التقليدية ضعيفة فى الغالب إلا إذا قويت بمشاهدة أسبابها المؤكدة لها على الدوام، وبالمواظبة على مقتضاها فى تكثير الطاعات واجتناب المعاصي مدة طويلة على الاستمرار

(١) آل عمران ٢٨ (٢) آل عمران : ١٠٢ (٣) فاطر : ٢٨

فإذاً من ارتقى إلى ذروة المعرفة ، وعرف الله تعالى ، خافه بالضرورة ، فلا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف . كما أن من عرف السبع ، ورأى نفسه واقعا فى مخالبه ، لا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف إلى قلبه ، بل يخافه بالضرورة شاء أم أبى . ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام . خفنى كما تخاف السبع الضارى . ولا حيلة فى جلب الخوف من السبع الضارى إلا معرفة السبع ، ومعرفة الوقوع فى مخالبه ، فلا يحتاج إلى حيلة سواه . فمن عرف الله تعالى عرف أنه يفعل مايشاء ولا يبالى ، ويحكم مايريد ولا يخاف ، قرب الملائكة من غير وسيلة سابقة ، وأبعد إبليس من غير جريمة سالفة . بل صفته ماترجمه قوله تعالى . هؤلاء فى الجنة ولا أبالى ، وهؤلاء فى النار ولا أبالى . وإن خطر ببالك أنه لا يعاقب إلا على معصية ولا يثيب إلا على طاعة ، فتأمل أنه لم يمد المطيع بأسباب الطاعة حتى يطيع شاء أم أبى ولم يمد العاصى بدواعى المعصية حتى يعصى شاء أم أبى ، فإنه مهما خلق الغفلة ، والشهوة ، والقدرة على قضاء الشهوة ، كان الفعل واقعا بها بالضرورة فإن كان أبعده لأنه عصاه ، فلم حمله على المعصية . هل ذلك لمعصية سابقة حتى يتسلسل إلى غير نهاية ، أو يقف لا محالة على أول لا علة له من جهة العبد ، بل قضى عليه فى الأزل

محاجة آدم وموسى عليهما السلام

وعن هذا المعنى عبر صلى الله عليه وسلم إذ قال[1] « احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا الصَّلاةُ وَالسَّلامُ عِنْدَ رَبِّهِمَا فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلامُ قَالَ مُوسَى أَنْتَ آدَمُ الَّذِى خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ وَأَسْجَدَ لَكَ مَلائِكَتَهُ وَأَسْكَنَكَ جَنَّتَهُ ثُمَّ أَهْبَطْتَ النَّاسَ بِخَطِيئَتِكَ إِلَى الأَرْضِ فَقَالَ آدَمُ أَنْتَ مُوسَى الَّذِى اصْطَفَاكَ اللهُ بِرِسَالاتِهِ وَبِكَلامِهِ وَأَعْطَاكَ الأَلْوَاحَ فِيهَا تِبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ وَقَرَّبَكَ نَجِيًّا فَبِكَمْ وَجَدْتَ اللهَ كَتَبَ التَّوْرَاةَ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ قَالَ مُوسَى بِأَرْبَعِينَ عَامًا قَالَ آدَمُ فَهَلْ وَجَدْتَ فِيهَا وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى قَالَ نَعَمْ قَالَ أَفَتَلُومُنِى عَلَى أَنْ عَمِلْتُ عَمَلاً كَتَبَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أَعْمَلَهُ وَقَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِى بِأَرْبَعِينَ سَنَةً » قال صلى الله عليه وسلم « فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى »

فمن عرف السبب فى هذا الأمر معرفة صادرة عن نور الهداية ، فهو من خصوص العارفين المطلعين على سر القدر . ومن سمع هذا فآمن به وصدق بمجرد السماع ، فهو من عموم

(١) حديث احتج آدم وموسى عند ربهما فحج آدم موسى ـ الحديث : مسلم من حديث أبى هريرة وهو متفق عليه بألفاظ أخر

المؤمنين . ويحصل لكل واحد من الفريقين خوف ، فإن كل عبد فهو واقع فى قبضة القدرة ، وقوع الصبي الضعيف فى مخالب السبع . والسبع قد يغفل بالاتفاق فيخليه ، وقد يهجم عليه فيفترسه ، وذلك بحسب مايتفق . ولذلك الاتفاق أسباب مرتبة بقدر معلوم ، ولكن إذا أضيف إلى من لايعرفه سمي اتفاقا ، وإن أضيف إلى علم الله لم يجز أن يسمى اتفاقا . والواقع فى مخالب السبع لوكملت معرفته لكان لايخاف السبع ، لأن السبع مسخر إن سلط عليه الجوع افترس ، وإن سلط عليه الغفلة خلى وترك . فإنما يخاف خالق السبع وخالق صفاته . فلست أقول مثال الخوف من الله تعالى الخوف من السبع ، بل إذا كشف الغطاء علم أن الخوف من السبع هو عين الخوف من الله تعالى ، لأن المهلك بواسطة السبع هو الله

فاعلم أن سباع الآخرة مثل سباع الدنيا ، وأن الله تعالى خلق أسباب العذاب وأسباب الثواب ، وخلق لكل واحد أهلا ، يسوقه القدر المتفرع عن القضاء الجزم الأزلي إلى ماخلق له فخلق الجنة وخلق لها أهلا سخروا لأسبابها شاؤا أم أبوا ، وخلق النار وخلق لها أهلا سخروا لأسبابها شاؤا أم أبوا . فلا يرى أحد نفسه فى ملتطم أمواج القدر إلاغلبه الخوف بالضرورة . فهذه مخاوف العارفين بسر القدر . فمن قعدبه القصور عن الارتفاع إلى مقام الاستبصار ، فسبيله أن يعالج نفسه بسماع الأخبار والآثار ، فيطالع أحوال الخائفين العارفين وأقوالهم ، وينسب عقولهم ومناصبهم إلى مناصب الراجين المغرورين ، فلا يتمارى فى أن الاقتداء بهم أولى لأنهم الأنبياء ، والأولياء ، والعلماء . وأما الآمنون فهم الفراعنة ، والجهال والأغبياء . أما رسولنا صلى الله عليه وسلم [1] فهو سيد الأولين والآخرين ، [2] وكان أشد الناس خوفا ، حتى روي [3] أنه كان يصلي على طفل ، ففى رواية أنه سمع فى دعائه يقول « اللَّهُمَّ قِهِ عَذَابَ الْقَبْرِ وَعَذَابَ النَّارِ » وفى رواية ثانية [4] أنه سمع قائلا يقول : هنيئالك

---

(١) حديث كان سيد الأولين والآخرين : مسلم من حديث أبى هريرة أناسيد ولدآدم ولافخر ـ الحديث :

(٢) حديث كان اشد الناس خوفا : تقدم قبل هذا بخمسة وعشرين حديثا قوله والله انى لأخشاكم لله وقوله والله انى لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية

(٣) حديث انه كان يصلى على طفل فسمع فى دعائه يقول اللهم قه عذاب القبر وعذاب النار : الطبرانى فى الأوسط من حديث انس أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى على صبي اوصبية وقال لوكان احد نجا من ضمة القبر لنجا هذا الصبي واختلف فى اسناده فرواه فى الكبير من حديث ابى ايوب ان صبيا دفن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لوأفلت احد من ضمة القبر لأفلت هذا الصبي

(٤) حديث انه سمع قائلة تقول لطفل مات هنيئالك عصفور من عصافير الجنة فغضب وقال مايدريك ـ الحديث :

عصفور من عصافير الجنة ، فغضب وقال « مَا يُدْرِيكَ أَنَّهُ كَذَلِكَ وَاللهِ إِنِّي رَسُولُ اللهِ وَمَا أَدْرِي مَا يُصْنَعُ بِي إِنَّ اللهَ خَلَقَ الْجَنَّةَ وَخَلَقَ لَهَا أَهْلاً لاَ يُزَادُ فِيهِمْ وَلاَ يُنْقَصُ مِنْهُمْ » وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال ذلك أيضا على جنازة [١] عثمان بن مظعون ، وكان من المهاجرين الأولين ، لما قالت أم سلمة هنيئا لك الجنة . فكانت تقول أم سلمة بعد ذلك والله لا أزكى أحدا بعد عثمان

وقال محمد بن خولة الحنفية : والله لا أزكى أحدا غير رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أبي الذى ولدنى . قال فثارت الشيعة عليه ، فأخذ يذكر من فضائل علي ومناقبه .

وروي فى حديث آخر ، عن [٢] رجل من أهل الصفة استشهد ، فقالت أمه هنيئا لك عصفور من عصافير الجنة ، هاجرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقتلت فى سبيل الله . فقال صلى الله عليه وسلم « وَمَا يُدْرِيكِ لَعَلَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ بِمَا لاَ يَنْفَعُهُ وَيَمْنَعُ مَا لاَ يَضُرُّهُ » وفى حديث آخر ، أنه [٣] دخل صلى الله عليه وسلم على بعض أصحابه وهو عليل ، فسمع امرأة تقول : هنيئا لك الجنة . فقال صلى الله عليه وسلم « مَنْ هَذِهِ الْمُتَأَلِّيَةُ عَلَى اللهِ تَعَالَى ؟ » فقال المريض : هي أمي يارسول الله . فقال « وَمَا يُدْرِيكِ لَعَلَّ فُلاَنًا كَانَ يَتَكَلَّمُ بِمَا لاَ يَعْنِيهِ وَيَبْخَلُ بِمَا لاَ يُغْنِيهِ »

وكيف لا يخاف المؤمنون كلهم وهو صلى الله عليه وسلم يقول [٤] « شَيَّبَتْنِي هُودٌ

مسلم من حديث عائشة قالت توفى صبى فقلت طوبى له عصفور من عصافير الجنة ـ الحديث : وليس فيه فغضب وقد تقدم

(١) حديث لما توفى عثمان بن مظعون قالت ام سلمة هنيئا لك الجنة ـ الحديث : البخارى من حديث ام العلاء الانصارية وهى القائلة رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتى عليك لقد أكرمك الله قال وما يدريك الحديث : وورد ان التى قالت ذلك ام خارجة بن زيد ولم اجد فيه ذكر ام سلمة

(٢) حديث ان رجلا من اهل الصفة استشهد فقالت امه هنيئا له عصفور من عصافير الجنة ـ الحديث : أبو يعلى من حديث أنس بسند ضعيف بلفظ ان أمه قالت هنيئا لك يابنى الجنة ورواه البيهقى فى الشعب الا أنه قال فقالت أمه هنيئا لك الشهادة وهو عند الترمذى الا أنه قال ان رجلا قال له ابشر بالجنة وقد تقدم فى ذم المال والبخل مع اختلاف

(٣) حديث دخل على بعض أصحابه وهو عليل فسمع امرأة تقول هنيئا له الجنة ـ الحديث : تقدم أيضا

(٤) حديث شيبتنى هود وأخواتها ـ الحديث : الترمذى وحسنه والحاكم وصححه من حديث ابن عباس وهو فى الشمائل من حديث أبى جحيفة وقد تقدم فى كتاب السماع

وَأَخَوَاتُهَا سُورَةُ الْوَاقِعَةِ وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ » فقال العلماء لعل ذاك لما فى سورة هود من الإبعاد ، كقوله تعالى (أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ [١]) (أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ [٢]) (أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ [٣]) مع علمه صلى الله عليه وسلم بأنه لو شاء الله ما أشركوا ، إذ لو شاء لآتى كل نفس هداها

وفى سورة الواقعة (لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ [٤]) أى جف القلم بما هو كائن ، وتمت السابقة ، حتي نزلت الواقعة ، إما خافضة قوما كانوا مرفوعين فى الدنيا ، وإما رافعة قوما كانوا مخفوضين فى الدنيا

وفى سورة التكوير أهوال يوم القيامة وانكشاف الخاتمة ، وهو قوله تعالى (وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ [٥])

وفى عم يتساءلون (يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ [٦]) الآية ، وقوله تعالى (لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا [٧])

تدبر القرآن يخوف العبد من ربه

والقرءان من أوله إلى آخره مخاوف لمن قرأه بتدبر . ولو لم يكن فيه إلا قوله تعالى (وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى [٨]) لكان كافيا ، إذ علق المغفرة على أربعة شروط يعجز العبد عن آحادها . وأشد منه قوله تعالى (فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ [٩]) وقوله تعالى (لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ [١٠]) وقوله تعالى (سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ [١١]) وقوله عز وجل (أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ [١٢]) الآية وقوله (وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ [١٣]) وقوله تعالى (يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا [١٤]) الآيتين وقوله تعالى (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا [١٥]) الآية وقوله (اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ [١٦]) الآية وقوله (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ [١٧]) الآية وقوله (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ [١٨]) الآيتين وقوله تعالى (وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ [١٩])

---

(١) هود : ٦٠ (٢) هود : ٦٨ (٣) هود : ٩٥ (٤) الواقعة : ٢ ، ٣ (٥) التكوير : ١٢ - ١٤
(٦) النبأ : ٤٠ (٧) النبأ : ٣٨ (٨) طه : ٨٢ (٩) القصص : ٦٧ (١٠) الأحزاب : ٨ (١١) الرحمن : ٣١
(١٢) الأعراف : ٩٩ (١٣) هود : ١٠٢ (١٤) مريم : ٨٥ (١٥) مريم : ٧١ (١٦) فصلت : ٤٠
(١٧) الشورى : ٢٠ (١٨) الزلزال : ٧ (١٩) الفرقان : ٢٣

الآية ،وكذلك قوله تعالى (وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ [١]) إلى آخر السورة ، فهذه أربعة شروط للخلاص من الخسران

وإنما كان خوف الأنبياء مع مافاض عليهم من النعم ؛ لأنهم لم يأمنوا مكر الله تعالى ، ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ، حتى روي [١] أن النبي وجبريل عليهما الصلاة والسلام بكيا خوفا من الله تعالى ، فأوحى الله إليهما لم تبكيان وقد أمنتكما ؟ فقالا : ومن يأمن مكرك ! وكأنهما إذ علما أن الله هو علام الغيوب ، وأنه لاوقوف لهما على غاية الأمور لم يأمنا أن يكون قوله قد أمنتكما ابتلاء وامتحانا لهما ، ومكرا بهما ، حتى إن سكن خوفهما ظهر أنهما قد أمنا من المكر ، وما وفيا بقولهما

كما أن ابراهيم صلى الله عليه وسلم لما وضع فى المنجنيق ، قال حسبي الله . وكانت هذه من الدعوات العظام ، فامتحن وعورض بجبريل فى الهواء ، حتى قال ألك حاجة ؟ فقال أما إليك فلا . فكان ذلك وفاء بحقيقة قوله حسبي الله . فأخبر الله تعالى عنه فقال (وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى [٢]) أي بموجب قوله حسبي الله

وبمثل هذا أخبر عن موسى صلى الله عليه وسلم حيث قال (إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى [٣]) ومع هذا لما ألقى السحرة سحرهم أوجس موسى فى نفسه خيفة ؛ إذ لم يأمن مكر الله ،والتبس الأمر عليه حتى جدد عليه الأمن وقيل (لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى [٤])

ولما ضعفت شوكة المسلمين [٢] يوم بدر ، قال صلى الله عليه وسلم « اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ لَمْ يَبْقَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ يَعْبُدُكَ »فقال أبو بكر رضي الله عنه : دع عنك مناشدتك ربك ، فإنه واف لك بما وعدك . فكان مقام الصديق رضي الله عنه مقام الثقة بوعد الله ، وكان مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم مقام الخوف من مكر الله ، وهو أتم

---

(١) حديث انه وجبريل صلى الله عليهما وسلم بكيا خوفا من الله عز وجل فأوحى الله اليهما لم تبكيان ـ الحديث: ابن شاهين فى شرح السنة من حديث عمر ورويناه فى مجلس من أمالى أبى سعيد النقاش بسند ضعيف

(٢) حديث قال يوم بدر اللهم ان تهلك هذه العصابة لم يبق على وجه الأرض أحد يعبدك: البخارى من حديث ابن عباس بلفظ اللهم ان شئت لم تعبد بعد اليوم ـ الحديث :

---

[١] العصر : ١ ، ٢ [٢] النجم : ٣٧ [٣] طه : ٤٥ ، ٤٦ [٤] طه : ٦٨

، لأنه لا يصدر إلا عن كمال المعرفة بأسرار الله تعالى وخفايا أفعاله ، ومعانى صفاته التى يعبر عن بعض مايصدر عنها بالمكر . وما لأحد من البشر الوقوف على كنه صفات الله تعالى .

ومن عرف حقيقة المعرفة ، وقصور معرفته عن الإحاطة بكنه الأمور ، عظم خوفه لامحالة ولذلك قال المسيح صلى الله عليه وسلم ، لما قيل له (أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ [1]) وقال (إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ [2]) الآية ، فوض الأمر إلى المشيئة ، وأخرج نفسه بالكلية من البين ، لعلمه بأنه ليس له من الأمر شيء ، وأن الأمور مرتبطة بالمشيئة ارتباطا يخرج عن حد المعقولات والمألوفات ، فلا يمكن الحكم عليها بقياس ، ولا حدس ؛ ولا حسبان ، فضلا عن التحقيق والاستيقان

وهذا هو الذى قطع قلوب العارفين ، إذ الطامة الكبرى هى ارتباط أمرك بمشيئة من لايبالى بك إن أهلكك ، فقد أهلك أمثالك ممن لايحصى ، ولم يزل فى الدنيا يعذبهم بأنواع الآلام والأمراض ، ويمرض مع ذلك قلوبهم بالكفر والنفاق ، ثم يخلد العقاب عليهم أبد الآباد ، ثم يخبر عنه ويقول (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ [3]) وقال تعالى (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ [4]) الآية

فكيف لايخاف ماحق من القول فى الأزل ، ولا يطمع فى تداركه : ولو كان الأمر آنفا لكانت الأطماع تمتد إلى حيلة فيه ، ولكن ليس إلا التسليم فيه ، واستقراء خفي السابقة من جلى الأسباب الظاهرة على القلب والجوارح . فمن يسرت له أسباب الشر ، وحيل بينه وبين أسباب الخير ، وأحكمت علاقته من الدنيا ، فكأنه كشف له على التحقيق سر السابقة التى سبقت له بالشقاوة . إذ كل ميسر لما خلق له . وإن كانت الخيرات كلها ميسرة ، والقلب بالكلية عن الدنيا منقطعا ، وبظاهره وباطنه على الله مقبلا ، كان هذا يقتضى تخفيف الخوف ، لو كان الدوام على ذلك موثوقا به . ولكن خطر الخاتمة وعسر الثبات يزيد نيران

(١) المائدة : ١١٦ (٢) المائدة : ١١٨ (٣) السجدة : ١٣ (٤) هود : ١١٩

الخوف إشعالا ، ولا يمكنها من الانطفاء . وكيف يؤمن تغير الحال وقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن ، وأن القلب أشد تقلبا من القدر في غليانها . وقد قال مقلب القلوب عز وجل (إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ [١])

فأجهل الناس من أمنه وهو ينادى بالتحذير من الأمن . ولولا أن الله لطف بعباده العارفين ، إذ روح قلوبهم بروح الرجاء ، لاحترقت قلوبهم من نار الخوف . فأسباب الرجاء رحمة لخواص الله ، وأسباب الغفلة رحمة على عوام الخلق من وجه ، إذ لو انكشف الغطاء لزهقت النفوس ، وتقطعت القلوب ، من خوف مقلب القلوب . قال بعض العارفين : لو حالت بيني وبين من عرفته بالتوحيد خمسين سنة اسطوانة ، فمات ، لم أقطع له بالتوحيد لأني لا أدرى ماظهر له من التقلب . وقال بعضهم : لو كانت الشهادة على باب الدار ، والموت على الإسلام عند باب الحجرة ؛ لاخترت الموت على الإسلام ، لأني لا أدرى مايعرض لقلبي بين باب الحجرة وباب الدار

وكان أبو الدرداء يحلف بالله ماأحد أمن على إيمانه أن يسلبه عند الموت إلا سلبه . وكان سهل يقول : خوف الصديقين من سوء الخاتمة عند كل خطرة ، وعند كل حركة . وهم الذين وصفهم الله تعالى إذ قال (وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ [٢])

ولما احتضر سفيان جعل يبكي ويجزع ، فقيل له : ياأبا عبد الله عليك بالرجاء ، فإن عفو الله أعظم من ذنوبك . فقال : أو على ذنوبي أبكي ؟ لو علمت أني أموت على التوحيد لم أبال بأن ألقى الله بأمثال الجبال من الخطايا

وحكي عن بعض الخائفين أنه أوصى بعض إخوانه فقال : إذا حضرتني الوفاة ، فاقعد عند رأسي ، فإن رأيتني مت على التوحيد ، فخذ جميع ماأملكه ، فاشترى به لوزا وسكرا ، وانثره على صبيان أهل البلد ، وقل هذا عرس المنفلت . وإن مت على غير التوحيد . فأعلم الناس بذلك حتى لا يغتروا بشهود جنازتي ، ليحضر جنازتي من أحب على بصيرة ، لئلا يلحقني الرياء بعد الوفاة . قال وبم أعلم ذلك ؟ فذكر له علامة . فرأى علامة التوحيد عند موته ، فاشترى السكر واللوز وفرقه

---

(١) المعارج : ٢٨ (٢) المؤمنون : ٦٠

وكان سهل يقول : المريد يخاف أن يبتلى بالمعاصى ، والعارف يخاف أن يبتلى بالكفر وكان أبو يزيد يقول : إذا توجهت إلى المسجد كأن فى وسطى زنارا ، أخاف أن يذهب بى إلى البيعة ، وبيت النار ، حتى أدخل المسجد ، فينقطع عنى الزنار ، فهذا لى فى كل يوم خمس مرات

وروي عن المسيح عليه الصلاة والسلام أنه قال : يامعشر الحواريين ، أنتم تخافون المعاصى ونحن معاشر الأنبياء نخاف الكفر . وروي فى أخبار الأنبياء ، أن نبيا شكا إلى الله تعالى الجوع ، والقمل ، والعري سنين . وكان لباسه الصوف . فأوحى الله تعالى إليه : عبدى ، أما رضيت أن عصمت قلبك أن تكفر بى ، حتى تسألنى الدنيا ؟ فأخذ التراب فوضعه على رأسه وقال : بلى قد رضيت يارب ، فاعصمنى من الكفر

فإذا كان خوف العارفين مع رسوخ أقدامهم وقوة إيمانهم من سوء الخاتمة ، فكيف لايخافه الضعفاء !

أسباب سوء الخاتمة

ولسوء الخاتمة أسباب تتقدم على الموت ، مثل البدعة ، والنفاق ، والكبر ، وجملة من الصفات المذمومة ، ولذلك اشتد خوف الصحابة من النفاق ، حتى قال الحسن : لو أعلم أنى برىء من النفاق كان أحب إلىّ مما طلعت عليه الشمس . وما عنوا به النفاق الذى هو ضد أصل الإيمان ، بل المراد به مايجتمع مع أصل الإيمان ، فيكون مسلما منافقا ، وله علامات كثيرة . قال صلى الله عليه وسلم [1] « أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ فَهُوَ مُنَافِقٌ خَالِصٌ وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ وَإِنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ فَفِيهِ شُعْبَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ » وفى لفظ آخر « وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ »

وقد فسر الصحابة والتابعون النفاق بتفاسير لايخلو عن شيء منه إلا صديق ، إذ قال الحسن : إن من النفاق اختلاف السر والعلانية ، واختلاف اللسان والقلب ، واختلاف المدخل والمخرج . ومن الذى يخلو عن هذه المعانى ؟ بل صارت هذه الأمور مألوفة بين

---

(١) حديث أربع من كن فيه فهو منافق ـ الحديث : متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو وقد تقدم فى قواعد العقائد

الناس معتادة ، ونسي كونها منكرا بالكلية . بل جرى ذلك على قرب عهد بزمان النبوة ، فكيف الظن بزماننا ؟ حتى قال [١] حذيفة رضي الله عنه . إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيصير بها منافقا ، إني لأسمعها من أحدكم في اليوم عشر مرات . وكان [٢] أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : إنكم لتعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر ، كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر

وقال بعضهم : علامة النفاق أن تكره من الناس ما تأتي مثله، وأن تحب على شيء من الجور وأن تبغض على شيء من الحق . وقيل : من النفاق أنه إذا مدح بشيء ليس فيه أعجبه ذلك

وقال [٣] رجل لابن عمر رحمه الله : إنا ندخل على هؤلاء الأمراء فنصدقهم فيما يقولون فإذا خرجنا تكلمنا فيهم . فقال كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم

وروي أنه [٤] سمع رجلا يذم الحجاج ويقع فيه ، فقال أرأيت لو كان الحجاج حاضرا، أكنت تتكلم بما تكلمت به؟ قال لا . قال كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم

وأشد من ذلك ما روي [٥] أن نفرا قعدوا على باب حذيفة ينتظرونه ، فكانوا يتكلمون في شيء من شأنه . فلما خرج عليهم سكتوا حياء منه . فقال تكلموا فيما كنتم تقولون . فسكتوا . فقال كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهذا حذيفة كان قد خص بعلم المنافقين وأسباب النفاق ، وكان يقول إنه يأتي على القلب ساعة يمتلىء بالإيمان حتى لا يكون للنفاق فيه مغرز إبرة ، ويأتي عليه ساعة

---

(١) حديث حذيفة ان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصير بها منافقا الحديث : أحمد من حديث حذيفة وقد تقدم في قواعد العقائد

(٢) حديث أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم انكم لتعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر الحديث : البخاري من حديث أنس وأحمد والبزار من حديث أبي سعيد وأحمد والحاكم من حديث عبادة بن قرص وصحح اسناده وتقدم في التوبة

(٣) حديث قال رجل لابن عمر انا ندخل على هؤلاء الأمراء فنصدقهم بما يقولون ـ الحديث : رواه أحمد والطبراني وقد تقدم في قواعد العقائد

(٤) حديث سمع ابن عمر رجلا يذم الحجاج ويقع فيه فقال أرأيت لو كان الحجاج حاضرا ـ الحديث : تقدم هناك ولم أجد فيه ذكر الحجاج

(٥) حديث ان نفرا قعدوا عند باب حذيفة ينتظرونه فكانوا يتكلمون في شيء من شأنه فلما خرج سكتوا الحديث : لم أجد له أصلا

يمتلىء بالنفاق حتى لا يكون للإيمان فيه مغرز إبرة

فقد عرفت بهذا أن خوف العارفين من سوء الخاتمة، وأن سببه أمور تتقدمه، منها البدع، ومنها المعاصي، ومنها النفاق. ومتى يخلو العبد عن شيء من جملة ذلك؟ وإن ظن أنه قد خلا عنه فهو النفاق، إذ قيل: من أمن النفاق فهو منافق: وقال بعضهم لبعض العارفين. إني أخاف على نفسي النفاق، فقال لو كنت منافقا لما خفت النفاق. فلا يزال العارف بين الالتفات إلى السابقة والخاتمة، خائفا منهما. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [1] « الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ بَيْنَ مَخَافَتَيْنِ بَيْنَ أَجَلٍ قَدْ مَضَى لاَ يَدْرِي مَا اللهُ صَانِعٌ فِيهِ وَبَيْنَ أَجَلٍ قَدْ بَقِيَ لاَ يَدْرِي مَا اللهُ قَاضٍ فِيهِ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ مِنْ مُسْتَعْتَبٍ وَلاَ بَعْدَ الدُّنْيَا مِنْ دَارٍ إِلاَّ الْجَنَّةُ أَوِ النَّارُ » والله المستعان

بيان

معنى سوء الخاتمة

فإن قلت: إن أكثر هؤلاء يرجع خوفهم إلى سوء الخاتمة، فما معنى الخاتمة

فاعلم أن سوء الخاتمة على رتبتين، إحداهما أعظم من الأخرى

فأما الرتبة العظيمة الهائلة، فأن يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله إما الشك، وإما الجحود، فتقبض الروح على حال غلبة الجحود أو الشك، فيكون ما غلب على القلب من عقدة الجحود حجابا بينه وبين الله تعالى أبدا، وذلك يقتضي البعد الدائم والعذاب المخلد

والثانية وهي دونها، أن يغلب على قلبه عند الموت حب أمر من أمور الدنيا، وشهوة من شهواتها، فيتمثل ذلك في قلبه ويستغرقه، حتى لا يبقى في تلك الحالة متسع لغيره، فيتفق قبض روحه في تلك الحال، فيكون استغراق قلبه به منكسا رأسه إلى الدنيا، وصارفا وجهه إليها. ومهما انصرف الوجه عن الله تعالى حصل الحجاب، ومهما حصل الحجاب نزل العذاب، إذ نار الله الموقدة لا تأخذ إلا المحجوبين عنه. فأما المؤمن السليم قلبه عن حب

---

(١) حديث العبد المؤمن بين مخافتين من أجل قد مضى - الحديث: البيهقي في الشعب من رواية الحسن عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقد تقدم في ذم الدنيا ذكره ابن المبارك في كتاب الزهد بلاغا وذكره صاحب الفردوس من حديث جابر ولم يخرجه ولده في مسند الفردوس

الدنيا، المصروف همه إلى الله تعالى، فتقول له النار : جزْ يامؤمن ، فإن نورك قد أطفأ لهبي

فمهما اتفق قبض الروح فى حالة غلبة حب الدنيا فالأمر مخطر ، لأن المرء يموت على ماعاش عليه ، ولا يمكن اكتساب صفة أخرى للقلب بعد الموت تضاد الصفة الغالبة عليه . إذ لاتصرف فى القلوب إلا بأعمال الجوارح ، وقد بطلت الجوارح بالموت ، فبطلت الأعمال فلا مطمع فى عمل ، ولا مطمع فى رجوع إلى الدنيا ليتدارك . وعند ذلك تعظم الحسرة

إلا أن أصل الإيمان وحب الله تعالى إذا كان قد رسخ فى القلب مدة طويلة ، وتأكد ذلك بالأعمال الصالحة ، فإنه يمحو عن القلب هذه الحالة التى عرضت له عند الموت . فإن كان إيمانه فى القوة إلى حد مثقال ، أخرجه من النار فى زمان أقرب . وإن كان أقل من ذلك، طال مكثه فى النار . ولو لم يكن إلا مثقال حبة ، فلا بد وأن يخرجه من النار ولو بعد آلاف سنين

فإن قلت : فما ذكرته يقتضى أن تسرع النار إليه عقيب موته ، فما باله يؤخر إلى يوم القيامة ، ويمهل طول هذه المدة

منكر عذاب القبر مبتدع

فاعلم أن كل من أنكر عذاب القبر فهو مبتدع محجوب عن نور الله تعالى ، وعن نور القرءان ونور الإيمان . بل الصحيح عند ذوى الأبصار ماصحت به الأخبار ، وهو أن [١] القبر إما حفرة من حفر النار ، أو روضة من رياض الجنة . [٢] وأنه قد يفتح إلى قبر المعذب سبعون بابا من الجحيم كما وردت به الأخبار ، فلا تفارقه روحه إلا وقد نزل به البلاء إن كان قد شقي بسوء الخاتمة . وإنما تختلف أصناف العذاب باختلاف الأوقات . فيكون [٣] سؤال منكر ونكير عند الوضع فى القبر ، [٤] والتعذيب بعده، ثم [٥] المناقشة فى الحساب، [٦] والافتضاح

---

(١) حديث القبر اما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة : الترمذى من حديث أبى سعيد وقال غريب وتقدم فى الاذكار

(٢) حديث انه يفتح الى قبر المعذب سبعون بابا من الجحيم : لم أجد له أصلا

(٣) حديث سؤال منكر ونكير عند الوضع فى القبر : تقدم فى قواعد العقائد

(٤) حديث عذاب القبر : تقدم فيه

(٥) حديث المناقشة فى الحساب : تقدم فيه

(٦) حديث الافتضاح على ملأ الأشهاد فى القيامة : أحمد والطبرانى من حديث ابن عمر باسناد جيد من انتفى من ولده ليفضحه فى الدنيا فضحه الله على رؤس الاشهاد وفى الصحيحين من حديث ابن عمر وأما الكافر والمنافق فينادى بهم على رؤس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على ربهم والطبرانى والعقيلي فى الضعفاء من حديث الفضيل بن عياض فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة وهو حديث طويل منكر

على ملأ من الأشهاد فى القيامة ، ثم بعد ذلك [1] خطر الصراط ، [2] وهوأن الزبانية إلى آخر ماوردت به الأخبار . فلا يزال الشقي مترددا فى جميع أحواله بين أصناف العذاب ، وهو فى جملة الأحوال معذب إلا أن يتغمده الله برحمته

ولا تظنن أن محل الإيمان يأكله التراب ، بل التراب يأكل جميع الجوارح ويبددها ، إلى أن يبلغ الكتاب أجله ، فتجتمع الأجزاء المتفرقة ، وتعاد إليها الروح التى هى محل الإيمان وقد كانت من وقت الموت إلى الإعادة ، إما فى حواصل طيور خضر معلقة تحت العرش إن كانت سعيدة ، وإما على حالة تضاد هذه الحال إن كانت والعياذ بالله شقية

فإن قلت : فما السبب الذى يفضى إلى سوء الخاتمة

فاعلم أن أسباب هذه الأمور لا يمكن إحصاؤها على التفصيل ، ولكن يمكن الإشارة إلى مجامعها . أما الختم على الشك والجحود فينحصر سببه فى شيئين .

الابتداع المفضى الى سوء الخاتمة

أحدهما : يتصور مع تمام الورع والزهد ، وتمام الصلاح فى الأعمال ، كالمبتدع الزاهد ، فإن عاقبته مخطرة جدا ، وإن كانت أعماله صالحة . ولست أعنى مذهبا فأقول إنه بدعة ، فإن بيان ذلك يطول القول فيه . بل أعنى بالبدعة أن يعتقد الرجل فى ذات الله ، وصفاته ، وأفعاله خلاف الحق ، فيعتقده على خلاف ماهو عليه ، إما برأيه ، ومعقوله ، ونظره الذى به يجادل الخصم ، وعليه يعول ، وبه يغتر ، وإما أخذا بالتقليد ممن هذا حاله . فإذا قرب الموت ، وظهرت له ناصية ملك الموت ، واضطرب القلب بما فيه ، ربما ينكشف له فى حال سكرات الموت بطلان ما اعتقده جهلا ؛ إذ حال الموت حال كشف الغطاء ، ومبادىء سكراته منه ، فقد ينكشف به بعض الأمور . فمهما بطل عنده ما كان اعتقده ، وقد كان قاطعا به متيقنا له عند نفسه ، لم يظن بنفسه أنه أخطأ فى هذا الاعتقاد خاصة ، لالتجائه فيه إلى رأيه الفاسد ، وعقله الناقص . بل ظن أن كل ما اعتقده لا أصل له ، إذ لم يكن عنده فرق بين إيمانه بالله ورسوله وسائر اعتقاداته الصحيحة ، وبين اعتقاده الفاسد ، فيكون انكشاف بعض اعتقاداته عن الجهل سببا لبطلان بقية اعتقاداته ، أو لشكه فيها .

---

(١) حديث خطر الصراط : تقدم فى قواعد العقائد

(٢) حديث هوان الزبانية : الطبرانى من حديث أنس الزبانية يوم القيامة أسرع الى فسقة حملة القرآن منها الى عبدة الاوثان والنيران قال صاحب الميزان حديث منكر وروى ابن وهب عن عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم معضلا فى خزنة جهنم مابين منكبي أحدهم كما بين المشرق والمغرب

فإن اتفق زهوق روحه فى هذه الخطرة ، قبل أن يثبت ويعود إلى أصل الإيمان ، فقد ختم له بالسوء ، وخرجت روحه على الشرك والعياذ بالله منه. فهؤلاء هم المرادون بقوله تعالى (وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللهِ مَالَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ [١]) وبقوله عز وجل (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً [٢]) . وكما أنه قد ينكشف فى النوم ماسيكون فى المستقبل ، وذلك بسبب خفة أشغال الدنيا عن القلب ، فكذلك ينكشف فى سكرات الموت بعض الأمور . إذ شواغل الدنيا وشهوات البدن هي المانعة للقلب من أن ينظر إلى الملكوت ، فيطالع مافى اللوح المحفوظ ، لتنكشف له الأمور على ماهي عليه . فيكون مثل هذه الحال سببا للكشف ، ويكون الكشف سبب الشك فى بقية الاعتقادات

وكل من اعتقد فى الله تعالى ، وفى صفاته وأفعاله شيئا على خلاف ماهو به ، إما تقليدا؛ وإما نظرا بالرأى والمعقول ، فهو فى هذا الخطر . والزهدُ والصلاح لايكفى لدفع هذا الخطر . بل لاينجى منه إلا الاعتقاد الحق . والبُله بمعزل عن هذا الخطر ، أعنى الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر إيمانا مجملا راسخا ، كالأعراب ، والسوادية ، وسائر العوام ، الذين لم يخوضوا فى البحث والنظر ، ولم يشرعوا فى الكلام استقلالا ، ولا صغوْا إلى أصناف المتكلمين فى تقليد أقاويلهم المختلفة. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [١] «أَكْثَرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْبُلْهُ »

تحفظ السلف من الخوض فى الكلام

ولذلك منع السلف من البحث والنظر والخوض فى الكلام ، والتفتيش عن هذه الأمور وأمروا الخلق أن يقتصروا على أن يؤمنوا بما أنزل الله عز وجل جميعا ، وبكل ماجاء من الظواهر ، مع اعتقاده نفي التشبيه : ومنعوهم عن الخوض فى التأويل ، لأن الخطر فى البحث عن الصفات عظيم ، وعقباته كؤودة، ومسالكه وعرة ، والعقول عن درك جلال الله تعالى قاصرة ، وهداية الله تعالى بنور اليقين عن القلوب بما جبلت عليه من حب الدنيا محجوبة وما ذكره الباحثون ببضاعة عقولهم مضطرب ومتعارض والقلوب لما ألقى إليها فى مبدأ النشأة آلفة ، وبه متعلقة ، والتعصبات الثائرة بين الخلق مسامير مؤكدة للعقائد الموروثة أو المأخوذة بحسن الظن من المعلمين فى أول الأمر . ثم الطباع بحب الدنيا مشغوفة، وعليها

---

(١) حديث أكثر أهل الجنة البله : البزار من حديث أنس وقد تقدم

---

(١) الزمر : ٤٧ (٢) الكهف : ١٠٣

مقبلة ، وشهوات الدنيا بمخنقها آخذة ، وعن تمام الفكر صارفة فإذا فتح باب الكلام فى الله وفى صفاته بالرأى والمعقول ، مع تفاوت الناس في قرائحهم ، واختلافهم فى طبائعهم ، وحرص كل جاهل منهم على أن يدعى الكمال أو الإحاطة بكنه الحق ، انطلقت ألسنتهم بما يقع لكل واحد منهم ، وتعلق ذلك بقلوب المصغين إليهم ، وتأكد ذلك بطول الألف فيهم ، فانسد بالكلية طريق الخلاص عليهم . فكانت سلامة الخلق فى أن يشتغلوا بالأعمال الصالحة ، ولا يتعرضوا لما هو خارج عن حد طاقتهم

ولكن الآن قد استرخى العنان ، وفشا الهذيان . ونزل كل جاهل على ماوافق طبعه بظن وحسبان ، وهو يعتقد أن ذلك علم واستيقان ، وأنه صفو الإيمان ، ويظن أن ماوقع به من حدس وتخمين علم اليقين وعين اليقين ، ولتعلمن نبأه بعد حين . وينبغى أن ينشد فى هؤلاء عند كشف الغطاء :

أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت　　ولم تخف سوء مايأتى به القدر
وسالمتك الليالى فاغتررت بها　　وعند صفو الليالى يحدث الكدر

واعلم يقينا أن كل من فارق الإيمان الساذج بالله ورسوله وكتبه ، وخاض فى البحث فقد تعرض لهذا الخطر . ومثاله مثال من انكسرت سفينته وهو فى ملتطم الأمواج ، يرميه موج إلى موج ، فربما يتفق أن يلقيه إلى الساحل وذلك بعيد ، والهلاك عليه أغلب

وكل نازل على عقيدة تلقفها من الباحثين ببضاعة عقولهم ، إما مع الأدلة التى حرروها فى تعصباتهم ، أو دون الأدلة ، فإنه إن كان شاكا فيه فهو فاسد الدين ، وإن كانوا اثقا به فهو آمن من مكر الله . مغتر بعقله الناقص ، وكل خائض فى البحث فلا ينفك عن هاتين الحالتين إلا إذا جاوز حدود المعقول ، إلى نور المكاشفة الذى هو مشرق فى عالم الولاية والنبوّة وذلك هو الكبريت الأحمر ، وأنى يتيسر ! وإنما يسلم عن هذا الخطر البله من العوام ، أو الذين شغلهم خوف النار بطاعة الله ، فلم يخوضوا فى هذا الفضول . فهذا أحد الأسباب المخطرة فى سوء الخاتمة

ضعف الايمان طريق الخاتمة

وأما السبب الثانى فهو ضعف الإيمان فى الأصل ، ثم استيلاء حب الدنيا على القلب . ومهما ضعف الإيمان ضعف حب الله تعالى ، وقوي حب الدنيا ، فيصير بحيث لايبقى فى القلب

موضع لحب الله تعالى ، إلا من حيث حديث النفس ، ولا يظهر له أثر فى مخالفة النفس ، والعدول عن طريق الشيطان ، فيورث ذلك الانهماك فى اتباع الشهوات ، حتى يظلم القلب ويقسو ويسود ، وتتراكم ظلمة النفوس على القلب ، فلا يزال يطفىء ما فيه من نور الإيمان على ضعفه ، حتى يصير طبعا ورينا . فإذا جاءت سكرات الموت ازداد ذلك الحب ، أعنى حب الله ضعفا ، لما يبدو من استشعار فراق الدنيا ، وهي المحبوب الغالب على القلب ، فيتألم القلب باستشعار فراق الدنيا ، ويرى ذلك من الله ، فيختلج ضميره بإنكار ما قدر عليه من الموت ، وكراهة ذلك من حيث إنه من الله ، فيخشى أن يثور فى باطنه بغض الله تعالى بدل الحب . كما أن الذى يحب ولده حبا ضعيفا ، إذا أخذ ولده أمواله التى هى أحب إليه من ولده وأحرقها ، انقلب ذلك الحب الضعيف بغضا . فإن اتفق زهوق روحه فى تلك اللحظة التى خطرت فيها هذه الخطرة ، فقد ختم له بالسوء ، وهلك هلاكا مؤبدا والسبب الذى يفضى إلى مثل هذه الخاتمة هو غلبة حب الدنيا ، والركون إليها ، والفرح بأسبابها ، مع ضعف الإيمان ، الموجب لضعف حب الله تعالى . فمن وجد فى قلبه حب الله أغلب من حب الدنيا ، وإن كان يحب الدنيا أيضا ، فهو أبعد عن هذا الخطر

وحب الدنيا رأس كل خطيئة ، وهو الداء العضال ، وقد عم أصناف الخلق ، وذلك كله لقلة المعرفة بالله تعالى . إذ لا يحبه إلا من عرفه . ولهذا قال تعالى (قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ [1])

فإذاً كل من فارقته روحه فى حالة خطرة الإنكار على الله تعالى بباله ، وظهور بغض فعل الله بقلبه ، فى تفريقه بينه وبين أهله وماله وسائر محابه ، فيكون موته قدوما على ما أبغضه وفراقا لما أحبه فيقدم على الله قدوم العبد المبغض الآبق إذا قدم به على مولاه قهرا ، فلا يخفى ما يستحقه من الخزي والنكال

وأما الذى يتوفى على الحب ، فإنه يقدم على الله تعالى قدوم العبد المحسن المشتاق إلى مولاه ، الذى تحمل مشاق الأعمال ووعثاء الأسفار طمعا فى لقائه ، فلا يخفى ما يلقاه من الفرح

---

(١) التوبة : ٢٤

والسرور بمجرد القدوم ، فضلا عمـــا يستحقه من لطائف الإكرام وبدائع الإنعام

وأما الخاتمة الثانية التي هي دون الأولى ، وليست مقتضية للخلود فى النار ، فلها أيضا سببان : أحدهما كثرة المعاصى وإن قوي الإيمان ، والآخر ضعف الإيمان وإن قلت المعاصى . وذلك لأن مقارفة المعاصى سببها غلبة الشهوات ورسوخها فى القلب ، بكثرة الإلف والعادة . وجميع ماألفه الإنسان فى عمره يعود ذكره إلى قلبه عند موته . فإن كان ميله الأكثر إلى الطاعات ، كان أكثر ما يحضره ذكر طاعة الله . وإن كان ميله الأكثر إلى المعاصى ، غلب ذكرها على قلبه عند الموت . فربما تقبض روحه عند غلبة شهوة من شهوات الدنيا ، ومعصية من المعاصى ، فيتقيد بها قلبه ، ويصير محجوبا عن الله تعالى. فالذى لايقارف الذنب إلا الفينة بعد الفينة ، فهو أبعد عن هذا الخطر . والذى لم يقارف ذنبا أصلا ، فهو بعيد جدا عن هذا الخطر . والذي غلبت عليه المعاصى ، وكانت أكثر من طاعاته ، وقلبه بها أفرح منه بالطاعات ، فهذا الخطر عظيم فى حقه جدا

يموت المرء على ماعاش عليه

ونعرف هذا بمثال . وهو أنه لايخفى عليك أن الإنسان يرى فى منامه جملة من الأحوال التى عهدها طول عمره ، حتى أنه لايرى إلا ماياثل مشاهداته فى اليقظة ، وحتي أن المراهق الذى يحتلم لايرى صورة الوقاع إذا لم يكن قد واقع فى اليقظة ، ولو بقي كذلك مدة لمارأى عند الاحتلام صورة الوقاع . ثم لايخفى أن الذى قضى عمره فى الفقه ، يرى من الأحوال المتعلقة بالعلم والعلماء أكثر مما يراه التاجر الذى قضى عمره فى التجارة . والتاجر يرى من الأحوال المتعلقة بالتجارة وأسبابها أكثر مما يراه الطبيب والفقيه ، لأنه إنما يظهر فى حالة النوم ماحصل له مناسبة مع القلب بطول الإلف ، أو بسبب آخر من الأسباب .

والموت شبيه النوم ، ولكنه فوقه . ولكن سكرات الموت وما يتقدمه من الغشية قريب من النوم ، فيقتضى ذلك تذكر المألوف ، وعوده إلى القلب وأحد الأسباب المرجحة لحصول ذكره فى القلب طول الإلف . فطول الإلف بالمعاصى والطاعات أيضا مرجح وكذلك تخالف أيضا منامات الصالحين منامات الفساق . فتكون غلبة الإلف سببا لأن تتمثل صورة فاحشة فى قلبه وتميل إليها نفسه ، فربما تقبض عليها روحه ، فيكون ذلك سبب سوء خاتمته

وإن كان أصل الإيمان باقيا بحيث يرجى له الخلاص منها

وكما أن مايخطر فى اليقظة إنما يخطر بسبب خاص يعلمه الله تعالى،فكذلك آحادالمنامات لها أسباب عندالله تعالى، نعرف بعضهاولا نعرف بعضها. كما أنا نعلم أن الخاطر ينتقل من الشيء إلى ماينا سبه إما بالمشابهة ، وإما بالمضادة ، وإما بالمقارنة : بأن يكون قدورد على الحس منه

أما بالمشابهة :فبأن ينظر إلى جميل فيتذكر جميلا آخر

وأما بالمضادة: فبأن ينظر إلى جميل فيتذكر قبيحا ويتأمل فى شدة التفاوت بينهما

وأما بالمقارنة :فبأن ينظر إلى فرس قد رآه من قبل مع إنسان ، فيتذكر ذلك الإنسان

وقد ينتقل الخاطر من شيء إلى شيء، ولا يدرى وجه مناسبته له . وإنما يكون ذلك بواسطة وواسطتين مثل أن ينتقل من شيء إلى شيء ثان ، ومنه إلى شيء ثالث ، ثم ينسى الثانى ، ولا يكون بين الثالث والأول مناسبة ، ولكن يكون بينه وبين الثانى مناسبة ، وبين الثانى والأول مناسبة . فكذلك لانتقالات الخواطر فى المنامات أسباب من هذا الجنس ، وكذلك عند سكرات الموت

فعلى هذا ، والعلم عند الله ، من كانت الخياطة أكثر أشغاله ، فإنك تراه يومىء إلى رأسه كأنه يأخذ إبرته ليخيط بها ، ويبل أصبعه التى لها عادة بالكستبان ، ويأخذ الإزار من فوقه ، ويقدره و يشبره وكأنه يتعاطى تفصيله ، ثم يمدّ يده إلى المقراض

ومن أراد أن يكف خاطره عن الانتقال عن المعاصى والشهوات ، فلا طريق له إلا المجاهدة طول العمر فى فطامه نفسه عنها ؛ وفى قمع الشهوات عن القلب .فهذا هو القدر الذى يدخل تحت الاختيار ، ويكون طول المواظبة على الخير ،وتخلية الفكر عن الشر، عدة وذخيرة لحالة سكرات الموت ، فإنه يموت المرء على ما عاش عليه ، ويحشر على مامات عليه

ولذلك نقل عن بقال أنه كان يلقن عند الموت كلمتي الشهادة فيقول:خمسة ،ستة ، أربعة فكان مشغول النفس بالحساب الذى طال إلفه له قبل الموت

وقال بعض العارفين من السلف . العرش جوهرة تتلألأ نورا ؛ فلا يكون العبد على حال إلا انطبع مثاله فى العرش على الصورة التى كان عليها ، فإذا كان فى سكرات الموت كشف له صورته من العرش ، فربما يرى نفسه على صورة معصية ، وكذلك يكشف له يوم

القيامة.فيرى أحوال نفسه، فيأخذه من الحياء والخوف مايجل عن الوصف . وماذكره صحيح وسبب الرؤيا الصادقة قريب من ذلك . فإن النائم يدرك مايكون فى المستقبل من مطالعة اللوح المحفوظ ، وهي جزء من أجزاء النبوة

فإذاً رجع سوء الخاتمة إلى أحوال القلب واختلاج الخواطر ، ومقلب القلوب هو الله والاتفاقات المقتضية لسوء الخواطر غير داخلة تحت الاختيار دخولا كليا ،وإن كان لطول الإلف فيه تأثير . فبهذا عظم خوف العارفين من سوء الخاتمة ، لأنه لو أراد الإنسان أن لايرى فى المنام إلا أحوال الصالحين ، وأحوال الطاعات والعبادات ، عسر عليه ذلك،وإن كانت كثرة الصلاح والمواظبة عليه مما يؤثر فيه ، ولكن اضطرابات الخيال لاتدخل بالكلية تحت الضبط ، وإن كان الغالب مناسبة مايظهر فى النوم لما غلب فى اليقظة ، حتى سمعت الشيخ أبا على الفارمذى رحمة الله عليه ، يصف لى وجوب حسن أدب المريد لشيخه ، وأن لايكون فى قلبه إنكار لكل مايقوله ، ولا فى لسانه مجادلة عليه ، فقال : حكيت لشيخى أبى القاسم الكرمانى مناماً لى، وقلت رأيتك قلت لى كذا ، فقلت لم ذاك ؟ قال فهجرنى شهرا ولم يكلمنى وقال : لولا أنه كان فى باطنك تجويز المطالبة ، وإنكار ماأقوله لك ، لما جرى ذلك على لسانك فى النوم . وهو كما قال . إذ قلما يرى الإنسان فى منامه خلاف مايغلب فى اليقظة على قلبه . فهذا هو القدر الذى نسمح بذكره فى علم المعاملة من أسرار أمر الخاتمة ، وما وراء ذلك فهو داخل فى علم المكاشفة

وقد ظهر لك بهذا أن الأمن من سوء الخاتمة بأن ترى الأشياء كما هي عليه من غير جهل وتزجى جميع العمر فى طاعة الله من غير معصية . فإن كنت تعلم أن ذلك محال أو عسير ، فلا بدّ وأن يغلب عليك من الخوف ماغلب على العارفين ،حتى يطول بسببه بكاؤك ونياحتك ويدوم به حزنك وقلقك ، كما سنحكيه من أحوال الأنبياء والسلف الصالحين ، ليكون ذلك أحد الأسباب المهيجة لنار الخوف من قلبك

وقد عرفت بهذا أن أعمال العمر كلها ضائعة إن لم يسلم فى النفس الأخير الذى عليه خروج الروح ، وأن سلامته مع اضطراب أمواج الخواطر مشكلة جدا ، ولذلك كان مطرف بن عبدالله يقول . إنى لاأعجب ممن هلك كيف هلك ، ولكنى أعجب ممن نجا كيف نجا .

ولذلك قال حامد اللفاف : إذا صعدت الملائكة بروح العبد المؤمن وقد مات على الخير والإسلام تعجبت الملائكة منه ، وقالوا كيف نجا هذا من دنيا فسد فيها خيارنا ؟ وكان الثوري يوما يبكي ، فقيل له علام تبكي ؟ فقال بكينا على الذنوب زمانا ، فالآن نبكي على الإسلام

وبالجملة من وقعت سفينته في لجة البحر ، وهجمت عليه الرياح العاصفة ، واضطربت الأمواج ، كانت النجاة في حقه أبعد من الهلاك . وقلب المؤمن أشد اضطرابا من السفينة وأمواجُ الخواطر أعظم التطاما من أمواج البحر . وإنما المخوف عند الموت خاطر سوء يخطر فقط ، وهو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ خَمْسِينَ سَنَةً حَتَّى لَا يَبْقَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إِلَّا فَوَاقُ نَاقَةٍ فَيُخْتَمُ لَهُ بِمَا سَبَقَ بِهِ الْكِتَابُ » ولا يتسع فواق الناقة لأعمال توجب الشقاوة ، بل هي الخواطر التي تضطرب وتخطر خطور البرق الخاطف

وقال سهل : رأيت كأني أدخلت الجنة ، فرأيت ثلثمائة نبي ، فسألتهم ما أخوف ما كنتم تخافون في الدنيا ؟ قالوا سوء الخاتمة . ولأجل هذا الخطر العظيم كانت الشهادة مغبوطا عليها ، وكان موت الفجأة مكروها

أما الموت فجأة ، فلأنه ربما يتفق عند غلبة خاطر سوء واستيلائه على القلب ، والقلب لا يخلو عن أمثاله إلا أن يدفع بالكراهة ، أو بنور المعرفة

وأما الشهادة فلأنها عبارة عن قبض الروح في حالة لم يبق في القلب سوى حب الله تعالى ، وخرج حب الدنيا ، والأهل ، والمال ، والولد ، وجميع الشهوات عن القلب ، إذ لا يهجم على صف القتال موطنا نفسه على الموت إلا حبا لله ، وطلبا لمرضاته ، وبائعا دنياه بآخرته ، وراضيا بالبيع الذي بايعه الله به ، إذ قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ [١]) والبائع راغب عن المبيع لا محالة ، ومخرج حبه عن القلب ، ومجرد حب العوض المطلوب في قلبه . ومثل هذه الحالة قد يغلب على القلب في بعض الأحوال ، ولكن لا يتفق زهوق الروح فيها ، فصف القتال سبب لزهوق الروح

(١) حديث ان الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة ـ الحديث : تقدم

(١) التوبة: ١١١

على مثل هذه الحالة . هذا[1] فيمن ليس يقصد الغلبة ، والغنيمة ، وحسن الصيت بالشجاعة ، فإن من هذا حاله وإن قتل في المعركة ، فهو بعيد عن مثل هذه الرتبة كما دلت عليه الأخبار

سبيل النجاة من سوء الخاتمة

وإذ بان لك معنى سوء الخاتمة ، وما هو مخوف فيها ، فاشتغل بالاستعداد لها ، فواظب على ذكر الله تعالى ، وأخرج من قلبك حب الدنيا ، واحرس عن فعل المعاصي جوارحك وعن الفكر فيها قلبك ، واحترز عن مشاهدة المعاصي ومشاهدة أهلها جهدك ، فإن ذلك أيضا يؤثر في قلبك ، ويصرف إليه فكرك وخواطرك

وإياك أن تسوّف وتقول : سأستعد لها إذا جاءت الخاتمة ، فإن كل نفس من أنفاسك خاتمتك ، إذ يمكن أن تختطف فيه روحك . فراقب قلبك في كل تطريفة ، وإياك أن تهمله لحظة ، فلعل تلك اللحظة خاتمتك ، إذ يمكن أن تختطف فيها روحك . هذا ما دمت في يقظتك . وأما إذا نمت فإياك أن تنام إلا على طهارة الظاهر والباطن ، وأن يغلبك النوم إلا بعد غلبة ذكر الله على قلبك . لست أقول على لسانك ، فإن حركة اللسان بمجردها ضعيفة الأثر واعلم قطعا أنه لا يغلب عند النوم على قلبك إلا ما كان قبل النوم غالبا عليه ، وأنه لا يغلب في النوم إلا ما كان غالبا قبل النوم ، ولا ينبعث عن نومك إلا ما غلب على قلبك في نومك . والموت والبعث شبيه النوم واليقظة . فكما لا ينام العبد إلا على ما غلب عليه في يقظته ، ولا يستيقظ إلا على ما كان عليه في نومه ، فكذلك لا يموت المرء إلا على ما عاش عليه ، ولا يحشر إلا على ما مات عليه . وتحقق قطعا ويقينا أن الموت والبعث حالتان من أحوالك ، كما أن النوم واليقظة حالتان من أحوالك . وآمن بهذا تصديقا باعتقاد القلب ، إن لم تكن أهلا لمشاهدة ذلك بعين اليقين ونور البصيرة

وراقب أنفاسك ولحظاتك ، وإياك أن تغفل عن الله طرفة عين ، فإنك إذا فعلت ذلك كله كنت مع ذلك في خطر عظيم ، فكيف إذا لم تفعل ! والناس كلهم هلكى إلا العالمون ، والعالمون

---

(١) حديث المقتول في الحرب اذا كان قصده الغلبة والغنيمة وحسن الصيت فهو بعيد عن رتبة الشهادة . متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري ان رجلا قال يا رسول الله الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن في سبيل الله فقال من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله وفي رواية الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء وفي رواية يقاتل غضبا

كلهم هلكى إلا العاملون ، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون. والمخلصون على خطر عظيم

واعلم أن ذلك لايتيسر لك مالم تقنع من الدنيا بقدر ضرورتك، وضرورتك مطعم ، وملبس ، ومسكن ، والباقي كله فضول . والضرورة من المطعم مايقيم صلبك، ويسدّ رمقك فينبغي أن يكون تناولك تناول مضطر كاره له ، ولاتكون رغبتك فيه أكثر من رغبتك في قضاء حاجتك ، إذ لافرق بين إدخال الطعام في البطن وإخراجه ، فهما ضرورتان في الجبلّة . وكما لايكون قضاء الحاجة من همتك التي يشتغل بها قلبك، فلاينبغي أن يكون تناول الطعام من همتك . واعلم أنه إن كان همتك مايدخل بطنك ، فقيمتك مايخرج من بطنك

وإذا لم يكن قصدك من الطعام إلا التقوّى على عبادة الله تعالى ، كقصدك من قضاء حاجتك فعلامة ذلك تظهر في ثلاثة أمور من مأكولك : في وقته ، وقدره ، وجنسه

أما الوقت: فأقله أن يكتفي في اليوم والليلة بمرة واحدة ، فيواظب على الصوم

وأما قدره فبأن لايزيد على ثلث البطن . وأما جنسه فأن لايطلب لذائذ الأطعمة بل يقنع بما يتفق . فإن قدرت على هذه الثلاث ، وسقطت عنك مؤنة الشهوات اللذائذ قدرت بعد ذلك على ترك الشبهات ، وأمكنك أن لاتأكل إلا من حله ، فإن الحلال يعز ولا يفي بجميع الشهوات

وأما ملبسك فليكن غرضك منه دفع الحر والبرد ، وستر العورة . فكل مادفع البرد عن رأسك، ولو قلنسوة بدانق ، فطلبك غيره فضول منك، يضيع فيه زمانك ، ويلزمك الشغل الدائم ، والعناء القائم في تحصيله بالكسب مرة ، والطمع أخرى، من الحرام والشبهة وقس بهذا ماتدفع به الحر والبرد عن بدنك ، فكل ماحصل مقصودُ اللباس إن لم تكتف به في خساسة قدره وجنسه، لم يكن لك موقف ومرد بعده بل كنت ممن لايملأ بطنه إلا التراب

وكذلك المسكن ، إن اكتفيت بمقصوده كفتك السماء سقفا . والأرض مستقرا . فإن غلبك حر أو برد فعليك بالمساجد . فإن طلبت مسكنا خاصا طال عليك ، وانصرف إليه أكثر عمرك ، وعمرك هو بضاعتك . ثم إن تيسر لك فقصدت من الحائط سوى كونه حائلا بينك وبين الأبصار ، ومن السقف سوى كونه دافعا للأمطار، فأخذت ترفع الحيطان ، وتزين السقوف ، فقد تورطت في مهواة يبعد رقيك منها

وهكذا جميع ضرورات أمورك إن اقتصرت عليها تفرغت لله ، وقدرت على التزود لآخرتك ، والاستعداد لخاتمتك . وإن جاوزت حد الضرورة إلى أودية الأماني تشعبت همومك، ولم يبال الله في أي وادأهلكك فاقبل هذه النصيحة ممن هو أحوج إلى النصيحة منك

واعلم أن متسع التدبير والتزود والاحتياط هذا العمر القصير . فإذا دفعته يوما بيوم في تسويفك أوغفلتك ، اختطفت فجأة في غير وقت إرادتك ، ولم تفارقك حسرتك وندامتك . فإن كنت لاتقدر على ملازمة ما أرشدت إليه بضعف خوفك ، إذ لم يكن فيما وصفناه من أمر الخاتمة كفاية في تخويفك ، فإنا سنورد عليك من أحوال الخائفين ما نرجو أن يزيل بعض القساوة عن قلبك ، فإنك تتحقق أن عقل الأنبياء ، والأولياء ، والعلماء ، وعملهم ومكانهم عند الله تعالى ، لم يكن دون عقلك ، وعملك ، ومكانك . فتأمل مع كلال بصيرتك، وعمش عين قلبك في أحوالهم ، لم اشتد بهم الخوف ، وطال بهم الحزن والبكاء حتى كان بعضهم يصعق ، وبعضهم يدهش ، وبعضهم يسقط مغشيا عليه ، وبعضهم يخر ميتا إلى الأرض . ولا غرو إن كان ذلك لا يؤثر في قلبك ، فإن قلوب الغافلين مثل الحجارة أو أشد قسوة ، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وإن منها لما يهبط من خشية الله ، وما الله بغافل عما تعملون

بيان

أحوال الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام في الخوف

خوف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الله تعالى

روت[١] عائشة رضي الله عنها ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة ، يتغير وجهه ، فيقوم ويتردد في الحجرة ، ويدخل ويخرج ، كل ذلك خوفا من عذاب الله[٢] وقرأ صلى الله عليه وسلم آية في سورة الواقعة فصعق . وقال تعالى (وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا[(١)])

---

(١) حديث عائشة كان إذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة تغير وجهه ـ الحديث : متفق عليه من حديث عائشة

(٢) حديث قرأ في سورة الحاقة فصعق المعروف فيما روى من هذه القصة انه قرئ عنده ان لدينا انكالا وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا أليما فصعق كما رواه ابن عدى والبيهقي في الشعب مرسلا وهكذا ذكره المصنف على الصواب في كتاب السماع كما تقدم

---

(١) الأعراف : ١٤٣

ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] صورة جبريل عليه السلام بالأبطح فصعق.

وروي أنه عليه السلام [٢] كان إذا دخل فى الصلاة يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل

وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « مَاجَاءَنِى جِبْرِيلُ قَطُّ إِلاَّ وَهُوَ يَرْعَدُ فَرَقًا مِنَ الْجَبَّارِ »

وقيل لما ظهر على إبليس ما ظهر، طفق جبريل وميكائيل عليهما السلام يبكيان فأوحى الله إليهما مالكما تبكيان كل هذا البكاء؟ فقالا يارب ما نأمن مكرك . فقال الله تعالى: هكذا كونا، لا تأمنا مكرى . وعن محمد بن المنكدر قال: لما خلقت النار طارت أفئدة الملائكة من أماكنها فلما خلق بنو آدم عادت

وعن [٤] أنس أنه عليه السلام سأل جبريل « مَالِى لاَ أَرَى مِيكَائِيلَ يَضْحَكُ ؟ » فقال جبريل . ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار . ويقال إن لله تعالى ملائكة لم يضحك أحد منهم منذ خلقت النار، مخافة أن يغضب الله عليهم فيعذبهم بها

وقال [٥] ابن عمر رضي الله عنهما : خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل بعض حيطان الأنصار، فجعل يلتقط من التمر ويأكل. فقال « يَاابْنَ عُمَرَ مَالَكَ لاَ تَأْكُلُ ؟ »

---

(١) حديث انه رأى صورة جبريل بالأبطح فصعق : البزار من حديث ابن عباس بسند جيد سأل النبي صلى الله عليه وسلم جبريل أن يراه فى صورته فقال ادع ربك فدعا ربه فطلع عليه من قبل المشرق فجعل يرتفع ويسير فلما رآه صعق ورواه ابن المبارك من رواية الحسن مرسلا بلفظ فغشى عليه وفى الصحيحين عن عائشة رأى جبريل فى صورته مرتين ولهما عن ابن مسعود رأى جبريل له ستمائة جناح

(٢) حديث كان إذا دخل فى الصلاة سمع لصدره أزيز كأزيز المرجل : أبو داود والترمذى فى الشمائل والنسائى من حديث عبد الله بن الشخير وتقدم فى كتاب السماع

(٣) حديث ماجاءنى جبريل قط إلا وهو ترتعد فرائصه من الجبار : لم أجد هذا اللفظ وروى أبو الشيخ فى كتاب العظمة عن ابن عباس قال ان جبريل عليه السلام يوم القيامة لقائم بين يدى الجبار تبارك وتعالى ترعد فرائصه فرقا من عذاب الله ـ الحديث : وفيه زميل بن سماك الحنفى يحتاج إلى معرفته

(٤) حديث أنس انه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل مالى لا أرى ميكائيل يضحك فقال ماضحك ميكائيل منذ خلقت النار أحمد وابن أبى الدنيا فى كتاب الخائفين من رواية ثابت عن أنس باسناد جيد ورواه ابن شاهين فى السنة من حديث ثابت مرسلا وورد ذلك أيضا فى حق اسرافيل رواه البيهقى فى الشعب وفى حق جبريل رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الخائفين

(٥) حديث ابن عمر خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل على حيطان الأنصار فجعل يلتقط من التمر ويأكل ـ الحديث : ابن مردويه فى التفسير والبيهقى فى الزهد من رواية رجل لم يسم عن ابن عمر قال البيهقى هذا اسناد مجهول والجراح بن منهال ضعيف

فقلت يارسول الله لاأشتهيه . فقال « لَكِنِّي أَشْتَهِيهِ وَهَذَا صُبْحُ رَابِعَةٍ لَمْ أَذُقْ طَعَاماً وَلَمْ أَجِدْهُ وَلَوْ سَأَلْتُ رَبِّي لَأَعْطَانِي مُلْكَ قَيْصَرَ وَكِسْرَى فَكَيْفَ بِكَ يَاابْنَ عُمَرَ إِذَا بَقِيتَ فِي قَوْمٍ يُخَبِّئُونَ رِزْقَ سَنَتِهِمْ وَيَضْعُفُ الْيَقِينُ فِي قُلُوبِهِمْ » قال فوالله مابرحنا ولا قمنا حتى نزلت (وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ[1]) قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَأْمُرْكُمْ بِكَنْزِ الْمَالِ وَلَا بِاتِّبَاعِ الشَّهَوَاتِ مَنْ كَنَزَ دَنَانِيرَ يُرِيدُ بِهَا حَيَاةً فَانِيَةً فَإِنَّ الْحَيَاةَ بِيَدِ اللَّهِ أَلَا وَإِنِّي لَا أَكْنِزُ دِينَاراً وَلَا دِرْهَماً وَلَا أَخْبَأُ رِزْقاً لِغَدٍ »

وقال أبو الدرداء : كان يسمع أزيز قلب ابراهيم خليل الرحمن صلى الله عليه وسلم إذا قام في الصلاة من مسيرة ميل ، خوفا من ربه

خوف داود عليه السلام

وقال مجاهد : بكى داود عليه السلام أربعين يوما ساجدا لايرفع رأسه ،حتى نبت المرعى من دموعه ، وحتى غطى رأسه ، فنودي ياداود أجائع أنت فتطعم ، أم ظمآن فتسقى ، أم عار فتكسى ؟ فنحب نحبة هاج العود فاحترق من حر خوفه ، ثم أنزل الله تعالى عليه التوبة والمغفرة . فقال يارب اجعل خطيئتي في كفي . فصارت خطيئته في كفه مكتوبة . فكان لايبسط كفه لطعام ولا لشراب ولا لغيره إلا رآها فأبكته . قال وكان يؤتى بالقدح ثلثاه ، فإذا تناوله أبصر خطيئته ، فما يضعه على شفته حتى يفيض القدح من دموعه

ويروى عنه عليه السلام أنه مارفع رأسه إلى السماء حتى مات ، حياء من الله عز وجل. وكان يقول في مناجاته : إلهي إذا ذكرت خطيئتي ضاقت عليّ الأرض برحبها . وإذا ذكرت رحمتك ارتدت إليّ روحي . سبحانك إلهي أتيت أطباء عبادك ليداووا خطيئتي فكلهم عليك يدلني . فبؤسا للقانطين من رحمتك

وقال الفضيل : بلغني أن داود عليه السلام ذكر ذنبه ذات يوم ، فوثب صارخا واضعا يده على رأسه حتى لحق بالجبال فاجتمعت إليه السباع ، فقال ارجعوا لاأريدكم . إنما أريد كل بكاء على خطيئته ، فلا يستقبلني إلا بالبكاء . ومن لم يكن ذا خطيئة فما يصنع بداود الخطاء . وكان يعاتب

(١) العنكبوت : ٦٠

فى كثرة البكاء فيقول : دعونى أبكى قبل خروج يوم البكاء ، قبل تخريق العظام واشتعال الحشا ، وقبل أن يؤمر بى ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون

وقال عبد العزيز بن عمر : لما أصاب داود الخطيئة نقص صوته . فقال إلهى بح صوتى فى صفاء أصوات الصديقين . وروي أنه عليه السلام لما طال بكاؤه ولم ينفعه ذلك ضاق ذرعه ، واشتد غمه ، فقال يارب أما ترحم بكائى ؟ فأوحى الله تعالى إليه : ياداود نسيت ذنبك وذكرت بكاءك ! فقال : إلهى وسيدى ، كيف أنسى ذنبى وكنت إذا تلوت الزبور كف الماء الجارى عن جريه ، وسكن هبوب الريح ، وأظلنى الطير على رأسى ، وأنست الوحوش إلى محرابى ! إلهى وسيدى ، فما هذه الوحشة التى بينى وبينك ! فأوحى الله تعالى إليه ياداود ذلك أنس الطاعة ، وهذه وحشة المعصية . ياداود ، آدم خلق من خلقى ، خلقته بيدى ، ونفخت فيه من روحى ، وأسجدت له ملائكتى ، وألبسته ثوب كرامتى ، وتوجته بتاج وقارى . وشكا لى الوحدة فزوجته حواء أمتى ، وأسكنته جنتى ، عصانى ، فطردته عن جوارى عريانا ذليلا . ياداود اسمع منى ، والحق أقول ، أطعتنا فأطعناك ، وسألتنا فأعطيناك وعصيتنا فأمهلناك ، وإن عدت إلينا على ما كان منك قبلناك

وقال يحيى بن أبى كثير . بلغنا أن داود عليه السلام كان إذا أراد أن ينوح مكث قبل ذلك سبعا لا يأكل الطعام ، ولا يشرب الشراب ، ولا يقرب النساء . فإذا كان قبل ذلك بيوم أخرج له المنبر إلى البرية . فأمر سليمان أن ينادى بصوت يستقرى البلاد وما حولها من الغياض ، والآكام ، والجبال ، والبرارى ، والصوامع ، والبيع ، فينادى فيها . ألا من أراد أن يسمع نوح داود على نفسه فليأت . قال فتأتى الوحوش من البرارى والآكام ، وتأتى السباع من الغياض ، وتأتى الهوام من الجبال ، وتأتى الطير من الأوكار ، وتأتى العذارى من خدورهن وتجتمع الناس لذلك اليوم . ويأتى داود حتى يرقى المنبر ، ويحيط به بنو إسرائيل ، وكل صنف على حدته محيطون به ، وسليمان عليه السلام قائم على رأسه . فيأخذ فى الثناء على ربه ، فيضجون بالبكاء والصراخ ، ثم يأخذ فى ذكر الجنة والنار ، فتموت الهوام ، وطائفة من الوحوش والسباع والناس ، ثم يأخذ فى أهوال القيامة ، وفى النياحة على نفسه ، فيموت من كل نوع طائفة . فإذا رأى سليمان كثرة الموتى ، قال يا أبتاه . قد مزقت المستمعين كل ممزق ، وماتت

طوائف من بني إسرائيل ومن الوحوش والهوام . فيأخذ في الدعاء . فبينما هو كذلك ، إذ ناداه بعض عباد بني إسرائيل : ياداود عجلت بطلب الجزاء على ربك . قال فيخر داود مغشيا عليه ، فإذا نظر سليمان إلى ماأصابه ، أتى بسرير فحمله عليه ، ثم أمر مناديا ينادى ألا من كان له مع داود حميم أو قريب فليأت بسرير فليحمله ، فإن الذين كانوا معه قدقتلهم ذكر الجنة والنار . فكانت المرأة تأتي بالسرير وتحمل قريبها وتقول : يامن قتله ذكر النار يامن قتله خوف الله . ثم إذا أفاق داود قام ووضع يده على رأسه، ودخل بيت عبادته، وأغلق بابه ، ويقول ياإله داود ، أغضبان أنت على داود ؟ ولا يزال يناجي ربه . فيأتي سليمان ويقعد على الباب ، ويستأذن ، ثم يدخل ومعه قرص من شعير ، فيقول ياأبتاه تقوّ بهذا على ماتريد فيأكل من ذلك القرص ماشاء الله ، ثم يخرج إلى بني إسرائيل فيكون بينهم

وقال يزيد الرقاشي : خرج داود ذات يوم بالناس يعظهم ويخوفهم . فخرج في أربعين ألفا ، فمات منهم ثلاثون ألفا ، وما رجع إلا في عشرة آلاف . قال وكان له جاريتان اتخذهما حتى إذا جاءه الخوف وسقط فاضطرب ، قعدتا على صدره وعلى رجليه ، مخافة أن تتفرق أعضاؤه ومفاصله فيموت

خوف يحيى عليه السلام

وقال ابن عمر رضي الله عنهما : دخل يحيى بن زكريا عليهما السلام بيت المقدس وهو ابن ثمان حجج ، فنظر إلى عبّادهم قد لبسوا مدارع الشعر والصوف ، ونظر إلى مجتهديهم قد خرقوا التراقي وسلكوا فيها السلاسل ، وشدوا أنفسهم إلى أطراف بيت المقدس . فهاله ذلك ، فرجع إلى أبويه . فمر بصبيان يلعبون ، فقالوا له يايحيي هلمّ بنا نلعب . فقال إني لم أخلق للّعب . قال فأتى أبويه ، فسألهما أن يدرعاه الشعر ، ففعلا . فرجع إلى بيت المقدس ، وكان يخدمه نهارا ، ويصبح فيه ليلا ، حتى أتت عليه خمس عشرة سنة، فخرج ولزم أطواد الأرض وغيران الشعاب . فخرج أبواه في طلبه ، فأدركاه على بحيرة الأردن ، قد أنقع رجليه في الماء حتى كاد العطش يذبحه ، وهو يقول . وعزتك وجلالك لاأذوق بارد الشراب حتى أعلم أين مكاني منك . فسأله أبواه أن يفطر على قرص كان معهما من شعير ، ويشرب من ذلك الماء ، ففعل وكفر عن يمينه ، فمدح بالبر ، فرده أبواه إلى بيت المقدس ، فكان إذا قام يصلي بكى حتى يبكي معه الشجر والمدر ، ويبكي زكريا عليه السلام لبكائه حتى يغمى عليه .

فلم يزل يبكي حتى خرقت دموعه لحم خديه، وبدت أضراسه للناظرين . فقالت له أمه يابني لو أذنت لى أن أتخذ لك شيئا توارى به أضراسك عن الناظرين ؟ فأذن لهـا . فعمدت إلى قطعتي لبود فألصقتهما على خديه ، فكان إذا قام يصلي بـكى ، فإذا استنقعت دموعه فى القطعتين أتت إليه أمه فعصرتهما ، فإذا رأى دموعه تسيل على ذراعي أمـه قال . اللهم هذه دموعى ، وهذه أمى ، وأنا عبدك ، وأنت أرحم الراحمين . فقال له زكريا يوما : يابني، إنما سألت ربى أن يهبك لى لتقر عيناي بك . فقال يحي . ياأبت . إن جبريل عليه السلام أخبرنى أن بين الجنة والنار مفازة لايقطعها إلى كل بكاء . فقال زكريا عليه السلام. يابني فابك

وقال المسيح عليه السلام . معاشر الحواريين ، خشية الله وحب الفردوس يورثان الصبر على المشقـة ، ويباعدان من الدنيا بحق أقول لـكم ، إن أكل الشعير والنـوم على المزابل مع الـكلاب فى طلب الفردوس قليل

وقيل كان الخليل صلوات الله عليه وسلامه إذا ذكر خطيئته يغشى عليه . ويسمع اضطراب قلبه ميلا فى ميل ، فيأتيه جبريل فيقول له . ربك يقرئك السلام ويقول . هل رأيت خليلا يخاف خليله ؟ فيقول ياجبريل ، إنى إذا ذكرت خطيئتى نسيت خلّتى

فهذه أحوال الأنبياء عليهم السلام ، فدونك والتأمل فيها ، فإنهم أعرف خلق الله بالله وصفاته صلوات الله عليهم أجمعين ، وعلى كل عباد الله المقربين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل

بيانه

أحوال الصحابة والتابعين والسلف والصالحين فى شدة الخوف

روي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال لطائر . ليتنى مثلك ياطائر ولم أخلق بشرا

وقال أبو ذر رضي الله عنه . وددت لو أنى شجرة تعضد . وكذلك قال طلحة

وقال عثمان رضي الله عنه . وددت أنى إذا مت لم أبعث . وقالت عائشة رضي الله عنها : وددت أنى كنت نسيا منسيا

تقوى عمر رضى الله عنه

وروي أن عمر رضي الله عنه كان يسقط من الخوف إذا سمع آية من القرءان مغشيا عليه ، فكان يعاد أياما . وأخذ يوما تبنـة من الأرض ؛ فقال . ياليتنى كنت هذه التبنة ،

ياليتني لم أك شيئا مذكورا ، ياليتني كنت نسيا منسيا ، ياليتني لم تلدني أمي . وكان في وجه عمر رضي الله عنه خطان أسودان من الدموع . وقال رضي الله عنه: من خاف الله لم يشف غيظه ومن اتقى الله لم يصنع ما يريد ، ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون

ولما قرأ عمر رضي الله عنه (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ[١]) وانتهى إلى قوله تعالى (وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ[٢]) خر مغشيا عليه . ومر يوما بدار إنسان وهو يصلي ويقرأ سورة (وَالطُّورِ[٣]) فوقف يستمع ، فلما بلغ قوله تعالى (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ[٤]) نزل عن حماره ، واستند إلى حائط ، ومكث زمانا ، ورجع إلى منزله فمرض شهرا يعوده الناس ، ولا يدرون ما مرضه . وقال علي كرم الله وجهه ، وقد سلم من صلاة الفجر ، وقد علاه كآبة وهو يقلب يده : لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، فلم أر اليوم شيئا يشبههم . لقد كانوا يصبحون شعثا ، صفرا ، غبرا ، بين أعينهم أمثال ركب المعزى ، قد باتوا لله سجدا وقياما يتلون كتاب الله ، يراوحون بين جباههم وأقدامهم ، فإذا أصبحوا ذكروا الله ، تمادوا كما يميد الشجر في يوم الريح ، وهملت أعينهم بالدموع حتى تبل ثيابهم . والله فكأني بالقوم باتوا غافلين . ثم قام فما رؤي بعد ذلك ضاحكا حتى ضربه ابن ملجم

وقال عمران بن حصين : وددت أن أكون رمادا تنسفني الرياح في يوم عاصف . وقال أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه : وددت أني كبش فيذبحني أهلي ، فيأكلون لحمي ، ويحسون مرقي . وكان علي بن الحسين رضي الله عنه إذا توضأ اصفر لونه . فيقول له أهله . ماهذا الذي يعتادك عند الوضوء ؟ فيقول . أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم!

وقال موسى بن مسعود : كنا إذا جلسنا إلى الثوري كأن النار قد أحاطت بنا ، لما نرى من خوفه وجزعه . وقرأ مضر القارىء يوما (هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ[٥]) الآية، فبكى عبد الواحد بن زيد حتى غشي عليه ، فلما أفاق قال : وعزتك لا عصيتك جهدي أبدا ، فأعني بتوفيقك على طاعتك . وكان المسور بن مخرمة لا يقوى أن يسمع شيئا من القرءان لشدة خوفه . ولقد كان يقرأ عنده الحرف والآية فيصيح صيحة فما يعقل أياما ، حتى أتى عليه رجل من خثعم ، فقرأ عليه (يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا[٦])

(١) التكوير : ١ (٢) التكوير : ١٠ (٣) الطور : ١ (٤) الطور : ٧ (٥) الجاثية : ٢٩ (٦) مريم : ٨٥ ، ٨٦

فقال أنا من المجرمين ولست من المتقين أعد عليّ القول أيها القارىء. فأعادها عليه ،فشهق شهقة فلحق بالآخرة،وقرئ عند يحي البكاء ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ[1] ﴾ فصاح صيحة مكث منها مريضا أربعة أشهر يعاد من أطراف البصرة

وقال مالك بن دينار : بينما أنا أطوف بالبيت ، إذ أنا بجويرية متعبدة ، متعلقة بأستار الكعبة ، وهي تقول . يارب كم شهوة ذهبت لذاتها و بقيت تبعاتها ! يارب أما كان لك أدب وعقوبة إلا النار ! وتبكي . فما زال ذلك مقامها حتى طلع الفجر . قال مالك . فلما رأيت ذلك وضعت يدى على رأسي صارخا أقول . ثكلت مالكا أمه

وروي أن الفضيل رؤي يوم عرفة والناس يدعون ، وهو يبكى بكاء الثكلى المحترقة حتى إذا كادت الشمس تغرب ، قبض على لحيته ، ثم رفع رأسه إلى السماء وقال . واسوأتاه منك وإن غفرت. ثم انقلب مع الناس . وسئل ابن عباس رضى الله عنهما عن الخائفين فقال . قلوبهم بالخوف قرحة ، وأعينهم باكية ، يقولون كيف نفرح والموت من ورائنا ، والقبر أمامنا ، والقيامة موعدنا ، وعلى جهنم طريقنا ، وبين يدى الله ربنا موقفنا

ومرّ الحسن بشاب وهو مستغرق فى ضحكه ، وهو جالس مع قوم فى مجلس ، فقال له الحسن . يافتى ، هل مررت بالصراط ؟ قال لا . قال فهل تدرى إلى الجنة تصير أم إلى النار؟ قال لا . قال : فما هذا الضحك ؟قال فما رؤى ذلك الفتي بعدها ضاحكا

وكان حماد بن عبد ربه إذا جلس جلس مستوفزا على قدميه ، فيقال له لو اطمأننت ؟ فيقول : تلك جلسة الآمن ، وأنا غير آمن إذ عصيت الله تعالى

وقال عمر بن عبد العزيز : إنما جعل الله هذه الغفلة فى قلوب العباد رحمة ، كيلا يموتوا من خشية الله تعالى . وقال مالك بن دينار : لقد هممت إذا أنا مت آمرهم أن يقيدونى ويغلونى ، ثم ينطلقوا بى إلى ربى كما ينطلق بالعبد الآبق إلى سيده

وقال حاتم الأصم : لاتغتر بموضع صالح ، فلا مكان أصلح من الجنة ، وقد لقي آدم عليه السلام فيها مالقي. ولاتغتر بكثرة العبادة . فإن ابليس بعد طول تعبده لقي مالقي ولاتغتر بكثرة العلم ، فإن بلعام كان يحسن اسم الله الأعظم، فانظر ماذا لقي،ولاتغتر برؤية الصالحين

(١) الأنعام : ٣٠

فلا شخص أكبر منزلة عندالله من المصطفى صلى الله عليه وسلم ولم ينتفع بلقائه أقاربه وأعداؤه

وقال السرى : إني لأنظر إلى أنفى كل يوم مرات ، مخافة أن يكون قداسود وجهى

وقال أبو حفص : منذ أربعين سنة اعتقادى فى نفسى أن الله ينظر إلىّ نظر السخط ، وأعمالى تدل على ذلك . وخرج ابن المبارك يوما على أصحابه فقال . انى اجترأت البارحة على الله ، سألته الجنة . وقالت أم محمد بن كعب القرظى لابنها . يابني ، إنى أعرفك صغيرا طيبا ، و كبيرا طيبا . وكأنك أحدثت حدثا موبقا لما أراك تصنع فى ليلك ونهارك . فقال ياأماه ، مايؤمننى أن يكون الله تعالى قد اطلع عليّ وأنا على بعض ذنوبى فمقتنى وقال وعزتى وجلالى لاغفرت لك ؟ . وقال الفضيل إنى لاأغبط نبيا مرسلا ، ولا ملكا مقربا ، ولا عبدا صالحا ، أليس هؤلاء يعاينون يوم القيامة ؟ إنما أغبط من لم يخلق

وروي [1] أن فتى من الأنصار دخلته خشية النار ، فكان يبكى حتى حبسه ذلك فى البيت . فجاء النبي صلى الله عليه وسلم ، فدخل عليه واعتنقه ، فخرّ ميتا . فقال صلى الله عليه وسلم « جَهِّزُوا صَاحِبَكُمْ فَإِنَّ الْفَرَقَ مِنَ النَّارِ فَتَّتَ كَبِدَهُ »

وروي عن ابن ميسرة ، أنه كان إذا أوى إلى فراشه يقول . ياليت أمى لم تلدنى. فقالت له أمه ياميسرة ، إن الله تعالى قد أحسن إليك ، هداك إلى الإسلام . قال أجل ، ولكن الله قد بين لنا أنا واردوا النار ، ولم يبين لنا أنا صادرون عنها . وقيل لفرقد السبخى . أخبرنا بأعجب شيء بلغك عن بنى اسرائيل . فقال . بلغنى أنه دخل بيت المقدس خمسمائة عذراء ، لباسهن الصوف والمسوح ، فتذاكرن ثواب الله وعقابه ، فمتن جميعا فى يوم واحد وكان عطاء السلمى من الخائفين ، ولم يكن يسأل الله الجنة أبدا ، إنما كان يسأل الله العفو . وقيل له فى مرضه . ألا تشتهى شيئا ؟ فقال إن خوف جهنم لم يدع فى قلبى موضعا للشهوة ويقال إنه مارفع رأسه إلى السماء ولا ضحك أربعين سنة . وأنه رفع رأسه يوما ففزع ، فسقط فانفتق فى بطنه فتق . وكان يمس جسده في بعض الليلة مخافة أن يكون قد مسخ . وكان إذا أصابتهم ريح ، أو برق ، أوغلاء طعام قال هذا من أجلى يصيبهم . لومات عطاء لاستراح الناس

---

(١) حديث ان فتى من الأنصار دخلته خشية من النار حتى حبسه خوفه فى البيت ـ الحديث : ابن أبى الدنيا فى الخائفين من حديث حذيفة والبيهقى فى الشعب من حديث سهل بن سعد باسنادين فيهما نظر

وقال عطاء: خرجنا مع عتبة الغلام ، وفينا كهول وشبان يصلون صلاة الفجر بطهور العشاء ، قد تورمت أقدامهم من طول القيام ، وغارت أعينهم في رءوسهم ، والصقت جلودهم على عظامهم ، وبقيت العروق كأنها الأوتار ، يصبحون كأن جلودهم قشور البطيخ وكأنهم قد خرجوا من القبور يخبرون كيف أكرم الله المطيعين ، وكيف أهان العاصين . فبينما هم يمشون ، إذ مر أحدهم بمكان فخرّ مغشيا عليه : فجلس أصحابه حوله يبكون في يوم شديد البرد ، وجبينه يرشح عرقا . فجاءوا بماء فمسحوا وجهه ، فأفاق ، وسألوه عن أمره فقال . إني ذكرت أني كنت عصيت الله في ذلك المكان

وقال صالح المري . قرأت على رجل من المتعبدين (يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاَ [1]) فصعق ثم أفاق فقال . زدني ياصالح ، فإني أجدُ غما .فقرأت (كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا [2]) فخر ميتا

وروي أن زرارة بن أبي أوفى صلى بالناس الغداة ، فلما قرأ (فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ [3]) خر مغشيا عليه ، فحمل ميتا

ودخل يزيد الرقاشي على عمر بن عبد العزيز ، فقال عظني يايزيد . فقال ياأمير المؤمنين اعلم أنك لست أول خليفة يموت . فبكى ثم قال زدني . قال ياأمير المؤمنين ، ليس بينك وبين آدم أب إلا ميت . فبكى . ثم قال زدني يايزيد . فقال ياأمير المؤمنين ، ليس بينك وبين الجنة والنار منزل . فخر مغشيا عليه

وقال [1] ميمون بن مهران . لما نزلت هذه الآية (وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ [4]) صاح سلمان الفارسي ، ووضع يده على رأسه ، وخرج هاربا ثلاثة أيام لايقدرون عليه

ورأى داود الطائي امرأة تبكي على رأس قبر ولدها وهي تقول . ياابناه ، ليت شعري أي خديك بدأ به الدود أولا . فصعق داود وسقط مكانه

وقيل مرض سفيان الثوري ، فعرض دليله على طبيب ذمي ، فقال هذا رجل قطع الخوف كبده . ثم جاء وجس عروقه . ثم قال . ما علمت أن في الملة الحنيفية مثله

---

(١) حديث ميمون بن مهران لما نزلت هذه الآية وإن جهنم لموعدهم أجمعين صاح سلمان الفارسي : لم أقف له على أصل

(١) الاحزاب : ٦٦ (٢) الحج : ٢٢ (٣) المدثر : ٨ (٤) الحجر : ٤٣

وقال أحمد بن حنبل رحمة الله عليه : سألت الله عز وجل أن يفتح عليّ بابا من الخوف ففتح ، فخفت على عقلي ، فقلت يارب على قدر ما أطيق . فسكن قلبي

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : ابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا ، فو الذى نفسى بيده لو يعلم العلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته ، وصلى حتى ينكسر صلبه . وكأنه أشار إلى معنى قوله صلى الله عليه وسلم [1] « لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً »

وقال العنبرى : اجتمع أصحاب الحديث على باب الفضيل بن عياض ، فاطلع عليهم من كوة وهو يبكى ، ولحيته ترجف . فقال عليكم بالقرءان ، عليكم بالصلاة ، ويحكم ليس هذا زمان حديث ، إنما هذا زمان بكاء ، وتضرع واستكانة ، ودعاء كدعاء الغريق . إنما هذا زمان احفظ لسانك ، وأخف مكانك ، وعالج قلبك ، وخذ ما تعرف ، ودع ما تنكر . ورؤى الفضيل يوما وهو يمشى ، فقيل له إلى أين ؟ قال لا أدرى . وكان يمشى والها من الخوف . وقال ذرّ بن عمر لأبيه عمر بن ذر : ما بال المتكلمين يتكلمون فلا يبكى أحد ، فإذا تكلمت أنت سمعت البكاء من كل جانب ؟ فقال يا بنى ، ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة

وحكي أن قوما وقفوا بعابد وهو يبكى ، فقالوا ما الذى يبكيك يرحمك الله ؟ قال قرحة يجدها الخائفون فى قلوبهم . قالوا وما هي ؟ قال روعة النداء بالعرض على الله عز وجل

وكان الخواص يبكى ويقول فى مناجاته : قد كبرت وضعف جسمى عن خدمتك فاعتقنى

وقال صالح المرى : قدم علينا ابن السماك مرة فقال . أرنى شيئا من بعض عجائب عبّادكم . فذهبت به إلى رجل فى بعض الأحياء فى خُصٍّ له ، فاستأذنا عليه ، فإذا رجل يعمل خوصا . فقرأت عليه (إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ [1]) فشهق الرجل شهقة وخر مغشيا عليه ، فخرجنا من عنده وتركناه على حاله وذهبنا إلى آخر ، فدخلنا عليه ، فقرأت هذه الآية ، فشهق شهقة وخر مغشيا عليه . فذهبنا واستأذنا على ثالث ، فقال ادخلوا إن لم تشغلونا عن ربنا . فقرأت (ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ [2]) فشهق شهقة ، فبدا الدم من منخريه ، وجعل يتشحط فى دمه حتى يبس . فتركناه على حاله وخرجنا . فأدرته على ستة أنفس ، كل نخرج من عنده و نتركه

---

(١) حديث لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا : تقدم فى قواعد العقائد

(١) غافر : ٧١ (٢) ابراهيم : ١٤

مغشيا عليه. ثم أتيت به إلى السابع، فاستأذنا، فإذا امرأة من داخل الخص تقول: ادخلوا فدخلنا، فإذا شيخ فان جالس فى مصلاه، فسلمنا عليه، فلم يشعر بسلامنا. فقلت بصوت عال. ألا إن للخلق غدا مقاما. فقال الشيخ. بين يدي من؟ ويحك! ثم بقى مبهوتا فاتحا فاه، شاخصا بصره، يصيح بصوت له ضعيف، أوه أوه، حتى انقطع ذلك الصوت، فقالت امرأته. اخرجوا فإنكم لا تنتفعون به الساعة فلما كان بعد ذلك سألت عن القوم، فإذا ثلاثة قد أفاقوا، وثلاثة قد لحقوا بالله تعالى، وأما الشيخ فإنه مكث ثلاثة أيام على حالته مبهوتا متحيرا، لا يؤدى فرضا، فلما كان بعد ثلاث عقل

وكان يزيد بن الأسود يرى أنه من الأبدال، وكان قد حلف أنه لا يضحك أبدا، ولا ينام مضطجعا، ولا يأكل سمنا أبدا. فما رؤى ضاحكا، ولا مضطجعا، ولا أكل سمنا حتى مات رحمه الله . وقال الحجاج لسعيد بن جبير. بلغنى أنك لم تضحك قط. فقال كيف أضحك وجهنم قد سعرت، والأغلال قد نصبت، والزبانية قد أعدت! . وقال رجل للحسن: يا أبا سعيد، كيف أصبحت؟ قال بخير. قال كيف حالك؟ فتبسم الحسن وقال: تسألنى عن حالى! ماظنك بناس ركبوا سفينة حتى توسطوا البحر فانكسرت سفينتهم، فتعلق كل إنسان منهم بخشبة، على أى حال يكون؟ قال الرجل على حال شديدة. قال الحسن حالى أشد من حالهم

خوف عمر بن عبد العزيز

ودخلت مولاة لعمر بن عبد العزيز عليه، فسلمت عليه، ثم قامت إلى مسجد فى بيته، فصلت فيه ركعتين، وغلبتها عيناها فرقدت، فاستبكت فى منامها ثم انتبهت، فقالت يا أمير المؤمنين، إنى والله رأيت عجبا. قال وماذلك؟ قالت رأيت النار وهي تزفر على أهلها، ثم جيء بالصراط فوضع على متنها. فقال هيه. قالت فجيء بعبد الملك بن مروان. فحمل عليه فما مضى عليه إلا يسيرا حتى انكفأ به الصراط، فهوى إلى جهنم. فقال عمر هيه. قالت ثم جيء بالوليد بن عبد الملك، فحمل عليه. فما مضى إلا يسيرا حتى انكفأ به الصراط، فهوى إلى جهنم فقال عمر هيه. قالت ثم جيء بسليمان بن عبد الملك، فما مضى عليه إلا يسيرا حتى انكفأ به الصراط، فهوى كذلك. فقال عمر هيه. قالت ثم جيء بك والله يا أمير المؤمنين، فصاح عمر رحمة الله عليه صيحة خر مغشيا عليه، فقامت إليه، فجعلت تنادى فى أذنه يا أمير المؤمنين إنى رأيتك والله قد نجوت، إنى رأيتك والله قد نجوت. قال وهي تنادى وهو يصيح ويفحص برجليه

ويحكى أن أويسا القرنى رحمه الله كان يحضر عند القاص فيبكى من كلامه، فإذا ذكر النار صرخ أويس، ثم يقوم منطلقا، فيتبعه الناس فيقولون مجنون مجنون . وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه. إن المؤمن لا يسكن روعه حتى يترك جسر جهنم وراءه وكان طاوس يفرش له الفراش، فيضطجع ويتقلى

كما تتقلى الحبة فى المقلى، ثم يثب فيدرجه ويستقبل القبلة حتى الصباح، ويقول. طيّر ذكرُ جهنم نوم الخائفين. وقال الحسن البصرى رحمه الله: يخرج من النار رجل بعد ألف عام، ياليتنى كنت ذلك الرجل وإنما قال ذلك لخوفه من الخلود وسوء الخاتمة . وروي أنه ماضحك أربعين سنة. قال وكنت إذا رأيته قاعدا كأنه أسير قد قدم لتضرب عنقه . وإذا تكلم كأنه يعاين الآخرة فيخبر عن مشاهدتها. فإذا سكت كأن النار تسعر بين عينيه. وعوتب فى شدة حزنه وخوفه فقال: مايؤمنني أن يكون الله تعالى قد اطلع فيّ على بعض مايكره، فمقتنى، فقال اذهب فلا غفرت لك، فأنا أعمل فى غير معتمل

وعن ابن السماك قال. وعظت يوما فى مجلس. فقام شاب من القوم فقال. ياأبا العباس لقد وعظت اليوم بكلمة ما كنا نبالى أن لانسمع غيرها. قلت وماهي رحمك الله؟ قال قولك: لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلودين، إما فى الجنة أو فى النار. ثم غاب عنى، ففقدته فى المجلس الآخر فلم أره، فسألت عنه، فأخبرت أنه مريض يعاد. فأتيته أعوده، فقلت ياأخى ماالذى أرى بك؟ فقال ياأبا العباس، ذلك من قولك. لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلودين إما فى الجنة أو فى النار. قال ثم مات رحمه الله، فرأيته فى المنام، فقلت ياأخى مافعل الله بك؟ قال غفر لى ورحمنى وأدخلنى الجنة. قلت بماذا؟ قال بالكلمة . فهذه مخاوف الأنبياء، والأولياء، والعلماء، والصالحين ونحن أجدر بالخوف منهم. لكن ليس الخوف بكثرة الذنوب، بل بصفاء القلوب، وكمال المعرفة وإلا فليس أمننا لقلة ذنوبنا وكثرة طاعاتنا، بل قادتنا شهوتنا، وغلبت علينا شقوتنا، وصدتنا عن ملاحظة أحوالنا غفلتنا وقسوتنا. فلا قرب الرحيل ينبهنا، ولا كثرة الذنوب تحركنا، ولا مشاهدة أحوال الخائفين تخوفنا، ولا خطر الخاتمة يزعجنا. فنسأل الله تعالى أن يتدارك بفضله وجوده أحوالنا فيصلحنا، إن كان تحريك اللسان بمجرد السؤال دون الاستعداد ينفعنا

ومن العجائب أنا إذا أردنا المال فى الدنيا زرعنا، وغرسنا، واتجرنا وركبنا البحار والبراري وخاطرنا، وإن أردنا طلب رتبة العلم تفقهنا وتعبنا فى حفظه وتكراره وسهرنا، ونجتهد فى طلب أرزاقنا ولا نثق بضمان الله لنا، ولانجلس فى بيوتنا فنقول اللهم ارزقنا، ثم إذا طمحت أعيننا نحو الملك الدائم المقيم، قنعنا بأن نقول بألسنتنا اللهم اغفر لنا وارحمنا! والذى إليه رجاؤنا، وبه اعتزازنا، ينادينا ويقول (وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى [1])

---

(١) النجم: ٣٩

(وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ [١]) وَ (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ [٢])
ثم كل ذلك لاينبهنا ولا يخرجنا عن أودية غرورنا وأمانينا . فما هذه إلا محنة هائلة إن لم يتفضل الله علينا بتوبة نصوح يتدارکنا بها ويجبرنا . فنسأل الله تعالى أن يتوب علينا ، بل نسأله أن يشوق إلى التوبة سرائر قلوبنا ، وأن لا يجعل حركة اللسان بسؤال التوبة غاية حظنا ، فنكون ممن يقول ولا يعمل ، ويسمع ولا يقبل ، إذا سمعنا الوعظ بكينا ، وإذا جاء وقت العمل بما سمعناه عصينا فلا علامة للخذلان أعظم من هذا ، فنسأل الله تعالى أن يمن علينا بالتوفيق والرشد بمنّه وفضله

ولنقتصر من حكاية أحوال الخائفين على ما أوردناه ، فإن القليل من هذا يصادف القلب القابل ، فيكفي ، والكثير منه وإن أفيض على القلب الغافل فلا يغني

ولقد صدق الراهب الذي حكى عنه عيسى بن مالك الخولاني ، وكان من خيار العبّاد أنه رآه على باب بيت المقدس واقفا كهيئة المحزون من شدة الوله ، مايكاد يرقأ دمعه من كثرة البكاء ، فقال عيسى . لما رأيته هالني منظره ، فقلت أيها الراهب أوصني بوصية أحفظها عنك فقال يا أخي بماذا أوصيك ؟ إن استطعت أن تكون بمنزلة رجل قد احتوشته السباع والهوام فهو خائف حذر ، يخاف أن يغفل فتفترسه السباع ، أو يسهو فتنهشه الهوام ، فهو مذعور القلب وجل ، فهو في المخافة ليله وإن أَمن المغترون ، وفي الحزن نهاره وإن فرح البطالون ثم ولى وتركني . فقلت لو زدتني شيئا عسى ينفعني ؟ فقال الظمآن يجزيه من الماء أيسره وقد صدق ، فإن القلب الصافي يحركه أدنى مخافة ، والقلب الجامد تنبو عنه كل المواعظ

وماذكره من تقديره أنه احتوشته السباع والهوام ، فلا ينبغي أن يظن أنه تقدير ، بل هو تحقيق . فإنك لو شاهدت بنور البصيرة باطنك ، لرأيته مشحونا بأصناف السباع وأنواع الهوام ، مثل الغضب ، والشهوة ، والحقد ، والحسد ، والكبر ، والعجب والرياء وغيرها ، وهي التي لاتزال تفترسك وتنهشك إن غفلت عنها لحظة ، إلا أنك محجوب العين عن مشاهدتها . فإذا انكشف الغطاء ، ووضعت في قبرك ، عاينتها وقد تمثلت لك بصورها وأشكالها الموافقة لمعانيها ، فترى بعينك العقارب والحيات وقد أحدقت بك في قبرك ، وإنما هي صفاتك الحاضرة الآن ، قد انكشف لك صورها ، فإن أردت أن تقتلها وتقهرها وأنت قادر عليها قبل الموت فافعل ، وإلا فوطن نفسك على لدغها ونهشها الصميم قلبك ، فضلا عن ظاهر بشرتك والسلام

---

(١) فاطر : ٥ (٢) الانفطار : ٦

كتاب الفقر والزهد

كتاب الفقر والزهد

وهو الكتاب الرابع من ربع المنجيات من كتب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى تسبّح له الرمال ، وتسجد له الظلال ، وتتدكدك من هيبته الجبال . خلق الإنسان من الطين اللازب والصلصال ، وزين صورته بأحسن تقويم وأتم اعتدال ، وعصم قلبه بنور الهداية عن ورطات الضلال ، وأذن له فى قرع باب الخدمة بالغدوّ والآصال . ثم كحل بصيرة المخلص فى خدمته بنور العبرة حتى لاحظ بضيائه حضرة الجلال ، فلاح له من البهجة والبهاء والكمال ما استقبح دون مبادى إشراقه كل حسن وجمال ، واستثقل كل ما صرفه عن مشاهدته وملازمته غاية الاستثقال ، وتمثل له ظاهر الدنيا فى صورة امرأة جميلة تميس وتختال ، وانكشف له باطنها عن عجوز شوهاء عجنت من طينة الخزي وضربت فى قالب النكال ، وهي متلففة بجلبابها لتخفى قبائح أسرارها بلطائف السحر والاحتيال ، وقد نصبت حبائلها فى مدارج الرجال ، فهي تقتنصهم بضروب المكر والاغتيال ، ثم لا تجتزىء معهم بالخلف فى مواعيد الوصال ، بل تقيّدهم مع قطع الوصال بالسلاسل والأغلال ، وتبليهم بأنواع البلايا والأنكال . فلما انكشف للعارفين منها قبائح الأسرار والأفعال زهدوا فيها زهد المبغض لها فتركوها وتركوا التفاخر والتكاثر بالأموال ، وأقبلوا بكنه هممهم على حضرة الجلال واثقين منها بوصال ليس دونه انفصال ، ومشاهدة أبدية لا يعتريها فناء ولا زوال .

والصلاة على سيدنا محمد سيد الأنبياء وعلى آله خير آل

أما بعد : فإن الدنيا عدوّة لله عز وجل ، بغرورها ضلّ من ضلّ ، وبمكرها زلّ من زلّ فحبها رأس الخطايا والسيئات ، وبغضها أم الطاعات وأسّ القربات . وقد استقصينا ما يتعلق بوصفها وذم الحب لها فى كتاب ذم الدنيا من ربع المهلكات ، ونحن الآن نذكر فضل البغض لها والزهد فيها فإنه رأس المنجيات . فلا مطمع فى النجاة إلا بالانقطاع عن الدنيا والبعد منها لكن مقاطعتها إما أن تكون بانزوائها عن العبد ويسمى ذلك فقرا ، وإما بانزواء العبد عنها

ويسمى ذلك زهدا. والكل واحد منهما درجة فى نيل السعادات، وحظ فى الإعانة على الفوز والنجاة

ونحن الآن نذكر حقيقة الفقر والزهد، ودرجاتهما، وأقسامهما، وشروطهما، وأحكامهما ونذكر الفقر فى شطر من الكتاب، والزهد فى شطر آخر منه، ونبدأ بذكر الفقر فنقول

الشطر الاول

من الكتاب فى الفقر

وفيه بيان حقيقة الفقر، وبيان فضيلة الفقر مطلقا، وبيان خصوص فضيلة الفقراء وبيان فضيلة الفقير على الغني، وبيان أدب الفقير فى فقره، وبيان أدبه فى قبوله العطاء، وبيان تحريم السؤال بغير ضرورة، وبيان مقدار الغنى المحرم للسؤال، وبيان أحوال السائلين، والله الموفق للصواب بلطفه وكرمه

بيانه

حقيقة الفقر واختلاف أحوال الفقير وأساميه

معنى الفقر

اعلم أن الفقر عبارة عن فقد ما هو محتاج إليه. أما فقد ما لا حاجة إليه فلا يسمى فقرا. وإن كان المحتاج إليه موجودا مقدورا عليه، لم يكن المحتاج فقيرا. وإذا فهمت هذا لم تشك فى أن كل موجود سوى الله تعالى فهو فقير، لأنه محتاج إلى دوام الوجود فى ثانى الحال، ودوام وجوده مستفاد من فضل الله تعالى وجوده. فإن كان فى الوجود موجود ليس وجوده مستفادا له من غيره فهو الغنى المطلق، ولا يتصور أن يكون مثل هذا الموجود إلا واحدا، فليس فى الوجود إلا غني واحد، وكل من عداه فإنهم محتاجون إليه، ليمد وجودهم بالدوام. وإلى هذا الحصر الإشارة بقوله تعالى (وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ[1]) هذا معنى الفقر مطلقا. ولكنا لسنا نقصد بيان الفقر المطلق، بل الفقر من المال على الخصوص وإلا ففقر العبد بالإضافة إلى أصناف حاجاته لا ينحصر، لأن حاجاته لا حصر لها. ومن جملة حاجاته ما يتوصل إليه بالمال، وهو الذى نريد الآن بيانه فقط، فنقول:

---

(١) محمد: ٣٨

كل فاقد للمال فإنا نسميه فقيرا بالإضافة إلى المال الذى فقده ، إذا كان ذلك المفقود محتاجا إليه فى حقه . ثم يتصور أن يكون له خمسة أحوال عند الفقر ، ونحن نميزها ونخص كل حال باسم ، لنتوصل بالتمييز إلى ذكر أحكامها

مراتب الانسان عند عدم المال

الحالة الأولى : وهي العليا ، أن يكون بحيث لو أتاه المال لكرهه وتأذى به ، وهرب من أخذه ، مبغضا له ، ومحترزا من شره وشغله ، وهو الزهد ، واسم صاحبه الزاهد

الثانية : أن يكون بحيث لا يرغب فيه رغبة يفرح لحصوله ، ولا يكرهه كراهة يتأذى بها ويزهد فيه لو أتاه ، وصاحب هذه الحالة يسمى راضيا

الثالثة : أن يكون وجود المال أحب إليه من عدمه ، لرغبة له فيه ، ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه ، بل إن أتاه صفوا عفوا أخذه وفرح به ، وإن افتقر إلى تعب فى طلبه لم يشتغل به . وصاحب هذه الحالة نسميه قانعا ، إذ قنع نفسه بالموجود حتى ترك الطلب ، مع ما فيه من الرغبة الضعيفة

الرابعة : أن يكون تركه الطلب لعجزه ، وإلا فهو راغب فيه رغبة لو وجد سبيلا إلى طلبه ولو بالتعب لطلبه ، أو هو مشغول بالطلب . وصاحب هذه الحالة نسميه بالحريص

الخامسة : أن يكون ما فقده من المال مضطرا إليه ، كالجائع الفاقد للخبز ، والعارى الفاقد للثوب . ويسمى صاحب هذه الحالة مضطرا ، كيفما كانت رغبته فى الطلب إما ضعيفة وإما قوية . وقلما تنفك هذه الحالة عن الرغبة

فهذه خمسة أحوال ، أعلاها الزهد . والاضطرار إن انضم إليه الزهد ، وتصوّر ذلك ، فهو أقصى درجات الزهد كما سيأتى بيانه . ووراء هذه الأحوال الخمسة حالة هي أعلى من الزهد ، وهي أن يستوي عنده وجود المال وفقده . فإن وجده لم يفرح به ولم يتأذ . وإن فقده فكذلك . بل حاله كما كان حال عائشة رضي الله تعالى عنها ، إذ أتاها مائة ألف درهم من العطاء ، فأخذتها وفرقتها من يومها ، فقالت خادمتها : ما استطعت فيما فرقت اليوم أن تشترى لنا بدرهم لحما نفطر عليه ؟ فقالت لو ذكرتيني لفعلت

فمن هذه حاله لو كانت الدنيا بحذافيرها فى يده وخزائنه لم تضره ، إذ هو يرى الأموال فى خزانة الله تعالى لا فى يد نفسه ، فلا يفرّق بين أن تكون فى يده أو فى يد غيره .

ويبنغي أن يسمى صاحب هذه الحالة المستغني ، لأنه غني عن فقد المال ووجوده جميعا

وليفهم من هذا الاسم معنى يفارق اسم الغنى المطلق على الله تعالى ، وعلى من كثر ماله من العباد . فإن من كثر ماله من العباد وهو يفرح به ؟ فهو فقير إلى بقاء المال في يده ، وإنما هو غني عن دخول المال في يده ، لا عن بقائه . فهو إذاً فقير من وجه . وأما هذا الشخص فهو غني عن دخول المال في يده ، وعن بقائه في يده ، وعن خروجه من يده أيضا ، فإنه ليس يتأذى به ليحتاج إلى إخراجه ، وليس يفرح به ليحتاج إلى بقائه ، وليس فاقدا له ليحتاج إلى الدخول في يده . فغناه إلى العموم أميل . فهو إلى الغنى الذي هو وصف الله تعالى أقرب . وإنما قرب العبد من الله تعالى بقرب الصفات ، لا بقرب المكان

ولكنا لا نسمي صاحب هذه الحالة غنيا ، بل مستغنيا ، ليبقى الغنى اسما لمن له الغنى المطلق عن كل شيء . وأما هذا العبد فإن استغنى عن المال وجودا أو عدما ، فلم يستغن عن أشياء أخر سواه ، ولم يستغن عن مدد توفيق الله له ليبقى استغناؤه الذي زين الله به قلبه ، فإن القلب المقيد بحب المال رقيق ، والمستغني عنه حر ، والله تعالى هو الذي أعتقه من هذا الرق ، فهو محتاج إلى دوام هذا العتق . والقلوب متقلبة بين الرق والحرية في أوقات متقاربة لأنها بين أصبعين من أصابع الرحمن . فلذلك لم يكن اسم الغنى مطلقا عليه مع هذا الكمال إلا مجازا

واعلم أن الزهد درجة هي كمال الأبرار . وصاحب هذه الحالة من المقربين ، فلا جرم صار الزهد في حقه نقصانا ، إذ حسنات الأبرار سيئات المقربين . وهذا لأن الكاره الدنيا مشغول بالدنيا ، كما أن الراغب فيها مشغول بها . والشغل بما سوى الله تعالى حجاب عن الله تعالى ، إذ لا بعد بينك وبين الله تعالى حتى يكون البعد حجابا ، فإنه أقرب إليك من حبل الوريد ، وليس هو في مكان حتى تكون السموات والأرض حجابا بينك وبينه فلا حجاب بينك وبينه إلا شغلك بغيره . وشغلك بنفسك وشهواتك شغل بغيره ، وأنت لا تزال مشغولا بنفسك وبشهوات نفسك ، فكذلك لا تزال محجوبا عنه . فالمشغول بحب نفسه مشغول عن الله تعالى . والمشغول ببغض نفسه أيضا مشغول عن الله تعالى . بل كل ما سوى الله مثاله مثال الرقيب الحاضر في مجلس يجمع العاشق والمعشوق ، فإن التفت قلب العاشق إلى الرقيب ، وإلى بغضه

واستثقاله ، وكراهة حضوره ، فهو فى حال اشتغال قلبه ببغضه مصروف عن التلذذ بمشاهدة معشوقه . ولو استغرقه العشق لغفل عن غير المعشوق ، ولم يلتفت إليه . فكما أن النظر إلى غير المعشوق لحبه عند حضور المعشوق شرك فى العشق ، ونقص فيه ، فكذا النظر إلى غير المحبوب لبغضه شرك فيه ونقص ، ولكن أحدهما أخف من الآخر : بل الكمال فى أن لا يلتفت القلب إلى غير المحبوب بغضا وحبا ، فإنه كما لا يجتمع فى القلب حبان فى حالة واحدة ، فلا يجتمع أيضا بغض وحب فى حالة واحدة

فالمشغول ببغض الدنيا غافل عن الله كالمشغول بحبها ، إلا أن المشغول بحبها غافل ،وهو فى غفلته سالك فى طريق البعد ، والمشغول ببغضها غافل ، وهو فى غفلته سالك فى طريق القرب إذ يرجى له أن ينتهى حاله إلى أن تزول هذه الغفلة وتتبدل بالشهود ، فالكمال له مرتقب ، لأن بغض الدنيا مطية توصل إلى الله

فالمحب والمبغض كرجلين فى طريقي الحج ، مشغولين بركوب الناقة،وعلفها،وتسييرها ولكن أحدهما مستقبل الكعبة ، والآخر مستدبر لها . فهما سيان بالإضافة إلى الحال ، فى أن كل واحد منهما محجوب عن الكعبة ومشغول عنها ، ولكن حال المستقبل محمود بالإضافة إلى المستدبر ، إذ يرجى له الوصول إليها ، وليس محمودا بالإضافة إلى المعتكف فى الكعبة ، الملازم لها ، الذى لا يخرج منها حتى يفتقر إلى الاشتغال بالدابة فى الوصول إليها

فلا ينبغى أن تظن أن بغض الدنيا مقصود فى عينه . بل الدنيا عائق عن الله تعالى ، ولا وصول إليه إلا بدفع العائق . ولذلك قال أبو سليمانى الدارانى رحمه الله : من زهد فى الدنيا واقتصر عليه ، فقد استعجل الراحة . بل ينبغى أن يشتغل بالآخرة . فبين أن سلوك طريق الآخرة وراء الزهد ، كما أن سلوك طريق الحج وراء دفع الغريم العائق عن الحج

فإذاً قد ظهر أن الزهد فى الدنيا إن أريد به عدم الرغبة فى وجودها وعدمها،فهو غاية الكمال ، وإن أريد به الرغبة فى عدمها ، فهو كمال بالإضافة إلى درجة الراضى ، والقانع ، والحريص ، ونقصان بالإضافة إلى درجة المستغنى. بل الكمال فى حق المال أن يستوي عندك المال والماء . وكثرة الماء فى جوارك لا تؤذيك بأن تكون على شاطىء البحر. ولا قلته تؤذيك إلا فى قدر الضرورة ، مع أن المال محتاج إليه ، كما أن الماء محتاج إليه . فلا يكون قلبك

مشغولا بالفرار عن جوار الماء الكثير ، ولا يبغض الماء الكثير . بل تقول أشرب منه بقدر الحاجة ، وأسقي منه عباد الله بقدر الحاجة ، ولا أبخل به على أحد

فهكذا ينبغي أن يكون المال ، لأن الخبز والماء واحد فى الحاجة ، وإنما الفرق بينهما فى قلة أحدهما وكثرة الآخر . وإذا عرفت الله تعالى ، ووثقت بتدبيره الذى دبّر به العالم، علمت أن قدر حاجتك من الخبز يأتيك لامحالة مادمت حيا ، كما يأتيك قدر حاجتك من الماء ، على ماسيأتى بيانه فى كتاب التوكل إن شاء الله تعالى

قال أحمد بن أبى الحوارى : قلت لأبى سليمان الدارانى : قال مالك بن دينار للمغيرة اذهب إلى البيت ، فخذ الركوة * التى أهديتها لى ، فإن العدوّ يوسوس لى أن اللص قد أخذها . قال أبو سليمان : هذا من ضعف قلوب الصوفية ، قدزاده فى الدنيا ماغلبه من أخذها فبين أن كراهية كون الركوة فى بيته التفات إليها سببه الضعف والنقصان

فإن قلت : فما بال الأنبياء والأولياء هربوا من المال ونفروا منه كل النفار

قبول الصحابة للمال وصرفه فى مواضعه

فأقول : كما هربوا من الماء ، على معنى أنهم ماشربوا أكثر من حاجتهم ، ففروا عما وراءه ، ولم يجمعوه فى القرب والراوايا يديرونه مع أنفسهم ، بل تركوه فى الأنهار والآبار والبرارى للمحتاجين إليه . لاأنهم كانت قلوبهم مشغولة بحبه أو بغضه وقدحملت [1] خزائن الأرض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وإلى أبى بكر وعمر رضي الله عنهما ، فأخذوها ووضعوها فى مواضعها ، وما هربوا منها . إذ كان يستوى عندهم المال ، والماء ، والذهب ، والحجر . وما نقل عنهم من امتناع ، فإما أن ينقل عمن خاف أن لو أخذه أن يخدعه المال

(١) حديث ان خزائن الارض حملت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم والى أبى بكر وعمر فأخذوها ووضعوها فى مواضعها : هذا معروف وقد تقدم فى آداب المعيشة من عند البخارى تعليقا مجزوما به من حديث أنس أتى النبي صلى الله عليه وسلم بمال من البحرين وكان أكثر مال أتى به فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الصلاة ولم يلتفت اليه فلما قضى الصلاة جاء فجلس اليه فقلما كان يرى أحدا الا أعطاه ووصله له عمر بن محمد البحيرى فى صحيحه من هذا الوجه وفى الصحيحين من حديث عمرو بن عوف قدم أبو عبيدة بمال من البحرين فسمعت الانصار بقدومه ـ الحديث : ولهما من حديث جابر لو جاءنا مال البحرين أعطيناك هكذا ثلاثا فلم يقدم حتى توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر أبو بكر مناديا فنادى من كان له على رسول الله صلى الله عليه وسلم عدة أودين فليأتنا فقلت ان النبي صلى الله عليه وسلم وعدنى فحثالى ثلاثا

* الركوة ـ الزورق الصغير

ويقيد قلبه ، فيدعوه إلى الشهوات ، وهذا حال الضعفاء ، فلاجرم البغض المال والهرب منه في حقهم كمال . وهذا حكم جميع الخلق ، لأن كلهم ضعفاء إلا الأنبياء والأولياء ، وإما أن ينقل عن قوي بلغ الكمال ، ولكن أظهر الفرار والنفار نزولا إلى درجة الضعفاء ، ليقتدوا به في الترك ، إذ لو اقتدوا به في الأخذ لهلكوا ، كما يفر الرجل المعزم بين يدي أولاده من الحية لا لضعفه عن أخذها ، ولكن لعلمه أنه لو أخذها أخذها أولاده إذا رأوها فيهلكون . والسير بسير الضعفاء ضرورة الأنبياء ، والأولياء ، والعلماء

فقد عرفت إذاً أن المراتب ست ، وأعلاها رتبة المستغني ، ثم الزاهد ، ثم الراضي ، ثم القانع ، ثم الحريص . وأما المضطر فيتصور في حقه أيضا الزهد ، والرضا ، والقناعة ، ودرجته تختلف بحسب اختلاف هذه الأحوال . واسم الفقير يطلق على هذه الخمسة . أما تسمية المستغني فقيرا فلا وجه لها بهذا المعنى . بل إن سمي فقيرا فبمعنى آخر ، وهو معرفته بكونه محتاجا إلى الله تعالى في جميع أموره عامة ، وفي بقاء استغنائه عن المال خاصة فيكون اسم الفقير له كاسم العبد لمن عرف نفسه بالعبودية وأقرّ بها ، فإنه أحق باسم العبد من الغافلين ، وإن كان اسم العبد عاما للخلق ، فكذلك اسم الفقير عام . ومن عرف نفسه بالفقر إلى الله تعالى فهو أحق باسم الفقير . فاسم الفقير مشترك بين هذين المعنيين

وإذا عرفت هذا الاشتراك ، فهمت أن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفَقْرِ » وقوله عليه السلام [2] « كَادَ الْفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفْراً » لايناقض قوله [3] « أَحْيِنِي مِسْكِيناً وَأَمِتْنِي مِسْكِيناً » إذ فقر المضطر هو الذى استعاذ منه ، والفقر الذى هو الاعتراف بالمسكنة ، والذلة ، والافتقار إلى الله تعالى ، هو الذى سأله في دعائه صلى الله عليه وسلم وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء

---

(١) حديث أعوذ بك من الفقر : تقدم في الاذكار والدعوات
(٢) حديث كاد الفقر أن يكون كفرا : تقدم في ذم الحسد
(٣) حديث اللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا : الترمذي من حديث أنس وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد وقد تقدم

بيان
فضيلة الفقر مطلقا

أما من الآيات فيدل عليه قوله تعالى (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ [١]) الآية ، وقال تعالى (لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ [٢]) ساق الكلام فى معرض المدح ، ثم قدم وصفهم بالفقر على وصفهم بالهجرة والإحصار وفيه دلالة ظاهرة على مدح الفقر

وأما الأخبار فى مدح الفقر فأكثر من أن تحصى . روى عبد الله[١] بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه « أيُّ النَّاسِ خَيْرٌ ؟ » فقالوا موسر من المال يعطى حق الله فى نفسه وماله . فقال « نِعْمَ الرَّجُلُ هَذَا وَلَيْسَ بِهِ » قالوا فمن خير الناس يارسول الله ؟ قال « فَقِيرٌ يُعْطِي جُهْدَهُ » وقال صلى الله عليه وسلم [٢] لبلال « الْقَ اللهَ فَقِيرًا وَلَا تَلْقَهُ غَنِيًّا » وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْفَقِيرَ الْمُتَعَفِّفَ أَبَا الْعِيَالِ » وفى الخبر المشهور[٤] « يَدْخُلُ فُقَرَاءُ أُمَّتِي الْجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَائِهَا بِخَمْسِمِائَةِ عَامٍ » وفى حديث آخر [٥] « بِأَرْبَعِينَ خَرِيفًا » أى أربعين سنة . فيكون المراد به تقدير تقدم الفقير الحريص على الغني الحريص . والتقدير بخمسمائة عام تقدير تقدم الفقير الزاهد

---

(١) حديث ابن عمر أنه صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه أى الناس خير فقالوا موسر من المال يعطى حق الله من نفسه وماله فقال نعم الرجل هذا وليس به قالوا فمن خير الناس قال فقير يعطى جهده : ابو منصور الديلمى فى مسند الفردوس بسند ضعيف مقتصرا على المرفوع منه دون سؤاله لأصحابه وسؤالهم له

(٢) حديث قال لبلال الق الله فقيرا ولا تلقه غنيا : الحاكم فى كتاب علامات أهل التحقيق من حديث بلال ورواه الطبرانى من حديث أبى سعيد بلفظ مت فقيرا ولا تمت غنيا وكلاهما ضعيف

(٣) حديث ان الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال : ابن ماجه من حديث عمران بن حصين وقد تقدم

(٤) حديث يدخل فقراء أمتى الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام : الترمذى من حديث أبى هريرة وقال حسن صحيح وقد تقدم

(٥) حديث دخولهم قبلهم بأربعين خريفا : مسلم من حديث عبد الله بن عمرو إلا أنه قال فقراء المهاجرين والترمذى من حديث جابر وأنس

---

(١) الحشر : ٨ (٢) البقرة : ٢٧٣

على الغني الراغب . وما ذكرناه من اختلاف درجات الفقر يعرفك بالضرورة تفاوتا بين الفقراء فى درجاتهم ، وكان الفقير الحريص على درجة من خمس وعشرين درجة من الفقير الزاهد ، إذ هذه نسبة الأربعين إلى خمسمائة

ولا تظنن أن تقدير رسول الله صلى الله عليه وسلم يجرى على لسانه جزافا وبالاتفاق ، بل لا يستنطق صلى الله عليه وسلم إلا بحقيقة الحق فإنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم [1] « الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءاً مِنَ النُّبُوَّةِ » فإنه تقدير تحقيق لامحالة . ولكن ليس فى قوة غيره أن يعرف علة تلك النسبة إلا بتخمين . فأما بالتحقيق فلا . إذ يعلم أن النبوة عبارة عما يختص به النبي ويفارق به غيره ، وهو يختص بأنواع من الخواص

أحدها : أنه يعرف حقائق الأمور المتعلقة بالله وصفاته ، والملائكة ، والدار الآخرة ، لا كما يعلمه غيره ، بل مخالفاله بكثرة المعلومات ، وبزيادة اليقين والتحقيق والكشف

والثاني : أن له فى نفسه صفة بها تتم له الأفعال الخارقة للعادات ، كما أن لنا صفة بها تتم الحركات المقرونة بإرادتنا وباختيارنا وهي القدرة ، وإن كانت القدرة والمقدور جميعا من فعل الله تعالى

والثالث : أن له صفة بها يبصر الملائكة ويشاهدهم ، كما أن للبصير صفة بها يفارق الأعمى حتى يدرك بها المبصرات . والرابع : أن له صفة بها يدرك ماسيكون فى الغيب ، إما فى اليقظة أو فى المنام ، إذ بها يطالع اللوح المحفوظ ، فيرى مافيه من الغيب

فهذه كمالات وصفات يعلم ثبوتها للأنبياء ، ويعلم انقسام كل واحد منها إلى أقسام ، وربما يمكننا أن نقسمها إلى أربعين ، وإلى خمسين ، وإلى ستين ، ويمكننا أيضا أن نتكلف تقسيمها إلى ستة وأربعين ، بحيث تقع الرؤيا الصحيحة جزءا واحدا من جملتها . ولكن تعيين طريق واحد من طرق التقسيمات الممكنة لا يمكن إلا بظن وتخمين ، فلا ندرى تحقيقا أنه الذى أراده رسول الله صلى الله عليه وسلم أم لا ، وإنما المعلوم مجامع الصفات التى بها تتم النبوة وأصل انقسامها ، وكذلك لا يرشدنا إلى معرفة علة التقدير

---

(١) حديث الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة : البخارى من حديث أبي سعيد ورواه هو ومسلم من حديث أبي هريرة وعبادة بن الصامت وأنس بلفظ رؤيا المؤمن جزء ـ الحديث ، وقد تقدم

فكذلك نعلم أن الفقراء لهم درجات كما سبق ، فأما لم كان هذا الفقير الحريص مثلا على نصف سدس درجة الفقير الزاهد ، حتى لم يبق له التقدم بأكثر من أربعين سنة إلى الجنة ، واقتضى ذلك التقدم بخمسمائة عام ، فليس فى قوة البشر غير الأنبياء الوقوف على ذلك إلا بنوع من التخمين ، ولا وثوق به . والغرض التنبيه على منهاج التقدير فى أمثال هذه الأمور ، فإن الضعيف الإيمان قد يظن أن ذلك يجري من رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل الاتفاق ، وحاشا منصب النبوة عن ذلك . ولنرجع إلى نقل الأخبار ، فقد قال صلى الله عليه وسلم أيضا [1] « خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ فُقَرَاؤُهَا وَأَسْرَعُهَا تَضَجُّعًا فى الْجَنَّةِ ضُعَفَاؤُهَا » وقال صلى الله عليه وسلم [2] « إِنَّ لِي حِرْفَتَيْنِ اثْنَتَيْنِ فَمَنْ أَحَبَّهُمَا فَقَدْ أَحَبَّنِي وَمَنْ أَبْغَضَهُمَا فَقَدْ أَبْغَضَنِي الْفَقْرَ وَالْجِهَادَ » . وروي [3] أن جبريل عليه السلام نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد ، إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول : أتحب أن أجعل هذه الجبال ذهبا ، وتكون معك أينما كنت ؟ فأطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة ثم قال « يَا جِبْرِيلُ إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ مَنْ لَا دَارَ لَهُ وَمَالُ مَنْ لَا مَالَ لَهُ وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لَا عَقْلَ لَهُ » فقال له جبريل : يا محمد ، ثبتك الله بالقول الثابت

وروي أن المسيح صلى الله عليه وسلم مر فى سياحته برجل نائم ملتف فى عباءة ، فأيقظه وقال يا نائم قم فاذكر الله تعالى . فقال ماتريد مني ؟ إني قد تركت الدنيا لأهلها . فقال له فنم إذا يا حبيبي . ومر موسى صلى الله عليه وسلم برجل نائم على التراب ، وتحت رأسه لبنة ، ووجهه ولحيته فى التراب ، وهو متزر بعباءة : فقال يارب عبدك هذا فى الدنيا ضائع فأوحى الله تعالى إليه . ياموسى : أما علمت أني إذا نظرت إلى عبد بوجهي كله زويت عنه الدنيا كلها

وعن [4] أبي رافع أنه قال : ورد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف ، فلم يجد عنده

---

(١) حديث خير الأمة فقراؤها وأسرعها تضجعا فى الجنة ضعفاؤها : لم أجد له أصلا

(٢) حديث ان لى حرفتين اثنتين ـ الحديث : وفيه الفقر والجهاد لم أجد له أصلا

(٣) حديث ان جبريل نزل فقال ان الله يقرأ عليك السلام ويقول أتحب أن أجعل هذه الجبال ذهبا ـ الحديث : وفيه ان الدنيا دار من لا دار له ـ الحديث : هذا ملفق من حديثين فروى الترمذى من حديث أبي أمامة عرض على ربي ليجعل لى بطحاء مكة ذهبا قلت لا يارب ولكن أشبع يوما وأجوع يوما الحديث : وقال حسن ولأحمد من حديث عائشة الدنيا دار من لا دار له . الحديث : وقد تقدم فى ذم الدنيا

(٤) حديث أبي رافع ورد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عنده مايصلحه فأرسلني

ما يصلحه ، فأرسلني إلى رجل من يهود خيبر ، وقال « قُلْ لَهُ : يَقُولُ لَكَ مُحَمَّدٌ أَسْلِفْنِي أَوْ بِعْنِي دَقِيقاً إِلَى هِلَالِ رَجَبٍ » قال فأتيته ، فقال لا والله إلا برهن . فأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، فقال « أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَمِينٌ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ أَمِينٌ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ وَلَوْ بَاعَنِي أَوْ أَسْلَفَنِي لَأَدَّيْتُ إِلَيْهِ اذْهَبْ بِدِرْعِي هَذَا إِلَيْهِ فَارْهَنْهُ » فلما خرجت نزلت هذه الآية (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا [1]) الآية . وهذه الآية تعزية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدنيا

وقال صلى الله عليه وسلم [1] « الْفَقْرُ أَزْيَنُ بِالْمُؤْمِنِ مِنَ الْعِذَارِ الْحَسَنِ عَلَى خَدِّ الْفَرَسِ »

وقال صلى الله عليه وسلم [2] « مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ مُعَافًى فِي جِسْمِهِ آمِناً فِي سِرْبِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا »

وقال كعب الأحبار : قال الله تعالى لموسى عليه السلام ، ياموسى ، إذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين . وقال عطاء الخراساني : مرّ نبي من الأنبياء بساحل ، فإذا هو برجل يصطاد حيتانا ، فقال بسم الله ، وألقى الشبكة . فلم يخرج فيها شيء . ثم مرّ بآخر ، فقال باسم الشيطان ، وألقى شبكته ، فخرج فيها من الحيتان ما كان يتقاعس من كثرتها . فقال النبي صلى الله عليه وسلم . يارب ، ما هذا ؟ وقد علمت أن كل ذلك بيدك فقال الله تعالى للملائكة . اكشفوا لعبدي عن منزلتيهما . فلما رأى ما أعد الله تعالى لهذا من الكرامة ، ولذاك من الهوان ، قال رضيت يارب

وقال نبينا صلى الله عليه وسلم « اطَّلَعْتُ فِي الْجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ وَاطَّلَعْتُ فِي النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْأَغْنِيَاءَ وَالنِّسَاءَ » وفي لفظ آخر « فَقُلْتُ أَيْنَ الْأَغْنِيَاءُ فَقِيلَ حَبَسَهُمُ الْجَدُّ » وفي حديث آخر [3] « فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ النِّسَاءَ »

الى رجل من يهود خيبر ـ الحديث : في نزول قوله تعالى ولا تمدن عينيك الى مامتعنا به أزواجا منهم الطبراني بسند ضعيف

(١) حديث الفقر أزين بالمؤمن من العذار الحسن على خد الفرس : الطبراني من حديث شداد بن أوس بسند ضعيف والمعروف انه من كلام عبد الرحمن بن زياد بن أنعم رواه ابن عدي في الكامل هكذا

(٢) حديث من أصبح منكم معافى في جسمه ـ الحديث : الترمذي وقد تقدم

(٣) حديث أطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء . الحديث : تقدم في آداب النكاح مع الزيادة التي في آخره

---

(١) طه : ١٣١

فَقُلْتُ مَاشَأْنُهُنَّ فَقِيلَ شَغَلَهُنَّ الأَحْمَرَانِ الذَّهَبُ وَالزَّعْفَرَانُ »

وقال صلى الله عليه وسلم (١) « تُحْفَةُ الْمُؤْمِنِ فِي الدُّنْيَا الْفَقْرُ » وفى الخبر (٢) « آخِرُ الأَنْبِيَاءِ دُخُولاً الْجَنَّةَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ لِمَكَانِ مُلْكِهِ وَآخِرُ أَصْحَابِي دُخُولاً الْجَنَّةَ عَبْدُ الرَّحْمٰنِ بْنُ عَوْفٍ لِأَجْلِ غِنَاهُ » وفى حديث آخر (٣) « رَأَيْتُهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ زَحْفاً » . وقال المسيح صلى الله عليه وسلم . بشدة يدخل الغني الجنة

وفى خبر آخر عن أهل البيت رضي الله عنهم أنه صلى الله عليه وسلم قال (٤) « إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْداً ابْتَلاَهُ فَإِذَا أَحَبَّهُ الْحُبَّ الْبَالِغَ اقْتَنَاهُ » قيل وما اقتناه ؟ قال « لَمْ يَتْرُكْ لَهُ أَهْلاً وَلاَ مَالاً » . وفى الخبر (٥) « إِذَا رَأَيْتَ الْفَقْرَ مُقْبِلاً فَقُلْ مَرْحَباً بِشِعَارِ الصَّالِحِينَ وَإِذَا رَأَيْتَ الْغِنَى مُقْبِلاً فَقُلْ ذَنْبٌ عُجِّلَتْ عُقُوبَتُهُ »

وقال موسى عليه السلام . يارب من أحباؤك من خلقك حتى أحبهم لأجلك ؟ فقال كل فقير فقير . فيمكن أن يكون الثانى للتوكيد ، ويمكن أن يراد به الشديد الضر

وقال المسيح صلوات الله عليه وسلامه : إنى لأحب المسكنة وأبغض النعماء . وكان أحب الأسامى إليه صلوات الله عليه أن يقال له يامسكين .

ولما (٦) قالت سادات العرب وأغنياؤهم للنبى صلى الله عليه وسلم : اجعل لنا يوما ولهم يوما ،

---

(١) حديث تحفة المؤمن فى الدنيا الفقر : رواه محمد بن خفيف الشيرازى فى شرف الفقر وأبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث معاذ بن جبل بسند لابأس به ورواه أبو منصور أيضا فيه من حديث ابن عمر بسند ضعيف جدا

(٢) حديث آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان ـ الحديث : تقدم وهو فى الأوسط للطبرانى باسناد فرد وفيه نكارة

(٣) حديث رأيته يعنى عبد الرحمن بن عوف دخل الجنة زحفا : تقدم وهو ضعيف

(٤) حديث اذا أحب الله عبدا ابتلاه ـ الحديث : الطبرانى من حديث أبى عتبة الخولانى

(٥) حديث اذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين واذا رأيت الغنى مقبلا فقل ذنب عجلت عقوبته أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من رواية مكحول عن أبى الدرداء ولم يسمع منه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام ياموسى فذكره بزيادة فى أوله ورواه أبو نعيم فى الحلية من قول كعب الأحبار غير مرفوع باسناد ضعيف

(٦) حديث قال سادات العرب وأغنياؤهم للنبى صلى الله عليه وسلم اجعل لنا يوما ولهم يوما ـ الحديث : فى نزول قوله تعالى واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم الآية تقدم من حديث خباب وليس فيه انه كان لباسهم الصوف ويفوح ريحهم اذا عرقوا وهذه الزيادة من حديث سلمان

يجيؤن إليك ولا نجيء ونجيء إليك ولا يجيؤن ، يعنون بذلك الفقراء ، مثل بلال ، وسلمان ، وصهيب ، وأبي ذر ، وخباب بن الأرت ، وعمار بن ياسر ، وأبي هريرة ، وأصحاب الصفة من الفقراء رضي الله عنهم أجمعين ، أجابهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذلك وذلك لأنهم شكوا إليه التأذى برائحتهم ، وكان لباس القوم الصوف فى شدة الحر ، فإذا عرقوا فاحت الروائح من ثيابهم . فاشتد ذلك على الأغنياء ، منهم الأقرع بن حابس التميمى وعيينة بن حصن الفزارى ، وعباس بن مرداس السلمى وغيرهم . فأجابهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يجمعهم وإياهم مجلس واحد ، فنزل عليه قوله تعالى (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ[1]) يعنى الفقراء (تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا[2]) يعنى الأغنياء (وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا[3]) يعنى الأغنياء (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ[4]) الآية . [1] واستأذن ابن أم مكتوم على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده رجل من أشراف قريش ، فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى (عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى[5]) يعنى ابن أم مكتوم (أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى[6]) يعنى هذا الشريف

وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال [2] « يُؤْتَى بِالْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَعْتَذِرُ اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ كَمَا يَعْتَذِرُ الرَّجُلُ لِلرَّجُلِ فِي الدُّنْيَا فَيَقُولُ وَعِزَّتِي وَجَلاَلِي مَازَوَيْتُ الدُّنْيَا عَنْكَ لِهَوَانِكَ عَلَيَّ وَلَكِنْ لِمَا أَعْدَدْتُ لَكَ مِنَ الْكَرَامَةِ وَالْفَضِيلَةِ أُخْرُجْ يَاعَبْدِي إِلَى هَذِهِ

---

(١) حديث استئذان ابن أم مكتوم على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده رجل من أشراف قريش ونزول قوله تعالى عبس وتولى : الترمذى من حديث عائشة وقال غريب قلت ورجاله رجال الصحيح

(٢) حديث يؤتى بالعبد يوم القيامة فيعتذر الله إليه كما يعتذر الرجل الى الرجل فى الدنيا فيقول وعزتى وجلالى مازويت الدنيا عنك لهوانك على ـ الحديث : أبو الشيخ فى كتاب الثواب من حديث أنس باسناد ضعيف يقول الله عزوجل يوم القيامة أدنوا منى أحبائى فتقول الملائكة ومن أحباؤك فيقول فقراء المسلمين فيدنون منه فيقول أما انى لم أزو الدنيا عنكم لهوان كان بكم على ولكن أردت بذلك ان أضعف لكم كرامتى اليوم فتمنوا على ماشئتم اليوم ـ الحديث : دون آخر الحديث وأما أول الحديث فرواه أبو نعيم فى الحلية وسيأتى فى الحديث الذى بعده

(١ ، ٢ ، ٣) الكهف : ٢٨ (٤) الكهف : ٢٩ (٥ ، ٦) عبس : ١ - ٥

الصُّفُوفِ فَمَنْ أَطْعَمَكَ فِيَّ أَوْ كَسَاكَ فِيَّ يُرِيدُ بِذَلِكَ وَجْهِي فَخُذْ بِيَدِهِ فَهُوَ لَكَ وَالنَّاسُ يَوْمَئِذٍ قَدْ أَلْجَمَهُمُ الْعَرَقُ فَيَتَخَلَّلُ الصُّفُوفَ وَيَنْظُرُ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ بِهِ فَيَأْخُذُ بِيَدِهِ وَيُدْخِلُهُ الْجَنَّةَ » . وقال عليه السلام [(١)] « أَكْثِرُوا مَعْرِفَةَ الْفُقَرَاءِ وَاتَّخِذُوا عِنْدَهُمُ الْأَيَادِي فَإِنَّ لَهُمْ دَوْلَةً » قالوا يا رسول الله وما دولتهم؟ قال « إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ قِيلَ لَهُمُ انْظُرُوا مَنْ أَطْعَمَكُمْ كِسْرَةً أَوْ سَقَاكُمْ شَرْبَةً أَوْ كَسَاكُمْ ثَوْبًا فَخُذُوا بِيَدِهِ ثُمَّ امْضُوا بِهِ إِلَى الْجَنَّةِ »

وقال صلى الله عليه وسلم [(٢)] « دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَسَمِعْتُ حَرَكَةً أَمَامِي فَنَظَرْتُ فَإِذَا بِلَالٌ وَنَظَرْتُ فِي أَعْلَاهَا فَإِذَا فُقَرَاءُ أُمَّتِي وَأَوْلَادُهُمْ وَنَظَرْتُ فِي أَسْفَلِهَا فَإِذَا فِيهِ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ وَالنِّسَاءِ قَلِيلٌ فَقُلْتُ يَا رَبِّ مَا شَأْنُهُمْ قَالَ أَمَّا النِّسَاءُ فَأَضَرَّ بِهِنَّ الْأَحْمَرَانِ الذَّهَبُ وَالْحَرِيرُ وَأَمَّا الْأَغْنِيَاءُ فَاشْتَغَلُوا بِطُولِ الْحِسَابِ وَتَفَقَّدْتُ أَصْحَابِي فَلَمْ أَرَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ ابْنَ عَوْفٍ ثُمَّ جَاءَنِي بَعْدَ ذَلِكَ وَهُوَ يَبْكِي فَقُلْتُ مَا خَلَّفَكَ عَنِّي قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَاللَّهِ مَا وَصَلْتُ إِلَيْكَ حَتَّى لَقِيتُ الْمُشِيبَاتِ وَظَنَنْتُ أَنِّي لَا أَرَاكَ فَقُلْتُ وَلِمَ؟ قَالَ كُنْتُ أُحَاسَبُ بِمَالِي » فانظر إلى هذا ، وعبد الرحمن صاحب السابقة العظيمة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو من العشرة [(٣)] المخصوصين بأنهم من أهل الجنة ، وهو من الأغنياء الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم [(٤)] « إِلَّا مَنْ قَالَ بِالْمَالِ هَكَذَا وَهَكَذَا » ومع هذا فقد استضر بالغنى إلى هذا الحد

ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم [(٥)] على رجل فقير ، فلم ير له شيئا . فقال « لَوْ قُسِّمَ

---

(١) حديث أكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عندهم الايادى فان لهم دولة ـ الحديث : أبو نعيم فى الحلية من حديث الحسين بن على بسند ضعيف اتخذوا عند الفقراء أيادى فان لهم دولة يوم القيامة فاذا كان يوم القيامة نادى مناد سيروا الى الفقراء فيعتذر اليهم كما يعتذر أحدكم الى أخيه فى الدنيا

(٢) حديث دخلت الجنة فسمعت حركة أمامى فنظرت فاذا بلال و نظرت الى أعلاها فاذا فقراء أمتى وأولادهم الحديث : الطبرانى من حديث أبى أمامة بسند ضعيف نحوه وقصة بلال فى الصحيح من طريق آخر

(٣) حديث ان عبد الرحمن بن عوف أحد العشرة المخصوصين بانهم من أهل الجنة: أصحاب السنن الاربعة من حديث سعيد بن زيد قال الترمذى حسن صحيح

(٤) حديث الا من قال بالمال هكذا وهكذا :متفق عليه من حديث أبى ذر فى أثناء حديث تقدم

(٥) حديث دخل على رجل فقير ولم يرله شيئا فقال لو قسم نور هذا على اهل الارض لوسعهم: لم أجده

نُورُ هَذَا عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ لَوَسِعَهُمْ » وقال صلى الله عليه وسلم[١] « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمُلُوكِ أَهْلِ الْجَنَّةِ » قالوا بلى يارسول الله . قال « كُلُّ ضَعِيفٍ مُسْتَضْعَفٍ أَغْبَرَ أَشْعَثَ ذِى طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ »

وقال عمران بن حصين[٢] : كانت لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاه . فقال « يَا عِمْرَانُ إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا مَنْزِلَةً وَجَاهاً فَهَلْ لَكَ فِى عِيَادَةِ فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ؟ قلت نعم بأبى أنت وأمى يارسول الله . فقام وقمت معه ، حتى وقف بباب فاطمة ، فقرع الباب وقال « السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَأَدْخُلُ ؟ » فقالت ادخل يارسول الله . قال « أَنَا وَمَنْ مَعِى ؟ » قالت ومن معك يارسول الله ؟ قال « عِمْرَانُ » فقالت فاطمة والذى بعثك بالحق نبيا ماعليّ إلا عباءة . قال « اصْنَعِى بِهَا هَكَذَا وَهَكَذَا » وأشار بيده . فقالت هذا جسدى قد واريته فكيف برأسى ؟ فألقى إليها ملاءة كانت عليه خلقة ، فقال « شُدِّى بِهَا عَلَى رَأْسِكِ » ثم أذنت له فدخل ، فقال « السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا بُنْتَاهُ كَيْفَ أَصْبَحْتِ ؟ » قالت أصبحت والله وجعة ، وزادنى وجعا على مابى أنى لست أقدر على طعام آكله ، فقد أضر بى الجوع . فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « لَا تَجْزَعِى يَا بُنْتَاهُ فَوَاللهِ مَاذُقْتُ طَعَامًا مُنْذُ ثَلَاثٍ وَإِنِّى لَأَكْرَمُ عَلَى اللهِ مِنْكِ وَلَوْ سَأَلْتُ رَبِّى لَأَطْعَمَنِى وَلَكِنِّى آثَرْتُ الْآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيَا » ثم ضرب بيده على منكبها وقال لها « أَبْشِرِى فَوَاللهِ إِنَّكِ لَسَيِّدَةُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ » قالت فأين آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت عمران ؟ قال « آسِيَةُ سَيِّدَةُ نِسَاءِ عَالَمِهَا وَمَرْيَمُ سَيِّدَةُ نِسَاءِ عَالَمِهَا وَأَنْتِ سَيِّدَةُ نِسَاءِ عَالَمِكِ إِنَّكُنَّ فِى بُيُوتٍ مِنْ قَصَبٍ لَا أَذَى فِيهَا وَلَا صَخَبَ وَلَا نَصَبَ » ثم قال لها « اقْنَعِى بِابْنِ عَمِّكِ فَوَاللهِ لَقَدْ زَوَّجْتُكِ سَيِّداً فِى الدُّنْيَا سَيِّداً فِى الْآخِرَةِ »

وروى عن عليّ كرم الله وجهه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال[٣] « إِذَا أَبْغَضَ

---

(١) حديث ألا أخبركم عن ملوك الجنة ـ الحديث : متفق عليه من حديث حارثة بن وهب مختصرا ولم يقولا ملوك وقد تقدم ولابن ماجه بسند جيد من حديث معاذ ألا أخبركم عن ملوك الجنة الحديث : دون قوله أغبر أشعث

(٢) حديث عمران بن حصين كانت لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاه فقال يا عمران ان لك عندنا منزلة وجاها فهل لك فى عيادة فاطمة ـ الحديث : تقدم

(٣) حديث اذا أبغض الناس فقراءهم وأظهروا عمارة الدنيا ـ الحديث : أبو منصور الديلمى باسناد فيه جهالة وهو منكر

النَّاسُ فُقَرَاءَهُمْ وَأَظْهَرُوا عِمَارَةَ الدُّنْيَا وَتَكَالَبُوا عَلَى جَمْعِ الدَّرَاهِمِ رَمَاهُمُ اللهُ بِأَرْبَعِ خِصَالٍ بِالْقَحْطِ مِنَ الزَّمَانِ وَالْجَوْرِ مِنَ السُّلْطَانِ وَالْخِيَانَةِ مِنْ وُلَاةِ الْأَحْكَامِ وَالشَّوْكَةِ مِنَ الْأَعْدَاءِ »

الآثار في فضيلة الفقر

وأما الآثار : فقد قال أبو الدرداء رضي الله عنه : ذو الدرهمين أشد حبسا ، أوقال أشد حسابا من ذى الدرهم . وأرسل عمر رضي الله عنه إلى سعيدبن عامر بألف دينار ، فجاء حزينا كئيبا ، فقالت امرأته : أحدث أمر ؟ قال أشد من ذلك . ثم قال : أريني درعك الخلق. فشقه وجعله صررا وفرقه ، ثم قام يصلى ويبكى إلى الغداة ، ثم قال . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول [1] « يَدْخُلُ فُقَرَاءُ أُمَّتِي الْجَنَّةَ قَبْلَ الْأَغْنِيَاءِ بِخَمْسِمِائَةِ عَامٍ حَتَّى أَنَّ الرَّجُلَ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ يَدْخُلُ فِي غِمَارِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِيَدِهِ فَيُسْتَخْرَجُ »

وقال أبو هريرة : ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب : رجل يريد أن يغسل ثوبه فلم يكن له خلق يلبسه، ورجل لم ينصب على مستوقد قدرين ، ورجل دعابشرابه فلا يقال له أيها تريد

وقيل جاء فقير إلى مجلس الثورى رحمه الله ، فقال له تخط ، لوكنت غنيا لما قربتك . وكان الأغنياء من أصحابه يودون أنهم فقراء ، لكثرة تقريبه للفقراء وإعراضه عن الأغنياء

وقال المؤمل : ما رأيت الغني أذل منه فى مجلس الثورى ، ولا رأيت الفقير أعز منه فى مجلس الثورى رحمه الله . وقال بعض الحكماء : مسكين ابن آدم ، لوخاف من النار كما يخاف من الفقر لنجا منهما جميعا . ولو رغب فى الجنة كما يرغب فى الغنى لفاز بهما جميعا . ولوخاف الله فى الباطن كما يخاف خلقه فى الظاهر لسعد فى الدارين جميعا

وقال ابن عباس . ملعون من أكرم بالغنى وأهان بالفقر . وقال لقمان عليه السلام لابنه: لاتحتقرن أحدا لخلقان ثيابه ، فإن ربك وربه واحد

وقال يحي بن معاذ : حبك الفقراء من أخلاق المرسلين ، و إيثارك مجالستهم من علامة الصالحين ، وفرارك من صحبتهم من علامة المنافقين . وفى الأخبار عن الكتب

---

(١) حديث سعيد بن عامر يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الاغنياء بخمسمائة عام ـ الحديث : وفى أوله قصة أن عمر بعث الى سعيد بألف دينار فجاء كئيبا حزينا ،وفرقها وقدروى أحمد فى الزهد القصة الا انه قال تسعين عاما وفى اسناده يزيدبن أبى زياد تكلم فيه وفى رواية له بأربعين سنة واما دخولهم قبلهم بخمسمائة عام فهو عند الترمذي من حديث أبى هريرة وصححه وقدتقدم قبل هذا بورقتين

السالفة ، أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه عليهم السلام : احذر أن أمقتك فتسقط من عيني ، فأصبّ الدنيا عليك صبا

ولقد كانت عائشة رضي الله عنها تفرق مائة ألف درهم في يوم واحد ، يوجهها إليها معاوية وابن عامر وغيرهما ، وإن درعها لمرقوع ، وتقول لها الجارية لو اشتريت لك بدرهم لحما تفطرين عليه ؟ وكانت صائمة ، فقالت لو ذكرتيني لفعلت . وكان قد أوصاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال [1] « إِنْ أَرَدْتِ اللُّحُوقَ بِي فَعَلَيْكِ بِعَيْشِ الْفُقَرَاءِ وَإِيَّاكِ وَمُجَالَسَةَ الْأَغْنِيَاءِ وَلَا تَنْزَعِي دِرْعَكِ حَتَّى تُرَقِّعِيهِ »

وجاء رجل إلى ابراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم فأبى عليه أن يقبلها ؛ فألح عليه الرجل ، فقال له إبراهيم : أتريد أن أمحو اسمي من ديوان الفقراء بعشرة آلاف درهم ؟ لا أفعل ذلك أبدا رضي الله عنه .

بيان

فضيلة خصوص الفقراء من الراضين والقانعين والصادقين

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] « طُوبَى لِمَنْ هُدِيَ إِلَى الْإِسْلَامِ وَكَانَ عَيْشُهُ كَفَافًا وَقَنَعَ بِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم [3] « يَا مَعْشَرَ الْفُقَرَاءِ أَعْطُوا اللهَ الرِّضَا مِنْ قُلُوبِكُمْ تَظْفَرُوا بِثَوَابِ فَقْرِكُمْ وَإِلَّا فَلَا » فالأول القانع ، وهذا الراضي . ويكاد يشعر هذا بمفهومه أن الحريص لا ثواب له على فقره . ولكن العمومات الواردة في فضل الفقر تدل على أن له ثوابا كما سيأتي تحقيقه . فلعل المراد بعدم الرضا هو الكراهة لفعل الله في حبس الدنيا عنه . ورب راغب في المال لا يخطر بقلبه إنكار على الله تعالى ولا كراهة في فعله . فتلك الكراهة هي التي تحبط ثواب الفقر

---

(١) حديث قال لعائشة ان أردت اللحوق بي فعليك بعيش الفقراء واياك ومجالسة الاغنياء ـ الحديث : الترمذي وقال غريب والحاكم وصححه نحوه من حديثها وقد تقدم

(٢) حديث طوبى لمن هدى للاسلام وكان عيشه كفافا وقنع به رواه مسلم وقد تقدم

(٣) حديث يامعشر الفقراء اعطوا الله الرضا من قلوبكم ـ الحديث : أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة وهو ضعيف جدا فيه أحمد بن الحسن بن أبان المصري متهم بالكذب ووضع الحديث :

وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال [١] إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ مِفْتَاحاً وَمِفْتَاحُ الْجَنَّةِ حُبُّ الْمَسَاكِينِ وَالْفُقَرَاءِ لِصَبْرِهِمْ هُمْ جُلَسَاءُ اللهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . وروي عن علي كرم الله وجهه . عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال [٢] « أَحَبُّ الْعِبَادِ إِلَى اللهِ تَعَالَى الْفَقِيرُ الْقَانِعُ بِرِزْقِهِ الرَّاضِي عَنِ اللهِ تَعَالَى » . وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « اللَّهُمَّ اجْعَلْ قُوتَ آلِ مُحَمَّدٍ كَفَافاً » وقال [٤] « مَامِنْ أَحَدٍ غَنِيٍّ وَلاَ فَقِيرٍ إِلَّا وَدَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّهُ كَانَ أُوتِيَ قُوتاً فِي الدُّنْيَا»

وأوحى الله تعالى إلى اسماعيل عليه السلام . اطلبني عند المنكسرة قلوبهم . قال ومن هم قال الفقراء الصادقون . وقال صلى الله عليه وسلم [٥] « لاَ أَحَدَ أَفْضَلُ مِنَ الْفَقِيرِ إِذَا كَانَ رَاضِياً » وقال صلى الله عليه وسلم [٦] « يَقُولُ اللهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَيْنَ صَفْوَتِي مِنْ خَلْقِي فَتَقُولُ الْمَلاَئِكَةُ وَمَنْ هُمْ يَارَبَّنَا فَيَقُولُ فُقَرَاءُ الْمُسْلِمِينَ الْقَانِعُونَ بِعَطَائِي الرَّاضُونَ بِقَدَرِي أَدْخِلُوهُمُ الْجَنَّةَ فَيَدْخُلُونَهَا وَيَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ وَالنَّاسُ فِي الْحِسَابِ يَتَرَدَّدُونَ »

فهذا فى القانع والراضى ، وأما الزاهد فسنذكر فضله فى الشطر الثانى من الكتاب إن شاء الله تعالى . وأما الآثار فى الرضا والقناعة فكثيرة . ولا يخفى أن القناعة يضادها الطمع . وقد قال عمر رضي الله تعالى عنه : إن الطمع فقر ، واليأس غنى . وإنه من يئس عما فى أيدى الناس وقنع ، استغنى عنهم ، وقال أبو مسعود رضي الله تعالى عنه : مامن يوم إلا وملك ينادى من تحت العرش : ياابن آدم ، قليل يكفيك خير من كثير يطغيك . وقال أبو الدرداء

(١) حديث ان لكل شيء مفتاحا ومفتاح الجنة حب المساكين ـ الحديث : الدارقطنى فى غرائب مالك وأبو بكر بن لال فى مكارم الأخلاق وابن عدى فى الكامل وابن حبان فى الضعفاء من حديث ابن عمر

(٢) حديث أحب العباد الى الله الفقير القانع برزقه الراضى من الله : لم أجده بهذا اللفظ وتقدم عند ابن ماجه حديث ان الله يحب الفقير المتعفف

(٣) حديث اللهم اجعل رزق آل محمد كفافا : مسلم من حديث أبى هريرة وهو متفق عليه بلفظ قوتا وقد تقدم

(٤) حديث مامن أحد غنى ولا فقير الاود يوم القيامة انه كان أوتى قوتا فى الدنيا : ابن ماجه من حديث انس وقد تقدم

(٥) حديث لا أحد أفضل من الفقير اذا كان راضيا : لم أجده بهذا اللفظ

(٦) حديث يقول الله يوم القيامة أين صفوتى من خلقى فتقول الملائكة ومن هم يا ربنا فيقول فقراء المسلمين الحديث : أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس

رضي الله تعالى عنه . ما من أحد إلا وفى عقله نقص ، وذلك أنه إذا أتته الدنيا بالزيادة ظل فرحا مسرورا ، والليل والنهار دائبان فى هدم عمره ثم لايحزنه ذلك . ويح ابن آدم ، ماينفع مال يزيد وعمر ينقص ؟ وقيل لبعض الحكماء ماالغنى ؟ قال قلة تمنيك ، ورضاك بما يكفيك

وقيل كان ابراهيم بن أدهم من أهل النعم بخراسان ، فبينما هو يشرف من قصر له ذات يوم إذ نظر إلى رجل فى فناء القصر ، وفى يده رغيف يأكله . فلما أكل نام . فقال لبعض غلمانه إذا قام فجئنى به . فلما قام جاء به إليه . فقال إبراهيم . أيها الرجل ، أكلت الرغيف وأنت جائع ؟ قال نعم . قال فشبعت ؟ قال نعم . قال ثم نمت طيبا ؟ قال نعم . فقال ابراهيم فى نفسه . فما أصنع أنا بالدنيا والنفس تقنع بهذا القدر ؟ ومرّ رجل بعامر بن عبد القيس وهو يأكل ملحا وبقلا . فقال له . ياعبد الله أرضيت من الدنيا بهذا ؟ فقال ألا أدلك على من رضي بشرّ من هذا ؟ قال بلى . قال من رضي بالدنيا عوضا عن الآخرة

وكان محمد بن واسع رحمة الله عليه يخرج خبزا يابسا ، فيبله بالماء ، ويأكله بالملح ، ويقول . من رضي من الدنيا بهذا لم يحتج إلى أحد وقال الحسن رحمه الله . لعن الله أقواما أقسم لهم الله تعالى ثم لم يصدقوه . ثم قرأ (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ [1]) الآية . وكان أبو ذر رضي الله تعالى عنه يوما جالسا فى الناس ، فأتته امرأته فقالت له . أتجلس بين هؤلاء ؟ والله مافى البيت هفة ولا سفة ، فقال ياهذه ، إن بين أيدينا عقبة كؤدا ، لا ينجو منها إلا كل مخف . فرجعت وهي راضية . وقال ذو النون رحمه الله . أقرب الناس إلى الكفر ذو فاقة لاصبر له . وقيل لبعض الحكماء . ما مالك ؟ فقال التجمل فى الظاهر ، والقصد فى الباطن واليأس مما فى أيدى الناس . وروي أن الله عز وجل قال فى بعض الكتب السالفة المنزلة . يا ابن آدم ، لو كانت الدنيا كلها لك ، لم يكن لك منها إلا القوت . فإذا أنا أعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك ، فأنا محسن إليك وقد قيل فى القناعة

اضرع إلى الله لاتضرع إلى الناس ... واقنع بيأس فإن العز فى الياس
واستغن عن كل ذى قربى وذى رحم ... إن الغني من استغنى عن الناس

(1) الزاريات : ٢ ، ٣

وقد قيل فى هذا المعنى أيضا

يا جامعا مانعا والدهر يرمقه | مقدرا أى باب منه يغلقه
مفكرا كيف تأتيه منيته | أغاديا أم بها يسرى فتطرقه
جمعت مالا فقل لى هل جمعت له | يا جامع المال أياما تفرقه
المال عندك مخزون لوارثه | ما المال مالك إلا يوم تنفقه
إرفه ببال فتى يغدو على ثقة | إن الذى قسم الأرزاق يرزقه
فالعرض منه مصون ما يدنسه | والوجه منه جديد ليس يخلقه
إن القناعة من يحلل بساحتها | لم يبق فى ظلها هما يؤرقه

بيان

فضيلة الفقر على الغنى

اعلم أن الناس قد اختلفوا فى هذا . فذهب الجنيد ، والخواص ، والأكثرون ، إلى تفضيل الفقر . وقال ابن عطاء : الغني الشاكر القائم بحقه أفضل من الفقير الصابر . ويقال إن الجنيد دعا على ابن عطاء لمخالفته إياه فى هذا ، فأصابته محنة ، وقد ذكرنا ذلك فى كتاب الصبر ووجه التفاوت بين الصبر والشكر ، ومهدنا سبيل طلب الفضيلة فى الأعمال والأحوال وأن ذلك لا يمكن إلا بتفصيل . فأما الفقر والغنى إذا أخذا مطلقا ، لم يستريب من قرأ الأخبار والآثار فى تفضيل الفقر ، ولا بد فيه من تفصيل فنقول :

إنما يتصور الشك فى مقامين . أحدهما : فقير صابر ، ليس بحريص على الطلب ، بل هو قانع أو راض ، بالإضافة إلى غني منفق ماله فى الخيرات ، ليس حريصا على إمساك المال

والثانى : فقير حريص ، مع غني حريص . إذ لا يخفى أن الفقير القانع أفضل من الغني الحريص الممسك ، وأن الغني المنفق ماله فى الخيرات أفضل من الفقير الحريص

أما الأوّل ، فربما يظن أن الغني أفضل من الفقير ، لأنهما تساويا فى ضعف الحرص على المال ، والغني متقرب بالصدقات والخيرات ، والفقير عاجز عنه . وهذا هو الذي ظنه ابن عطاء فيما نحسبه . فأما الغني المتمتع بالمال ، وإن كان فى مباح ، فلا يتصوّر أن يفضل على

الفقير القانع . وقد يشهد له ماروي في الخبر ، الفقراء[1] شكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبق الأغنياء بالخيرات ، والصدقات ، والحج ، والجهاد ، فعلمهم كلمات في التسبيح ، وذكر لهم أنهم ينالون بها فوق مانا له الأغنياء ، فتعلم الأغنياء ذلك فكانوا يقولونه ، فعاد الفقراء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه ! فقال عليه السلام « ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ » وقد استشهد به ابن عطاء أيضا لما سئل عن ذلك فقال : الغني أفضل لأنه وصف الحق

وجهة ترجيح تفضيل الفقير الصابر

أما دليله الأول ففيه نظر ، لأن الخبر قد ورد مفصلا تفصيلا يدل على خلاف ذلك ، وهو أن ثواب الفقير في التسبيح يزيد على ثواب الغني ، وأن فوزهم بذلك الثواب فضل الله يؤتيه من يشاء ، فقد روى[2] زيد بن أسلم ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : بعث الفقراء رسولا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال إني رسول الفقراء إليك ، فقال « مَرْحَبًا بِكَ وَبِمَنْ جِئْتَ مِنْ عِنْدِهِمْ قَوْمٌ أُحِبُّهُمْ » قال قالوا يارسول الله ، إن الأغنياء ذهبوا بالخير ، يحجون ولا نقدر عليه ، ويعتمرون ولا نقدر عليه ، وإذا مرضوا بعثوا بفضل أموالهم ذخيرة لهم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « بَلِّغْ عَنِّي ٱلْفُقَرَاءَ أَنَّ لِمَنْ صَبَرَ وَٱحْتَسَبَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ خِصَالٍ لَيْسَتْ لِلْأَغْنِيَاءِ أَمَّا خَصْلَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِنَّ فِي ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا يَنْظُرُ إِلَيْهَا أَهْلُ ٱلْجَنَّةِ كَمَا يَنْظُرُ أَهْلُ ٱلْأَرْضِ إِلَى نُجُومِ ٱلسَّمَاءِ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا نَبِيٌّ فَقِيرٌ أَوْ شَهِيدٌ فَقِيرٌ أَوْ مُؤْمِنٌ فَقِيرٌ وَٱلثَّانِيَةُ يَدْخُلُ ٱلْفُقَرَاءُ ٱلْجَنَّةَ قَبْلَ ٱلْأَغْنِيَاءِ بِنِصْفِ يَوْمٍ وَهُوَ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ وَٱلثَّالِثَةُ إِذَا قَالَ ٱلْغَنِيُّ سُبْحَانَ ٱللَّهِ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱللَّهُ أَكْبَرُ وَقَالَ ٱلْفَقِيرُ مِثْلَ ذَٰلِكَ لَمْ يَلْحَقِ ٱلْغَنِيُّ بِٱلْفَقِيرِ وَلَوْ أَنْفَقَ

---

(١) حديث شكى الفقراء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبق الاغنيا بالخيرات والصدقات ـ الحديث: وفي آخره فقال ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء متفق عليه من حديث أبي هريرة نحوه

(٢) حديث زيد بن أسلم عن أنس بعث الفقراء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولا ان الأغنياء ذهبوا بالجنة يحجون ولانقدر عليه ـ الحديث : وفيه بلغ عني الفقراء ان لمن صبر واحتسب منكم ثلاث خصال ليست للأغنياء ـ الحديث : لم أجده هكذا بهذا السياق والمعروف في هذا المعنى مارواه ابن ماجه من حديث ابن عمر اشتكى فقراء المهاجرين الى رسول الله صلى الله عليه وسلم مافضل الله به عليهم أغنياءهم فقال يامعشر الفقراء ألا أبشركم أن فقراء المؤمنين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم خمسمائة عام واسناده ضعيف

فِيهَا عَشَرَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ وَكَذَلِكَ أَعْمَالُ الْبِرِّ كُلُّهَا » فرجع إليهم فأخبرهم بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا . رضينا رضينا .

فهذا يدل على أن قوله « ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ » أى مزيد ثواب الفقراء على ذكرهم وأما قوله : إن الغني وصف الحق ، فقد أجابه بعض الشيوخ فقال . أترى أن الله تعالى غني بالأسباب والأعراض ؟ فانقطع ولم ينطق وأجاب آخرون فقالوا . إن التكبر من صفات الحق ، فينبغي أن يكون أفضل من التواضع . ثم قالوا : بل هذا يدل على أن الفقر أفضل لأن صفات العبودية أفضل للعبد ، كالخوف والرجاء ، وصفات الربوبية لا ينبغي أن ينازع فيها . ولذلك قال تعالى فيما روى عنه نبينا صلى الله عليه وسلم[1] « الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِداً مِنْهُمَا قَصَمْتُهُ » وقال سهل . حب العز والبقاء شرك فى الربوبية ومنازعة فيها ، لأنهما من صفات الرب تعالى

فمن هذا الجنس تكلموا فى تفضيل الغنى والفقر ، وحاصل ذلك تعلق بعمومات تقبل التأويلات ، وبكلمات قاصرة لا تبعد مناقضتها . إذ كما يناقض قول من فضّل الغنى بأنه صفة الحق بالتكبر ، فكذلك يناقض قول من ذم الغنى لأنه وصف للعبد بالعلم والمعرفة ، فإنه وصف الرب تعالى ، والجهل والغفلة وصف العبد . وليس لأحد أن يفضل الغفلة على العلم . فكشف الغطاء عن هذا هو ماذكرناه فى كتاب الصبر ، وهو أن ما لا يراد لعينه بل يراد لغيره ، فينبغي أن يضاف إلى مقصوده ، إذ به يظهر فضله . والدنيا ليست محذورة لعينها ولكن لكونها عائقة عن الوصول إلى الله تعالى . ولا الفقر مطلوبا لعينه ، لكن لأن فيه فقد العائق عن الله تعالى ، وعدم الشاغل عنه . وكم من غني لم يشغله الغنى عن الله عز وجل مثل سليمان عليه السلام ، وعثمان ، وعبدالرحمن بن عوف رضي الله عنهما ، وكم من فقير شغله الفقر وصرفه عن المقصد . وغاية المقصد فى الدنيا هو حب الله تعالى والأنس به ، ولا يكون ذلك إلا بعد معرفته ، وسلوك سبيل المعرفة مع الشواغل غير ممكن ، والفقر قد يكون من الشواغل ، كما أن الغنى قد يكون من الشواغل ، وإنما الشاغل على التحقيق حب الدنيا ، إذ لا يجتمع معه حب الله في القلب . والمحب للشيء مشغول به سواء كان

---

(١) حديث قال الله تعالى الكبرياء ردائى والعظمة ازارى : تقدم فى العلم وغيره

فى فراقه أوفى وصاله . وربما يكون شغله فى الفراق أكثر، وربما يكون شغله فى الوصال أكثر والدنيا معشوقة الغافلين ، المحروم منها مشغول بطلبها، والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتع بها

فإذاً إن فرضت فارغين عن حب المال، بحيث صار المال فى حقهما كالماء، استوى الفاقد والواجد ، إذ كل واحد غير متمتع إلا بقدر الحاجة . ووجود قدر الحاجة أفضل من فقده إذ الجائع يسلك سبيل الموت لاسبيل المعرفة، وإن أخذت الأمر باعتبار الأكبر فالفقير عن الخطر أبعد ، إذ فتنة السراء أشد من فتنة الضراء ، ومن العصمة أن لايقدر . ولذلك قال الصحابة رضي الله عنهم . بلينا بفتنة الضراء فصبرنا ، وبلينا بفتنة السراء فلم نصبر . وهذه خلقة الآدميين كلهم إلا الشاذ الفذ الذى لايوجد فى الأعصار الكثيرة إلا نادرا . ولما كان خطاب الشرع مع الكل ، لامع ذلك النادر ، والضراء أصلح للكل دون ذلك النادر ، زجر الشرع عن الغنى وذمه ، وفضل الفقر ومدحه ، حتى قال المسيح عليه السلام . لاتنظروا إلى أموال أهل الدنيا ، فإن بريق أموالهم يذهب بنور إيمانكم . وقال بعض العلماء : تقليب الأموال يمص حلاوة الإيمان . وفى الخبر « إنَّ [١] لِكُلِّ أُمَّةٍ عِجلاً وَعِجْلُ هَذِهِ الأُمَّةِ الدِّينَارُ وَالدِّرْهَمُ » وكان أصل عجل قوم موسى من حلية الذهب والفضة أيضا . واستواء المال والماء ، والذهب والحجر ، إنما يتصور للأنبياء عليهم السلام والأولياء . ثم يتم لهم ذلك بعد فضل الله تعالى بطول المجاهدة ، إذ كان النبي صلى الله عليه وسلم [٢] يقول للدنيا « إلَيْكِ عَنِّي » إذ كانت تتمثل له بزينتها . وكان عليّ كرم الله وجهه يقول . ياصفراء غرى غيرى وياييضاء غرى غيرى . وذلك لاستشعاره فى نفسه ظهور مبادى الاغترار بها ، لولا أن رأى برهان ربه . وذلك هو الغنى المطلق . إذ قال عليه الصلاة والسلام [٣] « لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ إِنَّمَا الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ »

وإذا كان ذلك بعيدا ، فإذاً الأصلح لكافة الخلق فقد المال وإن تصدقوا به وصرفوه إلى الخيرات ، لأنهم لاينفكون فى القدرة على المال عن أنس بالدنيا ، وتمتع بالقدرة عليها

---

(١) حديث لكل أمة عجل وعجل هذه الأمة الدينار والدرهم : أبو منصور الديلمى من طريق أبى عبد الرحمن السلمى من حديث حذيفة باسناد فيه جهالة

(٢) حديث كان يقول للدنيا اليك عنى ـ الحديث : الحاكم مع اختلاف وقد تقدم

(٣) حديث ليس الغنى عن كثرة العرض ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبى هريرة وقد تقدم

واستشعار راحة فى بذلها ، وكل ذلك يورث الأنس بهذا العالم . وبقدر ما يأنس العبد بالدنيا يستوحش من الآخرة . وبقدر ما يأنس بصفة من صفاته سوى صفة المعرفة بالله يستوحش من الله ومن حبه . ومهما انقطعت أسباب الأنس بالدنيا تجا فى القلب عن الدنيا وزهرتها. والقلب إذا تجا فى عما سوى الله تعالى ، وكان مؤمنا بالله ، انصرف لا محالة إلى الله إذ لا يتصور قلب فارغ ، وليس فى الوجود إلا الله تعالى وغيره . فمن أقبل على غيره فقد تجافى عنه ، ومن أقبل عليه تجافى عن غيره ، ويكون إقباله على أحدهما بقدر تجافيه عن الآخر ، وقربه من أحدهما بقدر بعده من الآخر . ومثالهما مثل المشرق والغرب ، فإنهما جهتان ، فالمتردد بينهما بقدر ما يقرب من أحدهما يبعد عن الآخر . بل عين القرب من أحدهما هو عين البعد من الآخر . فعين حب الدنيا هو عين بغض الله تعالى ، فينبغي أن يكون مطمح نظر العارف قلبه فى عزوبه عن الدنيا وأنسه بها

فإذاً فضل الفقير والغني بحسب تعلق قلبيهما بالمال فقط . فإن تساويا فيه تساوت درجتهما إلا أن هذا مزلة قدم وموضع غرور . فإن الغني ربما يظن أنه منقطع القلب عن المال ، ويكون حبه دفينا فى باطنه وهو لا يشعر به ، وإنما يشعر به إذا فقده . فليجرب نفسه بتفريقه ، أو إذا سرق منه ، فإن وجد لقلبه إليه التفاتا ، فليعلم أنه كان مغرورا . فكم من رجل باع سريته لظنه أنه منقطع القلب عنها . فبعد لزوم البيع وتسليم الجارية ، اشتعلت من قلبه النار التى كانت مستكنة فيه ، فتحقق إذاً أنه كان مغرورا ، وأن العشق كان مستكنا فى الفؤاد استكنان النار تحت الرماد . وهذا حال كل الأغنياء ، إلا الأنبياء والأولياء

وإذا كان ذلك محالا أو بعيدا ، فلنطلق القول بأن الفقر أصلح لكافة الخلق وأفضل ، لأن علاقة الفقير وأنسه بالدنيا أضعف . وبقدر ضعف علاقته يتضاعف ثواب تسبيحاته وعباداته . فإن حركات اللسان ليست مرادة لأعيانها ، بل ليتأكد بها الأنس بالمذكور . ولا يكون تأثيرها فى إثارة الأنس فى قلب فارغ من غير المذكور كتأثيرها فى قلب مشغول . ولذلك قال بعض السلف : مثل من تعبَّد وهو فى طلب الدنيا مثل من يطفىء النار بالحلفاء ، ومثل من يغسل يده من الغمر بالسمك . وقال أبو سليمان الدارانى رحمه الله تعالى تنفس فقير دون شهوة لا يقدر عليها ، أفضل من عبادة غني ألف عام . وعن الضحاك قال:

من دخل السوق فرأى شيئا يشتهيه ، فصبر واحتسب . كان خيرا له من ألف دينار ينفقها كلها فى سبيل الله تعالى . وقال رجل لبشر بن الحارث رحمه الله : ادع الله لى ، فقد أضرّ بى العيال . فقال . إذا قال لك عيالك ليس عندنا دقيق ولا خبز ، فادع الله لى فى ذلك الوقت، فإن دعاءك أفضل من دعائى . وكان يقول . مثل الغني المتعبد مثل روضة على مزبلة ،ومثل الفقير المتعبد مثل عقد الجوهر فى جيد الحسناء

وقد كانوا يكرهون سماع علم المعرفة من الأغنياء وقد قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه اللهم إنى أسألك الذل عند النصف من نفسى ، والزهد فيما جاوز الكفاف . وإذا كان مثل الصديق رضي الله عنه فى كمال حاله يحذر من الدنيا ووجودها ، فكيف يشك فى أن فقد المال أصلح من وجوده ؟ هذا مع أن أحسن أحوال الغني أن يأخذ حلالا ، وينفق طيبا ، ومع ذلك فيطول حسابه فى عرصات القيامة ، ويطول انتظاره . ومن نوقش الحساب فقد عذب . ولهذا تأخر عبد الرحمن بن عوف عن الجنة ، إذ كان مشغولا بالحساب كما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولهذا قال أبو الدرداء رضي الله عنه : ما أحب أن لى حانوتا على باب المسجد ، ولا تخطئنى فيه صلاة وذكر ، وأربح كل يوم خمسين دينارا ، وأتصدق بها فى سبيل الله تعالى . قيل وما تكره ؟ قال سوء الحساب

اختيار الفقراء والأغنياء

ولذلك قال سفيان رحمه الله : اختار الفقراء ثلاثة أشياء ، واختار الأغنياء ثلاثة أشياء . اختار الفقراء راحة النفس ، وفراغ القلب ، وخفة الحساب . واختار الأغنياء تعب النفس وشغل القلب ، وشدة الحساب . وما ذكره ابن عطاء من أن الغنى وصف الحق ، فهو بذلك أفضل ، فهو صحيح ، ولكن إذا كان العبد غنيا عن وجود المال وعدمه جميعا ، بأن يستوي عنده كلاهما . فأما إذا كان غنيا بوجوده ، ومفتقر إلى بقائه ، فلا يضاهى غناه غنى الله تعالى لأن الله تعالى غني بذاته ، لا بما يتصور زواله . والمال يتصور زواله بأن يسرق . وما ذكر من الرد عليه بأن الله ليس غنيا بالأعراض والأسباب صحيح فى ذم غني يريد بقاء المال . وما ذكر من أن صفات الحق لا تليق بالعبد غير صحيح . بل العلم من صفاته ، وهو أفضل شيء للعبد . بل منتهى العبد أن يتخلق بأخلاق الله تعالى . وقد سمعت بعض المشايخ يقول

إن سالك الطريق إلى الله تعالى قبل أن يقطع الطريق تصير الأسماء التسعة والتسعون أوصافا له . أي يكون له من كل واحد نصيب

وأما التكبر فلا يليق بالعبد ، فإن التكبر على من لا يستحق التكبر عليه ليس من صفات الله تعالى · وأما التكبر على من يستحقه، كتكبر المؤمن على الكافر ، وتكبر العالم على الجاهل والمطيع على العاصي ، فيليق به . نعم قد يراد بالتكبر الزهو ، والصلف ، والإيذاء ، وليس ذلك من وصف الله تعالى . وإنما وصف الله تعالى أنه أكبر من كل شيء ، وأنه يعلم أنه كذلك . والعبد مأمور بأنه يطلب أعلى المراتب إن قدر عليه ، ولكن بالاستحقاق كما هو حقه ، لا بالباطل والتلبيس . فعلى العبد أن يعلم أن المؤمن أكبر من الكافر ، والمطيع أكبر من العاصي ، والعالم أكبر من الجاهل ، والإنسان أكبر من البهيمة والجماد والنبات وأقرب إلى الله تعالى منها . فلو رأى نفسه بهذه الصفة رؤية محققة لا شك فيها ، لكانت صفة التكبر حاصلة له ، ولائقة به ، وفضيلة في حقه . إلا أنه لا سبيل له إلى معرفته ، فإن ذلك موقوف على الخاتمة ، وليس يدرى الخاتمة كيف تكون ، وكيف تتفق . فلجهله بذلك وجب أن لا يعتقد لنفسه رتبة فوق رتبة الكافر ، إذ ربما يختم للكافر بالإيمان، وقد يختم له بالكفر فلم يكن ذلك لائقا به لقصور علمه عن معرفة العاقبة

ولما تصور أن يعلم الشيء على ما هو به ، كان العلم كمالا في حقه ، لأنه في صفات الله تعالى ولما كانت معرفة بعض الأشياء قد تضره ، صار ذلك العلم نقصانا في حقه . إذ ليس من أوصاف الله تعالى علم يضره ، فمعرفة الأمور التي لا ضرر فيها هي التي تتصور في العبد من صفات الله تعالى فلا جرم هو منتهى الفضيلة : وبه فضل الأنبياء والأولياء والعلماء

فإذاً لو استوى عنده وجود المال وعدمه ، فهذا نوع من الغنى يضاهي بوجه من الوجوه الغنى الذي يوصف به الله سبحانه ، فهو فضيلة . أما الغنى بوجود المال فلا فضيلة فيه أصلا

فهذا بيان نسبة حال الفقير القانع إلى حال الغني الشاكر

المقام الثاني : في نسبة حال الفقير الحريص إلى حال الغني الحريص

ولنفرض هذا في شخص واحد ، هو طالب للمال ، وساع فيه ، وفاقد له ثم وجده ، فله حالة الفقد وحالة الوجود . فأي حالتيه أفضل ؟ فنقول . ننظر ، فإن كان مطلوبه ما لا بد

منه فى المعيشة ، وكان قصده أن يسلك سبيل الدين ، ويستعين به عليه ، فحال الوجود أفضل . لأن الفقر يشغله بالطلب . وطالب القوت لا يقدر على الفكر والذكر إلا قدرة مدخولة بشغل . والمكفى هو القادر ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « اللَّهُمَّ اجْعَلْ قُوتَ آلِ مُحَمَّدٍ كَفَافًا » وقال « كَادَ الْفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفْرًا » أى الفقر مع الاضطرار فيما لابد منه

وإن كان المطلوب فوق الحاجة ، أو كان المطلوب قدر الحاجة ولكن لم يكن المقصود الاستعانة به على سلوك سبيل الدين ، فحالة الفقر أفضل وأصلح ، لأنهما استويا فى الحرص وحب المال ، واستويا فى أن كل واحد منهما ليس يقصد به الاستعانة على طريق الدين ، واستويا فى أن كل واحد منهما ليس يتعرض لمعصية بسبب الفقر والغنى ، ولكن افترقا فى أن الواجد يأنس بما وجده فيتأكد حبه فى قلبه ، ويطمئن إلى الدنيا ، والفاقد المضطر يتجافى قلبه عن الدنيا ، وتكون الدنيا عنده كالسجن الذى يبغى الخلاص منه . ومهما استوت الأمور كلها ، وخرج من الدنيا رجلان ، أحدهما أشد ركونا إلى الدنيا فحاله أشد لا محالة ، إذ يلتفت قلبه إلى الدنيا ، ويستوحش من الآخرة ، بقدر تأكد أنسه بالدنيا ، وقد قال صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِى رُوعِى أَحْبِبْ مَنْ أَحْبَبْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ » وهذا تنبيه على أن فراق المحبوب شديد . فينبغى أن تحب من لا يفارقك وهو الله تعالى ، ولا تحب ما يفارقك وهو الدنيا . فإنك إذا أحببت الدنيا كرهت لقاء الله تعالى ، فيكون قدومك بالموت على ما تكرهه ، وفراقك لما تحبه . وكل من فارق محبوبا فيكون أذاه فى فراقه بقدر حبه وقدر أنسه به . وأنس الواجد للدنيا القادر عليها أكثر من أنس الفاقد لها ، وإن كان حريصا عليها . فإذاً قد انكشف بهذا التحقيق أن الفقر هو الأشرف ، والأفضل والأصلح لكافة الخلق إلا فى موضعين : أحدهما غنى مثل غنى عائشة رضى الله عنها ، يستوى عنده الوجود والعدم ، فيكون الوجود مزيدا له ، إذ يستفيد به أدعية الفقراء والمساكين وجمع هممهم ، والثانى : الفقر عن مقدار الضرورة ، فإن ذلك يكاد أن يكون كفرا ، ولا خير فيه بوجه من الوجوه ، إلا إذا كان وجوده يبقى حياته ، ثم يستعين بقوته وحياته على الكفر والمعاصى ، ولو مات جوعا لكانت معاصيه أقل ، فالأصلح له أن يموت جوعا ولا يجد ما يضطر إليه أيضا

---

(١) حديث ان روح القدس نفث فى روعى أحبب من أحببت فانك مفارقه : تقدم

فهذا تفصيل القول فى الغنى والفقر . ويبقى النظر فى فقير حريص متكالب على طلب المال ، ليس له همّ سواه ، وفى غنيّ دونه فى الحرص على حفظ المال . ولم يكن تفجعه بفقد المال لو فقده كتفجع الفقير بفقره ، فهذا فى محل النظر . والأظهر أن بعدهما عن الله تعالى بقدر قوة تفجعهما لفقد المال ، وقربهما بقدر ضعف تفجعهما بفقده ، والعلم عند الله تعالى فيه

بيان
آداب الفقير فى فقره

آداب الفقير الباطنة

اعلم أن للفقير آدابا فى باطنه وظاهره ، ومخالطته وأفعاله ، ينبغي أن يراعيها . فأما أدب باطنه فأن لا يكون فيه كراهية لما ابتلاه الله تعالى به من الفقر . أعنى أنه لا يكون كارها فعل الله تعالى من حيث إنه فعله ، وإن كان كارها للفقر . كالمحجوم يكون كارها للحجامة لتألمه بها ، ولا يكون كارها فعل الحجام ، ولا كارها للحجام . بل ربما يتقلد منه منّة . فهذا أقل درجاته ، وهو واجب ، ونقيضه حرام ومحبط ثواب الفقر . وهو معنى قوله عليه السلام « يَامَعْشَرَ الْفُقَرَاءِ أَعْطُوا اللهَ الرِّضَا مِنْ قُلُوبِكُمْ تَظْفَرُوا بِثَوَابِ فَقْرِكُمْ وَإِلَّا فَلَا »

وأرفع من هذا أن لا يكون كارها للفقر ، بل يكون راضيا به

وأرفع منه أن يكون طالبا له ، وفرحا به ، لعلمه بغوائل الغنى ، ويكون متوكلا فى باطنه على الله تعالى ، واثقا به فى قدر ضرورته أنه يأتيه لا محالة ، ويكون كارها للزيادة على الكفاف وقد قال علي كرم الله وجهه : إن لله تعالى عقوبات بالفقر ، ومثوبات بالفقر . فمن علامات الفقر إذا كان مثوبة ، أن يحسّن عليه خلُقه ، ويطيع به ربه ، ولا يشكو حاله ، ويشكر الله تعالى على فقره . ومن علاماته إذا كان عقوبة ، أن يسوء عليه خلقه ، ويعصى ربه بترك طاعته ، ويكثر الشكاية ، ويتسخط القضاء

وهذا يدل على أن كل فقير فليس بمحمود . بل الذى لا يتسخط ويرضى ، أو يفرح بالفقر ويرضى لعلمه بثمرته . إذ قيل ما أعطي عبد شيئا من الدنيا إلا قيل له خذه على ثلاثة أثلاث : شغل ، وهم ، وطول حساب

آداب الظاهر

وأما أدب ظاهره ، فأن يظهر التعفف والتجمل ، ولا يظهر الشكوى والفقر ، بل يستر فقره ، ويستر أنه يستره . فى الحديث « إِنَّ اللهَ تَعَالَى يُحِبُّ الْفَقِيرَ الْمُتَعَفِّفَ أَبَا الْعِيَالِ » وقال تعالى (يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ [1]) وقال سفيان . أفضل الأعمال التجمل عند المحنة . وقال بعضهم : ستر الفقر من كنوز البر

وأما فى أعماله ، فأدبه أن لا يتواضع لغني لأجل غناه ، بل يتكبر عليه . قال علي كرم الله وجهه . ما أحسن تواضع الغني للفقير رغبة فى ثواب الله تعالى ، وأحسن منه تيه الفقير على الغني ثقة بالله عز وجل . فهذه رتبة وأقل منها أن لا يخالط الأغنياء ولا يرغب فى مجالستهم ، لأن ذلك من مبادى الطمع . قال الثوري رحمه الله : إذا خالط الفقير الأغنياء فاعلم أنه مُراء . وإذا خالط السلطان فاعلم أنه لص . وقال بعض العارفين : إذا خالط الفقير الأغنياء انحلت عروته ، فإذا طمع فيهم انقطعت عصمته ، فإذا سكن إليهم ضل

وينبغى أن لا يسكت عن ذكر الحق مداهنة للأغنياء ، وطمعا فى العطاء

وأما أدبه فى أفعاله فأن لا يفتر بسبب الفقر عن عبادة ، ولا يمنع بذل قليل ما يفضل عنه فإن ذلك جهد المقل ، وفضله أكثر من أموال كثيرة تبذل عن ظهر غنى . [(1)] روى زيد ابن أسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « دِرْهَمٌ مِنَ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ عِنْدَ اللهِ مِنْ مِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ » قيل وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال « أَخْرَجَ رَجُلٌ مِنْ عَرْضِ مَالِهِ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ فَتَصَدَّقَ بِهَا وَأَخْرَجَ رَجُلٌ دِرْهَماً مِنْ دِرْهَمَيْنِ لا يَمْلِكُ غَيْرَهُمَا طَيِّبَةً بِهِ نَفْسُهُ فَصَارَ صَاحِبُ الدِّرْهَمِ أَفْضَلَ مِنْ صَاحِبِ الْمِائَةِ أَلْفٍ »

وينبغى أن لا يدخر مالا ، بل يأخذ قدر الحاجة ويخرج الباقى وفى الادخار ثلاث درجات

درجات الادخار

إحداها : أن لا يدخر إلا ليومه وليلته ، وهي درجة الصديقين

والثانية : أن يدخر لأربعين يوما ، فإن ما زاد عليه داخل فى طول الأمل . وقد فهم العلماء

---

(١) حديث زيد بن أسلم درهم من الصدقة أفضل عند الله من مائة ألف قيل وكيف يا رسول الله قال أخرج رجل من عرض ماله مائة ألف ـ الحديث : النسائى من حديث أبى هريرة متصلا وقد تقدم فى الزكاة ولا أصل له من رواية زيد بن أسلم مرسلا

---

[1] البقره : ٢٧٣

ذلك من ميعاد الله تعالى لموسى عليه السلام ، ففهم منه الرخصة فى أمل الحياة أربعين يوما ، وهذه درجة المتقين

والثالثة : أن يدخر لسنته ، وهي أقصى المراتب ، وهي رتبة الصالحين

ومن زاد فى الادخار على هذا فهو واقع فى غمار العموم، خارج عن حيز الخصوص بالكلية فغنى الصالح الضعيف فى طمأنينة قلبه فى قوت سنته ، وغنى الخصوص فى أربعين يوما ، وغنى خصوص الخصوص فى يوم وليلة . وقد قسم النبي صلى الله عليه وسلم نساءه على مثل هذه الأقسام ، فبعضهن كان يعطيها قوت سنة عند حصول مايحصل، وبعضهن قوت أربعين يوما ،وبعضهن يوما وليلة ، وهو قسم عائشة وحفصة

بيان

آداب الفقير فى قبول العطاء إذا جاءه بغير سؤال

ينبغي أن يلاحظ الفقير فيما جاءه ثلاثة أمور : نفس المال،وغرض المعطى ،وغرضه فى الأخذ أما نفس المال . فينبغى أن يكون حلالا خاليا عن الشبهات كلها . فإن كان فيه شبهة فليحترز من أخذه . وقد ذكرنا فى كتاب الحلال والحرام درجات الشبهة، ومايجب اجتنابه وما يستحب . وأما غرض المعطى . فلا يخلو إما أن يكون غرضه تطييب قلبه وطلب محبته ، وهو الهدية ، أو الثواب ، وهو الصدقة والزكاة ، أو الذكر والرياء والسمعة ، إما على التجرد ، وإما ممزوجا ببقية الأغراض

أحكام الهدية

أما الأول وهو [1] الهدية ، فلا بأس بقبولها ؛ فإن قبولها سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكن ينبغي أن لا يكون فيها منّة . فإن كان فيها منة فالأولى تركها. فإن علم أن بعضها مما تعظم فيه المنّة فليرد البعض دون البعض . فقد [2] أهدى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث انقبول الهدية سنة :تقدم انه صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية

(٢) حديث أهدى الى النبي صلى الله عليه وسلم سمن وأقط وكبش فقبل السمن والأقط ورد الكبش أحمد فى أثناء حديث ليعلى بن مرة وأهدت اليه كبشين وشيئا من سمن وأقط فقال النبي صلى الله عليه وسلم خذالأقط والسمن وأحد الكبشين ورد عليها الآخر واسناده جيد وقال وكيع مرة عن يعلى بن مرة عن أبيه

سمن ، وأقط ، وكبش: فقبل السمن والأقط * ورد الكبش. [١] وكان صلى الله عليه وسلم يقبل من بعض الناس ويرد على بعض . وقال [٢] « لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ لاَ أَتَّهِبَ إِلَّا مِنْ قُرَشِيٍّ أَوْ ثَقَفِيٍّ أَوْ أَنْصَارِيٍّ أَوْ دُوسِيٍّ » وفعل هذا جماعة من التابعين

وجاءت إلى فتح الموصلي صرة فيها خمسون درهما · فقال حدثنا [٣] عطاء ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « مَنْ أَتَاهُ رِزْقٌ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ فَرَدَّهُ فَإِنَّمَا يَرُدُّهُ عَلَى اللهِ » ثم فتح الصرة فأخذ منها درهما ، ورد سائرها . وكان الحسن يروى هذا الحديث أيضا ولكن حمل إليه رجل كيسا ورزمة من رقيق ثياب خراسان ، فرد ذلك وقال : من جلس مجلسى هذا ، وقبل من الناس مثل هذا ، لقي الله عز وجل يوم القيامة وليس له خلاق . وهذا يدل على أن أمر العالم والواعظ أشد فى قبول العطاء . وقد كان الحسن يقبل من أصحابه

وكان ابراهيم التيمي يسأل من أصحابه الدرهم والدرهمين ونحوه ، ويعرض عليه غيرهم المئين فلا يأخذها . وكان بعضهم إذا أعطاه صديقه شيئا يقول اتركه عندك ، وانظر إن كنت بعد قبوله فى قلبك أفضل منى قبل القبول ، فأخبرنى حتى آخذه ، وإلا فلا . وأمارة هذا أن يشق عليه الرد لو رده ، ويفرح بالقبول ويرى المنة على نفسه فى قبول صديقه هديته . فإن علم أنه يمازجه منة ، فأخذه مباح ، ولكنه مكروه عند الفقراء الصادقين

وقال بشر : ماسألت أحدا قط شيئا إلا سريا السقطى ، لأنه قد صح عندى زهده فى الدنيا ، فهو يفرح بخروج الشيء من يده ، ويتبرم ببقائه عنده فأكون عونا له على مايحب . وجاء خراساني إلى الجنيد رحمه الله بمال ، وسأله أن يأكله ، فقال أفرقه على الفقراء . فقال ماأريد هذا قال ومتى أعيش حتى آكل هذا ؟ قال ماأريد أن تنفقه فى الخل والبقل ، بل فى الحلاوات

(١) حديث كان يقبل من بعض الناس ويرد على بعض : أبو داود والترمذى من حديث أبى هريرة وايم الله لاأقبل بعد يومى هذا من أحد هدية إلا أن يكون مهاجريا ـ الحديث : فيه محمد بن اسحق ورواه بالعنعنة

(٢) حديث لقد هممت ان لاأتهب الا من قرشى أو ثقفى أو أنصارى أو دوسى : الترمذى من حديث أبى هريرة وقال روى من غير وجه عن أبى هريرة قلت ورجاله ثقات

(٣) حديث عطاء مرسلا من أتاه رزق من غير وسيلة فرده فانما يرد على الله عزوجل : لم أجده مرسلا هكذا ولاحمد وأبى يعلى والطبرانى باسناد جيد من حديث خالد بن عدى الجهني من بلغه معروف من أخيه من غير مسئلة ولا إشراف نفس فليقبله ولا يرده فانما هو رزق ساقه الله عزوجل اليه ولاحمد وأبى داود الطيالسى من حديث أبى هريرة من آتاه الله من هذا المال شيئا من غير أن يسأله فليقبله وفى الصحيحين من حديث عمر ماأتاك من هذا المال وأنت غير مشرف ولاسائل فخذه ـ الحديث :

* الأقط هو لبن مجفف يابس متحجر يطبخ به

والطيبات .فقبل ذلك منه . فقال الخراسانى : ماأجد فى بغداد أمنّ عليّ منك .فقال الجنيد: ولا ينبغى أن يقبل إلا من مثلك

الزكاة والصدقة

الثانى : أن يكون للثواب المجرد وذلك صدقة أو زكاة ، فعليه أن ينظر فى صفات نفسه هل هو مستحق للزكاة ؟ فإن اشتبه عليه فهو محل شبهة . وقد ذكرنا تفصيل ذلك فى كتاب أسرار الزكاة . وإن كانت صدقة ، وكان يعطيه لدينه ، فلينظر إلى باطنه . فإن كان مقارفا لمعصية فى السر ، يعلم أن المعطى لو علم ذلك لنفر طبعه ، ولما تقرب إلى الله بالتصدق عليه ، فهذا حرام أخذه . كما لو أعطاه لظنه أنه عالم . أو علوي ، ولم يكن ، فإن أخذه حرام محض لاشبهة فيه

العطاء بقصد الرياء

الثالث : أن يكون غرضه السمعة والرياء والشهرة فينبغى أن يرد عليه قصده الفاسد ولايقبله ، إذ يكون معينا له على غرضه الفاسد . وكان سفيان الثورى يرد ما يعطى ويقول لو علمت أنهم لايذكرون ذلك افتخارا به لأخذت . وعوتب بعضهم فى رد ما كان يأتيه من صلة فقال : إنما أرد صلتهم إشفاقا عليهم ، ونصحا لهم ، لأنهم يذكرون ذلك ، ويحبون أن يعلم به ، فتذهب أموالهم ، وتحبط أجورهم

غرض الآخذ

وأما غرضه فى الأخذ فينبغى أن ينظر أهو محتاج إليه فيما لابد له منه ، أو هو مستغن عنه . فإن كان محتاجا إليه وقد سلم من الشبهة والآفات التى ذكرناها فى المعطى، فالأفضل الأخذ . قال النبى صلى الله عليه وسلم (١) « مَا الْمُعْطِي مِنْ سَعَةٍ بِأَعْظَمَ أَجْرًا مِنَ الْآخِذِ إِذَا كَانَ مُحْتَاجًا » وقال صلى الله عليه وسلم (٢) «مَنْ أَتَاهُ شَيْءٌ مِنْ هَذَا الْمَالِ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ وَلَا اسْتِشْرَافٍ فَإِنَّمَا هُوَ رِزْقٌ سَاقَهُ اللهُ إِلَيْهِ » وفى لفظ آخر « فَلَا يَرُدُّهُ »

وقال بعض العلماء من أعطي ولم يأخذ سأل ولم يُعْطَ . وقد كان سري السقطى يوصل إلى أحمد بن حنبل رحمة الله عليهما شيئا ، فرده مرة ، فقال له السري ، يا أحمد ، احذر آفة الرد ، فإنها أشد من آفة الأخذ . فقال له أحمد . أعِدْ عليّ ما قلت . فأعاده ، فقال أحمد . ما رددت

---

(١) حديث ما المعطى من سعة بأعظم أجرا من الآخذ اذا كان محتاجا: الطبرانى من حديث ابن عمر وقد تقدم فى الزكاة

(٢) حديث من أتاه شىء من هذا المال من غير مسئلة ولا استشراف فانما هو رزق ساقه الله اليه وفى لفظ آخر فلاترده :تقدما قبل هذا بحديث

عليك إلا لأن عندى قوت شهر ، فاحبسه لى عندك ، فإذا كان بعد شهر فأنفذه إلىّ وقد قال بعض العلماء : يخاف فى الرد مع الحاجة عقوبة من ابتلاء بطمع ، أو دخول فى شبهة أو غيره

فأما إذا كان ما أتاه زائدا على حاجته ، فلا يخلو إما أن يكون حاله الاشتغال بنفسه ، والتكفل بأمور الفقراء والإنفاق عليهم ، لما فى طبعه من الرفق والسخاء . فإن كان مشغولا بنفسه فلا وجه لأخذه وإمساكه إن كان طالبا طريق الآخرة ، فإن ذلك محض اتباع الهوى . وكل عمل ليس لله فهو فى سبيل الشيطان ، أو داع إليه ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ثم له مقامان أحدهما : أن يأخذ فى العلانية ويرد فى السر ، أو يأخذ فى العلانية ويفرق فى السر ، وهذا مقام الصديقين ، وهو شاق على النفس ، لا يطيقه إلا من اطمأنت نفسه بالرياضة

والثانى : أن يترك ولا يأخذ ، ليصرفه صاحبه إلى من هو أحوج منه ، أو يأخذ ويوصل إلى من هو أحوج منه ، فيفعل كليهما فى السر ، أو كليهما فى العلانية ، وقد ذكرنا هل الأفضل إظهار الأخذ أو إخفاؤه فى كتاب أسرار الزكاة ، مع جملة من أحكام الفقر . فليطلب من موضعه وأما امتناع أحمد بن حنبل عن قبول عطاء سري السقطى رحمهما الله ، فإنما كان لاستغنائه عنه ، إذ كان عنده قوت شهر ، ولم يرض لنفسه أن يشتغل بأخذه وصرفه إلى غيره ، فإن فى ذلك آفات وأخطارا . والورع يكون حذرا من مظان الآفات ، إذ لم يأمن مكيدة الشيطان على نفسه

قبول الصدقة رمز للمعطى

وقال بعض المجاورين بمكة . كانت عندى دراهم أعددتها للإنفاق فى سبيل الله ، فسمعت فقيرا قد فرغ من طوافه وهو يقول بصوت خفي . أنا جائع كما ترى عريان كما ترى فما ترى فيما ترى ؟ يا من يرى ولا يُرى . فنظرت فإذا عليه خلقان لا تكاد تواريه ، فقلت فى نفسى . لا أجد لدراهمى موضعا أحسن من هذا . فحملتها إليه : فنظر إليها ، ثم أخذ منها خمسة دراهم وقال أربعة ثمن مئزرين ، ودرهم أنفقه ثلاثا ، فلا حاجة بى إلى الباقى ، فرده . قال فرأيته الليلة الثانية وعليه مئزران جديدان ، فهجس فى نفسى منه شيء . فالتفت إليّ ، فأخذ بيدى ، فأطافنى معه أسبوعا . كل شوط منها على جوهر من معادن الأرض يتخشخش تحت أقدامنا إلى الكعبين ، منها ذهب ، وفضة ، وياقوت ، ولؤلؤ ، وجوهر ، ولم يظهر ذلك للناس فقال هذا كله قد أعطانيه فزهدت فيه ، وآخذ من أيدى الخلق ، لأن هذه أثقال وفتنة ، وذلك للعباد فيه رحمة ونعمة

والمقصود من هذا أن الزيادة على قدر الحاجة إنما تأتيك ابتلاء وفتنة ، لينظر الله إليك ماذا

تعمل فيه ، وقدر الحاجة يأتيك رفقا بك فلا تغفل عن الفرق بين الرفق والابتلاء قال الله تعالى (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا [١]) وقد قال صلى الله عليه وسلم [(١)] « لَا حَقَّ لِابْنِ آدَمَ إِلَّا فِي ثَلَاثٍ طَعَامٍ يُقِيمُ صُلْبَهُ وَثَوْبٍ يُوَارِي عَوْرَتَهُ وَبَيْتٍ يُكِنُّهُ فَمَا زَادَ فَهُوَ حِسَابٌ »

فإذاً أنت فى أخذ قدر الحاجة من هذه الثلاث مثاب ، وفيما زاد عليه إن لم تعص الله متعرض للحساب ، وإن عصيت الله فأنت متعرض للعقاب

ومن الاختبار أيضا أن تعزم على ترك لذة من اللذات تقربا إلى الله تعالى، وكسراً لصفة النفس ، فتأتيك عفواً صفواً لتمتحن بها قوة عقلك ، فالأولى الامتناع عنها ، فإن النفس إذا رخص لها فى نقض العزم ألفت نقض العهد ، وعادت لعادتها ، ولا يمكن قهرها ، فرد ذلك مهم ، وهو الزهد ، فإن أخذته وصرفته إلى محتاج فهو غاية الزهد، ولا يقدر عليه إلا الصديقون

وأما إذا كانت حالك السخاء ، والبذل ، والتكفل بحقوق الفقراء ، وتعهد جماعة من الصلحاء ، فخذ مازاد على حاجتك ، فإنه غير زائد على حاجة الفقراء ، وبادر به إلى الصرف إليهم، ولا تدخره ، فإن امساكه ولو ليلة واحدة فيه فتنة واختبار ، فربما يحلو فى قلبك فتمسكه ، فيكون فتنة عليك .

خدمة الفقراء للتوسع هلاك

وقد تصدى لخدمة الفقراء جماعة اتخذوها وسيلة . إلى التوسع فى المال، والتنعم فى المطعم والمشرب ، ، وذلك هو الهلاك . ومن كان غرضه الرفق وطلب الثواب به، فله أن يستقرض على حسن الظن بالله ، لا على اعتماد السلاطين الظلمة ، فإن رزقه الله من حلال قضاه ، وإن مات قبل القضاء قضاه الله تعالى عنه ، وأرضى غرماءه ، وذلك بشرط أن يكون مكشوف الحال عند من يقرضه ، فلا يغر المقرض ولا يخدعه بالمواعيد ، بل يكشف حاله عنده، ليقدم على إقراضه على بصيرة . ودين مثل هذا الرجل واجب أن يقضى من مال بيت المال ، ومن الزكاة . وقد قال تعالى (وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ [٢]) قيل معناه

---

(١) حديث لاحق لابن آدم الافى ثلاث طعام يقيم صلبه وثوب يوارى عورته وبيت يكنه فمازاد فهو حساب الترمذى من حديث عثمان بن عفان وقال وجلف الخبز والماء بدل قوله طعام يقيم صلبه وقال صحيح

---

(١) الكهف : ٧ (٢) الطلاق : ٧

ليبع أحد ثوبيه، وقيل معناه فليستقرض بجاهه، فذلك مما آتاه الله وقال بعضهم: إن لله تعالى عبادا ينفقون على قدر بضائعهم، ولله عباد ينفقون على قدر حسن الظن بالله تعالى. ومات بعضهم فأوصى بماله لثلاث طوائف الأقوياء، والأسخياء، والأغنياء. فقيل من هؤلاء؟ فقال أما الأقوياء فهم أهل التوكل على الله تعالى وأما الأسخياء فهم أهل حسن الظن بالله تعالى وأما الأغنياء فهم أهل الانقطاع إلى الله تعالى . فإذاً مهما وجدت هذه الشروط فيه، وفى المال، وفى المعطى، فليأخذه وينبغى أن يرى ما يأخذه من الله لا من المعطى، لأن المعطى واسطة قد سخر للعطاء، وهو مضطر إليه بما سلط عليه من الدواعى، والإرادات والإعتقادات

وقد حكي أن بعض الناس دعا شقيقا فى خمسين من أصحابه، فوضع الرجل مائدة حسنة فلما قعد قال لأصحابه: إن هذا الرجل يقول من لم ير أنى صنعت هذا الطعام وقدمته فطعامى عليه حرام. فقاموا كلهم وخرجوا إلا شابا منهم، كان دونهم فى الدرجة. فقال صاحب المنزل لشقيق: ما قصدت بهذا؟ قال أردت أن أختبر توحيد أصحابى كلهم

وقال موسى عليه السلام. يارب جعلت رزقى هكذا على أيدى بنى اسرائيل، يغدينى هذا يوما ويعشينى هذا ليلة! فأوحى الله تعالى إليه. هكذا أصنع بأوليائى، أجرى أرزاقهم على أيدى البطالين من عبادى ليؤجروا فيهم . فلا ينبغى أن يرى المعطى إلا من حيث أنه مسخر مأجور من الله تعالى. نسأل الله حسن التوفيق لما يرضاه

بيان

تحريم السؤال من غير ضرورة وآداب الفقير المضطر فيه

اعلم أنه قد وردت مناه كثيرة فى السؤال وتشديدات. وورد فيه أيضا ما يدل على الرخصة إذ قال صلى الله عليه وسلم [1] «لِلسَّائِلِ حَقٌّ وَلَوْ جَاءَ عَلَى فَرَسٍ»، وفى الحديث [2] «رُدُّوا

---

(١) حديث للسائل حق وان جاء على فرس: أبو داود من حديث الحسين بن على ومن حديث على وفى الأول يعلى بن أبى يحيى جهله أبو حاتم ووثقه ابن حبان وفى الثانى شيخ لم يسم وسكت عليهما أبو داود وماذكره ابن الصلاح فى علوم الحديث انه بلغه عن أحمد بن حنبل قال أربعة أحاديث تدور فى الأسواق ليس لها أصل منها للسائل حق ـ الحديث: فانه لا يصح عن أحمد فقد أخرج حديث الحسين بن على فى مسنده

(٢) حديث ردوا السائل ولو بظلف محرق: أبو داود والترمذى وقال حسن صحيح والنسائى واللفظ له من حديث أم بجيد وقال ابن عبد البر حديث مضطرب

السَّائِلِ وَلَوْ بِظِلْفٍ مُحْرَقٍ » ولو كان السؤال حراما مطلقا لما جاز إعانة المتعدى على عدوانه والإعطاء إعانة . فالكاشف للغطاء فيه أن السؤال حرام فى الأصل ، وإنما يباح بضرورة أو حاجة مهمة قريبة من الضرورة . فإن كان عنها بد فهو حرام . وإنما قلنا إن الأصل فيه التحريم لأنه لا ينفك عن ثلاثة أمور محرمة :

الأصل فى السؤال المحرمة

الأول : إظهار الشكوى من الله تعالى ، إذ السؤال إظهار للفقر ، وذكر لقصور نعمة الله تعالى عنه ، وهو عين الشكوى . وكما أن العبد المملوك لو سأل لكان سؤاله تشنيعا على سيده ، فكذلك سؤال العباد تشنيع على الله تعالى ؛ وهذا ينبغى أن يحرم ولا يحل إلا لضرورة كما تحل الميتة

الثانى : أن فيه إذلال السائل نفسه لغير الله تعالى . وليس للمؤمن أن يذل نفسه لغير الله ، بل عليه أن يذل نفسه لمولاه ، فإن فيه عزه . فأما سائر الخلق فإنهم عباد أمثاله ، فلا ينبغى أن يذل لهم إلا لضرورة . وفى السؤال ذل للسائل بالإضافة إلى المسئول

الثالث : أنه لا ينفك عن إيذاء المسئول غالبا ، لأنه ربما لا تسمح نفسه بالبذل عن طيب قلب منه ، فإن بذل حياء من السائل أو رياء فهو حرام على الآخذ ، وإن منع ربما استحيا وتأذى فى نفسه بالمنع ، إذ يرى نفسه فى صورة البخلاء . ففى البذل نقصان ماله ، وفى المنع نقصان جاهه ، وكلاهما مؤذيان ، والسائل هو السبب فى الإيذاء ، والإيذاء حرام إلا بضرورة

ومهما فهمت هذه المحذورات الثلاث فقد فهمت قوله صلى الله عليه وسلم [١] « مَسْأَلَةُ النَّاسِ مِنَ الْفَوَاحِشِ مَا أُحِلَّ مِنَ الْفَوَاحِشِ غَيْرُهَا » فانظر كيف سماها فاحشة ، ولا يخفى أن الفاحشة إنما تباح لضرورة ، كما يباح شرب الخمر لمن غص بلقمة وهو لا يجد غيره

السؤال فاحشة أبيحت للضرورة

وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « مَنْ سَأَلَ عَنْ غِنًى فَإِنَّمَا يَسْتَكْثِرُ مِنْ جَمْرِ جَهَنَّمَ »

---

(١) حديث مسئلة الناس من الفواحش وما أحل الله من الفواحش غيرها : لم أجد له أصلا

(٢) حديث من سأل عن غنى فإنما يستكثر من جمر جهنم ـ الحديث : أبو داود وابن حبان من حديث سهل ابن الحنظلية مقتصرا على ما ذكر منه وتقدم فى الزكاة ولمسلم من حديث أبى هريرة من يسأل الناس أموالهم تكثرا فإنما يسأل جمرا ـ الحديث : وللبزار والطبرانى من حديث مسعود بن عمرو لا يزال العبد يسأل وهو غني حتى يخلق وجهه وفى اسناده لين وللشيخين من حديث ابن عمر ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتى يوم القيامة وليس على وجهه مزعة لحم واسناده جيد

« وَمَنْ سَأَلَ وَلَهُ مَا يُغْنِيهِ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَوَجْهُهُ عَظْمٌ يَتَقَعْقَعُ وَلَيْسَ عَلَيْهِ لَحْمٌ »[١] وفى لفظ آخر « كَانَتْ مَسْأَلَتُهُ خُدُوشاً وَكُدُوحاً فِى وَجْهِهِ » وهذه الألفاظ صريحة فى التحريم والتشديد[٢]

وبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم قوما على الإسلام ، فاشترط عليهم السمع والطاعة ثم قال لهم كلمة خفيفة « وَلَا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئاً » وكان صلى الله عليه وسلم يأمر كثيرا بالتعفف عن السؤال، ويقول[٣] « مَنْ سَأَلَنَا أَعْطَيْنَاهُ وَمَنِ اسْتَغْنَى أَغْنَاهُ اللهُ وَمَنْ لَمْ يَسْأَلْنَا فَهُوَ أَحَبُّ إِلَيْنَا » وقال صلى الله عليه وسلم[٤] « اسْتَغْنُوا عَنِ النَّاسِ وَمَا قَلَّ مِنَ السُّؤَالِ فَهُوَ خَيْرٌ » قالوا ومنك يارسول الله ؟ قال « وَمِنِّى »

تحريم مال السائل المستغنى عليه

وسمع عمر رضي الله عنه سائلا يسأل بعد المغرب ، فقال لواحد من قومه :عشّ الرجل فعشاه . ثم سمعه ثانيا يسأل ، فقال . ألم أقل لك عش الرجل ؟ قال قد عشيته . فنظر عمر فإذا تحت يده مخلاة مملوأة خبزا . فقال . لست سائلا ، ولكنك تاجر . ثم أخذ المخلاة ونثرها بين يدى إبل الصدقة ، وضربه بالدّرة ، وقال لاتعد . ولولا أن سؤاله كان حراما لما ضربه ولا أخذ مخلاته

ولعل الفقيه الضعيف المنة ، الضيق الحوصلة ، يستبعد هذا من فعل عمر ويقول . أما ضربه فهو تأديب ، وقد ورد الشرع بالتعزير . وأما أخذه ماله فهو مصادرة ، والشرع لم يرد بالعقوبة بأخذ المال ؛ فكيف استجازه ؟ وهو استبعاد مصدره القصور فى الفقه . فأين يظهر فقه الفقهاء كلهم فى حوصلة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، واطلاعه على أسرار دين الله

---

(١) حديث من سأل وله مايغنيه كانت مسألته خدوشا وكدوحا فى وجهه :أصحاب السنن من حديث ابن مسعود وتقدم فى الزكاة

(٢) حديث بايع قوما على الاسلام فاشترط عليهم السمع والطاعة ثم قال كلمة خفيفة ولاتسألوا الناس شيئا مسلم من حديث عوف بن مالك الاشجعى

(٣) حديث من سألنا أعطيناه ومن استغنى أغناه الله ومن لم يسألنا فهو أحب الينا : ابن أبى الدنيا فى القناعة والحارث ابن أبى أسامة فى مسنده من حديث أبى سعيد الخدرى وفيه حصن بن هلال لم أر من تكلم فيه وباقيهم ثقات

(٤) حديث استغنوا عن الناس وماقل من السؤال فهو خير ـ الحديث : البزار والطبرانى من حديث ابن عباس استغنوا عن الناس ولو بشوص السواك واسناده صحيح وله فى حديث يعدى الجذام فتعففوا ولو بحزم الحطب وفيه من لم يسم وليس فيه وماقل من السؤال الخ

ومصالح عباده . أفترى أنه لم يعلم أن المصادرة بالمال غير جائزة ؟أو علم ذلك ولكن أقدم عليه غضبا فى معصية الله ؟ وحاشاه .أو أراد الزجر بالمصلحة بغير طريق شرعها نبي الله؟وهيهات فإن ذلك أيضا معصية .بل الفقه الذى لاح له فيه أنه رآه مستغنيا عن السؤال ،وعلم أن من أعطاه شيئا فإنما أعطاه على اعتقاد أنه محتاج ، وقد كان كاذبا ، فلم يدخل فى ملكه بأخذه مع التلبيس وعسر تمييز ذلك ورده إلى أصحابه . إذ لا يعرف أصحابه بأعيانهم ، فبقى مالا لا مالك له ، فوجب صرفه إلى المصالح ، وإبل الصدقة وعلفها من المصالح

ويتنزل أخذ السائل مع إظهار الحاجة كاذبا ، كأخذ العلوي بقوله إنى علوي، وهو كاذب ، فإنه لا يملك ما يأخذه .وكأخذ الصوفي الصالح الذى يعطى لصلاحه،وهو فى الباطن مقارف لمعصية لو عرفها المعطى لما أعطاه . وقد ذكرنا فى مواضع أن ما أخذوه على هذا الوجه لا يملكونه ، وهو حرام عليهم ، ويجب عليهم الرد إلى مالكه . فاستدل بفعل عمر رضي الله عنه على صحة هذا المعنى الذى يغفل عنه كثير من الفقهاء وقد قررناه فى مواضع . ولا تستدل بغفلتك عن هذا الفقه على بطلان فعل عمر

فإذا عرفت أن السؤال يباح لضرورة ، فاعلم أن الشيء إما أن يكون مضطرا إليه ، أو محتاجا إليه حاجة مهمة ، أو حاجة خفيفة ، أو مستغنى عنه ،فهذه أربعة أحوال

أما المضطر إليه فهو سؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتا أو مرضا ، وسؤال العارى وبدنه مكشوف ليس معه ما يواريه ، وهو مباح مهما وجدت بقية الشروط فى المسئول بكونه مباحا ، والمسئول منه بكونه راضيا فى الباطن ، وفى السائل بكونه عاجزا عن الكسب فإن القادر على الكسب وهو بطال ليس له السؤال إلا إذا استغرق طلب العلم أوقاته . وكل من له خط فهو قادر على الكسب بالوراقة . وأما المستغنى فهو الذى يطلب شيئا وعنده مثله وأمثاله . فسؤاله حرام قطعا . وهذان طرفان واضحان

وأما المحتاج حاجة مهمة فكالمريض الذى يحتاج إلى دواء ليس يظهر خوفه لو لم يستعمله ولكن لا يخلو عن خوف . وكمن له جبة لا قميص تحتها فى الشتاء ، وهو يتأذى بالبرد تأذيا لا ينتهى إلى حد الضرورة . وكذلك من يسأل لأجل الكراء وهو قادر على المشي بمشقة . فهذا أيضا ينبغى أن تسترسل عليه الإباحة ؛ لأنها أيضا حاجة محققة .ولكن الصبر عنه أولى

وهو بالسؤال تارك للأولى . ولا يسمى سؤاله مكروها مهما صدق فى السؤال : وقال ليس تحت جبتى قميص ، والبرد يؤذينى أذى أطيقه ، ولكن يشق عليَّ . فإذا صدق فصدقُه يكون كفارة لسؤاله إن شاء الله تعالى

وأما الحاجة الخفيفة فمثل سؤاله قميصا ليلبسه فوق ثيابه عند خروجه ، ليستر الخروق من ثيابه عن أعين الناس ، وكمن يسأل لأجل الأدم وهو واجد للخبز . وكمن يسأل الكراء لفرس في الطريق وهو واجد كراء الحمار . أو يسأل كراء المحمل وهو قادر على الراحلة . فهذا ونحوه إن كان فيه تلبيس حال بإظهار حاجة غير هذه فهو حرام . وإن لم يكن وكان فيه شيء من المحذورات الثلاثة ، من الشكوى ، والذل ، وإيذاء المسؤل فهو حرام ، لأن مثل هذه الحاجة لا تصلح لأن تباح بها هذه المحذورات . وإن لم يكن فيها شيء من ذلك فهو مباح مع الكراهة

فإن قلت :فكيف يمكن إخلاء السؤال عن هذه المحذورات ؟

فاعلم أن الشكوى تندفع بأن يظهر الشكر لله والاستغناء عن الخلق ، ولا يسأل سؤال محتاج ،ولكن يقول :أنا مستغن بما أملكه ، ولكن تطالبنى رعونة النفس بثوب فوق ثيابى ، وهو فضلة عن الحاجة وفضول من النفس . فيخرج به عن حد الشكوى

وأما الذل فبأن يسأل أباه ، أو قريبه ، أو صديقه الذى يعلم أنه لا ينقصه ذلك فى عينه ، ولا يزدريه بسبب سؤاله ، أو الرجل السخي الذى قد أعدّ ماله لمثل هذه المكارم ، فيفرح بوجود مثله ، ويتقلد منه منة بقبوله ، فيسقط عنه الذل بذلك . فإن الذل لازم للمنّة لا محالة

وأما الإيذاء فسبيل الخلاص عنه أن لا يعين شخصا بالسؤال بعينه ، بل يلقى الكلام عرضا ، بحيث لا يقدم على البذل إلا متبرع بصدق الرغبة . وإن كان فى القوم شخص مرموق لولم يبذل لكان يلام ، فهذا إيذاء ، فإنه ربما يبذل كرها خوفا من الملامة ، ويكون الأحب إليه فى الباطن الخلاص لو قدر عليه من غير الملامة . وأما إذا كان يسأل شخصا معينا فينبغى أن لا يصرح ، بل يعرض تعريضا يبقى له سبيلا إلى التغافل إن أراد . فإذا لم يتغافل مع القدرة عليه فذلك لرغبته ، وأنه غير متأذّ به . وينبغى أن يسأل من لا يستحي منه لو ردّه أو تغافل عنه ، فإن الحياء من السائل يؤذى ، كما أن الرياء مع غير السائل يؤذى

فإن قلت : فإذا أخذ مع العلم بأن باعث المعطى هو الحياء منه أو من الحاضرين ، ولولاه لما ابتدأه به ، فهل هو حلال أو شبهة ؟ فأقول ذلك حرام محض لا خلاف فيه بين الأمة. وحكمه حكم أخذ مال الغير بالضرب والمصادرة ، إذ لا فرق بين أن يضرب ظاهر جلده بسياط الخشب ، أو يضرب باطن قلبه بسوط الحياء وخوف الملام . وضرب الباطن أشد نكاية في قلوب العقلاء . ولا يجوز أن يقال هو في الظاهر قد رضي به ، وقد قال صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّمَا أَحْكُمُ بِالظَّاهِرِ وَاللهُ يَتَوَلَّى السَّرَائِرَ » فإن هذه ضرورة القضاة في فصل الخصومات ، إذ لا يمكن ردهم إلى البواطن وقرائن الأحوال ، فاضطروا إلى الحكم بظاهر القول باللسان ، مع أنه ترجمان كثير الكذب ، ولكن الضرورة دعت إليه . وهذا سؤال عما بين العبد وبين الله تعالى ، والحاكم فيه أحكم الحاكمين ، والقلوب عنده كالألسنة عند سائر الحكام ، فلا تنظر في مثل هذا إلا إلى قلبك وإن أفتوك وأفتوك ، فإن المفتي معلم للقاضي والسلطان ليحكموا في عالم الشهادة ، ومفتي القلوب هم علماء الآخرة ، وبفتواهم النجاة من سطوة سلطان الآخرة ، كما أن بفتوى الفقيه النجاة من سطوة سلطان الدنيا .

فإذاً ما أخذه مع الكراهة لا يملكه بينه وبين الله تعالى ، ويجب عليه رده إلى صاحبه . فإن كان يستحي من أن يسترده ولم يسترده ، فعليه أن يثيبه على ذلك بما يساوي قيمته في معرض الهدية والمقابلة ، ليتفصى عن عهدته . فإن لم يقبل هديته ، فعليه أن يرد ذلك إلى ورثته . فإن تلف في يده فهو مضمون عليه بينه وبين الله تعالى ، وهو عاص بالتصرف فيه ، وبالسؤال الذي حصل به الأذى

فإن قلت : فهذا أمر باطن يعسر الاطلاع عليه ، فكيف السبيل إلى الخلاص منه ؟ فربما يظن السائل أنه راض ولا يكون هو في الباطن راضيا

فأقول : لهذا ترك المتقون السؤال رأسا : فما كانوا يأخذون من أحد شيئا أصلا . فكان بشر لا يأخذ من أحد أصلا إلا من السري رحمة الله عليهما . وقال : لأني علمت أنه يفرح بخروج المال من يده ، فأنا أعينه على ما يحب . وإنما عظم النكير في السؤال وتأكد الأمر بالتعفف لهذا : لأن الأذى إنما يحل بضرورة ، وهو أن يكون السائل مشرفا على الهلاك ،

(١) حديث انما أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر : لم أجد له أصلا وكذا قال المزى لما سئل عنه

ولم يبق له سبيل إلى الخلاص ، ولم يجد من يعطيه من غير كراهة وأذى ، فيباح له ذلك ، كما يباح له أكل لحم الخنزير ، وأكل لحم الميتة . فكان الامتناع طريق الورعين . ومن أرباب القلوب من كان واثقا ببصيرته في الاطلاع على قرائن الأحوال ، فكانوا يأخذون من بعض الناس دون البعض . ومنهم من كان لا يأخذ إلا من أصدقائه . ومنهم من كان يأخذ مما يعطى بعضا ويرد بعضا ، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في الكبش والسمن والأقط . وكان هذا فيما يأتيهم من غير سؤال ، فإن ذلك لا يكون إلا عن رغبة . ولكن قد تكون رغبته طمعا في جاه ، أو طلبا للرياء والسمعة ، فكانوا يحترزون من ذلك

فأما السؤال فقد امتنعوا عنه رأسا إلا في موضعين :

أحدهما : الضرورة ، فقد سأل ثلاثة من الأنبياء في موضع الضرورة . سليمان ، وموسى ، والخضر عليهم السلام . ولا شك في أنهم ما سألوا إلا من علموا أنه يرغب في إعطائهم

والثاني : السؤال من الأصدقاء والإخوان ، فقد كانوا يأخذون مالهم بغير سؤال واستئذان ، لأن أرباب القلوب علموا أن المطلوب رضا القلب لا نطق اللسان ، وكانوا قد وثقوا بإخوانهم أنهم كانوا يفرحون بمباسطتهم . فإذا كانوا يسألون الإخوان عند شكهم في اقتدار إخوانهم على ما يريدونه ، وإلا فكانوا يستغنون عن السؤال

حد إباحة السؤال

وحد إباحة السؤال أن تعلم أن المسؤل بصفة لو علم ما بك من الحاجة لابتدأك دون السؤال ، فلا يكون لسؤالك تأثير إلا في تعريف حاجتك . فأما في تحريكه بالحياء ، وإثارة داعيته بالحيل فلا . ويتصدى للسائل حالة لا يشك فيها في الرضا بالباطن ، وحالة لا يشك في الكراهة . ويعلم ذلك بقرينة الأحوال . فالأخذ في الحالة الأولى حلال طلق ، وفي الثانية حرام سحت . ويتردد بين الحالتين أحوال يشك فيها ، فليستفت قلبه فيها ، وليترك حزاز القلب ، فإنه الإثم . وليدع ما يريبه إلى ما لا يريبه وإدراك ذلك بقرائن الأحوال سهل على من قويت فطنته ، وضعف حرصه وشهوته . فإن قوي الحرص وضعفت الفطنة تراءى له ما يوافق غرضه ، فلا يتفطن للقرائن الدالة على الكراهة . وبهذه الدقائق يطلع على سر قوله صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ » وقد أوتي جوامع الكلم

(١) حديث ان أطيب ما أكل الرجل من كسبه : تقدم

لأن من لا كسب له ، ولا مال ورثه من كسب أبيه أو أحد قرابته ، فيأكل من أيدى الناس وإن أعطى بغير سؤال فإنما يعطى بدينه . ومتى يكون باطنه بحيث لو انكشف لا يعطى بدينه فيكون ما يأخذه حراما . وإن أعطى بسؤال فأين من يطيب قلبه بالعطاء إذا سئل ؟ وأين من يقتصر فى السؤال على حد الضرورة ؟

فإذا فتشت أحوال من يأكل من أيدى الناس علمت أن جميع ما يأكله أو أكثره سحت وأن الطيب هو الكسب الذى اكتسبته بحلالك أنت أو مورثك . فإذاً بعيد أن يجتمع الورع مع الأكل من أيدى الناس ، فنسأل الله تعالى أن يقطع طمعنا عن غيره ، وأن يغنينا بحلاله عن حرامه ، وبفضله عمن سواه بمنه وسعة جوده ، فإنه على ما يشاء قدير

بيان

مقدار الغنى المحرم للسؤال

اعلم أن قوله صلى الله عليه وسلم « مَنْ سَأَلَ عَنْ ظَهْرِ غِنًى فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْرًا فَلْيَسْتَقِلَّ مِنْهُ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ » صريح فى التحريم . ولكن حد الغنى مشكل ، وتقديره عسير . وليس إلينا وضع المقادير ، بل يستدرك ذلك بالتوقيف

وقد ورد فى الحديث [(١)] « اسْتَغْنُوا بِغِنَى اللهِ تَعَالَى عَنْ غَيْرِهِ » قالوا وما هو ؟ قال « غَدَاءُ يَوْمٍ وَعَشَاءُ لَيْلَةٍ » وفى حديث آخر [(٢)] « مَنْ سَأَلَ وَلَهُ خَمْسُونَ دِرْهَمًا أَوْ عِدْلُهَا مِنَ الذَّهَبِ فَقَدْ سَأَلَ إِلْحَافًا » وورد فى لفظ آخر أربعون درهما . ومهما اختلفت التقديرات وصحت الأخبار فينبغى أن يقطع بورودها على أحوال مختلفة . فإن الحق فى نفسه لا يكون إلا واحدا والتقدير ممتنع . وغاية الممكن فيه تقريب ولا يتم ذلك إلا بتقسيم محيط بأحوال المحتاجين فنقول

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَا حَقَّ لِابْنِ آدَمَ إِلَّا فِى ثَلَاثٍ طَعَامٍ يُقِيمُ صُلْبَهُ وَثَوْبٍ يُوَارِى عَوْرَتَهُ وَبَيْتٍ يُكِنُّهُ فَمَا زَادَ فَهُوَ حِسَابٌ » فلنجعل هذه الثلاث أصلا فى الحاجات لبيان أجناسها والنظر فى الأجناس والمقادير والأوقات

---

(١) حديث استغنوا بغنى الله قالوا وما هو قال غداء يوم وعشاء ليلة : تقدم فى الزكاة من حديث سهل بن الحنظلية قالوا ما يغنيه قال ما يغديه أو يعشيه ولأحمد من حديث على بإسناد حسن قالوا وما ظهر غنى قال عشاء ليلته وأما اللفظ الذى ذكره المصنف فذكره صاحب الفردوس من حديث أبى هريرة

(٢) حديث من سأل وله خمسون درهما أو عدلها من الذهب فقد سأل إلحافا وفى لفظ آخر أربعون درهما : تقدما فى الزكاة

فأما الأجناس فهي هذه الثلاث . ويلحق بها ما فى معناها . حتى يلحق بهـا الـكراء للمسافر إذا كان لا يقدر على المشي ، وكذلك ما يجرى مجراه من المهمات. ويلحق بنفسه عياله وولده ، وكل من تحت كفالته كالدابة أيضا

وأما المقادير فالثوب يراعى فيه ما يليق بذوى الدين ، وهو ثوب واحد ، وقميص ، ومنديل وسراويل ، ومداس ؛ وأما الثانى من كل جنس فهو مستغن عنه . وليقس على هذا أثاث البيت جميعا . ولا ينبغى أن يطلب رقة الثياب ، وكون الأوانى من النحاس والصفر فيما يكفى فيه الخزف ، فإن ذلك مستغنى عنه . فيقتصر من العدد على واحد ، ومن النوع على أخس أجناسه ما لم يكن فى غاية البعد عن العادة . وأما الطعام فقدره فى اليوم مُدّ ، وهو ما قدره الشرع . ونوعه ما يقتات ولو كان من الشعير ، والأدم على الدوام فضلة ، وقطعه بالكلية إضرار ، ففى طلبه فى بعض الأحوال رخصة . وأما المسكن فأقله ما يجزىء من حيث المقدار ، وذلك من غير زينة . فأما السؤال للزينة والتوسع فهو سؤال عن ظهر غنى

وأما بالإضافة إلى الأوقات ، فما يحتاج إليه فى الحال من طعام يوم وليلة ، وثوب يلبسه ومأوى يكنه ، فلا شك فيه . فأما سؤاله للمستقبل فهذا له ثلاث درجات

درجات السؤال للمستقبل

إحداها : ما يحتاج إليه فى غد . والثانية : ما يحتاج إليه فى أربعين يوما أو خمسين يوما والثالثة : ما يحتاج إليه فى السنة . ولنقطع بأن من معه ما يكفيه له ولعياله ، إن كان له عيال ، لسنة ، فسؤاله حرام . فإن ذلك غاية الغنى . وعليه ينزل التقدير بخمسين درهما فى الحديث . فإن خمسة دنانير تكفى المنفرد فى السنة إذا اقتصد . أما المعيل فربما لا يكفيه ذلك . وإن كان يحتاج إليه قبل السنة ، فإن كان قادرا على السؤال ولا تفوته فرصته . فلا يحل له السؤال ، لأنه مستغن فى الحال ، وربما لا يعيش إلى الغد ، فيكون قد سأل ما لا يحتاج ، فيكفيه غداء يوم وعشاء ليلة ، وعليه ينزل الخبر الذي ورد فى التقدير بهذا القدر .

وإن كان يفوته فرصة السؤال ، ولا يجد من يعطيه لو أخر ، فيباح له السؤال ، لأن أمل البقاء سنة غير بعيد ، فهو بتأخير السؤال خائف أن يبقى مضطرا عاجزا عما يغنيه

فإن كان خوف العجز عن السؤال فى المستقبل ضعيفا ، وكان ما لأجله السؤال خارجا عن محل الضرورة ، لم يخل سؤاله عن كراهية ، وتكون كراهته بحسب درجات ضعف الاضطرار

وخوف الفوت، وتراخي المدة التي فيها يحتاج إلى السؤال

وكل ذلك لا يقبل الضبط، وهو منوط باجتهاد العبد ونظره لنفسه بينه وبين الله تعالى فيستفتي فيه قلبه، ويعمل به إن كان سالكا طريق الآخرة. وكل من كان يقينه أقوى، وثقته بمجيء الرزق في المستقبل أتم، وقناعته بقوت الوقت أظهر، فدرجته عند الله تعالى أعلى. فلا يكون خوف الاستقبال وقد آتاك الله قوت يومك لك ولعيالك إلا من ضعف اليقين والإصغاء إلى تخويف الشيطان. وقد قال تعالى (فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ [1]) وقال عز وجل (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا [2])

والسؤال من الفحشاء التي أبيحت بالضرورة. وحال من يسأل لحاجة متراخية عن يومه وإن كان مما يحتاج إليه في السنة، أشد من حال من ملك مالا موروثا وادخره لحاجة وراء السنة. وكلاهما مباحان في الفتوى الظاهرة، ولكنهما صادران عن حب الدنيا، وطول الأمل، وعدم الثقة بفضل الله. وهذه الخصلة من أمهات المهلكات، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه

بيان

أحوال السائلين

كان بشر رحمه الله يقول: الفقراء ثلاثة: فقير لا يسأل وإن أعطي لا يأخذ. فهذا مع الروحانيين في عليين. وفقير لا يسأل وإن أعطى أخذ. فهذا مع المقربين في جنات الفردوس وفقير يسأل عند الحاجة، فهذا مع الصادقين من أصحاب اليمين: فإذاً قد اتفق كلهم على ذم السؤال، وعلى أنه مع الفاقة يحط المرتبة والدرجة

قال شقيق البلخي لإبراهيم بن أدهم حين قدم عليه من خراسان: كيف تركت الفقراء من أصحابك؟ قال تركتهم إن أعطوا شكروا، وإن منعوا صبروا. وظن أنه لما وصفهم

---

(١) آل عمران: ١٧٥ (٢) البقرة: ٢٦٨

بترك السؤال قد أثنى عليهم غاية الثناء . فقال شقيق هكذا تركت كلاب بلخ عندنا . فقال له إبراهيم : فكيف الفقراء عندك يا أبا اسحق فقال : الفقراء عندنا إن منعوا شكروا ، وإن أعطوا آثروا . فقبل رأسه وقال صدقت يا أستاذ . فإذاً درجات أرباب الأحوال فى الرضا والصبر ، والشكر ، والسؤال كثيرة . فلا بد لسالك طريق الآخرة من معرفتها ، ومعرفة انقسامها واختلاف درجاتها ، فإنه إذا لم يعلم لم يقدر على الرقي من حضيضها إلى قلاعها ، ومن أسفل سافلين إلى أعلى عليين . وقد خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، ثم رد إلى أسفل سافلين ، ثم أمر أن يترقى إلى أعلى عليين . ومن لا يميز بين السفل والعلو لا يقدر على الرقي قطعا . وإنما الشك فيمن عرف ذلك ، فإنه ربما لا يقدر عليه

وأرباب الأحوال قد تغلبهم حالة تقتضى أن يكون السؤال مزيدا لهم فى درجاتهم ، ولكن بالإضافة إلى حالهم . فإن مثل هذه الأعمال بالنيات ، وذلك كما روي أن بعضهم رأى أبا اسحق النورى رحمه الله يمد يده ويسأل الناس فى بعض المواضع ، قال فاستعظمت ذلك واستقبحته له ، فأتيت الجنيد رحمه الله فأخبرته بذلك فقال . لا يعظم هذا عليك ، فإن النورى لم يسأل الناس إلا ليعطيهم ، وإنما سألهم ليثيبهم فى الآخرة فيؤجرون من حيث لا يضرهم . وكأنه أشار به إلى قوله صلى الله عليه وسلم [1] « يَدُ الْمُعْطِي هِيَ الْعُلْيَا » فقال بعضهم يد المعطى هي يد الآخذ للمال ، لأنه يعطى الثواب والقدر له لا لما يأخذه . ثم قال الجنيد . هات الميزان . فوزن مائة درهم ، ثم قبض قبضة فألقاها على المائة ، ثم قال احملها إليه . فقلت فى نفسى إنما يوزن الشيء ليعرف مقداره ، فكيف خلط به مجهولا وهو رجل حكيم ؟ واستحييت أن أسأله . فذهبت بالصرة إلى النورى ، فقال هات الميزان ، فوزن مائة درهم وقال ردها عليه ، وقل له أنا لا أقبل منك أنت شيئا . وأخذ ما زاد على المائة قال فزاد تعجبي ، فسألته فقال . الجنيد رجل حكيم ، يريد أن يأخذ الحبل بطرفيه ، وزن المائة لنفسه طلبا لثواب الآخرة ، وطرح عليها قبضة بلا وزن لله عز وجل . فأخذت ما كان لله تبارك وتعالى ، ورددت ما جعله لنفسه . قال فرددتها إلى الجنيد فبكى وقال . أخذ ماله ورد مالنا ، الله المستعان

---

(١) حديث يد المعطى هى العليا : مسلم من حديث أبى هريرة

فانظر الآن كيف صفت قلوبهم وأحوالهم ، وكيف خلصت لله أعمالهم ، حتى كان يشاهد كل واحد منهم قلب صاحبه من غير مناطقة باللسان ، ولكن بتشاهد القلوب وتناجي الأسرار، وذلك نتيجة أكل الحلال، وخلو القلب عن حب الدنيا، والإقبال على الله تعالى بكُنه الهمة

فمن أنكر ذلك قبل تجربة طريقه فهو جاهل ، كمن ينكر مثلا كون الدواء مسهلا قبل شربه . ومن أنكره بعد أن طال اجتهاده حتى بذل كنه مجهوده ولم يصل ، فأنكر ذلك لغيره ، كان كمن شرب المسهل فلم يؤثر في حقه خاصة لعلة في باطنه ، فأخذ ينكر كون الدواء مسهلا . وهذا وإن كان في الجهل دون الأول ، ولكنه ليس خاليا عن حظ واف من الجهل بل البصير أحد رجلين . إما رجل سلك الطريق فظهر له مثل ماظهر لهم ؛ فهو صاحب الذوق والمعرفة ، وقد وصل إلى عين اليقين ، وإما رجل لم يسلك الطريق ، أو سلك ولم يصل ولكنه آمن بذلك وصدق به ، فهو صاحب علم اليقين ، وإن لم يكن واصلا إلى عين اليقين ولعلم اليقين أيضا رتبة ، وإن كان دون عين اليقين . ومن خلا عن علم اليقين وعين اليقين فهو خارج عن زمرة المؤمنين، ويحشر يوم القيامة في زمرة الجاحدين المستكبرين ، الذين هم قتلى القلوب الضعيفة وأتباع الشياطين ، فنسأل الله تعالى أن يجعلنا من الراسخين في العلم القائلين آمنا به، كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولوا الألباب

الشطر الثاني

من الكتاب في الزهد

وفيه بيان حقيقة الزهد، وبيان فضيلة الزهد ، وبيان درجات الزهد وأقسامه وبيان تفصيل الزهد في المطعم، والملبس، والمسكن، والأثاث، وضروب المعيشة، وبيان علامة الزهد

بيان

حقيقة الزهد

اعلم أن الزهد في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين . وينتظم هذا المقام من علم وحال ، وعمل، كسائر المقامات ، لأن أبواب الإيمان كلها كما قال السلف ترجع إلى عقد، وقول وعمل . وكأن القول لظهوره أقيم مقام الحال ، إذ به يظهر الحال الباطن. والافليس القول

مرادا لعينه . وإن لم يكن صادرا عن حال سمي إسلاما ولم يسم إيمانا . والعلم هو السبب فى الحال ، يجرى مجرى المثمر ، والعمل يجرى من الحال مجرى الثمرة . فلنذكر الحال مع كلا طرفيه من العلم والعمل . أما الحال فنعنى بها مايسمى زهدا . وهو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ماهو خير منه . فكل من عدل عن شيء إلى غيره بمعاوضة وبيع وغيره فإنما عدل عنه لرغبته عنه . وإنما عدل إلى غيره لرغبته فى غيره ، فحاله بالإضافة إلى المعدول عنه يسمى زهدا ، وبالإضافة إلى المعدول إليه يسمى رغبة وحبا

معنى الزهد

فإذاً يستدعى حال الزهد مرغوبا عنه ، ومرغوبا فيه هو خير من المرغوب عنه وشرط المرغوب عنه أن يكون هو أيضا مرغوبا فيه بوجه من الوجوه . فمن رغب عما ليس مطلوبا فى نفسه لايسمى زاهدا . إذ تارك الحجر والتراب وما أشبهه لايسمى زاهدا . وإنما يسمى زاهدا من ترك الدراهم والدنانير ، لأن التراب والحجر ليسا فى مظنة الرغبة

وشرط المرغوب فيه أن يكون عنده خيرا من المرغوب عنه ، حتى تغلب هذه الرغبة . فالبائع لايقدم على البيع إلا والمشترى عنده خير من المبيع ، فيكون حاله بالإضافة إلى المبيع زهدا فيه ، وبالإضافة إلى العوض عنه رغبة فيه وحبا . ولذلك قال الله تعالى (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ [1]) معناه باعوه . فقد يطلق الشراء بمعنى البيع . ووصف إخوة يوسف بالزهد فيه ، إذ طمعوا أن يخلو لهم وجه أبيهم ، وكان ذلك عندهم أحب إليهم من يوسف ، فباعوه طمعا فى العوض . فإذاً كل من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد فى الدنيا . وكل من باع الآخرة بالدنيا فهو أيضا زاهد ولكن فى الآخرة . ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الزهد بمن يزهد فى الدنيا ، كما خصص اسم الإلحاد بمن يميل إلى الباطل خاصة ، وإن كان هو الميل فى وضع اللسان

ولما كان الزهد رغبة عن محبوب بالجملة ، لم يتصوّر إلا بالعدول إلى شيء هو أحب منه وإلا فترك المحبوب بغير الأحب محال . والذى يرغب عن كل ماسوى الله تعالى ، حتى الفراديس ، ولا يحب إلا الله تعالى ، فهو الزاهد المطلق . والذى يرغب عن كل حظ ينال فى الدنيا ، ولم يزهد فى مثل تلك الحظوظ فى الآخرة ، بل طمع فى الحور ، والقصور ، والأنهار

---

(١) يوسف : ٢٠

والفواكه فهو أيضا زاهد ، ولـكنه دون الأول . والذى يترك من حظوظ الدنيا البعض دون البعض ، كالذى يترك المال دون الجاه ، أو يترك التوسع فى الأكل ولا يترك التجمل فى الزينة ، فلا يستحق اسم الزاهد مطلقا . ودرجتـه فى الزهاد درجـة من يتوب عن بعض المعاصى فى التائبين . وهو زهد صحيح . كما أن التوبة عن بعض المعاصى صحيحة . فإن التوبة عبارة عن ترك المحظورات ، والزهد عبارة عن ترك المباحات التى هى حظ النفس ولا يبعد أن يقدر على ترك بعض المباحات دون بعض، كما لا يبعد ذلك فى المحظورات . والمقتصر على ترك المحظورات لا يسمى زاهداً ، وإن كان قد زهد فى المحظور وانصرف عنه ، ولكن العادة تخصص هذا الاسم بترك المباحات . فإذاً الزهد عبارة عن رغبته عن الدنيا عدولا إلى الآخرة ، أو عن غير الله تعالى عدولا إلى الله تعالى ،وهي الدرجة العليا . وكما يشترط فى المرغوب فيه أن يكون خيرا عنده ، فيشترط فى المرغوب عنه أن يكون مقدورا عليه فإنّ ترك مالا يقدر عليه محال . وبالترك يتبين زوال الرغبة . ولذلك قيل لابن المبارك يازاهد فقال الزاهد عمر بن عبد العزيز ،إذ جاءته الدنيا راغمة فتركها ، وأما أنا ففيما ذا زهدت؟

وأما العلم الذى هو مثمر لهذه الحال ، فهو العلم بكون المتروك حقيرا بالإضافة إلى المأخوذ ، كعلم التاجر بأن العوض خير من المبيع فيرغب فيه . ومالم يتحقق هذا العلم لم يتصور أن تزول الرغبة عن المبيع . فـكذلك من عرف أن ماعند الله باق ، وأن الآخرة خير وأبقى أى لذاتها خير فى أنفسهـا وأبقى ، كما تـكون الجواهر خـيرا وأبقى من الثلج مثلا ، ولا يعسر على مالك الثلج بيعه بالجواهر واللآلئ . فهكذا مثال الدنيا والآخرة . فالدنيا كالثلج الموضوع فى الشمس لا يزال فى الذوبان إلى الانقراض ، والآخرة كالجوهر الذى لا فناء له

فبقدر قوّة اليقين والمعرفة بالتفاوت بين الدنيا والآخرة ،تقوى الرغبة فى البيع والمعاملة حتى أن من قوي يقينه يبيع نفسه وماله ، كما قال الله تعـالى (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ [1]) ثم بين أن صفقتهم رابحة فقال تعالى (فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُمْ بِهِ [2])

فليس يحتاج من العلم فى الزهد إلا إلى هذا القدر ، وهو أن الآخرة خير وأبقى . وقد

(١ ، ٢) التوبة : ١١١

يعلم ذلك من لا يقدر على ترك الدنيا إما لضعف علمه ويقينه ، وإما لاستيلاء الشهوة في الحال عليه ، وكونه مقهورا في يد الشيطان ، وإما لاغتراره بمواعيد الشيطان في التسويف يوما بعد يوم ، إلى أن يختطفه الموت ، ولا يبقى معه إلا الحسرة بعد الفوت

وإلى تعريف خساسة الدنيا الإشارة بقوله تعالى (قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ [١]) وإلى تعريف نفاسة الآخرة الإشارة بقوله عز وجل (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ [٢]) فنبه على أن العلم بنفاسة الجوهر هو المرغب عن عوضه

ولما لم يتصور الزهد إلا بمعاوضة ورغبة عن المحبوب في أحب منه ، [١] قال رجل في دعائه اللهم أرني الدنيا كما تراها . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « لاَ تَقُلْ هٰكَذَا وَلٰكِنْ قُلْ أَرِنِي الدُّنْيَا كَمَا أَرَيْتَهَا الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكَ » وهذا لأن الله تعالى يراها حقيرة كما هي ، وكل مخلوق فهو بالإضافة إلى جلاله حقير . والعبد يراها حقيرة في حق نفسه بالإضافة إلى ما هو خير له . ولا يتصوّر أن يرى بائع الفرس وإن رغب عنه فرسه كما يرى حشرات الأرض مثلا لأنه مستغنى عن الحشرات أصلا ، وليس مستغنيا عن الفرس . والله تعالى غني بذاته عن كل ماسواه ، فيرى الكل في درجة واحدة بالإضافة إلى جلاله ويراه متفاوتا بالإضافة إلى غيره . والزاهد هو الذي يرى تفاوته بالإضافة إلى نفسه لا إلى غيره

وأما العمل الصادر عن حال الزهد ، فهو ترك واحد ، لأنه بيع ومعاملة، واستبدال الذي هو خير بالذي هو أدنى. فكما أن العمل الصادر من عقد البيع هو ترك المبيع، وإخراجه من اليد، وأخذ العوض ،فكذلك الزهد يوجب ترك المزهود فيه بالكلية، وهي الدنيا بأسرها مع أسبابها، ومقدماتها ، وعلائقها ، فيخرج من القلب حبها ، ويدخل حب الطاعات ، ويخرج من العين واليد ما أخرجه من القلب ، ويوظف على اليد والعين وسائر الجوارح وظائف الطاعات . وإلا كان كمن سلم المبيع ولم يأخذ الثمن . فإذا وفى بشرط الجانبين في الأخذ والترك فليستبشر ببيعه الذي بايع به ،فإن الذي بايعه بهذا البيع وفى بالعهد .فمن سلم حاضرا في غائب ،وسلم الحاضر

---

(١) حديث قال رجل اللهم أرني الدنيا كما تراها فقال له لا تقل هكذا ولكن قل أرني الدنيا كما أريتها الصالحين من عبادك :ذكره صاحب الفردوس مختصرا اللهم أرني الدنيا كما تريها صالح عبادك من حديث أبي القصير ولم يخرجه ولده

---

(١) النساء : ٧٧ (٢) القصص : ٨٠

وأخذ يسعى فى طلب الغائب ، سلم إليه الغائب حين فراغه من سعيه إن كان العاقد ممن يوثق بصدقه ، وقدرته ، ووفائه بالعهد . ومادام ممسكا للدنيا لا يصح زهده أصلا ولذلك لم يصف الله تعالى إخوة يوسف بالزهد فى بنيامين ، وإن كانوا قد قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ، وعزموا على إبعاده كما عزموا على يوسف ، حتى تشفع فيه أحدهم فترك . ولا وصفهم أيضا بالزهد فى يوسف عند العزم على إخراجه ، بل عند التسليم والبيع

فعلامة الرغبة الإمساك ، وعلامة الزهد الإخراج . فإن أخرجت عن اليد بعض الدنيا دون البعض فأنت زاهد فيما أخرجت فقط ، ولست زاهدا مطلقا . وإن لم يكن لك مال ولم تساعدك الدنيا ، لم يتصور منك الزهد ، لأن ما لا يقدر عليه لا يقدر على تركه . وربما يستهويك الشيطان بغروره ، ويخيل إليك أن الدنيا وإن لم تأتك فأنت زاهد فيها . فلا ينبغى أن تتدلى بحبل غروره دون أن تستوثق وتستظهر بموثق غليظ من الله . فإنك إذا لم تجرب حال القدرة فلا تثق بالقدرة على الترك عندها . فكم من ظان بنفسه كراهة المعاصي عند تعذرها ، فلما تيسرت له أسبابها من غير مكدر ولا خوف من الخلق وقع فيها . وإذا كان هذا غرور النفس فى المحظورات ، فإياك أن تثق بوعدها فى المباحات . والموثق الغليظ الذى تأخذه عليها أن تجربها مرة بعد مرة فى حال القدرة . فإذا وفت بما وعدت على الدوام ، مع انتفاء الصوارف والأعذار ظاهرا وباطنا ، فلا بأس أن تثق بها وثوقا ما . ولكن تكون من تغيرها أيضا على حذر فإنها سريعة النقض للعهد ، قريبة الرجوع إلى مقتضى الطبع .

وبالجملة فلا أمان منها إلا عند الترك بالإضافة إلى ما ترك فقط ، وذلك عند القدرة . قال ابن أبي ليلى لابن شبرمة : ألا ترى إلى ابن الحائك هذا لا نفتى فى مسألة إلا رد علينا ؟ يعنى أبا حنيفة . فقال ابن شبرمة : لا أدرى أهو ابن الحائك أم ماهو ؛ لكن أعلم أن الدنيا غدت إليه فهرب منها ، وهربت منا فطلبناها . وكذلك [1] قال جميع المسلمين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا نحب ربنا ، ولو علمنا فى أي شيء محبته لفعلناه ، حتى نزل قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ [1]

---

(١) حديث قال المسلمون انا نحب ربنا ولو علمنا فى أى شيء محبته لفعلناه حتى نزل قوله تعالى ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم الآية لم أقف له على أصل

---

(١) النساء : ٦٦

قال ابن مسعود رحمه الله : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَنْتَ مِنْهُمْ » يعني من القليل . قال [١] وما عرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى (مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ [١])

ترك الدنيا لحقارتها زهد

واعلم أنه ليس من الزهد ترك المال وبذله على سبيل السخاء والفتوة، وعلى سبيل استمالة القلوب ، وعلى سبيل الطمع ، فذلك كله من محاسن العادات ، ولكن لا مدخل لشيء منه في العبادات. وإنما الزهد أن تترك الدنيا لعلمك بحقارتها بالإضافة إلى نفاسة الآخرة . فأما كل نوع من الترك فإنه يتصور ممن لا يؤمن بالآخرة. فذلك قد يكون مروءة ، وفتوة ، وسخاء ، وحسن خلق . ولكن لا يكون زهدا إذ حسن الذكر وميل القلوب من حظوظ العاجلة ، وهي ألذ وأهنأ من المال . وكما أن ترك المال على سبيل السلم طمعا في العوض ليس من الزهد، فكذلك تركه طمعا في الذكر ، والثناء ، والاشتهار بالفتوة والسخاء ، واستثقالا له لما في حفظ المال من المشقة ، والعناء ، والحاجة إلى التذلل للسلاطين والأغنياء ليس من الزهد أصلا . بل هو استعجال حظ آخر للنفس . بل الزاهد من أتته الدنيا راغمة ، صفوا عفوا ، وهو قادر على التنعم بها ، من غير نقصان جاه وقبح اسم ، ولا فوات حظ للنفس ، فتركها خوفا من أن يأنس بها فيكون آنسا بغير الله ، ومحبا لما سوى الله ، ويكون مشركا في حب الله تعالى غيره ، أو تركها طمعا في ثواب الله في الآخرة ، فترك التمتع بأشربة الدنيا طمعا في أشربة الجنة وترك التمتع بالسراري والنسوان طمعا في الحور العين ، وترك التفرج في البساتين طمعا في بساتين الجنة وأشجارها ، وترك التزين والتجمل بزينة الدنيا طمعا في زينة الجنة ، وترك المطاعم اللذيذة طمعا في فواكه الجنة ، وخوفا من أن يقال له (أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا [٢]) فآثر في جميع ذلك ما وعد به في الجنة على ما تيسر له في الدنيا عفوا صفوا ، لعلمه بأن ما في الآخرة خير وأبقى ، وأن ما سوى هذا فمعاملات دنيوية لا جدوى لها في الآخرة أصلا

---

(١) حديث ابن مسعود ما عرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى منكم من يريد الدنيا الآية : البيهقي في دلائل النبوة بإسناد حسن

---

(١) آل عمران : ١٥٢ (٢) الأحقاف : ٢٠

بيانه

فضيلة الزهد

قال الله تعالى (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ [١]) إلى قوله تعالى (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ [٢]) فنسب الزهد إلى العلماء، ووصف أهله بالعلم، وهو غاية الثناء. وقال تعالى (أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا [٣]) وجاء في التفسير على الزهد في الدنيا. وقال عز وجل (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً [٤]) قيل معناه أيهم أزهد فيها. فوصف الزهد بأنه من أحسن الأعمال وقال تعالى (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ [٥]) وقال تعالى (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى [٦]) وقال تعالى (الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ [٧]) فوصف الكفار بذلك. فمفهومه أن المؤمن هو الذي يتصف بنقيضه، وهو أن يستحب الآخرة على الحياة الدنيا

وأما الأخبار. فما ورد منها في ذم الدنيا كثير. وقد أوردنا بعضها في كتاب ذم الدنيا من ربع المهلكات، إذحب الدنيا من المهلكات. ونحن الآن نقتصر على فضيلة بغض الدنيا فإنه من المنجيات، وهو المعنيّ بالزهد. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] «مَنْ أَصْبَحَ وَهَمُّهُ الدُّنْيَا شَتَّتَ اللهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ وَفَرَّقَ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ وَمَنْ أَصْبَحَ وَهَمُّهُ الْآخِرَةُ جَمَعَ اللهُ لَهُ هَمَّهُ وَحَفِظَ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ»

وقال صلى الله عليه وسلم [٢] «إِذَا رَأَيْتُمُ الْعَبْدَ وَقَدْ أُعْطِيَ صَمْتاً وَزُهْداً فِي الدُّنْيَا

---

(١) حديث من أصبح وهمه الدنيا شتت الله عليه أمره ـ الحديث: ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بسند جيد والترمذي من حديث أنس بسند ضعيف نحوه

(٢) حديث اذا رأيتم العبد قد أوتي صمتا وزهدا في الدنيا فاقتربوا منه فانه يلقى الحكمة: ابن ماجه من حديث أبي خلاد بسند فيه ضعف

---

(١) القصص: ٧٩ (٢) القصص: ٨٠ (٣) القصص: ٥٤ (٤) الكهف: ٧ (٥) الشورى: ٢٠
(٦) طه: ١٣١ (٧) ابراهيم: ٣

فَاقْتَرِبُوا مِنْهُ فَإِنَّهُ يُلَقَّى الْحِكْمَةَ » وقال تعالى (وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا[1]) ولذلك قيل : من زهد فى الدنيا أربعين يوما أجرى الله ينابيع الحكمة فى قلبه ، وأنطق بها لسانه . وعن بعض الصحابة أنه قال : [1] قلنا يارسول الله أى الناس خير ؟ قال « كُلُّ مُؤْمِنٍ مَخْمُومِ الْقَلْبِ صَدُوقِ اللِّسَانِ » قلنا يارسول الله وما مخموم القلب؟ قال « التَّقِيُّ النَّقِيُّ الَّذِى لاَ غِلَّ فِيهِ وَلاَ غِشَّ وَلاَ بَغْيَ وَلاَ حَسَدَ » قلنا يارسول الله فمن على أثره ؟ قال « الَّذِى يَشْنَأُ الدُّنْيَا وَيُحِبُّ الْآخِرَةَ » ومفهوم هذا أن شر الناس الذى يحب الدنيا

الزاهد فى الدنيا محبوب لله تعالى

وقال صلى الله عليه وسلم [2] « إِنْ أَرَدْتَ أَنْ يُحِبَّكَ اللهُ فَازْهَدْ فِى الدُّنْيَا » فجعل الزهد سببا للمحبة . فمن أحبه الله تعالى فهو فى أعلى الدرجات ، فينبغى أن يكون الزهد فى الدنيا من أفضل المقامات . ومفهومه أيضا أن محب الدنيا متعرض لبغض الله تعالى

وفى خبر من طريق أهل البيت [3] « الزُّهْدُ وَالْوَرَعُ يَجُولاَنِ فِى الْقُلُوبِ كُلَّ لَيْلَةٍ فَإِنْ صَادَفَا قَلْباً فِيهِ الْإِيمَانُ وَالْحَيَاءُ أَقَامَا فِيهِ وَإِلاَّ ارْتَحَلاَ »

[4] ولما قال حارثة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا مؤمن حقا ؟ قال « وَمَا حَقِيقَةُ إِيمَانِكَ ؟ » قال عزفت نفسى عن الدنيا ، فاستوى عندى حجرها وذهبها . وكأنى بالجنة والنار ، وكأنى بعرش ربى بارزا . فقال صلى الله عليه وسلم « عَرَفْتَ فَالْزَمْ عَبْدٌ نَوَّرَ اللهُ قَلْبَهُ بِالْإِيمَانِ » فانظر كيف بدأ فى إظهار حقيقة الإيمان بعزوف النفس عن الدنيا ، وقرنه باليقين ، وكيف زكاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال « عَبْدٌ نَوَّرَ اللهُ قَلْبَهُ بِالْإِيمَانِ »

ولما [5] سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى الشرح فى قوله تعالى (فَمَنْ يُرِدِ اللهُ

---

(١) حديث قلنا يارسول الله وما مخموم القلب قال التقى النقى ـ الحديث : ابن ماجه باسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو دون قوله يارسول الله فمن على أثره وقد تقدم ورواه بهذه الزيادة بالاسناد المذكور الخرائطى فى مكارم الأخلاق

(٢) حديث ان أردت أن يحبك الله فازهد فى الدنيا : ابن ماجه من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف نحوه وقد تقدم

(٣) حديث الزهد والورع يجولان فى القلب كل ليلة فان صادفا قلبا فيه الايمان والحياء أقاما فيه والا ارتحلا : لم أجد له أصلا

(٤) حديث لما قال له حارثة أنا مؤمن حقا فقال وما حقيقة ايمانك ـ الحديث : البزار من حديث أنس والطبرانى من حديث الحارث بن مالك وكلا الحديثين ضعيف

(٥) حديث سئل عن قوله تعالى فمن يرد الله أن يهديه ـ الحديث : الحاكم وقد تقدم

---

(١) البقرة ٢٦٩

علامة شرح الصدر للإسلام

أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ (١)) وقيل له : ماهذا الشرح ؟ قال « إِنَّ النُّورَ إِذَا دَخَلَ فِي الْقَلْبِ انْشَرَحَ لَهُ الصَّدْرُ وَانْفَسَحَ » قيل يارسول الله وهل لذلك من علامة ؟ قال « نَعَمْ . التَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ وَالْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ وَالْاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِهِ » فانظر كيف جعل الزهد شرطا للإسلام ، وهو التجـــافي عن دار الغرور

وقال صلى الله عليه وسلم (١) « اسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ » قالوا إنا لنستحيي منه تعالى فقال « لَيْسَ كَذَلِكَ تَبْنُونَ مَالَا تَسْكُنُونَ وَتَجْمَعُونَ مَالَا تَأْكُلُونَ » فبين أن ذلك يناقض الحياء من الله تعالى . ولما قدم عليه بعض الوفود (٢) قالوا : إنا مؤمنون . قال « وَمَا عَلَامَةُ إِيمَانِكُمْ ؟ » فذكروا الصبر عند البلاء ، والشكر عند الرخاء ، والرضا بمواقع القضاء ، وترك الشماتة بالمصيبة إذا نزلت بالأعداء . فقال عليه الصلاة والسلام « إِنْ كُنْتُمْ كَذَلِكَ فَلَا تَجْمَعُوا مَالَا تَأْكُلُونَ وَلَا تَبْنُوا مَالَا تَسْكُنُونَ وَلَا تَنَافَسُوا فِيمَا عَنْهُ تَرْحَلُونَ » فجعل الزهد تكملة لإيمانهم . وقال (٣) جابر رضي الله عنه : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « مَنْ جَاءَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ لَا يَخْلِطُ بِهَا غَيْرَهَا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ » فقام إليه علي كرم الله وجهه فقال : بأبي أنت وأمي يارسول الله ، مالا يخلط بها غيرها ؟ صفه لنا ، فسره لنا . فقال « حُبُّ الدُّنْيَا طَلَبًا لَهَا وَاتِّبَاعًا لَهَا وَقَوْمٌ يَقُولُونَ قَوْلَ الْأَنْبِيَاءِ وَيَعْمَلُونَ عَمَلَ الْجَبَابِرَةِ فَمَنْ جَاءَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ لَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ هَذَا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ » وفي الخبر (٤) « السَّخَاءُ مِنَ الْيَقِينِ وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ مُوقِنٌ وَالْبُخْلُ مِنَ الشَّكِّ وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ شَكَّ » وقال أيضا (٥) « السَّخِيُّ قَرِيبٌ مِنَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ قَرِيبٌ مِنَ الْجَنَّةِ وَالْبَخِيلُ

السخاء يقرب العبد من ربه

---

(١) حديث استحيوا من الله حق الحياء ـ الحديث: الطبراني من حديث أم الوليد بنت عمر بن الخطاب باسناد ضعيف

(٢) حديث لما قدم عليه بعض الوفود قالوا انا مؤمنون قال وما علامة ايمانكم ـ الحديث: الخطيب وابن عساكر في تاريخهما باسناد ضعيف من حديث جابر

(٣) حديث جابر من جاء بلا اله الا الله لا يخلط معها شيئا وجبت له الجنة : لم أره من حديث جابر وقد رواه الترمذي الحكيم في النوادر من حديث زيد بن أرقم باسناد ضعيف نحوه

(٤) حديث السخاء من اليقين ولا يدخل النار موقن ـ الحديث : ذكره صاحب الفردوس من حديث أبي الدرداء ولم يخرجه ولده في مسنده

(٥) حديث السخي قريب من الله ـ الحديث : الترمذي من حديث أبي هريرة وقد تقدم

---

(١) الأنعام : ١٢٥

بَعِيدٌ مِنَ اللهِ بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ » والبخل ثمرة الرغبة في الدنيا، والسخاء ثمرة الزهد، والثناء على الثمرة ثناء على المثمر لامحالة: وروي عن ابن المسيب، عن [1] أبي ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « مَنْ زَهِدَ فِي الدُّنْيَا أَدْخَلَ اللهُ الْحِكْمَةَ قَلْبَهُ فَأَنْطَقَ بِهَا لِسَانَهُ وَعَرَّفَهُ دَاءَ الدُّنْيَا وَدَوَاءَهَا وَأَخْرَجَهُ مِنْهَا سَالِماً إِلَى دَارِ السَّلَامِ » . وروي أنه صلى الله عليه وسلم [2] مر في أصحابه بعشار من النوق حفل ، وهي الحوامل ، وكانت من أحب أموالهم إليهم ، وأنفسها عندهم ، لأنها تجمع الظهر ، واللحم ، واللبن ، والوبر . ولعظمها في قلوبهم قال الله تعالى (وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ [1]) قال فأعرض عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وغض بصره فقيل له يارسول الله، هذه أنفس أموالنا، لم لاتنظر إليها؟ فقال « قَدْ نَهَانِي اللهُ عَنْ ذَلِكَ » ثم تلا قوله تعالى (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ [2]) الآية

وروى [3] مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت : قلت يارسول الله، ألا تستطعم الله فيطعمك؟ قالت وبكيت لما رأيت بك من الجوع. فقال « يَا عَائِشَةُ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ يُجْرِيَ مَعِي جِبَالَ الدُّنْيَا ذَهَباً لَأَجْرَاهَا حَيْثُ شِئْتُ مِنَ الْأَرْضِ وَلَكِنِّي اخْتَرْتُ جُوعَ الدُّنْيَا عَلَى شِبَعِهَا وَفَقْرَ الدُّنْيَا عَلَى غِنَاهَا وَحُزْنَ الدُّنْيَا عَلَى فَرَحِهَا يَا عَائِشَةُ إِنَّ الدُّنْيَا لَا تَنْبَغِي لِمُحَمَّدٍ وَلَا لِآلِ مُحَمَّدٍ يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللهَ لَمْ يَرْضَ لِأُولِي الْعَزْمِ

---

(١) حديث أبي ذر من زهد في الدنيا أدخل الله الحكمة قلبه ـ الحديث: لم أره من حديث أبي ذر ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الدنيا من حديث صفوان بن سليم مرسلا ولابن عدي في الكامل من حديث أبي موسى الأشعري من زهد في الدنيا أربعين يوما وأخلص فيها العبادة أجرى الله ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه وقال حديث منكر وقال الذهبي باطل ورواه أبو الشيخ في كتاب الثواب وأبو نعيم في الحلية مختصرا من حديث أبي أيوب من أخلص لله وكلها ضعيفة

(٢) حديث مر في أصحابه بعشار من النوق حفل ـ الحديث : وفيه ثم تلا قوله تعالى ـ ولا تمدن عينيك ـ الآية لم أجد له أصلا

(٣) حديث مسروق عن عائشة قلت يارسول الله ألا تستطعم ربك فيطعمك قالت وبكيت لما رأيت بك من الجوع الحديث : وفيه ياعائشة ان الله لم يرض لأولي العزم من الرسل إلا الصبر ـ الحديث : أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من طريق أبي عبد الرحمن السلمي من رواية عباد بن عباد عن مجالد عن الشعبي عن مسروق مختصرا ياعائشة ان الله لم يرض من أولي العزم من الرسل إلا الصبر على مكروهها والصبر عن محبوبها ثم لم يرض إلا أن كلفني ما كلفهم فقال تعالى فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ومجالد مختلف في الاحتجاج به

---

(١) التكوير : ٤ (٢) طه : ١٣١

مِنَ الرُّسُلِ إِلاَّ الصَّبْرَ عَلَى مَكْرُوهِ الدُّنْيَا وَالصَّبْرَ عَنْ مَحْبُوبِهَا ثُمَّ لَمْ يَرْضَ لِي إِلَّا أَنْ يُكَلِّفَنِي مَا كَلَّفَهُمْ فَقَالَ (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ [1]) وَاللَّهِ مَالِي بُدٌّ مِنْ طَاعَتِهِ وَإِنِّي وَاللَّهِ لَأَصْبِرَنَّ كَمَا صَبَرُوا بِجُهْدِي وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ »

مناظرة عمر رضى الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم

وروي [1] عن عمر رضي الله عنه ، أنه حين فتح عليه الفتوحات ، قالت له ابنته حفصة رضي الله عنها . البس ألين الثياب إذا وفدت عليك الوفود من الآفاق ، ومر بصنعة طعام تطعمه وتطعم من حضر . فقال عمر : ياحفصة، ألست تعلمين أن أعلم الناس بحال الرجل أهل بيته ، فقالت بلى . قال ناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبث في النبوّة كذا وكذا سنة ، لم يشبع هو ولا أهل بيته غدوة إلا جاعوا عشية ، ولا شبعوا عشية إلا جاعوا غدوة ؟ وناشدتك الله ، هل تعلمين أن النبي صلى الله عليه وسلم لبث في النبوّة كذا وكذا سنة لم يشبع من التمر هو وأهله ، حتى فتح الله عليه خيبر ؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرّبتم إليه يوما طعاما على مائدة فيها ارتفاع ، فشق ذلك عليه حتى تغير لونه ، ثم أمر

---

(١) حديث ان عمر لما فتحت عليه الفتوحات قالت له حفصة البس لين الثياب اذا قدمت عليك الوفود - الحديث: بطوله وفيه ناشدتك الله هل تعلمين كذا يذكرها ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم حتى أبكاها وبكى الخ : لم أجده هكذا مجموعا في حديث وهو مفرق في عدة أحاديث فروى البزار من حديث عمران بن حصين قال ماشبع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهله غداء وعشاء من خبز شعير حتى لقى ربه وفيه عمرو بن عبد الله القدرى متروك - الحديث : وللترمذى من حديث عائشة قالت ما أشبع من طعام فأشاء أن أبكى إلا بكيت قلت لم قالت اذكر الحال التى فارق رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا عليها والله ماشبع من خبز ولحم مرتين فى يوم قال حديث حسن وللشيخين من حديثها ماشبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام ثلاث ليال تباعا حتى قبض وللبخارى من حديث أنس كان لا يأكل على خوان - الحديث: وتقدم فى آداب الاكل وللترمذى فى الشمائل من حديث حفصة أنها سئلت ما كان فراش النبي صلى الله عليه وسلم مسح تثنيه ثنتين فينام عليه - الحديث : ولابن سعد فى الطبقات من حديث عائشة أنها كانت تفرش للنبى صلى الله عليه وسلم عباءة باثنتين - الحديث : وتقدما فى آداب المعيشة وللبزار من حديث أبى الدرداء قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لاينخل له الدقيق ولم يكن له إلا قميص واحد وقال لانعلم يروى بهذا اللفظ الا بهذا الاسناد قال يونس بن بكير قد حدث عن سعيد بن ميسرة البكرى بأحاديث لم يتابع عليها واحتملت على مافيها قلت فيه سعيد بن ميسرة فقد كذبه يحي القطان وضعفه البخارى وابن حبان وابن عدى وغيرهم ولابن ماجه من حديث عبادة بن الصامت صلى فى شملة قد عقد عليها زاد الغطريفى فى جزئه المشهور فعقدها فى عنقه ما عليه غيرها واسناده ضعيف وتقدم فى آداب المعيشة

---

(١) الأحقاف : ٣٥

بالمائدة فرفعت، ووضع الطعام على دون ذلك، أو وضع على الأرض؟ وناشدتك الله: هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينام على عباءة مثنية، فثنيت له ليلة أربع طاقات، فنام عليها، فلما استيقظ قال منعتموني قيام الليلة بهذه العباءة، اثنوها باثنتين؟ كما كنتم تثنونها؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يضع ثيابه لتغسل، فيأتيه بلال فيؤذنه بالصلاة، فما يجد ثوبا يخرج به إلى الصلاة حتى تجف ثيابه، فيخرج بها إلى الصلاة؟ وناشدتك الله: هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صنعت له امرأة من بني ظفر كساءين، إزارا ورداء، وبعثت إليه بأحدهما قبل أن يبلغ الآخر، فخرج إلى الصلاة وهو مشتمل به، ليس عليه غيره، قد عقد طرفيه إلى عنقه، فصلى كذلك؟ فما زال يقول حتى أبكاها، وبكى عمر رضي الله عنه وانتحب، حتى ظننا أن نفسه ستخرج

وفي بعض الروايات زيادة من قول عمر، وهو أنه قال: كان لي صاحبان سلكا طريقا، فإن سلكت غير طريقهما سلك بي طريق غير طريقهما. وإني والله سأصبر على عيشهما الشديد لعلي أدرك معهما عيشهما الرغيد . وعن[1] أبي سعيد الخدري، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لَقَدْ كَانَ الأَنْبِيَاءُ قَبْلِي يُبْتَلَى أَحَدُهُمْ بِالْفَقْرِ فَلاَ يَلْبَسُ إِلَّا الْعَبَاءَةَ وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيُبْتَلَى بِالْقَمْلِ حَتَّى يَقْتُلَهُ الْقَمْلُ وَكَانَ ذَلِكَ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ الْعَطَاءِ إِلَيْكُمْ »

وعن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لَمَّا وَرَدَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَاءَ مَدْيَنَ كَانَتْ خُضْرَةُ الْبَقْلِ تُرَى فِي بَطْنِهِ مِنَ الْهُزَالِ » فهذا ما كان قد اختاره أنبياء الله ورسله، وهم أعرف خلق الله بالله، وبطريق الفوز في الآخرة

وفي حديث[2] عمر رضي الله عنه أنه قال: لما نزل قوله تعالى (وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ

---

(١) حديث أبي سعيد الخدري كان الأنبياء يبتلى أحدهم بالفقر فلا يجد الا العباءة ـ الحديث: باسناد صحيح في أثناء حديث أوله دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يوعك دون قوله وان كان أحدهم ليبتلى بالقمل

(٢) حديث عمر لما نزل قوله تعالى ـ والذين يكنزون الذهب والفضة ـ الآية قال تبا للدينار والدرهم الحديث: وفيه فأي شيء نتخذ الترمذي وابن ماجه وتقدم في النكاح دون قوله تبا للدينار والدرهم والزيادة رواها الطبراني في الأوسط وهو من حديث ثوبان وانما قال المصنف انه حديث عمر لان عمر هو الذي سأل النبي صلى الله عليه وسلم أي المال نتخذ كما في رواية ابن ماجه وكما رواه البزار من حديث ابن عباس

الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ [1]) قال صلى الله عليه وسلم « تَبًّا لِلدُّنْيَا تَبًّا لِلدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ » فقلنا يارسول الله ، نهانا الله عن كنز الذهب والفضة فأي شيء ندخر فقال صلى الله عليه وسلم « لِيَتَّخِذْ أَحَدُكُمْ لِسَانًا ذَاكِرًا وَقَلْبًا شَاكِرًا وَزَوْجَةً صَالِحَةً تُعِينُهُ عَلَى أَمْرِ آخِرَتِهِ » وفي حديث [1] حذيفة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «مَنْ آثَرَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ ابْتَلَاهُ اللَّهُ بِثَلَاثٍ هَمًّا لَا يُفَارِقُ قَلْبَهُ أَبَدًا وَفَقْرًا لَا يَسْتَغْنِي أَبَدًا وَحِرْصًا لَا يَشْبَعُ أَبَدًا » وقال النبي صلى الله عليه وسلم [2] « لَا يَسْتَكْمِلُ الْعَبْدُ الْإِيمَانَ حَتَّى يَكُونَ أَنْ لَا يُعْرَفَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يُعْرَفَ وَحَتَّى يَكُونَ قِلَّةُ الشَّيْءِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ كَثْرَتِهِ » وقال المسيح صلى الله عليه وسلم : الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها . وقيل له. يانبي الله ، لو أمرتنا أن نبني بيتا نعبد الله فيه ؟ قال اذهبوا فابنوا بيتا على الماء فقالوا كيف يستقيم بنيان على الماء ؛ قال وكيف تستقيم عبادة مع حب الدنيا ؟

العبادة مع حب الدنيا كالبناء على الماء

وقال نبينا صلى الله عليه وسلم « إِنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ عَرَضَ عَلَيَّ أَنْ يَجْعَلَ لِي بَطْحَاءَ مَكَّةَ ذَهَبًا فَقُلْتُ لَا يَارَبِّ وَلَكِنْ أَجُوعُ يَوْمًا وَأَشْبَعُ يَوْمًا فَأَمَّا الْيَوْمُ الَّذِي أَجُوعُ فِيهِ فَأَتَضَرَّعُ إِلَيْكَ وَأَدْعُوكَ وَأَمَّا الْيَوْمُ الَّذِي أَشْبَعُ فِيهِ فَأَحْمَدُكَ وَأُثْنِي عَلَيْكَ »

وعن [3] ابن عباس رضي الله عنهما قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم يمشي وجبريل معه ، فصعد على الصفا ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « يَاجِبْرِيلُ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَاأَمْسَى لِآلِ مُحَمَّدٍ كَفُّ سَوِيقٍ وَلَا سَفَّةُ دَقِيقٍ » فلم يكن كلامه

(١) حديث حذيفة من آثر الدنيا على الآخرة ابتلاه الله بثلاث ـ الحديث : لم أجده من حديث حذيفة والطبراني من حديث ابن مسعود بسند حسن من أشرب قلبه حب الدنيا التاط منها بثلاث شقاء لاينفد عناه وحرص لايبلغ غناه وأمل لايبلغ منتهاه وفي آخره زيادة

(٢) حديث لايستكمل عبد الايمان حتى يكون أن لايعرف أحب اليه من أن يعرف وحتى يكون أقله أحب اليه من كثرته : لم أجدله اسنادا وذكره صاحب الفردوس من رواية على ابن طلحة مرسلا لايستكمل عبد الايمان حتى يكون قلة الشيء أحب اليه من كثرته وحتى يكون أن يعرف في ذات الله أحب اليه من ان يعرف في غير ذات الله ولم يخرجه ولده في مسند الفردوس وعلى بن أبي طلحة أخرج له مسلم وروى عن ابن عباس لكن روايته عنه مرسلة فالحديث إذا معضل

(٣) حديث ابن عباس خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وجبريل معه فصعد على الصفا ـ الحديث : في نزول اسرافيل وقوله ان أحببت ان أسير معك جبال تهامة زمردا وياقوتا وذهبا وفضة ـ الحديث : تقدم مختصرا

(١) التوبة : ٣٤

بأسرع من أن سمع هدة من السماء أفظعته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَمَرَ اللهُ الْقِيَامَةَ أَنْ تَقُومَ ؟ » قال لا ، ولكن هذا إسرافيل عليه السلام قد نزل إليك حين سمع كلامك . فأتاه إسرافيل فقال : إن الله عز وجل سمع ماذكرت ، فبعثني بمفاتيح الأرض وأمرني أن أعرض عليك ، إن أحببت أن أسيّر معك جبال تهامة زمرداً ، وياقوتاً ، وذهباً وفضة ، فعلت ، وإن شئت نبيا ملكا ، وإن شئت نبيا عبدا . فأومأ إليه جبريل أن تواضع لله . فقال « نَبِيًّا عَبْدًا » ثلاثا . وقال صلى الله عليه وسلم[١] « إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا زَهَّدَهُ فِي الدُّنْيَا وَرَغَّبَهُ فِي الْآخِرَةِ وَبَصَّرَهُ بِعُيُوبِ نَفْسِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم لرجل[٢] « ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللهُ وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبَّكَ النَّاسُ »

وقال صلوات الله عليه[٣] « مَنْ أَرَادَ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ عِلْمًا بِغَيْرِ تَعَلُّمٍ وَهُدًى بِغَيْرِ هِدَايَةٍ فَلْيَزْهَدْ فِي الدُّنْيَا » وقال صلى الله عليه وسلم[٤] « مَنِ اشْتَاقَ إِلَى الْجَنَّةِ سَارَعَ إِلَى الْخَيْرَاتِ وَمَنْ خَافَ مِنَ النَّارِ لَهَا عَنِ الشَّهَوَاتِ وَمَنْ تَرَقَّبَ الْمَوْتَ تَرَكَ اللَّذَّاتِ وَمَنْ زَهِدَ فِي الدُّنْيَا هَانَتْ عَلَيْهِ الْمُصِيبَاتُ » . ويروى عن نبينا وعن المسيح عليهما السلام[٥] « أَرْبَعٌ لَا يُدْرَكْنَ إِلَّا بِتَعَبٍ الصَّمْتُ وَهُوَ أَوَّلُ الْعِبَادَةِ وَالتَّوَاضُعُ وَكَثْرَةُ الذِّكْرِ وَقِلَّةُ الشَّيْءِ » . وإيراد جميع الأخبار الواردة في مدح بغض الدنيا وذم حبها لا يمكن فإن الأنبياء ما بعثوا إلا لصرف الناس عن الدنيا إلى الآخرة ، وإليه يرجع أكثر كلامهم مع الخلق ، وفيما أوردناه كفاية والله المستعان

الآثار في فضيلة الزهد

وأما الآثار : فقد جاء في الأثر لا تزال لا إله إلا الله تدفع عن العباد سخط الله عز وجل ما لم يسألوا ما نقص من دنياهم . وفي لفظ آخر : ما لم يؤثروا صفقة دنياهم على دينهم ، فإذا فعلوا ذلك وقالوا لا إله إلا الله ، قال الله تعالى ـ كذبتم لستم بها صادقين . وعن بعض الصحابة

---

(١) حديث اذا أراد الله بعبد خيرا زهده في الدنيا ورغبه في الآخرة وبصره بعيوب نفسه : أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس دون قوله ورغبه في الآخرة وزاد فقهه في الدين واسناده ضعيف

(٢) حديث ازهد في الدنيا يحبك الله ـ الحديث : تقدم

(٣) حديث من أراد أن يؤتيه الله علما بغير تعلم وهدى بغير هداية فليزهد في الدنيا : لم أجد له أصلا

(٤) حديث من اشتاق الى الجنة سارع الى الخيرات ـ الحديث : ابن حبان في الضعفاء من حديث علي بن أبي طالب

(٥) حديث أربع لا يدركن الا بتعب الصمت هو أول العبادة ـ الحديث : الطبراني والحاكم من حديث أنس وقد تقدم

رضي الله عنهم أنه قال : تابعنا الأعمال كلها فلم نر فى أمر الآخرة أبلغ من زُهد فى الدنيا
وقال بعض الصحابة لصدر من التابعين : أنتم أكثر أعمالا واجتهادا من أصحاب رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، وكانوا خيرا منكم . قيل ولِمَ ذلك ؟ قال كانوا أزهد فى الدنيا منكم .

وقال عمر رضي الله عنه : الزهادة فى الدنيا راحة القلب والجسد . وقال بلال بن سعد . كفى
به ذنبا أن الله تعالى يزهـدنا فى الدنيا ونحن نرغب فيها . وقال رجل لسفيان . أشتهى أن
أرى عالما زاهدا . فقال ويحك ! تلك ضالة لا توجد . وقال وهب بن منبه . إن للجنة
ثمانية أبواب ، فإذا صار أهل الجنة إليها جعل البوابون يقولون : وعزة ربنا لا يدخلها أحد
قبل الزاهدين فى الدنيا ، العاشقين للجنة . وقال يوسف بن أسباط رحمه الله . إنى لأشتهى
من الله ثلاث خصال . أن أموت حين أموت وليس فى ملكى درهم ، ولا يكون عليّ
دين ، ولا على عظمى لحم . فأعطى ذلك كله

وروي أن بعض الخلفاء أرسل إلى الفقهاء بجوائز فقبلوها ، وأرسل إلى الفضيل بعشرة
آلاف فلم يقبلها . فقال له بنوه : قد قبل الفقهاء وأنت ترد على حالتك هذه ؟ فبكى الفضيل
وقال : أتدرون ما مثلى ومثلكم ؟ كمثل قوم كانت لهم بقرة يحرثون عليها ، فلما هرمت ذبحوها
لأجل أن ينتفعوا بجلدها . وكذلك أنتم أردتم ذبحي على كبر سنى . موتوا يا أهلى جوعا
خير لكم من أن تذبحوا فضيلا . وقال عبيد بن عمير . كان المسيح بن مريم عليه السلام
يلبس الشعر ، ويأكل الشجر ، وليس له ولد يموت ، ولا بيت يخرب ، ولا يدخر لغد
أينما أدركه المساء نام . وقالت امرأة أبي حازم لأبي حازم . هذا الشتاء قد هجم علينا ،
ولا بد لنا من الطعام والثياب والحطب . فقال لها أبو حازم . من هذا كله بد ولكن لا بد
لنا من الموت ، ثم البعث ، ثم الوقوف بين يدي الله تعالى ، ثم الجنة أو النار .

وقيل للحسن : لم لا تغسل ثيابك . قال الأمر أعجل من ذلك

وقال إبراهيم بن أدهم قد حجبت قلوبنا بثلاثة أغطية ، فلن يكشف للعبد اليقين حتى ترفع
هذه الحجب . الفرح بالموجود ، والحزن على المفقود ، والسرور بالمدح . فإذا فرحت بالموجود
فأنت حريص ، وإذا حزنت على المفقود فأنت ساخط ، والساخط معذب ، وإذا سررت
بالمدح فأنت معجب ، والعجب يحبط العمل .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : ركعتان من زاهد قلبه خير له وأحب إلى الله من عبادة المتعبدين المجتهدين إلى آخر الدهر أبدا سرمدا

وقال بعض السلف : نعمة الله علينا فيما صرف عنا أكثر من نعمته فيما صرف إلينا . وكأنه التفت إلى معنى قوله صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّ اللهَ يَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ الدُّنْيَا وَهُوَ يُحِبُّهُ كَمَا تَحْمُونَ مَرِيضَكُمُ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ تَخَافُونَ عَلَيْهِ » . فإذا فهم هذا علم أن النعمة في المنع المؤدي إلى الصحة أكبر منها في الإعطاء المؤدي إلى السقم

وكان الثوري يقول: الدنيا دار التواء لا دار استواء ، ودار ترح لا دار فرح ، من عرفها لم يفرح برخاء ، ولم يحزن على شقاء .

وقال سهل: لا يخلص العمل لمتعبد حتى لا يفرغ من أربعة أشياء. الجوع، والعري، والفقر، والذل

وقال الحسن البصري : أدركت أقواما وصحبت طوائف ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل ، ولا يأسفون على شيء منها أدبر ، ولهي كانت في أعينهم أهون من التراب : كان أحدهم يعيش خمسين سنة أو ستين سنة . لم يطوله ثوب ، ولم ينصب له قدر ، ولم يجعل بينه وبين الأرض شيئا ، ولا أمر من في بيته بصنعة طعام قط . فإذا كان الليل فقيام على أقدامهم ، يفترشون وجوههم ، تجري دموعهم على خدودهم ، يناجون ربهم في فكاك رقابهم : كانوا إذا عملوا الحسنة دأبوا في شكرها ، وسألوا الله أن يقبلها ، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم ، وسألوا الله أن يغفرها لهم . فلم يزالوا على ذلك ، ووالله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة ، رحمة الله عليهم ورضوانه

درجات الزهد

بيان

درجات الزهد وأقسامه بالإضافة إلى نفسه ، وإلى المرغوب عنه ، وإلى المرغوب فيه

اعلم أن الزهد في نفسه يتفاوت بحسب تفاوت قوته على درجات ثلاث

الدرجة الأولى : وهي السفلى منها ، أن يزهد في الدنيا وهو لها مشته ، وقلبه إليها مائل ونفسه إليها ملتفتة ، ولكنه يجاهدها ويكفها . وهذا يسمى المتزهد . وهو مبدأ الزهد في حق من يصل إلى درجة الزهد بالكسب والاجتهاد . والمتزهد يذيب أولا نفسه ، ثم كيسه

---

(١) حديث ان الله يحمي عبده المؤمن من الدنيا ـ الحديث : تقدم

والزاهد أولا يذيب كيسه ، ثم يذيب نفسه فى الطاعات، لافى الصبر على مافارقه . والمتزهد على خطر ، فإنه ربما تغلبه نفسه . وتجذبه شهوته، فيعود إلى الدنيا وإلى الاستراحة بها فى قليل أو كثير

الدرجة الثانية : الذى يترك الدنيا طوعا لاستحقاره إياها بالإضافة إلى ماطمع فيه . كالذى يترك درهما لأجل درهمين ، فإنه لايشق عليه ذلك وإن كان يحتاج إلى انتظار قليل . ولكن هذا الزاهد يرى لامحالة زهده، ويلتفت إليه ، كما يرى البائع المبيع ويلتفت إليه . فيكاد يكون معجبا بنفسه وبزهده، ويظن فى نفسه أنه ترك شيئا له قدر لما هو أعظم قدرا منه، وهذا أيضا نقصان

الدرجة الثالثة : وهي العليا ، أن يزهد طوعا ، ويزهد فى زهده ، فلا يرى زهده ، إذ لا يرى أنه ترك شيئا ، إذ عرف أن الدنيا لاشيء ، فيكون كمن ترك خزفة وأخذ جوهرة فلا يرى ذلك معاوضة ، ولا يرى نفسه تاركا شيئا . والدنيا بالإضافة إلى الله تعالى ونعيم الآخرة أخس من خزفة بالإضافة إلى جوهرة . فهذا هو الكمال فى الزهد . وسببه كمال المعرفة . ومثل هذا الزاهد آمن من خطر الالتفات إلى الدنيا ، كما أن تارك الخزفة بالجوهرة آمن من طلب الإقالة فى البيع . قال أبو يزيد رحمه الله تعالى لأبى موسى عبد الرحيم . فى أي شيء تتكلم ! قال فى الزهد . قال فى أي شيء ! قال فى الدنيا . فنفض يده وقال . ظننت أنه يتكلم فى شيء ، الدنيا لاشيء ، إيش يزهد فيها

مثال تارك الدنيا للآخرة

ومثل من ترك الدنيا للآخرة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب المعمورة بالمشاهدات والمكاشفات مثل من منعه من باب الملك كلب على بابه ، فألقى إليه لقمة من خبز ، فشغله بنفسه ، ودخل الباب ونال القرب عند الملك ، حتى نفذ أمره فى جميع مملكته . أفترى أنه يرى لنفسه يدا عند الملك بلقمة خبز ألقاها إلى كلبه ، فى مقابلة ماقد ناله ؟

فالشيطان كلب على باب الله تعالى يمنع الناس من الدخول ، مع أن الباب مفتوح ، والحجاب مرفوع والدنيا كلقمة خبز ، إن أكلت فلذتها فى حال المضغ ، وتنقضى على القرب بالابتلاع ، ثم يبقى ثقلها فى المعدة ، ثم تنتهى إلى النتن والقذر ، ثم يحتاج بعد ذلك إلى إخراج ذلك الثقل . فمن تركها لينال عز الملك كيف يلتفت إليها !

ونسبة الدنيا كلها ، أعنى مايسلم لكل شخص منها وإن عمر مائة سنة ، بالإضافة إلى نعيم الآخرة ، أقل من لقمة بالإضافة إلى ملك الدنيا . إذ لانسبة للمتناهى إلى مالانهاية له.

والدنيا متناهية على القرب. ولو كانت تتمادى ألف ألف سنة صافية عن كل كدر لكان لانسبة لها إلى نعيم الأبد. فكيف ومدة العمر قصيرة، ولذات الدنيا مكدرة غير صافية! فأي نسبة لها إلى نعيم الأبد. فإذاً لايلتفت الزاهد إلى زهده إلا إذا التفت إلى مازهد فيه ولا يلتفت إلى مازهد فيه إلا لأنه يراه شيئاً معتدّاً به ولا يراه شيئاً معتدّاً به إلا لقصور معرفته. فسبب نقصان الزهد نقصان المعرفة

فهذا تفاوت درجات الزهد. وكل درجة من هذه أيضا لها درجات، إذ تصبُّر المتزهد يختلف ويتفاوت أيضا باختلاف قدر المشقة فى الصبر، وكذلك درجة المعجب بزهده بقدر التفاته إلى زهده. وأما انقسام الزهد بالأضافة إلى المرغوب فيه فهو أيضا على ثلاث درجات:

أقسام الزهد بالإضافة إلى المرغوب فيه

الدرجة السفلى: أن يكون المرغوب فيه النجاة من النار ومن سائر الآلام، كعذاب القبر ومناقشة الحساب، وخطر الصراط وسائر مابين يدي العبد من الأهوال كما وردت به الأخبار. إذ فيها [١] أن الرجل ليوقف فى الحساب حتى لو وردت مائة بعير عطاشا على عرقه لصدرت رواء. فهذا هو زهد الخائفين، وكأنهم رضوا بالعدم لو أعدموا، فإن الخلاص من الألم يحصل بمجرد العدم

الدرجة الثانية: أن يزهد رغبة فى ثواب الله ونعيمه، واللذات الموعودة فى جنته من الحور، والقصور، وغيرها. وهذا زهد الراجين. فإن هؤلاء ماتركوا الدنيا قناعة بالعدم والخلاص من الألم، بل طمعوا فى وجود دائم ونعيم سرمد لا آخر له

الدرجة الثالثة: وهي العليا. أن لايكون له رغبة إلا فى الله وفى لقائه، فلايلتفت قلبه إلى الآلام ليقصد الخلاص منها، ولا إلى اللذات ليقصد نيلها والظفر بها، بل هو مستغرق الهم بالله تعالى. وهو الذى أصبح وهمومه همّ واحد. وهو الموحد الحقيقي الذى لايطلب غير الله تعالى. لأن من طلب غير الله فقد عبده، وكل مطلوب معبود وكل طالب عبد بالإضافة إلى مطلبه. وطلب غير الله من الشرك الخفي. وهذا زهد المحبين، وهم العارفون، لأنه لايحب

---

(١) حديث ان الرجل ليوقف فى الحساب حتى لو وردت مائة بعير عطاشا على عرقه لصدرت رواء: أحمد من حديث ابن عباس التقى مؤمنان علي باب الجنة مؤمن غنى ومؤمن فقير ـ الحديث: وفيه انى حبست بعدك محبسا فظيعا كريها ماوصلت اليك حتى سال منى العرق مالو ورده ألف بعير أكلة حمض لصدرت عنه رواء وفيه دويد غير منسوب يحتاج الى معرفته قال أحمد حديثه مثله

الله تعالى خاصة إلا من عرفه. وكما أن من عرف الدينار والدرهم، وعلم أنه لا يقدر على الجمع بينهما، لم يحب إلا الدينار، فكذلك من عرف الله، وعرف لذة النظر إلى وجهه الكريم، وعرف أن الجمع بين تلك اللذة، وبين لذة التنعم بالحور العين، والنظر إلى نقش القصور وخضرة الأشجار غير ممكن، فلا يحب إلا لذة النظر، ولا يؤثر غيره

ولا تظنن أن أهل الجنة عند النظر إلى وجه الله تعالى يبقى للذة الحور والقصور متسع فى قلوبهم، بل تلك اللذة بالإضافة إلى لذة نعيم أهل الجنة كلذة ملك الدنيا والاستيلاء على أطراف الأرض ورقاب الخلق بالإضافة إلى لذة الاستيلاء على عصفور واللعب به. والطالبون لنعيم الجنة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب كالصبي الطالب للعب بالعصفور، التارك للذة الملك، وذلك لقصوره عن إدراك لذة الملك، لا لأن اللعب بالعصفور فى نفسه أعلى وألذ من الاستيلاء بطريق الملك على كافة الخلق

اقسام الزهد بالاضافة الى المرغوب عنه

وأما انقسامه بالإضافة إلى المرغوب عنه فقد كثرت فيه الأقاويل. ولعل المذكور فيه يزيد على مائة قول، فلا نشتغل بنقل الأقاويل، ولكن نشير إلى كلام محيط بالتفاصيل، حتى يتضح أن أكثر ما ذكر فيه قاصر عن الإحاطة بالكل، فنقول:

المرغوب عنه بالزهد له إجمال وتفصيل. ولتفصيله مراتب، بعضها أشرح لآحاد الأقسام، وبعضها أجمل للجمل. أما الإجمال فى الدرجة الأولى فهو كل ما سوى الله فينبغى أن يزهد فيه، حتى يزهد فى نفسه أيضا. والإجمال فى الدرجة الثانية أن يزهد فى كل صفة للنفس فيها متعة. وهذا يتناول جميع مقتضيات الطبع من الشهوة، والغضب، والكبر، والرياسة، والمال، والجاه، وغيرها

وفى الدرجة الثالثة أن يزهد فى المال والجاه وأسبابهما، إذ إليهما ترجع جميع حظوظ النفس

وفى الدرجة الرابعة أن يزهد فى العلم، والقدرة، والدينار، والدرهم، والجاه إذ الأموال وإن كثرت أصنافها فيجمعها الدينار والدرهم والجاه وإن كثرت أسبابه فيرجع إلى العلم والقدرة. وأعنى به كل علم وقدرة مقصودها ملك القلوب. إذ معنى الجاه هو ملك القلوب والقدرة عليها، كما أن معنى المال ملك الأعيان والقدرة عليها

فإن جاوزت هذا التفصيل إلى شرح وتفصيل أبلغ من هذا، فيكاد يخرج ما فيه الزهد عن الحصر. وقد ذكر الله تعالى فى آية واحدة سبعة منها فقال (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ

مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا [1]) ثم رده فى آية أخرى إلى خمسة فقال عز وجل (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ [2]) ثم رده تعالى فى موضع آخر إلى اثنين فقال تعالى (إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ [3]) ثم رد الكل إلى واحد فى موضع آخر فقال (وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى [4]) فالهوى لفظ يجمع جميع حظوظ النفس فى الدنيا ، فينبغي أن يكون الزهد فيه

وإذا فهمت طريق الإجمال والتفصيل عرفت أن البعض من هذه لا يخالف البعض ، وإنما يفارقه فى الشرح مرة ، والإجمال أخرى . فالحاصل أن الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلها . ومهما رغب عن حظوظ النفس رغب عن البقاء فى الدنيا ، فقصر أمله لا محالة ، لأنه إنما يريد البقاء ليتمتع ، ويريد التمتع الدائم بإرادة البقاء ، فإن من أراد شيئاً أراد دوامه . ولا معنى لحب الحياة إلا حب دوام ما هو موجود أو ممكن فى هذه الحياة . فإذا رغب عنها لم يردها

ولذلك لما كتب عليهم القتال قالوا (رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ [5]) فقال تعالى (قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ [6]) أى لستم تريدون البقاء إلا لمتاع الدنيا . فظهر عند ذلك الزاهدون ، وانكشف حال المنافقين

أما الزاهدون المحبون لله تعالى فقاتلوا فى سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص ، وانتظروا إحدى الحسنيين ، وكانوا إذا دعوا إلى القتال يستنشقون رائحة الجنة ، ويبادرون إليه مبادرة الظمآن إلى الماء البارد ، حرصا على نصرة دين الله ، أو نيل رتبة الشهادة وكان من مات منهم على فراشه يتحسر على فوت الشهادة ، حتى أن خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه لما احتضر للموت على فراشه كان يقول . كم غررت بروحى وهجمت على الصفوف طمعا فى الشهادة وأنا الآن أموت موت العجائز . فلما مات عدّ على جسده ثمانمائة ثقب من آثار الجراحات هكذا كان حال الصادقين فى الإيمان رضي الله تعالى عنهم أجمعين

وأما المنافقون ففروا من الزحف خوفا من الموت ، فقيل لهم (إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ [7]) فإيثارهم البقاء على الشهادة استبدال الذي هو أدنى بالذى

---

[1] آل عمران : ٤ (٢ ، ٣) الحديد : ٢٠ [4] النازعات : ٤٠ (٥ ، ٦) النساء : ٧٧ [7] الجمعة : ٨

هو خير . فأولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين

وأما المخلصون فإن الله تعالى اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة . فلما رأوا أنهم تركوا تمتع عشرين سنة مثلا ، أو ثلاثين سنة ، بتمتع الأبد ، استبشروا ببيعهم الذى بايعوا به فهذا بيان المزهود فيه . وإذا فهمت هذا علمت أن ماذكره المتكلمون فى حد الزهد لم يشيروا به إلا إلى بعض أقسامه. فذكر كل واحد منهم مارآه غالبا على نفسه، أو على من كان يخاطبه.

اقاويل السلف فى حقيقة الزهد

فقال بشر رحمه الله تعالى: الزهد فى الدنيا هو الزهد فى الناس وهذا إشارة إلى الزهد فى الجاه خاصة وقال قاسم الجوعى : الزهد فى الدنيا هو الزهد فى الجوف . فبقدر ماتملك من بطنك كذلك تملك من الزهد . وهذا إشارة إلى الزهد فى شهوة واحدة. ولعمرى هي أغلب الشهوات على الأكثر ، وهي المهيجة لأكثر الشهوات

وقال الفضيل : الزهد فى الدنيا هو القناعة . وهذا إشارة الى المال خاصة

وقال الثوري :الزهد هو قصر الأمل. وهو جامع لجميع الشهوات. فإن من يميل الى الشهوات يحدث نفسه بالبقاء ، فيطول أمله . ومن قصر أمله فكأنه رغب عن الشهوات كلها

وقال أويس : إذا خرج الزاهد يطلب ذهب الزهد عنه . ومانقصد بهذا حد الزهد ، ولكن جعل التوكل شرطا فى الزهد . وقال أويس أيضا : الزهد هو ترك الطلب للمضمون. وهو إشارة إلى الرزق . وقال أهل الحديث :الدنيا هو العمل بالرأى والمعقول والزهد إنما هو اتباع العلم ولزوم السنة . وهذا إن أريد به الرأى الفاسد والمعقول الذى يطلب به الجاه فى الدنيا ، فهو صحيح . ولكنه إشارة إلى بعض أسباب الجاه خاصة ، أو إلى بعض ماهو من فضول الشهوات . فإن من العلوم مالا فائدة فيه فى الآخرة، وقد طولوها حتى ينقضى عمر الإنسان فى الاشتغال بواحد منها . فشرط الزاهد أن يكون الفضول أوّل مرغوب عنه عنده . وقال الحسن . الزاهد الذى إذارأى أحداقال هذا أفضل منى فذهب إلى أن الزهد هو التواضع. وهذا إشارة إلى نفي الجاه والعجب، وهو بعض أقسام الزهد

وقال بعضهم : الزهد هو طلب الحلال . وأين هذا ممن يقول الزهد هو ترك الطلب ، كما قال أويس ، ولا شك فى أنه أراد به ترك طلب الحلال

وقد كان يوسف بن أسباط يقول . من صبر على الأذى ، وترك الشهوات ، وأكل الخبز من الحلال ، فقد أخذ بأصل الزهد

وفى الزهد أقاويل وراء مانقلناه ، فلم نر فى نقلها فائدة · فإن من طلب كشف حقائق الأمور من أقاويل الناس رآها مختلفة ، فلا يستفيد إلا الحيرة ، وأما من انكشف له الحق فى نفسه ، وأدركه بمشاهدة من قلبه ، لا بتلقف من سمعه ، فقد وثق بالحق ، واطلع على قصور من قصر لقصور بصيرته ، وعلى اقتصار من اقتصر مع كمال المعرفة لاقتصار حاجته . وهؤلاء كلهم اقتصروا لا لقصور فى البصيرة ، لكنهم ذكروا ماذكروه عند الحاجة ، فلا جرم ذكروه بقدر الحاجة ، والحاجات تختلف ، فلا جرم الكلمات تختلف

وقد يكون سبب الاقتصار الإخبار عن الحالة الراهنة التى هي مقام العبد فى نفسه ، والأحوال تختلف . فلا جرم الأقوال المخبرة عنها تختلف

وأما الحق فى نفسه فلا يكون إلا واحدا ، ولا يتصوّر أن يختلف . وإنما الجامع من هذه الأقاويل ، الكامل فى نفسه وإن لم يكن فيه تفصيل ، ماقاله أبو سليمان الدارانى إذ قال : سمعنا فى الزهد كلاما كثيرا ، والزهد عندنا ترك كل شيء يشغلك عن الله عز وجل . وقد فصل مرة وقال . من تزوج ، أو سافر فى طلب المعيشة ، أو كتب الحديث ، فقد ركن إلى الدنيا . فجعل جميع ذلك ضدا للزهد . وقد قرأ أبو سليمان قوله تعالى (إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ [1]) فقال هو القلب الذى ليس فيه غير الله تعالى · وقال . إنما زهدوا فى الدنيا لتفرغ قلوبهم من همومها للآخرة . فهذا بيان انقسام الزهد بالإضافة إلى أصناف المزهود فيه

فأما بالإضافة إلى أحكامه فينقسم إلى فرض ، ونفل ، وسلامة ، كما قاله إبراهيم بن أدهم ، فالفرض هو الزهد فى الحرام . والنفل هو الزهد فى الحلال . والسلامة هو الزهد فى الشبهات. وقد ذكرنا تفاصيل درجات الورع فى كتاب الحلال والحرام ، وذلك من الزهد ، إذ قيل لمالك بن أنس . ماالزهد ؟ قال التقوى . وأما بالإضافة إلى خفايا مايتركه . فلا نهاية للزهد فيه . إذ لا نهاية لما تتمتع به النفس فى الخطرات ، واللحظات ، وسائر الحالات . لا سيما خفايا الرياء فإن ذلك لا يطلع عليه إلا سماسرة العلماء . بل الأموال الظاهرة أيضا درجات الزهد فيها لا تتناهى

---

(١) الشعراء : ٨٩

فمن أقصى درجاته زهد عيسى عليه السلام إذ توسد حجرا فى نومه، فقال له الشيطان، أما كنت تركت الدنيا، فما الذى بدا لك؟ قال وما الذى تجدد؟ قال توسدك الحجر. أى تنعمت برفع رأسك عن الأرض فى النوم، فرمى الحجر وقال. خذه مع ما تركته لك

وروي عن يحيي بن زكريا عليهما السلام، أنه لبس المسوح حتي ثقب جلده تركا للتنعم بلين اللباس، واستراحة حس اللمس. فسألته أمه أن يلبس مكان المسح جبة من صوف، ففعل. فأوحى الله تعالى إليه: يايحي، آثرت عليّ الدنيا. فبكى ونزع الصوف، وعاد إلى ما كان عليه

وقال أحمد رحمه الله تعالى: الزهد زهد أويس، بلغ من العري أن جلس فى قوصرة. وجلس عيسى عليه السلام فى ظل حائط إنسان، فأقامه صاحب الحائط، فقال ما أقمتنى أنت إنما أقامنى الذى لم يرض لى أن أتنعم بظل الحائط

فإذاً درجات الزهد ظاهرا وباطنا لاحصر لها. وأقل درجاته الزهد فى كل شبهة ومحظور وقال قوم: الزهد هو الزهد فى الحلال لا فى الشبهة والمحظور. فليس ذلك من درجاته فى شيء. ثم رأوا أنه لم يبق حلال فى أموال الدنيا، فلا يتصوّر الزهد الآن

فإن قلت. مهما كان الصحيح هو أن الزهد ترك ماسوى الله، فكيف يتصور ذلك مع الأكل، والشرب، واللبس، ومخالطة الناس، ومكالمتهم، وكل ذلك اشتغال بما سوى الله تعالى

فاعلم أن معنى الانصراف عن الدنيا إلى الله تعالى هو الإقبال بكل القلب عليه ذكرا وفكرا. ولا يتصور ذلك إلا مع البقاء. ولا بقاء إلا بضروريات النفس. فمهما اقتصرت من الدنيا على دفع المهلكات عن البدن، وكان غرضك الاستعانة بالبدن على العبادة لم تكن مشتغلا بغير الله، فإن مالا يتوصل إلى الشيء إلا به فهو منه، فالمشتغل بعلف الناقة وبسقيها فى طريق الحج ليس معرضا عن الحج. ولكن ينبغى أن يكون بدنك فى طريق الله مثل ناقتك فى طريق الحج، ولا غرض لك فى تنعم ناقتك باللذات، بل غرضك مقصور على دفع المهلكات عنها، حتى تسير بك إلى مقصدك. فكذلك ينبغى أن تكون فى صيانة بدنك عن الجوع والعطش المهلك بالأكل والشرب، وعن الحر والبرد المهلك باللباس والمسكن فتقتصر على قدر الضرورة، ولا تقصد التلذذ بل التقوّى على طاعة الله تعالى، فذلك لا يناقض الزهد، بل هو شرط الزهد

وإن قلت: فلا بد وأن أتلذذ بالأكل عند الجوع، فاعلم أن ذلك لايضرك، إذا لم يكن قصدك التلذذ. فإن شارب الماء البارد قد يستلذ الشرب، ويرجع حاصله إلى زوال ألم العطش ومن يقضى حاجته قد يستريح بذلك، ولكن لايكون ذلك مقصودا عنده ومطلوبا بالقصد فلا يكون القلب منصرفا إليه. فالإنسان قد يستريح فى قيام الليل بتنسم الأسحار وصوت الأطيار، ولكن إذا لم يقصد طلب موضع لهذه الاستراحة فما يصيبه من ذلك بغير قصد لايضره. ولقد كان فى الخائفين من طلب موضعا لايصيبه فيه نسيم الأسحار، خيفة من الاستراحة به، وأنس القلب معه، فيكون فيه أنس بالدنيا، ونقصان فى الأنس بالله بقدر وقوع الأنس بغير الله. ولذلك كان داود الطائى له حب مكشوف فيه ماؤه، فكان لايرفعه من الشمس، ويشرب الماء الحار ويقول: من وجد لذة الماء البارد شق عليه مفارقة الدنيا

فهذه مخاوف المحتاطين. والحزم فى جميع ذلك الاحتياط، فإنه وإن كان شاقا فمدته قريبة والاحتماء مدة يسيرة للتنعم على التأبيد لايثقل على أهل المعرفة، القاهرين لأنفسهم بسياسة الشرع المعتصمين بعروة اليقين فى معرفة المضادة التى بين الدنيا والدين، رضي الله تعالى عنهم أجمعين

بيانه

تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة

اعلم أن ماالناس منهمكون فيه ينقسم إلى فضول وإلى مهم: فالفضول كالخيل المسومة مثلا، إذ غالب الناس إنما يقتنيها للترفه بركوبها، وهو قادر على المشي. والمهم كالأكل والشرب. ولسنا نقدر على تفصيل أصناف الفضول، فإن ذلك لاينحصر. وإنما ينحصر المهم الضروري. والمهم أيضا يتطرق إليه فضول فى مقداره، وجنسه، وأوقاته. فلا بد من بيان وجه الزهد فيه . والمهمات ستة أمور. المطعم، والملبس، والمسكن وأثاثه، والمنكح، والمال، والجاه يطلب لأغراض، وهذه الستة من جملتها، وقد ذكرنا معنى الجاه وسبب حب الخلق له، وكيفية الاحتراز منه، فى كتاب الرياء من ربع المهلكات. ونحن الآن نقتصر على بيان هذه المهمات الستة

تفصيل الزهد فى الطعام

الأول المطعم: ولا بد للإنسان من قوت حلال يقيم صلبه. ولكن له طول وعرض فلا بد من قبض طوله وعرضه حتى يتم به الزهد. فأما طوله فبالإضافة إلى جملة العمر، فإن

من يملك طعام يومه فلا يقنع به . وأما عرضه ففي مقدار الطعام ، وجنسه ، ووقت تناوله أما طوله فلا يقصر إلا بقصر الأمل . وأقل درجات الزهد فيه الاقتصار على قدر دفع الجوع ، عند شدة الجوع وخوف المرض : ومن هذا حاله فإذا استقل بما تناوله لم يدخر من غدائه لعشائه ، وهذه هي الدرجة العليا

الدرجة الثانية : أن يدخر لشهر ، أو أربعين يوما

الدرجة الثالثة : أن يدخر لسنة فقط . وهذه رتبة ضعفاء الزهاد . ومن ادخر لأكثر من ذلك فتسميته زاهدا محال ، لأن من أمل بقاء أكثر من سنة فهو طويل الأمل جدا ، فلا يتم منه الزهد إلا إذا لم يكن له كسب . ولم يرض لنفسه الأخذ من أيدي الناس ، كداود الطائي ، فإنه ورث عشرين دينارا ، فأمسكها وأنفقها في عشرين سنة . فهذا لا يضاد أصل الزهد إلا عند من جعل التوكل شرط الزهد

وأما عرضه فبالإضافة إلى المقدار : وأقل درجاته في اليوم والليلة نصف رطل ، وأوسطه رطل ، وأعلاه مدّ واحد وهو ماقدره الله تعالى في إطعام المسكين في الكفارة وما وراء ذلك فهو من اتساع البطن والاشتغال به . ومن لم يقدر على الاقتصار على مدّ لم يكن له من الزهد في البطن نصيب

وأما بالإضافة إلى الجنس فأقله كل مايقوت ولو الخبز من النخالة ، وأوسطه خبز الشعير والذرة ، وأعلاه خبز البر غير منخول . فإذا ميّز من النخالة وصار حوارى فقد دخل في التنعم وخرج عن آخر أبواب الزهد فضلا عن أوائله

وأما الأدم فأقله الملح ، أو البقل والخل ، وأوسطه الزيت أو يسير من الأدهان أي دهن كان . وأعلاه اللحم أي لحم كان ، وذلك في الأسبوع مرة أو مرتين . فإن صار دائما ، أو أكثر من مرتين في الأسبوع ، خرج عن آخر أبواب الزهد ، فلم يكن صاحبه زاهدا في البطن أصلا . وأما بالإضافة إلى الوقت ، فأقله في اليوم والليلة مرة ، وهو أن يكون صائما . وأوسطه أن يصوم ويشرب ليلة ولا يأكل ، ويأكل ليلة ولا يشرب . وأعلاه أن ينتهي إلى أن يطوي ثلاثة أيام ، أو أسبوعا وما زاد عليه . وقد ذكرنا طريق تقليل الطعام وكسر شرهه في ربع المهلكات

ولينظر إلى أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والصحابة رضوان الله عليهم في كيفية

زهدهم فى المطاعم ، وتركهم الأدم . قالت [١] عائشة رضى الله تعالى عنها : كانت تأتى علينا أربعون ليلة وما يوقد فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مصباح ولا نار . قيل لها فبم كنتم تعيشون ؟ قالت بالأسودين . التمر والماء . وهذا ترك اللحم، والمرقة والأدم

وقال [٢] الحسن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركب الحمار ، ويلبس الصوف وينتعل المخصوف ، ويلعق أصابعه ، ويأكل على الأرض ، ويقول « إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ آكُلُ كَمَا تَأْكُلُ الْعَبِيدُ وَأَجْلِسُ كَمَا تَجْلِسُ الْعَبِيدُ »

وقال المسيح عليه السلام : بحق أقول لكم ، إنه من طلب الفردوس فَخُبْزُ الشعير له والنوم على المزابل مع الكلاب كثير

وقال الفضيل [٣] . ماشبع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر

وكان المسيح صلى الله عليه وسلم يقول . يابنى إسرائيل ، عليكم بالماء القراح، والبقل البرى وخبز الشعير . وإياكم وخبز البر ، فإنكم لن تقوموا بشكره

وقد ذكرنا سيرة الأنبياء والسلف فى المطعم والمشرب فى ربع المهلكات فلا نعيده

[٤] ولما أتى النبي صلى الله عليه وسلم أهل قباء ، أتوه بشربة من لبن مشوبة بعسل ، فوضع القدح من يده وقال « أَمَا إِنِّي لَسْتُ أُحَرِّمُهُ وَلَكِنْ أَتْرُكُهُ تَوَاضُعاً لِلَّهِ تَعَالَى »

وأتى عمر رضى الله عنه بشربة من ماء بارد وعسل فى يوم صائف ، فقال . اعزلوا عنى حسابها

وقد قال يحيى بن معاذ الرازى : الزاهد الصادق قوته ماوجد ، ولباسه ماستر، ومسكنه حيث أدرك . الدنيا سجنه ،والقبر مضجعه ، والخلوة مجلسه ، والاعتبار فكرته ، والقرءان حديثه ، والرب أنيسه ، والذكر رفيقه ، والزهد قرينه ، والحزن شأنه ، والحياء شعاره

---

(١) حديث عائشة كانت تأتى أربعون ليلة ومايوقد فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مصباح ولانار الحديث : ابن ماجه من حديث عائشة كان يأتى على آل محمد الشهر مايرى فى بيت من بيوته دخان الحديث وفى رواية له مايوقد فيه بنار ولأحمد كان يمر بنا هلال وهلال مايوقد فى بيت من بيوته نار وفى رواية له ثلاثة أهلة

(٢) حديث الحسن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركب الحمار ـ الحديث : تقدم دون قوله انما أنا عبد فانه ليس من حديث الحسن انما هو من حديث عائشة وقد تقدم

(٣) حديث ماشبع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر : تقدم

(٤) حديث لما أتى أهل قباء أتوه بشربة من لبن بعسل فوضع القدح من يده ـ الحديث : تقدم

والجوع إدامه ، والحكمة كلامه ، والتراب فراشه ، والتقوى زاده ، والصمت غنيمته ، والصبر معتمده ، والتوكل حسبه ، والعقل دليله ، والعبادة حرفته . والجنة مبلغه إن شاء الله تعالى

تفصيل الزهد في اللباس

المهم الثاني : الملبس . وأقل درجته ما يدفع الحر ، والبرد ، ويستر العورة . وهو كساء يتغطى به وأوسطه قميص ، وقلنسوة ، ونعلان . وأعلاه أن يكون معه منديل وسراويل : وما جاوز هذا من حيث المقدار فهو مجاوز حد الزهد . وشرط الزاهد أن لا يكون له ثوب يلبسه إذا غسل ثوبه بل يلزمه القعود في البيت . فإذا صار صاحب قميصين ، وسراويلين ، ومنديلين ، فقد خرج من جميع أبواب الزهد من حيث المقدار

أما الجنس فأقله المسوح الخشنة ، وأوسطه الصوف الخشن ، وأعلاه القطن الغليظ

وأما من حيث الوقت فأقصاه ما يستر سنة ، وأقله ما يبقى يوما . حتى رقع بعضهم ثوبه بورق الشجر ، وإن كان يتسارع الجفاف إليه . وأوسطه ما يتماسك عليه شهرا وما يقاربه فطلب ما يبقى أكثر من سنة خروج إلى طول الأمل ، وهو مضاد للزهد ، إلا إذا كان المطلوب خشونته ، ثم قد يتبع ذلك قوته ودوامه : فمن وجد زيادة من ذلك فينبغي أن يتصدق به . فإن أمسكه لم يكن زاهدا . بل كان محبا للدنيا

ولينظر فيه إلى أحوال الأنبياء والصحابة كيف تركوا الملابس . قال أبو بردة[1] : أخرجت لنا عائشة رضي الله تعالى عنها كساء ملبدا ، وإزارا غليظا ، فقالت . قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذين . وقال صلى الله عليه وسلم[2] « إِنَّ اللهَ تَعَالَى يُحِبُّ الْمُتَبَذِّلَ الَّذِي لَا يُبَالِي مَا لَبِسَ » . وقال عمرو بن الأسود العنسي . لا ألبس مشهورا أبدا ، ولا أنام بليل على دثار أبدا ، ولا أركب على مأثور أبدا ، ولا أملأ جوفي من طعام أبدا . فقال[3] عمر : من سره أن ينظر إلى هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فلينظر إلى عمرو بن الأسود

---

(١) حديث أخرجت عائشة كساء ملبدا وازارا غليظا فقالت قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذين : الشيخان وقد تقدم في آداب المعيشة

(٢) حديث ان الله يحب المتبذل الذي لا يبالي مالبس : لم أجد له أصلا

(٣) حديث عمر من سره أن ينظر الى هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فلينظر الى هدي عمرو ابن الاسود رواه أحمد باسناد جيد

وفي الخبر [١] « مَامِنْ عَبْدٍ لَبِسَ ثَوْبَ شُهْرَةٍ إِلاَّ أَعْرَضَ اللَّهُ عَنْهُ حَتَّى يَنْزِعَهُ وَإِنْ كَانَ عِنْدَهُ حَبِيباً »

[٢] واشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوباً بأربعة دراهم . [٣] وكانت قيمة ثوبيه عشرة. [٤] وكان إزاره أربعة أذرع ونصفا [٥] واشترى سراويل بثلاثة دراهم . [٦] وكان يلبس شملتين بيضاوين من صوف . وكانت تسمى حلة لأنها ثوبان من جنس واحد . وربما كان يلبس بردين يمانيين أو سحوليين من هذه الغلاظ . وفي الخبر [٧] كان قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه قميص زيات

[٨] ولبس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما واحدا ثوبا سيراء من سندس ،قيمته مائتا

---

(١) حديث مامن عبد لبس ثوب شهرة ـ الحديث : ابن ماجه من حديث أبي ذر باسناد جيد دون قوله وان كان عنده حبيبا

(٢) حديث اشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوبا بأربعة دراهم :أبو يعلى من حديث أبي هريرة قال دخلت يوما السوق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس الى البزازين فاشترى سراويل بأربعة دراهم ـ الحديث : وإسناده ضعيف

(٣) حديث كان قيمة ثوبيه عشرة دراهم :لم أجده

(٤) حديث كان ازاره أربعة أذرع ونصفا: أبو الشيخ في كتاب أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم من رواية عروة بن الزبير مرسلا كان رداء رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة أذرع وعرضه ذراعان ونصف ـ الحديث: وفيه ابن لهيعة وفي طبقات ابن سعد من حديث أبي هريرة كان له ازار من نسج عمان طوله أربعة أذرع وشبر في ذراعين وشبر وفيه محمد بن عمر الواقدي

(٥) حديث اشترى سراويل بثلاثة دراهم :المعروف انه اشتراه بأربعة دراهم كما تقدم عند أبي يعلى وشراؤه السراويل عند أصحاب السنن من حديث سويد بن قيس الا انه لم يذكر فيه مقدار ثمنه قال الترمذي حسن صحيح

(٦) حديث كان يلبس شملتين بيضاوين من صوف وكانت تسمى حلة لانهما ثوبان من جنس واحد وربما كان يلبس بردين يمانيين أو سحوليين من هذه الغلاظ :تقدم في آداب وأخلاق النبوة لبسه للشملة البرد والحبرة وأما لبسه الحلة ففي الصحيحين من حديث البراء رأيته في حلة حمراء ولأبي داود من حديث ابن عباس حين خرج الى الحرورية وعليه أحسن مايكون من حلل اليمن وقال رأيت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن مايكون من الحلل وفي الصحيحين من حديث عائشة انه صلى الله عليه وسلم قبض في ثوبين أحدهما ازار غليظ مما يصنع باليمن وتقدم في آداب المعيشة ولأبي داود والترمذي والنسائي من حديث أبي رمثة وعليه بردان أخضران سكت عليه أبو داود واستغربه والترمذي وللبزار من حديث قدامة الكلابي وعليه حلة حبرة وفيه عريف بن ابراهيم لايعرف قاله الذهبي

(٧) حديث كان قميصه كأنه قميص زيات: الترمذي من حديث أنس بسند ضعيف كان يكثر دهن رأسه وتسريح لحيته حتى كأن ثوبه ثوب زيات .

(٨) حديث لبس يوما واحدا ثوبا سيراء من سندس قيمته مائتا درهم أهداه له المقوقس ثم نزعه ـ الحديث:

درهم . فكان أصحابه يلمسونه ويقولون : يارسول الله ، أنزل عليك هذا من الجنة؟ تعجبا . وكان قد أهداه إليه المقوقس ملك الاسكندرية ، فأراد أن يكرمه بلبسه ، ثم نزعه وأرسل به إلى رجل من المشركين وصله به ، ثم حرم لبس الحرير والديباج . وكأنه إنما لبسه أولا تأكيدا للتحريم كما [1] لبس خاتما من ذهب يوما ثم نزعه فحرم لبسه على الرجال . [2] وكما قال لعائشة في شأن بريرة « اشْتَرِطِي لِأَهْلِهَا الْوَلاءَ » فلما اشترطته صعد عليه السلام المنبر فحرمه .

وكما [3] أباح المتعة ثلاثا ثم حرمها ، لتأكيد أمر النكاح

وقد [4] صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في خميصة لها علم . فلما سلّم قال « شَغَلَنِي النَّظَرُ إِلَى هَذِهِ اذْهَبُوا بِهَا إِلَى أَبِي جَهْمٍ وَائْتُونِي بِأَنْبِجَانِيَّتِهِ » يعني كساءه . فاختار لبس الكساء على الثوب الناعم . وكان شراك نعله قد أخلق ، فأبدل بسير جديد ، فصلى فيه ، فلما سلم قال « أَعِيدُوا الشِّرَاكَ الْخَلَقَ وَانْزِعُوا هَذَا الْجَدِيدَ فَإِنِّي نَظَرْتُ إِلَيْهِ فِي الصَّلَاةِ »

[5] ولبس خاتما من ذهب ، ونظر إليه على المنبر نظرة ، فرمى به ، فقال « شَغَلَنِي هَذَا عَنْكُمْ نَظْرَةٌ إِلَيْهِ وَنَظْرَةٌ إِلَيْكُمْ »

وكان صلى الله عليه وسلم قد [6] احتذى مرة نعلين جديدين ، فأعجبه حسنهما . فخرّ ساجدا وقال « أَعْجَبَنِي حُسْنُهُمَا فَتَوَاضَعْتُ لِرَبِّي خَشْيَةَ أَنْ يَمْقُتَنِي » ثم خرج بهما فدفعهما إلى أول مسكين رآه

وعن [7] سنان بن سعد قال : حيكت لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبة من صوف أنمار وجعلت حاشيتها سوداء . فلما لبسها قال « انْظُرُوا مَا أَحْسَنَهَا مَا أَلْيَنَهَا » قال فقام إليه أعرابي فقال : يارسول الله هبها لي ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سئل شيئا لم يبخل به ، قال

---

(١) حديث لبس يوما خاتما من ذهب ثم نزعه : متفق عليه وقد تقدم

(٢) حديث قال لعائشة في شأن بريرة اشترطي لأهلها ـ الحديث : متفق عليه من حديثها

(٣) حديث أباح المتعة ثلاثا ثم حرمها : مسلم من حديث سلمة بن الأكوع

(٤) حديث صلى في خميصة لها علم ـ الحديث : متفق عليه وقد تقدم في الصلاة

(٥) حديث لبس خاتما فنظر اليه على المنبر فرمى به وقال شغلني هذا عنكم ـ الحديث : تقدم

(٦) حديث احتذى نعلين جديدين فأعجبه حسنهما ـ الحديث : تقدم

(٧) حديث سنان بن سعد حيكت لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبة صوف من صوف أنمار ـ الحديث : أبو داود الطيالسي والطبراني من حديث سهل بن سعد دون قوله وأمر أن يحاك له أخرى فهي عند الطبراني فقط وفيه زمعة بن صالح ضعيف ويقع في كثير من نسخ الاحياء سيار بن سعد وهو غلط

فدفعها إليه ، وأمر أن يحاك له واحدة أخرى ، فمات صلى الله عليه وسلم وهي في المحاكة

وعن[١] جابر قال دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على فاطمة رضي الله تعالى عنها وهي تطحن بالرحا ، وعليها كساء من وبر الإبل ؛ فلما نظر إليها بكى وقال « يَافَاطِمَةُ تَجَرَّعِي مَرَارَةَ الدُّنْيَا لِنَعِيمِ الأَبَدِ » فأنزل عليه (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى[١])

وقال صلى الله عليه وسلم[٢] « إِنَّ مِنْ خِيَارِ أُمَّتِي فِيمَا أَنْبَأَنِي الْمَلأُ الأَعْلَى قَوْماً يَضْحَكُونَ جَهْرًا مِنْ سِعَةِ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى وَيَبْكُونَ سِرًّا مِنْ خَوْفِ عَذَابِهِ مُؤْنَتُهُمْ عَلَى النَّاسِ خَفِيفَةٌ وَعَلَى أَنْفُسِهِمْ ثَقِيلَةٌ يَلْبَسُونَ الْخُلْقَانَ وَيَتْبَعُونَ الرُّهْبَانَ أَجْسَامُهُمْ فِي الأَرْضِ وَأَفْئِدَتُهُمْ عِنْدَ الْعَرْشِ »

فهذه كانت سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الملابس ، وقد أوصى أمته عامة باتباعه إذ قال[٣] « مَنْ أَحَبَّنِي فَلْيَسْتَنَّ بِسُنَّتِي » وقال[٤] « عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ بَعْدِي عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ » وقال تعالى (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ[٢])وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم[٥] عائشة رضي الله عنها خاصة وقال« إِنْ أَرَدْتِ اللُّحُوقَ بِي فَإِيَّاكِ وَمُجَالَسَةَ الأَغْنِيَاءِ وَلَا تَنْزَعِي ثَوْبًا حَتَّى تُرَقِّعِيهِ »

وعدّ علي قميص عمر رضي الله عنه اثنتا عشرة رقعة بعضها من أدم

واشترى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ثوبا بثلاثة دراهم ، ولبسه وهو في الخلافة ، وقطع كميه من الرسغين وقال : الحمد لله الذي كساني هذا من رياشه

وقال الثوري وغيره : البس من الثياب مالا يشهرك عند العلماء، ولا يحقرك عند الجهال.

---

(١) حديث جابر دخل على فاطمة وهي تطحن بالرحا ـ الحديث : أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق باسناد ضعيف

(٢) حديث ان من خيار أمتي فيما آتاني العلي الأعلى قوما يضحكون جهرا من سعة رحمة ربهم ويبكون سرا من خوف عذابه ـ الحديث : تقدم وهو عند الحاكم والبيهقي في الشعب وضعفه

(٣) حديث من أحبني فليستسن بسنتي : تقدم في النكاح

(٤) حديث عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين ـ الحديث : أبو داود والترمذي وصححه وابن ماجه من حديث العرباض بن سارية

(٥) حديث قال لعائشة ان أردت اللحوق بي فاياك ومجالسة الأغنياء : الترمذي وقال غريب والحاكم وصححه من حديث عائشة وقد تقدم

---

(١) الضحى : ٥ (٢) آل عمران : ٣١

وكان يقول : إن الفقير ليمرّ بي وأنا أصلي فأدعه يجوز ، ويمر بي واحد من أبناء الدنيا وعليه هذه البزة فأمقته ولا أدعه يجوز .

وقال بعضهم : قوّمت ثوبي سفيان ونعليه بدرهم وأربعة دوانق . وقال ابن شبرمة : خير ثيابي ماخدمني ، وشرها ماخدمته .

وقال بعض السلف : البس من الثياب مايخالطك بالسوقة ، ولا تلبس منها مايشهرك فينظر إليك . وقال أبو سليمان الداراني ، الثياب ثلاثة : ثوب لله وهو مايستر العورة ، وثوب للنفس وهو مايطلب لينه ، وثوب للناس وهو مايطلب جوهره وحسنه

وقال بعضهم : من رق ثوبه رق دينه . وكان جمهور العلماء من التابعين قيمة ثيابهم مابين العشرين إلى الثلاثين درهما . وكان الخواص لايلبس أكثر من قطعتين قميص ومئزر تحته وربما يعطف ذيل قميصه على رأسه .

وقال بعض السلف : أول النسك الزي . وفى الخبر . البذاذة من الإيمان . وفى الخبر . من ترك ثوب جمال وهو يقدر عليه تواضعا لله تعالى ، وابتغاء لوجهه ، كان حقا على الله أن يدخر له من عبقري الجنة فى تخات الياقوت

وأوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه . قل لأوليائي لايلبسوا ملابس أعدائي ، ولايدخلوا مداخل أعدائي ، فيكونوا أعدائي كما هم أعدائي . ونظر رافع بن خديج إلى بشر بن مروان على منبر الكوفة وهو يعظ ، فقال . انظروا إلى أميركم يعظ الناس وعليه ثياب الفساق ، وكان عليه ثياب رقاق . وجاء عبد الله بن عامر بن ربيعة إلى أبي ذر فى بزّته ، فجعل يتكلم فى الزهد ، فوضع أبو ذر راحته على فيه ، وجعل يضرط به . فغضب ابن عامر ، فشكاه إلى عمر . فقال أنت صنعت بنفسك . تتكلم فى الزهد بين يديه بهذه البزة !

وقال علي كرم الله وجهه . إن الله تعالى أخذ على أئمة الهدى أن يكونوا فى مثل أدنى أحوال الناس ، ليقتدى بهم الغني ، ولا يزرى بالفقير فقره . ولما عوتب فى خشونة لباسه قال : هو أقرب إلى التواضع ، وأجدر أن يقتدى به المسلم

ونهى صلى الله عليه وسلم عن التنعم وقال[1] « إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى عِبَاداً لَيْسُوا بِالْمُتَنَعِّمِينَ »

---

(١) حديث نهى عن التنعم وقال ان عباد الله ليسوا بالمتنعمين : أحمد من حديث معاذ وقد تقدم

وروي [١] فضالة بن عبيد وهو والي مصر ، أشعث حافيا ، فقيل له أنت الأمير وتفعل هذا ! فقال نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإرفاه ، وأمرنا أن نحتفي أحيانا .

وقال علي لعمر رضي الله عنهما : إن أردت أن تلحق بصاحبيك فارقع القميص ، ونكس الإزار ، واخصف النعل ، وكل دون الشبع

وقال عمر : اخشوشنوا ، وإياكم وزي العجم كسرى وقيصر

وقال علي كرم الله وجهه : من تزيا بزي قوم فهو منهم

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] « إِنَّ مِنْ شِرَارِ أُمَّتِي الَّذِينَ غُذُوا بِالنَّعِيمِ يَطْلُبُونَ أَلْوَانَ الطَّعَامِ وَأَلْوَانَ الثِّيَابِ وَيَتَشَدَّقُونَ فِي الْكَلَامِ »

وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « إِزْرَةُ الْمُؤْمِنِ إِلَى أَنْصَافِ سَاقَيْهِ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَعْبَيْنِ وَمَا أَسْفَلَ مِنْ ذَلِكَ فِي النَّارِ وَلَا يَنْظُرُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ بَطَراً » . وقال [٤] أبو سليمان الداراني . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَا يَلْبَسُ الشَّعْرَ مِنْ أُمَّتِي إِلَّا مُرَاءٍ أَوْ أَحْمَقُ »

وقال الأوزاعي : لباس الصوف في السفر سنة ، وفي الحضر بدعة

ودخل محمد بن واسع على قتيبة بن مسلم ، وعليه جبة صوف ، فقال له قتيبة . ما دعاك إلى مدرعة الصوف ؟ فسكت . فقال أكلمك ولا تجيبني . فقال أكره أن أقول زهدا فأزكي نفسي ، أو فقرا فأشكو ربي . وقال أبو سليمان : لما اتخذ الله إبراهيم خليلا أوحى إليه أن وار عورتك من الأرض . وكان لا يتخذ من كل شيء إلا واحدا سوى السراويل ، فإنه كان يتخذ سراويلين ، فإذا غسل أحدهما لبس الآخر ، حتى لا يأتي عليه حال إلا وعورته مستورة

وقيل لسلمان الفارسي رضي الله عنه . مالك لا تلبس الجيد من الثياب ! فقال وما للعبد والثوب

---

(١) حديث فضالة بن عبيد نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الارفاه وأمرنا ان نحتفي أحيانا : أبو داود باسناد جيد

(٢) حديث ان من شرار أمتي الذين غذوا بالنعيم ـ الحديث : الطبراني من حديث أبي أمامة باسناد ضعيف سيكون رجال من أمتي يأكلون ألوان الطعام ـ الحديث : وآخره أولئك شرار امتي وقد تقدم

(٣) حديث ازرة المؤمن الى انصاف ساقيه ـ الحديث : مالك وأبو داود والنسائي وابن حبان من حديث أبي سعيد ورواه أيضا النسائي من حديث أبي هريرة قال محمد بن يحيى الذهلي كلا الحديثين محفوظ

(٤) حديث أبي سليمان لا يلبس الشعر من أمتي إلا مراء أو أحمق : لم أجد له اسنادا

الحسن ، فإذا عتق فله والله ثياب لا تبلى أبدا . ويروى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، أنه كان له جبة شعر و كساء شعر ، يلبسهما من الليل إذا قام يصلى

وقال الحسن لفرقد السبخي : تحسب أن لك فضلا على الناس بكسائك ؟ بلغنى أن أكثر أصحاب النار أصحاب الأكسية نفاقا . وقال يحي بن معين . رأيت أبا معاوية الأسود وهو يلتقط الخرق من المزابل ، ويغسلها ويلفقها ويلبسها . فقلت إنك تكسى خيرا من هذا . فقال : ماضرهم ما أصابهم فى الدنيا ، جبر الله لهم بالجنة كل مصيبة . فجعل يحي بن معين يحدث بها ويبكى

تفصيل الزهد فى المسكن

المهم الثالث المسكن : وللزهد فيه أيضا ثلاث درجات :

أعلاها : أن لا يطلب موضعا خاصا لنفسه ، فيقنع بزوايا المساجد كأصحاب الصفة

وأوسطها : أن يطلب موضعا خاصا لنفسه ، مثل كوخ مبنى من سعف أو خص أو مايشبهه

وأدناها : أن يطلب حجرة مبنية . إما بشراء أو إجارة . فإن كان قدر سعة المسكن على قدر حاجته من غير زيادة ، ولم يكن فيه زينة ، لم يخرجه هذا القدر عن آخر درجات الزهد . فإن طلب التشييد ، والتجصيص ، والسعة ، وارتفاع السقف أكثر من ستة أذرع ، فقد جاوز بالكلية حد الزهد فى المسكن

فاختلاف جنس البناء بأن يكون من الجص ، أو القصب ، أو بالطين ، أو بالآجر ، واختلاف قدره بالسعة والضيق . واختلاف طوله بالإضافة إلى الأوقات ، بأن يكون مملوكا ، أو مستأجرا ، أو مستعارا . وللزهد مدخل فى جميع ذلك

وبالجملة كل مايراد للضرورة فلا ينبغى أن يجاوز حد الضرورة . وقدر الضرورة من الدنيا آلة الدين ووسيلته . وما جاوز ذلك فهو مضاد للدين . والغرض من المسكن دفع المطر والبرد ، ودفع الأعين والأذى . وأقل الدرجات فيه معلوم ، وما زاد عليه فهو الفضول والفضول كله من الدنيا . وطالب الفضول والساعى له بعيد من الزهد جدا

وقد قيل أول شيء ظهر من طول الأمل بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم التدريز والتشييد ، يعنى بالتدريز كف دروز الثياب ، فإنها (١) كانت تشل شلا . والتشييد هو البنيان

---

(١) حديث كانت الثياب تشل شلا وكانوا يبنون بالسعف والجريد أما شل الثياب من غير كف فروى الطبرانى والحاكم ان عمر قطع مافضل عن الاصابع من غير كف وقال هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأما البناء فى الصحيحين من حديث أنس فى قصة بناء مسجد المدينة فصفوا النخل

بالجص والآجر ، وإنما كانوا يبنون بالسعف والجريد . وقد جاء فى الخبر . يأتى على الناس زمان يوشون ثيابهم كما توشى البرود اليمانية . وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم العباس[1] أن يهدم علية كان قد علا بها[2] ومر عليه السلام بجنبذة معلاة، فقال « لِمَنْ هٰذِهِ ؟ » قالوا لفلان . فلما جاءه الرجل أعرض عنه ، فلم يكن يقبل عليه كما كان . فسأل الرجل أصحابه عن تغير وجهه صلى الله عليه وسلم . فأخبر ، فذهب فهدمها . فمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالموضع فلم يرها ، فأخبر بأنه هدمها ، فدعا له بخير

وقال[3] الحسن . مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يضع لبنة على لبنة ، ولا قصبة على قصبة . وقال النبي صلى الله عليه وسلم[4] « إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ شَرّاً أَهْلَكَ مَالَهُ فِي الْمَاءِ وَالطِّينِ » . وقال[5] عبد الله بن عمر . مرّ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خصا فقال « مَا هَذَا ؟ » قلنا خص لنا قد وهي . فقال « أَرَى الْأَمْرَ أَعْجَلَ مِنْ ذٰلِكَ »

واتخذ نوح عليه السلام بيتا من قصب ، فقيل له . لو بنيت ؟ فقال هذا كثير لمن يموت

وقال الحسن . دخلنا على صفوان بن محيريز وهو في بيت من قصب قد مال عليه ، فقيل له لو أصلحته ؟ فقال كم من رجل قد مات وهذا قائم على حاله

وقال النبي صلى الله عليه وسلم[6] « مَنْ بَنَى فَوْقَ مَا يَكْفِيهِ كُلِّفَ أَنْ يَحْمِلَهُ يَوْمَ

قبلة المسجد وجعلوا عضادتيه الحجارة ـ الحديث : ولهما من حديث أبي سعيد كان المسجد على عريش فوكف المسجد

(١) حديث أمر العباس ان يهدم علية له كان قد علاها : الطبراني من رواية أبي العالية ان العباس بنى غرفة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم اهدمها ـ الحديث : وهو منقطع

(٢) حديث مر بجنبذة معلاة فقال لمن هذه فقالوا لفلان فلما جاءه الرجل أعرض عنه ـ الحديث : أبو داود من حديث أنس باسناد جيد بلفظ فرأى قبة مشرفة ـ الحديث : والجنبذة القبة

(٣) حديث الحسن مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يضع لبنة على لبنة ـ الحديث : ابن حبان فى الثقات وأبو نعيم فى الحلية هكذا مرسلا وللطبرانى فى الأوسط من حديث عائشة من سأل عنى أو سره ان ينظر إلى فلينظر إلى أشعث شاحب مشمر لم يضع لبنة على لبنة ـ الحديث : واسناده ضعيف

(٤) حديث اذا أراد الله بعبد شرا أهلك ماله فى الماء والطين : أبو داود من حديث عائشة باسناد جيد خضر له فى الطين واللبن حتى يبني

(٥) حديث عبد الله بن عمر مر علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خصا لنا قد وهى ـ الحديث : أبو داود والترمذى وصححه وابن ماجه

(٦) حديث من بنى فوق ما يكفيه كلف يوم القيامة ان يحمله : الطبرانى من حديث ابن مسعود باسناد فيه لين وانقطاع

الْقِيَامَةِ » وفى الخبر [١] « كُلُّ نَفَقَةٍ لِلْعَبْدِ يُؤْجَرُ عَلَيْهَا إِلَّا مَا أَنْفَقَهُ فِي الْمَاءِ وَالطِّينِ »

وفى قوله تعالى (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا [١]) أنه الرياسة والتطاول فى البنيان

وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « كُلُّ بِنَاءٍ وَبَالٌ عَلَى صَاحِبِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مَا أَكَنَّ مِنْ حَرٍّ وَبَرْدٍ » وقال صلى الله عليه وسلم [٣] للرجل الذى شكا إليه ضيق منزله « اتَّسِعْ فِي السَّمَاءِ » أى فى الجنة . ونظر عمر رضي الله عنه فى طريق الشام إلى صرح قد بنى بجص وآجر، فكبر وقال . ما كنت أظن أن يكون فى هذه الأمة من يبنى بنيان هامان لفرعون يعنى قول فرعون (فَأَوْقِدْ لِي يَاهَامَانُ عَلَى الطِّينِ [٢]) يعنى به الآجر

ويقال إن فرعون هو أول من بُني له بالجص والآجر ، وأول من عمله هامان، ثم تبعهما الجبابرة . وهذا هو الزخرف

ورأى بعض السلف جامعا فى بعض الأمصار فقال :أدركت هذا المسجد مبنيا من الجريد والسعف ، ثم رأيته مبنيا من رهص ، ثم رأيته الآن مبنيا باللبن ، فكان أصحاب السعف خيرا من أصحاب الرهص، وكان أصحاب الرهص خيرا من أصحاب اللبن

وكان فى السلف من يبنى داره مرارا فى مدة عمره لضعف بنائه ، وقصر أمله ، وزهده فى إحكام البنيان . وكان منهم من إذا حج أو غزا نزع بيته أو وهبه لجيرانه فإذا رجع أعاده . وكانت بيوتهم من الحشيش والجلود ، وهي عادة العرب الآن ببلاد اليمن وكان ارتفاع بناء السقف قامة وبسطة . قال الحسن كنت إذا دخلت بيوت رسول الله

---

(١) حديث كل نفقة العبد يؤجر عليها الا ما أنفقه فى الماء والطين :ابن ماجه من حديث خباب بن الأرت باسناد جيد بلفظ الا فى التراب أوقال فى البناء

(٢) حديث كل بناء وبال على صاحبه الا ما أكن من حر أو برد :أبو داود من حديث أنس باسناد جيد بلفظ الا ما لا يعنى ما لا بد منه

(٣) حديث قال للرجل الذى شكى اليه ضيق منزله اتسع فى السماء: قال المصنف أى فى الجنة أبو داود فى المراسيل من رواية اليسع بن المغيرة قال شكى خالد بن الوليد فذكره وقد وصله الطبرانى فقال عن اليسع ابن المغيرة عن أبيه عن خالد بن الوليد الا انه قال ارفع الى السماء واسأل الله السعة وفى اسناده لين

---

(١) القصص : ٨٣ (٢) القصص : ٣٨

صلى الله عليه وسلم ضربت بيدى إلى السقف وقال عمرو بن دينار . إذا أعلى العبد البناء فوق ستة أذرع ناداه ملك . إلى أين يا أفسق الفاسقين ؟

وقد نهى سفيان عن النظر إلى بناء مشيد وقال . لولا نظر الناس لما شيدوا ، فالنظر إليه معين عليه

وقال الفضيل: إنى لا أعجب ممن بنى وترك ، ولكنى أعجب ممن نظر إليه ولم يعتبر .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : يأتى قوم يرفعون الطين ، ويضعون الدين ، ويستعملون البراذين ، يصلون إلى قبلتكم ، ويموتون على غير دينكم

تفصيل الزهد فى أثاث البيت

المهم الرابع :أثاث البيت . وللزهد فيه أيضا درجات:أعلاها:حال عيسى المسيح صلوات الله عليه وسلامه ؛ وعلى كل عبد مصطفى ، إذ كان لا يصحبه إلا مشط وكوز ، فرأى إنسانا يمشط لحيته بأصابعه ؛ فرمى بالمشط . ورأى آخر يشرب من النهر بكفيه ، فرمى بالكوز. وهذا حكم كل أثاث ، فإنه إنما يراد لمقصود . فإذا استغنى عنه فهو وبال فى الدنيا والآخرة ومالا يستغنى عنه فيقتصر فيه على أقل الدرجات ، وهو الخزف فى كل ما يكفى فيه الخزف ولا يبالى بأن يكون مكسور الطرف إذا كان المقصود يحصل به

وأوسطها :أن يكون له أثاث بقدر الحاجة ،صحيح فى نفسه،ولكن يستعمل الآلة الواحدة فى مقاصد ، كالذى معه قصعة يأكل فيها ، ويشرب فيها ،ويحفظ المتاع فيها . وكان السلف يستحبون استعمال آلة واحدة فى أشياء للتخفيف

وأعلاها :أن يكون له بعدد كل حاجة آلة من الجنس النازل الخسيس.فإن زاد فى العدد أو فى نفاسة الجنس ، خرج عن جميع أبواب الزهد ؛ وركن إلى طلب الفضول

ولينظر إلى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين فقد قالت [1] عائشة رضي الله عنها . كان ضجاع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى ينام عليه وسادة من أدم ؛ حشوها ليف .

وقال الفضيل [2] : ما كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عباءة مثنية ، ووسادة من أدم ، حشوها ليف

---

(١) حديث عائشة كان ضجاع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى ينام عليه وسادة من أدم حشوها ليف أبو داود والترمذى وقال حسن صحيح وابن ماجه

(٢) حديث ما كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم الاعباءة مثنية ووسادة من أدم حشوها ليف

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه [1] دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على سرير مرمول بشريط ، فجلس ، فرأى أثر الشريط في جنبه عليه السلام . فدمعت عينا عمر . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « مَا الَّذِي أَبْكَاكَ يَاابْنَ الْخَطَّابِ » قال ذكرت كسرى وقيصر وما هما فيه من الملك ، وذكرتك وأنت حبيب الله ، وصفيه ، ورسوله ، نائم على سرير مرمول بالشريط . فقال صلى الله عليه وسلم « أَمَا تَرْضَى يَاعُمَرُ أَنْ تَكُونَ لَهُمَا الدُّنْيَا وَلَنَا الْآخِرَةُ ؟ » قال بلى يارسول الله. قال « فَذَلِكَ كَذَلِكَ »

ودخل رجل على أبي ذر ، فجعل يقلب بصره في بيته ، فقال ياأبا ذر ، ماأرى في بيتك متاعا ولا غير ذلك من الأثاث ! فقال : إن لنا بيتا نوجه إليه صالح متاعنا . فقال إنه لابد من متاع مادمت ههنا . فقال إن صاحب المنزل لايدعنا فيه

ولما قدم عمير بن سعيد أمير حمص على عمر رضي الله عنهما قال له : مامعك من الدنيا؟ فقال معي عصاي أتوكأ عليها ، وأقتل بها حية إن لقيتها . ومعي جرابي أحمل فيه طعامي . ومعي قصعتي آكل فيها ،وأغسل فيها رأسي وثوبي. ومعي مطهرتي أحمل فيهاشرابي وطهوري للصلاة . فما كان بعد هذا من الدنيا فهو تبع لما معي . فقال عمر . صدقت رحمك الله

[2] وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر ، فدخل على فاطمة رضي الله عنها ، فرأى على باب منزلها سترا ، وفي يديها قلبين من فضة . فرجع. فدخل عليها أبو رافع وهي تبكي . فأخبرته برجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم . فسأله أبو رافع .فقال « مِنْ أَجْلِ

الترمذي في الشمائل من حديث حفصة بقصة العباءة وقدتقدم ومن حديث عائشة بقصة الوسادة وقدتقدم قبله بعض طرقه

(١) حديث دخل عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على سرير مرمول بشريط النخل فجلس فرأى أثر الشريط في جنبه ـ الحديث : متفق عليه من حديثه وقدتقدم

(٢) حديث قدم من سفره فدخل على فاطمة فرأى على منزلها سترا وفي يديها قلبين من فضة فرجع ـ الحديث: لم أره مجموعا ولأبي داود وابن ماجه من حديث سفينة باسناد جيد انه صلى الله عليه وسلم جاء فوضع يديه على عضادتي الباب فرأى القرام قدضرب في ناحية البيت فرجع فقالت فاطمة لعلي أنظر فأرجعه ـ الحديث : والنسائي من حديث ثوبان باسناد جيد قال جاءت ابنة هبيرة الى النبي صلى الله عليه وسلم وفي يدها فتخ من ذهب ـ الحديث : وفيه انه وجد في يد فاطمة سلسلة من ذهب وفيه يقول الناس فاطمة بنت محمد في يدها سلسلة من نار وانه خرج ولم يقعد فامرت بالسلسلة فبيعت فاشترت بثمنها عبدا فأعتقته فلما سمع قال الحمد لله الذي نجى فاطمة من النار

السِّتْرِ وَالسِّوَارَيْنِ » فأرسلت بهما بلالا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت . قد تصدقت بهما ، فضعهما حيث ترى . فقال « اذْهَبْ فَبِعْهُ وَادْفَعْهُ إِلَى أَهْلِ الصُّفَّةِ » فباع القلبين بدرهمين ونصف ، وتصدق بهما عليهم . فدخل عليها صلى الله عليه وسلم فقال « بِأَبِى أَنْتِ قَدْ أَحْسَنْتِ » . ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم على باب عائشة سترا[1] فهتكه وقال « كُلَّمَا رَأَيْتُهُ ذَكَرْتُ الدُّنْيَا أَرْسِلِي بِهِ إِلَى آلِ فُلَانٍ »

وفرشت[2] له عائشة ذات ليلة فراشا جديدا، وقد كان صلى الله عليه وسلم ينام على عباءة مثنية . فما زال يتقلب ليلته . فلما أصبح قال لها « أَعِيدِى الْعَبَاءَةَ الْخَلَقَةَ وَنَحِّى هَذَا الْفِرَاشَ عَنِّى قَدْ أَسْهَرَنِى اللَّيْلَةَ »

وكذلك[3] أتته دنانير خمسة أو ستة ليلا ، فبيتها ، فسهر ليلته حتى أخرجها من آخر الليل . قالت عائشة رضي الله عنها : فنام حينئذ حتى سمعت غطيطه ، ثم قال ، « مَاظَنُّ مُحَمَّدٍ بِرَبِّهِ لَوْ لَقِيَ اللهَ وَهَذِهِ عِنْدَهُ »

وقال الحسن: أدركت سبعين من الأخيار ما لأحدهم إلا ثوبه ، وما وضع أحدهم بينه وبين الأرض ثوبا قط ؛ كان إذا أراد النوم باشر الأرض بجسمه وجعل ثوبه فوقه

المهم الخامس: المنكح . وقد قال قائلون . لا معنى للزهد فى أصل النكاح ولا فى كثرته . وإليه ذهب سهل بن عبد الله وقال . قد حبب إلى سيد الزاهدين النساء، فكيف نزهد فيهن!

---

(١) حديث رأى على باب عائشة سترا فهتكه ـ الحديث: الترمذى وحسنه والنسائى فى الكبرى من حديثها

(٢) حديث فرشت له عائشة ذات ليلة فراشا جديدا وفيه كان ينام على عباءة مثنية ـ الحديث : ابن حبان فى كتاب أخلاق النبى صلى الله عليه وسلم من حديثها قالت دخلت علي امرأة من الانصار فرأت فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم عباءة مثنية فانطلقت فبعثت الي بفراش حشوه صوف فدخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ماهذا ـ الحديث : وفيه انه أمرها برده ثلاث مرات فردته وفيه مجالد بن سعيد مختلف فيه والمعروف حديث حفصة المتقدم ذكره من الشمائل

(٣) حديث أتته دنانير خمسة أوستة عشاء فبيتها فسهر ليله ـ الحديث : وفيه ماظن محمد بربه لولقى الله وهذه عنده :أحمد من حديث عائشة باسناد حسن انه قال فى مرضه الذى مات فيه ياعائشة مافعلت بالذهب فجاء مابين الخمسة الى الثمانية الى التسعة فجعل يقلبها بيده ويقول ماظن محمد ـ الحديث: وزاد أنفقها وفى رواية سبعة أو تسعة دنانير وله من حديث أم سلمة باسناد صحيح دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو شاهم الوجه قالت فحسبت ذلك من وجع فقلت يانبى الله مالك شاهم الوجه فقال من أجل الدنانير السبعة التى أتتنا أمس أمسينا وهى فى خصم الفراش وفى رواية أمسينا ولم ننفقها

ووافقه على هذا القول ابن عيينة وقال : كان أزهد الصحابة علي بن أبى طالب رضي الله عنه ، وكان له أربع نسوة ، وبضع عشر سرية

والصحيح ماقاله أبو سليمان الدارانى رحمه الله إذ قال : كل ماشغلك عن الله من أهل .ومال، وولد ، فهو عليك مشئوم . والمرأة قد تكون شاغلا عن الله

وكشف الحق فيه أنه قد تكون العزوبة أفضل فى بعض الأحوال كما سبق فى كتاب النكاح ، فيكون ترك النكاح من الزهد . وحيث يكون النكاح أفضل لدفع الشهوة الغالبة فهو واجب ، فكيف يكون تركه من الزهد ! وإن لم يكن عليه آفة فى تركه ولا فعله ،ولكن ترك النكاح احترازا عن ميل القلب إليهن ، والأنس بهن ، بحيث يشتغل عن ذكر الله ، فترك ذلك من الزهد . فإن علم أن المرأة لاتشغله عن ذكر الله ،ولكن ترك ذلك احترازا من لذة النظر ، والمضاجعة ، والمواقعة ، فليس هذا من الزهد أصلا ، فإن الولد مقصود لبقاء نسله ، وتكثير أمة محمد صلى الله عليه وسلم من القربات . واللذة التى تلحق الإنسان فيما هو من ضرورة الوجود لاتضره ، إذ لم تكن هي المقصد والمطلب . وهذا كمن ترك أكل الخبز وشرب الماء احترازا من لذة الأكل والشرب ، وليس ذلك من الزهد فى شيء ، لأن فى ترك ذلك فوات بدنه ، فكذلك فى ترك النكاح انقطاع نسله

فلا يجوز أن يترك النكاح زهدا فى لذته ، من غير خوف آفة أخرى وهذا ماعناه سهل لامحالة . ولأجله نكح رسول الله صلى الله عليه وسلم

وإذا ثبت هذا فمن حاله حال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] ، فى أنه لايشغله كثرة النسوة ، ولا اشتغال القلب بإصلاحهن والإنفاق عليهن ، فلا معنى لزهده فيهن حذرا من مجرد لذة الوقاع والنظر . ولكن أنى يتصور ذلك لغير الأنبياء والأولياء ! فأكثر الناس يشغلهم كثرة النسوان . فينبغى أن يترك الأصل إن كان يشغله . وإن لم يشغله وكان يخاف من أن تشغله الكثرة منهن ، أو جمال المرأة ، فلينكح واحدة غير جميلة ، وليراع قلبه فى ذلك.

قال أبو سليمان . الزهد فى النساء أن يختار المرأة الدون أو اليتيمة ، على المرأة الجميلة والشريفة.

---

(١) حديث كان لايشغله كثرة النسوة ولا اشتغال القلب باصلاحهن والانفاق عليهن: تقدم فى النكاح

وقال الجنيد رحمه الله . أحب للمريد المبتدى أن لايشغل قلبه بثلاث ، وإلا تغير حاله. التكسب ، وطلب الحديث ، والتزوج . وقال : أحب للصوفي أن لايكتب ولا يقرأ لأنه أجمع لهمه . فإذا ظهر أن لذة النكاح كلذة الأكل ،فما شغل عن الله فهو محذور فيهما جميعا

المهم السادس : مايكون وسيلة إلى هذه الخمسة ، وهو المال والجاه

تفصيل الكلام في المال والجاه

أما الجاه :فمعناه ملك القلوب بطلب محل فيها ، ليتوصل به إلى الاستعانة فى الأغراض والأعمال . وكل من لايقدر على القيام بنفسه فى جميع حاجاته ، وافتقر إلى من يخدمه،افتقر إلى جاه لامحالة فى قلب خادمه ، لأنه إن لم يكن له عنده محل وقدر لم يقم بخدمته . وقيام القدر والمحل فى القلوب هو الجاه ، وهذا له أول قريب ، ولكن يتمادى به إلى هاوية لاعمق لها . ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه . وإنما يحتاج إلى المحل فى القلوب إما لجلب نفع ، أو لدفع ضر ، أو لخلاص من ظلم

فأما النفع فيغنى عنه المال . فإن من يخدم بأجرة يخدم ، وإن لم يكن عنده المستأجر قدر . وإنما يحتاج إلى الجاه فى قلب من يخدم بغير أجرة

وأما دفع الضر فيحتاج لأجله إلى الجاه فى بلد لايكمل فيه العدل ، أو يكون بين جيران يظلمونه ، ولا يقدر على دفع شرهم إلا بمحل له فى قلوبهم ، أو محل له عند السلطان . وقدر الحاجة فيه لاينضبط ، لاسيما إذا انضم إليه الخوف وسوء الظن بالعواقب . والخائض فى طلب الجاه سالك طريق الهلاك . بل حق الزاهد أن لايسعى لطلب المحل فى القلوب أصلا . فإن اشتغاله بالدين والعبادة يمهد له من المحل فى القلوب مايدفع به عنه الأذى ولو كان بين الكفار ، فكيف بين المسلمين ؟ فأما التوهمات والتقديرات التى تحوج إلى زيادة فى الجاه على الحاصل بغير كسب ، فهي أوهام كاذبة . إذ من طلب الجاه أيضا لم يخل عن أذى فى بعض الأحوال . فعلاج ذلك بالاحتمال والصبر أولى من علاجه بطلب الجاه . فإذاً طلب المحل فى القلوب لارخصة فيه أصلا . واليسير منه داع إلى الكثير ، وضراوته أشد من ضراوة الخمر ، فليحترز من قليله وكثيره

وأما المال :فهو ضروري فى المعيشة . أعنى القليل منه . فإن كان كسوبا، فإذا اكتسب حاجة يومه فينبغي أن يترك الكسب . كان بعضهم إذا اكتسب حبتين رفع سفطه وقام،

هذا شرط الزهد . فإن جاوز ذلك إلى مايكفيه أكثر من سنة فقد خرج عن حد ضعفاء الزهاد وأقويائهم جميعا . وإن كانت له ضيعة ولم يكن له قوة يقين فى التوكل ، فأمسك منها مقدار مايكفى ريعه لسنة واحدة ، فلا يخرج بهذا القدر عن الزهد ، بشرط أن يتصدق بكل مايفضل عن كفاية سنته ، ولكن يكون من ضعفاء الزهاد . فإن شرط التوكل فى الزهد كما شرطه أويس القرنى رحمه الله ، فلا يكون هذا من الزهاد . وقولنا إنه خرج من حد الزهاد نعنى به أن ماوعد للزاهدين فى الدار الآخرة من المقامات المحمودة لايناله . وإلا فاسم الزهد قد لايفارقه بالإضافة إلى مازهد فيه من الفضول والكثرة .

وأمر المنفرد فى جميع ذلك أخف من أمر المعيل ، وقد قال أبو سليمان : لاينبغى أن يرهق الرجل أهله إلى الزهد ، بل يدعوهم إليه ، فإن أجابوا ، وإلا تركهم وفعل بنفسه ماشاء ، معناه أن التضييق المشروط على الزاهد يخصه ، ولا يلزمه كل ذلك فى عياله . نعم لاينبغى أن يجيبهم أيضا فيما يخرج عن حد الاعتدال ، وليتعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ انصرف من بيت فاطمة رضوان الله عليها بسبب ستر وقلبين ، لأن ذلك من الزينة لامن الحاجة

فإذاً مايضطر الإنسان إليه من جاه ومال ليس بمحذور . بل الزائد على الحاجة سم قاتل والمقتصر على الضرورة دواء نافع . وما بينهما درجات متشابهة : فما يقرب من الزيادة وإن لم يكن سما قاتلا فهو مضر . وما يقرب من الضرورة فهو وإن لم يكن دواء نافعا لكنه قليل الضرر . والسم محظور شربه ، والدواء فرض تناوله ، وما بينهما مشتبه أمره . فمن احتاط فإنما يحتاط لنفسه ، ومن تساهل فإنما يتساهل على نفسه . ومن استبرأ لدينه ، وترك مايريبه إلى مالايريبه ، ورد نفسه إلى مضيق الضرورة ، فهو الآخذ بالحزم ، وهو من الفرقة الناجية لامحالة

والمقتصر على قدر الضرورة والمهم لايجوز أن ينسب إلى الدنيا : بل ذلك القدر من الدنيا هو عين الدين ، لأنه شرط الدين ، والشرط من جملة المشروط . ويدل عليه ماروي أن ابراهيم الخليل عليه السلام أصابته حاجة : فذهب إلى صديق له يستقرضه شيئا ، فلم يقرضه فرجع مهموما . فأوحى الله تعالى إليه . لو سألت خليلك لأعطاك . فقال يارب ، عرفت مقتك للدنيا ، فخفت أن أسألك منها شيئا . فأوحى الله تعالى إليه . ليس الحاجة من الدنيا فإذاً قدر الحاجة من الدين . وما وراء ذلك وبال فى الآخرة ، وهو فى الدنيا أيضا كذلك

يعرفه من يخبر أحوال الأغنياء ، وماعليهم من المحنة فى كسب المال وجمعه وحفظه، واحتمال الذل فيه . وغاية سعادته به أن يسلم لورثته فيأكلونه، وربما يكونون أعداءله ، وقد يستعينون به على المعصية ، فيكون هو معينا لهم عليها

جامع الدنيا ومتبع الشهوات كدود القز

ولذلك شبه جامع الدنيا ومتبع الشهوات بدود القز ، لايزال ينسج على نفسه حيا، ثم يروم الخروج فلايجد مخلصا ، فيموت ويهلك بسبب عمله الذى عمله بنفسه . فكذلك كل من اتبع شهوات الدنيا فإنما يحكم على قلبه بسلاسل تقيّده بما يشتهيه ، حتى تتظاهر عليه السلاسل فيقيده المال ، والجاه ، والأهل ، والولد ، وشماتة الأعداء ، ومرآة الأصدقاء ، وسائر حظوظ الدنيا . فلو خطر له أنه قد أخطأ فيه ، فقصد الخروج من الدنيا ، لم يقدر عليه ، ورأى قلبه مقيدا بسلاسل وأغلال لايقدر على قطعها . ولو ترك محبوبا من محابه باختياره ، كاد أن يكون قاتلا لنفسه ، وساعيا فى هلاكه ، إلى أن يفرق ملك الموت بينه وبين جميعها دفعة واحدة فتبقى السلاسل فى قلبه معلقة بالدنيا التى فاتته وخلفها ، فهي تجاذبه إلى الدنيا ، ومخالب ملك الموت قد علقت بعروق قلبه تجذبه إلى الآخرة . فيكون أهون أحواله عند الموت أن يكون كشخص ينشر بالمنشار ، ويفصل أحد جانبيه عن الآخر بالمجاذبة من الجانبين . والذى ينشر بالمنشار إنما ينزل المؤلم ببدنه ، ويألم قلبه بذلك بطريق السراية من حيث أثره . فماظنك بألم يتمكن أولا من صميم القلب ، مخصوصا به لابطريق السراية إليه من غيره

فهذا أول عذاب يلقاه قبل مايراه من حسرة فوت النزول فى أعلى عليين ، وجوار رب العالمين. فبالنزوع إلى الدنيا يحجب عن لقاء الله تعالى . وعند الحجاب تتسلط عليه نار جهنم ، إذ النار غير مسلطة إلا على محجوب . قال الله تعالى (كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ [١]) فرتب العذاب بالنار على ألم الحجاب . وألم الحجاب كافٍ من غير علاوة النار . فكيف إذا أضيفت العلاوة إليه ! فنسأل الله تعالى أن يقرر أسماعنا [١] مانفث فى روع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث قيل له . أحبب من أحببت فإنك مفارقه

وفى معنى ماذكرناه من المثال قول الشاعر

---

(١) حديث نفث فى روعه أحبب من أحببت فإنك مفارقه : تقدم

---

[١] التطفيف : ١٥

كدود كدود القز ينسج دائما ويهلك غما وسط ماهو ناسجه

ولما انكشف لأولياء الله تعالى أن العبد مهلك نفسه بأعماله واتباعه هوى نفسه ، إهلاك دود القز نفسه ، رفضوا الدنيا بالكلية . حتى قال الحسن : رأيت سبعين بدريا كانوا فيما أحل الله لهم أزهد منكم فيما حرم الله عليكم . وفي لفظ آخر . كانوا بالبلاء أشد فرحا منكم بالخصب والرخاء ، لو رأيتموهم قلتم مجانين ، ولو رأوا أخياركم قالوا ما لهؤلاء من خلاق ، ولو رأوا شراركم قالوا ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب . وكان أحدهم يعرض له المال الحلال فلا يأخذه ويقول أخاف أن يفسد علي قلبي

فمن كان له قلب فهو لا محالة يخاف من فساده . والذين أمات حب الدنيا قلوبهم فقد أخبر الله عنهم إذ قال تعالى (وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ[1]) وقال عز وجل (وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا[2]) وقال تعالى (فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ[3]) فأحال ذلك كله على الغفلة وعدم العلم . ولذلك قال رجل لعيسى عليه السلام : احملني معك في سياحتك . فقال أخرج مالك والحقني . فقال لا أستطيع . فقال عيسى عليه السلام : بعجب يدخل الغني الجنة . أو قال : بشدة

وقال بعضهم : ما من يوم ذر شارقه إلا وأربعة أملاك ينادون في الآفاق بأربعة أصوات ، ملكان بالمشرق ، وملكان بالمغرب ، يقول أحدهم بالمشرق . ياباغي الخير هلم ، وياباغي الشر أقصر . ويقول الآخر . اللهم أعط منفقا خلفا ، وأعط ممسكا تلفا . ويقول اللذان بالمغرب أحدهما . لدوا للموت ، وابنوا للخراب . ويقول الآخر . كلوا وتمتعوا لطول الحساب

بيان

علامات الزهد

اعلم أنه قد يظن أن تارك المال زاهد . وليس كذلك . فإن ترك المال وإظهار الخشونة سهل على من أحب المدح بالزهد . فكم من الرهابين من ردوا أنفسهم كل يوم إلى قدر يسير من الطعام ، ولازموا ديرا لا باب له ، . وإنما مسرة أحدهم معرفة الناس حاله ، ونظرهم إليه ، ومدحهم له . فذلك لا يدل على الزهد دلالة قاطعة . بل لا بد من الزهد في المال والجاه جميعا ،

(١) يونس : ٧ (٢) الكهف : ٢٨ (٣) النجم : ٢٩ ، ٣٠

حتى يكمل الزهـــد فى جميع حظوظ النفس من الدنيا . بل قد يدعى جماعة الزهد مع لبس الأصواف الفاخرة . والثياب الرفيعة ، كما قال الخوّاص فى وصف المدعين إذ قال : وقوم ادعوا الزهد ، ولبسوا الفاخر من اللباس ، يموهون بذلك على الناس ليهدى إليهم مثل لباسهم ، لئلا ينظر إليهم بالعين التى ينظر بها إلى الفقراء فيحتقروا ، فيعطوا كما تعطى المساكين ، ويحتجون لنفوسهم باتباع العلم ، وأنهم على السنة ، وأن الأشياء داخلة إليهم وهم خارجون منها ، وإنما يأخذون بعلة غيرهم . هذا إذا طولبوا بالحقائق ، وألجئوا إلى المضايق . وكل هؤلاء أكلة الدنيا بالدين ، لم يعنوا بتصفية أسرارهم ، ولا بتهذيب أخلاق نفوسهم ، فظهرت عليهم صفاتهم ، فغلبتهم ، فادعوها حالا لهم . فهم مائلون إلى الدنيا ، متبعون للهوى : فهذا كله كلام الخواص رحمه الله

صفة مدعى الزهد

فإذاً معرفة الزهد أمر مشكل . بل حال الزهد على الزهد مشكل . وينبغى أن يعول فى باطنه على ثلاث علامات

علامات الزاهد حقا

العلامة الأولى : أن لا يفرح بموجود ، ولا يحزن على مفقود . كما قال تعالى (لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ [1]) بل ينبغى أن يكون بالضد من ذلك ، وهو أن يحزن بوجود المال ، ويفرح بفقده

العلامة الثانية : أن يستوي عنده ذامّه ومادحه . فالأوّل علامة الزهد فى المال والثانى علامة الزهد فى الجاه

العلامة الثالثة : أن يكون أنسه بالله تعالى ، والغالب على قلبه حلاوة الطاعة . إذ لا يخلو القلب عن حلاوة المحبة . إما محبة الدنيا . وإما محبة الله . وهما فى القلب كالماء والهواء فى القدح فالماء إذا دخل خرج الهواء ، ولا يجتمعان . وكل من أنس بالله اشتغل به ، ولم يشتغل بغيره . ولذلك قيل لبعضهم . إلى ماذا أفضى بهم الزهد ؟ فقال . إلى الأنس بالله فأما الأنس بالدنيا وبالله فلا يجتمعان . وقد قال أهل المعرفة : إذا تعلق الإيمان بظاهر القلب أحب الدنيا والآخرة جميعا ، وعمل لهما . وإذا بطن الإيمان فى سويداء القلب وباشره ، أبغض الدنيا ، فلم ينظر إليها ، ولم يعمل لها . ولهذا ورد فى دعاء آدم عليه السلام . اللهم إنى أسألك

(١) الحديد : ٢٣

إيمانا يباشر قلبي . وقال أبو سليمان : من شغل بنفسه شغل عن الناس ؛ وهذا مقام العاملين. ومن شغل بربه شغل عن نفسه ، وهذا مقـام العارفين . والزاهد لابد وأن يكون فى أحد هذين المقامين . ومقامه الأول أن يشغل نفسه بنفسه ، وعند ذلك يستوى عنده المدح والذم والوجود والعدم . ولا يستدل بإمساكه قليلا من المال على فقد زهده أصلا.

قال ابن أبي الحواري : قلت لأبي سليمان. أكان داود الطائي زاهدا ؟ قال نعم .قلت قد بلغني أنه ورث عن أبيه عشرين دينارا ، فأنفقها فى عشرين سنة ، فكيف كان زاهدا وهو يمسك الدنانير ! فقال . أردت منه أن يبلغ حقيقة الزهد ! وأراد بالحقيقة الغاية ، فإن الزهد ليس له غاية لكثرة صفات النفس . ولا يتم الزهد إلا بالزهد فى جميعها . فكل من ترك من الدنيا شيئا مع القدرة عليه ، خوفا على قلبه وعلى دينه ، فله مدخل فى الزهد بقدر ماتركه. وآخره أن يترك كل ماسوى الله ، حتى لايتوسد حجرا ، كما فعله المسيح عليه السلام .

فنسأل الله تعالى أن يرزقنا من مباديه نصيبا وإن قل ،فإن أمثالنا لايستجرىء على الطمع فى غاياته وإن كان قطع الرجاء عن فضل الله غير مأذون فيه ،وإذا لاحظنا عجائب نعم الله تعالى علينا علمنا أن الله تعالى لايتعاظمه شيء ، فلا بعد فى أن نعظم السؤال اعتمادا على الجود المجاوز لكل كمال

فإذاً علامة الزهد استواء الفقر والغنى ، والعز والذل، والمدح والذم . وذلك لغلبة الأنس بالله . ويتفرع عن هذه العلامات علامات أخرى لامحالة، مثل أن يترك الدنيا ولا يبالي من أخذها

وقيـل علامته أن يترك الدنيـا كما هي ، فلا يقول أبني رباطا أو أعمر مسجـدا

وقال يحي بن معاذ : علامة الزهد ، السخاء بالموجود

وقال ابن خفيف : علامته ،وجود الراحة فى الخروج من الملك

وقال أيضا : الزهد هو عزوف النفس عن الدنيـا بلا تـكلف

وقال أبو سليمان : الصوف علَم من أعلام الزهد ،فلاينبغي أن يلبس صوفا بثلاثة دراهم ،وفى قلبه رغبـــة خمسة دراهم

وقال أحمد بن حنبل وسفيان رحمهما الله : علامة الزهد ،قصر الأمل

وقال سري: لايطيب عيش الزاهد إذا اشتغل عن نفسه ولايطيب عيش العارف إذا اشتغل بنفسه

وقال النصراباذى : الزاهد غريب فى الدنيا ، والعارف غريب فى الآخرة

وقال يحي بن معاذ : علامة الزهد ثلاث . عمل بلا علاقة ،وقول بلاطمع ، وعز بلا رياسة

وقال أيضا : الزاهد لله يسعطك الخل والخردل ،والعارف يشمك المسك والعنبر

وقال له رجل . متى أدخل حانوت التوكل ،وألبس رداء الزهد ،وأقعد مع الزهدين ؟ فقال : إذا صرت من رياضتك لنفسك فى السر إلى حد لوقطع الله عنك الرزق ثلاثة أيام لم تضعف فى نفسك . فأما مالم تبلغ هذه الدرجة ،فجلوسك على بساط الزاهدين جهل .ثم لا آمن عليك أن تفتضح

وقال أيضا : الدنيا كالعروس ، ومن يطلبها ماشطتها ،والزاهد فيها يسخم وجهها، وينتف شعرها ، ويخرق ثوبها . والعارف يشتغل بالله تعالى ولا يلتفت إليها

وقال السرى : مارست كل شيء من أمر الزهد ، فنلت منه ماأريد إلا الزهد فى الناس ، فإنى لم أبلغه ولم أطقه

وقال الفضيل رحمه الله : جعل الله الشر كله فى بيت ، وجعل مفتاحه حب الدنيا . وجعل الخير كله فى بيت ، وجعل مفتاحه الزهد فى الدنيا

فهذا ماأردنا أن نذكره من حقيقة الزهد وأحكامه . وإذا كان الزهد لايتم إلا بالتوكل ، فلنشرع فى بيانه إن شاء الله تعالى

كتاب التوحيد والتوكل

كتاب التوحيد والتوكل

وهو الكتاب الخامس من ربع المنجيات من كتب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مدبر الملك والملكوت ، المنفرد بالعزة والجبروت ، الرافع للسماء بغير عماد ، المقدر فيها أرزاق العباد ، الذى صرف أعين ذوى القلوب والألباب عن ملاحظة الوسائط والأسباب إلى مسبب الأسباب ، ورفع هممهم عن الالتفات إلى ماعداه ، والاعتماد على مدبر سواه ، فلم يعبدوا إلا إياه ، علما بأنه الواحد الفرد الصمد الإله ، وتحقيقا بأن جميع أصناف الخلق عباد أمثالهم لايبتغى عندهم الرزق ، وأنه مامن ذرة إلا إلى الله خلقها ، وما من دابة إلا على الله رزقها . فلما تحققوا أنه لرزق عباده ضامن ، وبه كفيل ، توكلوا عليه فقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . والصلاة على محمد قامع الأباطيل ، الهادى إلى سواء السبيل ، وعلى آله وسلم تسليما كثيرا

أما بعد : فإن التوكل منزل من منازل الدين ، ومقام من مقامات الموقنين . بل هو من معالى درجات المقربين . وهو فى نفسه غامض من حيث العلم ، ثم هو شاق من حيث العمل . ووجه غموضه من حيث الفهم أن ملاحظة الأسباب والاعتماد عليها شرك فى التوحيد ، والتثاقل عنها بالكلية طعن فى السنة وقدح فى الشرع . والاعتماد على الأسباب من غير أن ترى أسبابا تغيير فى وجه العقل ، وانغماس فى غمرة الجهل . وتحقيق معنى التوكل على وجه يتوافق فيه مقتضى التوحيد ، والنقل ، والشرع ، فى غاية الغموض والعسر ، ولا يقوى على كشف هذا الغطاء مع شدة الخفاء إلا سماسرة العلماء ، الذين اكتحلوا من فضل الله تعالى بأنوار الحقائق فأبصروا وتحققوا ، ثم نطقوا بالإعراب عما شاهدوه من حيث استنطقوا

ونحن الآن نبدأ بذكر فضيلة التوكل على سبيل التقدمة ، ثم نردفه بالتوحيد فى الشطر الأول من الكتاب ، ونذكر حال التوكل وعمله فى الشطر الثانى

بيان
فضيلة التوكل

أما من الآيات فقد قال تعالى (وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [١]) وقال عز وجل (وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ [٢]) وقال تعالى (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ [٣]) وقال سبحانه وتعالى (إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ [٤]) وأعظم بمقام موسوم بمحبة الله تعالى صاحبه ومضمون بكفاية الله تعالى ملابسه. فمن الله تعالى حسبه وكافيه، ومحبه ومراعيه، فقد فاز الفوز العظيم. فإن المحبوب لا يعذب، ولا يبعد ولا يحجب

وقال تعالى (أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ [٥]) فطالب الكفاية من غيره هو التارك للتوكل، وهو المكذب لهذه الآية، فإنه سؤال فى معرض استنطاق بالحق، كقوله تعالى (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا [٦])

وقال عز وجل (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [٧]) أى عزيز لا يذل من استجار به، ولا يضيع من لاذ بجنابه، والتجأ إلى ذمامه وحماه. وحكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره . وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ [٨]) بين أن كل ما سوى الله تعالى عبد مسخر، حاجته مثل حاجتكم فكيف يتوكل عليه

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ [٩]) وقال عز وجل (وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ [١٠]) وقال عز وجل (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ [١١]) وكل ما ذكر فى القرآن من التوحيد فهو تنبيه على قطع الملاحظة عن الأغيار والتوكل على الواحد القهار

وأما الأخبار فقد قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه [١] ابن مسعود « أُرِيتُ الْأُمَمَ فِي

(كتاب التوحيد والتوكل)

(١) حديث ابن مسعود أريت الأمم فى الموسم فرأيت أمتى قد ملؤا السهل والجبل ـ الحديث: رواه ابن منيع باسناد حسن واتفق عليه الشيخان من حديث ابن عباس

---

(١) المائدة: ٢٣ (٢) ابراهيم: ١٢ (٣) الطلاق: ٣ (٤) آل عمران: ١٥٩ (٥) الزمر: ٣٦ (٦) الدهر: ١
(٧) الانفال: ٤٩ (٨) الأعراف: ١٩٤ (٩) العنكبوت: ١٧ (١٠) المنافقون: ٧ (١١) يونس: ٣

المَوْسِمِ فرأيتُ أُمَّتِي قد مَلؤوا السَّهلَ والجَبلَ فأعجبتني كثرتُهم وهيأتُهم فقيل لي أرضيت؟ قلتُ نعم قيل ومع هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب » قيل من هم يارسول الله ؟ قال « الذين لا يكتوون ولا يتطيرون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون » فقام عكاشة وقال . يارسول الله ، ادع الله أن يجعلنى منهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللَّهُمَّ اجعلْهُ منهم » فقام آخر فقال . يارسول الله ، ادع الله أن يجعلنى منهم فقال صلى الله عليه وسلم « سَبَقَكَ بها عُكاشةُ »

وقال صلى الله عليه وسلم [١] « لو أنكم تتوكلون على الله حقَّ توكله لرزقكم كما يرزقُ الطيرَ تغدو خِماصاً وتروحُ بِطاناً »

وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « من انقطع إلى الله عزَّ وجلَّ كفاه الله تعالى كلَّ مؤونةٍ ورزقه من حيثُ لا يحتسبُ ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها »

وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « من سرَّه أن يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثقَ منه بما في يديه »

ويروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه [٤] كان إذا أصاب أهله خصاصة قال « قوموا إلى الصلاة » ويقول « بهذا أمرني ربي عزَّ وجلَّ قال عزَّ وجلَّ (وأْمُرْ أهلكَ بالصلاةِ واصطبرْ عليها [١]) الآية

---

(١) حديث لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ـ الحديث : الترمذى والحاكم وصححاه من حديث عمر وقد تقدم

(٢) حديث من انقطع الى الله كفاه الله كل مؤنة ـ الحديث: الطبرانى فى الصغير وابن أبى الدنيا ومن طريقه البيهقى فى الشعب من رواية الحسن عن عمران بن حصين ولم يسمع منه وفيه ابراهيم بن الاشعث تكلم فيه أبو حاتم

(٣) حديث من سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه بما فى يديه :الحاكم والبيهقى فى الزهد من حديث ابن عباس باسناد ضعيف

(٤) حديث كان اذا أصاب أهله خصاصة قال قوموا الى الصلاة ويقول بهذا أمرنى ربى قال تعالى وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها :الطبرانى فى الأوسط من حديث محمد بن حمزه عن عبد الله بن سلام قال كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا نزل بأهله الضيق أمرهم بالصلاة ثم قرأ هذه الآية ومحمد بن حمزة ابن يوسف بن عبد الله بن سلام انما ذكروا له روايته عن أبيه عن جده فيبعد سماعه من جد أبيه

---

(١) طه : ١٣٢

وقال صلى الله عليه وسلم [1] « لَمْ يَتَوَكَّلْ مَنِ اسْتَرْقَى وَاكْتَوَى »

وروي أنه لما قال جبريل لابراهيم عليهما السلام ، وقد رمي إلى النار بالمنجنيق . ألك حاجة ؟ قال أما إليك فلا . وفاءً بقوله . حسبي الله ونعم الوكيل ، إذ قال ذلك حين أخذ ليرمى فأنزل الله تعالى (وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى [1])

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام . ياداود مامن عبد يعتصم بى دون خلقى فتكيده السموٰات والأرض ، إلا جعلت له مخرجا

الآثار فى فضيلة التوكل

وأما الآثار : فقد قال سعيد بن جبير : لدغتنى عقرب ، فأقسمت عليّ أمى لتسترقين فناولت الراقى يدى التى لم تلدغ

وقرأ الخوّاص قوله تعالى (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لَا يَمُوتُ [2]) إلى آخرها فقال: ماينبغى للعبد بعد هذه الآية أن يلجأ إلى أحد غير الله تعالى

وقيل لبعض العلماء في منامه . من وثق بالله تعالى فقد أحرز قوته

وقال بعض العلماء : لايشغلك المضمون لك من الرزق عن المفروض عليك من العمل ، فتضيع أمر آخرتك ، ولاتنال من الدنيا إلا ماقد كتب الله لك

وقال يحيي بن معاذ : فى وجود العبد الرزق من غير طلب دلالة على أن الرزق مأمور بطلب العبد .　وقال إبراهيم بن أدهم . سألت بعض الرهبان من أين تأكل ؟ فقال لى . ليس هذا العلم عندى ولكن سل ربى من أين يطعمنى .

وقال هرم بن حيان لأويس القرنى : أين تأمرنى أن أكون ؟ فأومأ إلى الشام . قال هرم : كيف المعيشة ؟ قال أويس : أف لهذه القلوب ، قد خالطها الشك فما تنفعها الموعظة

وقال بعضهم: متى رضيت بالله وكيلا، وجدت إلى كل خير سبيلا . نسأل الله تعالى حسن الأدب

---

(١) حديث لم يتوكل من استرقى واكتوى : الترمذى وحسنه والنسائى فى الكبرى والطبرانى واللفظ له الا أنه قال أو من حديث المغيرة بن شعبة وقال الترمذى من اكتوى أو استرقى فقد برئ من التوكل وقال النسائى ماتوكل من اكتوى أو استرقى

---

(١) النجم : ٣٧　(٢) الفرقان : ٥٨

بيان

حقيقة التوحيد الذى هو أصل التوكل

اعلم أن التوكل من أبواب الإيمان . وجميع أبواب الإيمان لاتنتظم إلا بعلم ، وحال ، وعمل . والتوكل كذلك ينتظم من علم هو الأصل ، وعمل هو الثمرة ، وحال هو المراد باسم التوكل

فلنبدأ ببيان العلم الذى هو الأصل ، وهو المسمى إيمانا فى أصل اللسان ، إذ الإيمان هو التصديق ، وكل تصديق بالقلب فهو علم ، وإذا قوي سمي يقينا . ولكن أبواب اليقين كثيرة ، ونحن إنما نحتاج منها إلى مانبنى عليه التوكل ، وهو التوحيد ، الذى يترجمه قولك لاإله إلا الله وحده لاشريك له ، والإيمان بالقدرة التى يترجم عنها قولك . له الملك . والإيمان بالجود والحكمة الذى يدل عليه قولك . وله الحمد ، فمن قال لاإله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، تمّ له الإيمان الذى هو أصل التوكل ، أعنى أن يصير معنى هذا القول وصفا لازما لقلبه ، غالبا عليه

فأما التوحيد فهو الأصل . والقول فيه يطول . وهو من علم المكاشفة . ولكن بعض علوم المكاشفات متعلق بالأعمال بواسطة الأحوال ، ولا يتم علم المعاملة إلا بها . فإذاً لا نتعرض إلا للقدر الذى يتعلق بالمعاملة . وإلا فالتوحيد هو البحر الخضم الذى لاساحل له فنقول :

مراتب التوحيد

للتوحيد أربع مراتب : وهو ينقسم إلى لب ، وإلى لب اللب ، وإلى قشر ، وإلى قشر القشر . ولنمثل ذلك تقريبا إلى الأفهام الضعيفة بالجوز فى قشرته العليا ، فإن له قشرتين ، وله لب ، وللب دهن هو لب اللب

فالرتبة الأولى : من التوحيد هي أن يقول الإنسان بلسانه لاإله إلا الله ، وقلبه غافل عنه ، أو منكر له ، كتوحيد المنافقين

والثانية : أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه ، كما صدق به عموم المسلمين ، وهو اعتقاد العوام

والثالثة : أن يشاهد ذلك بطريق الكشف ، بواسطة نور الحق ، وهو مقام المقربين وذلك بأن يرى أشياء كثيرة ، ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار

والرابعة : أن لايرى فى الوجود إلا واحدا ، وهي مشاهدة الصديقين ، وتسميه الصوفية الفناء فى التوحيد ، لأنه من حيث لايرى إلا واحدا فلا يرى نفسه أيضا . وإذا لم ير نفسه

لكونه مستغرقا بالتوحيد كان فانيا عن نفسه في توحيده، بمعنى أنه فني عن رؤية نفسه والخلق

فالأول : موحد بمجرد اللسان ، ويعصم ذلك صاحبه في الدنيا عن السيف والسنان

والثاني : موحد بمعنى أنه معتقد بقلبه مفهوم لفظه ، وقلبه خال عن التكذيب بما انعقد عليه قلبه ، وهو عقدة على القلب ليس فيه انشراح وانفساح ، ولكنه يحفظ صاحبه من العذاب في الآخرة إن توفي عليه ، ولم تضعف بالمعاصي عقدته . ولهذا العقد حيل يقصد بها تضعيفه وتحليله تسمى بدعة . وله حيل يقصد بها دفع حيلة التحليل والتضعيف ، ويقصد بها أيضا إحكام هذه العقدة وشدها على القلب ، وتسمى كلاما ، والعارف به يسمى متكلما . وهو في مقابلة المبتدع ، ومقصده دفع المبتدع عن تحليل هذه العقدة عن قلوب العوام . وقد يخص المتكلم باسم الموحد ، من حيث إنه يحمي بكلامه مفهوم لفظ التوحيد على قلوب العوام ، حتى لا تنحل عقدته

والثالث : موحد بمعنى أنه لم يشاهد إلا فاعلا واحدا ، إذا انكشف له الحق كما هو عليه ولا يرى فاعلا بالحقيقة إلا واحدا . وقد انكشفت له الحقيقة كما هي عليه ، لأنه كلف قلبه أن يعقد على مفهوم لفظ الحقيقة ، فإن تلك رتبة العوام والمتكلمين ، إذ لم يفارق المتكلم العامي في الاعتقاد ، بل في صنعة تلفيق الكلام الذي به يدفع حيل المبتدع عن تحليل هذه العقدة

والرابع : موحد بمعنى أنه لم يحضر في شهوده غير الواحد ، فلا يرى الكل من حيث إنه كثير ، بل من حيث إنه واحد . وهذه هي الغاية القصوى في التوحيد

فالأول كالقشرة العليا من الجوز ، والثاني كالقشرة السفلى ، والثالث كاللب ، والرابع كالدهن المستخرج من اللب ،

وكما أن القشرة العليا من الجوز لا خير فيها ، بل إن أكل فهو مر المذاق ، وإن نظر إلى باطنه فهو كريه المنظر ، وإن اتخذ حطبا أطفأ النار وأكثر الدخان ، وإن ترك في البيت ضيق المكان ، فلا يصلح إلا أن يترك مدة على الجوز للصون ، ثم يرمي به عنه ، فكذلك التوحيد بمجرد اللسان دون التصديق بالقلب عديم الجدوى كثير الضرر ، مذموم الظاهر والباطن . لكنه ينفع مدة في حفظ القشرة السفلى إلى وقت الموت ، والقشرة السفلى هي القلب والبدن . وتوحيد المنافق يصون بدنه عن سيف الغزاة ، فإنهم لم يؤمروا بشق

القلوب ، والسيف إنما يصيب جسم البدن وهو القشرة . وإنما يتجرد عنه بالموت فلا يبقى لتوحيده فائدة بعده . وكما أن القشرة السفلى ظاهرة النفع بالإضافة إلى القشرة العليا ، فإنها تصون اللب وتحرسه عن الفساد عند الادخار ، وإذا فصلت أمكن أن ينتفع بها حطبا لكنها نازلة القدر بالإضافة إلى اللب ، وكذلك مجرد الاعتقاد من غير كشف كثير النفع بالإضافة إلى مجرد نطق اللسان ، ناقص القدر بالإضافة إلى الكشف والمشاهدة التى تحصل بانشراح الصدر وانفساحه ، وإشراق نور الحق فيه . إذ ذاك الشرح هو المراد بقوله تعالى (فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ [1]) وبقوله عزوجل (أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ [2])

وكما أن اللب نفيس فى نفسه بالإضافة إلى القشر ، وكله المقصود ، ولكنه لايخلو عن شوب عصارة بالإضافة إلى الدهن المستخرج منه ، فكذلك توحيد الفعل مقصد عال للسالكين ، لكنه لايخلو عن شوب ملاحظة الغير ، والالتفات إلى الكثرة بالإضافة إلى من لايشاهد سوى الواحد الحق

فإن قلت : كيف يتصور أن لايشاهد إلا واحدا ، وهو يشاهد السماء، والأرض ، وسائر الأجسام المحسوسة وهي كثيرة ، فكيف يكون الكثير واحدا ؟

فاعلم أن هذه غاية علوم المكاشفات . وأسرار هذا العلم لايجوز أن تسطر فى كتاب فقد قال العارفون إفشاء سر الربوبية كفر . ثم هو غير متعلق بعلم المعاملة . نعم ذكر ما يكسر سورة استبعادك ممكن وهو أن الشيء قد يكون كثيرا بنوع مشاهدة واعتبار ، ويكون واحدا بنوع آخر من المشاهدة والاعتبار . وهذا كما أن الإنسان كثير إن التفت إلى روحه ، وجسده ، وأطرافه وعروقه ، وعظامه ، وأحشائه ، وهو باعتبار آخر ومشاهدة أخرى واحد ، إذ نقول إنه إنسان واحد . فهو بالإضافة إلى الإنسانية واحد . وكم من شخص يشاهد إنسانا ولا يخطر بباله كثرة أمعائه ، وعروقه ، وأطرافه ، وتفصيل روحه ، وجسده ، وأعضائه . والفرق بينهما أنه فى حالة الاستغراق والاستهتار به مستغرق بواحد ليس فيه تفريق ، وكأنه فى عين الجمع ، والملتفت إلى الكثرة فى تفرقة

---

(١) الأنعام : ١٢٥ (٢) الزمر : ٢٢

فكذلك كل ما فى الوجود من الخالق والمخلوق له اعتبارات ومشاهدات كثيرة مختلفة. فهو باعتبار واحد من الاعتبارات واحد، وباعتبارات أخر سواه كثير. وبعضها أشد كثرة من بعض. ومثاله الإنسان، وإن كان لا يطابق الغرض، ولكنه ينبه فى الجملة على كيفية مصير الكثرة فى حكم المشاهدة واحدا

ويستبين بهذا الكلام ترك الإنكار والجحود لمقام لم تبلغه، وتؤمن به إيمان تصديق، فيكون لك من حيث إنك مؤمن بهذا التوحيد نصيب، وإن لم يكن ما آمنت به صفتك. كما أنك إذا آمنت بالنبوة، وإن لم تكن نبيا، كان لك نصيب منه بقدر قوة إيمانك

وهذه المشاهدة التى لا يظهر فيها إلا الواحد الحق تارة تدوم، وتارة تطرأ كالبرق الخاطف وهو الأكثر. والدوام نادر عزيز. وإلى هذا أشار الحسين بن منصور الحلاج، حيث رأى الخوّاص يدور فى الأسفار فقال. فيماذا أنت؟ فقال أدور فى الأسفار لأصحح حالتى فى التوكل، وقد كان من المتوكلين، فقال الحسين. قد أفنيت عمرك فى عمران باطنك، فأين الفناء فى التوحيد؟ فكأن الخواص كان فى تصحيح المقام الثالث فى التوحيد، فطالبه بالمقام الرابع، فهذه مقامات الموحدين فى التوحيد على سبيل الإجمال

فإن قلت: فلابد لهذا من شرح بمقدار ما يفهم كيفية ابتناء التوكل عليه فأقول:

شرح مقامات التوحيد

أما الرابع: فلا يجوز الخوض فى بيانه. وليس التوكل أيضا مبنيا عليه. بل يحصل حال التوكل بالتوحيد الثالث. وأما الأول: وهو النفاق فواضح.

وأما الثانى: وهو الاعتقاد فهو موجود فى عموم المسلمين، وطريق تأكيده بالكلام ودفع حيل المبتدعة فيه مذكور فى علم الكلام وقد ذكرنا فى كتاب الاقتصاد فى الاعتقاد القدر المهم منه

واما الثالث: فهو الذى ينبنى عليه التوكل. إذ مجرد التوحيد بالاعتقاد لا يورث حال التوكل، فلنذكر منه القدر الذى يرتبط التوكل به دون تفصيله الذى لا يحتمله أمثال هذا الكتاب

وحاصله أن ينكشف لك أن لا فاعل إلا الله تعالى، وأن كل موجود من خلق، ورزق، وعطاء، ومنع، وحياة، وموت، وغنى، وفقر، إلى غير ذلك مما ينطلق عليه اسم، فالمنفرد بإبداعه واختراعه هو الله عز وجل، لا شريك له فيه. وإذا انكشف لك هذا لم تنظر إلى غيره،

بل كان منه خوفك ، وإليه رجاؤك ، وبه ثقتك ، وعليه اتكالك . فإنه الفاعل على الانفراد دون غيره ، وماسواه مسخرون لا استقلال لهم بتحريك ذرة من ملكوت السموات والأرض . وإذا انفتحت لك أبواب المكاشفة اتضح لك هذا اتضاحا أتم من المشاهدة بالبصر

وإنما يصدك الشيطان عن هذا التوحيد في مقام يبتغى به أن يطرق إلى قلبك شائبة الشرك بسببين : أحدهما : الالتفات إلى اختيار الحيوانات ، والثانى : الالتفات إلى الجمادات

أما الالتفات إلى الجمادات فكاعتمادك على المطر فى خروج الزرع ونباته ونمائه ، وعلى الغيم فى نزول المطر ، وعلى البرد فى اجتماع الغيم ، وعلى الريح فى استواء السفينة وسيرها . وهذا كله شرك فى التوحيد ، وجهل بحقائق الأمور . ولذلك قال تعالى (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ [(١)]) قيل معناه أنهم يقولون لولا استواء الريح لما نجونا

ومن انكشف له أمر العالم كما هو عليه ، علم أن الريح هو الهواء ، والهواء لا يتحرك بنفسه مالم يحركه محرك ، وكذلك محركه ، وهكذا إلى أن ينتهي إلى المحرك الأول الذي لا محرك له ، ولا هو متحرك فى نفسه عز وجل . فالتفات العبد فى النجاة إلى الريح يضاهى التفات من أخذ لتحز رقبته ، فكتب الملك توقيعا بالعفو عنه وتخليته ، فأخذ يشتغل بذكر الحبر والكاغد والقلم الذى به كتب التوقيع يقول : لولا القلم لما تخلصت ؛ فيرى نجاته من القلم لا من محرك القلم ، وهو غاية الجهل . ومن علم أن القلم لا حكم له فى نفسه ، وإنما هو مسخر فى يد الكاتب ، لم يلتفت إليه ، ولم يشكر إلا الكاتب . بل ربما يدهشه فرح النجاة ، وشكر الملك والكاتب ، من أن يخطر بباله القلم ، والحبر ، والدواة . والشمس ، والقمر ، والنجوم ، والمطر ، والغيم ، والأرض ، وكل حيوان وجماد مسخرات فى قبضة القدرة ، كتسخير القلم فى يد الكاتب . بل هذا تمثيل فى حقك لاعتقادك أن الملك الموقع هو الكاتب التوقيع . والحق أن الله تبارك وتعالى هو الكاتب ، لقوله تعالى (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى [(٢)])

فإذا انكشف لك أن جميع ما فى السموات وما فى الأرض مسخرات على هذا الوجه انصرف عنك الشيطان خائبا وأيس عن مزج توحيدك بهذا الشرك ، فأتاك فى المهلكة

---

(١) العنكبوت : ٦٥ (٢) الانفال : ١٧

الثانية ، وهي الالتفات إلى اختيار الحيوانات فى الأفعال الاختيارية ، ويقول : كيف ترى الكل من الله وهذا الإنسان يعطيك رزقك باختياره ، فإن شاء أعطاك، وإن شاء قطع عنك وهذا الشخص هو الذى يحز رقبتك بسيفه ، وهو قادر عليك ، إن شاء حزّ رقبتك ، وإن شاء عفا عنك ، فكيف لاتخافه ، وكيف لاترجوه ، وأمرك بيده ، وأنت تشاهد ذلك ولا تشك فيه ؟ ويقول له أيضا : نعم إن كنت لاترى القلم لأنه مسخر ، فكيف لا ترى الكاتب بالقلم وهو المسخر له ؟

وعند هذا زل أقدام الأكثرين ، إلا عباد الله المخلصين ، الذين لا سلطان عليهم للشيطان اللعين فشاهدوا بنور البصائر كون الكاتب مسخرا مضطرا ، كما شاهد جميع الضعفاء كون القلم مسخرا . وعرفوا أن غلط الضعفاء فى ذلك كغلط النملة مثلا لو كانت تدب على الكاغد، فترى رأس القلم يسود الكاغد ! ولم يمتد بصرها إلى اليد والأصابع فضلا عن صاحب اليد ؛ فغلطت وظنت أن القلم هو المسود للبياض ، وذلك لقصور بصرها عن مجاوزة رأس القلم لضيق حدقتها

فكذلك من لم ينشرح بنور الله تعالى صدره للإسلام ، قصرت بصيرته عن ملاحظة جبار السموات والأرض ، ومشاهدة كونه قاهرا وراء الكل ، فوقف فى الطريق على الكاتب وهو جهل محض . بل أرباب القلوب والمشاهدات قد أنطق الله تعالى فى حقهم كل ذرة فى السموات والأرض ! بقدرته التى بها نطق كل شىء ، حتى سمعوا تقديسها وتسبيحها لله تعالى ، وشهادتها على نفسها بالعجز بلسان ذلق ، تتكلم بلا حرف ولا صوت ، لا يسمعه الذين هم عن السمع معزولون . ولست أعنى به السمع الظاهر الذى لا يجاوز الأصوات ، فإن الحمار شريك فيه ، ولا قدر لما يشارك فيه البهائم وإنما أريد به سمعا يدرك به كلام ليس بحرف ولا صوت ، ولا هو عربي ولا عجمي

فإن قلت . فهذه أعجوبة لا يقبلها العقل ، فصف لى كيفية نطقها ، وأنها كيف نطقت ، وماذا نطقت ، وكيف سبحت وقدست ، وكيف شهدت على نفسها بالعجز؟

فاعلم أن لكل ذرة فى السموات والأرض مع أرباب القلوب مناجاة فى السر . وذلك مما لا ينحصر ولا يتناهى . فإنها كلمات تستمد من بحر كلام الله تعالى الذى لا نهاية له .

(قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ [١]) الآية. ثم إنها تناجي بأسرار الملك والملكوت ، وإفشاء السر لؤم ، بل صدور الأحرار قبور الأسرار . وهل رأيت قط أمينا على أسرار الملك ، قد نوجي بخفاياه ، فنادى بسره على ملأ من الخلق ، ولو جاز إفشاء كل سر لنا لما قال صلى الله عليه وسلم [١] « لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً » بل كان يذكر ذلك لهم حتى يبكون ولا يضحكون . ولما [٢] نهي عن إفشاء سر القدر ولما قال [٣] « إِذَا ذُكِرَ النُّجُومُ فَأَمْسِكُوا وَإِذَا ذُكِرَ الْقَدَرُ فَأَمْسِكُوا وَإِذَا ذُكِرَ أَصْحَابِي فَأَمْسِكُوا » ولما [٤] خص حذيفة رضي الله عنه ببعض الأسرار

فإذاً عن حكايات مناجاة ذرات الملك والملكوت لقلوب أرباب المشاهدات مانعان

أحدهما : استحالة إفشاء السر

والثاني : خروج كلماتها عن الحصر والنهاية . ولكنا في المثال الذي كنا فيه ، وهي حركة القلم ، نحكي من مناجاتها قدرا يسيرا يفهم به على الإجمال كيفية ابتناء التوكل عليه ، ونرد كلماتها إلى الحروف والأصوات ، وإن لم تكن هي حروفا وأصواتا ، ولكن هي ضرورة التفهيم فنقول:

قال بعض الناظرين عن مشكاة نور الله تعالى للكاغد ، وقد رآه اسود وجهه بالحبر . مابال وجهك كان أبيض مشرقا ، والآن قد ظهر عليه السواد ؟ فلم سودت وجهك ؟ وما السبب فيه ؟ فقال الكاغد ما أنصفتني في هذه المقالة ، فإني ما سودت وجهي بنفسي ، ولكن سل الحبر ، فإنه كان مجموعا في المحبرة التي هي مستقره ووطنه ، فسافر عن الوطن ، ونزل بساحة وجهي ظلما وعدوانا . فقال صدقت

فسأل الحبر عن ذلك فقال . ما أنصفتني ، فإني كنت في المحبرة وادعا ساكنا ، عازما على أن لا أبرح منها ، فاعتدى علي القلم بطمعه الفاسد ، واختطفني من وطني ، وأجلاني عن بلادي

---

(١) حديث لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا - الحديث : تقدم غير مرة

(٢) حديث النهي عن افشاء سر القدر : ابن عدي وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر القدر سر الله فلا تفشوا لله عز وجل سره لفظ أبي نعيم وقال ابن عدي لا تكلموا في القدر فانه سر الله - الحديث : وهو ضعيف وقد تقدم

(٣) حديث اذا ذكر النجوم فأمسكوا واذا ذكر القدر فأمسكوا - الحديث : الطبراني وابن حبان في الضعفاء وتقدم في العلم

(٤) حديث انه خص حذيفة ببعض الاسرار : تقدم

---

(١) الكهف : ١٩٠

وفرق جمعي ، وبددني كما ترى على ساحة بيضاء ، فالسؤال عليه لا عليّ . فقال صدقت

ثم سأل القلم عن السبب في ظلمه وعدوانه ، وإخراج الحبر من أوطانه . فقال . سل اليد والأصابع ، فإني كنت قصبا نابتا على شط الأنهار ، متنزها بين خضرة الأشجار ، فجاءتني اليد بسكين ، فنحت عني قشري ، ومزقت عني ثيابي ، واقتلعتني من أصلي ، وفصلت بين أنابيبي ، ثم برتني وشقت رأسي ، ثم غمستني في سواد الحبر ومرارته ، وهي تستخدمني وتمشيني على قمة رأسي ، ولقد نثرت الملح على جرحي بسؤالك وعتابك ، فتنح عني وسل من قهرني . فقال صدقت

ثم سأل اليد عن ظلمها وعدوانها على القلم واستخدامها له ، فقالت اليد . ما أنا إلا لحم وعظم ودم ، وهل رأيت لحما يظلم ، أو جسما يتحرك بنفسه ؟ وإنما أنا مركب مسخر ، ركبني فارس يقال له القدرة والعزة ، فهي التي ترددني وتجول بي في نواحي الأرض. أما ترى المدر ، والحجر ، والشجر ، لا يتعدى شيء منها مكانه . ولا يتحرك بنفسه ، إذ لم يركبه مثل هذا الفارس القوي القاهر ؟ أما ترى أيدي الموتى تساويني في صورة اللحم والعظم والدم ، ثم لا معاملة بينها وبين القلم ؟ فأنا أيضا من حيث أنا لا معاملة بيني وبين القلم ، فسل القدرة عن شأني ، فإني مركب أزعجني من ركبني . فقال صدقت

ثم سأل القدرة عن شأنها في استعمالها اليد ، وكثرة استخدامها وترديدها ، فقالت دع عنك لومي ومعاتبتي ، فكم من لائم ملوم ، وكم من ملوم لا ذنب له . وكيف خفي عليك أمري ، وكيف ظننت أني ظلمت اليد لما ركبتها ، وقد كنت لها راكبة قبل التحريك ؛ وما كنت أحركها ولا أستسخرها ، بل كنت نائمة ساكنة نوما ظن الظانون بي أني ميتة أو معدومة ، لأني ما كنت أتحرك ولا أحرك ، حتى جاءني موكل أزعجني وأرهقني إلى ما تراه مني فكانت لي قوة على مساعدته ، ولم تكن لي قوة على مخالفته . وهذا الموكل يسمى الإرادة ، ولا أعرفه إلا باسمه وهجومه وصياله إذ أزعجني من غمرة النوم ، وأرهقني إلى ما كان لي مندوحة عنه لو خلاني ورأيي . فقال صدقت

ثم سأل الإرادة ما الذي جرأك على هذه القدرة الساكنة المطمئنة ، حتى صرفتها إلى التحريك ، وأرهقتها إليه إرهاقا لم تجد عنه مخلصا ولا مناصا ؟ فقالت الإرادة : لا تعجل عليّ

فلعل لنا عذرا وأنت تلوم ، فإنى ماانتهضت بنفسى ولكن أنهضت . وماانبعثت ولكنى بعثت بحكم قاهر وأمر جازم . وقد كنت ساكنة قبل مجيئه ، ولكن وردعلي من حضرة القلب رسول العلم على لسان العقل ، بالإشخاص للقدرة ، فأشخصتها باضطرار . فإنى مسكينة مسخرة تحت قهر العلم والعقل ، ولاأدرى بأي جرم وقفت عليه ، وسخرت له ، وألزمت طاعته . لكنى أدرى أنى فى دعة وسكون مالم يرد علي هذا الوارد القاهر ، وهذا الحاكم العادل أو الظالم ، وقد وقفت عليه وقفا ، وألزمت طاعته إلزاما ، بل لايبقى لى معه مهما جزم حكمه طاقة على المخالفة . لعمرى مادام هو فى التردد مع نفسه ، والتحير فى حكمه ، فأناساكنة لكن مع استشعار وانتظار لحكمه . فإذا انجزم حكمه أزعجت بطبع وقهر تحت طاعته وأشخصت القدرة لتقوم بموجب حكمه . فسل العلم عن شأنى ، ودع عنى عتابك فإنى كما قال القائل

متى ترحلت عن قوم وقد قدروا أن لا تفارقهم فالراحلون هم

فقال صدقت

وأقبل على العلم والعقل والقلب مطالبا لهم ، ومعاتبا إياهم على استنهاض الإرادة وتسخيرها لإشخاص القدرة . فقال العقل : أما أنا فسراج مااشتعلت بنفسى ولكن أشعلت وقال القلب . أماأنا فلوح ماانبسطت بنفسى ولكن بسطت . وقال العلم : أماأنا فنقش نقشت فى بياض لوح القلب لما أشرق سراج العقل ، وماانخططت بنفسى . فكم كان هذا اللوح قبل خاليا عنى فسل القلم عنى ، لأن الخط لايكون إلا بالقلم

فعند ذلك تتعتع السائل ولم يقنعه جواب . وقال : قد طال تعبى فى هذا الطريق ، وكثرت منازلى ، ولا يزال يحيلنى من طمعت فى معرفة هذا الأمر منه على غيره ، ولكنى كنت أطيب نفسا بكثرة الترداد لما كنت أسمع كلاما مقبولا فى الفؤاد ؛ وعذرا ظاهرا فى دفع السؤال . فأما قولك إنى خط ونقش ، وإنما خطنى قلم فلست أفهمه ، فإنى لاأعلم قلما إلا من القصب ، ولا لوحا إلا من الحديد أو الخشب ، ولا خطا إلا بالحبر . ولاسراجا إلا من النار . وإنى لأسمع فى هذا المنزل حديث اللوح ، والسراج ، والخط ، والقلم ولا أشاهد من ذلك شيئا . أسمع جعجعة ولا أرى طحنا . فقال له العلم : إن صدقت فيما قلت فبضاعتك مزجاة ، وزادك قليل ، ومركبك ضعيف ، واعلم أن المهالك فى الطريق التى توجهت

إليها كثيرة . فالصواب لك أن تنصرف وتدع ما أنت فيه ، فما هذا بعشك فادرج عنه ، فكل ميسر لما خلق له

طريق توحيد السالكين

وإن كنت راغبا فى استتمام الطريق إلى المقصد ، فألق سمعك وأنت شهيد ، واعلم أن العوالم فى طريقك هذا ثلاثة : عالم الملك والشهادة أولها ، ولقد كان الكاغد ، والحبر ، والقلم واليد من هذا العالم ، وقد جاوزت تلك المنازل على سهولة

والثانى : عالم الملكوت ، وهو ورائى . فإذا جاوزتنى انتهيت إلى منازله ، وفيه المهامه ، والفيح ، والجبال الشاهقة ، والبحار المغرقة ، ولا أدرى كيف تسلم فيها

والثالث : وهو عالم الجبروت ، وهو بين عالم الملك وعالم الملكوت . ولقد قطعت منها ثلاث منازل فى أوائلها ، منزل القدرة ، والإرادة ، والعلم ، وهو واسطة بين عالم الملك والشهادة والملكوت ، لأن عالم الملك أسهل منه طريقا ، وعالم الملكوت أوعر منه منهجا . وإنما عالم الجبروت بين عالم الملك وعالم الملكوت يشبه السفينة التى هي فى الحركة بين الأرض والماء ، فلا هي فى حد اضطراب الماء ، ولا هي فى حد سكون الأرض وثباتها . وكل من يمشى على الأرض يمشى فى عالم الملك والشهادة ، فإن جاوزت قوته إلى أن يقوى على ركوب السفينة كان كمن يمشى فى عالم الجبروت . فإن انتهى إلى أن يمشي على الماء من غير سفينة مشى فى عالم الملكوت من غير تتعتع

فإن كنت لا تقدر على المشي على الماء فانصرف ، فقد جاوزت الأرض ، وخلفت السفينة ولم يبق بين يديك إلا الماء الصافى : وأول عالم الملكوت مشاهدة القلم الذى يكتب به العلم فى لوح القلب ، وحصول اليقين الذى يمشى به على الماء . أما سمعت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عيسى عليه السلام « لَوِ ازْدَادَ يَقِينًا لَمَشَى عَلَى الْهَوَاءِ » لما [1] قيل له إنه كان يمشى على الماء

فقال السالك السائل . قد تحيرت فى أمرى واستشعر قلبي خوفا مما وصفته من خطر الطريق ، ولست أدرى أطيق قطع هذه المهامه التى وصفتها أم لا ؛ فهل لذلك من علامة؟

قال نعم . إفتح بصرك ، واجمع ضوء عينيك ، وحدقه نحوى ، فإن ظهر لك القلم الذى به أكتب فى لوح القلب ، فيشبه أن تكون أهلا لهذا الطريق ، فإن كل من جاوز عالم

---

(١) حديث قيل له ان عيسى يمشى على الماء قال لو ازداد يقينا لمشى على الهواء : تقدم

الجبروت ، وقرع بابا من أبواب الملكوت ، كوشف بالقلم . أما ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم فى أول أمره كوشف بالقلم ، إذ أنزل عليه (اِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ [1])

فقال السالك : لقد فتحت بصرى وحدقته ، فو الله ما أرى قصبا ولا خشبا ، ولا أعلم قلما إلا كذلك . فقال العلم . لقد أبعدت النجعة . أما سمعت أن متاع البيت يشبه رب البيت ؟ أما علمت أن الله تعالى لاتشبه ذاته سائر الذوات ، فكذلك لاتشبه يده الأيدى ولا قلمه الأقلام ، ولا كلامه سائر الكلام ، ولا خطه سائر الخطوط ؟ وهذه أمور إلهية من عالم الملكوت . فليس الله تعالى فى ذاته بجسم ، ولا هو فى مكان ، بخلاف غيره . ولا يده لحم وعظم ودم ، بخلاف الأيدى . ولا قلمه من قصب . ولا لوحه من خشب ، ولا كلامه بصوت وحرف ، ولا خطه رقم ورسم ، ولا حبره زاج وعفص . فإن كنت لاتشاهد هذا هكذا فما أراك إلا مخنثا بين فحولة التنزيه ، وأنوثة التشبيه ، مذبذبا بين هذا وذا ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . فكيف نزهت ذاته وصفاته تعالى عن الأجسام وصفاتها ، ونزهت كلامه عن معانى الحروف والأصوات ، وأخذت تتوقف فى يده ، وقلمه ، ولوحه ، وخطه ؟ فإن كنت قد فهمت من قوله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ » الصورة الظاهرة المدركة بالبصر ، فكن مشبها مطلقا ، كما يقال كن يهوديا صرفا . وإلا فلا تلعب بالتوراة ، وإن فهمت منه الصورة الباطنة التى تدرك بالبصائر لا بالأبصار ، فكن منزها صرفا ، ومقدسا فحلا ، واطو الطريق فإنك بالواد المقدس طوى ، واستمع بسر قلبك لما يوحى ، فلعلك تجد على النار هدى ، ولعلك من سرادقات العرش تنادى بما نودي به موسى (إِنِّي أَنَا رَبُّكَ [2])

فلما سمع السالك من العلم ذلك استشعر قصور نفسه ، وأنه مخنث بين التشبيه والتنزيه ، فاشتعل قلبه نارا من حدة غضبه على نفسه لما رآها بعين النقص ، ولقد كان زيته الذى فى مشكاة قلبه يكاد يضىء ولو لم تمسسه نار ، فلما نفخ فيه العلم بحدته اشتعل زيته فأصبح نورا على نور . فقال له العلم : اغتنم الآن هذه الفرصة ، وافتح بصرك ، لعلك تجد على النار هدى . ففتح بصره

---

(1) العلق : ٣ ، ٤ ، ٥ (2) طه : ١٢

فانكشف له القلم الإلهي ، فإذا هو كما وصفه العلم في التنزيه ، ماهو من خشب ولا قصب ، ولا له رأس ولا ذنب ، وهو يكتب على الدوام في قلب البشر كلهم أصناف العلوم ، وكان له في كل قلب رأسا ولا رأس له . فقضى منه العجب وقال . نعم الرفيق العلم ، فجزاه الله تعالى عني خيرا ، إذ الآن ظهر لي صدق أنبائه عن أوصاف القلم فإني أراه قلما لا كالأقلام

فعند هذا ودع العلم وشكره ، وقال : قد طال مقامي عندك ، ومرادي لك ، وأنا عازم على أن أسافر إلى حضرة القلم ، وأسأله عن شأنه . فسافر إليه ، وقال له : مابالك أيها القلم تخط على الدوام في القلوب من العلوم ماتبعث به الإرادات إلى أشخاص القدر وصرفها إلى المقدورات؟ فقال أوقد نسيت ما رأيت في عالم الملك والشهادة ، وسمعت من جواب القلم إذ سألته ، فأحالك على اليد ؟ قال لم أنس ذلك . قال فجوابي مثل جوابه . قال كيف وأنت لا تشبهه ؟ قال القلم أما سمعت أن الله تعالى خلق آدم على صورته ؟ قال نعم . قال فسل عن شأني الملقب بيمين الملك ، فإني في قبضته ، وهو الذي يرددني ، وأنا مقهور مسخر ، فلا فرق بين القلم الإلهي وقلم الآدمي في معنى التسخير ، وإنما الفرق في ظاهر الصورة . فقال فمن يمين الملك ؟ فقال القلم : أما سمعت قوله تعالى (وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ [1]) قال نعم . قال والأقلام أيضا في قبضة يمينه ، هو الذي يرددها . فسافر السالك من عنده إلى اليمين حتى شاهده ، ورأى من عجائبه ما يزيد على عجائب القلم ، لا يجوز وصف شيء من ذلك ولا شرحه ، بل لا تحوي مجلدات كثيرة عشر عشير وصفه . والجملة فيه أنه يمين لا كالأيمان ، ويد لا كالأيدي ، وأصبع لا كالأصابع . فرأى القلم محركا في قبضته . فظهر له عذر القلم . فسأل اليمين عن شأنه وتحريكه للقلم فقال : جوابي مثل ما سمعته من اليمين التي رأيتها في عالم الشهادة ، وهي الحوالة على القدرة ، إذ اليد لا حكم لها في نفسها ، وإنما محركها القدرة لا محالة .

فسافر السالك إلى عالم القدرة ، ورأى فيه من العجائب ما استحقر عندها ما قبله . وسألها عن تحريك اليمين . فقالت إنما أنا صفة ، فاسأل القادر ، إذ العمدة على الموصوفات لا على الصفات

وعند هذا كاد أن يزيغ ويطلق بالجراءة لسان السؤال ، فثبت بالقول الثابت ونودي من وراء حجاب سرادقات الحضرة (لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ [2]) فغشيته هيبة

(١) الزمر : ٦٧ (٢) الأنبياء : ٢٣

الحضرة، فخر صعقا يضطرب في غشيته . فلما أفاق قال سبحانك ما أعظم شأنك، تبت إليك، وتوكلت عليك، وآمنت بأنك الملك، الجبار، الواحد القهار، فلا أخاف غيرك، ولا أرجو سواك، ولا أعوذ إلا بعفوك من عقابك، وبرضاك من سخطك ، ومالى إلا أن أسألك وأتضرع إليك، وأبتهل بين يديك فأقول . اشرح لى صدرى لأعرفك ، واحلل عقدة من لسانى لأثني عليك

فنودى من وراء الحجاب . إياك أن تطمع فى الثناء ، وتزيد على سيد الأنبياء . بل ارجع إليه ، فما آتاك فخذه، وما نهاك عنه فانته عنه، وما قاله لك فقله. فإنه ما زاد فى هذه الحضرة على أن قال

« سُبْحَانَكَ لا أُحْصِى ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ »[١]

فقال إلهى إن لم يكن للسان جراءة على الثناء عليك ، فهل للقلب مطمع فى معرفتك ؟ فنودي : إياك أن تتخطى رقاب الصديقين ، فارجع إلى الصديق الأكبر فاقتد به ، فإن أصحاب سيد الأنبياء كالنجوم ، بأيهم اقتديتم اهتديتم . أما سمعته يقول : العجز عن درك الإدراك إدراك ؟ فيكفيك نصيبا من حضرتنا أن تعرف أنك محروم عن حضرتنا ، عاجز عن ملاحظة جمالنا وجلالنا

فعند هذا رجع السالك واعتذر عن أسئلته ومعاتباته ، وقال لليمين ، والقلم ، والعلم ، والإرادة ، والقدرة ، وما بعدها . اقبلوا عذرى ، فإنى كنت غريبا حديث العهد بالدخول فى هذه البلاد ، ولكل داخل دهشة ، فما كان إنكارى عليكم إلا عن قصور وجهل ، والآن قد صح عندى عذركم ، وانكشف لى أن المنفرد بالملك والملكوت ، والعزة والجبروت ، هو الواحد القهار ، فما أنتم إلا مسخرون تحت قهره وقدرته ، مرددون فى قبضته ، وهو الأول ، والآخر ، والظاهر ، والباطن

وجه وصف الله بالمتناقضين

فلما ذكر ذلك فى عالم الشهادة استبعد منه ذلك ، وقيل له : كيف يكون هو الأول والآخر ، وهما وصفان متناقضان ؟ وكيف يكون هو الظاهر والباطن ؟ فالأول ليس بآخر والظاهر ليس بباطن . فقال : هو الأول بالإضافة إلى الموجودات ، إذ صدر منه الكل على ترتيبه واحدا بعد واحد . وهو الآخر بالإضافة إلى سير السائرين إليه ، فإنهم لا يزالون مترقين من منزل إلى منزل إلى أن يقع الانتهاء إلى تلك الحضرة ، فيكون ذلك آخر السفر

(١) حديث سبحانك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك : تقدم

فهو آخر فى المشاهدة، أول فى الوجود

وهو باطن بالإضافة إلى العاكفين فى عالم الشهادة، الطالبين لإدراكه بالحواس الخمس ظاهر بالإضافة إلى من يطلبه فى السراج الذى اشتعل فى قلبه بالبصيرة الباطنة، النافذة فى عالم الملكوت . فهكذا كان توحيد السالكين لطريق التوحيد فى الفعل ، أعنى من انكشف له أن الفاعل واحد.

فإن قلت : فقد انتهى هذا التوحيد إلى أنه يبتنى على الإيمان بعالم الملكوت ، فمن لم يفهم ذلك أو يجحده فما طريقه ؟

علاج جاحد طريق السالكين

فأقول أما الجاحد فلا علاج له إلا أن يقال له. إنكارك لعالم الملكوت كإنكار السمنية لعالم الجبروت ، وهم الذين حصروا العلوم فى الحواس الخمس ،فأنكروا القدرة والإرادة والعلم ، لأنها لاتدرك بالحواس الخمس ، فلازموا حضيض عالم الشهادة بالحواس الخمس

فإن قال : وأنا منهم ، فإنى لاأهتدى إلا إلى عالم الشهادة بالحواس الخمس ، ولا أعلم شيئا سواه ، فيقال إنكارك لما شاهدناه مما وراء الحواس الخمس كإنكار السوفسطائية للحواس الخمس ، فإنهم قالوا . ما نراه لانثق به ، فلعلنا نراه فى المنام

فإن قال :وأنا من جملتهم ، فإنى شاك أيضا فى المحسوسات ، فيقال هذا شخص فسد مزاجه ، وامتنع علاجه ، فيترك أياما قلائل . وما كل مريض يقوى على علاجه الأطباء. هذا حكم الجاحد . وأما الذى لايجحد ، ولكن لا يفهم ، فطريق السالكين معه أن ينظروا إلى عينه التى يشاهد بها عالم الملكوت . فإن وجدوها صحيحة فى الأصل ، وقد نزل فيها ماء أسود يقبل الإزالة والتنقية ، اشتغلوا بتنقيته اشتغال الكحال بالأبصار الظاهرة فإذا استوى بصره أرشد إلى الطريق ليسلكها ، كما فعل ذلك صلى الله عليه وسلم بخواص أصحابه

فإن كان غير قابل للعلاج ، فلم يمكنه أن يسلك الطريق الذى ذكرناه فى التوحيد، ولم يمكنه أن يسمع كلام ذرات الملك والملكوت بشهادة التوحيد ، كلموه بحرف وصوت ، وردوا ذروة التوحيد إلى حضيض فهمه ، فإن فى عالم الشهادة أيضا توحيدا ، إذ يعلم كل أحد أن المنزل يفسد بصاحبين ، والبلد يفسد بأميرين . فيقال له على حد عقله . إله العالم واحد ، والمدبر واحد ، إذ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا . فيكون ذلك على ذوق ماراه

فى عالم الشهادة ، فينغرس اعتقاد التوحيد فى قلبه بهذا الطريق اللائق بقدر عقله. وقد كلف الله أن يكلموا الناس على قدر عقولهم . ولذلك نزل القرءان بلسان العرب على حد عادتهم فى المحاورة

فإن قلت : فمثل هذا التوحيد الاعتقادى هل يصلح أن يكون عمادا للتوكل وأصلا فيه؟

فأقول نعم . فإن الاعتقاد إذا قوي عمل عملَ الكشف فى إثارة الأحوال . إلا أنه فى الغالب يضعف ويتسارع إليه الاضطراب والتزلزل غالبا. ولذلك يحتاج صاحبه إلى متكلم يحرسه بكلامه ، أو إلى أن يتعلم هو الكلام ليحرس به العقيدة التى تلقنها من أستاذه ، أو من أبويه ، أو من أهل بلده . وأما الذى شاهد الطريق وسلكه بنفسه ، فلا يخاف عليه شيء من ذلك. بل لو كشف الغطاء لما ازداد يقينا ، وإن كان يزداد وضوحا . كما أن الذى يرى إنسانا فى وقت الإسفار لا يزداد يقينا عند طلوع الشمس بأنه إنسان ، ولكن يزداد وضوحا فى تفصيل خلقته . وما مثال المكاشفين والمعتقدين إلا كسحرة فرعون مع أصحاب السامري ، فإن سحرة فرعون لما كانوا مطلعين على منتهى تأثير السحر ، لطول مشاهدتهم وتجربتهم ، رأوا من موسى عليه السلام ما جاوز حدود السحر ، وانكشف لهم حقيقة الأمر ، فلم يكترثوا بقول فرعون(فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ [1]) بل (قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا [2]) فإن البيان والكشف يمنع التغيير

مثال الكاشفين والمعتقدين به

وأما أصحاب السامري لما كان إيمانهم عن النظر إلى ظاهر الثعبان ، فلما نظروا إلى عجل السامري ، وسمعوا خواره ، تغيروا ، وسمعوا قوله (هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى [3]) ونسوا أنه لا يرجع إليهم قولا ، ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا . فكل من آمن بالنظر إلى ثعبان يكفر لا محالة إذا نظر إلى عجل ، لأن كليهما من عالم الشهادة . والاختلاف والتضاد فى عالم الشهادة كثير . وأما عالم الملكوت فهو من عند الله تعالى ، فلذلك لا تجد فيه اختلافا وتضادا أصلا

فإن قلت : ما ذكرته من التوحيد ظاهر مهما ثبت أن الوسائط والأسباب مسخرات وكل ذلك ظاهر إلا فى حركات الإنسان ، فانه يتحرك إن شاء ، ويسكن إن شاء ، فكيف يكون مسخرا ؟

---

(١) طه : ٧١ (٢) طه : ٧٢ (٣) طه : ٨٨

فاعلم أنه لو كان مع هذا يشاء إن أراد أن يشاء ، ولا يشاء إن لم يرد أن يشاء لكان هذا مزلة القدم وموقع الغلط . ولكن علم أنه يفعل ما يشاء إذا شاء أن يشأ أم لم يشأ ، فليست المشيئة إليه . إذ لو كانت إليه لافتقرت إلى مشيئة أخرى ، وتسلسل إلى غير نهاية . وإذا لم تكن المشيئة إليه ، فمهما وجدت المشيئة التى تصرف القدرة إلى مقدورها انصرفت القدرة لامحالة ، ولم يكن لها سبيل إلى المخالفة . فالحركة لازمة ضرورة بالقدرة ، والقدرة متحركة ضرورة عند انجزام المشيئة . فالمشيئة تحدث ضرورة فى القلب . فهذه ضرورات ترتب بعضها على بعض ، وليس للعبد أن يدفع وجود المشيئة ، ولا انصراف القدرة إلى المقدور بعدها ، ولا وجود الحركة بعد بعث المشيئة للقدرة ، فهو مضطر فى الجميع

فإن قلت : فهذا جبر محض ، والجبر يناقض الاختيار ، وأنت لا تنكر الاختيار ، فكيف يكون مجبورا مختارا ؟

فأقول لو انكشف الغطاء لعرفت أنه فى عين الاختيار مجبور . فهو إذاً مجبور على الاختيار ، فكيف يفهم هذا من لا يفهم الاختيار ؟ فلنشرح الاختيار بلسان المتكلمين شرحا وجيزا ، يليق بما ذكر متطفلا وتابعا ، فإن هذا الكتاب لم نقصد به إلا علم المعاملة ولكنى أقول :

شرح الاختيار فى الأفعال

لفظ الفعل فى الإنسان يطلق على ثلاثة أوجه : إذ يقال الإنسان يكتب بالأصابع ، ويتنفس بالرئة والحنجرة ، ويخرق الماء إذا وقف عليه بجسمه . فينسب إليه الخرق فى الماء ، والتنفس ، والكتابة ، وهذه الثلاثة فى حقيقة الاضطرار والجبر واحدة ، ولكنها تختلف وراء ذلك فى أمور ، فأعرب لك عنها بثلاث عبارات : فنسمى خرقه الماء عند وقوعه على وجهه فعلا طبيعيا . ونسمى تنفسه فعلا إراديا ، ونسمى كتابته فعلا اختياريا

والجبر ظاهر فى الفعل الطبيعى ، لأنه مهما وقف على وجه الماء ، أو تخطى من السطح للهواء ، انخرق الهواء لامحالة ، فيكون الخرق بعد التخطى ضروريا

والتنفس فى معناه ، فإن نسبة حركة الحنجرة إلى إرادة التنفس ، كنسبة انخراق الماء إلى ثقل البدن . فمهما كان الثقل موجودا وجد الانخراق بعده . وليس الثقل إليه ، وكذلك الإرادة ليست إليه . ولذلك لو قصد عين الإنسان بإبرة طبق الأجفان اضطرارا ، ولو أراد أن يتركها مفتوحة لم يقدر ، مع أن تغميض الأجفان اضطرارا فعل إرادي ، ولكنه إذا

تمثل صورة الإبرة فى مشاهدته بالإدراك حدثت الإرادة بالتغميض ضرورة، وحدثت الحركة بها . ولو أراد أن يترك ذلك لم يقدر عليه ، مع أنه فعل بالقدرة والإرادة ، فقد التحق هذا بالفعل الطبيعى فى كونه ضروريا

وأما الثالث: وهو الاختياري فهو مظنة الالتباس ، كالكتابة والنطق ، وهو الذى يقال فيه إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل ، وتارة يشاء وتارة لايشاء ، فيظن من هذا أن الأمر إليه ، وهذا للجهل بمعنى الاختيار ، فلنكشف عنه

وبيانه أن الإرادة تبع للعلم الذى يحكم بأن الشيء موافق لك . والأشياء تنقسم إلى مايحكم مشاهدتك الظاهرة أو الباطنة بأنه يوافقك من غير تحير وتردد ، وإلى مافد يتردد العقل فيه . فالذى تقطع به من غير تردد ، أن يقصد عينك مثلا بإبرة ، أو بدنك بسيف ، فلا يكون فى علمك تردد فى أن دفع ذلك خير لك وموافق . فلا جرم تنبعث الإرادة بالعلم والقدرة بالإرادة ، وتحصل حركة الأجفان بالدفع ، وحركة اليد بدفع السيف ، ولكن من غير روية وفكرة . ويكون ذلك بالإرادة

ومن الأشياء مايتوقف التمييز والعقل فيه ، فلا يدرى أنه موافق أم لا ، فيحتاج إلى روية وفكر حتى يتميز أن الخير فى الفعل أو الترك . فإذا حصل بالفكر والروية العلم بأن أحدهما خير ، التحق ذلك بالذى يقطع به من غير روية وفكر ، فانبعثت الإرادة ههنا كما تنبعث لدفع السيف والسنان . فإذا انبعثت لفعل ماظهر للعقل أنه خير سميت هذه الإرادة اختيارا مشتقا من الخير ، أى هو انبعاث إلى ماظهر للعقل أنه خير ، وهو عين تلك الإرادة ولم ينتظر فى انبعاثها إلى ما انتظرت تلك الإرادة وهو ظهور خيرية الفعل فى حقه ، إلا أن الخيرية فى دفع السيف ظهرت من غير روية ، بل على البديهة ، وهذا افتقر إلى الروية

فالاختيار عبارة عن إرادة خاصة ، وهي التى انبعثت بإشارة العقل فيما له فى إدراكه توقف وعن هذا قيل إن العقل يحتاج إليه للتمييز بين خير الخيرين ، وشر الشرين . ولا يتصور أن تنبعث الإرادة إلا بحكم الحس والتخييل ، أو بحكم جزم من العقل ، ولذلك لو أراد الإنسان أن يحزّ رقبة نفسه مثلا لم يمكنه ، لا لعدم القدرة فى اليد، ولا لعدم السكين، ولكن لفقد الإرادة الداعية المشخصة للقدرة ، وإنما فقدت الإرادة لأنها تنبعث بحكم العقل أو الحس

بكون الفعل موافقا ، وقتله نفسه ليس موافقا له ، فلا يمكنه مع قوة الأعضاء أن يقتل نفسه إلا إذا كان في عقوبة مؤلمة لا تطاق ، فإن العقل هنا يتوقف في الحكم و يتردد ، لأن تردده بين شر الشرين . فإن ترجح له بعد الروية أن ترك القتل أقل شرا لم يمكنه قتل نفسه . وإن حكم بأن القتل أقل شرا ، وكان حكمه جزما لا ميل فيه ولا صارف منه ، انبعث الإرادة والقدرة وأهلك نفسه كالذي يُتْبَعُ بالسيف للقتل ، فإنه يرمى بنفسه من السطح مثلا ، وإن كان مهلكا ، ولا يبالى ، ولا يمكنه أن لا يرمى نفسه . فإن كان يتبع بضرب خفيف ، فإن انتهى إلى طرف السطح حكم العقل بأن الضرب أهون من الرمي ، فوقفت أعضاؤه فلا يمكنه أن يرمي نفسه ، ولا تنبعث له داعية ألبتة ، لأن داعية الإرادة مسخرة بحكم العقل والحس ، والقدرة مسخرة للداعية ، والحركة مسخرة للقدرة ، والكل مقدر بالضرورة فيه من حيث لا يدرى ، فإنما هو محل ومجرى لهذه الأمور فأما أن يكون منه فكلا ولا

فإذاً معنى كونه مجبورا أن جميع ذلك حاصل فيه من غيره لا منه ، ومعنى كونه مختارا أنه محل لإرادة حدثت فيه جبرا بعد حكم العقل بكون الفعل خيرا محضا موافقا . وحدث الحكم أيضا جبرا ، فإذا هو مجبور على الاختيار . ففعل النار في الإحراق مثلا جبر محض وفعل الله تعالى اختيار محض . وفعل الإنسان على منزلة بين المنزلتين ، فإنه جبر على الاختيار ، فطلب أهل الحق لهذا عبارة ثالثة ! لأنه لما كان فنا ثالثا ، وائتموا فيه بكتاب الله تعالى ، فسموه كسبا وليس مناقضا للجبر ولا للاختيار ، بل هو جامع بينهما عند من فهمه

وفعل الله تعالى يسمى اختيارا ، بشرط أن لا يفهم من الاختيار إرادة بعد تحير وتردد ، فإن ذلك في حقه محال . وجميع الألفاظ المذكورة في اللغات لا يمكن أن تستعمل في حق الله تعالى إلا على نوع من الاستعارة والتجوز ، وذكر ذلك لا يليق بهذا العلم ، ويطول القول فيه

فإن قلت : فهل تقول إن العلم ولد الإرادة . والإرادة ولدت القدرة ، والقدرة ولدت الحركة وإن كل متأخر حدث من المتقدم ؟ فإن قلت ذلك فقد حكمت بحدوث شيء لا من قدرة الله تعالى . وإن أبيت ذلك فما معنى ترتب البعض من هذا على البعض ؟

فاعلم أن القول بأن بعض ذلك حدث عن بعض جهل محض ، سواء عبر عنه بالتولد أو بغيره بل حوالة جميع ذلك على المعنى الذى يعبر عنه بالقدرة الأزلية . وهو الأصل الذى لم يقف

كافة الخلق عليه إلا الراسخون فى العلم ، فإنهم وقفوا على كنه معناه ، والكافة وقفوا على مجرد لفظه مع نوع تشبيه بقدرتنا ، وهو بعيد عن الحق ، وبيان ذلك يطول . ولكن بعض المقدورات مترتب على البعض فى الحدوث ترتب المشروط على الشرط ، فلا تصدر من القدرة الأزلية إرادة إلا بعد علم ، ولا علم إلا بعد حياة ، ولا حياة إلا بعد محل الحياة ، وكما لايجوز أن يقال الحياة تحصل من الجسم الذى هو شرط الحياة ، فكذلك فى سائر درجات الترتيب . ولكن بعض الشروط ربما ظهرت للعامة ، وبعضها لم يظهر إلا للخواص المكاشفين بنور الحق . وإلا فلا يتقدم متقدم ولا يتأخر متأخر إلا بالحق واللزوم وكذلك جميع أفعال الله تعالى . ولولا ذلك لكان التقديم والتأخير عبثا يضاهى فعل المجانين تعالى الله عن قول الجاهلين علوا كبيرا . وإلى هذا أشار قوله تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ [1]) وقوله تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ [2])

فكل مابين السماء والأرض حادث على ترتيب واجب ، وحق لازم ، لايتصور أن يكون إلا كما حدث ، وعلى هذا الترتيب الذى وجد . فما تأخر متأخر إلا لانتظار شرطه ، والمشروط قبل الشرط محال ، والمحال لايوصف بكونه مقدورا . فلا يتأخر العلم عن النطفة إلا لفقد شرط الحياة ، ولا تتأخر عنها الإرادة بعد العلم إلا لفقد شرط العلم . وكل ذلك منهاج الواجب ، وترتيب الحق ، ليس فى شيء من ذلك لعب واتفاق ، بل كل ذلك بحكمة وتدبير

مثال توقف المقدور مع القدرة على وجود الشرط

وتفهيم ذلك عسير ، ولكنا نضرب لتوقف المقدور ، مع وجود القدرة ، على وجود الشرط مثالا يقرب مبادىء الحق من الأفهام الضعيفة . وذلك بأن تقدر إنسانا محدثا قد انغمس فى الماء إلى رقبته ؛ فالحدث لايرتفع عن أعضائه ، وإن كان الماء هو الرافع ، وهو ملاق له . فقدر القدرة الأزلية حاضرة ملاقية للمقدورات متعلقة بها ملاقاة الماء للأعضاء ولكن لايحصل بها المقدور ، كما لايحصل رفع الحدث بالماء انتظارا للشرط ؟ وهو غسل الوجه . فإذا وضع الواقف فى الماء وجهه على الماء ، عمل الماء فى سائر أعضائه ، وارتفع الحدث . فربما يظن الجاهل أن الحدث ارتفع عن اليدين برفعه عن الوجه ، لأنه حدث عقيبه

(١) الذاريات : ٥٦ (٢) الحجر : ٨٥ ، ٧٦

إذ يقول : كان الماء ملاقيا ولم يكن رافعا ، والماء لم يتغير عما كان ، فكيف حصل منه مالم يحصل من قبل ! بل حصل ارتفاع الحدث عن اليدين عند غسل الوجه ، فإذاً غسل الوجه هو الرافع للحدث عن اليدين . وهو جهل يضاهى ظن من يظن أن الحركة تحصل بالقدرة والقدرة بالإرادة ، والإرادة بالعلم . وكل ذلك خطأ . بل عند ارتفاع الحدث عن الوجه ارتفع الحدث عن اليد بالماء الملاقى لها ، لا بغسل الوجه . والماء لم يتغير ، واليد لم تتغير ، ولم يحدث فيهما شيء . ولكن حدث وجود الشرط ، فظهر أثر العلة

فهكذا ينبغى أن تفهم صدور المقدرات عن القدرة الأزلية ، مع أن القدرة قديمة ، والمقدورات حادثة . وهذا قرع باب آخر لعالم آخر من عوالم المكاشفات ؛ فلنترك جميع ذلك ، فإن مقصودنا التنبيه على طريق التوحيد فى الفعل ، فإن الفاعل بالحقيقة واحد ، فهو المخوف والمرجوّ ، وعليه التوكل والاعتماد . ولم نقدر على أن نذكر من بحار التوحيد إلا قطرة من بحر المقام الثالث من مقامات التوحيد . واستيفاء ذلك فى عمر نوح محال ، كاستيفاء ماء البحر بأخذ القطرات منه . وكل ذلك ينطوى تحت قول لا إله إلا الله ، وما أخف مؤنته على اللسان ، وما أسهل اعتقاد مفهوم لفظه على القلب ، وما أعز حقيقته ولبه عند العلماء الراسخين فى العلم ، فكيف عند غيرهم

كيفية الجمع بين التوحيد والشرع

فإن قلت : فكيف الجمع بين التوحيد والشرع ، ومعنى التوحيد أن لا فاعل إلا الله تعالى ومعنى الشرع إثبات الأفعال للعباد ، فإن كان العبد فاعلا فكيف يكون الله تعالى فاعلا ، وإن كان الله تعالى فاعلا فكيف يكون العبد فاعلا ، ومفعول بين فاعلين غير مفهوم ؟

فأقول : نعم ذلك غير مفهوم إذا كان للفاعل معنى واحد . وإن كان له معنيان ، ويكون الاسم مجملا مرددا بينهما لم يتناقض . كما يقال قتل الأمير فلانا ، ويقال قتله الجلاد ولكن الأمير قاتل بمعنى ، والجلاد قاتل بمعنى آخر . فكذلك العبد فاعل بمعنى ، والله عز وجل فاعل بمعنى آخر . فمعنى كون الله تعالى فاعلا أنه المخترع الموجد . ومعنى كون العبد فاعلا أنه المحل الذى خلق فيه القدرة ؛ بعد أن خلق فيه الإرادة بعد أن خلق فيه العلم . فارتبطت القدرة بالإرادة ، والحركة بالقدرة ارتباط الشرط بالمشروط وارتبط بقدرة الله ارتباط المعلول بالعلة ، وارتباط المخترع بالمخترع ،

وكل ماله ارتباط بقدرة فإن محل القدرة يسمى فاعلا له كيفما كان الارتباط ، كما يسمى الجلاد قاتلا والأمير قاتلا . لأن القتل ارتبط بقدرتهما ، ولكن على وجهين مختلفين . فلذلك سمي فعلا لهما فكذلك ارتباط المقدورات بالقدرتين

ولأجل توافق ذلك وتطابقه نسب الله تعالى الأفعال فى القرءان مرة إلى الملائكة ، ومرة إلى العباد، ونسبها بعينها مرة أخرى إلى نفسه . فقال تعالى فى الموت (قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ [١]) ثم قال عز وجل (اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا [٢]) وقال تعالى (أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ [٣]) أضاف إلينا ثم قال تعالى (أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا [٤]) وقال عز وجل (فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا [٥]) ثم قال تعالى (فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا [٦]) وكان النافخ جبريل عليه السلام وكما قال تعالى (فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ [٧]) قيل فى التفسير معناه إذ قرأه عليك جبريل . وقال تعالى (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ [٨]) فأضاف القتل إليهم والتعذيب إلى نفسه ، والتعذيب هو عين القتل : بل صرح وقال تعالى (فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ [٩]) وقال تعالى (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى [١٠]) وهو جمع بين النفي والإثبات ظاهرا ، ولكن معناه وما رميت بالمعنى الذى يكون الرب به راميا إذ رميت بالمعنى الذى يكون العبد به راميا، إذ هما معنيان مختلفان . وقال الله تعالى (الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ [١١]) ثم قال (الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْءَانَ [١٢]) وقال (عَلَّمَهُ الْبَيَانَ [١٣]) وقال (إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ [١٤]) وقال (أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ [١٥])

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى [١] وصف ملك الأرحام إنه « يَدْخُلُ الرَّحِمَ

---

(١) حديث وصف ملك الارحام أنه يدخل الرحم فيأخذ النطفة بيده ثم يصورها جسدا ـ الحديث: البزار وابن عدى من حديث عائشة ان الله تبارك وتعالى حين يريد أن يخلق الخلق يبعث ملكا فيدخل الرحم فيقول يارب ماذا ـ الحديث : وفى آخره فما من شىء الاوهو يخلق معه فى الرحم وفى سنده جهالة وقال ابن عدى انه منكر وأصله متفق عليه من حديث ابن مسعود بنحوه

---

(١) السجده : ١١ (٢) الزمر : ٤٢ (٣) الوقعة : ٦٣ (٤) عبس : ٢٥ - ٢٨ (٥) مريم : ١٧ (٦) التحريم : ١٢ (٧) القيامه : ١٨ (٨) التوبة : ١٤ (٩ ، ١٠) الأنفال : ١٧ (١١) العلق : ٤ ، ٥ (١٢ ، ١٣) الرحمن : ١ ، ٢ (١٤) القيامه : ١٩ (١٥) الواقعه : ٥٨ ، ٥٩

فيأخذ النطفة في يده ثم يصورها جسداً فيقول يارب أذكر أم أنثى أسوى أم معوج فيقول الله تعالى ماشاء ويخلق الملك » وفي لفظ آخر « ويصور الملك ثم ينفخ فيه الروح بالسعادة أو بالشقاوة »

وقد قال بعض السلف : إن الملك الذي يقال له الروح ، هو الذي يولج الأرواح في الأجساد وأنه يتنفس بوصفه ، فيكون كل نفس من أنفاسه روحا يلج في جسم ، ولذلك سمي روحا . وماذكره في مثل هذا الملك وصفته فهو حق ، شاهده أرباب القلوب ببصائرهم فأما كون الروح عبارة عنه فلا يمكن أن يعلم إلا بالنقل ، والحكم به دون النقل تخمين مجرد

وكذلك ذكر الله تعالى في القرءان من الأدلة والآيات في الأرض والسموات ثم قال (أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد [١]) وقال (شهد الله أنه لا إله إلا هو [٢]) فبين أنه الدليل على نفسه وذلك ليس متناقضا . بل طرق الاستدلال مختلفة ، فكم من طالب عرف الله تعالى بالنظر إلى الموجودات ، وكم من طالب عرف كل الموجودات بالله تعالى كما قال بعضهم : عرفت ربي بربي ، ولولا ربي لما عرفت ربي : وهو معنى قوله تعالى (أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد [٣])

وقد وصف الله تعالى نفسه بأنه المحيي والمميت ، ثم فوض الموت والحياة إلى ملكين : ففي الخبر [١] « أن ملكي الموت والحياة تناظرا فقال ملك الموت أنا أميت الأحياء وقال ملك الحياة أنا أحيي الموتى فأوحى الله تعالى إليهما كونا على عملكما وما سخرتكما له من الصنع وأنا المميت والمحيي لا يميت ولا يحيي سواي »

فإذاً الفعل يستعمل على وجوه مختلفة ، فلا تتناقض هذه المعاني إذا فهمت : ولذلك قال صلى الله عليه وسلم للذي ناوله التمرة [٢] « خذها لو لم تأتها لأتتك » أضاف الإتيان

---

(١) حديث ان ملك الموت والحياة تناظرا فقال ملك الموت أنا أميت الاحياء وقال ملك الحياة أنا أحيي الأموات فأوحى الله إليهما أن كونا على عملكما ـ الحديث : لم أجد له أصلا

(٢) حديث قال للذي ناوله التمرة خذها لو لم تأتها لأتتك : ابن حبان في كتاب روضة العقلاء من رواية هذيل ابن شرحبيل ووصله الطبراني عن هذيل عن ابن عمر ورجاله رجال الصحيح

(١ ، ٣) فصلت : ٥٣ (٢) آل عمران : ١٣

إليه وإلى الثمرة ، ومعلوم أن الثمرة لاتأتى على الوجه الذى يأتى الإنسان إليها . وكذلك لما قال التائب[١] أتوب إلى الله تعالى ولا أتوب إلى محمد . فقال صلى الله عليه وسلم « عَرَفَ الْحَقَّ لِأَهْلِهِ » فكل من أضاف الكل إلى الله تعالى فهو المحقق الذى عرف الحق والحقيقة . ومن أضافه إلى غيره فهو المتجوّز والمستعير فى كلامه . وللتجوّز وجه ، كما أن للحقيقة وجها . واسم الفاعل وضعه واضع اللغة للمخترع ، ولكن ظن أن الإنسان مخترع بقدرته فسماه فاعلا بحركته وظن أنه تحقيق ، وتوهم أن نسبته إلى الله تعالى على سبيل المجاز ، مثل نسبة القتل إلى الأمير ، فإنه مجاز بالإضافة إلى نسبته إلى الجلاد . فلما انكشف الحق لأهله ، عرفوا أن الأمر بالعكس ، وقالوا إن الفاعل قد وضعته أيها اللغوي للمخترع ، فلا فاعل إلا الله ، فالاسم له بالحقيقة ، ولغيره بالمجاز ، أي تتجوّز به عما وضعه اللغوي له . ولما جرى حقيقة المعنى على لسان بعض الأعراب قصدا أو اتفاقا ، صدقه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال[٢] « أَصْدَقُ بَيْتٍ قَالَهُ الشَّاعِرُ قَوْلُ لَبِيدٍ » : أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلُ

أي كل مالاقوام له بنفسه ، وإنما قوامه بغيره ، فهو باعتبار نفسه باطل ، وإنما حقيته وحقيقته بغيره لا بنفسه

فإذاً لاحق بالحقيقة إلا الحي القيوم ، الذى ليس كمثله شيء ، فإنه قائم بذاته ، وكل ماسواه قائم بقدرته فهو الحق ، وماسواه باطل . ولذلك قال سهل : يامسكين ، كان ولم تكن ، ويكون ولا تكون ، فلما كنت اليوم صرت تقول أنا وأنا ، كن الآن كما لم تكن ، فإنه اليوم كما كان

فإن قلت : فقد ظهر الآن أن الكل جبر ، فما معنى الثواب ، والعقاب ، والغضب ، والرضا ، وكيف غضبه على فعل نفسه ؟ فاعلم أن معنى ذلك قد أشرنا إليه فى كتاب الشكر فلا نطول بإعادته . فهذا هو القدر الذى رأينا الرمز إليه من التوحيد الذى يورث حال التوكل . ولا يتم هذا إلا بالإيمان بالرحمة والحكمة ، فإن التوحيد يورث النظر إلى مسبب الأسباب ، والإيمان بالرحمة وسعتها هو الذى يورث الثقة بمسبب الأسباب ، ولا يتم حال التوكل كما سيأتى إلا بالثقة بالوكيل ، وطمأنينة القلب إلى حسن نظر الكفيل

---

(١) حديث انه قال للذى قال أتوب إلى الله ولا أتوب الى محمد عرف الحق لأهله : تقدم فى الزكاة

(٢) حديث أصدق بيت قاله العرب بيت لبيد : ألا كل شيء ماخلا الله باطل : متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ قاله الشاعر وفي رواية لمسلم أشعر كلمة تكلمت بها العرب

وهذا الإيمان أيضا باب عظيم من أبواب الإيمان، وحكاية طريق المكاشفين فيه تطول فلنذكر حاصله ليعتقده الطالب لمقام التوكل اعتقادا قاطعا لا يستريب فيه، وهو أن يصدق تصديقا يقينيا لا ضعف فيه ولا ريب، أن الله عز وجل لو خلق الخلق كلهم على عقل أعقلهم وعلم أعلمهم، وخلق لهم من العلم ما تحتمله نفوسهم، وأفاض عليهم من الحكمة ما لا منتهى لوصفها، ثم زاد مثل عدد جميعهم علما وحكمة وعقلا، ثم كشف لهم عن عواقب الأمور، وأطلعهم على أسرار الملكوت، وعرفهم دقائق اللطف وخفايا العقوبات، حتى اطلعوا به على الخير والشر، والنفع والضر، ثم أمرهم أن يدبروا الملك والملكوت بما أعطوا من العلوم والحكم، لما اقتضى تدبير جميعهم، مع التعاون والتظاهر عليه، أن يزاد فيما دبر الله سبحانه الخلق به في الدنيا والآخرة جناح بعوضة، ولا أن ينقص منها جناح بعوضة ولا أن يرفع منها ذرة، ولا أن يخفض منها ذرة، ولا أن يدفع مرض، أو عيب، أو نقص، أو فقر، أو ضر عمن بلي به، ولا أن يزال صحة، أو كمال، أو غنى، أو نفع، عمن أنعم الله به عليه، بل كل ما خلقه الله تعالى من السموات والأرض إن رجعوا فيها البصر، وطولوا فيها النظر، ما رأوا فيها من تفاوت ولا فطور.. وكل ما قسم الله تعالى بين عباده من رزق وأجل، وسرور وحزن، وعجز وقدرة، وإيمان وكفر، وطاعة ومعصية فكله عدل محض لا جور فيه، وحق صرف لا ظلم فيه بل هو على الترتيب الواجب الحق على ما ينبغي، وكما ينبغي، وبالقدر الذي ينبغي: وليس في الإمكان أصلا أحسن منه، ولا أتم، ولا أكمل.

ولو كان، وادخره مع القدرة، ولم يتفضل بفعله، لكان بخلا يناقض الجود، وظلما يناقض العدل، ولو لم يكن قادرا لكان عجزا يناقض الإلهية. بل كل فقر وضر في الدنيا، فهو نقصان من الدنيا وزيادة في الآخرة. وكل نقص في الآخرة بالإضافة إلى شخص، فهو نعيم بالإضافة إلى غيره. إذ لولا الليل لما عرف قدر النهار، ولولا المرض لما تنعم الأصحاء بالصحة، ولولا النار لما عرف أهل الجنة قدر النعمة

وكما أن فداء أرواح الإنس بأرواح البهائم، وتسليطهم على ذبحها ليس بظلم، بل تقديم الكامل على الناقص عين العدل، فكذلك تفخيم النعم على سكان الجنان بتعظيم العقوبة على أهل النيران، وفداء أهل الإيمان بأهل الكفران عين العدل. وما لم يخلق الناقص لا يعرف الكامل.

ولولا خلق البهـــائم لما ظهر شرف الإنس ، فإن الـكمال والنقص يظهر بالإضافة فمقتضى الجود والحكمة خلق الـكامل والناقص جميعا

وكما أن قطع اليد إذا تآكلت إبقاء على الروح عدل ، لأنه فداء كامل بناقص ،فكذلك الأمر فى التفاوت الذى بين الخلق فى القسمة فى الدنيا والآخرة ، فـكل ذلك عدل لاجور فيه ، وحق لالعب فيه . وهذا الآن بحر آخر عظيم العمق ، واسع الأطراف ، مضطرب الأمواج ، قريب فى السعة من بحر التوحيد ، فيه غرق طوائف من القاصرين ، ولم يعلموا أن ذلك غامض لايعقله إلا العالمون ، ووراء هذا البحر سر القدر الذى تحير فيه الأكثرون ومنع من إفشاء سره المـكاشفون . والحاصل أن الخير والشر مقضي به ، وقد كان ماقضي به واجب الحصول بعد سبق المشيئة ، فلا راد لحـكمه ، ولا معقب لقضائه وأمره بل كل صغير وكبير مستطر ، وحصوله بقدر معلوم منتظر ، وما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك . ولنقتصر على هذه المرامز من علوم المكاشفة التى هي أصول مقام التوكل . ولنرجع إلى علم المعاملة إن شاء الله تعالى ، وحسبنا الله ونعم الوكيل

الشطر الثانى

من الـكتاب فى أحوال التوكل وأعماله

وفيه بيان حال التوكل ، وبيان ماقاله الشيوخ فى حد التوكل ، وبيان التوكل فى الكسب المنفرد والمعيل ، وبيان التوكل بترك الادخار ، وبيان التوكل فى دفع المضار ، وبيان التوكل فى إزالة الضرر بالتداوى وغيره ، والله الموفق برحمته

بيانه

حال التـــــوكل

قد ذكرنا أن مقام التوكل ينتظم من علم ، وحال ، وعمل . وذكرنا العلم

فأما الحال فالتوكل بالتحقيق عبارة عنه ، وإنما العلم أصله ، والعمل ثمرته . وقـد أكثر الخائضون فى بيان حد التوكل ، واختلفت عباراتهم . وتكلم كل واحـد عن مقام نفسه ، وأخبر عن حده ، كما جرت عادة أهل التصوف به . ولا فائدة فى النقل والإكثار ، فلنكشف

الغطاء عنه ونقول : التوكل مشتق من الوكالة . يقال وكل أمره إلى فلان ، أى فوضه إليه ، واعتمد عليه فيه. ويسمى الموكول إليه وكيلا ، ويسمى المفوض إليه متكلا عليه ، ومتوكلا عليه ، مهما اطمأنت إليه نفسه ، ووثق به ، ولم يتهمه فيه بتقصير ، ولم يعتقد فيه عجزا وقصورا

معنى التوكل وما ينبغى توفره فى الوكيل

فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده ولنضرب الوكيل فى الخصومة مثلا فنقول: من ادعى عليه دعوى باطلة بتلبيس ، فوكل للخصومة من يكشف ذلك التلبيس ، لم يكن متوكلا عليه ، ولا واثقا به ، ولا مطمئن النفس بتوكيله ، إلا إذا اعتقد فيه أربعة أمور: منتهى الهداية ، ومنتهى القوة ، ومنتهى الفصاحة ، ومنتهى الشفقة

أما الهداية : فليعرف بها مواقع التلبيس حتى لا يخفى عليه من غوامض الحيل شيء أصلا

وأما القدرة والقوة : فليستجرىء على التصريح بالحق فلا يداهن ، ولا يخاف ، ولا يستحى ، ولا يجبن، فإنه ربما يطلع على وجه تلبيس خصمه فيمنعه الخوف ، أو الجبن ، أو الحياء ، أو صارف آخر من الصوارف المضعفة للقلب عن التصريح به

وأما الفصاحة: فهي أيضا من القدرة، إلا أنها قدرة فى اللسان على الإفصاح عن كل ما استجرأ القلب عليه ، وأشار إليه ، فلا كل عالم بمواقع التلبيس قادر بذلاقة لسانه على حل عقدة التلبيس

وأما منتهى الشفقة ، فيكون باعثا له على بذل كل ما يقدر عليه فى حقه من المجهود ، فإن قدرته لا تغنى دون العناية به إذا كان لا يهمه أمره ، ولا يبالى به ظفر خصمه أو لم يظفر هلك به حقه أو لم يهلك . فإن كان شاكا فى هذه الأربعة ، أو فى واحدة منها ، أو جوز أن يكون خصمه فى هذه الأربعة أكمل منه ، لم تطمئن نفسه إلى وكيله ، بل بقي منزعج القلب ، مستغرق الهم بالحيلة والتدبير ليدفع ما يحذره من قصور وكيله ، وسطوة خصمه ويكون تفاوت درجة أحواله فى شدة الثقة والطمأنينة بحسب تفاوت قوة اعتقاده لهذه الخصال فيه . والاعتقادات والظنون فى القوة والضعف تتفاوت تفاوتا لا ينحصر، فلا جرم تتفاوت أحوال المتوكلين فى قوة الطمأنينة والثقة تفاوتا لا ينحصر ، إلى أن ينتهى إلى اليقين الذى لا ضعف فيه ، كما لو كان الوكيل والد الموكل ؛ وهو الذى يسعى لجمع الحلال والحرام لأجله ، فإنه يحصل له يقين بمنتهى الشفقة والعناية ، فتصير خصلة واحدة من الخصال الأربعة قطعية . وكذلك سائر الخصال يتصور أن يحصل القطع به ، وذلك بطول الممارسة

والتجربة ، وتواتر الأخبار بأنه أفصح الناس لسانا ، وأقواهم بيانا ، وأقدرهم على نصرة الحق بل على تصوير الحق بالباطل ، والباطل بالحق .

فإذا عرفت التوكل في هذا المثال ، فقس عليه التوكل على الله تعالى . فإن ثبت في نفسك بكشف أو باعتقاد جازم ، أنه لافاعل إلا الله كما سبق ، واعتقدت مع ذلك تمام العلم والقدرة على كفاية العباد ، ثم تمام العطف والعناية والرحمة بجملة العباد والآحاد ، وأنه ليس وراء منتهى قدرته قدرة ، ولا وراء منتهى علمه علم ، ولا وراء منتهى عنايته بك ورحمته لك عناية ورحمة ، اتكل لامحالة قلبك عليه وحده ، ولم يلتفت إلى غيره بوجه ، ولا إلى نفسه وحوله وقوته ، فإنه لاحول ولا قوة إلا بالله ، كما سبق في التوحيد عند ذكر الحركة والقدرة ، فإن الحول عبارة عن الحركة ، والقوة عبارة عن القدرة

فإن كنت لاتجد هذه الحالة من نفسك فسببه أحد أمرين : إما ضعف اليقين بإحدى هذه الخصال الأربعة ، وإما ضعف القلب ومرضه باستيلاء الجبن عليه ، وانزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه : فإن القلب قد ينزعج تبعا للوهم ، وطاعة له ، عن غير نقصان في اليقين . فإن من يتناول عسلا فشبه بين يديه بالعذرة ، ربما نفر طبعه ، وتعذر عليه تناوله . ولو كلف العاقل أنه يبيت مع الميت في قبر ، أو فراش ، أو بيت ، نفر طبعه عن ذلك ، وإن كان متيقنا بكونه ميتا ، وأنه جماد في الحال ، وأن سنة الله تعالى مطردة بأنه لايحشره الآن ولا يحييه وإن كان قادرا عليه ، كما أنها مطردة بأن لايقلب القلم الذي في يده حية ، ولا يقلب السنور أسدا وإن كان قادرا عليه . ومع أنه لايشك في هذا اليقين ينفر طبعه عن مضاجعة الميت في فراش ، أو الميت معه في البيت ، ولا ينفر عن سائر الجمادات . وذلك جبن في القلب ، وهو نوع ضعف قلما يخلو الإنسان عن شيء منه وإن قل ، وقد يقوى فيصير مرضا ، حتى يخاف أن يبيت في البيت وحده مع إغلاق الباب وإحكامه

فإذاً لايتم التوكل إلا بقوة القلب وقوة اليقين جميعا ، إذ بهما يحصل سكون القلب وطمأنينته . فالسكون في القلب شيء ، واليقين شيء آخر فكم من يقين لاطمأنينة معه كما قال تعالى لإبراهيم عليه السلام (أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي [1])

---

(١) البقرة ٢٦٠

فالتمس أن يكون مشاهدا إحياء الميت بعينه ليثبت فى خياله ، فإن النفس تتبع الخيال وتطمئن به ، ولا تطمئن باليقين فى ابتداء أمرها إلى أن تبلغ بالآخرة إلى درجة النفس المطمئنة ، وذلك لايكون فى البداية أصلا . وكم من مطمئن لايقين له ، كسائر أرباب الملل والمذاهب فإن اليهودي مطمئن القلب إلى تهوده ، وكذا النصراني ، ولا يقين لهم أصلا ، وإنما يتبعون الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى ، وهو سبب اليقين ، إلا أنهم معرضون عنه . فإذاً الجبن والجراءة غرائز ، ولا ينفع اليقين معها ، فهي أحد الأسباب التي تضاد حال التوكل ، كما أن ضعف اليقين بالخصال الأربعة أحد الأسباب . وإذا اجتمعت هذه الأسباب حصلت الثقة بالله تعالى . وقد قيل مكتوب فى التوراة : ملعون من ثقته إنسان مثله . وقد قال صلى الله عليه وسلم[1] « مَنِ اسْتَعَزَّ بِالعَبِيدِ أَذَلَّهُ اللهُ تَعَالَى »

وإذا انكشف لك معنى التوكل ، وعلمت الحالة التي سميت توكلا ، فاعلم أن تلك الحالة لها فى القوة والضعف ثلاث درجات : الدرجة الأولى : ماذكرناه ، وهو أن يكون حاله فى حق الله تعالى ، والثقة بكفالته وعنايته ، كحاله فى الثقة بالوكيل

درجات التوكل

الثانية : وهي أقوى ، أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع أمه . فإنه لايعرف غيرها ، ولا يفزع إلى أحد سواها ، ولايعتمد إلا إياها . فإذا رآها تعلق فى كل حال بذيلها ولم يخلها . وإن نابه أمر فى غيبتها كان أول سابق إلى لسانه ياأماه ، وأول خاطر يخطر على قلبه أمه ، فإنها مفزعه . فإنه قد وثق بكفالتها ، وكفايتها ، وشفقتها ، ثقة ليست خالية عن نوع إدراك بالتمييز الذى له ، ويظن أنه طبع من حيث إن الصبي لو طولب بتفصيل هذه الخصال لم يقدر على تلقين لفظه ، ولا على إحضاره مفصلا فى ذهنه . ولكن كل ذلك وراء الإدراك . فمن كان باله إلى الله عز وجل ، ونظره إليه ، واعتماده عليه ، كلف به كما يكلف الصبي بأمه ، فيكون متوكلا حقا . فإن الطفل متوكل على أمه . والفرق بين هذا وبين الأول أن هذا متوكل وقد فني فى توكله عن توكله ، إذ ليس يلتفت قلبه إلى التوكل وحقيقته

---

(١) حديث من اعتز بالعبيد أذله الله : العقيلي فى الضعفاء وأبو نعيم فى الحلية من حديث عمر أورده العقيلي فى ترجمة عبد الله بن عبد الله الأموي وقال لا يتابع على حديثه وقد ذكره ابن حبان فى الثقات وقال يخالف فى روايته

بل إلى المتوكل عليه فقط ، فلا تجل فى قلبه لغير المتوكل عليه . وأما الأول فيتوكل بالتكلف والكسب ، وليس فانيا عن توكله ، لأن له التفاتا إلى توكله وشعوره به . وذلك شغل صارف عن ملاحظة المتوكل عليه وحده . وإلى هـذه الدرجة أشار سهل حيث سئل عن التوكل ما أدناه؟ قال : ترك الأماني، قيل وأوسطه ؟ قال: ترك الاختيار . وهو إشارة إلى الدرجة الثانية وسئل عن أعلاه فلم يذكره وقال : لا يعرفه إلا من بلغ أوسطه

الثالثة : وهي أعلاها ، أن يكون بين يدي الله تعالى فى حركاته وسكناته مثل الميت بين يدي الغاسل ، لا يفارقه إلا فى أنه يرى نفسه ميتا تحركه القدرة الأزلية كما تحرك يدُ الغاسل الميت . وهو الذى قوى يقينه بأنه مجرى للحركة ، والقدرة ، والإرادة ، والعلم ، وسائر الصفات ، وأن كلا يحدث جبرا ، فيكون بائنا عن الانتظار لما يجرى عليه ، ويفارق الصبي ، فإن الصبي يفزع إلى أمه ، ويصيح ، ويتعلق بذيلها ، ويعدو خلفها . بل هو مثل صبي علم أنه وإن لم يزعق بأمه فالأم تطلبه ، وأنه وإن لم يتعلق بذيل أمه فالأم تحمله ، وإن لم يسألها اللبن فالأم تفاتحه وتسقيه . وهذا المقام فى التوكل يثمر ترك الدعاء والسؤال منه ثقة بكرمه وعنايته ، وأنه يعطى ابتداء أفضل مما يسئل . فكم من نعمة ابتدأها قبل السؤال والدعاء، وبغير الاستحقاق، والمقام الثانى لا يقتضى ترك الدعاء والسؤال منه ، وإنما يقتضى ترك السؤال من غيره فقط   فإن قلت : فهذه الأحوال هل يتصور وجودها

فاعلم أن ذلك ليس بمحال ، ولكنه عزيز نادر . والمقام الثانى والثالث أعزها . والأول أقرب إلى الإمكان . ثم إذا وجد الثالث والثانى فدوامه أبعد منه ، بل يكاد لا يكون المقام الثالث فى دوامه إلا كصفرة الوجل . فإن انبساط القلب إلى ملاحظة الحول والقوة والأسباب طبع ، وانقباضه عارض . كما أن انبساط الدم إلى جميع الأطراف طبع، وانقباضه عارض . والوجل عبارة عن انقباض الدم عن ظاهر البشرة إلى الباطن ، حتى تنمحى عن ظاهر البشرة الحمرة التى كانت ترى من وراء الرقيق من ستر البشرة . فإن البشرة ستر رقيق تتراءى من ورائه حمرة الدم ، وانقباضه يوجب الصفرة، وذلك لا يدوم . وكذا انقباض القلب بالكلية عن ملاحظة الحول والقوة وسائر الأسباب الظاهرة لا يدوم . وأما المقام الثانى فيشبه صفرة المحموم ، فإنه قد يدوم يوما ويومين . والأول يشبه صفرة مريض

استحكم مرضه ، فلا يبعد أن يدوم ، ولا يبعد أن يزول . فإن قلت : فهل يبقى مع العبد تدبير وتعلق بالأسباب فى هذه الأحوال ؟ . فاعلم أن المقام الثالث ينفى التدبير رأسا مادامت الحالة باقية . بل يكون صاحبها كالمبهوت . والمقام الثانى ينفى كل تدبير إلا من حيث الفزع إلى الله بالدعاء والابتهال ، كتدبير الطفل فى التعلق بأمه فقط . والمقام الأول لاينفى أصل التدبير والاختيار ، ولكن ينفى بعض التدبيرات ، كالمتوكل على وكيله فى الخصومة فإنه يترك تدبيره من جهة غير الوكيل ، ولكن لايترك التدبير الذى أشار إليه وكيله به ؛ أو التدبير الذى عرفه من عادته وسنته دون صريح إشارته . فأما الذى يعرفه بإشارته بأن يقول له . لست أتكلم إلا فى حضورك فيشتغل لامحالة بالتدبير للحضور ، ولا يكون هذا مناقضا توكله عليه ، إذ ليس هو فزعا منه إلى حول نفسه وقوته فى إظهار الحجة ، ولا إلى حول غيره ، بل من تمام توكله عليه أن يفعل مارسمه له ، إذ لو لم يكن متوكلا عليه ولا معتمدا له فى قوله لما حضر بقوله . وأما المعلوم من عادته واطراد سنته فهو أن يعلم من عادته أنه لايحاج الخصم إلا من السجل ، فتمام توكله إن كان متوكلا عليه أن يكون معوّلا على سنته وعادته ووافيا بمقتضاها ، وهو أن يحمل السجل مع نفسه إليه عند مخاصمته

فإذاً لايستغنى عن التدبير فى الحضور وعن التدبير فى إحضار السجل . ولو ترك شيئا من ذلك كان نقصا فى توكله ، فكيف يكون فعله نقصا فيه ! نعم بعد أن حضر وفاء بإشارته وأحضر السجل وفاء بسنته وعادته ، وقعد ناظر إلى محاجته ، فقد ينتهى إلى المقام الثانى والثالث فى حضوره ، حتى يبقى كالمبهوت المنتظر لايفزع إلى حوله وقوته ، إذ لم يبق له حول ولا قوة . وقد كان فزعه إلى حوله وقوته فى الحضور وإحضار السجل بإشارة الوكيل وسنته . وقد انتهى نهايته ، فلم يبق إلا الطمأنينة النفس والثقة بالوكيل ، والانتظار لما يجرى . وإذا تأملت هذا اندفع عنك كل إشكال فى التوكل ، وفهمت أنه ليس من شرط التوكل ترك كل تدبير وعمل ، وأن كل تدبير وعمل لايجوز أيضا مع التوكل ، بل هو على الانقسام ، وسيأتى تفصيله فى الأعمال

فإذاً فزعُ المتوكل إلى حوله وقوته فى الحضور والإحضار لايناقض التوكل ، لأنه يعلم أنه لولا الوكيل لكان حضوره وإحضاره باطلا وتعبا محضا بلا جدوى . فإذاً لايصير مفيدا من حيث إنه حوله وقوته ، بل من حيث أن الوكيل جعله معتمدا لمحاجّته ، وعرّفه ذلك بإشارته

وسنته . فإذاً لا حول ولا قوة إلا بالوكيل . إلا أن هذه الكلمة لا يكمل معناها في حق الوكيل، لأنه ليس خالقا حوله وقوته ، بل هو جاعل لهما مفيدين في أنفسهما، ولم يكونا مفيدين لو لا فعله. وإنما يصدق ذلك في حق الوكيل الحق ، وهو الله تعالى ، إذ هو خالق الحول والقوة كما سبق في التوحيد، وهو الذي جعلهما مفيدين إذ جعلهما شرطا لما سيخلقه من بعدهما من الفوائد والمقاصد

فإذاً لا حول ولا قوة إلا بالله حقا وصدقا . فمن شاهد هذا كله كان له الثواب العظيم الذي وردت به الأخبار [١] فيمن يقول لا حول ولا قوة إلا بالله . وذلك قد يستبعد فيقال : كيف يعطى هذا الثواب كله بهذه الكلمة مع سهولتها على اللسان ، وسهولة اعتقاد القلب بمفهوم لفظها ؟ وهيهات ! فإنما ذلك جزاء على هذه المشاهدة التي ذكرناها في التوحيد . ونسبة هذه الكلمة وثوابها إلى كلمة لا إله إلا الله وثوابها كنسبة معنى إحداهما إلى الأخرى . إذ في هذه الكلمة إضافة شيئين إلى الله تعالى فقط ، وهما الحول والقوة . وأما كلمة لا إله إلا الله فهو نسبة الكل إليه . فانظر إلى التفاوت بين الكل وبين شيئين لتعرف به ثواب لا إله إلا الله بالإضافة إلى هذا.

وكما ذكرنا من قبل أن للتوحيد قشرين ولبين فكذلك لهذه الكلمة ولسائر الكلمات. وأكثر الخلق قيدوا بالقشرين وما طرقوا إلى اللبين الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم [٢] « مَنْ قَالَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ صَادِقاً مِنْ قَلْبِهِ مُخْلِصاً وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ » وحيث أطلق من غير ذكر الصدق والإخلاص أراد بالمطلق هذا المقيد ، كما أضاف المغفرة إلى الإيمان والعمل الصالح في بعض المواضع ، وأضافها إلى مجرد الإيمان في بعض المواضع ، والمراد به المقيد بالعمل الصالح

فالملك لا ينال بالحديث ، وحركة اللسان حديث . وعقد القلب أيضا حديث ، ولكنه حديث نفس . وإنما الصدق والإخلاص وراءهما . ولا ينصب سرير الملك إلا للمقربين وهم المخلصون . نعم لمن يقرب منهم في الرتبة من أصحاب اليمين أيضا درجات عند الله تعالى وإن كانت لا تنتهي إلى الملك . أما ترى أن الله سبحانه لما ذكر في سورة الواقعة المقربين السابقين تعرض لسرير الملك فقال (عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ [١])

---

(١) أحاديث ثواب قول لا حول ولا قوة إلا بالله : تقدمت في الدعوات

(٢) حديث من قال لا إله إلا الله صادقا مخلصا من قلبه وجبت له الجنة : الطبراني من حديث زيد بن أرقم وأبو يعلى من حديث أبي هريرة وقد تقدم

---

(١) الواقعة : ١٥ ، ١٦

ولما انتهى إلى أصحاب اليمين مازاد على ذكر الماء ، والظل ، والفواكه ، والأشجار ، والحور العين وكل ذلك من لذات المنظور ، والمشروب ، والمأكول ، والمنكوح . ويتصور ذلك للبهائم على الدوام . وأين لذات البهائم من لذة الملك والنزول في أعلى عليين في جوار رب العالمين ! ولو كان لهذه اللذات قدر لما وسعت على البهائم ، ولما رفعت عليها درجة الملائكة

أفترى أن أحوال البهائم وهي مسيبة في الرياض ، متنعمة بالماء والأشجار وأصناف المأكولات ، متمتعة بالنزوان والسفاد ، أعلى وألذ وأشرف ؛ وأجدر بأن تكون عند ذوى الكمال مغبوطة من أحوال الملائكة في سرورهم بالقرب من جوار رب العالمين في أعلى عليين ؟ هيهات هيهات ، ماأبعد عن التحصيل من إذا خير بين أن يكون حمارا أو يكون في درجة جبريل عليه السلام فيختار درجة الحمار على درجة جبريل عليه السلام

وليس يخفى أن شبه كل شيء منجذب إليه ، وأن النفس التي نزوعها إلى صنعة الأساكفة أكثر من نزوعها إلى صنعة الكتابة ، فهو بالأساكفة أشبه في جوهره منه بالكتاب . وكذلك من نزوع نفسه إلى نيل لذات البهائم أكثر من نزوعها إلى نيل لذات الملائكة ، فهو بالبهائم أشبه منه بالملائكة لامحالة . وهؤلاء هم الذين يقال فيهم (أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ [١]) وإنما كانوا أضل لأن الأنعام ليس في قوتها طلب درجة الملائكة ، فتركها الطلب للعجز . وأما الإنسان ففي قوته ذلك . والقادر على نيل الكمال أحرى بالذم وأجدر بالنسبة إلى الضلال مهما تقاعد عن طلب الكمال

وإذ كان هذا كلاما معترضا فلنرجع إلى المقصود ، فقد بينا معنى قول لا إله إلا الله ، ومعنى قول لا حول ولا قوة إلا بالله ، وأن من ليس قائلا بهما عن مشاهدة فلا يتصور منه حال التوكل . فإن قلت : ليس في قولك لا حول ولا قوة إلا بالله إلا نسبة شيئين إلى الله ، فلو قال قائل : السماء والأرض خلق الله ، فهل يكون ثوابه مثل ثوابه ؟

فأقول : لا ، لأن الثواب على قدر درجة المثاب عليه ، ولا مساواة بين الدرجتين . ولا ينظر إلى عظم السماء والأرض وصغر الحول والقوة ، إن جاز وصفهما بالصغر تجوزا فليست الأمور بعظم الأشخاص . بل كل عامي يفهم أن الأرض والسماء ليستا من جهة

(١) الأعراف : ١٧٩

الآدميين ، بل هما من خلق الله تعالى . فأما الحول والقوة فقد أشكل أمرهما على المعتزلة والفلاسفة، وطوائف كثيرة ممن يدعى أنه يدقق النظر فى الرأي والمعقول حتى يشق الشعر بحدة نظره، فهي مهلكة مخطرة ، ومزلة عظيمة ، هلك فيها الغافلون إذ أثبتوا لأنفسهم أمرا ، وهو شرك فى التوحيد : وإثبات خالق سوى الله تعالى فمن جاوز هذه العقبة بتوفيق الله تعالى إياه فقد علت رتبته ، وعظمت درجته . فهو الذى يصدق قول :لاحول ولا قوّة إلا بالله . وقد ذكرنا أنه ليس فى التوحيد إلا عقبتان : إحداهما النظر إلى السماء والأرض ، والشمس ، والقمر ، والنجوم ، والغيم ، والمطر ، وسائر الجمادات ، والثانية النظر إلى اختيار الحيوانات ، وهي أعظم العقبتين وأخطرهما ، وبقطعهما كمالُ سر التوحيد فلذلك عظم ثواب هذه الكلمة ، أعنى ثواب المشاهدة التى هذه الكلمة ترجمتها

فإذاً رجع حال التوكل إلى التبرى من الحول والقوّة ، والتوكل على الواحد الحق ، وسيتضح ذلك عند ذكرنا تفصيل أعمال التوكل إن شاء الله تعالى

بيان
ماقاله الشيوخ فى أحوال التوكل

ليتبين أن شيئا منها لايخرج عما ذكرنا ، ولكن كل واحد يشير إلى بعض الأحوال فقد قال أبو موسى الديلى : قلت لأبى يزيد ماالتوكل ؟ فقال ماتقول أنت ؟ قلت إن أصحابنا يقولون لو أن السباع والأفاعى عن يمينك ويسارك ، ماتحرك لذلك سرك . فقال أبو يزيد . نعم هذا قريب ، ولكن لو أن أهل الجنة فى الجنة يتنعمون ، وأهل النار فى النار يعذبون ، ثم وقع بك تمييز بينهما خرجت من جملة التوكل . فما ذكره أبو موسى فهو خبر عن أجلّ أحوال التوكل ، وهو المقام الثالث . وما ذكره أبو يزيد عبارة عن أعزّ أنواع العلم الذى هو من أصول التوكل ، وهو العلم بالحكمة ، وأن مافعله الله تعالى فعله بالواجب ، فلا تمييز بين أهل النار وأهل الجنة بالإضافة إلى أصل العدل والحكمة . وهذا أغمض أنواع العلم، ووراءه سر القدر . وأبو يزيد قلما يتكلم إلا عن أعلى المقامات وأقصى الدرجات وليس ترك الاحتراز عن الحيّات شرطا فى المقام الأوّل من التوكل فقد احترز [1] أبو بكر

(١) حديث ان أبا بكر سد منافذ الحيات فى الغار شفقة على النبي صلى الله عليه وسلم: تقدم

رضي الله عنه في الغـــار إذ سد منافذ الحيات ، إلا أن يقال فعل ذلك برجله ولم يتغير بسببه سره ، أو يقال إنما فعل ذلك شفقة في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم لا في حق نفسه ، وإنما يزول التوكل بتحرك سره وتغيره لأمر يرجع إلى نفسه . وللنظر في هذا مجال ولـكن سيأتي بيان أن أمثال ذلك وأكثر منه لا يناقض التوكل ، فإن حركة السر من الحيّات هو الخوف ، وحق المتوكل أن يخاف مسلط الحيّـات ، إذ لا حول للحيّات ولا قوّة لها إلا بالله . فإن احترز لم يكن اتكاله على تدبيره وحوله وقوّته في الاحتراز ، بل على خالق الحول والقوّة والتدبير . وسئل ذو النون المصري عن التوكل فقـال : خلع الأرباب ، وقطع الأسباب . فخلع الأرباب إشارة إلى علم التوحيد ، وقطع الأسباب إشارة إلى الأعمال ، وليس فيه تعرض صريح للحال وإن كان اللفظ يتضمنه . فقيل له زدنا . فقال . إلقاء النفس في العبودية وإخراجها من الربوبية . وهذا إشـارة إلى التبرى من الحول والقوة فقط . وسئل حمدون القصار عن التوكل فقال : إن كان لك عشرة آلاف درهم ، وعليك دانق دين ، لم تأمن أن تموت ويبقى دينك في عنقك . ولو كان عليك عشرة آلاف درهم دين من غير أن تترك لها وفاء ، لا تيأس من الله تعالى أن يقضيها عنك . وهذا إشارة إلى مجرد الإيمان بسعة القدرة ، وأن في المقدورات أسبابا خفية سوى هذه الأسباب الظاهرة

وسئل أبو عبد الله القرشي عن التوكل فقـال : التعلق بالله تعالى في كل حال . فقال السائل زدني . فقال . ترك كل سبب يوصل إلى سبب حتى يكون الحق هو المتولى لذلك فالأوّل عام للمقامات الثلاث ، والثاني إشارة إلى المقام الثالث خاصة ، وهو مثـل توكل ابراهيم صلى الله عليه وسلم إذ قال له جبريل عليه السلام : ألك حاجة ؟ فقال أمّا إليك فلا . إذ كان سؤاله سببا يفضي إلى سبب ، وهو حفظ جبريل له . فترك ذلك ثقة بأن الله تعالى إن أراد سخر جبريل لذلك ، فيكون هو المتولى لذلك . وهذا حال مبهوت غائب عن نفسه بالله تعالى فلم ير معه غيره . وهو حال عزيز في نفسه ، ودوامه إن وجد أبعـد منه وأعزّ

وقال أبو سعيد الخراز : التوكل اضطراب بلا سكون ، وسكون بلا اضطراب . ولعله يشير إلى المقام الثاني . فسكونه بلا اضطراب إشارة إلى سكون القلب إلى الوكيل وثقته به ، واضطراب بلا سكون إشارة إلى فزعه إليه ، وابتهاله وتضرعه بين يديه كاضطراب

الطفل بيديه إلى أمه ، وسكون قلبه إلى تمام شفقتها . وقال أبو علي الدقاق: التوكل ثلاث درجات: التوكل ، ثم التسليم ، ثم التفويض . فالمتوكل يسكن إلى وعده ، والمسلّم يكتفي بعلمه ، وصاحب التفويض يرضى بحكمه . وهذا إشارة إلى تفاوت درجات نظره بالإضافة إلى المنظور إليه ، فإن العلم هو الأصل ، والوعد يتبعه ، والحكم يتبع الوعد . ولا يبعد أن يكون الغالب على قلب المتوكل ملاحظة شيء من ذلك . وللشيوخ في التوكل أقاويل سوى ما ذكرناه ، فلا نطول بها ، فإن الكشف أنفع من الرواية والنقل . فهذا ما يتعلق بحال التوكل ، والله الموفق برحمته ولطفه

بيانه
أعمال المتوكلين

اعلم أن العلم يورث الحال ، والحال يثمر الأعمال . وقد يظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن ، وترك التدبير بالقلب ، والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة ، وكاللحم على الوضم ، وهذا ظن الجهال . فإن ذلك حرام في الشرع ، والشرع قد أثنى على المتوكلين ، فكيف ينال مقام من مقامات الدين بمحظورات الدين ! بل نكشف الغطاء عنه ونقول :

إنما يظهر تأثير التوكل في حركة العبد وسعيه بعلمه إلى مقاصده ، وسعي العبد باختياره إما أن يكون لأجل جلب نافع هو مفقود عنده كالكسب ، أو لحفظ نافع هو موجود عنده كالادخار ، أو لدفع ضار لم ينزل به كدفع الصائل والسارق والسباع ، أو لإزالة ضار قد نزل به كالتداوي من المرض . فمقصود حركات العبد لا تعدو هذه الفنون الأربعة ، وهو جلب النافع ، أو حفظه ، أو دفع الضار أو قطعه . فلنذكر شروط التوكل ودرجاته في كل واحد منها مقرونا بشواهد الشرع . الفن الأول : في جلب النافع فنقول فيه : الأسباب التي بها يجلب النافع على ثلاث درجات : مقطوع به ، ومظنون ظنا يوثق به ، وموهوم وهما لا تثق النفس به ثقة تامة ، ولا تطمئن إليه : الدرجة الأولى : المقطوع به . وذلك مثل الأسباب التي ارتبطت المسببات بها بتقدير الله ومشيئته ارتباطا مطردا لا يختلف : كما أن الطعام إذا كان موضوعا بين يديك ، وأنت جائع محتاج ، ولكنك لست تمد إليه اليد وتقول أنا متوكل ، وشرط التوكل ترك السعي ، ومد اليد إليه سعي وحركة ،

الأسباب القاطعة لجلب المصالح

وكذلك مضغه بالأسنان، وابتلاعه بإطباق أعالى الحنك على أسافله ، فهذا جنون محض، وليس من التوكل فى شيء . فإنك إن انتظرت أن يخلق الله تعالى فيك شبعا دون الخبز ، أو يخلق فى الخبز حركة إليك ، أو يسخر ملكا ليمضغه لك ويوصله إلى معدتك ، فقد جهلت سنة الله تعالى . وكذلك لو لم تزرع الأرض، وطمعت فى أن يخلق الله تعالى نباتا من غير بذر ، أو تلد زوجتك من غير وقاع كما ولدت مريم عليها السلام ، فكل ذلك جنون . وأمثال هذا مما يكثر ولا يمكن إحصاؤه . فليس التوكل فى هذا المقام بالعمل ، بل بالحال، والعلم

أما العلم : فهو أن تعلم أن الله تعالى خلق الطعام ، واليد ، والأسنان ، وقوة الحركة ، وأنه هو الذى يطعمك ويسقيك . وأما الحال : فهو أن يكون سكون قلبك واعتمادك على فعل الله تعالى ، لا على اليد والطعام . وكيف تعتمد على صحة يدك وربما تجف فى الحال وتفلج! وكيف تعول على قدرتك وربما يطرأ عليك فى الحال ما يزيل عقلك ، ويبطل قوة حركتك وكيف تعول على حضور الطعام وربما يسلط الله تعالى من يغلبك عليه، أو يبعث حية تزعجك عن مكانك ، وتفرق بينك وبين طعامك ! وإذا احتمل أمثال ذلك ولم يكن لها علاج إلا بفضل الله تعالى ، فبذلك فلتفرح ، وعليه فلتعول . فإذا كان هذا حاله وعلمه فليمد اليد فإنه متوكل

الأسباب المظنونة لجلب المنافع

الدرجة الثانية : الأسباب التى ليست متيقنة، ولكن الغالب أن المسببات لا تحصل دونها ، وكان احتمال حصولها دونها بعيدا . كالذى يفارق الأمصار والقوافل ويسافر فى البوادى التى لا يطرقها الناس إلا نادرا ، ويكون سفره من غير استصحاب زاد ، فهذا ليس شرطا فى التوكل . بل استصحاب الزاد فى البوادى سنة الأولين ، ولا يزول التوكل به بعد أن يكون الاعتماد على فضل الله تعالى لا على الزاد كما سبق . ولكن فعل ذلك جائز، وهو من أعلى مقامات التوكل، ولذلك كان يفعله الخواص . فإن قلت : فهذا سعي فى الهلاك وإلقاء النفس فى التهلكة

فاعلم أن ذلك يخرج عن كونه حراما بشرطين : أحدهما : أن يكون الرجل قد راض نفسه وجاهدها ، وسواها على الصبر عن الطعام أسبوعا وما يقاربه ، بحيث يصبر عنه بلا ضيق قلب وتشوش خاطر ، وتعذر فى ذكر الله تعالى . والثانى : أن يكون بحيث يقوى على التقوت بالحشيش وما يتفق من الأشياء الخسيسة . فبعد هذين الشرطين لا يخلو فى غالب الأمر

فى البوادى فى كل أسبوع عن أن يلقاه آدمي ، أو ينتهى إلى حلة ، أو قرية ، أو إلى حشيس يجتزى به ، فيحيا به مجاهدا نفسه . والمجاهدة عماد التوكل . وعلى هذا كان يعول الخوّاص ونظراؤه من المتوكلين

والدليل عليه أن الخوّاص كان لاتفارقه الإبرة ، والمقراض ، والحبل ، والركوة ويقول : هذا لايقدح فى التوكل . وسببه أنه علم أن البوادى لايكون الماء فيها على وجه الأرض . وماجرت سنة الله تعالى بصعود الماء من البئر بغير دلو ولا حبل . ولا يغلب وجود الحبل والدلو فى البوادى كما يغلب وجود الحشيش . والماء يحتاج إليه لوضوئه كل يوم مرات ، ولعطشه فى كل يوم أو يومين مرة ، فإن المسافر مع حرارة الحركة لايصبر عن الماء وإن صبر عن الطعام . وكذلك يكون له ثوب واحد وربما يتخرق فتنكشف عورته ولا يوجد المقراض والإبرة فى البوادى غالبا عند كل صلاة ، ولا يقوم مقامهما فى الخياطة والقطع شيء مما يوجد فى البوادى . فكل مافى معنى هذه الأربعة أيضا يلتحق بالدرجة الثانية ، لأنه مظنون ظنا ليس مقطوعا به ، لأنه يحتمل أن لايتخرق الثوب ، أو يعطيه إنسان ثوبا ، أو يجد على رأس البئر من يسقيه . ولا يحتمل أن يتحرك الطعام ممضوغا إلى فيه . فبين الدرجتين فرقان ، ولكن الثانى فى معنى الأول

ولهذا نقول لو انحاز إلى شعب من شعاب الجبال حيث لا ماء ولا حشيش ، ولا يطرقه طارق فيه ، وجلس متوكلا ، فهو آثم به ، ساع فى هلاك نفسه . كما روي أن زاهدا من الزهاد فارق الأمصار وأقام فى سفح جبل سبعا وقال : لاأسأل أحدا شيئا حتى يأتيني ربى برزقى . فقعد سبعا ، فكاد يموت ولم يأته رزق . فقال : يارب إن أحييتنى فائتنى برزقى الذى قسمت لى ، وإلا فاقبضنى إليك . فأوحى الله جل ذكره إليه : وعزتى لا أرزقتك حتى تدخل الأمصار وتقعد بين الناس . فدخل المصر وقعد ، فجاءه هذا بطعام ، وهذا بشراب ، فأكل وشرب ، وأوجس فى نفسه من ذلك ، فأوحى الله تعالى إليه : أردت أن تذهب حكمتى بزهدك فى الدنيا . أما علمت أنى أن أرزق عبدى بأيدى عبادى أحب إلى من أن أرزقه بيد قدرتى . فإذاً التباعد عن الأسباب كلها مراغمة للحكمة ، وجهل بسنة الله تعالى ، والعمل بموجب سنة الله تعالى مع الاتكال على الله عز وجل دون الأسباب لايناقض التوكل ، كما ضربناه مثلا فى الوكيل بالخصومة من قبل . ولكن الأسباب تنقسم إلى ظاهرة وإلى خفية فمعنى التوكل الاكتفاء بالأسباب الخفية عن الأسباب الظاهرة مع سكون النفس إلى مسبب السبب لا إلى السبب . فإن قلت فما قولك فى القعود فى البلد

حكم القعود في البلد من غير كسب

بغير كسب، أهو حرام أو مباح أو مندوب ؟ فاعلم أن ذلك ليس بحرام ، لأن صاحب السياحة في البادية إذا لم يكن مهلكا نفسه فهذا كيف كان لم يكن مهلكا نفسه حتى يكون فعله حراما . بل لا يبعد أن يأتيه الرزق من حيث لا يحتسب ، ولكن قد يتأخر عنه ، والصبر ممكن إلى أن يتفق ، ولكن لو أغلق باب البيت على نفسه بحيث لا طريق لأحد إليه ففعله ذلك حرام . وإن فتح باب البيت وهو بطال غير مشغول بعبادة فالكسب والخروج أولى له ، ولكن ليس فعله حراما إلا أن يشرف على الموت ، فعند ذلك يلزمه الخروج والسؤال والكسب . وإن كان مشغول القلب بالله ، غير مستشرف إلى الناس ، ولا متطلع إلى من يدخل من الباب فيأتيه برزقه ، بل تطلعه إلى فضل الله تعالى واشتغاله بالله ، فهو أفضل . وهو من مقامات التوكل . وهو أن يشتغل بالله تعالى ، ولا يهتم برزقه ، فإن الرزق يأتيه لا محالة . وعند هذا يصح ما قاله بعض العلماء ، وهو أن العبد لو هرب من رزقه لطلبه ، كما لو هرب من الموت لأدركه . وأنه لو سأل الله تعالى أن لا يرزقه لما استجاب له وكان عاصيا ، ولقال له يا جاهل كيف أخلقك ولا أرزقك ! . ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما اختلف الناس في كل شيء إلا في الرزق والأجل ، فإنهم أجمعوا على أن لا رازق ولا مميت إلا الله تعالى

وقال صلى الله عليه وسلم [١] « لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصاً وَتَرُوحُ بِطَاناً وَلَزَالَتْ بِدُعَائِكُمُ الْجِبَالُ »

وقال عيسى عليه السلام : انظروا إلى الطير لا تزرع ولا تحصد ولا تدخر ، والله تعالى يرزقها يوما بيوم . فإن قلتم نحن أكبر بطونا فانظروا إلى الأنعام كيف قيض الله تعالى لها هذا الخلق للرزق

وقال أبو يعقوب السوسي . المتوكلون تجري أرزاقهم على أيدي العباد بلا تعب منهم وغيرهم مشغولون مكدودون . وقال بعضهم . العبيد كلهم في رزق الله تعالى ، لكن بعضهم يأكل بذل كالسؤال ، وبعضهم بتعب وانتظار كالتجار ، وبعضهم بامتهان كالصناع وبعضهم بعز كالصوفية ، يشهدون العزيز ، فيأخذون رزقهم من يده ولا يرون الواسطة

---

(١) حديث لو توكلتم على الله حق توكله ـ الحديث : وزاد في آخره ولزالت بدعائكم الجبال وقد تقدم قريبا دون هذه الزيادة فرواها الامام محمد بن نصر في كتاب تعظيم قدر الصلاة من حديث معاذ ابن جبل باسناد فيه لين لو عرفتم الله حق معرفته لمشيتم على البحور ولزالت بدعائكم الجبال ورواه البيهقي في الزهد من رواية وهيب المكي مرسلا دون قوله لمشيتم على البحور وقال هذا منقطع

الدرجة الثالثة : ملابسة الأسباب التي يتوهم إفضاؤها إلى المسببات من غير ثقة ظاهرة كالذي يستقصى فى التدبيرات الدقيقة فى تفصيل الاكتساب ووجوهه. وذلك يخرج بالكلية عن درجات التوكل كلها ، وهو الذى فيه الناس كلهم . أعنى من يكتسب بالحيل الدقيقة اكتسابا مباحا لمال مباح . فأما أخذ الشبهة أو اكتساب بطريق فيه شبهة فذلك غاية الحرص على الدنيا والاتكال على الأسباب . فلا يخفى أن ذلك يبطل التوكل . وهذا مثل الأسباب التى نسبتها إلى جالب النافع مثل نسبة الرقية والطيرة والكي بالإضافة إلى إزالة الضار ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم وصف المتوكلين بذلك ، ولم يصفهم بأنهم لا يكتسبون ولا يسكنون الأمصار ، ولا يأخذون من أحد شيئا ، بل وصفهم بأنهم يتعاطون هذه الأسباب . وأمثال هذه الأسباب التى يوثق بها فى المسببات مما يكثر فلا يمكن إحصاؤها

الأسباب الموهمة الافضاء الى المسببات

وقال سهل فى التوكل : إنه ترك التدبير . وقال إن الله خلق الخلق ولم يحجبهم عن نفسه وإنما حجابهم بتدبيرهم . ولعله أراد به استنباط الأسباب البعيدة بالفكر ، فهي التى تحتاج إلى التدبير دون الأسباب الجلية . فإذاً قد ظهر أن الأسباب منقسمة إلى ما يخرج التعلق بها عن التوكل ، وإلى ما لا يخرج . وأن الذى يخرج ينقسم إلى مقطوع به ، وإلى مظنون. وأن المقطوع به لا يخرج عن التوكل عند وجود حال التوكل وعلمه ، وهو الاتكال على مسبب الأسباب ، فالتوكل فيها بالحال والعلم لا بالعمل . وأما المظنونات فالتوكل فيها بالحال والعلم والعمل جميعا . والمتوكلون فى ملابسة هذه الأسباب على ثلاثة مقامات

درجات المتوكلين الآخذين فى الأسباب

الأول : مقام الخوّاص ونظرائه ، وهو الذى يدور فى البوادى بغير زاد ثقة بفضل الله تعالى عليه فى تقويته على الصبر أسبوعا وما فوقه ، أو تيسير حشيش له أو قوت ، أو تثبيته على الرضا بالموت إن لم يتيسر شيء من ذلك . فإن الذى يحمل الزاد قد يفقد زاده ، أو يضل بعيره ، ويموت جوعا ، فذلك ممكن مع الزاد ، كما أنه يمكن مع فقده

المقام الثانى : أن يقعد فى بيته أو فى مسجد ، ولكنه فى القرى والأمصار ، وهذا أضعف من الأوّل ولكنه أيضا متوكل لأنه تارك للكسب والأسباب الظاهرة ، معوّل على فضل الله تعالى فى تدبير أمره من جهة الأسباب الخفية ، ولكنه بالقعود فى الأمصار متعرض لأسباب الرزق ، فإن ذلك من الأسباب الجالبة ، إلا أن ذلك لا يبطل توكله إذا كان نظره

إلى الذى يسخر له سكان البلد لإيصال رزقه إليه لا إلى سكان البلد ، إذ يتصور أن يغفل جميعهم عنه ويضيعوه لولا فضل الله تعالى بتعريفهم وتحريك دواعيهم

المقام الثالث : أن يخرج ويكتسب اكتسابا على الوجه الذى ذكرناه فى الباب الثالث والرابع من كتاب آداب الكسب . وهذا السعي لا يخرجه أيضا عن مقامات التوكل إذا لم يكن طمأنينة نفسه إلى كفايته وقوته ، وجاهه وبضاعته ، فإن ذلك ربما يهلكه الله تعالى جميعه فى لحظة . بل يكون نظره إلى الكفيل الحق بحفظ جميع ذلك وتيسير أسبابه له ، بل يري كسبه وبضاعته وكفايته بالإضافة إلى قدرة الله تعالى كما يرى القلم فى يد الملك الموقع فلا يكون نظره إلى القلم بل إلى قلب الملك أنه بماذا يتحرك ، وإلى ماذا يميل ، وبم يحكم

ثم إن كان هذا المكتسب مكتسبا لعياله ؛ أو ليفرق على المساكين فهو ببدنه مكتسب ، وبقلبه عنه منقطع . فحال هذا أشرف من حال القاعد فى بيته

الاكتساب لا ينافى التوكل

والدليل على أن الكسب لا ينافى حال التوكل إذا روعيت فيه الشروط ، وانضاف إليه الحال والمعرفة كما سبق ، أن الصديق رضي الله عنه لما بويع بالخلافة أصبح آخذ الأثواب تحت حضنه والذراع بيده ، ودخل السوق ينادى حتى كرهه المسلمون وقالوا : كيف تفعل ذلك وقد أقمت لخلافة النبوة ! فقال لا تشغلونى عن عيالى ، فإنى إن أضعتهم كنت لما سواهم أضيع . حتى فرضوا له قوت أهل بيت من المسلمين . فلما رضوا بذلك رأى مساعدتهم ، وتطييب قلوبهم ، واستغراق الوقت بمصالح المسلمين أولى . ويستحيل أن يقال لم يكن الصديق فى مقام التوكل . فمن أولى بهذا المقام منه ! فدل على أنه كان متوكلا لا باعتبار ترك الكسب والسعي ، بل باعتبار قطع الالتفات إلى قوته وكفايته ، والعلم بأن الله هو ميسر الاكتساب ومدبر الأسباب ، وبشروط كان راعيها فى طريق الكسب من الاكتفاء بقدر الحاجة من غير استكثار ، وتفاخر ، وادخار ، ومن غير أن يكون درهمه أحب إليه من درهم غيره . فمن دخل السوق ودرهمه أحب إليه من درهم غيره فهو حريص على الدنيا ومحب لها . ولا يصح التوكل إلا مع الزهد فى الدنيا . نعم يصح الزهد دون التوكل فإن التوكل مقام وراء الزهد

وقال أبو جعفر الحداد : وهو شيخ الجنيد رحمة الله عليهما ، وكان من المتوكلين . أخفيت التوكل عشرين سنة وما فارقت السوق . كنت أكتسب فى كل يوم دينارا ولا أبيت منه

دانقا، ولا أستريح منه إلى قيراط أدخل به الحمام، بل أخرجه كله قبل الليل. وكان الجنيد لا يتكلم في التوكل بحضرته، وكان يقول أستحي أن أتكلم في مقامه وهو حاضر عندي. واعلم أن الجلوس في رباطات الصوفية مع معلوم بعيد من التوكل. فإن لم يكن معلوم ووقف، وأمروا الخادم بالخروج للطلب لم يصح معه التوكل إلا على ضعف، ولكن يقوى بالحال والعلم كتوكل المكتسب. وإن لم يسألوا بل قنعوا بما يحمل إليهم فهذا أقوى في توكلهم. لكنه بعد اشتهار القوم بذلك، فقد صار لهم سوقا، فهو كدخول السوق ولا يكون داخل السوق متوكلا إلا بشروط كثيرة كما سبق

فإن قلت: فما الأفضل أن يقعد في بيته أو يخرج ويكتسب؟ فاعلم أنه إن كان يتفرغ بترك الكسب لفكر، وذكر، وإخلاص، واستغراق وقت بالعبادة، وكان الكسب يشوش عليه ذلك، وهو مع هذا لا تستشرف نفسه إلى الناس في انتظار من يدخل عليه فيحمل إليه شيئا، بل يكون قوي القلب في الصبر والاتكال على الله تعالى، فالقعود له أولى: وإن كان يضطرب قلبه في البيت ويستشرف إلى الناس فالكسب أولى، لأن استشراف القلب إلى الناس سؤال بالقلب، وتركه أهم من ترك الكسب. وما كان المتوكلون يأخذون ما تستشرف إليه نفوسهم، كان أحمد بن حنبل قد أمر أبا بكر المروزي أن يعطي بعض الفقراء شيئا فضلا عما كان استأجره عليه، فرده فلما ولى قال له أحمد. الحقه وأعطه فإنه يقبل. فلحقه وأعطاه فأخذه. فسأل أحمد عن ذلك فقال. كان قد استشرفت نفسه فرد، فلما خرج انقطع طمعه وأيس فأخذ

وكان الخواص رحمه الله إذا نظر إلى عبد في العطاء أو خاف اعتياد النفس لذلك لم يقبل منه شيئا. وقال الخواص بعد أن سئل عن أعجب ما رآه في أسفاره. رأيت الخضر ورضي بصحبتي، ولكني فارقته خيفة أن تسكن نفسي إليه فيكون نقصا في توكلي. فإذا المكتسب إذا راعى آداب الكسب وشروط نيته كما سبق في كتاب الكسب وهو أن لا يقصد به الاستكثار، ولم يكن اعتماده على بضاعته وكفايته كان متوكلا. فإن قلت فما علامة عدم اتكاله على البضاعة والكفاية؟ فأقول: علامته أنه إن سرقت بضاعته، أو خسرت تجارته أو تعوق أمر من أموره كان راضيا به، ولم تبطل طمأنينته، ولم يضطرب قلبه بل كان حال قلبه في السكون قبله وبعده واحدا. فإن من لم يسكن إلى شيء لم يضطرب لفقده. ومن اضطرب لفقد شيء فقد سكن إليه. وكان بشر يعمل المغازل فتركها، وذلك لأن البغادي كاتبه قال: بلغني أنك

علامة المكتسب غير المتوكل

استعنت على رزقك بالمغازل ، أرأيت إن أخذ الله سمعك وبصرك ، الرزق على من ؟ فوقع ذلك فى قلبه، فأخرج آلة المغازل من يده وتركها . وقيل تركها لما نوهت باسمه وقصد لأجلها. وقيل فعل ذلك لما مات عياله، كما كان لسفيان خمسون دينارا يتجر فيها ، فلما مات عياله فرقها

فإن قلت : فكيف يتصور أن يكون له بضاعة ولا يسكن إليها ، وهو يعلم أن الكسب بغير بضاعة لا يمكن ؟ فأقول بأن يعلم أن الذين يرزقهم الله تعالى بغير بضاعة فيهم كثرة ، وأن الذين كثرت بضاعتهم فسرقت وهلكت فيهم كثرة ، وأن يوطن نفسه على أن الله لا يفعل به إلا ما فيه صلاحه ، فإن أهلك بضاعته فهو خير له ، فلعله لو تركه كان سببا لفساد دينه ، وقد لطف الله تعالى به ، وغايته أن يموت جوعا ، فينبغى أن يعتقد أن الموت جوعا خير له فى الآخرة مهما قضى الله تعالى عليه بذلك ، من غير تقصير من جهته . فإذا اعتقد جميع ذلك استوى عنده وجود البضاعة وعدمها . ففى الخبر [1] « إِنَّ الْعَبْدَ لَيَهُمُّ مِنَ اللَّيْلِ بِأَمْرٍ مِنْ أُمُورِ التِّجَارَةِ مِمَّا لَوْ فَعَلَهُ لَكَانَ فِيهِ هَلَاكُهُ فَيَنْظُرُ اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ مِنْ فَوْقِ عَرْشِهِ فَيَصْرِفُهُ عَنْهُ فَيُصْبِحُ كَئِيباً حَزِيناً يَتَطَيَّرُ بِجَارِهِ وَابْنِ عَمِّهِ مَنْ سَبَقَنِى مَنْ دَهَانِى وَمَا هِىَ إِلَّا رَحْمَةٌ رَحِمَهُ اللهُ بِهَا » . ولذلك قال عمر رضي الله عنه لا أبالى أصبحت غنيا أو فقيرا ، فإنى لا أدرى أيهما خير لى . ومن لم يتكامل يقينه بهذه الأمور لم يتصور منه التوكل . ولذلك قال أبو سليمان الدارانى لأحمد بن أبى الحوارى : لى من كل مقام نصيب إلا من هذا التوكل المبارك ، فإنى ما شممت منه رائحة . هذا كلامه مع علو قدره ، ولم ينكر كونه من المقامات الممكنة، ولكنه قال ما أدركته . ولعله أراد إدراك أقصاه

وما لم يكمل الإيمان بأن لا فاعل إلا الله . ولا رازق سواه ، وأن كل ما يقدره على العبد من فقر ، وغنى ، وموت ، وحياة فهو خير له مما يتمناه العبد ، لم يكمل حال التوكل فبناء التوكل على قوة الإيمان بهذه الأمور كما سبق . وكذا سائر مقامات الدين من الأقوال والأعمال تنبنى على أصولها من الإيمان . وبالجملة: التوكل مقام مفهوم، ولكن يستدعى قوة القلب وقوة اليقين . ولذلك قال سهل: من طعن على التكسب فقد طعن على السنة . ومن طعن على

---

(١) حديث ان العبد ليهم من الليل بأمر من أمور التجارة مما لو فعله لكان فيه هلاكه فينظر الله إليه من فوق عرشه فيصرفه عنه ـ الحديث : أبو نعيم فى الحلية من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف جدا نحوه الا انه قال ان العبد ليشرف على حاجة من حاجات الدنيا ـ الحديث بنحوه

ترك التكسب فقد طعن على التوحيد . فإن قلت فهل من دواء ينتفع به فى صرف القلب عن الركون إلى الأسباب الظاهرة ، وحسن الظنّ بالله تعالى فى تيسير الأسباب الخفية ؟

فأقول نعم هو أن تعرف أن سوء الظنّ تلقين الشيطان ، وحسن الظنّ تلقين الله تعالى قال الله تعالى (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً[1]) فإن الإنسان بطبعه مشغوف بسماع تخويف الشيطان ولذلك قيل: الشفيق بسوء الظن مولع . وإذا انضم إليه الجبن ، وضعف القلب ، ومشاهدة المتكلين على الأسباب الظاهرة والباعثين عليها ، غلب سوء الظنّ وبطل التوكل بالكلية . بل رؤية الرزق من الأسباب الخفية أيضا تبطل التوكل . فقد حكي عن عابد أنه عكف فى مسجد ولم يكن له معلوم ، فقال له الإمام لو اكتسبت لكان أفضل لك . فلم يجبه حتى أعاد عليه ثلاثا ، فقال: فى الرابعة يهودي فى جوار المسجد قد ضمن لى كل يوم رغيفين . فقال: إن كان صادقا فى ضمانه فعكوفك فى المسجد خير لك . فقال : ياهذا لولم تكن إماما تقف بين يدي الله وبين العباد مع هذا النقص فى التوحيد كان خيراً لك ، إذ فضلت وعد يهودي على ضمان الله تعالى بالرزق

وقال إمام المسجد لبعض المصلين : من أين تأكل ؟ فقال ياشيخ اصبر حتى أعيد الصلاة التى صليتها خلفك ثم أجيبك . وينفع فى حسن الظنّ بمجيء الرزق من فضل الله تعالى بواسطة الأسباب الخفية أن تسمع الحكايات التى فيها عجائب صنع الله تعالى فى وصول الرزق إلى صاحبه ، وفيه عجائب قهر الله تعالى فى إهلاك أموال التجار والأغنياء وقتلهم جوعا كما روي عن حذيفة المرعشى ، وقد كان خدم ابراهيم بن أدهم ، فقيل له . ماأعجب مارأيت منه ؟ فقال . بقينا فى طريق مكة أياما لم نجد طعاما . ثم دخلنا الكوفة . فأوينا إلى مسجد خراب ، فنظر إلىّ إبراهيم وقال . ياحذيفة ، أرى بك الجوع . فقلت هو مارأى الشيخ فقال علي بدواة وقرطاس . فجئت به إليه فكتب . بسم الله الرحمن الرحيم . أنت المقصود إليه بكل حال ؛ والمشار إليه بكل معنى . وكتب شعرا

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر أنا جائع أنا ضائع أنا عارى

هي ستة وأنا الضمين لنصفها فكن الضمين لنصفها ياباري

---

(1) البقرة : ٢٦٨

مدحى لغيرك لهب نار خضتها	فأجر عبيدك من دخول النار

ثم دفع إليّ الرقعة ، فقال اخرج ولا تعلق قلبك بغير الله تعالى ، وادفع الرقعة إلى أول من يلقاك . فخرجت ، فأول من لقيني كان رجلا على بغلة ، فناولته الرقعة فأخذها ، فلما وقف عليها بكى وقال : مافعل صاحب هذه الرقعة ؟ فقلت هو فى المسجد الفلانى . فدفع إليّ صرة فيها ستمائة دينار . ثم لقيت رجلا آخر ، فسألته عن راكب البغلة ، فقال هذا نصراني . فجئت إلى إبراهيم وأخبرته بالقصة ، فقال لاتمسها فإنه يجيء الساعة . فلما كان بعد ساعة دخل النصراني ، وأكب على رأس إبراهيم يقبله ، وأسلم

وقال أبو يعقوب الأقطع البصرى . جعت مرة بالحرم عشرة أيام ، فوجدت ضعفا ، فحدثتني نفسى بالخروج . فخرجت إلى الوادى لعلى أجد شيئا يسكن ضعفى . فرأيت سلجمة مطروحة ، فأخذتها ، فوجدت فى قلبي منها وحشة ، وكأن قائلا يقول لى جعت عشرة أيام ، وآخره يكون حظك سلجمة متغيرة فرميت بها ودخلت المسجد وقعدت . فإذا أنا برجل أعجمي قد أقبل حتى جلس بين يدى ووضع قمطرة ، وقال هذه لك . فقلت كيف خصصتنى بها ؟ قال اعلم أنا كنا فى البحر منذ عشرة أيام ، وأشرفت السفينة على الغرق ، فنذرت إن خلصنى الله تعالى أن أتصدق بهذه على أول من يقع عليه بصرى من المجاورين ، وأنت أول من لقيته : فقلت . افتحها . ففتحها فإذا فيها سميد مصري ، ولوز مقشور ، وسكر كعاب ، فقبضت قبضة من ذا وقبضة من ذا وقلت رد الباقى إلى أصحابك هدية منى إليكم وقد قبلتها ، ثم قلت فى نفسى رزقك يسير إليك من عشرة أيام وأنت تطلبه من الوادى

وقال ممشاد الدينوري . كان علي دين ، فاشتغل قلبي بسببه . فرأيت فى النوم كأن قائلا يقول : يابخيل ، أخذت علينا هذا المقدار من الدين ، خذ عليك الأخذ وعلينا العطاء ، فما حاسبت بعد ذلك بقالا ولا قصابا ولا غيرهما

وحكي عن بنان الحمال قال : كنت فى طريق مكة أجيء من مصر ومعى زاد ، فجاءتنى امرأة وقالت لى يابنان ، أنت حمال تحمل على ظهرك الزاد وتتوهم أنه لايرزقك ! قال فرميت بزادي . ثم أتى علي ثلاث لم آكل ، فوجدت خلخالا فى الطريق ، فقلت

فى نفسى أحمله حتى يجيء صاحبه ، فربما يعطينى شيئا فأرده عليه . فإذا أنا بتلك المرأة فقالت لى: أنت تاجر تقول عسى يجيء صاحبه فآخذ منه شيئا ! ثم رمت لى شيئا من الدراهم وقالت: أنفقها . فاكتفيت بها إلى قريب من مكة

وحكي أن بنانا احتاج إلى جارية تخدمه ، فانبسط إلى إخوانه فجمعوا له ثمنها ، وقالوا هو ذا يجيء النفير فنشترى مايوافق . فلما ورد النفير اجتمع رأيهم على واحدة ، وقالوا إنها تصلح له . فقالوا لصاحبها . بكم هذه ؟ فقال إنها ليست للبيع . فألحوا عليه ، فقال إنها لبنان الحمال ، أهدتها إليه امرأة من سمرقند ، فحملت إلى بنان وذكرت له القصة

وقيل كان فى الزمان الأول رجل فى سفر ومعه قرص . فقال إن أكلته مت . فوكل الله عز وجل به ملكا وقال : إن أكلـه فارزقه ، وإن لم يأكله فلا تعطه غيره . فلم يزل القرص معه إلى أن مات ولم يأكله ، وبقى القرص عنده

وقال أبو سعيد الخراز . دخلت البادية بغير زاد ، فأصابتنى فاقة ، فرأيت المرحلة من بعيد ، فسررت بأن وصلت . ثم فكرت فى نفسى أنى سكنت واتكلت على غيره ؛ وآليت أن لا أدخل المرحلة إلا أن أحمل إليها . فحفرت لنفسى فى الرمل حفرة ، وواريت جسدى فيها إلى صدرى . فسمعت صوتا فى نصف الليل عاليا . ياأهل المرحلة ، إن لله تعالى وليـا حبس نفسه فى هذا الرمل فالحقوه . فجاء جماعة فأخرجونى وحملونى إلى القرية

وروي أن رجلا لازم باب عمر رضي الله عنه ، فإذا هو بقائل يقول . ياهذا هاجرت إلى عمر أو إلى الله تعالى ؟ اذهب فتعلم القرءان فإنه سيغنيك عن باب عمر . فذهب الرجل وغاب حتي افتقده عمر ، فإذا هو قد اعتزل واشتغل بالعبادة . فجاءه عمر فقال له . إنى قد اشتقت إليك ، فما الذى شغلك عنى ؟ فقال إنى قرأت القرءان فأغنانى عن عمر وآل عمر . فقال عمر : رحمك الله ، فما الذى وجـدت فيه ؟ فقال وجـدت فيه (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ [1]) فقلت رزقى فى السماء وأنا أطلبه فى الأرض ، فبكى عمر وقال صدقت . فكان عمر بعـــد ذلك يأتيه ويجلس إليه

وقال أبو حمزة الخراسانى : حججت سنة من السنين ، فبينا أنا أمشى فى الطريق إذ وقعت

---

(١) الذاريات : ٢٢

فى بئر . فنازعتنى نفسى أن أستغيث ، فقلت لا والله لا أستغيث . فما استتممت هذا الخاطر حتى مرّ برأس البئر رجلان ، فقال أحدهما للآخر . تعالى حتى نسد رأس هذا البئر لئلا يقع فيه أحد . فأتوا بقصب وبارية ، وطموا رأس البئر ، فهممت أن أصيح ، فقلت في نفسى . إلى من أصيح ؟ هو أقرب منهما . وسكنت . فبينا أنا بعد ساعة ، إذ أنا بشيء جاء وكشف عن رأس البئر وأدلى رجله ، وكأنه يقول . تعلق بى ، فى همهمة له كنت أعرف ذلك فتعلقت به فأخرجنى ، فإذا هو سبع ، فمر وهتف بى هاتف . يا أبا حمزة ، أليس هـذا أحسن ؟ نجيناك من التلف بالتلف . فمشيت وأنا أقول

نهانى حيائى منك أن أكشف الهوى　　وأغنيتنى بالفهم منك عن الكشف

تلطفت فى أمرى فأبديت شاهدى　　إلى غائبي واللطف يدرك باللطف

تراءيت لى بالغيب حتى كأنما　　تبشرنى بالغيب أنك فى الكف

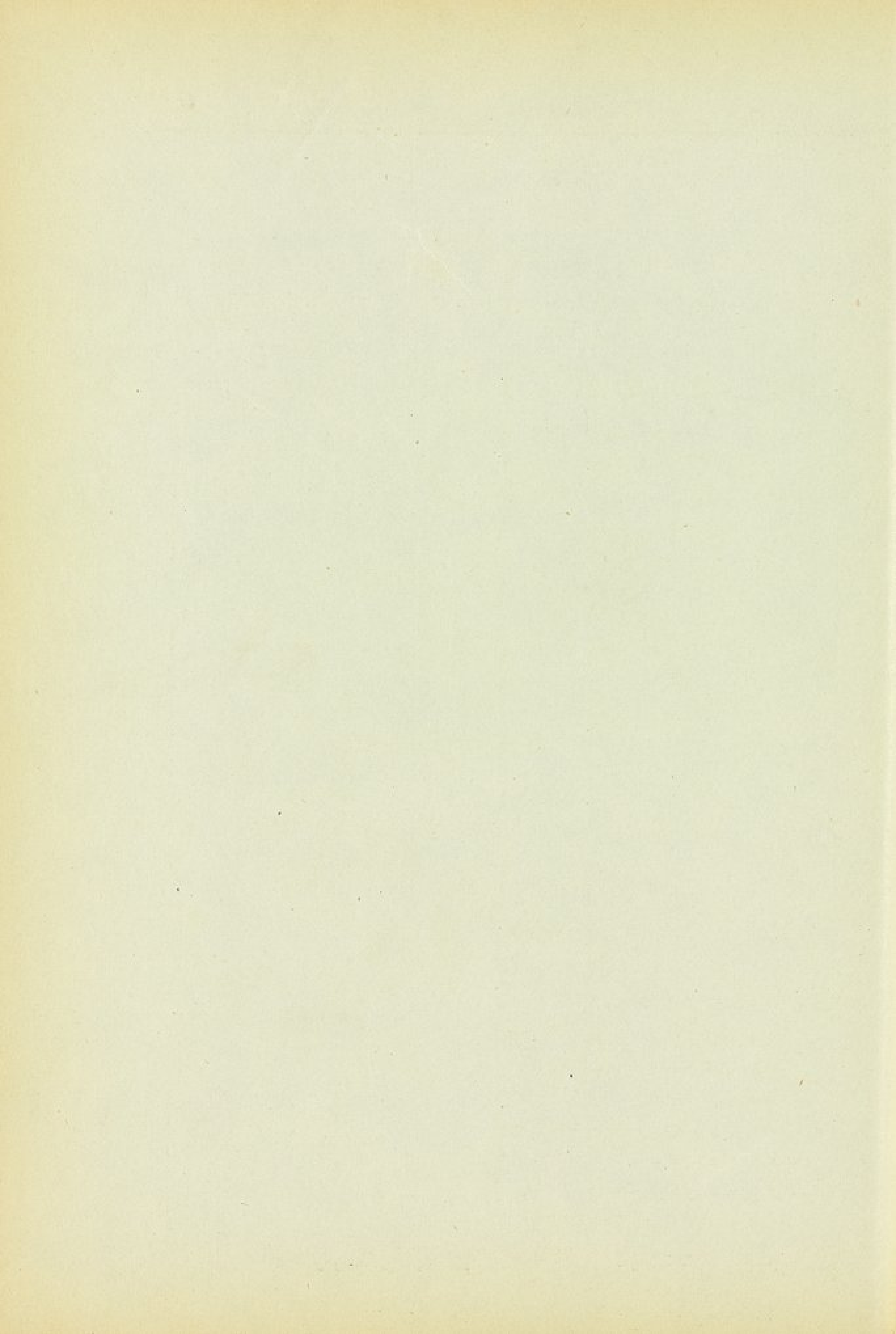
أراك وبى من هيبتى لك وحشة　　فتؤنسنى باللطف منك وبالعطف

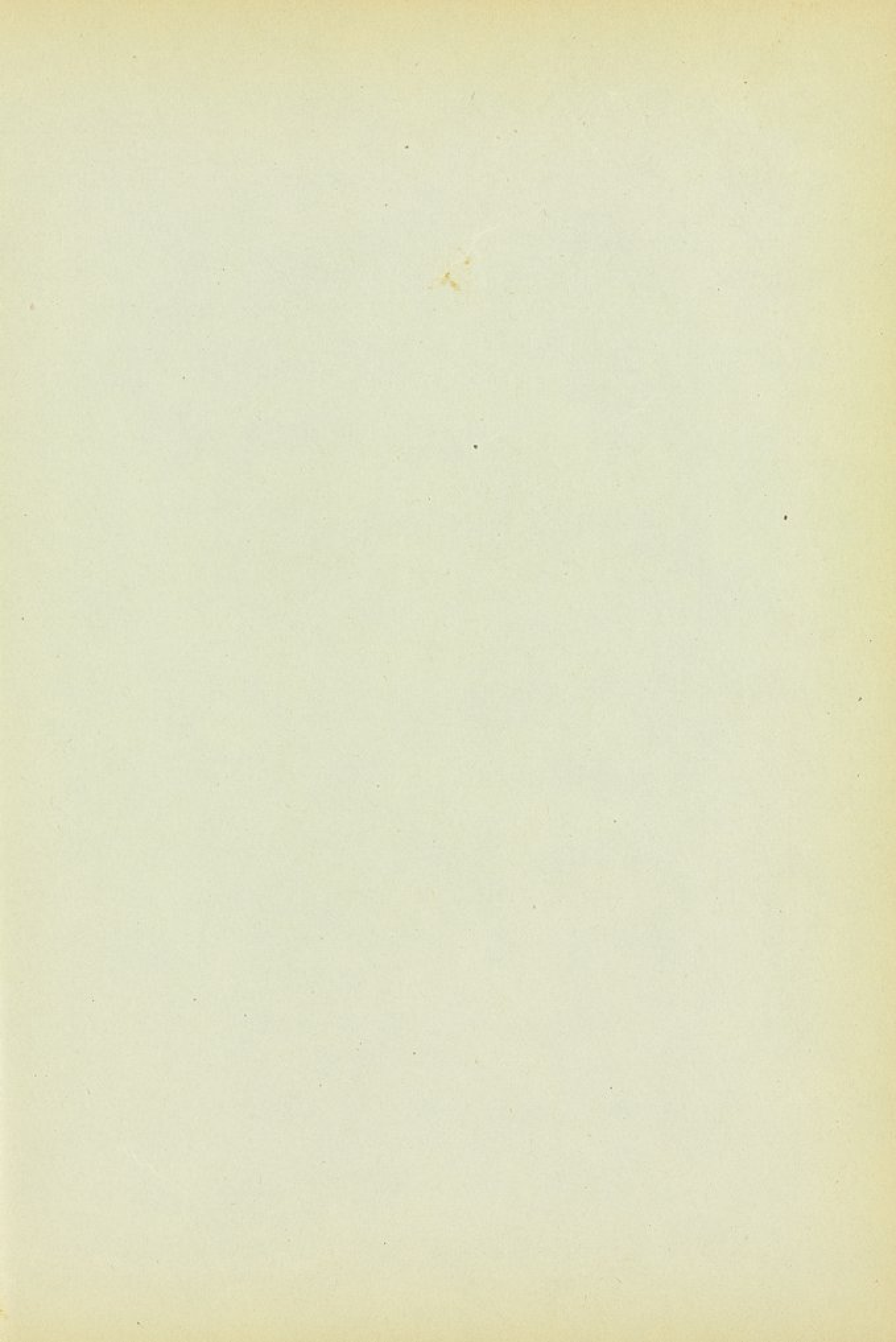
وتحيي محبا أنت فى الحب حتفه　　وذا عجب كون الحياة مع الحتف

وأمثال هذه الوقائع مما يكثر . وإذا قوي الإيمان به ، وانضم إليه القدرة على الجوع قدر أسبوع من غير ضيق صدر ، وقوي الإيمان بأنه إن لم يسق إليه رزقه فى أسبوع فالموت خير له عند الله عز وجل ، ولذلك حبسه عنه ، تم التوكل بهذه الأحوال والمشاهدات . وإلا فلا يتم أصلا

لجنة نشر الثقافة الاسلامية – ٣٠٠٠ – ١٥٠٠ – ٦ شعبان سنة ١٣٥٧

فهرست الجزء الثالث عشر





لجنة
نشر الثقافة الإسلامية
بدار جمعية الجهاد الاسلامى

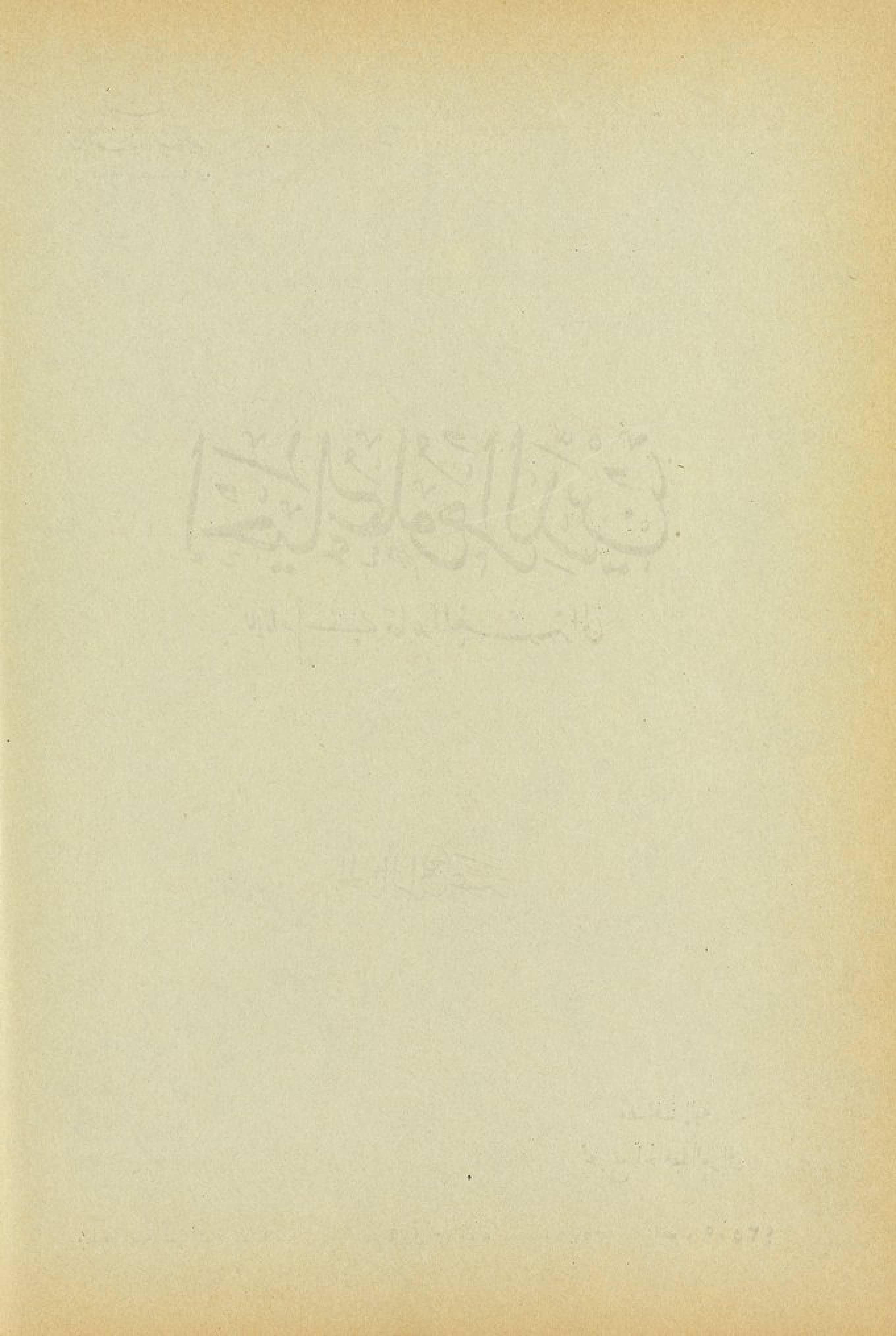
إحياء علوم الدين

للإمام أبى حامد الغزالى

الجزء الرابع عشر

مضاف إليه
تخريج الحافظ العراقى

مطبعة لجنة نشر الثقافة الاسلامية شارع الناصرية رقم ١٣ القاهرة - سنة ١٣٥٧ تليفون ٤٢٥٠٩



بيان
توكل المعيل

الفرق بين توكل المنفرد والمعيل

اعلم أن من له عيال فحكمه يفارق المنفرد . لأن المنفرد لا يصح توكله إلا بأمرين .

أحدهما : قدرته على الجوع أسبوعا من غير استشراف وضيق نفس

والآخر : أبواب من الإيمان ذكرناها ، من جملتها أن يطيب نفسا بالموت إن لم يأته رزقه ؛ علما بأن رزقه الموت والجوع ، وهو وإن كان نقصا فى الدنيا فهو زيادة فى الآخرة فيرى أنه سيق إليه خير الرزقين له وهو رزق الآخرة ، وأن هذا هو المرض الذى به يموت ويكون راضيا بذلك ، وأنه كذا قضى وقدر له ، فبهذا يتم التوكل للمنفرد

ولا يجوز تكليف العيال الصبر على الجوع ، ولا يمكن أن يقرر عندهم الإيمان بالتوحيد وأن الموت على الجوع رزق مغبوط عليه فى نفسه إن اتفق ذلك نادرا . وكذا سائر أبواب الإيمان . فإذاً لا يمكنه فى حقهم إلا توكل المكتسب ، وهو المقام الثالث ؛ كتوكل أبى بكر الصديق رضي الله عنه إذ خرج للكسب

فأما دخول البوادى وترك العيال توكلا فى حقهم ، أو القعود عن الاهتمام بأمرهم توكلا فى حقهم ، فهذا حرام ، وقد يفضى إلى هلاكهم ، ويكون هو مؤاخذا بهم . بل التحقيق أنه لا فرق بينه وبين عياله ، فإنه إن ساعده العيال على الصبر على الجوع مدة ، وعلى الاعتداد بالموت على الجوع رزقا وغنيمة فى الآخرة ، فله أن يتوكل فى حقهم . ونفسه أيضا عيال عنده ، ولا يجوز له أن يضيعها إلا أن تساعده على الصبر على الجوع مدة . فإن كان لا يطيقه ، ويضطرب عليه قلبه ، وتتشوش عليه عبادته ، لم يجز له التوكل

ولذلك روي أن أبا تراب النخشبي نظر إلى صوفي مدّ يده إلى قشر بطيخ ليأكله بعد ثلاثة أيام ، فقال له : لا يصلح لك التصوّف ، الزم السوق . أى لا تصوّف إلا مع التوكل ولا يصح التوكل إلا لمن يصبر عن الطعام أكثر من ثلاثة أيام . وقال أبو علي الروذباري : إذا قال الفقير بعد خمسة أيام أنا جائع فألزموه السوق ، ومروه بالعمل والكسب :

فإذاً بدنه عياله ، وتوكله فيما يضر ببدنه كتوكله فى عياله . وإنما يفارقهم فى شيء واحد وهو أن له تكليف نفسه الصبر على الجوع ، وليس له ذلك فى عياله

وقد انكشف لك من هذا أن التوكل ليس انقطاعا عن الأسباب ، بل الاعتماد على الصبر على الجوع مدة ، والرضا بالموت إن تأخر الرزق نادرا ، وملازمة البلاد والأمصار ، أو ملازمة البوادى التى لاتخلو عن حشيش وما يجرى مجراه ، فهذه كلها أسباب البقاء ، ولكن مع نوع من الأذى ، إذ لا يمكن الاستمرار عليه إلا بالصبر . والتوكل فى الأمصار أقرب إلى الأسباب من التوكل فى البوادى . وكل ذلك من الأسباب ، إلا أن الناس عدلوا إلى أسباب أظهر منها ، فلم يعدّوا تلك أسبابا ،وذلك لضعف إيمانهم ،وشدة حرصهم ، وقلة صبرهم على الأذى فى الدنيا لأجل الآخرة ،واستيلاء الجبن على قلوبهم بإساءة الظن وطول الأمل

ومن نظر فى ملكوت السموات والأرض انكشف له تحقيقا أن الله تعالى دبر الملك والملكوت تدبيرا لايجاوز العبد رزقه وإن ترك الاضطراب ، فإن العاجز عن الاضطراب لم يجاوزه رزقه . أما ترى الجنين فى بطن أمه لما أن كان عاجزا عن الاضطراب كيف وصل سرته بالأم حتى تنتهى إليه فضلات غذاء الأم بواسطة السرّة ، ولم يكن ذلك بحيلة الجنين. ثم لما انفصل سلط الحب والشفقة على الأم لتتكفل به شاءت أم أبت ، اضطرارا من الله تعالى إليه بما أشعل فى قلبها من نار الحب . ثم لما لم يكن له سن يمضغ به الطعام جعل رزقه من اللبن الذى لايحتاج إلى المضغ . ولأنه لرخاوة مزاجه كان لايحتمل الغذاء الكثيف فأدرّ له اللبن اللطيف فى ثدي الأم عند انفصاله على حسب حاجته ، أفكان هذا بحيلة الطفل أو بحيلة الأم ؟ فإذا صار بحيث يوافقه الغذاء الكثيف أنبت له أسنانا قواطع وطواحين لأجل المضغ . فإذا كبر واستقل يسر له أسباب التعلم وسلوك سبيل الآخرة . فجبنه بعد البلوغ جهل محض ، لأنه مانقصت أسباب معيشته ببلوغه بل زادت ، فإنه إن لم يكن قادرا على الاكتساب فالآن قد قدر فزادت قدرته . نعم كان المشفق عليه شخصا واحدا وهي الأم أو الأب ، وكانت شفقته مفرطة جدا ، فكان يطعمه ويسقيه فى اليوم مرة أو مرتين، وكان إطعامه بتسليط الله تعالى الحب والشفقة على قلبه ؛ فكذلك قد سلط الله الشفقة ، والمودة والرقة ، والرحمة على قلوب المسلمين ، بل أهل البلد كافة ، حتى أن كل واحد منهم إذا أحس بمحتاج تألم قلبه ورقّ عليه ، وانبعثت له داعية إلى إزالة حاجته . فقد كان المشفق عليه واحدا والآن المشفق عليه ألف وزيادة ،وقد كانوا لايشفقون عليه لأنهم رأوه فى كفالة الأم والأب

وهو مشفق خاص ، فما رأوه محتاجا . ولو رأوه يتيما لسلط الله داعية الرحمة على واحد من المسلمين ، أو على جماعة ، حتى يأخذونه ويكفلونه . فما رؤي إلى الآن في سني الخصب يتيم قد مات جوعا ، مع أنه عاجز عن الاضطراب ، وليس له كافل خاص ، والله تعالى كافله بواسطة الشفقة التي خلقها في قلوب عباده . فلماذا ينبغي أن يشتغل قلبه برزقه بعد البلوغ ولم يشتغل في الصبا ، وقد كان المشفق واحدا والمشفق الآن ألف ؟ نعم كانت شفقة الأم أقوى وأحظى ، ولكنها واحدة ، وشفقة آحاد الناس وإن ضعفت فيخرج من مجموعها ما يفيد الغرض . فكم من يتيم قد يسر الله تعالى له حالا هو أحسن من حال من له أب وأم فينجبر ضعف شفقة الآحاد بكثرة المشفقين ، وبترك التنعم ، والاقتصار على قدر الضرورة . ولقد أحسن الشاعر حيث يقول

جرى قلم القضاء بما يكون　　فسيان التحرك والسكون
جنون منك أن تسعى لرزق　　ويرزق في غشاوته الجنين

فإن قلت : الناس يكفلون اليتيم لأنهم يرونه عاجزا بصباه ، وأما هذا فبالغ قادر على الكسب فلا يلتفتون إليه ، ويقولون هو مثلنا فليجتهد لنفسه

فأقول . إن كان هذا القادر بطالا فقد صدقوا ، فعليه الكسب ، ولا معنى للتوكل في حقه ، فإن التوكل مقام من مقامات الدين يستعان به على التفرغ لله تعالى . فما للبطال والتوكل ! وإن كان مشتغلا بالله ، ملازما لمسجد أو بيت ، وهو مواظب على العلم والعبادة فالناس لا يلومونه في ترك الكسب ، ولا يكلفونه ذلك ، بل اشتغاله بالله تعالى يقرر حبه في قلوب الناس ، حتى يحملون إليه فوق كفايته . وإنما عليه أن لا يغلق الباب ، ولا يهرب إلى جبل من بين الناس . وما رؤي إلى الآن عالم أو عابد استغرق الأوقات بالله تعالى وهو في الأمصار فمات جوعا ، ولا يرى قط . بل لو أراد أن يطعم جماعة من الناس بقوله لقدر عليه . فإن من كان لله تعالى كان الله عز وجل له . ومن اشتغل بالله عز وجل ألقى الله حبه في قلوب الناس ، وسخر له القلوب كما سخر قلب الأم لولدها . فقد دبر الله تعالى الملك والملكوت تدبيرا كافيا لأهل الملك والملكوت فمن شاهد هذا التدبير وثق بالمدبر ، واشتغل به ، وآمن ونظر إلى مدبر الأسباب لا إلى الأسباب . نعم ما دبره تدبيرا يصل إلى المشتغل به الحلو والطيور السمان ، والثياب الرقيقة ، والخيول النفيسة على الدوام لا محالة . وقد يقع ذلك أيضا

فى بعض الأحوال : لكن دبره تدبيرا يصل إلى كل مشتغل بعبادة الله تعالى فى كل أسبوع قرص شعير أو حشيش يتناوله لامحالة . والغالب أنه يصل أكثر منه ، بل يصل مايزيد على قدر الحاجة والكفاية . فلا سبب لترك التوكل إلا رغبة النفس فى التنعم على الدوام ولبس الثياب الناعمة ، وتناول الأغذية اللطيفة ، وليس ذلك من طريق الآخرة . وذلك قد لايحصل بغير اضطراب ، وهو فى الغالب أيضا ليس يحصل مع الاضطراب ، وإنما يحصل نادرا . وفى النادر أيضا قد يحصل بغير اضطراب ، فأثر الاضطراب ضعف عند من انفتحت بصيرته فلذلك لايطمئن إلى اضطرابه ، بل إلى مدبر الملك والملكوت تدبيرا لايجاوز عبدا من عباده رزقه وإن سكن ، إلا نادرا ندورا عظيما يتصور مثله فى حق المضطرب

فإذا انكشفت هذه الأمور ، وكان معه قوة فى القلب وشجاعة فى النفس ، أثمر ماقاله الحسن البصرى رحمه الله إذ قال : وددت أن أهل البصرة فى عيالى وأن حبة بدينار . وقال وهيب بن الورد : لو كانت السماء نحاسا ، والأرض رصاصا ، واهتممت برزقى ، لظننت أنى مشرك

فإذا فهمت هذه الأمور فهمت أن التوكل مقام مفهوم في نفسه ، ويمكن الوصول إليه لمن قهر نفسه . وعلمت أن من أنكر أصل التوكل وإمكانه أنكره عن جهل ، فإياك أن تجمع بين الإفلاسين ، الإفلاس عن وجود المقام ذوقا ، والإفلاس عن الإيمان به علما

فإذاً عليك بالقناعة بالنذر القليل ، والرضا بالقوت فإنه يأتيك لامحالة وإن فررت منه وعند ذلك على الله أن يبعث إليك رزقك على يدى من لاتحتسب . فإن اشتغلت بالتقوى والتوكل شاهدت بالتجربة مصداق قوله تعالى (وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَايَحْتَسِبُ [1]) الآية إلا أنه لم يتكفل له أن يرزقه لحم الطير ولذائذ الأطعمة فاضمن إلا الرزق الذى تدوم به حياته . وهذا المضمون مبذول لكل من اشتغل بالضامن واطمأن إلى ضمانه . فإن الذى أحاط به تدبير الله من الأسباب الخفية للرزق أعظم مما ظهر للخلق . بل مداخل الرزق لاتحصى ، ومجاريه لايهتدى إليها ، وذلك لأن ظهوره على الأرض وسببه فى السماء . قال الله تعالى (وَفِى السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ [2]) وأسرار السماء لايطلع عليها . ولهذا دخل جماعة على الجنيد ، فقال ماذا تطلبون ؟ قالوا نطلب الرزق . فقال

---

(١) الطلاق : ١ ، ٢ (٢) الذاريات : ٢٢

إن علمتم أيّ موضع هو فاطلبوه . قالوا نسأل الله . قال إن علمتم أنه ينساكم فذكّروه . فقالوا ندخل البيت ونتوكل وننظر مايكون . فقال التوكل على التجربة شك . قالوا فما الحيلة ؟ قال ترك الحيلة .

وقال أحمد بن عيسى الخراز : كنت فى البادية فنالني جوع شديد ، فغلبتني نفسي أن أسأل الله تعالى طعاما ، فقلت ليس هذا من أفعال المتوكلين فطالبتنى أن أسأل الله صبرا ، فلما هممت بذلك سمعت هاتفا يهتف بي ويقول

ويزعم أنه منا قريب وأنا لانضيع من أتانا

ويسألنا على الإقتار جهدا كأنا لانراه ولا يرانا

فقد فهمت أن من انكسرت نفسه ، وقوي قلبه ، ولم يضعف بالجبن باطنه ، وقوي إيمانه بتدبير الله تعالى ، كان مطمئن النفس أبدا ، واثقا بالله عز وجل . فإن أسوأ حاله أن يموت ولا بد أن يأتيه الموت كما يأتى من ليس مطمئنا

فإذاً تمام التوكل بقناعة من جانب ، ووفاء بالمضمون من جانب . والذى ضمن رزق القانعين بهذه الأسباب التى دبرها صادق ، فاقنع وجرّب تشاهد صدق الوعد تحقيقيا بما يرد عليك من الأرزاق العجيبة التى لم تكن فى ظنك وحسابك . ولا تكن فى توكلك منتظرا للأسباب ، بل لمسبب الأسباب ، كما لا تكون منتظرا لقلم الكاتب ، بل لقلب الكاتب ، فإنه أصل حركة القلم . والمحرك الأول واحد ، فلا ينبغى أن يكون النظر إلا إليه . وهذا شرط توكل من يخوض البوادى بلا زاد ، أو يقعد فى الأمصار وهو خامل

وأما الذى له ذكر بالعبادة والعلم ، فإذا قنع فى اليوم والليلة بالطعام مرة واحدة كيف كان وإن لم يكن من اللذائذ ، وثوب خشن يليق بأهل الدين ، فهذا يأتيه من حيث يحتسب ولا يحتسب على الدوام . بل يأتيه أضعافه . فتركه التوكل واهتمامه بالرزق غاية الضعف والقصور ، فإن اشتهاره بسبب ظاهر يجلب الرزق إليه أقوى من دخول الأمصار فى حق الخامل مع الاكتساب . فالاهتمام بالرزق قبيح بذوى الدين ، وهو بالعلماء أقبح ، لأن شرطهم القناعة ، والعالم القانع يأتيه رزقه ورزق جماعة كثيرة وإن كانوا معه ، إلا إذا أراد أن لا يأخذ من أيدى الناس ويأكل من كسبه ، فذلك له وجه لائق بالعالم العامل الذى سلوكه بظاهر العلم والعمل ، ولم يكن له سير بالباطن . فإن الكسب يمنع عن السير بالفكر الباطن

اهتمام العلماء بالرزق قبيح

فاشتغاله بالسلوك مع الأخذ من يد من يتقرب إلى الله تعالى بما يعطيه أولى ، لأنه تفرغ لله عز وجل . وإعانة للمعطى على نيل الثواب .

ومن نظر إلى مجارى سنة الله تعالى ، علم أن الرزق ليس على قدر الأسباب . ولذلك سأل بعض الأكاسرة حكيما عن الأحمق المرزوق ، والعاقل المحروم ، فقال : أراد الصانع أن يدل على نفسه . إذ لو رزق كل عاقل ، وحرم كل أحمق ، لظن أن العقل رَزَقَ صاحبَه . فلما رأوا خلافه علموا أن الرازق غيرهم ، ولا ثقة بالأسباب الظاهرة لهم . قال الشاعر

ولو كانت الأرزاق تجرى على الحجا   هلكن إذاً من جهلهن البهائم

بيانه

أحوال المتوكلين فى التعلق بالأسباب بضرب مثال

مثال الخالق مع خلقه

اعلم أن مثال الخالق مع الله تعالى مثل طائفة من السؤّال وقفوا فى ميدان على باب قصر الملك، وهم محتاجون إلى الطعام . فأخرج إليهم غلمانا كثيرة ومعهم أرغفة من الخبز، وأمرهم أن يعطوا بعضهم رغيفين رغيفين، وبعضهم رغيفا رغيفا، ويجتهدوا فى أن لا يغفلوا عن واحد منهم . وأمر مناديا حتى نادى فيهم : أن اسكنوا ولا تتعلقوا بغلمانى إذا خرجوا إليكم، بل ينبغى أن يطمئن كل واحد منكم فى موضعه ، فإن الغلمان مسخرون وهم مأمورون بأن يوصلوا إليكم طعامكم . فمن تعلق بالغلمان وآذاهم وأخذ رغيفين ، فإذا فتح باب الميدان وخرج أتبعتُه بغلام يكون موكلا به، إلى أن أتقدم لعقوبته فى ميعاد معلوم عندى ولكن أخفيه . ومن لم يؤذ الغلمان وقنع برغيف واحد أتاه من يد الغلام ، وهو ساكن ، فإنى أختصه بخلعة سنية فى الميعاد المذكور لعقوبة الآخر . ومن ثبت فى مكانه ولكنه أخذ رغيفين فلا عقوبة عليه ، ولا خلعة له . ومن أخطأه غلمانى فما أوصلوا إليه شيئا ، فبات الليلة جائعا غير متسخط للغلمان ، ولا قائل لا ليته أوصل إلىّ رغيفا ، فإنى غداً أستوزره وأفوّض ملكى إليه . فانقسم السؤّال إلى أربعة أقسام ، قسم غلبت عليهم بطونهم فلم يلتفتوا إلى العقوبة الموعودة ، وقالوا من اليوم إلى غد فرج ، ونحن الآن جائعون ، فبادروا إلى الغلمان فآذوهم وأخذوا الرغيفين ، فسبقت العقوبة إليهم فى الميعاد المذكور ، فندموا ولم ينفعهم الندم . وقسم تركوا التعلق بالغلمان خوف العقوبة ، ولكن أخذوا رغيفين لغلبة الجوع ، فسلموا من العقوبة ، وما فازوا بالخلعة

وقسم قالوا إنا نجلس بمرأى من الغلمان حتى لا يخطؤنا ، ولكن نأخذ إذا أعطونا رغيفا واحدا، ونقنع به .فلعلنا نفوز بالخاتمة،ففازوا بالخلعة . وقسم رابع اختفوا فى زوايا الميدان، وانحرفوا عن مرأى أعين الغلمان،وقالوا إن اتبعونا وأعطونا قنعنا برغيف واحد،وإن أخطؤنا قاسينا شدة الجوع الليلة ،فلعلنا نقوى على ترك التسخط ،فننال رتبة الوزارة ودرجة القرب عند الملك ، فما نفعهم ذلك ، إذ اتبعهم الغلمان فى كل زاوية ، وأعطوا كل واحد رغيفا واحدا

وجرى مثل ذلك أياما ، حتى اتفق على الندور أن اختفى ثلاثة فى زاوية ، ولم تقع عليهم أبصار الغلمان ،وشغلهم شغل صارف عن طول التفتيش ،فباتوا فى جوع شديد . فقال اثنان منهم : ليتنا تعرضنا للغلمان وأخذنا طعامنا ،فلسنا نطيق الصبر.وسكت الثالث إلى الصباح، فنال درجة القرب والوزارة . فهذا مثال الخلق والميدان هو الحياة فى الدنيا وباب الميدان الموت . والميعاد المجهول يوم القيامة . والوعد بالوزارة هو الوعد بالشهادة للمتوكل إذا مات جائعا راضيا من غير تأخير ذلك إلى ميعاد القيامة ، لأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون . والمتعلق بالغلمان هو المتعدى فى الأسباب.والغلمان المسخرون هم الأسباب.والجالس فى ظاهر الميدان بمرأى الغلمان هم المقيمون فى الأمصار فى الرباطات والمساجد على هيئة السكون . والمختفون فى الزوايا هم السائحون فى البوادى على هيئة التوكل ، والأسباب تتبعهم ، والرزق يأتيهم إلا على سبيل الندور.فإن مات واحد منهم جائعا راضيا فله الشهادة والقرب من الله تعالى

وقد انقسم الخلق إلى هذه الأقسام الأربعة ، ولعل من كل مائة تعلق بالأسباب تسعون، وأقام سبعة من العشرة الباقية فى الأمصار متعرضين للسبب بمجرد حضورهم واشتهارهم ، وساح فى البوادى ثلاثة ، وتسخط منهم اثنان ، وفاز بالقرب واحد . ولعله كان كذلك فى الأعصار السالفة . وأما الآن فالتارك للأسباب لا ينتهى إلى واحد من عشرة آلاف

الفن الثانى فى التعرض لأسباب الادخار

أحوال المدخر لزاد ماله

فمن حصل له مال بإرث أو كسب،أو سؤال أو سبب من الأسباب،فله فى الادخار ثلاثة أحوال الأولى : أن يأخذ قدر حاجته فى الوقت ، فيأكل إن كان جائعا ، ويلبس إن كان عاريا ،ويشتري مسكنا مختصرا إن كان محتاجا، ويفرق الباقى فى الحال ،ولا يأخذه ولا يدخره

إلا بالقدر الذي يدرك به من يستحقه ويحتاج إليه ، فيدخره على هذه النية . فهذا هو الوفي بموجب التوكل تحقيقا ، وهي الدرجة العليا

الحالة الثانية: المقابلة لهذه ، المخرجة له عن حدود التوكل ، أن يدخر لسنة فما فوقها . فهذا ليس من المتوكلين أصلا . وقد قيل : لا يدخر من الحيوانات إلا ثلاثة : الفأرة ، والنملة ، وابن آدم

الحالة الثالثة : أن يدخر لأربعين يوما فما دونها . فهذا هل يوجب حرمانه من المقام المحمود الموعود في الآخرة للمتوكلين ؟ اختلفوا فيه . فذهب سهل إلى أنه يخرج عن حد التوكل . وذهب الخوّاص إلى أنه لا يخرج بأربعين يوما . ويخرج بما يزيد على الأربعين . وقال أبو طالب المكي لا يخرج عن حد التوكل بالزيادة على الأربعين أيضا وهذا اختلاف لا معنى له بعد تجويز أصل الادخار . نعم يجوز أن يظن ظان أن أصل الادخار يناقض التوكل . فأما التقدير بعد ذلك فلا مدرك له . وكل ثواب موعود على رتبة فإنه يتوزع على تلك الرتبة وتلك الرتبة لها بداية ونهاية . ويسمى أصحاب النهايات السابقين ، وأصحاب البدايات أصحاب اليمين . ثم أصحاب اليمين أيضا على درجات . وكذلك السابقون . وأعالي درجات أصحاب اليمين تلاصق أسافل درجات السابقين ، فلا معنى للتقدير في مثل هذا . بل التحقيق أن التوكل بترك الادخار لا يتم إلا بقصر الأمل . وأما عدم آمال البقاء فيبعد اشتراطه ولو في نفس ، فإن ذلك كالممتنع وجوده . أما الناس فيتفاوتون في طول الأمل وقصره . وأقل درجات الأمل يوم وليلة فما دونه من الساعات . وأقصاه ما يتصور أن يكون عمر الإنسان . وبينهما درجات لا حصر لها . فمن لم يؤمل أكثر من شهر أقرب إلى المقصود ممن يؤمل سنة . وتقييده بأربعين لأجل ميعاد موسى عليه السلام بعيد ، فإن تلك الواقعة ما قصد بها بيان مقدار ما رخص الأمل فيه ، ولكن استحقاق موسى لنيل الموعود كان لا يتم إلا بعد أربعين يوما ، لسرّ جرت به وبأمثاله سنة الله تعالى في تدريج الأمور ، كما قال عليه السلام « إِنَّ اللهَ[1] خَمَّرَ طِينَةَ آدَمَ بِيَدِهِ أَرْبَعِينَ صَبَاحاً » لأن استحقاق تلك الطينة التخمر كان موقوفا على مدة مبلغها ما ذكر

فإذاً ما وراء السنة لا يدخره إلا بحكم ضعف القلب والركون إلى ظاهر الأسباب ، فهو خارج

---

(١) حديث خمر طينة آدم بيده أربعين صباحا : أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن مسعود وسلمان الفارسي بإسناد ضعيف جدا وهو باطل

عن مقام التوكل ، غير واثق بإحاطة التدبير من الوكيل الحق بخفايا الأسباب ، فإن أسباب الدخل فى الارتفاعات والزكوات تتكرر بتكرر السنين غالبا . ومن ادخر لأقل من سنة فله درجة بحسب قصر أمله . ومن كان أمله شهرين لم تكن درجته كدرجة من أمّل شهرا ، ولا درجة من أمل ثلاثة أشهر ، بل هو بينهما فى الرتبة . ولا يمنع من الادخار إلا قصر الأمل ، فالأفضل أن لا يدخر أصلا وإن ضعف قلبه ، فكلما قل ادخاره كان فضله أكثر . وقد روي فى الفقير الذى أمر صلى الله عليه وسلم عليا كرم الله وجهه وأسامة أن يغسلاه ، فغسلاه وكفناه ببردته ، فلما دفنه قال لأصحابه « إِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَوَجْهُهُ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ وَلَوْلَا خَصْلَةٌ كَانَتْ فِيهِ لَبُعِثَ وَوَجْهُهُ كَالشَّمْسِ الضَّاحِيَةِ » قلنا وماهي يارسول الله؟ قال « كَانَ صَوَّاماً قَوَّاماً كَثِيرَ الذِّكْرِ للهِ تَعَالَى غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ إِذَا جَاءَ الشِّتَاءُ ادَّخَرَ حُلَّةَ الصَّيْفِ لِصَيْفِهِ وَإِذَا جَاءَ الصَّيْفُ ادَّخَرَ حُلَّةَ الشِّتَاءِ لِشِتَائِهِ » ثم قال صلى الله عليه وسلم « بَلْ أَقَلُّ مَا أُوتِيتُمْ الْيَقِينُ وَعَزِيمَةُ الصَّبْرِ » الحديث[1] . وليس الكوز والشفرة ومايحتاج إليه على الدوام فى معنى ذلك . فإن ادخاره لاينقص الدرجة وأما ثوب الشتاء فلا يحتاج إليه فى الصيف . وهذا فى حق من لاينزعج قلبه بترك الادخار ، ولا تستشرف نفسه إلى أيدى الخلق ، بل لا يلتفت قلبه إلا إلى الوكيل الحق . فإن كان يستشعر فى نفسه اضطرابا يشغل قلبه عن العبادة ، والذكر ، والفكر ، فالادخار له أولى . بل لو أمسك ضيعة يكون دخلها وافيا بقدر كفايته ، وكان لا يتفرغ قلبه إلا به ، فذلك له أولى ، لأن المقصود إصلاح القلب ليتجرد لذكر الله ، ورب شخص يشغله وجود المال ، ورب شخص يشغله عدمه . والمحذور مايشغل عن الله عز وجل وإلا فالدنيا فى عينها غير محذورة لا وجودها ولا عدمها . ولذلك بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصناف الخلق ، وفيهم التجار والمحترفون وأهل الحرف والصناعات ، فلم يأمر التاجر بترك تجارته ، ولا المحترف بترك حرفته ، ولا أمر التارك لهما بالاشتغال بهما . بل دعا الكل إلى الله تعالى ، وأرشدهم إلى أن فوزهم ونجاتهم فى انصراف قلوبهم عن الدنيا إلى الله

---

(١) حديث انه قال فى حق الفقير الذى أمر عليا أو أسامة فغسله وكفنه ببردته أنه يبعث يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر ـ الحديث : وفى آخره من أقل ما أتيتم اليقين وعزيمة الصبر لم أجد له أصلا وتقدم آخر الحديث قبل هذا

تعالى . وعمدة الاشتغال بالله تعالى عز وجل القلب . فصواب الضعيف ادخار قدر حاجته كما أن صواب القوي ترك الادخار . وهذا كله حكم المنفرد

الادخار للعيال سنة غير مبطل للتوكل

فأما المعيل فلا يخرج عن حد التوكل بادخار قوت سنة لعياله ،جبرا لضعفهم،وتسكينا لقلوبهم . وادخار أكثر من ذلك ،مبطل للتوكل ، لأن الأسباب تتكرر عند تكرر السنين . فادخاره مايزيد عليه سببه ضعف قلبه ، وذلك يناقض قوة التوكل . فالمتوكل عبارة عن موحد قوي القلب ،مطمئن النفس إلى فضل الله تعالى واثق بتدبيره دون وجود الأسباب الظاهرة . وقد [١] ادخر رسول الله صلى الله عليه وسلم لعياله قوت سنة [٢] ونهى أم أيمن وغيرها أن تدخر له شيئا لغد . [٣] ونهى بلالا عن الادخار فى كسرة خبز ادخرها ليفطر عليها . فقال صلى الله عليه وسلم « أَنْفِقْ بِلَالاً وَلَا تَخْشَ مِنْ ذِى الْعَرْشِ إِقْلَالاً » وقال صلى الله عليه وسلم [٤] « إِذَا سُئِلْتَ فَلَا تَمْنَعْ وَإِذَا أُعْطِيتَ فَلَا تَخْبَأْ » اقتداء بسيد المتوكلين صلى الله عليه وسلم [٥]

وقد كان قصر أمله بحيث كان إذا بال تيمم مع قرب الماء، يقول « مَا يُدْرِينِي لَعَلِّي لَا أَبْلُغُهُ » وقد كان صلى الله عليه وسلم لو ادّخر لم ينقص ذلك من توكله ، إذ كان لايثق بما ادخره ولكنه عليه السلام ترك ذلك تعليما للأقوياء من أمته،فإن أقوياء أمته،ضعفاء بالإضافة إلى قوته

وادخر عليه السلام لعياله سنة لا لضعف قلب فيه وفى عياله،ولكن ليسن ذلك للضعفاء من أمته . بل أخبر [٦] أن الله تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه،تطييبا لقلوب

(١) حديث ادخر لعياله قوت سنة :متفق عليه وتقدم فى الزكاة

(٢) حديث نهى أم أيمن وغيرها أن تدخر شيئا لغد :تقدم نهيه لأم أيمن وغيرها

(٣) حديث نهى بلالا عن الادخار وقال أنفق بلالا ولاتخش من ذى العرش إقلالا :البزار من حديث ابن مسعود وأبي هريرة وبلال دخل عليه النبى صلى الله عليه وسلم وعنده صبر من تمر فقال ذلك وروى أبويعلى والطبرانى فى الأوسط حديث أبى هريرة وكلها ضعيفة وأما ماذكره المصنف من أنه ادخر كسرة خبز فلم أره

(٤) حديث قال لبلال إذا سئلت فلا تمنع وإذا أعطيت فلا تخبأ: الطبرانى والحاكم من حديث أبى سعيد وهو تتمة حديث الق الله فقيرا قد تقدم

(٥) حديث انه صلى الله عليه وسلم بال وتيمم مع قرب الما ويقول مايدرينى لعلي لا أبلغه ابن الدنيافى قصر الامل من حديث ابن عباس بسند ضعيف

(٦) حديث ان الله يحب ان تؤتى رخصه ـ الحديث : أحمد والطبرانى والبيهقى من حديث أم عمر وقدتقدم

الضعفاء ، حتى لاينتهى بهم الضعف إلى اليأس والقنوط ، فيتركون الميسور من الخير عليهم بعجزهم عن منتهى الدرجات ؛ فما أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا رحمة للعالمين كلهم على اختلاف أصنافهم ودرجاتهم

وإذا فهمت هذا علمت أن الادخار قد يضر بعض الناس وقد لايضر . ويدل عليه ماروى أبو[1] أمامة الباهلي : أن بعض أصحاب الصفة توفى فما وجد له كفن ، فقال صلى الله عليه وسلم « فَتِّشُوا ثَوْبَهُ » فوجدوا فيه دينارين فى داخل إزاره . فقال صلى الله عليه وسلم « كَيَّتَانِ » وقد كان غيره من المسلمين يموت ويخلف أموالا ولا يقول ذلك فى حقه. وهذا يحتمل وجهين ، لأن حاله يحتمل حالين : أحدهما أنه أراد كيتين من النار ، كما قال تعالى (تُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ[1]) وذلك إذا كان حاله إظهار الزهد والفقر والتوكل مع الإفلاس عنه ، فهو نوع تلبيس . والثانى أن لايكون ذلك عن تلبيس ، فيكون المعنى به النقصان عن درجة كماله ، كما ينقص من جمال الوجه أثر كيتين فى الوجه . وذلك لايكون عن تلبيس ، فإن كل مايخلفه الرجل فهو نقصان عن درجته فى الآخرة ، إذ لايؤتى أحد من الدنيا شيئا إلا نقص بقدره من الآخرة

وأما بيان أن الادخار مع فراغ القلب عن المدخر ليس من ضرورته بطلان التوكل فيشهد له ماروي عن بشر ، قال الحسين المغازلى من أصحابه: كنت عنده ضحوة من النهار فدخل عليه رجل كهل أسمر خفيف العارضين ، فقام إليه بشر ، قال ومارأيته قام لأحد غيره قال ودفع إليّ كفا من دراهم وقال : اشترى لنا من أطيب ماتقدر عليه من الطعام الطيب. وما قال لى قط مثل ذلك . قال فجئت بالطعام فوضعته فأكل معه ، ومارأيته أكل مع غيره قال فأكلنا حاجتنا . وبقى من الطعام شيء كثير ، فأخذه الرجل وجمعه فى ثوبه وحمله معه وانصرف . فعجبت من ذلك وكرهته له . فقال لى بشر : لعلك أنكرت فعله ؟ قلت نعم أخذ بقية الطعام من غير إذن . فقال ذاك أخونا فتح الموصلى ، زارنا اليوم من الموصل.

---

(١) حديث أبي أمامة توفى بعض أصحاب الصفة فوجدوا دينارين فى داخلة ازاره فقال صلى الله عليه وسلم كيتان أحمد من رواية شهر بن حوشب عنه

---

(١) التوبة : ٣٥

فإنما أراد أن يعلمنا أن التوكل إذا صح لم يضر معه الإدخار

الفن الثالث: فى مباشرة الأسباب الدافعة للضرر المعرض للخوف

ترك الأسباب الدافعة للضرر مبطل للتوكل

اعلم أن الضرر قد يعرض للخوف فى نفس أو مال، وليس من شروط التوكل ترك الأسباب الدافعة رأسا أما فى النفس فكالنوم فى الأرض المسبعة، أو فى مجارى السيل من الوادى، أو تحت الجدار المائل والسقف المنكسر، فكل ذلك منهي عنه؛ وصاحبه قد عرض نفسه للهلاك بغير فائدة. نعم تنقسم هذه الأسباب إلى مقطوع بها، ومظنونة، وإلى موهومة. فترك الموهوم منها من شرط التوكل، وهي التى نسبتها إلى دفع الضرر نسبة الكي والرقية، فإن الكي والرقية قد يقدم به المحذور دفعا لما يتوقع. وقد يستعمل بعد نزول المحذور للإزالة. ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يصف المتوكلين إلا بترك الكي والرقية والطيرة، ولم يصفهم بأنهم إذا خرجوا إلى موضع بارد لم يلبسوا جبة، والجبة تلبس دفعا للبرد المتوقع؛ وكذلك كل ما فى معناها من الأسباب. نعم الاستظهار بأكل الثوم مثلا عند الخروج إلى السفر فى الشتاء تهييجا لقوة الحرارة من الباطن ربما يكون من قبيل التعمق فى الأسباب، والتعويل عليها. فيكاد يقرب من الكي بخلاف الجبة

ولترك الأسباب الدافعة وإن كانت مقطوعة وجه إذا ناله الضرر من إنسان، فإنه إذا أمكنه الصبر وأمكنه الدفع والتشفى: فشرط التوكل الاحتمال والصبر قال الله تعالى (فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ[1]) وقال تعالى (وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ[2]) وقال عز وجل (وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ[3]) وقال سبحانه وتعالى (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ[4]) وقال تعالى (نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ[5]) وهذا فى أذى الناس

وأما الصبر على أذى الحيات والسباع والعقارب؛ فترك دفعها ليس من التوكل فى شيء إذ لا فائدة فيه. ولا يراد السعي ولا يترك السعي لعينه بل لإعانته على الدين. وترتب الأسباب ههنا كترتبها فى الكسب وجلب المنافع، فلا نطول بالإعادة

وكذلك فى الأسباب الدافعة عن المال فلا ينقص التوكل بإغلاق باب البيت عند

---

(١) المزمل: ٩، ١٠ (٢) ابراهيم: ١٢ (٣) الأحزاب: ٤٨ (٤) الأحقاف: ٣٥ (٥) العنكبوت: ٥٨، ٥٩

الخروج ، ولا بأن يعقل البعير ، لأن هذه أسباب عرفت بسنة الله تعالى إما قطعا وإما ظنا ولذلك قال صلى الله عليه وسلم للأعرابي لما أن أهمل البعير وقال توكلت على الله [(١)] « اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ » وقال تعالى (خُذُوا حِذْرَكُمْ [(١)]) وقال في كيفية صلاة الخوف (وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ [(٢)]) وقال سبحانه (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ [(٣)]) وقال تعالى لموسى عليه السلام (فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً [(٤)]) والتحصن بالليل اختفاء عن أعين الأعداء ونوع تسبب [(٢)] واختفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغار اختفاء عن أعين الأعداء دفعا للضرر . وأخذ السلاح في الصلاة ليس دافعا قطعا كقتل الحية والعقرب فإنه دافع قطعا . ولكن أخذ السلاح سبب مظنون ، وقد بينا أن المظنون كالمقطوع ، وإنما الموهوم هو الذي يقتضي التوكل تركه

فإن قلت . فقد حكي عن جماعة أن منهم من وضع الأسد يده على كتفه ولم يتحرك ، فأقول وقد حكي عن جماعة أنهم ركبوا الأسد وسخروه ، فلا ينبغي أن يغرك ذلك المقام فإنه وإن كان صحيحا في نفسه فلا يصلح للاقتداء بطريق التعلم من الغير ، بل ذلك مقام رفيع في الكرامات ، وليس ذلك شرطا في التوكل ، وفيه أسرار لا يقف عليها من لم ينته إليها

فإن قلت : وهل من علامة أعلم بها أني قد وصلت إليها

فأقول الواصل لا يحتاج إلى طلب العلامات ولكن من العلامات على ذلك المقام السابقة عليه أن يسخّر لك كلب هو معك في إهابك يسمى الغضب ، فلا يزال يعضك ويعض غيرك فإن سخر لك هذا الكلب بحيث إذا هيج وأشلي لم يستشل إلا بإشارتك ، وكان مسخرا لك ، فربما ترتفع درجتك إلى أن يسخر لك الأسد الذي هو ملك السباع . وكلب دارك أولى بأن يكون مسخرا لك من كلب البوادي ، وكلب إهابك أولى بأن يتسخر من كلب دارك . فإذا لم يسخر لك الكلب الباطن فلا تطمع في استسخار الكلب الظاهر

---

(١) حديث اعقلها وتوكل : الترمذي من حديث أنس قال يحيي القطان منكر ورواه ابن خزيمة في التوكل والطبراني من حديث عمرو بن أمية الضمري باسناد جيد قيدها

(٢) حديث اختفى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أعين الأعداء دفعا للضرر تقدم في قصة اختفائه في الغار عند ارادة الهجرة

(١ ، ٢) النساء : ١٠٢ (٣) الانفال : ٦٠ (٤) الدخان : ٢٣

فإن قلت فإذا أخذ المتوكل سلاحه حذرا من العدو، وأغلق بابه حذرا من اللص، وعقل بعيره حذرا من أن ينطلق، فبأيّ اعتبار يكون متوكلا فأقول يكون متوكلا بالعلم والحال

فأما العلم فهو أن يعلم أن اللص إن اندفع لم يندفع بكفايته في إغلاق الباب، بل لم يندفع إلا بدفع الله تعالى إياه. فكم من باب يغلق ولا ينفع، وكم من بعير يعقل ويموت أو يفلت، وكم من آخذ سلاحه يقتل أو يغلب. فلا تتكل على هذه الأسباب أصلا، بل على مسبب الأسباب كما ضربنا المثل في الوكيل في الخصومة، فإنه إن حضر وأحضر السجل فلا يتكل على نفسه وسجله، بل على كفاية الوكيل وقوّته

وأما الحال فهو أن يكون راضيا بما يقضي الله تعالى به في بيته ونفسه، ويقول: اللهم إن سلطت على ما في البيت من يأخذه فهو في سبيلك، وأنا راض بحكمك، فإني لا أدري أن ما أعطيتني هبة فلا تسترجعها، أو عارية ووديعة فتستردها، ولا أدري أنه رزقي أو سبقت مشيئتك في الأزل بأنه رزق غيري، وكيفما قضيت فأنا راض به، وما أغلقت الباب تحصنا من قضائك وتسخطا له، بل جريا على مقتضى سنتك في ترتيب الأسباب، فلا ثقة إلا بك يا مسبب الأسباب . فإذا كان هذا حاله، وذلك الذي ذكرناه علمه، لم يخرج عن حدود التوكل بعقل البعير، وأخذ السلاح، وإغلاق الباب. ثم إذا عاد فوجد متاعه في البيت فينبغي أن يكون ذلك عنده نعمة جديدة من الله تعالى. وإن لم يجده بل وجده مسروقا نظر إلى قلبه، فإن وجده راضيا أو فرحا بذلك عالما أنه ما أخذ الله تعالى ذلك منه إلا ليزيد رزقه في الآخرة، فقد صح مقامه في التوكل، وظهر له صدقه. وإن تألم قلبه به ووجد قوّة الصبر، فقد بان له أنه ما كان صادقا في دعوى التوكل، لأن التوكل مقام بعد الزهد؛ ولا يصح الزهد إلا ممن لا يتأسف على ما فات من الدنيا ولا يفرح بما يأتي، بل يكون على العكس منه فكيف يصح له التوكل! نعم قد يصح له مقام الصبر إن أخفاه ولم يظهر شكواه، ولم يكثر سعيه في الطلب والتجسس . وإن لم يقدر على ذلك حتى تأذى بقلبه، وأظهر الشكوى بلسانه واستقصى الطلب ببدنه، فقد كانت السرقة مزيدا له في ذنبه من حيث إنه ظهر له قصوره عن جميع المقامات، وكذبه في جميع الدعاوى. فبعد هذا ينبغي أن يجتهد حتى لا يصدق نفسه في دعاويها، ولا يتدلى بحبل غرورها، فإنها خداعة، أمارة بالسوء، مدعية للخير

فإن قلت : فكيف يكون للمتوكل مال حتى يؤخذ؟ فأقول المتوكل لا يخلو بيته من متاع كقصعة يأكل فيها ، وكوز يشرب منه ، وإناء يتوضأ منه ، وجراب يحفظ به زاده ، وعصا يدفع بها عدوه ، وغير ذلك من ضرورات المعيشة من أثاث البيت . وقد يدخل في يده مال وهو يمسكه ليجد محتاجا فيصرفه إليه ، فلا يكون ادخاره على هذه النية مبطلا لتوكله . وليس من شرط التوكل إخراج الكوز الذي يشرب منه ، والجراب الذي فيه زاده ، وإنما ذلك في المأكول ، وفي كل مال زائد على قدر الضرورة . لأن سنة الله جارية بوصول الخبز إلى الفقراء المتوكلين في زوايا المساجد ، وما جرت السنة بتفرقة الكيزان والأمتعة في كل يوم ولا في كل أسبوع . والخروج عن سنة الله عز وجل ليس شرطا في التوكل . ولذلك كان الخواص يأخذ في السفر الحبل ، والركوة ، والمقراض ، والإبرة دون الزاد ، لكن سنة الله تعالى جارية بالفرق بين الأمرين . فإن قلت : فكيف يتصور أن لا يحزن إذا أخذ متاعه الذي هو محتاج إليه ولا يتأسف عليه ، فإن كان لا يشتهيه فلم أمسكه ، وأغلق الباب عليه ؟ وإن كان أمسكه لأنه يشتهيه لحاجته إليه ، فكيف لا يتأذى قلبه ولا يحزن وقد حيل بينه وبين ما يشتهيه؟ . فأقول إنما كان يحفظه ليستعين به على دينه ، إذ كان يظن أن الخيرة له في أن يكون له ذلك المتاع . ولولا أن الخيرة له فيه لما رزقه الله تعالى ولما أعطاه إياه . فاستدل على ذلك بتيسير الله عز وجل ، وحسن الظن بالله تعالى مع ظنه أن ذلك معين له على أسباب دينه ، ولم يكن ذلك عنده مقطوعا به ، إذ يحتمل أن تكون خيرته في أن يبتلى بفقده ذلك حتى ينصب في تحصيل غرضه ، ويكون ثوابه في النصب والتعب أكثر . فلما أخذه الله تعالى منه بتسليط اللص تغير ظنه ، لأنه في جميع الأحوال واثق بالله ، حسن الظن به . فيقول لولا أن الله عز وجل علم أن الخيرة كانت لي في وجودها إلى الآن والخيرة لي الآن في عدمها لما أخذها مني . فبمثل هذا الظن يتصور أن يندفع عنه الحزن ، إذ به يخرج عن أن يكون فرحه بأسباب من حيث إنها أسباب ، بل من حيث إنه يسرها مسبب الأسباب عناية وتلطفا . وهو كالمريض بين يدي الطبيب الشفيق يرضى بما يفعله ، فإن قدم إليه الغذاء فرح وقال : لولا أنه يعرف أن الغذاء ينفعني وقد قويت على احتماله لما قربه إلي . وإن أخر عنه الغذاء بعد

ذلك أيضا فرح وقال : لولا أن الغذاء يضرني ويسوقني إلى الموت لما حال بيني وبينه .
وكل من لا يعتقد فى لطف الله تعالى ما يعتقده المريض فى الوالد المشفق الحاذق بعلم الطب فلا يصح منه التوكل أصلا . ومن عرف الله تعالى ، وعرف أفعاله، وعرف سنته فى إصلاح عباده ، لم يكن فرحه بالأسباب ، فإنه لا يدرى أي الأسباب خير له ، كما قال عمر رضي الله عنه : لا أبالي أصبحت غنيا أو فقيرا ، فإني لا أدرى أيهما خير لى . فكذلك ينبغى أن لا يبالى المتوكل يسرق متاعه ، أو لا يسرق ، فإنه لا يدرى أيهما خير له فى الدنيا أو فى الآخرة ، فكم من متاع فى الدنيا يكون سبب هلاك الإنسان ، وكم من غني يبتلى بواقعة لأجل غناه يقول ياليتني كنت فقيرا

بيان

آداب المتوكلين إذا سرق متاعهم

للمتوكل آداب فى متاع بيته إذا خرج عنه

الأول : أن يغلق الباب ، ولا يستقصى فى أسباب الحفظ ، كالتماسه من الجيران الحفظ مع الغلق ، وكجمعه أغلاقا كثيرة . فقد كان مالك بن دينار لا يغلق بابه ، ولكن يشده بشريط ويقول . لولا الكلاب ماشددته أيضا

الثاني : أن لا يترك فى البيت متاعا يحرض عليه السراق ، فيكون هو سبب معصيتهم أو إمساكه يكون سبب هيجان رغبتهم . ولذلك لما أهدى المغيرة إلى مالك بن دينار ركوة قال خذها لا حاجة لى إليها . قال لمَ ؟ قال يوسوس إليّ العدوّ أن اللص أخذها . فكأنه احترز من أن يعصى السارق ، ومن شغل قلبه بوسواس الشيطان بسرقتها . ولذلك قال أبو سليمان : هذا من ضعف قلوب الصوفية . هذا قد زهد فى الدنيا فما عليه من أخذها !

الثالث : أن ما يضطر إلى تركه فى البيت ينبغى أن ينوي عند خروجه الرضا بما يقضى الله فيه من تسليط سارق عليه ، ويقول . ما يأخذه السارق فهو منه فى حل . أو هو فى سبيل الله تعالى ، وإن كان فقيرا فهو عليه صدقة . وإن لم يشترط الفقر فهو أولى . فيكون له نيتان لو أخذه غني أو فقير ، إحداهما : أن يكون ماله مانعا له من المعصية ، فإنه ربما يستغنى به فيتوانى عن السرقة بعده ، وقد زال عصيانه بأكل الحرام لما أن جعله فى حل ،

والثانية: أن لا يظلم مسلما آخر، فيكون ماله فداء لمال مسلم آخر . ومهما ينوى حراسة مال غيره بمال نفسه ، أو ينوى دفع المعصية عن السارق ، أو تخفيفها عليه ، فقد نصح للمسلمين، وامتثل قوله صلى الله عليه وسلم [١] « اُنْصُرْ أَخَاكَ ظَالِماً أَوْ مَظْلُوماً » ونصر الظالم أن تمنعه من الظلم ، وعفوه عنه إعدام للظلم ومنع له . وليتحقق أن هذه النية لا تضره بوجه من الوجوه . إذ ليس فيها ما يسلط السارق ويغير القضاء الأزلى ، ولكن يتحقق بالزهد نيته ، فإن أخذ ماله كان له بكل درهم سبعمائة درهم، لأنه نواه وقصده، وإن لم يؤخذ حصل له الأجر أيضا؛ كما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] فيمن ترك العزل فأقرّ النطفة قرارها أن له أجر غلام ولد له من ذلك الجماع ، وعاش ، فقتل فى سبيل الله تعالى ، وإن لم يولد له لأنه ليس أمر الولد إلا الوقاع . فأما الخلق ، والحياة ، والرزق ، والبقاء فليس إليه . فلو خلق لكان ثوابه على فعله ، وفعله لم ينعدم ، فكذلك أمر السرقة

الرابع : أنه إذا وجد المال مسروقا فينبغى أن لا يحزن ، بل يفرح إن أمكنه ويقول: لولا أن الخيرة كانت فيه لما سلبه الله تعالى . ثم إن لم يكن قد جعله فى سبيل الله عز وجل فلا يبالغ فى طلبه ، وفى إساءة الظن بالمسلمين . وإن كان قد جعله فى سبيل الله فيترك طلبه ، فإنه قد قدّمه ذخيرة لنفسه إلى الآخرة . فإن أعيد عليه فالأولى أن لا يقبله بعد أن كان قد جعله فى سبيل الله عز وجل . وإن قبله فهو فى ملكه فى ظاهر العلم ، لأن الملك لا يزول بمجرد تلك النية، ولكنه غير محبوب عند المتوكلين . وقد روي أن ابن عمر سرقت ناقته فطلبها حتى أعيا ، ثم قال: فى سبيل الله تعالى . فدخل المسجد فصلى فيه ركعتين ، فجاءه رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن ، إن ناقتك فى مكان كذا . فلبس نعله وقام ، ثم قال أستغفر الله وجلس ، فقيل له ألا تذهب فتأخذها ؟ فقال إنى كنت قلت فى سبيل الله

وقال بعض الشيوخ : رأيت بعض إخوانى فى النوم بعد موته ، فقلت ما فعل الله بك؟ قال غفر لى وأدخلنى الجنة ، وعرض عليّ منازلى فيها فرأيتها . قال وهو مع ذلك كئيب حزين ، فقلت قد غفر لك ودخلت الجنة وأنت حزين ، فتنفس الصعداء ثم قال : نعم إنى

---

(١) حديث انصر أخاك ظالما أو مظلوما: متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم

(٢) حديث من ترك العزل وأقر النطفة قرارها كان له أجر غلام ـ الحديث : لم أجد له أصلا

لا أزال حزيناً إلى يوم القيامة . قلت ولم ؟ قال إني لما رأيت منازلي في الجنة ، رفعت لي مقامات في عليين ما رأيت مثلها فيما رأيت ، ففرحت بها ، فلما هممت بدخولها نادى مناد من فوقها اصرفوه عنها فليست هذه له ، إنما هي لمن أمضى السبيل . فقلت وما إمضاء السبيل؟ فقيل لي كنت تقول للشيء إنه في سبيل الله ، ثم ترجع فيه . فلو كنت أمضيت السبيل لأمضينا لك

وحكي عن بعض العباد بمكة أنه كان نائماً إلى جنب رجل معه هميانه ، فانتبه الرجل ففقد هميانه ، فاتهمه به ، فقال له كم كان في هميانك ؟ فذكر له . فحمله إلى البيت ووزنه من عنده ثم بعد ذلك أعلمه أصحابه أنهم كانوا أخذوا الهميان مزحا معه ، فجاء هو وأصحابه معه ، وردوا الذهب ، فأبى وقال : خذه حلالا طيبا ، فما كنت لأعود في مال أخرجته في سبيل الله عز وجل ، فلم يقبل ، فألحوا عليه ، فدعا ابناً له ، وجعل يصره صررا ويبعث بها إلى الفقراء ، حتى لم يبق منه شيء . فهكذا كانت أخلاق السلف . وكذلك من أخذ رغيفا ليعطيه فقيرا فغاب عنه ؛ كان يكره رده إلى البيت بعد إخراجه ، فيعطيه فقيرا آخر . وكذلك يفعل في الدراهم والدنانير وسائر الصدقات

الخامس : وهو أقل الدرجات ، أن لا يدعو على السارق الذي ظلمه بالأخذ . فإن فعل بطل توكله ، ودل ذلك على كراهته وتأسفه على ما فات ، وبطل زهده . ولو بالغ فيه بطل أجره أيضا فيما أصيب به . ففي الخبر[1] « مَنْ دَعَا عَلَى ظَالِمِهِ فَقَدِ انْتَصَرَ »

وحكي أن الربيع بن خثيم سرق فرس له ، وكان قيمته عشرين ألفا ، وكان قائما يصلي فلم يقطع صلاته ، ولم ينزعج لطلبه . فجاءه قوم يعزونه فقال . أما إني قد كنت رأيته وهو يحله . قيل وما منعك أن تزجره ؟ قال كنت فيما هو أحب إليّ من ذلك ، يعني الصلاة فجعلوا يدعون عليه ، فقال لا تفعلوا وقولوا خيرا ، فإني قد جعلتها صدقة عليه

وقيل لبعضهم في شيء قد كان سرق له : ألا تدعو على ظالمك ؟ قال ما أحب أن أكون عونا للشيطان عليه . قيل أرأيت لو رد عليك؟ قال لا آخذه ولا أنظر إليه ، لأني كنت قد أحللته له

وقيل لآخر . ادع الله على ظالمك . فقال ما ظلمني أحد . ثم قال إنما ظلم نفسه . ألا يكفيه المسكين ظلم نفسه حتى أزيده شرا ! . وأكثر بعضهم شتم الحجاج عند بعض السلف

---

(١) حديث من دعا على من ظلمه فقد انتصر : تقدم

فى ظلمه، فقال لاتغرق فى شتمه، فإن الله تعالى ينتصف للحجاج ممن انتهك عرضه، كما ينتصف منه لمن أخذ ماله ودمه . وفى الخبر[١] « إِنَّ ٱلْعَبْدَ لَيُظْلَمُ ٱلْمَظْلَمَةَ فَلَا يَزَالُ يَشْتِمُ ظَالِمَهُ وَيَسُبُّهُ حَتَّى يَكُونَ بِمِقْدَارِ مَاظَلَمَهُ ثُمَّ يَبْقَى لِلظَّالِمِ عَلَيْهِ مُطَالَبَةٌ بِمَا زَادَ عَلَيْهِ يُقْتَصُّ لَهُ مِنَ ٱلْمَظْلُومِ »

السادس: أن يغتم لأجل السارق وعصيانه وتعرضه لعذاب الله تعالى، ويشكر الله تعالى إذ جعله مظلوما ولم يجعله ظالما، وجعل ذلك نقصا فى دنياه لانقصا فى دينه. فقد شكا بعض الناس إلى عالم أنه قطع عليه الطريق وأخذ ماله، فقال. إن لم يكن لك غم أنه قد صار فى المسلمين من يستحل هذا أكثر من غمك بمالك فما نصحت للمسلمين. وسرق من على بن الفضيل دنانير وهو يطوف بالبيت، فرآه أبوه وهو يبكى ويحزن، فقال. أعلى الدنانير تبكى ؟ فقال لا والله ولكن على المسكين أن يسئل يوم القيامة ولا تكون له حجة. وقيل لبعضهم . ادع على من ظلمك، فقال . إنى مشغول بالحزن عليه عن الدعاء عليه. فهذه أخلاق السلف رضي الله عنهم أجمعين

الفن الرابع: فى السعي فى إزالة الضرر كمداواة المرض وأمثاله

اعلم أن الأسباب المزيلة للمرض أيضا تنقسم إلى مقطوع به كالماء المزيل لضرر العطش والخبز المزيل لضرر الجوع، وإلى مظنون كالفصد، والحجامة، وشرب الدواء المسهل، وسائر أبواب الطب، أعنى معالجة البرودة بالحرارة، والحرارة بالبرودة، وهي الأسباب الظاهرة فى الطب، وإلى موهوم كالكيّ والرقية.

أما المقطوع فليس من التوكل تركه، بل تركه حرام عند خوف الموت

وأما الموهوم فشرط التوكل تركه، إذ به وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم المتوكلين وأقواها الكي، ويليه الرقية، والطيرة آخر درجاتها، والاعتماد عليها، والاتكال إليها غاية التعمق فى ملاحظة الأسباب . وأما الدرجة المتوسطة وهي المظنونة، كالمداواة بالأسباب الظاهرة عند الأطباء، ففعله ليس مناقضا للتوكل بخلاف الموهوم، وتركه ليس

---

(١) حديث ان العبد ليظلم المظلمة فلايزال يشتم ظالمه ويسبه حتى يكون بمقدار ماظلمه ثم يبقى للظالم عليه مطالبة ـ الحديث : تقدم

محظورا بخلاف المقطوع ، بل قد يكون أفضل من فعله فى بعض الأحوال وفى بعض الأشخاص ، فهى على درجة بين الدرجتين . ويدل على أن التداوى غير مناقض للتوكل فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقوله ، وأمره به

أما قوله فقد قال صلى الله عليه وسلم [١] « مَامِنْ دَاءٍ إِلَّا وَلَهُ دَوَاءٌ عَرَفَهُ مَنْ عَرَفَهُ وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ إِلَّا السَّامُ » يعنى الموت ؛ وقال عليه السلام [٢] « تَدَاوَوْا عِبَادَ اللهِ فَإِنَّ اللهَ خَلَقَ الدَّاءَ وَالدَّوَاءَ » [٣] وسئل عن الدواء والرقى هل ترد من قدر الله شيئا؟ فقال « هِيَ مِنْ قَدَرِ اللهِ »

وفى الخبر المشهور [٤] « مَامَرَرْتُ بِمَلَاءٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا مُرْ أُمَّتَكَ بِالْحِجَامَةِ » وفى الحديث أنه أمر بها وقال [٥] « احْتَجِمُوا لِسَبْعَ عَشْرَةَ وَتِسْعَ عَشْرَةَ وَإِحْدَى وَعِشْرِينَ لَا يَتَبَيَّغْ بِكُمُ الدَّمُ فَيَقْتُلَكُمْ » فذكر أن تبيغ الدم سبب الموت ، وأنه قاتل بإذن الله تعالى ، وبين أن إخراج الدم خلاص منه ، إذ لا فرق بين إخراج الدم المهلك من الإهاب وبين إخراج العقرب من تحت الثياب ، وإخراج الحية من البيت ، وليس من شرط التوكل ترك ذلك ، بل هو كصب الماء على النار لإطفائها ودفع ضررها عند وقوعها فى البيت، وليس من التوكل الخروج عن سنة الوكيل أصلا . وفى خبر مقطوع [٦] « مَنِ احْتَجَمَ يَوْمَ

---

(١) حديث مامن داء إلا له دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله الا السام : أحمد والطبرانى من حديث ابن مسعود دون قوله الا السام وهو عند ابن ماجه مختصرا دون قوله عرفه الى آخره واسناده حسن وللترمذى وصححه من حديث أسامة بن شريك الا الهرم وللطبرانى فى الأوسط والبزار من حديث أبى سعيد الخدرى والطبرانى فى الكبير من حديث ابن عباس وسندهما ضعيف والبخارى من حديث أبى هريرة ما أنزل الله داء الا أنزل له شفاء ولمسلم من حديث جابر لكل داء دواء

(٢) حديث تداووا عباد الله : الترمذى وصححه وابن ماجه واللفظ له من حديث أسامة بن شريك

(٣) حديث سئل عن الدواء والرقى هل يرد من قدر الله فقال هى من قدر الله : الترمذى وابن ماجه من حديث أبى خزامة وقيل عن أبى خزامة عن أبيه قال الترمذى وهذا أصح

(٤) حديث مامررت بملأ من الملائكة الا قالوا مر أمتك بالحجامة : الترمذى من حديث ابن مسعود وقال حسن غريب ورواه ابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف

(٥) حديث احتجموا لسبع عشرة وتسعة عشرة واحدى وعشرين ـ الحديث : البزار من حديث ابن عباس بسند حسن موقوفا ورفعه الترمذى بلفظ ان خير ماتحتجمون فيه سبع عشرة ـ الحديث : دون ذكر التبيغ وقال حسن غريب وقال البزار ان طريقه المتقدمة أحسن من هذا الطريق ولابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف من أراد الحجامة فليتحر سبعة عشر ـ الحديث :

(٦) حديث من احتجم يوم الثلاثاء لسبع عشرة من الشهر كان له دواء سنة : الطبرانى من حديث معقل

أمره صلى الله عليه وسلم بالتداوي

الثلاثاء لسبع عشرة من الشهر كان له دواء من داء سنة »

وأما [1] أمره صلى الله عليه وسلم فقد أمر غير واحد من الصحابة بالتداوي وبالحمية [2] وقطع لسعد بن معاذ عرقا أي فصده . [3] وكوى سعد بن زرارة [4] وقال لعلي رضي الله تعالى عنه وكان رمد العين « لا تأكل من هذا » يعني الرطب « وكل من هذا فإنه أوفق لك » يعني سلقا قد طبخ بدقيق شعير . [5] وقال لصهيب وقد رآه يأكل التمر وهو وجع العين « تأكل تمرا وأنت أرمد » فقال إني آكل من الجانب الآخر : فتبسم صلى الله عليه وسلم

وأما فعله عليه الصلاة والسلام ، فقد روي في حديث [6] من طريق أهل البيت أنه كان يكتحل كل ليلة ، ويحتجم كل شهر ، ويشرب الدواء كل سنة . قيل السنا المكي [7] وتداوى صلى الله عليه وسلم غير مرة من العقرب وغيرها . وروي أنه [8] كان إذا نزل عليه الوحي

بن يسار وابن حبان في الضعفاء من حديث أنس واسنادهما واحد اختلف على راويه في الصحابي وكلاهما فيه زيد العمي وهو ضعيف

(١) حديث أمره بالتداوي لغير واحد من الصحابة : الترمذي وابن ماجه من حديث أسامة بن شريك انه قال للاعراب حين سألوه تداووا - الحديث : وسيأتي في قصة علي وصهيب في الحمية بعده

(٢) حديث قطع عرقا لسعد بن معاذ : مسلم من حديث جابر قال رمي سعد في أكحله فحسمه النبي صلى الله عليه وسلم بيده بمشقص - الحديث :

(٣) حديث انه كوى أسعد بن زرارة : الطبراني من حديث سهل بن حنيف بسند ضعيف ومن حديث أبي أسامة ابن سهل بن حنيف دون ذكر سهل

(٤) حديث قال لعلي وكان رمدا لا تأكل من هذا - الحديث : أبو داود والترمذي وقال حسن غريب وابن ماجه من حديث أم المنذر

(٥) حديث قال لصهيب وقد رآه يأكل التمر وهو وجع العين تأكل تمرا وأنت رمد - الحديث : تقدم في آفات اللسان

(٦) حديث من طريق أهل البيت انه كان يكتحل كل ليلة ويحتجم كل شهر ويشرب الدواء كل سنة : ابن عدي من حديث عائشة وقال انه منكر وفيه سيف بن محمد كذبه أحمد بن حنبل ويحي بن معين

(٧) حديث انه تداوى غير مرة من العقرب وغيرها : الطبراني باسناد حسن من حديث جبلة بن الازرق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لدغته عقرب فغشي عليه فرقاه الناس - الحديث : وله في الأوسط من رواية سعيد بن ميسرة وهو ضعيف عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا اشتكى تقمح كفا من شونيز ويشرب عليه ماء وعسلا ولابي يعلى والطبراني في الكبير من حديث عبد الله ابن جعفر أن النبي صلى الله عليه وسلم احتجم بعد ما سم وفيه جابر الجعفي ضعفه الجمهور

(٨) حديث كان اذا نزل عليه الوحي صدعه رأسه فيغلفه بالحناء : البزار وابن عدي في الكامل من حديث أبي هريرة وقد اختلف في اسناده على الاحوص بن حكيم كان اذا خرجت به قرحة جعل عليها حناء الترمذي وابن ماجه من حديث سلمى قال الترمذي غريب

صدع رأسه، فكان يغلفه بالحناء. وفي خبر أنه كان إذا خرجت به قرحة جعل عليها حناء
وقد[1] جعل على قرحة خرجت به ترابا

وماروي في تداويه وأمره بذلك كثير خارج عن الحصر، وقد صنف في ذلك كتاب وسمى
طب النبي صلى الله عليه وسلم . وذكر بعض العلماء في الإسرائيليات أن موسى عليه السلام
اعتل بعلة ؛ فدخل عليه بنو إسرائيل فعرفوا علته، فقالوا له لو تداويت بكذا لبرئت. فقال
لا أتداوى حتى يعافيني هو من غير دواء. فطالت علته. فقالوا له: إن دواء هذه العلة معروف
مجرب، وإنا نتداوى به فنبرأ. فقال لا أتداوى. وأقامت علته، فأوحى الله تعالى إليه :
وعزتي وجلالي لا أبرئك حتى تتداوى بما ذكروه لك. فقال لهم : داووني بما ذكرتم
فداووه فبرأ. فأوجس في نفسه من ذلك، فأوحى الله تعالى إليه : أردتَ أن تبطل حكمتي
بتوكلك عليّ، من أودع العقاقير منافع الأشياء غيري ؟

وروي في خبر آخر، أن نبيا من الأنبياء عليهم السلام شكا علة يجدها. فأوحى الله تعالى
إليه : كل البيض. وشكا نبيّ آخر الضعف، فأوحى الله تعالى إليه : كل اللحم باللبن، فإن فيهما
القوّة. قيل هو الضعف عن الجماع . وقد روي أن قوما شكوا إلى نبيهم قبح أولادهم
فأوحى الله تعالى إليه مرهم أن يطعموا نساءهم الحبالى السفرجل، فإنه يحسن الولد، ويفعل
ذلك في الشهر الثالث والرابع، إذ فيه يصوّر الله تعالى الولد. وقد كانوا يطعمون الحبلى
السفرجل، والنفساء الرطب . فبهذا تبين أن مسبب الأسباب أجرى سنته بربط المسببات
بالأسباب إظهارا للحكمة. والأدوية أسباب مسخرة بحكم الله تعالى كسائر الأسباب. فكما
أن الخبز دواء الجوع، والماء دواء العطش. فالسكنجبين دواء الصفراء، والسقمونيا دواء
الإسهال، لا يفارقه إلا في أحد أمرين

أحدهما : أن معالجة الجوع والعطش بالماء والخبز جليّ واضح، يدركه كافة الناس، ومعالجة
الصفراء بالسكنجبين يدركه بعض الخواص. فمن أدرك ذلك بالتجربة التحق في حقه بالأول

---

(١) حديث جعل على قرحة خرجت بيده ترابا : البخاري ومسلم من حديث عائشة كان اذا اشتكى الانسان
الشيء منه أو كانت قرحة أو جرح قال النبي صلى الله عليه وسلم بيده هكذا ووضع سفيان
ابن عيينة الراوي سبابته بالارض ثم رفعها وقال بسم الله تربة أرضنا وريقة بعضنا يشفى سقيمنا

والثاني : أن الدواء يسهل ، والسكنجبين يسكن الصفراء بشروط أخر في الباطن ، وأسباب في المزاج ربما يتعذر الوقوف على جميع شروطها ، وربما يفوت بعض الشروط ، فيتقاعد الدواء عن الإسهال . وأما زوال العطش فلا يستدعى سوى الماء شروطا كثيرة وقد يتفق من العوارض مايوجب دوام العطش مع كثرة شرب الماء ، ولكنه نادر واختلال الأسباب أبدا ينحصر في هذين الشيئين . وإلا فالمسبب يتلو السبب لامحالة مهما تمت شروط السبب . وكل ذلك بتدبير مسبب الأسباب وتسخيره وترتيبه ، بحكم حكمته وكمال قدرته . فلا يضر المتوكل استعماله مع النظر إلى مسبب الأسباب دون الطبيب والدواء؛ فقد روي عن موسى صلى الله عليه وسلم أنه قال : يارب ممن الداء والدواء ؟ فقال تعالى مني . قال فما يصنع الأطباء ؟ قال يأكلون أرزاقهم ويطيبون نفوس عبادي حتى يأتي شفائي أو قضائي . فإذاً معنى التوكل مع التداوي التوكل بالعلم والحال كما سبق في فنون الأعمال الدافعة للضرر ، الجالبة للنفع . فأما ترك التداوي رأسا فليس شرطا فيه

ليس من التوكل الكي وما يشبهه

فإن قلت : فالكي أيضا من الأسباب الظاهرة النفع . فأقول ليس كذلك . إذ الأسباب الظاهرة مثل الفصد ، والحجامة ، وشرب المسهل ، وسقي المبردات للمحرور . وأما الكي فلو كان مثلها في الظهور لما خلت البلاد الكثيرة عنه . وقلما يعتاد الكي في أكثر البلاد . وإنما ذلك عادة بعض الأتراك والأعراب . فهذا من الأسباب الموهومة كالرقي ، إلا أنه يتميز عنها بأمر وهو أنه احتراق بالنار في الحال مع الاستغناء عنه ، فإنه مامن وجع يعالج بالكي إلا وله دواء يغني عنه ليس فيه إحراق . فالإحراق بالنار جرح مخرب للبنية محذور السراية مع الاستغناء عنه ، بخلاف الفصد والحجامة فإن سرايتهما بعيدة ، ولا يسد مسدهما غيرهما

ولذلك [1] نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكي دون الرق ، وكل واحد منهما بعيد عن التوكل . وروي أن عمران بن الحصين اعتل ، فأشاروا عليه بالكي ، فامتنع . فلم يزالوا به ، وعزم عليه الأمر حتى اكتوى . فكان يقول . كنت أرى نوراً ،

---

(١) حديث نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكي دون الرق : البخاري من حديث ابن عباس وأنهى أمتي عن الكي وفي الصحيحين من حديث عائشة رخص رسول الله صلى الله عليه وسلم في الرقية من كل ذي حمة

وأسمع صوتا، وتسلم عليّ الملائكة، فلما اكتويت انقطع ذلك عني. وكان يقول: اكتوينا كيات، فو الله ما أفلحت ولا أنجحت. ثم تاب من ذلك وأناب إلى الله تعالى، فرد الله تعالى عليه ما كان يجد من أمر الملائكة. وقال لمطرف بن عبد الله. ألم تر إلى الملائكة التي كان أكرمني الله بها قد ردها الله تعالى عليّ بعد أن كان أخبره بفقدها

فإذاً الكي وما يجرى مجراه هو الذى لا يليق بالمتوكل، لأنه يحتاج فى استنباطه إلى تدبير، ثم هو مذموم. ويدل ذلك على شدة ملاحظة الأسباب وعلى التعمق فيها، والله أعلم

بيان

أن ترك التداوى قد يحمد فى بعض الأحوال ويدل على قوة التوكل وأن ذلك لا يناقض فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم

اعلم أن الذين تداووا من السلف لا ينحصرون. ولكن قد ترك التداوى أيضا جماعة من الأكابر. فربما يظن أن ذلك نقصان لأنه لو كان كمالا لتركه رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ لا يكون حال غيره فى التوكل أكمل من حاله. وقد روي عن أبى بكر رضي الله عنه أنه قيل له. لو دعونا لك طبيبا؟ فقال. الطبيب قد نظر إليّ وقال إنى فعال لما أريد

وقيل لأبى الدرداء فى مرضه. ما تشتكى؟ قال ذنوبى. قيل فما تشتهى؟ قال مغفرة ربى قالوا. ألا ندعو لك طبيبا؟ قال الطبيب أمرضنى. وقيل لأبى ذر وقد رمدت عيناه. لو داويتهما؟ قال. إنى عنهما مشغول. فقيل له: لو سألت الله تعالى أن يعافيك؟ فقال: أسأله فيما هو أهم عليّ منهما. وكان الربيع بن خثيم أصابه فالج، فقيل له. لو تداويت؟ فقال قد هممت ثم ذكرت عادا وثمود وأصحاب الرس، وقرونا بين ذلك كثيرا، وكان فيهم الأطباء فهلك المداوى والمداوَى، ولم تغن الرقى شيئا. وكان أحمد بن حنبل يقول. أحب لمن اعتقد التوكل وسلك هذا الطريق ترك التداوى من شرب الدواء وغيره. وكان به علل فلا يخبر المتطبب بها أيضا إذا سأله. وقيل لسهل. متى يصح للعبد التوكل؟ قال إذا دخل عليه الضرر فى جسمه، والنقص فى ماله، فلم يلتفت إليه شغلا بحاله، وينظر إلى قيام الله تعالى عليه

فإذاً منهم من ترك التداوى ورآه، ومنهم من كرهه. ولا يتضح وجه الجمع بين فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأفعالهم إلا بحصر الصوارف عن التداوى

فنقول . إن لترك التداوي أسبابا

أسباب ترك التداوي

السبب الأول : أن يكون المريض من المكاشفين ؛ وقد كوشف بأنه انتهى أجله، وأن الدواء لا ينفعه . ويكون ذلك معلوما عنده تارة برؤيا صادقة ، وتارة بحدس وظن ، وتارة بكشف محقق . ويشبه أن يكون ترك الصدّيق رضي الله عنه التداوي من هذا السبب ، فإنه كان من المكاشفين ، فإنه قال لعائشة رضي الله عنها في أمر الميراث . إنما هن أختاك ، وإنما كان لها أخت واحدة ؛ ولكن كانت امرأته حاملا فولدت أنثى ، فعلم أنه كان قد كوشف بأنها حامل بأنثى ، فلا يبعد أن يكون قد كوشف أيضا بانتهاء أجله . وإلا فلا يظن به إنكار التداوي وقد شاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تداوى وأمر به

السبب الثاني : أن يكون المريض مشغولا بحاله ، وبخوف عاقبته ، واطلاع الله تعالى عليه ، فينسيه ذلك ألم المرض ، فلا يتفرغ قلبه للتداوي شغلا بحاله . وعليه يدل كلام أبي ذر إذ قال . إني عنهما مشغول ؛ وكلام أبي الدرداء إذ قال: إنما أشتكي ذنوبي . فكان تألم قلبه خوفا من ذنوبه أكثر من تألم بدنه بالمرض . ويكون هذا كالمصاب بموت عزيز من أعزته أو كالخائف الذي يحمل إلى ملك من الملوك ليقتل إذا قيل له ألا تأكل وأنت جائع ؟ فيقول أنا مشغول عن ألم الجوع . فلا يكون ذلك إنكارا لكون الأكل نافعا من الجوع ، ولا طعنا فيمن أكل . ويقرب من هذا اشتغال سهل حيث قيل له : ما القوت ؟ فقال هو ذكر الحيّ القيوم . فقيل إنما سألناك عن القوام . فقال القوام هو العلم . قيل سألناك عن الغذاء . قال الغذاء هو الذكر . قيل سألناك عن طعمة الجسد قال مالك وللجسد ! دع من تولاه أولاً يتولاه آخرا ، إذا دخل عليه علة فردُّهُ إلى صانعه . أما رأيت الصنعة إذا عيبت ردوها إلى صانعها حتى يصلحها

السبب الثالث : أن تكون العلة مزمنة ، والدواء الذي يؤمر به بالإضافة إلى علته موهوم النفع . جار مجرى الكي والرقية ، فيتركه المتوكل . وإليه يشير قول الربيع بن خثيم إذ قال ذكرت عادا وثمود وفيهم الأطباء ، فهلك المداوِي والمداوى . أي أن الدواء غير موثوق به وهذا قد يكون كذلك في نفسه ، وقد يكون عند المريض كذلك لقلة ممارسته للطب ، وقلة تجربته له ، فلا يغلب على ظنه كونه نافعا . ولا شك في أن الطبيب المجرب أشد اعتقادا

في الأدوية من غيره ، فتكون الثقة والظن بحسب الاعتقاد ، والاعتقاد بحسب التجربة .

وأكثر من ترك التداوي من العباد والزهاد هذا مستندهم ، لأنه يبقى الدواء عنده شيئا موهوما لا أصل له ، وذلك صحيح في بعض الأدوية عند من عرف صناعة الطب ، غير صحيح في البعض . ولكن غير الطبيب قد ينظر إلى الكل نظرا واحدا ، فيرى التداوي تعمقا في الأسباب كالكي والرقي ، فيتركه توكلا

السبب الرابع : أن يقصد العبد بترك التداوي استبقاء المرض ، لينال ثواب المرض بحسن الصبر على بلاء الله تعالى ، أو ليجرب نفسه في القدرة على الصبر . فقد ورد في ثواب المرض مايكثر ذكره ، فقد قال صلى الله عليه وسلم [١] « نَحْنُ مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ أَشَدُّ النَّاسِ بَلاءً ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ يُبْتَلَى الْعَبْدُ عَلَى قَدْرِ إِيمَانِهِ فَإِنْ كَانَ صَلْبَ الإِيمَانِ شُدِّدَ عَلَيْهِ الْبَلاءُ وَإِنْ كَانَ فِي إِيمَانِهِ ضَعْفٌ خُفِّفَ عَنْهُ الْبَلاءُ » وفي الخبر [٢] « إِنَّ اللهَ تَعَالَى يُجَرِّبُ عَبْدَهُ بِالْبَلاءِ كَمَا يُجَرِّبُ أَحَدُكُمْ ذَهَبَهُ بِالنَّارِ فَمِنْهُمْ مَنْ يَخْرُجُ كَالذَّهَبِ الإِبْرِيزِ لا يَرْبَدُ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَخْرُجُ أَسْوَدَ مُحْتَرِقًا »

وفي حديث [٣] من طريق أهل البيت « إِنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا ابْتَلاهُ فَإِنْ صَبَرَ اجْتَبَاهُ فَإِنْ رَضِيَ اصْطَفَاهُ » وقال صلى الله عليه وسلم [٤] « تُحِبُّونَ أَنْ تَكُونُوا كَالْحُمُرِ الضَّالَّةِ لا تَمْرَضُونَ وَلا تَسْقَمُونَ » وقال ابن مسعود رضي الله عنه : تجد المؤمن أصح شيء قلبا ، وأمرضه جسما . وتجد المنافق أصح شيء جسما ، وأمرضه قلبا . فلما عظم الثناء على المرض

---

(١) حديث نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل ـ الحديث : أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه على شرط مسلم نحوه مع اختلاف وقد تقدم مختصرا ورواه الحاكم أيضا من حديث سعد ابن أبي وقاص وقال صحيح على شرط الشيخين

(٢) حديث ان الله تعالى يجرب عبده بالبلاء كما يجرب أحدكم ذهبه ـ الحديث : الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف

(٣) حديث من طريق أهل البيت ان الله إذا أحب عبدا ابتلاه ـ الحديث : ذكره صاحب الفردوس من حديث علي ولم يخرجه ولده في مسنده وللطبراني من حديث أبي عنبة إذا أراد الله بعبد خيرا ابتلاه وإذا ابتلاه اقتناه لا يترك له مالا ولا ولدا وسنده ضعيف

(٤) حديث تحبون أن تكونوا كالحمر الضالة لا تمرضون ولا تسقمون : ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني وأبو نعيم وابن عبد البر في الصحابة والبيهقي في الشعب من حديث أبي فاطمة وهو صدر حديث ان الرجل ليكون له المنزلة عند الله ـ الحديث : وقد تقدم

والبلاء أحبّ قوم المرض واغتنموه ، لينالوا ثواب الصبر عليه ، فكان منهم من له علة يخفيها ولا يذكرها للطبيب ، ويقاسي العلة ، ويرضى بحكم الله تعالى ، ويعلم أن الحق أغلب على قلبه من أن يشغله المرض عنه ، وإنما يمنع المرض جوارحه . وعلموا أن صلاتهم قعوداً مثلا مع الصبر على قضاء الله تعالى ، أفضل من الصلاة قياما مع العافية والصحة . ففي الخبر[1] « إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ لِمَلَائِكَتِهِ اكْتُبُوا لِعَبْدِي صَالِحَ مَا كَانَ يَعْمَلُهُ فَإِنَّهُ فِي وَثَاقِي إِنْ أَطْلَقْتُهُ أَبْدَلْتُهُ لَحْماً خَيْراً مِنْ لَحْمِهِ وَدَماً خَيْراً مِنْ دَمِهِ وَإِنْ تَوَفَّيْتُهُ تَوَفَّيْتُهُ إِلَى رَحْمَتِي »

وقال صلى الله عليه وسلم[2] « أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ مَا أُكْرِهَتْ عَلَيْهِ النُّفُوسُ » فقيل معناه ما دخل عليه من الأمراض والمصائب . وإليه الإشارة بقوله تعالى (وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ[(1)]) . وكان سهل يقول : ترك التداوي وإن ضعف عن الطاعات وقصر عن الفرائض ، أفضل من التداوي لأجل الطاعات . وكانت به علة عظيمة فلم يكن يتداوى منها ، وكان يداوي الناس منها . وكان إذا رأى العبد يصلي من قعود ، ولا يستطيع أعمال البر من الأمراض ، فيتداوى للقيام إلى الصلاة والنهوض إلى الطاعات ، يعجب من ذلك ويقول : صلاته من قعود مع الرضا بحاله أفضل من التداوي للقوة والصلاة قائما

وسئل عن شرب الدواء فقال : كل من دخل في شيء من الدواء فإنما هو سعة من الله تعالى لأهل الضعف . ومن لم يدخل في شيء منه فهو أفضل ، لأنه إن أخذ شيئا من الدواء ولو كان هو الماء البارد يسئل عنه لم أخذه ، ومن لم يأخذ فلا سؤال عليه . وكان مذهبه ومذهب البصريين تضعيف النفس بالجوع وكسر الشهوات ، لعلمهم بأن ذرة من أعمال القلوب مثل الصبر ، والرضا ، والتوكل ، أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح . والمرض لا يمنع من أعمال القلوب إلا إذا كان ألمه غالبا مدهشا . وقال سهل رحمه الله : علل الأجسام رحمة ، وعلل القلوب عقوبة

---

(١) حديث ان الله يقول للملائكة اكتبوا لعبدي صالح ما كان يعمل فانه في وثاقي ـ الحديث : الطبراني من حديث عبد الله بن عمر وقد تقدم

(٢) حديث أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس : تقدم ولم أجده مرفوعا

---

(١) البقرة : ٢١٦

السبب الخامس. أن يكون العبد قد سبق له ذنوب وهو خائف منها. عاجز عن تكفيرها، فيرى المرض إذا طال تكفيرا، فيترك التداوى خوفا من أن يسرع زوال المرض. فقد قال صلى الله عليه وسلم (١) « لَا تَزَالُ الْحُمَّى وَالْمَلِيلَةُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَمْشِى عَلَى الأَرْضِ كَالْبَرَدَةِ مَا عَلَيْهِ ذَنْبٌ وَلَا خَطِيئَةٌ » . وفى الخبر (٢) « حُمَّى يَوْمٍ كَفَّارَةُ سَنَةٍ » فقيل لأنها تهد قوة سنة، وقيل للإنسان ثلثمائة وستون مفصلا فتدخل الحمى فى جميعها. ويجد من كل واحد ألما فيكون كل ألم كفارة يوم (٣) . ولما ذكر صلى الله عليه وسلم كفارة الذنوب بالحمى سأل زيد بن ثابت ربه عز وجل أن لا يزال محموما. فلم تكن الحمى تفارقه حتى مات رحمه الله. وسأل ذلك طائفة من الأنصار، فكانت الحمى لا تزايلهم

ولما قال صلى الله عليه وسلم (٤) « مَنْ أَذْهَبَ اللهُ كَرِيمَتَيْهِ لَمْ يَرْضَ لَهُ ثَوَابًا دُونَ الْجَنَّةِ » قال فلقد كان من الأنصار من يتمنى العمى . وقال عيسى عليه السلام. لا يكون عالما من لم يفرح بدخول المصائب والأمراض على جسده وماله، لما يرجو فى ذلك من كفارة خطاياه . وروي أن موسى عليه السلام نظر إلى عبد عظيم البلاء فقال. يارب ارحمه فقال تعالى كيف أرحمه فيما به أرحمه! أى به أكفر ذنونه وأزيد فى درجاته

---

(١) حديث لا تزال الحمى والمليلة بالعبد حتى يمشى على الارض كالبردة ماعليه خطيئة: أبو يعلى وابن عدى من حديث أبي هريرة والطبرانى من حديث أبي الدرداء نحوه وقال الصداع بدل الحمى وللطبرانى فى الأوسط من حديث أنس مثل المريض إذا صح وبرأ من مرضه كمثل البردة تقع من السماء تقع فى صفائها ولونها وأسانيده ضعيفة

(٢) حديث حمى يوم كفارة سنة: القضاعى فى مسند الشهاب من حديث ابن مسعود بسند ضعيف وقال ليلة بدل يوم

(٣) حديث لما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم كفارة الذنوب بالحمى سأل زيد بن ثابت أن لا يزال محموما ـ الحديث :وسأل ذلك طائفة من الانصار أحمد وأبو يعلى من حديث أبي سعيد الخدرى باسناد جيد أن رجلا من المسلمين قال يارسول الله أرأيت هذه الامراض تصيبنا مالنا فيها قال كفارات قال أبي وان قلت قال فان شوكة فما فوقها قال فدعا أبي أن لا يفارقه الوعك حتى يموت الحديث : وللطبرانى فى الأوسط من حديث أبي بن كعب انه قال يارسول الله ماجزاء الحمى قال تجرى الحسنات على صاحبها ما اختلج عليه قدم أو ضرب عليه عرق فقال اللهم انى أسألك حمى لا تمنعنى خروجا فى سبيلك ولا خروجا إلى بيتك ولا لمسجد نبيك ـ الحديث : والاسناد مجهول قاله على بن المديني

(٤) حديث من أذهب الله كريمتيه لم يرض له ثوابا دون الجنة : تقدم المرفوع منه دون قوله فلقد كان فى الانصار من يتمنى العمى

السبب السادس: أن يستشعر العبد فى نفسه مبادى البطر والطغيان بطول مدة الصحة فيترك التداوى خوفا من أن يعاجله زوال المرض فتعاوده الغفلة ، والبطر ، والطغيان أوطول الأمل ، والتسويف فى تدارك الفائت وتأخير الخيرات ، فإن الصحة عبارة عن قوة الصفات وبها ينبعث الهوى ، وتتحرك الشهوات ، وتدعو إلى المعاصى . وأقلها أن تدعو إلى التنعم فى المباحات ، وهو تضييع للأوقات ، وإهمال للربح العظيم فى مخالفة النفس وملازمة الطاعات وإذا أراد الله بعبد خيرا لم يخله عن التنبه بالأمراض والمصائب . ولذلك قيل . لايخلو المؤمن من علة ، أو قلة ، أو زلة . وقد روي أن الله تعالى يقول . الفقر سجنى ، والمرض قيدى أحبس به من أحب من خلقى . فإذا كان فى المرض حبس عن الطغيان وركوب المعاصى فأي خير يزيد عليه ! ولم ينبغ أن يشتغل بعلاجه من يخاف ذلك على نفسه . فالعافية فى ترك المعاصى . فقد قال بعض العارفين لإنسان . كيف كنت بعدى ؟ قال فى عافية . قال إن كنت لم تعص الله عز وجل فأنت فى عافية . وإن كنت قد عصيته فأي داء أدوأ من المعصية ! ماعوفى من عصى الله . وقال علي كرم الله وجهه ، لما رأى زينة النبط بالعراق فى يوم عيد . ماهذا الذى أظهروه ؟ قالوا ياأمير المؤمنين هذا يوم عيد لهم . فقال كل يوم لا يعصى الله عز وجل فيه فهو لنا عيد . وقال تعالى (مِن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ [1]) قيل العوافى (إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ [2]) وكذلك إذا استغنى بالعافية

وقال بعضهم إنما قال فرعون (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ [3]) لطول العافية ، لأنه لبث أربعمائة سنة لم يصدع له رأس ، ولم يحم له جسم ، ولم يضرب عليه عرق ، فادعى الربوبية ، لعنه الله. ولو أخذته الشقيقة يوما لشغلته عن الفضول فضلا عن دعوى الربوبية

وقال صلى الله عليه وسلم [(1)] « أَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ » وقيل . الحمى رائد الموت ، فهو مذكر له ، ودافع للتسويف . وقال تعالى (أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ [4]) قيل يفتنون بأمراض يختبرون بها ويقال . إن العبد إذا مرض مرضتين ثم لم يتب قال له ملك الموت . ياغافل ، جاءك منى

---

(١) حديث أكثروا ذكر هاذم اللذات : الترمذى وقال حسن غريب والنسائى وابن ماجه من حديث أبى هريرة وقد تقدم

---

[1] آل عمران : ١٥٢ [2] العلق : ٦ [3] النازعات : ٢٤ ; [4] التوبة : ١٢٦

رسول بعد رسول فلم تجب . وقد كان السلف لذلك يستوحشون إذا خرج عام ولم يصابوا فيه بنقص فى نفس أو مال ، وقالوا . لايخلو المؤمن فى كل أربعين يوما أن يروّع روعة ، أو يصاب ببلية ؛ حتى روي أن عمار بن ياسر تزوج امرأة ، فلم تكن تمرض ، فطلقها وأن النبي صلى الله عليه وسلم [١] عرض عليه امرأة ، فحكى من وصفها حتى هم أن يتزوجها ، فقيل ؛ وإنها مامرضت قط . فقال « لاحَاجَةَ لِى فِيهَا »

[٢] وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمراض والأوجاع ، كالصداع وغيره ، فقال رجل وما الصداع ؟ ماأعرفه . فقال صلى الله عليه وسلم « إِلَيْكَ عَنِّى مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا » وهذا لأنه ورد فى الخبر [٣] « الْحُمَّى حَظُّ كُلِّ مُؤْمِنٍ مِنَ النَّارِ » . وفى حديث [٤] أنس وعائشة رضي الله عنهما ، قيل يارسول الله هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم ؟ فقال « نَعَمْ مَنْ ذَكَرَ الْمَوْتَ كُلَّ يَوْمٍ عِشْرِينَ مَرَّةً » وفى لفظ آخر « الَّذِى يَذْكُرُ ذُنُوبَهُ فَتُحْزِنُهُ » ولا شك فى أن ذكر الموت على المريض أغلب ، فلما أن كثرت فوائد المرض ، رأى جماعة ترك الحيلة فى زوالها ؛ إذ رأوا لأنفسهم مزيدا فيها ، لا من حيث رأوا التداوى نقصانا . وكيف يكون نقصانا وقد فعل ذلك صلى الله عليه وسلم

بيان

الرد على من قال ترك التداوى أفضل بكل حال

فلو قال قائل . إنما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسن لغيره ، وإلا فهو حال الضعفاء ، ودرجة الأقوياء توجب التوكل بترك الدواء ، فيقال : ينبغى أن يكون من شرط التوكل

(١) حديث عرضت عليه امرأة فذكر من وصفها حتى هم أن يتزوجها فقيل فانها مامرضت قط فقال لاحاجة لى فيها : أحمد من حديث أنس بنحوه باسناد جيد

(٢) حديث ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الامراض والاوجاع كالصداع وغيره فقال رجل وما الصداع ماأعرفه فقال اليك عنى ـ الحديث : أبوداود من حديث عامر البرام أخى الخضر بنحوه وفى اسناده من لم يسم

(٣) حديث الحمى حظ كل مؤمن من النار : البزار من حديث عائشة وأحمد من حديث أبى أمامة والطبرانى فى الأوسط من حديث أنس وأبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن مسعود وحديث أنس ضعيف وباقيها حسان

(٤) حديث أنس وعائشة قيل يارسول الله هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم فقال نعم من ذكر الموت كل يوم عشرين مرة : لم أقف له على اسناد

ترك الحجامة والفصد عند تبيغ الدم . فإن قيل : إن ذلك أيضا شرط ، فليكن من شرطه أن تلدغه العقرب أو الحية فلا ينحيها عن نفسه ؛ إذ الدم يلدغ الباطن ، والعقرب تلدغ الظاهر ، فأي فرق بينهما . فإن قال : وذلك أيضا شرط التوكل ، فيقال ينبغي أن لا يزيل لدغ العطش بالماء ولدغ الجوع بالخبز ، ولدغ البرد بالجبة . وهذا لا قائل به . ولا فرق بين هذه الدرجات فإن جميع ذلك أسباب رتبها مسبب الأسباب سبحانه وتعالى ، وأجرى بها سنته

ويدل على أن ذلك ليس من شرط التوكل ما روي عن عمر رضي الله عنه ، وعن الصحابة في قصة الطاعون ، فإنهم لما قصدوا الشام ، وانتهوا إلى الجابية بلغهم الخبر أن به موتا عظيما ووباء ذريعا . فافترق الناس فرقتين . فقال بعضهم لا ندخل على الوباء ، فنلقي بأيدينا إلى التهلكة . وقالت طائفة أخرى بل ندخل ونتوكل ، ولا نهرب من قدر الله تعالى ، ولا نفر من الموت فنكون ، كمن قال الله تعالى فيهم (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ [1]) فرجعوا إلى عمر فسألوه عن رأيه ، فقال نرجع ولا ندخل على الوباء ، فقال له المخالفون في رأيه . أنفر من قدر الله تعالى ؟ قال عمر : نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله . ثم ضرب لهم مثلا فقال . أرأيتم لو كان لأحدكم غنم ، فهبط واديا له شعبتان إحداهما مخصبة ، والأخرى مجدبة ، أليس إن رعى المخصبة رعاها بقدر الله تعالى ، وإن رعى المجدبة رعاها بقدر الله تعالى ؟ فقالوا نعم . ثم طلب عبد الرحمن بن عوف ليسأله عن رأيه وكان غائبا ، فلما أصبحوا جاء عبد الرحمن فسأله عمر عن ذلك ، فقال عندي فيه يا أمير المؤمنين شيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال عمر . الله أكبر : فقال عبد الرحمن [1] سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إِذَا سَمِعْتُمْ بِالْوَبَاءِ فِي أَرْضٍ فَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ وَإِذَا وَقَعَ فِي أَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ » ففرح عمر رضي الله عنه بذلك وحمد الله تعالى إذ وافق رأيه ، ورجع من الجابية بالناس . فإذاً كيف اتفق الصحابة

---

(١) حديث عبد الرحمن بن عوف اذا سمعتم بالوباء في أرض فلا تقدموا عليه ـ الحديث : وفي أوله قصة خروج عمر بالناس الى الجابية وانه بلغهم أن بالشام وباء ـ الحديث : رواه البخاري

(١) البقرة : ٢٤٣

كلهم على ترك التوكل ، وهو من أعلى المقامات ، إن كان أمثال هذا من شروط التوكل

فإن قلت: فلم نهى عن الخروج من البلد الذى فيه الوباء، وسبب الوباء فى الطب الهواء ، وأظهر طرق التداوى الفرار من المضر ، والهواء هو المضر ، فلم لم يرخص فيه ؟

فاعلم أنه لا خلاف فى أن الفرار عن المضر غير منهي عنه ، إذ الحجامة والفصد فرار من المضر، وترك التوكل فى أمثال هذا مباح . وهذا لا يدل على المقصود . ولكن الذى ينقدح فيه والعلم عند الله تعالى ، أن الهواء لا يضر من حيث إنه يلاق ظاهر البدن ، بل من حيث دوام الاستنشاق له . فإنه إذا كان فيه عفونة ، ووصل إلى الرئة والقلب وباطن الأحشاء أثر فيها بطول الاستنشاق ، فلا يظهر الوباء على الظاهر إلا بعد طول التأثير فى الباطن . فالخروج من البلد لا يخلص غالبا من الأثر الذى استحكم من قبل . ولكن يتوهم الخلاص ، فيصير هذا من جنس الموهومات كالرقى والطيرة وغيرهما . ولو تجرد هذا المعنى لكان مناقضا للتوكل، ولم يكن منهيا عنه . ولكن صار منهيا عنه لأنه انضاف إليه أمر آخر، وهو أنه لو رخص للأصحاء فى الخروج لما بقى فى البلد إلا المرضى الذين أقعدهم الطاعون ، فانكسرت قلوبهم ، وفقدوا المتعهدين ، ولم يبق فى البلد من يسقيهم الماء ويطعمهم الطعام، وهم يعجزون عن مباشرتهما بأنفسهم ، فيكون ذلك سعيا فى إهلاكهم تحقيقا . وخلاصهم منتظر، كما أن خلاص الأصحاء منتظر. فلو أقاموا لم تكن الإقامة قاطعة بالموت ،ولو خرجوا لم يكن الخروج قاطعا بالخلاص ، وهو قاطع فى إهلاك الباقين . والمسلمون كالبنيان يشد بعضه بعضا . والمؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى إليه سائر أعضائه

فهذا هو الذى ينقدح عندنا فى تعليل النهي . وينعكس هذا فيمن لم يقدم بعد على البلد ، فإنه لم يؤثر الهواء فى باطنهم ، ولا بأهل البلد حاجة إليهم . نعم لو لم يبق بالبلد إلا مطعونون وافتقروا إلى المتعهدين ، وقدم عليهم قوم ، فربما كان ينقدح استحباب الدخول ههنا لأجل الإعانة ، ولا ينهى عن الدخول لأنه تعرض لضرر موهوم على رجاء دفع ضرر عن بقية المسلمين ، وبهذا [1] شبه الفرار من الطاعون فى بعض الأخبار بالفرار من الزحف لأن فيه

---

(١) حديث تشبيه الفرار من الطاعون بالفرار من الزحف :رواه أحمد من حديث عائشة باسناد جيد ومن حديث جابر باسناد ضعيف وقد تقدم

كسراً لقلوب بقية المسلمين ، وسعياً فى إهلاكهم . فهذه أمور دقيقة ، فمن لا يلاحظها وينظر إلى ظواهر الأخبار والآثار يتناقض عنده أكثر ماسمعه . وغلطُ العبّاد والزهاد فى مثل هذا كثير . وإنما شرف العلم وفضيلته لأجل ذلك

فإن قلت : ففى ترك التداوى فضل كما ذكرت ، فلمَ لم يترك رسول الله صلى الله عليه وسلم التداوى لينال الفضل . فنقول : فيه فضل بالإضافة إلى من كثرت ذنوبه ليكفرها أو خاف على نفسه طغيان العافية وغلبة الشهوات ، أو احتاج إلى مايذكره الموت لغلبة الغفلة أو احتاج إلى نيل ثواب الصابرين لقصوره عن مقامات الراضين والمتوكلين ، أو قصرت بصيرته عن الاطلاع على ماأودع الله تعالى فى الأدوية من لطائف المنافع حتى صار فى حقه موهوما كالرقى ، أو كان شغله بحاله يمنعه عن التداوى ، وكان التداوى يشغله عن حاله لضعفه عن الجمع . فإلى هذه المعانى رجعت الصوارف فى ترك التداوى . وكل ذلك كمالات بالإضافة إلى بعض الخلق ، ونقصان بالإضافة إلى درجة رسول الله صلى الله عليه وسلم . بل كان مقامه أعلى من هذه المقامات كلها ، إذ كان حاله يقتضى أن تكون مشاهدته على وتيرة واحدة عند وجود الأسباب وفقدها . فإنه لم يكن له نظر فى الأحوال إلا إلى مسبب الأسباب ومن كان هذا مقامه لم تضره الأسباب . كما أن الرغبة فى المال نقص ، والرغبة عن المال كراهية له وإن كانت كمالا فهي أيضا نقص بالإضافة إلى من يستوى عنده وجود المال وعدمه فاستواء الحجر والذهب أكمل من الهرب من الذهب دون الحجر . وكان حاله صلى الله عليه وسلم استواء المدر والذهب عنده . وكان لا يمسكه لتعليم الخلق مقام الزهد فإنه منتهى قوتهم ، لا لخوفه على نفسه من إمساكه ، فإنه كان أعلى رتبة من أن تغره الدنيا وقد عرضت عليه خزائن الأرض فأبى أن يقبلها [1] . فكذلك يستوى عنده مباشرة الأسباب وتركها لمثل هذه المشاهدة . وإنما لم يترك استعمال الدواء جريا على سنة الله تعالى ، وترخيصا لأمته فيما تمس إليه حاجتهم ، مع أنه لا ضرر فيه . بخلاف إدخال الأموال ، فإن ذلك يعظم ضرره . نعم التداوى لا يضر إلا من حيث رؤية الدواء نافعا دون خالق الدواء ، وهذا قد

---

(١) حديث أنه عرضت عليه خزائن الارض فأبى أن يقبلها : تقدم ولفظه عرضت مفاتيح خزائن السماء وكنوز الارض فردها

نهى عنه . ومن حيث إنه يقصد به الصحة ليستعان بها على المعاصى ، وذلك منهي عنه . والمؤمن فى غالب الأمر لا يقصد ذلك . وأحد من المؤمنين لا يرى الدواء نافعا بنفسه . بل من حيث إنه جعله الله تعالى سببا للنفع ، كما لا يرى الماء مرويا ، ولا الخبز مشبعا . فحكم التداوى فى مقصوده كحكم الكسب ، فإنه إن اكتسب للاستعانة على الطاعة أو على المعصية كان له حكمها . وإن اكتسب للتنعم المباح فله حكمه فقد ظهر بالمعانى التى أوردناها أن ترك التداوى قد يكون أفضل فى بعض الأحوال، وأن التداوى قد يكون أفضل فى بعض، وأن ذلك يختلف باختلاف الأحوال ، والأشخاص، والنيات، وأن واحدا من الفعل والترك ليس شرطا فى التوكل إلا ترك الموهومات كالكي والرقي، فإن ذلك تعمق فى التدبيرات لا يليق بالمتوكلين

بيان

أحوال المتوكلين فى إظهار المرض وكتمانه

اعلم أن كتمان المرض وإخفاء الفقر وأنواع البلاء من كنوز البر ، وهو من أعلى المقامات ، لأن الرضا بحكم الله والصبر على بلائه معاملة بينه وبين الله عز وجل، فكتمانه أسلم عن الآفات ومع هذا فالإظهار لا بأس به إذا صحت فيه النية والمقصد . ومقاصد الإظهار ثلاثة

مقاصد الإظهار المرض

الأول : أن يكون غرضه التداوى ، فيحتاج إلى ذكره للطبيب ، فيذكره لا فى معرض الشكاية بل فى معرض الحكاية لما ظهر عليه من قدرة الله تعالى . فقد كان بشر يصف لعبد الرحمن المطبب أوجاعه . وكان أحمد بن حنبل يخبر بأمراض يجدها ويقول: إنما أصف قدرة الله تعالى فيّ

الثانى : أن يصف لغير الطبيب وكان ممن يقتدى به ، وكان مكينا فى المعرفة فأراد من ذكره أن يتعلم منه حسن الصبر فى المرض، بل حسن الشكر بأن يظهر أنه يرى أن المرض نعمة فيشكر عليها ، فيتحدث به كما يتحدث بالنعم . قال الحسن البصرى : إذا حمد المريض الله تعالى وشكره ، ثم ذكر أوجاعه ، لم يكن ذلك شكوى

الثالث : أن يظهر بذلك عجزه وافتقاره إلى الله تعالى ، وذلك يحسن ممن تليق به القوة والشجاعة ويستبعد منه العجز ، كما روي أنه قيل لعليّ فى مرضه رضي الله عنه . كيف أنت ؟ قال بشرّ . فنظر بعضهم إلى بعض كأنهم كرهوا ذلك ، وظنوا أنه شكاية فقال . أتجلّد على الله . فأحب أن يظهر عجزه وافتقاره مع ما علم به من القوة والضراوة، وتأدب فيه بأدب النبي

صلى الله عليه وسلم إياه، حيث[1] مرض علي كرم الله وجهه. فسمعه عليه السلام وهو يقول. اللهم صبرني على البلاء . فقال له صلى الله عليه وسلم « لَقَدْ سَأَلْتَ اللهَ تَعَالَى الْبَلَاءَ فَسَلِ اللهَ الْعَافِيَةَ »

فبهذه النيات يرخص فى ذكر المرض وإنما يشترط ذلك لأن ذكره شكاية، والشكوى من الله تعالى حرام ، كما ذكرته فى تحريم السؤال على الفقراء إلا بضرورة

ويصير الإظهار شكاية بقرينة السخط وإظهار الكراهة لفعل الله تعالى . فإن خلا عن قرينة السخط وعن النيات التى ذكرناها فلا يوصف بالتحريم ، ولكن يحكم فيه بأن الأولى تركه ، لأنه ربما يوهم الشكاية ، ولأنه ربما يكون فيه تصنع ومزيد فى الوصف على الموجود من العلة . ومن ترك التداوى توكلا فلا وجه فى حقه للإظهار، لأن الاستراحة إلى الدواء أفضل من الاستراحة إلى الإفشاء . وقد قال بعضهم . من بث لم يصبر وقيل فى معنى قوله (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ[1]) لاشكوى فيه . وقيل ليعقوب عليه السلام . ما الذى أذهب بصرك ؟ قال مر الزمان وطول الأحزان . فأوحى الله تعالى إليه . تفرغت لشكواى إلى عبادى . فقال يارب أتوب إليك . وروي عن طاوس ومجاهد أنهما قالا . يكتب على المريض أنينه فى مرضه . وكانوا يكرهون أنين المرض لأنه إظهار معنى يقتضى الشكوى حتى قيل ما أصاب إبليس لعنه الله من أيوب عليه السلام إلا أنينه فى مرضه. فجعل الأنين حظه منه

وفى الخبر[2] « إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ أَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَى الْمَلَكَيْنِ انْظُرَا مَا يَقُولُ لِعُوَّادِهِ فَإِنْ حَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى بِخَيْرٍ دَعَوَا لَهُ وَإِنْ شَكَا وَذَكَرَ شَرًّا قَالَا كَذَلِكَ تَكُونُ »

وإنما كره بعض العباد العيادة خشية الشكاية ، وخوف الزيادة فى الكلام . فكان بعضهم إذا مرض أغلق بابه ، فلم يدخل عليه أحد حتى يبرأ فيخرج إليهم . منهم فضيل ، ووهيب ، وبشر . وكان فضيل يقول أشتهى أن أمرض بلا عواد . وقال . لا أكره العلة إلا لأجل العواد . رضي الله عنه وعنهم أجمعين

كمل كتاب التوحيد والتوكل بعون الله وحسن توفيقه . يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب المحبة ، والشوق ، والأنس ، والرضا . والله سبحانه وتعالى الموفق

---

(١) حديث مرض على فسمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول اللهم صبرنى على البلاء فقال لقد سألت الله البلاء فسل الله العافية : تقدم مع اختلاف

(٢) حديث إذا مرض العبد أوحى الله إلى الملكين انظرا مايقول لعواده ـ الحديث : تقدم

---

(١) يوسف : ٨٣

كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا

كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا

وهو الكتاب السادس من ربع المنجيات من كتب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي نزه قلوب أوليائه عن الالتفات إلى زخرف الدنيا ونضرته، وصفى أسرارهم من ملاحظة غير حضرته، ثم استخلصها للعكوف على بساط عزته، ثم تجلى لهم بأسمائه وصفاته حتى أشرقت بأنوار معرفته، ثم كشف لهم عن سُبُحات وجهه حتى احترقت بنار محبته، ثم احتجب عنها بكنه جلاله حتى تاهت في بيداء كبريائه وعظمته. فكلما اهتزت لملاحظة كنه الجلال غشيها من الدهش ما أغبر في وجه العقل وبصيرته، وكلما همت بالانصراف آيسة نوديت من سرادقات الجمال صبراً أيها الآيس عن نيل الحق بجهله وعجلته، فبقيت بين الرد والقبول والصد والوصول غرقى في بحر معرفته ومحترقة بنار محبته. والصلاة على محمد خاتم الأنبياء بكمال نبوته، وعلى آله وأصحابه سادة الخلق وأئمته وقادة الحق وأزمته، وسلم كثيرا

أما بعد: فإن المحبة لله هي الغاية القصوى من المقامات، والذروة العليا من الدرجات فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها، وتابع من توابعها، كالشوق، والأنس، والرضا وأخواتها، ولا قبل المحبة مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها، كالتوبة، والصبر، والزهد وغيرها وسائر المقامات إن عز وجودها فلم تخل القلوب عن الإيمان بإمكانها. وأما محبة الله تعالى فقد عز الإيمان بها، حتى أنكر بعض العلماء إمكانها، وقال لا معنى لها إلا المواظبة على طاعة الله تعالى، وأما حقيقة المحبة فمحال إلا مع الجنس والمثال ولما أنكروا المحبة أنكروا الأنس، والشوق، ولذة المناجاة. وسائر لوازم الحب وتوابعه. ولا بد من كشف الغطاء عن هذا الأمر

ونحن نذكر في هذا الكتاب بيان شواهد الشرع في المحبة، ثم بيان حقيقتها وأسبابها، ثم بيان أن لا مستحق للمحبة إلا الله تعالى، ثم بيان أن أعظم اللذات لذة النظر إلى وجه الله تعالى ثم بيان سبب زيادة لذة النظر في الآخرة على المعرفة في الدنيا، ثم بيان الأسباب المقوية لحب الله تعالى، ثم بيان السبب في تفاوت الناس في الحب، ثم بيان السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله تعالى، ثم بيان معنى الشوق، ثم بيان محبة الله تعالى للعبد، ثم القول في علامات محبة العبد لله تعالى،

ثم بيان معنى الأنس بالله تعالى ، ثم بيان معنى الانبساط فى الأنس ، ثم القول فى معنى الرضا وبيان فضيلته، ثم بيان حقيقته ، ثم بيان أن الدعاء وكراهة المعاصى لاتناقضه. وكذا الفرار من المعاصى ،ثم بيان حكايات وكلمات المحبين متفرقة . فهذه جميع بيانات هذا الكتاب

بيان

شواهد الشرع فى حب العبد لله تعالى

اعلم أن الأمة مجمعة على أن الحب لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم فرض . وكيف يفرض مالاوجود له ، وكيف يفسر الحب بالطاعة والطاعة تبع الحب وثمرته ، فلا بد وأن يتقدم الحب ، ثم بعد ذلك يطيع من أحب . ويدل على إثبات الحب لله تعالى قوله عز وجل (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ [١]) وقوله تعالى (وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ [٢])وهو دليل على إثبات الحب ، وإثبات التفاوت فيه . وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحب لله من شرط الإيمان فى أخبار كثيرة ، إذ قال [١] أبو رزين العقيلى : يارسول الله ،ماالإيمان؟ قال « أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِمَّا سِوَاهُمَا » وفى حديث آخر [٢] «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا » وفى حديث آخر [٣] «لَا يُؤْمِنُ الْعَبْدُ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » وفى رواية « وَمِنْ نَفْسِهِ » كيف وقد قال تعالى(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ [٣])الآية. وإنما أجرى

﴿ كتاب المحبة والشوق والرضا ﴾

(١) حديث أبى رزين العقيلى انه قال يارسول الله ماالايمان قال أن يكون الله ورسوله أحب اليك مما سواهما أخرجه أحمد بزيادة فى أوله

(٢) حديث لايؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما :متفق عليه من حديث أنس بلفظ لايجد أحد حلاوة الايمان حتى أكون أحب اليه من أهله وماله وذكره بزيادة

(٣) حديث لايؤمن العبد حتى أكون أحب اليه من أهله وماله والناس أجمعين وفى رواية ومن نفسه متفق عليه من حديث أنس واللفظ لمسلم دون قوله ومن نفسه وقال البخارى من والده وولده وله من حديث عبد الله بن هشام قال عمر يارسول الله لأنت أحب الى من كل شىء الا نفسى فقال لاوالذى نفسى بيده حتى أكون أحب اليك من نفسك فقال عمر فأنت الآن والله أحب الى من نفسى فقال الآن ياعمر

[١] المائدة : ٥٤ [٢] البقرة : ١٦٥ [٣] التوبة : ٢٤

ذلك فى معرض التهديد والإنكار . وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمحبة فقال [١] « أَحِبُّوا اللهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعْمَةٍ وَأَحِبُّونِي لِحُبِّ اللهِ إِيَّايَ »

ويروى [٢] أن رجلا قال يارسول الله إنى أحبك . فقال صلى الله عليه وسلم « اسْتَعِدَّ لِلْفَقْرِ » فقال إنى أحب الله تعالى . فقال « اسْتَعِدَّ لِلْبَلَاءِ » . وعن [٣] عمر رضي الله عنه قال : نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى مصعب بن عمير مقبلا وعليه إهاب كبش قد تنطق به ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « انْظُرُوا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ الَّذِى نَوَّرَ اللهُ قَلْبَهُ لَقَدْ رَأَيْتُهُ بَيْنَ أَبَوَيْهِ يَغْذُوَانِهِ بِأَطْيَبِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ فَدَعَاهُ حُبُّ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى مَا تَرَوْنَ »

وفى الخبر المشهور [٤] أن ابراهيم عليه السلام قال لملك الموت إذ جاءه اقبض روحه : هل رأيت خليلا يميت خليله ! فأوحى الله تعالى إليه : هل رأيت محبا يكره لقاء حبيبه . فقال ياملك الموت الآن فاقبض وهذا لايجده إلا عبد يحب الله بكل قلبه ، فإذا علم أن الموت سبب اللقاء انزعج قلبه إليه ، ولم يكن له محبوب غيره حتى يلتفت إليه

وقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم فى دعائه [٥] « اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ أَحَبَّكَ وَحُبَّ مَا يُقَرِّبُنِي إِلَى حُبِّكَ وَاجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ » . [٦] وجاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله متى الساعة ؟ قال « مَا أَعْدَدْتَ لَهَا » فقال : ماأعددت لها كثير صلاة ولا صيام ، إلا أنى أحب الله ورسوله ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ » قال أنس فما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بذلك ، وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : من ذاق من خالص محبة الله تعالى شغله ذلك عن طلب الدنيا ، وأوحشه عن جميع البشر

---

(١) حديث أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه ـ الحديث : الترمذى من حديث ابن عباس وقال حسن غريب

(٢) حديث ان رجلا قال يارسول انى أحبك فقال استعد للفقر ـ الحديث : الترمذى من حديث عبد الله ابن مغفل بلفظ فأعد للفقر تجفافا دون آخر ـ الحديث : وقال حسن غريب

(٣) حديث عمر قال نظر النبي صلى الله عليه وسلم الى مصعب بن عمير مقبلا وعليه اهاب كبش قد تنطق به الحديث : أبو نعيم فى الحلية باسناد حسن

(٤) حديث ان ابراهيم قال لملك الموت اذ جاءه ليقبض روحه هل رأيت خليلا يقبض خليله ـ الحديث : لم أجد له أصلا

(٥) حديث اللهم ارزقنى حبك وحب من يحبك ـ الحديث : تقدم

(٦) حديث قال أعرابى يارسول الله متى الساعة قال ماأعددت لها ـ الحديث : متفق عليه من حديث أنس ومن حديث أبى موسى وابن مسعود بنحوه

وقال الحسن : من عرف ربه أحبه ، ومن عرف الدنيا زهد فيها، والمؤمن لا يلهو حتى يغفل فإذا تفكر حزن، وقال أبو سليمان الداراني : إن من خلق الله خلقا مايشغلهم الجنان ومافيها من النعيم عنه ؛ فكيف يشتغلون عنه بالدنيا

ويروى أن عيسى عليه السلام مرّ بثلاثة نفر وقد نحلت أبدانهم ،وتغيرت ألوانهم، فقال لهم ماالذى بلغ بكم ماأرى ! فقالوا الخوف من النار. فقال حق على الله أن يؤمّن الخائف. ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين ، فإذاهم أشد نحولا وتغيرا فقال . ماالذى بلغ بكم ماأرى ! قالوا الشوق إلى الجنة . فقال حق على الله أن يعطيكم ماترجون . ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين ، فإذاهم أشد نحولا وتغيرا، كأن على وجوههم المرائى من النور ، فقال : ماالذى بلغ بكم ماأرى ! قالوا نحب الله عزوجل . فقال أنتم المقربون ، أنتم المقربون ، أنتم المقربون

وقال عبد الواحد بن زيد: مررت برجل قائم فى الثلج ، فقلت أماتجد البرد ؟ فقال من شغله حب الله لم يجد البرد . وعن سرى السقطى قال :تدعى الأمم يوم القيامة بأنبيائها عليهم السلام، فيقال ياأمة موسى ، وياأمة عيسى ، وياأمة محمد ، غير المحبين لله تعالى ، فإنهم ينادون ياأولياء الله ،هلموا إلى الله سبحانه ، فتكاد قلوبهم تنخلع فرحا . وقال هرم بن حيان : المؤمن إذا عرف ربه عزوجل أحبه ، وإذا أحبه أقبل إليه ، وإذاوجد حلاوة الإقبال إليه لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة ، ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفترة ، وهى تحسره فى الدنيا وتروحه فى الآخرة

وقال يحيى بن معاذ :عفوه يستغرق الذنوب فكيف رضوانه !ورضوانه يستغرق الآمال فكيف حبه ! وحبه يدهش العقول فكيف وده ! ووده ينسى مادونه فكيف لطفه !

وفى بعض الكتب : عبدى أنا وحقك لك محب ، فبحقى عليك كن لى محبا

وقال يحيى بن معاذ : مثقال خردلة من الحب أحب إليّ من عبادة سبعين سنة بلاحب

وقال يحيى بن معاذ : إلهى أنى مقيم بفنائك ، مشغول بثنائك صغيرا ، أخذتنى إليك ، وسربلتنى بمعرفتك ، وأمكنتنى من لطفك ، ونقلتنى فى الأحوال ، وقلبتنى فى الأعمال سترا، وتوبة ، وزهدا ، وشوقا ، ورضا ، وحبا ، تسقينى من حياضك ، وتهملنى فى رياضك ، ملازما لأمرك ،ومشغوفا بقولك ،ولما طر شاربى ولاح طائرى . فكيف أنصرف اليوم عنك كبيرا، وقد اعتدت هذا منك صغيرا !فلى ما بقيت حولك دندنة،وبالضراعة إليك همهمة، لأنى محب،وكل

محب بحبيبه مشغوف، وعن غير حبيبه مصروف . وقد ورد في حب الله تعالى من الأخبار والآثار مالايدخل في حصر حاصر، وذلك أمر ظاهر، وإنما الغموض في تحقيق معناه فلنشتغل به

بيان
حقيقة المحبة وأسبابها وتحقيق معنى محبة العبد لله تعالى

اعلم أن المطلب من هذا الفصل لاينكشف إلا بمعرفة حقيقة المحبة في نفسها ، ثم معرفة شروطها وأسبابها ، ثم النظر بعد ذلك في تحقيق معناها في حق الله تعالى

فأول ماينبغي أن يتحقق أنه لا يتصور محبة إلا بعد معرفة وإدراك ، إذ لا يحب الإنسان إلا مايعرفه . ولذلك لم يتصور أن يتصف بالحب جماد ، بل هو من خاصية الحي المدرك ثم المدركات في انقسامها تنقسم إلى مايوافق طبع المدرك ويلائمه ويلذه ، وإلى ماينافيه وينافره ويؤلمه ، وإلى مالا يؤثر فيه بإيلام وإلذاذ . فكل مافي إدراكه لذة وراحة فهو محبوب عند المدرك ، وما في إدراكه ألم فهو مبغوض عند المدرك ، وما يخلو عن استعقاب ألم ولذة ولا يوصف بكونه محبوبا ولا مكروها . فإذاً كل لذيذ محبوب عند الملتذ به ومعنى كونه محبوبا أن في الطبع ميلا إليه . ومعنى كونه مبغوضا أن في الطبع نفرة عنه . فالحب عبارة عن ميل الطبع إلى الشيء الملذ ، فإن تأكد ذلك الميل وقوي سمي عشقا ، والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المتعب ، فإذا قوي سمي مقتا . فهذا أصل في حقيقة معنى الحب لابد من معرفته

الأصل الثاني : أن الحب لما كان تابعا للإدراك والمعرفة انقسم لامحالة بحسب انقسام المدركات والحواس ، فلكل حاسة إدراك لنوع من المدركات ، ولكل واحد منها لذة في بعض المدركات . وللطبع بسبب تلك اللذة ميل إليها ، فكانت محبوبات عند الطبع السليم . فلذة العين في الإبصار ، وإدراك المبصرات الجميلة ، والصور المليحة الحسنة المستلذة ولذة الأذن في النغمات الطيبة الموزونة . ولذة الشم في الروائح الطيبة . ولذة الذوق في الطعوم . ولذة اللمس في اللين والنعومة . ولما كانت هذه المدركات بالحواس ملذة كانت محبوبة أي كان للطبع السليم ميل إليها . حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ

(١) حديث حبب الي من دنياكم ثلاث الطيب والنساء ـ الحديث : النسائي من حديث أنس دون قوله ثلاث وقد تقدم

دُنْيَاكُمْ ثَلاَثٌ الطِّيبُ وَالنِّسَاءُ وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاَةِ » فسمي الطيب محبوبا ، ومعلوم أنه لاحظ للعين والسمع فيه ، بل للشم فقط . وسمى النساء محبوبات ، ولاحظّ فيهن إلا للبصر واللمس ، دون الشم ، والذوق ، والسمع . وسمي الصلاة قرة عين، وجعلها أبلغ المحبوبات ، ومعلوم أنه ليس تحظى بها الحواس الخمس ، بل حس سادس مظنته القلب، لايدركه إلا من كان له قلب . ولذات الحواس الخمس تشارك فيها البهائم الإنسان ،فإن كان الحب مقصورا على مدركات الحواس الخمس ، حتى يقال إن الله تعالى لايدرك بالحواس ولا يتمثل فى الخيال فلا يحب ، فإذاً قد بطلت خاصية الإنسان وما تميز به من الحس السادس الذي يعبر عنه إما بالعقل ، أو بالنور ، أو بالقلب ، أو بما شئت من العبارات ،فلامشاحة فيه وهيهات . فالبصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر . والقلب أشد إدراكا من العين . وجمال المعانى المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار ، فتكون لامحالة لذة القلب بما يدركه من الأمور الشريفة الإلٰهية التي تجل عن أن تدركها الحواس أتم وأبلغ فيكون ميل الطبع السليم والعقل الصحيح إليه أقوى . ولا معنى للحب إلا الميل إلى ما فى إدراكه لذة، كما سيأتى تفصيله ، فلا ينكر إذاً حب الله تعالى إلا من قعد به القصور فى درجة البهائم ، فلم يجاوز إدراك الحواس أصلا

الأصل الثالث : أن الإنسان لايخفى أنه يحب نفسه ، ولا يخفى أنه قد يحب غيره لأجل نفسه . وهل يتصور أن يحب غيره لذاته لالأجل نفسه ؟ هذا مما قد يشكل على الضعفاء حتى يظنون أنه لايتصور أن يحب الإنسان غيره لذاته ، مالم يرجع منه حظ إلى المحب سوى إدراك ذاته والحق أن ذلك متصور وموجود ، فلنبين أسباب المحبة وأقسامها

وبيانه أن المحبوب الأول عند كل حي نفسه وذاته . ومعنى حبه لنفسه أن فى طبعه ميلا إلى دوام وجوده ، ونفرة عن عدمه وهلاكه ، لأن المحبوب بالطبع هو الملائم للمحب ، وأي شيء أتم ملاءمة من نفسه ودوام وجوده ، وأي شيء أعظم مضادة ومنافرة له من عدمه وهلاكه ! فلذلك يحب الإنسان دوام الوجود ، ويكره الموت والقتل ، لالمجرد مايخافه بعد الموت ، ولا لمجرد الحذر من سكرات الموت ، بل لو اختطف من غير ألم ، وأميت من غير ثواب ولا عقاب لم يرض به ، وكان كارها لذلك . ولا يحب الموت والعدم المحض

إلا لمقاساة ألم فى الحياة . ومهما كان مبتلى ببلاء فمحبوبه زوال البلاء . فإن أحب العدم لم يحبه لأنه عدم ، بل لأن فيه زوال البلاء . فالهلاك والعدم ممقوت ، ودوام الوجود محبوب

وكما أن دوام الوجود محبوب . فكمال الوجود أيضا محبوب . لأن الناقص فاقد للكمال والنقص عدم بالإضافة إلى القدر المفقود ، وهو هلاك بالنسبة إليه . والهلاك والعدم ممقوت فى الصفات وكمال الوجود ، كما أنه ممقوت فى أصل الذات . ووجود صفات الكمال محبوب ، كما أن دوام أصل الوجود محبوب . وهذه غريزة فى الطباع بحكم سنة الله تعالى (وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً [١]) فإذاً المحبوب الأول للإنسان ذاته ، ثم سلامة أعضائه ، ثم ماله ، وولده ، وعشيرته ، وأصدقاؤه . فالأعضاء محبوبة ، وسلامتها مطلوبة ، لأن كمال الوجود ودوام الوجود موقوف عليها . والمال محبوب ، لأنه أيضا آلة فى دوام الوجود وكماله ، وكذا سائر الأسباب . فالإنسان يحب هذه الأشياء لا لأعيانها ، بل لارتباط حظه فى دوام الوجود وكماله بها ، حتى أنه ليحب ولده وإن كان لا يناله منه حظ ، بل يتحمل المشاق لأجله ، لأنه يخلفه فى الوجود بعد عدمه ، فيكون فى بقاء نسله نوع بقاء له ، فلفرط حبه لبقاء نفسه يحب بقاء من هو قائم مقامه وكأنه جزء منه ، لما عجز عن الطمع فى بقاء نفسه أبدا . نعم لو خير بين قتله وقتل ولده ، وكان طبعه باقيا على اعتداله ، آثر بقاء نفسه على بقاء ولده . لأن بقاء ولده يشبه بقاءه من وجه ، وليس هو بقاءه المحقق . وكذلك حبه لأقاربه وعشيرته يرجع إلى حبه لكمال نفسه ، فإنه يرى نفسه كثيرا بهم ، قويا بسببهم ، متجملا بكمالهم ، فإن العشيرة والمال والأسباب الخارجة كالجناح المكمل للإنسان ، وكمال الوجود ودوامه محبوب بالطبع لا محالة . فإذاً المحبوب الأول عند كل حي ذاته وكمال ذاته ، ودوام ذلك كله . والمكروه عنده ضد ذلك . فهذا هو أول الأسباب

السبب الثانى . الإحسان ، فإن الإنسان عبد الإحسان ، وقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها ، وبغض من أساء إليها . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْ لِفَاجِرٍ عَلَيَّ يَداً فَيُحِبَّهُ قَلْبِي » إشارة إلى أن حب القلب للمحسن اضطرار لا يستطاع

الإحسان

(١) حديث اللهم لا تجعل لكافر على يدا فيحبه قلبى : أبو منصور الديلمي فى مسند الفردوس من حديث معاذ ابن جبل بسند ضعيف منقطع وقد تقدم

(١) الاحزاب : ٦٢

دفعه ، وهو جبلة وفطرة لاسبيل إلى تغييرها . وبهذا السبب قد يحب الإنسان الأجنبي الذى لاقرابة بينه وبينه ولا علاقة . وهذا إذا حقق رجع إلى السبب الأول، فإن المحسن من أمد بالمال والمعونة ، وسائر الأسباب الموصلة إلى دوام الوجود . وكمال الوجود ، وحصول الحظوظ التى بها يتهيأ الوجود ، إلا أن الفرق أن أعضاء الإنسان محبوبة لأن بها كمال وجوده ، وهي عين الكمال المطلوب . فأما المحسن فليس هو عين الكمال المطلوب ولكن قد يكون سببا له ، كالطبيب الذى يكون سببا فى دوام صحة الأعضاء ، ففرق بين حب الصحة وبين حب الطبيب الذى هو سبب الصحة ، إذ الصحة مطلوبة لذاتها ، والطبيب محبوب لالذاته بل لأنه سبب للصحة . وكذلك العلم محبوب . والأستاذ محبوب ، ولكن العلم محبوب لذاته ، والأستاذ محبوب لكونه سبب العلم المحبوب . وكذلك الطعام والشراب محبوب ، والدنانير محبوبة ، لكن الطعام محبوب لذاته ، والدنانير محبوبة لأنها وسيلة إلى الطعام

فإذاً يرجع الفرق إلى تفاوت الرتبة ، وإلا فكل واحد يرجع إلى محبة الإنسان نفسه . فكل من أحب المحسن لإحسانه فما أحب ذاته تحقيقا ، بل أحب إحسانه ، وهو فعل من أفعاله لو زال زال الحب ، مع بقاء ذاته تحقيقا . ولو نقص نقص الحب ، ولو زاد زاد . ويتطرق إليه الزيادة والنقصان بحسب زيادة الإحسان ونقصانه

حب الشيء لذاته

السبب الثالث : أن يحب الشيء لذاته ، لالحظ ينال منه وراء ذاته ، بل تكون ذاته عين حظه . وهذا هو الحب الحقيقي البالغ الذى يوثق بدوامه ، وذلك كحب الجمال والحسن فإن كل جمال محبوب عند مدرك الجمال ، وذلك لعين الجمال ، لأن إدراك الجمال فيه عين اللذة ، محبوبة لذاتها لالغيرها . ولا تظنن أن حب الصور الجميلة لايتصور إلا لأجل قضاء الشهوة ، فإن قضاء الشهوة لذة أخرى قد تحب الصور الجميلة لأجلها ، وإدراك نفس الجمال أيضا لذيذ ، فيجوز أن يكون محبوبا لذاته . وكيف ينكر ذلك والخضرة والماء الجاري محبوب ، لا ليشرب الماء وتؤكل الخضرة أو ينال منها حظ سوى نفس الرؤية . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه الخضرة والماء الجاري [1] . والطباع السليمة قاضية

---

(١) حديث كان يعجبه الخضرة والماء الجاري : أبو نعيم فى الطب النبوى من حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب أن ينظر الى الخضرة والى الماء الجاري واسناده ضعيف

باستلذاذ النظر إلى الأنوار ، والأزهار ، والأطيار المليحة الألوان ، الحسنة النقش ، المتناسبة الشكل ، حتى أن الإنسان لتنفرج عنه الغموم والهموم بالنظر إليها ، لا لطلب حظ وراء النظر .

فهذه الأسباب ملذة وكل لذيذ محبوب ، وكل حسن وجمال فلا يخلو إدراكه عن لذة ولا أحد ينكر كون الجمال محبوبا بالطبع . فإن ثبت أن الله جميل كان لا محالة محبوبا عند من انكشف له جماله وجلاله ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ »

الأصل الرابع في بيان معنى الحسن والجمال

اعلم أن المحبوس في مضيق الخيالات والمحسوسات ربما يظن أنه لا معنى للحسن والجمال إلا تناسب الخلقة والشكل ، وحسن اللون ، وكون البياض مشربا بالحمرة ، وامتداد القامة ، إلى غير ذلك مما يوصف من جمال شخص الإنسان ؛ فإن الحسن الأغلب على الخلق حسن الإبصار ، وأكثر التفاتهم إلى صور الأشخاص ، فيظن أن ما ليس مبصرا ، ولا متخيلا ، ولا متشكلا ، ولا متلونا مقدر ، فلا يتصور حسنه ، وإذا لم يتصور حسنه لم يكن في إدراكه لذة ، فلم يكن محبوبا . وهذا خطأ ظاهر . فإن الحسن ليس مقصورا على مدركات البصر ، ولا على تناسب الخلقة وامتزاج البياض بالحمرة ، فإنا نقول هذا خط حسن ، وهذا صوت حسن ، وهذا فرس حسن . بل نقول هذا ثوب حسن ، وهذا إناء حسن . فأي معنى لحسن الصوت والخط وسائر الأشياء إن لم يكن الحسن إلا في الصورة ! ومعلوم أن العين تستلذ بالنظر إلى الخط الحسن ، والأذن تستلذ استماع النغمات الحسنة الطيبة ، وما من شيء من المدركات ، إلا وهو منقسم إلى حسن ، وقبيح ، فما معنى الحسن الذي تشترك فيه هذه الأشياء ، فلا بد من البحث عنه ، وهذا البحث يطول ولا يليق بعلم المعاملة الإطناب فيه ، فنصرح بالحق ونقول : كل شيء ، وجماله وحسنه في أن يحضر كماله اللائق به الممكن له

فإذا كان جميع كمالاته الممكنة حاضرة فهو في غاية الجمال وإن كان الحاضر بعضها فله من الحسن والجمال بقدر ما حضر ، فالفرس الحسن هو الذي جمع كل ما يليق بالفرس من هيئة وشكل ، ولون ، وحسن عدْو ، وتيسر كرّ وفرّ عليه . والخط الحسن كل ما جمع ما يليق بالخط

---

(١) حديث ان الله جميل يحب الجمال : مسلم في أثناء حديث لابن مسعود

من تناسب الحروف ، وتوازيها واستقامة ترتيبها وحسن انتظامها، ولكل شيء كمال يليق به وقد يليق بغيره ضده فحسن كل شيء في كماله الذي يليق به . فلا يحسن الإنسان بما يحسن به الفرس ولا يحسن الخط بما يحسن به الصوت ، ولا تحسن الأواني بما تحسن به الثياب وكذلك سائر الأشياء

فإن قلت : فهذه الأشياء ، وإن لم تدرك جميعها بحسن البصر مثل الأصوات ، والطعوم فإنها لا تنفك عن إدراك الحواس لها ، فهي محسوسات وليس ينكر الحسن والجمال للمحسوسات ولا ينكر حصول اللذة بإدراك حسنها ، وإنما ينكر ذلك في غير المدرك بالحواس

فاعلم أن الحسن والجمال موجود في غير المحسوسات . إذ يقال هذا خلق حسن، وهذا علم حسن ، وهذه سيرة حسنة ، وهذه أخلاق جميلة ، وإنما الأخلاق الجميلة يراد بها العلم ، والعقل ، والعفة ، والشجاعة ، والتقوى ، والكرم ، والمروءة ، وسائر خلال الخير ، وشيء من هذه الصفات لا يدرك بالحواس الخمس ، بل يدرك بنور البصيرة الباطنة ، وكل هذه الخلال الجميلة محبوبة ، والموصوف بها محبوب بالطبع عند من عرف صفاته ، وآية ذلك وأن الأمر كذلك ، أن الطباع مجبولة على حب الأنبياء صلوات الله عليهم ، وعلى حب الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، مع أنهم لم يشاهدوا ، بل على حب أرباب المذاهب ، مثل الشافعي وأبي حنيفة ، ومالك ، وغيرهم ، حتى أن الرجل قد يجاوز به حبه لصاحب مذهبه حد العشق فيحمله ذلك على أن ينفق جميع ماله في نصرة مذهبه ، والذبّ عنه ، ويخاطر بروحه في قتال من يطعن في إمامه ومتبوعه ، فكم من دم أريق في نصرة أرباب المذاهب ، وليت شعري من يحب الشافعي مثلا فلمَ يحبه ولم يشاهد قط صورته ، ولو شاهده ربما لم يستحسن صورته فاستحسانه الذي حمله على إفراط الحب هو لصورته الباطنة لا لصورته الظاهرة ، فإن صورته الظاهرة قد انقلبت ترابا مع التراب ، وإنما يحبه لصفاته الباطنة من الدين والتقوى وغزارة العلم والإحاطة بمدارك الدين ، وانتهاضه لإفادة علم الشرع ، ولنشره هذه الخيرات في العالم

وهذه أمور جميلة ، لا يدرك جمالها إلا بنور البصيرة ، فأما الحواس فقاصرة عنها ، وكذلك من يحب أبا بكر الصديق رضي الله عنه ويفضله على غيره ، أو يحب عليا رضي الله تعالى عنه ويفضله ويتعصب له ، فلا يحبهم إلا لاستحسان صورهم الباطنة من العلم والدين والتقوى

والشجاعة والكرم وغيره ، فمعلوم أن من يحب الصديق رضي الله تعالى عنه مثلا ، ليس يحب عظمه ولحمه وجلده وأطرافه وشكله ، إذ كل ذلك زال وتبدل وانعدم ، ولكن بقي ما كان الصدّيق به صديقا ، وهي الصفات المحمودة التي هي مصادر السير الجميلة ، فكان الحب باقيا ببقاء تلك الصفات ، مع زوال جميع الصور ، وتلك الصفات ترجع جملتها إلى العلم والقدرة إذا علم حقائق الأمور ، وقدر على حمل نفسه عليها ، بقهر شهواته ، فجميع خلال الخير يتشعب على هذين الوصفين ، وهما غير مدركين بالحس ومحلهما من جملة البدن جزء لا يتجزأ ، فهو المحبوب بالحقيقة وليس للجزء الذي لا يتجزأ صورة وشكل ولون يظهر للبصر حتى يكون محبوبا لأجله . فإذاً الجمال موجود في السير ولو صدرت السيرة الجميلة من غير علم وبصيرة لم يوجب ذلك حبا ، فالمحبوب مصدر السير الجميلة، وهي الأخلاق الحميدة ، والفضائل الشريفة ، وترجع جملتها إلى كمال العلم والقدرة ، وهو محبوب بالطبع وغير مدرك بالحواس ، حتى أن الصبي المخلى وطبعه إذا أردنا أن نحبب إليه غائبا أو حاضرا حيا أو ميتا لم يكن لنا سبيل إلا بالإطناب في وصفه بالشجاعة والكرم والعلم وسائر الخصال الحميدة ، فمهما اعتقد ذلك لم يتمالك في نفسه ، ولم يقدر أن لا يحبه ، فهل غلب حب الصحابة رضي الله تعالى عنهم، وبغض أبي جهل ، وبغض ابليس لعنه الله ، إلا بالإطناب في وصف المحاسن والمقابح التي لا تدرك بالحواس ، بل لما وصف الناس حاتما بالسخاء، ووصفوا خالدا بالشجاعة أحبتهم القلوب حبا ضروريا ، وليس ذلك عن نظر إلى صورة محسوسة ولا عن حظ يناله المحب منهم ، بل إذا حكي من سيرة بعض الملوك في بعض أقطار الأرض العدل والإحسان ، وإفاضة الخير غلب حبه على القلوب مع اليأس من انتشار إحسانه إلى المحبين لبعد المزار ، ونأي الديار ، فإذاً ليس حب الإنسان مقصورا على من أحسن إليه، بل المحسن في نفسه محبوب وإن كان لا ينتهي قط إحسانه إلى المحب ، لأن كل جمال وحسن فهو محبوب والصورة ظاهرة وباطنة والحسن والجمال يشملهما، وتدرك الصور الظاهرة بالبصر الظاهر والصور الباطنة بالبصيرة الباطنة ، فمن حرم البصيرة الباطنة لا يدركها ولا يلتذ بها ولا يحبها ولا يميل إليها، ومن كانت البصيرة الباطنة أغلب عليه من الحواس الظاهرة كان حبه للمعاني الباطنة أكثر من حبه للمعاني الظاهرة، فشتان بين من يحب نقشا مصورا على الحائط لجمال

صورته الظاهرة وبين من يحب نبيا من الأنبياء لجمال صورته الباطنة

تناسب الأرواح

السبب الخامس: المناسبة الخفية بين المحب والمحبوب إذ رب شخصين تتأكد المحبة بينهما لا بسبب جمال أو حظ ولكن بمجرد تناسب الأرواح كما قال صلى الله عليه وسلم [1] « فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » وقد حققنا ذلك في كتاب آداب الصحبة عند ذكر الحب في الله فليطلب منه. لأنه أيضا من عجائب أسباب الحب. فإذاً ترجع أقسام الحب إلى خمسة أسباب وهو حب الإنسان وجود نفسه وكماله وبقائه، وحبه من أحسن إليه فيما يرجع إلى دوام وجوده ويعين على بقائه ودفع المهلكات عنه، وحبه من كان محسنا في نفسه إلى الناس وإن لم يكن محسنا إليه، وحبه لكل ما هو جميل في ذاته سواء كان من الصور الظاهرة أو الباطنة وحبه لمن بينه وبينه مناسبة خفية في الباطن، فلو اجتمعت هذه الأسباب في شخص واحد تضاعف الحب لا محالة ؛ كما لو كان للإنسان ولد جميل الصورة ، حسن الخلق ، كامل العلم ، حسن التدبير ، محسن إلى الخلق ، ومحسن إلى الوالد ، كان محبوبا لا محالة غاية الحب ، وتكون قوة الحب بعد اجتماع هذه الخصال بحسب قوة هذه الخلال في نفسها ؛ فإن كانت هذه الصفات في أقصى درجات الكمال كان الحب لا محالة في أعلى الدرجات ، فلنبين الآن أن هذه الأسباب كلها لا يتصور كمالها واجتماعها إلا في حق الله تعالى فلا يستحق المحبة بالحقيقة إلا الله سبحانه وتعالى

بيان

أن المستحق للمحبة هو الله وحده

وأن من أحب غير الله لا من حيث نسبته إلى الله ، فذلك لجهله وقصوره في معرفة الله تعالى ، وحب الرسول صلى الله عليه وسلم محمود ؛ لأنه عين حب الله تعالى ، وكذلك حب العلماء والأتقياء ، لأن محبوب المحبوب محبوب ورسول المحبوب محبوب ، ومحب المحبوب محبوب ، وكل ذلك يرجع إلى حب الأصل ، فلا يتجاوزه إلى غيره ، فلا محبوب بالحقيقة عند ذوي البصائر إلا الله تعالى ولا مستحق للمحبة سواه . وإيضاحه بأن نرجع إلى الأسباب الخمسة التي ذكرناها ، ونبين أنها مجتمعة في حق الله تعالى بجملتها ، ولا يوجد في غيره إلا آحادها ، وأنها حقيقة في حق الله تعالى ووجودها في حق غيره وهم وتخيل ، وهو

(١) حديث فما تعارف منها ائتلف: مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم في آداب الصحبة

مجاز محض ، لاحقيقة له ومهما ثبت ذلك انكشف لكل ذى بصيرة ضد ماتخيله ضعفاء العقول والقلوب ، من استحالة حب الله تعالى تحقيقا ، وبان أن التحقيق يقتضى أن لاتحب أحدا غير الله تعالى . فأما السبب الأول : وهو حب الإنسان نفسه وبقاؤه وكماله ، ودوام وجوده ، وبغضه لهلاكه ، وعدمه ، ونقصانه ، وقواطع كماله ، فهذه جبلّة كل حي ، ولا يتصور أن ينفك عنها وهذا يقتضى غاية المحبة لله تعالى ، فإن من عرف نفسه وعرف ربه عرف قطعا أنه لاوجود له من ذاته ، وإنما وجود ذاته ، ودوام وجوده ، وكمال وجوده من الله ، وإلى الله ، وبالله ؛ فهو المخترع الموجد له ، وهو المبقى له ؛ وهو المكمل لوجوده بخلق صفات الكمال ، وخلق الأسباب الموصلة إليه ، وخلق الهداية إلى استعمال الأسباب ، وإلا فالعبد من حيث ذاته لاوجود له من ذاته ، بل هو محو محض ، وعدم صرف ، لولا فضل الله تعالى عليه بالإيجاد ، وهو هالك عقيب وجوده ؛ لولا فضل الله عليه بالإبقاء . وهو ناقص بعد الوجود ، لولا فضل الله عليه بالتكميل لخلقته

حب الإنسان لنفسه

وبالجملة فليس فى الوجود شيء له بنفسه قوام ، إلا القيوم الحي الذى هو قائم بذاته ، وكل ماسواه قائم به ، فإن أحب العارف ذاته ، ووجود ذاته مستفاد من غيره ، فبالضرورة يحب المفيد لوجوده ، والمديم له إن عرفه خالقا موجدا ، ومخترعا مبقيا ، وقيوما بنفسه ، ومقوما لغيره ، فإن كان لايحبه فهو لجهله بنفسه وبربه ، والمحبة ثمرة المعرفة ، فتنعدم بانعدامها وتضعف بضعفها ، وتقوى بقوتها ، ولذلك قال الحسن البصرى رحمه الله تعالى : من عرف ربه أحبه ومن عرف الدنيا زهد فيها ، وكيف يتصور أن يحب الإنسان نفسه ولا يحب ربه ، الذى به قوام نفسه ؛ ومعلوم أن المبتلى بحر الشمس ، لما كان يحب الظل فيحب بالضرورة الأشجار التى بها قوام الظل ، وكل مافى الوجود بالإضافة إلى قدرة الله تعالى فهو كالظل بالاضافة إلى الشجر ، والنور بالاضافة إلى الشمس ، فإن الكل من آثار قدرته ، ووجود الكل تابع لوجوده ، كما أن وجود النور تابع للشمس ، ووجود الظل تابع للشجر ، بل هذا المثال صحيح بالإضافة إلى أوهام العوام ، إذ تخيلوا أن النور أثر الشمس ، وفائض منها ، وموجود بها ، وهو خطأ محض ، إذ انكشف لأرباب القلوب انكشافا أظهر من مشاهدة الأبصار ، أن النور حاصل من قدرة الله تعالى ؛ اختراعا عند وقوع المقابلة بين الشمس

والأجسام الكثيفة . كما أن نور الشمس وعينها وشكلها وصورتها أيضا حاصل من قدرة الله تعالى ، ولكن الغرض من الأمثلة التفهيم ، فلا يطلب فيها الحقائق ، فإذاً إن كان حب الإنسان نفسه ضروريا ، فحبه لمن به قوامه أولا ودوامه ثانيا ، فى أصله وصفاته ، وظاهره وباطنه ، وجواهره وأعراضه أيضا ضروري أن عرف ذلك كذلك ، ومن خلا عن هذا الحب ، فلأنه اشتغل بنفسه وشهواته وذهل عن ربه وخالقه فلم يعرفه حق معرفته وقصر نظره على شهواته ومحسوساته ، وهو عالم الشهادة الذى يشاركه البهائم فى التنعم به ، والاتساع فيه دون عالم الملكوت ، الذى لا يطأ أرضه ، إلا من يقرب إلى شبه من الملائكة ، فينظر فيه بقدر قربه فى الصفات من الملائكة ، ويقصر عنه بقدر انحطاطه إلى حضيض عالم البهائم

حب المحسن لإحسانه

وأما السبب الثانى : وهو حبه من أحسن إليه ، فواساه بماله ولاطفه بكلامه ، وأمده بمعونته ، وانتدب لنصرته وقمع أعدائه ، وقام بدفع شر الأشرار عنه ، وانتهض وسيلة إلى جميع حظوظه وأغراضه فى نفسه وأولاده وأقاربه ، فإنه محبوب لامحالة عنده ، وهذا بعينه يقتضى أن لا يحب إلا الله تعالى ، فإنه لو عرف حق المعرفة لعلم أن المحسن إليه هو الله تعالى فقط ، فأما أنواع إحسانه إلى كل عبيده فلست أعدها ، إذ ليس يحيط بها حصر حاصر كما قال تعالى (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا [1]) وقد أشرنا إلى طرف منه فى كتاب الشكر ، ولكنا نقتصر الآن على بيان أن الإحسان من الناس غير متصور إلا بالمجاز ، وإنما المحسن هو الله تعالى ، ولنفرض ذلك فيمن أنعم عليك بجميع خزائنه . ومكنك منها لتتصرف فيها كيف تشاء ، فإنك تظن أن هذا الإحسان منه وهو غلط ، فإنه إنما تم إحسانه به وبماله وبقدرته على المال وبداعيته الباعثة له على صرف المال إليك ، فمن الذى أنعم بخلقه ، وخلق ماله ، وخلق قدرته ، وخلق إرادته وداعيته ؟ ومن الذى حببك إليه وصرف وجهه إليك ، وألقى فى نفسه أن صلاح دينه أو دنياه فى الإحسان إليك ، ولولا كل ذلك لما أعطاك حبة من ماله . ومهما سلط الله عليه الدواعى ، وقرر فى نفسه أن صلاح دينه أو دنياه فى أن يسلم إليك ماله كان مقهورا مضطرا فى التسليم لا يستطيع مخالفته ، فالمحسن هو الذى اضطره لك وسخره ، وسلط عليه الدواعى الباعثة المرهقة إلى الفعل ، وأما يده

(١) النحل : ١٨

فواسطة يصل بها إحسان الله إليك ، وصاحب اليد مضطر فى ذلك اضطرار مجرى الماء فى جريان الماء فيه ، فإن اعتقدته محسنا أو شكرته من حيث هو بنفسه محسن ، لا من حيث هو واسطة كنت جاهلا بحقيقة الأمر ، فإنه لا يتصور الإحسان من الإنسان إلا إلى نفسه أما الإحسان إلى غيره فمحال من المخلوقين ، لأنه لا يبذل ماله إلا لغرض له فى البذل ، إما آجل وهو الثواب ، وإما عاجل وهو المنّة والاستسخار ، أو الثناء والصيت ، والاشتهار بالسخاء والكرم ، أو جذب قلوب الخلق إلى الطاعة والمحبة ، وكما أن الإنسان لا يلقى ماله فى البحر ، إذ لا غرض له فيه ، فلا يلقيه فى يد إنسان إلا لغرض له فيه ، وذلك الغرض هو مطلوبه ومقصده ، وأما أنت فلست مقصودا ، بل يدك آلة له فى القبض حتى يحصل غرضه من الذكر والثناء أو الشكر أو الثواب ، بسبب قبضك المال ، فقد استسخرك فى القبض للتوصل إلى غرض نفسه . فهو إذاً محسن إلى نفسه ، ومعتاض عما بذله من ماله عوضا هو أرجح عنده من ماله ، ولولا رجحان ذلك الحظ عنده لما نزل عن ماله لأجلك أصلا ألبتة فإذا هو غير مستحق للشكر والحب من وجهين

أحدهما : أنه مضطر بتسليط الله الدواعى عليه ، فلا قدرة له على المخالفة ، فهو جار مجرى خازن الأمير ، فإنه لا يُرى محسنا بتسليم خلعة الأمير إلى من خلع عليه ، لأنه من جهة الأمير مضطر إلى الطاعة ، والامتثال لما يرسمه ، ولا يقدر على مخالفته . ولو خلاه الأمير ونفسه لما سلم ذلك ، فكذلك كل محسن لو خلاه الله ونفسه لم يبذل حبة من ماله ، حتى سلط الله الدواعى عليه وألقى فى نفسه أن حظه دينا ودنيا فى بذله فبذله لذلك

والثانى : أنه معتاض عما بذله حظا هو أوفى عنده وأحب مما بذله ، فكما لا يعد البائع محسنا لأنه بذل بعوض هو أحب عنده مما بذله ، فكذلك الواهب ، اعتاض الثواب أو الحمد والثناء أو عوضا آخر ، وليس من شرط العوض أن يكون عينا متموّلا ، بل الحظوظ كلها أعواض تستحقر الأموال والأعيان بالإضافة إليها ، فالإحسان فى الجود ، والجود هو بذل المال من غير عوض وحظ يرجع إلى الباذل وذلك محال من غير الله سبحانه ، فهو الذى أنعم على العالمين إحسانا إليهم ، ولأجلهم ، لا لحظ وغرض يرجع إليه ، فإنه يتعالى عن الأغراض فلفظ الجود والإحسان فى حق غيره كذب أو مجاز ، ومعناه فى حق غيره محال وممتنع امتناع

الجمع بين السواد والبياض فهو المنفرد بالجود والإحسان، والطول والامتنان، فإن كان فى الطبع حب المحسن فينبغى أن لا يحب العارف إلا الله تعالى، إذ الإحسان من غيره محال، فهو المستحق لهذه المحبة وحده وأما غيره فيستحق المحبة على الإحسان بشرط الجهل بمعنى الإحسان وحقيقته

حب المحسن فى نفسه

وأما السبب الثالث : وهو حبك المحسن فى نفسه وإن لم يصل إليك إحسانه وهذا أيضا موجود فى الطباع، فإنه إذا بلغك خبر ملك عابد عادل عالم رفيق بالناس متلطف بهم متواضع لهم وهو فى قطر من أقطار الأرض بعيد عنك، وبلغك خبر ملك آخر ظالم متكبر فاسق متهتك شرير وهو أيضا بعيد عنك، فإنك تجد فى قلبك تفرقة بينهما، إذ تجد فى القلب ميلا إلى الأول، وهو الحب ونفرة عن الثانى، وهو البغض، مع أنك آيس من خير الأول، وآمن من شر الثانى، لانقطاع طمعك عن التوغل إلى بلادهما فهذا حب المحسن من حيث إنه محسن فقط لا من حيث إنه محسن إليك وهذا أيضا يقتضى حب الله تعالى بل يقتضى أن لا يحب غيره أصلا إلا من حيث يتعلق منه بسبب، فإن الله هو المحسن إلى الكافة والمتفضل على جميع أصناف الخلائق أولا بإيجادهم، وثانيا بتكميلهم بالأعضاء والأسباب التى هي من ضروراتهم، وثالثا بترفيههم وتنعيمهم بخلق الأسباب التى هي فى مظان حاجاتهم وإن لم تكن فى مظان الضرورة، ورابعا بتجميلهم بالمزايا والزوائد التى هي فى مظنة زينتهم وهي خارجة عن ضروراتهم وحاجاتهم. ومثال الضروري من الأعضاء الرأس، والقلب، والكبد ومثال المحتاج إليه العين، واليد، والرجل، ومثال الزينة استقواس الحاجبين، وحمرة الشفتين، وتلون العينين، إلى غير ذلك مما لو فات لم تنخرم به حاجة ولا ضرورة، ومثال الضروري من النعم الخارجة عن بدن الإنسان الماء والغذاء، ومثال الحاجة الدواء، واللحم، والفواكه، ومثال المزايا والزوائد خضرة الأشجار، وحسن أشكال الأنوار والأزهار، ولذائذ الفواكه والأطعمة التى لا تنخرم بعدمها حاجة ولا ضرورة وهذه الأقسام الثلاثة موجودة لكل حيوان، بل لكل نبات، بل لكل صنف من أصناف الخلق من ذروة العرش إلى منتهى الفرش . فإذاً هو المحسن، فكيف يكون غيره محسنا وذلك المحسن حسنة من حسنات قدرته ! فإنه خالق الحسن، وخالق المحسن، وخالق الإحسان، وخالق أسباب الإحسان . فالحب بهذه العلة لغيره أيضا جهل محض، ومن عرف ذلك لم يحب بهذه العلة إلا الله تعالى

حب الجمال لذاته

وأما السبب الرابع: وهو حب كل جميل لذات الجمال، لا لحظ ينال منه وراء إدراك الجمال، فقد بينا أن ذلك مجبول فى الطباع، وأن الجمال ينقسم إلى جمال الصورة الظاهرة المدركة بعين الرأس، وإلى جمال الصورة المدركة الباطنة المدركة بعين القلب ونور البصيرة والأول يدركه الصبيان والبهائم، والثانى يختص بدركه أرباب القلوب، ولا يشاركهم فيه من لا يعلم إلا ظاهرا من الحياة الدنيا. وكل جمال فهو محبوب عند مدرك الجمال. فإن كان مدركا بالقلب فهو محبوب القلب. ومثال هذا فى المشاهدة حب الأنبياء، والعلماء، وذوى المكارم السنية والأخلاق المرضية، فإن ذلك متصور مع تشوش صورة الوجه وسائر الأعضاء، وهو المراد بحسن الصورة الباطنة، والحس لا يدركه. نعم يدرك بحسن آثاره الصادرة منه الدالة عليه، حتى إذا دل القلب عليه مال القلب إليه فأحبه، فمن يحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو الصديق رضي الله تعالى عنه، أو الشافعي رحمة الله عليه، فلا يحبهم إلا لحسن ما ظهر له منهم، وليس ذلك لحسن صورهم، ولا لحسن أفعالهم، بل دل حسن أفعالهم على حسن الصفات التى هي مصدر الأفعال، إذ الأفعال آثار صادرة عنها، ودالة عليها. فمن رأى حسن تصنيف المصنف، وحسن شعر الشاعر، بل حسن نقش النقاش، وبناء البناء، انكشف له من هذه الأفعال صفاتها الجميلة الباطنة التى يرجع حاصلها عند البحث إلى العلم والقدرة. ثم كلما كان المعلوم أشرف وأتم جمالا وعظمة، كان العلم أشرف وأجمل. وكذا المقدور كلما كان أعظم رتبة وأجل منزلة، كانت القدرة عليه أجل رتبة وأشرف قدرا. وأجل المعلومات هو الله تعالى، فلا جرم أحسن العلوم وأشرفها معرفة الله تعالى وكذلك ما يقاربه ويختص به فشرفه على قدر تعلقه به

مجمل الصفات المحببة للقلوب

فإذاً جمال صفات الصديقين الذين تحبهم القلوب طبعا ترجع إلى ثلاثة أمور:

أحدها: علمهم بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، وشرائع أنبيائه

والثانى: قدرتهم على إصلاح أنفسهم وإصلاح عباد الله بالإرشاد والسياسة

والثالث: تنزههم عن الرذائل، والخبائث والشهوات الغالبة الصارفة عن سنن الخير، الجاذبة إلى طريق الشر. وبمثل هذا يحب الأنبياء، والعلماء، والخلفاء، والملوك الذين هم أهل العدل والكرم. فانسِبْ هذه الصفات إلى صفات الله تعالى

أما العلم فأين علم الأولين والآخرين من علم الله تعالى الذى يحيط بالكل إحاطة خارجة عن النهاية ، حتى لا يعزب عنه مثقال ذرّة فى السموات ولا فى الأرض وقد خاطب الخلق كلهم فقال عز وجل (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً [1]) بل لو اجتمع أهل الأرض والسماء على أن يحيطوا بعلمه وحكمته فى تفصيل خلق نملة أو بعوضة لم يطلعوا على عشر عشير ذلك ، ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء ، والقدر اليسير الذى علمه الخلائق كلهم فبتعليمه علموه ، كما قال تعالى (خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ [2]) فإن كان جمال العلم وشرفه أمرا محبوبا ، وكان هو فى نفسه زينة وكمالا للموصوف به ، فلا ينبغى أن يحب بهذا السبب إلا الله تعالى . فعلوم العلماء جهل بالإضافة إلى علمه . بل من عرف أعلم أهل زمانه وأجهل أهل زمانه ، استحال أن يحب بسبب العلم الأجهل ويترك الأعلم ، وإن كان الأجهل لا يخلو عن علم مّا، تتقاضاه معيشته . والتفاوت بين علم الله وبين علم الخلائق أكثر من التفاوت بين علم أعلم الخلائق وأجهلهم ، لأن الأعلم لا يفضل الأجهل إلا بعلوم معدودة متناهية ، يتصور فى الأمكان أن ينالها الأجهل بالكسب والاجتهاد وفضل علم الله تعالى على علوم الخلائق كلهم خارج عن النهاية ، إذ معلوماته لانهاية لها ، ومعلومات الخلق متناهية

وأما صفة القدرة فهى أيضا كمال ، والعجز نقص ، فكل كمال ، وبهاء ، وعظمة ، ومجد ، واستيلاء ، فإنه محبوب ، وإدراكه لذيذ ، حتى أن الإنسان ليسمع فى الحكاية شجاعة علي وخالد رضي الله تعالى عنهما ، وغيرهما من الشجعان ، وقدرتهما واستيلاءهما على الأقران ، فيصادف فى قلبه اهتزازا ، وفرحا ، وارتياحا ضروريا بمجرد لذة السماع فضلا عن المشاهدة ، ويورث ذلك حبا فى القلب ضروريا للمتصف به ، فإنه نوع كمال . فانْسِبِ الآن قدرة الخلق كلهم إلى قدرة الله تعالى ، فأعظم الأشخاص قوة وأوسعهم ملكا ، وأقواهم بطشا ، وأقهرهم للشهوات ، وأقمعهم لخبائث النفس ، وأجمعهم للقدرة على سياسة نفسه وسياسة غيره ، ما منتهى قدرته ؟ وإنما غايته أن يقدر على بعض صفات نفسه ، وعلى بعض أشخاص الإنس فى بعض الأمور . وهو مع ذلك لا يملك لنفسه موتا ، ولا حياة ، ولا نشورا ، ولا ضرا ، ولا نفعا

(١) الاسراء : ٨٥ (٢) الرحمن : ٣ ، ٤

بل لا يقدر على حفظ عينه من العمى ، ولسانه من الخرس ، وأذنه من الصمم ، وبدنه من المرض . ولا يحتاج إلى عدّ ما يعجز عنه فى نفسه وغيره مما هو على الجملة متعلق قدرته ، فضلا عما لا تتعلق به قدرته من ملكوت السموات ، وأفلاكها ، وكواكبها ، والأرض وجبالها ، وبحارها ، ورياحها ، وصواعقها ، ومعادنها ، ونباتها ، وحيواناتها ، وجميع أجزائها فلا قدرة له على ذرة منها . وما هو قادر عليه من نفسه وغيره فليست قدرته من نفسه وبنفسه ، بل الله خالقه وخالق قدرته ، وخالق أسبابه ، والممكن له من ذلك . ولو سلط بعوضا على أعظم ملك وأقوى شخص من الحيوانات لأهلكه ، فليس للعبد قدرة إلا بتمكين مولاه ، كما قال فى أعظم ملوك الأرض ذى القرنين إذ قال (إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ [1]) فلم يكن جميع ملكه وسلطنته إلا بتمكين الله تعالى إياه فى جزء من الأرض ، والأرض كلها مدرة بالإضافة إلى أجسام العالم ، وجميع الولايات التى يحظى بها الناس من الأرض غبرة من تلك المدرة ، ثم تلك الغبرة أيضا من فضل الله تعالى وتمكينه فيستحيل أن يحب عبدا من عباد الله تعالى لقدرته ، وسياسته ، وتمكينه ، واستيلائه ، وكمال قوته ، ولا يحب الله تعالى لذلك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، فهو الجبار القاهر ، والعليم القادر ، السموات مطويات بيمينه ، والأرض وملكها وما عليها فى قبضته ، وناصية جميع المخلوقات فى قبضة قدرته ، إن أهلكهم من عند آخرهم لم ينقص من سلطانه وملكه ذرة ، وإن خلق أمثالهم ألف مرة لم يعى بخلقها ، ولا يمسه لغوب ولا فتور فى اختراعها ، فلا قدرة ولا قادر إلا وهو أثر من آثار قدرته ، فله الجمال والبهاء ، والعظمة والكبرياء ، والقهر والاستيلاء فإن كان يتصور أن يحب قادر لكمال قدرته فلا يستحق الحب بكمال القدرة سواه أصلا

وأما صفة التنزه عن العيوب والنقائص ، والتقدس عن الرذائل والخبائث ، فهو أحد موجبات الحب ، ومقتضيات الحسن والجمال فى الصور الباطنة . والأنبياء والصديقون وإن كانوا منزهين عن العيوب والخبائث فلا يتصور كمال التقدس والتنزه إلا للواحد الحق الملك القدوس ، ذى الجلال والإكرام . وأما كل مخلوق فلا يخلو عن نقص وعن نقائص بل كونه عاجزا ، مخلوقا ، مسخرا ، مضطرا ، هو عين العيب والنقص ، فالكمال لله وحده

(١) الكهف : ٨٤

وليس لغيره كمال إلا بقدر ما أعطاه الله ، وليس فى المقدور أن ينعم بمنتهى الكمال على غيره فإن منتهى الكمال أقل درجاته أن لا يكون عبدا مسخرا لغيره ، قائما بغيره ؛ وذلك محال فى حق غيره ، فهو المنفرد بالكمال ، المنزه عن النقص، المقدس عن العيوب وشرح وجوه التقدس والتنزه فى حقه عن النقائص يطول ، وهو من أسرار علوم المكاشفات ، فلا نطول بذكره

فهذا الوصف أيضا إن كان كمالا وجمالا محبوبا، فلا تتم حقيقته إلا له، وكمال غيره وتنزهه لا يكون مطلقا ، بل بالإضافة إلى ما هو أشد منه نقصانا ، كما أن للفرس كمالا بالإضافة إلى الحمار ، وللإنسان كمالا بالإضافة إلى الفرس . وأصل النقص شامل للكل ، وإنما يتفاوتون فى درجات النقصان . فإذاً الجميل محبوب ، والجميل المطلق هو الواحد الذى لا ندّ له ، الفرد الذى لا ضدّ له ، الصمد الذى لا منازع له ، الغني الذى لا حاجة له ، القادر الذى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، لا راد لحكمه ، ولا معقب لقضائه ، العالم الذى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات والأرض ، القاهر الذى لا يخرج عن قبضة قدرته أعناق الجبابرة ، ولا ينفلت من سطوته وبطشه رقاب القياصرة ، الأزلي الذى لا أول لوجوده ، الأبدي الذى لا آخر لبقائه ، الضروري الوجود الذى لا يحوم إمكان العدم حول حضرته ، القيوم الذى يقوم بنفسه ويقوم كل موجود به ، جبار السموات والأرض ، خالق الجماد والحيوان والنبات ، المنفرد بالعزة والجبروت ، المتوحد بالملك والملكوت ، ذو الفضل والجلال ، والبهاء والجمال ، والقدرة والكمال ، الذى تتحير فى معرفة جلاله العقول ، وتخرس فى وصفه الألسنة ، الذى كمال معرفة العارفين الاعتراف بالعجز عن معرفته ، ومنتهى نبوة الأنبياء الإقرار بالقصور عن وصفه ، كما قال سيد الأنبياء صلوات الله عليه وعليهم أجمعين[1] « لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ » وقال سيد الصديقين رضي الله تعالى عنه : العجز عن درك الإدراك إدراك ، سبحان من لم يجعل للخلق طريقا إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته

فليت شعري من ينكر إمكان حب الله تعالى تحقيقا ويجعله مجازا ؛ أينكر أن هذه الأوصاف من أوصاف الجمال والمحامد ، ونعوت الكمال والمحاسن ، أو ينكر كون الله تعالى موصوفا بها ؟ أو ينكر كون الكمال والجمال ، والبهاء والعظمة ، محبوبا بالطبع عند من أدركه ؟

(١) حديث لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك : تقدم

فسبحان من احتجب عن بصائر العميان غيرة على جماله وجلاله أن يطلع عليه إلا من سبقت له منه الحسنى ، الذين هم عن نار الحجاب مبعدون ، وترك الخاسرين فى ظلمات العمى يتيهون وفى مسارح المحسوسات وشهوات البهائم يترددون ، يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ، الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون

فالحب بهذا السبب أقوى من الحب بالإحسان ، لأن الإحسان يزيد وينقص . ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام . إن أودّ الأوداء إليّ من عبدنى بغير نوال ، لكن ليعطى الربوبية حقها . وفى الزبور : مَن أظلم ممن عبدنى لجنة أو نار ، لو لم أخلق جنة ولا نارا ألم أكن أهلا أن أطاع ! ومر عيسى عليه السلام على طائفة من العبّاد قد نحلوا فقالوا نخاف النار ونرجو الجنة ، فقال لهم . مخلوقا خفتم ومخلوقا رجوتم . ومرّ بقوم آخرين كذلك فقالوا نعبده حبّاله وتعظيما لجلاله ، فقال . أنتم أولياء الله حقا ، معكم أمرت أن أقيم .

وقال أبو حازم . إنى لأستحى أن أعبده للثواب والعقاب ، فأكون كالعبد السوء إن لم يخف لم يعمل ، وكالأجير السوء إن لم يعط لم يعمل . وفى الخبر [1] « لَا يَكُونَنَّ أَحَدُكُمْ كَالْأَجِيرِ السُّوءِ إِنْ لَمْ يُعْطَ أَجْرًا لَمْ يَعْمَلْ وَلَا كَالْعَبْدِ السُّوءِ إِنْ لَمْ يَخَفْ لَمْ يَعْمَلْ »

وأما السبب الخامس للحب فهو المناسبة والمشاكلة ، لأن شبه الشيء منجذب إليه ، والشكل إلى الشكل أميل . ولذلك ترى الصبي يألف الصبي ، والكبير يألف الكبير ، ويألف الطير نوعه ، وينفر من غير نوعه ، وأنس العالم بالعالم أكثر منه بالمحترف ، وأنس النجار بالنجار أكثر من أنسه بالفلاح ، وهذا أمر تشهد به التجربة ، وتشهد له الأخبار والآثار ، كما استقصيناه فى باب الأخوة فى الله من كتاب آداب الصحبة فليطلب منه

وإذا كانت المناسبة سبب المحبة فالمناسبة قد تكون فى معنى ظاهر ، كمناسبة الصبي الصبي فى معنى الصبا . وقد يكون خفيا حتى لا يطلع عليه ، كما ترى من الاتحاد الذى يتفق بين شخصين من غير ملاحظة جمال ، أو طمع فى مال أو غيره ، كما أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم إذ قال « الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ » فالتعارف هو التناسب ، والتناكر هو التباين .

---

(١) حديث لا يكونن أحدكم كالأجير السوء إن لم يعط أجرا لم يعمل : لم أجد له أصلا

وهذا السبب أيضا يقتضى حب الله تعالى لمناسبة باطنة لاترجع إلى المشابهة فى الصور والأشكال . بل إلى معان باطنة يجوز أن يذكر بعضها فى الكتب ، وبعضها لايجوز أن يسطر . بل يترك تحت غطاء الغبرة حتي يعثر عليه السالكون للطريق إذا استكملوا شرط السلوك . فالذى يذكر هو قرب العبد من ربه عز وجل فى الصفات التى أمر فيها الاقتداء والتخلق بأخلاق الربوبية ،حتي قيل تخلقوا بأخلاق الله، وذلك فى اكتساب محامد الصفات التي هي من صفات الإلهية،من العلم ،والبر،والإحسان،واللطف،وإفاضة الخير،والرحمة على الخلق ، والنصيحة لهم، وإرشادهم إلى الحق ، ومنعهم من الباطل ،إلى غير ذلك من مكارم الشريعة. فكل ذلك يقرب إلى الله سبحانه وتعالى ، لابمعنى طلب القرب بالمكان ، بل الصفات

وأما مالا يجوز أن يسطر فى الكتب من المناسبة الخاصة التى اختص بها الأدمي ، فهي التى يومىء إليها قوله تعالى (وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى [(١)]) إذ بيّن أنه أمر رباني خارج عن حد عقول الخلق . وأوضح من ذلك قوله تعالى (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى [(٢)]) ولذلك أسجد له ملائكته . ويشير إليه قوله تعالى (إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ [(٣)]) إذ لم يستحق آدم خلافة الله تعالى إلا بتلك المناسبة. وإليه يرمز قوله صلى الله عليه وسلم [(١)] « إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ » حتى ظن القاصرون أن لاصورة إلا الصورة الظاهرة المدركة بالحواس ، فشبهوا وجسموا وصوروا تعالى الله رب العالمين عما يقول الجاهلون علوا كبيرا . وإليه الإشارة [(٢)] بقوله تعالى لموسى عليه السلام : مرضت فلم تعدنى فقال يارب وكيف ذلك ؟ قال مرض عبدى فلان فلم تعده ولو عدته وجدتني عنده : وهذه المناسبة لاتظهر إلا بالمواظبة على النوافل بعد إحكام الفرائض كما قال الله تعالى [(٣)] « لايَزَالُ يَتَقَرَّبُ الْعَبْدُ إِلَىَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِى يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِى يُبْصِرُ بِهِ وَلِسَانَهُ الَّذِى يَنْطِقُ بِهِ »

وهذا موضع يجب قبض عنان القلم فيه ، فقد تحزب الناس فيه إلى قاصرين مالوا إلى

---

(١) حديث ان الله خلق آدم على صورته: تقدم
(٢) حديث قوله تعالى مرضت فلم تعدنى فقال وكيف ذلك قال مرض فلان ـ الحديث : تقدم
(٣) حديث قوله تعالى لايزال يتقرب العبد إلى بالنوافل حتى أحبه ـ الحديث البخارى من حديث أبى هريرة وقد تقدم

---

(١) الاسراء : ٨٥ (٢) الحجر : ٣٠ (٣) ص : ٢٦

التشبيه الظاهر ، وإلى غالين مسرفين جاوزوا حد المناسبة إلى الاتحاد ، وقالوا بالحلول، حتى قال بعضهم أنا الحق . وضل النصارى في عيسى عليه السلام فقالوا هو الإله . وقال آخرون منهم تدرع الناسوت باللاهوت . وقال آخرون اتحد به وأما الذين انكشف لهم استحالة التشبيه والتمثيل ، واستحالة الاتحاد والحلول، واتضح لهم مع ذلك حقيقة السر، فهم الأقلون ولعل أبا الحسن النوري عن هذا المقام كان ينظر إذ غلبه الوجد في قول القائل

لازلت أنزل من ودادك منزلا تتحير الألباب عند نزوله

فلم يزل يعدو في وجده على أجمة قد قطع قصبها وبقي أصوله حتى تشققت قدماه وتورمتا ومات من ذلك ، وهذا هو أعظم أسباب الحب وأقواها ، وهو أعزها ، وأبعدها، وأقلها وجودا

فهذه هي المعلومة من أسباب الحب . وجملة ذلك متظاهرة في حق الله تعالى تحقيقا لا مجازا . وفي أعلى الدرجات لا في أدناها. فكان المعقول المقبول عند ذوي البصائر حب الله تعالى فقط ، كما أن المعقول الممكن عند العميان حب غير الله تعالى فقط . ثم كل من يحب من الخلق بسبب من هذه الأسباب يتصور أن يحب غيره لمشاركته أياه في السبب ، والشركة نقصان في الحب ، وغض من كماله ، ولا ينفرد أحد بوصف محبوب إلا وقد يوجد له شريك فيه فإن لم يوجد فيمكن أن يوجد ، إلا الله تعالى ، فإنه موصوف بهذه الصفات التي هي نهاية الجلال والكمال ، ولا شريك له في ذلك وجودا ، ولا يتصور أن يكون ذلك إمكانا ، فلا جرم لا يكون في حبه شركة ، فلا يتطرق النقصان إلى حبه ، كما لا تتطرق الشركة إلى صفاته ، فهو المستحق إذ الأصل المحبة ولكمال المحبة استحقاقا لا يساهم فيه أصلا

بيان

أن أجلّ اللذات وأعلاها معرفةُ الله تعالى . والنظر إلى وجهه الكريم
وأنه لا يتصور أن يؤثر عليها لذة أخرى إلا من حرم هذه اللذة

اعلم أن اللذات تابعة للإدراكات ، والإنسان جامع لجملة من القوى والغرائز ، ولكل قوة وغريزة لذة، ولذتها في نيلها لمقتضى طبعها الذي خلقت له ، فإن هذه الغرائز ما ركبت في الإنسان عبثا ، بل ركبت كل قوة وغريزة لأمر من الأمور هو مقتضاها بالطبع . فغريزة الغضب خلقت للتشفي والانتقام ، فلا جرم لذتها في الغلبة والانتقام الذي هو مقتضى

طبعها . وغريزة شهوة الطعام مثلا خلقت لتحصيل الغذاء الذى به القوام ، فلا جرم لذتها في نيل هذا الغذاء الذى هو مقتضى طبعها . وكذلك لذة السمع ، والبصر ، والشم ، فى الإبصار ، والاستماع ، والشم . فلا تخلو غريزة من هذه الغرائز ، عن ألم ولذة بالإضافة إلى مدركاتها . فكذلك فى القلب غريزة تسمى النور الإلهى ، لقوله تعالى (أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ [1]) وقد تسمى العقل ، وقد تسمى البصيرة الباطنة وقد تسمى نور الإيمان واليقين ، ولا معنى للاشتغال بالأسامى : فإن الاصطلاحات مختلفة : والضعيف يظن أن الاختلاف واقع فى المعانى ، لأن الضعيف يطلب المعانى من الألفاظ ، وهو عكس الواجب

فالقلب مفارق لسائر أجزاء البدن ، بصفة بها يدرك المعانى التى ليست متخيلة ولا محسوسة كإدراكه خلق العالم ، أو افتقاره إلى خالق قديم ؛ مدبر حكيم ؛ موصوف بصفات إلهية ، ولنسم تلك الغريزة عقلا ؛ بشرط أن لا يفهم من لفظ العقل ما يدرك به طرق المجادلة والمناظرة ، فقد اشتهر اسم العقل بهذا ، ولهذا ذمه بعض الصوفية وإلا فالصفة التى فارق الإنسان بها البهائم ، وبها يدرك معرفة الله تعالى أعز الصفات ، فلا ينبغى أن تذم . وهذه الغريزة خلقت ليعلم بها حقائق الأمور كلها ، فمقتضى طبعها المعرفة ، والعلم وهي لذتها ، كما أن مقتضى سائر الغرائز هو لذتها . وليس يخفى أن فى العلم والمعرفة لذة ، حتى أن الذى ينسب إلى العلم والمعرفة ولو فى شيء خسيس يفرح به ، والذى ينسب إلى الجهل ولو فى شيء حقير يغتم به . وحتى أن الإنسان لا يكاد يصبر عن التحدى بالعلم والتمدح به فى الأشياء الحقيرة ، فالعالم باللعب بالشطرنج على خسته لا يطيق السكوت فيه عن التعليم ، وينطلق لسانه بذكر ما يعلمه ، وكل ذلك لفرط لذة العلم ، وما يستشعره من كمال ذاته به ، فإن العلم من أخص صفات الربوبية ، وهى منتهى الكمال

ولذلك يرتاح الطبع إذا أثنى عليه بالذكاء وغزارة العلم ، لأنه يستشعر عند سماع الثناء كمال ذاته وكمال علمه ، فيعجب بنفسه ويلتذ به .

ثم ليست لذة العلم بالحراثة والخياطة كلذة العلم بسياسة الملك وتدبير أمر الخلق ، ولا لذة العلم بالنحو والشعر كلذة العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته ، وملكوت السموات

---

(١) الزمر : ٢٢

والأرض ، بل لذة العلم بقدر شرف العلم ، وشرف العلم بقدر شرف المعلوم ، حتى أن الذى يعلم بواطن أحوال الناس ويخبر بذلك يجد له لذة ، وإن جهله تقاضاه طبعه أن يفحص عنه فإن علم بواطن أحوال رئيس البلد وأسرار تدبيره فى رياسته كان ذلك ألذ عنده وأطيب من علمه بباطن حال فلاح أو حائك ، فإن اطلع على أسرار الوزير وتدبيره وما هو عازم عليه فى أمور الوزارة فهو أشهى عنده وألذ من علمه بأسرار الرئيس ، فإن كان خبيرا بباطن أحوال الملك والسلطان الذى هو المستولى على الوزير كان ذلك أطيب عنده وألذ من علمه بباطن أسرار الوزير ؟ وكان تمدحه بذلك وحرصه عليه وعلى البحث عنه أشد ، وحبه له أكثر ، لأن لذته فيه أعظم :

فبهذا استبان أن ألذ المعارف أشرفها ، وشرفها بحسب شرف المعلوم فإن كان فى المعلومات ماهو الأجل والأكمل ، والأشرف ، والأعظم فالعلم به ألذ العلوم لامحالة وأشرفها وأطيبها وليت شعرى هل فى الوجود شيء أجل ، وأعلى ، وأشرف وأكمل ، وأعظم ، من خالق الأشياء كلها ومكملها ، ومزينها ، ومبدئها ، ومعيدها ، ومدبرها ومرتبها ؟ وهل يتصور أن تكون حضرة فى الملك ، والكمال ، والجمال ، والبهاء ، والجلال ، أعظم من الحضرة الربانية التى لايحيط بمبادى جلالها وعجائب أحوالها وصف الواصفين ؟

فإن كنت لاتشك فى ذلك فلا ينبغى أن تشك فى أن الاطلاع على أسرار الربوبية ، والعلم بترتب الأمور الإلهية المحيطة بكل الموجودات ، هو أعلى أنواع المعارف والاطلاعات ، وألذها ، وأطيبها ، وأشهاها ، وأحرى ماتستشعر به النفوس عند الاتصاف به كمالها وجمالها وأجدر مايعظم به الفرح ، والارتياح ، والاستبشار

العلم بالله تعالى ألذ العلوم

وبهذا تبين أن العلم لذيذ ، وأن ألذ العلوم العلم بالله تعالى و بصفاته وأفعاله ، وتدبيره فى مملكته من منتهى عرشه إلى تخوم الأرضين . فينبغى أن يعلم أن لذة المعرفة أقوى من سائر اللذات ، أعنى لذة الشهوة والغضب ، ولذة سائر الحواس الخمس ، فإن اللذات مختلفة بالنوع أولا ، كمخالفة لذة الوقاع للذة السماع ، ولذة المعرفة للذة الرياسة ، وهي مختلفة بالضعف والقوة ، كمخالفة لذة الشَّبِق المغتلم من الجماع للذة الفاتر للشهوة ، وكمخالفة لذة النظر إلى الوجه الجميل الفائق الجمال للذة النظر إلى مادونه فى الجمال . وإنما تعرف أقوى اللذات

بأن تكون مؤثرة على غيرها ، فإن المخير بين النظر إلى صورة جميلة والتمتع بمشاهدتها ، وبين استنشاق روائح طيبة ، إذا اختار النظر إلى الصورة الجميلة علم أنها ألذ عنده من الروائح الطيبة . وكذلك إذا حضر الطعام وقت الأكل ، واستمر اللاعب بالشطرنج على اللعب وترك الأكل ، فيعلم به أن لذة الغلبة فى الشطرنج أقوى عنده من لذة الأكل . فهذا معيار صادق فى الكشف عن ترجيح اللذات ، فنعود ونقول :

اللذات تنقسم إلى ظاهرة كلذة الحواس الخمس ، وإلى باطنة كلذة الرياسة ، والغلبة ، والكرامة والعلم ، وغيرها ، إذ ليست هذه اللذة للعين ، ولا للأنف ، ولا للأذن ، ولا للمس ، ولا للذوق . والمعانى الباطنة أغلب على ذوى الكمال من اللذات الظاهرة . فلو خير الرجل بين لذة الدجاج السمين واللوزينج ، وبين لذة الرياسة وقهر الأعداء ونيل درجة الاستيلاء ، فإن كان المخير خسيس الهمة ، ميت القلب ، شديد النهمة ، اختار اللحم والحلاوة ، وإن كان علىّ الهمّة ، كامل العقل ، اختار الرياسة وهان عليه الجوع والصبر عن ضرورة القوت أياما كثيرة فاختياره للرياسة يدل على أنها ألذ عنده من المطعومات الطيبة . نعم الناقص الذى لم تكمل معانيه الباطنة بعد كالصبي ، أو كالذى ماتت قواه الباطنة كالمعتوه ، لا يبعد أن يؤثر لذة المطعومات على لذة الرياسة . وكما أن لذة الرياسة والكرامة أغلب اللذات على من جاوز نقصان الصبا والعته ، فلذة معرفة الله تعالى ، ومطالعة جمال حضرة الربوبية ، والنظر إلى أسرار الأمور الإلهية ألذ من الرياسة التى هي أعلى اللذات الغالبة على الخلق وغاية العبارة عنه أن يقال فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ، وإنه أعد لهم مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر

وهذا الآن لا يعرفه إلا من ذاق اللذتين جميعا ، فإنه لا محالة يؤثر التبتل ، والتفرد ، والفكر ، والذكر ، وينغمس فى بحار المعرفة ، و يترك الرياسة ، ويستحقر الخلق الذين يرأسهم لعلمه بفناء رياسته ، وفناء من عليه رياسته ، وكونه مشوبا بالكدورات التى لا يتصور الخلو عنها ، وكونه مقطوعا بالموت الذى لا بد من إتيانه مهما أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، فيستعظم بالإضافة إليها لذة معرفة الله ، ومطالعة صفاته وأفعاله

ونظام مملكته من أعلى عليين إلى أسفل السافلين . فإنها خالية عن المزاحمات والمكدرات ، متسعة للمتواردين عليها ، لا تضيق عنهم بكبرها ، وإنما عرضها من حيث التقدير السموات والأرض ، وإذا خرج النظر عن المقدرات فلا نهاية لعرضها ، فلا يزال العارف بمطالعتها فى جنة عرضها السموات والأرض ، يرتع فى رياضها ، ويقطف من ثمارها ، ويكرع من حياضها ، وهو آمن من انقطاعها ، إذ ثمار هذه الجنة غير مقطوعة ولا ممنوعة . ثم هي أبدية سرمدية لا يقطعها الموت ، إذ الموت لا يهدم محل معرفة الله تعالى ، ومحلها الروح الذى هو أمر رباني سماوى ، وإنما الموت يغير أحوالها ، ويقطع شواغلها وعوائقها ، ويخليها من حبسها ، فأما أن يعدمها فلا . (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ [1]) الآية . ولا تظنن أن هذا مخصوص بالمقتول فى المعركة ، فإن للعارف بكل نفس درجة ألف شهيد . وفى الخبر [1] أن الشهيد يتمنى فى الآخرة أن يرد إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى لعظم مايراه من ثواب الشهادة ، وأن الشهداء يتمنون لو كانوا علماء لما يرونه من علو درجة العلماء

فإذاً جميع أقطار ملكوت السموات والأرض ميدان العارف ، يتبوأ منه حيث يشاء من غير حاجة إلى أن يتحرك إليها بجسمه وشخصه ، فهو من مطالعة جمال الملكوت فى جنة عرضها السموات والأرض ، وكل عارف فله مثلها من غير أن يضيق بعضهم على بعض أصلا ، إلا أنهم يتفاوتون فى سعة منتزهاتهم بقدر تفاوتهم فى اتساع نظرهم وسعة معارفهم وهم درجات عند الله . ولا يدخل فى الحصر تفاوت درجاتهم

فقد ظهر أن لذة الرياسة وهي باطنة ، أقوى فى ذوى الكمال من لذات الحواس كلها ، وأن هذه اللذة لا تكون لبهيمة ، ولا لصبي ، ولا لمعتوه ، وأن لذة المحسوسات والشهوات تكون لذوى الكمال مع لذة الرياسة ولكن يؤثرون الرياسة

فأما معنى كون معرفة الله ، وصفاته ، وأفعاله ، وملكوت سمواته ؛ وأسرار ملكه

---

(١) حديث ان الشهيد يتمنى أن يرد فى الآخرة الى الدنيا ليقتل مرة أخرى ـ الحديث : متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم وليس فيه وان الشهداء يتمنون أن يكونوا علماء ـ الحديث

---

(١) آل عمران : ١٦٩ ، ١٧٠

أعظم لذة من الرياسة ، فهذا يختص بمعرفته من نال رتبة المعرفة وذاقها ، ولا يمكن إثبات ذلك عند من لاقلب له ، لأن القلب معدن هذه القوة ، كما أنه لا يمكن إثبات رجحان لذة الوقاع على لذة اللعب بالصولجان عند الصبيان ، ولا رجحانه على لذة شم البنفسج عند العنين لأنه فقد الصفة التي بها تدرك هذه اللذة . ولكن من سلم من آفة العنة ؛ وسلم حاسة شمه أدرك التفاوت بين اللذتين ، وعند هذا لا يبقى إلا أن يقال من ذاق عرف

ولعمرى طلاب العلوم وإن لم يشتغلوا بطلب معرفة الأمور الإلهية ، فقد استنشقوا رائحة هذه اللذة عند انكشاف المشكلات وانحلال الشبهات التي قوى حرصهم على طلبها فإنها أيضا معارف وعلوم ، وإن كانت معلوماتها غير شريفة شرف المعلومات الإلهية . فأما من طال فكره في معرفة الله سبحانه ، وقد انكشف له من أسرار ملك الله ولو الشيء اليسير فإنه يصادف في قلبه عند حصول الكشف من الفرح ما يكاد يطير به ، ويتعجب من نفسه في ثباته واحتماله لقوة فرحه وسروره . وهذا مما لا يدرك إلا بالذوق ، والحكاية فيه قليلة الجدوى

فهذا القدر ينبهك على أن معرفة الله سبحانه ألذ الأشياء ، وأنه لا لذة فوقها ، ولهذا قال أبو سليمان الداراني : إن لله عبادا ليس يشغلهم عن الله خوف النار ولا رجاء الجنة ، فكيف تشغلهم الدنيا عن الله ! ولذلك قال بعض إخوان معروف الكرخي له : أخبرني يا أبا محفوظ أي شيء هاجك إلى العبادة والانقطاع عن الخلق ؟ فسكت . فقال ذكر الموت ؟ فقال وأي شيء الموت فقال ذكر القبر والبرزخ ؟ فقال وأي شيء القبر ؟ فقال خوف النار ورجاء الجنة ؟ فقال وأي شيء هذا ؟ إن ملكا هذا كله بيده إن أحببته أنساك جميع ذلك ، وإن كانت بينك وبينه معرفة كفاك جميع هذا

وفي أخبار عيسى عليه السلام : إذا رأيت الفتى مشغوفا بطلب الرب تعالى ، فقد ألهاه ذلك عما سواه . ورأى بعض الشيوخ بشر بن الحارث في النوم فقال : ما فعل أبو نصر التمار ، وعبد الوهاب الوراق ؟ فقال : تركتهما الساعة بين يدي الله تعالى يأكلان ويشربان قلت فأنت ؟ قال علم الله قلة رغبتي في الأكل والشرب ، فأعطاني النظر إليه

وعن علي بن الموفق قال : رأيت في النوم كأني أدخلت الجنة ، فرأيت رجلا قاعدا على مائدة ، وملكان عن يمينه وشماله يلقمانه من جميع الطيبات وهو يأكل . ورأيت رجلا قائما على باب الجنة يتصفح وجوه الناس ، فيدخل بعضا ويرد بعضا . قال : ثم جاوزتهما

إلى حظيرة القدس ، فرأيت في سرادق العرش رجلا قد شخص ببصره ينظر إلى الله تعالى لا يطرف . فقلت لرضوان : من هذا ؟ فقال معروف الكرخي ، عبد الله لا خوفا من ناره ولا شوقا إلى جنته بل حبًا له ، فأباحه النظر إليه إلى يوم القيامة . وذكر أن الآخرين بشر بن الحارث وأحمد بن حنبل . ولذلك قال أبو سليمان : من كان اليوم مشغولا بنفسه فهو غدا مشغول بنفسه ، ومن كان اليوم مشغولا بربه فهو غدا مشغول بربه . وقال الثوري لرابعة : ماحقيقة إيمانك ؟ قالت ماعبدته خوفا من ناره ولا حبا لجنته فأكون كالأجير السوء بل عبدته حبًا له وشوقا إليه . وقالت في معنى المحبة نظما :

عبادة من يعبد الله تعالى حبا له أعلى المنازل

أحبك حبين حب الهوى وحبا لأنك أهلا لذاكا
فأما الذي هو حب الهوى فشغلي بذكرك عمن سواكا
وأما الذي أنت أهل له فكشفك لي الحجب حتى أراكا
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

ولعلها أرادت بحب الهوى حب الله لإحسانه إليها وإنعامه عليها بحظوظ العاجلة ، وبحبه لما هو أهل له الحب لجماله وجلاله الذي انكشف لها ، وهو أعلى الحبين وأقواهما . ولذة مطالعة جمال الربوبية هي التي عبر عنها [1] رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال حاكيا عن ربه تعالى « أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَالاَ عَيْنٌ رَأَتْ وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ » وقد تعجل بعض هذه اللذات في الدنيا لمن انتهى صفاء قلبه إلى الغاية . ولذلك قال بعضهم : إني أقول يارب يا الله ، فأجد ذلك على قلبي أثقل من الجبال ، لأن النداء يكون من وراء حجاب ، وهل رأيت جليسا ينادي جليسه ! وقال : إذا بلغ الرجل في هذا العلم الغاية رماه الخلق بالحجارة . أي يخرج كلامه عن حد عقولهم ، فيرون مايقوله جنونا أو كفرا

فمقصد العارفين كلهم وصله ولقاؤه فقط . فهي قرة العين التي لا تعلم نفس ما أخفي لهم منها ، وإذا حصلت انمحقت الهموم والشهوات كلها ، وصار القلب مستغرقا بنعيمها ، فلو ألقي في النار لم يحس بها لاستغراقه ، ولو عرض عليه نعيم الجنة لم يلتفت إليه لكمال نعيمه ، وبلوغه الغاية

---

(١) حديث قال صلى الله عليه وسلم حاكيا عن ربه تعالى أعددت لعبادي الصالحين مالاعين رأت ـ الحديث : البخاري من حديث أبي هريرة

التي ليس فوقها غاية. وليت شعري من لم يفهم إلا حب المحسوسات كيف يؤمن بلذة النظر إلى وجه الله تعالى، وماله صورة ولا شكل ، وأي معنى لوعد الله تعالى به عباده ، وذكره أنه أعظم النعم ! بل من عرف الله عرف أن اللذات المفرقة بالشهوات المختلفة كلها تنطوي تحت هذه اللذة كما قاله بعضهم

كانت لقلبي أهـواء مفرّقـة فاستجمعت مـذ رأتك العين أهوائى

فصـار يحسدني من كنت أحسده وصرت مولى الورى مذ صرت مولائى

تركت للنـاس دنياهم ودينهم شغـلا بذكرك يادينى ودنيائى

ولذلك قال بعضهم

وهجره أعظم من نار ووصله أطيب من جنة

وما أرادوا بهذا إلا إيثار لذة القلب فى معرفة الله تعالى على لذة الأكل والشرب والنكاح، فإن الجنة معدن تمتع الحواس ، فأما القلب فلذته فى لقاء الله فقط

مثل أطوار الخلق فى اللذات

ومثال أطوار الخلق فى لذاتهم ما نذكره ، وهو أن الصبي فى أوّل حركته وتمييزه يظهر فيه غريزة بها يستلذ اللعب واللهو ، حتى يكون ذلك عنده ألذ من سائر الأشياء . ثم يظهر بعده لذة الزينة ولبس الثياب وركوب الدواب ، فيستحقر معها لذه اللعب . ثم يظهر بعده لذة الزينة ولبس الثياب وركوب الدواب ، فيستحقر معها لذة اللعب. ثم يظهر بعده لذة الوقاع وشهوة النساء ، فيترك بها جميع ما قبلها فى الوصول إليها . ثم تظهر لذة الرياسة والعلو والتكاثر ، وهي آخر لذات الدنيا ، وأعلاها ، وأقواها ، كما قال تعالى (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ [1]) الآية ، ثم بعد هذا تظهر غريزة أخرى يدرك بها معرفة الله تعالى ، ومعرفة أفعاله ، فيستحقر معها جميع ما قبلها ، فكل متأخر فهو أقوى . وهذا هو الأخير ، إذ يظهر حب اللعب فى سن التمييز ، وحب النساء والزينة فى سن البلوغ ، وحب الرياسة بعد العشرين ، وحب العلوم بقرب الأربعين ، وهي الغاية العليا . وكما أن الصبي يضحك على من يترك اللعب ويشتغل بملاعبة النساء وطلب الرياسة فكذلك الرؤساء يضحكون على من يترك الرياسة ويشتغل بمعرفة الله تعالى ، والعارفون يقولون : إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون

(١) الحديد : ٢٠

بيان

السبب فى زيادة النظر فى لذة الآخرة على المعرفة فى الدنيا

اعلم أن المدركات تنقسم إلى مايدخل فى الخيال ، كالصور المتخيلة ، والأجسام المتلونة والمتشكلة من أشخاص الحيوان والنبات ، وإلى مالا يدخل فى الخيال ، كذات الله تعالى وكل ماليس بجسم ، كالعلم ، والقدرة والإرادة وغيرها . ومن رأى إنسانا ثم غض بصره ، وجد صورته حاضرة فى خياله كأنه ينظر إليها . ولكن إذا فتح العين وأبصر وأدرك تفرقة بينهما ولا ترجع التفرقة إلى اختلاف بين الصورتين ، لأن الصورة المرئية تكون موافقة للمتخيلة وإنما الافتراق بمزيد الوضوح والكشف ، فإن صورة المرئي صارت بالرؤيه أتم انكشافا ووضوحا . وهو كشخص يرى فى وقت الإسفار قبل انتشار ضوء النهار ، ثم رؤى عند تمام الضوء ، فإنه لا تفارق إحدى الحالتين الأخرى إلا فى مزيد الانكشاف

فإذاً الخيال أول الإدراك ، والرؤية هو الاستكمال لإدراك الخيال ، وهو غاية الكشف وسمي ذلك رؤية لأنه غاية الكشف ، لا لأنه فى العين . بل لو خلق الله هذا الإدراك الكامل المكشوف فى الجبهة أو الصدر مثلا استحق أن يسمى رؤية

وإذا فهمت هذا فى المتخيلات فاعلم أن المعلومات التى لا تتشكل أيضا فى الخيال لمعرفتها وإدراكها درجتان : إحداهما أولى ، والثانية استكمال لها . وبين الأولى والثانية من التفاوت فى مزيد الكشف والإيضاح ما بين المتخيل والمرئى ، فيسمى الثانى أيضا بالإضافة إلى الأول مشاهدة ، ولقاء ، ورؤية . وهذه التسمية حق ، لأن الرؤية سميت رؤية لأنها غاية الكشف وكما أن سنة الله تعالى جارية بأن تطبيق الأجفان يمنع من تمام الكشف بالرؤية ، ويكون حجابا بين البصر والمرئى ، ولا بد من ارتفاع الحجب لحصول الرؤية ، وما لم ترتفع كان الإدراك الحاصل مجرد التخيل ، فكذلك مقتضى سنة الله تعالى أن النفس مادامت محجوبة بعوارض البدن ومقتضى الشهوات ، وما غلب عليها من الصفات البشرية ، فإنها لا تنتهى إلى المشاهدة واللقاء فى المعلومات الخارجة عن الخيال . بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة كحجاب الأجفان عن رؤية الأبصار . والقول فى سبب كونها حجابا يطول ، ولا يليق بهذا

العلم . ولذلك قال تعالى لموسى عليه السلام (لَنْ تَرَانِي [١]) وقال تعالى (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ [٢]) أى فى الدنيا . والصحيح [١] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رأى الله تعالى ليلة المعراج

فإذا ارتفع الحجاب بالموت ، بقيت النفس ملوثة بكدورات الدنيا ، غير منفكة عنها بالكلية وإن كانت متفاوتة . فمنها ما تراكم عليه الخبث والصدأ ، فصار كالمرآة التى فسد بطول تراكم الخبث جوهرها ، فلا تقبل الإصلاح والتصقيل ، وهؤلاء هم المحجوبون عن ربهم أبد الآباد ، نعوذ بالله من ذلك . ومنها ما لم ينته إلى حد الرين والطبع ، ولم يخرج عن قبول التزكية والتصقيل ، فيعرض على النار عرضا يقمع منه الخبث الذى هو متدنس به ، ويكون العرض على النار بقدر الحاجة إلى التزكية ، وأقلها لحظة خفيفة ، [٢] وأقصاها فى حق المؤمنين كما وردت به الأخبار سبعة آلاف سنة ، ولن ترتحل نفس عن هذا العالم إلا ويصحبها غبرة وكدورة ما وإن قلت ولذلك قال الله تعالى (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا [٣]) فكل نفس مستيقنة للورود على النار ، وغير مستيقنة للصدور عنها . فإذا أكمل الله تطهيرها وتزكيتها ، وبلغ الكتاب أجله ، ووقع الفراغ عن جملة ما وعد به الشرع من الحساب والعرض وغيره ، ووافى استحقاق الجنة ، وذلك وقت مبهم لم يطلع الله عليه أحدا من خلقه ، فإنه واقع بعد القيامة ، ووقت القيامة مجهول فعند ذلك يشتغل بصفائه ونقائه عن الكدورات ، حيث لا يرهق وجهه غبرة ولا قترة ، لأن فيه يتجلى الحق سبحانه وتعالى ، فيتجلى له تجليا يكون انكشاف تجليه بالإضافة إلى ما علمه كانكشاف تجلى المرآة بالإضافة إلى ما تخيله . وهذه المشاهدة والتجلى هى التى تسمى رؤية

---

(١) حديث انه صلى الله عليه وسلم ما رأى الله تعالى ليلة المعراج على الصحيح هذا الذى صححه المصنف هو قول عائشة ففى الصحيحين انها قالت من حدثك أن محمدا رأى ربه فقد كذب * ولمسلم من حديث أبى ذر سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك قال نورانى أراه وذهب ابن عباس وأكثر العلماء الى اثبات رؤيته له وعائشة لم ترو ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم وحديث أبى ذر قال فيه أحمد مازلت له منكرا وقال ابن خزيمة فى القلب من صحة اسناده شىء مع ان فى رواية لاحمد فى حديث أبى ذر رأيته نورا انى أراه ورجال اسنادها رجال الصحيح

(٢) حديث ان أقصى المكث فى النار فى حق المؤمنين سبعة آلاف سنة : الترمذى الحكيم فى نوادر الاصول من حديث أبى هريرة انما الشفاعة يوم القيامة لمن عمل الكبائر من أمتى - الحديث : وفيه وأطولهم مكثا فيها مثل الدنيا من يوم خلقت وذلك سبعة آلاف سنة واسناده ضعيف

---

[١] الأعراف : ١٤٣ [٢] الأنعام : ١٠٣ [٣] مريم : ٧١ ، ٧٢

فإذاً الرؤية حق بشرط أن لا يفهم من الرؤية استكمال الخيال فى متخيل متصوّر مخصوص بجهة ومكان ، فإن ذلك مما يتعالى عنه رب الأرباب علوا كبيرا ، بل كما عرفته فى الدنيا معرفة حقيقية تامة من غير تخيل وتصوّر وتقدير شكل وصورة فتراه فى الآخرة كذلك . بل أقول المعرفة الحاصلة فى الدنيا بعينها هي التى تستكمل ، فتبلغ كمال الكشف والوضوح وتنقلب مشاهدة ، ولا يكون بين المشاهدة فى الآخرة والمعلوم فى الدنيا اختلاف إلا من حيث زيادة الكشف والوضوح ، كما ضربنا من المثال فى استكمال الخيال بالرؤية . فإذا لم يكن فى معرفة الله تعالى إثبات صورة وجهة ، فلا يكون فى استكمال تلك المعرفة بعينها وترقيها فى الوضوح إلى غاية الكشف أيضا جهة وصورة ، لأنها هي بعينها لا تفترق منها إلا فى زيادة الكشف ، كما أن الصورة المرئية هي المتخيلة بعينها إلا فى زيادة الكشف ، وإليه الإشارة بقوله تعالى (يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا [1]) إذ تمام النور لا يؤثر إلا فى زيادة الكشف ، ولهذا لا يفوز بدرجة النظر والرؤية إلا العارفون فى الدنيا ، لأن المعرفة هي البذر الذى ينقلب فى الآخرة مشاهدة ، كما تنقلب النواة شجرة ، والحب زرعا . ومن لا نواة فى أرضه كيف يحصل له نخل ! ومن لم يزرع الحب فكيف يحصد الزرع ! فكذلك من لم يعرف الله تعالى فى الدنيا فكيف يراه فى الآخرة !

ولما كانت المعرفة على درجات متفاوتة ، كان التجلى أيضا على درجات متفاوتة . فاختلاف التجلى بالإضافة إلى اختلاف المعارف كاختلاف النبات بالإضافة إلى اختلاف البذر . إذ تختلف لا محالة بكثرتها ، وقلتها ، وحسنها ، وقوّتها ، وضعفها . ولذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام [1] « إِنَّ اللهَ يَتَجَلَّى لِلنَّاسِ عَامَّةً وَلِأَبِى بَكْرٍ خَاصَّةً » فلا ينبغى أن يظن أن غير أبي بكر ممن هو دونه يجد من لذة النظر والمشاهدة ما يجده أبو بكر ، بل لا يجد إلا عشر عشيره إن كانت معرفته فى الدنيا عشر عشيره . ولما فضل الناس بسر

---

(١) حديث ان الله يتجلى للناس عامة ولأبى بكر خاصه : ابن عدى من حديث جابر وقال باطل بهذا الاسناد وفى الميزان للذهبي ان الدارقطنى رواه عن المحاملى عن على بن عبدة وقال الدارقطنى ان على بن عبدة كان يضع الحديث : ورواه ابن عساكر فى تاريخ دمشق وابن الجوزى فى الموضوعات من حديث جابر وأبى بردة وعائشة

---

(١) الحديد : ٢٢

وقر فى صدره ، فضل لامحالة بتجل انفرد به . وكما أنك ترى فى الدنيا من يؤثر لذة الرياسة على المطعوم والمنكوح . وترى من يؤثر لذة العلم وانكشاف مشكلات ملكوت السموات والأرض وسائر الأمور الإلهية على الرياسة ، وعلى المنكوح ، والمطعوم ، والمشروب جميعا، فكذلك يكون فى الآخرة قوم يؤثرون لذة النظر إلى وجه الله تعالى على نعيم الجنة ، إذ يرجع نعيمها إلى المطعوم والمنكوح ، وهؤلاء بعينهم هم الذين حالهم فى الدنيا ماوصفنا من إيثار لذة العلم والمعرفة والاطلاع على أسرار الربوبية على لذة المنكوح ، والمطعوم ، والمشروب ، وسائر الخلق مشغولون به . ولذلك لما قيل لرابعة : ماتقولين فى الجنة ؟ فقالت الجار ثم الدار فبينت أنه ليس فى قلبها إلتفات إلى الجنة ، بل إلى رب الجنة

المعاصى تحجب المرء عن رؤية ربه تعالى

وكل من لايعرف الله فى الدنيا فلا يراه فى الآخرة . وكل من لم يجد لذة المعرفة فى الدنيا فلا يجد لذة النظر فى الآخرة ، إذ ليس يستأنف لأحد فى الآخرة مالم يصحبه من الدنيا ، ولا يحصد أحد إلا مازرع ، ولا يحشر المرء إلا على ما مات عليه ، ولا يموت إلا على ماعاش عليه . فما صحبه من المعرفة هو الذى يتنعم به بعينه فقط ، إلا أنه ينقلب مشاهدة بكشف الغطاء ، فتتضاعف اللذة به كما تتضاعف لذة العاشق إذا استبدل بخيال صورة المعشوق رؤية صورته ، فإن ذلك منتهى لذته . وإنما طيبة الجنة أن لكل أحد فيها مايشتهى ، فمن لايشتهى إلا لقاء الله تعالى فلا لذة له فى غيره ، بل ربما يتأذى به

فإذاً نعيم الجنة بقدر حب الله تعالى ، وحب الله تعالى بقدر معرفته ، فأصل السعادات هي المعرفة التى عبر الشرع عنها بالإيمان

فإن قلت : فلذة الرؤية إن كان لها نسبة إلى لذة المعرفة فهي قليلة وإن كان أضعافها ، لأن لذة المعرفة فى الدنيا ضعيفة ، فتضاعفها إلى حد قريب لاينتهى فى القوة إلى أن يستحقر سائر لذات الجنة فيها

فاعلم أن هذا الاستحقار للذة المعرفة صدر من الخلو عن المعرفة . فمن خلا عن المعرفة كيف يدرك لذتها ، وإن انطوى على معرفة ضعيفة وقلبه مشحون بعلائق الدنيا فكيف يدرك لذتها ، فللعارفين فى معرفتهم وفكرتهم ومناجاتهم لله تعالى لذات لو عرضت عليهم الجنة فى الدنيا بدلا عنها لم يستبدلوا بها لذة الجنة . ثم هذه اللذة مع كمالها لانسبة لها أصلا

إلى لذة اللقاء والمشاهدة، كما لا نسبة للذة خيال المعشوق إلى رؤيته ، ولا للذة استنشاق روائح الأطعمة الشهية إلى ذوقها ، ولا للذة اللمس باليد إلى لذة الوقاع . وإظهار عظم التفاوت بينهما لا يمكن إلا بضرب مثال فنقول :

لذة النظر إلى وجه المعشوق في الدنيا تتفاوت بأسباب

أحدها : كمال جمال المعشوق ونقصانه ، فإن اللذة في النظر إلى الأجمل أكمل لا محالة

والثاني : كمال قوة الحب ، والشهوة ، والعشق ، فليس التذاذ من اشتد عشقه كالتذاذ من ضعفت شهوته وحبه

والثالث : كمال الإدراك ، فليس التذاذه برؤية المعشوق في ظلمة ، أو من وراء ستر رقيق ، أو من بعد ، كالتذاذه بإدراكه على قرب من غير ستر ، وعند كمال الضوء ، ولا إدراك لذة المضاجعة مع ثوب حائل كإدراكها مع التجرد

والرابع : اندفاع العوائق المشوشة والآلام الشاغلة للقلب ، فليس التذاذ الصحيح ، الفارغ ، المتجرد للنظر إلى المعشوق ، كالتذاذ الخائف المذعور ، أو المريض المتألم ، أو المشغول قلبه بمهم من المهمات . فقدّر عاشقا ضعيف العشق ، ينظر إلى وجه معشوقه من وراء ستر رقيق على بعد ، بحيث يمنع انكشاف كنه صورته ، في حالة اجتمع عليه عقارب وزنابير تؤذيه وتلدغه وتشغل قلبه ، فهو في هذه الحالة لا يخلو عن لذة مّا من مشاهدة معشوقه فلو طرأت على الفجأة حالة انهتك بها الستر ، وأشرق بها الضوء ، واندفع عنه المؤذيات وبقي سليما فارغا ، وهجمت عليه الشهوة القوية والعشق المفرط حتى بلغ أقصى الغايات ، فانظر كيف تتضاعف اللذة حتى لا يبقى للأولى إليها نسبة يعتدّ بها

فكذلك فافهم نسبة لذة النظر إلى لذة المعرفة . فالستر الرقيق مثال البدن والاشتغال به ، والعقارب والزنابير مثال الشهوات المتسلطة على الإنسان من الجوع ، والعطش ، والغضب ، والغم ، والحزن ، وضعف الشهوة . والحب مثال لقصور النفس في الدنيا ونقصانها عن الشوق إلى الملأ الأعلى ، والتفاتها إلى أسفل السافلين ، وهو مثل قصور الصبي عن ملاحظة لذة الرياسة ، والتفاته إلى اللعب بالعصفور

والعارف وإن قويت في الدنيا معرفته فلا يخلو عن هذه المشوشات . ولا يتصور أن

يخلو عنها ألبتة . نعم قد تضعف هذه العوائق فى بعض الأحوال ولا تدوم ، فلا جرم يلوح من جمال المعرفة مايبهت العقل ، وتعظم لذته بحيث يكاد القلب يتفطر لعظمته . ولكن يكون ذلك كالبرق الخاطف وقلما يدوم . بل يعرض من الشواغل والأفكار والخواطر مايشوشه وينغصه ، وهذه ضرورة دائمة فى هذه الحياة الفانية ، فلاتزال هذه اللذة منغصة إلى الموت . وإنما الحياة الطيبة بعد الموت ، وإنما العيش عيش الآخرة (وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ [(١)]) . وكل من انتهى إلى هذه الرتبة فإنه يحب لقاء الله تعالى ، فيحب الموت ولا يكرهه إلا من حيث ينتظر زيادة استكمال فى المعرفة ، فإن المعرفة كالبذر ، وبحر المعرفة لاساحل له ، فالإحاطة بكنه جلال الله محال . فكلما كثرت المعرفة بالله ، وبصفاته وأفعاله ، وبأسرار مملكته وقويت ، كثر النعيم فى الآخرة وعظم ، كما أنه كلما كثر البذر وحسن ، كثر الزرع وحسن . ولا يمكن تحصيل هذا البذر إلا فى الدنيا ، ولا يزرع إلا فى صعيد القلب ، ولا حصاد إلا فى الآخرة . ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [(١)] « أَفْضَلُ السَّعَادَاتِ طُولُ الْعُمْرِ فِي طَاعَةِ اللهِ » لأن المعرفة إنما تكمل وتكثر وتتسع فى العمر الطويل بمداومة الفكر ، والمواظبة على المجاهدة ، والانقطاع عن علائق الدنيا ، والتجرد للطلب . ويستدعى ذلك زمانا لامحالة

السعادة طول العمر فى طاعة الله

فمن أحب الموت أحبه لأنه رأى نفسه واقفا فى المعرفة ، بالغا إلى منتهى مايسر له . ومن كره الموت كرهه لأنه كان يؤمل مزيد معرفة تحصل له بطول العمر ، ورأى نفسه مقصرا عما تحتمله قوته لو عمّر . فهذا سبب كراهة الموت وحبه عند أهل المعرفة ، وأماسائر الخلق فنظرهم مقصور على شهوات الدنيا ، إن اتسعت أحبوا البقاء ، وإن ضاقت تمنوا الموت . وكل ذلك حرمان وخسران مصدره الجهل والغفلة . فالجهل والغفلة مغرس كل شقاوة والعلم والمعرفة أساس كل سعادة

---

(١) حديث أفضل السعادات طول العمر فى طاعة الله : ابراهيم الحربى فى كتاب ذكر الموت من رواية ابن لهيعة عن ابن الهادى عن المطلب عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال السعادة كل السعادة طول العمر فى طاعة الله ووالد المطلب عبد الله بن حوطب مختلف فى صحبته ولأحمد من حديث جابر ان من سعادة المرء أن يطول عمره ويرزقه الله الانابة والترمذى من حديث أبى بكرة ان رجلا قال يارسول الله أى الناس خير قال من طال عمره وحسن عمله قال هذا حديث حسن صحيح وقد تقدم

---

(١) العنكبوت : ٦٤

فقد عرفت بما ذكرناه معنى المحبة ومعنى العشق، فإنه المحبة المفرطة القوية. ومعنى لذة المعرفة، ومعنى الرؤية، ومعنى لذة الرؤية، ومعنى كونها ألذ من سائر اللذات عند ذوى العقول والكمال وإن لم تكن كذلك عند ذوى النقصان، كما لم تكن الرياسة ألذ من المطعومات عند الصبيان

فإن قلت: فهذه الرؤية محلها القلب أو العين فى الآخرة؟

فاعلم أن الناس قد اختلفوا فى ذلك. وأرباب البصائر لا يلتفتون إلى هذا الخلاف ولا ينظرون فيه، بل العاقل يأكل البقل ولا يسأل عن المبقلة، ومن يشتهى رؤية معشوقه يشغله عشقه عن أن يلتفت إلى أن رؤيته تخلق فى عينه أو فى جبهته، بل يقصد الرؤية ولذتها سواء كان ذلك بالعين أو غيرها. فإن العين محل وظرف لا نظر إليه ولا حكم له. والحق فيه أن القدرة الأزلية واسعة، فلا يجوز أن نحكم عليها بالقصور عن أحد الأمرين، هذا فى حكم الجواز. فأما الواقع فى الآخرة من الجائزين فلا يدرك إلا بالسمع، والحق ما ظهر لأهل السنة والجماعة من شواهد الشرع أن ذلك يخلق فى العين[1] ليكون لفظ الرؤية والنظر وسائر الألفاظ الواردة فى الشرع مجرى على ظاهره إذ لا يجوز إزالة الظواهر إلا لضرورة والله تعالى أعلم

بيان

(الأسباب المقوية لحب الله تعالى)

اعلم أن أسعد الخلق حالا فى الآخرة أقواهم حبا لله تعالى، فإن الآخرة معناها القدوم على الله تعالى ودرك سعادة لقائه، وما أعظم نعيم المحب إذا قدم على محبوبه بعد طول شوقه وتمكن من دوام مشاهدته أبد الآباد من غير منغص ومكدر، ومن غير رقيب ومزاحم ومن غير خوف انقطاع إلا أن هذا النعيم على قدر قوة الحب. فكلما ازدادت المحبة ازدادت اللذة. وإنما يكتسب العبد حب الله تعالى فى الدنيا

أسباب ضعف حب الله فى القلوب

وأصل الحب لا ينفك عنه مؤمن، لأنه لا ينفك عن أصل المعرفة. وأما قوة الحب واستيلاؤه حتى ينتهى إلى الاستهتار الذى يسمى عشقا، فذلك ينفك عنه الأكثرون. وإنما يحصل ذلك بسببين

---

(١) حديث رؤية الله فى الآخرة حقيقة: متفق عليه من حديث أبى هريرة ان الناس قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة قال هل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر ـ الحديث:

أحدهما : قطع علائق الدنيا وإخراج حب غير الله من القلب ، فإن القلب مثل الإناء الذى لا يتسع للخل مثلا مالم يخرج منه الماء (مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ[1])

وكمال الحب فى أن يحب الله عز وجل بكل قلبه ، وما دام يلتفت إلى غيره فزاوية من قلبه مشغولة بغيره . فبقدر مايشغل بغير الله ينقص منه حب الله . وبقدر ما يبقى من الماء فى الإناء ينقص من الخل المصبوب فيه . وإلى هذا التفريد والتجريد الإشارة بقوله تعالى (قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ[2]) وبقوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا[3]) بل هو معنى قولك لا إله إلا الله ، أي لا معبود ولا محبوب سواه ، فكل محبوب فإنه معبود فإن العبد هو المقيد ، والمعبود هو المقيد به ، وكل محب فهو مقيد بما يحبه . ولذلك قال الله تعالى (أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ[4]) وقال صلى الله عليه وسلم « أَبْغَضُ إِلٰهٍ عُبِدَ فِي الْأَرْضِ الْهَوَى » ولذلك قال عليه السلام [1] « مَنْ قَالَ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ مُخْلِصاً دَخَلَ الْجَنَّةَ » ومعنى الإخلاص أن يخلص قلبه لله ، فلا يبقى فيه شرك لغير الله فيكون الله محبوب قلبه ، ومعبود قلبه ، ومقصود قلبه فقط

ومن هذا حاله فالدنيا سجنه ، لأنها مانعة له من مشاهدة محبوبه . وموته خلاص من السجن وقدوم على المحبوب . فما حال من ليس له إلا محبوب واحد ، وقد طال إليه شوقه ، وتمادى عنه حبسه ، فخلى من السجن ، ومكن من المحبوب ، وروّح بالأمن أبد الآباد ؟

الاشتغال بحب الدنيا

فأحد أسباب ضعف حب الله فى القلوب قوة حب الدنيا ، ومنه حب الأهل ، والمال ، والولد ، والأقارب ، والعقار ، والدواب ، والبساتين ، والمتنزهات ، حتى أن المتفرح بطيب أصوات الطيور وروح نسيم الأسحار ملتفت إلى نعيم الدنيا ، ومتعرض لنقصان حب الله تعالى بسببه . فبقدر ما أنس بالدنيا فينقص أنسه بالله ، ولا يؤتى أحد من الدنيا شيئا إلا وينقص بقدره من الآخرة بالضرورة ، كما أنه لا يقرب الإنسان من المشرق إلا ويبعد بالضرورة من المغرب بقدره ، ولا يطيب قلب امرأته إلا ويضيق به قلب ضرتها . فالدنيا والآخرة ضرتان ، وهما كالمشرق والمغرب ، وقد انكشف ذلك لذوى القلوب انكشافا

---

(١) حديث من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة : تقدم

[1] الاحزاب : ٤ [2] الأنعام : ٩١ [3] الاحقاف : ١٣ [4] الفرقان : ٤٣

سبيل قلع حب الدنيا من القلب

أوضح من الإبصار بالعين . وسبيل قلع حب الدنيا من القلب سلوك طريق الزهد ، وملازمة الصبر ، والانقياد إليهما بزمام الخوف والرجاء ، فما ذكرناه من المقامات كالتوبة والصبر ، والزهد ، والخوف ، والرجاء ، هي مقدمات ليكتسب بها أحد ركني المحبة ، وهو تخلية القلب عن غير الله ، وأوله الإيمان بالله واليوم الآخر ، والجنة ، والنار ، ثم يتشعب منه الخوف والرجاء ، ويتشعب منهما التوبة والصبر عليهما ، ثم ينجر ذلك إلى الزهد في الدنيا ، وفي المال والجاه ، وكل حظوظ الدنيا ، حتى يحصل من جميعه طهارة القلب عن غير الله فقط ، حتى يتسع بعده لنزول معرفة الله وحبه فيه فكل ذلك مقدمات تطهير القلب ، وهو أحد ركني المحبة ، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام : (١) « الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ » كما ذكرناه في أول كتاب الطهارة

السبب الثاني : لقوة المحبة قوة معرفة الله تعالى واتساعها ، واستيلاؤها على القلب ، وذلك بعد تطهير القلب من جميع شواغل الدنيا وعلائقها يجري مجرى وضع البذر في الأرض بعد تنقيتها من الحشيش ، وهو الشطر الثاني . ثم يتولد من هذا البذر شجرة المحبة والمعرفة وهي الكلمة الطيبة التي ضرب الله بها مثلا حيث قال (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (١)) وإليها الإشارة بقوله تعالى (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ (٢)) أي المعرفة (وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ (٣)) فالعمل الصالح كالجمال لهذه المعرفة وكالخادم ، وإنما العمل الصالح كله في تطهير القلب أولا من الدنيا ، ثم إدامة طهارته فلا يراد العمل إلا لهذه المعرفة . وأما العلم بكيفية العمل فيراد للعمل . فالعلم هو الأول وهو الآخر ، وإنما الأول علم المعاملة ، وغرضه العمل ، وغرض المعاملة صفاء القلب وطهارته ليتضح فيه جلية الحق ، ويتزين بعلم المعرفة ، وهو علم المكاشفة . ومهما حصلت هذه المعرفة تبعتها المحبة بالضرورة ، كما أن من كان معتدل المزاج إذا أبصر الجميل وأدركه بالعين الظاهرة أحبه ومال إليه ، ومهما أحبه حصلت اللذة ، فاللذة تبع المحبة بالضرورة ، والمحبة تبع المعرفة بالضرورة ، ولا يوصل إلى هذه المعرفة بعد انقطاع شواغل الدنيا من القلب إلا بالفكر الصافي والذكر الدائم ، والجد البالغ في الطلب ، والنظر المستمر في الله تعالى

---

(١) حديث الطهور شطر الايمان : مسلم من حديث أبي مالك الأشعري وقد تقدم

(١) ابراهيم : ٢٤ (٢ ، ٣) فاطر : ١٠

وفى صفاته ، وفى ملكوت سمواته وسائر مخلوقاته

والواصلون إلى هذه الرتبة ينقسمون إلى الأقوياء ، ويكون أول معرفتهم لله تعالى ، ثم به يعرفون غيره ، وإلى الضعفاء ، ويكون أول معرفتهم بالأفعال ، ثم يترقون منها إلى الفاعل وإلى الأول الإشارة بقوله تعالى (أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ [1]) وبقوله تعالى (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ [2]) ومنه نظر بعضهم حيث قيل له بم عرفت ربك قال: عرفت ربى بربى ، ولولا ربى لما عرفت ربى . وإلى الثانى الإشارة بقوله تعالى (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ [3]) الآية وبقوله عز وجل (أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ [4]) وبقوله تعالى (قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ [5]) وبقوله تعالى (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ [6]) وهذا الطريق هو الأسهل على الأكثرين ، وهو الأوسع على السالكين ، وإليه أكثر دعوة القرءان عند الأمر بالتدبر ، والتفكر ، والاعتبار والنظر فى آيات خارجة عن الحصر

فإن قلت : كلا الطريقين مشكل ، فأوضح لنا منهما ما يستعان به على تحصيل المعرفة والتوصل به إلى المحبة ، فاعلم أن الطريق الأعلى هو الاستشهاد بالحق سبحانه على سائر الخلق فهو غامض ، والكلام فيه خارج عن حد فهم أكثر الخلق ، فلا فائدة فى إيراده فى الكتب وأما الطريق الأسهل الأدنى فأكثره غير خارج عن حد الأفهام ، وإنما قصرت الأفهام عنه لإعراضها عن التدبر ، واشتغالها بشهوات الدنيا وحظوظ النفس ، والمانع من ذكر هذا إتساعه وكثرته ، وانشعاب أبوابه الخارجة عن الحصر والنهاية ، إذ ما من ذرة من أعلى السموات إلى تخوم الأرضين إلا وفيها عجائب آيات تدل على كمال قدرة الله تعالى وكمال حكمته ، ومنتهى جلاله وعظمته ، وذلك مما لا يتناهى (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي [7]) فالخوض فيه انغماس فى بحار علوم

(١ ، ٤) فصلت : ٥٣ (٢) آل عمران : ١٨ (٣) الأعراف : ١٨٥ - (٥) يونس : ١٠١ (٦) الملك : ٣ ، ٤
(٧) الكهف : ١٠٩

المكاشفة . ولا يمكن أن يتطفل به على علوم المعاملة ، ولكن يمكن الرمز إلى مثال واحد على الإيجاز ليقع التنبيه لجنسه فنقول .

أسهل الطريقين النظر إلى الأفعال ، فلنتكلم فيها ولنترك الأعلى . ثم الأفعال الإلٰهية كثيرة ، فلنطلب أقلها . وأحقرها ، وأصغرها ، ولننظر فى عجائبها . فأقل المخلوقات هو الأرض وما عليها ، أعنى بالإضافة إلى الملائكة وملكوت السموٰات ، فإنك إن نظرت فيها من حيث الجسم والعظم فى الشخص ، فالشمس على ماترى من صغر حجمها هي مثل الأرض مائة ونيفا وستين مرة ، فانظر إلى صغر الأرض بالإضافة إليها ، ثم انظر إلى صغر الشمس بالإضافة إلى فلكها الذى هي مركوزة فيه ، فإنه لانسبة لها إليه ، وهي فى السماء الرابعة وهي صغيرة بالإضافة إلى مافوقها من السموٰات السبع ، ثم السموٰات السبع فى الكرسى كحلقة فى فلاة ، والكرسى فى العرش كذلك ؛ فهذا نظر إلى ظاهر الأشخاص من حيث المقادير ، وماأحقر الأرض كلها بالإضافة إليها ، بل ماأصغر الأرض بالإضافة إلى البحار ، فقدقال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] « الْأَرْضُ فِى الْبَحْرِ كَالْإِسْطَبْلِ فِى الْأَرْضِ » ومصداق هذا عرف بالمشاهدة والتجربة ، وعلم أن المكشوف من الأرض عن الماء كجزيرة صغيرة بالاضافة إلى كل الأرض

بعض عجائب قدرة الله فى خلق البعوض

ثم انظر إلى الآدمي المخلوق من التراب الذى هو جزء من الأرض ، وإلى سائر الحيوانات ، وإلى صغره بالإضافة إلى الأرض ، ودع عنك جميع ذلك ، فأصغر مانعرفه من الحيوانات البعوض والنحل ومايجرى مجراه ، فانظر فى البعوض على قدر صغر قدره ، وتأمله بعقل حاضر وفكر صاف ، فانظر كيف خلقه الله تعالى على شكل الفيل الذى هو أعظم الحيوانات ، إذخلق له خرطوما مثل خرطومه ، وخلق له على شكله الصغير سائر الأعضاء كما خلقه للفيل بزيادة جناحين ، وانظر كيف قسم أعضاءه الظاهرة ، فأنبت جناحه ، وأخرج يده ورجله ، وشق سمعه وبصره ودبر فى باطنه من أعضاء الغذاء وآلاته مادبره فى سائر الحيوانات ، وركب فيها من القوى الغاذية ، والجاذبة ، والدافعة ، والماسكة ، والهاضمة ، مارکب فى سائر الحيوانات . هذا فى شكله وصفاته . ثم انظر إلى هدايته كيف هداه الله تعالى إلى غذائه ،

---

(١) حديث الارض فى البحر كالاصطبل فى الارض : لم أجد له أصلا

وعرّفه أن غذاءه دم الإنسان ، ثم انظر كيف أنبت له آلة الطيران إلى الإنسان ، وكيف خلق له الخرطوم الطويل وهو محدد الرأس ، وكيف هداه إلى مسامّ بشرة الإنسان حتى يضع خرطومه في واحد منها ، ثم كيف قواه حتى يغرز فيه الخرطوم ، وكيف علمه المص والتجرع للدم ، وكيف خلق الخرطوم مع دقته مجوفا حتى يجرى فيه الدم الرقيق وينتهي إلى باطنه ، وينتشر في سائر أجزائه ويغذيه ، ثم كيف عرفه أن الإنسان يقصده بيده فعلمه حيلة الهرب واستعداد آلته ، وخلق له السمع الذي يسمع به خفيف حركة اليد وهي بعد بعيدة منه فيترك المص ويهرب ، ثم إذا سكنت اليد يعود ، ثم انظر كيف خلق له حدقتين حتى يبصر موضع غذائه فيقصده مع صغر حجم وجهه ، وانظر إلى أن حدقة كل حيوان صغير لما لم تحتمل حدقته الأجفان لصغره ، وكانت الأجفان مصقلة لمرآة الحدقة عن القذى والغبار ، خلق للبعوض والذباب يدين ، فتنظر إلى الذباب فتراه على الدوام يمسح حدقتيه بيديه ، وأما الإنسان والحيوان الكبير فخلق لحدقتيه الأجفان حتى ينطبق أحدهما على الآخر ، وأطرافهما حادة ، فيجمع الغبار الذي يلحق الحدقة ويرميه إلى أطراف الأهداب ، وخلق الأهداب السود لتجمع ضوء العين ، وتعين على الإبصار ، وتحسن صورة العين ، وتشبكها عند هيجان الغبار ، فينظر من وراء شباك الأهداب ، واشتباكها يمنع دخول الغبار ولا يمنع الإبصار . وأما البعوض فخلق لها حدقتين مصقلتين من غير أجفان ، وعلمها كيفية التصقيل باليدين ، ولأجل ضعف أبصارها تراها تتهافت على السراج ، لأن بصرها ضعيف ، فهي تطلب ضوء النهار ، فإذا رأى المسكين ضوء السراج بالليل ظن أنه في بيت مظلم ، وأن السراج كوة من البيت المظلم إلى الموضع المضيء فلا يزال يطلب الضوء ، ويرمي بنفسه إليه ، فإذا جاوزه ورأى الظلام ظن أنه لم يصب الكوة ولم يقصدها على السداد ، فيعود إليه مرة أخرى إلى أن يحترق .

ولعلك تظن أن هذا لنقصانها وجهلها ، فاعلم أن جهل الإنسان أعظم من جهلها . بل صورة الآدمي في الإكباب على شهوات الدنيا صورة الفراش في التهافت على النار ، إذ تلوح للآدمي أنوار الشهوات من حيث ظاهر صورتها ، ولا يدري أن تحتها السم الناقع القاتل ، فلا يزال يرمي نفسه عليها إلى أن ينغمس فيها ، ويتقيد بها ، ويهلك هلاكا مؤبدا

فليت كان جهل الآدمي كجهل الفراش ، فإنها باغترارها بظاهر الضوء إن احترقت تخلصت في الحال، والآدمي يبقى فى النار أبداالآباد أو مدة مديدة . ولذلك كان ينادى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول [١] « إِنِّي مُمْسِكٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ وَأَنْتُمْ تَتَهَافَتُونَ فِيهَا تَهَافُتَ الْفَرَاشِ »

فهذه لمعة عجيبة من عجائب صنع الله تعالى فى أصغر الحيوانات ، وفيها من العجائب مالو اجتمع الأولون والآخرون على الإحاطة بكنهه عجزوا عن حقيقته ، ولم يطلعوا على أمور جلية من ظاهر صورته . فأما خفايا معانى ذلك فلا يطلع عليها إلا الله تعالى

عجائب قدرة الله فى النحل

ثم فى كل حيوان ونبات أعجوبة وأعاجيب تخصه لا يشاركه فيها غيره . فانظر إلى النحل وعجائبها ، وكيف أوحى الله تعالى إليها حتى اتخذت من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ، وكيف استخرج من لعابها الشمع والعسل، وجعل أحدهما ضياء، وجعل الآخر شفاء . ثم لو تأملت عجائب أمرها فى تناولها الأزهار والأنوار ، واحترازها عن النجاسات والأقذار ، وطاعتها لواحد من جملتها هو أكبرها شخصا ، وهو أميرها، ثم ما سخر الله تعالى له أميرها من العدل والإنصاف بينها ، حتى أنه ليقتل على باب المنفذ كل ما وقع منها على نجاسة لقضيت منها عجبا آخر العجب إن كنت بصيرا فى نفسك ، وفارغا من همّ بطنك وفرجك، وشهوات نفسك فى معاداة أقرانك وموالاة إخوانك . ثم دع عنك جميع ذلك، وانظر إلى بنائها بيوتها من الشمع ، واختيارها من جملة الأشكال الشكل المسدس ، فلا تبنى بيتا مستديرا ، ولا مربعا ، ولا مخمسا ، بل مسدسا ، لخاصية فى الشكل المسدس يقصر فهم المهندسين عن دركها ، وهو أن أوسع الأشكال وأحواها المستديرة وما يقرب منها ، فإن المربع يخرج منه زوايا ضائعة ، وشكل النحل مستدير مستطيل ، فترك المربع حتى لا تضيع الزوايا فتبقي فارغة ، ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضائعة ، فإن الأشكال المستديرة إذا جمعت لم تجتمع متراصة ، ولا شكل فى الأشكال ذوات الزوايا يقرب فى الاحتواء من المستدير . ثم تتراص الجملة منه بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فرجة إلا المسدس

---

(١) حديث انى ممسك بحجزكم عن النار وأنتم تهافتون فيها تهافت الفراش :متفق عليه من حديث أبي هريرة مثلى ومثل أمتى كمثل رجل استوقد نارا فجعلت الدواب والفراش يقعن فأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقتحمون فيه لفظ مسلم واقتصر البخارى على أوله ولمسلم من حديث جابر وأنا آخذ بحجزكم وأنتم تفلترن من يدى

وهذه خاصية هذا الشكل . فانظر كيف ألهم الله تعالى النحل على صغر جرمه ، ولطافة قده ، لطفا به وعناية بوجوده وما هو محتاج إليه ليتهنأ بعيشه . فسبحانه ما أعظم شأنه ، وأوسع لطفه وامتنانه

فاعتبر بهذه اللمعة اليسيرة من محقرات الحيوانات ، ودع عنك عجائب ملكوت الأرض والسموات ، فإن القدر الذى بلغه فهمنا القاصر منه تنقضى الأعمار دون إيضاحه ولا نسبة لما أحاط به علمنا إلى ما أحاط به العلماء والأنبياء ، ولا نسبة لما أحاط به علم الخلائق كلهم إلى ما استأثر الله تعالى بعلمه . بل كل ما عرفه الخلق لا يستحق أن يسمى علما فى جنب علم الله تعالى

فبالنظر فى هذا وأمثاله تزداد المعرفة الحاصلة بأسهل الطريقين ، وبزيادة المعرفة تزداد المحبة ، فإن كنت طالبا سعادة لقاء الله تعالى فانبذ الدنيا وراء ظهرك ، واستغرق العمر فى الذكر الدائم والفكر اللازم ، فعساك تحظى منها بقدر يسير ، ولكن تنال بذلك اليسير ملكا عظيما لا آخر له

بيان
السبب فى تفاوت الناس فى الحب

اعلم أن المؤمنين مشتركون فى أصل الحب لاشتراكهم فى أصل المحبة ، ولكنهم متفاوتون لتفاوتهم فى المعرفة وفى حب الدنيا ، إذ الأشياء إنما تتفاوت بتفاوت أسبابها ، وأكثر الناس ليس لهم من الله تعالى إلا الصفات والأسماء التى قرعت سمعهم ، فتلقنوها وحفظوها وربما تخيلوا لها معانى يتعالى عنها رب الأرباب ، وربما لم يطلعوا على حقيقتها ولا تخيلوا لها معنى فاسدا ، بل آمنوا بها إيمان تسليم وتصديق ، واشتغلوا بالعمل وتركوا البحث ، وهؤلاء هم أهل السلامة من أصحاب اليمين ، والمتخيلون هم الضالون ، والعارفون بالحقائق هم المقربون

وقد ذكر الله حال الأصناف الثلاثة فى قوله تعالى (فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ [1]) الآية . فإن كنت لا تفهم الأمور إلا بالأمثلة فلنضرب لتفاوت الحب مثالا فنقول .

مثال لتفاوت الحب عند الناس

أصحاب الشافعي مثلا يشتركون فى حب الشافعي رحمه الله : الفقهاء منهم والعوام ، لأنهم مشتركون فى معرفة فضله ، ودينه ، وحسن سيرته ، ومحامد خصاله . ولكن العامي

(١) الواقعة : ٨٨ ، ٨٩

يعرف علمه مجملا ، والفقيه يعرفه مفصلا . فتكون معرفة الفقيه به أتم ، وإعجابه به وحبه له أشد . فإن من رأى تصنيف مصنف فاستحسنه وعرف به فضله ، أحبه لامحالة، ومال إليه قلبه . فإن رأى تصنيفا آخر أحسن منه وأعجب ، تضاعف لامحالة حبه ؛ لأنه تضاعفت معرفته بعلمه . وكذلك يعتقد الرجل فى الشاعر أنه حسن الشعر فيحبه ؛ فإذا سمع من غرائب شعره ماعظم فيه حذقه وصنعته ازداد به معرفة ،وازداد له حبا . وكذا سائر الصناعات والفضائل . والعامي قد يسمع أن فلانا مصنف ، وأنه حسن التصنيف ، ولكن لايدرى مافى التصنيف ؛ فيكون له معرفة مجملة ، ويكون له بحسبه ميل مجمل . والبصير إذا فتش عن التصانيف ، واطلع على مافيها من العجائب ،تضاعف حبه لامحالة ، لأن عجائب الصنعة والشعر والتصنيف تدل على كمال صفات الفاعل والمصنف . والعالم بجملته صنع الله تعالى وتصنيفه ، والعامى يعلم ذلك ويعتقده . وأما البصير فإنه يطالع تفصيل صنع الله تعالى فيه ، حتى يرى فى البعوض مثلا من عجائب صنعه ماينبهر به عقله ، ويتحير فيه لبه ، ويزداد بسببه لامحالة عظمة الله وجلاله وكمال صفاته فى قلبه ،فيزداد له حبا. وكلما ازداد على أعاجيب صنع الله اطلاعا ، استدل بذلك على عظمة الله الصانع وجلاله ، وازداد به معرفة وله حبا

وبحر هذه المعرفة ، أعنى معرفة عجائب صنع الله تعالى ، بحر لاساحل له ؛ فلا جرم تفاوت أهل المعرفة فى الحب لاحصر له

ومما يتفاوت بسببه الحب اختلاف الأسباب الخمسة التى ذكرناها للحب ، فإن من يحب الله مثلا لكونه محسنا إليه ، منعما عليه ، ولم يحبه لذاته ، ضعفت محبته . إذ تتغير بتغير الإحسان ، فلا يكون حبه فى حالة البلاء كحبه فى حالة الرضا والنعماء . وأما من يحبه لذاته ، ولأنه مستحق للحب بسبب كماله وجماله ومجده وعظمته ، فإنه لايتفاوت حبه بتفاوت الإحسان إليه

فهذا وأمثاله هو سبب تفاوت الناس فى المحبة ، والتفاوت فى المحبة هو السبب للتفاوت فى سعادة الآخرة ، ولذلك قال تعالى (وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً [1])

---

(1) الاسراء : ٢١

بيانه

السبب فى قصور أفهام الخلق عن معرفة الله سبحانه

اعلم أن أظهر الموجودات وأجلاها هو الله تعالى . وكان هذا يقتضى أن تكون معرفته أول المعارف وأسبقها إلى الأفهام ، وأسهلها على العقول ، وترى الأمر بالضد من ذلك ، فلا بد من بيان السبب فيه . وإنما قلنا إنه أظهر الموجودات وأجلاها لمعنى لاتفهمه إلا بمثال وهو أنا إذا رأينا إنسانا يكتب أو يخيط مثلا ، كان كونه حيا عندنا من أظهر الموجودات فحياته ، وعلمه ، وقدرته ، وإرادته للخياطة ، أجلى عندنا من سائر صفاته الظاهرة والباطنة إذ صفاته الباطنة كشهوته ، وغضبه ، وخلقه ، وصحته ، ومرضه ، وكل ذلك لانعرفه. وصفاته الظاهرة لانعرف بعضها ، وبعضها نشك فيه كمقدار طوله واختلاف لون بشرته وغير ذلك من صفاته . أما حياته . وقدرته ، وإرادته ، وعلمه ، وكونه حيوانا، فإنه جلي عندنا من غير أن يتعلق حس البصر بحياته وقدرته وإرادته ، فإن هذه الصفات لاتحس بشيء من الحواس الخمس ، ثم لايمكن أن نعرف حياته وقدرته وإرادته إلا بخياطته وحركته ، فلو نظرنا إلى كل مافى العالم سواه لم نعرف به صفته ، فما عليه إلا دليل واحد ، وهو مع ذلك جلي واضح

ووجود الله تعالى ، وقدرته وعلمه ، وسائر صفاته ، يشهد له بالضرورة كل مانشاهده وندركه بالحواس الظاهرة والباطنة من حجر ، ومدر ، ونبات ، وشجر ، وحيوان ، وسماء ، وأرض ، وكوكب ، وبر ، وبحر ، ونار ، وهواء ، وجوهر ، وعرض ؛ بل أول شاهد عليه أنفسنا ، وأجسامنا ، وأوصافنا ، وتقلب أحوالنا ، وتغير قلوبنا ، وجميع أطوارنا فى حركاتنا وسكناتنا . وأظهر الأشياء فى علمنا أنفسنا ، ثم محسوساتنا بالحواس الخمس ، ثم مدركاتنا بالعقل والبصيرة . وكل واحد من هذه المدركات له مدرك واحد ، وشاهد واحد ، ودليل واحد . وجميع مافى العالم شواهد ناطقة ، وأدلة شاهدة بوجود خالقها ، ومدبرها ، ومصرفها ، ومحركها ، ودالة على علمه ، وقدرته ، ولطفه ، وحكمته . والموجودات المدركة لاحصر لها ، فإن كانت حياة الكاتب ظاهرة عندنا ، وليس يشهدلها إلا شاهد واحد ، وهو ماأحسسنا به من حركة يده ، فكيف لايظهر عندنا مالا يتصور فى الوجود شيء داخل نفوسنا وخارجها

إلا وهو شاهد عليه، وعلى عظمته وجلاله، إذ كل ذرة فإنها تنادى بلسان حالها أنه ليس وجودها بنفسها، ولا حركتها بذاتها، وأنها تحتاج إلى موجد ومحرك لها، يشهد بذلك أولا تركيب أعضائنا، وائتلاف عظامنا، ولحومنا، وأعصابنا، ومنابت شعورنا، وتشكل أطرافنا، وسائر أجزائنا الظاهرة والباطنة، فإنا نعلم أنها لم تأتلف بأنفسها، كما نعلم أن يد الكاتب لم تتحرك بنفسها، ولكن لما لم يبق فى الوجود شيء مدرك، ومحسوس، ومعقول، وحاضر، وغائب، إلا وهو شاهد ومعرف، عظم ظهوره، فانبهرت العقول ودهشت عن إدراكه، فإن ما تقصر عن فهمه عقولنا فله سببان :

أحدهما: خفاؤه فى نفسه وغموضه، وذلك لا يخفى مثاله .

والآخر: ما يتناهى وضوحه، وهذا كما أن الخفاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار، لا لخفاء النهار واستتاره، لكن لشدة ظهوره، فإن بصر الخفاش ضعيف يبهره نور الشمس إذا أشرقت، فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصره سببا لامتناع إبصاره، فلا يرى شيئا إلا إذا امتزج الضوء بالظلام وضعف ظهوره

فكذلك عقولنا ضعيفة، وجمال الحضرة الإلهية فى نهاية الإشراق والاستنارة، وفى غاية الاستغراق والشمول، حتى لم يشذ عن ظهوره ذرة من ملكوت السموات والأرض، فصار ظهوره سبب خفائه، فسبحان من احتجب بإشراق نوره، واختفى عن البصائر والأبصار بظهوره

ولا يتعجب من اختفاء ذلك بسبب الظهور، فإن الأشياء تستبان بأضدادها، وما عم وجوده حتى أنه لا ضد له عسر إدراكه، فلو اختلفت الأشياء فدل بعضها دون بعض أدركت التفرقة على قرب، ولما اشتركت فى الدلالة على نسق واحد أشكل الأمر، ومثاله نور الشمس المشرق على الأرض، فإنا نعلم أنه عرض من الأعراض يحدث فى الأرض، ويزول عند غيبة الشمس . فلو كانت الشمس دائمة الإشراق لا غروب لها، لكنا نظن أنه لا هيئة فى الأجسام إلا ألوانها، وهي السواد والبياض وغيرهما؛ فإنا لا نشاهد فى الأسود إلا السواد، وفى الأبيض إلا البياض. فأما الضوء فلا ندركه وحده . ولكن لما غابت الشمس وأظلمت المواضع، أدركنا تفرقة بين الحالين، فعلمنا أن الأجسام كانت قد استضاءت بضوء، واتصفت بصفة فارقتها عند الغروب، فعرفنا وجود النور بعدمه، وما كنا نطلع

عليه لولا عدمه إلا بعسر شديد ، وذلك لمشاهدتنا الأجسام متشابهة غير مختلفة في الظلام والنور
هذا مع أن النور أظهر المحسوسات : إذ به تدرك سائر المحسوسات

فما هو ظاهر في نفسه وهو مظهر لغيره ، انظر كيف تصور استبهام أمره بسبب ظهوره
لولا طريان ضده . فالله تعالى هو أظهر الأمور ، وبه ظهرت الأشياء كلها ، ولو كان له عدم
أو غيبة أو تغير لانهدت السموات والأرض ، وبطل الملك والملكوت ، ولأدرك بذلك
التفرقة بين الحالين. ولو كان بعض الأشياء موجودا به وبعضها موجودا بغيره لأدركت التفرقة بين
الشيئين في الدلالة ، ولكن دلالته عامة في الأشياء على نسق واحد ، ووجوده دائم في الأحوال
يستحيل خلافه ؛ فلا جرم أورثت شدة الظهور خفاء . فهذا هو السبب في قصور الأفهام

وأما من قويت بصيرته ، ولم تضعف منته ، فإنه في حال اعتدال أمره لا يرى إلا الله تعالى
ولا يعرف غيره ؛ يعلم أنه ليس في الوجود إلا الله ، وأفعاله أثر من آثار قدرته ، فهي تابعة له،
فلا وجود لها بالحقيقة دونه ، وإنما الوجود للواحد الحق الذي به وجود الأفعال كلها . ومن
هذه حاله فلا ينظر في شيء من الأفعال إلا ويرى فيه الفاعل ، ويذهل عن الفعل من حيث إنه
سماء ، وأرض ، وحيوان ، وشجر بل ينظر فيه من حيث إنه صنع الواحد الحق ، فلا يكون
نظره مجاوزا له إلى غيره ، كمن نظر في شِعْرِ إنسان ، أو خطه أو تصنيفه ، ورأى فيها الشاعر
والمصنف ، ورأى آثاره من حيث أثره لا من حيث إنه حبر ، وعفص ، وزاج مرقوم على
بياض ، فلا يكون قد نظر إلى غير المصنف

وكل العالم تصنيف الله تعالى ؛ فمن نظر إليه من حيث إنه فعل الله وعرفه من حيث إنه
فعل الله ، وأحبه من حيث إنه فعل الله ، لم يكن ناظرا إلا في الله ، ولا عارفا إلا بالله ، ولا محبا إلا له
وكان هو الموحد الحق الذي لا يرى إلا الله ، بل لا ينظر إلى نفسه من حيث نفسه ، بل من
حيث أنه عبد الله . فهذا الذي يقال فيه إنه فنى في التوحيد وإنه فنى عن نفسه وإليه الإشارة
بقول من قال كُنَّا بِنَا ، ففنينا عنا ؛ فبقينا بلا نحن فهذه أمور معلومة عند ذوي البصائر أشكلت
لضعف الأفهام عن دركها ، وقصور قدرة العلماء بها عن إيضاحها وبيانها بعبارة مفهمة موصلة
للغرض إلى الأفهام ، أو باشتغالهم بأنفسهم واعتقادهم أن بيان ذلك لغيرهم مما لا يعنيهم

فهذا هو السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله تعالى ، وانضم إليه أن المدركات كلها

التى هي شاهدة على الله إنما يدركها الإنسان فى الصبا عند فقد العقل ، ثم تبدو فيه غريزة العقل قليلا قليلا وهو مستغرق الهم بشهواته ، وقد أنس بمدركاته ومحسوساته وألفها، فسقط وقعها عن قلبه بطول الأنس . ولذلك إذا رأى على سبيل الفجأة حيوانا غريبا أو نباتا غريبا أو فعلا من أفعال الله تعالى خارقا للعادة عجيبا ، انطلق لسانه بالمعرفة طبعا فقال سبحان الله وهو يرى طول النهار نفسه وأعضاءه ، وسائر الحيوانات المألوفة ، وكلها شواهد قاطعة لايحس بشهادتها لطول الأنس بها . ولو فرض أكمه بلغ عاقلا ، ثم انقشعت غشاوة عينه فامتد بصره إلى السماء ، والأرض ، والأشجار ، والنبات ، والحيوان ، دفعة واحدة على سبيل الفجأة ، لخيف على عقله أن ينبهر لعظم تعجبه من شهادة هذه العجائب لخالقها

فهذا وأمثاله من الأسباب مع الانهماك فى الشهوات هو الذى سد على الخلق سبيل الاستضاءة بأنوار المعرفة ، والسباحة فى بحارها الواسعة، فالناس فى طلبهم معرفة الله كالمدهوش الذى يضرب به المثل إذا كان راكبا لحماره وهو يطلب حماره، والجليات إذا صارت مطلوبة صارت معتاصة ، فهذا سر هذا الأمر فليحقق ، ولذلك قيل

لقد ظهرت فما تخفى على أحد إلا على أكمه لايعرف القمرا
لكن بطنت بما أظهرت محتجبا فكيف يعرف من بالعرف قد سترا

بيان

معنى الشوق إلى الله تعالى

اعلم أن من أنكر حقيقة المحبة لله تعالى فلا بد وأن ينكر حقيقة الشوق ، إذ لا يتصور الشوق إلا إلى محبوب . ونحن نثبت وجود الشوق إلى الله تعالى ، وكون العارف مضطرا إليه بطريق الاعتبار والنظر بأنوار البصائر ، وبطريق الأخبار والآثار

الاضطرار الى الشوق عقلا

أما الاعتبار فيكفى فى إثباته ماسبق فى إثبات الحب ، فكل محبوب يشتاق إليه فى غيبته لامحالة ، فأما الحاصل الحاضر فلا يشتاق إليه . فإن الشوق طلب وتشوف إلى أمر والموجود لايطلب . ولكن بيانه أن الشوق لايتصور إلا إلى شيء أدرك من وجه ولم يدرك من وجه . فأما مالايدرك أصلا فلا يشتاق إليه ، فإن من لم ير شخصا ولم يسمع وصفه لايتصور أن يشتاق إليه . وما أدرك بكماله لايشتاق إليه . وكمال الإدراك بالرؤية ،

فمن كان فى مشاهدة محبوبه مداوما للنظر إليه لا يتصور أن يكون له شوق. ولكن الشوق إنما يتعلق بما أدرك من وجه ولم يدرك من وجه ، وهو من وجهين لا ينكشف إلا بمثال من المشاهدات ، فنقول مثلا من غاب عنه معشوقه ، وبقي فى قلبه خياله ، فيشتاق إلى استكمال خياله بالرؤية ، فلو انمحى عن قلبه ذكره ، وخياله ، ومعرفته حتى نسيه، لم يتصور أن يشتاق إليه . ولو رآه لم يتصور أن يشتاق فى وقت الرؤية . فمعنى شوقه تشوق نفسه إلى استكمال خياله ، فكذلك قد يراه فى ظلمة بحيث لا ينكشف له حقيقة صورته ،فيشتاق إلى استكمال رؤيته . وتمام الانكشاف فى صورته بإشراق الضوء عليه

والثانى : أن يرى وجه محبوبه ولا يرى شعره مثلا ولا سائر محاسنه ، فيشتاق لرؤيته وإن لم يرها قط ، ولم يثبت فى نفسه خيال صادر عن الرؤية ، ولكنه يعلم أن له عضوا وأعضاء جميلة ، ولم يدرك تفصيل جمالها بالرؤية ، فيشتاق إلى أن ينكشف له ما لم يره قط

والوجهان جميعا متصوران فى حق الله تعالى ، بل هما لازمان بالضرورة لكل العارفين ، فإن ما اتضح للعارفين من الأمور الإلهية وإن كان فى غاية الوضوح ، فكأنه من وراء ستر رقيق، فلا يكون متضحا غاية الاتضاح ،بل يكون مشوبا بشوائب التخيلات، فإن الخيالات لا تفتر فى هذا العالم عن التمثيل والمحاكاة لجميع المعلومات ، وهي مكدرات للمعارف ومنغصات. وكذلك ينضاف إليها شواغل الدنيا ، فإنما كمال الوضوح بالمشاهدة وتمام إشراق التجلى ، ولا يكون ذلك إلا فى الآخرة،وذلك بالضرورة يوجب الشوق،فإنه منتهى محبوب العارفين. فهذا أحد نوعي الشوق ، وهو استكمال الوضوح فيما اتضح اتضاحا ما

الثانى : أن الأمور الإلهية لا نهاية لها ،وإنما ينكشف لكل عبد من العباد بعضها ،وتبقى أمور لا نهاية لها غامضة ،والعارف يعلم وجودها ،وكونها معلومة لله تعالى ، ويعلم أن ما غاب عن علمه من المعلومات أكثر مما حضر،فلا يزال متشوقا إلى أن يحصل له أصل المعرفة فيما لم يحصل مما بقى من المعلومات التى لم يعرفها أصلا ، لا معرفة واضحة ولا معرفة غامضة

والشوق الأول ينتهى فى الدار الآخرة بالمعنى الذى يسمى رؤية ، ولقاء ، ومشاهدة ، ولا يتصور أن يسكن فى الدنيا . وقد كان إبراهيم بن أدهم من المشتاقين فقال : قلت ذات

يوم يارب إن أعطيت أحدا من المحبين لك مايسكن به قلبه قبل لقائك فأعطنى ذلك ، فقد أضر بى القلق . قال فرأيت فى النوم أنه أوقفنى بين يديه وقال : ياإبراهيم ، أما استحييت منى أن تسألنى أن أعطيك مايسكن به قلبك قبل لقائى ! وهل يسكن المشتاق قبل لقاء حبيبه ! فقلت يارب تهت فى حبك فلم أدر ماأقول فاغفرلى وعلمنى ماأقول . فقال . قل اللهم رضنى بقضائك،وصبرنى على بلائك،وأوزعنى شكر نعمائك؛فإن هذا الشوق يسكن فى الآخرة

وأما الشوق الثانى : فيشبه أن لايكون له نهاية لافى الدنيا ولا فى الآخرة ، إذ نهايته أن ينكشف للعبد فى الآخرة من جلال الله تعالى ، وصفاته، وحكمته، وأفعاله ،ماهو معلوم لله تعالى ، وهو محال ، لأن ذلك لانهاية له ، ولا يزال العبد عالما بأنه بقي من الجمال والجلال مالم يتضح له ؛ فلا يسكن قط شوقه ، لاسيما من يرى فوق درجته درجات كثيرة ، إلا أنه تشوق إلى استكمال الوصال مع حصول أصل الوصال، فهو يجد لذلك شوقا لذيذا لايظهر فيه ألم . ولا يبعد أن تكون ألطاف الكشف والنظر متوالية إلى غير نهاية ، فلا يزال النعيم واللذة متزايدا أبد الآباد ، وتكون لذة مايتجدد من لطائف النعيم شاغلة عن الإحساس بالشوق إلى مالم يحصل ، وهذا بشرط أن يمكن حصول الكشف فيما لم يحصل فيه كشف فى الدنيا أصلا . فإن كان ذلك غير مبذول فيكون النعيم واقفا على حد لايتضاعف ، ولكن يكون مستمرا على الدوام : وقوله سبحانه وتعالى (نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا [1]) محتمل لهذا المعنى ، وهو أن ينعم عليه بإتمام النور مهما تزود من الدنيا أصل النور . ويحتمل أن يكون المراد به إتمام النور فى غير مااستنار فى الدنيا استنارة محتاجة إلى مزيد الاستكمال والإشراق ، فيكون هو المراد بتمامه . وقوله تعالى (انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا [2]) يدل على أن الأنوار لابد وأن يتزود أصلها فى الدنيا ، ثم يزداد فى الآخرة إشراقا . فأما أن يتجدد نور فلا . والحكم فى هذا برجم الظنون مخطر ، ولم ينكشف لنا فيه بعد مايوثق به ، فنسأل الله تعالى أن يزيدنا علما ورشدا، ويرينا الحق حقا، فهذا القدر من أنوار البصائر كاشف لحقائق الشوق ومعانيه

الاخبار والآثار فى الشوق

وأما شواهد الأخبار والآثار فأكثر من أن تحصى . فمما اشتهر من دعاء رسول الله

(١) التحريم : ٨ (٢) الحديد : ١٣

صلى الله عليه وسلم [1] أنه كان يقول « اللَّهُمَّ إِنِّى أَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ وَبَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَلَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ الْكَرِيمِ وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ »

وقال أبو الدرداء لكعب : أخبرنى عن أخص آية ، يعنى فى التوراة . فقال : يقول الله تعالى : طال شوق الأبرار إلى لقائى ، وإنى إلى لقائهم لأشد شوقا . قال ومكتوب إلى جانبها ، من طلبنى وجدنى ، ومن طلب غيرى لم يجدنى . فقال أبو الدرداء : أشهد أنى لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هذا

وفى أخبار داود عليه السلام ، أن الله تعالى قال : ياداود ، أبلغ أهل أرضى أنى حبيب لمن أحبنى ، وجليس لمن جالسنى ، ومؤنس لمن أنس بذكرى ، وصاحب لمن صاحبنى ، ومختار لمن اختارنى ، ومطيع لمن أطاعنى . ماأحبنى عبد أعلم ذلك يقينا من قلبه إلا قبلته لنفسى ، وأحببته حبا لايتقدمه أحد من خلقى ، من طلبنى بالحق وجدنى ، ومن طلب غيرى لم يجدنى فارفضوا ياأهل الأرض ماأنتم عليه من غرورها ، وهلموا إلى كرامتى ، ومصاحبتى ، ومجالستى وائنسوا بى أؤانسكم وأسارع إلى محبتكم ، فإنى خلقت طينة أحبائى من طينة إبراهيم خليلى وموسى نجيى ، ومحمد صفيى ، وخلقت قلوب المشتاقين من نورى ، ونعمتها بجلالى

وروى عن بعض السلف أن الله تعالى أوحى إلى بعض الصديقين . إن لى عبادا من عبادى يحبونى وأحبهم ، ويشتاقون إلي وأشتاق إليهم ، ويذكرونى وأذكرهم ، وينظرون إلي وأنظر إليهم ، فإن حذوت طريقهم أحببتك ، وإن عدلت عنهم مقتك ، قال يارب وما علامتهم ؟ قال يراعون الظلال بالنهار كما يراعى الراعى الشفيق غنمه ، ويحنون إلى غروب الشمس كما يحن الطائر إلى وكره عند الغروب ، فإذا جنهم الليل ، واختلط الظلام وفرشت الفرش ، ونصبت الأسرة ، وخلا كل حبيب بحبيبه ، نصبوا إلي أقدامهم ، وافترشوا إلي وجوههم ، وناجونى بكلامى ، وتملقوا إلي بإنعامى ، فبين صارخ وباك ، وبين متأوه وشاك ، وبين قائم وقاعد ، وبين راكع وساجد ، بعينى مايتحملون من أجلى ، وبسمعى مايشتكون من حبى . أول ماأعطيهم ثلاث : أقذف من نورى فى قلوبهم فيخبرون عنى كما

(١) حديث انه كان يقول فى دعائه اللهم انى أسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت ـ الحديث : أحمد والحاكم وتقدم فى الدعوات

أخبر عنهم ، والثانية لو كانت السموات والأرض وما فيها فى موازينهم لاستقللتها لهم ، والثالثة أقبل بوجهى عليهم ، فترى من أقبلت بوجهى عليه يعلم أحد ما أريد أن أعطيه !

وفى أخبار داود عليه السلام : إن الله تعالى أوحى إليه ، ياداود ، إلى كم تذكر الجنة ولا تسألنى الشوق إلي ! قال يارب من المشتاقون إليك ؟ قال إن المشتاقين إلي الذين صفيتهم من كل كدر ، ونبهتهم بالحذر ، وخرقت من قلوبهم إلي خرقا ينظرون إلي ، وإنى لأحمل قلوبهم بيدى فأضعها على سمائى ، ثم أدعو نجباء ملائكتى ، فإذا اجتمعوا سجدوا لى فأقول إنى لم أدعكم لتسجدوا لى ، ولكنى دعوتكم لأعرض عليكم قلوب المشتاقين إليّ ، وأباهى بكم أهل الشوق إليّ ، فإن قلوبهم لتضيء فى سمائى لملائكتى كما تضيء الشمس لأهل الأرض ياداود ، إنى خلقت قلوب المشتاقين من رضوانى ، ونعمتها بنور وجهى ، فاتخذتهم لنفسى محدثى ، وجعلت أبدانهم موضع نظرى إلى الأرض ، وقطعت من قلوبهم طريقا ينظرون به إلي يزدادون فى كل يوم شوقا . قال داود: يارب أرنى أهل محبتك . فقال ياداود ، ائت جبل لبنان ، فإن فيه أربعة عشر نفسا ، فيهم شبان ، وفيهم شيوخ ، وفيهم كهول فإذا أتيتهم فاقرئهم منى السلام ، وقل لهم : إن ربكم يقرئكم السلام ويقول لكم : ألا تسألون حاجة؟ فإنكم أحبائى ، وأصفيائى ، وأوليائى ، أفرح لفرحكم ، وأسارع إلى محبتكم . فأتاهم داود عليه السلام ، فوجدهم عند عين من العيون يتفكرون فى عظمة الله عزوجل . فلما نظروا إلى داود عليه السلام نهضوا ليتفرقوا عنه . فقال داود : إنى رسول الله إليكم جئتكم لأبلغكم رسالة ربكم . فأقبلوا نحوه وألقوا أسماعهم نحو قوله ، وألقوا أبصارهم إلى الأرض . فقال داود. إنى رسول الله إليكم ، يقرئكم السلام ،ويقول لكم ألا تسألون حاجة ؟ألا تنادونى أسمع صوتكم وكلامكم ، فإنكم أحبائى ، وأصفيائى ، وأوليائى ، أفرح لفرحكم ، وأسارع إلى محبتكم ، وأنظر إليكم فى كل ساعة نظر الوالدة الشفيقة الرفيقة . قال فجرت الدموع على خدودهم ، فقال شيخهم . سبحانك سبحانك ، نحن عبيدك وبنو عبيدك ، فاغفر لنا ماقطع قلوبنا عن ذكرك فيما مضى من أعمارنا

وقال الآخر : سبحانك سبحانك ، نحن عبيدك وبنو عبيدك ، فامنن علينا بحسن النظر فيما بيننا وبينك وقال الآخر : سبحانك سبحانك ، نحن عبيدك وبنو عبيدك ،

أفنجترىء على الدعاء وقد علمتَ أنه لاحاجة لنا فى شيء من أمورنا ، فأدم لنا لزوم الطريق إليك ،وأتمم بذلك المنة علينا . وقال الآخر: نحن مقصرون فى طلب رضاك،فأعنا علينا بجودك

وقال الآخر : من نطفة خلقتنا ، ومننت علينا بالتفكر فى عظمتك ، أفيجترىء على الكلام من هو مشتغل بعظمتك متفكر فى جلالك ، وطلبتنا الدنوّ من نورك

وقال الآخر : كلت ألسنتنا عن دعائك لعظم شأنك ، وقربك من أوليائك ، وكثرة منتك على أهل محبتك . وقال الآخر : أنت هديت قلوبنا لذكرك ، وفرغتنا للاشتغال بك ، فاغفر لنا تقصيرنا فى شكرك

وقال الآخر : قد عرفت حاجتنا إنما هي النظر إلى وجهك

وقال الآخر : كيف يجترىء العبد على سيده إذ أمرتنا بالدعاء بجودك ، فهب لنا نورا نهتدى به فى الظلمات من أطباق السموات

وقال الآخر : ندعوك أن تقبل علينا ، وتديمه عندنا . وقال الآخر . نسألك تمام نعمتك فيما وهبت لنا ، وتفضلت به علينا . وقال الآخر : لاحاجة لنا فى شيء من خلقك ، فامنن علينا بالنظر إلى جمال وجهك

وقال الآخر : أسألك من بينهم أن تعمى عينى عن النظر إلى الدنيا وأهلها ، وقلبى عن الاشتغال بالآخرة . وقال الآخر :قد عرفت تباركت وتعاليت أنك تحب أوليائك فامنن علينا باشتغال القلب بك عن كل شيء دونك

فأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام قل لهم : قد سمعت كلامكم ، وأجبتكم إلى ما أحببتم فليفارق كل واحد منكم صاحبه ، وليتخذ لنفسه سربا ، فإنى كاشف الحجاب فيما بينى وبينكم حتى تنظروا إلى نورى وجلالى . فقال دواود : يارب بم نالوا هذا منك ؟ قال بحسن الظن والكف عن الدنيا وأهلها ، والخلوات بى ، ومناجاتهم لى ، وإن هذا منزل لاينا له إلا من رفض الدنيا وأهلها ، ولم يشتغل بشيء من ذكرها ، وفرغ قلبه لى ، واختارنى على جميع خلقى فعند ذلك أعطف عليه ، وأفرغ نفسه ، وأكشف الحجاب فيما بينى وبينه حتى ينظر إليّ نظر الناظر بعينه إلى الشيء ، وأريه كرامتى فى كل ساعة ، وأقربه من نور وجهى ، إن مرض مرضته كما تمرض الوالدة الشفيقة ولدها ، وإن عطش أرويته ، وأذيقه طعم ذكرى

فإذا فعلت ذلك به ياداود عميت نفسه عن الدنيا وأهلها ، ولم أحببها إليه، لايفتر عن الاشتغال بى، يستعجلنى القدوم ، وأنا أكره أن أميته لأنه موضع نظرى من بين خلقى ،لايرى غيرى ولا أرى غيره . فلو رأيته ياداود وقد ذابت نفسه ، ونحل جسمه، وتهشمت أعضاؤه، وانخلع قلبه إذا سمع بذكرى ، أباهى به ملائكتى وأهل سمواتى، يزداد خوفا وعبادة، وعزتى وجلالى ياداود لأقعدنه فى الفردوس ، ولأشفين صدره من النظر إلىّ ، حتى يرضى وفوق الرضا

وفى أخبار داود أيضا : قل لعبادى المتوجهين إلى محبتى ، ماضركم إذا احتجبت عن خلقى ، ورفعت الحجاب فيما بيني وبينكم حتى تنظروا إليّ بعيون قلوبكم؟وماضركم مازويت عنكم من الدنيا إذا بسطت دينى لكم ؟ وما ضركم مسخطة الخلق إذا التمستم رضائى ؟

وفى أخبار داود أيضا ، أن الله تعالى أوحى إليه : تزعم أنك تحبنى ، فإن كنت تحبنى فأخرج حب الدنيا من قلبك ، فإن حبي وحبها لايجتمعان فى قلب . ياداود خالص حبيبى مخالصة ، وخالط أهل الدنيا مخالطة . ودينك فقلدنيه ، ولاتقلد دينك الرجال . أماما استبان لك مما وافق محبتى فتمسك به ،وأماما أشكل عليك فقلدنيه ،حقا علىّ أنى أسارع إلى سياستك وتقويمك ، وأكون قائدك ودليلك ، أعطيك من غير أن تسألنى ، وأعينك على الشدائد . وإنى قد حلفت على نفسى أنى لاأثيب إلا عبدا قد عرفت من طلبته وإرادته القاء كنفه بين يدي، وأنه لاغنى به عنى . فإذا كنت كذلك نزعت الذلة والوحشة عنك ، وأسكن الغنى قلبك ، فإنى قد حلفت على نفسى أنه لايطمئن عبدلى إلى نفسه ينظر إلى فعالها إلا وكلته إليها ، أضف الأشياء إليّ ، لاتضاد عملك فتكون متعنيا ولاينتفع بك من يصبحك ، ولاتجد لمعرفتى حدا، فليس لها غاية . ومتى طلبت منى الزيادة أعطك ،ولاتجد للزيادة منى حدا .ثم أعلم بنى اسرائيل أنه ليس بينى وبين أحد من خلقى نسب ،فلتعظم رغبتهم وإرادتهم عندى أبح لهم مالاعين رأت، ولاأذن سمعت ، ولاخطر على قلب بشر . ضعني بين عينيك ، وانظر إليّ ببصر قلبك ، ولاتنظر بعينك التى فى رأسك إلى الذين حجبت عقولهم عنى ، فامرجوها وسخت بانقطاع ثوابى عنها ،فإنى حلفت بعزتى وجلالى لاأفتح ثوابى لعبد دخل فى طاعتى للتجربة والتسويف. تواضع لمن تعلمه ، ولاتطاول على المريدين ، فلوعلم أهل محبتى منزلة المريدين عندى لكانوا لهم أرضا يمشون عليها . ياداود ، لأن تخرج مريدا من سكرة هو فيها تستنقذه فأكتبك

عندى جهيدا ، ومن كتبته عندى جهيدا لاتكون عليه وحشة ولافاقة إلى المخلوقين . ياداود، تمسك بكلامى ، وخذ من نفسك لنفسك ، لاتؤتين منها فأحجب عنك محبتى ، لاتؤيس عبادى من رحمتى أقطع شهوتك لى فإنما أبحت الشهوات لضعفة خلقى .مابال الأقوياء أن ينالوا الشهوات فإنها تنقص حلاوة مناجاتى .وإنما عقوبة الأقوياء عندى فى موضع التناول ،أدنى مايصل إليهم أن أحجب عقولهم عنى ،فإنى لم أرض الدنيا لحبيبى ونزهته عنها ،ياداود،لاتجعل بينى وبينك عالما يحجبك بسكره عن محبتى ، أولئك قطاع الطريق على عبادى المريدين . استعن على ترك الشهوات بإدمان الصوم ، وإياك والتجربة فى الإفطار ، فإن محبتى للصوم إدمانه . ياداود ، تحبب إلىّ بمعاداة نفسك ، امنعها الشهوات أنظر إليك ، وترى الحجب بينى وبينك مرفوعة .إنما أداريك مداراة لتقوى على ثوابى إذا مننت عليك به،وإنى أحبسه عنك وأنت متمسك بطاعتي　.　وأوحى الله تعالى إلى داود.ياداود ،لويعلم المدْبِرون عنى كيف انتظارى لهم ، ورفقى بهم ، وشوقى إلى ترك معاصيهم ،لماتوا شوقاإليَّ ،وتقطعت أوصالهم من محبتى . ياداود، هذه إرادتى فى المدبرين عنى، فكيف إرادتى فى المقبلين علي ! ياداود أحوج مايكون العبد إلىّ إذا استغنى عنى، وأرحم ماأكون بعبدى إذاأدبر عنى ،وأجل مايكون عندى إذا رجع إلي　.　فهذه الأخبار ونظائرها ممالا يحصى تدل على إثبات المحبة والشوق ، والأنس ، وإنما تحقيق معناها ينكشف بما سبق

بيان

محبة الله للعبد ومعناها

اعلم أن شواهد القرءان متظاهرة على أن الله تعالى يحب عبده ، فلابد من معرفة معنى ذلك . ولنقدم الشواهد على محبته　.　فقد قال الله تعالى(يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ [١])وقال تعالى (إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا [٢]) وقال تعالى (إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ [٣])ولذلك رد سبحانه على من ادعى أنه حبيب الله فقال (قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم

(١) المائدة : ٥٤ (٢) الصف : ٤ (٣) البقرة : ٢٢٢

بذُنُوبِكُمْ[١]) . وقد روى[١] أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إِذَا أَحَبَّ اللهُ تعالَى عَبْداً لَمْ يَضُرَّهُ ذَنْبٌ وَالتَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَاذَنْبَ لَهُ » ثم تلا (إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ[٢]) ومعناه أنه إذا أحبه تاب عليه قبل الموت ، فلم تضره الذنوب الماضية وإن كثرت ، كما لا يضر الكفر الماضي بعد الإسلام

وقد اشترط الله تعالى للمحبة غفران الذنب فقال (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ[٣]) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢] « إِنَّ اللهَ تَعَالَى يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ وَلَا يُعْطِي الْإِيمَانَ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم[٣] « مَنْ تَوَاضَعَ لِلّٰهِ رَفَعَهُ اللهُ وَمَنْ تَكَبَّرَ وَضَعَهُ اللهُ وَمَنْ أَكْثَرَ ذِكْرَ اللهِ أَحَبَّهُ اللهُ » وقال عليه السلام[٤] « قَالَ اللهُ تَعَالَى لَا يَزَالُ الْعَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ » الحديث

وقال زيد بن أسلم : إن الله ليحب العبد حتى يبلغ من حبه له أن يقول اعمل ما شئت فقد غفرت لك

وما ورد من ألفاظ المحبة خارج عن الحصر ، وقد ذكرنا أن محبة العبد لله تعالى حقيقة وليست بمجاز ، إذ المحبة في وضع اللسان عبارة عن ميل النفس إلى الشيء الموافق ، والعشق عبارة عن الميل الغالب المفرط . وقد بينا أن الإحسان موافق للنفس ، والجمال موافق أيضا ، وأن الجمال والإحسان تارة يدرك بالبصر ، وتارة يدرك بالبصيرة ، والحب يتبع كل واحد منهما فلا يختص بالبصر . فأما حب الله للعبد فلا يمكن أن يكون بهذا المعنى أصلا ،

---

(١) حديث أنس اذا أحب الله عبدا لم يضره ذنب والتائب من الذنب كمن لا ذنب له : ذكره صاحب الفردوس ولم يخرجه ولده في مسنده وروى ابن ماجه الشطر الثاني من حديث ابن مسعود وتقدم في التوبة

(٢) حديث ان الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ـ الحديث : الحاكم وصحح اسناده والبيهقي في الشعب من حديث ابن مسعود

(٣) حديث من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله ومن أكثر من ذكر الله أحبه الله : ابن ماجه من حديث أبي سعيد باسناد حسن دون قوله ومن أكثر الى آخره ورواه أبو يعلى وأحمد بهذه الزيادة وفيه ابن لهيعة

(٤) حديث قال الله تعالى لا يزال العبد يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه ـ الحديث : البخاري من حديث أبي هريرة وقد تقدم

---

(١) المائدة : ١٨ (٢) البقرة : ٢٢٢ (٣) آل عمران : ٣١.

بل الأسامى كلها إذا أطلقت على الله تعالى وعلى غير الله لم تنطلق عليهما بمعنى واحد أصلا ، حتى أن اسم الوجود الذى هو أعم الأسماء اشتراكا لا يشمل الخالق والخلق على وجه واحد ، بل كل ماسوى الله تعالى فوجوده مستفاد من وجود الله تعالى ، فالوجود التابع لا يكون مساويا للوجود المتبوع ، وإنما الاستواء فى إطلاق الاسم ،نظيره اشتراك الفرس والشجر فى اسم الجسم ،إذ معنى الجسمية وحقيقتها متشابهة فيهما من غير استحقاق أحدهما لأن يكون فيه أصلا ، فليست الجسمية لأحدهما مستفادة من الآخر ، وليس كذلك اسم الوجود لله ولا لخالقه . وهذا التباعد فى سائر الأسامى أظهر ، كالعلم ، والإرادة ، والقدرة وغيرها ، فكل ذلك لا يشبه فيه الخالق الخلق . وواضع اللغة إنما وضع هذه الأسامى أولا للخلق ، فإن الخلق أسبق إلى العقول والأفهام من الخالق ، فكان استعمالها فى حق الخالق بطريق الاستعارة ، والتجوز ، والنقل . والمحبة فى وضع اللسان عبارة عن ميل النفس إلى موافق ملائم ، وهذا إنما يتصور فى نفس ناقصة فاتها مايوافقها ، فتستفيد بنيله كمالا ، فتلتذ بنيله ، وهذا محال على الله تعالى ، فإن كل كمال ، وجمال ، وبهاء ، وجلال ممكن فى حق الإلهية ، فهو حاضر وحاصل ، وواجب الحصول أبدا وأزلا ، ولا يتصور تجدده ولا زواله ، فلا يكون له إلى غيره نظر من حيث إنه غيره ، بل نظره إلى ذاته وأفعاله فقط ، وليس فى الوجود إلا ذاته وأفعاله . ولذلك قال الشيخ أبو سعيد الميهنى رحمه الله تعالى ، لما قرئ عليه قوله تعالى (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ [1]) فقال : بحق يحبهم ، فإنه ليس يحب إلا نفسه ، على معنى أنه الكل وأن ليس فى الوجود غيره . فمن لا يحب إلا نفسه ، وأفعال نفسه ، وتصانيف نفسه ، فلا يجاوز حبه ذاته وتوابع ذاته من حيث هي متعلقة بذاته . فهو إذاً لا يحب إلا نفسه . وما ورد من الألفاظ فى حبه لعباده فهو مؤول ، ويرجع معناه إلى كشف الحجاب عن قلبه حتى يراه بقلبه ، وإلى تمكينه إياه من القرب منه ، وإلى إرادته ذلك به فى الأزل ، فحبه لمن أحبه أزلي مهما أضيف إلى الإرادة الأزلية التى اقتضت تمكين هذا العبد من سلوك طرق هذا القرب . وإذا أضيف إلى فعله الذى يكشف الحجاب عن قلب عبده فهو حادث يحدث

حقيقة المحبة

(١) المائدة : ٥٤

بحدوث السبب المقتضى له ، كما قال تعالى : لايزال عبدى يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه فيكون تقربه بالنوافل سببا لصفاء باطنه ، وارتفاع الحجاب عن قلبه ، وحصوله فى درجة القرب من ربه . فكل ذلك فعل الله تعالى ولطفه به، فهو معنى حبه

ولا يفهم هذا إلا بمثال ، وهو أن الملك قد يقرب عبده من نفسه، ويأذن له فى كل وقت فى حضور بساطه ، لميل الملك إليه ، إما لينصره بقوته ، أو ليستريح بمشاهدته، أو ليستشيره فى رأيه ، أو ليهيء أسباب طعامه وشرابه . فيقال إن الملك يحبه . ويكون معناه ميله إليه لما فيه من المعنى الموافق الملائم له . وقد يقرب عبدا ولا يمنعه من الدخول عليه، لا للانتفاع به، ولا للاستنجاد به، ولكن لكون العبد فى نفسه موصوفا من الأخلاق الرضية والخصال الحميدة بما يليق به أن يكون قريبا من حضرة الملك ؛ وافر الحظ من قربه ، مع أن الملك لا غرض له فيه أصلا . فإذا رفع الملك الحجاب بينه وبينه ، يقال قد أحبه . وإذا اكتسب من الخصال الحميدة ما اقتضى رفع الحجاب ، يقال قد توصل وحبب نفسه إلى الملك . فحب الله للعبد إنما يكون بالمعنى الثانى لا بالمعنى الأول . وإنما يصح تمثيله بالمعنى الثانى بشرط أن لا يسبق إلى فهمك دخول تغير عليه عند تجدد القرب ، فإن الحبيب هو القريب من الله تعالى، والقرب من الله فى البعد من صفات البهائم والسباع والشياطين ، والتخلق بمكارم الأخلاق التى هي الأخلاق الإلهية ، فهو قرب بالصفة لا بالمكان ، ومن لم يكن قريبا فصار قريبا فقد تغير فربما يظن بهذا أن القرب لما تجدد فقد تغير وصف العبد والرب جميعا ، إذ صار قريبا بعد أن لم يكن ، وهو محال فى حق الله تعالى ، إذ التغير عليه محال بل لا يزال فى نعوت الكمال والجلال على ما كان عليه فى أزل الآزال

ولا ينكشف هذا إلا بمثال فى القرب بين الأشخاص ، فإن الشخصين قد يتقاربان بتحركهما جميعا ، وقد يكون أحدهما ثابتا ، فيتحرك الآخر ، فيحصل القرب بتغير فى أحدهما من غير تغير فى الآخر . بل القرب فى الصفات أيضا كذلك ، فإن التلميذ يطلب القرب من درجة أستاذه فى كمال العلم وجماله ، والأستاذ واقف فى كمال علمه غير متحرك بالنزول إلى درجة تلميذه ، والتلميذ متحرك مترق من حضيض الجهل إلى ارتفاع العلم ، فلا يزال دائبا فى التغير والترقى إلى أن يقرب من أستاذه ، والأستاذ ثابت غير متغير . فكذلك ينبغى أن

يفهم ترقى العبد فى درجات القرب ، فكلما صار أكمل صفة ، وأتم علما وإحاطة بحقائق الأمور ، وأثبت قوة فى قهر الشيطان وقمع الشهوات ، وأظهر نزاهة عن الرذائل، صار أقرب من درجة الكمال ، ومنتهى الكمال لله ، وقرب كل واحد من الله تعالى بقدر كماله . نعم قد يقدر التلميذ على القرب من الأستاذ ، وعلى مساواته ، وعلى مجاوزته ؛ وذلك فى حق الله محال ، فإنه لانهاية لكماله ، وسلوك العبد فى درجات الكمال متناه ، ولا ينتهى إلا إلى حد محـــــدود ، فلا مطمع له فى المساواة

ثم درجات القرب تتفاوت تفاوتا لانهاية له أيضا لأجل انتفاء النهاية عن ذلك الكمال

فإذاً محبة الله للعبد تقريبه من نفسه بدفع الشواغل والمعاصى عنه ، وتطهير باطنه عن كدورات الدنيا ، ورفع الحجاب عن قلبه حتى يشاهده كأنه يراه بقلبه . وأما محبة العبد لله فهو ميله إلى درك هذا الكمال الذى هو مفلس عنه ، فاقد له ، فلا جرم يشتاق إلى مافاته ، وإذا أدرك منه شيئا يلتذ به ، والشوق والمحبة بهذا المعنى محال على الله تعالى

فإن قلت : محبة الله للعبد أمر ملتبس ، فبم يعرف العبد أنه حبيب الله

فأقول: يستدل عليه بعلاماته . وقد قال صلى الله عليه وسلم [١] « إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا ابْتَلاَهُ فَإِذَا أَحَبَّهُ الْحُبَّ الْبَالِغَ اقْتَنَاهُ » قيل وما اقتناه؟ قال « لَمْ يَتْرُكْ لَهُ أَهْلاً وَلاَ مَالاً » فعلامة محبة الله للعبد أن يوحشه من غيره ، ويحول بينه وبين غيره ، قيل لعيسى عليه السلام . لم لاتشترى حمارا فتركبه ؟ فقال أنا أعز على الله تعالى من أن يشغلنى عن نفسه بحمار . وفى الخبر [٢] « إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا ابْتَلاَهُ فَإِنْ صَبَرَ اجْتَبَاهُ فَإِنْ رَضِيَ اصْطَفَاهُ » وقال بعض العلماء . إذا رأيتك تحبه ، ورأيته يبتليك ، فاعلم أنه يريد يصافيك . وقال بعض المريدين لأستاذه . قد طولعت بشيء من المحبة . فقال يابنى ، هل ابتلاك بمحبوب سواه فآثرت عليه إياه ؟ قال لا . قال فلا تطمع فى المحبة ، فإنه لايعطيها عبدا حتى يبلوه . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] « إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا جَعَلَ لَهُ وَاعِظًا مِنْ نَفْسِهِ وَزَاجِرًا مِنْ قَلْبِهِ

(١) حديث اذا أحب الله عبدا ابتلاه ـ الحديث : الطبرانى من حديث أبى عتبة الخولانى وقد تقدم

(٢) حديث اذا أحب الله عبدا ابتلاه فان صبر اجتباه ـ الحديث : ذكره صاحب الفردوس من حديث على ابن أبى طالب ولم يخرجه ولده فى مسنده

(٣) حديث اذا أحب الله عبدا جعل له واعظا من نفسه ـ الحديث : أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أم سلمة باسناد حسن بلفظ اذا أراد الله بعبد خيرا

يأمُرُهُ وَيَنْهَاهُ » وقد قال [١] « إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا بَصَّرَهُ بِعُيُوبِ نَفْسِهِ » فأخص علاماته ، حبه لله ، فإن ذلك يدل على حب الله

وأما الفعل الدال على كونه محبوبا ، فهو أن يتولى الله تعالى أمره ظاهره وباطنه ، سره وجهره ، فيكون هو المشير عليه ، والمدبر لأمره ، والمزين لأخلاقه ، والمستعمل لجوارحه والمسدد لظاهره وباطنه ، والجاعل همومه هما واحدا ، والمبغض الدنيا في قلبه ، والموحش له من غيره ، والمؤنس له بلذة المناجاة في خلواته ، والكاشف له عن الحجب بينه وبين معرفته ، فهذا وأمثاله هو علامة حب الله للعبد ، فلنذكر الآن علامات محبة العبد لله فإنها أيضا علامات حب الله للعبد

القول
في علامات محبة العبد لله تعالى

اعلم أن المحبة يدعيها كل أحد . وما أسهل الدعوى وما أعز المعنى ! فلا ينبغي أن يغتر الإنسان بتلبيس الشيطان وخدع النفس مهما ادعت محبة الله تعالى ، مالم يمتحنها بالعلامات ، ولم يطالبها بالبراهين والأدلة . والمحبة شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، وثمارها تظهر في القلب ، واللسان ، والجوارح ، وتدل تلك الآثار الفائضة منها على القلب والجوارح على المحبة دلالة الدخان على النار ، ودلالة الثمار على الأشجار ، وهي كثيرة

فمنها حب لقاء الحبيب بطريق الكشف والمشاهدة في دار السلام . فلا يتصور أن يحب القلب محبوبا إلا ويحب مشاهدته ولقاءه ، وإذا علم أنه لاوصول إلا بالارتحال من الدنيا ومفارقتها بالموت ، فينبغي أن يكون محبا للموت غير فارّ منه ، فإن المحب لا يثقل عليه السفر عن وطنه إلى مستقر محبوبه ليتنعم بمشاهدته ، والموت مفتاح اللقاء وباب الدخول إلى المشاهدة . قال صلى الله عليه وسلم [٢] « مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ » وقال حذيفة عند الموت . حبيب جاء على فاقة لاأفلح من ندم . وقال بعض السلف : مامن خصلة

---

(١) حديث اذا أراد الله بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه : أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بزيادة فيه باسناد ضعيف

(٢) حديث من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه : متفق عليه من حديث أبي هريرة وعائشة

أحب إلى الله أن تكون فى العبد بعد حب لقاء الله من كثرة السجود فقدم حب لقاء الله على السجود . وقد شرط الله سبحانه لحقيقة الصدق فى الحب القتل فى سبيل الله، حيث قالوا إنا نحب الله ، فجعل القتل فى سبيل الله وطلب الشهادة علامته فقال (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا [١]) وقال عز وجل (يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ [٢]) وفى وصية أبى بكر لعمر رضي الله تعالى عنهما: الحق ثقيل ، وهو مع ثقله مرىء ، والباطل خفيف ، وهو مع خفته وبىء ، فإن حفظت وصيتى لم يكن غائب أحب إليك من الموت وهو مدركك ، وإن ضيعت وصيتى لم يكن غائب أبغض إليك من الموت ولن تعجزه . ويروي عن [١] اسحق بن سعد بن أبى وقاص قال حدثنى أبى أن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد .ألا ندعو الله ؟ فخلوا فى ناحية ، فدعا عبد الله بن جحش فقال .يارب إنى أقسمت عليك إذا لقيت العدوّ غدا فلقنى رجلا شديدا بأسه ، شديدا حرده ، أقاتله فيك ويقاتلنى ، ثم يأخذنى فيجدع أنفى ، وأذنى ، ويبقر بطنى ، فإذا لقيتك غدا قلتَ ياعبد الله من جدع أنفك وأذنك ؟ فأقول فيك يارب وفى رسولك ، فتقول صدقتَ . قال سعد . فلقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنه لمعلقتان فى خيط . قال سعد بن المسيب أرجو أن يبر الله آخر قسمه كما أبرّ أوله

وقد كان الثوري وبشر الحافى يقولان . لايكره الموت إلا مريب، لأن الحبيب على كل حال لايكره لقاء حبيبه . وقال البويطى لبعض الزهاد . أتحب الموت ؟ فكأنه توقف فقال لو كنت صادقا لأحببته ، وتلا قوله تعالى (فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [٣]) فقال الرجل . فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم [٢] « لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ » فقال : إنما قاله لضر نزل به ، لأن الرضا بقضاء الله تعالى أفضل من طلب الفرار منه

---

(١) حديث اسحق بن سعد بن أبى وقاص قال حدثنى أبى أن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد ألا ندعو الله فخلوا فى ناحية فدعا عبد الله بن جحش فقال يارب انى أقسم عليك إذا لقيت العدو غدا فلقنى رجلا شديدا بأسه شديدا حرده أقاتله فيك ويقاتلنى ويجدع أنفى وأذنى ـ الحديث : الطبرانى ومن طريقه أبو نعيم فى الحلية واسناده جيد

(٢) حديث لايتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ـ الحديث : متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم

---

(١) الصف : ٤ (٢) التوبة : ١١١ (٣) البقرة : ٩٤

فإن قلت : فمن لايحب الموت فهل يتصوّر أن يكون محبا لله ؟

فأقول : كراهة الموت قد تكون لحب الدنيا ، والتأسف على فراق الأهل ، والمال ، والولد وهذا ينافى كمال حب الله تعالى ، لأن الحب الكامل هو الذى يستغرق كل القلب . ولكن لايبعد أن يكون له مع حب الأهل والولد شائبة من حب الله تعالى ضعيفة ، فإن الناس متفاوتون فى الحب ، ويدل على التفاوت ماروي أن [1] أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، لما زوّج أخته فاطمة من سالم مولاه ، عاتبته قريش فى ذلك وقالوا . أنكحت عقيلة من عقائل قريش لمولى ! فقال والله لقد أنكحته إياها وإنى لأعلم أنه خير منها فكان قوله ذلك أشد عليهم من فعله ، فقالوا وكيف وهي أختك وهو مولاك ؟ فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ يُحِبُّ اللهَ بِكُلِّ قَلْبِهِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى سَالِمٍ » فهذا يدل على أن من الناس من لايحب الله بكل قلبه ، فيحبه ويحب أيضا غيره فلا جرم يكون نعيمه بلقاء الله عند القدوم عليه على قدر حبه ، وعذابه بفراق الدنيا عند الموت على قدر حبه لها

وأما السبب الثانى للكراهة فهو أن يكون العبد فى ابتداء مقام المحبة ، وليس يكره الموت ، وإنما يكره عجلته قبل أن يستعد للقاء الله ، فذلك لايدل على ضعف الحب ، وهو كالمحب الذى وصله الخبر بقدوم حبيبه عليه ، فأحب أن يتأخر قدومه ساعة ليهيء له داره ، ويعدّ له أسبابه ، فيلقاه كما يهواه فارغ القلب عن الشواغل ، خفيف الظهر عن العوائق . فالكراهة بهذا السبب لاتنافى كمال الحب أصلا . وعلامته الدؤب فى العمل ، واستغراق الهم فى الاستعداد

ومنها أن يكون مؤثرا ما أحبه الله تعالى على مايحبه فى ظاهره وباطنه ، فيلزم مشاق العمل ويجتنب اتباع الهوى ، ويعرض عن دعة الكسل ، ولا يزال مواظبا على طاعة الله ، ومتقربا إليه بالنوافل ، وطالبا عنده مزايا الدرجات كما يطلب المحب مزيد القرب فى قلب محبوبه . وقد وصف الله المحبين بالإيثار فقال (يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً

---

(١) حديث أبى حذيفة بن عتبة انه لما زوج أخته فاطمة من سالم مولاه عاتبته قريش فى ذلك وفيه فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من أراد أن ينظر الى رجل يحب الله بكل قلبه فلينظر الى سالم : لم أره من حديث حذيفة وروى أبو نعيم فى الحلية المرفوع منه من حديث عمر أن سالما يحب الله حقا من قلبه وفى رواية له ان سالما شديد الحب لله عز وجل لو لم يخف الله عز وجل ماعصاه وفيه عبد الله بن لهيعة

مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ [١]) ومن بقي مستمرا على متابعة الهوى فمحبوبه مايهواه ؛ بل يترك المحب هوى نفسه لهوى محبوبه . كما قيل .

أريد وصاله ويريد هجرى فأترك ماأريد لما يريد

بل الحب إذا غلب قمع الهوى فلم يبق له تنعم بغير المحبوب، كما روي أن زليخالما آمنت وتزوج بها يوسف عليه السلام ، انفردت عنه وتخلت للعبادة ،وانقطعت إلى الله تعالى،فكان يدعوها إلى فراشه نهارا فتدافعه إلى الليل ، فإذا دعاها ليلا سوفت به إلى النهار ، وقالت يايوسف ، إنما كنت أحبك قبل أن أعرفه ، فأما إذا عرفته فما أبقت محبته محبة لسواه ، وما أريد به بدلا . حتى قال لها : إن الله جل ذكره أمرني بذلك ، وأخبرني أنه مخرج منك ولدين ، وجاعلهما نبيين ، فقالت أما إذا كان الله تعالى أمرك بذلك ، وجعلني طريقا إليه ، فطاعة لأمر الله تعالى . فعندها سكنت إليه

المحب لله لا يعصيه

فإذاً من أحب الله لا يعصيه ، ولذلك قال ابن المبارك فيه .

تعصى الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمرى فى الفعال بديع
لو كان حبك صادقا لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

وفى هذا المعنى قيل أيضا

وأترك ماأهوى لما قد هويته فأرضى بما ترضى وإن سخطت نفسى

وقال سهل رحمه الله تعالى . علامة الحب إيثاره على نفسك ، وليس كل من عمل بطاعة الله عز وجل صار حبيبا ، وإنما الحبيب من اجتنب المناهى . وهو كما قال ،لأن محبته الله تعالى سبب محبة الله له. كما قال تعالى (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ [٢]) وإذا أحبه الله تولاه ونصره على أعدائه وإنما عدوه نفسه وشهواته ، فلا يخذله الله ولا يكله إلى هواه وشهواته . ولذلك قال تعالى (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا [٣])

فإن قلت : فالعصيان هل يضاد أصل المحبة ؟

فأقول:إنه يضاد كمالها ولا يضاد أصلها . فكم من إنسان يحب نفسه ، وهو مريض ويحب الصحة ، ويأكل مايضره ، مع العلم بأنه يضره ، وذلك لايدل على عدم حبه لنفسه .

(١) الحشر : ٨ (٢) المائدة : ٥٤ (٣) النساء ٤٥

ولكن المعرفة قد تضعف ، والشهوة قد تغلب فيعجز عن القيام بحق المحبة ، ويدل عليه ماروي [1] أن نعيمان كان يؤتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل قليل فيحده فى معصية يرتكبها، إلى أن أتى به يوما فحده. فلعنه رجل وقال. ماأكثر مايؤتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم « لَا تَلْعَنْهُ فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ » فلم يخرجه بالمعصية عن المحبة . نعم تخرجه المعصية عن كمال الحب، وقد قال بعض العارفين. إذا كان الإيمان فى ظاهر القلب أحب الله تعالى حبا متوسطا ، فإذا دخل سويداء القلب أحبه الحب البالغ ، وترك المعاصى وبالجملة فى دعوى المحبة خطر ، ولذلك قال الفضيل . إذا قيل لك أتحب الله تعالى فاسكت ، فإنك إن قلت لا كفرت ، وإن قلت نعم فليس وصفك وصف المحبين ، فاحذر المقت . ولقد قال بعض العلماء . ليس فى الجنة نعيم أعلى من نعيم أهل المعرفة والمحبة ، ولا فى جهنم عذاب أشد من عذاب من ادعى المعرفة والمحبة ولم يتحقق بشيء من ذلك

ومنها أن يكون مستهترا بذكر الله تعالى، لا يفتر عنه لسانه ، ولا يخلو عنه قلبه ، فمن أحب شيئا أكثر بالضرورة من ذكره ، وذكر مايتعلق به ، فعلامة حب الله حب ذكره وحب القرءان الذى هو كلامه ، وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحب كل من ينسب إليه . فإن من يحب إنسانا يحب كلب محلته ، فالمحبة إذا قويت تعدت من المحبوب إلى كل مايكتنف بالمحبوب ويحيط به ويتعلق بأسبابه ، وذلك ليس شركة فى الحب ، فإن من أحب رسول المحبوب لأنه رسوله ، وكلامه لأنه كلامه ، فلم يجاوز حبه إلى غيره ، بل هو دليل على كمال حبه . ومن غلب حب الله على قلبه أحب جميع خلق الله ، لأنهم خلقه ، فكيف لا يحب القرءان ، والرسول ، وعباد الله الصالحين ! وقد ذكرنا تحقيق هذا فى كتاب الأخوة والصحبة ، ولذلك قال تعالى (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ [1]) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] « أَحِبُّوا اللهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعَمِهِ وَأَحِبُّونِي لِلهِ تَعَالَى » وقال سفيان : من أحب من يحب الله تعالى فإنما أحب الله . ومن أكرم من يكرم الله تعالى

---

(١) حديث أتى بنعيمان يوما فحده فلعنه رجل قال ماأكثر مايؤتى به فقال لا تلعنه فانه يحب الله ورسوله : البخاري وقد تقدم

(٢) حديث أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه ـ الحديث : تقدم

---

(١) آل عمران ٣١ :

فإنما يكرم الله تعالى . وحكي عن بعض المريدين قال : كنت قد وجدت حلاوة المناجاة فى سن الإرادة ، فأدمنت قراءة القرءان ليلا ونهارا ، ثم لحقتنى فترة فانقطعت عن التلاوة . قال فسمعت قائلا يقول فى المنام : إن كنت تزعم أنك تحبنى فلمَ جفوت كتابى ؟ أما تدبرت مافيه من لطيف عتابى ! قال فانتبهت وقد أشرب فى قلبى محبة القرءان ، فعاودت إلى حالى

وقال ابن مسعود : لاينبغى أن يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرءان . فإن كان يحب القرءان فهو يحب الله عز وجل ، وإن لم يكن يحب القرءان فليس يحب الله .

وقال سهل رحمة الله تعالى عليه : علامة حب الله حب القرءان ، وعلامة حب الله وحب القرءان حب النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلامة حب النبي صلى الله عليه وسلم حب السنة ، وعلامة حب السنة حب الآخرة ، وعلامة حب الآخرة بغض الدنيا ، وعلامة بغض الدنيا أن لا يأخذ منها إلا زادا وبلغة إلى الآخرة

ومنها أن يكون أنسه بالخلوة ومناجاته لله تعالى وتلاوة كتابه ، فيواظب على التهجد ، ويغتنم هدء الليل ، وصفاء الوقت بانقطاع العوائق . وأقل درجات الحب التلذذ بالخلوة بالحبيب ، والتنعم بمناجاته . فمن كان النوم والاشتغال بالحديث ألذ عنده وأطيب من مناجاة الله ، كيف تصح محبته ! قيل لإبراهيم بن أدهم وقد نزل من الجبل : من أين أقبلت ؟ فقال من الأنس بالله . وفى أخبار داود عليه السلام : لا تستأنس إلى أحد من خلقى ، فإنى إنما أقطع عنى رجلين . رجلا استبطأ ثوابى فانقطع ، ورجلا نسيني فرضي بحاله ، وعلامة ذلك أن أكله إلى نفسه ، وأن أدعه فى الدنيا حيران

ومهما أنس بغير الله كان بقدر أنسه بغير الله مستوحشا من الله تعالى ، ساقطا عن درجة محبته . وفى قصة برخ ، وهو العبد الأسود الذى استسقى به موسى عليه السلام ، أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام . إن برخا نعم العبد هولى ، إلا أن فيه عيبا . قال يارب وما عيبه ؟ قال يعجبه نسيم الأسحار فيسكن إليه ، ومن أحبنى لم يسكن إلى شيء

وروي أن عابدا عبد الله تعالى فى غيضة دهرا طويلا ، فنظر إلى طائر وقد عشش فى شجرة يأوى إليها ، ويصفر عندها ، فقال لو حولت مسجدى إلى تلك الشجرة ، فكنت آنس

بصوت هـذا الطائر . قال ففعل . فأوحى الله تعالى إلى نبي ذلك الزمان ، قل لفلان العابد ، استأنست بمخلوق لأحطنك درجة لاتنالها بشيء من عملك أبدا

علامة المحبة كمال الأنس بالمحبوب

فإذاً علامة المحبة كمال الأنس بمناجاة المحبوب ،وكمال التنعم بالخلوة به ، وكمال الاستيحاش من كل ماينغص عليه الخلوة ويعوق عن لذة المناجاة .وعلامة الأنس مصير العقل والفهم كله مستغرقا بلذة المناجاة ، كالذى يخاطب معشوقه ويناجيه . وقدانتهت هـذه اللذة ببعضهم حتى كان فى صلاته ووقع الحريق فى داره فلم يشعر به ،وقطعت رجل بعضهم بسبب علة أصابته وهو فى الصلاة فلم يشعر به .ومهما غلب عليه الحب والأنس صارت الخلوة والمناجاة قرة عينه يدفع بها جميع الهموم ، بل يستغرق الأنس والحب قلبه حتى لايفهم أمور الدنيا مالم تكرر على سمعه مرارا ،مثل العاشق الولهان ،فإنه يكلم الناس بلسانه ،وأنسه فى الباطن بذكر حبيبه

فالمحب من لايطمئن إلا بمحبوبه . وقال قتادة فى قوله تعالى (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ[1]) قال هشت إليه ، واستأنست به

وقال الصديق رضي الله تعالى عنه : من ذاق من خالص محبة الله شغله ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عن جميع البشر . وقال مطرف بن أبى بكر : المحب لايسأم من حديث حبيبه

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : قد كذب من ادعى محبتى إذا جنه الليل نام عنى أليس كل محب يحب لقاء حبيبه ؟ فها أنا ذا موجود لمن طلبنى . وقال موسى عليه السلام : يارب أين أنت فأقصدك ؟ فقال إذا قصدت فقد وصلت . وقال يحيي بن معاذ : من أحب الله أبغض نفسه . وقال أيضا : من لم تكن فيه ثلاث خصال فليس بمحب ، يؤثر كلام الله تعالى على كلام الخلق ، ولقاء الله تعالى على لقاء الخلق ، والعبادة على خدمة الخلق

ومنها أن لايتأسف على مايفوته مما سوى الله عز وجل ، ويعظم تأسفه على فوت كل ساعة خلت عن ذكر الله تعالى وطاعته ، فيكثر رجوعه عند الغفلات بالاستعطاف والاستعتاب ، والتوبة . قال بعض العارفين . إن لله عبادا أحبوه واطمأنوا إليه ، فذهب عنهم التأسف على الفائت ، فلم يتشاغلوا بحظ أنفسهم إذ كان ملك مليكهم تاما ، وماشاء كان ، فما كان لهم فهو واصل إليهم ، وما فاتهم فبحسن تدبيره لهم

---

(١) الرعد : ٢٨

وحق المحب إذا رجع من غفلته فى لحظته أن يقبل على محبوبه، ويشتغل بالعتاب، ويسأله ويقول. رب بأي ذنب قطعت برك عنى، وأبعدتنى عن حضرتك، وشغلتنى بنفسي ومتابعة الشيطان؟ فيستخرج ذلك منه صفاء ذكر ورقة قلب، يكفر عنه ماسبق من الغفلة، وتكون هفوته سببا لتجدد ذكره وصفاء قلبه

ومهما لم ير المحب إلا المحبوب، ولم ير شيئا إلا منه، لم يتأسف ولم يشْكُ، واستقبل الكل بالرضا، وعلم أن المحبوب لم يقدّر له إلا مافيه خيرته، ويذكر قوله ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ [1] ﴾

ومنها أن يتنعم بالطاعة ولا يستثقلها، ويسقط عنه تعبها، كما قال بعضهم: كابدت الليل عشرين سنة، ثم تنعمت به عشرين سنة. وقال الجنيد: علامة المحب دوام النشاط والدؤب بشهوة تفتر بدنه ولا تفتر قلبه. وقال بعضهم: العمل على المحبة لايدخله الفتور. وقال بعض العلماء. والله ماالشتفى محب لله من طاعته ولو حل بعظيم الوسائل

فكل هذا وأمثاله موجود فى المشاهدات، فإن العاشق لايستثقل السعي فى هوى معشوقه، ويستلذ خدمته بقلبه وإن كان شاقا على بدنه، ومهما عجز بدنه كان أحب الأشياء إليه أن تعاوده القدرة، وأن يفارقه العجز حتى يشتغل به. فهكذا يكون حب الله تعالى، فإن كل حب صار غالبا قهر لامحالة ماهو دونه. فمن كان محبوبه أحب إليه من الكسل ترك الكسل فى خدمته. وإن كان أحب إليه من المال ترك المال فى حبه. وقيل لبعض المحبين وقد كان بذل نفسه وماله حتى لم يبق له شيء. ما كان سبب حالك هذه فى المحبة؟ فقال سمعت يوما محبا وقد خلا بمحبوبه وهو يقول، أنا والله أحبك بقلبي كله، وأنت معرض عنى بوجهك كله. فقال له المحبوب: إن كنت تحبنى فإيش تنفق عليّ؟ قال ياسيدى أملكك ماأملك، ثم أنفق عليك روحى حتى تهلك. فقلت هذا خلق لخلق، وعبد لعبد، فكيف بعبد لمعبود! فكل هذا بسببه

ومنها أن يكون مشفقا على جميع عباد الله، رحيما بهم، شديدا على جميع أعداء الله، وعلى كل من يقارف شيئا مما يكرهه، كما قال الله تعالى ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ [2] ﴾

---

(1) البقرة: ٢١٦　(2) الفتح: ٢٩

ولا تأخذه لومة لائم ، ولا يصرفه عن الغضب لله صارف وبه وصف الله أولياءه إذ قال : الذين يكلفون بحبي كما يكلف الصبي بالشيء ، ويأوون إلى ذكرى كما يأوى النسر إلى وكره ويغضبون لمحارمي كما يغضب النمر إذا حرد ، فإنه لا يبالي قل الناس أو كثروا . فانظر إلى هذا المثال ، فإن الصبي إذا كلف بالشيء لم يفارقه أصلا ، وإن أخذ منه لم يكن له شغل إلا البكاء والصياح حتى يرد إليه ، فإن نام أخذه معه في ثيابه ، فإذا انتبه عاد وتمسك به ، ومهما فارقه بكى ، ومهما وجده ضحك ، ومن نازعه فيه أبغضه ، ومن أعطاه أحبه . وأما النمر فإنه لا يملك نفسه عند الغضب ، حتى يبلغ من شدة غضبه أنه يهلك نفسه

فهذه علامات المحبة ، فمن تمت فيه هذه العلامات فقد تمت محبته وخلص حبه ، فصفا فى الآخرة شرابه وعذب مشربه . ومن امتزج بحبه حب غير الله تنعم فى الآخرة بقدر حبه إذ يمزج شرابه بقدر من شراب المقربين ، كما قال تعالى فى الأبرار (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ [١]) ثم قال (يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ [٢]) فإنما طاب شراب الأبرار لشوب الشراب الصرف الذى هو للمقربين . والشراب عبارة عن جملة نعيم الجنان ، كما أن الكتاب عبر به عن جميع الأعمال فقال (إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ [٣]) ثم قال (يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ [٤]) فكان أمارة علو كتابهم أنه ارتفع إلى حيث يشهده المقربون . وكما أن الأبرار يجدون المزيد فى حالهم ومعرفتهم بقربهم من المقربين ، ومشاهدتهم لهم ، فكذلك يكون حالهم فى الآخرة (مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ [٥]) (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ [٦]) وكما قال تعالى (جَزَاءً وِفَاقًا [٧]) أى وافق الجزاء أعمالهم . فقوبل الخالص بالصرف من الشراب ، وقوبل المشوب بالمشوب ، وشوب كل شراب على قدر ما سبق من الشوب فى حبه وأعماله (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [٨]) و (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ [٩]) و (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا [١٠]) (وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا

---

(١) الانفطار : ١٣ (٢) المطففين : ٢٥ - ٢٨ (٣) المطففين : ١٨ (٤) المطففين : ٢١ (٥) لقمان : ٢٨
(٦) الأنبياء : ١٠٤ (٧) النبأ : ٢٦ (٨) الزلزلة : ٧ ، ٨ (٩) الرعد : ١١ (١٠) النساء : ٤٠

وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ [١]) فمن كان حبه فى الدنيا رجاءه لنعيم الجنة والحور العين والقصور ، مكن من الجنة ليتبوأ منها حيث يشاء ، فيلعب مع الولدان ، ويتمتع بالنسوان ، فهناك تنتهى لذته فى الآخرة ، لأنه إنما يعطى كل إنسان فى المحبة ماتشتهيه نفسه وتلذ عينه . ومن كان مقصده رب الدار ومالك الملك ، ولم يغلب عليه إلا حبه بالإخلاص والصدق ، أنزل فى مقعد صدق عند مليك مقتدر . فالأبرار يرتعون فى البساتين . ويتنعمون فى الجنان مع الحور العين والولدان ، والمقربون ملازمون للحضرة ، عاكفون بطرفهم عليها ، يستحقرون نعيم الجنان بالإضافة إلى ذرة منها . فقوم بقضاء شهوة البطن والفرج مشغولون ، وللمجالسة أقوام آخرون . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « أَكْثَرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْبُلْهُ وَعِلِّيُّونَ لِذَوِى الْأَلْبَابِ » . ولما قصرت الأفهام عن درك معنى عليين ، عظم أمره فقال (وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ [٢]) كما قال تعالى (الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ [٣])

ومنها أن يكون فى حبه خائفا متضائلا تحت الهيبة والتعظيم . وقد يظن أن الخوف يضاد الحب ، وليس كذلك . بل إدراك العظمة يوجب الهيبة ، كما أن إدراك الجمال يوجب الحب . ولخصوص المحبين مخاوف فى مقام المحبة ليست لغيرهم . وبعض مخاوفهم أشد من بعض : فأولها خوف الإعراض ، وأشد منه خوف الحجاب ، وأشد منه خوف الإبعاد وهذا المعنى فى سورة هود هو الذى [٢] شيب سيد المحبين ، إذ سمع قوله تعالى (أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ [٤]) (أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ [٥])

وإنما تعظم هيبة البعد وخوفه فى قلب من ألف القرب وذاقه وتنعم به ، فحديث البعد فى حق المبعدين يشيب سماعه أهل القرب فى القرب ، ولا يحن إلى القرب من ألف البعد ولا يبكى لخوف البعد من لم يمكن من بساط القرب

ثم خوف الوقوف وسلب المزيد ، فإنا قدمنا أن درجات القرب لانهاية لها ، وحق العبد أن يجتهد فى كل نفس حتى يزداد فيه قربا . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث أكثر أهل الجنة البله وعليون لذوى الألباب : البزار من حديث أنس بسند ضعيف مقتصرا على الشطر الأول وقد تقدم والشطر الثانى من كلام أحمد بن أبى الحوارى ولعله أدرج فيه

(٢) حديث شيبتنى هود أخرجه : الترمذى وقد تقدم غير مرة

---

(١) الأنبياء : ٤٧ (٢) المطففين ١٩ (٣) القارعة : ١ ، ٢ ، ٣ (٤ ، ٥) هود : ٦٨ ، ٩٥

[1] «مَنِ اسْتَوَى يَوْمَاهُ فَهُوَ مَغْبُونٌ وَمَنْ كَانَ يَوْمُهُ شَرًّا مِنْ أَمْسِهِ فَهُوَ مَلْعُونٌ» وكذلك قال عليه السلام [2] «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ حَتَّى أَسْتَغْفِرَ اللهَ سَبْعِينَ مَرَّةً» وإنما كان استغفاره من القدم الأول ، فإنه كان بعدا بالإضافة إلى القدم الثانى . ويكون ذلك عقوبة لهم على الفتور فى الطريق ، والالتفات إلى غير المحبوب ، كما روي أن الله تعالى يقول : إن أدنى ماأصنع بالعالم إذا آثر شهوات الدنيا على طاعتى ، أن أسلبه لذيذ مناجاتى . فسلب المزيد بسبب الشهوات عقوبة للعموم ، فأما الخصوص فيحجبهم عن المزيد مجرد الدعوى ، والعجب ، والركون إلى ماظهر من مبادىء اللطف ، وذلك هو المكر الخفي الذى لايقدر على الاحتراز منه إلا ذوو الأقدام الراسخة

ثم خوف فوت مالا يدرك بعد فوته ، سمع ابراهيم بن أدهم قائلا يقول وهو فى سياحته وكان على جبل :

كل شيء منك مغفو ر سوى الإعراض عنا
قد وهبنا لك ما فا ت فهب مافات منا

فاضطرب وغشي عليه ، فلم يفق يوما وليلة ، وطرأت عليه أحوال ثم قال: سمعت النداء من الجبل : ياإبراهيم كن عبدا ، فكنت عبدا واسترحت

ثم خوف السلو عنه ، فإن المحب يلازمه الشوق والطلب الحثيث ، فلا يفتر عن طلب المزيد ، ولا يتسلى إلا بلطف جديد . فإن تسلى عن ذلك كان ذلك سبب وقوفه أو سبب رجعته ، والسلو يدخل عليه من حيث لايشعر ، كما قد يدخل عليه الحب من حيث لايشعر ، فإن هذه التقلبات لها أسباب خفية سماوية ليس فى قوة البشر الاطلاع عليها . فإذا أراد الله المكر به واستدراجه أخفى عنه ماورد عليه من السلو ، فيقف مع الرجاء ، ويغتر بحسن الظن ، أو بغلبة الغفلة ، أو الهوى ، أو النسيان ، فكل ذلك من جنود الشيطان التى تغلب جنود الملائكة من العلم ، والعقل ، والذكر ، والبيان وكما أن من أوصاف الله تعالى مايظهر فيقتضى

(١) حديث من استوى يوماه فهو مغبون ومن كان يومه شرا من أمسه فهو ملعون : لاأعلم هذا الافى منام لعبد العزيز بن أبي رواد قال رأيت النبي صلى الله عليه وسلم فى النوم فقلت يارسول الله أوصني فقال ذلك بزيادة فى آخره رواه البيهقى فى الزهد

(٢) حديث انه ليغان على قلبي : متفق عليه من حديث الاغر وقد تقدم

هيجان الحب ، وهى أوصاف اللطف والرحمة ، والحكمة ، فمن أوصافه مايلوح فيورث السلو ، كأوصاف الجبرية، والعزة، والاستغناء، وذلك من مقدمات المكر، والشقاء، والحرمان ثم خوف الاستبدال به بانتقال القلب من حبه إلى حب غيره، وذلك هو المقت والسلو عنه مقدمة هذا المقام ، والإعراض والحجاب مقدمة السلو ، وضيق الصدر بالبر ، وانقباضه عن دوام الذكر ، وملاله لوظائف الأوراد أسباب هذه المعانى ومقدماتها ، وظهور هذه الأسباب دليل على النقل عن مقام الحب إلى مقام المقت نعوذ بالله منه . وملازمة الخوف لهذه الأمور ، وشدة الحذر منها بصفاء المراقبة دليل صدق الحب ، فإن من أحب شيئا خاف لا محالة فقده ، فلا يخلو المحب عن خوف إذا كان المحبوب مما يمكن فواته . وقد قال بعض العارفين : من عبد الله تعالى بمحض المحبة من غير خوف هلك بالبسط والإدلال ، ومن عبده من طريق الخوف من غير محبة انقطع عنه بالبعد والاستيحاش ، ومن عبده من طريق المحبة والخوف أحبه الله تعالى فقربه ، ومكنه ، وعلمه . فالمحب لا يخلو عن خوف ، والخائف لا يخلو عن محبة ، ولكن الذى غلبت عليه المحبة حتى اتسع فيها ، ولم يكن له من الخوف إلا يسير ، يقال هو فى مقام المحبة . ويعد من المحبين ، وكان شوب الخوف يسكن قليلا من سكر الحب فلو غلب الحب ، واستولت المعرفة ، لم تثبت لذلك طاقة البشر ، فإنما الخوف يعدله ويخفف وقعه على القلب . فقد روي فى بعض الأخبار أن بعض الصديقين سأله بعض الأبدال أن يسأل الله تعالى أن يرزقه ذرة من معرفته ، ففعل ذلك ، فهام فى الجبال وحار عقله ، ووله قلبه وبقي شاخصا سبعة أيام لا ينتفع بشىء ، ولا ينتفع به شيء . فسأل له الصديق ربه تعالى فقال يارب أنقصه من الذرة بعضها . فأوحى الله تعالى إليه . إنما أعطيناه جزأ من مائة ألف جزء من ذرة من المعرفة ، وذلك أن مائة ألف عبد سألونى شيئا من المحبة فى الوقت الذى سألنى هذا فأخرت إجابتهم إلى أن شفعت أنت لهذا ، فلما أجبتك فيما سألت أعطيتهم كما أعطيته فقسمت ذرة من المعرفة بين مائة ألف عبد ، فهذا ما أصابه من ذلك . فقال سبحانك يا أحكم الحاكمين ، أنقصه مما أعطيته . فأذهب الله عنه جملة الجزء، وبقي معه عشر معشاره، وهو جزء من عشرة آلاف جزء من مائة ألف جزء من ذرة ، فاعتدل خوفه وحبه ورجاؤه ، وسكن وصار كسائر العارفين ، وقد قيل فى وصف حال العارف .

قريب الوجد ذو مرمى بعيد عن الأحرار منهم والعبيد
غريب الوصف ذو علم غريب كأن فؤاده زبر الحديد
لقد عزت معانيه وجلت عن الأبصار إلا للشهيد
يرى الأعياد في الأوقات تجرى له فى كل يوم ألف عيد
وللأحباب أفراح بعيد ولا يجد السرور له بعيد

وقد كان الجنيد رحمه الله ينشد أبياتا يشير بها إلى أسرار أحوال العارفين ، وإن كان ذلك لا يجوز إظهاره ، وهي هذه الأبيات

سرت بأناس فى الغيوب قلوبهم فحلوا بقرب الماجد المتفضل
عراصا بقرب الله فى ظل قدسه تجول بها أرواحهم وتنقل
مواردهم فيها على العز والنهى ومصدرهم عنها لما هو أكمل
تروح بعز مفرد من صفاته وفى حلل التوحيد تمشى وترفل
ومن بعد هذا ماتدق صفاته وما كتمه أولى لديه وأعدل
سأكتم من علمى به مايصونه وأبذل منه ماأرى الحق يبذل
وأعطى عباد الله منه حقوقهم وأمنع منه ماأرى المنع يفضل
على أن للرحمن سرا يصونه إلى أهله فى السر والصون أجمل

وأمثال هذه المعارف التى إليها الإشارة لا يجوز أن يشترك الناس فيها ، ولا يجوز أن يظهرها من انكشف له شيء من ذلك لمن لم ينكشف له . بل لو اشترك الناس فيها لخربت الدنيا . فالحكمة تقتضى شمول الغفلة لعمارة الدنيا . بل لو أكل الناس كلهم الحلال أربعين يوما لخربت الدنيا لزهدهم فيها ، وبطلت الأسواق والمعايش . بل لو أكل العلماء الحلال لاشتغلوا بأنفسهم، ولوقفت الألسنة والأقدام عن كثير مما نتشر من العلوم ولكن لله تعالى فيما هو شر فى الظاهر أسرار وحكم ، كما أن له فى الخير أسرارا وحكما . ولا منتهى لحكمته ؛ كما لا غاية لقدرته

ومنها . كتمان الحب ، واجتناب الدعوى ، والتوقى من إظهار الوجد والمحبة تعظيما للمحبوب وإجلالا له ، وهيبة منه ، وغيرة على سره ، فإن الحب سر من أسرار الحبيب ، ولأنه قد يدخل فى الدعوى مايتجاوز حد المعنى ويزيد عليه . فيكون ذلك من الافتراء

وتعظم العقوبة عليه فى العقبى ، وتتعجل عليه البلوى فى الدنيا . نعم قد يكون المحب سكرة فى حبه حتى يدهش فيه ، وتضطرب أحواله . فيظهر عليه حبه ، فإن وقع ذلك عن غير تمحل أو اكتساب فهو معذور لأنه مقهور ، وربما تشتعل من الحب نيرانه ، فلا يطاق سلطانه ، وقد يفيض القلب به فلا يندفع فيضانه . فالقادر على الكتمان يقول

وقالوا قريب قلت ما أنا صانع　　بقرب شعاع الشمس لو كان فى حجرى

فمالى منه غير ذكر بخاطر　　يهيج نار الحب والشوق فى صدرى

والعاجز عنه يقول :

يخفى فيبدى الدمع أسراره　　ويظهر الوجد عليه النفس

ويقول أيضا :

ومن قلبه مع غيره كيف حاله　　ومن سره فى جفنه كيف يكتم

وقد قال بعض العارفين : أكثر الناس من الله بعدا أكثرهم إشارة به . كأنه أراد من يكثر التعريض به فى كل شىء ، ويظهر التصنع بذكره عند كل أحد ، فهو ممقوت عند المحبين والعلماء بالله عز وجل . ودخل ذو النون المصرى على بعض إخوانه ممن كان يذكر المحبة ، فرآه مبتلى ببلاء ، فقال لا يحبه من وجد ألم ضره . فقال الرجل . لكنى أقول لا يحبه من لم يتنعم بضره . فقال ذو النون : ولكنى أقول لا يحبه من شهر نفسه بحبه . فقال الرجل . أستغفر الله وأتوب إليه ، . فإن قلت . المحبة منتهى المقامات ، وإظهارها إظهار للخير ، فلماذا يستنكر ؟ فاعلم أن المحبة محمودة ، وظهورها محمود أيضا . وإنما المذموم التظاهر بها ، لما يدخل فيها من الدعوى والاستكبار . وحق المحب أن ينم على حبه الخفي أفعاله وأحواله ، دون أقواله وأفعاله . وينبغى أن يَظْهَرَ حبه من غير قصد منه إلى إظهار الحب ، ولا إلى إظهار الفعل الدال على الحب . بل ينبغى أن يكون قصد المحب اطلاع الحبيب فقط . فأما إرادته اطلاع غيره فشرك فى الحب ، وقادح فيه ، كما ورد فى الإنجيل . إذا تصدقت فتصدق بحيث لا تعلم شمالك ما صنعت يمينك . فالذى يرى الخفيات يجزيك علانية . وإذا صمت فاغسل وجهك وادهن رأسك ، لئلا يعلم بذلك غير ربك . فإظهار القول والفعل كله مذموم ، إلا إذا غلب

سكر الحب فانطلق اللسان ، واضطربت الأعضاء ، فلا يلام فيه صاحبه . حكي أن رجلا رأى من بعض المجانين ، مااستجهله فيه ، فأخبر بذلك معروفا الكرخي رحمه الله ، فتبسم ثم قال . ياأخي ، له محبون صغار وكبار ، وعقلاء ومجانين ، فهذا الذي رأيته من مجانينهم

ومما يكره التظاهر بالحب بسبب أن المحب إن كان عارفا ، وعرف أحوال الملائكة في حبهم الدائم ، وشوقهم اللازم ، الذي به يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، ولا يعصون الله ماأمرهم ، ويفعلون مايؤمرون ، لاستنكف من نفسه ومن إظهار حبه ، وعلم قطعا أنه من أخس المحبين في مملكته ، وأن حبه أنقص من حب كل محب لله . قال بعض المكاشفين من المحبين . عبدت الله تعالى ثلاثين سنة بأعمال القلوب والجوارح ، على بذل المجهود واستفراغ الطاقة ، حتى ظننت أن لي عند الله شيئا ، فذكر أشياء من مكاشفات آيات السموات في قصة طويلة قال في آخرها ، فبلغت صفا من الملائكة بعدد جميع ماخلق الله من شيء ، فقلت من أنتم ؟ فقالوا نحن المحبون لله عز وجل ، نعبده ههنا منذ ثلثمائة ألف سنة ، ماخطر على قلوبنا قط سواه ، ولا ذكرنا غيره . قال فاستحييت من أعمالي ، فوهبتها لمن حق عليه الوعيد تخفيفا عنه في جهنم

فإذاً من عرف نفسه ، وعرف ربه ، واستحيا منه حق الحياء ، خرس لسانه عن التظاهر بالدعوى . نعم يشهد على حبه حركاته ، وسكناته ، وإقدامه ، وإحجامه ، وترددانه ، كما حكي عن الجنيد أنه قال . مرض أستاذنا السري رحمه الله ، فلم نعرف لعلته دواء ، ولا عرفنا لها سببا . فوُصِفَ لنا طبيب حاذق ، فأخذنا قارورة مائه ، فنظر إليها الطبيب ، وجعل ينظر إليه مليا ، ثم قال لي . أراه بول عاشق . قال الجنيد . فصعقت وغشي علي ، ووقعت القارورة من يدي . ثم رجعت إلى السري فأخبرته ، فتبسم ثم قال . قاتله الله ماأبصره ! قلت ياأستاذ ، وتبين المحبة في البول ؟ قال نعم . وقد قال السري مرة : لو شئت أقول ماأيبس جلدي على عظمي ، ولا سل جسمي إلا حبه . ثم غشي عليه . وتدل الغشية على أنه أفصح في غلبة الوجد ومقدمات الغشية . فهذه مجامع علامات الحب وثمراته

ومنها الأنس والرضا كما سيأتي . وبالجملة جميع محاسن الدين ومكارم الأخلاق ثمرة الحب ، ومالا يثمره الحب فهو اتباع الهوى ، وهو من رذائل الأخلاق . نعم قد يحب الله

لإحسانه إليه ، وقد يحبه لجلاله وجماله وإن لم يحسن إليه . والمحبون لا يخرجون عن هذين القسمين . ولذلك قال الجنيد : الناس فى محبة الله تعالى عام وخاص . فالعوام نالوا ذلك بمعرفتهم فى دوام إحسانه وكثرة نعمه ، فلم يتمالكوا أن أرضوه ، إلا أنهم تقل محبتهم وتكثر على قدر النعم والإحسان . فأما الخاصة فنالوا المحبة بعظم القدر ، والقدرة ، والعلم ، والحكمة ، والتفرد بالملك . ولما عرفوا صفاته الكاملة ، وأسماءه الحسنى ، لم يمتنعوا أن أحبوه ، إذ استحق عندهم المحبة بذلك ، لأنه أهل لها ، ولو أزال عنهم جميع النعم . نعم من الناس من يحب هواه وعدو الله إبليس ، وهو مع ذلك يلبس على نفسه بحكم الغرور والجهل ، فيظن أنه محب لله عز وجل ، وهو الذى فقدت فيه هذه العلامات ، أو يلبس بها نفاقا ، ورياء ، وسمعة ، وغرضه عاجل حظ الدنيا ، وهو يظهر من نفسه خلاف ذلك ، كعلماء السوء ، وقراء السوء ، أولئك بغضاء الله فى أرضه . وكان سهل إذا تكلم مع إنسان قال : يادوست ، أى ياحبيب ، فقيل له : قد لا يكون حبيبا ، فكيف تقول هذا ؟ فقال فى أذن القائل سرا . لا يخلو إما أن يكون مؤمنا أو منافقا . فإن كان مؤمنا فهو حبيب الله عز وجل ، وإن كان منافقا فهو حبيب إبليس

وقد قال أبو تراب النخشبي فى علامات المحبة أبياتا :

علامة المحبة نظما

لا تخدعن فللحبيب دلائل	ولديه من تحف الحبيب وسائل
منها تنعمه بمر بلائه	وسروره فى كل ما هو فاعل
فالمنع منه عطيـــة مقبولة	والفقر إكرام وبر عاجل
ومن الدلائل أن ترى من عزمه	طوع الحبيب وإن ألح العاذل
ومن الدلائل أن يرى متبسما	والقلب فيه من الحبيب بلابل
ومن الدلائل أن يرى متفهما	لكلام من يحظى لديه السائل
ومن الدلائل أن يرى متقشفا	متحفظا من كل ما هو قائل

وقال يحي بن معاذ

ومن الدلائل أن تراه مشمرا	فى خرقتين على شطوط الساحل
ومن الدلائل حزنه ونحيبه	جوف الظلام فما له من عاذل
ومن الدلائل أن تراه مسافراً	نحو الجهاد وكل فعل فاضل

ومن الدلائل زهده فيما يرى من دار ذل والنعيم الزائل
ومن الدلائل أن تراه باكيا أن قد رآه على قبيح فعائل
ومن الدلائل أن تراه مسلما كل الأمور إلى المليك العادل
ومن الدلائل أن تراه راضيا بمليكه فى كل حكم نازل
ومن الدلائل ضحكه بين الورى والقلب محزون كقلب الثاكل

بيان
معنى الأنس بالله تعالى

قد ذكرنا أن الأنس ، والخوف ، والشوق ، من آثار المحبة . إلا أن هذه آثار مختلفة تختلف على المحب بحسب نظره وما يغلب عليه فى وقته . فإذا غلب عليه التطلع من وراء حجب الغيب إلى منتهى الجمال ، واستشعر قصوره عن الاطلاع على كنه الجلال ، انبعث القلب إلى الطلب ، وانزعج له ، وهاج إليه وتسمى هذه الحالة فى الانزعاج شوقا وهو بالإضافة إلى أمر غائب

وإذا غلب عليه الفرح بالقرب ، ومشاهدة الحضور بما هو حاصل من الكشف ، وكان نظره مقصورا على مطالعة الجمال الحاضر المكشوف ، غير ملتفت إلى ما لم يدركه بعد ، استبشر القلب بما يلاحظه ، فيسمى استبشاره أنسا

وإن كان نظره إلى صفات العز ، والاستغناء وعدم المبالاة وخطر إمكان الزوال والبعد ، تألم القلب بهذا الاستشعار ، فيسمى تألمه خوفا

معنى الأنس

وهذه الأحوال تابعة : لهذه الملاحظات . والملاحظات تابعة لأسباب تقتضيها لا يمكن حصرها . فالأنس معناه استبشار القلب وفرحه بمطالعة الجمال ، حتى أنه إذا غلب ، وتجرد عن ملاحظة ما غاب عنه ، وما يتطرق إليه من خطر الزوال ، عظم نعيمه ولذته . ومن هنا نظر بعضهم حيث قيل له : أنت مشتاق ؟ فقال : لا . إنما الشوق إلى غائب . فإذا كان الغائب حاضرا فإلى من يشتاق ؟ وهذا كلام مستغرق بالفرح بما ناله ، غير ملتفت إلى ما بقي فى الإمكان من مزايا الألطاف

ومن غلب عليه حال الأنس لم تكن شهوته إلا فى الانفراد والخلوة ، كما حكي أن ابراهيم

ابن أدهم نزل من الجبل ، فقيل له : من أين أقبلت ؟ فقال من الأنس بالله . وذلك لأن الأنس بالله يلازمه التوحش من غير الله . بل كل مايعوق عن الخلوة فيكون من أثقل الأشياء على القلب ، كما روي أن موسى عليه السلام لما كلمه ربه ، مكث دهرا لا يسمع كلام أحد من الناس إلا أخذه الغشيان، لأن الحب يوجب عذوبة كلام المحبوب وعذوبة ذكره ، فيخرج من القلب عذوبة ماسواه . ولذلك قال بعض الحكماء في دعائه : يامن آنسني بذكره ، وأوحشني من خلقه. وقال الله عز وجل لداود عليه السلام : كن لي مشتاقا ، وبي مستأنسا ومن سواي مستوحشا . وقيل لرابعة . بم نلت هذه المنزلة؟ قالت بتركي مالا يعنيني ، وأنسي بمن لم يزل

وقال عبد الواحد بن زيد : مررت براهب فقلت له . ياراهب . لقد أعجبتك الوحدة ؟ فقال ياهذا ، لو ذقت حلاوة الوحدة لاستوحشت إليها من نفسك . الوحدة رأس العبادة فقلت ياراهب : ماأقل ماتجده في الوحدة ؟ قال الراحة من مداراة الناس ، والسلامة من شرهم . قلت ياراهب : متى يذوق العبد حلاوة الأنس بالله تعالى؟ قال إذا صفا الود وخلصت المعاملة . قلت ومتى يصفو الود ؟ قال إذا اجتمع الهم فصار هما واحدا في الطاعة

وقال بعض الحكماء : عجبا للخلائق كيف أرادوا بك بدلا ! عجبا للقلوب كيف استأنست بسواك عنك !

علامة الأنس

فإن قلت فما علامة الأنس ؟ فاعلم أن علامته الخاصة ضيق الصدر من معاشرة الخلق ، والتبرم بهم ، واستهتاره بعذوبة الذكر . فإن خالط فهو كمنفرد في جماعة ، ومجتمع في خلوة وغريب في حضر ، وحاضر في سفر ، وشاهد في غيبة ، وغائب في حضور ، مخالط بالبدن منفرد بالقلب ، مستغرق بعذوبة الذكر، كما قال علي كرم الله وجهه في وصفهم : هم قوم هجم بهم العلم على حقيقة الأمر ، فباشروا روح اليقين ، واستلانوا مااستوعر المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون ، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى ، أولئك خلفاء الله في أرضه ، والدعاة إلى دينه . فهذا معنى الأنس بالله ، وهذه علامته ، وهذه شواهده

وقد ذهب بعض المتكلمين إلى إنكار الأنس والشوق والحب ، لظنه أن ذلك يدل على التشبيه ، وجهله بأن جمال المدركات بالبصائر أكمل من جمال المبصرات، ولذة معرفتها أغلب على ذوي القلوب ، ومنهم أحمد بن غالب يعرف بغلام الخليل ؛ أنكر على الجنيد ، وعلى

أبي الحسن النوري والجماعة حديث الحب والشوق والعشق، حتى أنكر بعضهم مقام الرضا وقال ليس إلا الصبر، فأما الرضا فغير متصور. وهذا كله كلام ناقص قاصر، لم يطلع من مقامات الدين إلا على القشور، فظن أنه لا وجود إلا للقشر، فإن المحسوسات وكل مايدخل في الخيال من طريق الدين قشر مجرد، ووراءه اللب المطلوب. فمن لم يصل من الجوز إلا إلى قشره يظن أن الجوز خشب كله، ويستحيل عنده خروج الدهن منه لا محالة، وهو معذور ولكن عذره غير مقبول. وقد قيل.

الأنس بالله لا يحويه بطال   وليس يدركه بالحول محتال
والآنسون رجال كلهم نجب   وكلهم صفوة لله عمال

بيان

معنى الانبساط والإدلال الذي تثمره غلبة الأنس

اعلم أن الأنس إذا دام وغلب واستحكم، ولم يشوشه قلق الشوق، ولم ينغصه خوف التغير والحجاب، فإنه يثمر نوعا من الانبساط في الأقوال والأفعال والمناجاة مع الله تعالى، وقد يكون منكر الصورة لما فيه من الجراءة وقلة الهيبة. ولكنه محتمل ممن أقيم في مقام الأنس ومن لم يقم في ذلك المقام، ويتشبه بهم في الفعل والكلام، هلك به وأشرف على الكفر

ومثاله مناجاة برخ الأسود الذي أمر الله تعالى كليمه موسى عليه السلام أن يسأله ليستسقى لبني إسرائيل، بعد أن قحطوا سبع سنين، وخرج موسى عليه السلام ليستسقى لهم في سبعين ألفا، فأوحى الله عز وجل إليه: كيف أستجيب لهم وقد أظلمت عليهم ذنوبهم، سرائرهم خبيثة، يدعونني على غير يقين، ويأمنون مكري. ارجع إلى عبد من عبادي يقال له برخ، فقل له يخرج حتى أستجيب له. فسأل عنه موسى عليه السلام، فلم يعرف. فبينما موسى ذات يوم يمشي في طريق، إذا بعبد أسود قد استقبله، بين عينيه تراب من أثر السجود، في شملة قد عقدها على عنقه، فعرفه موسى عليه السلام بنور الله عز وجل، فسلم عليه وقال له ما اسمك؟ فقال اسمي برخ. قال فأنت طلبتنا منذ حين، اخرج فاستسق لنا. فخرج فقال في كلامه. ما هذا من فعالك، ولا هذا من حلمك، وما الذي بدالك؟ أنقصت عليك عيونك! أم عاندت الرياح عن طاعتك! أم نفد ما عندك! أم اشتد غضبك على المذنبين

ألست كنت غفارا ! قبل خلق الخطائين خلقت الرحمة ، وأمرت بالعطف ، أم تريننا أنك ممتنع ؟ أم تخشى الفوت فتعجل بالعقوبة ، قال فما برح حتى اخضلت بنو إسرائيل بالقطر ، وأنبت الله تعالى العشب فى نصف يوم حتى بلغ الركب : قال فرجع برخ ، فاستقبله موسى عليه السلام فقال : كيف رأيت حين خاصمت ربى كيف أنصفنى . فهم موسى عليه السلام به . فأوحى الله تعالى إليه أن برخا يضحكنى كل يوم ثلاث مرات

وعن الحسن قال : احترقت أخصاص بالبصرة ، فبقي فى وسطها خص لم يحترق ، وأبو موسى يومئذ أمير البصرة ، فأخبر بذلك ، فبعث إلى صاحب الخص . قال فأتى بشيخ فقال ياشيخ ، مابال خصك لم يحترق ؟ قال إنى أقسمت على ربى عز وجل أن لايحرقه . فقال أبو موسى رضي الله عنه : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول [1] « يَكُونُ فِي أُمَّتِي قَوْمٌ شَعِثَةٌ رُؤُوسُهُمْ دَنِسَةٌ ثِيَابُهُمْ لَوْ أَقْسَمُوا عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُمْ » قال ووقع حريق بالبصرة فجاء أبو عبيدة الخواص ، فجعل يتخطى النار : فقال له أمير البصرة : انظر لاتحترق بالنار فقال إنى أقسمت على ربى عز وجل أن لايحرقنى بالنار . قال فاعزم على النار أن تطفأ . قال فعزم عليها فطفئت . وكان أبو حفص يمشى ذات يوم ، فاستقبله رستاقي مدهوش فقال له أبو حفص : ما أصابك ؟ فقال ضل حمارى ولا أملك غيره . قال فوقف أبو حفص وقال: وعزتك لا أخطو خطوة مالم ترد عليه حماره . قال فظهر حماره فى الوقت ، ومر أبو حفص رحمه الله

فهذا وأمثاله يجرى لذوى الأنس ، وليس لغيرهم أن يتشبه بهم . قال الجنيد رحمه الله : أهل الأنس يقولون فى كلامهم ، ومناجاتهم فى خلواتهم ، أشياء هي كفر عند العامة . وقال مرة . لو سمعها العموم لكفروهم ، وهم يجدون المزيد فى أحوالهم بذلك وذلك يحتمل منهم ، ويليق بهم . وإليه أشار القائل :

قوم تخالجهم زهو بسيدهم ... والعبد يزهو على مقدار مولاه

تاهوا برؤيته عما سواه له ... ياحسن رؤيتهم فى عز ما تاهوا

ولا تستبعدن رضاه عن العبد بما يغضب به على غيره مهما اختلف مقامهما . ففى القرآن

---

(١) حديث الحسن عن أبى موسى يكون فى أمتى قوم شعثة رؤسهم دنسة ثيابهم لو أقسموا على الله لأبرهم ابن أبى الدنيا فى كتاب الاولياء وفيه انقطاع وجهالة

تنبيهات على هذه المعانى لو فطنت وفهمت ، فجميع قصص القرءان تنبيهات لأولى البصائر والأبصار ، حتى ينظروا إليها بعين الاعتبار ، فإنما هي عند ذوى الاعتبار من الأسماء

العظات البالغة فى قصص القرءان

فأول القصص قصة آدم عليه السلام وإبليس ؛ أما تراهما كيف اشتركا فى اسم المعصية والمخالفة ، ثم تباينا فى الاجتباء والعصمة . أما إبليس فأبلس عن رحمته ، وقيل إنه من المبعدين وأما آدم عليه السلام فقيل فيـــه (وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى [١]) وقد عاتب الله نبيه صلى الله عليه وسلم فى الإعراض عن عبد والإقبال على عبد وهما فى العبودية سيان ، ولكن فى الحال مختلفان ، فقال (وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى [٢]) وقال فى الآخر (أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى [٣]) وكذلك أمره بالقعود مع طائفة ، فقال عز وجل (وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ [٤]) وأمره بالإعراض عن غـيرهم فقال (وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ [٥]) حتى قال (فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ [٦]) وقال تعالى (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ [٧])

فكذا الانبساط والإدلال ، يحتمل من بعض العباد دون بعض . فمن انبساط الأنس قول موسى عليه السلام (إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ [٨]) وقوله فى التعلل والاعتذار ، لما قيل له اذهب إلى فرعون فقال (وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ [٩]) وقوله (إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي [١٠]) وقوله (إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى [١١]) وهذا من غير موسى عليه السـلام من سوء الأدب ، لأن الذى أقيم مقام الأنس يلاطف ويحتمل ، ولم يحتمل ليونس عليه السلام مادون هذا لما أقيم مقام القبض والهيبة ، فعوقب بالسجن فى بطن الحـوت فى ظلمات ثلاث ، ونودي عليه إلى يوم القيـامة (لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ [١٢]) قال الحسن : العراء هو القيامة . ونهي نبينا صلى الله عليه وسلم أن يقتدى به ، وقيل له (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ [١٣])

---

(١) طه : ١٢١ ، ١٢٢ (٢) عبس : ٨ (٣) عبس : ٥ (٤ ، ٥ ، ٦) الأنعام : ٥٤ ، ٦٨ (٧) الكهف : ٢٨
(٨) الاعراف : ١٥٥ (٩) الشعراء : ١٤ (١٠) الشعراء ١٢ ، ١٣ (١١) طه : ٤٥ (١٢، ١٣) القلم : ٤٩ ، ٤٨

وهذه الاختلافات بعضها لاختلاف الأحوال والمقامات ، وبعضها لما سبق فى الأزل من التفاضل والتفاوت فى القسمة بين العباد . وقد قال تعالى (وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ [١]) وقال (مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ [٢]) فكان عيسى عليه السلام من المفضلين ، ولإدلاله سلم على نفسه فقال (وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا [٣]) وهذا انبساط منه لما شاهد من اللطف فى مقام الأنس. وأما يحي بن زكريا عليه السلام ، فإنه أقيم مقام الهيبة والحياء ، فلم ينطق حتى أثنى عليه خالقه فقال (وَسَلَامٌ عَلَيْهِ [٤]) . وانظر كيف احتمل لإخوة يوسف مافعلوه بيوسف. وقد قال بعض العلماء : قدعددت من أوّل قوله تعالى (إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا [٥]) إلى رأس العشرين من إخباره تعالى عن زهدهم فيه نيفاوأربعين خطيئة، بعضها أكبر من بعض . وقد يجتمع فى الكلمة الواحدة الثلاث والأربع ؛ فغفرلهم وعفا عنهم ، ولم يحتمل العزيز فى مسألة واحدة سأل عنها فى القدر ، حتى قيل محي من ديوان النبوّة

وكذلك كان بلعام بن باعوراء من أكابر العلماء ، فأكل الدنيا بالدين ، فلم يحتمل له ذلك. وكان آصف من المسرفين ، وكانت معصيته فى الجوارح ، فعفا عنه . فقد روي أن الله تعالى أوحى إلى سليمان عليه السلام . يارأس العابدين ، ويا ابن محجة الزاهدين ، إلى كم يعصيني ابن خالتك آصف، وأنا أحلم عليه مرة بعد مرة؟ فوعزتى وجلالى، لئن أخذته عصفة من عصفاتى عليه ، لأتركنه مُثلة لمن معه ، ونكالا لمن بعده . فلما دخل آصف على سليمان عليه السلام ، أخبره بما أوحى الله تعالى إليه ، فخرج حتى علا كثيبا من رمل، ثم رفع رأسه ويديه نحو السماء وقال إلهى وسيدى. أنت أنت ، وأنا أنا ، فكيف أتوب إن لم تتب علي ، وكيف أستعصم إن لم تعصمنى لأعودن . فأوحى الله تعالى إليه . صدقت يا آصف ، أنت أنت ، وأنا أنا ، أستقبل التوبة ، وقد تبت عليك ، وأنا التواب الرحيم . وهذا كلام مدل به عليه ، وهارب منه إليه ، وناظر به إليه

وفى الخبر أن الله تعالى أوحى إلى عبد تداركه بعد أن كان أشفى على الهلكة . كم من ذنب واجهتنى به غفرته لك ، قد أهلكت فى دونه أمة من الأمم

---

(١) الاسراء : ٥٥ (٢) البقرة : ٢٥٣ (٣ ، ٤) مريم : ٣٣ ، ١٥ (٥) يوسف : ٨

فهذه سنة الله تعالى فى عباده بالتفضيل، والتقديم، والتأخير، على ماسبقت به المشيئة الأزلية. وهذه القصص وردت فى القرءان لتعرف بها سنة الله فى عباده الذين خلوا من قبل، فما فى القرءان شيء إلا وهو هدي ونور، وتعرف من الله تعالى إلى خلقه، فتارة يتعرف إليهم بالتقديس فيقول (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ اللهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ [1]) وتارة يتعرف إليهم بصفات جلاله فيقول (الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ [2]) وتارة يتعرف إليهم فى أفعاله المخوفة والمرجوة، فيتلو عليهم سنته فى أعدائه وفى أنبيائه فيقول (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ [3]) (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ [4])

ولا يعدو القرءان هذه الأقسام الثلاثة، وهى الإرشاد إلى معرفة ذات الله وتقديسه، أو معرفة صفاته وأسمائه، أو معرفة أفعاله وسنته مع عباده. ولما اشتملت سورة الإخلاص على أحد هذه الأقسام الثلاثة وهو التقديس، وازنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلث القرءان فقال [1] « مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْإِخْلَاصِ فَقَدْ قَرَأَ ثُلُثَ الْقُرْءَانِ » لأن منتهى التقديس أن يكون واحدا فى ثلاثة أمور، لا يكون حاصلا منه من هو نظيره وشبهه، ودل عليه قوله (لَمْ يَلِدْ [5]) ولا يكون حاصلا ممن هو نظيره وشبهه، ودل عليه قوله (وَلَمْ يُولَدْ [6]) ولا يكون فى درجته وإن لم يكن أصلا له ولا فرعا من هو مثله، ودل عليه قوله (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ [7])، ويجمع جميع ذلك قوله تعالى (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ [8]) وجملته تفصيل قول لا إله إلا الله

فهذه أسرار القرءان، ولا تتناهى أمثال هذه الأسرار فى القرءان، ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين. ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه: نوروا القرءان والتمسوا غرائبه ففيه علم الأولين والآخرين، وهو كما قال. ولا يعرفه إلا من طال فى آحاد كلماته فكره وصفا له فهمه، حتى تشهد له كل كلمة منه بأنه كلام جبار قاهر، مليك قادر، وأنه خارج عن حد استطاعة البشر. وأكثر أسرار القرءان معبأة فى طي القصص والأخبار، فكن

(١) حديث من قرأ سورة الاخلاص فقد قرأ ثلث القرءان: أحمد من حديث أبي بن كعب باسناد صحيح ورواه البخارى من حديث أبي سعيد ومسلم من حديث أبي الدرداء نحوه

(١) الصمد (٢) الحشر: ٢٣ (٣) الفجر ٦، ٧ (٤) الفيل: ١ (٥، ٦، ٧، ٨) الصمد

حريصا على استنباطها، لينكشف لك فيه من العجائب ما تستحقر معه العلوم المزخرفة الخارجة عنه

فهذا ما أردنا ذكره من معنى الأنس والانبساط الذي هو ثمرته، وبيان تفاوت عباد الله فيه، والله سبحانه وتعالى أعلم

القول

في معنى الرضا بقضاء الله تعالى وحقيقته وما ورد في فضيلته

اعلم أن الرضا ثمرة من ثمار المحبة، وهو من أعلى مقامات المقربين. وحقيقته غامضة على الأكثرين، وما يدخل عليه من التشابه والإيهام غير منكشف إلا لمن علمه الله تعالى التأويل، وفهمه وفقهه في الدين. فقد أنكر منكرون تصور الرضا بما يخالف الهوى، ثم قالوا. إن أمكن الرضا بكل شيء لأنه فعل الله، فينبغي أن يرضى بالكفر والمعاصي. وانخدع بذلك قوم، فرأوا الرضا بالفجور والفسوق، وترك الاعتراض والإنكار، من باب التسليم لقضاء الله تعالى. ولو انكشفت هذه الأسرار لمن اقتصر على سماع ظواهر الشرع، لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] لابن عباس حيث قال « اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ »

فلنبدأ ببيان فضيلة الرضا، ثم بحكايات أحوال الراضين، ثم نذكر حقيقة الرضا، وكيفية تصوره فيما يخالف الهوى، ثم نذكر ما يظن أنه من تمام الرضا وليس منه، كترك الدعاء والسكوت على المعاصي

بيان

فضيلة الرضا

أما من الآيات فقوله تعالى ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ [1] ﴾ وقد قال تعالى ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ [2] ﴾ ومنتهى الإحسان رضا الله عن عبده، وهو ثواب رضا العبد عن الله تعالى. وقال تعالى ﴿ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ [3] ﴾ فقد رفع الله الرضا فوق جنات عدن، كما رفع ذكره فوق الصلاة حيث قال ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ [4] ﴾ فكما أن مشاهدة المذكور

---

(١) حديث دعائه لابن عباس اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل: متفق عليه دون قوله وعلمه التأويل ورواه أحمد بهذه الزيادة وتقدم في العلم

---

(١) البينة : ٨ (٢) الرحمن : ٦٠ (٣) التوبة : ٧٢ (٤) العنكبوت : ٤٥

فى الصلاة أكبر من الصلاة ، فرضوان رب الجنة أعلى من الجنة . بل هو غاية مطالب سكان الجنان وفى الحديث [(١)] « إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَتَجَلَّى لِلْمُؤْمِنِينَ فَيَقُولُ سَلُونِى فَيَقُولُونَ رِضَاكَ » فسؤالهم الرضا بعد النظر نهاية التفضيل

وأما رضا العبد فسنذكر حقيقته

رضوان الله غاية ما يتمناه المرء

وأما رضوان الله تعالى عن العبد فهو بمعنى آخر يقرب مما ذكرناه فى حب الله للعبد ، ولا يجوز أن يكشف عن حقيقته ، إذ تقصر أفهام الخلق عن دركه . ومن يقوى عليه فيستقل بإدراكه من نفسه . وعلى الجملة فلا رتبة فوق النظر إليه ، فإنما سألوه الرضا لأنه سبب دوام النظر ، فكأنهم رأوه غاية الغايات وأقصى الأمانى لما ظفروا بنعيم النظر . فلما أمروا بالسؤال لم يسألوا إلا دوامه ، وعلموا أن الرضا هو سبب دوام رفع الحجاب

وقال الله تعالى (وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ [(١)]) قال بعض المفسرين فيه : يأتى أهل الجنة فى وقت المزيد ثلاث تحف من عند رب العالمين . إحداها : هدية من عند الله تعالى ، ليس عندهم فى الجنان مثلها . فذلك قوله تعالى (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ [(٢)]) والثانية السلام عليهم من ربهم : فيزيد ذلك على الهدية فضلا ، وهو قوله تعالى (سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ [(٣)]) والثالثة يقول الله تعالى : إنى عنكم راض ، فيكون ذلك أفضل من الهدية والتسليم ، فذلك قوله تعالى (وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ [(٤)]) أى من النعيم الذى هم فيه فهذا فضل رضا الله تعالى ، وهو ثمرة رضا العبد

وأما من الأخبار . فقد روي أن النبى صلى الله عليه وسلم [(٢)] سأل طائفة من أصحابه « مَا أَنْتُمْ ؟ » فقالوا مؤمنون . فقال « مَا عَلَامَةُ إِيمَانِكُمْ » فقالوا نصبر على البلاء ، ونشكر عند الرخاء ، ونرضى بمواقع القضاء . فقال « مُؤْمِنُونَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ »

---

(١) حديث ان الله يتجلى للمؤمنين فيقول سلونى فيقولون رضاك : البزار والطبرانى فى الأوسط من حديث أنس فى حديث طويل بسند فيه لين وفيه فيتجلى لهم يقول أنا الذى صدقتكم وعدى وأتممت عليكم نعمتى وهذا محل اكرامى فسلونى فيسألونه الرضا ـ الحديث : ورواه أبو يعلى بلفظ ثم يقول ماذا تريدون فيقولون رضاك ـ الحديث : ورجاله رجال الصحيح

(٢) حديث سأل طائفة من أصحابه ما أنتم فقالوا مؤمنون فقال ما علامة ايمانكم ـ الحديث : تقدم

---

(١) ق : ٣٥ (٢) السجدة : ١٧ (٣) يس : ٥٨ (٤) التوبة : ٧٢

وفى خبر آخر [١] أنه قال « حُكَمَاءُ عُلَمَاءُ كَادُوا مِنْ فِقْهِهِمْ أَنْ يَكُونُوا أَنْبِيَاءَ »

وفى الخبر . [٢] « طُوبَى لِمَنْ هُدِيَ لِلْإِسْلَامِ وَكَانَ رِزْقُهُ كَفَافاً وَرَضِيَ بِهِ »

وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « مَنْ رَضِيَ مِنَ اللهِ تَعَالَى بِالْقَلِيلِ مِنَ الرِّزْقِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى مِنْهُ بِالْقَلِيلِ مِنَ الْعَمَلِ » وقال أيضا « إِذَا أَحَبَّ اللهُ تَعَالَى عَبْداً ابْتَلَاهُ فَإِنْ صَبَرَ اجْتَبَاهُ فَإِنْ رَضِيَ اصْطَفَاهُ »

وقال أيضا [٤] « إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَنْبَتَ اللهُ تَعَالَى لِطَائِفَةٍ مِنْ أُمَّتِي أَجْنِحَةً فَيَطِيرُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ إِلَى الْجِنَانِ يَسْرَحُونَ فِيهَا وَيَتَنَعَّمُونَ فِيهَا كَيْفَ شَاؤُا فَتَقُولُ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَلْ رَأَيْتُمُ الْحِسَابَ فَيَقُولُونَ مَا رَأَيْنَا حِسَاباً فَتَقُولُ لَهُمْ هَلْ جُزْتُمُ الصِّرَاطَ فَيَقُولُونَ مَا رَأَيْنَا صِرَاطاً فَتَقُولُ لَهُمْ هَلْ رَأَيْتُمْ جَهَنَّمَ فَيَقُولُونَ مَا رَأَيْنَا شَيْئاً فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ مِنْ أُمَّةِ مَنْ أَنْتُمْ فَيَقُولُونَ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَقُولُ نَاشَدْنَاكُمُ اللهَ حَدِّثُونَا مَا كَانَتْ أَعْمَالُكُمْ فِي الدُّنْيَا فَيَقُولُونَ خَصْلَتَانِ كَانَتَا فِينَا فَبَلَغْنَا هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ بِفَضْلِ رَحْمَةِ اللهِ فَيَقُولُونَ وَمَا هُمَا فَيَقُولُونَ كُنَّا إِذَا خَلَوْنَا نَسْتَحِي أَنْ نَعْصِيَهُ وَنَرْضَى بِالْيَسِيرِ مِمَّا قُسِمَ لَنَا فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ يَحِقُّ لَكُمْ هَذَا »

وقال صلى الله عليه وسلم « يَامَعْشَرَ الْفُقَرَاءِ [٥] أَعْطُوا اللهَ الرِّضَا مِنْ قُلُوبِكُمْ تَظْفَرُوا بِثَوَابِ فَقْرِكُمْ وَإِلَّا فَلَا » . وفي أخبار موسى عليه السلام ، أن بنى إسرائيل قالوا له سل لنا ربك أمرا إذا نحن فعلناه يرضى به عنا . فقال موسى عليه السلام : إلهى قد سمعت ماقالوا . فقال ياموسى ، قل لهم يرضون عنى حتى أرضى عنهم . ويشهد لهذا ماروي

---

(١) حديث أنه قال فى حديث آخر حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء : تقدم أيضا

(٢) حديث طوبى لمن هدى للاسلام وكان رزقه كفافا ورضى به : الترمذى من حديث فضالة ابن عبيد بلفظ وقنع وقال صحيح وقد تقدم

(٣) حديث من رضى من الله بالقليل من الرزق رضى منه بالقليل من العمل : رويناه فى أمالى المحاملى باسناد ضعيف من حديث على بن أبى طالب ومن طريق المحاملى رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس

(٤) حديث اذا كان يوم القيامه أنبت الله لطائفة من أمتى أجنحة فيطيرون من قبورهم الى الجنان يسرحون فيها رواه ابن حبان فى الضعفاء وأبو عبد الرحمن السلمى من حديث أنس مع اختلاف وفيه حميد ابن على القيسى ساقط هالك والحديث منكر مخالف للقرءان وللاحاديث الصحيحة فى الورود وغيره

(٥) حديث أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم والا فلا : تقدم

عن نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال[١] « مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَعْلَمَ مَالَهُ عِنْدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَلْيَنْظُرْ مَا للهِ عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَهُ فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُنْزِلُ الْعَبْدَ مِنْهُ حَيْثُ أَنْزَلَهُ الْعَبْدُ مِنْ نَفْسِهِ »

وفى أخبار داود عليه السلام . مالأوليائى والهم بالدنيا ، إن الهم يذهب حلاوة مناجاتى من قلوبهم . ياداود إن محبتى من أوليائى أن يكونوا روحانيين لا يغتمون

وروي أن موسى عليه السلام قال . يارب دلنى على أمر فيه رضاك حتى أعمله . فأوحى الله تعالى إليه . إن رضاي فى كرهك ، وأنت لا تصبر على ماتكره . قال يارب دلنى عليه، قال فإن رضاي فى رضاك بقضائى .

وفى مناجاة موسى عليه السلام . أي رب ، أي خلقك أحب إليك؟ قال من إذا أخذت منه المحبوب سالمنى . قال فأي خلقك أنت عليه ساخط ؟ قال من يستخيرنى فى الأمر فإذا قضيت له سخط قضائى . وقد روي ماهو أشد من ذلك ، وهو أن الله تعالى[٢] قال . أنا الله لا إله إلا أنا ، من لم يصبر على بلائى ، ولم يشكر نعمائى ، ولم يرض بقضائى ، فليتخذ رباسوائى

ومثله فى الشدة قوله تعالى فيما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال[٣] « قَالَ اللهُ تَعَالَى قَدَّرْتُ الْمَقَادِيرَ وَدَبَّرْتُ التَّدْبِيرَ وَأَحْكَمْتُ الصُّنْعَ فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا مِنِّي حَتَّى يَلْقَانِي وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ مِنِّي حَتَّى يَلْقَانِي »

وفى الخبر المشهور[٤] « يَقُولُ اللهُ تَعَالَى خَلَقْتُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ فَطُوبَى لِمَنْ خَلَقْتُهُ لِلْخَيْرِ وَأَجْرَيْتُ الْخَيْرَ عَلَى يَدَيْهِ وَوَيْلٌ لِمَنْ خَلَقْتُهُ لِلشَّرِّ وَأَجْرَيْتُ الشَّرَّ عَلَى يَدَيْهِ وَوَيْلٌ ثُمَّ وَيْلٌ لِمَنْ قَالَ لِمَ وَكَيْفَ »

---

(١) حديث من أحب أن يعلم ماله عند الله فلينظر مالله عنده ـ الحديث : الحاكم من حديث جابر وصححه بلفظ منزلته ومنزلة الله

(٢) حديث قال الله أنا الله لا إله الا أنا من لم يصبر على بلائى ـ الحديث : الطبرانى فى الكبير وابن حبان فى الضعفاء من حديث أبى هند الدارى مقتصرا على قوله من لم يرض بقضائى ويصبر على بلائى فليلتمس ربا سواى واسناده ضعيف

(٣) حديث قال الله تعالى قدرت المقادير ودبرت التدبير وأحكمت الصنع فمن رضى فله الرضا ـ الحديث : لم أجده بهذا اللفظ وللطبرانى فى الأوسط من حديث أبى أمامة خلق الله الخلق وقضى القضية وأخذ ميثاق النبيين ـ الحديث : واسناده ضعيف

(٤) حديث يقول الله خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقته للخير وأجريت الخير على يديه الحديث : ابن شاهين فى شرح السنة عن أبى أمامة باسناد ضعيف

وفى الأخبار السالفة أن نبيا من الأنبياء شكا إلى الله عز وجل الجوع ، والفقر ، والقمل ، عشر سنين ، فما أجيب إلى ما أراد . ثم أوحى الله تعالى إليه : كم تشكو ؟ هكذا كان بدؤك عندى فى أم الكتاب قبل أن أخلق السموات والأرض ، وهكذا سبق لك منى ، وهكذا قضيت عليك قبل أن أخلق الدنيا . أفتريد أن أعيد خلق الدنيا من أجلك ، أم تريد أن أبدل ما قدرته عليك فيكون ما تحب فوق ما أحب ، ويكون ما تريد فوق ما أريد ؟ وعزتى وجلالى لئن تلجلج هذا فى صدرك مرة أخرى لأمحونك من ديوان النبوة .

وروي أن آدم عليه السلام كان بعض أولاده الصغار يصعدون على بدنه وينزلون ، يجعل أحدهم رجله على أضلاعه كهيئة الدرج ، فيصعد إلى رأسه ، ثم ينزل على أضلاعه كذلك ، وهو مطرق إلى الأرض لا ينطق ولا يرفع رأسه . فقال له بعض ولده . يا أبت أما ترى ما يصنع هذا بك ؟ لو نهيته عن هذا ؟ فقال يا بني : إني رأيت مالم تروا ، وعلمت مالم تعلموا ، إني تحركت حركة واحدة فأهبطت من دار الكرامة إلى دار الهوان ، ومن دار النعيم إلى دار الشقاء ، فأخاف أن أتحرك أخرى فيصيبني مالا أعلم

وقال [1] أنس بن مالك رضي الله عنه . خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين ، فما قال لى لشيء فعلته لم فعلته ، ولا لشيء لم أفعله لم لا فعلته ، ولا قال فى شيء كان ليته لم يكن ، ولا فى شيء لم يكن ليته كان . وكان إذا خاصمنى مخاصم من أهله يقول (دَعُوهُ لَوْ قُضِيَ شَيْءٌ لَكَانَ)

ويروى أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام . يا داود إنك تريد وأريد وإنما يكون ما أريد ، فإن سلمت لما أريد كفيتك ما تريد . وإن لم تسلم لما أريد أتعبتك فيما تريد ، ثم لا يكون إلا ما أريد

الآثار فى الرضا

وأما الآثار : فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما . أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله تعالى على كل حال . وقال عمر بن عبد العزيز . ما بقى لى سرور إلا فى مواقع القدر . وقيل له ما تشتهى ؟ فقال ما يقضى الله تعالى . وقال ميمون بن مهران . من لم يرض بالقضاء فليس لحمقه دواء . وقال الفضيل . إن لم تصبر على تقدير الله لم تصبر على تقدير نفسك

وقال عبد العزيز بن أبى رواد . ليس الشأن فى أكل خبز الشعير والخل ، ولا فى لبس الصوف والشعر ، ولكن الشأن فى الرضا عن الله عز وجل

---

(١) حديث أنس خدمت النبي صلى الله عليه وسلم فما قال لى لشيء فعلته لم فعلته ـ الحديث : متفق عليه وقد تقدم

وقال عبد الله بن مسعود . لأن ألحس جمرة أحرقت ماأحرقت وأبقت ماأبقت، أحب إلي من أن أقول لشيء كان ليته لم يكن ، أو لشيء لم يكن ليته كان

ونظر رجل إلى قرحة فى رجل محمد بن واسع ، فقال . إنى لأرحمك من هذه القرحة . فقال . إنى لأشكرها منذ خرجت إذلم تخرج فى عينى

و روي فى الإسرائيليات أن عابدا عبدالله دهراطويلا، فأرى فى المنام: فلانة الراعية رفيقتك فى الجنة . فسأل عنها إلى أن وجدها ، فاستضافها ثلاثة لينظر إلى عملها ، فكان يبيت قائما وتبيت نائمة ، ويظل صائما وتظل مفطرة . فقال أمالك عمل غير مارأيت ؟ فقالت ماهو والله إلا مارأيت ، لاأعرف غيره . فلم يزل يقول تذكرى حتى قالت : خصيلة واحدة هي فيّ إن كنت فى شدة لم أتمن أن أكون فى رخاء ، وإن كنت فى مرض لم أتمن أن أكون فى صحة ، وإن كنت فى الشمس لم أتمن أن أكون فى الظل . فوضع العابد يده على رأسه وقال . أهذه خصيلة هذه ؟ والله خصلة عظيمة يعجز عنها العباد

وعن بعض السلف : أن الله تعالى إذا قضى فى السماء قضاء أحب من أهل الأرض أن يرضوا بقضائه . وقال أبو الدرداء: ذروة الإيمان الصبر للحكم، والرضا بالقدر

وقال عمر رضي الله عنه : ماأبالى على أي حال أصبحت وأمسيت من شدّة أو رخاء

وقال الثوري يوما عند رابعة . اللهم ارض عنا . فقالت أما تستحى من الله أن تسأله الرضا وأنت عنه غير راض ؟ فقال أستغفر الله : فقال جعفر بن سليمان الضبعى : فمتى يكون العبد راضيا عن الله تعالى ؟ قالت إذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة

وكان الفضيل يقول : إذا استوى عنده المنع والعطاء فقد رضي عن الله تعالى

وقال أحمد بن أبي الحوارى : قال أبو سليمان الدارانى . إن الله عز وجل من كرمه قد رضي من عبيده بما رضي العبيد من مواليهم . قلت وكيف ذاك ؟ قال أليس مراد العبد من الخلق أن يرضى عنه مولاه ؟ قلت نعم . قال فإن محبة الله من عبيده أن يرضوا عنه

وقال سهل : حظ العبيد من اليقين على قدر حظهم من الرضا وحظهم من الرضا على قدر عيشهم مع الله عز وجل

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم [١] « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِحِكْمَتِهِ وَجَلَالِهِ جَعَلَ الرَّوْحَ وَالْفَرَحَ فِي الرِّضَا وَالْيَقِينِ وَجَعَلَ الْغَمَّ وَالْحُزْنَ فِي الشَّكِّ وَالسُّخْطِ »

بيان

حقيقة الرضا وتصوّره فيما يخالف الهوى

اعلم أن من قال ليس فيما يخالف الهوى وأنواع البلاء إلا الصبر ، فأما الرضا فلا يتصور فإنما أتى من ناحية إنكار المحبة . فأما إذا ثبت تصور الحب لله تعالى ، واستغراق الهم به ، فلا يخفى أن الحب يورث الرضا بأفعال الحبيب ، ويكون ذلك من وجهين .

أثر الحب الرضا بفعل الحبيب

أحدهما : أن يبطل الإحساس بالألم حتى يجرى عليه المؤلم ولا يحس ، وتصيبه جراحة ولا يدرك ألمها . ومثاله الرجل المحارب ، فإنه في حال غضبه ، أو في حال خوفه ، قد تصيبه جراحة وهو لا يحس بها ، حتى إذا رأى الدم استدل به على الجراحة . بل الذى يغدو فى شغل قريب قد تصيبه شوكة فى قدمه ولا يحس بألم ذلك لشغل قلبه . بل الذى يحجم أو يحلق رأسه بحديدة كالة يتألم به ، فإن كان مشغول القلب بمهم من مهماته فرغ المزين والحجام وهو لا يشعر به . وكل ذلك لأن القلب إذا صار مستغرقا بأمر من الأمور ، مستوفى به ، لم يدرك ماعداه . فكذلك العاشق المستغرق الهم بمشاهدة معشوقه أو بحبه ، قد يصيبه ما كان يتألم به ، أو يغتم له لولا عشقه ، ثم لا يدرك غمه وألمه لفرط استيلاء الحب على قلبه . هذا إذا أصابه من غير حبيبه ، فكيف إذا أصابه من حبيبه وشغلُ القلب بالحب والعشق من أعظم الشواغل . وإذا تصور هذا فى ألم يسير بسبب حب خفيف ، تصور فى الألم العظيم بالحب العظيم . فإن الحب أيضا يتصور تضاعفه فى القوة كما يتصور تضاعف الألم . وكما يقوى حب الصور الجميلة المدركة بحاسة البصر ، فكذا يقوى حب الصور الجميلة الباطنة المدركة بنور البصيرة . وجمالُ حضرة الربوبية وجلالها لا يقاس به جمال ولا جلال فمن ينكشف له شيء منه فقد يبهره بحيث يدهش ويغشى عليه ، فلا يحس بما يجرى عليه . فقد روي أن

---

(١) حديث ان الله بحكمته وجلاله جعل الروح والفرح فى الرضا - الحديث : الطبرانى من حديث ابن مسعود إلا انه قال بقسطه وقد تقدم

امرأة فتح الموصلى عثرت فانقطع ظفرها، فضحكت. فقيل لها: أما تجدين الوجع؟ فقالت إن لذة ثوابه أزالت عن قلبي مرارة وجعه. وكان سهل رحمه الله تعالى به علة يعالج غيره منها ولا يعالج نفسه. فقيل له فى ذلك، فقال: يادوست ضرب الحبيب لايوجع

وأما الوجه الثانى: فهو أن يحس به، ويدرك ألمه، ولكن يكون راضيا به، بل راغبا فيه، مريدا له، أعنى بعقله، وإن كان كارها بطبعه. كالذي يلتمس من الفصاد الفصد والحجامة فإنه يدرك ألم ذلك، إلا أنه راض به، وراغب فيه، ومتقلد من الفصاد به منّة بفعله. فهذا حال الراضى بما يجرى عليه من الألم. وكذلك كل من يسافر فى طلب الربح يدرك مشقة السفر، ولكن حبه لثمرة سفره طيّب عنده مشقة السفر، وجعله راضيا بها. ومهما أصابه بلية من الله تعالى، وكان له يقين بأن ثوابه الذى ادخر له فوق مافاته، رضي به، ورغب فيه، وأحبه، وشكر الله عليه. هذا إن كان يلاحظ الثواب والإحسان الذى يجازى به عليه

ويجوز أن يغلب الحب، بحيث يكون حظ المحب فى مراد محبوبه ورضاه، لالمعنى آخر وراءه. فيكون مراد حبيبه ورضاه محبوبا عنده ومطلوبا. وكل ذلك موجود فى المشاهدات فى حب الخلق، وقد تواصفها المتواصفون فى نظمهم ونثرهم، ولا معنى له إلا ملاحظة جمال الصورة الظاهرة بالبصر. فإن نظر إلى الجمال فما هو إلا جلد ولحم ودم، مشحون بالأقذار والأخباث، بدايته من نطفة مذرة، ونهايته جيفة قذرة، وهو فيما بين ذلك يحمل العذرة وإن نظر إلى المدرِك للجمال، فهي العين الخسيسة التى تغلط فيما ترى كثيرا، فترى الصغير كبيرا، والكبير صغيرا، والبعيد قريبا، والقبيح جميلا، فإذا تصور استيلاء هذا الحب فمن أين يستحيل ذلك فى حب الجمال الأزلي الأبدي، الذى لامنتهى لكماله المدرك بعين البصيرة التى لايعتريها الغلط ولا يدور بها الموت، بل تبقى بعد الموت حية عند الله، فرحة برزق الله تعالى، مستفيدة بالموت مزيد تنبه واستكشاف!

فهذا أمر واضح من حيث النظر بعين الاعتبار. ويشهد لذلك الوجود وحكايات أحوال المحبين وأقوالهم. فقد قال شقيق البلخى: من يرى ثواب الشدة لايشتهى المخرج منها

وقال الجنيد: سألت سريا السقطي، هل يجد المحب ألم البلاء؟ قال لا. قلت وإن ضرب بالسيف؟ قال نعم وإن ضرب بالسيف سبعين ضربة، ضربة على ضربة

وقال بعضهم : أحببت كل شيء بحبه ، حتى لو أحب النار أحببت دخول النار

وقال بشر بن الحارث : مررت برجل وقد ضرب ألف سوط فى شرقية بغداد ولم يتكلم ثم حمل إلى الحبس فتبعته ، فقلت له : لم ضربت ؟ فقال لأنى عاشق . فقلت له : ولم سكت؟ قال لأن معشوقى كان بحذائى ينظر إلي . فقلت : فلو نظرت إلى المعشوق الأكبر ؟ قال فزعق زعقة خرّ ميتا . وقال يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله تعالى : إذا نظر أهل الجنة إلى الله تعالى ، ذهبت عيونهم فى قلوبهم من لذة النظر إلى الله تعالى ثمانمائة سنة لا ترجع إليهم . فما ظنك بقلوب وقعت بين جماله وجلاله ، إذا لاحظت جلاله هابت ، وإذا لاحظت جماله تاهت ! وقال بشر : قصدت عبادان فى بدايتى ، فإذا برجل أعمى ، مجذوم ، مجنون قد صرع ، والنمل يأكل لحمه ، فرفعت رأسه فوضعته فى حجرى وأنا أردد الكلام ، فلما أفاق قال : من هذا الفضولى الذى يدخل بينى وبين ربى ؟ لو قطعنى إربا إربا ماازددت له إلا حبا . قال بشر : فما رأيت بعد ذلك نقمة بين عبد وبين ربه فأنكرتها

وقال أبو عمرو محمد بن الأشعث : إن أهل مصر مكثوا أربعة أشهر لم يكن لهم غذاء إلا النظر إلى وجه يوسف الصديق عليه السلام . كانوا إذا جاعوا نظروا إلى وجهه فشغلهم جماله عن الإحساس بألم الجوع . بل فى القرءان ماهو أبلغ من ذلك ، وهو قطع النسوة أيديهن لاستهتارهن بملاحظة جماله حتى ماأحسسن بذلك

وقال سعيد بن يحيى : رأيت بالبصرة فى خان عطاء بن مسلم شابا وفى يده مدية ، وهو ينادى بأعلى صوته والناس حوله ، وهو يقول :

يوم الفراق من القيامة أطول ... والموت من ألم التفرق أجمل

قالوا الرحيل فقلت لست براحل ... لكن مهجتى التى تترحل

ثم بقر بالمدية بطنه وخر ميتا . فسألت عنه وعن أمره ، فقيل لى . إنه كان يهوى فتى لبعض الملوك حجب عنه يوما واحدا .

ويروى أن يونس عليه السلام قال لجبريل : دلنى على أعبد أهل الأرض فدلّه على رجل قد قطع الجذام يديه ورجليه ، وذهب ببصره ، فسمعه وهو يقول . إلهى متعتنى بهما ماشئت أنت ، وسلبتنى ماشئت أنت ، وأبقيت لى فيك الأمل ، يابر ياوصول

ويروى عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما. أنه اشتكى له ابن ، فاشتدّ وجده عليه، حتى قال بعض القوم لقد خشينا على هذا الشيخ إن حدث بهذا الغلام حدث . فمات الغلام فخرج ابن عمر فى جنازته وما رجل أشد سروراً أبدا منه . فقيل له فى ذلك فقال ابن عمر إنما كان حزنى رحمة له فلما وقع أمر الله رضينا به

وقال مسروق : كان رجل بالبادية له كلب ، وحمار ، وديك . فالديك يوقظهم للصلاة والحمار ينقلون عليه الماء ويحمل لهم خباءهم ، والكلب يحرسهم . قال فجاء الثعلب فأخذ الديك،فحزنوا له ، وكان الرجل صالحا فقال : عسى أن يكون خيرا . ثم جاء ذئب فخرق بطن الحمار فقتله ، فحزنوا عليه فقال الرجل: عسى أن يكون خيرا . ثم أصيب الكلب بعد ذلك فقال :عسى أن يكون خيرا . ثم أصبحوا ذات يوم فنظروا فإذا قد سبي من حولهم وبقوا هم. قال : وإنما أخذوا أولئك لما كان عندهم من أصوات الكلاب،والحمير، والديكة . فكانت الخيرة لهؤلاء فى هلاك هذه الحيوانات كما قدره الله تعالى . فإذاً من عرف خفيّ لطف الله تعالى رضي بفعله على كل حال . ويروى أن عيسى عليه السلام مر برجل أعمى، أبرص، مقعد مضروب الجنبين بفالج ، وقد تناثر لحمه من الجذام ، وهو يقول : الحمد لله الذى عافانى مما ابتلى به كثيراً من خلقه . فقال له عيسى : ياهذا ، أيـ شيء من البلاء أراه مصروفا عنك فقال ياروح الله ، أنا خير ممن لم يجعل الله فى قلبه ماجعل فى قلبى من معرفته . فقال له : صدقت ، هات يدك . فناوله يده ، فإذا هو أحسن الناس وجها ، وأفضلهم هيئة،وقد أذهب الله عنه ما كان به . فصحب عيسى عليه السلام وتعبّد معه

وقطع عروة بن الزبير رجله من ركبته من أكلة خرجت بها ، ثم قال . الحمدلله الذى أخذ مني واحدة ، وأيمك لئن كنت أخذت لقد أبقيت ، ولئن كنت ابتليت لقد عافيت : ثم لم يدع ورده تلك الليلة . وكان ابن مسعود يقول: الفقر والغنى مطيتان ما أبالى أيتهما ركبت، إن كان الفقر فإن فيه الصبر ، وإن كان الغنى فإن فيه البذل

وقال أبو سليمان الدارانى .قد نلت من كل مقام حالا إلا الرضا . فمالى منه إلا مشام الريح ، وعلى ذلك لو أدخل الخلائق كلهم الجنة ، وأدخلنى النار ، كنت بذلك راضيا

وقيل لعارف آخر : هل نلت غاية الرضا عنه ؟ فقال : أما الغاية فلا ، ولكن مقام الرضا

قد نلته . لو جعلني جسرا على جهنم يعبر الخلائق عليّ إلى الجنة ، ثم ملأ بي جهنم تحلة لقسمه ، وبدلا من خليقته ، لأحببت ذلك من حكمه ، ورضيت به من قسمه وهذا كلام من علم أن الحب قد استغرق همه ، حتى منعه الإحساس بألم النار ، فإن بقي إحساس فيغمره ما يحصل من لذته في استشعاره حصول رضا محبوبه بإلقائه إياه في النار ، واستيلاء هذه الحالة غير محال في نفسه ، وإن كان بعيدا من أحوالنا الضعيفة ، ولكن لا ينبغي أن يستنكر الضعيف المحروم أحوال الأقوياء ، ويظن أن ما هو عاجز عنه يعجز عنه الأولياء . وقال الروذباري : قلت لأبي عبد الله ابن الجلاء الدمشقي . قول فلان وددت أن جسدي قرض بالمقاريض ، وأن هذا الخلق أطاعوه ، ما معناه ؟ فقال يا هذا ، إن كان هذا من طريق التعظيم والإجلال فلا أعرف ، وإن كان هذا من طريق الإشفاق والنصح للخلق فأعرف . قال ثم غشي عليه

وقد كان عمران بن الحصين قد استسقى بطنه ، فبقي ملقى على ظهره ثلاثين سنة لا يقوم ولا يقعد ، قد نقب له في سرير من جريد كان عليه موضع لقضاء حاجته ، فدخل عليه مطرف وأخوه العلاء ، فجعل يبكي لما يراه من حاله . فقال لم تبكي ؟ قال لأني أراك على هذه الحالة العظيمة . قال لا تبك ، فإن أحبه إلى الله تعالى أحبه إليّ . ثم قال : أحدثك شيئا لعل الله أن ينفعك به ، واكتم عليّ حتى أموت . إن الملائكة تزورني فآنس بها ، وتسلم عليّ فأسمع تسليمها ، فأعلم بذلك أن هذا البلاء ليس بعقوبة ، إذ هو سبب هذه النعمة الجسيمة . فمن يشاهد هذا في بلائه كيف لا يكون راضيا به

قال : ودخلنا على سويد بن متعبة نعوده ، فرأينا ثوبا ملقى ، فما ظننا أن تحته شيئا حتى كشف ، فقالت له امرأته : أهلي فداؤك ، ما نطعمك ما نسقيك ، فقال طالت الضجعة ، ودبرت الحراقيف ، وأصبحت نضوا لا أطعم طعاما ، ولا أسيغ شرابا منذ كذا ، فذكر أياما وما يسرني أني نقصت من هذا قلامة ظفر

عظة سعد بن أبي وقاص في الرضا بقضاء الله

ولما قدم سعد بن أبي وقاص إلى مكة ، وقد كان كف بصره ، جاءه الناس يهرعون إليه كل واحد يسأله أن يدعو له ، فيدعو لهذا ولهذا ، وكان مجاب الدعوة . قال عبد الله بن السائب فأتيته وأنا غلام ، فتعرفت إليه فعرفني وقال : أنت قارىء أهل مكة ؟ قلت نعم . فذكر قصة قال في آخرها . فقلت له يا عم ، أنت تدعو للناس ، فلو دعوت لنفسك فرد الله عليك

بصرك ؟ فتبسم وقال . يابني ، قضاء الله سبحانه عندي أحسن من بصرى

وضاع لبعض الصوفية ولد صغير ثلاثة أيام لم يعرف له خبر : فقيل له . لو سألت الله تعالى أن يرده عليك ؟ فقال : إعتراضى عليه فيما قضى أشد علي من ذهاب ولدى

وعن بعض العبّاد أنه قال : إنى أذنبت ذنبا عظيما . فأنا أبكى عليه منذ ستين سنة ، وكان قد اجتهد فى العبادة لأجل التوبة من ذلك الذنب ، فقيل له وما هو ؟ قال : قلت مرة لشيء كان ليته لم يكن . وقال بعض السلف : لو قرض جسمى بالمقاريض لكان أحب إلي من أن أقول لشيء قضاه الله سبحانه ليته لم يقضه

وقيل لعبد الواحد بن زيد . ههنا رجل قد تعبد خمسين سنة . فقصده فقال له ياحبيبي أخبرنى عنك هل قنعت به ؟ قال لا . قال أنست به ؟ قال لا . قال فهل رضيت عنه ؟ قال لا قال فإنما مزيدك منه الصوم والصلاة ؟ قال نعم . قال لولا أنى أستحيي منك لأخبرتك بأن معاملتك خمسين سنة مدخولة . ومعناه أنك لم يفتح لك باب القلب فتترقى إلى درجات القرب بأعمال القلب ، وإنما أنت تعدّ فى طبقات أصحاب اليمين ، لأن مزيدك منه فى أعمال الجوارح التى هي مزيد أهل العموم

ودخل جماعة من الناس على الشبلى رحمه الله تعالى فى مارستان قد حبس فيه ، وقد جمع بين يديه حجارة . فقال من أنتم ؟ فقالوا محبوك . فأقبل عليهم يرميهم بالحجارة ، فتهاربوا فقال مابالكم ادعيتم محبتى ؟ إن صدقتم فاصبروا على بلائى

وللشبلى رحمه الله تعالى

إن المحبة للرحمن أسكرنى وهل رأيت محبا غير سكران

وقال بعض عباد أهل الشام : كلكم يلقى الله عز وجل مصدقا ولعله قد كذبه . وذلك أن أحدكم لو كان له أصبع من ذهب ظل يشير بها ،ولو كان بها شلل ظل يواريها . يعنى بذلك أن الذهب مذموم عند الله والناس يتفاخرون به،والبلاء زينة أهل الآخرة وهم يستنكفون منه

وقيل إنه وقع الحريق فى السوق ، فقيل للسرى . احترق السوق وما احترق دكانك . فقال الحمد لله . ثم قال . كيف قلت الحمد لله على سلامتى دون المسلمين ! فتاب من التجارة وترك الحانوت بقية عمره توبة واستغفارا من قوله الحمد لله

إمكان الرضا بما يخالف الهوى

فإذا تأملت هذه الحكايات عرفت قطعا أن الرضا بما يخالف الهوى ليس مستحيلا ، بل هو مقام عظيم من مقامات أهل الدين . ومهما كان ذلك ممكنا في حب الخلق وحظوظهم كان ممكنا في حق حب الله تعالى وحظوظ الآخرة قطعا . وإمكانه من وجهين

أحدهما: الرضا بالألم لما يتوقع من الثواب الموجود ، كالرضا بالفصد ، والحجامة ، وشرب الدواء انتظارا للشفاء .

والثاني: الرضا به لا لحظ وراءه ، بل لكونه مراد المحبوب ورضا له ، فقد يغلب الحب بحيث ينغمر مراد المحب في مراد المحبوب ، فيكون ألذ الأشياء عنده سرور قلب محبوبه ورضاه ، ونفوذ إرادته ، ولو في هلاك روحه كما قيل .

فما لجرح إذا أرضاكم ألم

وهذا ممكن مع الإحساس بالألم . وقد يستولى الحب بحيث يدهش عن إدراك الألم ، فالقياس والتجربة والمشاهدة دالة على وجوده ، فلا ينبغي أن ينكره من فقده من نفسه ، لأنه إنما فقده لفقد سببه ، وهو فرط حبه ومن لم يذق طعم الحب لم يعرف عجائبه . فللمحبين عجائب أعظم مما وصفناه

وقد روي عن عمرو بن الحارث الرافعي قال: كنت في مجلس بالرقة عند صديق لي ، وكان معنا فتى يتعشق جارية مغنية ، وكانت معنا في المجلس ، فضربت بالقضيب وغنت

علامة ذل الهوى على العاشقين البكا

ولا سيما عاشق إذا لم يجد مشتكى

فقال لها الفتى . أحسنت والله ياسيدتي ، أفتأذنين لي أن أموت ؟ فقالت مت راشدا . قال فوضع رأسه على الوسادة ، وأطبق فمه ، وغمض عينيه ، فحركناه فإذا هو ميت

وقال الجنيد . رأيت رجلا متعلقا بكم صبي ، وهو يتضرع إليه ويظهر له المحبة ، فالتفت إليه الصبي وقال له: إلى متى ذا النفاق الذي تظهر لي ؟ فقال قد علم الله أني صادق فيما أورده ، حتى لو قلت لي مت لمت . فقال إن كنت صادقا فمت . قال: فتنحى الرجل وغمض عينيه ، فوجد ميتا

وقال سمنون المحب : كان في جيراننا رجل وله جارية يحبها غاية الحب ، فاعتلت الجارية فجلس الرجل ليصلح لها حيسا ، فبينا هو يحرك القدر إذ قالت الجارية آه . قال : فدهش الرجل ، وسقطت الملعقة من يده ، وجعل يحرك ما في القدر بيده حتى سقطت أصابعه . فقالت

الجارية : ماهذا ؟ قال هذا مكان قولك آه . وحكي عن محمد بن عبد الله البغدادى قال : رأيت بالبصرة شابا على سطح مرتفع وقد أشرف على الناس وهو يقول

من مات عشقا فليمت هكذا لاخير فى عشق بلا موت

ثم رمى نفسه إلى الأرض ، فحملوه ميتا . فهذا وأمثاله قد يصدق به فى حب المخلوق والتصديق به فى حب الخالق أولى ، لأن البصيرة الباطنة أصدق من البصر الظاهر ؟ وجمال الحضرة الربانية أوفى من كل جمال . بل كل جمال فى العالم فهو حسنة من حسنات ذلك الجمال نعم الذى فقد البصر ينكر جمال الصور ، والذى فقد السمع ينكر لذة الألحان والنغمات الموزونة فالذى فقد القلب لابد وأن ينكر أيضا هذه اللذات التى لامظنة لها سوى القلب .

بيان

أن الدعاء غير مناقض للرضا

ولايخرج صاحبه عن مقام الرضا . وكذلك كراهة المعاصى ، ومقت أهلها ، ومقت أسبابها ، والسعي فى إزالتها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لايناقضه أيضا . وقد غلط فى ذلك بعض البطالين المغترين ، وزعم أن المعاصى ، والفجور ، والكفر ، من قضاء الله وقدره عز وجل ، فيجب الرضا به . وهذا جهل بالتأويل . وغفلة عن أسرار الشرع

فأما الدعاء فقد تعبدنا به ، وكثرة دعوات رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء عليهم السلام ، على مانقلناه فى كتاب الدعوات تدل عليه ، ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أعلى المقامات من الرضا ، وقد أثنى الله تعالى على بعض عباده بقوله (وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً [1])

وأما إنكار المعاصى وكراهتها ، وعدم الرضا بها ، فقد تعبد الله به عباده ، وذمهم على الرضا به فقال (وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا [2]) وقال تعالى (رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ [3]) وفى الخبر المشهور «مَنْ شَهِدَ مُنْكَراً فَرَضِيَ بِهِ فَكَأَنَّهُ قَدْ فَعَلَهُ» وفى الحديث [1] « الدَّالُّ عَلَى الشَّرِّ كَفَاعِلِهِ »

---

(١) حديث الدال على الشر كفاعله : أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أنس باسناد ضعيف جدا

(١) الأنبياء : ٩٠ (٢) يونس : ٧ (٣) التوبة : ٩٣

وعن ابن مسعود . إن العبد ليغيب عن المنكر ويكون عليه مثل وزر صاحبه . قيل وكيف ذلك ؟ قال يبلغه فيرضى به . وفى الخبر [١] « لَوْ أَنَّ عَبْداً قُتِلَ بِالْمَشْرِقِ وَرَضِيَ بِقَتْلِهِ آخَرُ بِالْمَغْرِبِ كَانَ شَرِيكاً فِي قَتْلِهِ » . وقد أمر الله تعالى بالحسد والمنافسة فى الخيرات وتوقى الشرور ، فقال تعالى (وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ [١])

وقال النبي صلى الله عليه وسلم [٢] « لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ حِكْمَةً فَهُوَ يَبُثُّهَا فِي النَّاسِ وَيُعَلِّمُهَا وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالاً فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ » وفى لفظ آخر « وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فَيَقُولُ الرَّجُلُ لَوْ آتَانِي اللهُ مِثْلَ مَا آتَى هَذَا لَفَعَلْتُ مِثْلَ مَا يَفْعَلُ »

وأما بغض الكفار والفجار والإنكار عليهم ومقتهم ، فما ورد فيه من شواهد القرءان والأخبار لا يحصى ، مثل قوله تعالى (لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ [٢]) وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ [٣]) وقال تعالى (وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً [٤])

وفى الخبر [٣] « إِنَّ اللهَ تَعَالَى أَخَذَ الْمِيثَاقَ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ أَنْ يُبْغِضَ كُلَّ مُنَافِقٍ وَعَلَى كُلِّ مُنَافِقٍ أَنْ يُبْغِضَ كُلَّ مُؤْمِنٍ » وقال عليه السلام [٤] « الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ » وقال [٥] « مَنْ أَحَبَّ قَوْماً وَوَالَاهُمْ حُشِرَ مَعَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »

---

(١) حديث لو أن رجلا قتل بالمشرق ورضى بقتله آخر فى المغرب كان شريكا فى قتله : لم أجد له أصلا بهذا اللفظ . ولابن عدى من حديث أبى هريرة من حضر معصية فكرهها فكأنما غاب عنها ومن غاب عنها فأحبها فكأنما حضرها وتقدم فى كتاب الأمر بالمعروف

(٢) حديث لا حسد إلا فى اثنتين ـ الحديث : البخارى من حديث أبى هريرة ومسلم من حديث ابن مسعود وقد تقدم فى العلم

(٣) حديث ان الله أخذ الميثاق على كل مؤمن أن يبغض كل منافق ـ الحديث : لم أجد له أصلا

(٤) حديث المرء مع من أحب : تقدم

(٥) حديث من أحب قوما ووالاهم حشر معهم : الطبرانى من حديث أبى قرصافة وابن عدى من حديث جابر من أحب قوما على أعمالهم حشر فى زمرتهم زاد ابن عدى يوم القيامة وفى طريقه اسماعيل ابن يحيى التيمى ضعيف

---

[١] المطففين : ٢٦ [٢] آل عمران : ٢٨ [٣] المائدة . ٥١ [٤] الأنعام : ١٢٩

وقال عليه السلام[1] « أَوْثَقُ عُرَى الْإِيمَانِ الْحُبُّ فِي اللهِ وَالْبُغْضُ فِي اللهِ »

وشواهد هذا قد ذكرناها في بيان الحب والبغض في الله تعالى من كتاب آداب الصحبة وفي كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا نعيده

فإن قلت : فقد وردت الآيات والأخبار[2] بالرضا بقضاء الله تعالى ؛ فإن كانت المعاصي بغير قضاء الله تعالى فهو محال ، وهو قادح في التوحيد ، وإن كانت بقضاء الله تعالى فكراهتها ومقتها كراهة لقضاء الله تعالى ، وكيف السبيل إلى الجمع وهو متناقض على هذا الوجه ؟ وكيف يمكن الجمع بين الرضا والكراهة في شيء واحد ؟

وجه الجمع بين الرضا والكراهة في شيء واحد

فاعلم أن هذا مما يلتبس على الضعفاء القاصرين عن الوقوف على أسرار العلوم ، وقد التبس على قوم حتى رأوا السكوت عن المنكرات مقاما من مقامات الرضا ، وسموه حسن الخلق ، وهو جهل محض . بل نقول الرضا والكراهة يتضادان إذا تواردا على شيء واحد من جهة واحدة ، على وجه واحد . فليس من التضاد في شيء واحد أن يكره من وجه ، ويرضى به من وجه . إذ قد يموت عدوك الذي هو أيضا عدو بعض أعدائك ، وساع في إهلاكه فتكره موته من حيث إنه مات عدو عدوك ، وترضاه من حيث إنه مات عدوك . وكذلك المعصية لها وجهان : وجه إلى الله تعالى من حيث إنه فعله ، واختياره ، وإرادته ، فيرضى به من هذا الوجه تسليما للملك إلى مالك الملك ، ورضا بما يفعله فيه ، ووجه إلى العبد من حيث إنه كسبه ، ووصفه ، وعلامة كونه ممقوتا عند الله وبغيضا عنده ، حيث سلط عليه أسباب البعد والمقت ، فهو من هذا الوجه منكر ومذموم . ولا ينكشف هذا لك إلا بمثال

فلنفرض محبوبا من الخلق قال بين يدي محبيه : إني أريد أن أميز بين من يحبني ويبغضني وأنصب فيه معيارا صادقا ، وميزانا ناطقا ، وهو أني أقصد إلى فلان فأوذيه وأضربه ضربا

---

(١) حديث أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله : رواه أحمد وتقدم في آداب الصحبة

(٢) الأخبار الواردة في الرضا بقضاء الله : الترمذي من حديث سعد بن أبي وقاص من سعادة ابن آدم رضاه بما قسم الله عز وجل ـ الحديث : وقال غريب وتقدم حديث ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس وحديث ان الله بقسطه جعل الروح والفرح في الرضا وتقدم في حديث الاستخارة واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به وحديث من رضي من الله بالقليل من الرزق رضي منه بالقليل من العمل وحديث أسألك الرضا بالقضاء ـ الحديث : وغير ذلك

يضطره ذلك إلى الشتم لى ، حتى إذا شتمنى أبغضته واتخذته عدوّا لى . فكل من أحبه أعلم أيضا أنه عدوّى ، وكل من أبغضه أعلم أنه صديقى ومحبى . ثم فعل ذلك ، وحصل مراده من الشتم الذى هو سبب البغض ، وحصل البغض الذى هو سبب العداوة . فحق على كل من هو صادق فى محبته ، وعالم بشروط المحبة أن يقول : أما تدبيرك فى إيذاء هذا الشخص وضربه وإبعاده ، وتعريضك إياه للبغض والعداوة ، فأنا محب له ، وراض به ، فإنه رأيك وتدبيرك ، وفعلك وإرادتك . وأما شتمه إياك ، فإنه عدوان من جهته ، إذ كان حقه أن يصبر ولا يشتم ، ولكنه كان مرادك منه . فإنك قصدت بضربه استنطاقه بالشتم الموجب للمقت فهو من حيث إنه حصل على وفق مرادك وتدبيرك الذى دبرته فأنا راض به ، ولو لم يحصل لكان ذلك نقصانا فى تدبيرك ، وتعويقا فى مرادك ، وأنا كاره لفوات مرادك . ولكنه من حيث إنه وصف لهذا الشخص ، وكسب له ، وعدوان وتهجم منه عليك على خلاف مايقتضيه جمالك ، إذ كان ذلك يقتضى أن يحتمل منك الضرب ولا يقابل بالشتم ، فأنا كاره له من حيث نسبته إليه ، ومن حيث هو وصف له ، لا من حيث هو مرادك ومقتضى تدبيرك وأما بغضك له بسبب شتمك فأنا راض به ، ومحب له ، لأنه مرادك ، وأنا على موافقتك أيضا مبغض له ، لأن شرط المحب أن يكون لحبيب المحبوب حبيبا ، ولعدوه عدوّا . وأما بغضه لك فإنى أرضاه من حيث إنك أردت أن يبغضك إذ أبعدته عن نفسك ، وسلطت عليه دواعى البغض ، ولكنى أبغضه من حيث إنه وصف ذلك المبغض وكسبه وفعله ، وأمقته لذلك ، فهو ممقوت عندى لمقته إياك ، وبغضه ومقته لك أيضا عندى مكروه من حيث إنه وصفه ، وكل ذلك من حيث إنه مرادك فهو مرضي ،

وإنما التناقض أن يقول : هو من حيث إنه مرادك مرضي ، ومن حيث إنه مرادك مكروه . وأما إذا كان مكروها لا من حيث إنه فعله ومراده ، بل من حيث إنه وصف غيره وكسبه فهذا لا تناقض فيه . ويشهد لذلك كل ما يكره من وجه ، ويرضى به من وجه . ونظائر ذلك لا تحصى

فإذاً تسليط الله دواعى الشهوة والمعصية عليه ، حتى يجره ذلك إلى حب المعصية ، ويجره الحب إلى فعل المعصية ، يضاهى ضرب المحبوب للشخص الذى ضربناه مثلا ، ليجره الضرب إلى الغضب ، والغضب إلى الشتم . ومقت الله تعالى لمن عصاه ، وإن كانت معصيته بتدبيره

يشبه بغض المشتوم لمن شتمه ، وإن كان شتمه إنما يحصل بتدبيره واختياره لأسبابه . وفعل الله تعالى ذلك بكل عبد من عبيده ، أعنى تسليط دواعى المعصية عليه ، يدل على أنه سبقت مشيئته بإبعاده ومقته ، فواجب على كل عبد محب لله أن يبغض من أبغضه الله ، ويمقت من مقته الله ، ويعادى من أبعده الله عن حضرته ، وإن اضطره بقهره وقدرته إلى معاداته ومخالفته ، فإنه بعيد مطرود ملعون عن الحضرة ، وإن كان بعيدا بإبعاده قهرا ، ومطرودا بطرده واضطراره . والمبعد عن درجات القرب ينبغى أن يكون مقيتا بغيضا إلى جميع المحبين موافقة للمحبوب بإظهار الغضب على من أظهر المحبوب الغضب عليه بإبعاده

وبهذا يتقرر جميع ماوردت به الأخبار من البغض فى الله ، والحب فى الله ، والتشديد على الكفار ، والتغليظ عليهم ، والمبالغة فى مقتهم ، مع الرضا بقضاء الله تعالى من حيث إنه قضاء الله عز وجل . وهذا كله يستمد من سر القدر الذى لارخصة فى إفشائه . وهو أن الشر والخير كلاهما داخلان فى المشيئة والإرادة ، ولكن الشر مراد مكروه ، والخير مراد مرضي به . فمن قال ليس الشر من الله فهو جاهل ، وكذا من قال إنهما جميعا منه من غير افتراق فى الرضا والكراهة فهو أيضا مقصر . وكشف الغطاء عنه غير مأذون فيه ، فالأولى السكوت والتأدب بأدب الشرع ، فقد قال صلى الله عليه وسلم[1] « اَلْقَدَرُ سِرُّ اللهِ فَلاَ تُفْشُوهُ » وذلك يتعلق بعلم المكاشفة . وغرضنا الآن بيان الإمكان فيما تعبد به الخلق ، من الجمع بين الرضا بقضاء الله تعالى ، ومقت المعاصى مع أنها من قضاء الله تعالى ، وقد ظهر الغرض من غير حاجة إلى كشف السر فيه

الدعاء بالمغفرة غير مناقض للقضاء

وبهذا يعرف أيضا أن الدعاء بالمغفرة ، والعصمة من المعاصى ، وسائر الأسباب المعينة على الدين ، غير مناقض للرضا بقضاء الله تعالى ، فإن الله تعبد العباد بالدعاء ليستخرج الدعاء منهم صفاء الذكر ، وخشوع القلب ، ورقة التضرع ، ويكون ذلك جلاء للقلب ، ومفتاحا للكشف ، وسببا لتواتر مزايا اللطف . كما أن حمل الكوز ، وشرب الماء ، ليس مناقضا للرضا بقضاء الله تعالى فى العطش . وشرب الماء طلبا لإزالة العطش مباشرة سبب رتبه

(١) حديث القدر سر الله فلاتفشوه : ابو نعيم فى الحلية من حديث ابن عمر وابن عدي فى الكامل من حديث عائشة وكلاهما ضعيف

مسبب الأسباب ، فكذلك الدعاء سبب رتبه الله تعالى وأمر به ، وقد ذكرنا أن التمسك بالأسباب جريا على سنة الله تعالى لايناقض التوكل ، واستقصيناه فى كتاب التوكل ، فهو أيضا لايناقض الرضا ، لأن الرضا مقام ملاصق للتوكل ، ويتصل به .

الشكوى تناقض الرضا

نعم إظهار البلاء فى معرض الشكوى ، وإنكاره بالقلب على الله تعالى مناقض للرضا . وإظهار البلاء على سبيل الشكر ، والكشف عن قدرة الله تعالى لايناقض . وقد قال بعض السلف : من حسن الرضا بقضاء الله تعالى أن لايقول هذا يوم حار . أي فى معرض الشكاية ، وذلك فى الصيف . فأما فى الشتاء فهو شكر . والشكوى تناقض الرضا بكل حال . وذم الأطعمة وعيبها يناقض الرضا بقضاء الله تعالى ، لأن مذمة الصنعة مذمة للصانع ، والكل من صنع الله تعالى وقول القائل . الفقر بلاء ومحنة ، والعيال هم وتعب ، والاحتراف كد ومشقة ، كل ذلك قادح فى الرضا . بل ينبغى أن يسلم التدبير لمدبره ، والمملكة لمالكها ، ويقول ماقاله عمر رضي الله عنه : لاأبالى أصبحت غنيا أو فقيرا ، فإنى لاأدرى أيهما خير لى

بيان

أن الفرار من البلاد التى هي مظان المعاصى ومذمتها لايقدح فى الرضا

اعلم أن الضعيف قد يظن [1] أن نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخروج من بلد ظهر به الطاعون ، يدل على النهي عن الخروج من بلد ظهرت فيه المعاصى ، لأن كل واحد منهما فرار من قضاء الله تعالى ، وذلك محال : بل العلة فى النهي عن مفارقة البلد بعد ظهور الطاعون ؛ أنه لو فتح هذا الباب لارتحل عنه الأصحاء ، وبقى فيه المرضى مهملين ، لامتعهد لهم ، فيهلكون هزالا وضرا . ولذلك [2] شبهه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض الأخبار بالفرار من الزحف . ولو كان ذلك للفرار من القضاء لما أذن لمن قارب البلدة فى الانصراف . وقد ذكرنا حكم ذلك فى كتاب التوكل

وإذا عرف المعنى ظهر أن الفرار من البلاد التى هى مظان المعاصى ليس فرارا من القضاء بل من القضاء الفرار مما لابد من الفرار منه . وكذلك مذمة المواضع التى تدعو إلى المعاصى

(١) حديث النهى عن الخروج من بلد الطاعون : تقدم فى آداب السفر

(٢) حديث انه شبه الخروج من بلد الطاعون بالفرار من الزحف : تقدم فيه

والأسباب التي تدعو إليها ، لأجل التنفير عن المعصية ليست مذمومة ، فما زال السلف الصالح يعتادون ذلك ، حتى اتفق جماعة على ذم بغداد ، وإظهارهم ذلك ، وطلب الفرار منها ، فقال ابن المبارك: قد طفت الشرق والغرب فما رأيت بلدا شرا من بغداد . قيل وكيف؟ قال: هو بلد تزدرى فيه نعمة الله ، وتستصغر فيه معصية الله. ولما قدم خراسان قيل له . كيف رأيت بغداد؟ قال مارأيت بها إلا شرطيا غضبان ، أو تاجرا لهفان ، أو قارئا حيران . ولا ينبغي أن تظن أن ذلك من الغيبة . لأنه لم يتعرض لشخص بعينه حتى يستضر ذلك الشخص به ، وإنما قصد بذلك تحذير الناس

وكان يخرج إلى مكة ، وقد كان مقامه ببغداد ، يرقب استعداد القافلة ستة عشر يوما ، فكان يتصدق بستة عشر دينارا ، لكل يوم دينار كفارة لمقامه

وقد ذم العراق جماعة كعمر بن عبد العزيز ، وكعب الأحبار . وقال ابن عمر رضي الله عنهما لمولى له : أين تسكن ؟ فقال العراق . قال فما تصنع به ، بلغني أنه مامن أحد يسكن العراق إلا قيض الله له قرينا من البلاء

وذكر كعب الأحبار يوما العراق فقال : فيه تسعة أعشار الشر ، وفيه الداء العضال وقد قيل : قسم الخير عشرة أجزاء ، فتسعة أعشاره بالشام ، وعشره بالعراق ، وقسم الشر عشرة أجزاء على العكس من ذلك

وقال بعض أصحاب الحديث : كنا يوما عند الفضيل بن عياض ، فجاءه صوفي متدرع بعباءة فأجلسه إلى جانبه ، وأقبل عليه ثم قال : أين تسكن ؟ فقال بغداد . فأعرض عنه وقال: يأتينا أحدهم في زي الرهبان ، فإذا سألناه أين تسكن قال في عش الظلمة

وكان بشر بن الحارث يقول : مثل المتعبد ببغداد مثال المتعبد في الحش . وكان يقول لاتقتدوا بي في المقام بها ، من أراد أن يخرج فليخرج

وكان أحمد بن حنبل يقول : لولا تعلق هؤلاء الصبيان بنا كان الخروج من هذا البلد آثر في نفسي . قيل وأين تختار السكنى ؟ قال بالثغور

وقال بعضهم وقد سئل عن أهل بغداد : زاهدهم زاهد ، وشريرهم شرير

فهذا يدل على أن من بلي ببلدة تكثر فيها المعاصي ، ويقل فيها الخير ، فلا عذر له في المقام بها

بل ينبغى أن يهاجر . قال الله تعالى (أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا(١)) فإن منعه عن ذلك عيال أو علاقة ، فلا ينبغى أن يكون راضيا بحاله ، مطمئن النفس إليه ، بل ينبغى أن يكون منزعج القلب منها ، قائلا على الدوام (رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا(٢)) وذلك لأن الظلم إذا عم نزل البلاء ، ودمر الجميع ، وشمل المطيعين . قال الله تعالى (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً(٣))

فإذاً ليس فى شيء من أسباب نقص الدين ألبتة رضا مطلق ، إلا من حيث إضافتها إلى فعل الله تعالى . فأما هي فى نفسها فلا وجه للرضا بها بحال

وقد اختلف العلماء فى الأفضل من أهل المقامات الثلاث ، رجل يحب الموت شوقا إلى لقاء الله تعالى ، ورجل يحب البقاء لخدمة المولى ، ورجل قال لا أختار شيئا بل أرضى بما اختاره الله تعالى . ورفعت هذه المسألة إلى بعض العارفين فقال : صاحب الرضا أفضلهم لأنه أقلهم فضولا

واجتمع ذات يوم وهيب بن الورد ، وسفيان الثورى ، ويوسف بن أسباط . فقال الثوري : كنت أكره موت الفجاءة قبول اليوم ، واليوم وددت أنى مت . فقال له يوسف : لم ؟ قال لما أتخوف من الفتنة ، فقال يوسف : لكنى لا أكره طول البقاء . فقال سفيان : لم ؟ قال لعلى أصادف يوما أتوب فيه وأعمل صالحا . فقيل لوهيب . أيش تقول أنت ؟ فقال أنا لا أختار شيئا ، أحب ذلك إليَّ أحبه إلى الله سبحانه وتعالى فقبله الثوري بين عينيه وقال : روحانية ورب الكعبة

بيانه

جملة من حكايات المحبين وأقوالهم ومكاشفاتهم

قيل لبعض العارفين . إنك محب . فقال : لست محبا ، إنما أنا محبوب ، والمحب متعوب وقيل له أيضا : الناس يقولون إنك واحد من السبعة . فقال : أنا كل السبعة . وكان يقول إذا رأيتمونى فقد رأيتم أربعين بدلا : قيل وكيف وأنت شخص واحد ؟ قيل لأنى رأيت أربعين بدلا ، وأخذت من كل بدل خلقا من أخلاقه . وقيل له . بلغنا أنك ترى الخضر عليه السلام

(١) النساء : ٩٧ (٢) النساء : ٧٥ (٣) الأنفال : ٢٥

فتبسم وقال : ليس العجب ممن يرى الخضر ، ولكن العجب ممن يريد الخضر أن يراه فيحتجب عنه

وحكي عن الخضر عليه السلام أنه قال : ماحدّثت نفسي يوما قط أنه لم يبق وليّ لله تعالى إلا عرفته ، إلا ورأيت في ذلك اليوم وليا لم أعرفه

وقيل لأبي يزيد البسطامي مرة : حدثنا عن مشاهدتك من الله تعالى . فصاح ثم قال : ويلكم ، لايصلح لكم أن تعلموا ذلك . قيل : فحدّثنا بأشد مجاهدتك لنفسك في الله تعالى فقال : وهذا أيضا لايجوز أن أطلعكم عليه . قيل : فحدثنا عن رياضة نفسك في بدايتك فقال نعم . دعوت نفسي إلى الله فجمحت عليّ ، فعزمت عليها أن لاأشرب الماء سنة ، ولا أذوق النوم سنة ، فوفت لي بذلك . ويحكى عن يحي بن معاذ ، أنه رأى أبا يزيد في بعض مشاهداته ، من بعد صلاة العشاء إلى طلوع الفجر ، مستوفزا على صدور قدميه ، رافعا أخمصيه مع عقبيه عن الأرض ، ضاربا بذقنه على صدره ، شاخصا بعينيه لايطرف . قال ثم سجد عند السحر فأطاله ، ثم قعد فقال . اللهم إن قوما طلبوك فأعطيتهم المشي على الماء ، والمشي في الهواء ، فرضوا بذلك . وإني أعوذ بك من ذلك وإن قوما طلبوك فأعطيتهم طي الأرض ، فرضوا بذلك وإني أعوذ بك من ذلك . وإن قوما طلبوك فأعطيتهم كنوز الأرض ، فرضوا بذلك ، وإني أعوذ بك من ذلك . حتى عد نيفا وعشرين مقاما من كرامات الأولياء . ثم التفت فرآني ، فقال يحي ؟ قلت نعم ياسيدي . فقال مُذ مَتى أنت ههنا ؟ قلت منذ حين . فسكت . فقلت ياسيدي حدثني بشيء . فقال أحدثك بما يصلح لك أدْخَلِني في الفلك الأسفل ، فدورني في الملكوت السفلي ، وأراني الأرضين وما تحتها إلى الثرى ، ثم أدخلني في الفلك العلوي ، فطوف بي في السموات ، وأراني مافيها من الجنان إلى العرش ثم أوقفني بين يديه . فقال سلني أي شيء رأيت حتى أهبه لك ، فقلت ياسيدي مارأيت شيئا استحسنته فأسألك إياه . فقال أنت عبدي حقا ، تعبدني لأجلي صدقا ، لأفعلن بك ولأفعلن ، فذكر أشياء . قال يحي : فهالني ذلك وامتلأت به ، وعجبت منه ، فقلت ياسيدي لم لاسألته المعرفة به ، وقد قال لك ملك الملوك سلني ماشئت ؟ قال فصاح بي صيحة ، وقال اسكت ويلك . غرت عليه مني حتى لاأحب أن يعرفه سواه

وحكي أن أباتراب النخشبي كان معجبا ببعض المريدين ، فكان يدنيه ويقوم بمصالحه ، والمريد مشغول بعبادته ومواجدته ، فقال له أبو تراب يوما : لو رأيت أبايزيد ؟ فقال : إني عنه مشغول ،

فلما أكثر عليه أبو تراب من قوله لو رأيت أبا يزيد ، هاج وجد المريد فقال : ويحك ، ما أصنع بأبي يزيد ؟ قد رأيت الله تعالى فأغناني عن أبي يزيد . قال أبو تراب : فهاج طبعي ، ولم أملك نفسي ، فقلت : ويلك . تغتر بالله عز وجل ! لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة كان أنفع لك من أن ترى الله سبعين مرة . قال : فبهت الفتى من قوله وأنكره ، فقال : وكيف ذلك ؟ قال له : ويلك ، أما ترى الله تعالى عندك فيظهر لك على مقدارك ، وترى أبا يزيد عند الله قد ظهر له على مقداره فعرف ماقلت ، فقال : احملني إليه . فذكر قصة قال في آخرها : فوقفنا على تل ننتظره ليخرج إلينا من الغيضة ، وكان يأوي إلى غيضة فيها سباع ، قال : فمر بنا وقد قلب فروة على ظهره ، فقلت للفتى هذا أبو يزيد فانظر إليه . فنظر إليه الفتى فصعق ، فحركناه فإذا هو ميت ، فتعاونا على دفنه . فقلت لأبي يزيد : ياسيدي نظره إليك قتله . قال لا : ولكن كان صاحبكم صادقا ، واستكن في قلبه سر لم ينكشف له بوصفه فلما رآنا انكشف له سر قلبه ، فضاق عن حمله لأنه في مقام الضعفاء المريدين ، فقتله ذلك . ولما دخل الزنج البصرة فقتلوا الأنفس ، ونهبوا الأموال ، اجتمع إلى سهل إخوانه فقالوا : لو سألت الله تعالى دفعهم ؟ فسكت ثم قال : إن لله عبادا في هذه البلدة لو دعوا على الظالمين لم يصبح على وجه الأرض ظالم إلا مات في ليلة واحدة ، ولكن لا يفعلون . قيل لم ؟ قال لأنهم لا يحبون مالا يحب . ثم ذكر من إجابة الله أشياء لا يستطاع ذكرها حتى قال : ولو سألوه أن لا يقيم الساعة لم يقمها

وهذه أمور ممكنة في أنفسها ، فمن لم يحظ بشيء منها فلا ينبغي أن يخلو عن التصديق والإيمان بإمكانها ، فإن القدرة واسعة ، والفضل عميم ، وعجائب الملك والملكوت كثيرة ، ومقدورات الله تعالى لا نهاية لها . وفضله على عباده الذين اصطفى لا غاية له . ولذلك كان أبو يزيد يقول : إن أعطاك مناجاة موسى ، وروحانية عيسى ، وخلة إبراهيم ، فاطلب ماوراء ذلك ، فإن عنده فوق ذلك أضعافا مضاعفة فإن سكنت إلى ذلك حجبك به . وهذا بلاء مثلهم ، ومن هو في مثل حالهم ، لأنهم الأمثل فالأمثل

وقد قال بعض العارفين : كوشفت بأربعين حوراء ، رأيتهن يتساعين في الهواء ، عليهن ثياب من ذهب ، وفضة وجوهر ، يتخشخش ويتثنى معهن ، فنظرت إليهن نظرة ، فعوقبت أربعين يوما ، ثم كوشفت بعد ذلك بثمانين حوراء فوقهن في الحسن والجمال ، وقيل لي انظر إليهن ، قال فسجدت وغمضت عيني في سجودي لئلا أنظر إليهن ، وقلت : أعوذ بك

مما سواك ، لاحاجة لى بهذا ، فلم أزل أتضرع حتى صرفهن الله عنى

مقامات المحبين لاينكرها عاقل

فأمثال هذه المكاشفات لاينبغى أن ينكرها المؤمن لإفلاسه عن مثلها ، فلو لم يؤمن كل واحد إلا بما يشاهده من نفسه المظلمة ، وقلبه القاسى ، لضاق مجال الإيمان عليه . بل هذه أحوال تظهر بعد مجاوزة عقبات ، ونيل مقامات كثيرة، أدناها الإخلاص، وإخراج حظوظ النفس وملاحظة الخلق عن جميع الأعمال ظاهرا وباطنا ، ثم مكاتمة ذلك عن الخلق بستر الحال ، حتى يبقى متحصنا بحصن الخمول . فهذه أوائل سلوكهم ، وأقل مقاماتهم، وهي أعز موجود فى الأتقياء من الناس . وبعد تصفية القلب عن كدورة الالتفات إلى الخلق يفيض عليه نور اليقين، وينكشف له مبادى الحق ، وإنكار ذلك دون التجربة وسلوك الطريق يجرى مجرى إنكار من أنكر إمكان انكشاف الصورة فى الحديدة إذا شكلت ، ونقيت ، وصقلت ، وصورت بصورة المرآة ، فنظر المنكر إلى ما فى يده من زبرة حديد مظلم قد استولى عليه الصدأ والخبث ، وهو لايحكى صورة من الصور ، فأنكر إمكان انكشاف المرئى فيها عند ظهور جوهرها وإنكار ذلك غاية الجهل والضلال

فهذا حكم كل من أنكر كرامات الأولياء ، إذ لامستند له إلا قصوره عن ذلك. وقصور من رآه ، وبئس المستند ذلك فى إنكار قدرة الله تعالى . بل إنما يشم روائح المكاشفة من سلك شيئا ولو من مبادى الطريق ، كما قيل لبشر : بأي شيء بلغت هذه المنزلة؟ قال. كنت أكاتم الله تعالى حالى . معناه أسأله أن يكتم علي ويخفى أمرى . وروي أنه رأى الخضر عليه السلام فقال له : ادع الله تعالى لى . فقال: يسر الله عليك طاعته ، قلت : زدنى قال: وسترها عليك . فقيل معناه سترها عن الخلق ، وقيل معناه سترها عنك حتى لاتلتفت أنت إليها

وعن بعضهم أنه قال : أقلقنى الشوق إلى الخضر عليه السلام ، فسألت الله تعالى مرة أن يرينى إياه ليعلمنى شيئا كان أهم الأشياء علي . قال: فرأيته ، فما غلب علي همى ولا همتى إلا أن قلت له : ياأبا العباس ، علمنى شيئا إذا قلته حجبت عن قلوب الخليقة فلم يكن لى فيها قدر، ولا يعرفنى أحد بصلاح ولا ديانة . فقال: قل اللهم أسبل علي كثيف سترك ، وحط علي سرادقات حجبك ، واجعلنى فى مكنون غيبك واحجبنى عن قلوب خلقك . قال: ثم غاب فلم أره ، ولم أشتق إليه بعد ذلك . فما زلت أقول هذه الكلمات فى كل يوم . فحكى أنه صار بحيث كان يستذل ويمتهن، حتى كان أهل الذمة يسخرون به، ويستسخرونه فى الطرق

يحمل الأشياء لهم لسقوطه عندهم . وكان الصبيان يلعبون به ، فكانت راحته ركود قلبه ، واستقامة حاله فى ذله وخموله . فهكذا حال أولياء الله تعالى . ففى أمثال هؤلاء ينبغى أن يطلبوا . والمغرورون إنما يطلبونهم تحت المرقعات والطيالسة ، وفى المشهورين بين الخلق بالعلم ، والورع ، والرياسة . وغيرة الله تعالى على أوليائه تأبى إلا إخفاءهم ، كما قال تعالى : أوليائى تحت قبابى ، لايعرفهم غيرى . وقال صلى الله عليه وسلم [1] « رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَايُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ »

أبعد القلوب عن الله المتكبرة واقربها المنكسرة

وبالجملة فأبعد القلوب عن مشام هذه المعانى القلوب المتكبرة ، المعجبة بأنفسها ، المستبشرة بعملها وعلمها . وأقرب القلوب إليها القلوب المنكسرة ، المستشعرة ذل نفسها استشعارا إذا ذل واهتضم لم يحس بالذل ، كما لايحس العبد بالذل مهما ترفع عليه مولاه . فإذا لم يحس بالذل ولم يشعر أيضا بعدم التفاته إلى الذل ، بل كان عند نفسه أخس منزلة من أن يرى جميع أنواع الذل ذلا فى حقه ، بل يرى نفسه دون ذلك ، حتى صار التواضع بالطبع صفة ذات ، فمثل هذا القلب يرجى له أن يستنشق مبادى هذه الروائح . فإن فقدنا مثل هذا القلب ، وحرمنا مثل هذا الروح ، فلاينبغى أن يطرح الإيمان بإمكان ذلك لأهله . فمن لايقدر أن يكون من أولياء الله فليكن محبا لأولياء الله ، مؤمنا بهم ، فعسى أن يحشر مع من أحب

ويشهد لهذا ماروي أن عيسى عليه السلام قال لبنى اسرائيل : أين ينبت الزرع ؟ قالوا فى التراب . فقال : بحق أقول لكم ، لاتنبت الحكمة إلا فى قلب مثل التراب

ولقد انتهى المريدون لولاية الله تعالى فى طلب شروطها بإزلال النفس إلى منتهى الضعة والخسة ، حتى روي أن ابن الكريبى وهو أستاذ الجنيد ، دعاه رجل إلى طعام ثلاث مرات ، ثم كان يرده ، ثم يستدعيه فيرجع إليه بعد ذلك ، حتى أدخله فى المرة الرابعة ، فسأله عن ذلك . فقال : قد رضت نفسى على الذل عشرين سنة ، حتى صارت بمنزلة الكلب يطرد فينطرد . ثم يدعى فيرمى له عظم فيعود ، ولو رددتنى خمسين مرة ثم دعوتنى بعد ذلك لأجبت

وعنه أيضا أنه قال : نزلت فى محلة ، فعرفت فيها بالصلاح ، فتشتت علي قلبى ، فدخلت الحمام وعدلت إلى ثياب فاخرة فسرقتها ولبستها ، ثم لبست مرقعتى فوقها وخرجت ، وجعلت أمشى قليلا قليلا ، فلحقونى فنزعوا مرقعتى ، وأخذوا الثياب ، وصفعونى وأوجعونى

---

(١) حديث رب أشعث أغبر ذى طمرين : مسلم من حديث أبى هريرة وقد تقدم

ضربا ، فصرت بعد ذلك أعرف باص الحمام ، فسكنت نفسى

فهكذا كانوا يروضون أنفسهم حتى يخلصهم الله من النظر إلى الخلق . ثم من النظر إلى النفس ، فإن الملتفت إلى نفسه محجوب عن الله تعالى ، وشغله بنفسه حجاب له ، فليس بين القلب وبين الله حجاب بعد وتخلل حائل ، وإنما بُعد القلوب شغلها بغيره أو بنفسها ، وأعظم الحجب شغل النفس . ولذلك حكي أن شاهدا عظيم القدر من أعيان أهل بسطام كان لايفارق مجلس أبي يزيد ، فقال له يوما . أنا منذ ثلاثين سنة أصوم الدهر لا أفطر ، وأقوم الليل لا أنام ، ولا أجد فى قلبي من هذا العلم الذى تذكر شيئا ، وأنا أصدّق به وأحبه . فقال أبو يزيد : ولو صمت ثلثمائة سنة ، وقمت ليلها ماوجدت من هذا ذرة . قال ولم ؟ قال لأنك محجوب بنفسك . قال فلهذا دواء ؟ قال نعم . قال قل لى حتى أعمله . قال لاتقبله . قال فاذكره لى حتى أعمله . قال اذهب الساعة إلى المزين فاحلق رأسك ولحيتك ، وانزع هذا اللباس واتزر بعباءة ، وعلق فى عنقك مخلاة مملوأة جوزا ، وأجمع الصبيان حولك ، وقل كل من صفعنى صفعة أعطيته جوزة ، وادخل السوق ، وطف الأسواق كلها عند الشهود وعند من يعرفك وأنت على ذلك . فقال الرجل : سبحان الله ، تقول لى مثل هذا ؟ فقال أبو يزيد قولك سبحان الله شرك . قال وكيف ؟ قال لأنك عظمت نفسك فسبحتها وما سبحت ربك فقال هذا لا أفعله ، ولكن دلنى على غيره . فقال ابتدىء بهذا قبل كل شيء . فقال لا أطيقه . قال قد قلت لك إنك لاتقبل . فهذا الذى ذكره أبو يزيد هو دواء من اعتل بنظره إلى نفسه ومرض بنظر الناس إليه . ولا ينجى من هذا المرض دواء سوى هذا وأمثاله . فمن لا يطيق الدواء فلا ينبغى أن ينكر إمكان الشفاء فى حق من داوى نفسه بعد المرض ، أو لم يمرض بمثل هذا المرض أصلا فأقل درجات الصحة الإيمان بإمكانها ، فويل لمن حرم هذا القدر القليل أيضا

وهذه أمور جلية فى الشرع واضحة ، وهي مع ذلك مستبعدة عند من يعدّ نفسه من علماء الشرع . فقد قال صلى الله عليه وسلم [1] « لَايَسْتَكْمِلُ الْعَبْدُ الْإِيمَانَ حَتَّى تَكُونَ قِلَّةُ الشَّيْءِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ كَثْرَتِهِ وَحَتَّى يَكُونَ أَنْ لَايُعْرَفَ أَحَبَّ مِنْ أَنْ يُعْرَفَ » وقد قال

(١) حديث لايستكمل عبد الايمان حتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرته وحتى يكون أن لايعرف أحب إليه من أن يعرف : ذكره صاحب الفردوس من حديث علي بن أبي طلحة وعلى هذا فهو معضل فعلى ابن أبي طلحة انما سمع من التابعين ولم أجد له أصلا

عليه السلام [1] « ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ اسْتَكْمَلَ إِيمَانَهُ لاَ يَخَافُ فِي اللهِ لَوْمَةَ لاَئِمٍ وَلاَ يُرَائِي بِشَيْءٍ مِنْ عَمَلِهِ وَإِذَا عُرِضَ عَلَيْهِ أَمْرَانِ أَحَدُهُمَا لِلدُّنْيَا وَالآخَرُ لِلآخِرَةِ آثَرَ أَمْرَ الآخِرَةِ عَلَى الدُّنْيَا » وقال عليه السلام [2] « لاَ يَكْمُلُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَكُونَ فِيهِ ثَلاثُ خِصَالٍ إِذَا غَضِبَ لَمْ يُخْرِجْهُ غَضَبُهُ عَنِ الْحَقِّ وَإِذَا رَضِيَ لَمْ يُدْخِلْهُ رِضَاهُ فِي بَاطِلٍ وَإِذَا قَدَرَ لَمْ يَتَنَاوَلْ مَا لَيْسَ لَهُ » وفى حديث آخر [3] « ثَلاثٌ مَنْ أُوتِيَهُنَّ فَقَدْ أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ آلُ دَاوُدَ الْعَدْلُ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ وَالْقَصْدُ فِي الْغِنَى وَالْفَقْرِ وَخَشْيَةُ اللهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلاَنِيَةِ » . فهذه شروط ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأولى الإيمان ، فالعجب ممن يدعى علم الدين ولا يصادف فى نفسه ذرة من هذه الشروط ، ثم يكون نصيبه من علمه وعقله أن يجحد ما لا يكون إلا بعد مجاوزة مقامات عظيمة علية وراء الإيمان

وفى الأخبار أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه . إنما أتخذ لخلتي من لا يفتر عن ذكرى ولا يكون له هم غيرى ، ولا يؤثر عليّ شيئا من خلقى ، وإن حرق بالنار لم يجد لحرق النار وجعا ، وإن قطع بالمناشير لم يجد لمس الحديد ألما

فمن لم يبلغ إلى أن يغلبه الحب إلى هذا الحد فمن أين يعرف ما وراء الحب من الكرامات والمكاشفات ؟ وكل ذلك وراء الحب ، والحب وراء كمال الإيمان ، ومقامات الإيمان وتفاوته فى الزيادة والنقصان لا حصر له ، ولذلك قال عليه السلام [4] للصديق رضي الله عنه « إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ أَعْطَاكَ مِثْلَ إِيمَانِ كُلِّ مَنْ آمَنَ بِي مِنْ أُمَّتِي وَأَعْطَانِي مِثْلَ إِيمَانِ كُلِّ مَنْ آمَنَ بِهِ مِنْ وَلَدِ آدَمَ » وفى حديث آخر [5] « إِنَّ لِلهِ تَعَالَى ثَلاثَمِائَةِ خُلُقٍ مَنْ لَقِيَهُ بِخُلُقٍ مِنْهَا مَعَ التَّوْحِيدِ دَخَلَ الْجَنَّةَ » فقال أبو بكر . يا رسول الله . هل فيّ منها خلق ؟ فقال « كُلُّهَا فِيكَ

---

(١) حديث ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه لا يخاف فى الله لومة لائم ـ الحديث : أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى هريرة وفيه سالم المرادى ضعفه ابن معين والنسائى ووثقه ابن حبان واسم أبيه الواحد

(٢) حديث لا يكمل إيمان العبد حتى يكون فيه ثلاث خصال إذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق ـ الحديث : الطبرانى فى الصغير بلفظ ثلاث من أخلاق الإيمان وإسناده ضعيف

(٣) حديث ثلاث من أوتيهن فقد أوتى ما أوتى آل داود العدل فى الرضا والغضب : غريب بهذا اللفظ والمعروف ثلاث منجيات فذكرهن بنحوه وقد تقدم

(٤) حديث انه قال للصديق ان الله قد أعطاك مثل إيمان كل من آمن بي من أمتى ـ الحديث : أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من رواية الحارث الأعور عن على مع تقديم وتأخير والحارث ضعيف

(٥) حديث ان الله تعالى ثلثمائة خلق من لقيه بخلق منها مع التوحيد دخل الجنة ـ الحديث : الطبرانى فى الأوسط

بشارة النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر رضي الله عنه

يَاأَبَا بَكْرٍ وَأَحَبُّهَا إِلَى اللهِ السَّخَاءُ» . وقال عليه السلام[1] «رَأَيْتُ مِيزَانًا دُلِّيَ مِنَ السَّمَاءِ فَوُضِعْتُ فِي كَفَّةٍ وَوُضِعَتْ أُمَّتِي فِي كَفَّةٍ فَرَجَحْتُ بِهِمْ وَوُضِعَ أَبُو بَكْرٍ فِي كَفَّةٍ وَجِيءَ بِأُمَّتِي فَوُضِعَتْ فِي كَفَّةٍ فَرَجَحَ بِهِمْ» ومع هذا كله فقد كان استغراق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالله تعالى بحيث لم يتسع قلبه للخلة مع غيره ، فقال[2] «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنَ النَّاسِ خَلِيلاً لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً وَلَكِنْ صَاحِبُكُمْ خَلِيلُ اللهِ تَعَالَى» يعني بنفسه

خاتمة الكتاب

بكلمات متفرقة تتعلق بالمحبة ينتفع بها

قال سفيان . المحبة اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال غيره . دوام الذكر . وقال غيره . إيثار المحبوب . وقال بعضهم : كراهية البقاء في الدنيا . وهذا كله إشارة إلى ثمرات المحبة ، فأما نفس المحبة فلم يتعرضوا لها . وقال بعضهم : المحبة معنى من المحبوب قاهر للقلوب عن إدراكه ، وتمتنع الألسن عن عبارته . وقال الجنيد . حرم الله تعالى المحبة على صاحب العلاقة . وقال : كل محبة تكون بعوض ، فإذا زال العوض زالت المحبة . وقال ذو النون : قل لمن أظهر حب الله إحذر أن تذل لغير الله . وقيل للشبلي رحمه الله . صف لنا العارف والمحب فقال . العارف إن تكلم هلك والمحب إن سكت هلك . وقال الشبلي رحمه الله

يا أيها السيد الكريم ... حبك بين الحشا مقيم

يارافع النوم عن جفوني ... أنت بما مر بي عليم

ولغيره

عجبت لمن يقول ذكرت إلفي ... وهل أنسى فأذكر مانسيت

أموت إذا ذكرتك ثم أحيا ... ولولا حسن ظني ماحييت

فأحيا بالمنى وأموت شوقا ... فكم أحيا عليك وكم أموت

من حديث أنس مرفوعا عن الله خلقت بضعة عشر وثلثمائة خلق من جاء بخلق منها مع شهادة أن لا اله الا الله دخل الجنة ومن حديث ابن عباس الاسلام ثلثمائة شريعة وثلاثة عشر شريعة وفيه وفي الكبير من رواية المغيرة بن عبد الرحمن بن عبيد عن أبيه عن جده نحوه بلفظ الايمان وللبزار من حديث عثمان بن عفان ان الله تعالى مائة وسبعة عشر شريعة ـ الحديث : وليس فيها كلها تعرض لسؤال أبي بكر وجوابه وكلها ضعيفة

(١) حديث رأيت ميزانا دلي من السماء فوضعت في كفة ووضعت أمتي في كفة فرجحت بهم ـ الحديث : أحمد من حديث أبي أمامة بسند ضعيف

(٢) حديث لو كنت متخذا من الناس خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ـ الحديث : متفق عليه وقد تقدم

شربت الحب كاسا بعد كاس　فما نفد الشراب وما رويت

فليت خياله نصب لعينى　فإن قصرت فى نظرى عميت

وقالت : رابعـة العدوية يوما : من يدلنا على حبيبنا ؟ فقالت خادمة لها : حبيبنا معنا ولـكن الدنيا قطعتنا عنـه . وقال ابن الجلاء رحمه الله تعالى : أوحى الله إلى عيسى عليـه السلام . إنى إذا اطلعت على سر عبد فلم أجد فيه حب الدنيا والآخرة ، ملأته من حبى ، وتوليته بحفظى . وقيل : تـكلم سمنون يوما فى المحبة ، فإذا بطائر نزل بين يديه ، فلم يزل ينقر بمنقاره الأرض حتى سال الدم منـه فمات . وقال إبراهيم بن أدهم : إلٰهى إنك تعلم أن الجنة لا تزن عندى جناح بعوضة فى جنب ما أكرمتنى من محبتك ، وآنستنى بذكرك ، وفرغتنى للتفكر فى عظمتك . وقال السرى رحمه الله : من أحب الله عاش ، ومن مال إلى الدنيا طاش ، والأحمق يغدو ويروح فى لاش ، والعاقل عن عيوبه فتاش

وقيل لرابعة : كيف حبك الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت والله إنى لأحبه حبا شديدا ، ولكن حب الخالق شغلنى عن حب المخلوقين . وسئل عيسى عليه السلام عن أفضل الأعمـال ، فقال الرضا عن الله تعالى والحب له . وقال أبو يزيد : المحب لا يحب الدنيا ولا الآخرة ، إنما يحب من مولاه مولاه . وقال الشبلى : الحب دهش فى لذة ، وحيرة فى تعظيم . وقيل : المحبة أن تمحو أثرك عنك ، حتى لا يبقى فيك شىء راجع منك إليك . وقيل : المحبة قرب القلب من المحبوب بالاستبشار والفرح . وقال الخواص : المحبة محو الإرادات ، واحتراق جميع الصفات والحاجات

وسئل سهل عن المحبة فقال : عطف الله بقلب عبده لمشاهدته بعد الفهم للمراد منه وقيل : معاملة المحب على أربع منازل . على المحبة ، والهيبة ، والحياء ، والتعظيم . وأفضلها التعظيم والمحبة ، لأن هاتين المنزلتين يبقيان مع أهل الجنة فى الجنة ويرفع عنهم غيرهما . وقال هرم بن حيان : المؤمن إذا عرف ربه عز وجل أحبه ، وإذا أحبه أقبل عليه ، وإذا وجد حلاوة الإقبال عليه لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة ، ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفترة ، وهي تحسره فى الدنيا ، وتروحه فى الآخرة

وقال عبد الله بن محمد : سمعت امرأة من المتعبدات تقول وهي باكية ، والدموع على خدها جارية والله لقد سئمت من الحياة ، حتى لو وجدت الموت يباع لاشتريته شوقا إلى الله تعالى وحبا للقائه . قال : فقلت لها . فعلى ثقة أنت من عملك ؟ قالت لا : ولكن لحبى إياه ، وحسن ظنى به ، أفتراه يعذبنى وأنا أحبه ؟ . وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام . لو يعلم المدبرون عنى كيف انتظارى لهم

ورفقى بهم، وشوقى إلى ترك معاصيهم، لماتوا شوقا إلي، وتقطعت أوصالهم من محبتى. ياداود هذه إرادتى فى المدبرين عنى، فكيف إرادتى فى المقبلين علي ! ياداود، أحوج مايكون العبد إلي إذا استغنى عنى، وأرحم ماأكون بعبدى إذا أدبر عنى، وأجل مايكون عندى إذا رجع إليّ

وقال أبو خالد الصفار : لقى نبي من الأنبياء عابدا ، فقال له. إنكم معاشر العباد تعملون على أمر لسنا معشر الأنبياء نعمل عليه أنتم تعملون على الخوف والرجاء، ونحن نعمل على المحبة والشوق

وقال الشبلى رحمه الله : أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام ياداود: ذكرى للذاكرين، وجنتى للمطيعين، وزيارتى للمشتاقين، وأنا خاصة للمحبين. وأوحى الله تعالى إلى آدم عليه السلام ياآدم ، من أحب حبيبا صدق قوله . ومن أنس بحبيبه رضي فعله ، ومن اشتاق إليه جد فى مسيره.

وكان الخواص رحمه الله يضرب على صدره ويقول . واشوقاه لمن يرانى ولا أراه

وقال الجنيد رحمه الله . بكى يونس عليه السلام حتى عمى، وقام حتى انحنى، وصلى حتى أقعد وقال . وعزتك وجلالك لوكان بينى وبينك بحر من نار لخضته إليك شوقا منى إليك

وعن[1] على بن أبى طالب كرم الله وجهه قال . سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سنته فقال «الْمَعْرِفَةُ رَأْسُ مَالِي وَالْعَقْلُ أَصْلُ دِينِي وَالْحُبُّ أَسَاسِي وَالشَّوْقُ مَرْكَبِي وَذِكْرُ اللهِ أَنِيسِي وَالثِّقَةُ كَنْزِي وَالْحُزْنُ رَفِيقِي وَالْعِلْمُ سِلَاحِي وَالصَّبْرُ رِدَائِي وَالرِّضَا غَنِيمَتِي وَالْعَجْزُ فَخْرِي وَالزُّهْدُ حِرْفَتِي وَالْيَقِينُ قُوَّتِي وَالصِّدْقُ شَفِيعِي وَالطَّاعَةُ حُبِّي وَالْجِهَادُ خُلُقِي وَقُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ» . وقال ذوالنون . سبحان من جعل الأرواح جنودا مجندة، فأرواح العارفين جلالية قدسية ؛ فلذلك اشتاقوا إلى الله تعالى، وأرواح المؤمنين روحانية ؛ فلذلك حنوا إلى الجنة ، وأرواح الغافلين هوائية ، فلذلك مالوا إلى الدنيا . وقال بعض المشايخ: رأيت فى جبل اللكام رجلا أسمر اللون ، ضعيف البدن ، وهو يقفز من حجر إلى حجر ويقول :

الشوق والهوى صيرانى كما ترى

ويقال : الشوق نار الله أشعلها فى قلوب أوليائه ، حتى يحرق بها مافى قلوبهم من الخواطر والإرادات، والعوارض والحاجات . فهذا القدر كاف فى شرح المحبة ، والأنس ، والشوق والرضا ، فلنقتصر عليه ، والله الموفق للصواب

تمّ كتاب المحبة، والشوق ، والرضا ، والأنس، يتلوه كتاب النية والإخلاص، والصدق

---

(١) حديث على سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سنته فقال المعرفة رأس مالى والعقل أصل دينى الحديث : ذكره القاضى عياض من حديث على بن أبى طالب ولم أجد له إسنادا

كتاب النية والإخلاص والصدق

كتاب النية والإخلاص والصدق

وهو الكتاب السابع من ربع المنجيات
من كتب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله حمد الشاكرين ، ونؤمن به إيمان الموقنين ، ونقر بوحدانيته إقرار الصادقين ونشهد أن لا إله إلا الله رب العالمين . وخالق السموات والأرضين ، ومكلف الجن والإنس والملائكة المقربين أن يعبدوه عبادة المخلصين ، فقال تعالى (وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ [١]) فما لله إلا الدين الخالص المتين ، فإنه أغنى الأغنياء عن شركة المشاركين والصلاة على نبيه محمد سيد المرسلين ، وعلى جميع النبيين ، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين

أما بعد : فقد انكشف لأرباب القلوب ببصيرة الإيمان وأنوار القرءان أن لا وصول إلى السعادة إلا بالعلم والعبادة ، فالناس كلهم هلكى إلا العالمون ، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون ، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم . فالعمل بغير نية عناء ، والنية بغير إخلاص رياء ، وهو للنفاق كفاء ، ومع العصيان سواء ، والإخلاص من غير صدق وتحقيق هباء . وقد قال الله تعالى فى كل عمل كان بإرادة غير الله مشوبا مغمورا (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً [٢])

وليت شعرى كيف يصحح نيته من لا يعرف حقيقة النية ، أو كيف يخلص من صحح النية إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص ، أو كيف تطالب المخلص نفسه بالصدق إذا لم يتحقق معناه . فالوظيفة الأولى على كل عبد أراد طاعة الله تعالى أن يتعلم النية أولا لتحصل المعرفة ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص ، اللذين هما وسيلتا العبد إلى النجاة والخلاص . ونحن نذكر معانى الصدق والإخلاص فى ثلاثة أبواب .

الباب الأول : فى حقيقة النية ومعناها

الباب الثانى : فى الإخلاص وحقائقه

الباب الثالث : فى الصدق وحقيقته

(١) البينة : ٥ (٢) الفرقان : ٢٣

الباب الأول

فى النيـــة

وفيه بيان فضيلة النية، وبيان حقيقة النية، وبيان كون النية خيرا من العمل، وبيان تفضيل الأعمال المتعلقة بالنفس، وبيان خروج النية عن الاختيار

بيان

فضيـــلة النيـــة

قال الله تعالى (وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ [(١)]) والمراد بتلك الإرادة هي النية . وقال صلى الله عليه وسلم [(١)] « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَلِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ » وقال صلى الله عليه وسلم [(٢)] « أَكْثَرُ شُهَدَاءِ أُمَّتِي أَصْحَابُ الْفُرُشِ وَرُبَّ قَتِيلٍ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ اللهُ أَعْلَمُ بِنِيَّتِهِ » . وقال تعالى (إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا [(٢)]) فجعل النية سبب التوفيق وقال صلى الله عليه وسلم [(٣)] « إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ » وإنما نظر إلى القلوب لأنها مظنة النية

وقال صلى الله عليه وسلم [(٤)] « إِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ أَعْمَالًا حَسَنَةً فَتَصْعَدُ الْمَلَائِكَةُ فِي صُحُفٍ مُخَتَّمَةٍ فَتُلْقَى بَيْنَ يَدَيِ اللهِ تَعَالَى فَيَقُولُ أَلْقُوا هَذِهِ الصَّحِيفَةَ فَإِنَّهُ لَمْ يُرِدْ بِمَا فِيهَا وَجْهِي ثُمَّ يُنَادِي الْمَلَائِكَةَ اكْتُبُوا لَهُ كَذَا وَكَذَا اكْتُبُوا لَهُ كَذَا وَكَذَا فَيَقُولُونَ يَا رَبَّنَا إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى إِنَّهُ نَوَاهُ »

﴿ كتاب النية والاخلاص والصدق ﴾

(١) حديث انما الأعمال بالنيات ـ الحديث : متفق عليه من حديث عمر وقد تقدم

(٢) حديث أكثر شهداء أمتى أصحاب الفرش ورب قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته : أحمد من حديث ابن مسعود وفيه عبد الله بن لهيعة

(٣) حديث إن الله لاينظر الى صوركم وأموالكم ـ الحديث : مسلم من حديث أبى هريرة وقد تقدم

(٤) حديث إن العبد ليعمل أعمالا حسنة فتصعد بها الملائكة الحديث : الدارقطنى من حديث أنس باسناد حسن

---

(١) الأنعام : ٥٢ (٢) النساء : ٣٥

وقال صلى الله عليه وسلم [١] « النَّاسُ أَرْبَعَةٌ رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عِلْماً وَمالاً فَهُوَ يَعْمَلُ بِعِلْمِهِ فِي مَالِه فَيَقُولُ رَجُلٌ لَوْ آتَانِيَ اللهُ تَعَالَى مِثْلَ مَا آتَاهُ لَعَمِلْتُ كَمَا يَعْمَلُ فَهُمَا فِي الْأَجْرِ سَوَاءٌ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ تَعَالَى مَالاً وَلَمْ يُؤْتِهِ عِلْماً فَهُوَ يَتَخَبَّطُ بِجَهْلِهِ فِي مَالِهِ فَيَقُولُ رَجُلٌ لَوْ آتَانِيَ اللهُ مِثْلَ مَا آتَاهُ عَمِلْتُ كَمَا يَعْمَلُ فَهُمَا فِي الْوِزْرِ سَوَاءٌ » ألا ترى كيف شركه بالنية فى محاسن عمله ومساويه

الأمر بقدر النية

وكذلك فى حديث أنس بن مالك . لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك [٢] قال « إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَاماً مَاقَطَعْنَا وَادِياً وَلاَ وَطِئْنَا مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ أَنْفَقْنَا نَفَقَةً وَلاَ أَصَابَتْنَا مَخْمَصَةٌ إِلَّا شَرَكُونَا فِي ذَلِكَ وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ » قالوا وكيف ذلك يارسول الله وليسوا معنا قال « حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ » فشركوا بحسن النية

وفى حديث [٣] ابن مسعود « مَنْ هَاجَرَ يَبْتَغِي شَيْئاً فَهُوَ لَهُ » فهاجر رجل فتزوج امرأة منا فكان يسمى مهاجر أم قيس . وكذلك جاء فى الخبر [٤] أن رجلا قتل فى سبيل الله وكان يدعى قتيل الحمار ، لأنه قاتل رجلا ليأخذ سلبه وحماره ، فقتل على ذلك ، فأضيف إلى نيته

وفى حديث عبادة عن النبي صلى الله عليه وسلم [٥] « مَنْ غَزَا وَهُوَ لاَيَنْوِي إِلاَّ عِقَالاً فَلَهُ مَانَوَى » وقال [٦] أُبيّ استعنت رجلا يغزو معى ، فقال لا حتى تجعل لى جعلا. فجعلت له . فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال « لَيْسَ لَهُ مِنْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ إِلاَّ مَاجَعَلْتَ لَهُ »

---

(١) حديث الناس أربعة رجل آتاه الله علما ومالا ـ الحديث : ابن ماجه من حديث أبى كبشة الانمارى بإسناد جيد بلفظ مثل هذه الأمة كمثل أربعة نفر الحديث وقد تقدم ورواه الترمذى بزيادة وفيه وانما الدنيا لأربعة نفر الحديث وقال حسن صحيح

(٢) حديث أنس إن بالمدينة أقواما ماقطعنا واديا ـ الحديث : البخارى مختصرا وأبو داود

(٣) حديث ابن مسعود من هاجر يبتغى شيئا فهو له هاجر رجل فتزوج امرأة مناوكان يسمى مهاجر أم قيس : الطبرانى باسناد جيد

(٤) حديث إن رجلا قتل فى سبيل الله فكان يدعى قتيل الحمار : لم أجد له أصلا فى الموصولات وانما رواه أبو اسحق الفزاوى فى السنن من وجه مرسل

(٥) حديث من غزا وهو لا ينوى الا عقالا فله مانوى : النسائى من حديث عبادة بن الصامت وتقدم غير مرة

(٦) حديث أبى استعنت رجلا يغزو معى فقال لا حتى تجعل لى جعلا فجعلت له فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال ليس له من دنياه وآخرته الا ماجعلت له : الطبرانى فى مسند الشاميين ولأبى داود من حديث يعلى بن أمية انه استأجر أجيرا للغزو وسمى له ثلاثة دنانير فقال النبي صلى الله عليه وسلم ماأجد له فى غزوته هذه فى الدنيا والآخرة الا دنانيره التى سمى

وروي في الاسرائيليات . أن رجلا مرّ بكثبان من رمل في مجاعة ، فقال في نفسه . لو كان هذا الرمل طعاما لقسمته بين الناس . فأوحى الله تعالى إلى نبيهم أن قل له : إن الله تعالى قد قبل صدقتك ، وقد شكر حسن نيتك ، وأعطاك ثواب مالو كان طعاما فتصدقت به

الاخبار في فضل النية

وقد ورد في أخبار كثيرة [١] « مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ وَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ »

وفي حديث [٢] عبد الله بن عمرو « مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا نِيَّتَهُ جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَفَارَقَهَا أَرْغَبَ مَا يَكُونُ فِيهَا وَمَنْ تَكُنِ الْآخِرَةُ نِيَّتَهُ جَعَلَ اللهُ تَعَالَى غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ وَفَارَقَهَا أَزْهَدَ مَا يَكُونُ فِيهَا »

وفي حديث [٣] أم سلمة . أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر جيشا يخسف بهم بالبيداء فقلت يارسول الله : يكون فيهم المكره والأجير . فقال « يُحْشَرُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ »

وقال عمر رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول [٤] « إِنَّمَا يَقْتَتِلُ الْمُقْتَتِلُونَ عَلَى النِّيَّاتِ » وقال عليه السلام [٥] « إِذَا الْتَقَى الصَّفَّانِ نَزَلَتِ الْمَلَائِكَةُ تَكْتُبُ الْخَلْقَ عَلَى مَرَاتِبِهِمْ فُلَانٌ يُقَاتِلُ لِلدُّنْيَا فُلَانٌ يُقَاتِلُ حَمِيَّةً فُلَانٌ يُقَاتِلُ عَصَبِيَّةً أَلَا فَلَا تَقُولُوا فُلَانٌ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَمَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ » . وعن جابر ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال [٦] « يُبْعَثُ

---

(١) حديث من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة : متفق عليه وقد تقدم

(٢) حديث عبد الله بن عمرو من كانت الدنيا نيته جعل الله فقره بين عينيه ـ الحديث : ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت باسناد جيد دون قوله وفارقها أرغب مايكون فيها ودون قوله وفارقها أزهد مايكون فيها وفيه زيادة ولم أجده من حديث عبد الله بن عمرو

(٣) حديث أم سلمة في الجيش الذي يخسف بهم يحشرون على نياتهم : مسلم وأبو داود وقد تقدم

(٤) حديث إنما يقتتل المقتتلون على النيات : ابن أبي الدنيا في كتاب الاخلاص والنية من حديث عمر باسناد ضعيف بلفظ انما يبعث ورويناه في فوائد تمام بلفظ انما يبعث المسلمون على النيات ولابن ماجه من حديث أبي هريرة انما يبعث الناس على نياتهم وفيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه

(٥) حديث اذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الخلق على مراتبهم فلان يقاتل للدنيا ـ الحديث : ابن المبارك في الزهد موقوفا على ابن مسعود وآخر الحديث مرفوع في الصحيحين من حديث أبي موسى من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله

(٦) حديث جابر يبعث كل عبد على مامات عليه : رواه مسلم

كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَامَاتَ عَلَيْهِ » وفي حديث [١] الأحنف عن أبي بكرة « إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ » قيل يارسول الله ، هذا القاتل ، فما بال المقتول؟ قال « لِأَنَّهُ أَرَادَ قَتْلَ صَاحِبِهِ » . وفي حديث [٢] أبي هريرة « مَنْ تَزَوَّجَ امْرَأَةً عَلَى صَدَاقٍ وَهُوَ لَايَنْوِي أَدَاءَهُ فَهُوَ زَانٍ وَمَنِ ادَّانَ دَيْناً وَهُوَ لَا يَنْوِي قَضَاءَهُ فَهُوَ سَارِقٌ »

وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « مَنْ تَطَيَّبَ لِلَّهِ تَعَالَى جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ وَمَنْ تَطَيَّبَ لِغَيْرِ اللَّهِ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرِيحُهُ أَنْتَنُ مِنَ الْجِيفَةِ »

الآثار في فضيلة النية

وأما الآثار : فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أفضل الأعمال أداء ماافترض الله تعالى ، والورع عما حرم الله تعالى ، وصدق النية فيما عند الله تعالى

وكتب سالم بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز . اعلم أن عون الله تعالى للعبد على قدر النية. فمن تمت نيته تم عون الله له، وإن نقصت نقص بقدره . وقال بعض السلف : رب عمل صغير تعظمه النية ، ورب عمل كبير تصغره النية . وقال داود الطائي : البرّ همته التقوى ، فلو تعلقت جميع جوارحه بالدنيا لردته نيته يوما إلى نية صالحة. وكذلك الجاهل بعكس ذلك

وقال الثوري : كانوا يتعلمون النية للعمل كما تتعلمون العمل

وقال بعض العلماء : اطلب النية للعمل قبل العمل . ومادمت تنوى الخير فأنت بخير

وكان بعض المريدين يطوف على العلماء يقول : من يدلني على عمل لاأزال فيه عاملا لله تعالى ، فإني لاأحب أن يأتي عليّ ساعة من ليل أو نهار إلا وأنا عامل من عمال الله . فقيل له : قد وجدت حاجتك . فاعمل الخير ماستطعت ، فإذا فترت أو تركته فهمّ بعمله فإن الهامّ بعمل الخير كعامله . وكذلك قال بعض السلف : إن نعمة الله عليكم أكثر من أن تحصوها ، وإن ذنوبكم أخفى من أن تعلموها ، ولكن أصبحوا توابين ، وأمسوا توابين يغفر لكم مابين ذلك . وقال عيسى عليه السلام : طوبى لعين نامت ولاتهم بمعصية ،

---

(١) حديث الأحنف عن أبي بكرة اذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار : متفق عليه

(٢) حديث أبي هريرة من تزوج امرأة على صداق وهو لاينوى أداءه فهو زان : أحمد من حديث صهيب ورواه ابن ماجه مقتصرا على قصة الدين دون ذكر الصداق

(٣) حديث من تطيب لله جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك ـ الحديث : أبو الوليد الصفار في كتاب الصلاة من حديث اسحق بن أبي طلحة مرسلا

وانتبهت إلى غير إثم . وقال أبو هريرة : يبعثون يوم القيامة على قدر نياتهم

وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ [1]) يبكي ويرددها ويقول: إنك إن بلوتنا فضحتنا ،وهتكت أستارنا . وقال الحسن : إنما خلد أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار بالنيات .

وقال أبو هريرة : مكتوب فى التوراة . ماأريد به وجهى فقليله كثير ، وما أريد به غيرى فكثيره قليل . وقال بلال بن سعد : إن العبد ليقول قول مؤمن ، فلا يدعه الله عز وجل وقوله حتى ينظر فى عمله،فإذا عمل لم يدعه الله حتى ينظر فى ورعه . فإن تورع لم يدعه حتى ينظر ماذا نوى ، فإن صلحت نيته فبالحري أن يصلح مادون ذلك

فإذن عماد الأعمال النيات ، فالعمل مفتقر إلى النية ليصير بها خيرا ، والنية فى نفسها خير وإن تعذر العمل بعائق

بيان
حقيقة النيـــة

اعلم أن النية والإرادة ، والقصد ، عبارات متواردة على معنى واحد ، وهو حالة وصفة للقلب يكتنفها أمران : علم ، وعمل ، العلم يقدمه لأنه أصله وشرطه ،والعمل يتبعه لأنه ثمرته وفرعه . وذلك لأن كل عمل ،أعنى كل حركة وسكون ، اختيارى ، فإنه لايتم إلا بثلاثة أمور علم ،وإرادة ، وقدرة ، لأنه لايريد الإنسان مالا يعلمه ، فلا بد وأن يعلم . ولا يعمل مالم يرد ، فلا بد من إرادة ، ومعنى الإرادة انبعاث القلب إلى مايراه موافقا للغرض ، إما فى الحال أو فى المآل ، فقد خلق الإنسان بحيث يوافقه بعض الأمور ويلائم غرضه ،ويخالفه بعض الأمور . فيحتاج إلى جلب الملائم الموافق إلى نفسه ، ودفع الضار المنافى عن نفسه . فافتقر بالضرورة إلى معرفة وإدراك للشيء المضر والنافع ، حتى يجلب هذا ويهرب من هذا، فإن من لايبصر الغذاء ولا يعرفه لايمكنه أن يتناوله ، ومن لايبصر النار لايمكنه الهرب منها . فخلق الله الهداية والمعرفة ، وجعل لها أسبابا وهي الحواس الظاهرة والباطنة ، وليس ذلك من غرضنا

---

(1) محمد : ٣١

ثم لو أبصر الغذاء وعرف أنه موافق له ، فلا يكفيه ذلك للتناول مالم يكن فيه ميل إليه ورغبة فيه ، وشهوة له باعثة عليه . إذ المريض يرى الغـذاء ويعلم أنه موافق ، ولا يمكنه التناول لعدم الرغبة والميل ، ولفقد الداعية المحركة إليه . فخلق الله تعالى له الميل ، والرغبة والإرادة ، وأعنى به نزوعا فى نفسه إليه ، وتوجها فى قلبه إليه

ثم ذلك لا يكفيه ، فكم من مشاهد طعاما راغب فيه ، مريد تناوله ، عاجز عنه لكونه زمنا . فخلقت له القدرة والأعضاء المتحركة حتى يتم به التناول . والعضو لا يتحرك إلا بالقدرة والقدرة تنتظر الداعية الباعثة ، والداعية تنتظر العلم والمعرفة ، أو الظن والاعتقاد ، وهو أن يقوى فى نفسه كون الشيء موافقا له ، فإذا جزمت المعرفة بأن الشيء موافق ، ولا بد وأن يفعل ، وسلمت عن معارضة باعث آخر صارف عنه ، أنبعثت الإرادة ، وتحقق الميل فإذا انبعثت الإرادة انتهضت القدرة لتحريك الأعضاء . فالقدرة خادمة للإرادة ، والإرادة تابعة لحكم الاعتقاد والمعرفة . فالنية عبارة عن الصفة المتوسطة ، وهي الإرادة وانبعاث النفس بحكم الرغبة والميل إلى ماهو موافق للغرض ، إما فى الحال وإما فى المآل

فالمحرك الأول هو الغرض المطلوب ، وهو الباعث ، والغرض الباعث هو المقصد المنوي والانبعاث هو القصد والنية ، وانتهاض القدرة لخدمة الإرادة بتحريك الأعضاء هو العمل إلا أن انتهاض القدرة للعمل قد يكون بباعث واحد ، وقد يكون بباعثين اجتمعا فى فعل واحد . وإذا كان بباعثين فقد يكون كل واحد بحيث لو انفرد لكان مليا بإنهاض القدرة وقد يكون كل واحد قاصرا عنه إلا بالاجتماع ، وقد يكون أحدهما كافيا لولا الآخر ، لكن الآخر انتهض عاضدا له ومعاونا ، فيخرج من هذا التقسيم أربعة أقسام ، فلنذكر لكل واحد مثالا واسما

الاخلاص ومثاله

أما الأول : فهو أن ينفرد الباعث الواحد ويتجرد ، كما إذا هجم على الإنسان سبع ، فكلما رآه قام من موضعه ، فلا مزعج له إلا غرض الهرب من السبع ، فإنه رأى السبع وعرفه ضارا ، فانبعثت نفسه إلى الهرب ورغبت فيه ، فانتهضت القدرة عاملة بمقتضى الانبعاث ، فيقال نيته الفرار من السبع ، لانية له فى القيام لغيره . وهذه النية تسمى خالصة ، ويسمى العمل بموجبها إخلاصا بالإضافة إلى الغرض الباعث ، ومعناه أنه خلص عن مشاركة غيره وممازجته

وأما الثانى : فهو أن يجتمع باعثان كل واحد مستقل بالإنهاض لو انفرد . ومثاله من المحسوس

المرافقة ومثالها

أن يتعاون رجلان على حمل شيء بمقدار من القوة كان كافيا فى الحمل لو انفرد . ومثاله فى غرضنا أن يسأله قريبه الفقير حاجة، فيقضيها الفقره وقرابته، وعلم أنه لولا فقره لكان يقضيها بمجرد القرابة وأنه لولا قرابته لكان يقضيها بمجرد الفقر، وعلم ذلك من نفسه بأن يحضره قريب غنى فيرغب فى قضاء حاجته وفقير أجنبي فيرغب أيضا فيه . وكذلك من أمره الطبيب بترك الطعام ، ودخل عليه يوم عرفة فصام وهو يعلم أنه لو لم يكن يوم عرفة لكان يترك الطعام حمية، ولولا الحمية لكان يتركه لأجل أنه يوم عرفة وقد اجتمعا جميعا فأقدم على الفعل، وكان الباعث الثانى رفيق الأول . فلنسم هذا مرافقة للبواعث

المشاركة ومثالها

والثالث: أن لا يستقل كل واحد لو انفرد، ولكن قوي بمجموعهما على إنهاض القدرة . ومثاله فى المحسوس أن يتعاون ضعيفان على حمل ما لا ينفرد أحدهما به . ومثاله فى غرضنا أن يقصده قريبه الغني فيطلب درهما فلا يعطيه ، ويقصده الأجنبي الفقير فيطلب درهما فلا يعطيه ، ثم يقصده القريب الفقير فيعطيه ، فيكون انبعاث داعيته بمجموع الباعثين، وهو القرابة والفقر . وكذلك الرجل يتصدق بين يدي الناس لغرض الثواب ولغرض الثناء، ويكون بحيث لو كان منفردا لكان لا يبعثه مجرد قصد الثواب على العطاء، ولو كان الطالب فاسقا لا ثواب فى التصدق عليه لكان لا يبعثه مجرد الرياء على العطاء، ولو اجتمعا أورثا بمجموعهما تحريك القلب، ولنسم هذا الجنس مشاركة

المعاونة ومثالها

والرابع: أن يكون أحد الباعثين مستقلا لو انفرد بنفسه ، والثانى لا يستقل ، ولكن لما انضاف إليه لم ينفك عن تأثير بالإعانة والتسهيل . ومثاله فى المحسوس أن يعاون الضعيف الرجلَ القوي على الحمل ، ولو انفرد القوي لاستقل ، ولو انفرد الضعيف لم يستقل ، فإن ذلك بالجملة يسهل العمل ويؤثر فى تخفيفه . ومثاله فى غرضنا أن يكون للإنسان ورد فى الصلاة ، وعادة فى الصدقات ، فاتفق أن حضر فى وقتها جماعة من الناس ، فصار الفعل أخف عليه بسبب مشاهدتهم ، وعلم من نفسه أنه لو كان منفردا خاليا لم يفتر عن عمله ، وعلم أن عمله لو لم يكن طاعة لم يكن مجرد الرياء يحمله عليه ، فهو شوب تطرق إلى النية، ولنسم هذا الجنس المعاونة

فالباعث الثانى إما أن يكون رفيقا، أو شريكا، أو معينا . وسنذكر حكمها فى باب الإخلاص . والغرض الآن بيان أقسام النيات، فإن العمل تابع للباعث عليه ، فيكتسب الحكم منه . ولذلك قيل . إنما الأعمال بالنيات ، لأنها تابعة لا حكم لها فى نفسها ، وإنما الحكم للمتبوع

بيانه

سر قوله صلى الله عليه وسلم (١) « نِيَّةُ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ »

اعلم أنه قد يظن أن سبب هذا الترجيح أن النية سر لا يطلع عليه إلا الله تعالى ، والعمل ظاهر، ولعمل السر فضل ، وهذا صحيح . ولكن ليس هو المراد ، لأنه لو نوى أن يذكر الله بقلبه ، أو يتفكر فى مصالح المسلمين ، فيقتضى عموم الحديث أن تكون نية التفكر خيرا من التفكر

وقد يظن أن سبب الترجيح أن النية تدوم إلى آخر العمل ، والأعمال لا تدوم ، وهو ضعيف لأن ذلك يرجع معناه إلى أن العمل الكثير خير من القليل ، بل ليس كذلك ، فإن نية أعمال الصلاة قد لا تدوم إلا فى لحظات معدودة ، والأعمال تدوم . والعموم يقتضى أن تكون نيته خيرا من عمله . وقد يقال : إن معناه أن النية بمجردها خير من العمل بمجرده دون النية، وهو كذلك ، ولكنه بعيد أن يكون هو المراد ، إذ العمل بلا نية أو على الغفلة لا خير فيه أصلا، والنية بمجردها خير . وظاهر الترجيح للمشتركين فى أصل الخير

بل المعنى به أن كل طاعة تنتظم بنية وعمل ، وكانت النية من جملة الخيرات ، وكان العمل من جملة الخيرات ، ولكن النية من جملة الطاعة خير من العمل ، أي لكل واحد منهما أثر فى المقصود ، وأثر النية أكثر من أثر العمل . فمعناه نية المؤمن من جملة طاعته خير من عمله الذى هو من جملة طاعته . والغرض أن للعبد اختيارا فى النية وفى العمل ، فهما عملان ، والنية من الجملة خيرهما . فهذا معناه

وأما سبب كونها خيرا ومترجحة على العمل ، فلا يفهمه إلا من فهم مقصد الدين وطريقه ومبلغ أثر الطريق فى الاتصال إلى المقصد ، وقاس بعض الآثار بالبعض ، حتى يظهر له بعد ذلك الأرجح بالإضافة إلى المقصود . فمن قال الخبز خير من الفاكهة فإنما يعنى به أنه خير بالإضافة إلى مقصود القوت والاغتذاء ، ولا يفهم ذلك إلا من فهم أن للغذاء مقصدا وهو الصحة والبقاء ، وأن الأغذية مختلفة الآثار فيها ، وفهم أثر كل واحد ، وقاس بعضها بالبعض . فالطاعات غذاء للقلوب ، والمقصود شفاؤها ، وبقاؤها ، وسلامتها فى الآخرة

(١) حديث نية المؤمن خير من عمله : الطبرانى من حديث سهل بن سعد ومن حديث النواس بن سمعان وكلاهما ضعيف

وسعادتها ، وتنعمها بلقاء الله تعالى . فالمقصد لذة السعادة بلقاء الله فقط ، ولن يتنعم بلقاء الله إلا من مات محبا لله تعالى ، عارفا بالله ، ولن يحبه إلا من عرفه ، ولن يأنس بربه إلا من طال ذكره له ، فالأنس يحصل بدوام الذكر ، والمعرفة تحصل بدوام الفكر ، والمحبة تتبع المعرفة بالضرورة ، ولن يتفرغ القلب لدوام الذكر والفكر إلا إذا فرغ من شواغل الدنيا ولن يتفرغ من شواغلها إلا إذا انقطع عنه شهواتها ، حتى يصير مائلا إلى الخير مريدا له نافرا عن الشر مبغضا له . وإنما يميل إلى الخيرات والطاعات إذا علم أن سعادته في الآخرة منوطة بها ، كما يميل العاقل إلى الفصد والحجامة لعلمه بأن سلامته فيهما

وإذا حصل أصل الميل بالمعرفة ، فإنما يقتضى الميل والمواظبة عليه ، فإن المواظبة على مقتضى صفات القلب وإرادتها بالعمل تجرى مجرى الغذاء والقوت لتلك الصفة ، حتى تترشح الصفة وتقوى بسببها ، فالمائل إلى طلب العلم أو طلب الرياسة لا يكون ميله في الابتداء إلا ضعيفا ، فإن اتبع مقتضى الميل واشتغل بالعلم وتربية الرياسة والأعمال المطلوبة لذلك ، تأكد ميله ورسخ ، وعسر عليه النزوع . وإن خالف مقتضى ميله ضعف ميله وانكسر ، وربما زال وانمحق . بل الذي ينظر إلى وجه حسن مثلا فيميل إليه طبعه ميلا ضعيفا ، لو تبعه وعمل بمقتضاه فداوم على النظر والمجالسة ، والمخالطة والمحاورة تأكد ميله حتى يخرج أمره عن اختياره ، فلا يقدر على النزوع عنه . ولو فطم نفسه ابتداء ، وخالف مقتضى ميله ، لكان ذلك كقطع القوت والغذاء عن صفة الميل ، ويكون ذلك زَبْراً ودفعاً في وجهه ، حتى يضعف وينكسر بسببه ، وينقمع وينمحى

وهكذا جميع الصفات ، والخيرات ، والطاعات كلها هي التي تراد بها الآخرة ، والشرور كلها هي التي تراد بها الدنيا لا الآخرة ، وميل النفس إلى الخيرات الأخروية وانصرافها عن الدنيوية هو الذي يفرغها للذكر والفكر ، ولن يتأكد ذلك إلا بالمواظبة على أعمال الطاعة وترك المعاصي بالجوارح ، لأن بين الجوارح وبين القلب علاقة ، حتى أنه يتأثر كل واحد منهما بالآخر ، فترى العضو إذا أصابته جراحة تألم بها القلب ، وترى القلب إذا تألم بعلمه بموت عزيز من أعزته ، أو بهجوم أمر مخوف تأثرت به الأعضاء ، وارتعدت الفرائص ، وتغير اللون . إلا أن القلب هو الأصل المتبوع ، فكأنه الأمير والراعي ، والجوارح كالخدم

والرعايا والأتباع . فالجوارح خادمة للقلب بتأكيد صفاتها فيه . فالقلب هو المقصود ، والأعضاء آلات موصلة إلى المقصود . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم [١] « إنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلُحَتْ صَلُحَ لَهَا سَائِرُ الْجَسَدِ » وقال عليه السلام [٢] « اللَّهُمَّ أَصْلِحِ الرَّاعِيَ وَالرَّعِيَّةَ » وأراد بالراعى القلب وقال الله تعالى (لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ [١]) وهي صفة القلب

فمن هذا الوجه يجب لامحالة أن تكون أعمال القلب على الجملة أفضل من حركات الجوارح . ثم يجب أن تكون النية من جملتها أفضل ، لأنها عبارة عن ميل القلب إلى الخير وإرادته له . وغرضنا من الأعمال بالجوارح أن يعوّد القلب إرادة الخير ، ويؤكد فيه الميل إليه ، ليفرغ من شهوات الدنيا ،ويكب على الذكر والفكر ،فبالضرورة يكون خيرا بالإضافة إلى الغرض ،لأنه متمكن من نفس المقصود. وهذا كما أن المعدة إذا تألمت فقد تداوى بأن يوضع الطلاء على الصدر ،وتداوى بالشرب والدواء الواصل إلى المعدة فالشرب خير من طلاء الصدر ،لأن طلاء الصدر أيضا إنما أريد به أن يسري منه الأثر إلى المعدة ، فما يلاقى عين المعدة فهو خير وأنفع

فهكذا ينبغى أن تفهم تأثير الطاعات كلها ، إذ المطلوب منها تغيير القلوب وتبديل صفاتها فقط دون الجوارح . فلا تظنن أن فى وضع الجبهة على الأرض غرضا من حيث إنه جمع بين الجبهة والأرض ، بل من حيث إنه بحكم العادة يؤكد صفة التواضع فى القلب ، فإن من يجد فى نفسه تواضعا ، فإذا استكان بأعضائه وصورها بصورة التواضع تأكد تواضعه ومن وجد فى قلبه رقة على يتيم ، فإذا مسح رأسه وقبله تأكدت الرقة فى قلبه . ولهذا لم يكن العمل بغير نية مفيدا أصلا ، لأن من يمسح رأس يتيم وهو غافل بقلبه ، أو ظان أنه يمسح ثوبا ، لم ينتشر من أعضائه أثر إلى قلبه لتأكيد الرقة . وكذلك من يسجد غافلا وهو مشغول الهم بأعراض الدنيا لم ينتشر من جبهته ووضعها على الأرض أثر إلى قلبه يتأكد به التواضع ، فكان وجود ذلك كعدمه ، وما ساوى وجوده عدمه بالإضافة إلى الغرض المطلوب منه يسمى باطلا . فيقال : العبادة بغير نية باطلة . وهذا معناه إذا فعل عن غفلة .

---

(١) حديث إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد : متفق عليه من حديث النعمان بن بشير وقد تقدم
(٢) حديث اللهم أصلح الراعى والرعية . تقدم ولم أجده

---

(١) الحج : ٣٧

فإذا قصد به رياء أو تعظيم شخص آخر، لم يكن وجوده كعدمه، بل زاده شرا. فإنه لم يؤكد الصفة المطلوب تأكيدها حتى أكد الصفة المطلوب قمعها، وهي صفة الرياء التي هي من الميل إلى الدنيا

وجه كون النية خيرا من العمل

فهذا وجه كون النية خيرا من العمل . وبهذا أيضا يعرف معنى قوله صلى الله عليه وسلم « مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ » لأن هم القلب هو ميله إلى الخير، وانصرافه عن الهوى وحب الدنيا ، وهي غاية الحسنات . وإنما الإتمام بالعمل يزيدها تأكيدا . فليس المقصود من إراقة دم القربان الدم واللحم ، بل ميل القلب عن حب الدنيا ، وبذلها إيثارا لوجه الله تعالى . وهذه الصفة قد حصلت عند جزم النية والهمة ، وإن عاق عن العمل عائق فلن ينال الله لحومها ولا دماؤها ، ولكن يناله التقوى منكم . والتقوى ههنا أعنى القلب ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إِنَّ قَوْماً بِالْمَدِينَةِ قَدْ شَرَكُونَا فِي جِهَادِنَا » كما تقدم ذكره لأن قلوبهم فى صدق إرادة الخير ، وبذل المال والنفس ، والرغبة فى طلب الشهادة وإعلاء كلمة الله تعالى ، كقلوب الخارجين فى الجهاد . وإنما فارقوهم بالأبدان لعوائق تخص الأسباب الخارجة عن القلب ، وذلك غير مطلوب إلا لتأكيد هذه الصفات

وبهذه المعانى تفهم جميع الأحاديث التى أوردناها فى فضيلة النيـــة ، فاعرضها عليها لينكشف لك أسرارها فلا نطول بالإعادة

بيان

تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية

المعاصى بالنسبة للنية

اعلم أن الأعمال وإن انقسمت أقساما كثيرة من فعل ، وقول ، وحركة ، وسكون ، وجلب ، ودفع ، وفكر ، وذكر ، وغير ذلك مما لا يتصور إحصاؤه واستقصاؤه ، فهى ثلاثة أقسام : طاعات ، ومعاص ، ومباحات . القسم الأول : المعاصى وهى لا تتغير عن موضعها بالنية . فلا ينبغى أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله عليه السلام « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ » فيظن أن المعصية تنقلب طاعة بالنية ، كالذى يغتاب إنسانا مراعاة لقلب غيره ، أو يطعم فقيرا من مال غيره ، أو يبنى مدرسة أو مسجدا أو رباطا بمال حرام ، وقصده الخير ، فهذا كله جهل ، والنيـة لا تؤثر فى إخراجه عن كونه ظلما ، وعدوانا ، ومعصية . بل قصده الخير بالشر على خلاف مقتضى الشرع شر آخر . فإن عرفه فهو معاند للشرع ؛ وإن جهله

فهو عاص بجهله ، إذطلب العلم فريضة على كل مسلم . والخيرات إنما يعرف كونها خيرات بالشرع ، فكيف يمكن أن يكون الشر خيرا ! هيهات ، بل المروج لذلك على القلب خفي الشهوة وباطن الهوى ، فإن القلب إذا كان مائلا إلى طلب الجاه ، واستمالة قلوب الناس ، وسائر حظوظ النفس ، توسل الشيطان به إلى التلبيس على الجاهل . ولذلك قال سهل رحمه الله تعالى : ماعصي الله تعالى بمعصية أعظم من الجهل . قيل يا أبا محمد : هل تعرف شيئا أشد من الجهل ؟ قال نعم : الجهل بالجهل . وهو كما قال : لأن الجهل بالجهل يسد بالكلية باب التعلم . فمن يظن بالكلية بنفسه أنه عالم فكيف يتعلم ؟ وكذلك أفضل ما أطيع الله تعالى به العلم ، ورأسُ العلم العلمُ بالعلم ، كما أن رأس الجهلِ الجهلُ بالجهل . فإن من لا يعلم العلم النافع من العلم الضار اشتغل بما أكب الناس عليه من العلوم المزخرفة التي هي وسائلهم إلى الدنيا ، وذلك هو مادة الجهل ، ومنبع فساد العالم . والمقصود أن من قصد الخير بمعصية عن جهل فهو غير معذور ، إلا إذا كان قريب العهد بالإسلام ، ولم يجد بعد مهلة للتعلم . وقد قال الله سبحانه (فَاسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ [1]) وقال النبي صلى الله عليه وسلم [1] « لاَ يُعْذَرُ الجَاهِلُ عَلَى الجَهْلِ وَلاَ يَحِلُّ لِلْجَاهِلِ أَنْ يَسْكُتَ عَلَى جَهْلِهِ وَلاَ لِلْعَالِمِ أَنْ يَسْكُتَ عَلَى عِلْمِهِ » ويقرب من تقرب السلاطين ببناء المساجد والمدارس بالمال الحرام ، تقرب العلماء السوء بتعليم العلم للسفهاء والأشرار ، المشغولين بالفسق والفجور ، القاصرين هممهم على مماراة العلماء ، ومباراة السفهاء ، واستمالة وجوه الناس ، وجمع حطام الدنيا ، وأخذ أموال السلاطين ، واليتامى ، والمساكين ، فإن هؤلاء إذا تعلموا كانوا قطاع طريق الله ، وانتهض كل واحد منهم في بلدته نائبا عن الدجال ، يتكالب على الدنيا ، ويتبع الهوى ، ويتباعد عن التقوى ، ويستجرىء الناس بسبب مشاهدته على معاصي الله . ثم قد ينتشر ذلك العلم إلى مثله وأمثاله ، ويتخذونه أيضا آلة ووسيلة في الشر واتباع الهوى ، ويتسلسل ذلك ، ووبال جميعه يرجع إلى المعلم الذي علمه العلم مع علمه بفساد نيته وقصده ، ومشاهدته أنواع المعاصي من أقواله

الجاهل لا يعذر

(١) حديث لا يعذر الجاهل على الجهل ولا يحل للجاهل أن يسكت على جهله - الحديث : الطبراني في الأوسط وابن السني وأبو نعيم في رياضة المتعلمين من حديث جابر بسند ضعيف دون قوله لا يعذر الجاهل على الجهل وقال لا ينبغي بدل ولا يحل وقد تقدم في العلم

(١) الأنبياء : ٧

وأفعاله، وفى مطعمه وملبسه ومسكنه . فيموت هذا العالم وتبقى آثار شره منتشرة فى العالم ألف سنة مثلا، وألفي سنة، وطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه . ثم العجب من جهله حيث يقول: إنما الأعمال بالنيات ،وقد قصدت بذلك نشر علم الدين، فإن استعمله هو فى الفساد فالمعصية منه لا منى، وما قصدت به إلا أن يستعين به على الخير . وإنما حب الرياسة، والاستتباع، والتفاخر بعلو العلم، يحسّن ذلك فى قلبه، والشيطان بواسطة حب الرياسة يلبس عليه، وليت شعرى ماجوابه عمن وهب سيفاً من قاطع طريق، وأعده خيلا وأسبابا يستعين بها على مقصوده، ويقول: إنما أردت البذل والسخاء ،والتخلق بأخلاق الله الجميلة ،وقصدت به أن يغزو بهذا السيف والفرس فى سبيل الله، فإن إعداد الخيل، والرباط، والقوة للغزاة من أفضل القربات ،فإن هو صرفه إلى قطع الطريق فهو العاصى . وقد أجمع الفقهاء على أن ذلك حرام، مع أن السخاء هو أحب الأخلاق إلى الله تعالى، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إِنَّ لِلّٰهِ تَعَالَى ثَلَثَمِائَةِ خُلُقٍ مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيْهِ بِوَاحِدٍ مِنْهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ وَأَحَبُّهَا إِلَيْهِ السَّخَاءُ»[1] فليت شعرى لم حرم هذا السخاء؟ ولم وجب عليه أن ينظر إلى قرينة الحال من هذا الظالم؟ فإذا لاح له من عادته أنه يستعين بالسلاح على الشر فينبغى أن يسعى فى سلب سلاحه ،لا أن يمده بغيره والعلم سلاح يقاتل به الشيطان وأعداء الله، وقد يعاون به أعداء الله عز وجل وهو الهوى. فمن لا يزال مؤثرا لدنياه على دينه، ولهواه على آخرته ،وهو عاجز عنها لقلة فضله، فكيف يجوز إمداده بنوع علم يتمكن به من الوصول إلى شهواته

كياسة العالم مراقبة تلميذه

بل لم يزل علماء السلف رحمهم الله يتفقدون أحوال من يتردد إليهم، فلو رأوا منه تقصيرا فى نفل من النوافل أنكروه وتركوا إكرامه، وإذا رأوا منه فجورا واستحلال حرام هجروه، ونفوه عن مجالسهم، وتركوا تكليمه فضلا عن تعليمه، لعلمهم بأن من تعلم مسألة ولم يعمل بها وجاوزها إلى غيرها فليس يطلب إلا آلة الشر، وقد تعوذ جميع السلف بالله من الفاجر العالم بالسنة، وما تعوذوا من الفاجر الجاهل

حكي عن بعض أصحاب أحمد بن حنبل رحمه الله أنه كان يتردد إليه سنين، ثم اتفق أن أعرض عنه أحمد، وهجره وصار لا يكلمه، فلم يزل يسأله عن تغيره عليه وهو لا يذكره حتى

---

(١) حديث ان لله ثلثمائة خلق من تقرب اليه بواحد منها دخل الجنة وأحبها اليه السخاء: تقدم فى كتاب المحبة والشوق

قال : بلغني أنك طينت حائط دارك من جانب الشارع، وقد أخذت قدر سمك الطين، وهو أنملة، من شارع المسلمين ، فلا تصلح لنقل العلم . فهكذا كانت مراقبة السلف لأحوال طلاب العلم

وهذا وأمثاله مما يلتبس على الأغبياء وأتباع الشيطان ، وإن كانوا أرباب الطيالسة والأكمام الواسعة ، وأصحاب الألسنة الطويلة والفضل الكثير ، أعني الفضل من العلوم التي لا تشتمل على التحذير من الدنيا والزجر عنها ، والترغيب في الآخرة والدعاء إليها ، بل هي العلوم التي تتعلق بالخلق ، ويتوصل بها إلى جمع الحطام ، واستتباع الناس، والتقدم على الأقران

فإذاً قوله عليه السلام « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ » يختص من الأقسام الثلاثة بالطاعات والمباحات دون المعاصي ، إذ الطاعة تنقلب معصية بالقصد ، والمباح ينقلب معصية وطاعة بالقصد . فأما المعصية فلا تنقلب طاعة بالقصد أصلا . نعم للنية دخل فيها، وهو أنه إذا انضاف إليها قصود خبيثة تضاعف وزرها ، وعظم وبالها ، كما ذكرنا ذلك في كتاب التوبة

الطاعات بالنسبة للنية

القسم الثاني : الطاعات . وهي مرتبطة بالنيات في أصل صحتها، وفي تضاعف فضلها . أما الأصل فهو أن ينوي بها عبادة الله تعالى لا غير ، فإن نوى الرياء صارت معصية . وأما تضاعف الفضل فبكثرة النيات الحسنة ، فإن الطاعة الواحدة يمكن أن ينوي بها خيرات كثيرة ، فيكون له بكل نية ثواب ، إذ كل واحدة منها حسنة . [1] تضاعف كل حسنة عشر أمثالها كما ورد به الخبر : ومثاله القعود في المسجد فإنه طاعة ، ويمكن أن ينوي فيه نيات كثيرة حتى يصير من فضائل أعمال المتقين ؟ ويبلغ به درجات المقربين

تكثير النيات يبلغ الى درجات المقربين

أولها : أن يعتقد أنه بيت الله ، وأن داخله زائر الله ، فيقصد به زيارة مولاه رجاء لما وعده به رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال [2] « مَنْ قَعَدَ فِي الْمَسْجِدِ فَقَدْ زَارَ اللَّهَ تَعَالَى وَحَقٌّ عَلَى الْمَزُورِ إِكْرَامُ زَائِرِهِ »

---

(١) حديث تضعيف الحسنة بعشرة أمثالها : تقدم

(٢) حديث من قعد في المسجد فقد زار الله تعالى وحق على المزور اكرام زائره : ابن حبان في الضعفاء من حديث سلمان وللبيهقي في الشعب نحوه من رواية جماعة من الصحابة لم يسموا باسناد صحيح وقد تقدما في الصلاة

وثانيها: أن ينتظر الصلاة بعد الصلاة، فيكون في جملة انتظاره في الصلاة، وهو معنى قوله تعالى (وَرَابِطُوا [(١)])

وثالثها. الترهب بكف السمع والبصر والأعضاء عن الحركات والترددات، فإن الاعتكاف كف، وهو في معنى الصوم، وهو نوع ترهب. ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [(١)] « رَهْبَانِيَّةُ أُمَّتِي الْقُعُودُ فِي الْمَسَاجِدِ »

ورابعها: عكوف الهمّ على الله ولزوم السر للفكر في الآخرة، ودفع الشواغل الصارفة عنه بالاعتزال إلى المسجد

وخامسها: التجرد لذكر الله أو لاستماع ذكره، وللتذكر به، كما روي في الخبر [(٢)] « مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ لِيَذْكُرَ اللهَ تَعَالَى أَوْ يُذَكِّرَ بِهِ كَانَ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى »

وسادسها: أن يقصد إفادة العلم بأمر بمعروف ونهي عن منكر، إذ المسجد لا يخلو عمن يسيء في صلاته، أو يتعاطى مالا يحل له، فيأمره بالمعروف، ويرشده إلى الدين، فيكون شريكا معه في خيره الذي يعلم منه، فتتضاعف خيراته

وسابعها: أن يستفيد أخا في الله، فإن ذلك غنيمة وذخيرة للدار الآخرة، والمسجد معشش أهل الدين المحبين لله وفي الله

وثامنها: أن يترك الذنوب حياء من الله تعالى، وحياء من أن يتعاطى في بيت الله ما يقتضي هتك الحرمة. وقد قال الحسن بن علي رضي الله عنهما: من أدمن الاختلاف إلى المسجد رزقه الله إحدى سبع خصال: أخا مستفادا في الله. أو رحمة مستنزلة. أو علما مستظرفا أو كلمة تدل على هدى أو تصرفه عن ردىء. أو يترك الذنوب خشية أو حياء.

---

(١) حديث رهبانية أمتي القعود في المساجد: لم أجد له أصلا

(٢) حديث من غدا الى المسجد يذكر الله أو يذكر به كان كالمجاهد في سبيل الله تعالى: هو معروف من قول كعب الاحبار رويناه في جزء ابن طوق وللطبراني في الكبير من حديث أبي أمامة من غدا الى المسجد لا يريد الا أن يتعلم خيرا أو يعلمه كان له كأجر حج تاما حجه واسناده جيد وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة من غدا الى المسجد أو راح أعد الله له في الجنة نزلا كلما غدا أو راح

---

(١) آل عمران: ٢٠٠

فهذا طريق تكثير النيات ، وقس به سائر الطاعات والمباحات ، إذ مامن طاعة إلا وتحتمل نيات كثيرة ،وإنما تحضر فى قلب العبد المؤمن بقدرجده فى طلب الخير ،وتشمره له، وتفكره فيه ، فبهذا تزكو الأعمال ، وتتضاعف الحسنات

المباحات بالنسبة للنية

القسم الثالث :المباحات. وما من شيء من المباحات إلا ويحتمل نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات ، وينال بها معالى الدرجات ، فما أعظم خسران من يغفل عنها،ويتعاطاها تعاطى البهائم المهملة عن سهو وغفلة . ولا ينبغى أن يستحقر العبد شيئا من الخطرات ، والخطوات ، واللحظات ، فكل ذلك يسئل عنه يوم القيامة أنه لمَ فعله ؟ وما الذى قصد به؟ هذا فى مباح محض لايشوبه كراهة . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [(١)] « حَلاَلُهَا حِسَابٌ وَحَرَامُهَا عِقَابٌ » وفى حديث [(٢)] معاذ بن جبل ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إِنَّ ٱلْعَبْدَ لَيُسْأَلُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى عَنْ كُحْلِ عَيْنَيْهِ وَعَنْ فُتَاتِ الطِّينَةِ بِأُصْبُعَيْهِ وَعَنْ لَمْسِهِ ثَوْبَ أَخِيهِ » وفى خبر آخر « مَنْ تَطَيَّبَ لِلهِ تَعَالَى جَاءَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ ٱلْمِسْكِ وَمَنْ تَطَيَّبَ لِغَيْرِ اللهِ تَعَالَى جَاءَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَرِيحُهُ أَنْتَنُ مِنَ ٱلْجِيفَةِ » فاستعمال الطيب مباح ، ولكن لابد فيه من نية

فإن قلت : فما الذى يمكن أن ينوى بالطيب وهو حظ من حظوظ النفس، وكيف يتطيب لله

فاعلم أن من يتطيب مثلا يوم الجمعة ، وفى سائر الأوقات ، يتصور أن يقصد التنعم بلذات الدنيا ، أو يقصد به إظهار التفاخر بكثرة المال ليحسده الأقران ، أو يقصد به رياء الخلق ليقوم له الجاه فى قلوبهم ويذكر بطيب الرائحة، أو ليتودد به إلى قلوب النساء الأجنبيات إذا كان مستحلا للنظر إليهن ، ولأمور أخر لاتحصى . وكل هذا يجعل التطيب معصية ، فبذلك يكون أنتن من الجيفة فى القيامة ، إلا القصد الأول وهو التلذذ والتنعم ، فإن ذلك ليس بمعصية ، إلا أنه يسئل عنه . ومن نوقش الحساب عذب ، ومن أتى شيئا من مباح الدنيا لم يعذب عليه فى الآخرة ، ولكن ينقص من نعيم الآخرة له بقدره ، وناهيك خسرانا بأن يستعجل مايفنى ، ويخسر زيادة نعيم لايفنى

---

(١) حديث حلالها حساب وحرامها عذاب : تقدم

(٢) حديث معاذ ان العبد ليسأل يوم القيامة عن كل شيء حتى عن كحل عينيه وعن فتات الطين بأصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه : لم أجد له اسنادا

وأما [١] النيات الحسنة ، فإنه ينوى به اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة وينوى بذلك أيضا تعظيم المسجد ، واحترام بيت الله ، فلا يرى أن يدخله زائر الله إلا طيب الرائحة ، وأن يقصد به ترويح جيرانه ليستريحوا فى المسجد عند مجاورته بروائحه وأن يقصد به دفع الروائح الكريهة عن نفسه التى تؤدى إلى إيذاء مخالطيه ، وأن يقصد حسم باب الغيبة عن المغتابين إذا اغتابوه بالروائح الكريهة ، فيعصون الله بسببه ، فمن تعرض للغيبة وهو قادر على الاحتراز منها فهو شريك فى تلك المعصية ، كما قيل :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا أن لا تفارقهم فالراحلون هم

وقال الله تعالى (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ [١]) أشار به إلى أن التسبب إلى الشر شر . وأن يقصد به معالجة دماغه لتزيد به فطنته وذكاؤه ويسهل عليه درك مهمات دينه بالفكر ، فقد قال الشافعي رحمه الله : من طاب ريحه زاد عقله

فهذا وأمثاله من النيات لا يعجز الفقيه عنها إذا كانت تجارة الآخرة وطلب الخير غالبة على قلبه . وإذا لم يغلب على قلبه إلا نعيم الدنيا لم تحضره هذه النيات ، وإن ذكرت له لم ينبعث لها قلبه ، فلا يكون معه منها إلا حديث النفس ، وليس ذلك من النية فى شيء

والمباحات كثيرة ، ولا يمكن إحصاء النيات فيها ، فقس بهذا الواحد ما عداه . ولهذا قال بعض العارفين من السلف : إنى لأستحب أن يكون لى فى كل شيء نية حتى فى أكلى ، وشربى ، ونومى ، ودخولى إلى الخلاء . وكل ذلك مما يمكن أن يقصد به التقرب إلى الله تعالى ، لأن كل ما هو سبب ابقاء البدن ، وفراغ القلب من مهمات البدن ، فهو معين على الدين . فمن قصده من الأكل التقوى على العبادة ، ومن الوقاع تحصين دينه ، وتطييب قلب أهله ، والتوصل به إلى ولد صالح يعبد الله تعالى بعده ، فتكثر به أمة محمد صلى الله

---

(١) حديث ان لبس الثياب الحسنة يوم الجمعة سنة : أبو داود والحاكم وصححه من حديث أبى هريرة وأبى سعيد من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب ان كان عنده ولبس أحسن ثيابه ـ الحديث : ولأبى داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن سلام ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبى مهنته وفى اسناده اختلاف وفى الصحيحين ان عمر رأى حلة سيراء عند باب المسجد فقال يا رسول الله لو اشتريت هذه فلبستها يوم الجمعة

---

(١) الأنعام : ١٠٨

عليه وسلم ، كان مطيعا بأكله ونكاحه . وأغلب حظوظ النفس الأكل والوقاع ، وقصد الخير بهما غير ممتنع لمن غلب على قلبه همّ الآخرة . ولذلك ينبغي أن يحسن نيته مهما ضاع له مال ويقول : هو في سبيل الله ، وإذا بلغه إغتياب غيره له فليطيب قلبه بأنه سيحمل سيئاته وستنقل إلى ديوانه حسناته ، ولينوى ذلك بسكوته عن الجواب ، ففي الخبر[١] « إِنَّ الْعَبْدَ لَيُحَاسَبُ فَتَبْطُلُ أَعْمَالُهُ لِدُخُولِ الْآفَةِ فِيهَا حَتَّى يَسْتَوْجِبَ النَّارَ ثُمَّ يُنْشَرُ لَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ مَا يَسْتَوْجِبُ بِهِ الْجَنَّةَ فَيَتَعَجَّبُ وَيَقُولُ يَارَبِّ هَذِهِ أَعْمَالٌ مَا عَمِلْتُهَا قَطُّ فَيُقَالُ هَذِهِ أَعْمَالُ الَّذِينَ اغْتَابُوكَ وَآذَوْكَ وَظَلَمُوكَ »

وفي الخبر[٢] « إِنَّ الْعَبْدَ لَيُوَافِي الْقِيَامَةَ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ الْجِبَالِ لَوْ خَلَصَتْ لَهُ لَدَخَلَ الْجَنَّةَ فَيَأْتِي وَقَدْ ظَلَمَ هَذَا وَشَتَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُقْتَصُّ لِهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَلِهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ حَتَّى لَا يَبْقَى لَهُ حَسَنَةٌ فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ قَدْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ وَبَقِيَ طَالِبُونَ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى أَلْقُوا عَلَيْهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ ثُمَّ صُكُّوا لَهُ صَكًّا إِلَى النَّارِ »

وبالجملة فإياك ثم إياك أن تستحقر شيئا من حركاتك ، فلا تحترز من غرورها وشرورها ، ولا تعد جوابها يوم السؤال والحساب ، فإن الله تعالى مطلع عليك وشهيد ، وما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد

وقال بعض السلف : كتبت كتابا وأردت أن أتربه من حائط جار لي ، فتحرجت ، ثم قلت تراب وما تراب ؟ فتربته ، فهتف بي هاتف : سيعلم من استخف بتراب ما يلقى غدا من سوء الحساب . وصلى رجل مع الثوري ، فرآه مقلوب الثوب ، فعرّفه ، فمدّ يده ليصلحه ، ثم قبضها فلم يسوّه ، فسأله عن ذلك فقال : إني لبسته لله تعالى ، ولا أريد أن أسويه لغير الله . وقد قال الحسن : إن الرجل ليتعلق بالرجل يوم القيامة فيقول بيني وبينك الله ، فيقول : والله ما أعرفك ، فيقول : بلى أنت أخذت لبنة من حائطي ، وأخذت خيطا من ثوبي

---

(١) حديث ان العبد ليحاسب فتبطل أعماله لدخول الآفة فيها حتى يستوجب النار ثم ينشر له من الاعمال الحسنة مايستوجب به الجنة ـ الحديث : وفيه هذه أعمال الذين اغتابوك ـ الحديث : أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من طريق أبي نعيم من حديث شيث بن سعد البلوى مختصرا ان العبد ليلقى كتابه يوم القيامة منتشرا فينظر فيه فيرى حسنات لم يعملها فيقول هذا لي ولم أعملها فيقال بما اغتابك الناس وأنت لا تشعر وفيه ابن لهيعة

(٢) حديث ان العبد ليوافي القيامة بحسنات أمثال الجبال وفيه ويأتي قد ظلم هذا وشتم هذا ـ الحديث : تقدم مع اختلاف

فهذا وأمثاله من الأخبار قطع قلوب الخائفين . فإن كنت من أولى العزم والنهى، ولم تكن من المغترين ، فانظر لنفسك الآن ، ودقق الحساب على نفسك قبل أن يدقق عليك، وراقب أحوالك ، ولا تسكن ولا تتحرك مالم تتأمل أو لا أنك لم تتحرك ؟ وماذا تقصد ؟ وما الذى تنال به من الدنيا ؟ وما الذى يفوتك من الآخرة ؟ وبماذا ترجح الدنيا على الآخرة؟ فإذا علمت أنه لا باعث إلا الدين فامض عزمك وما خطر ببالك ، وإلا فأمسك . ثم راقب أيضا قلبك فى إمساكك وامتناعك ، فإن ترك الفعل فعل، ولا بد له من نية صحيحة ؛ فلا ينبغى أن يكون الداعى هوى خفي لا يطلع عليه ، ولا يغرنك ظواهر الأمور ، ومشهورات الخيرات ، وافطن للأغوار والأسرار تخرج من حيز أهل الاغترار، فقد روي عن زكريا عليه السلام، أنه كان يعمل فى حائط بالطين ، وكان أجيرا لقوم ؛ فقدموا له رغيفه ، إذ كان لا يأكل إلا من كسب يده ، فدخل عليه قوم ، فلم يدعهم إلى الطعام حتى فرغ ، فتعجبوا منه لما علموا من سخائه وزهده ، وظنوا أن الخير فى طلب المساعدة فى الطعام ، فقال: إنى أعمل لقوم بالأجرة وقدموا إليّ الرغيف لأتقوّى به على عملهم ، فلو أكلتم معى لم يكفكم ولم يكفنى ، وضعفت عن عملهم . فالبصير هكذا ينظر فى البواطن بنور الله، فإن ضعفه عن العمل نقص فى فرض، وترك الدعوة إلى الطعام نقص فى فضل ، ولا حكم للفضائل مع الفرائض

وقال بعضهم : دخلت على سفيان وهو يأكل ، فما كلمنى حتى لعق أصابعه ثم قال: لولا أنى أخذته بدين لأحببت أن تأكل منه . وقال سفيان : من دعا رجلا إلى طعامه وليس له رغبة أن يأكل منه. فإن أجابه فأكل فعليه وزران، وإن لم يأكل فعليه وزر واحد وأراد بأحد الوزرين النفاق ، وبالثانى تعريضه أخاه لما يكره لو علمه . فهكذا ينبغى أن يتفقد العبد نيته فى سائر الأعمال. فلا يقدم ولا يحجم إلا بنية، فإن لم تحضره النية توقف، فإن النية لا تدخل تحت الاختيار

بيان

أن النية غير داخلة تحت الاختيار

اعلم أن الجاهل يسمع ما ذكرناه من الوصية بتحسين النية وتكثيرها مع قوله صلى الله عليه وسلم « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ » فيقول فى نفسه عند تدريسه ، أو تجارته ، أو أكله : نويت أن أدرس لله ، أو أتجر لله ، أو آكل لله . ويظن ذلك نية . وهيهات ؛ فذلك حديث نفس ،

وحديث لسان وفكر ، أو انتقال من خاطر إلى خاطر ، والنية بمعزل من جميع ذلك . وإنما النية انبعاث النفس وتوجهها وميلها إلى ماظهر لها أن فيه غرضها : إما عاجلا ، وإما آجلا . والميل إذا لم يكن لايمكن اختراعه واكتسابه بمجرد الإرادة ، بل ذلك كقول الشبعان : نويت أن أشتهى الطعام وأميل إليه . أو قول الفارغ : نويت أن أعشق فلانا وأحبه وأعظمه بقلبي . فذلك محال . بل لاطريق إلى اكتساب صرف القلب إلى الشيء ، وميله إليه ، وتوجهه نحوه ، إلا باكتساب أسبابه . وذلك مما قد يقدر عليه ، وقد لا يقدر عليه . وإنما تنبعث النفس إلى الفعل إجابة للغرض الباعث الموافق للنفس ، الملائم لها . ومالم يعتقد الإنسان أن غرضه منوط بفعل من الأفعال فلا يتوجه نحوه قصده . وذلك مما لا يقدر على اعتقاده فى كل حين . وإذا اعتقد فإنما يتوجه القلب إذا كان فارغا غير مصروف عنه بغرض شاغل أقوى منه . وذلك لايمكن فى كل وقت . والدواعى والصوارف لها أسباب كثيرة بها تجتمع ، ويختلف ذلك بالأشخاص ، وبالأحوال ، وبالأعمال . فإذا غلبت شهوة النكاح مثلا ، ولم يعتقد غرضا صحيحا فى الولد دينا ولا دنيا . لايمكنه أن يواقع على نية الولد ، بل لايمكن إلا على نية قضاء الشهوة إذ النية هي إجابة الباعث ، ولاباعث إلا الشهوة ، فكيف ينوى الولد! وإذا لم يغلب على قلبه [1] أن إقامة سنة النكاح اتباعا لرسول الله صلى الله عليه وسلم يعظم فضلها ، لايمكن أن ينوى بالنكاح اتباع السنة ، إلا أن يقول ذلك بلسانه وقلبه وهو حديث محض ليس بنية .

طريق اكتساب النية

نعم طريق اكتساب هذه النية مثلا أن يقوى أولا إيمانه بالشرع ، ويقوى إيمانه بعظم ثواب من سعى فى تكثير أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ويدفع عن نفسه جميع المنفردات عن الولد من ثقل المؤنة ، وطول التعب ، وغيره ، فإذا فعل ذلك ربما انبعث من قلبه رغبة إلى تحصيل الولد للثواب ، فتحركه تلك الرغبة ، وتتحرك أعضاؤه لمباشرة العقد . فإذا انتهضت القدرة المحركة للسان بقبول العقد طاعة لهذا الباعث الغالب على القلب ، كان ناويا . فإن لم يكن كذلك ، فما يقدره فى نفسه ، ويردده فى قلبه من قصد الولد ، وسواس وهذيان

ولهذا امتنع جماعة من السلف من جملة من الطاعات ، إذ لم تحضرهم النية . وكانوا يقولون . ليس تحضرنا فيه نية ، حتى أن ابن سيرين لم يصل على جنازة الحسن البصرى وقال : ليس تحضرنى نية . ونادى بعضهم امرأته ، وكان يسرح شعره ، أن هات المدرى . فقالت : أجيء

---

(١) حديث النكاح سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم : تقدم فى آداب النكاح

بالمرآة ؟ فسكت ساعة ثم قال : نعم . فقيل له فى ذلك ، فقال : كان لى فى المدرى نية ، ولم تحضرنى فى المرآة نية ، فتوقفت حتى هيأها الله تعالى

ومات حماد بن سليمان ، وكان أحد علماء أهل الكوفة ، فقيل للثوري : ألا تشهد جنازته؟ فقال لو كان لى نية لفعلت . وكان أحدهم إذا سئل عملا من أعمال البر يقول : إن رزقنى الله تعالى نية فعلت

وكان طاوس لا يحدث إلا بنية . وكان يسئل أن يحدث فلا يحدث ، ولا يسئل فيبتدىء . فقيل له فى ذلك ، قال : أفتحبون أن أحدث بغير نية ؟ إذا حضرتنى نية فعلت

وحكي أن داود بن المحبر لما صنف كتاب العقل ، جاءه أحمد بن حنبل ، فطلبه منه ، فنظر فيه أحمد صفحا ورده ، فقال : مالك ؟ قال فيه أسانيد ضعاف . فقال له داود : أنا لم أخرجه على الأسانيد ، فانظر فيه بعين الخبر ، إنما نظرت فيه بعين العمل فانتفعت . قال أحمد : فرده علي حتى أنظر فيه بالعين التي نظرت . فأخذه ومكث عنده طويلا ثم قال : جزاك الله خيرا . فقد انتفعت به

وقيل لطاوس : ادع لنا . فقال : حتى أجد له نية . وقال بعضهم : أنا فى طلب نية لعيادة رجل منـــذ شهر فما صحت لى بعد

وقال عيسى بن كثير : مشيت مع ميمون بن مهران ، فلما انتهى إلى باب داره انصرفت فقال ابنه : ألا تعرض عليه العشاء ؟ قال ليس من نيتى : وهذا لأن النية تتبع النظر ، فإذا تغير النظر تغيرت النية . وكانوا لا يرون أن يعملوا عملا إلا بنية ، لعلمهم بأن النية روح العمل ، وأن العمل بغير نية صادقة رياء وتكلف ، وهو سبب مقت لا سبب قرب . وعلموا أن النية ليست هي قول القائل بلسانه نويت ، بل هو انبعاث القلب يجرى مجرى الفتوح من الله تعالى ، فقد تتيسر فى بعض الأوقات ، وقد تتعذر فى بعضها

تيسر إحضار النية للمتدين

نعم من كان الغالب على قلبه أمر الدين تيسر عليه فى أكثر الأحوال إحضار النية للخيرات ، فإن قلبه مائل بالجملة إلى أصل الخير ، فينبعث إلى التفاصيل غالبا . ومن مال قلبه إلى الدنيا وغلبت عليه ، لم يتيسر له ذلك ، بل لا يتيسر له فى الفرائض إلا بجهد جهيد ، وغايته أن يتذكر النار ، ويحذر نفسه عقابها ، أو نعيم الجنة ، ويرغب نفسه فيها ، فربما تنبعث له داعية ضعيفة ، فيكون ثوابه بقدر رغبته ونيته

وأما الطاعة على نية إجلال الله تعالى لاستحقاقه الطاعة والعبودية ، فلا تتيسر للراغب فى الدنيا ،

وهذه أعز النيات وأعلاها ، ويعز على بسيط الأرض من يفهمها فضلا عمن يتعاطاها

تفاوت نيات الناس فى الطاعات

ونيات الناس فى الطاعات أقسام . إذ منهم من يكون عمله إجابة لباعث الخوف ، فإنه يتقى النار . ومنهم من يعمل إجابة لباعث الرجاء ، وهو الرغبة فى الجنة ، وهذا وإن كان نازلا بالإضافة إلى قصد طاعة الله وتعظيمه لذاته ولجلاله لا لأمر سواه ، فهو من جملة النيات الصحيحة ، لأنه ميل إلى الموعود فى الآخرة ، وإن كان من جنس المألوفات فى الدنيا . وأغلب البواعث باعث الفرج والبطن ، وموضع قضاء وطرهما الجنة . فالعامل لأجل الجنة عامل لبطنه وفرجه ، كالأجير السوء ، ودرجته درجة البله ، وإنه لينالها بعمله ، إذ أكثر أهل الجنة البله

وأما عبادة ذوى الألباب فإنها لا تجاوز ذكر الله تعالى والفكر فيه ، حبا لجماله وجلاله وسائر الأعمال تكون مؤكدات وروادف ، وهؤلاء أرفع درجة من الالتفات إلى المنكوح والمطعوم فى الجنة ، فإنهم لم يقصدوها ، بل هم الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه فقط ، وثواب الناس بقدر نياتهم . فلاجرم يتنعمون بالنظر إلى وجهه الكريم ، ويسخرون ممن يلتفت إلى وجه الحور العين ، كما يسخر المتنعم بالنظر إلى الحور العين ممن يتنعم بالنظر إلى وجه الصور المصنوعة من الطين ، بل أشد ، فإن التفاوت بين جمال حضرة الربوبية وجمال الحور العين ، أشد وأعظم كثيرا من التفاوت بين جمال الحور العين والصور المصنوعة من الطين . بل استعظام النفوس البهيمية الشهوانية لقضاء الوطر من مخالطة الحسان وإعراضهم عن جمال وجه الله الكريم ، يضاهى استعظام الخنفساء لصاحبتها وإلفها لها ، وإعراضها عن النظر إلى جمال وجوه النساء ، فعمى أكثر القلوب عن إبصار جمال الله وجلاله يضاهى عمى الخنفساء عن إدراك جمال النساء فإنها لا تشعر به أصلا ، ولا تلتفت إليه . ولو كان لها عقل وذكرن لها لاستحسنت عقل من يلتفت إليهن ، ولا يزالون مختلفين ، كل حزب بما لديهم فرحون ، ولذلك خلقهم

حكى أن أحمد بن خضرويه رأى ربه عز وجل فى المنام ، فقال له : كل الناس يطلبون منى الجنة إلا أبا يزيد ، فإنه يطلبنى . ورأى أبو يزيد ربه فى المنام فقال : يارب ، كيف الطريق إليك ؟ فقال اترك نفسك وتعال إلىّ . ورؤي الشبلي بعد موته فى المنام . فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال لم يطالبنى على الدعاوى بالبرهان إلا على قول واحد ، قلت يوما أي خسارة أعظم من خسران الجنة ؟

فقال أي خسارة أعظم من خسران لقائي !

تفاوت درجات النيات

والغرض أن هذه النيات متفاوتة الدرجات ، ومن غلب على قلبه واحدة منها ربما لا يتيسر له العدول إلى غيرها . ومعرفة هذه الحقائق تورث أعمالا وأفعالا لا يستنكرها الظاهريون من الفقهاء ، فإنا نقول : من حضرت له نية فى مباح ، ولم تحضر فى فضيلة ، فالمباح أولى ، وانتقلت الفضيلة إليه ، وصارت الفضيلة فى حقه نقيصة ، لأن الأعمال بالنيات ، وذلك مثل العفو ، فإنه أفضل من الانتصار فى الظلم ، وربما تحضره نية فى الانتصار دون العفو ، فيكون ذلك أفضل

ومثل أن يكون له نية فى الأكل ، والشرب ، والنوم ، ليريح نفسه ، ويتقوّى على العبادات فى المستقبل ، وليس تنبعث نيته فى الحالين للصوم ، والصلاة ، فالأكل والنوم هو الأفضل له . بل لو ملّ العبادة لمواظبته عليها ، وسكن نشاطه ، وضعفت رغبته ، وعلم أنه لو ترفه ساعة بلهو وحديث عاد نشاطه ، فاللهو أفضل له من الصلاة . قال أبو الدرداء : إنى لأستجم نفسى بشيء من اللهو ، فيكون ذلك عونا لى على الحق . وقال علي كرم الله وجهه . روّحوا القلوب فإنها إذا أكرهت عميت . وهذه دقائق لا يدركها إلا سماسرة العلماء دون الحشوية منهم . بل الحاذق بالطب قد يعالج المحرور باللحم مع حرارته ، ويستبعده القاصر فى الطب ، وإنما يبتغى به أن يعيد أولا قوّته ليحتمل المعالجة بالضد . والحاذق فى لعب الشطرنج مثلا قد ينزل عن الرخ والفرس مجانا ، ليتوصل بذلك إلى الغلبة . والضعيف البصيرة قد يضحك به ، ويتعجب منه ، وكذلك الخبير بالقتال قد يفر بين يدي قرينه ، ويوليه دبره ، حيلة منه ليستجره إلى مضيق ، فيكر عليه فيقهره

فكذلك سلوك طريق الله تعالى ، كله قتال مع الشيطان ، ومعالجة للقلب ، والبصير الموفق يقف فيها على لطائف من الحيل يستبعدها الضعفاء ، فلا ينبغى للمريد أن يضمر إنكارا على ما يراه من شيخه ، ولا للمتعلم أن يعترض على أستاذه ، بل ينبغى أن يقف عند حد بصيرته ، وما لا يفهمه من أحوالهما يسلمه لهما إلى أن ينكشف له أسرار ذلك بأن يبلغ رتبتهما ، وينال درجتهما ، ومن الله حسن التوفيق

الباب الثاني

في الإخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته

فضيلة الاخلاص

قال الله تعالى (وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ [١]) وقال (أَلاَ لِلهِ الدِّينُ الْخَالِصُ [٢]) وقال تعالى (إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلهِ [٣]) وقال تعالى (فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً [٤]) نزلت فيمن يعمل لله ويحب أن يحمد عليه

وقال النبي صلى الله عليه وسلم [١] « ثَلاَثٌ لاَ يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ رَجُلٍ مُسْلِمٍ إِخْلاَصُ الْعَمَلِ لِلهِ » وعن [٢] مصعب بن سعد ، عن أبيه قال . ظن أبي أن له فضلا على من هو دونه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « إِنَّمَا نَصَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هٰذِهِ الْأُمَّةَ بِضُعَفَائِهَا وَدَعْوَتِهِمْ وَإِخْلاَصِهِمْ وَصَلاَتِهِمْ »

وعن [٣] الحسن قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يَقُولُ اللهُ تَعَالَى الْإِخْلاَصُ سِرٌّ مِنْ سِرِّي اسْتَوْدَعْتُهُ قَلْبَ مَنْ أَحْبَبْتُ مِنْ عِبَادِي » وقال علي بن أبي طالب كرم

﴿ الباب الثاني في الاخلاص ﴾

(١) حديث ثلاث لايغل عليهن قلب رجل مسلم اخلاص العمل لله: الترمذي وصححه من حديث النعمان بن بشير

(٢) حديث مصعب بن سعد عن أبيه أنه ظن أن له فضلا على من دونه من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم انما نصر الله هذه الأمة بضعفائها ودعوتهم وإخلاصهم رواه النسائي وهو عند البخاري بلفظ هل تنصرون وترزقون الا بضعفائكم

(٣) حديث الحسن مرسلا يقول الله تعالى الاخلاص سر من سري استودعته قلب من أحببت من عبادي رويناه في جزء من مسلسلات القزويني مسلسلا يقول كل واحد من رواته سألت فلانا عن الاخلاص فقال وهو من رواية أحمد بن عطاء الهجيمي عن عبد الواحد بن زيد عن الحسن عن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم عن جبريل عن الله تعالى وأحمد بن عطاء وعبد الواحد كلاهما متروك وهما من الزهاد ورواه أبو القاسم القشيري في الرسالة من حديث علي بن أبي طالب بسند ضعيف

[١] البينة : ٥ [٢] الزمر : ٣ [٣] النساء : ١٤٦ [٤] الكهف : ١١٠

الله وجهه : لاتهتموا لقلة العمل ، واهتموا للقبول ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم [(١)] قال لمعاذ بن جبل « أَخْلِصِ الْعَمَلَ يُجْزِكَ مِنْهُ الْقَلِيلُ »

وقال عليه السلام [(٢)] « مَامِنْ عَبْدٍ يُخْلِصُ لِلَّهِ الْعَمَلَ أَرْبَعِينَ يَوْماً إِلاَّ ظَهَرَتْ يَنَابِيعُ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ » وقال عليه السلام [(٣)] « أَوَّلُ مَنْ يُسْأَلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلاثَةٌ رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الْعِلْمَ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى مَاصَنَعْتَ فِيمَا عَلِمْتَ فَيَقُولُ يَارَبِّ كُنْتُ أَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى كَذَبْتَ وَتَقُولُ الْمَلائِكَةُ كَذَبْتَ بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ فُلانٌ عَالِمٌ أَلاَ فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالاً فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى لَقَدْ أَنْعَمْتُ عَلَيْكَ فَمَاذَا صَنَعْتَ فَيَقُولُ يَارَبِّ كُنْتُ أَتَصَدَّقُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى كَذَبْتَ وَتَقُولُ الْمَلائِكَةُ كَذَبْتَ بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ فُلانٌ جَوَادٌ أَلاَ فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ وَرَجُلٌ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى مَاذَا صَنَعْتَ فَيَقُولُ يَارَبِّ أُمِرْتُ بِالْجِهَادِ فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ فَيَقُولُ اللهُ كَذَبْتَ وَتَقُولُ الْمَلائِكَةُ كَذَبْتَ بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ فُلانٌ شُجَاعٌ أَلاَ فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ » قال أبو هريرة . ثم خط رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذى وقال « يَاأَبَا هُرَيْرَةَ أُولَئِكَ أَوَّلُ خَلْقٍ تُسَعَّرُ نَارُ جَهَنَّمَ بِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » فدخل راوى هذا الحديث على معاوية ، وروى له ذلك فبكى حتى كادت نفسه تزهق ثم قال : صدق الله إذ قال (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا [(١)]) الآية

الاخلاص أساس النجاح فى الاعمال

وفى الاسرائيليات أن عابدا كان يعبد الله دهرا طويلا ، فجاءه قوم فقالوا : إن ههنا قوما يعبدون شجرة من دون الله تعالى . فغضب لذلك ، وأخذ فأسه على عاتقه ، وقصد الشجرة ليقطعها . فاستقبله إبليس فى صورة شيخ . فقال : أين تريد رحمك الله ؟ قال أريد أن أقطع هذه الشجرة : قال وما أنت وذاك ؟ تركت عبادتك واشتغالك بنفسك وتفرغت لغير ذلك

---

(١) حديث انه قال لمعاذ أخلص العمل يجزك منه القليل : أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث معاذ واسناده منقطع

(٢) حديث مامن عبد يخلص لله أربعين يوما : ابن عدى ومن طريقه ابن الجوزى فى الموضوعات عن أبى موسى وقد تقدم

(٣) حديث اول من يسئل يوم القيامة ثلاثة رجل آتاه الله العلم ـ الحديث : وقد تقدم

---

(١) هود : ١٥

فقال: إن هذا من عبادتي. قال: فإني لا أتركك أن تقطعها. فقاتله، فأخذه العابد فطرحه إلى الأرض، وقعد على صدره. فقال له إبليس: أطلقني حتى أكلمك. فقام عنه، فقال له إبليس: ياهذا إن الله تعالى قد أسقط عنك هذا ولم يفرضه عليك، وما تعبدها أنت، وما عليك من غيرك ولله تعالى أنبياء في أقاليم الأرض، ولو شاء لبعثهم إلى أهلها، وأمرهم بقطعها. فقال العابد: لابد لي من قطعها. فنابذه للقتال، فغلبه العابد وصرعه، وقعد على صدره، فعجز إبليس، فقال له: هل لك في أمر فصل بيني وبينك، وهو خير لك وأنفع؟ قال وماهو؟ قال أطلقني حتى أقول لك. فأطلقه، فقال إبليس. أنت رجل فقير لاشيء لك، إنما أنت كلّ على الناس يعولونك، ولعلك تحب أن تتفضل على إخوانك، وتواسي جيرانك، وتشبع وتستغني عن الناس، قال نعم. قال فارجع عن هذا الأمر، ولك علي أن أجعل عند رأسك في كل ليلة دينارين، إذا أصبحت أخذتهما فأنفقت على نفسك وعيالك، وتصدقت على إخوانك، فيكون ذلك أنفع لك وللمسلمين من قطع هذه الشجرة التي يغرس مكانها، ولا يضرهم قطعها شيئا، ولا ينفع إخوانك المؤمنين قطعك إياها. فتفكر العابد فيما قال، وقال صدق الشيخ، لست بنبي فيلزمني قطع هذه الشجرة، ولا أمرني الله أن أقطعها فأكون عاصيا بتركها، وما ذكره أكثر منفعة. فعاهده على الوفاء بذلك، وحلف له. فرجع العابد إلى متعبده فبات، فلما أصبح رأى دينارين عند رأسه، فأخذهما، وكذلك الغد، ثم أصبح اليوم الثالث وما بعده فلم ير شيئا، فغضب وأخذ فأسه على عاتقه، فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال له إلى أين؟ قال أقطع تلك الشجرة. فقال كذبت والله، ما أنت بقادر على ذلك، ولا سبيل لك إليها. قال فتناوله العابد ليفعل به كما فعل أول مرة، فقال هيهات، فأخذه إبليس وصرعه، فإذا هو كالعصفور بين رجليه، وقعد إبليس على صدره وقال. لتنتهين عن هذا الأمر أو لأذبحنك. فنظر العابد، فإذا لاطاقة له به. قال ياهذا غلبتني فخل عني، وأخبرني كيف غلبتُك أولا وغلبتَني الآن. فقال لأنك غضبت أول مرة لله، وكانت نيتك الآخرة، فسخرني الله لك. وهذه المرة غضبت لنفسك وللدنيا، فصرعتك

وهذه الحكاية تصديق قوله تعالى (إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ [1]) إذ لا يتخلص

(1) ص: ٨٣

العبد من الشيطان إلا بالإخلاص ولذلك كان معروف الكرخى رحمه الله تعالى يضرب نفسه ويقول : يانفس أخلصى تتخلصى . وقال يعقوب المكفوف : المخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته ؟ وقال سليمان : طوبى لمن صحت له خطوة واحدة لا يريد بها إلا الله تعالى

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ، إلى أبي موسى الأشعري : من خلصت نيته كفاه الله تعالى ما بينه وبين الناس . وكتب بعض الأولياء إلى أخ له : أخلص النية فى أعمالك يكفك القليل من العمل . وقال أيوب السختيانى : تخليص النيات على العمال أشد عليهم من جميع الأعمال . وكان مطرف يقول : من صفا صفى له ، ومن خلط خلط عليه

ورؤي بعضهم فى المنام فقيل له : كيف وجدت أعمالك؟ فقال : كل شيء عملته لله وجدته ، حتى حبة رمان لقطتها من طريق ، وحتى هرة ماتت لنا رأيتها فى كفة الحسنات . وكان فى قلنسوتى خيط من حرير فرأيته فى كفة السيئات ، وكان قد نفق حمار لى قيمته مائة دينار فما رأيت له ثوابا فقلت موت سنور فى كفة الحسنات ، وموت حمار ليس فيها ! فقيل لى إنه قد وجّه حيث بعثت به ، فإنه لما قيل لك قد مات ، قلت : فى لعنة الله ، فبطل أجرك فيه ، ولو قلت : فى سبيل الله ، لوجدته فى حسناتك ، وفى رواية ، قال : وكنت قد تصدقت بصدقة بين الناس فأعجبنى نظرهم إلي ، فوجدت ذلك لا عليّ ولا لى ، قال سفيان لما سمع هذا ما أحسن حاله إذ لم يكن عليه فقد أحسن إليه ، وقال يحي بن معاذ : الإخلاص يميز العمل من العيوب ، كتمييز اللبن من الفرث ، والدم ، وقيل : كان رجل يخرج فى زي النساء ، ويحضر كل موضع يجتمع فيه النساء ، من عرس أو مأتم ، فاتفق أن حضر يوما موضعا فيه جمع للنساء ، فسرقت درة ، فصاحوا أن أغلقوا الباب حتى نفتش ، فكانوا يفتشون واحدة واحدة ، حتى بلغت النوبة إلى الرجل وإلى امرأة معه ، فدعا الله تعالى بالإخلاص ، وقال : إن نجوت من هذه الفضيحة لا أعود إلى مثل هذا ، فوجدت الدرة مع تلك المرأة ، فصاحوا أن أطلقوا الحرة فقد وجدنا الدرة

وقال بعض الصوفية : كنت قائما مع أبى عبيد التسترى وهو يحرث أرضه بعد العصر من يوم عرفة ، فمرّ به بعض إخوانه من الأبدال ، فسارّه بشيء ، فقال أبو عبيد : لا ، فمر كالسحاب يمسح الأرض حتى غاب عن عينى ، فقلت لأبى عبيد . ماقال لك ؟ فقال . سألنى أن أحج معه ، فقلت . لا . قلت ، فهلا فعلت ، قال ليس لى فى الحج نية ، وقد نويت

أن أتمم هذه الأرض العشية فأخاف أن حججت معه لأجله تعرضت لمقت الله تعالى ، لأنى أدخل فى عمل الله شيئا غيره ، فيكون ما أنا فيه أعظم عندى من سبعين حجة ، ويروى عن بعضهم ، قال . غزوت فى البحر فعرض بعضنا مخلاة ، فقلت . أشتريها فأنتفع بها فى غزوى فإذا دخلت مدينة كذا بعتها فربحت فيها ، فاشتريتها ، فرأيت تلك الليلة فى النوم كأن شخصين قد نزلا من السماء ، فقال أحدهما لصاحبه . اكتب الغزاة فأملى عليه . خرج فلان متنزها ، وفلان مرائيا ، وفلان تاجرا ، وفلان فى سبيل الله ، ثم نظر إلي ، وقال . اكتب فلان خرج تاجرا ، فقلت . الله الله فى أمرى ، ماخرجت أتجر ، وما معى تجارة أتجر فيها ، ما خرجت إلا للغزو ، فقال ياشيخ قد اشتريت أمس مخلاة تريد أن تربح فيها فبكيت ، وقلت . لاتكتبونى تاجرا فنظر إلى صاحبه ، وقال . ماترى فقال : اكتب خرج فلان غازيا إلا أنه اشترى فى طريقه مخلاة ليربح فيها حتى يحكم الله عز وجل فيه بما يرى

وقال سري السقطى رحمه الله تعالى : لأن تصلي ركعتين فى خلوة تخلصهما ، خير لك من أن تكتب سبعين حديثا أو سبعمائة بعلو ، وقال بعضهم : فى إخلاص ساعة نجاة الأبد ، ولكن الإخلاص عزيز ، ويقال : العلم بذر ، والعمل زرع ، وماؤه الإخلاص ، وقال بعضهم . إذا أبغض الله عبدا أعطاه ثلاثا ، ومنعه ثلاثا . أعطاه صحبة الصالحين ، ومنعه القبول منهم وأعطاه الأعمال الصالحة ، ومنعه الإخلاص فيها ، وأعطاه الحكمة ، ومنعه الصدق فيها ،

وقال السوسى : مراد الله من عمل الخلائق الإخلاص فقط ، وقال الجنيد . إن لله عبادا عقلوا ، فلما عقلوا عملوا ، فلما عملوا أخلصوا ، فاستدعاهم الإخلاص إلى أبواب البر أجمع

وقال محمد بن سعيد المروزى . الأمر كله يرجع إلى أصلين ، فعل منه بك . وفعل منك له ، فترضى ما فعل ، وتخلص فيما تعمل ، فإذاً أنت قد سعدت بهذين وفزت فى الدارين

بيان

حقيقة الإخلاص

اعلم أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره ، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمي خالصا ويسمى الفعل المصفى المخلص إخلاصا ، قال الله تعالى (مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً

سائغاً للشاربين (١)) فإنما خلوص اللبن أن لايكون فيه شوب من الدم والفرث ، ومن كل مايمكن أن يمتزج به . والإخلاص يضاده الإشراك ، فمن ليس مخلصا فهو مشرك ، إلا أن الشرك درجات ، فالإخلاص فى التوحيد يضاده التشريك ، فى الإلهية ، والشرك منه خفي ، ومنه جلي ، وكذا الإخلاص ، والإخلاص وضده يتواردان على القلب ، فمحله القلب وإنما يكون ذلك فى القصود والنيات ، وقد ذكرنا حقيقة النية ، وأنها ترجع إلى إجابة البواعث ، فمهما كان الباعث واحدا على التجرد سمي الفعل الصادر عنه إخلاصا ، بالإضافة إلى المنوي ، فمن تصدق وغرضه محض الرياء فهو مخلص ، ومن كان غرضه محض التقرب إلى الله تعالى فهو مخلص ، ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الإخلاص بتجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب ، كما أن الإلحاد عبارة عن الميل ، ولكن خصصته العادة بالميل عن الحق ، ومن كان باعثه مجرد الرياء فهو معرض للهلاك ، ولسنا نتكلم فيه ، إذ قد ذكرنا مايتعلق به فى كتاب الرياء من ربع المهلكات ، وأقل أموره ماورد فى الخبر ، من أن المرائي يدعى يوم القيامة بأربع أسام ، يامرائى ، يامخادع ، يامشرك ، ياكافر (١) ، وإنما نتكلم الآن فيمن انبعث لقصد التقرب ؛ ولكن امتزج بهذا الباعث باعث آخر ، إما من الرياء أو من غيره من حظوظ النفس ، ومثال ذلك أن يصوم لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب ، أو يعتق عبدا ليتخلص من مؤنته وسوء خُلقه ، أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر ، أو يتخلص من شر يعرض له فى بلده ، أو ليهرب عن عدو له فى منزله ، أو يتبرم بأهله وولده ، أو بشغل هو فيه ، فأراد أن يستريح منه أياما ، أو ليغزو ليمارس الحرب ويتعلم أسبابه ويقدر به على تهيئة العساكر وجرها ، أو يصلى بالليل وله غرض فى دفع النعاس عن نفسه به ليراقب أهله ، أو رحله ، أو يتعلم العلم ليسهل عليه طلب مايكفيه من المال ، أو ليكون عزيزا بين العشيرة ، أو ليكون عقاره أو ماله محروسا بعز العلم عن الأطماع أو اشتغل بالدرس والوعظ ليتخلص عن كرب الصمت ويتفرج بلذة الحديث ، أو تكفل بخدمة العلماء أو الصوفية لتكون حرمته وافرة عندهم وعند الناس ، أو لينال به رفقا فى الدنيا

---

(١) حديث ان المرائى يدعى يوم القيامة يامرائى يامخادع - الحديث : ابن أبى الدنيا فى كتاب السنة والاخلاص وقد تقدم

(١) النحل : ٦٦

أو كتب مصحفا ليجود بالمواظبة على الكتابة خطه ،أو حج ماشيا ليخفف عن نفسه الكراء أو توضأ ليتنظف ، أو يتبرد ، أو اغتسل لتطيب رائحته ، أو روى الحديث ليعرف بعلو الإسناد ، أو اعتكف فى المسجد ليخف كراء المسكن ، أو صام ليخفف عن نفسه التردد فى طبخ الطعام ، أو ليتفرغ لأشغاله فلا يشغله الأكل عنها ، أو تصدق على السائل ليقطع إبرامه فى السؤال عن نفسه، أو يعود مريضا ليعاد إذا مرض، أو يشيع جنازة ليشيع جنائز أهله ، أو يفعل شيئا من ذلك ليعرف بالخير ويذكر به وينظر إليه بعين الصلاح والوقار. فمهما كان باعثه هو التقرب إلى الله تعالى ، ولكن انضاف إليه خطرة من هذه الخطرات حتى صار العمل أخف عليه ، بسبب هذه الأمور فقد خرج عمله عن حد الإخلاص ، وخرج عن أن يكون خالصا لوجه الله تعالى وتتطرق إليه الشرك ، وقد قال تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشركة

وبالجملة كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس ، ويميل إليه القلب ، قلّ أم كثر إذا تطرق إلى العمل تكدر به صفوه ، وزال به إخلاصه ، والإنسان مرتبط فى حظوظه منغمس فى شهواته ، قلما ينفك فعل من أفعاله ، وعبادة من عباداته ، عن حظوظ وأغراض عاجلة من هذه الأجناس ، فلذلك قيل . من سلم له من عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله نجا ، وذلك لعزة الإخلاص ، وعُسر تنقية القلب عن هذه الشوائب ، بل الخالص هو الذى لا باعث عليه إلا طلب القرب من الله تعالى ، وهذه الحظوظ إن كانت هي الباعثة وحدها فلا يخفى شدة الأمر على صاحبه فيها ، وإنما نظرنا فيما إذا كان القصد الأصلى هو التقرب وانضافت إليه هذه الأمور ، ثم هذه الشوائب ، إما أن تكون فى رتبة الموافقة ، أو فى رتبة المشاركة ، أو فى رتبة المعاونة كما سبق فى النية

وبالجملة فإما أن يكون الباعث النفسي مثل الباعث الدينى ، أو أقوى منه ، أو أضعف ، ولكل واحد حكم آخر كما سنذكره ، وإنما الإخلاص تخليص العمل عن هذه الشوائب كلها ، قليلها وكثيرها ، حتى يتجرد فيه قصد التقرب فلا يكون فيه باعث سواه ، وهذا لا يتصور إلا من محب لله مستهتر بالله مستغرق الهم بالآخرة بحيث لم يبق لحب الدنيا فى قلبه قرار ، حتى لا يحب الأكل والشرب أيضا ، بل تكون رغبته فيه كرغبته فى قضاء الحاجة من حيث إنه ضرورة الجبلة ، فلا يشتهي الطعام لأنه طعام، بل لأنه يقويه على عبادة الله تعالى،

ويتمنى أن لو كفي شر الجوع ، حتى لا يحتاج إلى الأكل ، فلا يبقى فى قلبه حظ من الفضول الزائدة على الضرورة ، ويكون قدر الضرورة مطلوبا عنده ، لأنه ضرورة دينه فلا يكون له هم إلا الله تعالى ، فمثل هذا الشخص لو أكل أو شرب ، أو قضى حاجته . كان خالص العمل صحيح النية فى جميع حركاته وسكناته . فلو نام مثلا حتى يريح نفسه ليتقوّى على العبادة بعده كان نومه عبادة ، وكان له درجة المخلصين فيه ، ومن ليس كذلك فباب الإخلاص فى الأعمال مسدود عليه إلا على الندور ، وكما أن من غلب عليه حب الله وحب الآخرة فاكتسبت حركاته الاعتيادية صفة همه وصارت إخلاصا ، فالذى يغلب على نفسه الدنيا والعلو والرياسة وبالجملة غير الله فقد اكتسبت جميع حركاته تلك الصفة ، فلا تسلم له عباداته من صوم وصلاة وغير ذلك إلا نادرا

علاج الإخلاص كسر حظوظ النفس

فإذا علاج الإخلاص كسر حظوظ النفس ، وقطع الطمع عن الدنيا ، والتجرد للآخرة ، بحيث يغلب ذلك على القلب ، فإذ ذاك يتيسر الإخلاص . وكم من أعمال يتعب الإنسان فيها ويظن أنها خالصة لوجه الله ، ويكون فيها مغرورا ، لأنه لا يرى وجه الآفة فيها ، كما حكي عن بعضهم أنه قال : قضيت صلاة ثلاثين سنة كنت صليتها فى المسجد فى الصف الأول ، لأنى تأخرت يوما لعذر فصليت فى الصف الثانى ، فاعترتنى خجلة من الناس حيث رأونى فى الصف الثانى ، فعرفت أن نظر الناس إلي فى الصف الأول كان مسرتى ، وسبب استراحة قلبى ، من حيث لا أشعر ، وهذا دقيق غامض قلما تسلم الأعمال من أمثاله ، وقل من يتنبه له إلا من وفقه الله تعالى ، والغافلون عنه يرون حسناتهم كلها فى الآخرة سيئات وهم المرادون بقوله تعالى (وَبَدَا لَهُم مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا [1]) وبقوله تعالى (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً [2]) وأشد الخلق تعرضا لهذه الفتنة العلماء فإن الباعث للأكثرين على نشر العلم لذة الاستيلاء والفرح بالاستتباع ، والاستبشار بالحمد والثناء ، والشيطان يلبس عليهم ذلك ، ويقول . غرضكم نشر دين الله ، والنضال عن الشرع الذى شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وترى الواعظ يمن على الله تعالى بنصيحة الخلق ،

---

(١) الزمر : ٤٧ ، ٤٨ (٢) الكهف : ١٠٣

ووعظه للسلاطين ، ويفرح بقبول الناس قوله وإقبالهم عليه ، وهو يدعى أنه يفرح بما يسر له من نصرة الدين ، ولو ظهر من أقرانه من هو أحسن منه وعظا ، وانصرف الناس عنه وأقبلوا عليه ساءه ذلك وغمه ، ولو كان باعثه الدين لشكر الله تعالى ، إذ كفاه الله تعالى هذا المهم بغيره ، ثم الشيطان مع ذلك لا يخليه ، ويقول : إنما غمك لانقطاع الثواب عنك ، لا لانصراف وجوه الناس عنك إلى غيرك ، إذ لو اتعظوا بقولك لكنت أنت المثاب ، واغتمامك لفوات الثواب محمود ، ولا يدرى المسكين أن انقياده للحق ، وتسليمه الأمر أفضل وأجزل ثوابا ، وأعود عليه فى الآخرة من انفراده

وليت شعرى لو اغتم عمر رضي الله عنه بتصدى أبى بكر رضي الله تعالى عنه للإمامة أكان غمه محمودا أو مذموما ؟ ولا يستريب ذو دين أن لو كان ذلك لكان مذموما ، لأن انقياده للحق وتسليمه الأمر إلى من هو أصلح منه ، أعود عليه في الدين من تكفله بمصالح الخلق ، مع ما فيه من الثواب الجزيل ، بل فرح عمر رضي الله تعالى عنه باستقلال من هو أولى منه بالأمر ، فما بال العلماء لا يفرحون بمثل ذلك ، وقد ينخدع بعض أهل العلم بغرور الشيطان ، فيحدث نفسه بأنه لو ظهر من هو أولى منه بالأمر لفرح به . وإخباره بذلك عن نفسه قبل التجربة ، والامتحان محض الجهل والغرور ، فإن النفس سهلة القياد فى الوعد بأمثال ذلك قبل نزول الأمر ، ثم إذا دهاه الأمر تغير ورجع ، ولم يف بالوعد . وذلك لا يعرفه إلا من عرف مكايد الشيطان ، والنفس ، وطال اشتغاله بامتحانها . فمعرفة حقيقة الإخلاص والعمل به بحر عميق ، يغرق فيه الجميع ، إلا الشاذ النادر والفرد الفذ ، وهو المستثنى فى قوله تعالى (إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ [1]) فليكن العبد شديد التفقد والمراقبة لهذه الدقائق ، وإلا التحق بأتباع الشياطين وهو لا يشعر

بيان
أقاويل الشيوخ فى الإخلاص

قال السوسى : الإخلاص فقد رؤية الإخلاص ، فإن من شاهد فى إخلاصه الإخلاص فقد احتاج إخلاصه إلى إخلاص ، وما ذكره إشارة إلى تصفية العمل عن العجب بالفعل ، فإن الالتفات إلى الإخلاص والنظر إليه عجب ، وهو من جملة الآفات ، والخالص ما صفا

(١) ص : ٨٣

عن جميع الآفات، فهذا تعرض لآفة واحدة . وقال سهل رحمه الله تعالى : الإخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله تعالى خاصة ، وهذه كلمة جامعة محيطة بالغرض ، وفى معناه قول ابراهيم بن أدهم. الإخلاص صدق النية مع الله تعالى ، وقيل لسهل أي شيء أشد على النفس ؟ فقال : الإخلاص ، إذ ليس لها فيه نصيب ، وقال رويم : الإخلاص فى العمل هو أن لا يريد صاحبه عليه عوضا فى الدارين ، وهذا إشارة إلى أن حظوظ النفس آفة آجلا وعاجلا ، والعابد لأجل تنعم النفس بالشهوات فى الجنة معلول ، بل الحقيقة أن لا يراد بالعمل إلا وجه الله تعالى ، وهو إشارة إلى إخلاص الصديقين ، وهو الإخلاص المطلق ، فأما من يعمل لرجاء الجنة وخوف النار ، فهو مخلص بالإضافة إلى الحظوظ العاجلة ، وإلا فهو فى طلب حظ البطن والفرج ، وإنما المطلوب الحق لذوى الألباب وجه الله تعالى فقط ، وهو القائل لا يتحرك الإنسان إلا لحظ والبراءة من الحظوظ صفة الإلهية ، ومن ادعى ذلك فهو كافر وقد قضى القاضى أبو بكر الباقلانى بتكفير من يدعى البراءة من الحظوظ ، وقال هذا من صفات الإلهية ، وما ذكره حق ،ولكن القوم إنما أرادوا به البراءة عما يسميه الناس حظوظا وهو الشهوات الموصوفة فى الجنة فقط ، فأما التلذذ بمجرد المعرفة ، والمناجاة والنظر إلى وجه الله تعالى فهذا حظ هؤلاء ، وهذا لا يعده الناس حظا بل يتعجبون منه ، وهؤلاء لو عوضوا عما هم فيه من لذة الطاعة والمناجاة ، وملازمة الشهود ، للحضرة الإلهية سرا وجهرا جميع نعيم الجنة لاستحقروه ، ولم يلتفتوا إليه فحركتهم لحظ ،وطاعتهم لحظ، ولكن حظهم معبودهم فقط دون غيره

وقال أبو عثمان : الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق فقط ، وهذا إشارة إلى آفة الرياء فقط ، ولذلك قال بعضهم : الإخلاص فى العمل أن لا يطلع عليه شيطان فيفسده ، ولا ملك فيكتبه فإنه إشارة إلى مجرد الإخفاء ، وقد قيل : الإخلاص ما استتر عن الخلائق وصفا عن العلائق ، وهذا أجمع للمقاصد ، وقال المحاسبي : الإخلاص هو إخراج الخلق عن معاملة الرب ، وهذا إشارة إلى مجرد نفي الرياء ، وكذلك قول الخواص .من شرب من كأس الرياسة فقد خرج عن إخلاص العبودية ، وقال الحواريون لعيسى عليه السلام ما الخالص من الأعمال؟فقال: الذى يعمل لله تعالى لا يحب أن يحمده عليه أحد ، وهذا أيضا

تعرض لترك الرياء وإنما خصه بالذكر لأنه أقوى الأسباب المشوشة للإخلاص، وقال الجنيد: الإخلاص تصفية العمل من الكدورات، وقال الفضيل: ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما، وقيل: الإخلاص دوام المراقبة ونسيان الحظوظ كلها

وهذا هو البيان الكامل، والأقاويل في هذا كثيرة، ولا فائدة في تكثير النقل بعد انكشاف الحقيقة، وإنما البيان الشافي بيان سيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وسلم، [1] إذ سئل عن الإخلاص فقال « أَنْ تَقُولَ رَبِّيَ اللهُ ثُمَّ تَسْتَقِيم كَمَا أُمِرْتَ » أي لا تعبد هواك ونفسك ولا تعبد إلا ربك؛ وتستقيم في عبادته، كما أمرت وهذا إشارة إلى قطع ماسوى الله عن مجري النظر وهو الإخلاص حقا

بيان

درجات الشوائب والآفات المكدرة للإخلاص

اعلم أن الآفات المشوشة للإخلاص، بعضها جلي وبعضها خفي، وبعضها ضعيف مع الجلاء، وبعضها قوي مع الخفاء، ولا يفهم اختلاف درجاتها في الخفاء والجلاء إلا بمثال، وأظهر مشوشات الإخلاص الرياء، فلنذكر منه مثالا فنقول. الشيطان يدخل الآفة على المصلي مهما كان مخلصا في صلاته، ثم نظر إليه جماعة، أو دخل عليه داخل، فيقول له حسن صلاتك حتى ينظر إليك هذا الحاضر بعين الوقار والصلاح، ولا يزدريك، ولا يغتابك، فتخشع جوارحه، وتسكن أطرافه، وتحسن صلاته، وهذا هو الرياء الظاهر، ولا يخفى ذلك على المبتدئين من المريدين

الرياء

الدرجة الثانية: يكون المريد قد فهم هذه الآفة وأخذ منها حذره، فصار لا يطيع الشيطان فيها، ولا يلتفت إليه، ويستمر في صلاته كما كان، فيأتيه في معرض الخير،

---

(١) حديث سئل عن الاخلاص فقال أن تقول ربي الله ثم تستقيم كما أمرت: لم أره بهذا اللفظ للترمذي وصححه وابن ماجه من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي قلت يارسول الله حدثني بأمر أعتصم به قال قل ربي الله ثم استقم وهو عند مسلم بلفظ قل لي في الاسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك قال قل آمنت بالله ثم استقم

ويقول أنت متبوع ومقتدى بك ، ومنظور إليك ، وما تفعله يؤثر عنك ، ويتأسى بك غيرك فيكون لك ثواب أعمالهم إن أحسنت ، وعليك الوزر إن أسأت ، فأحسن عملك بين يديه ، فعساه يقتدى بك فى الخشوع وتحسين العبادة ، وهذا أغمض من الأول وقد ينخدع به من لا ينخدع بالأول ، وهو أيضا عين الرياء ، ومبطل للإخلاص ، فإنه إن كان يرى الخشوع وحسن العبادة خيرا لا يرضى لغيره تركه ، فلم لم يرتض لنفسه ذلك فى الخلوة . ولا يمكن أن تكون نفس غيره أعز عليه من نفسه ، فهذا محض التلبيس ، بل المقتدى به، هو الذى استقام فى نفسه واستنار قلبه ، فانتشر نوره إلى غيره ، فيكون له ثواب عليه ، فأما هذا فمحض النفاق والتلبيس ، فمن اقتدى به أثيب عليه ، وأما هو فيطالب بتلبيسه ، ويعاقب على إظهاره من نفسه ما ليس متصفا به

الدرجة الثالثة : وهي أدق مما قبلها أن يجرب العبد نفسه فى ذلك، ويتنبه لكيد الشيطان؛ ويعلم أن مخالفته بين الخلوة والمشاهدة للغير محض الرياء ، ويعلم أن الإخلاص فى أن تكون صلاته فى الخلوة مثل صلاته فى الملأ ، ويستحي من نفسه ومن ربه أن يتخشع لمشاهدة خلقه تخشعا زائدا على عادته. فيقبل على نفسه فى الخلوة ويحسن صلاته على الوجه الذى يرتضيه فى الملأ ، ويصلى فى الملأ أيضا كذلك ،فهذا أيضا من الرياء الغامض، لأنه حسن صلاته فى الخلوة لتحسن فى الملأ فلا يكون قد فرق بينهما ، فالتفاته فى الخلوة والملا إلى الخلق ، بل الإخلاص أن تكون مشاهدة البهائم لصلاته. ومشاهدة الخلق على وتيرة واحدة، فكأن نفس هذا ليست تسمح بإساءة الصلاة بين أظهر الناس ، ثم يستحي من نفسه أن يكون فى صورة المرائين ، ويظن أن ذلك يزول بأن تستوى صلاته فى الخلاء والملأ ، وهيهات بل زوال ذلك بأن لا يلتفت إلى الخلق كما لا يلتفت إلى الجمادات فى الخلاء والملأ جميعا ، وهذا من شخص مشغول الهم بالخلق فى الملأ والخلاء جميعا ، وهذا من المكايد الخفية للشيطان

الهمام الاشتغال بالخلق

الدرجة الرابعة : وهي أدق وأخفى ، أن ينظر إليه الناس وهو فى صلاته فيعجز الشيطان عن أن يقول له اخشع لأجلهم ، فإنه قد عرف أنه تفطن لذلك فيقول له الشيطان تفكر فى عظمة الله تعالى وجلاله ، ومن أنت واقف بين يديه ، واستحى من أن ينظر الله إلى قلبك وهو غافل عنه . فيحضر بذلك قلبه ، وتخشع جوارحه ، ويظن أن ذلك عين الإخلاص ،

وهو عين المكر والخداع ، فإن خشوعه لو كان لنظره إلى جلاله لكانت هذه الخطرة تلازمه فى الخلوة ، ولكان لايختص حضورها بحالة حضور غيره ، وعلامة الأمن من هذه الآفة أن يكون هذا الخاطر مما يألفه فى الخلوة ، كما يألفه فى الملأ ولا يكون حضور الغير هو السبب فى حضور الخاطر ، كما لا يكون حضور البهيمة سبباً ، فما دام يفرق فى أحواله بين مشاهدة إنسان ومشاهدة بهيمة فهو بعد خارج عن صفو الإخلاص ، مدنس الباطن بالشرك الخفي من الرياء ، وهذا [١] الشرك أخفى فى قلب ابن آدم من دبيب النملة السوداء فى الليلة الظلماء ، على الصخرة الصماء ، كما ورد به الخبر ، ولا يسلم من الشيطان إلا من دق نظره ، وسعد بعصمة الله تعالى وتوفيقه وهدايته ، وإلا فالشيطان ملازم للمتشمرين لعبادة الله تعالى ، لايغفل عنهم لحظة حتى يحملهم على الرياء فى كل حركة من الحركات ، حتى فى كحل العين ، وقص الشارب ، وطيب يوم الجمعة ، ولبس الثياب ، فإن هذه سنن فى أوقات مخصوصة ، وللنفس فيها حظ خفي ، لارتباط نظر الخلق بها ولاستئناس الطبع بها ، فيدعوه الشيطان إلى فعل ذلك ، ويقول هذه سنة لاينبغى أن تتركها ، ويكون انبعاث القلب باطنا لها ، لأجل تلك الشهوة الخفية ، أو مشوبة بها شوبا يخرج عن حد الإخلاص بسببه ، وما لايسلم عن هذه الآفات كلها فليس بخالص ، بل من يعتكف فى مسجد معمور نظيف حسن العمارة يأنس إليه الطبع ، فالشيطان يرغبه فيه ويكثر عليه من فضائل الاعتكاف

وقد يكون المحرك الخفي فى سره هو الأنس بحسن صورة المسجد ، واستراحة الطبع إليه ، ويتبين ذلك فى ميله إلى أحد المسجدين ، أو أحد الموضعين إذا كان أحسن من الآخر وكل ذلك امتزاج بشوائب الطبع ، وكدورات النفس ، ومبطل حقيقة الإخلاص ، لعمرى الغش الذى يمزج بخالص الذهب له درجات متفاوتة ، فمنها مايغلب ، ومنها مايقل لكن يسهل دركه ، ومنها مايدق بحيث لايدركه إلا الناقد البصير ، وغش القلب ، ودغل الشيطان وخبث النفس ، أغمض من ذلك وأدق كثيرا ، ولهذا قيل : ركعتان من عالم أفضل من عبادة سنة من جاهل ، وأريد به العالم البصير بدقائق آفات الأعمال ، حتى يخلص عنها ، فإن الجاهل نظره

(١) حديث الشرك أخفى فى قلب ابن آدم من دبيب النملة السوداء فى الظلمة الظلماء على الصخرة الصماء : تقدم فى العلم وفى ذم الجاه والرياء

إلى ظاهر العبادة واغتراره بها، كنظر السوادى إلى حمرة الدينار المموه واستدارته، وهو مغشوش زائف فى نفسه، وقيراط من الخالص الذى يرتضيه الناقد البصير، خير من دينار يرتضيه الغر الغبي

فهكذا يتفاوت أمر العبادات، بل أشد وأعظم ومداخل الآفات المتطرقة إلى فنون الأعمال، لا يمكن حصرها وإحصاؤها، فلينتفع بما ذكرناه مثالا، والفطن يغنيه القليل عن الكثير، والبليد لا يغنيه التطويل أيضا، فلا فائدة فى التفصيل

بيان

حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به

اعلم أن العمل إذا لم يكن خالصا لوجه الله تعالى، بل امتزج به شوب من الرياء أو حظوظ النفس، فقد اختلف الناس فى إن ذلك هل يقتضى ثوابا، أم يقتضى عقابا، أم لا يقتضى شيئا أصلا، فلا يكون له ولا عليه، وأما الذى لم يرد به إلا الرياء فهو عليه قطعا، وهو سبب المقت والعقاب، وأما الخالص لوجه الله تعالى فهو سبب الثواب، وإنما النظر فى المشوب وظاهر [(١)] الأخبار تدل على أنه لا ثواب له، وليس تخلو الأخبار عن تعارض فيه، والذى ينقدح لنا فيه، والعلم عند الله، أن ينظر إلى قدر قوة الباعث، فإن كان الباعث الديني مساويا للباعث النفسي تقاوما وتساقطا، وصار العمل لا له ولا عليه، وإن كان باعث الرياء أغلب وأقوى فهو ليس بنافع، وهو مع ذلك مضر ومفض للعقاب، نعم العقاب الذى فيه أخف من عقاب العمل الذى تجرد للرياء، ولم يمتزج به شائبة التقرب، وإن كان قصد التقرب أغلب بالإضافة إلى الباعث الآخر فله ثواب بقدر مافضل من قوة الباعث الدينى، وهذا لقوله تعالى (فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [(١)])

---

(١) الأخبار التى يدل ظاهرها على ان العمل المشوب لا ثواب له قال وليس تخلو الاخبار عن تعارض: أبو داود من حديث أبى هريرة ان رجلا قال يارسول الله رجل يبتغى الجهاد فى سبيل الله وهو يبتغى عرضا من عرض الدنيا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أجر له ـ الحديث : وللنسائى من حديث أبى أمامة باسناد حسن أرأيت رجلا غزا يلتمس الاجر والذكر ماله فقال لا شىء له فأعادها ثلاث مرات يقول لا شىء له ثم قال ان الله لا يقبل من العمل الا ما كان خالصا وابتغى به وجهه وللترمذى وقال غريب وابن حبان من حديث أبى هريرة الرجل يعمل العمل فيسره فاذا اطلع عليه أعجبه قال له أجران أجر السر وأجر العلانية وقد تقدم فى ذم الجاه والرياء

---

(١) الزلزلة : ٧ ، ٨

ولقوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا [1]) فلا ينبغي أن يضيع قصد الخير ، بل إن كان غالبا على قصد الرياء حبط منه القدر الذي يساويه وبقيت زيادة ، وإن كان مغلوبا سقط بسببه شيء من عقوبة القصد الفاسد

وكشف الغطاء عن هذا أن الأعمال تأثيرها في القلوب بتأكيد صفاتها ، فداعية الرياء من المهلكات ، وإنما غذاء هذا المهلك وقوته العمل على وفقه ، وداعية الخير من المنجيات ، وإنما قوتها بالعمل على وفقها ، فإذا اجتمعت الصفتان في القلب فهما متضادتان ، فإذا عمل على وفق مقتضى الرياء فقد قوّى تلك الصفة ، وإذا كان العمل على وفق مقتضى التقرب ، فقد قوّى أيضا تلك الصفة ، وأحدهما مهلك ، والآخر منج ، فإن كان تقوية هذا بقدر تقوية الآخر فقد تقاوما ، فكان كالمستضر بالحرارة إذا تناول ما يضره ، ثم تناول من المبردات ما يقاوم قدر قوته فيكون بعد تناولهما كأنه لم يتناولهما ، وإن كان أحدهما غالبا لم يخل الغالب عن أثر ، فكما لا يضيع مثقال ذرة من الطعام والشراب والأدوية ، ولا ينفك عن أثر في الجسد بحكم سنة الله تعالى ، فكذلك لا يضيع مثقال ذرة من الخير والشر ، ولا ينفك عن تأثير في إنارة القلب أو تسويده وفي تقريبه من الله ، أو إبعاده فإذا جاء بما يقربه شبرا مع ما يبعده ، فقد عاد إلى ما كان ، فلم يكن له ولا عليه . وإن كان الفعل مما يقربه شبرين ، والآخر يبعده شبرا واحدا فضل له لا محالة شبر . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (1) « أَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا » فإذا كان المحض يمحوه الإخلاص المحض عقيبه ، فإذا اجتمعا جميعا فلا بد وأن يتدافعا بالضرورة

ويشهد لهذا إجماع الأمة على أن من خرج حاجا ومعه تجارة ، صح حجه وأثيب عليه ، وقد امتزج به حظ من حظوظ النفس . نعم يمكن أن يقال : إنما يثاب على أعمال الحج عند انتهائه إلى مكة ، وتجارته غير موقوفة عليه ، فهو خالص وإنما المشترك طول المسافة ، ولا ثواب فيه مهما قصد التجارة . ولكن الصواب أن يقال : مهما كان الحج هو المحرك الأصلي ، وكان غرض التجارة كالمعين والتابع ، فلا ينفك نفس السفر عن ثواب .

(١) حديث أتبع السيئة الحسنة تمحها : تقدم في رياضة النفس وفي التوبة

[1] النساء : ٥٠

وما عندي أن الغزاة لا يدركون في أنفسهم تفرقة بين غزو الكفار في جهة تكثر فيها الغنائم، وبين جهة لا غنيمة فيها. ويبعد أن يقال إدراك هذه التفرقة يحبط بالكلية ثواب جهادهم. بل العدل أن يقال: إذا كان الباعث الأصلي، والمزعج القوي، هو إعلاء كلمة الله تعالى، وإنما الرغبة في الغنيمة على سبيل التبعية، فلا يحبط به الثواب. نعم لا يساوي ثوابه ثواب من لا يلتفت قلبه إلى الغنيمة أصلا، فإن هذا الالتفات نقصان لا محالة

فإن قلت: فالآيات والأخبار تدل على أن شوب الرياء محبط للثواب، وفي معناه شوب طلب الغنيمة، والتجارة، وسائر الحظوظ، فقد روى [١] طاوس وغيره من التابعين، أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عمن يصطنع المعروف، أو قال: يتصدق فيحب أن يحمد ويؤجر، فلم يدر ما يقول له، حتى نزلت (فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً [١]) وقد قصد الأجر والحمد جميعا. وروى [٢] معاذ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « أَدْنَى الرِّيَاءِ شِرْكٌ » وقال [٣] أبو هريرة: قال النبي صلى الله عليه وسلم « يُقَالُ لِمَنْ أَشْرَكَ فِي عَمَلِهِ خُذْ أَجْرَكَ مِمَّنْ عَمِلْتَ لَهُ »

وروي عن عبادة، أن الله عز وجل يقول أنا أغنى الأغنياء عن الشركة، من عمل لي عملا فأشرك معي غيري ودعت نصيبي لشريكي. وروى [٤] أبو موسى أن أعرابيا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، الرجل يقاتل حمية، والرجل يقاتل شجاعة، والرجل يقاتل ليرى مكانه في سبيل الله. فقال صلى الله عليه وسلم « مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ

---

(١) حديث طاوس وعدة من التابعين ان رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عمن يصطنع المعروف أو قال يتصدق فيحب أن يحمد ويؤجر فنزلت فمن كان يرجوا لقاء ربه: ابن أبي الدنيا في كتاب السنة والحاكم نحوه من رواية طاوس مرسلا وقد تقدم في ذم الجاه والرياء

(٢) حديث معاذ أدنى الرياء شرك: الطبراني والحاكم وتقدم فيه

(٣) حديث أبي هريرة يقال لمن أشرك في عمله خذ أجرك ممن عملت له: تقدم فيه من حديث محمود بن لبيد بنحوه وتقدم فيه حديث أبي هريرة من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشريكه وفي رواية مالك في الموطأ فهو له كله

(٤) حديث أبي موسى من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله: تقدم فيه

---

(١) الكهف: ١١٠

هيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ » وقال عمر رضي الله عنه : تقولون فلان شهيد ، ولعله أن يكون قد ملأ دفتي راحلته ورقا . وقال [1] ابن مسعود رضي الله تعالى عنه:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ هَاجَرَ يَبْتَغِي شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا فَهُوَ لَهُ »

فنقول : هذه الأحاديث لاتناقض ماذكرناه . بل المراد بها من لم يرد بذلك إلا الدنيا ، كقوله « مَنْ هَاجَرَ يَبْتَغِي شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا » وكان ذلك هو الأغلب على همه . وقد ذكرنا أن ذلك عصيان وعدوان ، لا لأن طلب الدنيا حرام ، ولكن طلبها بأعمال الدين حرام ، لما فيه من الرياء وتغيير العبادة عن موضعها . وأما لفظ الشركة حيث ورد فمطلق للتساوى وقد بينا أنه إذا تساوى القصدان تقاوما ، ولم يكن له ولا عليه ، فلا ينبغى أن يرجى عليه ثواب

ثم إن الإنسان عند الشركة أبدا فى خطر ، فإنه لايدرى أي الأمرين أغلب على قصده فربما يكون عليه وبالا . ولذلك قال تعالى (فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً [2]) أي لايرجى اللقاء مع الشركة التى أحسن أحوالها التساقط

ويجوز أن يقال أيضا : منصب الشهادة لاينال إلا بالإخلاص فى الغزو ، وبعيد أن يقال من كانت داعيته الدينية بحيث تزعجه إلى مجرد الغزو وإن لم يكن غنيمة ، وقدر على غزو طائفتين من الكفار ، إحداهما غنية ، والأخرى فقيرة ، فمال إلى جهة الأغنياء لإعلاء كلمة الله وللغنيمة ، لاثواب له على غزوه ألبتة : ونعوذ بالله أن يكون الأمر كذلك . فإن هذا حرج فى الدين ، ومدخل لليأس على المسلمين ، لأن أمثال هذه الشوائب التابعة قط لاينفك الإنسان عنها إلا على الندور فيكون تأثير هذا فى نقصان الثواب . فأما أن يكون فى إحباطه فلا

نعم الإنسان فيه على خطر عظيم ، لأنه ربما يظن أن الباعث الأقوى هو قصد التقرب إلى الله ، ويكون الأغلب على سره الحظ النفسى ، وذلك مما يخفى غاية الخفاء ، فلا يحصل الأجر إلا بالإخلاص ، والإخلاص قلما يستيقنه العبد من نفسه ، وإن بالغ فى الاحتياط

فلذلك ينبغى أن يكون أبدا بعد كمال الاجتهاد مترددا بين الرد والقبول ، خائفا أن تكون فى عبادته آفة يكون وبالها أكثر من ثوابها وهكذا كان الخائفون من ذوى البصائر

---

(١) حديث ابن مسعود من هاجر يبتغى شيئا من الدنيا فهوله : تقدم فى الباب الذى قبله

(٢) الكهف : ١١٠

وهكذا ينبغي أن يكون كل ذى بصيرة. ولذلك قال سفيان رحمه الله : لا أعتد بما ظهر من عملي. وقال عبد العزيز بن أبي روّاد : جاورت هذا البيت ستين سنة ، وحججت ستين حجة، فما دخلت في شيء من أعمال الله تعالى إلا وحاسبت نفسى ، فوجدت نصيب الشيطان أوفى من نصيب الله ليته لالى ولا عليّ . ومع هذا فلا ينبغي أن يترك العمل عند خوف الآفة والرياء ، فإن ذلك منتهى بغية الشيطان منه ، إذ المقصود أن لا يفوت الاخلاص . ومهما ترك العمل فقد ضيع العمل والإخلاص جميعا . وقد حكي أن بعض الفقراء كان يخدم أبا سعيد الخراز ويخف فى أعماله ، فتكلم أبو سعيد فى الإخلاص يوما يريد إخلاص الحركات ، فأخذ الفقير يتفقد قلبه عند كل حركة ويطالبه بالإخلاص ، فتعذر عليه قضاء الحوائج ، واستضر الشيخ بذلك ، فسأله عن أمره ، فأخبره بمطالبته نفسه بحقيقة الإخلاص ، وأنه يعجز عنها في أكثر أعماله فيتركها . فقال أبو سعيد : لا تفعل ، إذ الإخلاص لا يقطع المعاملة ، فواظب على العمل ، واجتهد في تحصيل الإخلاص ، فما قلت لك اترك العمل ، وإنما قلت لك أخلص العمل . وقد قال الفضيل : ترك العمل بسبب الخلق رياء ، وفعله لأجل الخلق شرك

الباب الثالث

فى الصدق وفضيلته وحقيقته

فضيلة الصدق

قال الله تعالى (رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ [1]) وقال النبي صلى الله عليه وسلم [(1)] « إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِى إِلَى الْبِرِّ وَالْبِرَّ يَهْدِى إِلَى الْجَنَّةِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقاً وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِى إِلَى الْفُجُورِ وَالْفُجُورَ يَهْدِى إِلَى النَّارِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّاباً »

ويكفى فى فضيلة الصدق أن الصديق مشتق منه ، والله تعالى وصف الأنبياء فى معرض

﴿ الباب الثالث فى الصدق ﴾

(١) حديث ان الصدق يهدى الى البر ـ الحديث : متفق عليه من حديث ابن مسعود وقد تقدم

---

(١) الأحزاب : ٢٣

المدح والثناء فقال (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا [١]) وقال (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا [٢]) وقال تعالى (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا [٣])

وقال ابن عباس : أربع من كن فيه فقد ربح ، الصدق ، والحياء ، وحسن الخلق ، والشكر

وقال بشر بن الحارث : من عامل الله بالصدق استوحش من الناس

وقال أبو عبد الله الرملي : رأيت منصورا الدينوري في المنام ، فقلت له : مافعل الله بك قال : غفر لي ، ورحمني ، وأعطاني مالم أؤمل . فقلت له : أحسن ماتوجه العبد به إلى الله ماذا ؟ قال : الصدق . وأقبح ماتوجه به الكذب

وقال أبو سليمان . اجعل الصدق مطيتك ، والحق سيفك ، والله تعالى غاية طلبتك . وقال رجل لحكيم : مارأيت صدقا فقال له . لو كنت صادقا لعرفت الصادقين . وعن محمد ابن على الكتاني قال . وجدنا دين الله تعالى مبنيا على ثلاثة أركان : على الحق ، والصدق ، والعدل . فالحق على الجوارح ، والعدل على القلوب ، والصدق على العقول

وقال الثوري في قوله تعالى (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ [٤]) قال : هم الذين ادعوا محبة الله تعالى ولم يكونوا بها صادقين . وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام . ياداود ، من صدقني في سريرته صدقته عند المخلوقين في علانيته

وصاح رجل في مجلس الشبلي ، ورمى نفسه في دجلة ، فقال الشبلي . إن كان صادقا فالله تعالى ينجيه كما نجى موسى عليه السلام ، وإن كان كاذبا فالله تعالى يغرقه كما أغرق فرعون

وقال بعضهم : أجمع الفقهاء والعلماء على ثلاث خصال ، أنها إذا صحت ففيها النجاة ، ولا يتم بعضها إلا ببعض . الإسلام الخالص عن البدعة والهوى ، والصدق لله تعالى في الأعمال وطيب المطعم

وقال وهب بن منبه : وجدت على حاشية التوراة . اثنين وعشرين حرفا ، كان صلحاء بني إسرائيل يجتمعون فيقرؤنها ويتدارسونها . لا كنز أنفع من العلم ، ولا مال أربح من الحلم ، ولا حسب أوضع من الغضب ، ولا قرين أزين من العمل ، ولا رفيق أشين من الجهل ، ولا شرف أعز من التقوى ، ولا كرم أوفى من ترك الهوى ، ولا عمل أفضل من الفكر ،

---

(١) مريم : ٤١ (٢) مريم : ٥٤ (٣) مريم : ٥٦ (٤) الزمر : ٦٠

ولاحسنة أعلى من الصبر ، ولاسيئة أخزى من الكبر ، ولادواء ألين من الرفق ، ولاداء أوجع من الخرق ، ولارسول أعدل من الحق ، ولادليل أنصح من الصدق ، ولافقر أذلّ من الطمع ، ولاغنى أشقى من الجمع ، ولاحياة أطيب من الصحة ، ولامعيشة أهنأ من العفة ، ولاعبادة أحسن من الخشوع ، ولازهد خير من القنوع ، ولاحارس أحفظ من الصمت ، ولاغائب أقرب من الموت ، . وقال محمد بن سعيد المروزى : إذاطلبت الله بالصدق آتاك الله تعالى مرآة بيدك حتى تبصر كل شيء من عجائب الدنيا والآخره

وقال أبو بكر الورّاق احفظ الصدق فيما بينك وبين الله تعالى ، والرفق فيما بينك وبين الخلق

وقيل لذى النون . هل العبد إلى صلاح أموره سبيل ؟ فقال :

قد بقينا من الذنوب حيارى　　نطلب الصدق ما إليه سبيل

فدعاوى الهوى تخف علينا　　وخلاف الهوى علينا ثقيل

وقيل لسهل : ما أصل هذا الأمر الذى نحن عليه ؟ فقال : الصدق ، والسخاء ، والشجاعة فقيل زدنا : فقال : التقى ، والحياء ، وطيب الغذاء

وعن [١] ابن عباس رضي الله عنهما ، أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الكمال فقال «قَوْلُ الْحَقِّ وَالْعَمَلُ بِالصِّدْقِ» . وعن الجنيد فى قوله تعالى (لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ [١]) قال يسأل الصادقين عند أنفسهم عن صدقهم عند ربهم ، وهذا أمر على خطر

بيان

حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه

اعلم أن لفظ الصدق يستعمل فى ستة معان : صدق فى القول ، وصدق فى النية والإرادة ، وصدق فى العزم ، وصدق فى الوفاء بالعزم ، وصدق فى العمل ، وصدق فى تحقيق مقامات الدين كلها . فمن اتصف بالصدق فى جميع ذلك فهو صدّيق ، لأنه مبالغة فى الصدق . ثم هم أيضا على درجات فمن كان له حظ فى الصدق فى شيء من الجملة فهو صادق بالإضافة إلى ما فيه صدقه

---

(١) حديث ابن عباس سئل عن الكمال فقال قول الحق والعمل بالصدق : لم أجده بهذا اللفظ

---

(١) الاحزاب : ٨

الصدق في القول

الصدق الأول : صدق اللسان . وذلك لا يكون إلا في الأخبار ، أو فيما يتضمن الأخبار وينبه عليه ، والخبر إما أن يتعلق بالماضي أو بالمستقبل ، وفيه يدخل الوفاء بالوعد والخلف فيه . وحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه ، فلا يتكلم إلا بالصدق ، وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها . فمن حفظ لسانه عن الإخبار عن الأشياء على خلاف ماهي عليه فهو صادق ولكن لهذا الصدق كمالان . أحدهما : الاحتراز عن المعاريض ، فقد قيل : في المعاريض مندوحة عن الكذب . وذلك لأنها تقوم مقام الكذب ، إذ المحذور من الكذب تفهيم الشيء على خلاف ماهو عليه في نفسه . إلا أن ذلك مما تمس إليه الحاجة ، وتقتضيه المصلحة في بعض الأحوال ، وفي تأديب الصبيان والنسوان ومن يجري مجراهم ، وفي الحذر عن الظلمة ، وفي قتال الأعداء والاحتراز عن اطلاعهم على أسرار الملك فمن اضطر إلى شيء من ذلك فصدقُه فيه أن يكون نطقه فيه لله فيما يأمره الحق به ويقتضيه الدين ، فإذا نطق به فهو صادق وإن كان كلامه مفهما غير ماهو عليه ، لأن الصدق ما أريد لذاته ، بل للدلالة على الحق والدعاء إليه ، فلا ينظر إلى صورته بل إلى معناه

نعم في مثل هذا الموضع ينبغي أن يعدل إلى المعاريض ماوجد إليه سبيلا [1] كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا توجه إلى سفر ورّى بغيره ، وذلك كي لا ينتهي الخبر إلى الأعداء فيقصد . وليس هذا من الكذب في شيء . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] « لَيْسَ بِكَذَّابٍ مَنْ أَصْلَحَ بَيْنَ اثْنَيْنِ فَقَالَ خَيْراً أَوْ أَنْمَى خَيْراً » ورخص في النطق على وفق المصلحة في ثلاثة مواضع : من أصلح بين اثنين ، ومن كان له زوجتان ، ومن كان في مصالح الحرب . والصدق ههنا يتحول إلى النية ، فلا يراعى فيه إلا صدق النية وإرادة الخير فمهما صح قصده ، وصدقت نيته ، وتجردت للخير إرادته ، صار صادقا وصديقا كيفما كان لفظه

ثم التعريض فيه أولى . وطريقه ماحكي عن بعضهم أنه كان يطلبه بعض الظلمة وهو في داره ، فقال لزوجته . خطي بأصبعك دائرة ، وضعي الأصبع على الدائرة ، وقولي ليس

---

(١) حديث كان إذا أراد سفرا ورى بغيره : متفق عليه من حديث كعب بن مالك

(٢) حديث ليس بكاذب من أصلح بين الناس ـ الحديث : متفق عليه من حديث أم كلثوم بنت عقبة ابن أبي معيط وقد تقدم

هو ههنا . واحترز بذلك عن الكذب ، ودفع الظالم عن نفسه ، فكان قوله صدقا ، وأفهم الظالم أنه ليس فى الدار

فالكمال الأول فى اللفظ : أن يحترز عن صريح اللفظ وعن المعاريض أيضا إلا عند الضرورة

والكمال الثانى : أن يراعي معنى الصدق فى ألفاظه التي يناجى بها ربه ، كقوله : وجهت وجهي للذى فطر السموات والأرض ، فإن قلبه إن كان منصرفا عن الله تعالى ، مشغولا بأمانى الدنيا وشهواته ، فهو كذب . وكقوله : إياك نعبد . وقوله : أنا عبد الله . فإنه إذا لم يتصف بحقيقة العبودية ، وكان له مطلب سوى الله ، لم يكن كلامه صدقا . ولو طولب يوم القيامة بالصدق فى قوله: أنا عبد الله، لعجز عن تحقيقه ، فإنه إن كان عبدا لنفسه، أو عبداً لدنيا أو عبدا لشهواته ، لم يكن صادقا فى قوله .

وكل ما تقيد العبد به فهو عبد له . كما قال عيسى عليه السلام : ياعبيد الدنيا . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم (١) « تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الْحُلَّةِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ » سمى كل من تقيد قلبه بشيء عبدا له . وإنما العبد الحق لله عز وجل من أعتق أولا من غير الله تعالى ، فصار حرا مطلقا . فإذا تقدمت هذه الحرية صار القلب فارغا ، فحلت فيه العبودية لله ، فتشغله بالله ومحبته ، وتقيد باطنه وظاهره بطاعته ، فلا يكون له مراد إلا الله تعالى ثم تجاوز هذا إلى مقام آخر أسنى منه يسمى الحرية ، وهو أن يعتق أيضا عن إرادته لله من حيث هو ، بل يقنع بما يريد الله له من تقريب أو إبعاد ، فتفنى إرادته فى إرادة الله تعالى . وهذا عبد عتق عن غير الله فصار حرا . ثم عاد وعتق عن نفسه فصار حرا ، وصار مفقودا لنفسه ، موجودا لسيده ومولاه ، إن حركه تحرك ، وإن سكنه سكن ، وإن ابتلاه رضي لم يبق فيه متسع لطلب ، والتماس ، واعتراض ، بل هو بين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل وهذا منتهى الصدق فى العبودية لله تعالى ، فالعبد الحق هو الذى وجوده لمولاه لا لنفسه وهذه درجة الصديقين . وأما الحرية عن غير الله فدرجات الصادقين ، وبعدها تتحقق العبوديه لله تعالى . وما قبل هذا فلا يستحق صاحبه أن يسمى صادقا ولا صديقا .

فهذا هو معنى الصدق فى القول

(١) حديث تعس عبد الدينار ـ الحديث : البخاري من حديث أبي هريرة وقد تقدم

الصدق في النية

الصدق الثاني : فى النية والإرادة . ويرجع ذلك إلى الإخلاص : وهو أن لا يكون له باعث فى الحركات والسكنات إلا الله تعالى ؛ فإن مازجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية ، وصاحبه يجوز أن يسمى كاذبا ، كما روينا فى فضيلة الإخلاص من حديث الثلاثة [1] ، حين يسئل العالم ماعملت فيما علمت ؛ فقال : عملت كذا وكذا . فقال الله تعالى كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم ، فإنه لم يكذبه ، ولم يقل له لم تعمل ، ولكنه كذبه فى إرادته ونيته .

وقد قال بعضهم : الصدق صحة التوحيد فى القصد . وكذلك قول الله تعالى (وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ [1]) وقد قالوا إنك لرسول الله ، وهذا صدق ، ولكن كذبهم لا من حيث نطق اللسان ، بل من حيث ضمير القلب ، وكان التكذيب يتطرق إلى الخبر ، وهذا القول يتضمن إخبارا بقرينة الحال ، إذ صاحبه يظهر من نفسه أن يعتقد مايقول ، فكذب فى دلالته بقرينة الحال على مافى قلبه . فإنه كذب فى ذلك ولم يكذب فيما يلفظ به . فيرجع أحد معانى الصدق إلى خلوص النية وهو الإخلاص ، فكل صادق فلابد وأن يكون مخلصا

الصدق في العزم

الصدق الثالث : صدق العزم ، فإن الإنسان قد يقدم العزم على العمل . فيقول فى نفسه . إن رزقنى الله مالا تصدقت بجميعه ، أو بشطره ، أو إن لقيت عدوا فى سبيل الله تعالى قاتلت ولم أبال وإن قُتلت ، وإن أعطانى الله تعالى ولاية عدلت فيها ولم أعص الله تعالى بظلم وميل إلى خلق

فهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه ، وهي عزيمة جازمة صادقة ، وقد يكون فى عزمه نوع ميل ، وتردد ، وضعف يضاد الصدق فى العزيمة ، فكان الصدق ههنا عبارة عن التمام والقوة ، كما يقال لفلان شهوة صادقة ، ويقال هذا المريض شهوته كاذبة ، مهما لم تكن شهوته عن سبب ثابت قوي ، أو كانت ضعيفة . فقد يطلق الصدق ويراد به هذا المعنى والصادق والصديق هو الذى تصادف عزيمته فى الخيرات كلها قوة تامة ، ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردد ، بل تسخو نفسه أبدا بالعزم المصمم الجازم على الخيرات . وهو كما قال عمر رضي الله عنه : لأن أقدم فتضرب عنقى أحب إليّ من أن أتأمّر على قوم فيهم أبو بكر رضي الله عنه فإنه قد وجد من نفسه العزم الجازم والمحبة الصادقة بأنه لا يتأمر مع وجود أبى بكر رضي الله عنه وأكد ذلك بما ذكره من القتل

---

(١) حدث الثلاثة حين سال العالم ماذا عملت فيما علمت ـ الحديث : تقدم

---

[1] المنافقون : ١٠

ومراتب الصديقين في العزائم تختلف ، فقد يصادف العزم ولا ينتهي به إلى أن يرضى بالقتل فيه ، ولكن إذا خلي ورأيه لم يقدم ، ولو ذكر له حديث القتل لم ينقض عزمه بل في الصادقين والمؤمنين من لو خير بين أن يقتل هو أو أبو بكر كانت حياته أحب إليه من حياة أبي بكر الصديق

الصدق في الوفاء

الصدق الرابع : في الوفاء بالعزم . فإن النفس قد تسخو بالعزم في الحال ، إذ لا مشقة في الوعد والعزم ، والمؤنة فيه خفيفة ، فإذا حقت الحقائق ، وحصل التمكن ، وهاجت الشهوات انحلت العزيمة ، وغلبت الشهوات ، ولم يتفق الوفاء بالعزم . وهذا يضاد الصدق فيه . ولذلك قال الله تعالى (رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ [1]) فقد روي [1] عن أنس أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فشق ذلك على قلبه وقال : أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه ، أما والله لئن أراني الله مشهدا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرين الله ما أصنع . قال فشهد أحدا في العام القابل ، فاستقبله سعد بن معاذ فقال : يا أبا عمرو إلى أين ؟ فقال واها لريح الجنة ، إني أجد ريحها دون أحد . فقاتل حتى قتل ، فوجد في جسده بضع وثمانون ، ما بين رمية ، وضربة ، وطعنة . فقالت أخته بنت النضر : ما عرفت أخي إلا بثيابه . فنزلت هذه الآية (رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ [2]) [2] ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على مصعب بن عمير ، وقد سقط على وجهه يوم أحد شهيدا وكان صاحب لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام (رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ [3]) . وقال [3] فضالة بن عبيد : سمعت

---

(١) حديث أنس ان عمه أنس بن النضر لم يشهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ الحديث : في قتاله بأحد حتى قتل فوجد في جسده بضع وثمانون من بين رمية وضربة وطعنة ونزول رجال صدقوا الآية الترمذي وقال حسن صحيح والنسائي في الكبرى وهو عند البخاري مختصرا ان هذه الآية نزلت في أنس بن النضر

(٢) حديث وقف على مصعب بن عمير وقد سقط على وجهه يوم أحد وقرأ هذه الآية : أبو نعيم في الحلية من رواية عبيد بن عمير مرسلا

(٣) حديث فضالة بن عبيد عن عمر بن الخطاب الشهداء أربعة رجل مؤمن جيد الإيمان ـ الحديث : الترمذي وقال حسن

(١ ، ٢ ، ٣) الأحزاب : ٢٣

عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الشُّهَدَاءُ أَرْبَعَةٌ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ جَيِّدُ الإِيمَانِ لَقِيَ الْعَدُوَّ فَصَدَقَ اللهَ حَتَّى قُتِلَ فَذَلِكَ الَّذِي يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ أَعْيُنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هَكَذَا » ورفع رأسه حتى وقعت قلنسوته . قال الراوي . فلا أدري قلنسوة عمر أو قلنسوة رسول الله صلى الله عليه وسلم « وَرَجُلٌ جَيِّدُ الإِيمَانِ إِذَا لَقِيَ الْعَدُوَّ فَكَأَنَّمَا يُضْرَبُ وَجْهُهُ بِشَوْكِ الطَّلْحِ أَتَاهُ سَهْمٌ غَائِرٌ فَقَتَلَهُ فَهُوَ فِي الدَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ وَرَجُلٌ مُؤْمِنٌ خَلَطَ عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً لَقِيَ الْعَدُوَّ فَصَدَقَ اللهَ حَتَّى قُتِلَ فَذَلِكَ فِي الدَّرَجَةِ الثَّالِثَةِ وَرَجُلٌ أَسْرَفَ عَلَى نَفْسِهِ لَقِيَ الْعَدُوَّ فَصَدَقَ اللهَ حَتَّى قُتِلَ فَذَاكَ فِي الدَّرَجَةِ الرَّابِعَةِ » . وقال مجاهد . رجلان خرجا على ملأ من الناس قعود ، فقالا إن رزقنا الله تعالى مالا لنصدقن ، فبخلوا به ، فنزلت (وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ [١])

وقال بعضهم : إنما هو شيء نووه في أنفسهم لم يتكلموا به ، فقال (وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ [٢]) فجعل العزم عهدا ، وجعل الخلف فيه كذبا ، والوفاء به صدقا

وهذا الصدق أشد من الصدق الثالث ، فإن النفس قد تسخوا بالعزم ، ثم تكيع عند الوفاء لشدته عليها ، ولهيجان الشهوة عند التمكن وحصول الأسباب . ولذلك استثنى عمر رضي الله عنه فقال . لأن أقدم فتضرب عنقي أحب إليّ من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر ، اللهم إلا أن تسول لي نفسي عند القتل شيئا لا أجده الآن ، لأني لا آمن أن يثقل عليها ذلك فتتغير عن عزمها . أشار بذلك إلى شدة الوفاء بالعزم

وقال أبو سعيد الخراز . رأيت في المنام كأن ملكين نزلا من السماء فقالا لي : ما الصدق؟ قلت الوفاء بالعهد . فقالا لي : صدقت . وعرجا إلى السماء

الصدق في الأعمال

الصدق الخامس : في الأعمال ، وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف هو به ، لا بأن يترك الأعمال ، ولكن بأن يستجر الباطن إلى تصديق الظاهر . وهذا مخالف ما ذكرناه من ترك الرياء ، لأن المرائي هو الذي يقصد ذلك ورب

(١ ، ٢) التوبة : ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧

واقف على هيئة الخشوع فى صلاته ، ليس يقصد به مشاهدة غيره ، ولكن قلبه غافل عن الصلاة ، فمن ينظر إليه يراه قائما بين يدى الله تعالى ؛ وهو بالباطن قائم فى السوق بين يدي شهوة من شهواته . فهذه أعمال تعرب بلسان الحال عن الباطن إعرابا هو فيه كاذب وهو مطالب بالصدق فى الأعمال . وكذلك قد يمشى الرجل على هيئة السكون والوقار ، وليس باطنه موصوفا بذلك الوقار ، فهذا غير صادق فى عمله ، وإن لم يكن ملتفتا إلى الخلق ، ولا مرائيا إياهم ولا ينجو من هذا إلا باستواء السريرة والعلانية ، بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيرا من ظاهره . ومن خيفة ذلك اختار بعضهم تشويش الظاهر ، ولبس ثياب الأشرار ، كيلا يظن به الخير بسبب ظاهره ، فيكون كاذبا فى دلالة الظاهر على الباطن

فإذاً مخالفة الظاهر للباطن إن كانت عن قصد سميت رياء ، ويفوت بها الإخلاص وإن كانت عن غير قصد فيفوت بها الصدق . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « اللَّهُمَّ اجْعَلْ سَرِيرَتِي خَيْرًا مِنْ عَلاَنِيَتِي وَاجْعَلْ عَلاَنِيَتِي صَالِحَةً » وقال يزيد بن الحارث : إذا استوت سريرة العبد وعلانيته فذلك النصف . وإن كانت سريرته أفضل من علانيته فذلك الفضل . وإن كانت علانيته أفضل من سريرته فذلك الجور . وأنشدوا.

إذا السر والإعلان فى المؤمن استوى　　فقد عز فى الدارين واستوجب الثنا
فإن خالف الإعلان سرا فما له　　على سعيه فضل سوى الكد والعنا
فما خالص الدينار فى السوق نافق　　ومغشوشه المردود لا يقتضى المنا

وقال عطية بن عبد الغافر . إذا وافقت سريرة المؤمن علانيته باهى الله به الملائكة ، يقول: هذا عبدى حقا : وقال معاوية بن قرة : من يدلنى على بكاء بالليل بسام بالنهار ! وقال عبد الواحد ابن زيد : كان الحسن إذا أمر بشيء كان من أعمل الناس به ، وإذا نهى عن شيء كان من أترك الناس له ، ولم أر أحدا قط أشبه سريرة بعلانية منه

وكان أبو عبد الرحمن الزاهد يقول : إلهى ، عاملت الناس فيما بينى وبينهم بالأمانة وعاملتك فيما بينى وبينك بالخيانة ، ويبكى . وقال أبو يعقوب النهرجورى : الصدق موافقة الحق فى السر والعلانية ، فإذا مساواة السريرة للعلانية أحد أنواع الصدق

الصدق فى مقامات الدين

الصدق السادس : وهو أعلى الدرجات وأعزها ، الصدق فى مقامات الدين ، كالصدق

---

(١) حديث اللهم اجعل سريرتى خيرا من علانيتى - الحديث : تقدم ولم أجده

فى الخوف ، والرجاء ، والتعظيم ،والزهد ، والرضا ، والتوكل ، والحب ،وسائر هذه الأمور فإن هذه الأمور لها مبـــادٍ ينطلق الاسم بظهورها ، ثم لها غايات وحقائق ، والصادق المحقق من نال حقيقتها . وإذا غلب الشيء وتمت حقيقته ، سمي صاحبه صادقا فيه كما يقال . فلان صدق القتال ، ويقال هذا هو الخوف الصادق . وهـذه هي الشهوة الصادقة وقال الله تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا [١]) إلى قوله (أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ [٢]) وقال تعالى (وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ [٣]) إلى قوله (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا [٤]) [١] وسئل أبو ذر عن الإيمان ،فقرأ هذه الآية.فقيل له سألناك عن الإيمان . فقال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقرأ هذه الآية

ولنضرب للخوف مثلا . فما من عبد يؤمن بالله واليوم الآخر إلا وهو خائف من الله خوفا ينطلق عليه الاسم ، ولكنه خوف غير صادق ، أي غير بالغ درجة الحقيقة . أما تراه إذا خاف سلطانا ، أو قاطع طريق فى سفره ، كيف يصفر لونه ، وترتعد فرائصه.ويتنغص عليه عيشه ، ويتعذر عليه أكله ونومه ، وينقسم عليه فكره حتى لا ينتفع به أهله وولده ؟ وقد ينزعج عن الوطن فيستبدل بالأنس الوحشة ، وبالراحة التعب والمشقة ، والتعرض للأخطار ، كل ذلك خوفا من درك المحذور . ثم إنه يخاف النار ، ولا يظهر عليه شيء من ذلك عنـــد جريان معصية عليه . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [٢] « لَمْ أَرَ مِثْلَ النَّارِ نَامَ هَارِبُهَا وَلَا مِثْلَ الْجَنَّةِ نَامَ طَالِبُهَا »

فالتحقيق فى هذه الأمور عزيز جدا ، ولا غاية لهذه المقامات حتى ينال تمامها، ولكن لكل عبد منه حظ بحسب حاله ، إما ضعيف وإما قوي . فإذا قوي سمي صادقا فيه

فمعرفة الله وتعظيمه والخوف منه لا نهاية لها ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم [٣] لجبريل عليه السلام « أُحِبُّ أَنْ أَرَاكَ فِي صُورَتِكَ الَّتِي هِيَ صُورَتُكَ » فقال لا تطيق ذلك

---

(١) حديث أبي ذر سألته عن الايمان فقرأ قوله تعالى ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر الى قوله أولئك الذين صدقوا رواه محمد بن نصر المروزى فى تعظيم قدر الصلاة بأسانيد منقطعة لم أجد له اسنادا

(٢) حديث لم أر مثل النار نام هاربها ـ الحديث : تقدم

(٣) حديث قال لجبريل أحب أن أراك فى صورتك التى هى صورتك فقال لا تطيق ذلك ـ الحديث : تقدم فى كتاب الرجاء والخوف أخصر من هذا والذى ثبت فى الصحيح أنه رأى جبريل فى صورته مرتين

(١ ، ٢) الحجرات : ١٥ (٣ ، ٤) البقرة : ١٧٧

قال « بَلْ أَرِنِي » فواعده البقيع في ليلة مقمرة ، فأتاه ، فنظر النبي صلى الله عليه وسلم وإذا هو به قد سد الأفق يعني جوانب السماء فوقع النبي صلى الله عليه وسلم مغشيا عليه ، فأفاق وقد عاد جبريل لصورته الأولى ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « مَاظَنَنْتُ أَنَّ أَحَدًا مِنْ خَلْقِ اللهِ هَكَذَا » قال وكيف لو رأيت إسرافيل ؟ إن العرش لعلى كاهله ، وإن رجليه قد مرقتا تحت تخوم الأرض السفلى ، وإنه ليتصاغر من عظمة الله حتى يصير كالوصع ، يعني كالعصفور الصغير . فانظر ماالذي يغشاه من العظمة والهيبة حتى يرجع إلى ذلك الحد وسائر الملائكة ليسوا كذلك لتفاوتهم في المعرفة ، فهذا هو الصدق في التعظيم . وقال جابر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي وَجِبْرِيلُ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى كَالْحِلْسِ الْبَالِي مِنْ خَشْيَةِ اللهِ تَعَالَى » يعني الكساء الذي يلقى على ظهر البعير . وكذلك الصحابة كانوا خائفين ، وما كانوا بلغوا خوف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولذلك قال ابن عمر رضي الله عنهما : لن تبلغ حقيقة الإيمان حتى تنظر الناس كلهم حمقى في دين الله . وقال مطرف : مامن الناس أحد إلا وهو أحمق فيما بينه وبين ربه ، إلا أن بعض الحمق أهون من بعض وقال النبي صلى الله عليه وسلم [٢] « لَا يَبْلُغُ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى النَّاسِ كَالْأَبَاعِرِ فِي جَنْبِ اللهِ ثُمَّ يَرْجِعَ إِلَى نَفْسِهِ فَيَجِدَهَا أَحْقَرَ حَقِيرٍ »

فالصادق إذا في جميع هذه المقامات عزيز ، ثم درجات الصدق لا نهاية لها . وقد يكون للعبد صدق في بعض الأمور دون بعض ، فإن كان صادقا في الجميع فهو الصديق حقا . قال سعد بن معاذ : ثلاثة أنا فيهن قوي ، وفيما سواهن ضعيف : ماصليت صلاة منذ أسلمت فحدثت نفسي حتى أفرغ منها . ولا شيعت جنازة فحدثت نفسي بغير ماهي قائلة وما هو مقول لها حتى يفرغ من دفنها . وماسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قولا إلا علمت أنه حق . فقال ابن المسيب : ماظننت أن هذه الخصال تجتمع إلا في النبي عليه السلام . فهذا صدق

---

(١) حديث مررت ليلة أسرى بي وجبريل بالملا الاعلى كالحلس البالى من خشية الله - الحديث : محمد بن نصر في كتاب تعظيم قدر الصلاة والبيهقي في دلائل النبوة من حديث أنس وفيه الحارث بن عبيد الايادى ضعفه الجمهور وقال البيهقي ورواه حماد بن سلمة عن أبي عمران الجونى عن محمد بن عمير ابن عطارد وهذا مرسل

(٢) حديث لايبلغ عبد حقيقة الايمان حتى ينظر الى الناس كالاباعر في جنب الله ثم يرجع الى نفسه فيجدها أحقر حقير : لم أجد له أصلا في حديث مرفوع

فى هذه الأمور. وكم قوم من جلة الصحابة قد أدوا الصلاة. واتبعوا الجنائز ، ولم يبلغوا هذا المبلغ

فهذه هي درجات الصدق ومعانيه . والكلمات المأثورة عن المشايخ فى حقيقة الصدق فى الأغلب لا تتعرض إلا لآحاد هذه المعانى . نعم قد قال أبو بكر الوراق الصدق ثلاثة : صدق التوحيد ، وصدق الطاعة ، وصدق المعرفة . فصدق التوحيد لعامة المؤمنين . قال الله تعالى (وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ[1]) وصدق الطاعة، لأهل العلم والورع، وصدق المعرفة لأهل الولاية الذين هم أوتاد الأرض. وكل هذا يدور على ما ذكرناه فى الصدق السادس ، ولكنه ذكر أقسام ما فيه الصدق ، وهو أيضا غير محيط بجميع الأقسام

وقال جعفر الصادق : الصدق هو المجاهدة ، وأن لا تختار على الله غيره كما لم يختر عليك غيرك ، فقال تعالى (هُوَ اجْتَبَاكُمْ[2]) . وقيل أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام إنى إذا أحببت عبداً ابتليته ببلايا لا تقوم لها الجبال ، لأنظر كيف صدقه . فإن وجدته صابرا اتخذته وليا وحبيبا ، وإن وجدته جزوعا يشكونى إلى خلقى خذلته ولا أبالى .

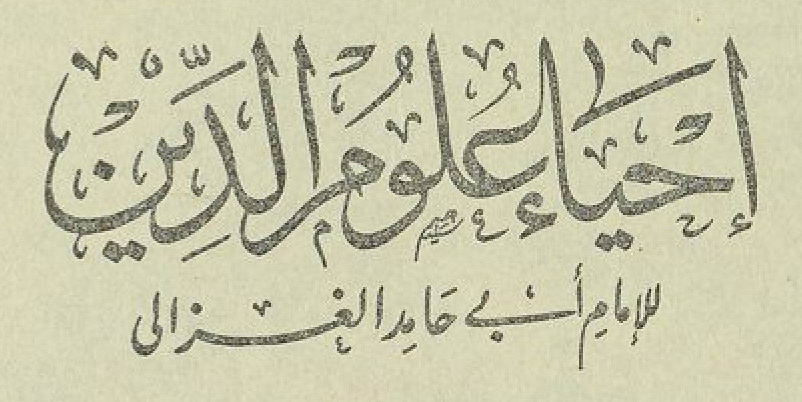
فإذاً من علامات الصدق كتمان المصائب والطاعات جميعا ، وكراهة اطلاع الخلق عليها

تم كتاب الصدق والإخلاص ، يتلوه كتاب المراقبة والمحاسبة والحمد لله

(١) الحديد : ١٩ (٢) الحج : ٧٨

فهرست الجزء الرابع عشر

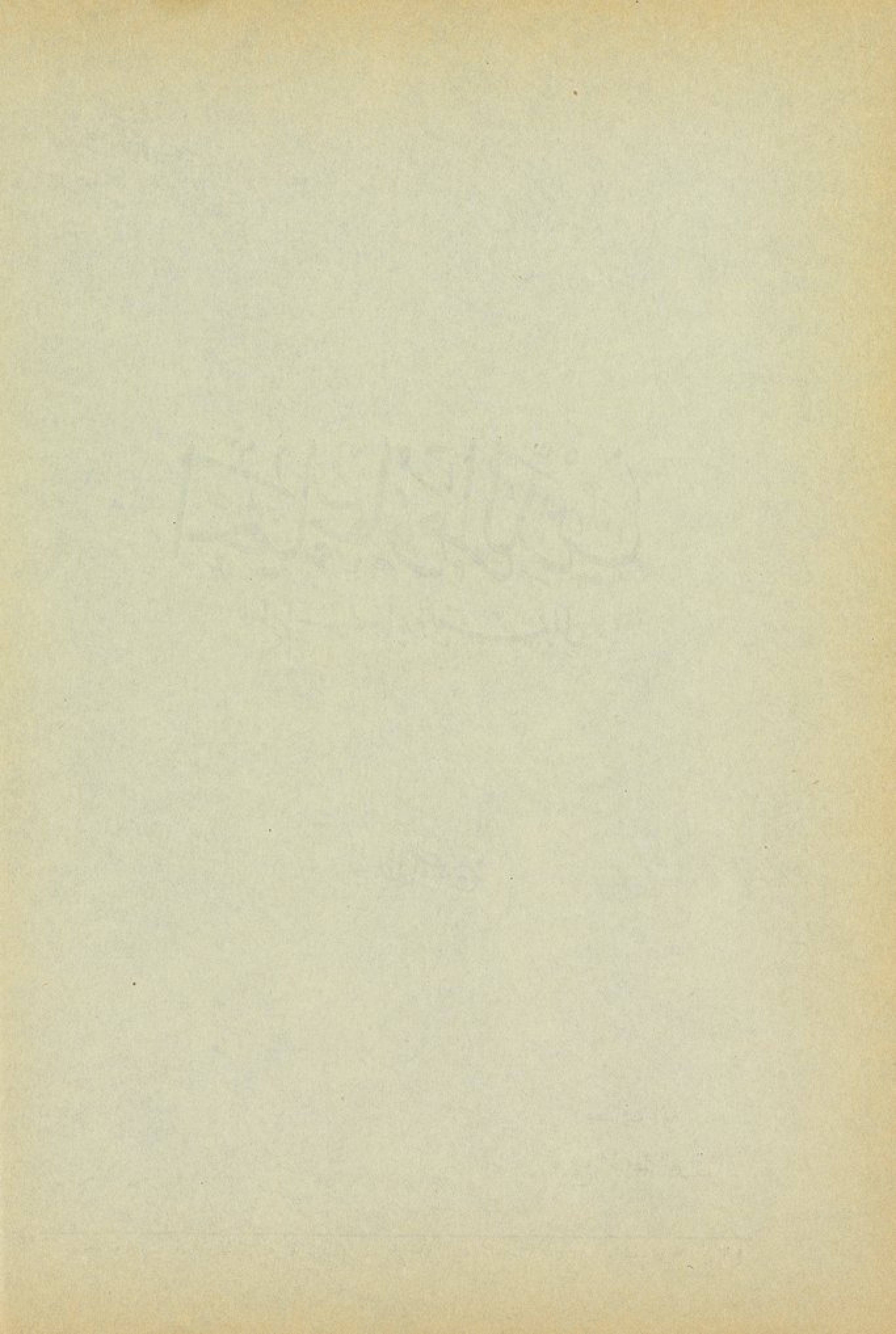
لجنة
نشر الثقافة الإسلامية
بدار جمعية الجهاد الاسلامى



الجزء الخامس عشر

مضاف إليه
تخريج الحافظ العراقى

مطبعة لجنة نشر الثقافة الاسلامية شارع الناصرية رقم ١٣ القاهرة – سنة ١٣٥٧ تليفون ٤٢٥٠٩



كتاب المراقبة والمحاسبة

كتاب المراقبة والمحاسبة

وهو الكتاب الثامن من ربع المنجيات من كتب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله القائم على كل نفس بما كسبت ، الرقيب على كل جارحة بما اجترحت ، المطلع على ضمائر القلوب إذا هجست . الحسيب على خواطر عباده إذا اختلجت ، الذى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات والأرض تحركت أو سكنت ، المحاسب على النقير والقطمير والقليل والكثير من الأعمال وإن خفيت ، المتفضل بقبول طاعات العباد وإن صغرت ، المتطوّل بالعفو عن معاصيهم وإن كثرت ، وإنما يحاسبهم لتعلم كل نفس ما أحضرت ، وتنظر فيما قدمت وأخرت ، فتعلم أنه لولا لزومها المراقبة والمحاسبة فى الدنيا لشقيت فى صعيد القيامة وهلكت ، وبعد المجاهدة والمحاسبة والمراقبة لولا فضله بقبول بضاعتها المزجاة لخابت وخسرت . فسبحان من عمّت نعمته كافة العباد وشملت ، واستغرقت رحمته الخلائق فى الدنيا والآخرة وغمرت ، فبنفحات فضله اتسعت القلوب للإيمان وانشرحت ، وبيمن توفيقه تقيدت الجوارح بالعبادات وتأدبت ، وبحسن هدايته انجلت عن القلوب ظلمات الجهل وانقشعت ، وبتأييده ونصرته انقطعت مكايد الشيطان واندفعت وبلطف عنايته تترجح كفة الحسنات إذا ثقلت ، وبتيسيره تيسرت من الطاعات ما تيسرت فمنه العطاء ، والجزاء ، والإبعاد ، والإدناء ، والإسعاد ، والإشقاء

والصلاة على محمد سيد الأنبياء ، وعلى آله سادة الأصفياء ، وعلى أصحابه قادة الأتقياء

أما بعد : فقد قال الله تعالى (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ[1]) وقال تعالى (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا[2])

(١) الأنبياء : ٤٧ (٢) الكهف : ٤٩

وقال تعالى (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ [١]) وقال تعالى (يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ [٢]) وقال تعالى (ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ [٣]) وقال تعالى (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ [٤]) وقال تعالى (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ [٥]) فعرف أرباب البصائر من جملة العباد أن الله تعالى لهم بالمرصاد، وأنهم سيناقشون فى الحساب. ويطالبون بمثاقيل الذر من الخطرات واللحظات. وتحققوا أنه لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة، وصدق المراقبة، ومطالبة النفس فى الأنفاس والحركات، ومحاسبتها فى الخطرات واللحظات فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خف فى القيامة حسابه، وحضر عند السؤال جوابه، وحسن منقلبه ومآبه. ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته، وطالت فى عرصات القيامة وقفاته، وقادته إلى الخزي والمقت سيئاته

فلما انكشف لهم ذلك علموا أنه لا ينجيهم منه إلا طاعة الله، وقد أمرهم بالصبر والمرابطة فقال عز من قائل (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا [٦]) فرابطوا أنفسهم أولا بالمشارطة، ثم بالمراقبة، ثم بالمحاسبة، ثم بالمعاقبة، ثم بالمجاهدة، ثم بالمعاتبة، فكانت لهم فى المرابطة ست مقامات، ولا بد من شرحها وبيان حقيقتها وفضيلتها، وتفصيل الأعمال فيها، وأصل ذلك المحاسبة، ولكن كل حساب فبعد مشارطة ومراقبة، ويتبعه عند الخسران المعاتبة والمعاقبة، فلنذكر شرح هذه المقامات وبالله التوفيق

المقام الأول من المرابطة

المشـــــارطة

اعلم أن مطلب المتعاملين فى التجارات، المشتركين فى البضائع عند المحاسبة سلامة الربح وكما أن التاجر يستعين بشريكه. فيسلم إليه المال حتى يتجر ثم يحاسبه، فكذلك العقل

(١) المجادلة : ٦ (٢) الزلزلة : ٦، ٧، ٨ (٣) البقرة : ٢٨١ (٤) آل عمران : ٣٠ (٥) البقرة : ٢٣٥
(٦) آل عمران : ٢٠٠

هو التاجر فى طريق الآخرة ، وإنما مطلبه وربحه تزكية النفس ، لأن بذلك فلاحها . قال الله تعالى (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا [1]) وإنما فلاحها بالأعمال الصالحة . والعقل يستعين بالنفس فى هذه التجارة ، إذ يستعملها ويستسخرها فيما يزكيها كما يستعين التاجر بشريكه وغلامه الذى يتجر فى ماله

وكما أن الشريك يصير خصما منازعا يجاذبه فى الربح ، فيحتاج إلى أن يشارطه أولا ، ويراقبه ثانيا ، ويحاسبه ثالثا ، ويعاقبه أو يعاتبه رابعا ، فكذلك العقل يحتاج إلى مشارطة النفس أولا ، فيوظف عليها الوظائف ، ويشرط عليها الشروط ، ويرشدها إلى طرق الفلاح ويجزم عليها الأمر بسلوك تلك الطرق ، ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة ، فإنه لو أهملها لم ير منها إلا الخيانة وتضييع رأس المال ، كالعبد الخائن إذا خلا له الجو وانفرد بالمال . ثم بعد الفراغ ينبغى أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها ، فإن هذه تجارة ربحها الفردوس الأعلى ، وبلوغ سدرة المنتهى مع الأنبياء والشهداء ، فتدقيق الحساب فى هذا مع النفس أهم كثيراً من تدقيقه فى أرباح الدنيا ، مع أنها محتقرة بالإضافة إلى نعيم العقبى ثم كيفما كانت فمصيرها إلى التصرم والانقضاء ، ولا خير فى خير لا يدوم . بل شر لا يدوم خير من خير لا يدوم ، لأن الشر الذى لا يدوم إذا انقطع بقى الفرح بانقطاعه دائما وقد انقضى الشر ، والخير الذى لا يدوم يبقى الأسف على انقطاعه دائما وقد انقضى الخير ، ولذلك قيل :

أشد الغم عندى فى سرور   تيقن عنه صاحبه انتقالا

الحزم محاسبة النفس قبل أن تحاسب

فحتم على كل ذى حزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه ، والتضييق عليها فى حركاتها ، وسكناتها ، وخطراتها ، وحظواتها ، فإن كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها ، يمكن أن يشترى بها كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد . فانقضاء هذه الأنفاس ضائعة أو مصروفة إلى ما يجلب الهلاك خسران عظيم هائل لا تسمح به نفس عاقل

فإذا أصبح العبد وفرغ من فريضة الصبح ، ينبغى أن يفرغ قلبه ساعة لمشارطة النفس ، كما أن التاجر عند تسليم البضاعة إلى الشريك العامل يفرغ المجلس لمشارطته ، فيقول للنفس . مالى بضاعة إلا العمر ، ومهما فنى فقد فنى رأس المال ، ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح ،

---

(١) الشمس : ٩ ، ١٠

وهـذا اليوم الجديد قد أمهلني الله فيه ؛ وأنسأ في أجلي ، وأنعم عليّ به ، ولو توفاني لكنت أتمنى أن يرجعني إلى الدنيا يوما واحدا حتى أعمل فيه صالحا. فاحسبي أنك قد توفيت، ثم قد رُددت، فإياك ثم إياك أن تضيعي هذا اليوم ، فإن كل نفس من الأنفاس جوهرة لا قيمة لها، واعلمي يا نفس أن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة، وقد ورد في الخبر أنه [(١)] ينشر للعبد بكل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة ، فيفتح له منها خزانة فيراها مملوأة نورا من حسناته التي عملها في تلك الساعة ؛ فيناله من الفرح والسرور والاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار التي هي وسيلته عند الملك الجبار ، ما لو وزع على أهل النار لأدهشهم ذلك الفرح عند الإحساس بألم النار . ويفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة ،يفوح نتنها،ويغشاه ظلامها ، وهي الساعة التي عصى الله فيها ، فيناله من الهول والفزع ما لو قسم على أهل الجنـة لتنغص عليهم نعيمها. ويفتح له خزانة أخرى فارغة ليس له فيها ما يسره ولا ما يسوؤه ؛ وهي الساعة التي نام فيها ، أو غفل ، أو اشتغل بشيء من مباحات الدنيا ، فيتحسر على خلوها ، ويناله من غبن ذلك ما ينال القادر على الربح الكثير والملك الكبير، إذا أهمله وتساهل فيـه حتى فاته، وناهيك به حسرة وغبنا. وهكذا تعرض عليـه خزائن أوقاته طول عمره ، فيقول لنفسه: اجتهدي اليوم في أن تعمري خزانتك، ولا تدعيها فارغة عن كنوزك التي هي أسباب ملكك، ولا تميلي إلى الكسل والدّعة والاستراحة ، فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك ، وتبقى عندك حسرة لا تفارقك وإن دخلت الجنة ، فألم الغبن وحسرته لا يطاق وإن كان دون ألم النار

وقد قال بعضهم : هب أن المسيء قد عفي عنه ، أليس قد فاته ثواب المحسنين ؟ أشار به إلى الغبن والحسرة: وقال الله تعالى : ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [(١)]

فهذه وصيته لنفسه في أوقاته . ثم ليستأنف لها وصية في أعضائه السبعة : وهي العين ، والأذن ، واللسان ، والبطن ، والفرج ، واليد ، والرجل، وتسليمها إليها ، فإنها رعايا خادمة لنفسه في هذه التجارة ، وبها تتم أعمال هذه التجارة. وإن لجهنم سبعة أبواب ، لكل باب منهم جزء

(١) حديث ينشر للعبد كل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة فيفتح له منها خزانة فيراها مملوأة من حسناته ـ الحديث : بطوله لم أجد له أصلا

(١) التغابن : ٩

مقسوم . وإنما تتعين تلك الأبواب لمن عصى الله تعالى بهذه الأعضاء، فيوصيها بحفظها عن معاصيها

أما العين ، فيحفظها عن النظر إلى وجه من ليس له بمحرم ، أو إلى عورة مسلم ، أو النظر إلى مسلم بعين الاحتقار ، بل عن كل فضول مستغنى عنه ؛ فإن الله تعالى يسأل عبده عن فضول النظر ، كما يسأله عن فضول الكلام . ثم إذا صرفها عن هذا لم تقنع به حتى يشغلها بما فيه تجارتها وربحها ، وهو ما خلقت له من النظر إلى عجائب صنع الله بعين الاعتبار والنظر إلى أعمال الخير للاقتداء، والنظر في كتاب الله وسنة رسوله ، ومطالعة كتب الحكمة للاتعاظ والاستفادة . وهكذا ينبغي أن يفصل الأمر عليها في عضو عضو ، لاسيما اللسان والبطن

أما اللسان فلأنه منطلق بالطبع ، ولا مؤنة عليه في الحركة ، وجنايته عظيمة بالغيبة ، والكذب ، والنميمة ، وتزكية النفس ، ومذمة الخلق والأطعمة ، واللعن ، والدعاء على الأعداء والمماراة في الكلام ، وغير ذلك مما ذكرناه في كتاب آفات اللسان ، فهو بصدد ذلك كله مع أنه خلق للذكر ، والتذكير ، وتكرار العلم ، والتعليم ، وإرشاد عباد الله إلى طريق الله وإصلاح ذات البين ، وسائر خيراته . فليشترط على نفسه أن لا يحرك اللسان طول النهار إلا في الذكر ، فنطق المؤمن ذكر ، ونظره عبرة ، وصمته فكرة ، وما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد

وأما البطن فيكلفه ترك الشره ، وتقليل الأكل من الحلال ، واجتناب الشبهات ، ويمنعه من الشهوات ، ويقتصر على قدر الضرورة ؛ ويشرط على نفسه أنها إن خالفت شيئاً من ذلك عاقبها بالمنع عن شهوات البطن ؛ ليفوتها أكثر مما نالته بشهواتها

وهكذا يشرط عليها في جميع الأعضاء ، واستقصاء ذلك يطول ، ولا تخفى معاصي الأعضاء وطاعاتها . ثم يستأنف وصيتها في وظائف الطاعات التي تتكرر عليه في اليوم والليلة ، ثم في النوافل التي يقدر عليها ، ويقدر على الاستكثار منها ، ويرتب لها تفصيلها ، وكيفيتها ، وكيفية الاستعداد لها بأسبابها . وهذه شروط يفتقر إليها في كل يوم ، ولكن إذا تعود الإنسان شرط ذلك على نفسه أياما ، وطاوعته نفسه في الوفاء بجميعها ، استغنى عن المشارطة فيها . وإن أطاع في بعضها بقيت الحاجة إلى تجديد المشارطة فيما بقي ولكن لا يخلو كل يوم عن مهم جديد ، وواقعة حادثة لها حكم جديد . ولله عليه في ذلك حق ، ويكثر هذا على من يشتغل بشيء من أعمال الدنيا من ولاية ، أو تجارة ، أو تدريس ، إذ قلما يخلو يوم

عن واقعة جديدة يحتاج إلى أن يقضي حق الله فيها . فعليه أن يشترط على نفسه الاستقامة فيها ، والانقياد للحق فى مجاريها ، ويحذرها مغبة الإهمال ، ويعظها كما يوعظ العبد الآبق المتمرد ، فإن النفس بالطبع متمردة عن الطاعات ، مستعصية عن العبودية ، ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها ، وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين

أثر محاسبة النفس قبل العمل

فهذا وما يجرى مجراه هو أول مقام المرابطة مع النفس ، وهي محاسبة قبل العمل والمحاسبة تارة تكون بعد العمل ، وتارة قبله للتحذير . قال الله تعالى (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ [1]) وهذا للمستقبل . وكل نظر فى كثرة ومقدار لمعرفة زيادة و نقصان فإنه يسمى محاسبة . فالنظر فيما بين يدي العبد فى نهاره ليعرف زيادته من نقصانه من المحاسبة . وقد قال الله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا [2]) وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا [3]) وقال تعالى (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ [4]) ذكر ذلك تحذيرا وتنبيها للاحتراز منه فى المستقبل . وروى [1] عبادة بن الصامت ، أنه عليه السلام قال لرجل سأله أن يوصيه ويعظه « إِذَا أَرَدْتَ أَمْرًا فَتَدَبَّرْ عَاقِبَتَهُ فَإِنْ كَانَ رُشْدًا فَامْضِهِ وَإِنْ كَانَ غَيًّا فَانْتَهِ عَنْهُ »

وقال بعض الحكماء : إذا أردت أن يكون العقل غالبا للهوى فلا تعمل بقضاء الشهوة حتى تنظر العاقبة ، فإن مكث الندامة فى القلب أكثر من مكث خفة الشهوة . وقال لقمان : إن المؤمن إذا أبصر العاقبة أمن الندامة

وروي شداد بن أوس عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال [2] « الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ » دان نفسه أي حاسبها . ويوم الدين يوم الحساب . وقوله (أَئِنَّا لَمَدِينُونَ [5]) أى لمحاسبون

وقال عمر رضي الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا ، وتهيؤا للعرض الأكبر . وكتب إلى أبي موسى الأشعري : حاسب نفسك فى الرخاء قبل

---

(١) حديث عبادة بن الصامت إذا أردت أمرا فتدبر عاقبته ـ الحديث : تقدم

(٢) حديث الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ـ الحديث : تقدم

---

(١) البقرة : ٢٣٥ (٢) النساء : ٩٤ (٣) الحجرات : ٦ (٤) ق : ١٦ (٥) الصافات : ٥٢

حساب الشدة . وقال لكعب : كيف تجدها في كتاب الله ؟ قال ويل لديّان الأرض من ديّان السماء ، فعلاه بالدرة وقال : إلا من حاسب نفسه . فقال كعب : ياأمير المؤمنين، إنها إلى جنبها فى التوراة ، مابينهما حرف ، إلا من حاسب نفسه

وهذا كله إشارة إلى المحاسبة للمستقبل ، إذ قال : من دان نفسه يعمل لما بعد الموت ومعناه وزن الأمور أولا ، وقدّرها ، ونظر فيها ، وتدبرها ، ثم أقدم عليها فباشرها

المرابطة الثانية

المراقبة

إذا أوصى الإنسان نفسه ، وشرط عليها ماذكرناه ، فلا يبقى إلا المراقبة لها عندالخوض فى الأعمال ، وملاحظتها بالعين الكالئة ، فإنها إن تركت طغت وفسدت . ولنذكر فضيلة المراقبة ثم درجاتها

فضيلة المراقبة

أما الفضيلة فقد[١] سأل جبريل عليه السلام عن الإحسان . فقال : أن تعبد الله كأنك تراه . وقال عليه السلام[٢] « اعْبُدِ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » وقد قال تعالى (أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ[١]) وقال تعالى (أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى[٢]) وقال الله تعالى (إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا[٣]) وقال تعالى (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ[٤])

وقال ابن المبارك لرجل : راقب الله تعالى . فسأله عن تفسيره ، فقال : كن أبدا كأنك ترى الله عز وجل . وقال عبد الواحد بن زيد : إذا كان سيدى رقيبا عليّ فلا أبالى بغيره

وقال أبو عثمان المغربى : أفضل مايلزم الإنسان نفسه فى هذه الطريقة المحاسبة والمراقبة ، وسياسة عمله بالعلم . وقال ابن عطاء : أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات

وقال الجريرى : أمرنا هذا مبني على أصلين : أن تلزم نفسك المراقبة لله عز وجل ، ويكون العلم على ظاهرك قائما . وقال أبو عثمان : قال لى أبو حفص : إذا جلست للناس فكن واعظا

(١) حديث سأل جبريل عن الاحسان فقال أن تعبد الله كأنك تراه : متفق عليه من حديث أبي هريرة ورواه مسلم من حديث عمر وقد تقدم

(٢) حديث اعبد الله كأنك تراه ـ الحديث : تقدم

(١) الرعد : ٣٣ (٢) العلق : ١٤ (٣) النساء : ١ (٤) المعارج : ٣٢ ، ٣٣

لنفسك وقلبك ، ولا يغرنك اجتماعهم عليك، فإنهم يراقبون ظاهرك ، والله رقيب على باطنك

وحكي أنه كان لبعض المشايخ من هذه الطائفة تلميذ شاب ، وكان يكرمه ويقدمه ، فقال له بعض أصحابه : كيف تكرم هذا وهو شاب ونحن شيوخ ! فدعا بعدة طيور ، وناول كل واحد منهم طائرا وسكينا ، وقال : ليذبح كل واحد منكم طائره في موضع لا يراه أحد. ودفع إلى الشاب مثل ذلك ، وقال له كما قال لهم . فرجع كل واحد بطائره مذبوحا ، ورجع الشاب والطائر حي في يده . فقال مالك لم تذبح كما ذبح أصحابك ؟ فقال لم أجد موضعا لا يراني فيه أحد، إذ الله مطلع عليّ في كل مكان . فاستحسنوا منه هذه المراقبة ، وقالوا حق لك أن تكرم

مراقبة الله تبعد عن المعصية

وحكي أن زليخا لما خلت بيوسف عليه السلام ، قامت فغطت وجه صنم كان لها ، فقال يوسف : مالك ؟ أتستحيين من مراقبة جماد ، ولا أستحي من مراقبة الملك الجبار !

وحكي عن بعض الأحداث أنه راود جارية عن نفسها ، فقالت له : ألا تستحي ؟ فقال ممن أستحي وما يرانا إلا الكواكب ؟ قالت فأين مكوكبها ؟

وقال رجل للجنيد : بم أستعين على غض البصر ؟ فقال : بعلمك أن نظر الناظر إليك أسبق من نظرك إلى المنظور إليه . وقال الجنيد . إنما يتحقق بالمراقبة من يخاف على فوت حظه من ربه عز وجل

وعن مالك بن دينار قال : جنات عدن من جنات الفردوس ، وفيها حور خلقن من ورد الجنة . قيل له ومن يسكنها ؟ قال : يقول الله عز وجل . إنما يسكن جنات عدن الذين إذا هموا بالمعاصي ذكروا عظمتي فراقبوني ، والذين انثنت أصلابهم من خشيتي . وعزتي وجلالي ، إني لأهم بعذاب أهل الأرض ، فإذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من مخافتي صرفت عنهم العذاب

وسئل المحاسبي عن المراقبة فقال : أولها علم القلب بقرب الرب تعالى

وقال المرتعش : المراقبة مراعاة السر بملاحظة الغيب مع كل لحظة ولفظة

ويروى أن الله تعالى قال لملائكته : أنتم موكلون بالظاهر ، وأنا الرقيب على الباطن

وقال محمد بن علي الترمذي : اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عن نظره إليك ، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك ، واجعل طاعتك لمن لا تستغني عنه ، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه

وقال سهل : لم يتزين القلب بشيء أفضل ولا أشرف من علم العبد بأن الله شاهده حيث كان

وسئل بعضهم عن قوله تعالى (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ[١]) فقال: معناه ذلك لمن راقب ربه عز وجل، وحاسب نفسه، وتزود لمعاده

وسئل ذو النون: بم ينال العبد الجنة؟ فقال: بخمس. استقامة ليس فيها روغان، واجتهاد ليس معه سهو، ومراقبة الله تعالى في السر والعلانية، وانتظار الموت بالتأهب له، ومحاسبة نفسك قبل أن تحاسب وقد قيل:

إذا ماخلوت الدهر يوما فلا تقل خلوت ولكن قل علي رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ماتخفيه عنه يغيب
ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب وأن غدا للناظرين قريب

وقال حميد الطويل لسليمان بن علي عظني فقال: لئن كنت إذا عصيت الله خاليا ظننت أنه يراك لقد اجترأت على أمر عظيم. ولئن كنت تظن أنه لا يراك فلقد كفرت

وقال سفيان الثوري: عليك بالمراقبة ممن لا تخفى عليه خافية، وعليك بالرجاء ممن يملك الوفاء، وعليك بالحذر ممن يملك العقوبة

وقال فرقد السنجي: إن المنافق ينظر، فإذا لم ير أحدا دخل مدخل السوء، وإنما يراقب الناس ولا يراقب الله تعالى . وقال عبدالله بن دينار: خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى مكة، فعرسنا في بعض الطريق، فانحدر عليه راع من الجبل فقال له: ياراعي، بعني شاة من هذه الغنم. فقال إني مملوك. فقال قل لسيدك أكلها الذئب: قال فأين الله؟ قال فبكى عمر رضي الله عنه، ثم غدا إلى المملوك فاشتراه من مولاه وأعتقه، وقال أعتقتك في الدنيا هذه الكلمة، وأرجو أن تعتقك في الآخرة

بيان

حقيقة المراقبة ودرجاتها

اعلم أن حقيقة المراقبة هي ملاحظة الرقيب، وانصراف الهم إليه. فمن احترز من أمر من الأمور بسبب غيره يقال إنه يراقب فلانا ويراعي جانبه. ويعني بهذه المراقبة حالة للقلب يثمرها نوع من المعرفة، وتثمر تلك الحالة أعمالا في الجوارح وفي القلب

---

(١) البينة: ٨

أما الحالة فهي مراعاة القلب للرقيب ، واشتغاله به، والتفاته إليه، وملاحظته إياه، وانصرافه إليه

وأما المعرفة التي تثمر هذه الحالة فهو العلم بأن الله مطلع على الضمائر ، عالم بالسرائر ، رقيب على أعمال العباد ، قائم على كل نفس بما كسبت . وأن سر القلب في حقه مكشوف ، كما أن ظاهر البشرة للخلق مكشوف ، بل أشد من ذلك . فهذه المعرفة إذا صارت يقينا ، أعني أنها خلت عن الشك ، ثم استولت بعد ذلك على القلب وقهرته ، فرب علم لاشك فيه لا يغلب على القلب ، كالعلم بالموت ، فإذا استولت على القلب استجرت القلب إلى مراعاة جانب الرقيب ، وصرفت همه إليه .

والموقنون بهذه المعرفة هم المقربون ، وهم ينقسمون إلى الصديقين ، وإلى أصحاب اليمين فمراقبتهم على درجتين :

مراقبة المقربين من الصديقين

الدرجة الأولى : مراقبة المقربين من الصديقين ، وهي مراقبة التعظيم والإجلال ، وهو أن يصير القلب مستغرقا بملاحظة ذلك الجلال ، ومنكسرا تحت الهيبة ، فلا يبقى فيه متسع للالتفات إلى الغير أصلا . وهذه مراقبة لانطول النظر في تفصيل أعمالها ، فإنها مقصورة على القلب . أما الجوارح فإنها تتعطل عن التلفت إلى المباحات فضلا عن المحظورات وإذا تحركت بالطاعات كانت كالمستعملة بها ، فلا تحتاج إلى تدبير وتثبيت في حفظها على سنن السداد ، بل يسدد الرعية من ملك كلية الراعي ، والقلب هو الراعي ، فإذا صار مستغرقا بالمعبود صارت الجوارح مستعملة جارية على السداد والاستقامة من غير تكلف

وهذا هو الذي صار همه هما واحدا ، فكفاه الله سائر الهموم . ومن نال هذه الدرجة فقد يغفل عن الخلق ، حتى لا يبصر من يحضر عنده وهو فاتح عينيه ، ولا يسمع ما يقال له مع أنه لاصمم به . وقد يمر على ابنه مثلا فلا يكلمه ، حتى كان بعضهم يجري عليه ذلك ، فقال لمن عاتبه : إذا مررت بي فحركني

ولا تستبعد هذا ، فإنك تجد نظير هذا في القلوب المعظمة لملوك الأرض ، حتى أن خدم الملك قد لا يحسون بما يجري عليهم في مجالس الملوك لشدة استغراقهم بهم . بل قد يشتغل القلب بمهم حقير من مهمات الدنيا ، فيغوص الرجل في الفكر فيه ويمشي ، فربما يجاوز الموضع الذي قصده ، وينسى الشغل الذي نهض له . وقد قيل لعبد الواحد بن زيد :

هل تعرف في زمانك هذا رجلا قد اشتغل بحاله عن الخلق ؟ فقال ما أعرف إلا رجلا سيدخل عليكم الساعة . فما كان إلا سريعا حتى دخل عتبة الغلام ، فقال له عبد الواحد بن زيد : من أين جئت يا عتبة ؟ فقال : من موضع كذا ، وكان طريقه على السوق ، فقال : من لقيت في الطريق ؟ فقال : ما رأيت أحـــدا

ويروى عن يحي بن زكريا عليهما السلام أنه مر بامرأة ، فدفعها فسقطت على وجهها ، فقيل له لم فعلت هذا ؟ فقال ما ظننتها إلا جدارا

وحكي عن بعضهم أنه قال : مررت بجماعة يترامون ، وواحد جالس بعيدا منهم ، فتقدمت إليه ، فأردت أن أكلمه ، فقال : ذكرُ الله تعالى أشهى . فقلت أنت وحدك : فقال : معي ربي وملكاي . فقلت من سبق من هؤلاء ؟ فقال : من غفر الله له . فقلت أين الطريق ؟ فأشار نحو السماء ، وقام ومشى وقال : أكثر خلقك شاغل عنك

فهذا كلام مستغرق بمشاهدة الله تعالى ، لا يتكلم إلا منه ، ولا يسمع إلا فيه . فهذا لا يحتاج إلى مراقبة لسانه وجوارحه ، فإنها لا تتحرك إلا بما هو فيه

ودخل الشبلي على أبي الحسين النوري وهو معتكف ، فوجده ساكنا حسن الاجتماع لا يتحرك من ظاهره شيء . فقال له : من أين أخذت هذه المراقبة والسكون ؟ فقال من سنور كانت لنا ، فكانت إذا أرادت الصيد رابطت رأس الجحر لا تتحرك لها شعرة

وقال أبو عبد الله بن خفيف : خرجت من مصر أريد الرملة للقاء أبي علي الروذباري فقال لي عيسى بن يونس المصري المعروف بالزاهد : إن في صور شابا وكهلا قد اجتمعا على حال المراقبة فلو نظرت إليهما نظرة لعلك تستفيد منهما . فدخلت صور وأنا جائع عطشان ، وفي وسطي خرقة ، وليس على كتفي شيء . فدخلت المسجد ، فإذا بشخصين قاعدين مستقبلي القبلة فسلمت عليهما فما أجاباني . فسلمت ثانية وثالثة ، فلم أسمع الجواب . فقلت : نشدتكما بالله إلا رددتما عليّ السلام . فرفع الشاب رأسه من مرقعته ، فنظر إليّ وقال : يا ابن خفيف ، الدنيا قليل ، وما بقي من القليل إلا القليل ، فخذ من القليل الكثير . يا ابن خفيف ، ما أقل شغلك حتى تتفرغ إلى لقائنا . قال : فأخذ بكليتي ثم طأطأ رأسه في المكان ، فبقيت عندهما حتى صلينا الظهر والعصر ، فذهب جوعي وعطشي وعنائي . فلما كان وقت العصر قلت : عظني

فرفع رأسه إليّ وقال : يا ابن خفيف ، نحن أصحاب المصائب ، ليس لنا لسان العظة . فبقيت عندهما ثلاثة أيام لا آكل ولا أشرب ولا أنام ، ولا رأيتهما أكلا شيئا ولا شربا . فلما كان اليوم الثالث قلت في سري : أحلفهما أن يعظاني لعلي أن أنتفع بعظتهما . فرفع الشاب رأسه وقال لي : يا ابن خفيف ، عليك بصحبة من يذكرك الله رؤيته ؛ وتقع هيبته على قلبك ، يعظك بلسان فعله ، ولا يعظك بلسان قوله والسلام ، قم عنا . فهذه درجة المراقبين الذين غلب على قلوبهم الإجلال والتعظيم ، فلم يبق فيهم متسع لغير ذلك

مراقبة الورعين من أصحاب اليمين

الدرجة الثانية : مراقبة الورعين من أصحاب اليمين ، وهم قوم غلب يقين اطلاع الله على ظاهرهم وباطنهم على قلوبهم ، ولكن لم تدهشهم ملاحظة الجلال ، بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال ، متسعة للتلفت إلى الأحوال والأعمال ، إلا أنها مع ممارسة الأعمال لا تخلو عن المراقبة نعم غلب عليهم الحياء من الله فلا يقدمون ولا يحجمون إلا بعد التثبت فيه ، ويمتنعون عن كل ما يفتضحون به في القيامة ، فإنهم يرون الله في الدنيا مطلعا عليهم فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة

وتعرف اختلاف الدرجتين بالمشاهدات ، فإنك في خلوتك قد تتعاطى أعمالا ، فيحضرك صبي أو امرأة ، فتعلم أنه مطلع عليك ، فتستحي منه ، فتحسن جلوسك ، وتراعي أحوالك لا عن إجلال وتعظيم ، بل عن حياء . فإن مشاهدته وإن كانت لا تدهشك ولا تستغرقك فإنها تهيج الحياء منك . وقد يدخل عليك ملك من الملوك ، أو كبير من الأكابر ، فيستغرقك التعظيم حتى تترك كل ما أنت فيه شغلا به ، لا حياء منه

فهكذا تختلف مراتب العباد في مراقبة الله تعالى . ومن كان في هذه الدرجة فيحتاج أن يراقب جميع حركاته ؛ وسكناته ، وخطراته ، ولحظاته ، وبالجملة جميع اختياراته وله فيها نظران ؛ نظر قبل العمل ، ونظر في العمل

أما قبل العمل فلينظر أن ما ظهر له وتحرك بفعله خاطره ، أهو لله خاصة ؟ أو هو في هوى النفس ومتابعة الشيطان فيتوقف فيه ويتثبت ، حتى ينكشف له ذلك بنور الحق ؟ فإن كان لله تعالى أمضاه وإن كان لغير الله استحيا من الله وانكف عنه ، ثم لام نفسه على رغبته فيه ،

وهمه به ، وميله إليه ، وعرفها سوء فعلها ، وسعيها فى نضيحتها ، وأنها عدوة نفسها إن لم يتداركها الله بعصمته . وهذا التوقف فى بداية الأمور إلى حد البيان واجب محتوم لامحيص لأحد عنه ، فإن فى الخبر أنه [1] ينشر للعبد فى كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين، الديوان الأول لم ؟ والثانى كيف ؟ والثالث لمن ؟ ومعنى لم أي لم فعلت هذا ؟ أكان عليك أن تفعله لمولاك أوملت إليه بشهوتك وهواك ؟ فإن سلم منه بأن كان عليه أن يعمل ذلك لمولاه سئل عن الديوان الثانى، فقيل له كيف فعلت هذا ؟ فإن لله فى كل عمل شرطا وحكما لايدرك قدره ، ووقته ، وصفته إلا بعلم ، فيقال له كيف فعلت : أبعلم محقق ، أم بجهل وظن ؟ فإن سلم من هذا نشر الديوان الثالث ، وهو المطالبة بالإخلاص ، فيقال له : لمن عملت ؟ ألوجه الله خالصا فوفاء بقولك لا إله إلا الله ، فيكون أجرك على الله ؟ أولمراآة خلق مثلك ، فخذ أجرك منه أم عملته لتنال عاجل دنياك ، فقد وفيناك نصيبك من الدنيا ، أم عملته بسهو وغفلة ، فقد سقط أجرك ، وحبط عملك ، وخاب سعيك . وإن عملت لغيرى فقد استوجبت مقتى وعقابى ، إذ كنت عبدا لى ، تأكل رزقى ، وتترفه بنعمتى ، ثم تعمل لغيرى . أماسمعتنى أقول (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ [1]) (إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ [2]) ويحك ، أما سمعتنى أقول (أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ [3])

فإذا عرف العبد أنه بصدد هذه المطالبات والتوبيخات طالب نفسه قبل أن تطالب ، وأعد للسؤال جوابا ، وليكن الجواب صوابا ، فلا يبدىء ولا يعيد إلا بعد التثبت ، ولا يحرك جفنا ولا أنملة إلا بعد التأمل . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ [2] « إِنَّ الرَّجُلَ لَيُسْئَلُ عَنْ كُحْلِ عَيْنَيْهِ وَعَنْ فَتِّهِ الطِّينَ بِأُصْبُعَيْهِ وَعَنْ لَمْسِهِ ثَوْبَ أَخِيهِ » وقال الحسن : كان أحدهم إذا أراد أن يتصدق بصدقة نظر وتثبت ، فإن كان لله أمضاه . وقال الحسن : رحم الله تعالى عبدا وقف عند همه ، فإن كان لله مضى ، وإن كان لغيره تأخر

---

(١) حديث ينشر للعبد في كل حركة من حركاته وان صغرت ثلاثة دواوين الأول لم والثانى كيف والثالث لمن : لم أقف له على أصل

(٢) حديث قال لمعاذ إن الرجل ليسأل عن كحل عينيه ـ الحديث : تقدم فى الذى قبله

---

(١) الأعراف : ١٩٤ (٢) العنكبوت : ١٧ (٣) الزمر : ٣

وقال فى حديث [1] سعد حين أوصاه سلمان : اتق الله عند همك إذا هممت . وقال محمد ابن علي : إن المؤمن وقاف متأن ، يقف عند همه ، ليس كحاطب ليل

فهذا هو النظر الأول فى هذه المراقبة ، ولا يخلص من هذا إلا العلم المتين ؛ والمعرفة الحقيقية بأسرار الأعمال ، وأغوار النفس ، ومكايد الشيطان . فمتى لم يعرف نفسه ، وربه وعدوه إبليس ، ولم يعرف مايوافق هواه ، ولم يميز بينه وبين مايحبه الله ويرضاه فى نيته وهمته ، وفكرته ، وسكونه ، وحركته ، فلا يسلم فى هذه المراقبة ، بل الأكثرون يرتكبون الجهل فيما يكرهه الله تعالى ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا

ولا تظنن أن الجاهل بما يقدر على التعلم فيه يعذر . هيهات ، بل طلب العلم فريضة على كل مسلم ، ولهذا كانت ركعتان من عالم أفضل من ألف ركعة من غير عالم ، لأنه يعلم آفات النفوس ومكايد الشيطان ، ومواضع الغرور ، فيتقي ذلك . والجاهل لايعرفه ، فكيف يحترز منه ! فلا يزال الجاهل فى تعب ، والشيطان منه فى فرح وشماتة . فنعوذ بالله من الجهل والغفلة ، فهو رأس كل شقاوة ، وأساس كل خسران

فحكم الله تعالى على كل عبد أن يراقب نفسه عند همه بالفعل وسعيه بالجارحة ، فيتوقف عن الهم وعن السعي حتى ينكشف له بنور العلم أنه لله تعالى فيمضيه ، أو هو لهوى النفس فيتقيه ، ويزجر القلب عن الفكر فيه ، وعن الهم به . فإن الخطرة الأولى فى الباطل إذا لم تدفع أورثت الرغبة ، والرغبة تورث الهم ، والهم يورث جزم القصد ، والقصد يورث الفعل ، والفعل يورث البوار والمقت . فينبغى أن تحسم مادة الشر من منبعه الأول ، وهو الخاطر ، فإن جميع ماوراءه يتبعه . ومهما أشكل على العبد ذلك ، وأظلمت الواقعة فلم ينكشف له ، فيتفكر فى ذلك بنور العلم ، ويستعيذ بالله من مكر الشيطان بواسطة الهوى . فإن عجز عن الاجتهاد والفكر بنفسه فيستضيء بنور علماء الدين وليفر من العلماء المضلين المقبلين على الدنيا فراره من الشيطان ، بل أشد ، فقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : لاتسأل عنى عالما أسكره حب الدنيا فيقطعك عن محبتى ، أولئك قطاع الطريق على

---

(١) حديث سعد حين أوصاه سلمان أن اتق الله عند همك اذا هممت : أحمد والحاكم وصححه وهذا القدر منه موقوف وأوله مرفوع تقدم

عبادى . فالقلوب المظلمة بحب الدنيا ، وشدة الشره ، والتكالب عليها محجوبة عن نور الله تعالى ، فإن مستضاء أنوار القلوب حضرة الربوبية ، فكيف يستضىء بها من استدبرها وأقبل على عدوّها ، وعشق بغيضها ومقيتها ، وهي شهوات الدنيا !

فلتكن همة المريد أوّلا فى أحكام العلم ، أو فى طلب عالم معرض عن الدنيا ، أو ضعيف الرغبة فيها إن لم يجد من هو عديم الرغبة فيها. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْبَصَرَ النَّاقِدَ عِنْدَ وُرُودِ الشُّبُهَاتِ وَالْعَقْلَ الْكَامِلَ عِنْدَ هُجُومِ الشَّهَوَاتِ » جمع بين الأمرين ، وهما متلازمان حقا . فمن ليس له عقل وازع عن الشهوات فليس له بصر ناقد فى الشبهات . ولذلك قال عليه السلام [٢] « مَنْ قَارَفَ ذَنْباً فَارَقَهُ عَقْلٌ لَا يَعُودُ إِلَيْهِ أَبَداً » فما قدر العقل الضعيف الذى سعد الآدمي به ، حتى يعمد إلى محوه ومحقه بمقارفة الذنوب

ومعرفة آفات الأعمال قد اندرست فى هذه الأعصار ، فإن الناس كلهم قد هجروا هذه العلوم ، واشتغلوا بالتوسط بين الخلق فى الخصومات الثائرة فى اتباع الشهوات ، وقالوا هذا هو الفقه ، وأخرجوا هذا العلم الذى هو فقه الدين عن جملة العلوم ، وتجردوا لفقه الدنيا الذى ماقصد به إلا دفع الشواغل عن القلوب ليتفرغ لفقه الدين ، فكان فقه الدنيا من الدين بواسطة هذا الفقه . وفى الخبر [٣] « أَنْتُمُ الْيَوْمَ فِي زَمَانٍ خَيْرُكُمْ فِيهِ الْمُسَارِعُ وَسَيَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ خَيْرُكُمْ فِيهِ الْمُتَثَبِّتُ » ولهذا توقف طائفة من الصحابة فى القتال مع أهل العراق وأهل الشام ، لما أشكل عليهم الأمر ، كسعد بن أبى وقاص ، وعبد الله بن عمر ، وأسامة ، ومحمد بن مسلمة ، وغيرهم

نجاة المرء فى اتقاء الشهوات

فمن لم يتوقف عند الاشتباه كان متبعا لهواه ، معجبا برأيه ، وكان ممن وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال [٤] « فَإِذَا رَأَيْتَ شُحّاً مُطَاعاً وَهَوًى مُتَّبَعاً وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ » وكل من خاض فى شبهة بغير تحقيق فقد خالف قوله تعالى

(١) حديث ان الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات ـ الحديث : أبو نعيم فى الحلية من حديث عمران ابن حصين وفيه حفص بن عمر العدنى ضعفه الجمهور

(٢) حديث من قارف ذنبا فارقه عقل لايعود اليه أبدا : تقدم ولم أجده

(٣) حديث أنتم اليوم فى زمان خيركم فيه المسارع وسيأتى عليكم زمان خيركم فيه المتثبت : لم أجده

(٤) حديث فاذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا ـ الحديث : تقدم

(وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ [(١)]) وقوله عليه السلام [(١)] « إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ » وأراد به ظنا بغير دليل ، كما يستفتى بعض العوام قلبه فيما أشكل عليه ويتبع ظنه . ولصعوبة هذا الأمر وعظمه كان دعاء الصدّيق رضي الله تعالى عنه : اللهم أرنى الحق حقا وارزقنى اتباعه ، وأرنى الباطل باطلا وارزقنى اجتنابه ، ولا تجعله متشابها علي فأتبع الهوى [(٢)] وقال عيسى عليه السلام : الأمور ثلاثة : أمر استبان رشده فاتبعه ، وأمر استبان غيه فاجتنبه . وأمر أشكل عليك فكله إلى عالمه . وقد كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم [(٣)] « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَقُولَ فِي الدِّينِ بِغَيْرِ عِلْمٍ » فأعظم نعمة الله على عباده هو العلم ، وكشف الحق والإيمان عبارة عن نوع كشف وعلم ، ولذلك قال تعالى امتنانا على عبده (وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا [(٢)]) وأراد به العلم . وقال تعالى (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ [(٣)]) وقال تعالى (إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى [(٤)]) وقال (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ [(٥)]) وقال (وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ [(٦)])

وقال علي كرم الله وجهه : الهوى شريك العمى ، ومن التوفيق التوقف عند الحيرة ، ونعم طارد الهم اليقين ، وعاقبة الكذب الندم ، وفى الصدق السلامة . رب بعيد أقرب من قريب ، وغريب من لم يكن له حبيب ، والصديق من صدق غيبه . ولا يعدمك من حبيب سوء ظن . نعم الخلق التكرم ، والحياء سبب إلى كل جميل ، وأوثق العرى التقوى ، وأوثق سبب أخذت به سبب بينك وبين الله تعالى . إنما لك من دنياك ما أصلحت به مثواك ، والرزق رزقان : رزق تطلبه ورزق يطلبك ، فإن لم تأته أتاك ، وإن كنت جازعا على ما أصيب مما فى يديك فلا تجزع على مالم يصل إليك ، واستدل على مالم يكن بما كان ، فإنما الأمور أشباه ، والمرء يسره درك مالم يكن ليفوته ، ويسوؤه فوت مالم يكن ليدركه . فما نالك من دنياك فلا تكثرن به فرحا ، وما فاتك منها فلا تتبعه نفسك أسفا . وليكن سرورك بما قدمت ، وأسفك على ما خلفت ، وشغلك لآخرتك ، وهمك فيما بعد الموت . وغرضنا

---

(١) حديث اياكم والظن ـ الحديث : تقدم
(٢) حديث قال عيسى الامور ثلاثة ـ الحديث : الطبرانى من حديث ابن عباس باسناد ضعيف
(٣) حديث اللهم إنى أعوذ بك أن أقول فى الدين بغير علم : لم أجده

---

(١) الاسراء : ٣٦ (٢) النساء : ١١٣ (٣) النحل : ٤٣ (٤) الليل : ١٢ (٥) القيامة : ١٩ (٦) النحل : ٩

من نقل هذه الكلمات قوله ومن التوفيق التوقف عند الحيرة

فإذاً النظر الأول للمراقب نظره في الهم والحركة . أهي لله أم للهوى وقد قال صلى الله عليه وسلم [١] « ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ اسْتَكْمَلَ إِيمَانَهُ لاَ يَخَافُ فِي اللهِ لَوْمَةَ لاَئِمٍ وَلاَ يُرَائِي بِشَيْءٍ مِنْ عَمَلِهِ وَإِذَا عَرَضَ لَهُ أَمْرَانِ أَحَدُهُمَا لِلدُّنْيَا وَالآخَرُ لِلآخِرَةِ آثَرَ الآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيَا » وأكثر ماينكشف له في حركاته أن يكون مباحا ، ولكن لا يعنيه فيتركه لقوله صلى الله عليه وسلم [٢] « مِنْ حُسْنِ إِسْلاَمِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَالاَ يَعْنِيهِ »

النظر الثاني : للمراقبة عند الشروع في العمل ، وذلك بتفقد كيفية العمل ليقضي حق الله فيه ، ويحسن النية في إتمامه ، ويكمل صورته ، ويتعاطاه على أكمل مايمكنه . وهذا ملازم له في جميع أحواله ، فإنه لا يخلو في جميع أحواله عن حركة وسكون . فإذا راقب الله تعالى في جميع ذلك قدر على عبادة الله تعالى فيها بالنية ، وحسن الفعل ، ومراعاة الأدب . فإن كان قاعدا مثلا ، فينبغي أن يقعد مستقبل القبلة ، لقوله صلى الله عليه وسلم [٣] « خَيْرُ الْمَجَالِسِ مَا اسْتُقْبِلَ بِهِ الْقِبْلَةُ » ولا يجلس متربعا ، إذ لا يجالس الملوك كذلك ، وملك الملوك مطلع عليه . قال ابراهيم بن أدهم رحمه الله : جلست مرة متربعا ، فسمعت هاتفا يقول : هكذا تجالس الملوك؟ فلم أجلس بعد ذلك متربعا . وإن كان ينام فينام على اليد اليمنى مستقبل القبلة ، مع سائر الآداب التي ذكرناها في مواضعها ، فكل ذلك داخل في المراقبة . بل لو كان في قضاء الحاجة فراعاته لآدابها وفاء بالمراقبة . فإذاً لا يخلو العبد إما أن يكون في طاعة ، أو معصية ، أو في مباح . فمراقبته في الطاعة بالإخلاص ، والإكمال ، ومراعاة الأدب ، وحراستها عن الآفات . وإن كان في معصية فمراقبته بالتوبة ، والندم ، والإقلاع ، والحياء ، والاشتغال بالتفكر . وإن كان في مباح فمراقبته بمراعاة الأدب ، ثم بشهود المنعم في النعمة ، وبالشكر عليها

ولا يخلو العبد في جملة أحواله عن بلية لابد له من الصبر عليها . ونعمة لابد له من الشكر عليها . وكل ذلك من المراقبة . بل لا ينفك العبد في كل حال من فرض لله تعالى عليه إما فعل

---

(١) حديث ثلاث من كن فيه استكمل ايمانه لايخاف في الله لومة لائم ـ الحديث : أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة وقد تقدم

(٢) حديث من حسن اسلام المرء تركه مالايعنيه : تقدم

(٣) حديث خير المجالس مااستقبل به القبلة الحاكم من حديث ابن عباس : وقد تقدم

يلزمه مباشرته ، أو محظور يلزمه تركه ، أو ندب حث عليه ليسارع به إلى مغفرة الله تعالى ، ويسابق به عباد الله ، أو مباح فيه صلاح جسمه وقلبه ، وفيه عون له على طاعته ولكل واحد من ذلك حدود لابد من مراعاتها بدوام المراقبة (وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ[1])

فينبغي أن يتفقد العبد نفسه فى جميع أوقاته فى هذه الأقسام الثلاثة . فإذا كان فارغا من الفرائض ، وقدر على الفضائل ، فينبغى أن يلتمس أفضل الأعمال ليشتغل بها ، فإن من فاته مزيد ربح وهو قادر على دركه فهو مغبون ، والأرباح تنال بمزايا الفضائل ، فبذلك يأخذ العبد من دنياه لآخرته ، كما قال تعالى (وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا[2])

وكل ذلك إنما يمكن بصبر ساعة واحدة ، فإن الساعات ثلاث . ساعة مضت لاتعب فيها على العبد كيفما انقضت فى مشقة أو رفاهية ، وساعة مستقبلة لم تأت بعد ، لايدرى العبد أيعيش إليها أم لا ، ولا يدرى مايقضي الله فيها ، وساعة راهنة ينبغى أن يجاهد فيها نفسه ، ويراقب فيها ربه . فإن لم تأته الساعة الثانية لم يتحسر على فوات هذه الساعة ، وإن أتته الساعة الثانية استوفى حقه منها كما استوفى من الأولى . ولا يطول أمله خمسين سنة فيطول عليه العزم على المراقبة فيها ، بل يكون ابن وقته ، كأنه فى آخر أنفاسه ، فلعله آخر أنفاسه وهو لايدرى . وإذا أمكن أن يكون آخر أنفاسه فينبغى أن يكون على وجه لايكره أن يدركه الموت وهو على تلك الحالة ، وتكون جميع أحواله مقصورة على مارواه أبو ذر رضي الله تعالى عنه ، من قوله عليه السلام « لَا يَكُونُ الْمُؤْمِنُ ظَاعِنًا إِلَّا فِي ثَلَاثٍ تَزَوُّدٍ لِمَعَادٍ أَوْ مَرَمَّةٍ لِمَعَاشٍ أَوْ لَذَّةٍ فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ »[(1)] وما روي عنه أيضا فى معناه « وَعَلَى الْعَاقِلِ أَنْ تَكُونَ لَهُ أَرْبَعُ سَاعَاتٍ سَاعَةٌ يُنَاجِي فِيهَا رَبَّهُ وَسَاعَةٌ يُحَاسِبُ فِيهَا نَفْسَهُ وَسَاعَةٌ يَتَفَكَّرُ فِيهَا فِي صُنْعِ اللَّهِ تَعَالَى وَسَاعَةٌ يَخْلُو فِيهَا لِلْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ »[(2)] فإن فى هذه الساعة عونا له على بقية الساعات ، ثم هذه الساعة التى هو فيها مشغول

---

(١) حديث أبي ذر لايكون المؤمن ظاعنا الا فى ثلاث تزود لمعاد ـ الحديث : أحمد وابن حبان والحاكم وصححه أنه صلى الله عليه وسلم قال انه فى صحف موسى وقد تقدم

(٢) حديث وعلى العاقل أن يكون له ثلاث ساعات ساعة يناجي فيها ربه ـ الحديث : وهى بقية حديث أبي ذر الذي قبله

---

[1] الطلاق : ١ [2] القصص : ٧٧

الجوارح بالمطعم والمشرب لاينبغى أن يخلو عن عمل هو أفضل الأعمال ، وهو الذكر والفكر ، فإن الطعام الذى يتناوله مثلا فيه من العجائب مالو تفكر فيه وفطن له ، كان ذلك أفضل من كثير من أعمال الجوارح

اقسام الناس فى تذكر نعم الله

والناس فيه أقسام : قسم ينظرون إليه بعين التبصر والاعتبار ، فينظرون فى عجائب صنعته ، وكيفية ارتباط قوام الحيوانات به ، وكيفية تقدير الله لأسبابه ، وخلق الشهوات الباعثة عليه ، وخلق الآلات المسخرة للشهوة فيه ، كما فصلنا بعضه فى كتاب الشكر ، وهـــذا مقام ذوى الألباب

وقسم ينظرون فيه بعين المقت والكراهة ، ويلاحظون وجه الاضطرار إليه ، وبودهم لو استغنوا عنه ، ولكن يرون أنفسهم مقهورين فيه ، مسخرين لشهواته ، وهذا مقام الزاهدين . وقوم يرون فى الصنعة الصانع ، ويترقون منها إلى صفات الخالق ، فتكون مشاهدة ذلك سببا لتذكر أبواب من الفكر تنفتح عليهم بسببه ، وهو أعلى المقامات ، وهو من مقامات العارفين وعلامات المحبين ، إذ المحب إذا رأى صنعة حبيبه ، وكتابه ، وتصنيفه ، نسي الصنعة ، واشتغل قلبه بالصانع . وكل مايتردد العبد فيه صنع الله تعالى ، فله فى النظر منه إلى الصانع مجال رحب إن فتحت له أبواب الملكوت وذلك عزيز جدا . وقسم رابع ينظرون إليه بعين الرغبة والحرص ، فيتأسفون على مافاتهم منه ، ويفرحون بما حضرهم من جملته ، ويذمون منه مالا يوافق هواهم ، ويعيبونه ويذمون فاعله ، فيذمون الطبيخ والطباخ ، ولا يعلمون أن الفاعل للطبيخ والطباخ ولقدرته ولعلمه هو الله تعالى ، وأن من ذم شيئا من خلق الله بغير إذن الله فقد ذم الله ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم [1] « لَاتَسُبُّوا الدَّهْرَ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ »

فهذه المرابطة الثانية بمراقبة الأعمال على الدوام والاتصال . وشرح ذلك يطول ، وفيما ذكرناه تنبيه على المنهاج لمن أحكم الأصول

(١) حديث لاتسبوا الدهر فان الله هوالدهر : مسلم من حديث أبي هريرة

المرابطة الثالثة

محاسبة النفس بعد العمل . ولنذكر فضيلة المحاسبة ثم حقيقتها

فضيلة المحاسبة

أما الفضيلة فقد قال الله تعالى (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَاقَدَّمَتْ لِغَدٍ [١]) وهذه إشارة إلى المحاسبة على مامضى من الأعمال . ولذلك قال عمر رضي الله تعالى عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا . وفى الخبر أنه عليه السلام جاءه رجل فقال : يارسول الله أوصنى . فقال « أَمُسْتَوْصٍ أَنْتَ » فقال نعم : قال « إِذَا هَمَمْتَ بِأَمْرٍ فَتَدَبَّرْ عَاقِبَتَهُ فَإِنْ كَانَ رُشْداً فَامْضِهِ وَإِنْ كَانَ غَيّاً فَانْتَهِ عَنْهُ »

وفى الخبر ، وينبغي للعاقل أن يكون له أربع ساعات ، ساعة يحاسب فيها نفسه

وقال تعالى (وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ [٢]) والتوبة نظر فى الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم [١] « إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ تَعَالَى وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ » وقال الله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ [٣]) . وعن عمر رضي الله تعالى عنه ، أنه كان يضرب قدميه بالدرّة إذا جنّه الليل ويقول لنفسه . ماذا عملت اليوم ؟

وعن ميمون بن مهران أنه قال : لايكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه . والشريكان يتحاسبان بعد العمل

وروي عن عائشة رضي الله تعالى عنها ، أن أبا بكر رضوان الله عليه قال لها عند الموت ماأحد من الناس أحب إليّ من عمر . ثم قال لها : كيف قلت ؟ فأعادت عليه ماقال ، فقال : لا أحد أعز عليّ من عمر . فانظر كيف نظر بعد الفراغ من الكلمة ، فتدبرها وأبدلها بكلمة غيرها . وحديث [٢] أبى طلحة حين شغله الطائر فى صلاته ، فتدبر ذلك ، فجعل حائطه صدقة لله تعالى ندما ورجاء للعوض مما فاته

---

(١) حديث انى لأستغفر الله وأتوب اليه فى اليوم مائة مرة : تقدم غير مرة

(٢) حديث أبى طلحة حين شغله الطائر عن صلاته فجعل حديقته صدقة : تقدم غير مرة

---

[١] الحشر : ١٧ [٢] النور : ٣١ [٣] الاعراف : ٢٠١

وفى حديث ابن سلام أنه حمل حزمة من حطب ، فقيل له يا أبا يوسف ، قد كان فى بنيك وغلمانك ما يكفونك هذا . فقال : أردت أن أجرب نفسى هل تنكره

وقال الحسن : المؤمن قوّام على نفسه يحاسبها لله . وإنما خف الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم فى الدنيا ، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة. ثم فسر المحاسبة فقال : إن المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه فيقول : والله إنك لتعجبنى ، وإنك من حاجتى ، ولكن هيهات ، حيل بينى وبينك . وهذا حساب قبل العمل . ثم قال : ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول : ماذا أردت بهذا ؟ والله لا أعذر بهذا ، والله لا أعود لهذا أبدا إن شاء الله . وقال أنس بن مالك : سمعت عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يوما ، وقد خرج وخرجت معه حتى دخل حائطا ، فسمعته يقول ، وبينى وبينه جدار وهو فى الحائط . عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ! بخ بخ ، والله لتتقين الله أو ليعذبنك

وقال الحسن فى قوله تعالى (وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ [1]) قال لا يلقى المؤمن إلا يعاتب نفسه ، ماذا أردت بكلمتى ؟ ماذا أردت بأكلتى ؟ ماذا أردت بشربتى ؟ والفاجر يمضى قدما لا يعاتب نفسه . وقال مالك بن دينار رحمه الله تعالى : رحم الله عبدا قال لنفسه ألست صاحبة كذا ؟ ألست صاحبة كذا ؟ ثم ذمها ، ثم خطمها ، ثم ألزمها كتاب الله تعالى فكان له قائدا . وهذا من معاتبة النفس كما سيأتى فى موضعه

وقال ميمون بن مهران : التقي أشد محاسبة لنفسه من سلطان غاشم ، ومن شريك شحيح

وقال ابراهيم التيمى : مثلت نفسى فى الجنة آكل من ثمارها ، وأشرب من أنهارها وأعانق أبكارها . ثم مثلت نفسى فى النار آكل من زقومها ، وأشرب من صديدها ، وأعالج سلاسلها وأغلالها . فقلت لنفسى : يا نفس ، أي شيء تريدين ، فقالت أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحا . قلت : فأنت فى الأمنية فاعملى

وقال مالك بن دينار : سمعت الحجاج يخطب وهو يقول . رحم الله امرأ حاسب نفسه قبل أن يصير الحساب إلى غيره ، رحم الله امرأ أخذ بعنان عمله فنظر ماذا يريد به ، رحم الله امرأ نظر فى مكياله ، رحم الله امرأ نظر فى ميزانه . فما زال يقول حتى أبكانى

---

(١) القيامة : ٢

وحكى صاحب للأحنف بن قيس قال : كنت أصحبه ، فكان عامة صلاته بالليل الدعاء وكان يجيء إلى المصباح فيضع أصبعه فيه حتى يحس بالنار ، ثم يقول لنفسه . ياحنيف ، ماحملك على ماصنعت يوم كذا ؟ ماحملك على ماصنعت يوم كذا ؟

بيان

حقيقة المحاسبة بعد العمل

اعلم أن العبد كما يكون له وقت فى أول النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوصية بالحق فينبغى أن يكون له فى آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها ، كما يفعل التجار فى الدنيا مع الشركاء فى آخر كل سنة ، أو شهر ، أو يوم ، حرصا منهم على الدنيا ، وخوفا من أن يفوتهم منها مالو فاتهم لكانت الخيرة لهم فى فواته ، ولو حصل ذلك لهم فلا يبقى إلا أياما قلائل . فكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبد الآباد ! ماهذه المساهلة إلا عن الغفلة ، والخذلان ، وقلة التوفيق ، نعوذ بالله من ذلك . ومعنى المحاسبة مع الشريك أن ينظر فى رأس المال ، وفى الربح والخسران ، ليتبين له الزيادة من النقصان . فإن كان من فضل حاصل استوفاه وشكره وإن كان من خسران طالبه بضمانه وكلفه تداركه فى المستقبل . فكذلك رأس مال العبد فى دينه الفرائض ، وربحه النوافل والفضائل ، وخسرانه المعاصى . وموسم هذه التجارة جملة النهار ، ومعاملة نفسه الأمارة بالسوء فيحاسبها على الفرائض أولا ، فإن أداها على وجهها شكر الله تعالى عليه ، ورغبها فى مثلها ، وإن فوتها من أصلها طالبها بالقضاء ، وإن أداها ناقصة كلفها الجبران بالنوافل ، وإن ارتكب معصية اشتغل بعقوبتها ، وتعذيبها ، ومعاتبتها ليستوفى منها مايتدارك به مافرط ، كما يصنع التاجر بشريكه

وكما أنه يفتش فى حساب الدنيا عن الحبة والقيراط ، فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان حتى لا يغبن فى شيء منها ، فينبغى أن يتقى غبينة النفس ومكرها ، فإنها خداعة ملبسة مكارة فليطالبها أولا بتصحيح الجواب عن جميع ماتكلم به طول نهاره ، وليتكفل بنفسه من الحساب ماسيتولاه غيره فى صعيد القيامة ، وهكذا عن نظره ، بل عن خواطره ، وأفكاره

وقيامه، وقعوده، وأكله، وشربه، ونومه، حتى عن سكوته إنه لم سكت، وعن سكونه لم سكن. فإذا عرف مجموع الواجب على النفس، وصح عنده قدر أدى الواجب فيه، كان ذلك القدر محسوبا له، فيظهر له الباقي على نفسه، فليثبته عليها، وليكتبه على صحيفة قلبه كما يكتب الباقي الذي على شريكه على قلبه وفي جريدة حسابه

نفس الانسان غريم فلتحاسب

ثم النفس غريم يمكن أن يستوفى منه الديون. أما بعضها فبالغرامة والضمان، وبعضها برد عينه، وبعضها بالعقوبة لها على ذلك. ولا يمكن شيء من ذلك إلا بعد تحقيق الحساب وتمييز الباقي من الحق الواجب عليه. فإذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء

ثم ينبغي أن يحاسب النفس على جميع العمر يوما يوما، وساعة ساعة، في جميع الأعضاء الظاهرة والباطنة، كما نقل عن توبة بن الصمة، وكان بالرقة، وكان محاسبا لنفسه، فحسب يوما فإذا هو ابن ستين سنة، فحسب أيامها فإذا هي أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم، فصرخ وقال. ياويلتى، ألقى المليك بأحد وعشرين ألف ذنب! فكيف وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب! ثم خر مغشيا عليه فإذا هو ميت. فسمعوا قائلا يقول. يالك ركضة إلى الفردوس الأعلى!

فهكذا ينبغي أن يحاسب نفسه على الأنفاس، وعلى معصيته بالقلب والجوارح في كل ساعة. ولو رمى العبد بكل معصية حجرا في داره لامتلأت داره في مدة يسيرة قريبة من عمره، ولكنه يتساهل في حفظ المعاصي، والملكان يحفظان عليه ذلك، أحصاه الله ونسوه

المرابطة الرابعة

في معاقبة النفس على تقصيرها

كيفية معاقبة النفس على تقصيرها

مهما حاسب نفسه فلم تسلم عن مقارفة معصية، وارتكاب تقصير في حق الله تعالى، فلا ينبغي أن يهملها، فإنه إن أهملها سهل عليه مقارفة المعاصي، وأنست بها نفسه، وعسر عليه فطامها، وكان ذلك سبب هلاكها. بل ينبغي أن يعاقبها. فإذا أكل لقمة شبهة بشهوة نفس ينبغي أن يعاقب البطن بالجوع. وإذا نظر إلى غير محرم ينبغي أن يعاقب العين بمنع النظر. وكذلك يعاقب كل طرف من أطراف بدنه بمنعه عن شهواته. هكذا كانت عادة

سالكي طريق الآخرة ، فقد روي عن منصور بن ابراهيم ، أن رجلا من العبّاد كلم امرأة فلم يزل حتى وضع يده على فخذها ، ثم ندم فوضع يده على النار حتى يبست

وروي أنه كان في بني اسرائيل رجل يتعبد في صومعته ، فمكث كذلك زمانا طويلا ، فأشرف ذات يوم فإذا هو بامرأة ، فافتتن بها وهمّ بها ، فأخرج رجله لينزل إليها ، فأدركه الله بسابقة فقال : ماهذا الذى أريد أن أصنع ؟ فرجعت إليه نفسه ، وعصمه الله تعالى ، فندم . فلما أراد أن يعيد رجله إلى الصومعة قال : هيهات هيهات ، رجل خرجت تريد أن تعصى الله تعود معى فى صومعتى ! لايكون والله ذلك أبدا . فتركها معلقة فى الصومعة تصيبها الأمطار ، والرياح ، والثلج ، والشمس ، حتى تقطعت فسقطت ، فشكر الله له ذلك ، وأنزل فى بعض كتبه ذكره

ويحكي عن الجنيد قال : سمعت ابن الكريبي يقول : أصابتني ليلة جنابة ، فاحتجت أن أغتسل ، وكانت ليلة باردة ، فوجدت فى نفسى تأخرا وتقصيرا ، فحدثتني نفسى بالتأخير حتى أصبح وأسخن الماء أوأدخل الحمام ، ولاأعنى على نفسى . فقلت واعجباه! أنا أعامل الله فى طول عمرى ، فيجب له علي حق ، فلا أجد فيّ المسارعة ، وأجد الوقوف والتأخر ! آليت أن لا أغتسل إلا فى مرقعتى هذه ، وآليت أن لا أنزعها ، ولا اعصرها ، ولا أجففها فى الشمس . ويحكى أن غزوان وأباموسى كانا فى بعض مغازيهما ، فتكشفت جارية ، فنظر إليها غزوان ، فرفع يده فلطم عينه حتى بقرت وقال : إنك للحّاظة إلى مايضرك

ونظر بعضهم نظرة واحدة إلى امرأة ، فجعل على نفسه أن لايشرب الماء البارد طول حياته ، فكان يشرب الماء الحار لينغص على نفسه العيش . ويحكى أن حسان بن أبى سنان مر بغرفة فقال : متى بنيت هذه ؟ ثم أقبل على نفسه فقال : تسألين عما لا يعنيك ، لأعاقبنك بصوم سنة ، فصامها . وقال مالك بن ضيغم : جاء رباح القيسى يسأل عن أبى بعد العصر ، فقلنا إنه نائم . فقال أنوم هذه الساعة ! هذا وقت نوم ! ثم ولى منصرفا . فأتبعناه رسولا وقلنا . ألا نوقظه لك ؟ فجاء الرسول وقال . هو أشغل من أن يفهم عنى شيئا ، أدركته وهو يدخل المقابر وهو يعاتب نفسه ويقول . أقلت وقت نوم هذه الساعة ؟ أفكان هذا عليك ؟ ينام الرجل متى شاء . ومايدريك أن هذا ليس وقت نوم ؟ تتكلمين بما لا تعلمين ؟ أما إن لله علي عهدا لا أنقضه أبدا لاأوسدك الأرض لنوم حولا إلا لمرض حائل ، أولعقل

زائل، سوأة لك. أما تستحين؟ كم توبخين؟ وعن غيك لا تنتهين؟ قال وجعل يبكي وهو لايشعر بمكاني. فلما رأيت ذلك انصرفت وتركته . ويحكى عن تميم الدارى أنه نام ليلة لم يقم فيها يتهجد، فقام سنة لم ينم فيها عقوبة للذى صنع

وعن[1] طلحة رضي الله تعالى عنه قال. انطلق رجل ذات يوم فنزع ثيابه وتمرغ فى الرمضاء فكان يقول لنفسه . ذوقى ونار جهنم أشد حرا. أجيفة بالليل بطالة بالنهار! فبينما هو كذلك إذ أبصر النبي صلى الله عليه وسلم فى ظل شجرة، فأتاه فقال: غلبتنى نفسى . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « أَلَمْ يَكُنْ لَكَ بُدٌّ مِنَ الَّذِي صَنَعْتَ أَمَا لَقَدْ فُتِحَتْ لَكَ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَقَدْ بَاهَى اللهُ بِكَ الْمَلاَئِكَةَ » ثم قال لأصحابه « تَزَوَّدُوا مِنْ أَخِيكُمْ » فجعل الرجل يقول له يافلان ادع لى ، يافلان ادع لى ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « عُمَّهُمْ » فقال . اللهم اجعل التقوى زادهم ، واجمع على الهدى أمرهم . فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول « اللَّهُمَّ سَدِّدْهُ » فقال الرجل اللهم اجعل الجنة مآبهم

وقال حذيفة بن قتادة : قيل لرجل كيف تصنع بنفسك فى شهواتها؟ فقال ما على وجه الأرض نفس أبغض إليّ منها: فكيف أعطيها شهواتها!

ودخل ابن السماك على داود الطائى حين مات وهو فى بيته على التراب ؛ فقال ياداود، سجنت نفسك قبل أن تسجن، وعذبت نفسك قبل أن تعذب، فاليوم ترى ثواب من كنت تعمل له . وعن وهب بن منبه ، أن رجلا تعبد زمانا ، ثم بدت له إلى الله تعالى حاجة. فقام سبعين سبتا يأكل فى كل سبت إحدى عشرة تمرة ، ثم سأل حاجته فلم يعطها ، فرجع إلى نفسه وقال . منك أتيت ، لو كان فيك خير لأعطيت حاجتك . فنزل إليه ملك وقال. يا ابن آدم ، ساعتك هذه خير من عبادتك التى مضت ؛ وقد قضى الله حاجتك

وقال عبد الله بن قيس : كنا فى غزاة لنا ، فحضر العدو ، فصيح فى الناس ، فقاموا إلى المصاف فى يوم شديد الريح ، وإذا رجل أمامى وهو يخاطب نفسه ويقول . أي نفسي ، ألم أشهد مشهد كذا وكذا فقلت لى أهلك وعيالك فأطعتك ورجعت ؟ ألم أشهد مشهد كذا

---

(١) حديث طلحة انطلق رجل ذات يوم فنزع ثيابه وتمرغ فى الرمضاء وكان يقول لنفسه ونار جهنم أشد حرا ـ الحديث : بطوله ابن أبى الدنيا فى محاسبة النفس من رواية ليث بن أبى سليم عنه وهذا منقطع أو مرسل ولا أدرى من طلحة هذا

وكذا فعلت لي أهلك وعيالك فأطعتك ورجعت؟ والله لأعرضنك اليوم على الله أخذك أو تركك. فقلت لأرمقنه اليوم، فرمقته، فحمل الناس على عدوهم فكان في أوائلهم. ثم إن العدو حمل على الناس فانكشفوا، فكان في موضعه حتى انكشفوا مرات، وهو ثابت يقاتل فو الله مازال ذاك دأبه حتى رأيته صريعا. فعددت به وبدابته ستين أو أكثر من ستين طعنة . وقد ذكرنا حديث أبي طلحة لما اشتغل قلبه في الصلاة بطائر في حائطه فتصدق بالحائط كفارة لذلك. وأن عمر كان يضرب قدميه بالدرة كل ليلة ويقول. ماذا عملت اليوم

وعن مجمع أنه رفع رأسه إلى السطح، فوقع بصره على امرأة، فجعل على نفسه أن لا يرفع رأسه إلى السماء مادام في الدنيا . وكان الأحنف بن قيس لا يفارقه المصباح بالليل، فكان يضع أصبعه عليه ويقول لنفسه. ماحملك على أن صنعت يوم كذا كذا؟

وأنكر وهيب بن الورد شيئا على نفسه، فنتف شعرات على صدره حتى عظم ألمه، ثم جعل يقول لنفسه. ويحك، إنما أريد بك الخير

ورأى محمد بن بشر داود الطائي وهو يأكل عند إفطاره خبزا بغير ملح، فقال له: لو أكلته بملح؟ فقال: إن نفسي لتدعوني إلى الملح منذ سنة، ولا ذاق داود ملحا مادام في الدنيا

فهكذا كانت عقوبة أولي الحزم لأنفسهم. والعجب أنك تعاقب عبدك، وأمتك، وأهلك، وولدك، على مايصدر منهم من سوء خلق وتقصير في أمر، وتخاف أنك لو تجاوزت عنهم لخرج أمرهم عن الاختيار وبغوا عليك، ثم تهمل نفسك وهي أعظم عدو لك، وأشد طغيانا عليك، وضررك من طغيانها أعظم من ضررك من طغيان أهلك، فإن غايتهم أن يشوشوا عليك معيشة الدنيا، ولو عقلت لعلمت أن العيش عيش الآخرة، وأن فيه النعيم المقيم الذي لا آخر له. ونفسك هي التي تنغص عليك عيش الآخرة، فهي بالمعاقبة أولى من غيرها

المرابطة الخامسة

المجاهدة

المجاهدة

وهو أنه إذا حاسب نفسه فرآها قد قارفت معصية، فينبغي أن يعاقبها بالعقوبات التي مضت. وإن رآها تتوانى بحكم الكسل في شيء من الفضائل أو ورد من الأوراد،

فينبغى أن يؤدبها بتثقيل الأوراد عليها ، ويلزمها ، فنونا من الوظائف جبرا لما فات منه ، وتداركا لما فرط ، فهكذا كان يعمل عمال الله تعالى . فقد عاقب عمر بن الخطاب نفسه حين فاتته صلاة العصر فى جماعة ، بأن تصدق بأرض كانت له قيمتها مائتا ألف درهم

وكان ابن عمر إذا فاتته صلاة فى جماعة أحيا تلك الليلة . وأخر ليلة صلاة المغرب حتى طلع كوكبان ، فأعتق رقبتين . وفات ابن أبى ربيعة ركعتا الفجر . فاعتق رقبة . وكان بعضهم يجعل على نفسه صوم سنة ، أو الحج ماشيا ، أو التصدق بجميع ماله ، كل ذلك مرابطة للنفس ومؤاخذة لها بما فيه نجاتها

فإن قلت : إن كانت نفسى لاتطاوعنى على المجاهدة والمواظبة على الأوراد، فما سبيل معالجتها؟

علاج النفس الجامحة عن الطاعات

فأقول : سبيلك فى ذلك أن تسمعها ماورد فى الأخبار من فضل المجتهدين [١] ومن أنفع أسباب العلاج أن تطلب صحبة عبد من عباد الله مجتهد فى العبادة ، فتلاحظ أقواله وتقتدى به . وكان بعضهم يقول : كنت إذا اعترتنى فترة فى العبادة نظرت إلى أحوال محمد بن واسع ، وإلى اجتهاده ، فعملت على ذلك أسبوعا . إلا أن هذا العلاج قد تعذر ، إذ قد فُقد فى هذا الزمان من يجتهد فى العبادة اجتهاد الأوّلين ، فينبغى أن يعدل من المشاهدة إلى السماع ، فلا شيء أنفع من سماع أحوالهم ، ومطالعة أخبارهم وما كانوا فيه من الجهد الجهيد ، وقد انقضى تعبهم ، وبقى ثوابهم ونعيمهم أبد الآباد لاينقطع ، فما أعظم ملكهم ، وما أشد حسرة من لايقتدى بهم ، فيمتع نفسه أياما قلائل بشهوات مكدرة ، ثم يأتيه الموت ، ويحال بينه وبين كل مايشتهيه أبد الآباد ! نعوذ بالله تعالى من ذلك

ونحن نورد من أوصاف المجتهدين وفضائلهم مايحرك رغبة المريد فى الاجتهاد اقتداء بهم . فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] « رَحِمَ اللهُ أَقْوَاماً يَحْسَبُهُمُ النَّاسُ مَرْضَى

---

(١) الأخبار الواردة فى حق المجتهدين :أبو داود من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين وله وللنسائى وابن ماجه من حديث أبى هريرة باسناد صحيح رحم الله رجلا قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته وللترمذى من حديث بلال عليكم بقيام الليل فانه دأب الصالحين قبلكم ـ الحديث: وقال غريب ولايصح وقد تقدم فى الاوراد مع غيره من الأخبار فى ذلك

(٢) حديث رحم الله أقواما تحسبهم مرضى وماهم بمرضى :لم أجد له أصلا فى حديث مرفوع ولكن رواه أحمد فى الزهد موقوفا على علي فى كلام له قال فيه ينظر اليهم الناظر فيقول مرضى وما بالقوم من مرض

وَمَا هُمْ بِمَرْضَى » قال الحسن : أجهدتهم العبادة . قال الله تعالى (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ [١]) قال الحسن : يعملون ماعملوا من أعمال البر ، ويخافون أن لاينجيهم ذلك من عذاب الله . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « طُوبَى لِمَنْ طَالَ عُمْرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ » . ويروى أن الله تعالى يقول لملائكته : مابال عبادى مجتهدين ، فيقولون إلهنا خوفتهم شيئا فخافوه ، وشوقتهم إلى شيء فاشتاقوا إليه . فيقول الله تبارك وتعالى : فكيف لو رآنى عبادى لكانوا أشد اجتهادا

وقال الحسن : أدركت أقواما وصحبت طوائف منهم ، ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل ، ولا يتأسفون على شيء منها أدبر ، ولهي كانت أهون فى أعينهم من هذا التراب الذى تطؤنه بأرجلكم إن كان أحدهم ليعيش عمره كله ماطوى له ثوب ، ولا أمر أهله بصنعة طعام قط ، ولا جعل بينه وبين الأرض شيئا قط . وأدركتهم عاملين بكتاب ربهم وسنة نبيهم ، إذا جنهم الليل فقيام على أطرافهم ، يفترشون وجوههم ، تجرى دموعهم على خدودهم يناجون ربهم فى فكاك رقابهم . إذا عملوا الحسنة فرحوا بها ، ودأبوا فى شكرها ، وسألوا الله أن يتقبلها . وإذا عملوا السيئة أحزنتهم ، وسألوا الله أن يغفرها لهم والله مازالوا كذلك وعلى ذلك ، ووالله ماسلموا من الذنوب ، ولا نجوا إلا بالمغفرة

ويحكى أن قوما دخلوا على عمر بن عبد العزيز يعودونه فى مرضه ، وإذا فيهم شاب ناحل الجسم . فقال عمر له : يافتى ، ما الذى بلغ بك ما أرى ؟ فقال ياأمير المؤمنين ، أسقام وأمراض . فقال سألتك بالله إلا صدقتنى . فقال ياأمير المؤمنين ، ذقت حلاوة الدنيا فوجدتها مرة ، وصغر عندى زهرتها وحلاوتها ، واستوى عندى ذهبها وحجرها ، وكأنى أنظر إلى عرش ربى والناس يساقون إلى الجنة والنار ، فأظمأت لذلك نهارى ، وأسهرت ليلى ، وقليل حقير كل ماأنا فيه فى جنب ثواب الله وعقابه

وقال أبو نعيم : كان داود الطائى يشرب الفتيت ولا يأكل الخبز ، فقيل له فى ذلك ، فقال :

---

(١) حديث طوبى لمن طال عمره وحسن عمله : الطبرانى من حديث عبد الله بن بشر وفيه بقية رواه بصيغة عن وهو مدلس وللترمذى من حديث أبى بكرة خير الناس من طال عمره وحسن عمله وقال حسن صحيح وقد تقدم

---

(١) المؤمنون : ٦

بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية . ودخل رجل عليه يوما فقال : إن فى سقف بيتك جذعا مكسورا . فقال : ياابن أخى ، إن لى فى البيت منذ عشرين سنة مانظرت إلى السقف . وكانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام

وقال محمد بن عبد العزيز : جلسنا إلى أحمد بن رزين من غدوة إلى العصر ، فما التفت يمنة ولا يسرة ، فقيل له فى ذلك ، فقال : إن الله عز وجل خلق العينين لينظر بهما العبد إلى عظمة الله تعالى . فكل من نظر بغير اعتبار كتبت عليه خطيئة

وقالت امرأة مسروق : ماكان يوجد مسروق إلا وساقاه منتفختان من طول الصلاة . وقالت : والله إن كنت لأجلس خلفه فأبكى رحمة له

وقال أبو الدرداء : لولا ثلاث ماأحببت العيش يوما واحدا : الظمأ لله بالهواجر ، والسجود لله فى جوف الليل ، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى أطايب الثمر .

وكان الأسود بن يزيد يجتهد فى العبادة . ويصوم فى الحر ، حتى يخضر جسده ويصفر ، فكان علقمة بن قيس يقول له : لم تعذب نفسك ؟ فيقول كرامتها أريد . وكان يصوم حتى يخضر جسده ، ويصلى حتى يسقط . فدخل عليه أنس بن مالك والحسن ، فقالا له : إن الله عز وجل لم يأمرك بكل هذا . فقال إنما أنا عبد مملوك ، لاأدع من الاستكانة شيئا إلا جئت به . وكان بعض المجتهدين يصلى كل يوم ألف ركعة حتى أقعد من رجليه ، فكان يصلى جالسا ألف ركعة ، فإذا صلى العصر احتبى ثم قال : عجبت للخليقة كيف أرادت بك بدلا منك ! عجبت للخليقة كيف أنست بسواك ! بل عجبت للخليقة كيف استنارت قلوبها بذكر سواك

وكان ثابت البنانى قد حببت إليه الصلاة ، فكان يقول : اللهم إن كنت أذنت لأحد أن يصلى لك فى قبره فائذن لى أن أصلى فى قبرى . وقال الجنيد : مارأيت أعبد من السرى ، أتت عليه ثمان وتسعون سنة ماروِي مضطجعا إلا فى علة الموت .

وقال الحارث بن سعد : مرّ قوم براهب ، فرأوا مايصنع بنفسه من شدة اجتهاده ، فكلموه فى ذلك فقال : وما هذا عند مايراد بالخلق من ملاقاة الأهوال وهم غافلون ! قد اعتكفوا على حظوظ أنفسهم ، ونسوا حظهم الأكبر من ربهم . فبكى القوم عن آخرهم

وعن أبي محمد المغازلى قال : جاور أبو محمد الجريرى بمكة سنة ، فلم ينم ، ولم يتكلم ، ولم يستند إلى عمود ولا إلى حائط ، ولم يمد رجليه . فعبر عليه أبو بكر الكتانى ، فسلم عليه وقال له : يا أبا محمد ، بم قدرت على اعتكافك هذا ؟ فقال : علم صدق باطنى فأعاننى على ظاهرى فأطرق الكتانى ومشى مفكرا

وعن بعضهم قال : دخلت على فتح الموصلى ، فرأيته قد مدّ كفيه يبكى حتى رأيت الدموع تنحدر من بين أصابعه . فدنوت منه ، فإذا دموعه قد خالطها صفرة . فقلت ولِمَ بالله يافتح بكيت الدم ؟ فقال لولا أنك أحلفتنى بالله ماأخبرتك . نعم بكيت دما فقلت له : على ماذا بكيت الدموع ؟ فقال على تخلفى عن واجب حق الله تعالى . وبكيت الدم على الدموع لئلا يكون ماصحت لى الدموع . قال : فرأيته بعد موته فى المنام فقلت : ماصنع الله بك ؟ قال غفرلى . فقلت له فما ذا صنع فى دموعك ؟ فقال : قربنى ربى عز وجل وقال لى : يافتح الدمع على ماذا ؟ قلت يارب على تخلفى عن واجب حقك . فقال والدم على ماذا ؟ قلت على دموعى أن لاتصح لى . فقال لى : يافتح ماأردت بهذا كله ؟ وعزتى وجلالى لقد صعد حافظك أربعين سنة بصحيفتك مافيها خطيئة

وقيل إن قوما أرادوا سفرا ، فحادوا عن الطريق ، فانتهوا إلى راهب منفرد عن الناس فنادوه ، فأشرف عليهم من صومعته ، فقالوا ياراهب ، إنا قد أخطأنا الطريق ، فكيف الطريق ؟ فأومأ برأسه إلى السماء . فعلم القوم ماأراد . فقالوا ياراهب ، إنا سائلوك فهل أنت مجيبنا ؟ فقال سلوا ولا تكثروا ، فإن النهار لن يرجع ، والعمر لايعود ، والطالب حثيث . فعجب القوم من كلامه فقالوا : ياراهب ، علام الخلق غداً عند مليكهم ؟ فقال على نياتهم . فقالوا : أوصنا . فقال : تزودوا على قدر سفركم ، فإن خير الزاد مابلّغ البغية . ثم أرشدهم إلى الطريق ، وأدخل رأسه فى صومعته

وقال عبد الواحد بن زيد : مررت بصومعة راهب من رهبان الصين ، فناديته ياراهب فلم يجبنى ، فناديته الثانية فلم يجبنى ، فناديته الثالثة فأشرف علي وقال : ياهذا ماأنا براهب ، إنما الراهب من رهب الله فى سمائه ، وعظمه فى كبريائه ، وصبر على بلائه ، ورضي بقضائه

وحمده على آلائه ، وشكره على نعمائه ، وتواضع لعظمته ، وذل لعزته ، واستسلم لقدرته ، وخضع لمهابته ، وفكر فى حسابه وعقابه ، فنهاره صائم ، وليله قائم ، قد أسهره ذكر النار ومسألة الجبار ، فذلك هو الراهب ، وأما أنا فكلب عقور ، حبست نفسى فى هذه الصومعة عن الناس لئلا أعقرهم . فقلت ياراهب : فما الذى قطع الخلق عن الله بعد أن عرفوه ؟ فقال يأخى لم يقطع الخلق عن الله إلا حب الدنيا وزينتها ، لأنها محل المعاصى والذنوب ، والعاقل من رمى بها عن قلبه ، وتاب إلى الله تعالى من ذنبه ، وأقبل على مايقربه من ربه

وقيل لداود الطائى : لو سرحت لحيتك ؟ فقال إنى إذاً لفارغ

وكان أويس القرنى يقول : هذه ليلة الركوع ، فيحيي الليل كله فى ركعة . وإذا كانت الليلة الآتية قال : هذه ليلة السجود ، فيحيي الليل كله فى سجدة

وقيل لما تاب عتبة الغلام : كان لايتهنأ بالطعام والشراب ؟ فقالت له أمه : لو رفقت بنفسك ؟ قال : الرفق أطلب ، دعينى أتعب قليلا وأتنعم طويلا

وحج مسروق فما نام قط إلا ساجدا . وقال سفيان الثوري : عند الصباح يحمد القوم السرى ، وعند الممات يحمد القوم التقى

وقال عبد الله بن داود : كان أحدهم إذا بلغ أربعين سنة طوى فراشه ، أي كان لاينام طول الليل . وكان كهمس بن الحسن يصلى كل يوم ألف ركعة ، ثم يقول لنفسه : قومى يامأوى كل شر . فلما ضعف اقتصر على خمسمائة ، ثم كان يبكى ويقول : ذهب نصف عملى

وكانت ابنة الربيع بن خثيم تقول له : ياأبت مالى أرى الناس ينامون وأنت لاتنام ؟ فيقول : ياابنتاه ، إن أباك يخاف البيات

ولما رأت أم الربيع مايلقى الربيع من البكاء والسهر ، نادته يابني : لعلك قتلت قتيلا؟ قال : نعم ياأماه ، قالت : فمن هو حتى نطلب أهله فيعفو عنك ، فو الله لو يعلمون ماأنت فيه لرحموك وعفوا عنك ؟ فيقول : ياأماه هي نفسى

وعن عمر ابن أخت بشر بن الحارث قال : سمعت خالى بشر بن الحارث يقول لأمى : ياأختى ، جوفى وخواصرى تضرب علي . فقالت له أمى : ياأخى ، تأذن لى حتى أصلح لك قليل حساء بكف دقيق عندي تتحساه يرم جوفك ؟ فقال لها : ويحك ، أخاف أن يقول

من أين لك هذا الدقيق ؟ فلا أدرى ايش أقول له . فبكت أمى ، وبكى معها ، وبكيت معهم . قال عمر : ورأت أمى مابشر من شدة الجوع ، وجعل يتنفس نفسا ضعيفا ، فقالت له أمى : ياأخى ، ليت أمك لم تلدنى ، فقد والله تقطعت كبدى مما أرى بك . فسمعته يقول لها : وأنافليت أمى لم تلدنى ، وإذ ولدتنى لم يدّر ثديها علي . قال عمر : وكانت أمى تبكي عليه الليل والنهار . وقال الربيع : أتيت أويسا فوجدته جالسا قد صلى الفجر ، ثم جلس فجلست ، فقلت لاأشغله عن التسبيح ، فمكث مكانه حتى صلى الظهر ، ثم قام إلى الصلاة حتى صلى العصر ، ثم جلس موضعه حتى صلى المغرب ، ثم ثبت مكانه حتى صلى العشاء ، ثم ثبت مكانه حتى صلى الصبح ، ثم جلس فغلبته عيناه فقال : اللهم إنى أعوذ بك من عين نوّامة ، ومن بطن لاتشبع . فقلت حسبي هذا منه ، ثم رجعت

ونظر رجل إلى أويس فقال : ياأبا عبد الله : مالى أراك كأنك مريض ؟ فقال ومالأويس أن لايكون مريضا؟ يُطْعَمُ المريض وأويس غير طاعم ، وينام المريض وأويس غير نائم . وقال أحمد بن حرب : ياعجبا لمن يعرف أن الجنة تزين فوقه ، وأن النار تسعر تحته ، كيف ينام بينهما . وقال رجل من النساك : أتيت إبراهيم بن أدهم فوجدته قد صلى العشاء ، فقعدت أرقبه ، فلف نفسه بعباءة ، ثم رمى بنفسه ، لم ينقلب من جنب إلى جنب الليل كله حتي طلع الفجر وأذن المؤذن ، فوثب إلى الصلاة ولم يحدث وضوأ . فحاك ذلك فى صدرى ، فقلت له : رحمك الله ، قد نمت الليل كله مضطجعا ، ثم لم تجدد الوضوء؟ فقال كنت الليل كله جائلا فى رياض الجنة أحيانا ، وفى أودية النار أحيانا ، فهل فى ذلك نوم

وقال ثابت البنانى : أدركت رجالا كان أحدهم يصلى فيعجز عن أن يأتى فراشه إلا حبواً

وقيل مكث أبو بكر بن عياش أربعين سنة لايضع جنبه على فراش ، ونزل الماء فى إحدى عينيه فمكث عشرين سنة لايعلم به أهله ، وقيل كان ورد سمنون فى كل يوم خمسمائة ركعة ، وعن أبى بكر المطوعى قال : كان وردى فى شبيبتى كل يوم وليلة أقرأ فيه : قل هو الله أحد إحدى وثلاثين ألف مرة ، أو أربعين ألف مرة ، شك الراوى

وكان منصور بن المعتمر إذا رأيته قلت : رجل أصيب بمصيبة ، منكسر الطرف ، منخفض الصوت ، رطب العينين ، إن حركته جاءت عيناه بأربع . ولقد قالت له أمه

ماهذا الذى تصنع بنفسك ؟ تبكى الليل عامته لاتسكت ! لعلك يا نى أصبت نفسا ، لعلك قتلت قتيلا . فيقول يا أمه ، أنا أعلم بما صنعت بنفسى

وقيل لعامر بن عبد الله : كيف صبرك على سهر الليل وظمأ الهواجر ؟ فقال هل هو إلا أنى صرفت طعام النهار إلى الليل ، ونوم الليل إلى النهار ، وليس فى ذلك خطير أمر وكان يقول : مارأيت مثل الجنة نام طالبها ، ولا مثل النار نام هاربها . وكان إذا جاء الليل قال : أذهب حر النار النوم ، فما ينام حتى يصبح . فإذا جاء النهار قال. أذهب حر النار النوم ، فماينام حتى يمسى فإذا جاء الليل قال : من خاف أدلج . وعند الصباح يحمد القوم السرى

وقال بعضهم : صحبت عامر بن عبد القيس أربعة أشهر فما رأيته نام بليل ولا نهار

ويروى عن رجل من أصحاب علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قال : صليت خلف علي رضي الله تعالى عنه الفجر ، فلما سلم انفتل عن يمينه وعليه كآبة ، فمكث حتى طلعت الشمس ، ثم قلب يده وقال : والله لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، وما أرى اليوم شيئا يشبههم ، كانوا يصبحون شعثا ، غبرا ، صفرا ، قد باتوا لله سجدا وقياما يتلون كتاب الله ، يراوحون بين أقدامهم وجباههم . وكانوا إذا ذكروا الله مادوا كما يميد الشجر فى يوم الريح . وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم ، وكأن القوم باتوا غافلين يعنى من كان حوله

وكان أبو مسلم الخولانى قد علق سوطا فى مسجد بيته يخوف به نفسه ، وكان يقول لنفسه : قومى فوالله لأزحفن بك زحفا حتى يكون الكلال منك لامنى . فإذا دخلت الفترة تناول سوطه وضرب به ساقه ويقول : أنت أولى بالضرب من دابتى . وكان يقول : أيظن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أن يستأثروا به دوننا ؟ كلا والله ، لنزاحمهم عليه زحاما حتى يعلموا أنهم قد خلفوا وراءهم رجالا . وكان صفوان بن سليم قد تعقدت ساقاه من طول القيام ، وبلغ من الاجتهاد مالو قيل له القيامة غدا ماوجد متزايدا . وكان إذا جاء الشتاء اضطجع على السطح ليضر به البرد ، وإذا كان فى الصيف اضطجع داخل البيوت ليجد الحر فلا ينام . وإنه مات وهو ساجد ، وإنه كان يقول : اللهم إنى أحب لقاءك فأحب لقائى

وقال القاسم بن محمد : غدوت يوما ، وكنت إذا غدوت بدأت بعائشة رضي الله عنها

أسلم عليها . فغدوت يوما إليها ، فإذا هي تصلى صلاة الضحى وهي تقرأ ﴿ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴾[(1)] وتبكى وتدعو وتردد الآية . فقمت حتى مللت ، وهي كما هي ، فلما رأيت ذلك ذهبت إلى السوق ، فقلت أفرغ من حاجتي ثم أرجع ففرغت من حاجتي ثم رجعت وهي كما هي ، تردد الآية وتبكى وتدعو

وقال محمد بن إسحق : لما ورد علينا عبد الرحمن بن الأسود حاجا اعتلت إحدى قدميه ، فقام يصلى على قدم واحدة ، حتى صلى الصبح بوضوء العشاء

وقال بعضهم : ما أخاف من الموت إلا من حيث يحول بيني وبين قيام الليل

وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : سيما الصالحين صفرة الألوان من السهر ، وعمش العيون من البكاء ، وذبول الشفاه من الصوم ، عليهم غبرة الخاشعين

وقيل للحسن : مابال المتهجدين أحسن الناس وجوها ؟ فقال لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نورا من نوره . وكان عامر بن عبد القيس يقول : إلهي خلقتني ولم تؤامرني ، وتميتني ولاتعلمني ، وخلقت معي عدوا ، وجعلته يجرى مني مجرى الدم ، وجعلته يراني ولاأراه ، ثم قلت لي استمسك ، إلهي كيف استمسك إن لم تمسكني ؟ إلهي في الدنيا الهموم والأحزان ، وفي الآخرة العقاب والحساب ، فأين الراحة والفرح ؟

وقال جعفر بن محمد : كان عتبة الغلام يقطع الليل بثلاث صيحات ، كان إذا صلى العتمة وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر ، فإذا مضى ثلث الليل صاح صيحة ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر ، فإذا مضى الثلث الثاني صاح صيحة ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر ، فإذا كان السحر صاح صيحة . قال جعفر بن محمد : فحدثت به بعض البصريين فقال : لاتنظر إلى صياحه ، ولكن انظر إلى ما كان فيه بين الصيحتين حتى صاح

وعن القاسم بن راشد الشيباني قال : كان زمعة نازلا عندنا بالمحصب ، وكان له أهل وبنات . وكان يقوم فيصلي ليلا طويلا ، فإذا كان السحر نادى بأعلى صوته : أيها الركب المعرسون ، أكل هذا الليل ترقدون ! أفلا تقومون فترحلون ؟ فيتواثبون ، فيسمع من ههنا باك ، ومن ههنا داع ، ومن ههنا قارىء ، ومن ههنا متوضىء . فإذا طلع الفجر نادى

---

(1) الطور : ٢٧

بأعلى صوته : عند الصباح يحمد القوم السرى

وقال بعض الحكماء : إن لله عبادا أنعم عليهم فعرفوه ، وشرح صدورهم فأطاعوه ، وتوكلوا عليه فسلموا الخلق والأمر إليه ، فصارت قلوبهم معادن لصفاء اليقين ، وبيوتا للحكمة ، وتوابيت للعظمة ، وخزائن للقدرة ، فهم بين الخلق مقبلون ومدبرون ، وقلوبهم تجول فى الملكوت ، وتلوذ بمحجوب الغيوب ، ثم ترجع ومعها طوائف من لطائف الفوائد ، ومالا يمكن واصفا أن يصفه ، فهم فى باطن أمورهم كالديباج حسنا ، وهم فى الظاهر مناديل مبذولون لمن أرادهم تواضعا . وهذه طريقة لايبلغ إليها بالتكلف ، وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء

وقال بعض الصالحين : بينما أنا أسير فى بعض جبال بيت المقدس ، إذ هبطت إلى واد هناك ، فإذا أنا بصوت قد علا ، وإذا تلك الجبال تجيبه لها دوي عال . فاتبعت الصوت ، فإذا أنا بروضة عليها شجر ملتف ، وإذا أنا برجل قائم فيها يردد هذه الآية (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً [١]) إلى قوله (وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ [٢]) قال فجلست خلفه أسمع كلامه وهو يردد هذه الآية إذ صاح صيحة خر مغشيا عليه . فقلت وا أسفاه ، هذا لشقائى . ثم انتظرت إفاقته ، فأفاق بعد ساعة ، فسمعته وهو يقول : أعوذ بك من مقام الكذابين ، أعوذ بك من أعمال البطالين ، أعوذ بك من إعراض الغافلين . ثم قال : لك خشعت قلوب الخائفين ، وإليك فزعت آمال المقصرين ، ولعظمتك ذلت قلوب العارفين ثم نفض يده فقال : مالى وللدنيا ، وماللدنيا ولى . عليك يادنيا بأبناء جنسك ، وألاف نعيمك ، إلى محبيك فاذهبي ، وإياهم فاخدعى . ثم قال : أين القرون الماضية ، وأهل الدهور السالفة ، فى التراب يبلون ، وعلى الزمان يفنون . فناديته ياعبد الله ، أنا منذ اليوم خلفك أنتظر فراغك . فقال : وكيف يفرغ من يبادر الأوقات وتبادره ، يخاف سبقها بالموت إلى نفسه ! أم كيف يفرغ من ذهبت أيامه وبقيت آثامه ! ثم قال : أنت لها ولكل شدة أتوقع نزولها . ثم لها عنى ساعة وقرأ (وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ [٣]) ثم صاح صيحة أخرى أشد من الأولى ، وخر مغشيا عليه ، فقلت قد خرجت روحه .

(١ ، ٢) آل عمران : ٣٠ (٣) الزمر : ٤٧

فدنوت منه فإذا هو يضطرب ، ثم أفاق وهو يقول : من أنا ؟ ماخطرى ؟ هب لى إساءتى من فضلك ؛ وجللنى بسترك ، واعف عن ذنوبى بكرم وجهك إذا وقفت بين يديك . فقلت له : بالذى ترجوه لنفسك وتثق به إلا كلمتنى . فقال : عليك بكلام من ينفعك كلامه ، ودع كلام من أوبقته ذنوبه . إنى لفى هذا الموضع مذ شاء الله أجاهد إبليس ويجاهدنى ، فلم يجد عوناً علي ليخرجنى مما أنا فيه غيرك . فإليك عنى يامخدوع ، فقد عطلت عليّ لسانى ، ومِلت إلى حديثك شعبة من قلبى . وأنا أعوذ بالله من شرك ، ثم أرجو أن يعيذنى من سخطه ، ويتفضل عليّ برحمته . قال : فقلت هذا وليّ الله أخاف أن أشغله فأعاقب فى موضعى هـــذا . فانصرفت وتركته

وقال بعض الصالحين : بينما أنا أسير فى مسير لى ، إذ ملت إلى شجرة لأستريح تحتها فإذا أنا بشيخ قد أشرف عليّ فقال لى : ياهذا قم ، فإن الموت لم يمت ، ثم هـام على وجهه فاتبعته ، فسمعته وهو يقول (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ [1]) اللهم بارك لى فى الموت . فقلت وفيما بعد الموت . فقال : من أيقن بما بعد الموت شمر مئزر الحذر ، ولم يكن له فى الدنيا مستقر . ثم قال : يامن لوجهه عنت الوجوه ، بيض وجهى بالنظر إليك ، واملأ قلبى من المحبة لك ، وأجرنى من ذل التوبيخ غداً عندك ، فقد آن لى الحياء منك ، وحان لى الرجوع عن الإعراض عنك . ثم قال : لولا حلمك لم يسعنى أجلى ، ولولا عفوك لم ينبسط فيما عندك أملى . ثم مضى وتركنى . وقد أنشدوا فى هذا المعنى

نحيل الجسم مكتئب الفؤاد تراه بقمة أو بطن وادى
ينوح على معاص فاضحات يكدر ثقلها صفو الرقاد
فإن هاجت مخاوفه وزادت فدعوته أغثنى ياعمادى
فأنت بما ألاقيـه عليم كثير الصفح عن زلل العباد

وقيل أيضاً

ألذ من التـلذذ بالغوانى إذا أقبلن فى حلل حسان
منيب فر من أهل ومال يسيح إلى مكان من مكان

(١) آل عمران : ١٨٥

ليخمل ذكره ويعيش فردا ويظهر فى العبادة بالأمانى
تلذذه التلاوة أين ولى وذكر بالفؤاد وباللسان
وعند الموت يأتيه بشير يبشر بالنجاة من الهوان
فيدرك ماأراد وما تمنى من الراحات فى غرف الجنان

وكان كرز بن وبرة يختم القرءان فى كل يوم ثلاث مرات . ويجاهد نفسه فى العبادات غاية المجاهدة ، فقيل له : قد أجهدت نفسك . فقال: كم عمر الدنيا؟فقيل : سبعة آلاف سنة فقال: كم مقدار يوم القيامة ؟فقيل: خمسون ألف سنة . فقال: كيف يعجز أحدكم أن يعمل سبع يوم حتى يأمن ذلك اليوم ! يعنى أنك لو عشت عمر الدنيا ، واجتهدت سبعة آلاف سنة ، وتخلصت من يوم واحد كان مقداره خمسين ألف سنة ، لكان ربحك كثيرا ، وكنت بالرغبة فيه جديرا . فكيف وعمرك قصير ، والآخرة لاغاية لها

فهكذا كانت سيرة السلف الصالحين فى مرابطة النفس ومراقبتها . فمهما تمردت نفسك عليك ، وامتنعت من المواظبة على العبادة ، فطالع أحوال هؤلاء ، فإنه قد عز الآن وجود مثلهم . ولو قدرت على مشاهدة من اقتدى بهم فهو أنجع فى القلب ، وأبعث على الاقتداء فليس الخبر كالمعاينة . وإذا عجزت عن هذا فلا تغفل عن سماع أحوال هؤلاء ، فإن لم تكن إبل فمعزى ، وخير نفسك بين الاقتداء بهم والكون فى زمرتهم وغمارهم ، وهم العقلاء والحكماء وذوو البصائر فى الدين ، وبين الاقتداء بالجهلة الغافلين من أهل عصرك . ولا ترضى لها أن تنخرط فى سلك الحمق ، وتقنع بالتشبه بالأغبياء ، وتؤثر مخالفة العقلاء ، فإن حدثتك نفسك بأن هؤلاء رجال أقوياء لايطاق الاقتداء بهم ، فطالع أحوال النساء المجتهدات وقل لها يانفس لاتستنكفى أن تكونى أقل من امرأة ، فأخسس برجل يقصر عن امرأة فى أمر دينها ودنياها

ولنذكر الآن نبذة من أحوال المجتهدات . فقد روي عن حبيبة العدوية أنها كانت إذا صلت العتمة قامت على سطح لها ، وشدت عليها درعها وخمارها ، ثم قالت . إلهى قد غارت النجوم، ونامت العيون ، وغلقت الملوك أبوابها، وخلا كل حبيب بحبيبه، وهذا مقامى بين يديك . ثم تقبل على صلاتها . فإذا طلع الفجر قالت : إلهى هذا الليل قد أدبر ،

وهذا النهار قد أسفر. فليت شعرى أقبلت منى ليلتى فأهنأ، أم رددتها علىّ فأعزى؟ وعزتك لهذا دأبى ودأبك ما أبقيتنى. وعزتك لو انتهرتنى عن بابك مابرحت لما وقع فى نفسى من جودك وكرمك. ويروى عن عجرة أنها كانت تحيى الليل، وكانت مكفوفة البصر؛ فإذا كان فى السحر نادت بصوت لها محزون، إليك قطع العابدون دجى الليالى يستبقون إلى رحمتك وفضل مغفرتك، فبك يا إلهى أسألك لا بغيرك أن تجعلنى فى أول زمرة السابقين، وأن ترفعنى لديك فى عليين فى درجة المقربين، وأن تلحقنى بعبادك الصالحين فأنت أرحم الرحماء، وأعظم العظماء، وأكرم الكرماء يا كريم. ثم تخر ساجدة فيسمع لها وجبة، ثم لا تزال تدعو وتبكى إلى الفجر . وقال يحيي بن بسطام: كنت أشهد مجلس شعوانة، فكنت أرى ماتصنع من النياحة والبكاء، فقلت لصاحب لى. لو أتيناها إذا خلت فأمرناها بالرفق بنفسها؟ فقال أنت وذاك قال فأتيناها فقلت لها: لو رفقت بنفسك وأقصرت عن هذا البكاء شيئا فكان لك أقوى على ماتريدين؟ قال فبكت ثم قالت: والله لوددت أنى أبكى حتى تنفد دموعى، ثم أبكى دما حتى لا تبقى قطرة من دم فى جارحة من جوارحى، وأنى لى بالبكاء، وأنى لى بالبكاء. فلم تزل تردد وأنى لى بالبكاء، حتى غشي عليها

وقال محمد بن معاذ: حدثتنى امرأة من المتعبدات قالت: رأيت فى منامى كأنى أدخلت الجنة، فإذا أهل الجنة قيام على أبوابهم، فقلت ماشأن أهل الجنة قيام؟ فقال لى قائل. خرجوا ينظرون إلى هذه المرأة التى زخرفت الجنان لقدومها. فقلت ومن هذه المرأة؟ فقيل أمة سوداء من أهل الأيلة يقال لها شعوانة. قالت فقلت أختى والله. قالت فبينما أنا كذلك إذ أقبل بها على نجيبة تطير بها فى الهواء، فلما رأيتها ناديت يا أختى أما ترين مكانى من مكانك فلو دعوت لى مولاك فألحقنى بك؛ قالت فتبسمت إليّ وقالت لم يأن لقدومك ولكن احفظى عنى اثنتين، ألزمى الحزن قلبك، وقدمى محبة الله على هواك ولا يضرك متى مت

وقال عبد الله بن الحسن: كانت لى جارية رومية، وكنت بها معجبا، فكانت فى بعض الليالى نائمة إلى جنبى، فانتبهت فالتمستها فلم أجدها، فقمت أطلبها فإذا هي ساجدة وهي تقول. بحبكَ لى ألا ما غفرت لى ذنوبى. فقلت لها: لا تقولى بحبكَ لى،

ولكن قولي بحبي لك ، فقالت: لا ، يامولاى بحبه لى أخرجنى من الشرك إلى الإسلام، وبحبه لى أيقظ عينى وكثير من خلقه نيام

وقال أبو هاشم القرشي : قدمت علينا امرأة من أهل اليمن يقال لها سرية ، فنزلت فى بعض ديارنا ، قال فكنت أسمع لها من الليل أنينا وشهيقا ، فقلت يوما لخادم لى : أشرف على هذه المرأة ماذا تصنع . قال فأشرف عليها فما رآها تصنع شيئا غير أنها لاترد طرفها عن السماء وهي مستقبلة القبلة تقول : خلقت سرية ، ثم غذيتها بنعمتك من حال إلى حال ، وكل أحوالك لها حسنة ، وكل بلائك عندها جميل ، وهي مع ذلك متعرضة لسخطك بالتوثب على معاصيك فلتة بعد فلتة ، أتراها تظن أنك لاترى سوء فعالها وأنت عليم خبير ، وأنت على كل شيء قدير .

وقال ذو النون المصرى : خرجت ليلة من وادى كنعان ، فلما علوت الوادى إذا سواد مقبل عليّ وهو يقول (وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللهِ مَالَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ [1]) ويبكى . فلما قرب منى السواد إذا هي امرأة عليها جبة صوف ، وبيدها ركوة ، فقالت لى : من أنت؟ غير فزعة منى . فقلت رجل غريب . فقالت ياهذا ، وهل يوجد مع الله غربة ؟ قال فبكيت لقولها . فقالت لى : ماالذى أبكاك ؟ فقلت قد وقع الدواء على داء قدقرح فأسرع فى نجاحه قالت . فإن كنت صادقا فلم بكيت ؟ قلت . يرحمك الله والصادق لايبكى ؟ قالت : لا . قلت : ولم ذاك ؟ قالت لأن البكاء راحة القلب . فسكتّ متعجبا من قولها

وقال أحمد بن عليّ : استأذنا على عفيرة فحجبتنا ، فلازمنا الباب ، فلما علمت ذلك قامت لتفتح الباب لنا ، فسمعتها وهي تقول : اللهم إنى أعوذ بك ممن جاء يشغلنى عن ذكرك . ثم فتحت الباب ودخلنا عليها ، فقلنا لها : ياأمة الله ادعي لنا ، فقالت ، جعل الله قراكم فى بيتي المغفرة ، ثم قالت لنا . مكث عطاء السلمى أربعين سنة ، فكان لاينظر إلى السماء ، فحانت منه نظرة ، فخر مغشيا عليه ، فأصابه فتق فى بطنه . فياليت عفيرة إذا رفعت رأسها لم تعص ، وياليتها إذا عصت لم تعد

وقال بعض الصالحين : خرجت يوما إلى السوق ومعى جارية حبشية ، فاحتبستها

(١) الزمر : ٤٣

فى موضع بناحية السوق، وذهبت فى بعض حوائجى ، وقلت : لاتبرحى حتى انصرف إليك قال فانصرفت فلم أجدها فى الموضع . فانصرفت إلى منزلى وأنا شديد الغضب عليها ، فلما رأتنى عرفت الغضب فى وجهى ، فقالت يا مولاي لاتعجل عليّ ، إنك اجلستنى فى موضع لم أر فيه ذا كراً لله تعالى ، فخفت أن يخسف بذلك الموضع . فعجبت لقولها وقلت لها : أنت حرة . فقالت ساء ماصنعت ، كنت أخدمك فيكون لى أجران ، وأما الآن فقد ذهب عنى أحدهما

وقال ابن العلاء السعدى : كانت لى ابنة عم يقال لها بريرة ، تعبّدت وكانت كثيرة القراءة فى المصحف ، فكلما أتت على آية فيها ذكر النار بكت . فلم تزل تبكى حتى ذهبت عيناها من البكاء . فقال بنو عمها . انطلقوا بنا إلى هذه المرأة حتى نعذلها فى كثرة البكاء . قال فدخلنا عليها ، فقلنا يا بريرة ، كيف أصبحت ؟ قالت أصبحنا أضيافا منيخين بأرض غربة ننتظر متى ندعى فنجيب . فقلنا لها كم هذا البكاء قد ذهبت عيناك منه ، فقالت إن يكن لعينيّ عند الله خير فما يضرهما ماذهب منهما فى الدنيا . وإن كان لهما عند الله شر فسيزيدهما بكاء أطول من هذا . ثم أعرضت . قال فقال القوم قوموا بنا ، فهي والله فى شيء غير مانحن فيه

وكانت معاذة العدوية إذا جاء النهار تقول : هذا يومى الذى أموت فيه . فما تُطعم حتى تمسى . فإذا جاء الليل تقول : هذه الليلة التى أموت فيها . فتصلى حتى تصبح

وقال أبو سليمان الدارانى : بت ليلة عند رابعة ، فقامت إلى محراب لها ، وقمت أنا إلى ناحية من البيت . فلم تزل قائمة إلى السحر . فلما كان السحر قلت : ماجزاء من قوّانا على قيام هذه الليلة ؟ قالت جزاؤه أن تصوم له غدا

وكانت شعوانة تقول فى دعائها : إلٰهى ماأشوقنى إلى لقائك ، وأعظم رجائى لجزائك ، وأنت الكريم الذى لايخيب لديك أمل الآملين ، ولايبطل عندك شوق المشتاقين . إلٰهى إن كان دنا أجلى ولم يقرّبنى منك عملى ، فقد جعلت الاعتراف بالذنب وسائل عللى ، فإن عفوت فمن أولى منك بذلك ؟ وإن عذبت فمن أعدل منك هنالك ! إلٰهى قدجرتُ على نفسى فى النظر لها وبقى لها حسن نظرك ، فالويل لها إن لم تسعدها . إلٰهى إنك لم تزل بى برا أيام حياتى ، فلاتقطع عنى برك بعد مماتى . ولقد رجوت ممن تولانى فى حياتى

بإحسانه ، أن يسعفني عند مماتي بغفرانه . إلهي كيف أيأس من حسن نظرك بعد مماتي ، ولم تولني إلا الجميل في حياتي . إلهي إن كانت ذنوبي قد أخافتني ، فإن محبتي لك قد أجارتني ، فتولّ من أمري ما أنت أهله ، وعد بفضلك على من غره جهله . إلهي لو أردت إهانتي لما هديتني ، ولو أردت فضيحتي لم تسترني ، فمتعني بما له هديتني ، وأدم لي ما به سترتني . إلهي ما أظنك تردني في حاجة أفنيت فيها عمري . إلهي لولا ما قارفت من الذنوب ما خفت عقابك ، ولولا ما عرفت من كرمك ما رجوت ثوابك

وقال الخواص : دخلنا على رحلة العابدة ، وكانت قد صامت حتى اسودت ، وبكت حتى عميت ، وصلت حتى أقعدت ، وكانت تصلي قاعدة . فسلمنا عليها ، ثم ذكّرناها شيئاً من العفو ليهون عليها الأمر ، قال فشهقت ثم قالت : علمي بنفسي قرّح فؤادي ، وكلم كبدي . والله لوددت أن الله لم يخلقني ولم أك شيئاً مذكوراً . ثم أقبلت على صلاتها

فعليك إن كنت من المرابطين المراقبين لنفسك أن تطالع أحوال الرجال والنساء من المجتهدين ، لينبعث نشاطك ، ويزيد حرصك . وإياك أن تنظر إلى أهل عصرك ، فإنك إن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله

وحكايات المجتهدين غير محصورة ، وفيما ذكرناه كفاية للمعتبر . وإن أردت مزيداً فعليك بالمواظبة على مطالعة كتاب حلية الأولياء ، فهو مشتمل على شرح أحوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، وبالوقوف عليه يتبين لك بعدك وبعد أهل عصرك من أهل الدين فإن حدثتك نفسك بالنظر إلى أهل زمانك ، وقالت إنما تيسر الخير في ذلك الزمان لكثرة الأعوان ، والآن فإن خالفت أهل زمانك رأوك مجنوناً ، وسخروا بك ، فوافقهم فيما هم فيه وعليه ، فلا يجري عليك إلا ما يجري عليهم ، والمصيبة إذا عمت طابت ، فإياك أن تتدلى بحبل غرورها ، وتنخدع بتزويرها ، وقل لها : أرأيت لو هجم سيل جارف يغرق أهل البلد ، وثبتوا على مواضعهم ، ولم يأخذوا حذرهم لجهلهم بحقيقة الحال ، وقدرت أنت على أن تفارقيهم وتركبي في سفينة تتخلصين بها من الغرق ، فهل يختلج في نفسك أن المصيبة إذا عمت طابت ؟ أم تتركين موافقتهم ، وتستجهلينهم في صنيعهم ، وتأخذين حذرك مما دهاك ! فإذا كنت تتركين موافقتهم خوفاً من الغرق ، وعذاب الغرق لا يتمادى إلا ساعة ، فكيف

لاتهربين من عذاب الأبد وأنت متعرضة له فى كل حال ! ومن أين تطيب المصيبة إذا عمت ولأهل النار شغل شاغل عن الالتفات إلى العموم والخصوص ! ولم يهلك الكفار إلا بموافقة أهل زمانهم حيث قالوا (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ [١])

فعليك إذا اشتغلت بمعاتبة نفسك ، وحملها على الاجتهاد فاستعصت ، أن لا تترك معاتبتها وتوبيخها ، وتقريعها ، وتعريفها سوء نظرها لنفسها ، فعساها تنزجر عن طغيانها

المرابطة السادسة

فى توبيخ النفس ومعاتبتها

اعلم أن أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك . وقد خلقت أمارة بالسوء ، ميالة إلى الشر ، فرارة من الخير . وأمرت بتزكيتها ، وتقويمها ، وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها ، ومنعها عن شهواتها ، وفطامها عن لذاتها . فإن أهملتها جمحت وشردت ، ولم تظفر بها بعد ذلك . وإن لازمتها بالتوبيخ ، والمعاتبة ، والعذل ، والملامة ، كانت نفسك هي النفس اللوامة التى أقسم الله بها ، ورجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل فى زمرة عباد الله راضية مرضية . فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها ، ولا تشتغلن بوعظ غيرك مالم تشتغل أولا بوعظ نفسك . أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام : يا ابن مريم ، عظ نفسك ، فإن اتعظت فعظ الناس ، وإلا فاستحى منى وقال تعالى (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ [٢])

سبيل توبيخ النفس

وسبيلك أن تقبل عليها فتقرر عندها جهلها وغباوتها ، وأنها أبدا تتعزز بفطنتها وهدايتها ، ويشتد أنفها واستنكافها إذا نسبت إلى الحمق ، فتقول لها يا نفس ، ما أعظم جهلك ، تدعين الحكمة والذكاء والفطنة وأنت أشد الناس غباوة وحمقا ، أما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار ، وأنك صائرة إلى إحداهما على القرب ، فمالك تفرحين ، وتضحكين ، وتشتغلين باللهو ، وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم ، وعساك اليوم تختطفين أو غداً ! فأراك ترين الموت بعيدا ويراه الله قريبا . أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب ، وأن البعيد ما ليس بآت ؟

---

[١] الزخرف : ٢٣ [٢] الداريات : ٥٥

أماتعلمين أن الموت يأتى بغتة من غير تقديم رسول ، ومن غير مواعدة ومواطأة ، وأنه لايأتى فى شىء دون شىء ، ولافى شتاء دون صيف ، ولافى صيف دون شتاء ، ولافى نهار دون ليل ، ولافى ليل دون نهار ، ولايأتى فى الصبا دون الشباب ، ولافى الشباب دون الصبا ، بل كل نفس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة ، فإن لم يكن الموت فجأة فيكون المرض فجأة ، ثم يفضى إلى الموت ، فمالك لاتستعدين للموت وهو أقرب إليك من كل قريب . أماتتدبرين قوله تعالى (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ[1]) ويحك يانفس ، إن كانت جراءتك على معصية الله لاعتقادك أن الله لا يراك ، فما أعظم كفرك . وإن كان مع علمك باطلاعه عليك فما أشد وقاحتك ، وأقل حياءك

ويحك يانفس ، لو واجهك عبد من عبيدك ، بل أخ من إخوانك بما تكرهينه كيف كان غضبك عليه ، ومقتك له ، فبأي جسارة تتعرضين لمقت الله ، وغضبه ، وشديد عقابه ! أفتظنين أنك تطيقين عذابه ؟ هيهات هيهات ، جربى نفسك ، إن ألهاك البطر عن أليم عذابه فاحتبسى ساعة فى الشمس ، أو فى بيت الحمام ، أو قربى أصبعك من النار ، ليتبين لك قدر طاقتك . أم تغترين بكرم الله وفضله ، واستغنائه عن طاعتك وعبادتك ، فما لك لاتعولين على كرم الله تعالى فى مهمات دنياك . فإذا قصدك عدو فلم تستنبطين الحيل فى دفعه ، ولا تكلينه إلى كرم الله تعالى ! وإذا أرهقتك حاجة إلى شهوة من شهوات الدنيا مما لاينقضى إلا بالدينار والدرهم ، فمالك تنزعين الروح فى طلبها وتحصيلها من وجوه الحيل ، فلم لاتعولين على كرم الله تعالى حتى يعثر بك على كنز ، أو يسخر عبدا من عبيده فيحمل إليك حاجتك من غير سعي منك ولا طلب ، أفتحسبين أن الله كريم فى الآخرة دون الدنيا ، وقد عرفت أن سنة الله لاتبديل لها ، وأن رب الآخرة والدنيا واحد وأن ليس للإنسان إلا ما سعى

ويحك يانفس ، ماأعجب نفاقك ودعاويك الباطلة ، فإنك تدعين الإيمان بلسانك وأثر النفاق ظاهر عليك ، ألم يقل لك سيدك ومولاك (وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا[2]) وقال فى أمر الآخرة (وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ[3]) فقد تكفل لك بأمر الدنيا خاصة

---

(١) الأنبياء : ١ ، ٢ ، ٣ (٢) هود : ٦ (٣) النجم : ٣٩

وصرفك عن السعى فيها ، فكذبته بأفعالك ، وأصبحت تتكالبين على طلبها تكالب المدهوش المستهتر ، ووكل أمر الآخرة إلى سعيك ، فأعرضت عنها إعراض المغرور المستحقر ماهذا من علامات الإيمان . لو كان الإيمان باللسان فلم كان المنافقون فى الدرك الأسفل من النار؟

ويحك يانفس ، كأنك لاتؤمنين بيوم الحساب ، وتظنين أنك إذا مت انفلت وتخلصت وهيهات ، أتحسبين أنك تتركين سدًى ، ألم تكونى نطفة من مني يمنى ، ثم كنت علقة فخلق فسوى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ؟ فإن كان هذا من إضمارك فما أكفرك وأجهلك ! أما تتفكرين أنه ممماذا خلقك ، من نطفة خلقك فقدرك ، ثم السبيل يسرك ، ثم أماتك فأقبرك ، أفتكذبينه فى قوله ثم إذا شاء أنشرك ؟ فإن لم تكونى مكذبة فمالك لاتأخذين حذرك ؟ ولو أن يهوديا أخبرك فى ألذ أطعمتك بأنه يضرك فى مرضك لصبرت عنه وتركته وجاهدت نفسك فيه ، أفكان قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات ، وقول الله تعالى فى كتبه المنزلة ، أقل عندك تأثيرا من قول يهودى يخبرك عن حدس ، وتخمين ، وظن ، مع نقصان عقل ، وقصور علم ؟ والعجب أنه لو أخبرك طفل بأن فى ثوبك عقربا لرميت ثوبك فى الحال من غير مطالبة له بدليل وبرهان . أفكان قول الأنبياء ، والعلماء ، والحكماء ، وكافة الأولياء أقل عندك من قول صبي من جملة الأغبياء ؟ أم صار حر جهنم ، وأغلالها ، وأنكالها ، وزقومها ومقامعها ، وصديدها ، وسمومها ، وأفاعيها ، وعقاربها ، أحقر عندك من عقرب لاتحسين بألمها إلا يوما أو أقل منه ؟ ماهذه أفعال العقلاء . بل لو انكشف للبهائم حالك لضحكوا منك ، وسخروا من عقلك .

مؤاخذة النفس على التسويف

فإن كنت يانفس قد عرفت جميع ذلك ، وآمنت به ، فمالك تسوفين العمل ، والموت لك بالمرصاد ، ولعله يختطفك من غير مهلة فبماذا أمنت استعجال الأجل . وهبك أنت وعدت بالإمهال مائة سنة : أفتظنين أن من يطعم الدابة فى حضيض العقبة يفلح ويقدر على قطع العقبة بها ؟ إن ظننت ذلك فما أعظم جهلك ! أرأيت لو سافر رجل ليتفقه فى الغربة ، فأقام فيها سنين متعطلا ، بطالا ، يعدّ نفسه بالتفقه فى السنة الأخيرة عند رجوعه إلى وطنه ، هل كنت تضحكين من عقله وظنه أن تفقيه النفس مما يطمع فيه بمدة قريبة ، أو حسبانه أن مناصب الفقهاء تنال من غير تفقه اعتمادا على كرم الله سبحانه وتعالى ثم هب أن الجهد فى آخر العمر نافع ، وأنه موصل إلى الدرجات العلا ، فلعل اليوم آخر عمرك

فلم لاتشتغلين فيه بذلك ، فإن أوحي إليك بالإمهال ، فما المانع من المبادرة ، وماالباعث لك على التسويف ! هل له سبب إلا عجزك عن مخالفة شهواتك لما فيها من التعب والمشقة أفتنتظرين يوما يأتيك لاتعسر فيه مخالفة الشهوات ،هذايوم لم يخلقه اللهقط ، ولا يخلقه ، فلاتكون الجنةقط إلامحفوفة بالمكاره ، ولا تكون المكاره قط خفيفة على النفوس . وهذا محل وجوده . أما تتأملين مذكم تعدين نفسك وتقولين غدا غدا ، فقد جاء الغد وصار يوما فكيف وجدته ؛ أما علمت أن الغد الذى جاء وصار يوما كان له حكم الأمس ، لا بل تعجزين عنه اليوم ، فأنت غدا عنه أعجز وأعجز ، لأن الشهوة كالشجرة الراسخة التى تعبد العبد بقلعها ، فإذا عجز العبد عن قلعها للضعف وأخرها ، كان كمن عجز عن قلع شجرة وهو شاب قوي ، فأخرها إلى سنة أخرى ، مع العلم بأن طول المدة يزيد الشجرة قوة ورسوخا ويزيد القالع ضعفا ووهنا ! فما لايقدر عليه فى الشباب لايقدر عليه قط فى المشيب . بل من العناء رياضة الهرم ، ومن التعذيب تهذيب الذيب . والقضيب الرطب يقبل الانحناء ، فإذا جف وطال عليه الزمان لم يقبل ذلك

فإذا كنت أيتها النفس لاتفهمين هذهالأمور الجلية ،وتركنين إلى التسويف فما بالك تدعين الحكمة ، وأية حماقة تزيد على هذه الحماقة ؟ ولعلك تقولين مايمنعنى عن الاستقامة إلا حرصى على لذةالشهوات ، وقلة صبرى على الآلام والمشقات ؛ فما أشد غباوتك ، وأقبح اعتذارك ! إن كنت صادقة فى ذلك فاطلبي التنعم بالشهوات الصافية عن الكدورات الدائمة أبد الآباد ، ولامطمع فى ذلك إلافى الجنة .فإن كنت ناظرة لشهوتك فالنظر لها فى مخالفتها ، فرب أكلة تمنع أكلات . وماقولك فى عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء البارد ثلاثة أيام ليصح ويهنأ بشربه طول عمره ، وأخبره أنه إن شرب ذلك مرض مرضا مزمنا وامتنع عليه شربه طول العمر ، فما مقتضى العقل فى قضاء حق الشهوة ؟ أيصبر ثلاثة أيام ليتنعم طول العمر ؟ أم يقضى شهوته فى الحال خوفا من ألم المخالفة ثلاثة أيام ، حتى يلزمه ألم المخالفة ثلثمائة يوم وثلاثة آلاف يوم ؟ وجميع عمرك بالإضافة إلى الأبد الذى هو مدة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار ، أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع العمر وإن طالت مدته وليت شعرى ألم الصبر عن الشهوات أعظم شدة وأطول مدة ، أو ألم النار فى دركات جهنم

فمن لايطيق الصبر على ألم المجاهدة كيف يطيق ألم عذاب الله! ماأراك تتوانين عن النظر لنفسك إلا لكفر خفيّ، أو لحمق جليّ. أما الكفر الخفيّ فهو ضعف إيمانك بيوم الحساب، وقلة معرفتك بعظم قدر الثواب والعقاب. وأما الحمق الجلي فاعتمادك على كرم الله تعالى وعفوه، من غير التفات إلى مكره، واستدراجه، واستغنائه عن عبادتك، مع أنك لاتعتمدين على كرمه فى لقمة من الخبز، أو حبة من المال، أو كلمة واحدة تسمعينها من الخلق، بل تتوصلين إلى غرضك فى ذلك بجميع الحيل. وبهذا الجهل تستحقين لقب الحماقة من رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال «اُلْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ اُلْمَوْتِ وَالْأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ الْأَمَانِيَّ»

معاتبة النفس على الركون الى الدنيا

ويحك يانفس، لاينبغى أن تغرك الحياة الدنيا، ولا يغرنك بالله الغرور، فانظرى لنفسك فما أمرك بمهم لغيرك، ولا تضيعى أوقاتك فالأنفاس معدودة، فإذا مضى منك نفس فقد ذهب بعضك، فاغتنمى الصحة قبل السقم، والفراغ قبل الشغل، والغنى قبل الفقر، والشباب قبل الهرم، والحياة قبل الموت، واستعدى للآخرة على قدر بقائك فيها يانفس أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته، فتجمعين له القوت، والكسوة والحطب وجميع الأسباب، ولا تتكلين فى ذلك على فضل الله وكرمه، حتى يدفع عنك البرد من غير جبة، ولبد، وحطب وغير ذلك، فإنه قادر على ذلك، أفتظنين أيتها النفس أن زمهرير جهنم أخف بردا، وأقصر مدة من زمهرير الشتاء؟ أم تظنين أن ذلك دون هذا كلاّ أن يكون هذا كذلك، أو أن يكون بينهما مناسبة فى الشدة والبرودة. أفتظنين أن العبد ينجو منها بغير سعي؟ هيهات، كما لايدفع برد الشتاء إلا بالجبة والنار وسائر الأسباب فلا يندفع حر النار وبردها إلا بحصن التوحيد وخندق الطاعات. وإنما كرم الله تعالى فى أن عرفك طريق التحصن، ويسر لك أسبابه، لافى أن يدفع عنك العذاب دون حصنه كما أن كرم الله تعالى فى دفع برد الشتاء أن خلق النار، وهداك لطريق استخراجها من بين حديدة وحجر حتى تدفعى بها برد الشتاء عن نفسك، وكما أن شراء الحطب والجبة مما يستغنى عنه خالقك ومولاك، وإنما تشترينه لنفسك إذ خلقه سببا لاستراحتك، فطاعاتك

ومجاهداتك أيضا هو مستغن عنها ، وإنما هي طريقك إلى نجاتك . فمن أحسن فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، والله غني عن العالمين

ويحك يانفس انزعى عن جهلك ، وقيسى آخرتك بدنياك ، فما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ، وكما بدأنا أول خلق نعيده ، وكما بدأكم تعودون ، وسنة الله تعالى لاتجدين لها تبديلا ولا تحويلا . ويحك يانفس ماأراك إلا ألفت الدنيا وأنست بها ، فعسر عليك مفارقتها وأنت مقبلة على مقاربتها ، وتؤكدين فى نفسك مودتها ، فاحسبي أنك غافلة عن عقاب الله وثوابه ، وعن أهوال القيامة وأحوالها ، فما أنت مؤمنة بالموت المفرق بينك وبين محابك . أفترين أن من يدخل دار ملك ليخرج من الجانب الآخر ، فمدّ بصره إلى وجه مليح يعلم أنه يستغرق ذلك قلبه ، ثم يضطر لامحالة إلى مفارقته ، أهو معدود من العقلاء أم من الحمقى ؛ أماتعلمين أن الدنيا دار الملك الملوك ، ومالك فيها إلا مجاز ، وكل مافيها لا يصحب المجتازين بها بعد الموت ؛ ولذلك قال سيد البشر صلى الله عليه وسلم (١) « إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي أَحْبِبْ مَنْ أَحْبَبْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ وَاعْمَلْ مَاشِئْتَ فَإِنَّكَ مَجْزِيٌّ بِهِ وَعِشْ مَاشِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ »

ويحك يانفس أتعلمين أن كل من يلتفت إلى ملاذ الدنيا . ويأنس بها مع أن الموت من ورائه ، فإنما يستكثر من الحسرة عند المفارقة ، وإنما يتزوّد من السم المهلك وهو لايدرى أوما تنظرين إلى الذين مضوا كيف بنوا وعلوا ، ثم ذهبوا وخلوا ؛ وكيف أورث الله أرضهم وديارهم أعداءهم ؟ أما ترينهم كيف يجمعون ما لا يأكلون ، ويبنون ما لا يسكنون ويؤملون ما لايدركون ؟ يبنى كل واحد قصرا مرفوعا إلى جهة السماء ، ومقره قبر محفور تحت الأرض . فهل فى الدنيا حمق وانتكاس أعظم من هذا ؟ يعمر الواحد دنياه وهو مرتحل عنها يقينا ، ويخرب آخرته وهو صائر إليها قطعا ؟ أما تستحيين يانفس من مساعدة هؤلاء الحمقى على حماقتهم ؟

واحسبي أنك لست ذات بصيرة تهتدى إلى هذه الأمور ، وإنما تميلين بالطبع إلى التشبه والاقتداء ، فقيسى عقل الأنبياء ، والعلماء ، والحكماء ، بعقل هؤلاء المكبين على الدنيا

(١) حديث ان روح القدس نفث فى روعى أحبب من احببت فانك مفارقه ـ الحديث : تقدم فى العلم وغيره

واقتدى من الفريقين بمن هو أعقل عندك إن كنت تعتقدين فى نفسك العقل والذكاء

يانفس ماأعجب أمرك ، وأشد جهلك ، وأظهر طغيانك ! عجبا لك ، كيف تعمين عن هذه الأمور الواضحة الجلية ! ولعلك يانفس أسكرك حب الجاه ، وأدهشك عن فهمها ، أو ماتتفكرين أن الجاه لامعنى له إلا ميل القلوب من بعض الناس إليك ، فاحسبى أن كل من على وجه الأرض سجد لك وأطاعك ، أفما تعرفين أنه بعد خمسين سنة لا تبقين أنت ولاأحد ممن على وجه الأرض ممن عبدك وسجد لك ، وسيأتى زمان لايبقى ذكرك ولا ذكر من ذكرك ، كما أتى على الملوك الذين كانوا من قبلك ؟ ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ (١) فكيف تبيعين يانفس مايبقى أبد الآباد بما لايبقى أكثر من خمسين سنة إن بقى ؟ هذا إن كنت ملكا من ملوك الأرض ، سلم لك الشرق والغرب ، حتى أذعنت لك الرقاب ، وانتظمت لك الأسباب ، كيف ويأبى إدبارك وشقاوتك أن يسلم لك أمر محلتك بل أمر دارك فضلا عن محلتك ؟ فإن كنت يانفس لاتتركين الدنيا رغبة فى الآخرة لجهلك وعمى بصيرتك ، فمالك لاتتركينها ترفعا عن خسة شركائها ، وتنزها عن كثرة عنائها ، وتوقيا من سرعة فنائها ، أم مالك لاتزهدين فى قليلها بعد أن زهد فيك كثيرها ؟ ومالك تفرحين بدنيا إن ساعدتك فلا تخلو بلدك من جماعة من اليهود والمجوس يسبقونك بها ، ويزيدون عليك فى نعيمها وزينتها ؟ فأف لدنيا يسبقك بها هؤلاء الأخساء . فما أجهلك ، وأخس همتك ، وأسقط رأيك إذ رغبت عن أن تكونى فى زمرة المقربين من النبيين والصديقين ، فى جوار رب العالمين أبد الآبدين ، لتكونى فى صف النعال من جملة الحمقى الجاهلين أياما قلائل . فياحسرة عليك أن خسرت الدنيا والدين

فبادرى ويحك يانفس فقد أشرفت على الهلاك ، واقترب الموت ، وورد النذير ، فمن ذا يصلى عنك بعد الموت ؟ ومن ذا يصوم عنك بعد الموت ؟ ومن ذا يترضى عنك ربك بعد الموت ؟

ويحك يانفس ، مالك إلا أيام معدودة هي بضاعتك ، إن اتجرت فيها وقد ضيعت أكثرها ، فلو بكيت بقية عمرك على ماضيعت منها لكنت مقصرة فى حق نفسك ، فكيف إذا ضيعت البقية وأصررت على عادتك ؟ أما تعلمين يانفس أن الموت موعدك ، والقبر بيتك

(١) مريم : ٩٣

والتراب فراشك ،والدود أنيسك ، والفزع الأكبر بين يديك ؟أما علمت يانفس أن عسكر الموتى عندك على باب البلد ينتظرونك ، وقد آلوا على أنفسهم كلهم بالأيمان المغلظة أنهم لايبرحون من مكانهم مالم يأخذوك معهم ؟ أما تعلمين يانفس أنهم يتمنون الرجعة إلى الدنيا يوما ليشتغلوا بتدارك مافرط منهم ، وأنت فى أمنيتهم ، ويوم من عمرك لو بيع منهم بالدنيا بحذافيرها لاشتروه لو قدروا عليه ، وأنت تضيعين أيامك فى الغفلة والبطالة ؟

ويحك يانفس ، أماتستحيين ؟ تزينين ظاهرك للخلق ،وتبارزين الله فى السر بالعظائم أفتستحيين من الخلق ولا تستحيين من الخالق ؟ ويحك أهو أهون الناظرين عليك ؟ أتأمرين الناس بالخير وأنت متلطخة بالرذائل ؟ تدعين إلى الله وأنت عنه فارة ، وتذكرين بالله وأنت له ناسية ؟ أما تعلمين يانفس أن المذنب أنتن من العذرة ؟ وأن العذرة لاتطهر غيرها ؟ فلم تطمعين فى تطهير غيرك وأنت غير طيبة فى نفسك ؟

ويحك يانفس،لو عرفت نفسك حق المعرفة لظننت أن الناس مايصيبهم بلاء إلا بشؤمك

ويحك يانفس ، قد جعلت نفسك حمارا لإبليس يقودك إلى حيث يريد ،ويسخر بك ، ومع هذا فتعجبين بعملك وفيه من الآفات مالو نجوت منه رأسا برأس لكان الربح فى يديك . وكيف تعجبين بعملك مع كثرة خطاياك وزللك ؟ وقد لعن الله إبليس بخطيئة واحدة بعدأن عبده مائتى ألف سنة ؟ وأخرج آدم من الجنة بخطيئة واحدة مع كونه نبيه وصفيه

ويحك يانفس ، ماأغدرك ! ويحك يانفس ، ماأوقحك ، ويحك يانفس ، ماأجهلك وما أجرأك على المعاصى ! ويحك كم تعقدين فتنقضين ! ويحك كم تعهدين فتغدرين

ويحك يانفس ، أتشتغلين مع هذه الخطايا بعمارة دنياك كأنك غير مرتحلة عنها ؟ أما تنظرين إلى أهل القبور كيف كانوا ؟ جمعوا كثيرا ، وبنوا مشيدا، وأملوا بعيدا ، فأصبح جمعهم بورا، وبنيانهم قبورا ، وأملهم غرورا

ويحك يانفس أما لك بهم عبرة ؟ أما لك إليهم نظرة ؟ أتظنين أنهم دعوا إلى الآخرة وأنت من المخلدين ؟ هيهات هيهات ، ساء ماتتوهمين . ماأنت إلا فى هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك . فابنى على وجه الأرض قصرك ، فإن بطنها عن قليل يكون قبرك . أما تخافين إذا بلغت النفس منك التراقى أن تبدو رسل ربك منحدرة إليك بسواد الألوان

وكالح الوجوه ، وبشرى بالعذاب ؟ فهل ينفعك حينئذ الندم أو يقبل منك الحزن أو يرحم منك البـــكاء ؟

والعجب كل العجب منك يانفس أنك مع هذا تدّعين البصيرة والفطنة. ومن فطنتك أنك تفرحين كل يوم بزيادة مالك ، ولا تحزنين بنقصان عمرك، وما نفع مال يزيد وعمر ينقص

ويحك يانفس ، تُعرضين عن الآخرة وهي مقبلة عليك ، وتقبلين على الدنيا وهي معرضة عنك. فكم من مستقبل يوما لا يستكمله ، وكم من مؤمل لغد لا يبلغه . فأنت تشاهدين ذلك فى إخوانك ، وأقاربك ، وجيرانك ، فترين تحسرهم عند الموت ثم لا ترجعين عن جهالتك . فاحذرى أيتها النفس المسكينة يوما آلى الله فيه على نفسه أن لا يترك عبدا أمره فى الدنيا ونهاه حتى يسأله عن عمله ، دقيقه وجليله ، سره وعلانيته . فانظرى يانفس بأي بدن تقفين بين يدي الله ، وبأي لسان تجيبين ، وأعدّى للسؤال جوابا ، وللجواب صوابا ، واعملى بقية عمرك فى أيام قصار لأيام طوال ، وفى دار زوال لدار مقامة ، وفى دار حزن ونصب لدار نعيم وخلود . اعملى قبل أن لا تعملى ، اخرجى من الدنيا اختيارا خروج الأحرار قبل أن تخرجى منها على الاضطرار ، ولا تفرحى بما يساعدك من زهرات الدنيا ، فرب مسرور مغبون ، ورب مغبون لا يشعر . فويل لمن له الويل ثم لا يشعر يضحك ويفرح ، ويلهو ويمرح ، ويأكل ويشرب ، وقد حق له فى كتاب الله أنه من وقود النار . فليكن نظرك يانفس إلى الدنيا اعتبارا ، وسعيك لها اضطرارا ، ورفضك لها اختيارا ، وطلبك للآخرة ابتدارا . ولا تكونى ممن يعجز عن شكر ما أوتى ، ويبتغى الزيادة فيما بقى ، وينهى الناس ولا ينتهى ، واعلمى يانفس أنه ليس للدين عوض ، ولا للإيمان بدل ، ولا للجسد خلف . ومن كانت مطيته الليل والنهار فإنه يسار به وإن لم يسر

فاتّعظى يانفس بهذه الموعظة ، واقبلى هذه النصيحة ، فإن من أعرض عن الموعظة فقد رضي بالنار ، وما أراك بها راضية ، ولا لهذه الموعظة واعية . فإن كانت القساوة تمنعك عن قبول الموعظة ، فاستعينى عليها بدوام التهجد والقيام ، فإن لم تزل فبالمواظبة على الصيام ، فإن لم تزل فبقلة المخالطة والكلام ، فإن لم تزل فبصلة الأرحام واللطف بالأيتام ، فإن لم تزل فاعلمى أن الله قد طبع على قلبك وأقفل عليه ، وأنه قد تراكمت ظلمة الذنوب على ظاهره وباطنه ،

فوطّنى نفسك على النار، فقد خلق الله الجنة وخلق لها أهلا، وخلق النار وخلق لها أهلا، فكل ميسر لما خلق له. فإن لم يبق فيك مجال للوعظ فاقنطى من نفسك، والقنوط كبيرة من الكبائر نعوذ بالله من ذلك، فلاسبيل لك إلى القنوط، ولاسبيل لك إلى الرجاء مع انسداد طرق الخير عليك، فإن ذلك اغترار وليس برجاء. فانظرى الآن هل يأخذك حزن على هذه المصيبة التى ابتليت بها، وهل تسمح عينك بدمعة رحمة منك على نفسك، فإن سمحت فمستقى الدمع من بحر الرحمة، فقد بقى فيك موضع الرجاء، فواظبى على النياحة والبكاء، واستغيثى بأرحم الراحمين، واشتكى إلى أكرم الأكرمين، وأدمنى الاستغاثة، ولاتملّى طول الشكاية لعله أن يرحم ضعفك ويغيثك، فإن مصيبتك قدعظمت، وبليتك قدتفاقمت، وتماديك قد طال، وقدانقطعت منك الحيل، وراحت عنك العلل، فلا مذهب ولا مطلب، ولا مستغاث ولا مهرب، ولا ملجأ ولا منجا إلا إلى مولاك، فافزعى إليه بالتضرع، واخشعى فى تضرعك على قدر عظم جهلك وكثرة ذنوبك، لأنه يرحم المتضرع الذليل، ويغيث الطالب المتلهف، ويجيب دعوة المضطر

طريق السلف فى مناجاة مولاهم

وقدأصبحت إليه اليوم مضطرة، وإلى رحمته محتاجة، وقد ضاقت بك السبل، وانسدت عليك الطرق، وانقطعت منك الحيل، ولم تنجع فيك العظات؛ ولم يكسرك التوبيخ، فالمطلوب منه كريم، والمسؤل جواد، والمستغاث به بر رءوف، والرحمة واسعة، والكرم فائض، والعفو شامل. وقولى ياأرحم الراحمين، يارحمن، يارحيم، ياحليم، ياعظيم، يا كريم، أنا المذنب المصر، أنا الجرىء الذى لاأقلع، أنا المتمادى الذى لاأستحى، هذا مقام المتضرع المسكين، والبائس الفقير، والضعيف الحقير، والهالك الغريق فعجل إغاثتى وفرَجى، وأرنى آثار رحمتك، وأذقنى بَرْد عفوك ومغفرتك، وارزقنى قوة عصمتك ياأرحم الراحمين، اقتداء بأبيك آدم عليه السلام؛ فقد قال وهب بن منبه: لما أهبط الله آدم من الجنة إلى الأرض مكث لاترقأ له دمعة، فاطلع الله عز وجل عليه فى اليوم السابع وهو محزون، كئيب، كظيم، منكس رأسه، فأوحى الله تعالى إليه يا آدم، ماهذا الجهد الذى أرى بك؟ قال يارب عظمت مصيبتى؛ وأحاطت بى خطيئتى، وأخرجت من ملكوت ربى، فصرت فى دار الهوان بعد الكرامة، وفى دار الشقاء بعد السعادة، وفى دار النصب

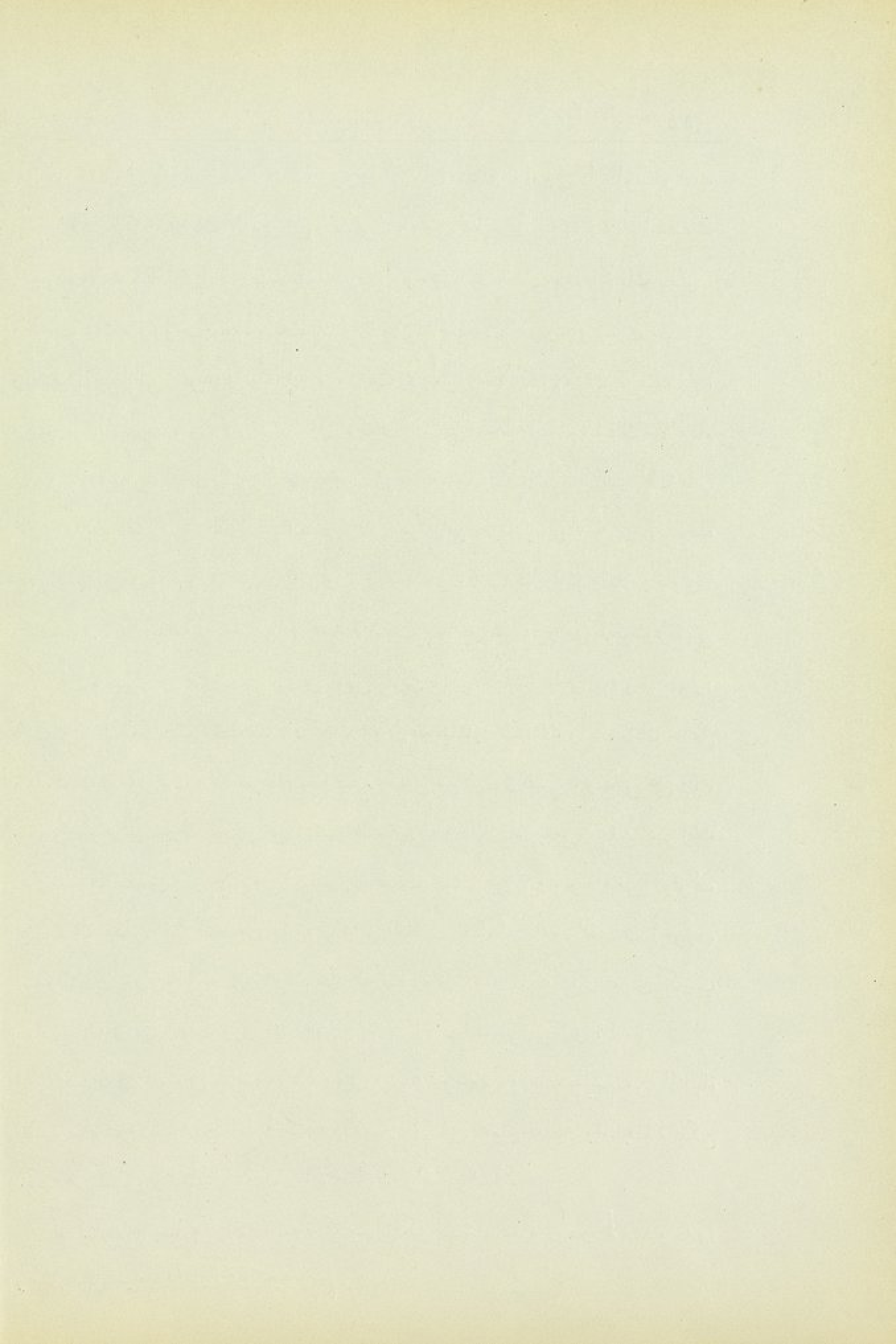
بعد الراحة ، وفى دار البلاء بعد العافية ، وفى دار الزوال بعد القرار ، وفى دار الموت والفناء بعد الخلود والبقاء ، فكيف لا أبكى على خطيئتى ، فأوحى الله تعالى إليه يا آدم ، ألم أصطفك لنفسى ، وأحللتك دارى ، وخصصتك بكرامتى ، وحذرتك سخطى ، ألم أخلقك بيدى ، ونفخت فيك من روحى ، وأسجدت لك ملائكتى ، فعصيت أمرى ، ونسيت عهدى وتعرضت لسخطى ؟ فوعزتى وجلالى لو ملأت الأرض رجالا كلهم مثلك ، يعبدوننى ، ويسبحوننى ، ثم عصونى ، لأنزلتهم منازل العاصين . فبكى آدم عليه السلام عند ذلك ثلثمائة عام

وكان عبيد الله البجلى كثير البكاء ، يقول فى بكائه طول ليله : إلٰهى أنا الذى كلما طال عمرى زادت ذنوبى : أنا الذى كلما هممت بترك خطيئة عرضت لى شهوة أخرى. واعبيداه خطيئة لم تبل وصاحبها فى طلب أخرى . واعبيداه إن كانت النار لك مقيلا ومأوى . واعبيداه إن كانت المقامع لرأسك تهيأ : واعبيداه قضيت حوائج الطالبين ولعل حاجتك لا تقضى

وقال منصور بن عمار : سمعت فى بعض الليالى بالكوفة عابدا يناجى ربه وهو يقول: يارب وعزتك ماأردت بمعصيتك مخالفتك ، ولا عصيتك إذ عصيتك وأنا بمكانك جاهل ولا لعقوبتك متعرض، ولا لنظرك مستخف ، ولكن سولت لى نفسى ، وأعاننى على ذلك شقوتى ، وغرنى سترك المرخى علي ، فعصيتك بجهلى ، وخالفتك بفعلى ، فمِنْ عذابك الآن مَنْ يستنقذنى ؟ أو بحبل مَنْ اعتصم إن قطعت حبلك عنى ؟ واسوأتاه من الوقوف بين يديك غدا إذا قيل للمخفين جوزوا ، وقيل للمثقلين حطوا . أمع المخفين أجوز ، أم مع المثقلين أحط؟ وَيْلى ، كلما كبرت سنى كثرت ذنوبى . وَيْلى ، كلما طال عمرى كثرت معاصيّ ، فإلى متى أتوب وإلى متى أعود ؟ أما آن لى أن أستحيي من ربى ؟

فهذه طرق القوم فى مناجاة مولاهم ، وفى معاتبة نفوسهم . وإنما مطلبهم من المناجاة الاسترضاء ، ومقصدهم من المعاتبة التنبيه والاسترعاء . فمن أهمل المعاتبة والمناجاة لم يكن لنفسه مراعيا ، ويوشك أن لا يكون الله تعالى عنه راضيا والسلام

تم كتاب المحاسبة والمراقبة ، يتلوه كتاب التفكر إن شاء الله تعالى ، والحمد لله وحده ، وصلاته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم



كتاب التفكر

كتاب التفكر

وهو الكتاب التاسع من ربع المنجيات

من كتب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى لم يقدر لانتهاء عزته نحوا ولا قطرا ، ولم يجعل لمراقى أقدام الأوهام ، ومرمى سهام الأفهام إلى حمى عظمته مجرى ، بل ترك قلوب الطالبين فى بيداء كبريائه والهة حيرى ، كلما اهتزت لنيل مطلوبها ردتها سُبُحات الجلال قسرا ، وإذا همت بالانصراف آيسة نوديت من سُرادقات الجمال صبرا صبرا ، ثم قيل لها أجيلى فى ذل العبودية منك فكرا لأنك لو تفكرت في جلال الربوبية لم تقدّرى له قدرا . وإن طلبت وراء الفكر فى صفاتك أمرا ، فانظرى فى نعم الله تعالى وأياديه كيف توالت عليك تترى ، وجدّدى لكل نعمة منها ذكرا وشكرا ، وتأمّلى فى بحار المقادير كيف فاضت على العالمين خيرا وشرا ، ونفعا وضرا ، وعسرا ويسرا ، وفوزا وخسرا ، وجبرا وكسرا ، وطيّا ونشرا ، وإيمانا وكفرا وعرفانا ونكرا . فإن جاوزت النظر فى الأفعال إلى النظر فى الذات فقد حاولت أمرا إمْرا وخاطرت بنفسك مجاوزة حد طاقة البشر ظلما وجورا ، فقد انبهرت العقول دون مبادى إشراقه ، وانتكصت على أعقابها اضطرارا وقهرا . والصلاة على محمد سيد ولد آدم وإن كان لم يعدّ سيادته فخرا ، صلاة تبقى لنا فى عرصات القيامة عدّة وذخرا ، وعلى آله وأصحابه الذين أصبح كل واحد منهم فى سماء الدين بدرا . ولطوائف المسلمين صدرا ، وسلم تسليما كثيرا

أما بعد : فقد وردت السنة بأن [1] تفكر ساعة خير من عبادة سنة ، وكثر الحث

﴿ كتاب التفكر ﴾

(١) حديث تفكر ساعة خير من عبادة سنة : ابن حبان فى كتاب العظمة من حديث أبى هريرة بلفظ ستين سنة باسناد ضعيف ومن طريقه ابن الجوزى فى الموضوعات ورواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أنس بلفظ ثمانين سنة واسناده ضعيف جدا ورواه أبو الشيخ من قول ابن عباس بلفظ خير من قيام ليلة

فى كتاب الله تعالى على التدبّر والاعتبار ، والنظر والافتكار . ولا يخفى أن الفكر هو مفتاح الأنوار ، ومبدأ الاستبصار ، وهو شبكة العلوم ، ومصيدة المعارف والفهوم . وأكثر الناس قد عرفوا فضله ورتبته ، لكن جهلوا حقيقته وثمرته ، ومصدره ومورده ، ومجراه ، ومسرحه وطريقه وكيفيته . ولم يعلم أنه كيف يتفكر ، وفيما ذا يتفكر ، ولماذا يتفكر ، وما الذى يطلب به ، أهو مراد لعينه أم لثمرة تستفاد منه ، فإن كان لثمرة فما تلك الثمرة ، أهي من العلوم ، أو من الأحوال ، أو منهما جميعا . وكشف جميع ذلك مهم . ونحن نذكر أولا فضيلة التفكر ، ثم حقيقة التفكر وثمرته ، ثم مجارى الفكر ومسارحه إن شاء الله تعالى

فضيلة التفكر

قد أمر الله تعالى بالتفكر والتدبر فى كتابه العزيز فى مواضع لاتحصى ، وأثنى على المتفكرين فقال تعالى (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا [(١)]) وقد قال [(١)] ابن عباس رضي الله عنهما : إن قوما تفكروا فى الله عز وجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم « تَفَكَّرُوا فِي خَلْقِ اللهِ وَلَا تَتَفَكَّرُوا فِي اللهِ فَإِنَّكُمْ لَنْ تَقْدُرُوا قَدْرَهُ »

وعن النبي صلى الله عليه وسلم [(٢)] ، أنه خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال « مَا لَكُمْ لَا تَتَكَلَّمُونَ » فقالوا : نتفكر فى خلق الله عز وجل . قال « فَكَذَلِكَ فَافْعَلُوا تَفَكَّرُوا فِي خَلْقِهِ وَلَا تَتَفَكَّرُوا فِيهِ فَإِنَّ بِهَذَا الْمَغْرِبِ أَرْضًا بَيْضَاءَ نُورُهَا بَيَاضُهَا وَبَيَاضُهَا نُورُهَا مَسِيرَةَ الشَّمْسِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا بِهَا خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَعْصُوا اللهَ طَرْفَةَ عَيْنٍ » قالوا يارسول الله ، فأين الشيطان منهم ؟ قال « مَا يَدْرُونَ خُلِقَ الشَّيْطَانُ

---

(١) حديث ابن عباس ان قوما تفكروا فى الله عزوجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى الله فانكم لن تقدروا قدره : أبو نعيم فى الحلية بالمرفوع منه باسناد ضعيف ورواه الاصبهانى فى الترغيب والترهيب من وجه آخر أصح منه ورواه الطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عمر وقال هذا اسناد فيه نظر قلت فيه الوازع بن نافع متروك

(٢) حديث خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال مالكم لاتتكلمون فقالوا نتفكر فى خلق الله الحديث : رويناه فى جزء من حديث عبد الله بن سلام

---

(١) آل عمران ١٩١

أَمْ لاَ » قالوا من ولد آدم ؟ قال « لاَ يَدْرُونَ خُلِقَ آدَمُ أَمْ لاَ »

وعن عطاء[1] قال : انطلقت يوما أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة رضي الله عنها ،فكلمتنا وبيننا وبينها حجاب ، فقالت : ياعبيد ، مايمنعك من زيارتنا ؟ قال قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا » قال ابن عمير : فأخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال فبكت وقالت : كل أمره كان عجبا . أتانى فى ليلتى حتى مس جلده جلدى ثم قال « ذَرِينِى أَتَعَبَّدُ لِرَبِّى عَزَّ وَجَلَّ » فقام إلى القربة فتوضأ منها ، ثم قام يصلى ، فبكى حتى بلّ لحيته ، ثم سجد حتي بلّ الأرض ، ثم اضطجع على جنبه حتى أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح . فقال : يارسول الله مايبكيك وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وماتأخر؟ فقال « وَيْحَكَ يَا بِلاَلُ وَمَا يَمْنَعُنِى أَنْ أَبْكِيَ وَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى عَلَيَّ فى هَذِهِ اللَّيْلَةِ » (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ[1]) ثم قال « وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا » فقيل للأوزاعى : ماغاية التفكر فيهن ؟ قال يقرؤهن ويعقلهن . وعن محمد بن واسع ، أن رجلا من أهل البصرة ركب إلى أم ذر بعد موت أبى ذر ؛ فسألها عن عبادة أبى ذر ، فقالت : كان نهاره أجمع فى ناحية البيت يتفكر

طريقة السلف فى التفكر

وعن الحسن قال : تفكر ساعة خير من قيام ليلة

وعن الفضيل قال : الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك

وقيل لإبراهيم : إنك تطيل الفكرة ، فقال : الفكرة مخ العقل

وكان سفيان بن عيينة كثيرا مايتمثل بقول القائل :

إذا المرء كانت له فكرة فى كل شيء له عبرة

وعن طاوس قال : قال الحواريون لعيسى بن مريم : ياروح الله ، هل على الأرض اليوم مثلك ؟ فقال نعم ، من كان منطقه ذكرا ، وصمته فكرا ، ونظره عبرة فإنه مثلى

---

(١) حديث عطاء انطلقت أنا وعبيد بن عمير الى عائشة ـ الحديث : قال ابن عمير فاخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ الحديث : فى نزول إن فى خلق السموات والارض وقال ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها تقدم فى الصبر والشكر وأنه فى صحيح ابن حبان من رواية عبد الملك بن أبى سليمان عن عطاء

---

(١) آل عمران : ١٩١

وقال الحسن : من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو ، ومن لم يكن سكوته تفكرا فهو سهو ، ومن لم يكن نظره اعتبارا فهو لهو

وفى قوله تعالى (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ[1]) قال أمنع قلوبهم التفكر فى أمرى

وعن [1] أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَعْطُوا أَعْيُنَكُمْ حَظَّهَا مِنَ الْعِبَادَةِ » فقالوا يارسول الله وما حظها من العبادة؟ قال « النَّظَرُ فِي الْمُصْحَفِ وَالتَّفَكُّرُ فِيهِ والاعْتِبَارُ عِنْدَ عَجَائِبِهِ »

وعن امرأة كانت تسكن البادية قريبا من مكة أنها قالت : لو تطالعت قلوب المتقين بفكرها إلى ماقد ادّخر لها فى حجب الغيب من خير الآخرة ، لم يصف لهم فى الدنيا عيش ، ولم تقرّ لهم فى الدنيا عين . وكان لقمان يطيل الجلوس وحده ، فكان يمرّ به مولاه فيقول : يالقمان ، إنك تديم الجلوس وحدك ، فلو جلست مع الناس كان آنس لك. فيقول لقمان : إن طول الوحدة أفهمُ للفكر ، وطول الفكر دليل على طريق الجنة

وقال وهب بن منبه: ماطالت فكرة امرىء قط إلا علم ، وما علم امرىء قط إلا عمل

وقال عمر بن عبد العزيز : الفكرة فى نعم الله عز وجل من أفضل العبادة

وقال عبدالله بن المبارك ، وما لسهل بن علي ، وراه ما كنا متفكرا : أين بلغت؟ قال الصراط

وقال بشر : لو تفكر الناس فى عظمة الله . ماعصوا الله عز وجل

وعن ابن عباس : ركعتان مقتصدتان فى تفكر خير من قيام ليلة بلا قلب

وبينا أبو شريح يمشى ، إذ جلس فتقنع بكسائه ، فجعل يبكى ، فقيل له مايبكيك ؟ قال: تفكرت فى ذهاب عمرى ، وقلة عملى ، واقتراب أجلى

وقال أبو سليمان : عودوا أعينكم البكاء ، وقلوبكم التفكر

وقال أبو سليمان . الفكر فى الدنيا حجاب عن الآخره ، وعقوبة لأهل الولاية والفكر فى الآخرة يورث الحكمة ، ويحيى القلوب

---

(١) حديث أبي سعيد الخدرى أعطوا أعينكم حظها من العبادة ـ الحديث : ابن أبي الدنيا ومن طريقه أبوالشيخ بن حبان فى كتاب العظمة باسناد ضعيف

---

[1] الأعراف : ١٤٦

وقال حاتم : من العبرة يزيد العلم ، ومن الذكر يزيد الحب ، ومن التفكر يزيد الخوف
وقال ابن عباس : التفكر في الخير يدعو إلى العمل به ، والندم على الشر يدعو إلى تركه
ويروى أن الله تعالى قال فى بعض كتبه : إنى لست أقبل كلام كل حكيم ، ولكن أنظر إلى همه وهواه . فإذا كان همه وهواه لى ، جعلت صمته تفكرا وكلامه حمدا وإن لم يتكلم
وقال الحسن : إن أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر ، وبالفكر على الذكر ، حتى استنطقوا قلوبهم فنطقت بالحكمة

وقال اسحاق بن خلف : كان داود الطائى رحمه الله تعالى على سطح فى ليلة قمراء ، فتفكر فى ملكوت السموات والأرض وهو ينظر إلى السماء ويبكى ، حتى وقع فى دار جار له . قال: فوثب صاحب الدار من فراشه عريانا وبيده سيف ، وظن أنه لص . فلما نظر إلى داود رجع ووضع السيف وقال : من ذا الذى طرحك من السطح ! قال ماشعرت بذلك
وقال الجنيد : أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة فى ميدان التوحيد ، والتنسم بنسيم المعرفة ، والشرب بكأس المحبة من بحر الوداد ، والنظر بحسن الظن لله عز وجل . ثم قال : يالها من مجالس ماأجلها ! ومن شراب ماألذه ، طوبى لمن رزقه
وقال الشافعي رحمه الله تعالى : استعينوا على الكلام بالصمت ، وعلى الاستنباط بالفكر . وقال أيضا : صحة النظر فى الأمور نجاة من الغرور ، والعزم فى الرأى سلامة من التفريط والندم ، والروية والفكر يكشفان عن الحزم والفطنة ، ومشاورة الحكماء ثبات فى النفس وقوة فى البصيرة ، ففكّر قبل أن تعزم ، وتدبر قبل أن تهجم ، وشاور قبل أن تقدم . وقال أيضا : الفضائل أربع : إحداها الحكمة وقوامها الفكرة ، والثانية العفة وقوامها فى الشهوة ، والثالثة القوة وقوامها فى الغضب ، والرابعة العدل وقوامه فى اعتدال قوى النفس
فهذه أقاويل العلماء فى الفكرة ، وماشرع أحد منهم فى ذكر حقيقتها وبيان مجاريها

بيان

حقيقة الفكر وثمرته

معنى الفكر ومثاله

اعلم أن معنى الفكر هو إحضار معرفتين فى القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة . ومثاله أن من مال إلى العاجلة ، وآثر الحياة الدنيا ، وأراد أن يعرف أن الآخرة أولى بالإيثار

من العاجلة فله طريقان . أحدهما : أن يسمع من غيره أن الآخرة أولى بالإيثار من الدنيا، فيقلده ويصدقه من غير بصيرة بحقيقة الأمر، فيميل بعمله إلى إيثار الآخرة اعتمادا على مجرد قوله . وهذا يسمى تقليدا ، ولا يسمى معرفة

والطريق الثاني : أن يعرف أن الأبقى أولى بالإيثار ، ثم يعرف أن الآخرة أبقى ، فيحصل له من هاتين المعرفتين معرفة ثالثة ، وهو أن الآخرة أولى بالإيثار . ولا يمكن تحقق المعرفة بأن الآخرة أولى بالإيثار إلا بالمعرفتين السابقتين. فإحضار المعرفتين السابقتين فى القلب للتوصل به إلى المعرفة الثالثة يسمى تفكرا، واعتبارا، وتذكرا ، ونظرا ، وتأملا، وتدبرا. أما التدبر ، والتأمل، والتفكر، فعبارات مترادفة على معنى واحد ، ليس تحتها معان مختلفة وأما اسم التذكر ، والاعتبار ، والنظر ، فهي مختلفة المعانى ، وإن كان أصل المسمى واحدا. كما أن اسم الصارم ، والمهند ، والسيف ، يتوارد على شيء واحد ولكن باعتبارات مختلفة: فالصارم يدل على السيف من حيث هو قاطع، والمهند يدل عليه من حيث نسبته إلى موضعه، والسيف يدل دلالة مطلقة من غير إشعار بهذه الزوائد . فكذلك الاعتبار ينطلق على إحضار المعرفتين من حيث إنه يعبر منهما إلى معرفة ثالثة . وإن لم يقع العبور ، ولم يمكن إلا الوقوف على المعرفتين ، فينطلق عليه اسم التذكر لا اسم الاعتبار . وأما النظر والتفكر فيقع عليه من حيث أن فيه طلب معرفة ثالثة . فمن ليس يطلب المعرفة الثالثة لا يسمى ناظرا . فكل متفكر فهو متذكر ، وليس كل متذكر متفكرا . وفائدة التذكار تكرار المعارف على القلب لترسخ ولا تنمحي عن القلب ، وفائدة التفكر تكثير العلم واستجلاب معرفة ليست حاصلة فهذا هو الفرق بين التذكر والتفكر . والمعارف إذا اجتمعت فى القلب وازدوجت على ترتيب مخصوص ، أثمرت معرفة أخرى. فالمعرفة نتاج المعرفة. فإذا حصلت معرفة أخرى وازدوجت مع معرفة أخرى حصل من ذلك نتاج آخر. وهكذا يتمادى النتاج، ويتمادى العلوم، ويتمادى الفكر إلى غير نهاية . وإنما تنسد طريق زيادة المعارف بالموت أو بالعوائق هذا لمن يقدر على استثمار العلوم ويهتدى إلى طريق التفكر . وأما أكثر الناس فإنما منعوا الزيادة فى العلوم لفقدهم رأس المال ، وهو المعارف التى بها تستثمر العلوم . كالذى لا بضاعة له، فإنه لا يقدر على الربح . وقد يملك البضاعة ولكن لا يحسن صناعة التجارة فلا يربح شيئا .

فكذلك قد يكون معه من المعارف ما هو رأس مال العلوم ، ولكن ليس يحسن استعمالها ، وتأليفها ، وإيقاع الازدواج المفضى إلى النتاج فيها

معرفة طريق الاستعمال

ومعرفة طريق الاستعمال والاستثمار تارة تكون بنور إلٰهى فى القلب يحصل بالفطرة ، كما كان للأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ، وذلك عزيز جدًّا . وقد تكون بالتعلم والممارسة ، وهو الأكثر . ثم المتفكر قد تحضره هذه المعارف ، وتحصل له الثمرة وهو لا يشعر بكيفية حصولها ، ولا يقدر على التعبير عنها لقلة ممارسته لصناعة التعبير فى الإيراد ، فكم من إنسان يعلم أن الآخرة أولى بالإيثار علما حقيقيا ، ولو سئل عن سبب معرفته لم يقدر على إيراده والتعبير عنه ، مع أنه لم تحصل معرفته إلا عن المعرفتين السابقتين ، وهو أن الأبقى أولى بالإيثار ، وأن الآخرة أبقى من الدنيا ، فتحصل له معرفة ثالثة ، وهو أن الآخرة أولى بالإيثار . فرجع حاصلُ حقيقة التفكر إلى إحضار معرفتين للتوصل بهما إلى معرفة ثالثة

وأما ثمرة الفكر فهي العلوم ، والأحوال ، والأعمال . ولكن ثمرته الخاصة العلم لا غير نعم إذا حصل العلم فى القلب تغير حال القلب ، وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح فالعمل تابع الحال ، والحال تابع العلم ، والعلم تابع الفكر . فالفكر إذاً هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها . وهذا هو الذى يكشف لك عن فضيلة التفكر ، وأنه خير من الذكر والتذكر . لأن الفكر ذكر وزيادة ، وذكر القلب خير من عمل الجوارح . بل شرّف العمل لما فيه من الذكر . فإذاً التفكر أفضل من جملة الأعمال . ولذلك قيل : تفكر ساعة خير من عبادة سنة . فقيل هو الذى ينقل من المكاره إلى المحاب ، ومن الرغبة والحرص إلى الزهد والقناعة . وقيل هو الذى يحْدث مشاهدة وتقوى . ولذلك قال تعالى (لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً [1])

وإن أردت أن تفهم كيفية تغير الحال بالفكر ، فمثاله ما ذكرناه من أمر الآخرة ، فإن الفكر فيه يعرفنا أن الآخرة أولى بالإيثار . فإذا رسخت هذه المعرفة يقينا فى قلوبنا تغيرت القلوب إلى الرغبة فى الآخرة ، والزهد فى الدنيا . وهذا ما عنيناه بالحال إذ كان حال القلب قبل هذه المعرفة حب العاجلة ، والميل إليها ، والنفرة عن الآخرة ، وقلة الرغبة فيها .

(١) طه : ١١٣

وبهذه المعرفة تغير حال القلب، وتبدلت إرادته ورغبته، ثم أثمر تغير الإرادة أعمال الجوارح في أطراح الدنيا، والإقبال على أعمال الآخرة فهٰهنا خمس درجات:

أولاها: التذكر، وهو إحضار المعرفتين في القلب

وثانيتها: التفكر، وهو طلب المعرفة المقصودة منهما

والثالثة: حصول المعرفة المطلوبة، واستنارة القلب بها

والرابعة: تغير حال القلب عما كان بسبب حصول نور المعرفة

والخامسة: خدمة الجوارح للقلب، بحسب مايتجدد له من الحال. فكما يضرب الحجر على الحديد فيخرج منه نار يستضيء بها الموضع، فتصير العين مبصرة بعد أن لم تكن مبصرة، وتنتهض الأعضاء للعمل، فكذلك زناد نور المعرفة هو الفكر، فيجمع بين المعرفتين كما يجمع بين الحجر والحديد، ويؤلف بينهما تأليفا مخصوصا كما يضرب الحجر على الحديد ضربا مخصوصا، فينبعث نور المعرفة كما تنبعث النار من الحديد، ويتغير القلب بسبب هذا النور حتى يميل إلى مالم يكن يميل إليه. كما يتغير البصر بنور النار فيرى مالم يكن يراه، ثم تنتهض الأعضاء للعمل بمقتضى حال القلب، كما ينتهض العاجز عن العمل بسبب الظلمة للعمل عند إدراك البصر مالم يكن يبصره

فإذاً ثمرة الفكر العلوم والأحوال، والعلوم لانهاية لها، والأحوال التي تتصور أن تتقلب على القلب لايمكن حصرها. ولهذا لو أراد مريد أن يحصر فنون الفكر ومجاريه، وأنه فيما ذا يتفكر، لم يقدر عليه، لأن مجاري الفكر غير محصورة، وثمراته غير متناهية. نعم نحن نجتهد في ضبط مجاريه بالإضافة إلى مهمات العلوم الدينية، وبالإضافة إلى الأحوال التي هي مقامات السالكين، ويكون ذلك ضبطا جمليا، فإن تفصيل ذلك يستدعي شرح العلوم كلها، وجملة هذه الكتب كالشرح لبعضها، فإنها مشتملة على علوم، تلك العلوم تستفاد من أفكار مخصوصة، فلنشر إلى ضبط المجامع فيها ليحصل الوقوف على مجاري الفكر

بيانه
مجاري الفكر

اعلم أن الفكر قد يجري في أمر يتعلق بالدين، وقد يجري فيما يتعلق بغير الدين. وإنما غرضنا ما يتعلق بالدين، فلنترك القسم الآخر. ونعني بالدين المعاملة التي بين العبد وبين الرب تعالى. فجميع أفكار العبد إما أن تتعلق بالعبد وصفاته وأحواله، وإما أن تتعلق بالمعبود وصفاته وأفعاله، لا يمكن أن يخرج عن هذين القسمين. وما يتعلق بالعبد إما أن يكون نظرا فيما هو محبوب عند الرب تعالى أو فيما هو مكروه. ولا حاجة إلى الفكر في غير هذين القسمين. وما يتعلق بالرب تعالى إما أن يكون نظرا في ذاته وصفاته وأسمائه الحسنى، وإما أن يكون في أفعاله وملكه وملكوته، وجميع ما في السموات والأرض وما بينهما

ضبط مجاري الفكر

وينكشف لك انحصار الفكر في هذه الأقسام بمثال، وهو أن حال السائرين إلى الله تعالى، والمشتاقين إلى لقائه، يضاهي حال العشاق. فلنتخذ العاشق المستهتر مثالنا فنقول:

العاشق المستغرق الهم بعشقه لا يعدو فكره من أن يتعلق بمعشوقه، أو يتعلق بنفسه: فإن تفكر في معشوقه فإما أن يتفكر في جماله وحسن صورته في ذاته، ليتنعم بالفكر فيه وبمشاهدته، وإما أن يتفكر في أفعاله اللطيفة الحسنة الدالة على أخلاقه وصفاته، ليكون ذلك مضعفا للذته ومقويا لمحبته. وإن تفكر في نفسه فيكون فكره في صفاته التي تسقطه من عين محبوبه حتى يتنزه عنها، أو في الصفات التي تقربه منه وتحببه إليه حتى يتصف بها. فإن تفكر في شيء خارج عن هذه الأقسام فذلك خارج عن حد العشق، وهو نقصان فيه، لأن العشق التام الكامل ما يستغرق العاشق ويستوفي القلب، حتى لا يترك فيه متسعا لغيره

فمحب الله تعالى ينبغي أن يكون كذلك، فلا يعدو نظره وتفكره محبوبه. ومهما كان تفكره محصورا في هذه الأقسام الأربعة لم يكن خارجا عن مقتضى المحبة أصلا

فلنبدأ بالقسم الأول: وهو تفكره في صفات نفسه، وأفعال نفسه، ليميز المحبوب منها عن المكروه، فإن هذا الفكر هو الذي يتعلق بعلم المعاملة الذي هو المقصود بهذا الكتاب وأما القسم الآخر: فيتعلق بعلم المكاشفة. ثم كل واحد مما هو مكروه عند الله أو محبوب

ينقسم إلى ظاهر كالطاعات والمعاصي ، وإلى باطن كالصفات المنجيات والمهلكات التي محلها القلب، وذكرنا تفصيلها في ربع المهلكات والمنجيات، والطاعاتُ والمعاصي تنقسم إلى مايتعلق بالأعضاء السبعة ، وإلى ماينسب إلى جميع البدن ، كالفرار من الزحف ، وعقوق الوالدين ، والسكون في المسكن الحرام . ويجب في كل واحد من المكاره التفكر في ثلاثة أمور:

الأول : التفكر في أنه هل هو مكروه عند الله أم لا فرب شيء لايظهر كونه مكروها ، بل يدرك بدقيق النظر . والثاني : التفكر في أنه إن كان مكروها فما طريق الاحتراز عنه

والثالث : أن هذا المكروه هل هو متصف به في الحال ، فيتركه ، أو هو متعرض له في الاستقبال فيحترز عنه ، أو قارفه فيما مضى من الأحوال فيحتاج إلى تداركه

وكذلك كل واحد من المحبوبات ينقسم إلى هذه الانقسامات . فإذا جمعت هذه الأقسام زادت مجاري الفكر في هذه الأقسام على مائة ، والعبد مدفوع إلى الفكر إما في جميعها أو في أكثرها. وشرح آحاد هذه الانقسامات يطول ، ولكن انحصر هذا القسم في أربعة أنواع : الطاعات ، والمعاصي ، والصفات المهلكات ، والصفات المنجيات . فلنذكر في كل نوع مثالا ليقيس به المريد سائرها ، وينفتح له باب الفكر ، ويتسع عليه طريقه

الفكر في المعاصي ومثاله

النوع الأول : المعاصي ، ينبغي أن يفتش الإنسان صبيحة كل يوم جميع أعضائه السبعة تفصيلا ، ثم بدنه على الجملة ، هل هو في الحال ملابس لمعصية بها فيتركها ، أو لابَسها بالأمس فيتداركها بالترك والندم ، أو هو متعرض لها في نهاره فيستعد للاحتراز والتباعد عنها

فينظر في اللسان ويقول : إنه متعرض للغيبة ، والكذب ، وتزكية النفس ، والاستهزاء بالغير ، والمماراة ، والممازحة، والخوض فيما لايعني ، إلى غير ذلك من المكاره . فيقرر أولا في نفسه أنها مكروهة عند الله تعالى ، ويتفكر في شواهد القرءان والسنة على شدة العذاب فيها ، ثم يتفكر في أحواله أنه كيف يتعرض لها من حيث لايشعر ، ثم يتفكر أنه كيف يحترز منه ، ويعلم أنه لايتم له ذلك إلا بالعزلة والانفراد ، أو بأن لايجالس إلا صالحا تقيا ينكر عليه مهما تكلم بما يكرهه الله ، وإلا فيضع حجرا في فيه إذا جالس غيره حتى يكون ذلك مذكّرا له . فهكذا يكون الفكر في حيلة الاحتراز

ويتفكر في سمعه أنه يصغي به إلى الغيبة ، والكذب ، وفضول الكلام ، وإلى اللهو

والبدعة ، وأن ذلك إنما يسمعه من زيد وعمرو ، وأنه ينبغى أن يحترز عنه بالاعتزال أو بالنهي عن المنكر . فمهما كان ذلك فيتفكر فى بطنه أنه إنما يعصى الله تعالى فيه بالأكل والشرب، إما بكثرة الأكل من الحلال ،فإن ذلك مكروه عند الله ، ومقوّ للشهوة التى هي سلاح الشيطان عدوّ الله ، وإما بأكل الحرام أو الشبهة ، فينظر من أين مطعمه ، وملبسه ، ومسكنه ، ومكسبه ، وما مكسبه ، ويتفكر فى طريق الحلال ومداخله ، ثم يتفكر فى طريق الحيلة فى الاكتساب منه والاحتراز من الحرام ، ويقرر على نفسه أن العبادات كلها ضائعة مع أكل الحرام ، وأن أكل الحلال هو أساس العبادات كلها . وأن الله تعالى لايقبل صلاة عبد فى ثمن ثوبه درهم حرام كما ورد الخبر به [1]

فهكذا يتفكر فى أعضائه ، ففى هذا القدر كفاية عن الاستقصاء ، فمهما حصل بالتفكر حقيقة المعرفة بهذه الأحوال اشتغل بالمراقبة طول النهار حتى يحفظ الأعضاء عنها

التفكر فى الطاعات ومثاله

وأما النوع الثانى : وهو الطاعات فينظر أولا فى الفرائض المكتوبة عليه أنه كيف يؤديها ، وكيف يحرسها عن النقصان والتقصير ، أو كيف يجبر نقصانها بكثرة النوافل ، ثم يرجع إلى عضو عضو فيتفكر فى الأفعال التى تتعلق بها مما يحبه الله تعالى ، فيقول مثلا: إن العين خلقت للنظر فى ملكوت السموات والأرض عبرة ، ولتستعمل فى طاعة الله تعالى وتنظر فى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأنا قادر على أن أشغل العين بمطالعة القرءان والسنة ، فلمَ لا أفعله ؟وأنا قادر على أن أنظر إلى فلان المطيع بعين التعظيم فأدخل السرور على قلبه ، وأنظر إلى فلان الفاسق بعين الازدراء فأزجره بذلك عن معصيته ، فلمَ لا أفعله ؟

وكذلك يقول فى سمعه : إنى قادر على استماع كلام ملهوف ، أو استماع حكمة وعلم ، أو استماع قراءة وذكر ، فمالى أعطله وقد أنعم الله عليّ به ، وأودَعنيه لأشكره ، فمالى أكفر نعمة الله فيه بتضييعه أو تعطيله ؟

وكذلك يتفكر فى اللسان ويقول : إنى قادر على أن أتقرب إلى الله تعالى بالتعليم ، والوعظ والتودد إلى قلوب أهل الصلاح ، وبالسؤال عن أحوال الفقراء ، وإدخال السرور على قلب

---

(١) حديث ان الله لايقبل صلاة عبد فى ثمن ثوبه درهم حرام : أحمد من حديث ابن عمر بسند فيه مجهول وقد تقدم

زيد الصالح ، وعمرو العالم بكلمة طيبة ، وكل كلمة طيبة فإنها صدقة

وكذلك يتفكر فى ماله فيقول : أنا قادر على أن أتصدق بالمال الفلانى ، فإنى مستغن عنه ومهما احتجت إليه رزقنى الله تعالى مثله ، وإن كنت محتاجا الآن فأنا إلى ثواب الإيثار أحوج منى إلى ذلك المال . وهكذا يفتش عن جميع أعضائه ، وجملة بدنه وأمواله ، بل عن دوابه وغلمانه وأولاده ، فإن كل ذلك أدواته وأسبابه ، ويقدر على أن يطيع الله تعالى بها ، فيستنبط بدقيق الفكر وجوه الطاعات الممكنة بها ، ويتفكر ، فيما يرغبه فى البدار إلى تلك الطاعات ويتفكر فى إخلاص النية فيها ، ويطلب لها مظان الاستحقاق حتى يزكو بها عمله . وقس على هذا سائر الطاعات

التفكر فى الصفات المهلكة ومثاله

وأما النوع الثالث : فهي الصفات المهلكة التى محلها القلب . فيعرفها مما ذكرناه فى ربع المهلكات ، وهي استيلاء الشهوة ، والغضب ، والبخل ، والكبر ، والعجب ، والرياء والحسد ، وسوء الظن ، والغفلة ، والغرور ، وغير ذلك . ويتفقد من قلبه هذه الصفات ، فإن ظن أن قلبه منزه عنها فيتفكر فى كيفية امتحانه ، والاستشهاد بالعلامات عليه ، فإن النفس أبدا تَعِدُ بالخير من نفسها وتخلف . فإذا ادّعت التواضع والبراءة من الكبر فينبغى أن تجرب بحمل حزمة حطب فى السوق ، كما كان الأولون يجربون به أنفسهم . وإذا ادّعت الحلم تعرض لغضب يناله من غيره ، ثم يجربها فى كظم الغيظ . وكذلك فى سائر الصفات

وهذا تفكر فى أنه هل هو موصوف بالصفة المكروهة أم لا ، ولذلك علامات ذكرناها فى ربع المهلكات . فإذا دلت العلامة على وجودها فكر فى الأسباب التى تقبح تلك الصفات عنده ، وتبين أن منشأها من الجهل والغفلة ، وخبث الدّخلة . كما لو رأى فى نفسه عجبا بالعمل ، فيتفكر ويقول : إنما عملى ببدنى وجارحتى ، وبقدرتى وإرادتى ، وكل ذلك ليس منى ولا إليّ ، وإنما هو من خلق الله وفضله عليّ ، فهو الذى خلقنى ، وخلق جارحتى ، وخلق قدرتى وإرادتى ، وهو الذى حرك أعضائى بقدرته . وكذلك قدرتى وإرادتى ، فكيف أعجب بعملى أو بنفسى ، ولا أقوم لنفسى بنفسى

فإذا أحس فى نفسه بالكبر ، قرر على نفسه ما فيه من الحماقة ويقول لها : لم ترين نفسك أكبر ؟ والكبير من هو عند الله كبير ، وذلك ينكشف بعد الموت . وكم من كافر فى الحال

يموت مقرا بإلى الله تعالى بنزوعه عن الكفر، وكم من مسلم يموت شقيا بتغير حاله عند الموت بسوء الخاتمة . فإذا عرف أن الكبر مهلك ، وأن أصله الحماقة ، فيتفكر فى علاج إزالة ذلك بأن يتعاطى أفعال المتواضعين

وإذا وجد فى نفسه شهوة الطعام وشرهه ، تفكر فى أن هذه صفة البهائم ، ولو كان فى شهوة الطعام والوقاع كمال لكان ذلك من صفات الله وصفات الملائكة ، كالعلم والقدرة ولما اتّصف به البهائم ومهما كان الشره عليه أغلب كان بالبهائم أشبه ، وعن الملائكة المقربين أبعد . وكذلك يقرر على نفسه فى الغضب ، ثم يتفكر فى طريق العلاج ، وكل ذلك ذكرناه فى هذه الكتب ، فمن يريد أن يتسع له طريق الفكر فلا بد له من تحصيل مافى هذه الكتب

التفكر فى المنجيات ومثاله

وأما النوع الرابع : وهو المنجيات فهو التوبة ، والندم على الذنوب ، والصبر على البلاء ، والشكر على النعماء ، والخوف والرجاء ، والزهد فى الدنيا ، والإخلاص والصدق فى الطاعات ، ومحبة الله وتعظيمه ، والرضا بأفعاله ، والشوق إليه ، والخشوع والتواضع له وكل ذلك ذكرناه فى هذا الربع ، وذكرنا أسبابه وعلاماته ، فليتفكر العبد كل يوم فى قلبه ماالذى يعوزه من هذه الصفات التى هي المقربة إلى الله تعالى ، فإذا افتقر إلى شيء منها فليعلم أنها أحوال لايثمرها إلا علوم ، وأن العلوم لايثمرها إلا أفكار

فإذا أراد أن يكتسب لنفسه أحوال التوبة والندم : فليفتش ذنوبه أولا ، وليتفكر فيها ، وليجمعها على نفسه ، وليعظمها فى قلبه ، ثم لينظر فى الوعيد والتشديد الذى ورد فى الشرع فيها ، وليتحقق عند نفسه أنه متعرض لمقت الله تعالى حتى ينبعث له حال الندم

وإذا أراد أن يستثير من قلبه حال الشكر فلينظر فى إحسان الله إليه ، وأياديه عليه ، وفى إرساله جميل ستره عليه على ماشرحنا بعضه فى كتاب الشكر ، فليطالع ذلك

وإذا أراد حال المحبة والشوق فليتفكر فى جلال الله وجماله ، وعظمته ، وكبريائه ، وذلك بالنظر فى عجائب حكمته وبدائع صنعه ، كماسنشير إلى طرف منه فى القسم الثانى من الفكر

وإذا أراد حال الخوف فلينظر أوّلا فى ذنوبه الظاهرة والباطنة ، ثم لينظر فى الموت وسكراته ، ثم فيما بعده من سؤال منكر ونكير ، وعذاب القبر ، وحيّاته ، وعقاربه ، وديدانه ،

ثم فى هول النداء عند نفخة الصور ، ثم فى هول المحشر عند جمع الخلائق على صعيد واحد ، ثم فى المناقشة فى الحساب ، والمضايقة فى النقير والقطمير ، ثم فى الصراط ودقته وحدّته ، ثم فى خطر الأمر عنده أنه يصرف إلى الشمال فيكون من أصحاب النار ، أو يصرف إلى اليمين فينزل دار القرار . ثم ليحضر بعد أهوال القيامة فى قلبه صورة جهنم ودركاتها ، ومقامعها وأهوالها ، وسلاسلها وأغلالها ، وزقومها وصديدها ، وأنواع العذاب فيها ، وقبح صور الزبانية الموكلين بها ، وأنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا جلودا غيرها ، وأنهم كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ، وأنهم إذا رأوها من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا ، وهلم جرا إلى جميع ماورد فى القرءان من شرحها

وإذا أراد أن يستجلب حال الرجاء فلينظر إلى الجنة ونعيمها ، وأشجارها وأنهارها : وحورها وولدانها ، ونعيمها المقيم ، وملكها الدائم

فهكذا طريق الفكر الذى يطلب به العلوم التى تثمر اجتلاب أحوال محبوبة ، أو التنزه عن صفات مذمومة . وقد ذكرنا فى كل واحد من هذه الأحوال كتابا مفردا يستعان به على تفصيل الفكر . أما ذكر مجامعه فلا يوجد فيه أنفع من قراءة القرءان بالتفكر ، فإنه جامع لجميع المقامات والأحوال ، وفيه شفاء للعالمين ، وفيه مايورث الخوف والرجاء ، والصبر والشكر ، والمحبة ، والشوق ، وسائر الأحوال ، وفيه مايزجر عن سائر الصفات المذمومة . فينبغى أن يقرأه العبد ويردد الآية التى هو محتاج إلى التفكر فيها مرة بعد أخرى ، ولو مائة مرة ، فقراءةُ آية بتفكر وفهم خيرٌ من ختمة بغير تدبر وفهم . فليتوقف فى التأمل فيها ولو ليلة واحدة ، فإن تحت كل كلمة منها أسرارا لاتنحصر ، ولا يوقف عليها إلا بدقيق الفكر عن صفاء القلب بعد صدق المعاملة . وكذلك مطالعة أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه قد أوتي جوامع الكلم[1] ، وكل كلمة من كلماته بحر من بحور الحكمة ، ولو تأملها العالم حق التأمل لم ينقطع فيها نظره طول عمره . وشرح آحاد الآيات والأخبار يطول ، فانظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم[2] « إِنَّ رُوحَ ٱلْقُدُسِ نَفَثَ فِى رُوعِى أَحْبِبْ مَنْ أَحْبَبْتَ

---

(١) حديث انه صلى الله عليه وسلم أوتي جوامع الكلم : تقدم

(٢) حديث ان روح القدس نفث فى روعى أحبب من احببت فانك مفارقه ـ الحديث : تقدم غير مرة

وَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ وَعِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَجْزِيٌّ بِهِ » فإن هذه الكلمات جامعة حكم الأولين والآخرين ، وهي كافية للمتأملين فيها طول العمر ، إذ لو وقفوا على معانيها وغلبت على قلوبهم غلبة يقين لاستغرقتهم ؛ ولحال ذلك بينهم وبين التلفت إلى الدنيا بالكلية . فهذا هو طريق الفكر في علوم المعاملة وصفات العبد من حيث هي محبوبة عند الله تعالى أو مكروهة . والمبتدىء ينبغي أن يكون مستغرق الوقت في هذه الأفكار حتى يعمر قلبه بالأخلاق المحمودة والمقامات الشريفة ، وينزه باطنه وظاهره عن المكاره ، وليعلم أن هذا مع أنه أفضل من سائر العبادات فليس هو له غاية المطلب ، بل المشغول به محجوب عن مطلب الصديقين ، وهو التنعم بالفكر في جلال الله تعالى وجماله ، واستغراق القلب بحيث يفنى عن نفسه ، أي ينسى نفسه ، وأحواله ، ومقاماته ، وصفاته ، فيكون مستغرق الهم بالمحبوب ، كالعاشق المستهتر عند لقاء الحبيب ، فإنه لا يتفرغ للنظر في أحوال نفسه وأوصافها ، بل يبقى كالمبهوت الغافل عن نفسه ، وهو منتهى لذة العشاق

فأما ما ذكرناه فهو تفكر في عمارة الباطن ليصلح للقرب والوصال ، فإذا ضيّع جميع عمره في إصلاح نفسه فمتى يتنعم بالقرب ؟ ولذلك كان الخوّاص يدور في البوادي ، فلقيه الحسين بن منصور وقال : فيم أنت ؟ قال : أدور في البوادي أصلح حالي في التوكل . فقال الحسين : أفنيت عمرك في عمران باطنك ، فأين الفناء في التوحيد ؟

الفناء في الواحد منتهى نعيم الصديقين

فالفناء في الواحد الحق هو غاية مقصد الطالبين ، ومنتهى نعيم الصديقين . وأما التنزه عن الصفات المهلكات فيجري مجرى الخروج عن العدة في النكاح . وأما الاتصاف بالصفات المنجيات وسائر الطاعات فيجري مجرى تهيئة المرأة جهازها ؟ وتنظيفها وجهها ومشطها شعرها ، لتصلح بذلك للقاء زوجها . فإن استغرقت جميع عمرها في تبرئة الرحم وتزيين الوجه ، كان ذلك حجابا لها عن لقاء المحبوب

فهكذا ينبغي أن تفهم طريق الدين إن كنت من أهل المجالسة

وإن كنت كالعبد السوء لا يتحرك إلا خوفا من الضرب وطمعا في الأجرة ، فدونك وإتعاب البدن بالأعمال الظاهرة ، فإن بينك وبين القلب حجابا كثيفا ، فإذا قضيت حق الأعمال كنت من أهل الجنة . ولكن للمجالسة أقوام آخرون

وإذا عرفت مجال الفكر فى علوم المعاملة التى بين العبد وبين ربه ، فينبغى أن تتخذ ذلك عادتك وديدنك صباحا ومساء ، فلا تغفل عن نفسك وعن صفاتك المبعدة من الله تعالى ، وأحوالك المقربة إليه سبحانه وتعالى . بل كل مريد فينبغى أن يكون له جريدة يثبت فيها جملة الصفات المهلكات ، وجملة الصفات المنجيات ، وجملة المعاصى والطاعات ، ويعرض نفسه عليها كل يوم . ويكفيه من المهلكات النظر فى عشرة ، فإنه إن سلم منها سلم من غيرها ، وهي البخل ، والكبر ، والعجب ، والرياء ، والحسد ، وشدة الغضب ، وشره الطعام ، وشره الوقاع ، وحب المال ، وحب الجاه . ومن المنجيات عشرة : الندم على الذنوب ، والصبر على البلاء ، والرضا بالقضاء ، والشكر على النعماء ، واعتدال الخوف والرجاء والزهد فى الدنيا ، والإخلاص فى الأعمال ، وحسن الخُلق مع الخلق ، وحب الله تعالى ، والخشوع له . فهذه عشرون خصلة ، عشرة مذمومة ، وعشرة محمودة . فمهما كفي من المذمومات واحدة فيخط عليها فى جريدته ، ويدع الفكر فيها ، ويشكر الله تعالى على كفايته إياها ، وتنزيه قلبه عنها . ويعلم أن ذلك لم يتم إلا بتوفيق الله تعالى وعونه ، ولو وكله إلى نفسه لم يقدر على محو أقل الرذائل عن نفسه . فيقبل على التسعة الباقية . وهكذا يفعل حتى يخط على الجميع . وكذا يطالب نفسه بالاتصاف بالمنجيات ، فإذا اتصف بواحدة منها كالتوبة والندم مثلا خط عليها ، واشتغل بالباقى ، وهذا يحتاج إليه المريد المشمر

وأما أكثر الناس من المعدودين من الصالحين فينبغى أن يثبتوا فى جرائدهم المعاصى الظاهرة كأكل الشبهة وإطلاق اللسان بالغيبة ، والنميمة ، والمراء ، والثناء على النفس ، والإفراط فى معاداة الأعداء وموالاة الأولياء ، والمداهنة مع الخلق فى ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإن أكثر من يعدّ نفسه من وجوه الصالحين لا ينفك عن جملة من هذه المعاصى فى جوارحه . وما لم يطهر الجوارح عن الآثام لا يمكن الاشتغال بعمارة القلب وتطهيره . بل كل فريق من الناس يغلب عليهم نوع من المعصية ؛ فينبغى أن يكون تفقدهم لها ، وتفكرهم فيها لا فى معاص هم بمعزل عنها . مثاله العالم الورع ، فإنه لا يخلو فى غالب الأمر عن إظهار نفسه بالعلم ، وطلب الشهرة ، وانتشار الصيت ، إما بالتدريس

أو بالوعظ . ومن فعل ذلك تصدى لفتنة عظيمة ؛ لا ينجو منها إلا الصديقون . فإنه إن كان كلامه مقبولا حسن الوقع فى القلوب ، لم ينفك عن الإعجاب والخيلاء ، والتزين والتصنع وذلك من المهلكات . وإن ردّ كلامه لم يخل عن غيظ وأنفة وحقد على من يرده ، وهو أكثر من غيظه على من يرد كلام غيره . وقد يلبّس الشيطان عليه ويقول : إن غيظك من حيث إنه ردّ الحق وأنكره . فإن وجد تفرقة بين أن يرد عليه كلامه أو يرد على عالم آخر فهو مغرور وضحكة للشيطان . ثم مهما كان له ارتياح بالقبول ، وفرح بالثناء ، واستنكاف من الرد أو الإعراض ، لم يخل عن تكلف وتصنع لتحسين اللفظ والإيراد ، حرصا على استجلاب الثناء ، والله لا يحب المتكلفين . والشيطان قد يلبّس عليه ويقول : إنما حرصك على تحسين الألفاظ والتكلف فيها لينتشر الحق ، ويحسن موقعه فى القلب ، إعلاء لدين الله فإن كان فرحه بحسن ألفاظه وثناء الناس عليه أكثر من فرحه بثناء الناس على واحد من أقرانه فهو مخدوع . وإنما يدورون حول طلب الجاه ، وهو يظن أن مطلبه الدين . ومهما اختلج ضميره بهذه الصفات ظهر على ظاهره ذلك ، حتى يكون للموقر له المعتقد لفضله أكثر احتراما ، ويكون بلقائه أشد فرحا واستبشارا ممن يغلو فى موالاة غيره ، وإن كان ذلك الغير مستحقا للموالاة وربما ينتهى الأمر بأهل العلم إلى أن يتغايروا تغاير النساء فيشق على أحدهم أن يختلف بعض تلامذته إلى غيره ، وإن كان يعلم أنه منتفع بغيره ، ومستفيد منه فى دينه

وكل ذلك رشح الصفات المهلكات المستكنة فى سر القلب ، التى قد يظن العالم النجاة منها وهو مغرور فيها . وإنما ينكشف ذلك بهذه العلامات . ففتنة العالم عظيمة ، وهو إما مالك وإما هالك ، ولا مطمع له فى سلامة العوام . فمن أحس فى نفسه بهذه الصفات فالواجب عليه العزلة ، والانفراد ، وطلب الخمول ، والمدافعة للفتاوى مهما سئل ، فقد كان المسجد يحوى فى زمن الصحابة رضي الله تعالى عنهم جما من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كلهم مفتون ، وكانوا يتدافعون الفتوى ، وكل من كان يفتى كان يود أن يكفيه غيره . وعند هذا ينبغى أن يتقى شياطين الإنس إذا قالوا لا تفعل هذا ، فإن هذا الباب لو فتح لاندرست العلوم من بين الخلق ، وليقل لهم : إن دين الإسلام مستغن عنى

فإنه قد كان معمورا قبلي ، وكذلك يكون بعدى . ولو مت لم تنهدم أركان الإسلام فإن الدين مستغن عنى . وأما أنا فلست مستغنيا عن إصلاح قلبي . وأما أداء ذلك إلى اندراس العلم فخيال يدل على غاية الجهل ، فإن الناس لو حبسوا فى السجن ، وقيدوا بالقيود ، وتوعدوا بالنار على طلب العلم ، لكان حب الرياسة والعلو يحملهم على كسر القيود ، وهدم حيطان الحصون ، والخروج منها ، والاشتغال بطلب العلم . فالعلم لا يندرس مادام الشيطان يحبب إلى الخلق الرياسة ، والشيطان لا يفتر عن عمله إلى يوم القيامة ، بل ينتهض لنشر العلم أقوام لا نصيب لهم فى الآخرة ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] « إِنَّ اللهَ يُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِأَقْوَامٍ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ »[2] « وَإِنَّ اللهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ » . فلا ينبغى أن يغتر العالم بهذه التلبيسات فيشتغل بمخالطة الخلق . حتى يتربى فى قلبه حب الجاه والثناء والتعظيم ، فإن ذلك بذر النفاق . قال صلى الله عليه وسلم[3] « حُبُّ الْجَاهِ وَالْمَالِ يُنْبِتُ النِّفَاقَ فِى الْقَلْبِ كَمَا يُنْبِتُ الْمَاءُ الْبَقْلَ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم[4] « مَا ذِئْبَانِ ضَارِيَانِ أُرْسِلاَ فِى زَرِيبَةِ غَنَمٍ بِأَكْثَرَ إِفْسَاداً فِيهَا مِنْ حُبِّ الْجَاهِ وَالْمَالِ فِى دِينِ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ »

ولا ينقلع حب الجاه من القلب إلا بالاعتزال عن الناس ، والهرب من مخالطتهم ، وترك كل ما يزيد جاهه فى قلوبهم . فليكن فكر العالم فى التفطن لخفايا هذه الصفات من قلبه ، وفى استنباط طريق الخلاص منها ، وهذه وظيفة العالم المتقى .

فأما أمثالنا فينبغى أن يكون تفكرنا فيما يقوى إيماننا بيوم الحساب ، إذ لو رآنا السلف الصالحون : لقالوا قطعا إن هؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب ، فما أعمالنا أعمال من يؤمن بالجنة والنار ، فإن من خاف شيئا هرب منه ، ومن رجا شيئا طلبه ، وقد علمنا أن الهرب من النار بترك الشبهات والحرام ، وبترك المعاصى ، ونحن منهمكون فيها ، وأن طلب الجنة بتكثير نوافل الطاعات ، ونحن مقصرون فى الفرائض منها ، فلم يحصل لنا

(١) حديث ان الله يؤيد هذا الدين بأقوام لاخلاق لهم : تقدم

(٢) حديث ان الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر : تقدم أيضا فى العلم

(٣) حديث حب المال والجاه ينبت النفاق فى القلب ـ الحديث : تقدم

(٤) حديث ماذئبان جائعان أرسلا فى زريبة غنم ـ الحديث : تقدم

من ثمرة العلم إلا أنه يقتدى بنا في الحرص على الدنيا ، والتكالب عليها ،ويقال لو كان هذا مذموما لكان العلماء أحق وأولى باجتنابه منا ، فليتنا كنا كالعوام إذا متنا ماتت معنا ذنوبنا ، فما أعظم الفتنة التى تعرضنا لها لو تفكرنا ، فنسأل الله تعالى أن يصلحنا ويصلح بنا ، ويوفقنا للتوبة قبل أن يتوفانا ، إنه الكريم اللطيف بنا ، المنعم علينا

فهذه مجارى أفكار العلماء والصالحين في علم المعاملة . فإن فرغوا منها انقطع التفاتهم عن أنفسهم ، وارتقوا منها إلى التفكر فى جلال الله وعظمته،والتنعم بمشاهدته بعين القلب ولا يتم ذلك إلا بعد الانفكاك من جميع المهلكات ، والاتصاف بجميع المنجيات . وإن ظهر شيء منه قبل ذلك كان مدخولا معلولا ، مكدرا مقطوعا ، وكان ضعيفا كالبرق الخاطف لايثبت ولا يدوم ، ويكون كالعاشق الذى خلا بمعشوقه ، ولكن تحت ثيابه حيّات وعقارب تلدغه مرة بعد أخرى ، فتنغص عليه لذة المشاهدة ، ولا طريق له فى كمال التنعم إلا بإخراج العقارب والحيّات من ثيابه : وهذه الصفات المذمومة عقارب وحيّات ، وهي مؤذيات ومشوشات ، وفى القبر يزيد ألم لدغها على لدغ العقارب والحيّات . فهذا القدر كاف فى التنبيه على مجارى فكر العبد فى صفات نفسه المحبوبة والمكروهة عند ربه تعالى

القسم الثانى : الفكر فى جلال الله وعظمته وكبريائه ، وفيه مقامان :

التفكر فى جلال الله وعظمته

المقام الأعلى : الفكر فى ذاته وصفاته ومعانى أسمائه . وهذا مما منع منه حيث قيل : تفكروا فى خلق الله تعالى ولا تتفكروا فى ذات الله . وذلك لأن العقول تتحير فيه، فلا يطيق مد البصر إليه إلا الصديقون ، ثم لا يطيقون دوام النظر . بل سائر الخلق أحوال أبصارهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى كحال بصر الخفاش بالإضافة إلى نور الشمس ،فإنه لايطيقه ألبتة ، بل يختفى نهارا ، وإنما يتردد ليلا ينظر فى بقية نور الشمس إذا وقع على الأرض . وأحوال الصديقين كحال الإنسان فى النظر إلى الشمس ، فإنه يقدر على النظر إليها ولا يطيق دوامه ، ويخشى على بصره لو أدام النظر ، ونظره المختطف إليها يورث العمش ويفرق البصر . وكذلك النظر إلى ذات الله تعالى يورث الحيرة والدهش واضطراب العقل . فالصواب إذاً أن لا يتعرض لمجارى الفكر فى ذات الله سبحانه وصفاته ، فإن أكثر العقول لاتحتمله بل القدر اليسير الذى صرح به بعض العلماء ، وهو أن الله تعالى مقدس عن المكان ،

ومنزّه عن الأقطار والجهات ، وأنه ليس داخل العالم ولا خارجه ، ولا هو متصل بالعالم ولا هو منفصل عنه ، قد حير عقول أقوام حتى أنكروه إذ لم يطيقوا سماعه ومعرفته . بل ضعفت طائفة عن احتمال أقلّ من هذا ، إذ قيل لهم إنه يتعاظم ويتعالى عن أن يكون له رأس ، ورجل ، ويد ، وعين ، وعضو ، وأن يكون جسما مشخصا له مقدار وحجم ، فأنكروا هذا وظنوا أن ذلك قدح فى عظمة الله وجلاله ، حتى قال بعض الحمقى من العوام : إن هذا وصف بطيخ هندى لا وصف الإله ، لظن المسكين أن الجلالة والعظمة فى هذه الأعضاء ، وهذا لأن الإنسان لا يعرف إلا نفسه ، فلا يستعظم إلا نفسه . فكل مالا يساويه فى صفاته فلا يفهم العظمة فيه. نعم غايته أن يقدر نفسه جميل الصورة ، جالسا على سريره وبين يديه غلمان يمتثلون أمره ، فلا جرم غايته أن يقدّر ذلك فى حق الله تعالى وتقدس حتى يفهم العظمة . بل لو كان للذباب عقل وقيل له ليس لخالقك جناحان ، ولا يد ، ولا رجل ، ولا له طيران لأنكر ذلك وقال : كيف يكون خالقى أنقص منى ! أفيكون مقصوص الجناح ، أو يكون زمنا لا يقدر على الطيران ، أو يكون لى آلة وقدرة لا يكون له مثلها وهو خالقى ومصوّرى

وعقول أكثر الخلق قريب من هذا العقل ، وإن الإنسان لجهول ظلوم كفار . ولذلك أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه : لا تخبر عبادى بصفاتى فينكرونى ، ولكن أخبرهم عنى بما يفهمون

ولما كان النظر فى ذات الله تعالى وصفاته مخطرا من هذا الوجه ، اقتضى أدب الشرع وصلاح الخلق أن لا يتعرض لمجارى الفكر فيه . لكنا نعدل إلى المقام الثانى ، وهو النظر فى أفعاله ، ومجارى قدره ، وعجائب صنعه ، وبدائع أمره فى خلقه ، فإنها تدل على جلاله وكبريائه ، وتقدسه وتعاليه ، وتدل على كمال علمه وحكمته ، وعلى نفاذ مشيئته وقدرته فينظر إلى صفاته من آثار صفاته . فإنا لا نطيق النظر إلى صفاته ، كما أنا نطيق النظر إلى الأرض مهما استنارت بنور الشمس ، ونستدل بذلك على عظم نور الشمس بالإضافة إلى نور القمر وسائر الكواكب ، لأن نور الأرض من آثار نور الشمس ، والنظر فى الآثار يدل على المؤثر دلالة مّا ، وإن كان لا يقوم مقام النظر فى نفس المؤثر . وجميع موجودات الدنيا أثر من آثار قدرة الله تعالى ، ونور من أنوار ذاته ، بل لا ظلمة أشد من العدم ، ولا نور أظهر من الوجود ، ووجود الأشياء كلها نور من أنوار ذاته تعالى وتقدس ، إذ قوام وجود الأشياء

بذاته القيوم بنفسه ، كما أن قوام نور الأجسام بنور الشمس المضيئة بنفسها . ومهما انكشف بعض الشمس فقد جرت العادة بأن يوضع طشت ماء حتى ترى الشمس فيه ، ويمكن النظر إليها ، فيكون الماء واسطة يغض قليلا من نور الشمس حتى يطاق النظر إليها . فكذلك الأفعال واسطة نشاهد فيها صفات الفاعل ولا نبهر بأنوار الذات بعد أن تباعدنا عنها بواسطة الأفعال فهذا سر قوله صلى الله عليه وسلم « تَفَكَّرُوا فِي خَلْقِ اللهِ وَلَا تَتَفَكَّرُوا فِي ذَاتِ اللهِ تَعَالَى »

بيان

كيفية التفكر فى خلق الله تعالى

اعلم أن كل مافى الوجود مما سوى الله تعالى فهو فعل الله وخلقه . وكل ذرة من الذرات من جوهر وعرض وصفة وموصوف ففيها عجائب وغرائب تظهر بها حكمة الله وقدرته ، وجلاله وعظمته . وإحصاء ذلك غير ممكن ، لأنه لو كان البحر مدادا لذلك لنفد البحر قبل أن ينفد عشر عشيره . ولكنا نشير إلى جمل منه ليكون ذلك كالمثال لما عداه فنقول :

الموجودات المخلوقة منقسمة إلى مالا يعرف أصلها فلا يمكننا التفكر فيها ، وكم من الموجودات التى لا نعلمها كما قال الله تعالى (وَيَخْلُقُ مَالَا تَعْلَمُونَ [1]) (سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ [2]) وقال (وَنُنْشِئَكُمْ فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ [3]) وإلى مايعرف أصلها وجملتها ولا يعرف تفصيلها ، فيمكننا أن نتفكر فى تفصيلها . وهى منقسمة إلى ما أدركناه بحس البصر ، وإلى مالا ندركه بالبصر

أما الذى لا ندركه بالبصر فكالملائكة ، والجن ، والشياطين ، والعرش ، والكرسى ، وغير ذلك ، ومجال الفكر فى هذه الأشياء مما يضيق ويغمض ، فلنعدل إلى الأقرب إلى الأفهام وهى المدركات بحس البصر ، وذلك هو السموات السبع ، والأرض ، ومابينهما . فالسموات مشاهدة بكواكبها ، وشمسها ، وقمرها ، وحركتها ، ودورانها فى طلوعها وغروبها . والأرض مشاهدة بما فيها من جبالها ، ومعادنها ، وأنهارها ، وبحارها ، وحيوانها ، ونباتها . ومابين السماء والأرض وهو الجو مدرك بغيومها ، وأمطارها ، وثلوجها ، ورعدها ، وبرقها ،

---

(١) النحل : ٨ (٢) يس : ٣٦ (٣) الواقعه : ٦١

وصواعقها ، وشهبها ، وعواصف رياحها . فهذه هي الأجناس المشاهدة من السموات والأرض ومابينهما . وكل جنس منها ينقسم إلى أنواع ، وكل نوع ينقسم إلى أقسام ، ويتشعب كل قسم إلى أصناف ، ولا نهاية لانشعاب ذلك وانقسامه فى اختلاف صفاته وهيآته ومعانيه الظاهرة والباطنة . وجميع ذلك مجال الفكر فلا تتحرك ذرة فى السموات والأرض من جماد، ولا نبات ، ولا حيوان، ولا فلك ، ولا كوكب ، إلا والله تعالى هو محركها ، وفى حركتها حكمة ، أو حكمتان ، أو عشر ، أو ألف حكمة ، كل ذلك شاهد لله تعالى بالوحدانية ، ودال على جلاله وكبريائه ، وهي الآيات الدالة عليه

وقد ورد القرءان بالحث على التفكر فى هذه الآيات ، كما قال الله تعالى (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ [١]) وكما قال تعالى (وَمِنْ آيَاتِهِ [٢]) من أول القرءان إلى آخره ، فلنذكر كيفية الفكر فى بعض الآيات

الفكر فى خلق الإنسان أعظم عظة

فمن آياته الإنسان المخلوق من النطفة . وأقرب شيء إليك نفسك ، وفيك من العجائب الدالة على عظمة الله تعالى ماتنقضي الأعمار فى الوقوف على عشر عشيره ، وأنت غافل عنه فيامن هو غافل عن نفسه وجاهل بها ، كيف تطمع فى معرفة غيرك ! وقد أمرك الله تعالى بالتدبر فى نفسك فى كتابه العزيز فقال (وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ [٣]) وذكر أنك مخلوق من نطفة قذرة فقال (قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ [٤]) وقال تعالى (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ [٥]) وقال تعالى (أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى [٦]) وقال تعالى (أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ [٧]) وقال (أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ [٨]) وقال (إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ [٩]) ثم ذكر كيف جعل النطفة علقة ، والعلقة مضغة ، والمضغة عظاما فقال تعالى (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً

---

(١) آل عمران : ١٩٠ (٢) الروم : ٢٥ (٣) الذاريات : ٢١ (٤) عبس : ١٧ - ٢٢ (٥) الروم : ٢٠
(٦) القيامة : ٣٧ ، ٣٨ (٧) المرسلات : ٢٠ - ٢٢ (٨) يس : ٧٧ (٩) الدهر : ٢

فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً [١]) الآية

فتكرير ذكر النطفة في الكتاب العزيز ليس ليسمع لفظه ويترك التفكر في معناه. فانظر الآن إلى النطفة وهي قطرة من الماء قذرة. لو تركت ساعة ليضربها الهواء فسدت وأنتنت، كيف أخرجها رب الأرباب من الصلب والترائب، وكيف جمع بين الذكر والأنثى وألقى الألفة والمحبة فى قلوبهم، وكيف قادهم بسلسلة المحبة والشهوة إلى الاجتماع، وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع. وكيف استجلب دم الحيض من أعماق العروق وجمعه فى الرحم، ثم كيف خلق المولود من النطفة، وسقاه بماء الحيض وغذاه حتى نما وربا وكبر، وكيف جعل النطفة وهي بيضاء مشرقة علقة حمراء، ثم كيف جعلها مضغة، ثم كيف قسم أجزاء النطفة وهي متشابهة متساوية إلى العظام، والأعصاب، والعروق، والأوتار واللحم، ثم كيف ركب من اللحوم، والأعصاب، والعروق الأعضاء الظاهرة، فدوّر الرأس، وشق السمع، والبصر، والأنف، والفم وسائر المنافذ، ثم مدّ اليد والرجل وقسم رؤسها بالأصابع، وقسم الأصابع بالأنامل، ثم كيف ركب الأعضاء الباطنة من القلب، والمعدة، والكبد، والطحال، والرئة، والرحم، والمثانة، والأمعاء، كل واحد على شكل مخصوص ومقدار مخصوص لعمل مخصوص، ثم كيف قسم كل عضو من هذه الأعضاء بأقسام أخر، فركب العين من سبع طبقات لكل طبقة وصف مخصوص وهيئة مخصوصة لو فقدت طبقة منها أو زالت صفة من صفاتها تعطلت العين عن الإبصار. فلو ذهبنا إلى أن نَصِف ما فى آحاد هذه الأعضاء من العجائب والآيات لانقضى فيه الأعمار، فانظر الآن إلى العظام وهي أجسام صلبة قوية كيف خلقها من نطفة سخيفة رقيقة، ثم جعلها قواما للبدن وعمادا له، ثم قدرها بمقادير مختلفة وأشكال مختلفة، فمنه صغير، وكبير، وطويل، ومستدير، ومجوف، ومصمت، وعريض، ودقيق

ولما كان الإنسان محتاجا إلى الحركة بجملة بدنه وببعض أعضائه، مفتقرا للتردد فى حاجاته، لم يجعل عظمه عظما واحدا، بل عظاما كثيرة بينها مفاصل حتى تتيسر بها الحركة وقدّر شكل كل واحدة منها على وفق الحركة المطلوبة بها، ثم وصل مفاصلها، وربط بعضها ببعض

---

[١] المؤمنون: ١٢، ١٣، ١٤

بأوتار أنبتها من أحد طرفي العظم ، وألصقه بالعظم الآخر كالرباط له ، ثم خلق فى أحد طرفي العظم زوائد خارجة منه ، وفى الآخر حفرا غائصة فيه موافقة لشكل الزوائد لتدخل فيها وتنطبق عليها ، فصار العبد إن أراد تحريك جزء من بدنه لم يمتنع عليه . ولولا المفاصل لتعذر عليه ذلك . ثم انظر كيف خلق عظام الرأس وكيف جمعها وركّبها ، وقد ركّبها من خمسة وخمسين عظما مختلفة الأشكال والصور ، فألّف بعضها إلى بعض بحيث استوى به كرة الرأس كما تراه ؛ فمنها ستة تخص القحف ، وأربعة عشر للحى الأعلى واثنان للحى الأسفل ، والبقية هي الأسنان بعضها عريضة تصلح للطحن ، وبعضها حادة تصلح للقطع ، وهي الأنياب ، والأضراس ، والثنايا . ثم جعل الرقبة مركبا للرأس ، وركّبها من سبع خرزات مجوفات مستديرات ، فيها تحريفات وزيادات ونقصانات لينطبق بعضها على بعض ، ويطول ذكر وجه الحكمة فيها . ثم ركب الرقبة على الظهر ، وركب الظهر من أسفل الرقبة إلى منتهى عظم العجز من أربع وعشرين خرزة ، وركب عظم العجز من ثلاثة أجزاء مختلفة ، فيتصل به من أسفله عظم العصعص وهو أيضا مؤلف من ثلاثة أجزاء ، ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر ، وعظام الكتف ، وعظام اليدين وعظام العانة ، وعظام العجز ، وعظام الفخذين والساقين وأصابع الرجلين ، فلا نطوّل بذكر عدد ذلك ومجموع عدد العظام فى بدن الإنسان مائتا عظم وثمانية وأربعون عظما ، سوى العظام الصغيرة التى حشي بها خالل المفاصل . فانظر كيف خلق جميع ذلك من نطفة سخيفة رقيقة . وليس المقصود من ذكر أعداد العظام أن يعرف عددها ، فإن هذا علم قريب يعرفه الأطباء والمشرحون ، وإنما الغرض أن ينظر منها فى مدبرها وخالقها أنه كيف قدّرها ودبرها ، وخالف بين أشكالها وأقدارها ، وخصّصها بهذا العدد المخصوص ، لأنه لو زاد عليها واحدا لكان وبالا على الإنسان يحتاج إلى قلعه ، ولو نقص منها واحدا لكان نقصانا يحتاج إلى جبره . فالطبيب ينظر فيها ليعرف وجه العلاج فى جبرها . وأهل البصائر ينظرون فيها ليستدلوا بها على جلالة خالقها ومصوّرها . فشتان بين النظرين

ثم انظر كيف خلق الله تعالى آلات لتحريك العظام وهي العضلات ، فخلق فى بدن

الإنسان خمسمائة عضلة وتسعا وعشرين عضلة ، والعضلة مركبة من لحم ، وعصب ، ورباط وأغشية ، وهي مختلفة المقادير والأشكال بحسب اختلاف مواضعها وقدر حاجاتها ، فأربع وعشرون عضلة منها هي لتحريك حدقة العين وأجفانها ، لو نقصت واحدة من جملتها اختل أمر العين . وهكذا لكل عضو عضلات بعدد مخصوص وقدر مخصوص

وأمر الأعصاب ، والعروق ، والأوردة ، والشرايين ، وعددها ، ومنابتها ، وانشعاباتها أعجب من هذا كله ، وشرحه يطول ، فللفكر مجال فى آحاد هذه الأجزاء ، ثم فى آحاد هذه الأعضاء ، ثم فى جملة البدن

فكل ذلك نظر إلى عجائب أجسام البدن . وعجائب المعانى والصفات التى لاتدرك بالحواس أعظم . فانظر الآن إلى ظاهر الإنسان وباطنه ، وإلى بدنه وصفاته ، فترى به من العجائب والصنعة مايقضى به العجب : وكل ذلك صنع الله فى قطرة ماء قذرة : فترى من هذا صنعه فى قطرة ماء ، فما صنعه فى ملكوت السموات وكواكبها ؟ وما حكمته فى أوضاعها ، وأشكالها ، ومقاديرها ، وأعدادها ، واجتماع بعضها وتفرق بعضها واختلاف صورها ، وتفاوت مشارقها ومغاربها ؟ فلا تظنن أن ذرة من ملكوت السموات تنفك عن حكمة وحكم ، بل هى أحكم خلقا ، وأتقن صنعا ، وأجمع للعجائب من بدن الإنسان . بل لا نسبة لجميع ما فى الأرض إلى عجائب السموات . ولذلك قال تعالى : (أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا [1])

فارجع الآن إلى النطفة وتأمل حالها أولا ، وماصارت إليه ثانيا ، وتأمل أنه لو اجتمع الجن والإنس على أن يخلقوا للنطفة سمعا ، أو بصرا ، أو عقلا ، أو قدرة ، أو علما ، أو روحا أو يخلقوا فيها عظما ، أو عرقا ، أو عصبا ، أو جلدا ، أو شعرا ، هل يقدرون على ذلك ؟ بل لو أرادوا أن يعرفوا كنه حقيقته ، وكيفية خلقته بعد أن خلق الله تعالى ذلك لعجزوا عنه

فالعجب منك لو نظرت إلى صورة إنسان مصور على حائط تأنق النقاش فى تصويرها حتى قرب ذلك من صورة الإنسان ، وقال الناظر إليها : كأنه إنسان ، عظم تعجبك

(١) النازعات : ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩

من صنعة النقاش وحذقه ، وخفة يده ، وتمام فطنته ، وعظم فى قلبك محله ، مع أنك تعلم أن تلك الصورة إنما تمت بالصبغ ، والقلم ؛ واليد ، وبالحائط ، وبالقدرة ، وبالعلم ، وبالإرادة ، وشيء من ذلك ليس من فعل النقاش ولا خلقه ، بل هو من خلق غيره ، وإنما منتهى فعله الجمع بين الصبغ والحائط على ترتيب مخصوص ، فيكثر تعجبك منه وتستعظمه ، وأنت ترى النطفة القذرة كانت معدومة ، فخلقها خالقها فى الأصلاب والترائب . ثم أخرجها منها وشكلها فأحسن تشكيلها ، وقدرها فأحسن تقديرها وتصويرها ، وقسم أجزاءها المتشابهة إلى أجزاء مختلفة ، فأحكم العظام فى أرجائها ، وحسن أشكال أعضائها ، وزين ظاهرها وباطنها ، ورتب عروقها وأعصابها ، وجعلها مجرى لغذائها ليكون ذلك سبب بقائها ، وجعلها سميعة ، بصيرة ؛ عالمة ، ناطقة ، وخلق لها الظهر أساسا لبدنها ، والبطن حاويا لآلات غذائها ، والرأس جامعا لحواسها

نبذة من عجائب بدن الانسان

ففتح العينين ورتب طبقاتها ، وأحسن شكلها ولونها وهيآتها ، ثم حماها بالأجفان لتسترها ، وتحفظها ، وتصقلها ، وتدفع الأقذاء عنها ، ثم أظهر فى مقدار عدسة منها صورة السموات مع اتساع أكنافها وتباعد أقطارها ، فهو ينظر إليها

ثم شق أذنيه وأودعهما ماء مرا ليحفظ سمعها ، ويدفع الهوام عنها ، وحوطها بصدفة الأذن لتجمع الصوت فترده إلى صماخها ، ولتحس بدبيب الهوام إليها ، وجعل فيها تحريفات واعوجاجات لتكثر حركة ما يدب فيها ، ويطول طريقه ، فيتنبه من النوم صاحبها إذا قصدها دابة فى حال النوم . ثم رفع الأنف من وسط الوجه ، وأحسن شكله ، وفتح منخريه ، وأودع فيه حاسة الشم ليستدل باستنشاق الروايح على مطاعمه وأغذيته ، وليستنشق بمنفذ المنخرين روح الهواء ، غذاء لقلبه ، وترويحا لحرارة باطنه

وفتح الفم وأودعه اللسان ناطقا وترجمانا ومعربا عما فى القلب ، وزين الفم بالأسنان لتكون آلة الطحن والكسر والقطع ، فأحكم أصولها ، وحدد رؤسها ، وبيض لونها ، ورتب صفوفها ، متساوية الرءوس ، متناسقة الترتيب كأنها الدر المنظوم

وخلق الشفتين وحسن لونها وشكلها لتنطبق على الفم فتسد منفذه ، وليتم بها حروف الكلام ، وخلق الحنجرة وهيأها لخروج الصوت ، وخلق للسان قدرة للحركات

والتقطيعات ، لتقطع الصوت فى مخارج مختلفة تختلف بها الحروف ، ليتسع بها طريق النطق بكثرتها ، ثم خلق الحناجر مختلفة الأشكال فى الضيق ، والسعة ، والخشونة ، والملاسة ، وصلابة الجوهر ورخاوته ، والطول ، والقصر ، حتى اختلفت بسببها الأصوات فلا يتشابه صوتان ، بل يظهر بين كل صوتين فرقان حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرد الصوت فى الظلمة ،

ثم زين الرأس بالشعر والأصداغ ، وزين الوجه باللحية والحاجبين ، وزين الحاجب برقة الشعر واستقواس الشكل ، وزين العينين بالأهداب

ثم خلق الأعضاء الباطنة ، وسخر كل واحد لفعل مخصوص ، فسخر المعدة لنضج الغذاء ، والكبد لإحالة الغذاء إلى الدم ، والطحال والمرارة والكِلْية لخدمة الكبد ، فالطحال يخدمها بجذب السوداء عنها ، والمرارة تخدمها بجذب الصفراء عنها ، والكِلية تخدمها بجذب المائية عنها ، والمثانة تخدم الكلية بقبول الماء عنها ، ثم تخرجه فى طريق الإحليل ، والعروق تخدم الكبد فى إيصال الدم إلى سائر أطراف البدن

ثم خلق اليدين وطولهما لتمتد إلى المقاصد ، وعرّض الكف ، وقسّم الأصابع الخمس ، وقسّم كل أصبع بثلاث أنامل ، ووضع الأربعة فى جانب والإبهام فى جانب لتدور الإبهام على الجميع ، ولو اجتمع الأولون والآخرون على أن يستنبطوا بدقيق الفكر وجها آخر فى وضع الأصابع سوى ما وضعت عليه من بعد الإبهام عن الأربع ، وتفاوت الأربع فى الطول وترتيبها فى صف واحد لم يقدروا عليه ، إذ بهذا الترتيب صلحت اليد للقبض والإعطاء ، فإن بسطها كانت له طبقا يضع عليها ما يريد ، وإن جمعها كانت له آلة للضرب ، وإن ضمها ضما غير تام كانت مغرفة له ، وإن بسطها وضم أصابعها كانت مجرفة له ؛ ثم خلق الأظفار على رؤسها زينة للأنامل ؛ وعمادا لها من ورائها حتى لا تنقطع ، وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التى لا تتناولها الأنامل ، وليحك بها بدنه عند الحاجة . فالظفر الذى هو أخس الأعضاء لو عدمه الإنسان وظهر به حكة لكان أعجز الخلق وأضعفهم . ولم يقم أحد مقامه فى حك بدنه . ثم هدى اليد إلى موضع الحك حتى تمتد إليه ولو فى النوم والغفلة من غير حاجة إلى طلب ، ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك إلا بعد تعب طويل

ثم خلق هذا كله من النطفة وهي في داخل الرحم في ظلمات ثلاث ، ولو كشف الغطاء والغشاء وامتد البصر إليه لكان يرى التخطيط والتصوير يظهر عليها شيئا فشيئا ، ولا يرى المصور ولا آلته ، فهل رأيت مصورا أو فاعلا لا يمس آلته ومصنوعه ولا يلاقيه ، وهو يتصرف فيه ، فسبحانه ما أعظم شأنه وأظهر برهانه

ثم انظر مع كمال قدرته إلى تمام رحمته ، فإنه لما ضاق الرحم عن الصبي لما كبر ، كيف هداه السبيل حتى تنكّس ، وتحرّك ، وخرج من ذلك المضيق ، وطلب المنفذ كأنه عاقل بصير بما يحتاج إليه ، ثم لما خرج واحتاج إلى الغذاء كيف هداه إلى التقام الثدي ، ثم لما كان بدنه سخيفا لا يحتمل الأغذية الكثيفة كيف دبر له في خلق اللبن اللطيف ، واستخرجه من بين الفرث والدم سائغا خالصا ، وكيف خلق الثديين وجمع فيهما اللبن وأنبت منهما حلمتين على قدر ما ينطبق عليهما فم الصبي ، ثم فتح في حلمة الثدي ثقبا ضيقا جدّا حتى لا يخرج اللبن منه إلا بعد المص تدريجا فإن الطفل لا يطيق منه إلا القليل ثم كيف هداه للامتصاص حتى يستخرج من ذلك المضيق اللبن الكثير عند شدّة الجوع

ثم أنظر إلى عطفه ورحمته ورأفته كيف أخّر خلق الأسنان إلى تمام الحولين ، لأنه في الحولين لا يتغذى إلا باللبن فيستغنى عن السن ، وإذا كبر لم يوافقه اللبن السخيف ويحتاج إلى طعام غليظ ، ويحتاج الطعام إلى المضغ والطحن ، فأنبت له الأسنان عند الحاجة لا قبلها ولا بعدها ، فسبحانه كيف أخرج تلك العظام الصلبة في تلك اللثات اللينة

ثم حنن قلوب الوالدين عليه للقيام بتدبيره في الوقت الذى كان عاجزا عن تدبير نفسه فلو لم يسلط الله الرحمة على قلوبهما لكان الطفل أعجز الخلق عن تدبير نفسه

ثم انظر كيف رزقه القدرة ، والتمييز ، والعقل ، والهداية تدريجا حتى بلغ وتكامل فصار مراهقا ، ثم شابا ، ثم كهلا ، ثم شيخا ، إما كفورا أو شكورا ، مطيعا أو عاصيا مؤمنا أو كافرا ، تصديقا لقوله تعالى (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا [1]) فانظر إلى اللطف والكرم ، ثم إلى

---

(١) الدهر : ١ ، ٢ ، ٣

القدرة والحكمة تبهرك عجائب الحضرة الربانية

والعجب كل العجب ممن يرى خطّا حسنا ، أو نقشا حسنا على حائط فيستحسنه ، فيصرف جميع همه إلى التفكر فى النقاش والخطاط ، وأنه كيف نقشه وخطه وكيف اقتدر عليه ، ولا يزال يستعظمه فى نفسه ويقول ما أحذقه ، وما أكمل صنعته وأحسن قدرته ، ثم ينظر إلى هذه العجائب فى نفسه وفى غيره ، ثم يغفل عن صانعه ومصوره ، فلاتدهشه عظمته ، ولايحيره جلاله وحكمته . فهذه نبذة من عجائب بدنك التى لا يمكن استقصاؤها ، فهو أقرب مجال لفكرك ، وأجلى شاهد على عظمة خالقك . وأنت غافل عن ذلك ، مشغول ببطنك وفرجك ، لاتعرف من نفسك إلا أن تجوع فتأكل ، وتشبع فتنام ، وتشتهي فتجامع ، وتغضب فتقاتل ، والبهائم كلها تشاركك فى معرفة ذلك وإنما خاصية الإنسان التى حجبت البهائم عنها ، معرفة الله تعالى بالنظر فى ملكوت السموات والأرض ، وعجائب الآفاق والأنفس ، إذ بها يدخل العبد فى زمرة الملائكة المقربين ويحشر فى زمرة النبيين والصديقين مقربا من حضرة رب العالمين . وليست هذه المنزلة للبهائم ، ولا لإنسان رضي من الدنيا بشهوات البهائم ، فإنه شر من البهائم بكثير إذ لا قدرة للبهيمة على ذلك ، وأما هو فقد خلق الله له القدرة ثم عطلها ، وكفر نعمة الله فيها ، فأولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلا

وإذا عرفت طريق الفكر فى نفسك فتفكر فى الأرض التى هي مقرك ، ثم فى أنهارها ، وبحارها ، وجبالها ، ومعادنها ، ثم ارتفع منها إلى ملكوت السموات

طريق الفكر فى الأرض

أما الأرض فمن آياته أن خلق الأرض فراشا ومهادا ، وسلك فيها سبلا فجاجا ، وجعلها ذلولا لتمشوا فى مناكبها ، وجعلها قارة لاتتحرك ، وأرسى فيها الجبال أوتادا لها تمنعها من أن تميد ، ثم وسع أكنافها حتى عجز الآدميون عن بلوغ جميع جوانبها وإن طالت أعمارهم وكثر تطوافهم ، فقال تعالى (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ [1]) وقال تعالى (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا [2]) وقال تعالى (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً [3])

---

(١) الذاريات : ٤٧ ، ٤٨ (٢) الملك : ١٥ (٣) البقرة : ٢٢

وقد أكثر فى كتابه العزيز من ذكر الأرض ليتفكر فى عجائبها . فظهرها مقر للأحياء، وبطنها مرقد للأموات. قال تعالى (أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا [1])

فانظر إلى الأرض وهي ميتة ، فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت ، واخضرت وأنبتت عجائب النبات ، وخرجت منها أصناف الحيوانات

ثم انظر كيف أحكم جوانب الأرض بالجبال الراسيات ، الشوامخ الصم الصلاب ، وكيف أودع المياه تحتها ، ففجر العيون وأسال الأنهار تجرى على وجهها ، وأخرج من الحجارة اليابسة ومن التراب الكدر ماء رقيقا ، عذبا ، صافيا ، زلالا ، وجعل به كل شيء حيّ ، فأخرج به فنون الأشجار والنبات ، من حب ، وعنب ، وقضب ، وزيتون ، ونخل ورمان ، وفواكه كثيرة لاتحصى ، مختلفة الأشكال ، والألوان ، والطعوم ، والصفات ، والأراييح ، يفضل بعضها على بعض فى الأكل ، تسقى بماء واحد، وتخرج من أرض واحدة

فإن قلت :إن اختلافها باختلاف بذورها وأصولها، فمتى كان فى النواة نخلة مطوقة بعناقيد الرطب ؟ ومتى كان فى حبة واحدة سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ؟

ثم انظر إلى أرض البوادى وفتش ظاهرها وباطنها ، فتراها ترابا متشابها ، فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ألوانا مختلفة ، ونباتا متشابها وغير متشابه ، لكل واحد طعم ، وريح ، ولون ، وشكل يخالف الآخر ، فانظر إلى كثرتها واختلاف أصنافها ، وكثرة أشكالها ، ثم اختلاف طبائع النبات وكثرة منافعه ، وكيف أودع الله تعالى العقاقير المنافع الغريبة ، فهذا النبات يغذى ، وهذا يقوى ، وهذا يحيي ، وهذا يقتل ، وهذا يبرد ، وهذا يسخن ، وهذا إذا حصل فى المعدة قمع الصفراء من أعماق العروق ، وهذا يستحيل إلى الصفراء ، وهذا يقمع البلغم والسوداء ، وهذا يستحيل إليهما وهذا يصفى الدم ، وهذا يستحيل دما ، وهذا يفرح ، وهذا ينوّم ، وهذا يقوى ، وهذا يضعف ، فلم تنبت من الأرض ورقة ولا تبنة إلا وفيها منافع لايقوى البشر على الوقوف على كنهها ، وكل واحد من هذا النبات يحتاج الفلاح فى تربيته إلى عمل مخصوص ،فالنخل تؤبر ، والكرم يكسح ، والزرع ينقى عنه الحشيش والدغل ، وبعض ذلك يستنبت ببث

(1) المرسلات : ٢٥

البذر فى الأرض ، وبعضه بغرس الأغصان ، وبعضه يركب فى الشجر . ولو أردنا أن نذكر اختلاف أجناس النبات ، وأنواعه ، ومنافعه ، وأحواله وعجائبه ، لانقضت الأيام فى وصف ذلك ، فيكفيك من كل جنس نبذة يسيرة تدلك على طريق الفكر . فهذه عجائب النبات

ومن آياته الجواهر المودعة تحت الجبال ، والمعادن الحاصلة من الأرض ففى الأرض قطع متجاورات مختلفة ، فانظر إلى الجبال كيف يخرج منها الجواهر النفيسة من الذهب والفضة ، والفيروزج ، واللعل وغيرها ، بعضها منطبعة تحت المطارق كالذهب ، والفضة ، والنحاس ، والرصاص ، والحديد ، وبعضها لاينطبع كالفيروزج واللعل ، وكيف هدى الله الناس إلى استخراجها وتنقيتها ، واتخاذ الأوانى والآلات والنقود والحلي منها

ثم انظر إلى معادن الأرض من النفط ، والكبريت ، والقار ، وغيرها ، وأقلها الملح ولا يحتاج إليه إلا لتطييب الطعام ، ولو خلت عنه بلدة لتسارع الهلاك إليها ، فانظر إلى رحمة الله تعالى كيف خلق بعض الأراضى سبخة بجوهرها ، بحيث يجتمع فيها الماء الصافى من المطر فيستحيل ملحا مالحا محرقا لايمكن تناول مثقال منه ، ليكون ذلك تطييبا لطعامك إذا أكلته فيتهنأ عيشك

وما من جماد ، ولاحيوان ، ولانبات ، إلا وفيه حكمة وحكم من هذا الجنس ، ماخلق شيء منها عبثا ، ولالعبا ، ولاهزلا ، بل خلق الكل بالحق كماينبغى ، وعلى الوجه الذى ينبغى ، وكمايليق بجلاله وكرمه ولطفه . ولذلك قال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَابَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ [1])

التفكر فى أصناف الحيوانات

ومن آياته أصناف الحيوانات وانقسامها إلى مايطير وإلى مايمشى ، وانقسام مايمشى إلى مايمشى على رجلين ، وإلى مايمشى على أربع ، وعلى عشر وعلى مائة ، كمايشاهد فى بعض الحشرات ، ثم انقسامها فى المنافع ، والصور ، والأشكال ، والأخلاق ، والطباع ، فانظر إلى طيور الجو ، وإلى وحوش البر والبهائم الأهلية ، ترى فيها من العجائب مالا تشك معه فى عظمة خالقها ، وقدرة مقدرها ، وحكمة مصورها ، وكيف يمكن أن يستقصى ذلك ! بل لو أردنا أن نذكر عجائب البقة ، أو النملة ، أو النحلة ، أو العنكبوت ، وهي من صغار الحيوانات

(١) الدخان : ٣٨ ، ٣٩

فى بنائها بيتها ، وفى جمعها غذاءها ، وفى إلفها لزوجها ،وفى ادخارها لنفسها وفى حذقها فى هندسة بيتها ، وفى ، هدايتها إلى حاجاتها لم تقدر على ذلك

فترى العنكبوت يبنى بيته على طرف نهر ، فيطلب أولا موضعين متقاربين بينهما فرجة بمقدار ذراع فمادونه ، حتى يمكنه أن يصل بالخيط بين طرفيه : ثم يبتدىء ويلقى اللعاب الذى هو خيطه على جانب ليلتصق به ، ثم يغدو إلى الجانب الآخر فيحكم الطرف الآخر من الخيط،ثم كذلك يتردد ثانيا وثالثا،ويجعل بعد مابينهما متناسبا تناسباهندسيا،حتى إذا أحكم معاقد القمط ، ورتب الخيوط كالسدى ، اشتغل باللحمة ، فيضع اللحمة على السدى ويضيف بعضه إلى بعض ، ويحكم العقد على موضع التقاء اللحمة بالسدى ، ويراعى فى جميع ذلك تناسب الهندسة ، ويجعل ذلك شبكة يقع فيها البق والذباب ، ويقعد فى زاوية مترصدا لوقوع الصيد فى الشبكة ، فإذا وقع الصيد بادر إلى أخذه وأكله ، فإن عجز عن الصيد كذلك طلب لنفسه زاوية من حائط ، ووصل بين طرفي الزاوية بخيط ، ثم علق نفسه فيها بخيط آخر ، وبقى منكسا فى الهواء ينتظر ذبابة تطير ، فإذا طارت رمى بنفسه إليه فأخذه، ولف خيطه على رجليه وأحكمه ثم أكله

وما من حيوان صغير ولا كبير إلا وفيه من العجائب مالا يحصى . أفترى أنه تعلم هذه الصنعة من نفسه؟ أو تكون بنفسه ؟ أوكونه آدمي أو علمه ؟ أولاهادي له ولا معلم ؟ أفيشك ذو بصيرة فى أنه مسكين ، ضعيف ، عاجز ، بل الفيل ، العظيمُ شخصه ، الظاهرة قوته ، عاجز عن أمر نفسه ، فكيف هـذا الحيوان الضعيف ؟ أفلا يشهد هو بشكله ، وصورته ، وحركته ، وهدايته ، وعجائب صنعته لفاطره الحكيم ، وخالقه القادر العليم ؟ فالبصير يرى فى هـذا الحيوان الصغير من عظمة الخالق المدبر ، وجلاله ، وكمال قدرته وحكمته ماتتحير فيه الألباب والعقول فضلا عن سائر الحيوانات

كثرة المشاهدة لشىء تسقط العجائب فيه

وهذا الباب أيضا لاحصر له فإن الحيوانات ، وأشكالها ، وأخلاقها ، وطباعها غير محصورة ، وإنما سقط تعجب القلوب منها لأنسها بكثرة المشاهد . نعم إذا رأى حيوانا غريبا ولو دودا تجدد تعجبه ، وقال :سبحان الله ما أعجبه ، والإنسان أعجب الحيوانات

وليس يتعجب من نفسه . بل لو نظر إلى الأنعام التى ألفها ، ونظر إلى أشكالها وصورها ، ثم إلى منافعها وفوائدها من جلودها ، وأصوافها ، وأوبارها ، وأشعارها ، التى جعلها الله لباسا لخلقه ، وأكنانا لهم فى ظعنهم وإقامتهم ، وآنية لأشربتهم ، وأوعية لأغذيتهم ، وصوانا لأقدامهم ، وجعل ألبانها ولحومها أغذية لهم ، ثم جعل بعضها زينة للركوب ، وبعضها حاملة للأثقال قاطعة للبوادي والمفازات البعيدة . لأكثر الناظر التعجب من حكمة خالقها ومصورها ، فإنه ما خلقها إلا بعلم محيط بجميع منافعها ، سابق على خلقه إياها ، فسبحان مَن الأمور مكشوفة فى علمه من غير تفكر ، ومن غير تأمل وتدبر ، ومن غير استعانة بوزير أو مشير ، فهو العليم الخبير ، الحكيم القدير ، فلقد استخرج بأقل القليل مما خلقه صدق الشهادة من قلوب العارفين بتوحيده ، فما للخلق إلا الإذعان لقهره وقدرته والاعتراف بربوبيته ، والإقرار بالعجز عن معرفة جلاله وعظمته ، فمن ذا الذى يحصى ثناء عليه ؟ بل هو كما أثنى على نفسه . وإنما غاية معرفتنا الاعتراف بالعجز عن معرفته ، فنسأل الله تعالى أن يكرمنا بهدايته بمنّه ورأفته

التفكر فى البحار

ومن آياته البحار العميقة المكتنفة لأقطار الأرض التى هي قطع من البحر الأعظم المحيط بجميع الأرض ، حتى أن جميع المكشوف من البوادى والجبال من الماء بالإضافة إلى الماء كجزيرة صغيرة فى بحر عظيم ، وبقية الأرض مستورة بالماء ، قال النبي صلى الله عليه وسلم «[1] الْأَرْضُ فِي الْبَحْرِ كَالْإِسْطَبْلِ فِي الْأَرْضِ » فانسب اصطبلا إلى جميع الأرض واعلم أن الأرض بالإضافة إلى البحر مثله . وقد شاهدت عجائب الأرض وما فيها ، فتأمل الآن عجائب البحر ، فإن عجائب ما فيه من الحيوان والجواهر أضعاف عجائب ما تشاهده على وجه الأرض ، كما أن سعته أضعاف سعة الأرض

ولعظم البحر كان فيه من الحيوانات العظام ماترى ظهورها فى البحر فتظن أنها جزيرة ، فينزل الركاب عليها ، فربما تحس بالنيران إذا اشتعلت فتتحرك ويعلم أنها حيوان وما من صنف من أصناف حيوان البر من فرس . أو طير ، أو بقر ، أو إنسان ، إلا وفى البحر أمثاله وأضعافه وفيه أجناس لايعهد لها نظير فى البر ، وقد ذكرت أوصافها

(١) حديث الأرض فى البحر كالاسطبل فى الارض: تقدم ولم أجده

فى مجلدات ، وجمعها أقوام عنوا بركوب البحر وجمع عجائبه

ثم انظر كيف خلق الله اللؤلؤ ودوره فى صدفه تحت الماء ، وانظر كيف أنبت المرجان من صم الصخور تحت الماء ، وإنما هو نبات على هيئة شجر ينبت من الحجر

ثم تأمل ما عداه من العنبر وأصناف النفائس التى يقذفها البحر وتستخرج منه

ثم أنظر إلى عجائب السفن كيف أمسكها الله تعالى على وجه الماء ، وسير فيها التجار وطلاب الأموال وغيرهم ، وسخر لهم الفلك لتحمل أثقالهم ، ثم أرسل الرياح لتسوق السفن ، ثم عرف الملاحين موارد الرياح ، ومهابها ومواقيتها

ولا يستقصى على الجملة عجائب صنع الله فى البحر فى مجلدات . وأعجب من ذلك كله ماهو أظهر من كل ظاهر ، وهو كيفية قطرة الماء ، وهو جسم رقيق ، لطيف ، سيال مشف ، متصل الأجزاء كأنه شيء واحد ، لطيف التركيب ، سريع القبول للتقطيع كأنه منفصل ، مسخر للتصرف ، قابل للانفصال والاتصال ، به حياة كل ماعلى وجه الأرض من حيوان ونبات ، فلو احتاج العبد إلى شربة ماء ومنع منها لبذل جميع خزائن الأرض وملك الدنيا فى تحصيلها او ملك ذلك . ثم لو شربها ومنع من إخراجها لبذل جميع خزائن الأرض وملك الدنيا فى إخراجها . فالعجب من الآدمي كيف يستعظم الدينار والدرهم ونفائس الجواهر ، ويغفل عن نعمة الله فى شربة ماء إذا احتاج إلى شربها أو الاستفراغ عنها بذل جميع الدنيا فيها . فتأمل فى عجائب المياه والأنهار ، والآبار والبحار ، ففيها متسع للفكر ومجال : وكل ذلك شواهد متظاهرة ، وآيات متناصرة ، ناطقة بلسان حالها ، مفصحة عن جلال بارئها ، معربة عن كمال حكمته فيها ، منادية أرباب القلوب بنغماتها ، قائلة لكل ذى لب أما ترانى وترى صورتى ، وتركيبى ، وصفاتى ، ومنافعى ، واختلاف حالاتى ، وكثرة فوائدى ؟ أتظن أنى كوّنت نفسى ! أو خلقنى أحد من جنسى؟ أوما تستحي أن تنظر فى كلمة مرقومة من ثلاثة أحرف ، فتقطع بأنها من صنعة آدمي عالم ، قادر ، مريد ، متكلم ، ثم تنظر إلى عجائب الخطوط الإلهية المرقومة على صفحات وجهي ، بالقلم الإلهي الذى لاتدرك الأبصار ذاته ولاحركته ولا اتصاله بمحل الخط ، ثم ينفك قلبك عن جلالة صانعه ؟

وتقول النطفة لأرباب السمع والقلب ، لا للذين هم عن السمع معزولون ، توهمني في ظلمة الأحشاء مغموسة في دم الحيض ، في الوقت الذي يظهر التخطيط والتصوير على وجهي فينقش النقاش حدقتي ، وأجفاني وجبهتي ، وخدي ، وشفتي ، فترى التقويس يظهر شيئا فشيئا على التدريج ؛ ولا ترى داخل النطفة نقاشا ولا خارجها ، ولا داخل الرحم ولا خارجه ، ولا خبر منها للأم ، ولا للأب ، ولا للنطفة ، ولا للرحم ، أفما هذا النقّاش بأعجب مما تشاهده ينقش بالقلم صورة عجيبة ، لو نظرت إليها مرة أو مرتين لعلمته ؟ فهل تقدر على أن تتعلم هذا الجنس من النقش والتصوير الذي يعم ظاهر النطفة ، وباطنها ، وجميع أجزائها ، من غير ملامسة للنطفة ، ومن غير اتصال بها لا من داخل ولا من خارج ؟ فإن كنت لا تتعجب من هذه العجائب ، ولا تفهم بها أن الذي صور ونقش وقدر لا نظير له ، ولا يساويه نقاش ولا مصور ، كما أن نقشه وصنعه لا يساويه نقش وصنع ، فبين الفاعلين من المباينة والتباعد ما بين الفعلين ، فإن كنت لا تتعجب من هذا فتعجب من عدم تعجبك ، فإنه أعجب من كل عجب ؛ فإن الذي أعمى بصيرتك مع هذا الوضوح ، ومنعك من التبيين مع هذا البيان ، جدير بأن تتعجب منه : فسبحان من هدى وأضل ، وأغوى وأرشد ، وأشقى وأسعد ، وفتح بصائر أحبابه فشاهدوه في جميع ذرات العالم وأجزائه ، وأعمى قلوب أعدائه واحتجب عنهم بعزه وعلائه ؛ فله الخلق والأمر ، والامتنان والفضل ، واللطف ، والقهر ؛ لا رادّ لحكمه ، ولا معقب لقضائه

التفكر في الهواء

ومن آياته الهواء اللطيف المحبوس بين مقعر السماء ومحدب الأرض ، لا يدرك بحس اللمس عند هبوب الرياح جسمه ؛ ولا يرى بالعين شخصه : وجملته مثل البحر الواحد ، والطيور محلقة في جو السماء ومستبقة ، سباحة فيه بأجنحتها كما تسبح حيوانات البحر في الماء ، وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هبوب الرياح كما تضطرب أمواج البحر . فإذا حرك الله الهواء وجعله ريحا هابّة ، فإن شاء جعله بشرا بين يدي رحمته ، كما قال سبحانه (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ [1]) فيصل بحركته روح الهواء إلى الحيوانات والنباتات ، فتستعد للنماء . وإن شاء جعله عذابا على العصاة من خليقته ، كما قال تعالى

(1) الحجر : ٢٢

(إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ [١]) ثم انظر إلى لطف الهواء، ثم شدته وقوته مهما ضغط فى الماء، فالزق المنفوخ يتحامل عليه الرجل القوي ليغمسه فى الماء فيعجز عنه، والحديد الصلب تضعه على وجه الماء فيرسب فيه. فانظر كيف ينقبض الهواء من الماء بقوته مع لطافته. وبهذه الحكمة أمسك الله تعالى السفن على وجه الماء، وكذلك كل مجوف فيه هواء لا يغوص فى الماء لأن الهواء ينقبض عن الغوص فى الماء فلا ينفصل عن السطح الداخل من السفينة، فتبقى السفينة الثقيلة مع قوتها وصلابتها معلقة فى الهواء اللطيف، كالذى يقع فى بئر فيتعلق بذيل رجل قوي ممتنع عن الهوي فى البئر. فالسفينة بقعرها تتشبث بأذيال الهواء القوي حتى تمتنع من الهويّ والغوص فى الماء. فسبحان من علق المركب الثقيل فى الهواء اللطيف من غير علاقة تشاهد، وعقدة تشد

ثم انظر إلى عجائب الجو وما يظهر فيه من الغيوم، والرعود والبروق، والأمطار، والثلوج، والشهب، والصواعق، فهي عجائب ما بين السماء والأرض، وقد أشار القرءان إلى جملة ذلك فى قوله تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ [٢]) وهذا هو الذى بينهما، وأشار إلى تفصيله فى مواضع شتى حيث قال تعالى: (وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ [٣]) وحيث تعرض للرعد، والبرق، والسحاب، والمطر؛ فإذا لم يكن لك حظ من هذه الجملة إلا أن ترى المطر بعينك، وتسمع الرعد بأذنك، فالبهيمة تشاركك فى هذه المعرفة. فارتفع من حضيض عالم البهائم إلى عالم الملأ الأعلى، فقد فتحت عينيك فأدركت ظاهرها، فغمض عينك الظاهرة وانظر ببصيرتك الباطنة لترى عجائب باطنها وغرائب أسرارها

التفكر فى السحاب

وهذا أيضا باب يطول الفكر فيه، إذ لا مطمع فى استقصائه. فتأمل السحاب الكثيف المظلم كيف تراه يجتمع فى جو صاف لا كدورة فيه، وكيف يخلقه الله تعالى إذا شاء ومتى شاء، وهو مع رخاوته حامل للماء الثقيل، وممسك له فى جو السماء، إلى أن يأذن الله فى إرسال الماء، وتقطيع القطرات كل قطرة بالقدر الذى أراده الله تعالى،

---

(١) القمر: ١٩، ٢٠ (٢) الدخان: ٣٨ (٣) البقرة: ١٦٤

وعلى الشكل الذى شاءه ، فترى السحاب يرش الماء على الأرض ، ويرسله قطرات متفاصلة لاتدرك قطرة منها قطرة ، ولاتتصل واحدة بأخرى ، بل تنزل كل واحدة في الطريق الذى رسم لها لاتعدل عنه ، فلا يتقدم المتأخر ، ولا يتأخر المتقدم ، حتى يصيب الأرض قطرة قطرة . فلو اجتمع الأولون والآخرون على أن يخلقوا منها قطرة ، أو يعرفوا عدد ما ينزل منها فى بلدة واحدة ، أو قرية واحدة ، لعجز حساب الجن والإنس عن ذلك . فلا يعلم عددها إلا الذى أوجدها . ثم كل قطرة منها عينت لكل جزء من الأرض ، ولكل حيوان فيها من طير ، ووحش ، وجميع الحشرات ، والدواب ، مكتوب على تلك القطرة بخط إلهى لايدرك بالبصر الظاهر أنها رزق الدودة الفلانية ، التى فى ناحية الجبل الفلانى ، تصل إليها عند عطشها فى الوقت الفلانى . هذا مع مافى انعقاد البرد الصلب من الماء اللطيف وفى تناثر الثلوج كالقطن المندوف من العجائب التى لاتحصى

كل ذلك فضل من الجبار القادر ، وقهر من الخلاق القاهر ، مالأحد من الخلق فيه شرك ولا مدخل ، بل ليس للمؤمنين من خلقه إلا الاستكانة والخضوع تحت جلاله وعظمته ، ولا للعميان الجاحدين إلا الجهل بكيفيته ، ورجم الظنون بذكر سببه وعلته . فيقول الجاهل المغرور : إنما ينزل الماء لأنه ثقيل بطبعه ، وإنما هذا سبب نزوله . ويظن أن هذه معرفة انكشفت له ، ويفرح بها . ولو قيل له مامعنى الطبع ؟ وما الذى خلقه ؟ ومن الذى خلق الماء الذى طبعه الثقل ؟ وما الذى رقى الماء المصبوب فى أسافل الشجر إلى أعالى الأغصان وهو ثقيل بطبعه ؟ فكيف هوى إلى أسفل ثم ارتفع إلى فوق فى داخل تجاويف الأشجار شيئا فشيئا ، بحيث لايرى ولايشاهد حتى ينتشر فى جميع أطراف الأوراق ، فيغذى كل جزء من كل ورقة ، ويجرى إليها فى تجاويف عروق شعرية صغار ، يروى منه العرق الذى هو أصل الورقة ، ثم ينتشر من ذلك العرق الكبير الممدود فى طول الورقة عروق صغار ، فكأن الكبير نهر ، وما انشعب عنه جداول ، ثم ينشعب من الجداول سواق أصغر منها ، ثم ينتشر منها خيوط عنكبوتية دقيقة تخرج عن إدراك البصر حتى تنبسط فى جميع عرض الورقة ، فيصل الماء فى أجوافها إلى سائر أجزاء الورقة ليغذيها وينميها ، ويزينها ، وتبقى طراوتها ونضارتها ، وكذلك إلى سائر أجزاء الفواكه .

فإن كان الماء يتحرك بطبعه إلى أسفل ، فكيف تحرك إلى فوق ؟ فإن كان ذلك بجذب جاذب فما الذى سخر ذلك الجاذب ؟ وإن كان ينتهى بالآخرة إلى خالق السموات والأرض ، وجبار الملك والملكوت ، فلم لايحال عليه من أول الأمر ؟ فنهاية الجاهل بداية العاقل

التفكر فى ملكوت السموات

ومن آياته ملكوت السموات والأرض وما فيها من الكواكب ، وهو الأمر كله ومن أدرك الكل وفاته عجائب السموات فقد فاته الكل تحقيقا . فالأرض ، والبحار ، والهواء ، وكل جسم سوى السموات بالإضافة إلى السموات قطرة فى بحر وأصغر . ثم انظر كيف عظم الله أمر السموات والنجوم فى كتابه ، فما من سورة إلا وتشتمل على تفخيمها فى مواضع . وكم من قسم فى القرءان بها ، كقوله تعالى (وَالسَّماءِ ذاتِ الْبُرُوجِ [١]) (وَالسَّماءِ وَالطَّارِقِ [٢]) (وَالسَّماءِ ذاتِ الْحُبُكِ [٣]) (وَالسَّماءِ وَما بَناها [٤]) وكقوله تعالى (وَالشَّمْسِ وَضُحاها وَالْقَمَرِ إِذا تَلاها [٥]) وكقوله تعالى (فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوارِ الْكُنَّسِ [٦]) وقوله تعالى (وَالنَّجْمِ إِذا هَوى [٧]) (فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ [٨]) فقد علمت أن عجائب النطفة القذرة عجز عن معرفتها الأولون والآخرون ، وما أقسم الله بها ، فما ظنك بما أقسم الله تعالى به ، وأحال الأرزاق عليه ، وأضافها إليه ، فقال تعالى (وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَما تُوعَدُونَ [٩]) وأثنى على المتفكرين فيه فقال (وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمواتِ وَالْأَرْضِ [١٠])

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [(١)] « وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ثُمَّ مَسَحَ بِهَا سَبَلَتَهُ » أي تجاوزها من غير فكر . وذم المعرضين عنها فقال (وَجَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آياتِها مُعْرِضُونَ [١١])

فأي نسبة لجميع البحار والأرض إلى السماء ، وهي متغيرات على القرب والسموات صلاب شداد ، محفوظات عن التغير إلى أن يبلغ الكتاب أجله . ولذلك سماه الله تعالى محفوظا

---

(١) حديث ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته أى قوله تعالى - ويتفكرون فى خلق السموات والأرض: تقدم

---

(١) البروج : ١ (٢) الطارق : ١ (٣) الذاريات : ٧ (٤) الشمس : ٥ (٥) الشمس : ١، ٢
(٦) التكوير : ١٥ (٧) : النجم ١ (٨) الواقعة : ٧٥، ٧٦ (٩) الذاريات: ٢٢ (١٠) آل عمران : ١٩١
(١١) الأنبياء : ٣٢

فقال (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا [١]) وقال سبحانه (وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا [٢]) وقال (أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا [٣])

فانظر إلى الملكوت لترى عجائب العز والجبروت ، ولا تظنن أن معنى النظر إلى الملكوت بأن تمد البصر إليه ، فترى زرقة السماء وضوء الكواكب وتفرقها ، فإن البهائم تشاركك في هذا النظر. فإن كان هذا هو المراد ، فلم مدح الله تعالى إبراهيم بقوله (وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ [٤]) لا بل كل مايدرك بحاسة البصر . فالقرءان يعبر عنه بالملك والشهادة . وما غاب عن الأبصار فيعبر عنه بالغيب والملكوت . والله تعالى عالم الغيب والشهادة ، وجبار الملك الملكوت ، ولا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء ، وهو عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول

فأجل أيها العاقل فكرك في الملكوت ، فعسى يفتح لك أبواب السماء فتجول بقلبك في أقطارها ، إلى أن يقوم قلبك بين يدي عرش الرحمن ، فعند ذلك ربما يرجى لك أن تبلغ رتبة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث قال : رأى قلبي ربي . وهذا لأن بلوغ الأقصى لا يكون إلا بعد مجاوزة الأدنى . وأدنى شيء إليك نفسك ، ثم الأرض التي هي مقرك ، ثم الهواء المكتنف لك ، ثم النبات والحيوان وما على وجه الأرض ، ثم عجائب الجو وهو ما بين السماء والأرض ، ثم السموات السبع بكواكبها ، ثم الكرسي ، ثم العرش ، ثم الملائكة الذين هم حملة العرش وخزان السموات ، ثم منه تجاوز إلى النظر إلى رب العرش ، والكرسي والسموات ، والأرض ، وما بينهما . فبينك وبين هذه المفاوز العظيمة ، والمسافات الشاسعة والعقبات الشاهقة ، وأنت بعد لم تفرغ من العقبة القريبة النازلة ، وهي معرفة ظاهر نفسك ثم صرت تطلق اللسان بوقاحتك ، وتدعي معرفة ربك ، وتقول قد عرفته وعرفت خلقه ففيما ذا أتفكر ؟ وإلى ماذا أتطلع ؟

فارفع الآن رأسك إلى السماء ، وانظر فيها وفي كواكبها ، وفي دورانها ، وطلوعها ، وغروبها ، وشمسها وقمرها ، واختلاف مشارقها ومغاربها ، ودءوبها في الحركة على الدوام من غير فتور في حركتها ، ومن غير تغير في سيرها ، بل تجري جميعا في منازل مرتبة

---

(١) النبأ : ١٢ (٢) النازعات : ٢٧ ، ٢٨ (٣) الأنعام : ٧٥

بحساب مقدر ، لايزيد ولا ينقص ، إلى أن يطويها الله تعالى طيّ السجل للكتاب. وتدبر عدد كواكبها وكثرتها واختلاف ألوانها ، فبعضها يميل إلى الحمرة ، وبعضها إلى البياض ، وبعضها إلى اللون الرصاصى . ثم انظر كيفية أشكالها ، فبعضها على صورة العقرب ، وبعضها على صورة الحمل ، والثور ، والأسد ، والإنسان . وما من صورة فى الأرض إلا ولها مثال فى السماء . ثم انظر إلى مسير الشمس فى فلكها في مدة سنة،ثم هي تطلع فى كل يوم وتغرب بسيرٍ آخر سخرها له خالقها ، ولولا طلوعها وغروبها لما اختلف الليل والنهار ، ولم تعرف المواقيت ، ولأطبق الظلام على الدوام أو الضياء على الدوام ، فكان لايتميز وقت المعاش عن وقت الاستراحة . فانظر كيف جعل الله تعالى الليل لباسا .والنوم سباتا ، والنهار معاشا . وانظر إلى إيلاجه الليل فى النهار ، والنهار فى الليل ، وإدخاله الزيادة والنقصان عليهما على ترتيب مخصوص . وانظر إلى إمالته مسير الشمس عن وسط السماء حتى اختلف بسببه الصيف ، والشتاء ، والربيع ، والخريف ، فإذا انخفضت الشمس من وسط السماء فى مسيرها برد الهواء وظهر الشتاء ، وإذا استوت فى وسط السماء اشتد القيظ وإذا كانت فيما بينهما اعتدل الزمان . وعجائب السموات لامطمع فى إحصاء عشر عشير جزء من أجزائها،وإنما هذا تنبيه على طريق الفكر . واعتقد على الجملة أنه مامن كوكب من الكواكب إلا ولله تعالى حكم كثيرة فى خلقه ،ثم فى مقداره ، ثم فى شكله ، ثم فى لونه،ثم فى وضعه من السماء وقربه من وسط السماء وبعده، وقربه من الكواكب التى بجنبه وبعده، وقس على ذلك ماذكرناه من أعضاء بدنك،إذ مامن جزء إلا وفيه حكمة بل حكم كثيرة. وأمر السماء أعظم . بل لا نسبة لعالم الأرض إلى عالم السماء ، لافى كبر جسم ، ولا فى كثرة معانيه . وقس التفاوت الذى بينهما فى كثرة المعانى بما بينهما من التفاوت فى كبر الأرض ، فأنت تعرف من كبر الأرض واتساع أطرافها أنه لايقدر آدمي على أن يدركها ويدور بجوانبها ، وقد اتفق الناظرون على أن الشمس مثل الأرض مائة ونيفا وستين مرة وفى الأخبار ما يدل على عظمها [1] . ثم الكواكب التى تراها أصغرها مثل الأرض

(١) الحديث الدال على عظم الشمس : أحمد من حديث عبد الله بن عمر رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم الشمس حين غربت فقال فى نار الله الحامية لولا مازعها من أمر الله لأهلكت ماعلى الأرض وللطبراني فى الكبير من حديث أبي أمامة وكل بالشمس تسعة أملاك يرمونها بالثلج كل يوم

ثماني مرات ، وأكبرها ينتهي إلى قريب من مائة وعشرين مرة مثل الأرض ، وبهذا تعرف ارتفاعها وبعدها، إذ للبعد صارت ترى صغارا . ولذلك أشار الله تعالى إلى بعدها فقال (رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا [١]) [١] وفي الأخبار أن ما بين كل سماء إلى الأخرى مسيرة خمسمائة عام

فإذا كان مقدار كوكب واحد مثل الأرض أضعافا ، فانظر إلى كثرة الكواكب ، ثم انظر إلى السماء التي الكواكب مركوزة فيها وإلى عظمها ، ثم انظر إلى سرعة حركتها وأنت لا تحس بحركتها فضلا عن أن تدرك سرعتها ، لكن لا تشك أنها في لحظة تسير مقدار عرض كوكب ، لأن الزمان من طلوع أول جزء من كوكب إلى تمامه يسير ، وذلك الكوكب هو مثل الأرض مائة مرة وزيادة ، فقد دار الفلك في هذه اللحظة مثل الأرض مائة مرة . وهكذا يدور على الدوام وأنت غافل عنه

وانظر كيف عبّر [٢] جبريل عليه السلام عن سرعة حركته إذ قال له النبي صلى الله عليه وسلم « هَلْ زَالَتِ الشَّمْسُ ؟ » فقال: لا نعم . فقال « كَيْفَ تَقُولُ لا نَعَمْ » فقال: من حين قلت لا إلى أن قلت نعم سارت الشمس خمسمائة عام . فانظر إلى عظم شخصها ، ثم إلى خفة حركتها ، ثم انظر إلى قدرة الفاطر الحكيم كيف أثبت صورتها مع اتساع أكنافها في حدقة العين مع صغرها ، حتى تجلس على الأرض وتفتح عينيك نحوها فترى جميعها

فهذه السماء بعظمها وكثرة كواكبها لا تنظر إليها ، بل انظر إلى بارئها كيف خلقها ، ثم أمسكها من غير عمد ترونها ، ومن غير علاقة من فوقها ، وكل العالم كبيت واحد والسماء سقفه ، فالعجب منك أنك تدخل بيت غني فتراه مزوّقا بالصبغ ، مموها بالذهب ، فلا ينقطع تعجبك منه : ولا تزال تذكره وتصف حسنه طول عمرك ، وأنت أبدا تنظر إلى هذا البيت العظيم ، وإلى أرضه ، وإلى سقفه . وإلى هوائه ، وإلى عجائب أمتعته ، وغرائب

لولا ذلك ما أتت على شيء الا أحرقته

(١) حديث بين كل سماء الى سماء خمسمائة عام : الترمذي من رواية الحسن عن أبي هريرة وقال غريب قال ويروى عن أيوب ويونس بن عبيد وعلى بن زيد قالوا ولم يسمع الحسن من أبي هريرة ورواه أبو الشيخ في العظمة من رواية أبي نصرة عن أبي ذر ورجاله ثقات الا أنه لا يعرف لأبي نصرة سماع من أبي ذر

(٢) حديث أنه قال لجبريل هل زالت الشمس فقال لا نعم فقال كيف تقول لا نعم فقال من حين قلت لا إلى أن قلت نعم سارت الشمس مسيرة خمسمائة عام : لم أجد له أصلا

---

(١) النازعات : ٢٨

حيواناته ، وبدائع نقوشه ، ثم لا تتحدث فيه ، ولا تلتفت بقلبك إليه ، فما هذا البيت دون ذلك البيت الذى تصفه ، بل ذلك البيت هو أيضا جزء من الأرض التى هي أخس أجزاء هذا البيت ، ومع هذا فلا تنظر إليه ، ليس له سبب إلا أنه بيت ربك ، هو الذى انفرد بنائه وترتيبه ، وأنت قد نسيت نفسك ، وربك ، وبيت ربك ، واشتغلت ببطنك وفرجك ، ليس لك هم إلا شهوتك أو حشمتك ، وغاية شهوتك أن تملأ بطنك ، ولا تقدر على أن تأكل عشر ما تأكله بهيمة ، فتكون البهيمة فوقك بعشر درجات ، وغاية حشمتك أن تقبل عليك عشرة أومائة من معارفك فينافقون بألسنتهم بين يديك ، ويضمرون خبائث الاعتقادات عليك ، وإن صدقوك فى مودتهم إياك فلا يملكون لك ولا لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، ولاموتا ولا حياة ولا نشورا ، وقد يكون فى بلدك من أغنياء اليهود والنصارى من يزيد جاهه على جاهك ، وقد اشتغلت بهذا الغرور ، وغفلت عن النظر فى جمال ملكوت السموات والأرض ، ثم غفلت عن التنعم بالنظر إلى جلال مالك الملكوت والملك ، وما مثلك ومثل عقلك إلا كمثل النملة تخرج من جحرها الذى حفرته فى قصر مشيد من قصور الملك ، رفيع البنيان ، حصين الأركان ، مزين بالجوارى والغلمان ، وأنواع الذخائر والنفائس ، فإنها إذا خرجت من جحرها ، ولقيت صاحبتها ؛ لم تتحدث لو قدرت على النطق إلا عن بيتها وغذائها ، وكيفية إدخارها ، فأما حال القصر والملك الذى فى القصر فهي بمعزل عنه وعن التفكر فيه ، بل لا قدرة لها على المجاوزة بالنظر عن نفسها وغذائها وبيتها إلى غيره ، وكما غفلت النملة عن القصر وعن أرضه ، وسقفه ، وحيطانه ، وسائر بنيانه ، وغفلت أيضا عن سكانه ، فأنت أيضا غافل عن بيت الله تعالى ، وعن ملائكته الذين هم سكان سمواته ؛ فلا تعرف من السماء إلا ما تعرفه النملة من سقف بيتك ، ولا تعرف من ملائكة السموات إلا ما تعرفه النملة منك ومن سكان بيتك . نعم ليس للنملة طريق إلى أن تعرفك وتعرف عجائب قصرك وبدائع صنعة الصانع فيه ، وأما أنت فلك قدرة على أن تجول فى الملكوت وتعرف عن عجائبه ما الخلق غافلون عنه ، ولنقبض عنان الكلام عن هذا النمط فإنه مجال لا آخر له ، ولو استقصينا أعمارا طويلة لم نقدر على شرح ما تفضل الله تعالى علينا بمعرفته وكل ما عرفناه قليل نزر حقير بالإضافة إلى ما عرفه جملة العلماء والأولياء : وما عرفوه قليل نزر حقير بالإضافة إلى ما عرفه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وجملة ما عرفوه قليل

بالإضافة إلى ماعرفه محمد نبينا صلى الله عليه وسلم . وما عرفه الأنبياء كلهم قليل بالإضافة إلى ما عرفته الملائكة المقربون كإسرافيل وجبريل وغيرهما . ثم جميع علوم الملائكة ، والجن ، والإنس ، إذا أضيف إلى علم الله سبحانه وتعالى لم يستحق أن يسمى علما ؛ بل هو إلى أن يسمى دهشا ، وحيرة ، وقصورا ، وعجزا أقرب ، فسبحان من عرف عباده ما عرف ، ثم خاطب جميعهم فقال (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً [1]) . فهذا بيان معاقد الجمل التى تجول فيها فكر المتفكرين فى خلق الله تعالى ، وليس فيها فكر فى ذات الله تعالى، ولكن يستفاد من الفكر فى الخلق لامحالة معرفة الخالق ، وعظمته، وجلاله وقدرته، وكلما استكثرت من معرفة عجيب صنع الله تعالى كانت معرفتك بجلاله وعظمته أتم ، وهذا كما أنك تعظم عالما بسبب معرفتك بعلمه ، فلا تزال تطلع على غريبة غريبة من تصنيفه أو شعره، فتزداد به معرفة ، وتزداد بحسبه له توقيرا وتعظيما واحتراما ، حتى أن كل كلمة من كلماته ، وكل بيت عجيب من أبيات شعره ، يزيده محلا من قلبك يستدعى التعظيم له فى نفسك

فهكذا تأمل فى خلق الله تعالى وتصنيفه وتأليفه ، وكل ما فى الوجود من خلق الله وتصنيفه ، والنظر والفكر فيه لايتناهى أبدا ، وإنما لكل عبد منهما بقدر مارزق ، فلنقتصر على ماذكرناه ، ولنضف إلى هذا ما فصلناه فى كتاب الشكر ، فإنا نظرنا فى ذلك الكتاب فى فعل الله تعالى من حيث هو إحسان الينا ، وإنعام علينا ، وفى هذا الكتاب نظرنا فيه من حيث إنه فعل الله فقط ، وكل ما نظرنا فيه فإن الطبيعى ينظر فيه ويكون نظره سبب ضلاله وشقاوته ، والموفق ينظر فيه فيكون سبب هدايته وسعادته . وما من ذرة فى السماء والأرض إلا والله سبحانه وتعالى يضل بها من يشاء ، ويهدى بها من يشاء . فمن نظر فى هذه الأمور من حيث إنها فعل الله تعالى وصنعه استفاد منه المعرفة بجلال الله تعالى وعظمته ، واهتدى به . ومن نظر فيها قاصرا للنظر عليها من حيث تأثير بعضها فى بعض ، لامن حيث ارتباطها بمسبب الأسباب ، فقد شقى وارتدى ، فنعوذ بالله من الضلال ونسأله أن يجنبنا مزلة أقدام الجهال بمنه ، وكرمه ، وفضله ، وجوده ، ورحمته

تم الكتاب التاسع من ربع المنجيات ، والحمد لله وحده ، وصلواته على محمد وآله وسلامه يتلوه كتاب ذكر الموت وما بعده وبه كمل جميع الديوان بحمد الله تعالى وكرمه

---

(١) الاسراء : ٨٥

كتاب ذكر الموت وما بعده

كتاب ذكر الموت ومابعده

وهو الكتاب العاشر من ربع المنجيات
وبه اختتام كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى قصم بالموت رقاب الجبابرة ، وكسر به ظهور الأكاسرة ، وقصر به آمال القياصرة ، الذين لم تزل قلوبهم عن ذكر الموت نافرة ، حتى جاءهم الوعد الحق فأرداهم فى الحافرة ، فنقلوا من القصور إلى القبور ، ومن ضياء المهود إلى ظلمة اللحود ، ومن ملاعبة الجوارى والغلمان إلى مقاساة الهوام والديدان ، ومن التنعم بالطعام والشراب إلى التمرغ فى التراب ، ومن أنس العشرة إلى وحشة الوحدة ، ومن المضجع الوثير إلى المصرع الوبيل ، فانظر هل وجدوا من الموت حصنا وعزا ، واتخذوا من دونه حجابا وحرزا ، وانظر هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا ؟ فسبحان من انفرد بالقهر والاستيلاء ، واستأثر باستحقاق البقاء ، وأذل أصناف الخلق بما كتب عليهم من الفناء ثم جعل الموت مخلصا للأتقياء ، وموعدا فى حقهم للقاء ، وجعل القبر سجنا للأشقياء ، وحبسا ضيقا عليهم إلى يوم الفصل والقضاء ، فله الإنعام بالنعم المتظاهرة وله الانتقام بالنقم القاهرة ، وله الشكر فى السموات والأرض ، وله الحمد فى الأولى والآخرة ، والصلاة على محمد ذى المعجزات الظاهرة ، والآيات الباهرة ، وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما كثيرا

أما بعد : فجدير بمن الموت مصرعه ، والتراب مضجعه ، والدود أنيسه ، ومنكر ونكير جليسه ، والقبر مقره ، وبطن الأرض مستقره ، والقيامة موعده ، والجنة أو النار مورده ، أن لايكون له فكر إلا فى الموت ، ولا ذكر إلا له ، ولا استعداد إلا لأجله ، ولا تدبير إلا فيه ، ولا تطلع إلا إليه ، ولا تعريج إلا عليه ، ولا اهتمام إلا به ، ولا حول إلا حوله ، ولا انتظار وتربص إلا له . وحقيق بأن يعد نفسه من الموتى ويراها فى أصحاب القبور ؟

فإن كل ماهو آت قريب ، والبعيد ماليس بآت . وقد قال صلى الله عليه وسلم[1] « أَلْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ » ولن يتيسر الاستعداد للشيء إلا عند تجدد ذكره على القلب ، ولا يتجدد ذكره إلا عند التذكر بالإصغاء إلى المذكرات له ، والنظر فى المنبهات عليه

ونحن نذكر من أمر الموت ، ومقدماته ولواحقه ، وأحوال الآخرة ، والقيامة ، والجنة ، والنار ، مالابدّ للعبد من تذكاره على التكرار ، وملازمته بالافتكار والاستبصار ليكون ذلك مستحثا على الاستعداد ، فقد قرب لما بعد الموت الرحيل ، فما بقي من العمر إلا القليل ، والخلق عنه غافلون (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ[1])

ونحن نذكر مايتعلق بالموت فى شطرين

الشطر الأول

فى مقدماته وتوابعه إلى نفخة الصور وفيه ثمانية أبواب

الباب الأول : فى فضل ذكر الموت والترغيب فيه

الباب الثانى : فى ذكر طول الأمل وقصره

الباب الثالث : فى سكرات الموت وشدته وما يستحب من الأحوال عند الموت

الباب الرابع : فى وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده

الباب الخامس : فى كلام المحتضرين من الخلفاء والأمراء والصالحين

الباب السادس : فى أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر وحكم زيارة القبور

الباب السابع : فى حقيقة الموت وما يلقاه الميت فى القبر إلى نفخة الصور

الباب الثامن : فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة فى المنام

﴿ كتاب ذكر الموت ومابعده ﴾

(١) حديث الكيس من دان نفسه وعمل لمابعد الموت : تقدم غير مرة

---

(١) الأنبياء : ١

الباب الأول

فى ذكر الموت والترغيب فى الإكثار من ذكره

اعلم أن المنهمك فى الدنيا، المكب على غرورها، المحب لشهواتها، يغفل قلبه لامحالة عن ذكر الموت فلا يذكره، وإذا ذكّر به كرهه ونفر منه، أولئك هم الذين قال الله فيهم (قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاَقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [١]) ثم الناس إما منهمك، وأما تائب مبتدىء، أوعارف منته

أما المنهمك: فلا يذكر الموت، وإن ذكره فيذكره للتأسف على دنياه، ويشتغل بمذمته، وهذا يزيده ذكر الموت من الله بعدا

وأما التائب: فإنه يكثر من ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والخشية، فيفى بتمام التوبة، وربما يكره الموت خيفة من أن يختطفه قبل تمام التوبة، وقبل إصلاح الزاد، وهو معذور فى كراهة الموت. ولا يدخل هذا تحت قوله صلى الله عليه وسلم [١] « مَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ » فإن هذا ليس يكره الموت ولقاء الله، وإنما يخاف فوت لقاء الله لقصوره وتقصيره. وهو كالذى يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلا بالاستعداد للقائه على وجه يرضاه. فلا يعدّ كارها للقائه. وعلامة هذا أن يكون دائم الاستعداد له، لاشغل له سواه، وإلا التحق بالمنهمك فى الدنيا

وأما العارف: فإنه يذكر الموت دائما لأنه موعد للقائه لحبيبه، والمحب لاينسى قط موعد لقاء الحبيب. وهذا فى غالب الأمر يستبطىء مجىء الموت، ويحب مجيئه ليتخلص من دار العاصين، وينتقل إلى جوار رب العالمين، كما روي عن حذيفة أنه لما حضرته الوفاة قال: حبيب جاء على فاقة، لاأفلح من ندم. اللهم إن كنت تعلم أن الفقر أحب إليّ من الغنى، والسقم أحب إليّ من الصحة، والموت أحب إليّ من العيش، فسهل علي الموت حتى ألقاك. فإذاً التائب معذور فى كراهة الموت، وهذا معذور فى حب الموت وتمنيه

﴿ الباب الاول فى ذكر الموت والترغب فيه ﴾

(١) حديث من كره لقاء الله كره الله لقاءه: متفق عليه من حديث أبى هريرة

(١) الجمعة: ٨

وأعلى منهما رتبة من فوض أمره إلى الله تعالى ، فصار لايختار لنفسه موتا ولا حياة ، بل يكون أحب الأشياء إليه أحبها إلى مولاه ، فهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء إلى مقام التسليم والرضا ، وهو الغـــــاية والمنتهى .

وعلى كل حال ففى ذكر الموت ثواب وفضل ، فإن المنهمك أيضا يستفيد بذكر الموت التجافى عن الدنيا ، إذ ينغص عليه نعيمه ، ويكدر عليه صفو لذته ، وكل مايكدر على الإنسان اللذات والشهوات فهو من أسباب النجاة

بيان
فضل ذكر الموت كيفما كان

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « أَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ » معناه نغصوا بذكره اللذات حتى ينقطع ركونكم إليها . فتقبلوا على الله تعالى ، وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « لَوْ تَعْلَمُ الْبَهَائِمُ مِنَ الْمَوْتِ مَا يَعْلَمُ ابْنُ آدَمَ مَا أَكَلْتُمْ مِنْهَا سَمِيناً »

[٣] وقالت عائشة رضي الله عنها : يارسول الله ، هل يحشر مع الشهداء أحد ؟ قال : « نَعَمْ مَنْ يَذْكُرُ الْمَوْتَ فِى الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ عِشْرِينَ مَرَّةً » وإنما سبب هذه الفضيلة كلها أن ذكر الموت يوجب التجافى عن دار الغرور ، ويتقاضى الاستعداد للآخرة . والغفلةُ عن الموت تدعو إلى الانهماك فى شهوات الدنيا

وقال صلى الله عليه وسلم [٤] « تُحْفَةُ الْمُؤْمِنِ الْمَوْتُ » وإنما قال هذا لأن الدنيا سجن المؤمن ، إذ لايزال فيها فى عناء من مقاساة نفسه ، ورياضة شهواته ، ومدافعة شيطانه

---

(١) حديث أكثروا من ذكر هاذم اللذات : الترمذى وقال حسن والنسائى وابن ماجه من حديث أبى هريرة وقد تقدم

(٢) حديث لو تعلم البهائم من الموت مايعلم ابن آدم ما أكلتم منها سمينا : البيهقى فى الشعب من حديث أم حبيبة الجهنية وقد تقدم

(٣) حديث قالت عائشة هل يحشر مع الشهداء أحد قال نعم من ذكر الموت فى اليوم والليلة عشرين مرة : تقدم

(٤) حديث تحفة المؤمن الموت : ابن أبى الدنيا فى كتاب الموت : والطبرانى والحاكم من حديث عبد الله بن عمرو مرسلا بسند حسن

فالموت إطلاق له من هذا العذاب ، والإطلاق تحفة فى حقه

وقال صلى الله عليه وسلم [١] « الْمَوْتُ كَفَّارَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ » وأراد بهذا المسلمَ حقا، المؤمن صدقا ، الذى يسلم المسلمون من لسانه ويده ، ويتحقق فيه أخلاق المؤمنين ، ولم يتدنس من المعاصى إلا باللمم والصغائر ،فالموت يطهره منها ويكفرها بعد اجتنابه الكبائر وإقامته الفرائض . قال [٢] عطاء الخراسانى : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمجلس قد استعلى فيه الضحك فقال « شُوبُوا مَجْلِسَكُمْ بِذِكْرِ مُكَدِّرِ اللَّذَّاتِ » قالوا وما مكدر اللذات ؟ قال « الْمَوْتُ »

وقال [٣] أنس رضي الله تعالى عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ فَإِنَّهُ يُمَحِّصُ الذُّنُوبَ وَيُزَهِّدُ فِي الدُّنْيَا » . وقال صلى الله عليه وسلم [٤] « كَفَى بِالْمَوْتِ مُفَرِّقاً » . وقال عليه السلام [٥] « كَفَى بِالْمَوْتِ وَاعِظاً »

[٦] وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد ، فإذا قوم يتحدثون ويضحكون فقال « اذْكُرُوا الْمَوْتَ أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً » . [٧] وذُكِر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل ، فأحسنوا

---

(١) حديث الموت كفارة لكل مسلم : أبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الشعب والخطيب فى التاريخ من حديث أنس قال ابن العربى فى سراج المريدين انه حسن صحيح وضعفه ابن الجوزى وقد جمعت طرقه فى جزء

(٢) حديث عطاء الخراسانى مر النبى صلى الله عليه وسلم بمجلس قد استعلاه الضحك فقال شوبوا مجلسكم بذكر مكدر اللذات ـ الحديث : ابن أبى الدنيا فى الموت هكذا مرسلا ورويناه فى أمالى الخلال من حديث أنس ولا يصح

(٣) حديث أنس أكثروا من ذكر الموت فانه يمحص الذنوب ويزهد في الدنيا : ابن أبى الدنيا فى الموت باسناد ضعيف جدا

(٤) حديث كفى بالموت مفرقا : الحارث بن أبى أسامة فى مسنده من حديث أنس وعراك بن مالك بسند ضعيف ورواه ابن أبى الدنيا فى البر والصلة من رواية أبى عبد الرحمن الحبلى مرسلا

(٥) حديث كفى بالموت واعظا : الطبرانى . والبيهقى فى الشعب من حديث عمار بن ياسر بسند ضعيف وهو مشهور من قول الفضيل بن عياض رواه البيهقى فى الزهد

(٦) حديث خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المسجد فاذا قوم يتحدثون ويضحكون فقال اذكروا الموت ـ الحديث : ابن أبى الدنيا فى الموت من حديث ابن عمر باسناد ضعيف

(٧) حديث ذكر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل فأحسنوا الثناء عليه فقال كيف كان ذكر

الثناء عليه ، فقال « كَيْفَ ذِكْرُ صَاحِبِكُمْ الْمَوْتِ ؟ » قالوا ما كنا نكاد نسمعه يذكر الموت . قال « فَإِنَّ صَاحِبَكُمْ لَيْسَ هُنَالِكَ » . وقال ابن [١] عمر رضي الله عنهما : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم عاشر عشرة ، فقال رجل من الأنصار : من أكيس الناس وأكرم الناس يارسول الله ؟ فقال « أَكْثَرُهُمْ ذِكْرًا الْمَوْتِ وَأَشَدُّهُمْ اسْتِعْدَادًا لَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْأَكْيَاسُ ذَهَبُوا بِشَرَفِ الدُّنْيَا وَكَرَامَةِ الْآخِرَةِ »

الآثار في فضيلة ذكر الموت

وأما الآثار : فقد قال الحسن رحمه الله تعالى : فضح الموت الدنيا فلم يترك لذى لب فرحا

وقال الربيع بن خثيم : ماغائب ينتظره المؤمن خيرا له من الموت . وكان يقول : لا تشعروا بى أحدا ، وسلّونى إلى ربى سلا . وكتب بعض الحكماء إلى رجل من إخوانه : ياأخى احذر الموت فى هذه الدار قبل أن تصير إلى دار تتمنى فيها الموت فلا تجده

وكان ابن سيرين إذا ذكر عنده الموت مات كل عضو منه

وكان عمر بن عبد العزيز يجمع كل ليلة الفقهاء ، فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة ، ثم يبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة

وقال ابراهيم التيمى شيآن قطعاعنى لذة الدنيا ، ذكر الموت ، والوقوف بين يدي الله عز وجل

وقال كعب : من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا وهمومها

وقال مطرف : رأيت فيما يرى النائم كأن قائلا يقول فى وسط مسجد البصرة .قطع ذكر الموت قلوب الخائفين ، فوالله ماتراهم إلا والهين

وقال أشعث : كنا ندخل على الحسن ، فإنما هو النار ، وأمر الآخرة ،وذكر الموت

وقالت صفية رضي الله تعالى عنها : إن امرأة اشتكت إلى عائشة رضي الله عنها قساوة قلبها ، فقالت أكثرى ذكر الموت يرق قلبك . ففعلت فرق قلبها . فجاءت تشكر عائشة رضي الله عنها . وكان عيسى عليه السلام إذا ذكر الموت عنده يقطر جلده دما

وكان داود عليه السلام إذا ذكر الموت والقيامة يبكى حتى تنخلع أوصاله ، فإذا ذكر الرحمة

صاحبكم للموت ـ الحديث : ابن أبى الدنيا فى الموت من حديث أنس بسند ضعيف وابن المبارك فى الزهد قال أنامالك بن مغول فذكره بلاغا بزيادة فيه

(١) حديث ابن عمر أتيت النبي صلى الله عليه وسلم عاشر عشرة فقال رجل من الأنصار من أكيس الناس الحديث : ابن ماجه مختصرا وابن أبى الدنيا بكماله باسناد جيد

رجعت إليه نفسه . وقال الحسن : مارأيت عاقلا قط إلا أصبته من الموت حذرا، وعليه حزينا

وقال عمر بن عبد العزيز لبعض العلماء : عظني ، فقال : لستَ أول خليفة تموت . قال : زدني . قال: ليس من آبائك أحد إلى آدم إلا ذاق الموت ، وقد جاءت نوبتك . فبكى عمر لذلك : وكان الربيع بن خثيم قد حفر قبرا في داره ، فكان ينام فيه كل يوم مرات يستديم بذلك ذكر الموت ، وكان يقول : لو فارق ذكر الموت قلبي ساعة واحدة لفسد .

وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير : إن هذا الموت قد نغّص على أهل النعيم نعيمهم ، فاطلبوا نعيما لاموت فيه . وقال عمر بن عبد العزيز لعنبسة : أكثر ذكر الموت ، فإن كنت واسع العيش ضيّقه عليك ، وإن كنت ضيق العيش وسّعه عليك

وقال أبو سليمان الداراني . قلت لأم هرون أتحبين الموت ؟ قالت : لا. قلت: لم ؟ قالت: لو عصيت آدميا ما اشتهيت لقاءه ، فكيف أحب لقاءه وقد عصيته !

بيان

الطريق في تحقيق ذكر الموت في القلب

اعلم أن الموت هائل ، وخطره عظيم ، وغفلة الناس عنه لقلة فكرهم فيه وذكرهم له ، ومن يذكره ليس يذكره بقلب فارغ ، بل بقلب مشغول بشهوة الدنيا ، فلا ينجع ذكر الموت في قلبه . فالطريق فيه أن يفرغ العبد قلبه عن كل شيء إلا عن ذكر الموت الذي هو بين يديه ، كالذي يريد أن يسافر إلى مفازة مخطرة . أو يركب البحر ، فإنه لايتفكر إلا فيه . فإذا باشر ذكر الموت قلبه ، فيوشك أن يؤثر فيه ، وعند ذلك يقل فرحه وسروره بالدنيا ، وينكسر قلبه

وأنجع طريق فيه أن يكثر ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قبله ، فيتذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب ، ويتذكر صورهم في مناصبهم وأحوالهم ، ويتأمل كيف محا التراب الآن حسن صورهم ، وكيف تبددت أجزاؤهم في قبورهم ، وكيف أرملوا نساءهم ، وأيتموا أولادهم ، وضيعوا أموالهم ، وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم ، وانقطعت آثارهم . فمهما تذكر رجلا رجلا ، وفصل في قلبه حاله وكيفية موته ، وتوهم صورته ، وتذكر نشاطه وتردده وتأمله للعيش والبقاء ، ونسيانه للموت ، وانخداعه بمواتاة الأسباب ، وركونه إلى القوة

والشباب ، وميله إلى الضحك واللهو ، وغفلته عما بين يديه من الموت الذريع ، والهلاك السريع ، وأنه كيف كان يتردد والآن قد تهدمت رجلاه ومفاصله ، وأنه كيف كان ينطق وقد أكل الدود لسانه ، وكيف كان يضحك وقد أكل التراب أسنانه ، وكيف كان يدبر لنفسه مالا يحتاج إليه إلى عشر سنين فى وقت لم يكن بينه وبين الموت إلا شهر ، وهو غافل عما يراد به ، حتى جاء الموت فى وقت لم يحتسبه ، فانكشف له صورة الملك ، وقرع سمعه النداء إما بالجنة أو بالنار . فعند ذلك ينظر فى نفسه أنه مثلهم ، وغفلته كغفلتهم ، وستكون عاقبته كعاقبتهم . قال أبو الدرداء رضي الله عنه : إذا ذكرتَ الموتى فعدّ نفسك كأحدهم . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : السعيد من وعظ بغيره

وقال عمر بن عبد العزيز : ألا ترون أنكم تجهزون كل يوم غاديا أو رائحا إلى الله عزوجل تضعونه فى صدع من الأرض ، قد توسد التراب ، وخلف الأحباب ، وقطع الأسباب ؟

فملازمة هذه الأفكار وأمثالها مع دخول المقابر ومشاهدة المرضى ، هو الذى يجدد ذكر الموت فى القلب ، حتى يغلب عليه بحيث يصير نصب عينيه ، فعند ذلك يوشك أن يستعد له ، ويتجافى عن دار الغرور . وإلا فالذكر بظاهر القلب وعذبة اللسان قليل الجدوى فى التحذير والتنبيه . ومهما طاب قلبه بشيء من الدنيا ينبغى أن يتذكر فى الحال أنه لابد له من مفارقته . نظر ابن مطيع ذات يوم إلى داره فأعجبه حسنها ، ثم بكى فقال : والله لولا الموت لكنت بك مسرورا ، ولولا ما نصير إليه من ضيق القبور لقرت بالدنيا أعيننا ثم بكى بكاء شديدا حتى ارتفع صوته

الباب الثانى

فى طول الأمل ؛ وفضيلة قصر الأمل ، وسبب طوله ، وكيفية معالجته

فضيلة قصر الأمل

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر[1] « إِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالْمَسَاءِ وَإِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالصَّبَاحِ وَخُذْ مِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ

﴿ الباب الثانى فى طول الأمل ﴾

(١) حديث قال لعبدالله بن عمر اذا أصبحت فلاتحدث نفسك بالمساء الحديث : ابن حبان ورواه البخارى

وَمِنْ صِحَّتِكَ لِسَقَمِكَ فَإِنَّكَ يَاعَبْدَ اللهِ لَاتَدْرِى مَا اسْمُكَ غَدًا »

وروى[١] عليّ كرم الله وجهه ، أنه صلى الله عليه وسلم قال « إِنَّ أَشَدَّ مَاأَخَافُ عَلَيْكُمْ خَصْلَتَانِ اتِّبَاعُ الْهَوَى وَطُولُ الْأَمَلِ فَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَإِنَّهُ يَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ وَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَإِنَّهُ الْحُبُّ لِلدُّنْيَا » ثم قال : « أَلَا إِنَّ اللهَ تَعَالَى يُعْطِى الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَيُبْغِضُ وَإِذَا أَحَبَّ عَبْدًا أَعْطَاهُ الْإِيمَانَ أَلَا إِنَّ لِلدِّينِ أَبْنَاءً وَلِلدُّنْيَا أَبْنَاءً فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدِّينِ وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا قَدِ ارْتَحَلَتْ مُوَلِّيَةً أَلَا إِنَّ الْآخِرَةَ قَدِ ارْتَحَلَتْ مُقْبِلَةً أَلَا وَإِنَّكُمْ فِي يَوْمِ عَمَلٍ لَيْسَ فِيهِ حِسَابٌ أَلَا وَإِنَّكُمْ تُوشِكُونَ فِي يَوْمِ حِسَابٍ لَيْسَ فِيهِ عَمَلٌ »

وقالت[٢] أم المنذر : اطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات عشية إلى الناس فقال : « أَيُّهَا النَّاسُ أَمَا تَسْتَحْيُونَ مِنَ اللهِ » قالوا وما ذاك يارسول الله ؟ قال : « تَجْمَعُونَ مَالَا تَأْكُلُونَ وَتَأْمَلُونَ مَالَا تُدْرِكُونَ وَتَبْنُونَ مَالَا تَسْكُنُونَ

وقال[٣] أبو سعيد الخدري . اشترى أسامة بن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار إلى شهر فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أَلَا تَعْجَبُونَ مِنْ أُسَامَةَ الْمُشْتَرِى إِلَى شَهْرٍ إِنَّ أُسَامَةَ لَطَوِيلُ الْأَمَلِ وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ مَاطَرَفَتْ عَيْنَايَ إِلَّا ظَنَنْتُ أَنَّ شُفْرَيَّ لَايَلْتَقِيَانِ حَتَّى يَقْبِضَ اللهُ رُوحِي وَلَا رَفَعْتُ طَرْفِي فَظَنَنْتُ أَنِّى وَاضِعُهُ حَتَّى أُقْبَضَ وَلَا لَقِمْتُ لُقْمَةً إِلَّا ظَنَنْتُ أَنِّى لَا أُسِيغُهَا حَتَّى أُغَصَّ بِهَا مِنَ الْمَوْتِ » ثم قال : « يَابَنِى آدَمَ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ فَعُدُّوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ الْمَوْتَى وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ إِنَّ مَاتُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ »

من قول ابن عمر فى آخر حديث كن فى الدنيا كأنك غريب

(١) حديث على ان أشد ماأخاف عليكم خصلتان اتباع الهوى وطول الأمل ـ الحديث : بطوله ابن أبي الدنيا فى كتاب قصر الأمل ورواه أيضا من حديث جابر بنحوه وكلاهما ضعيف

(٢) حديث أم المنذر أيها الناس أماتستحيون من الله تعالى قالوا وماذاك يارسول قال تجمعون مالاتأكلون الحديث : ابن أبي الدنيا ومن طريقه البيهقى فى الشعب باسناد ضعيف وقدتقدم

(٣) حديث أبي سعيد اشترى ابن زيد من زيدبن ثابت وليدة بمائة دينار الى شهر فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ألاتعجبون من أسامة ـ الحديث : ابن أبي الدنيا فى قصر الامل والطبرانى فى مسند الشاميين وأبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الشعب بسند ضعيف

وعن (١) ابن عباس رضي الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخرج يهريق الماء فيمسح بالتراب ، فأقول له يارسول الله إن الماء منك قريب . فيقول « مَا يُدْرِينِي لَعَلِّي لاَ أَبْلُغُهُ » . وروي (٢) أنه صلى الله عليه وسلم أخذ ثلاثة أعواد ، فغرز عودا بين يديه والآخر إلى جنبه ، وأما الثالث فأبعده . فقال « هَلْ تَدْرُونَ مَاهَذَا ؟» قالوا: الله ورسوله أعلم قال « هَذَا الإِنْسَانُ وَهَذَا الأَجَلُ وَذَاكَ الأَمَلُ يَتَعَاطَاهُ ابْنُ آدَمَ وَيَخْتَلِجُهُ الأَجَلُ دُونَ الأَمَلِ » وقال عليه السلام (٣) « مَثَلُ ابْنِ آدَمَ وَإِلَى جَنْبِهِ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ مَنِيَّةً إِنْ أَخْطَأَتْهُ الْمَنَايَا وَقَعَ فِي الْهَرَمِ » قال ابن مسعود : هذا المرء وهذه الحتوف حوله شوارع إليه ، والهرم وراء الحتوف ، والأمل وراء الهرم ، فهو يؤمل وهذه الحتوف شوارع إليه فأيها أمر به أخذه ، فإن أخطأته الحتوف قتله الهرم ، وهو ينتظر الأمل

قال عبد الله : (٤) خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا مربعا ، وخط وسطه خطا ، وخط خطوطا إلى جنب الخط ، وخط خطا خارجا وقال « أَتَدْرُونَ مَاهَذَا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم . قال « هَذَا الإِنْسَانُ » للخط الذى فى الوسط « وَهَذَا الأَجَلُ مُحِيطٌ بِهِ وَهَذِهِ الأَعْرَاضُ » للخطوط التى حوله تنهشه ، إن أخطأه هذا نهشه هذا . « وَذَاكَ الأَمَلُ » يعنى الخط الخارج . وقال (٥) أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يَهْرَمُ ابْنُ آدَمَ وَيَبْقَى مَعَهُ اثْنَتَانِ الْحِرْصُ وَالأَمَلُ » وفى رواية « وَتَشُبُّ مَعَهُ اثْنَتَانِ الْحِرْصُ عَلَى الْمَالِ وَالْحِرْصُ عَلَى الْعُمْرِ »

---

(١) حديث ابن عباس كان يخرج يهريق الماء فيمسح بالباب فأقول الماء منك قريب فيقول مايدرينى لعلى لاأبلغه: ابن المبارك فى الزهد وابن أبى الدنيا فى قصر الأمل والبزار بسند ضعيف

(٢) حديث انه أخذ ثلاثة أعواد فغرز عودا بين يديه ـ الحديث : أحمد وابن أبى الدنيا فى قصر الأمل واللفظ له والرامهرمزى فى الأمثال من رواية أبى المتوكل الناجى عن أبى سعيد الخدرى واسناده حسن ورواه ابن المبارك فى الزهد وابن أبى الدنيا أيضا من رواية أبى المتوكل مرسلا

(٣) حديث مثل ابن آدم والى جنبه تسع وتسعون منية ـ الحديث : الترمذى من حديث عبد الله ابن الشخير وقال حسن

(٤) حديث ابن مسعود خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا مربعا وخط وسطه خطا ـ الحديث : رواه البخارى

(٥) حديث أنس يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنان الحرص والأمل : وفى رواية ويشب معه اثنان الحرص على المال والحرص على العمر ورواه مسلم بلفظ الثانى وابن أبى الدنيا فى قصر الأمل باللفظ الأول باسناد صحيح

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [(١)] « نَجَا أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِالْيَقِينِ وَالزُّهْدِ وَيَهْلَكُ آخِرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِالْبُخْلِ وَالْأَمَلِ »

وقيل بينما عيسى عليه السلام جالس ، وشيخ يعمل بمسحاة يثير بها الأرض ، فقال عيسى: اللهم انزع منه الأمل . فوضع الشيخ المسحاة واضطجع فلبث ساعة . فقال عيسى : اللهم اردد إليه الأمل . فقام فجعل يعمل . فسأله عيسى عن ذلك فقال : بينما أنا أعمل إذ قالت لى نفسى : إلى متى تعمل وأنت شيخ كبير ؟ فألقيت المسحاة واضطجعت . ثم قالت لى نفسى والله لابد لك من عيش ما بقيت . فقمت إلى مسحاتى

وقال [(٢)] الحسن : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَكُلُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ » قالوا : نعم يارسول الله ، قال « قَصِّرُوا مِنَ الْأَمَلِ وَثَبِّتُوا آجَالَكُمْ بَيْنَ أَبْصَارِكُمْ وَاسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ » [(٣)] وكان صلى الله عليه وسلم يقول فى دعائه « اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنْ دُنْيَا تَمْنَعُ خَيْرَ الْآخِرَةِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ حَيَاةٍ تَمْنَعُ خَيْرَ الْمَمَاتِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَمَلٍ يَمْنَعُ خَيْرَ الْعَمَلِ »

الآثار : قال مطرف بن عبد الله : لو علمت متى أجلى لخشيت على ذهاب عقلى ولكن الله تعالى منّ على عباده بالغفلة عن الموت . ولولا الغفلة ماتهنؤا بعيش ، ولا قامت بينهم الأسواق . وقال الحسن : السهو والأمل نعمتان عظيمتان على بنى آدم ولولا هما ما مشى المسلمون فى الطرق . وقال الثوري : بلغنى أن الإنسان خلق أحمق ، ولولا ذلك لم يهنأه العيش . وقال أبو سعيد بن عبد الرحمن : إنما عمرت الدنيا بقلة عقول أهلها . وقال سلمان الفارسى رضي الله عنه : ثلاث أعجبتنى حتى أضحكتنى : مؤمل الدنيا والموت يطلبه ، وغافل وليس يغفل عنه ، وضاحك ملء فيه

---

(١) حديث نجا اول هذه الامة باليقين والزهد وهلك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل: ابن أبى الدنيا فيه من رواية ابن لهيعة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده

(٢) حديث الحسن أكلكم يحب أن يدخل الجنة قالوا نعم يارسول الله قال قصروا من الأمل - الحديث : ابن أبى الدنيا فيه هكذا من حديث الحسن مرسلا

(٣) حديث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى دعائه اللهم انى أعوذ بك من أمل يمنع خير الآخرة وأعوذ بك من حياة تمنع خير الممات وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل: ابن أبى الدنيا فيه من رواية حوشب عن النبي صلى الله عليه وسلم وفى اسناده ضعف وجهالة ولاأدرى من حوشب

ولا يدرى أساخط رب العالمين عليه أم راض . وثلاث أحزنتني حتى أبكتني فراق الأحبة محمد وحزبه ؛ وهول المطلع ، والوقوف بين يدي الله ولا أدرى إلى الجنة يؤمر بي أو إلى النار . وقال بعضهم : رأيت زرارة بن أبى أوفى بعد موته فى المنام ، فقلت: أي الأعمال أبلغ عندكم ؟ قال التوكل وقصر الأمل . وقال الثورى : الزهد فى الدنيا قصر الأمل ، ليس بأكل الغليظ ولا لبس العباءة . وسأل المفضل بن فضالة ربه أن يرفع عنه الأمل فذهبت عنه شهوة الطعام والشراب . ثم دعا ربه فرد عليه الأمل ، فرجع إلى الطعام والشراب . وقيل للحسن : ياأبا سعيد ، ألا تغسل قميصك ؟ فقال الأمر أعجل من ذلك . وقال الحسن : الموت معقود بنواصيكم والدنيا تطوى من ورائكم وقال بعضهم : أنا كرجل مادٍّ عنقه والسيف عليه ، ينتظر متى تضرب عنقه . وقال داود الطائى : لو أملت أن أعيش شهرا لرأيتنى قد أتيت عظيما . وكيف أؤمل ذلك وأرى الفجائع تغشى الخلائق فى ساعات الليل والنهار

وحكي أنه جاء شقيق البلخي إلى أستاذ له يقال له أبو هاشم الرمانى ، وفى طرف كسائه شيء مصرور ، فقال له أستاذه : إيش هذا معك ؟ فقال . لوزات دفعها إليّ أخ لى وقال أحب أن تفطر عليها . فقال شقيق ، وأنت تحدث نفسك أنك تبقى إلى الليل ! لا كلمتك أبدا . قال : فأغلق فى وجهى الباب ودخل

وقال عمر بن عبد العزيز فى خطبته . إن لكل سفر زادا لامحالة ، فتزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة التقوى ، وكونوا كمن عاين ماأعد الله من ثوابه وعقابه ترغبوا وترهبوا . ، ولا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم ، وتنقادوا لعدوكم ، فإنه والله مابسط أمل من لايدرى لعله لايصبح بعد مسائه ؛ ولا يمسى بعد صباحه ، وربما كانت بين ذلك خطفات المنايا . وكم رأيت ورأيتم من كان بالدنيا مغترا . وإنما تقر عين من وثق بالنجاة من عذاب الله تعالى ، وإنما يفرح من أمن أهوال القيامة . فأما من لا يداوى كلما إلا أصابه جرح من ناحية أخرى فكيف يفرح ! أعوذ بالله من أن آمركم بما لا أنهى عنه نفسى ، فتخسر صفقتى وتظهر عيبتى ، وتبدو مسكنتى فى يوم

يبدو فيه الغنى والفقر ، والموازين فيه منصوبة . لقد عنيتم بأمر لو عنيت به النجوم لانكدرت ، ولو عنيت به الجبال لذابت ، ولو عنيت به الأرض لتشققت . أما تعلمون أنه ليس بين الجنة والنار منزلة : وأنكم صائرون إلى إحداهما

وكتب رجل إلى أخ له : أما بعد . فإن الدنيا حلم والآخرة يقظة ، والمتوسط بينهما الموت ، ونحن فى أضغاث أحلام ، والسلام

وكتب آخر إلى أخ له : إن الحزن على الدنيا طويل ، والموت من الإنسان قريب ، وللنقص فى كل يوم منه نصيب ، وللبلاء فى جسمه دبيب ، فبادر قبل أن تنادى بالرحيل والسلام . وقال الحسن . كان آدم عليه السلام قبل أن يخطىء أمله خلف ظهره ، وأجله بين عينيه . فلما أصاب الخطيئة حول فجعل أمله بين عينيه ، وأجله خلف ظهره

وقال عبد الله بن سميط . سمعت أبى يقول . أيها المغتر بطول صحته ، أما رأيت ميتا قط من غير سقم ؟ أيها المغتر بطول المهلة ، أما رأيت مأخوذا قط من غير عدة ؟ إنك لو فكرت فى طول عمرك لنسيت ماقدتقدم من لذاتك . أبالصحة تغترون ؟ أم بطول العافية تمرحون؟ أم الموت تأمنون ؟ أم على ملك الموت تجترئون ؟ إن ملك الموت إذا جاء لايمنعه منك ثروة مالك ، ولا كثرة احتشادك . أما علمت أن ساعة الموت ذات كرب ، وغصص ، وندامة على التفريط ، ثم يقال رحم الله عبدا عمل لما بعد الموت ، رحم الله عبدا نظر لنفسه قبل نزول الموت . وقال أبو زكريا التيمي . بينما سليمان بن عبد الملك فى المسجد الحرام ، إذا أتي بحجر منقور ، فطلب من يقرؤه ، فأتى بوهب بن منبه ، فإذا فيه : ابن آدم ، إنك لو رأيت قرب مابقي من أجلك لزهدت فى طول أملك ، ولرغبت فى الزيادة من عملك ، ولقصرت من حرصك وحيلك . وإنما يلقاك غدا ندمك لو قد زلت بك قدمك ، وأسلمك أهلك وحشمك ، وفارقك الوالد والقريب ، ورفضك الولد والنسيب ، فلا أنت إلى دنياك عائد ، ولا فى حسناتك زائد ، فاعمل ليوم القيامة قبل الحسرة والندامة . فبكى سليمان بكاء شديدا

وقال بعضهم : رأيت كتابا من محمد بن يوسف إلى عبد الرحمن بن يوسف : سلام عليك ، فإنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإنى أحذرك متحولك من دار مهلتك إلى دار إقامتك وجزاء أعمالك ، فتصير فى قرار باطن الأرض بعد ظاهرها ،

فيأتيك منكر ونكير فيقعدانك وينتهرانك ، فإن يكن الله معك فلا بأس ، ولا وحشة ، ولا فاقة ، وإن يكن غير ذلك فأعاذني الله وإياك من سوء مصرع ، وضيق مضجع ، ثم تبلغك صيحة الحشر ، ونفخ الصور . وقيام الجبار لفصل قضاء الخلائق ، وخلاء الأرض من أهلها ، والسموات من سكانها ، فباحت الأسرار ، وأسعرت النار ، ووضعت الموازين ، وجيء بالنبيين والشهداء ، وقضي بينهم بالحق ، وقيل الحمد لله رب العالمين . فكم من مفتضح ومستور ، وكم من هالك وناج ، وكم من معذب ومرحوم ، فياليت شعري ما حالي وحالك يومئذ ؟ ففي هذا ما هدم اللذات ، وأسلى عن الشهوات ، وقصر عن الأمل ، وأيقظ النائمين ، وحذر الغافلين . أعاننا الله وإياكم على هذا الخطر العظيم ، وأوقع الدنيا والآخرة من قلبي وقلبك موقعهما من قلوب المتقين ، فإنما نحن به وله والسلام

خطبة عمر بن عبد العزيز في الحث على التذكر

وخطب عمر بن عبد العزيز فحمد الله وأثنى عليه وقال : أيها الناس ، إنكم لم تخلقوا عبثا ولن تتركوا سدى . وان لكم معادا يجمعكم الله فيه للحكم والفصل فيما بينكم . فخاب وشقي غدا عبد أخرجه الله من رحمته التي وسعت كل شيء ، وجنته التي عرضها السموات والأرض . وإنما يكون الأمان غدا لمن خاف واتقى ، وباع قليلا بكثير ، وفانيا بباق ، وشقوة بسعادة ، ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين ، وسيخلف بعدكم الباقون ؟ ألا ترون أنكم في كل يوم تشيعون غاديا ورائحا إلى الله عز وجل قد قضى نحبه ، وانقطع أمله ؛ فتضعونه في بطن صدع من الأرض غير موسد ولا ممهد ، قد خلع الأسباب ، وفارق الأحباب ، وواجه الحساب ؟ وأيم الله إني لأقول مقالتي هذه ولا أعلم عند أحدكم من الذنوب أكثر مما أعلم من نفسي . ولكنها سنن من الله عادلة ، آمر فيها بطاعته ، وأنهى فيها عن معصيته ، واستغفر الله ، ووضع كمه على وجهه وجعل يبكي حتى بلت دموعه لحيته . وما عاد إلى مجلسه حتى مات . وقال القعقاع بن حكيم : قد استعددت للموت منذ ثلاثين سنة ، فلو أتاني ما أحببت تأخير شيء عن شيء

وقال الثوري : رأيت شيخا في مسجد الكوفة يقول : أنا في هذا المسجد منذ ثلاثين سنة أنتظر الموت أن ينزل بي ، ولو أتاني ما أمرته بشيء ، ولا نهيته عن شيء ، ولا لي على أحد شيء ، ولا لأحد عندي شيء

وقال عبد الله بن ثعلبة : تضحك ولعل أكفانك قد خرجت من عند القصار !

وقال أبو محمد بن علي الزاهد : خرجنا في جنازة بالكوفة، وخرج فيها داود الطائي ، فانتبذ فقعد ناحية وهي تدفن ، فجئت فقعدت قريبا منه ، فتكلم فقال : من خاف الوعيد قصر عليه البعيد . ومن طال أمله ضعف عمله . وكل ما هو آت قريب

كل ما يشغل العبد عن الرب فهو مشئوم

واعلم يا أخي أن كل شيء يشغلك عن ربك فهو عليك مشؤم ، واعلم أن أهل الدنيا جميعا من أهل القبور ، إنما يندمون على ما يخلفون ويفرحون بما يقدمون . فما ندم عليه أهل القبور أهل الدنيا عليه يقتتلون ، وفيه يتنافسون ، وعليه عند القضاة يختصمون

وروي أن معروفا الكرخي رحمه الله تعالى أقام الصلاة . قال محمد بن أبي توبة : فقال لي تقدم : فقلت : إني إن صليت بكم هذه الصلاة لم أصل بكم غيرها . فقال معروف : وأنت تحدث نفسك أن تصلي صلاة أخرى ! نعوذ بالله من طول الأمل ، فإنه يمنع من خير العمل

وقال عمر بن عبد العزيز في خطبته : إن الدنيا ليست بدار قراركم . دار كتب الله عليها الفناء ، وكتب على أهلها الظعن عنها . فكم من عامر موثق عما قليل يخرب ، وكم من مقيم مغتبط عما قليل يظعن فأحسنوا رحمكم الله منها الرحلة بأحسن ما بحضرتكم من النقلة ، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى إنما الدنيا كفيء ظلال قلص فذهب ، بينا ابن آدم في الدنيا ينافس وهو قرير العين ، إذ دعاه الله بقدره ، ورماه بيوم حتفه فسلبه آثاره ودنياه ، وصير لقوم آخرين مصانعه ومغناه . إن الدنيا لا تسر بقدر ما تضر . إنها تسر قليلا وتحزن طويلا . وعن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ، أنه كان يقول في خطبته أين الوضاءة الحسنة وجوههم ؟ المعجبون بشبابهم ؟ أين الملوك الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحيطان ؟ أين الذين كانوا يعطون الغلبة في مواطن الحرب ؟ قد تضعضع بهم الدهر ، فأصبحوا في ظلمات القبور . الوحا * الوحا ثم النجا النجا

بيان

السبب في طول الأمل وعلاجه

اعلم أن طول الأمل له سببان : أحدهما الجهل ، والآخر حب الدنيا

حب الدنيا

أما حب الدنيا فهو أنه إذا أنس بها ، وبشهواتها ، ولذاتها ، وعلائقها ، ثقل على قلبه

* الوحا الوحا : السرعة السرعة

مفارقتها ، فامتنع قلبه من الفكر فى الموت الذى هو سبب مفارقتها ، وكل من كره شيئا دفعه عن نفسه ، والإنسان مشغوف بالأمانى الباطلة ، فيمنى نفسه أبدا بما يوافق مراده ، وإنما يوافق مراده البقاء فى الدنيا ، فلا يزال يتوهمه ويقدره فى نفسه ، ويقدر توابع البقاء وما يحتاج إليه من مال ، وأهل ، ودار ، وأصدقاء ، ودواب ، وسائر أسباب الدنيا ، فيصير قلبه عاكفا على هذا الفكر ، موقوفا عليه ، فيلهو عن ذكر الموت ، فلا يقدر قربه . فإن خطر له فى بعض الأحوال أمر الموت والحاجة إلى الاستعداد له ،سوّف ووعد نفسه وقال الأيام بين يديك إلى أن تكبر ثم تتوب . وإذا كبر فيقول : إلى أن تصير شيخا . فإذا صار شيخا قال : إلى أن تفرغ من بناء هذه الدار ، وعمارة هذه الضيعة ، أو ترجع من هذه السفرة ، أو تفرغ من تدبير هذا الولد ، وجهازه ، وتدبير مسكن له ، أو تفرغ من قهر هذا العدو الذى يشمت بك . فلا يزال يسوّف ويؤخّر ، ولا يخوض فى شغل إلا ويتعلق بإتمام ذلك الشغل عشرة أشغال أخر ، وهكذا على التدريج يؤخر يوما بعد يوم ، ويفضى به شغل إلى شغل ، بل إلى أشغال ، إلى أن تختطفه المنية فى وقت لا يحتسبه ، فتطول عند ذلك حسرته

وأكثر أهل النار وصياحهم من سوف ، يقولون واحزناه من سوف . والمسوف المسكين لا يدرى أن الذى يدعوه إلى التسويف اليوم هو معه غدا ، وإنما يزداد بطول المدة قوة ورسوخا ، ويظن أنه يتصور أن يكون للخائض فى الدنيا والحافظ لها فراغ قط وهيهات ، فما يفرغ منها إلا من أطرحها

فما قضى أحـــد منها لبانته وما انتهى أرب إلا إلى أرب

وأصل هذه الأمانى كلها حب الدنيا ، والأنس بها ، والغفلة عن معنى قوله صلى الله عليه وسلم [1] « أَحْبِبْ مَنْ أَحْبَبْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ »

الجهل

وأما الجهل فهو أن الإنسان قد يعوّل على شبابه ، فيستبعد قرب الموت مع الشباب ، وليس يتفكر المسكين أن مشايخ بلده لو عدوا لكانوا أقل من عشر رجال البلد ، وإنما قلوا لأن الموت فى الشباب أكثر ، فإلى أن يموت شيخ يموت ألف صبي وشاب . وقد يستبعد الموت لصحته ، ويستبعد الموت فجأة ، ولا يدري أن ذلك غير بعيد . وإن كان ذلك بعيد

---

(١) حديث أحبب من أحببت فانك مفارقه ـ الحديث : تقدم غير مرة

فالمرض فجأة غير بعيد . وكل مرض فإنما يقع فجأة ، وإذا مرض لم يكن الموت بعيدا

ولو تفكر هذا الغافل ، وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص من شباب ، وشيب ، وكهولة ، ومن صيف ، وشتاء ، وخريف ، وربيع ، من ليل ونهار ، لعظم استشعاره ، واشتغل بالاستعداد له . ولكن الجهل بهذه الأمور وحب الدنيا دعواه إلى طول الأمل ، وإلى الغفلة عن تقدير الموت القريب ، فهو أبدا يظن أن الموت يكون بين يديه ، ولا يقدر نزوله به ووقوعه فيه . وهو أبدا يظن أنه يشيع الجنائز ، ولا يقدر أن تشيع جنازته ، لأن هذا قد تكرر عليه وألفه ، وهو مشاهدة موت غيره . فأما موت نفسه فلم يألفه ، ولم يتصور أن يألفه ، فإنه لم يقع . وإذا وقع لم يقع دفعة أخرى بعد هذه ، فهو الأول وهو الآخر ، وسبيله أن يقيس نفسه بغيره ، ويعلم أنه لابد وأن تحمل جنازته ، ويدفن في قبره . ولعل اللبن الذي يغطى به لحده قد ضرب وفرغ منه وهو لايدري . فتسويفه جهل محض

وإذا عرفت أن سببه الجهل وحب الدنيا ، فعلاجه دفع سببه . أما الجهل فيدفع بالفكر الصافي من القلب الحاضر ، وبسماع الحكمة البالغة من القلوب الطاهرة

علاج طول الأمل

وأما حب الدنيا فالعلاج في إخراجه من القلب شديد ، وهو الداء العضال الذي أعيا الأولين والآخرين علاجه ، ولا علاج له إلا الإيمان باليوم الآخر ، وبما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب . ومهما حصل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حب الدنيا ، فإن حب الخطير هو الذي يمحو عن القلب حب الحقير . فإذا رأى حقارة الدنيا ونفاسة الآخرة استنكف أن يلتفت إلى الدنيا كلها ، وإن أعطي ملك الأرض من المشرق إلى المغرب . وكيف وليس عنده من الدنيا إلا قدر يسير مكدر منغص ، فكيف يفرح بها أو يترسخ في القلب حبها مع الإيمان بالآخرة ! فنسأل الله تعالى أن يرينا الدنيا كما أراها الصالحين من عباده . ولا علاج في تقدير الموت في القلب مثل النظر إلى من مات من الأقران والأشكال ، وأنهم كيف جاءهم الموت في وقت لم يحتسبوا . أما من كان مستعداً فقد فاز فوزا عظيما . وأما من كان مغرورا بطول الأمل فقد خسر خسرانا مبينا

فلينظر الإنسان كل ساعة في أطرافه وأعضائه ، وليتدبر أنها كيف تأكلها الديدان لامحالة ، وكيف تتفتت عظامها ، وليتفكر أن الدود يبدأ بحدقته اليمنى أولا أو اليسرى ،

فما على بدنه شيء إلا وهو طعمة الدود ، وماله من نفسه إلا العلم والعمل الخالص لوجه الله تعالى . وكذلك يتفكر فيما سنورده من عذاب القبر ، وسؤال منكر ونكير ، ومن الحشر ، والنشر ، وأهوال القيامة ، وقرع النداء يوم العرض الأكبر . فأمثال هذه الأفكار هي التي تجدد ذكر الموت على قلبه ، وتدعوه إلى الاستعداد له

بيان

مراتب الناس في طول الأمل وقصره

اعلم أن الناس في ذلك يتفاوتون . فمنهم من يأمل البقاء ويشتهي ذلك أبدا . قال الله تعالى (يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ [1])

ومنهم من يأمل البقاء إلى الهرم وهو أقصى العمر الذى شاهده ورآه . وهو الذى يحب الدنيا حبا شديدا . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « الشَّيْخُ شَابٌّ فِي حُبِّ طَلَبِ الدُّنْيَا وَإِنِ الْتَفَّتْ تَرْقُوَتَاهُ * مِنَ الْكِبَرِ إِلَّا الَّذِينَ اتَّقَوْا وَقَلِيلٌ مَاهُمْ »

ومنهم من يأمل إلى سنة ، فلا يشتغل بتدبير ماوراءها ، فلا يقدر لنفسه وجودا فى عام قابل . ولكن هذا يستعد فى الصيف للشتاء ، وفى الشتاء للصيف . فإذا جمع مايكفيه لسنته اشتغل بالعبادة . ومنهم من يأمل مدة الصيف أو الشتاء ، فلا يدخر فى الصيف ثياب الشتاء ، ولا فى الشتاء ثياب الصيف

ومنهم من يرجع أمله إلى يوم وليلة ، فلا يستعد إلا لنهاره ، وأما للغد فلا . قال عيسى عليه السلام : لاتهتموا برزق غد ، فإن يكن غد من آجالكم فستأتى فيه أرزاقكم مع آجالكم وإن لم يكن من آجالكم فلا تهتموا لآجال غيركم

ومنهم من لايجاوز أمله ساعة ، كما قال نبينا صلى الله عليه وسلم « يَاعَبْدَ اللهِ إِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالْمَسَاءِ وَإِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالصَّبَاحِ »

---

(١) حديث الشيخ شاب فى حب طلب الدنيا وان التفت ترقوتاه من الكبر الا الذين اتقوا وقليل ماهم : لم أجده بهذا اللفظ وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة قلب الشيخ شاب على حب اثنتين طول الحياة وحب المال

---

(١) البقرة : ٩٦

---

* الترقوة : مقدم الحلق فى اعلى الصدر حيثما يترق فيه النفس

ومنهم من لا يقدر البقاء أيضا ساعة . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتيمم مع القدرة على الماء قبل مضي ساعة ويقول « لَعَلِّي لاَ أَبْلُغُهُ »

ومنهم من يكون الموت نصب عينيه ، كأنه واقع به ، فهو ينتظره . وهذا الإنسان هو الذى يصلى صلاة مودع . وفيه ورد ما نقل عن[1] معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه ، لما سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حقيقة إيمانه فقال : ماخطوت خطوة إلا ظننت أنى لا أتبعها أخرى . وكما نقل عن الأسود وهو حبشي ، أنه كان يصلى ليلا ويلتفت يمينا وشمالا فقال له قائل ماهذا ؟ قال أنظر ملك الموت من أى جهة يأتينى

فهذه مراتب الناس . ولكل درجات عند الله . وليس من أمله مقصور على شهر كمن أمله شهر ويوم ، بل بينهما تفاوت فى الدرجة عند الله ، فإن الله لا يظلم مثقال ذرة ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ثم يظهر أثر قصر الأمل فى المبادرة إلى العمل . وكل إنسان يدعى أنه قصير الأمل وهو كاذب ، وإنما يظهر ذلك بأعماله ، فإنه يعتنى بأسباب ربما لا يحتاج إليها فى سنة ، فيدل ذلك على طول أمله . وإنما علامة التوفيق أن يكون الموت نصب العين لا يغفل عنه ساعة . فليستعد للموت الذى يرد عليه فى الوقت . فإن عاش إلى المساء شكر الله تعالى على طاعته ، وفرح بأنه لم يضيع نهاره ، بل استوفى منه حظه ، وادخره لنفسه . ثم يستأنف مثله إلى الصباح ، وهكذا إذا أصبح . ولا يتيسر هذا إلا لمن فرغ القلب عن الغد وما يكون فيه . فمثل هذا إذا مات سعد وغنم ، وإن عاش سر بحسن الاستعداد ولذة المناجاة فالموت له سعادة ، والحياة له مزيد

فليكن الموت على بالك يامسكين ، فإن السير حاث بك وأنت غافل عن نفسك ، ولعلك قد قاربت المنزل وقطعت المسافة ، ولا تكون كذلك إلا بمبادرة العمل اغتناما لكل نفس أمهلت فيه

---

(١) حديث سؤاله لمعاذ عن حقيقة ايمانه فقال ماخطوت خطوة الاظننت انى لا أتبعها أخرى : أبو نعيم فى الحلية من حديث أنس وهو ضعيف

بيان

المبادرة إلى العمل وحذر آفة التأخير

اعلم أن من له أخوان غائبان وينتظر قدوم أحدهما فى غد ، وينتظر قدوم الآخر بعد شهر أو سنة ، فلا يستعد للذى يقدم إلى شهر أو سنة ، وإنما يستعد للذى ينتظر قدومه غدا . فالاستعداد نتيجة قرب الانتظار . فمن انتظر مجيء الموت بعد سنة اشتغل قلبه بالمدة ، ونسي ما وراء المدة ، ثم يصبح كل يوم وهو منتظر للسنة بكمالها ، لاينتقص منها اليوم الذى مضى . وذلك يمنعه من مبادرة العمل أبدا ، فإنه أبدا يرى لنفسه متسعا فى تلك السنة ، فيؤخر العمل ، كما قال صلى الله عليه وسلم [١] « مَا يَنْتَظِرُ أَحَدُكُمْ مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ غِنًى مُطْغِيًا أَوْ فَقْرًا مُنْسِيًا أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا أَوْ هَرَمًا مُقَيِّدًا أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا أَوِ الدَّجَّالَ فَالدَّجَّالُ شَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ أَوِ السَّاعَةَ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ »

وقال [٢] ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم لرجل وهو يعظه « اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ »

وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ » أي أنه لايغتنمهما ، ثم يعرف قدرهما عند زوالهما

وقال صلى الله عليه وسلم [٤] « مَنْ خَافَ أَدْلَجَ وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ أَلاَ إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ غَالِيَةٌ أَلاَ إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ الْجَنَّةُ »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٥] « جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ وَجَاءَ

---

(١) حديث ماينتظر أحدكم من الدنيا الاغنى مطغيا أوفقرا منسيا ـ الحديث : الترمذى من حديث أبى هريرة بلفظ هل ينتظرون الاغناء ـ الحديث : وقال حسن ورواه ابن المبارك فى الزهد ومن طريقه ابن أبى الدنيا فى قصر الأمل بلفظ المصنف وفيه من لم يسم

(٢) حديث ابن عباس اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك ـ الحديث : ابن أبى الدنيا فيه باسناد حسن ورواه ابن المبارك فى الزهد من رواية عمرو بن ميمون الأزدى مرسلا

(٣) حديث نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ : البخارى من حديث ابن عباس وقد تقدم

(٤) حديث من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل : الترمذى من حديث أبى هريرة وقال حسن

(٥) حديث جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ـ الحديث : الترمذى وحسنه من حديث أبى بن كعب

الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ »[١] : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أنس من أصحابه غفلة أوغرة، نادى فيهم بصوت رفيع « أَتَتْكُمُ الْمَنِيَّةُ رَاتِبَةً لَازِمَةً إِمَّا بِشَقَاوَةٍ وَإِمَّا بِسَعَادَةٍ » وقال[٢] أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَنَا النَّذِيرُ وَالْمَوْتُ الْمُغِيرُ وَالسَّاعَةُ الْمَوْعِدُ » . وقال[٣] ابن عمر : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والشمس على أطراف السعف فقال « مَابَقِيَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا كَمَا بَقِيَ مِنْ يَوْمِنَا هٰذَا فِي مِثْلِ مَامَضَى مِنْهُ » : وقال صلى الله عليه وسلم[٤] « مَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ ثَوْبٍ شُقَّ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ فَبَقِيَ مُتَعَلِّقاً بِخَيْطٍ فِي آخِرِهِ فَيُوشِكُ ذَلِكَ الْخَيْطُ أَنْ يَنْقَطِعَ »

وقال[٥] جابر : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خطب فذكر الساعة رفع صوته، واحمرت وجنتاه ، كأنه منذر جيش يقول « صَبَّحَتْكُمْ وَمَسَّتْكُمْ بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ » وقرن بين أصبعيه . وقال[٦] ابن مسعود رضي الله عنه : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ[١]) فقال « إِنَّ النُّورَ إِذَا دَخَلَ الصَّدْرَ انْفَسَحَ » فقيل يارسول الله هل لذلك من علامة تعرف؟ قال « نَعَمْ . التَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ وَالْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ وَالِاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِهِ »

وقال السدى : (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً[٢]) أى أيكم أكثر للموت ذكرا ، وأحسن له استعدادا ، وأشد منه خوفا وحذرا

---

(١) حديث كان إذا أنس من أصحابه غفلة أوغرة نادى فيهم بصوت رفيع أتتكم المنية . الحديث : ابن أبي الدنيا فى قصر الأمل من حديث زيد السليمى مرسلا

(٢) حديث أبى هريرة أنا النذير والموت المغير والساعة الموعد : ابن أبي الدنيا فى قصر الأمل وأبو القاسم البغوى باسناد فيه لين

(٣) حديث ابن عمر خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والشمس على أطراف السعف فقال مابقى من الدنيا إلا مثل مابقى من يومنا هذا فى مثل مامضى منه : ابن أبي الدنيا فيه باسناد حسن وللترمذى نحوه من حديث أبى سعيد وحسنه

(٤) حديث مثل الدنيا مثل ثوب شق من أوله الى آخره ـ الحديث : ابن أبى الدنيا فيه من حديث أنس ولا يصح

(٥) حديث جابر كان اذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرت وجنتاه ـ الحديث : مسلم وابن أبى الدنيا فى قصر الأمل واللفظ له

(٦) حديث ابن مسعود تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام فقال ان النور اذا دخل القلب انفسح ـ الحديث : ابن أبى الدنيا فى قصر الأمل والحاكم فى المستدرك وقد تقدم

---

(١) الأنعام : ١٢٥ (٢) الملك : ٢

وقال حذيفة : ما من صباح ولا مساء إلا ومناد ينادى : أيها الناس ، الرحيل الرحيل . وتصديق ذلك قوله تعالى (إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ نَذِيراً لِلْبَشَرِ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ [١]) فى الموت . وقال سحيم مولى بنى تميم : جلست إلى عامر بن عبد الله وهو يصلى ، فأوجز فى صلاته ثم أقبل عليّ فقال : أرحنى بحاجتك فإنى أبادر . قلت وما تبادر؟ قال ملك الموت رحمك الله . قال فقمت عنه ، وقام إلى صلاته

ومرّ داود الطائى فسأله رجل عن حديث فقال : دعنى إنما أبادر خروج نفسى

قال عمر رضي الله عنه : التؤدة فى كل شيء خير إلا فى أعمال الخير للآخرة

وقال المنذر : سمعت مالك بن دينار يقول لنفسه : ويحك بادرى قبل أن يأتيك الأمر ، ويحك بادرى قبل أن يأتيك الأمر ، حتى كرر ذلك ستين مرة أسمعه ولا يرانى

وكان الحسن يقول فى موعظته : المبادرة المبادرة ، فإنما هي الأنفاس لو حبست انقطعت عنكم أعمالكم التى تتقربون بها إلى الله عز وجل . رحم الله امرأ نظر إلى نفسه ، وبكى على عدد ذنوبه . ثم قرأ هذه الآية (إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا [٢]) يعنى الأنفاس ، آخر العدد خروج نفسك ، آخر العدد فراق أهلك ، آخر العدد دخولك فى قبرك

واجتهد أبو موسى الأشعرى قبل موته اجتهادا شديدا ، فقيل له لو أمسكت أو رفقت بنفسك بعض الرفق ؟ فقال إن الخيل إذا أرسلت فقاربت رأس مجراها أخرجت جميع ما عندها . والذى بقى من أجلى أقل من ذلك : قال فلم يزل على ذلك حتى مات ، وكان يقول لامرأته : شدى رحلك ، فليس على جهنم معبر

وقال بعض الخلفاء على منبره : عباد الله ، اتقوا الله ما استطعتم ، وكونوا قوما صيح بهم فانتبهوا ، وعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا ، واستعدوا للموت فقد أظلكم ، وترحلوا فقد جدّ بكم ، وإن غاية تنقصها اللحظة ، وتهدمها الساعة ، لجديرة بقصر المدة . وإن غائبا يحدو به الجديدان الليل والنهار لحريّ بسرعة الأوبة ، وإن قادما يحل بالفوز أو الشقوة لمستحق لأفضل العدة . فالتقيّ عند ربه من ناصح نفسه ، وقدم توبته . وغلب شهوته ، فإن أجله مستور عنه ، وأمله خادع له والشيطان موكل به ، يمنيه التوبة ليسوفها ، ويزين

---

[١] المدثر : ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ [٢] مريم : ٣٤

إليه المعصية ليرتكبها ، حتى تهجم منيته عليه أغفل ما يكون عنها : وإنه ما بين أحدكم وبين الجنة أو النار إلا الموت أن ينزل به . فيالها حسرة على ذى غفلة أن يكون عمره عليه حجة ، وأن ترديه أيامه إلى شقوة ، جعلنا الله وإياكم ممن لا تبطره نعمة ، ولا تقصر به عن طاعة الله معصية ، ولا يحل به بعد الموت حسرة إنه سميع الدعاء ، وإنه بيده الخير دائما فعال لما يشاء

وقال بعض المفسرين فى قوله تعالى (فَتَنْتُمْ أَنفُسَكُمْ [1]) قال بالشهوات واللذات (وَتَرَبَّصْتُمْ [2]) قال بالتوبة (وَارْتَبْتُمْ [3]) قال شككتم (حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ [4]) قال الموت (وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ [5]) قال الشيطان

وقال الحسن : تصبروا وتشددوا فإنما هي أيام قلائل ، وإنما أنتم ركب وقوف ، يوشك أن يدعى الرجل منكم فيجيب ولا يلتفت فانتقلوا بصالح ما بحضرتكم

وقال ابن مسعود : ما منكم من أحد أصبح إلا وهو ضيف ، وماله عارية ، والضيف مرتحل ، والعارية مؤداة . [1] وقال أبو عبيدة الباجي : دخلنا على الحسن فى مرضه الذى مات فيه ، فقال: مرحبا بكم وأهلا ، حياكم الله بالسلام : وأحلنا وإياكم دار المقام . هذه علانية حسنة إن صبرتم وصدقتم واتقيتم ، فلا يكن حظكم من هذا الخبر رحمكم الله أن تسمعوه بهذه الأذن ، وتخرجوه عن هذه الأذن ، فإن من رأى محمدا صلى الله عليه وسلم فقد رآه غاديا ورائحا ، لم يضع لبنة على لبنة ، ولا قصبة على قصبة ، ولكن رفع له علم فشمر إليه ، الوحا الوحا ، النجا النجا . علام تعرجون ؟ أتيتم ورب الكعبة كأنكم والأمر معا ، رحم الله عبدا جعل العيش عيشا واحدا ، فأكل كسرة ، ولبس خلقا ، ولزق بالأرض ، واجتهد فى العبادة ، وبكى على الخطيئة ، وهرب من العقوبة ، وابتغى الرحمة حتى يأتيه أجله وهو على ذلك

وقال عاصم الأحول . قال لى فضيل الرقاشى وأنا سائله : ياهذا لا يشغلنك كثرة الناس عن نفسك ، فإن الأمر يخلص إليك دونهم . ولا تقل أذهب ههنا وههنا ، فينقطع عنك النهار

---

(١) حديث أبى عبيدة الباجى دخلنا على الحسن فى مرضه الذى مات فيه فقال مرحبا بكم ـ الحديث : ابن أبى الدنيا فى قصر الامل وابن حبان فى الثقات وأبو نعيم فى الحلية من هذا الوجه

(١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥) الحديد : ١٤

فى لاشىء ، فإن الأمر محفوظ عليك ، ولم ترشيئا قط أحسن طلبا ولا أسرع إدراكا من حسنة حديثة لذنب قديم

الباب الثالث

فى سكرات الموت وشدته وما يستحب من الأحوال عنده

اعلم أنه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب ، ولا هول ، ولا عذاب ، سوى سكرات الموت بمجردها ، لكان جديرا بأن يتنغص عليه عيشه ، ويتكدر عليه سروره ويفارقه سهوه وغفلته ، وحقيقا بأن يطول فيه فكره ، ويعظم له استعداده ، لاسيما وهو فى كل نفس بصدده . كما قال بعض الحكماء : كرب بيد سواك ، لاتدرى متى يغشاك

وقال لقمان لابنه : يابني ؛ أمر لاتدرى متى يلقاك ، استعد له قبل أن يفجأك

والعجب أن الإنسان لو كان فى أعظم اللذات وأطيب مجالس اللهو : فانتظر أن يدخل عليه جندى فيضربه خمس خشبات ، لتكدرت عليه لذته وفسد عليه عيشه . وهو فى كل نفس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزع ، وهو عنه غافل . فما لهذا سبب إلا الجهل والغرور

واعلم أن شدة الألم فى سكرات الموت لايعرفها بالحقيقة إلا من ذاقها . ومن لم يذقها فإنما يعرفها إما بالقياس إلى الآلام التى أدركها ، وإما بالاستدلال بأحوال الناس فى النزع على شدة ماهم فيه . فأما القياس الذى يشهد له فهو أن كل عضو لاروح فيه فلا يحس بالألم . فإذا كان فيه الروح فالمدرك للألم هو الروح . فمهما أصاب العضو جرح أو حريق سرى الأثر إلى الروح ، فبقدر مايسرى إلى الروح يتألم . والمؤلم يتفرق على اللحم ، والدم ، وسائر الأجزاء ، فلا يصيب الروح إلا بعض الألم . فإن كان فى الآلام مايباشر نفس الروح ولايلاقى غيره ، فما أعظم ذلك الألم وما أشده ! والنزع عبارة عن مؤلم نزل بنفس الروح ، فاستغرق جميع أجزائه ، حتى لم يبق جزء من أجزاء الروح المنتشر فى أعماق البدن إلا وقد حل به الألم . فلو أصابته شوكة فالألم الذى يجده إنما يجرى فى جزء من الروح يلاقى ذلك الموضع الذى أصابته الشوكة .

وإنما يعظم أثر الاحتراق لأن أجزاء النار تغوص فى سائر أجزاء البدن ، فلا يبقى جزء من العضو المحترق ظاهرا وباطنا إلا وتصيبه النار ، فتحسه الأجزاء الروحانية المنتشرة فى سائر أجزاء اللحم . وأما الجراحة فإنما تصيب الموضع الذى مسه الحديد فقط ، فكان لذلك ألم الجرح دون ألم النار . فألم النزع يهجم على نفس الروح ، ويستغرق جميع أجزائه ، فإنه المنزوع المجذوب من كل عرق من العروق ، وعصب من الأعصاب ، وجزء من الأجزاء ، ومفصل من المفاصل ، ومن أصل كل شعرة وبشرة من الفرق إلى القدم . فلا تسأل عن كربه وألمه ، حتى قالوا إن الموت لأشد من ضرب بالسيف ، ونشر بالمناشير ، وقرض بالمقاريض . لأن قطع البدن بالسيف إنما يؤلم لتعلقه بالروح ، فكيف إذا كان المتناول المباشر نفس الروح . وإنما يستغيث المضروب ويصيح لبقاء قوته فى قلبه وفى لسانه . وإنما انقطع صوت الميت وصياحه مع شدة ألمه لأن الكرب قد بالغ فيه ، وتصاعد على قلبه ، وبلغ كل موضع منه ، فهدّ كل قوة ، وضعف كل جارحة ، فلم يترك له قوة الاستغاثة . أما العقل فقد غشيه وشوّشه . وأما اللسان فقد أبكمه . وأما الأطراف فقد ضعفها . ويود لو قدر على الاستراحة بالأنين والصياح والاستغاثة ، ولكنه لايقدر على ذلك . فإن بقيت فيه قوة سمعت له عند نزع الروح وجذبها خوارا وغرغرة من حلقه وصدره ، وقد تغير لونه وأربد ، حتى كأنه ظهر منه التراب الذى هو أصل فطرته ، وقد جذب منه كل عرق على حياله . فالألم منتشر فى داخله وخارجه حتى ترتفع الحدقتان إلى أعالى أجفانه ، وتتقلص الشفتان ، ويتقلص اللسان إلى أصله ، وترتفع الانثيان إلى أعالى موضعهما ، وتخضر أنامله . فلا تسل عن بدن يجذب منه كل عرق من عروقه . ولو كان المجذوب عرقا واحدا لكان ألمه عظيما ، فكيف والمجذوب نفس الروح المتألم ، لامن عرق واحد ، بل من جميع العروق . ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجا ، فتبرد أولا قدماه ، ثم ساقاه ، ثم فخذاه . ولكل عضو سكرة بعد سكرة ، وكربة بعد كربة ، حتى يبلغ بها إلى الحلقوم ، فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها ، ويغلق دونه باب التوبة ،

وتحيط به الحسرة والندامة. (١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تُقْبَلُ تَوْبَةُ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ » وقال مجاهد في قوله تعالى (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ [١]) قال: إذا عاين الرسل فعند ذلك تبدو له صفحة وجه ملك الموت، فلا تسأل عن طعم مرارة الموت وكربه عند ترادف سكراته ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (٢) « اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَى مُحَمَّدٍ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ »

سكرات الموت واقعة لا محالة

والناس إنما لا يستعيذون منه ولا يستعظمونه لجهلهم به، فإن الأشياء قبل وقوعها إنما تدرك بنور النبوّة والولاية. ولذلك عظم خوف الأنبياء عليهم السلام والأولياء من الموت، حتى قال عيسى عليه السلام: يا معشر الحواريين ادعوا الله تعالى أن يهوّن علي هذه السكرة، يعني الموت، فقد خفت الموت مخافة أوقفني خوفي من الموت على الموت

وروي أن نفرا من بني إسرائيل مروا بمقبرة، فقال بعضهم لبعض. لو دعوتم الله تعالى أن يخرج لكم من هذه المقبرة ميتا تسألونه، فدعوا الله تعالى، فإذا هم برجل قد قام وبين عينيه أثر السجود، قد خرج من قبر من القبور، فقال ياقوم: ما أردتم مني؟ لقد ذقت الموت منذ خمسين سنة ما سكنت مرارة الموت من قلبي

وقالت عائشة رضي الله عنها: لا أغبط أحدا يهون عليه الموت بعد الذي رأيت من شدة موت رسول الله صلى الله عليه وسلم

وروي أنه عليه السلام (٣) كان يقول « اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَأْخُذُ الرُّوحَ مِنْ بَيْنِ الْعَصَبِ وَالْقَصَبِ وَالْأَنَامِلِ اللَّهُمَّ فَأَعِنِّي عَلَى الْمَوْتِ وَهَوِّنْهُ عَلَيَّ »

وعن الحسن (٤) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الموت وغصته وألمه فقال

﴿ الباب الثالث في سكرات الموت ﴾

(١) حديث ان الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر: الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث ابن عمر

(٢) حديث كان يقول اللهم هون على محمد سكرات الموت: تقدم

(٣) حديث كان يقول اللهم انك تأخذ الروح من بين العصب والقصب والأنامل ـ الحديث: ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث صعمة بن غيلان الجعفي وهو معضل سقط منه الصحابي والتابعي

(٤) حديث الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الموت وغصته وألمه فقال هو قدر ثلثمائة ضربة بالسيف ابن أبي الدنيا فيه هكذا مرسلا ورجاله ثقات

---

[١] النساء : ١٨

« هُوَ قَدْرُ ثَلَثِمِائَةِ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ » . وسئل صلى الله عليه وسلم [١] عن الموت وشدته فقال « إِنَّ أَهْوَنَ الْمَوْتِ بِمَنْزِلَةِ حَسَكَةٍ فِي صُوفٍ فَهَلْ تَخْرُجُ الْحَسَكَةُ مِنَ الصُّوفِ إِلاَّ وَمَعَهَا صُوفٌ » . ودخل صلى الله عليه وسلم [٢] على مريض ثم قال « إِنِّي أَعْلَمُ مَا يَلْقَى مَا مِنْهُ عِرْقٌ إِلاَّ وَيَأْلَمُ الْمَوْتِ عَلَى حِدَتِهِ »

وكان علي كرم الله وجهه يحض على القتال ويقول : إن لم تقتلوا تموتوا . والذى نفسى بيده لألف ضربة بالسيف أهون علي من موت على فراش

وقال الأوزاعى : بلغنا أن الميت يجد ألم الموت مالم يبعث من قبره

وقال شداد بن أوس : الموت أفظع هول فى الدنيا والآخرة على المؤمن . وهو أشد من نشر بالمناشير ، وقرض بالمقاريض ، وغلي فى القدور . ولو أن الميت نشر فأخبر أهل الدنيا بالموت ماانتفعوا بعيش ، ولا لذوا بنوم . وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال : إذا بقي على المؤمن من درجاته شيء لم يبلغها بعمله شدّد عليه الموت ليبلغ بسكرات الموت وكربه درجته فى الجنة . وإذا كان للكافر معروف لم يجز به ، هوّن عليه فى الموت ليستكمل ثواب معروفه فيصير إلى النار . وعن بعضهم أنه كان يسأل كثيرا من المرضى كيف تجدون الموت فلما مرض قيل له: فأنت كيف تجده؟ فقال: كأن السموات مطبقة على الأرض. وكأن نفسى يخرج من ثقب إبرة . وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « مَوْتُ الْفَجْأَةِ رَاحَةٌ لِلْمُؤْمِنِ وَأَسَفٌ عَلَى الْفَاجِرِ » . وروي عن [٤] مكحول ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لَوْ أَنَّ شَعْرَةً مِنْ شَعْرِ الْمَيِّتِ وُضِعَتْ عَلَى أَهْلِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَمَاتُوا بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى »

---

(١) حديث سئل عن الموت وشدته فقال ان أهون الموت بمنزلة حسكة ـ الحديث : ابن أبى الدنيا فيه من رواية شهر بن حوشب مرسلا

(٢) حديث دخل على مريض فقال انى لأعلم مايلقى مامنه عرق الاويألم للموت على حدته :ابن أبى الدنيافيه من حديث سلمان بسند ضعيف ورواه فى المرض والكفارات من رواية عبيد بن عمير مرسلا مع اختلاف ورجاله ثقات

(٣) حديث موت الفجأة راحة للمؤمن وأسف على الفاجر :أحمد من حديث عائشة باسناد صحيح قال وأخذة أسف ولابى داود من حديث خالد السلمى موت الفجأة أخذة أسف

(٤) حديث مكحول لوان شعرة من شعر الميت وضعت على أهل السموات والارض لماتوا ـ الحديث : ابن أبى الدنيا فى الموت من رواية أبى ميسرة رفعه وفيه لوأن ألمشعرة وزادوان فى يوم القيامة لتسعين هولاأدناها هولا يضاعف على الموت سبعين ألف ضعف وابوميسرة هو عمرو ابن شرحبيل والحديث مرسل حسن الاسناد

لأن فى كل شعرة الموتُ ، ولا يقع الموت بشيء إلا مات

ويروى (١) لو أن قطرة من ألم الموت وضعت على جبال الدنيا كلها لذابت

وروي أن ابراهيم عليه السلام لما مات قال الله تعالى له : كيف وجدت الموت ياخليلى؟ قال كسَفُّود جعل فى صوف رطب ثم جذب فقال : أما إنا قد هوّنا عليك

وروي عن موسى عليه السلام أنه لما صارت روحه إلى الله تعالى قال له ربه : ياموسى كيف وجدت الموت؟ قال وجدت نفسى كالعصفور حين يقلى على المقلى ، لا يموت فيستريح ولا ينجو فيطير . وروي عنه أنه قال : وجدت نفسى كشاة حية تسلخ بيد القصاب

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم (٢) أنه كان عنده قدح من ماء عند الموت ، فجعل يدخل يده فى الماء ثم يمسح بها وجهه ويقول « اللهُمَّ هَوِّنْ عَلَيَّ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ » وفاطمة رضي الله عنها تقول (٣) : واكرباه لكربك ياأبتاه ! وهو يقول « لاَكَرْبَ عَلَى أَبِيكِ بَعْدَ الْيَوْمِ » . وقال عمر رضي الله عنه لكعب الأحبار : يا كعب ، حدثنا عن الموت . فقال نعم ياأمير المؤمنين : إن الموت كغصن كثير الشوك أدخل فى جوف رجل ، وأخذت كل شوكة بعرق ، ثم جذبه رجل شديد الجذب ، فأخذ ما أخذ ، وأبقى ما أبقى

وقال النبي صلى الله عليه وسلم (٤) « إِنَّ الْعَبْدَ لَيُعَالِجُ كَرْبَ الْمَوْتِ وَسَكَرَاتِ الْمَوْتِ وَإِنَّ مَفَاصِلَهُ لَيُسَلِّمُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ تَقُولُ عَلَيْكَ السَّلاَمُ تُفَارِقُنِي وَأُفَارِقُكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » : فهذه سكرات الموت على أولياء الله وأحبابه ، فما حالنا ونحن المنهمكون فى المعاصى! وتتوالى علينا مع سكرات الموت بقية الدواهى ! فإن دواهى الموت ثلاث

الأولى : شدة النزع كما ذكرناه

---

(١) حديث لو أن قطرة من الموت وضعت على جبال الدنيا كلها لذابت لم أجد له أصلا : ولعل المصنف لم يورده حديثا فانه قال ويروى

(٢) حديث انه كان عنده قدح من ماء عند الموت فجعل يدخل يده فى الماء ثم يمسح بها وجهه ويقول اللهم هون علي سكرات الموت :متفق عليه من حديث عائشة

(٣) حديث ان فاطمة قالت واكرباه لكربك ياأبت ـ الحديث : البخارى من حديث أنس بلفظ واكرب أبتاه وفى رواية لابن خزيمة واكرباه

(٤) حديث ان العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت وان مفاصله ليسلم بعضها على بعض ـ الحديث :

صورة ملك الموت

الداهية الثانية : مشاهدة صورة ملك الموت ، ودخول الروع والخوف منه على القلب فلو رأى صورته ! التي يقبض عليها روح العبد المذنب أعظم الرجال قوة لم يطق رؤيته . فقد روي عن ابراهيم الخليل عليه السلام أنه قال لملك الموت : هل تستطيع أن تريني صورتك التي تقبض عليها روح الفاجر . قال لا تطيق ذلك . قال بلى . قال فأعرض عني . فأعرض عنه ثم التفت ، فإذا هو برجل أسود ، قائم الشعر ، منتن الريح ، أسود الثياب ، يخرج من فيه ومناخيره لهيب النار والدخان . فغشي على ابراهيم عليه السلام ، ثم أفاق وقد عاد ملك الموت إلى صورته الأولى . فقال ياملك الموت ، لو لم يلق الفاجر عند الموت إلا صورة وجهك لكان حسبه . وروى [1] أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم « أَنَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ رَجُلاً غَيُوراً وَكَانَ إِذَا خَرَجَ أُغْلِقَ الْأَبْوَابَ فَأَغْلَقَ ذَاتَ يَوْمٍ وَخَرَجَ فَأَشْرَفَتِ امْرَأَتُهُ فَإِذَا هِيَ بِرَجُلٍ فِي الدَّارِ فَقَالَتْ مَنْ أَدْخَلَ هَذَا الرَّجُلَ لَئِنْ جَاءَ دَاوُدُ لَيَلْقَيَنَّ مِنْهُ عَنَاءً فَجَاءَ دَاوُدُ فَرَآهُ فَقَالَ مَنْ أَنْتَ ؟ فَقَالَ أَنَا الَّذِي لَا أَهَابُ الْمُلُوكَ وَلَا يَمْنَعُ مِنِّي الْحِجَابُ فَقَالَ فَأَنْتَ وَاللهِ إِذاً مَلَكُ الْمَوْتِ وَزَمَلَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَكَانَهُ »

وروي أن عيسى عليه السلام مرّ بجمجمة فضربها برجله ، فقال : تكلمي بإذن الله . فقالت ياروح الله ، أنا ملك زمان كذا وكذا ، بينا أنا جالس في ملكي علي تاجي ، وحولي جنودي وحشمي ، على سرير ملكي ، إذ بدالي ملك الموت ، فزال مني كل عضو على حياله ثم خرجت نفسي إليه ، فياليت ماكان من تلك الجموع كان فرقة ، وياليت ماكان من ذلك الأنس كان وحشة . فهذه داهية يلقاها العصاة ، ويكفاها المطيعون . فقد حكى الأنبياء مجرد سكرة النزع ، دون الروعة التي يدركها من يشاهد صورة ملك الموت كذلك . ولو رآها في منامه ليلة لتنغص عليه بقية عمره ، فكيف برؤيته في مثل تلك الحال وأما المطيع فإنه يراه في أحسن صورة وأجملها . فقد روى عكرمة عن ابن عباس ، أن إبراهيم عليه السلام كان رجلا غيورا ، وكان له بيت يتعبد فيه فإذا خرج

رويناه في الأربعين لأبي هدبة ابراهيم بن هدبة عن أنس وأبو هدبة هالك

(١) حديث أبي هريرة ان داود كان رجلا غيورا ـ الحديث : أحمد باسناد جيد نحوه وابن أبي الدنيا في كتاب الموت بلفظه

أغلقه . فرجع ذات يوم فإذا برجل فى جوف البيت ، فقال من أدخلك دارى ؟ فقال أدخلنيها ربها . فقال أنا ربها . فقال أدخلنيها من هو أملك بها منى ومنك . فقال من أنت من الملائكة ؟ قال أنا ملك الموت : قال هل تستطيع أن ترينى الصورة التى تقبض فيها روح المؤمن؟ قال نعم فأعرض عنى، فأعرض ثم التفت فإذا هو بشاب، فذكر من حسن وجهه وحسن ثيابه وطيب ريحه ، فقال يا ملك الموت ، لو لم يلق المؤمن عند الموت إلا صورتك كان حسبه

ومنها مشاهدة الملكين الحافظين . قال وهيب : بلغنا أنه ما من ميت يموت حتى يتراءى له ملكاه الكاتبان عمله . فإن كان مطيعا قالا له . جزاك الله عنا خيرا ، فرب مجلس صدق أجلستنا ، وعمل صالح أحضرتنا . وإن كان فاجرا قالا له لا جزاك الله عنا خيراً فرب مجلس سوء أجلستنا ، وعمل غير صالح أحضرتنا ، وكلام قبيح أسمعتنا ، فلا جزاك الله عنا خيرا . فذلك شخوص بصر الميت إليهما ، ولا يرجع إلى الدنيا أبدا

مشاهدة العصاة مواضعهم من النار

الداهية الثالثة : مشاهدة العصاة مواضعهم من النار ، وخوفهم قبل المشاهدة. فإنهم فى حال السكرات قد تخاذلت قواهم ، واستسلمت للخروج أرواحهم ، ولن تخرج أرواحهم مالم يسمعوا نغمة ملك الموت بأحد البشريين ، إما أبشر يا عدوّ الله بالنار ، أو أبشر يا ولىّ الله بالجنة . ومن هذا كان خوف أرباب الألباب . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (١) « لَنْ يَخْرُجَ أَحَدُكُمْ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى يَعْلَمَ أَيْنَ مَصِيرُهُ وَحَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ أَوِ النَّارِ » . وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ » فقالوا . كلنا نكره الموت . قال « لَيْسَ ذَاكَ بِذَاكَ إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا فُرِّجَ لَهُ عَمَّا هُوَ قَادِمٌ عَلَيْهِ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ وَأَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ »

وروي أن حذيفة بن اليمان قال لابن مسعود وهو لما به من آخر الليل . قم فانظر

---

(١) حديث لن يخرج أحدكم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره وحتى يرى مقعده من الجنة أو النار : ابن أبي الدنيا فى الموت من رواية رجل لم يسم عن على موقوفا لاتخرج نفس ابن آدم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره الى الجنة أم إلى النار وفى رواية حرام على نفس أن تخرج من الدنيا حتى تعلم من أهل الجنة هى أم من أهل النار وفى الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت مايشهد لذلك ان المؤمن اذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته وان الكافر اذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته ـ الحديث :

(٢) حديث من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ـ الحديث : متفق عليه من حديث عبادة بن الصامت

أي ساعة هي . فقام ابن مسعود ، ثم جاءه فقال قد طلعت الحمراء . فقال حذيفة . أعوذ بالله من صباح إلى النار . ودخل مروان على أبي هريرة . فقال مروان . اللهم خفف عنه فقال أبو هريرة . اللهم اشدد ، ثم بكى أبو هريرة وقال : والله ما أبكي حزنا على الدنيا ، ولا جزعا من فراقكم ، ولكن أنتظر إحدى البشريين من ربي بجنة أم بنار

وروي في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم [1] أنه قال « إِنَّ اللهَ إِذَا رَضِيَ عَنْ عَبْدٍ قَالَ يَامَلَكَ الْمَوْتِ اذْهَبْ إِلَى فُلَانٍ فَأْتِنِي بِرُوحِهِ لِأُرِيحَهُ حَسْبِي مِنْ عَمَلِهِ قَدْ بَلَوْتُهُ فَوَجَدْتُهُ حَيْثُ أُحِبُّ فَيَنْزِلُ مَلَكُ الْمَوْتِ وَمَعَهُ خَمْسُمِائَةٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَمَعَهُمْ قُضْبَانُ الرَّيْحَانِ وَأُصُولُ الزَّعْفَرَانِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يُبَشِّرُهُ بِبِشَارَةٍ سِوَى بِشَارَةِ صَاحِبِهِ وَتَقُومُ الْمَلَائِكَةُ صَفَّيْنِ لِخُرُوجِ رُوحِهِ مَعَهُمُ الرَّيْحَانُ فَإِذَا نَظَرَ إِلَيْهِمْ إِبْلِيسُ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ ثُمَّ صَرَخَ » قال « فَيَقُولُ لَهُ جُنُودُهُ مَالَكَ يَاسَيِّدَنَا فَيَقُولُ أَمَا تَرَوْنَ مَا أُعْطِيَ هَذَا الْعَبْدُ مِنَ الْكَرَامَةِ أَيْنَ كُنْتُمْ مِنْ هَذَا قَالُوا قَدْ جَهَدْنَا بِهِ فَكَانَ مَعْصُومًا »

وقال الحسن : لا راحة للمؤمن إلا في لقاء الله . ومن كانت راحته في لقاء الله تعالى فيوم الموت يوم سروره ، وفرحه ، وأمنه ، وعزه ، وشرفه

وقيل لجابر بن زيد عند الموت . ما تشتهي ؟ قال نظرة إلى الحسن . فلما دخل عليه الحسن قيل له . هذا الحسن فرفع طرفه إليه ثم قال . ياإخواناه ، الساعة والله أفارقكم إلى النار أو إلى الجنة . وقال محمد بن واسع عند الموت : ياإخواناه ، عليكم السلام إلى النار أو يعفو الله . وتمنى بعضهم أن يبقى في النزع أبدا ولا يبعث لثواب ولا عقاب

فخوف سوء الخاتمة قطع قلوب العارفين ، وهو من الدواهي العظيمة عند الموت وقد ذكرنا معنى سوء الخاتمة ، وشدة خوف العارفين منه في كتاب الخوف والرجاء ، وهو لائق بهذا الموضع ، ولكنا لا نطول بذكره وإعادته

---

(١) حديث ان الله اذا رضي على عبده قال يا ملك الموت اذهب الى فلان فأتني بروحه لأريحه ـ الحديث : ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث تميم الداري باسناد ضعيف بزيادة كثيرة ولم يصرح في أول الحديث برفعه وفي آخره مادل على أنه مرفوع وللنسائي من حديث أبي هريرة باسناد صحيح إذا حضر الميت أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء فيقولون اخرجي راضية مرضية عنك إلى روح الله وريحان ورب راض غير غضبان ـ الحديث :

بيان
ما يستحب من أحوال المحتضر عند الموت

اعلم أن المحبوب عند الموت من صورة المحتضر هو الهدوء والسكون ، ومن لسانه أن يكون ناطقا بالشهادة ،ومن قلبه أن يكون حسن الظن بالله تعالى

أما الصورة فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (١) « ارْقُبُوا الْمَيِّتَ عِنْدَ ثَلَاثٍ إِذَا رَشَحَ جَبِينُهُ وَدَمَعَتْ عَيْنَاهُ وَيَبِسَتْ شَفَتَاهُ فَهِيَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ قَدْ نَزَلَتْ بِهِ وَإِذَا غَطَّ غَطِيطَ الْمَخْنُوقِ وَاحْمَرَّ لَوْنُهُ وَأَرْبَدَتْ شَفَتَاهُ فَهُوَ مِنْ عَذَابِ اللهِ قَدْ نَزَلَ بِهِ»

وأما انطلاق لسانه بكلمة الشهادة فهي علامة الخير . قال أبو سعيد الخدري : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) « لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ » وفي رواية (٣) حذيفة « فَإِنَّهَا تَهْدِمُ مَاقَبْلَهَا مِنَ الْخَطَايَا » . وقال عثمان : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) « مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ » وقال عبيد الله « وَهُوَ يَشْهَدُ »

وقال عثمان : إذا احتضر الميت فلقنوه لا إله إلا الله فإنه ما من عبد يختم له بها عند موته إلا كانت زاده إلى الجنة

مشروعية التلقين وما ينبغي للملقن

وقال عمر رضي الله عنه . احضروا موتاكم وذكروهم ، فإنهم يرون مالا ترون ، ولقنوهم لا إله إلا الله . وقال (٥) أبو هريرة . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « حَضَرَ مَلَكُ الْمَوْتِ رَجُلًا يَمُوتُ فَنَظَرَ فِي قَلْبِهِ فَلَمْ يَجِدْ فِيهِ شَيْئًا فَفَكَّ لَحْيَيْهِ فَوَجَدَ طَرَفَ لِسَانِهِ لَاصِقًا بِحَنَكِهِ يَقُولُ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ فَغُفِرَ لَهُ بِكَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ »

---

(١) حديث ارقبوا الميت عند ثلاث اذا رشح جبينه وذرفت عيناه ـ الحديث : الترمذي الحكيم في نوادر الاصول من حديث سلمان ولا يصح

(٢) حديث لقنوا موتاكم لا إله إلا الله: تقدم

(٣) حديث حذيفة فانها تهدم ماقبلها: تقدم

(٤) حديث من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة: تقدم

(٥) حديث أبي هريرة حضر ملك الموت رجلا يموت فنظر في قلبه فلم يجد فيه شيئا ـ الحديث : ابن أبي الدنيا في كتاب المحتضرين وللطبراني والبيهقي في الشعب واسناده جيد الا أن في رواية البيهقي رجلا لم يسم وسمى في رواية الطبراني اسحق بن يحي بن طلحة وهو ضعيف

وينبغي للملقن أن لا يلح في التلقين ، ولكن يتلطف ، فربما لا ينطق لسان المريض ، فيشق عليه ذلك ، ويؤدي إلى استثقاله التلقين ، وكراهيته للكلمة ، ويخشى أن يكون ذلك سبب سوء الخاتمة . وإنما معنى هذه الكلمة أن يموت الرجل وليس في قلبه شيء غير الله ، فإذا لم يبق له مطلوب سوى الواحد الحق ، كان قدومه بالموت على محبوبه غاية النعيم في حقه . وإن كان القلب مشغوفا بالدنيا ، ملتفتا إليها ، متأسفا على لذاتها ، وكانت الكلمة على رأس اللسان ، ولم ينطبق القلب على تحقيقها ، وقع الأمر في خطر المشيئة فإن مجرد حركة اللسان قليل الجدوى إلا أن يتفضل الله تعالى بالقبول

وأما حسن الظن فهو مستحب في هذا الوقت . وقد ذكرنا ذلك في كتاب الرجاء ، وقد وردت الأخبار بفضل حسن الظن بالله [1] دخل واثلة بن الأسقع على مريض فقال : أخبرني كيف ظنك بالله ؟ قال أغرقتني ذنوب لي ، وأشرفت على هلكة ، ولكني أرجو رحمة ربي . فكبّر واثلة ، وكبّر أهل البيت بتكبيره ، وقال الله أكبر . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يَقُولُ اللهُ تَعَالَى أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي فَلْيَظُنَّ بِي مَاشَاءَ »

[2] ودخل النبي صلى الله عليه وسلم على شاب وهو يموت ، فقال « كَيْفَ تَجِدُكَ » قال أرجو الله وأخاف ذنوبي . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « مَا اجْتَمَعَا فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هٰذَا الْمَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ الَّذِي يَرْجُو وَآمَنَهُ مِنَ الَّذِي يَخَافُ »

وقال ثابت البناني : كان شاب به حدّة ، وكان له أم تعظه كثيرا وتقول له . يابني ، إن لك يوما فاذكر يومك . فلما نزل به أمر الله تعالى أكبت عليه أمه ، وجعلت تقول له يابني ، قد كنت أحذرك مصرعك هذا وأقول إن لك يوما . فقال يا أمه ، إن لي ربا كثير المعروف ، وإني لأرجو أن لا يعدمني اليوم بعض معروفه . قال ثابت . فرحمه الله بحسن ظنه بربه . وقال جابر بن وداعة : كان شاب به رهق فاحتضر ، فقالت له أمه يابني توصي بشيء ؟ قال نعم خاتمي لا تسلبينيه ، فإن فيه ذكر الله تعالى ، فلعل الله يرحمني . فلما دفن رؤي في المنام فقال . أخبروا أمي أن الكلمة قد نفعتني ، وأن الله قد غفر لي

---

(١) حديث دخل واثلة بن الاسقع على مريض فقال أخبرني كيف ظنك بالله وفيه يقول الله أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ماشاء ابن حبان بالمرفوع منه وقد تقدم وأحمد والبيهقي في الشعب بجميعا

(٢) حديث دخل على شاب وهو يموت فقال كيف تجدك فقال أرجو الله وأخاف ذنوبي ـ الحديث : تقدم

ومرض أعرابي ، فقيل له إنك تموت . فقال أين يذهب بي ؟ قالوا إلى الله قال فما كراهتي أن أذهب إلى من لا يُرى الخيرُ إلا منه

وقال أبو المعتمر بن سليمان : قال أبي لما حضرته الوفاة : يامعتمر ، حدثني بالرخص لعلي ألقى الله عز وجل وأنا حسن الظن به . وكانوا يستحبون أن يذكر للعبد محاسن عمله عند موته لكي يحسن ظنه بربه

بيان

الحسرة عند لقاء ملك الموت بحكايات يعرب لسان الحال عنها

قال أشعث بن أسلم : سأل ابراهيم عليه السلام ملك الموت ، واسمه عزرائيل ، وله عينان ، عين في وجهه ، وعين في قفاه ، فقال ياملك الموت ، ماتصنع إذا كان نفس بالمشرق ونفس بالمغرب ، ووقع الوباء بأرض ، والتقى الزحفان ، كيف تصنع ؟ قال أدعو الأرواح بإذن الله فتكون بين أصبعي هاتين . وقال قد دحيت له الأرض فتركت مثل الطشت بين يديه ، يتناول منها مايشاء . قال وهو يبشره بأنه خليل الله عز وجل

وقال سليمان بن داود عليهما السلام لملك الموت عليه السلام : مالى لاأراك تعدل بين الناس ، تأخذ هذا وتدع هذا ؟ قال ماأنا بذلك بأعلم منك إنما هي صحف أو كتب تلقى إليّ فيها أسماء . وقال وهب بن منبه : كان ملك من الملوك أراد أن يركب إلى أرض ، فدعا بثياب ليلبسها ، فلم تعجبه ، فطلب غيرها حتى لبس ماأعجبه بعد مرات . وكذلك طلب دابة فأتي بها فلم تعجبه ، حتى أتي بدواب ، فركب أحسنها . فجاء إبليس فنفخ في منخره نفخة ، فملأه كبرا ثم سار وسارت معه الخيول ، وهو لا ينظر إلى الناس كبرا . فجاءه رجل رث الهيئة ، فسلم فلم يرد عليه السلام . فأخذ بلجام دابته ، فقال أرسل اللجام فقد تعاطيت أمرا عظيما . قال إن لي إليك حاجة . قال أصبر حتى أنزل . قال لا الآن . فقهره على لجام دابته . فقال اذكرها . قال هو سر . فأدنى له رأسه ، فساره وقال : أنا ملك الموت . فتغير لون الملك ، واضطرب لسانه ؛ ثم قال دعني حتى أرجع إلى أهلي ، وأقضي حاجتي ، وأودعهم قال لا والله لاترى أهلك وثقلك أبدا . فقبض روحه ، فخر كأنه خشبة ، ثم مضى فلقي

عبدا مؤمنا فى تلك الحال ، فسلم عليه فرد عليه السلام ، فقال إن لى إليك حاجة أذكرها فى أذنك . فقال هات . فساره وقال : أنا ملك الموت . فقال أهلا ومرحبا بمن طالت غيبته عليّ ، فو الله ما كان فى الأرض غائب أحب إليّ أن ألقاه منك . فقال ملك الموت : اقض حاجتك التى خرجت لها . فقال مالى حاجة أكبر عندى ولا أحب من لقاء الله تعالى ، قال فاختر على أي حال شئت أن أقبض روحك ، فقال تقدر على ذلك ؟ قال نعم إنى أمرت بذلك ؛ قال فدعنى حتى أتوضأ وأصلى ، ثم اقبض روحى وأنا ساجد . فقبض روحه وهو ساجد

وقال أبو بكر بن عبد الله المزنى : جمع رجل من بنى إسرائيل مالا ، فلما أشرف على الموت قال لبنيه : أرونى أصناف أموالى . فأتي بشيء كثير من الخيل ، والإبل ، والرقيق ، وغيره فلما نظر إليه بكى تحسرا عليه . فرآه ملك الموت وهو يبكى . فقال له مايبكيك ؟ فو الذى خولك ما أنا بخارج من منزلك حتى أفرق بين روحك وبدنك . قال فالمهلة حتى أفرقه . قال هيهات انقطعت عنك المهلة . فهلا كان ذلك قبل حضور أجلك ! فقبض روحه

وروي أن رجلا جمع مالا فأوعى ، ولم يدعْ صنفا من المال إلا اتخذه ، وابتنى قصرا ، وجعل عليه بابين وثيقين ، وجمع عليه حرسا من غلمانه ، ثم جمع أهله وصنع لهم طعاما ، وقعد على سرير ، ورفع إحدى رجليه على الأخرى وهم يأكلون . فلما فرغوا قال : يانفس أنعمى لسنين ، فقد جمعت لك ما يكفيك . فلم يفرغ من كلامه حتى أقبل إليه ملك الموت فى هيئة رجل عليه خلقان من الثياب ، وفى عنقه مخلاة يتشبه بالمساكين . فقرع الباب بشدة عظيمة قرعا أفزعه وهو على فراشه . فوثب إليه الغلمان وقالوا : ما شأنك ؟ فقال ادعو إليّ مولاكم . فقالوا وإلى مثلك يخرج مولانا ؟ قال نعم : فأخبروه بذلك . فقال هلا فعلتم به وفعلتم : فقرع الباب قرعة أشد من الأولى ، فوثب إليه الحرس . فقال أخبروه أنى ملك الموت . فلما سمعوه ألقى عليهم الرعب ، ووقع على مولاهم الذل والتخشع . فقال قولوا له قولا لينا ، وقولوا هل تأخذ به أحدا ؟ فدخل عليه وقال : اصنع فى مالك ما أنت صانع ، فأنى لست بخارج منها حتى أخرج روحك . فأمر بماله حتى وضع بين يديه ، فقال حين رآه لعنك الله من مال أنت شغلتني عن عبادة ربى . ومنعتني أن أتخلى لربى . فأنطق الله المال فقال : لمَ تسبنى وقد كنت تدخل على السلاطين بى : ويرد المتقى عن بابهم ؟

وكنت تنكح المتنعمات بى ، وتجالس مجالس الملوك بى ، وتنفقنى فى سبيل الشر فلا أمتنع منك، ولو أنفقتنى فى سبيل الخير نفعتك . خلقت وابن آدم من تراب ، فمنطلق ببر ، ومنطلق بإثم . ثم قبض ملك الموت روحه فسقط

وقال وهب بن منبه . قبض ملك الموت روح جبار من الجبابرة ، ما فى الأرض مثله ، ثم عرج إلى السماء ، فقالت الملائكة لمن كنت أشد رحمة ممن قبضت روحه؟ قال أمرت بقبض نفس امرأة فى فلاة من الأرض ، فأتيتها وقد ولدت مولودا ، فرحمتها لغربتها ، ورحمت ولدها لصغره وكونه فى الفلاة لا متعهد له بها فقالت الملائكة . الجبار الذى قبضت الآن روحه هو ذلك المولود الذى رحمته . فقال ملك الموت . سبحان اللطيف لمن يشاء

قال عطاء بن يسار : إذا كان ليلة النصف من شعبان ، دفع إلى ملك الموت صحيفة ، فيقال اقبض فى هذه السنة مَن فى هذه الصحيفة . قال فإن العبد ليغرس الغراس ، وينكح الأزواج ، ويبنى البنيان ، وإن اسمه فى تلك الصحيفة وهو لا يدرى

وقال الحسن : مامن يوم إلا وملك الموت يتصفح كل بيت ثلاث مرات . فمن وجده منهم قد استوفى رزقه ، وانقضى أجله ، قبض روحه . فإذا قبض روحه أقبل أهله برنة وبكاء، فيأخذ ملك الموت بعضادتي الباب فيقول : والله ما أكلت له رزقا ، ولا أفنيت له عمرا ، ولا انتقصت له أجلا . وإن لى فيكم لعودة بعد عودة ، حتى لا أبقى منكم أحدا . قال الحسن: فوالله لو يرون مقامه ، ويسمعون كلامه ، لذهلوا عن ميتهم ، ولبكوا على أنفسهم

وقال يزيد الرقاشى : بينما جبار من الجبابرة من بنى إسرائيل جالس فى منزله، قد خلا ببعض أهله ، إذ نظر إلى شخص قد دخل من باب بيته ، فثار إليه فزعا مغضبا ، فقال له من أنت؟ ومن أدخلك على دارى ؟ فقال أما الذى أدخلنى الدار فربها . وأما أنا فالذى لا يمنع منى الحجاب، ولا أستأذن على الملوك ، ولا أخاف صولة المتسلطنين ، ولا يمتنع منى كل جبار عنيد ، ولا شيطان مريد . قال فسقط فى يده الجبار، وارتعد حتى سقط منكبا على وجهه، ثم رفع رأسه إليه مستجديا متذللا له ، فقال له : أنت إذاً ملك الموت . قال أنا هو . قال فهل أنت ممهلى حتى أحدث عهدا ؟ قال هيهات انقطعت مدتك ، وانقضت أنفاسك ، ونفدت ساعاتك ،

فليس إلى تأخيرك سبيل . قال فإلى أين تذهب بى ؟ قال إلى عملك الذى قدمته ، وإلى بيتك الذى مهدته قل فإنى لم أقدم عملا صالحا . ولم أمهد بيتا حسنا . قال فإلى لظى ، نزاعة للشوى. ثم قبض روحه ، فسقط ميتا بين أهله . فمن بين صارخ وباك

قال يزيد الرقاشى : لو يعلمون سوء المنقلب كان العويل على ذلك أكثر

وعن الأعمش ، عن خيثمة قال : دخل ملك الموت على سليمان بن داود عليهما السلام ، فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه ، فلما خرج قال الرجل من هذا ؟ قال هذا ملك الموت . قال لقد رأيته ينظر إليّ كأنه يريدني . قال فماذا تريد ؟ قال أريد أن تخلصنى منه فتأمر الريح حتى تحملنى إلى أقصى الهند . ففعلت الريح ذلك . ثم قال سليمان لملك الموت بعد أن أتاه ثانيا : رأيتك تديم النظر إلى واحد من جلسائى ، قال نعم : كنت أتعجب منه ، لأنى كنت أمرت أن أقبضه بأقصى الهند فى ساعة قريبة ، وكان عندك فعجبت من ذلك

الباب الرابع

فى وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده

وفاة

رسـول الله صلى الله عليه وسلم

اعلم أن فى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة حيا وميتا ، وفعلا وقولا . وجميع أحواله عبرة للناظرين ، وتبصرة للمستبصرين ، إذ لم يكن أحد أكرم على الله منه إذ كان خليل الله وحبيبه ونجيه ، وكان صفيه ، ورسوله ، ونبيه . فانظر هل أمهله ساعة عند انقضاء مدته ؟ وهل أخره لحظة بعد حضور منيته ؟ لا بل أرسل إليه الملائكة الكرام الموكلين بقبض أرواح الأنام ، فجدوا بروحه الزكية الكريمة لينقلوها ، وعالجوها ليرحلوها عن جسده الطاهر إلى رحمة ورضوان ، وخيرات حسان . بل إلى مقعد صدق فى جوار الرحمن . فاشتد مع ذلك فى النزع كربه وظهر أنينه ، وترادف قلقه وارتفع حنينه ، وتغير لونه وعرق جبينه ، واضطربت فى الانقباض والانبساط شماله ويمينه ، حتى بكى لمصرعه من حضره ، وانتحب لشدة حاله من شاهد منظره . فهل رأيت منصب النبوّة دافعا عنه مقدورا ؟ وهل راقب

الملك فيه أهلا وعشيرا ؟ وهل سامحه إذ كان الحق نصيرا ، وللخلق بشيرا ونذيرا ؟ هيهات ، بل امتثل ما كان به مأمورا ، واتبع ماوجده فى اللوح مسطورا . فهذا كان حاله وهو عند الله ذو المقام المحمود ، والحوض المورود . وهو أول من تنشق عنه الأرض ، وهو صاحب الشفاعة يوم العرض . فالعجب أنا لانعتبر به ، ولسنا على ثقة فيما نلقاه . بل نحن أسراء الشهوات ، وقرناء المعاصى والسيآت ، فما بالنا لا نتعظ بمصرع محمد سيد المرسلين ، وإمام المتقين ، وحبيب رب العالمين ؟ لعلنا نظن أنا مخلدون ، أو نتوهم أنا مع سوء أفعالنا عند الله مكرمون ، هيهات هيهات ، بل نتيقن أنا جميعا على النار واردون ، ثم لا ينجو منها إلا المتقون . فنحن للورود مستيقنون ، وللصدور عنها متوهمون . لا بل ظلمنا أنفسنا إن كنا كذلك لغالب الظن منتظرين ، فما نحن والله من المتقين . وقد قال الله رب العالمين (وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا [1])

فلينظر كل عبد إلى نفسه أنه إلى الظالمين أقرب أم إلى المتقين . فانظر إلى نفسك بعد أن تنظر إلى سيرة السلف الصالحين ، فلقد كانوا مع ماوفقوا له من الخائفين ثم انظر إلى سيد المرسلين ، فإنه كان من أمره على يقين ، إذ كان سيد النبيين ، وقائد المتقين . واعتبر كيف كان كربه عند فراق الدنيا ، وكيف اشتد أمره عند الانقلاب إلى جنة المأوى . قال [(١)] ابن مسعود رضي الله عنه : دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيت أمنا عائشة رضي الله عنها حين دنا الفراق ، فنظر إلينا فدمعت عيناه صلى الله عليه وسلم ثم قال « مَرْحَبًا بِكُمْ حَيَّاكُمُ اللهُ آوَاكُمُ اللهُ نَصَرَكُمُ اللهُ وَأُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ وَأُوصِي بِكُمُ اللهَ

﴿ الباب الرابع فى وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ﴾

(١) حديث ابن مسعود دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيت أمنا عائشة حين دنا الفراق الحديث : رواه البزار وقال هذا الكلام قد روى عن مرة عن عبد الله من غير وجه وأسانيدها متقاربة قال وعبد الرحمن الاصبهانى لم يسمع هذا من مرة وانما هو عمن أخبره عن مرة قال ولا أعلم أحدا رواه عن عبد الله غير مرة * قلت وقد روى من غير ماوجه رواه ابن سعد فى الطبقات من رواية ابن عوف عن ابن مسعود ورويناه فى مشيخة القاضى أبى بكر الانصارى من رواية الحسن العربى عن ابن مسعود ولكنهما منقطعان وضعيفان والحسن العربى انما يرويه عن مرة كما رواه ابن أبى الدنيا والطبرانى فى الأوسط

---

(١) مريم : ٧١ ، ٧٢

إِنِّى لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَى اللهِ فِى بِلاَدِهِ وَعِبَادِهِ وَقَدْ دَنَا الأَجَلُ وَالْمُنْقَلَبُ إِلَى اللهِ وَإِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى وَإِلَى جَنَّةِ الْمَأْوَى وَإِلَى الْكَأْسِ الأَوْفَى فَاقْرَؤُا عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَعَلَى مَنْ دَخَلَ فِى دِينِكُمْ بَعْدِى مِنِّى السَّلاَمَ وَرَحْمَةَ اللهِ »

وروي [١] أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عليه السلام عند موته « مَنْ لِأُمَّتِى بَعْدِى ؟» فأوحى الله تعالى إلى جبريل أن بشر حبيبي أنى لا أخذله فى أمته وبشره بأنه أسرع الناس خروجا من الأرض إذا بعثوا ، وسيدهم إذا جمعوا ، وأن الجنة محرمة على الأمم حتى تدخلها أمته . فقال « الآنَ قَرَّتْ عَيْنِى » . وقالت [٢] عائشة رضي الله عنها أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نغسله بسبع قرب من سبعة آبار . ففعلنا ذلك ، فوجد راحة ، فخرج فصلى بالناس ، واستغفر لأهل أحد . ودعا لهم ، وأوصى بالأنصار فقال « أَمَّا بَعْدُ يَامَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ فَإِنَّكُمْ تَزِيدُونَ وَأَصْبَحَتِ الأَنْصَارُ لاَ تَزِيدُ عَلَى هَيْئَتِهَا الَّتِى هِيَ عَلَيْهَا الْيَوْمَ وَإِنَّ الأَنْصَارَ عَيْبَتِى * الَّتِى آوَيْتُ إِلَيْهَا فَأَكْرِمُوا كَرِيمَهُمْ » يعنى محسنهم « وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ » ثم قال « إِنَّ عَبْداً خُيِّرَ بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَاعِنْدَ اللهِ فَاخْتَارَ مَاعِنْدَ اللهِ » فبكى أبو بكر رضي الله عنه ، وظن أنه يريد نفسه . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « عَلَى رِسْلِكَ يَاأَبَا بَكْرٍ سُدُّوا هَذِهِ الأَبْوَابَ الشَّوَارِعَ فِى الْمَسْجِدِ إِلَّا بَابَ أَبِى بَكْرٍ فَإِنِّى لاَ أَعْلَمُ أَمْرأً أَفْضَلَ عِنْدِى فِى الصُّحْبَةِ مِنْ أَبِى بَكْرٍ » قالت [٣] عائشة رضي الله عنها فقبض صلى الله عليه وسلم فى بيتى ، وفى يومى ، وبين سحرى ونحرى وجمع الله بين ريقى وريقه عند الموت ، فدخل علىّ أخى عبد الرحمن وبيده سواك ، فجعل ينظر إليه ، فعرفت أنه يعجبه ذلك ، فقلت له آخذه لك ؟ فأومأ برأسه أي نعم . فناولته إياه ، فأدخله فى فيه ،

(١) حديث انه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عند موته من لأمتى بعدى فأوحى الله تعالى إلى جبريل أن بشر حبيبى انى لا أخذله فى أمته ـ الحديث : الطبرانى من حديث جابر وابن عباس فى حديث طويل فيه من لأمتى المصطفاة من بعدى قال أبشر ياحبيب الله فان الله عزوجل يقول قد حرمت الجنة على جميع الانبياء والأمم حتى تدخلها أنت وأمتك قال الآن طابت نفسى واسناده ضعيف

(٢) حديث عائشة أمرنا أن نغسله بسبع قرب من سبعة آبار ففعلنا ذلك فوجد راحة فخرج فصلى بالناس واستغفر لأهل أحد ـ الحديث : الدارمي فى مسنده وفيه ابراهيم المختار مختلف فيه عن محمد ابن اسحق وهو مدلس وقد رواه بالعنعنة

(٣) حديث عائشة قبض فى بيتى وفى يومي وبين سحري ونحرى وجمع الله بين ريقى وريقه عند الموت الحديث : متفق عليه

* عيبتى : خاصتى وموضع سرى

فاشتد عليه . فقلت أليّنه لك ؟ فأومأ برأسه أي نعم فلينته وكان بين يديه ركوة ماء ، فجعل يدخل فيها يده ويقول « لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ إِنَّ لِلْمَوْتِ لَسَكَرَاتٍ » ثم نصب يده يقول « الرَّفِيقَ الأَعْلَى الرَّفِيقَ الأَعْلَى » فقلت إذاً والله لا يختارنا

وروى [١] سعيد بن عبد الله عن أبيه قال : لما رأت الأنصار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يزداد ثقلا ، أطافوا بالمسجد ، فدخل العباس رضي الله عنه ، على النبي صلى الله عليه وسلم فأعلمه بمكانهم وإشفاقهم . ثم دخل عليه الفضل ، فأعلمه بمثل ذلك . ثم دخل عليه علي رضي الله عنه ، فأعلمه بمثله . فمد يده وقال ها فتناولوه . فقال « مَا تَقُولُونَ ؟ » قالوا نقول نخشى أن تموت . وتصايح نساؤهم لاجتماع رجالهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم . فثار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج متوكئا على علي والفضل ، والعباسُ أمامه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم معصوب الرأس يخط برجليه ، حتى جلس على أسفل مرقاة من المنبر ، وثاب الناس إليه ، فحمد الله وأثنى عليه وقال « أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تَخَافُونَ عَلَيَّ الْمَوْتَ كَأَنَّهُ اسْتِنْكَارٌ مِنْكُمْ لِلْمَوْتِ وَمَا تُنْكِرُونَ مِنْ مَوْتِ نَبِيِّكُمْ أَلَمْ أَنْعَ إِلَيْكُمْ وَتُنْعَى إِلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ هَلْ خُلِّدَ نَبِيٌّ قَبْلِي فِيمَنْ بُعِثَ فَأُخَلَّدُ فِيكُمْ أَلاَ إِنِّي لاَحِقٌ بِرَبِّي وَإِنَّكُمْ لاَحِقُونَ بِهِ وَإِنِّي أُوصِيكُمْ بِالْمُهَاجِرِينَ الأَوَّلِينَ خَيْراً وَأُوصِي الْمُهَاجِرِينَ فِيمَا بَيْنَهُمْ فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ (وَالْعَصْرِ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا [١]) إلى آخرها وَإِنَّ الأُمُورَ تَجْرِي بِإِذْنِ اللهِ فَلاَ يَحْمِلَنَّكُمْ اسْتِبْطَاءُ أَمْرٍ عَلَى اسْتِعْجَالِهِ فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لاَ يَعْجَلُ لِعَجَلَةِ أَحَدٍ وَمَنْ غَالَبَ اللهَ غَلَبَهُ وَمَنْ خَادَعَ اللهَ خَدَعَهُ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ وَأُوصِيكُمْ بِالأَنْصَارِ خَيْراً فَإِنَّهُمُ الَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ

---

(١) حديث سعيد بن عبد الله عن أبيه قال لما رأت الانصار رسول الله صلى الله عليه وسلم يزداد ثقلا أطافوا بالمسجد فدخل العباس فأعلمه بمكانهم واشفاقهم فذكر الحديث فى خروجه متوكئا معصوب الرأس يخط رجليه حتى جلس على أسفل مرقاة من المنبر فذكر خطبته بطولها . هو حديث مرسل ضعيف وفيه نكارة ولم أجد له أصلا وأبوه عبد الله بن ضرار بن الازور تابعي روى عن ابن مسعود قال أبو حاتم فيه وفى أبيه سعيد ليس بالقوى

---

(١) العصر : ١ ، ٢ ، ٣

مِنْ قَبْلِكُمْ أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِمْ أَلَمْ يُشَاطِرُوكُمُ الثِّمَارَ أَلَمْ يُوَسِّعُوا عَلَيْكُمْ فِي الدِّيَارِ أَلَمْ يُؤْثِرُوكُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَبِهِمُ الْخَصَاصَةُ أَلاَ فَمَنْ وُلِّيَ أَنْ يَحْكُمَ بَيْنَ رَجُلَيْنِ فَلْيَقْبَلْ مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَلْيَتَجَاوَزْ عَنْ مُسِيئِهِمْ أَلاَ وَلاَ تَسْتَأْثِرُوا عَلَيْهِمْ أَلاَ وَإِنِّي فَرَطٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لاَحِقُونَ بِي أَلاَ وَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الْحَوْضُ حَوْضِي أَعْرَضُ مِمَّا بَيْنَ بُصْرَى الشَّامِ وَصَنْعَاءَ الْيَمَنِ يَصُبُّ فِيهِ مِيزَابُ الْكَوْثَرِ مَاءٌ أَشَدُّ بَيَاضاً مِنَ اللَّبَنِ وَأَلْيَنُ مِنَ الزُّبْدِ وَأَحْلَى مِنَ الشَّهْدِ مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا حَصْبَاؤُهُ اللُّؤْلُؤُ وَبَطْحَاؤُهُ الْمِسْكُ مَنْ حُرِمَهُ فِي الْمَوْقِفِ غَداً حُرِمَ الْخَيْرَ كُلَّهُ أَلاَ فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَرِدَهُ عَلَيَّ غَداً فَلْيَكْفُفْ لِسَانَهُ وَيَدَهُ إِلاَّ مِمَّا يَنْبَغِي » فقال العباس : يانبي الله ، أوص بقريش . فقال « إِنَّمَا أُوصِي بِهَذَا الأَمْرِ قُرَيْشاً وَالنَّاسُ تَبَعٌ لِقُرَيْشٍ بَرُّهُمْ لِبَرِّهِمْ وَفَاجِرُهُمْ لِفَاجِرِهِمْ فَاسْتَوْصُوا آلَ قُرَيْشٍ بِالنَّاسِ خَيْرًا يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الذُّنُوبَ تُغَيِّرُ النِّعَمَ وَتُبَدِّلُ الْقِسَمَ فَإِذَا بَرَّ النَّاسُ بَرَّهُمْ أَئِمَّتُهُمْ وَإِذَا فَجَرَ النَّاسُ عَقُّوهُمْ قَالَ اللهُ تَعَالَى (وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [(١)])

وروى [(١)] ابن مسعود رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبى بكر رضى الله عنه « سَلْ يَاأَبَا بَكْرٍ » فقال يارسول الله دنا الأجل ؟ فقال « قَدْ دَنَا الأَجَلُ وَتَدَلَّى » فقال ليهنك يانبي الله ماعند الله ، فليت شعرى عن منقلبنا فقال « إِلَى اللهِ وَإِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ثُمَّ إِلَى جَنَّةِ الْمَأْوَى وَالْفِرْدَوْسِ الأَعْلَى وَالْكَأْسِ الأَوْفَى وَالرَّفِيقِ الأَعْلَى وَالْحَظِّ وَالْعَيْشِ الْمُهَنَّا » فقال يانبي الله ، من يلى غسلك ؟ قال « رِجَالٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي الأَدْنَى فَالأَدْنَى » قال ففيم نكفنك ؟ فقال « فِي ثِيَابِي هَذِهِ وَفِي حُلَّةٍ يَمَانِيَةٍ وَفِي بَيَاضِ مِصْرَ » فقال كيف الصلاة عليك منا ؟ وبكينا وبكى . ثم قال « مَهْلاً غَفَرَ اللهُ لَكُمْ

---

(١) حديث ابن مسعود إن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبى بكر سل ياأبا بكر فقال يارسول الله دنا الأجل فقال قددنا الاجل ـ الحديث : فى سؤالهم له من يلى غسلك وفيم نكفنك وكيفية الصلاة عليه رواه ابن سعد فى الطبقات عن محمد بن عمر وهوالواقدى باسناد ضعيف الى ابن عوف عن ابن مسعود وهو مرسل ضعيف كما تقدم

---

(١) الأنعام : ١٢٩

وَجَزَاكُمْ عَنْ نَبِيِّكُمْ خَيْرًا إِذَا غَسَّلْتُمُونِي وَكَفَّنْتُمُونِي فَضَعُونِي عَلَى سَرِيرِي فِي بَيْتِي هَذَا عَلَى شَفِيرِ قَبْرِي ثُمَّ اخْرُجُوا عَنِّي سَاعَةً فَإِنَّ أَوَّلَ مَنْ يُصَلِّي عَلَيَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ [1]) ثُمَّ يَأْذَنُ لِلْمَلَائِكَةِ فِي الصَّلَاةِ عَلَيَّ فَأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ عَلَيَّ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ وَيُصَلِّي عَلَيَّ جِبْرِيلُ ثُمَّ مِيكَائِيلُ ثُمَّ إِسْرَافِيلُ ثُمَّ مَلَكُ الْمَوْتِ مَعَ جُنُودٍ كَثِيرَةٍ ثُمَّ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْمَعِهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَنْتُمْ فَادْخُلُوا عَلَيَّ أَفْوَاجًا فَصَلُّوا عَلَيَّ أَفْوَاجًا زُمْرَةً زُمْرَةً وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا وَلَا تُؤْذُونِي بِتَزْكِيَةٍ وَلَا صَيْحَةٍ وَلَا رَنَّةٍ وَلْيَبْدَأْ مِنْكُمُ الْإِمَامُ وَأَهْلُ بَيْتِي الْأَدْنَى فَالْأَدْنَى ثُمَّ زُمَرُ النِّسَاءِ ثُمَّ زُمَرُ الصِّبْيَانِ » قال فمن يدخلك القبر ؟ قال « زُمَرٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي الْأَدْنَى فَالْأَدْنَى مَعَ مَلَائِكَةٍ كَثِيرَةٍ لَا تَرَوْنَهُمْ وَهُمْ يَرَوْنَكُمْ . قُومُوا فَأَدُّوا عَنِّي إِلَى مَنْ بَعْدِي » . وقال [1] عبد الله بن زمعة . جاء بلال فى أول شهر ربيع الأول، فأذن بالصلاة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مُرُوا أَبَا بَكْرٍ يُصَلِّي بِالنَّاسِ » فخرجت فلم أر بحضرة الباب إلا عمر فى رجال ليس فيهم أبو بكر . فقلت قم يا عمر فصل بالناس ، فقام عمر ، فلما كبّر وكان رجلا صيتا. سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته بالتكبير ، فقال « أَيْنَ أَبُو بَكْرٍ يَأْبَى اللَّهُ ذَلِكَ وَالْمُسْلِمُونَ » قالها ثلاث مرات « مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ » فقالت عائشة رضي الله عنها ، يارسول الله إن أبا بكر رجل رقيق القلب ، إذا قام فى مقامك غلبه البكاء. فقال « إِنَّكُنَّ صُوَيْحِبَاتُ يُوسُفَ مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ » قال فصلى أبو بكر بعد الصلاة التى صلى عمر . فكان عمر يقول لعبد الله بن زمعة بعد ذلك : ويحك ماذا صنعت بى؟ والله لولا أنى ظننت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

الامام الصغرى وسبيلها الى الكبرى

(١) حديث عبد الله بن زمعة جاء بلال فى أول ربيع الأول فأذن بالصلاة فقال النبي صلى الله عليه وسلم مروا أبابكر فليصل بالناس فخرجت فلم أر بحضرة الباب الاعمر فى رجال ليس فيهم أبو بكر الحديث : أبوداود باسناد جيد نحوه مختصرا دون قوله فقالت عائشة ان أبابكر رجل رقيق الى آخره ولم يقل فى أول ربيع الأول وقال مروا من يصلى بالناس وقال يأبى الله ذلك والمؤمنون مرتين وفى رواية له فقال لا لا لا ليصل للناس ابن أبى قحافة يقول ذلك مغضبا وأما مافى آخره من قول عائشة فى الصحيحين من حديثها فقالت عائشة يارسول الله ان أبابكر رجل رقيق اذاقام مقامك لم يسمع الناس من البكاء. فقال انكن صواحبات يوسف مروا أبابكر فليصل بالناس

(١) الأحزاب : ٤٣

أمرك مافعلت . فيقول عبد الله : إني لم أر أحدا أولى بذلك منك . قالت عائشة رضي الله عنها : وماقلت ذاك ولاصرفته عن أبي بكر إلا رغبة به عن الدنيا ، ولما في الولاية من المخاطرة والهلكة إلا من سلم الله ، وخشيت أيضا أن لايكون الناس يحبون رجلا صلى في مقام النبي صلى الله عليه وسلم وهو حيّ أبدا إلا أن يشاء الله فيحسدونه ويبغون إليه ، ويتشاءمون به ، فإذاً الأمر أمر الله ؟ والقضاء قضاؤه ، وعصمه الله من كل ماتخوفت عليه من أمر الدنيا والدين

وقالت [١] عائشة رضي الله عنها : فلما كان اليوم الذى مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رأوا منه خفة فى أوّل النهار ، فتفرق عنه الرجال إلى منازلهم وحوائجهم مستبشرين ، وأخلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنساء ، فبينا نحن على ذلك ، لم نكن على مثل حالنا

(١) حديث عائشة لما كان اليوم الذى مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم رأوامنه خفة فى أول النهار فتفرق عنه الرجال الى منازلهم وحوائجهم مستبشرين وأخلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنساء فبينما نحن على ذلك لم يكن على مثل حالنا فى الرجاء والفرح قبل ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرجن عنى هذا الملك يستأذن على ـ الحديث: بطوله فى مجيء ملك الموت ثم ذهابه ثم مجيء جبريل ثم مجيء ملك الموت ووفاته صلى الله عليه وسلم :الطبرانى فى الكبير من حديث جابر وابن عباس مع اختلاف فى حديث طويل فيه فلما كان يوم الاثنين اشتد الامر وأوحى الله الى ملك الموت أن اهبط الى حبيبى وصفيي محمد صلى الله عليه وسلم فى أحسن صورة وارفق به فى قبض روحه وفيه دخول ملك الموت واستئذانه فى قبضه فقال ياملك الموت أين خلفت حبيبي جبريل قال خلفته فى سماء الدنيا والملائكة يعزونه فيك فما كان بأسرع أن أتاه جبريل فقعد عند رأسه وذكر بشارة جبريل له بما أعد الله له وفيه أدن ياملك الموت فانته الى ماأمرت به ـ الحديث : وفيه فدنا ملك الموت يعالج قبض روح النبي صلى الله عليه وسلم وذكر كربه لذلك الى أن قال فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو حديث طويل فى ورقتين كبار وهومنكر وفيه عبد المنعم بن ادريس بن سنان عن أبيه عن وهب بن منبه قال أحمد كان يكذب على وهب بن منبه وأبوه ادريس أيضا متروك قاله الدارقطنى ورواه الطبرانى ايضا من حديث الحسين بن علي أن جبريل جاءه أولا فقال له عن ربه كيف تجدك ثم جاءه جبريل اليوم الثالث ومعه ملك الموت وملك الهواء اسماعيل وان جبريل دخل أولا فسأله ثم استأذن ملك الموت وقوله امض لماأمرت به وهو منكر أيضا فيه عبد الله بن ميمون القداح قال البخارى ذاهب ـ الحديث : ورواه أيضا من حديث ابن عباس فى مجيء ملك الموت أولا واستئذانه وقوله ان ربك يقرئك السلام فقال أين جبريل فقال هوقريب منى الآن يأتى فخرج ملك الموت حتى نزل عليه جبريل ـ الحديث : وفيه المختار ابن نافع منكر الحديث قاله البخارى وابن حبان

امتئذان ملك الموت فى الدخول على النبى عليه السلام

فى الرجاء والفرح قبل ذلك ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أُخْرُجْنَ عَنِّى هَـذَا الْمَلَكُ يَسْتَأْذِنُ عَلَيَّ » فخرج من فى البيت غيرى ، ورأسه فى حجرى ، فجلس وتنحيت فى جانب البيت ، فناجى الملك طويلا ، ثم إنه دعانى ، فأعاد رأسه فى حجرى ، وقال للنسوة « أُدْخُلْنَ » فقلت ما هذا بحس جبريل عليه السلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَجَلْ يَاعَائِشَةُ هَذَا مَلَكُ الْمَوْتِ جَاءَنِى فَقَالَ إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَرْسَلَنِى وَأَمَرَنِى أَنْ لَا أَدْخُلَ عَلَيْكَ إِلَّا بِإِذْنٍ فَإِنْ لَمْ تَأْذَنْ لِى أَرْجِعْ وَإِنْ أَذِنْتَ لِى دَخَلْتُ وَأَمَرَنِى أَنْ لَا أَقْبِضَكَ حَتَّى تَأْمُرَنِى فَمَاذَا أَمْرُكَ فَقُلْتُ أُكْفُفْ عَنِّى حَتَّى يَأْتِيَنِى جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَهَذِهِ سَاعَةُ جِبْرِيلَ »

فقالت عائشة رضي الله عنها . فاستقبلنا بأمر لم يكن له عندنا جواب ولا رأي ، فوجمنا وكأنما ضربنا بصاخة ما نحير إليه شيئا ، وما يتكلم أحد من أهل البيت إعظاما لذلك الأمر وهيبة ملأت أجوافنا . قالت وجاء جبريل فى ساعته . فسلم فعرفت حسّه ، وخرج أهل البيت ، فدخل فقال : إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول كيف تجدك ؟ وهو أعلم بالذى تجد منك ، ولكن أراد أن يزيدك كرامة وشرفا ؛ وأن يتم كرامتك وشرفك على الخلق ، وأن تكون سنّة فى أمتك . فقال « أَجِدُنِى وَجِعًا » فقال : أبشر ، فإن الله تعالى أراد أن يبلغك ما أعدّ لك . فقال « يَاجِبْرِيلُ إِنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ إِسْتَأْذَنَ عَلَيَّ » وأخبره الخبر فقال جبريل . يا محمد ، إن ربك إليك مشتاق ، ألم يعلمك الذى يريد بك؟ لا والله ما استأذن ملك الموت على أحد قط ، ولا يستأذن عليه أبدا ، إلا أن ربك متمّ شرفك ، وهو إليك مشتاق . قال « فَلَا تَبْرَحْ إِذًا حَتَّى يَجِيءَ » وأذن للنساء فقال « يَافَاطِمَةُ أُدْنِى » فأكبت عليه ، فناجاها ، فرفعت رأسها وعيناها تدمع ، وما تطيق الكلام . ثم قال « أُدْنِى مِنِّى رَأْسَكِ » فأكبت عليه ، فناجاها فرفعت رأسها وهي تضحك ، وما تطيق الكلام . فكان الذى رأينا منها عجبا . فسألتها بعد ذلك فقالت : أخبرنى وقال « إِنِّى مَيِّتٌ الْيَوْمَ » فبكيت : ثم قال « إِنِّى دَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُلْحِقَكِ بِى فِى أَوَّلِ أَهْلِى وَأَنْ يَجْعَلَكِ مَعِى » فضحكت . وأدنت ابنيها منه ، فشمهما : قالت وجاء ملك الموت ، فسلم واستأذن ، فأذن له

فقال الملك : ما تأمرنا يا محمد ؟ قال «أَلْحِقْنِي بِرَبِّي الْآنَ» فقال بلى من يومك هذا ، أما إن ربك إليك مشتاق ، ولم يتردد عن أحد تردده عنك ، ولم ينهني عن الدخول على أحد إلا بإذن غيرك ، ولكن ساعتك أمامك . وخرج . قالت وجاء جبريل فقال : السلام عليك يارسول الله ، هذا آخر ما أنزل فيه إلى الأرض أبدا ، طوي الوحي ، وطويت الدنيا ، وما كان لي في الأرض حاجة غيرك ، ومالي فيها حاجة إلا حضورك ثم لزوم موقفي . لا و الذي بعث محمدا بالحق ، مافي البيت أحد يستطيع أن يحير إليه في ذلك كلمة ، ولا يبعث إلى أحد من رجاله لعظم ما يسمع من حديثه ، ووجدنا وإشفاقنا . قالت فقمت إلى النبي صلى الله عليه وسلم حتى أضع رأسه بين ثديي ، وأمسكت بصدره ، وجعل يغمى عليه حتى يغلب ، وجبهته ترشح رشحا ما رأيته من إنسان قط ، فجعلت أسلت ذلك العرق ، وما وجدت رائحة شيء أطيب منه ، فكنت أقول له إذا أفاق : بأبي أنت وأمي ، ونفسي وأهلي ما تلقى جبهتك من الرشح فقال «يَاعَائِشَةُ إِنَّ نَفْسَ الْمُؤْمِنِ تَخْرُجُ بِالرَّشْحِ وَنَفْسَ الْكَافِرِ تَخْرُجُ مِنْ شِدْقَيْهِ كَنَفْسِ الْحِمَارِ» فعند ذلك ارتعنا ، و بعثنا إلى أهلنا فكان أول رجل جاءنا ولم يشهده أخي ، بعثه إليّ أبي ، فمات رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يجيء أحد . وإنما صدهم الله عنه لأنه ولاه جبريل وميكائيل ، وجعل إذا أغمي عليه قال «بَلِ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى» كأن الخيرة تعاد عليه . فإذا أطاق الكلام قال «الصَّلَاةَ الصَّلَاةَ إِنَّكُمْ لَا تَزَالُونَ مُتَمَاسِكِينَ مَاصَلَّيْتُمْ جَمِيعاً الصَّلَاةَ الصَّلَاةَ» كان يوصي بها حتى مات وهو يقول «الصَّلَاةَ الصَّلَاةَ»

يوم وفاته صلى الله عليه وسلم

قالت [١] عائشة رضي الله عنها : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ارتفاع الضحى وانتصاف النهار يوم الإثنين . قالت فاطمة رضي الله عنها : مالقيت من يوم الإثنين ؟ والله لاتزال الأمة تصاب فيه بعظيمة . وقالت أم كلثوم : يوم أصيب علي كرم الله وجهه بالكوفة مثلها : مالقيت من يوم الإثنين ؟ مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيه قتل عليّ ، وفيه قتل أبي ، فما لقيت من يوم الإثنين ؟

---

(١) حديث عائشة مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ارتفاع الضحى وانتصاف النهار يوم الاثنين رواه ابن عبد البر

حال الصحابة عند موته صلى الله عليه وسلم

وقالت عائشة [١] رضي الله عنها : لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم اقتحم الناس حين ارتفعت الرنّة ، وسجّى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم الملائكةُ بثوبه ، فاختلفوا فكذّب بعضهم بموته ، وأخرس بعضهم فما تكلم إلا بعد البعد ، وخلط آخرون فلاثوا الكلام بغير بيان ، وبقي آخرون معهم عقولهم ، وأقعد آخرون . فكان عمر بن الخطاب فيمن كذّب بموته ؟ وعلي فيمن أقعد ، وعثمان فيمن أخرس . فخرج عمر على الناس وقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمت ، وليرجعنه الله عز وجل ، وليقطعن أيدى وأرجل رجال من المنافقين يتمنون لرسول الله صلى الله عليه وسلم الموت . إنما واعده الله عز وجل كما واعد موسى ، وهو آتيكم . وفى رواية أنه قال : ياأيها الناس كفوا ألسنتكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه لم يمت . والله لاأسمع أحدا يذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات إلا علوته بسيفى هذا . وأما على فإنه أقعد فلم يبرح فى البيت وأما عثمان فجعل لايكلم أحدا ، يؤخذ بيده فيجاء به ويذهب به . ولم يكن أحد من المسلمين فى مثل حال أبى بكر والعباس ، فإن الله عز وجل أيدهما بالتوفيق والسداد وإن كان الناس لم يرعوا إلا بقول أبى بكر ، حتى جاء العباس فقال : والله الذى لا إله إلا هو لقد ذاق رسول الله صلى الله عليه وسلم الموت ، ولقد قال وهو بين أظهركم (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ [١])

ثبات أبى بكر والعباس عند موته عليه السلام

[٢] وبلغ أبا بكر الخبر وهو فى بنى الحارث بن الخزرج ، فجاء ودخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنظر إليه ، ثم أكب عليه فقبّله ، ثم قال : بأبى أنت وأمى يارسول الله ،

---

(١) حديث عائشة لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم اقتحم الناس حين ارتفعت الرنه وسجى رسول الله صلى الله عليه وسلم الملائكة بثوبه فاختلفوا فكذب بعضهم بموته واخرس بعضهم فما تكلم الا بعد البعد وخلط آخرون ومعهم عقولهم وأقعد آخرون وكان عمر بن الخطاب ممن كذب بموته وعلي فيمن أقعد وعثمان فيمن أخرس فخرج عمر على الناس وقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمت ـ الحديث : الى قوله عند ربكم تختصمون لم أجد له أصلا وهو منكر

(٢) حديث بلغ أبابكر الخبر وهو فى بنى الحارث بن الخزرج فجاء فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر اليه ثم أكب عليه فقبله وبكى ثم قال بأبى انت وأمي ما كان الله ليذيقك الموت مرتين الحديث : الى آخر قوله وكأن الناس لم يسمعوا هذه الآية الا يومئذ : البخارى ومسلم من حديث عائشة ان أبابكر أقبل على فرس من مسكنه بالسنح حتى نزل ودخل المسجد فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فيمم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مغشى بثوب حبرة فكشف عن وجهه

---

(١) الزمر : ٣٠ ، ٣١

ماكان الله ليذيقك الموت مرتين ؛ فقد والله توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم خرج إلى الناس فقال : أيها الناس ، من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد رب محمد فإنه حيّ لا يموت . قال الله تعالى (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ [1]) الآية . فكأن الناس لم يسمعوا هذه الآية إلا يومئذ . وفى رواية [1] أن أبا بكر رضي الله عنه لما بلغه الخبر ، دخل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، وعيناه تهملان . وغصصه ترتفع كقصع الجرة ، وهو فى ذلك جلد الفعل والمقال . فأكب عليه ، فكشف عن وجهه ، وقبّل جبينه وخديه ، ومسح وجهه ، وجعل يبكى ويقول : بأبى أنت وأمى ، ونفسى ، وأهلى ، طبت حيا وميتا ، انقطع لموتك مالم ينقطع لموت أحد من الأنبياء والنبوّة ، فعظمت عن الصفة ، وجللت عن البكاء . وخصصت حتى صرت مسْلاة ، وعممت حتى صرنا فيك سواء . ولولا أن موتك كان اختيارا منك لجدنا لحزنك بالنفوس . ولولا أنك نهيت عن البكاء لأنفذنا عليك ماء العيون : فأما مالا نستطيع نفيه عنا فكمد وادّكار محالفان لايبرحان . اللهم فأبلغه عنا ، اذكرنا يامحمد صلى الله عليك عند ربك ، ولنكن من بالك ، فلولا ما خلفت من السكينة لم يقم أحد لما خلفت من الوحشة . اللهم أبلغ نبيك عنا واحفظه فينا

خطبة أبي بكر عند موته عليه السلام

وعن ابن عمر ، أنه لما دخل أبو بكر البيت وصلى وأثنى ، عج أهل البيت عجيجا سمعه أهل المصلى كلما ذكر شيئا ازدادوا ، فماسكن عجيجهم إلا تسليم رجل على الباب صيت جلد قال : السلام عليكم يا أهل البيت (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ [2]) الآية [2] إن فى الله خلفا من كل أحد

ثم أكب عليه فقبله وبكى ثم قال بأبى وامي أنت والله لايجمع الله عليك موتتين أما الموتة التى كتبت عليك فقدمتها ولهما من حديث ابن عباس ان أبابكر خرج وعمر يكلم الناس ـ الحديث : وفيه والله لكأن الناس لم يعلموا ان الله انزل هذه الآية تلاها أبو بكر لفظ البخارى فيهما

(١) حديث ان أبابكر لما بلغه الخبر دخل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى على النبى صلى الله عليه وسلم وعيناه تهملان وغصصه ترتفع كقصع الجرة وهو فى ذلك جلد الفعل والمقال فأكب عليه فكشف الثوب عن وجهه ـ الحديث : الى قوله واحفظه فينا ابن أبى الدنيا فى كتاب العزاء من حديث ابن عمر باسناد ضعيف جاء ابو بكر رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجى فكشف الثوب عن وجهه ـ الحديث : إلى آخره

(٢) حديث ابن عمر فى سماع التعزية به صلى الله عليه وسلم ان فى الله خلفا من كل أحد ودركا لكل رغبة ونجاة

[1] آل عمران : ١٤٤ [2] العنكبوت : ٥٧

ودركا لكل رغبة ، ونجاة من كل مخافة ، فالله فارجوا ،وبه فثقوا . فاستمعوا له وأنكروه ، وقطعوا البكاء . فلما انقطع البكاء فقد صوته ، فاطّلع أحدهم فلم ير أحدا . ثم عادوا فبكوا ، فناداهم مناد آخر لا يعرفون صوته ، ياأهل البيت اذكروا الله واحمدوه على كل حال تكونوا من المخلصين ، إن فى الله عزاء من كل مصيبة ، وعوضا من كل رغيبة ، فالله فأطيعوا ، وبأمره فاعملوا: فقال أبو بكر :هذا الخضر واليسع عليهما السلام حضرا النبي صلى الله عليه وسلم

واستوفى القعقاع بن عمرو حكاية خطبة أبى بكر رضي الله عنه فقال : قام أبو بكر فى الناس خطيبا حيث قضى الناس عبراتهم ، بخطبة جُلّها الصلاة علي النبي صلى الله عليه وسلم ، فحمد الله وأثنى عليه على كل حال وقال . أشهد أن لا إله إلا الله وحده ،صدق وعده ، ونصر عبده ، وغلب الأحزاب وحده ، فلله الحمد وحده . وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، وخاتم أنبيائه ، وأشهد أن الكتاب كما نزل ، وأن الدين كما شرع ،وأن الحديث كما حدث ، وأن القول كما قال ، وأن الله هو الحق المبين . اللهم فصل على محمد عبدك ، ورسولك، ونبيك ، وحبيبك ، وأمينك ، وخيرتك،وصفوتك، بأفضل ماصليت به على أحد من خلقك

من كل مخافة فالله فارجواوبه فثقوا ثم سمعوا آخر بعده ان فى الله عزاء من كل مصيبة وعوضا من كل رغبة فالله فأطيعوا وبأمره فاعملوا فقال أبو بكر هذا الخضر واليسع : لم أجد فيه ذكر اليسع وأما ذكر الخضر فى التعزية فأنكر النووى وجوده فى كتب الحديث وقال انما ذكره الاصحاب قلت بلى قد رواه الحاكم فى المستدرك فى حديث أنس ولم يصححه ولا يصح ورواه ابن أبى الدنيا فى كتاب العزاء من حديث أنس أيضا قال لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم اجتمع أصحابه حوله يبكون فدخل عليهم رجل طويل شعر المنكبين فى ازار ورداء يتخطى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أخذ بعضادتى باب البيت فبكى علي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أقبل على أصحابه فقال ان فى الله عزاء من كل مصيبة وعوضا من كل فائت وخلفا من كل هالك فالى الله تعالى فانيبوا ونظره اليكم فى البلاء فانظروا فان المصاب من لم يجبره الثواب ثم ذهب الرجل فقال أبو بكر على الرجل فنظروا يمينا وشمالا فلم يروا أحدا فقال أبو بكر لعل هذا الخضر أخو نبينا عليه السلام جاء يعزينا ورواه الطبرانى فى الاوسط واسناده ضعيف جدا ورواه ابن أبى الدنيا أيضا من حديث على بن أبى طالب لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء آت فسمع حسه ولا نرى شخصه قال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ان فى الله عوضا من كل مصيبة وخلفا من كل هالك ودركا من كل فائت فبالله فثقوا واياه فارجوا فان المحروم من حرم الثواب والسلام عليكم فقال علي تدرون من هذا هو الخضر وفيه محمد بن جعفر الصادق تكلم فيه وفيه انقطاع بين علي بن الحسين وبين جده على والمعروف عن على بن الحسين مرسلا من غير ذكر على كما رواه الشافعى فى الام وليس فيه ذكر الخضر

اللهم واجعل صلواتك ، ومعافاتك ، ورحمتك ، وبركاتك ، على سيد المرسلين ، وخاتم النبيين ، وإمام المتقين ؛ محمد قائد الخير ، وإمام الخير ، ورسول الرحمة . اللهم قرّب زلفته ، وعظم برهانه ، وكرم مقامه ، وابعثه مقاما محمودا يغبطه به الأوّلون والآخرون ، وانفعنا بمقامه المحمود يوم القيامة ، واخلفه فينا فى الدنيا والآخرة ، وبلّغه الدرجة والوسيلة فى الجنة . اللهم صل على محمد ، وعلى آل محمد ، وبارك على محمد ، وعلى آل محمد ، كما صليت وباركت على إبراهيم ، إنك حميد مجيد . أيها الناس ، إنه من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حيّ لم يمت . وإن الله قد تقدم إليكم فى أمره فلا تدعوه جزعا ، فإن الله عز وجل قد اختار لنبيه صلى الله عليه وسلم ماعنده على ماعندكم ، وقبضه إلى ثوابه ، وخلف فيكم كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، فمن أخذ بهما عرف ، ومن فرّق بينهما أنكر (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ [١]) ولا يشغلنكم الشيطان بموت نبيكم ولا يفتننكم عن دينكم ، وعاجلوا الشيطان بالخير تعجزوه ، ولا تستنظروه فيلحق بكم ويفتنكم

وقال ابن عباس : لما فرغ أبو بكر من خطبته قال : ياعمر ، أنت الذى بلغنى أنك تقول مامات نبي الله صلى الله عليه وسلم ، أماترى أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال يوم كذا . كذا وكذا ، ويوم كذا . كذا وكذا ، وقال تعالى فى كتابه (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ [٢]) فقال : والله لكأنى لم أسمع بها فى كتاب الله قبل الآن لما نزل بنا . أشهد أن الكتاب كما أنزل ، وأن الحديث كما حدّث ، وأن الله حي لايموت ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، وصلوات الله على رسوله ، وعند الله نحتسب رسوله صلى الله عليه وسلم . ثم جلس إلى أبى بكر

الصحابة عند غسله عليه الصلاة والسلام

وقالت عائشة رضي الله عنها : لما اجتمعوا لغسله قالوا : والله ماندرى كيف نغسّل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أنجرده عن ثيابه كما نصنع بموتانا ؟ أو نغسله فى ثيابه ؟ قالت فأرسل الله عليهم النوم ، حتى مابقي منهم رجل إلا واضع لحيته على صدره نائما . ثم قال قائل لايدرى من هو : غسّلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه ثيابه : فانتبهوا ففعلوا ذلك . فغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قميصه ، حتى إذا فرغوا من غسله كفن . وقال عليّ كرم الله وجهه : أردنا خلع قميصه فنودينا لاتخلعوا عن رسول الله

---

(١) النساء : ١٣٥ (٢) الزمر : ٣٠

صلى الله عليه وسلم ثيابه ، فأفررناه ، فغسلناه فى قميصه كما نغسل موتانا مستلقيا ، ماتشاء أن يُقلب لنا منه عضو لم يبالغ فيه إلا قلب لنا حتى نفرغ منه ، وإن معنا لحفيفا فى البيت كالريح الرخاء ، ويصوت بنا ارفقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم فإنكم ستكفون

فهكذا كانت وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يترك سبدا ولا لبدا إلا دفن معه . قال [١] أبو جعفر : فرش لحده بمفرشه وقطيفته ، وفرشت ثيابه عليها التى كان يلبس يقظان على القطيفة والمفرش ، ثم وضع عليها فى أكفانه . فلم يترك بعد وفاته مالا ، ولا بنى فى حياته لبنة على لبنة ، ولا وضع قصبة على قصبة . ففى وفاته عبرة تامة : وللمسلمين به أسوة حسنة

وفاة

أبى بكر الصديق رضي الله تعالى عنه

حال السيدة عائشة عند وفاة أبيها رضى الله عنه

لما احتضر أبو بكر رضي الله تعالى عنه ، جاءت عائشة رضي الله عنها ، فتمثلت بهذا البيت

لعمرك مايغنى الثراء عن الفتى   إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

فكشف عن وجهه وقال : ليس كذا . ولكن قولى (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ [١]) انظروا ثوبيّ هذين ، فاغسلوهما وكفنونى فيهما ، فإن الحي إلى الجديد أحوج من الميت . وقالت عائشة رضي الله عنها عند موته :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه   ربيع اليتامى عصمة للأرامل

فقال أبو بكر : ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم . ودخلوا عليه فقالوا ألا تدعو لك طبيبا ينظر إليك ؟ قال قد نظر إليّ طبيبي ، وقال إنى فعال لما أريد

ودخل عليه سلمان الفارسى رضي الله تعالى عنه يعوده ، فقال يا أبا بكر ، أوصنا . فقال إن الله فاتح عليكم الدنيا ، فلا تأخذن منها إلا بلاغك واعلم أن من صلى صلاة الصبح فهو

---

(١) حديث أبى جعفر فرش لحده بمفرشة وقطيفة وفيه فلم يترك بعد وفاته مالا ولا بنى فى حياته لبنة على لبنة ولا وضع قصبة على قصبة اما وضع المفرشة والقطيفة فالذى وضع القطيفة شقران مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس ذكر ذلك من شرط كتابنا وأما كونه لم يترك مالا فقد تقدم من حديث عائشة وغيرها وأما كونه مابنى فى حياته فتقدم أيضا

---

(١) ق : ١٩

فى ذمة الله ، فلا تحقرن الله فى ذمته فيكبك فى النار على وجهك

استخلافه لعمر رضي الله عنهما وتوصيته له

ولما ثقل أبو بكر رضي الله تعالى عنه ، وأراد الناس منه أن يستخلف ، فاستخلف عمر رضي الله عنه ، فقال الناس له : استخلفت علينا فظا غليظا ، فماذا تقول لربك ؟ فقال أقول : استخلفت على خلقك خير خلقك . ثم أرسل إلى عمر رضي الله عنه ، فجاء فقال : إنى موصيك بوصية ، اعلم أن لله حقا فى النهار لا يقبله فى الليل ، وأن لله حقا فى الليل لا يقبله فى النهار ، وأنه لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة ، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الحق فى الدنيا وثقله عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يثقل . وإنما خفت موازين من خفت موازينهم يوم القيامة باتباع الباطل وخفته عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يخف . وإن الله ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم ، وتجاوز عن سيئاتهم . فيقول القائل أنا دون هؤلاء ، ولا أبلغ مبلغ هؤلاء . فإن الله ذكر أهل النار بأسوأ أعمالهم ، ورد عليهم صالح الذى عملوا ، فيقول القائل أنا أفضل من هؤلاء . وإن الله ذكر آية الرحمة وآية العذاب ليكون المؤمن راغبا راهبا ، ولا يلقى بيديه إلى التهلكة ، ولا يتمنى على الله غير الحق . فإن حفظت وصيتى هذه فلا يكون غائب أحب إليك من الموت ولا بد لك منه . وإن ضيعت وصيتي فلا يكون غائب أبغض إليك من الموت ولا بد لك منه ، ولست بمعجزه

وقال سعيد بن المسيب : لما احتضر أبو بكر رضي الله عنه أتاه ناس من الصحابة ، فقالوا ياخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم زودنا ، فإنا نراك لما بك . فقال أبو بكر : من قال هؤلاء الكلمات ثم مات ، جعل الله روحه فى الأفق المبين . قالوا وما الأفق المبين ؟ قال قاع بين يدي العرش ، فيه رياض الله ، وأنهار وأشجار ، يغشاه كل يوم مائة رحمة . فمن قال هذا القول جعل الله روحه فى هذا المكان . اللهم إنك ابتدأت الخلق من غير حاجة بك إليهم ، ثم جعلتهم فريقين ، فريقا للنعيم ، وفريقا للسعير . فاجعلنى للنعيم ، ولا تجعلنى للسعير . اللهم إنك خلقت الخلق فرقا ، وميزتهم قبل أن تخلقهم ، فجعلت منهم شقيا وسعيدا ، وغويا ورشيدا ، فلا تشقنى بمعاصيك . اللهم إنك علمت ماتكسب كل نفس قبل أن تخلقها ، فلا محيص لها مما علمت

فاجعلنى ممن تستعمله بطاعتك . اللهم إن أحدا لا يشاء حتى تشاء ؛ فاجعل مشيئتك أن أشاء مايقربنى إليك . اللهم إنك قد قدّرت حركات العباد ، فلا يتحرك شيء إلا بإذنك ، فاجعل حركاتى فى تقواك . اللهم إنك خلقت الخير والشر ، وجعلت لكل واحد منهما عاملا يعمل به ، فاجعلنى من خير القسمين . اللهم إنك خلقت الجنة والنار ، وجعلت لكل واحدة منهما أهلا ، فاجعلنى من سكان جنتك . اللهم إنك أردت بقوم الضلال ، وضيقت به صدورهم ، فاشرح صدرى للإيمان وزينه فى قلبى . اللهم إنك دبرت الأمور ، وجعلت مصيرها إليك ، فأحينى بعد الموت حياة طيبة ، وقربنى إليك زلفى . اللهم من أصبح وأمسى ثقته ورجاؤه غيرك فأنت ثقتى ورجائى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . قال أبو بكر هذا كله فى كتاب الله عز وجل

وفاة

عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه

قال عمرو بن ميمون : كنت قائما غداة أصيب عمر ، ما بينى وبينه إلا عبد الله بن عباس وكان إذا مر بين الصفين قام بينهما ، فإذا رأي خللا قال استووا ، حتى إذا لم يرفيهم خللا تقدم فكبر . قال وربما قرأ سورة يوسف ، أو النحل ، أو نحو ذلك فى الركعة الأولى حتى يجتمع الناس . فما هو إلا أن كبر ، فسمعته يقول : قتلنى أو أكلنى الكلب ، حين طعنه أبو لؤلؤة . وطار العلج بسكين ذات طرفين ، لايمر على أحد يمينا أو شمالا إلا طعنه حتي طعن ثلاثة عشر رجلا . فمات منهم تسعة . وفى رواية سبعة . فلما رأى ذلك رجل من من المسلمين طرح عليه بُرنسا . فلما ظن العلج أنه مأخوذ نحر نفسه . وتناول عمر رضي الله عنه عبدالرحمن بن عوف فقدمه . فأما من كان يلى عمر فقد رأى ما رأيت . وأما نواحى المسجد ما يدرون ما الأمر ، غير أنهم فقدوا صوت عمر ، وهم يقولون سبحان الله سبحان الله ، فصلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة ، فلما انصرفوا قال : يا ابن العباس ، انظر من قتلنى قال فغاب ساعة ثم جاء فقال : غلام المغيرة بن شعبة . فقال عمر رضي الله عنه ، قاتله الله ، لقد كنت أمرت به معروفا . ثم قال : الحمد لله الذى لم يجعل منيتى بيد رجل مسلم . قد كنتَ

أنت وأبوك تحبان أن يكثر العلوج بالمدينة . وكان العباس أكثرهم رقيقا . فقال ابن عباس: إن شئت فعلت . أي إن شئت قتلناهم . قال بعد ما تكلموا بلسانكم ، وصلوا إلى قبلتكم ، وحجوا حجكم ، فاحتمل إلى بيته ، فانطلقنا معه . قال وكأن الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ . قال فقائل يقول أخاف عليه ، وقائل يقول لا بأس . فأتي* بنبيذ فشرب منه ، فخرج من جوفه . ثم أتي بلبن فشرب منه ، فخرج من جوفه . فعرفوا أنه ميت . قال : فدخلنا عليه ، وجاء الناس يثنون عليه ، وجاء رجل شاب فقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى من الله عز وجل ، قد كان لك صحبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقدم في الإسلام ما قد علمت ، ثم وليت فعدلت ، ثم شهادة فقال وددت أن ذلك كان كفافا لا علي ولا لي . فلما أدبر الرجل إذا إزاره يمس الأرض، فقال ردوا علي الغلام . فقال يا ابن أخي ، ارفع ثوبك فإنه أبقى لثوبك ، وأتقى لربك . ثم قال : ياعبد الله انظر ما علي من الدين . فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفا أو نحوه . فقال إن وفى به مال آل عمر فأده من أموالهم ، وإلا فسل في بني عدي بن كعب ، فأن لم تف أموالهم فسل في قريش ، ولا تعدهم إلى غيرهم وأد عني هذا المال . انطلق إلى أم المؤمنين عائشة ، فقل عمر يقرأ عليك السلام ، ولا تقل أمير المؤمنين . فإني لست اليوم للمؤمنين أميرا . وقل يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه . فذهب عبد الله فسلم واستأذن ، ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكي . فقال يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ، ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه . فقالت كنت أريده لنفسي ، ولأوثرنه اليوم على نفسي . فلما أقبل قيل هذا عبد الله بن عمر قد جاء ، فقال : ارفعوني ، فأسنده رجل إليه ، فقال ما لديك ؟ قال الذي تحب يا أمير المؤمنين ، قد أذنت . قال: الحمد لله ، ما كان شيء أهم إلي من ذلك ، فإذا أنا قبضت فاحملوني ، ثم سلم وقل : يستأذن عمر . فإن أذنت لي فأدخلوني ، وإن ردتني ردوني إلى مقابر المسلمين

حال الصحابة عند وفاته رضي الله عنه

وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء يسترنها ، فلما رأيناها قمنا ، فولجت عليه ، فبكت عنده ساعة . واستأذن الرجال ، فولجت داخلا ، فسمعنا بكاءها من داخل . فقالوا أوص يا أمير المؤمنين واستخلف . فقال ما أرى أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض . فسمى عليا ، وعثمان ، والزبير ،

* النبيذ : شراب من التمر غير مسكر

وطلحة ، وسعدا ، وعبد الرحمن . وقال يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شيء ، كهيئة التعزية له . فإن أصابت الإمارة سعدا فذاك ، وإلا فليستعن به أيكم أمّر ، فإنى لم أعزله من عجز ولا خيانة . وقال: أوصى الخليفة من بعدى بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم فضلهم ، ويحفظ لهم حرمتهم . وأوصيه بالأنصار خيرا ، الذين تبوّؤا الدار والإيمان من قبلهم ، أن يقبل من محسنهم ، وأن يعفو عن مسيئهم . وأوصيه بأهل الأمصار خيرا ، فإنهم ردء الإسلام ، وجباة الأموال ، وغيظ العدوّ ، وأن لا يأخذ منهم إلا فضلهم عن رضا منهم . وأوصيه بالأعراب خيرا ، فإنهم أصل العرب ، ومادة الإسلام ، وأن يأخذ من حواشى أموالهم ويرد على فقرائهم ، وأوصيه بذمة الله عز وجل ، وذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يوفى لهم بعهدهم ، وأن يقاتل لهم من ورائهم ، ولا يكلفهم إلا طاقتهم

قال فلما قبض خرجنا به ، فانطلقنا نمشى ، فسلم عبد الله بن عمر وقال : يستأذن عمر بن الخطاب. فقالت أدخلوه . فأدخلوه فى موضع هنالك مع صاحبيه الحديث

وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال [1] « قَالَ لِى جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِيَبْكِ الْإِسْلَامُ عَلَى مَوْتِ عُمَرَ » . وعن [2] ابن عباس قال: وضع عمر على سريره ، فتكنّفه الناس يدعون ويصلون قبل أن يرفع ، وأنا فيهم ، فلم يرعنى إلا رجل قد أخذ بمنكبي ، فالتفت فإذا هو عليّ بن أبى طالب رضي الله عنه فترحم على عمر وقال : ماخلفت أحدا أحب إلي أن ألقى الله بمثل عمله منك . وأيم الله إن كنت لأظن ليجعلنك الله مع صاحبيك ، وذلك أنى كنت كثيرا أسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول « ذَهَبْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَخَرَجْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَدَخَلْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ » فإنى كنت لأرجو أو لأظن أن يجعلك الله معهما

---

(١) حديث قال لى جبريل عليه السلام ليبك الاسلام على موت عمر :أبو بكر الآجرى فى كتاب الشريعة من حديث ابي بن كعب بسند ضعيف جدا وذكره ابن الجوزى فى الموضوعات

(٢) حديث ابن عباس قال وضع عمر على سريره فكنفه الناس يدعون ويصلى فذكر قول على بن أبي طالب كنت كثيرا أسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول ذهبت أنا وأبو بكر وعمر ـ الحديث: متفق عليه

وفاة

عثمان رضي الله عنه

الحديث فى قتله مشهور. وقد قال عبد الله بن سلام: أتيت أخى عثمان لأسلم عليه وهو محصور فدخلت عليه فقال مرحبا يا أخى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلة فى هذه الخوخة، وهي خوخة فى البيت. فقال يا عثمان، حصروك. قلت نعم. قال عطشوك، قلت نعم. فأدلى إلي دلوا فيه ماء، فشربت حتى رويت، حتى أنى لأجد برده بين ثديي وبين كتفى، وقال لى. إن شئت نصرت عليهم، وإن شئت أفطرت عندنا. فاخترت أن أفطر عنده. فقتل ذلك اليوم رضي الله عنه. وقال عبد الله بن سلام لمن حضر تشحط عثمان فى الموت حين جرح، ماذا قال عثمان وهو يتشحط؟ قالوا سمعناه يقول: اللهم اجمع أمة محمد صلى الله عليه وسلم ثلاثا. قال والذى نفسى بيده، لو دعا الله أن لا يجتمعوا أبدا ما اجتمعوا إلى يوم القيامة

محاجته للثائرين عليه

وعن[1] ثمامة بن حزن القشيرى قال: شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان رضي الله عنه، فقال ائتونى بصاحبيكم اللذين ألباكم علي: قال فجيء بهما كأنما هما جملان أو حماران فأشرف عليهم عثمان رضي الله عنه فقال: أنشدكم بالله والإسلام، هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بئر رومة، فقال «مَنْ يَشْتَرِي رُومَةَ يَجْعَلْ دَلْوَهُ مَعَ دِلَاءِ الْمُسْلِمِينَ بِخَيْرٍ لَهُ مِنْهَا فِي الْجَنَّةِ» فاشتريتها من صلب مالى، فأنتم اليوم تمنعونى أن أشرب منها ومن ماء البحر؟ قالوا اللهم نعم. قال أنشدكم الله والإسلام هل تعلمون أنى جهزت جيش العسرة من مالى؟ قالوا نعم. قال أنشدكم الله والإسلام، هل تعلمون أن المسجد كان قد ضاق بأهله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مَنْ يَشْتَرِي بُقْعَةَ آلِ فُلَانٍ فَيَزِيدُهَا فِي الْمَسْجِدِ بِخَيْرٍ مِنْهَا فِي الْجَنَّةِ» فاشتريتها من صلب مالى، فأنتم اليوم تمنعونى أن أصلي فيها ركعتين؟ قالوا اللهم نعم. قال أنشدكم الله والإسلام، هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان على ثبير بمكة، ومعه أبو بكر وعمر وأنا، فتحرك الجبل حتى تساقطت حجارته بالحضيض قال فركضه برجله وقال «اسْكُنْ ثَبِيرُ فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ» قالوا اللهم نعم. قال الله أكبر شهدوا لى ورب الكعبة أنى شهيد

---

(١) حديث ثمامة بن حزن القشيرى شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان ـ الحديث: الترمذي وقال حسن والنسائى

وروي عن شيخ من ضبّة ، أن عثمان حين ضرب والدماء تسيل على لحيته جعل يقول: لاإله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، اللهم إني أستعديك عليهم ، واستعينك على جميع أموري ، وأسألك الصبر على ماابتليتني

وفاة

علي كرم الله وجـــــهه

قال الأصبغ الحنظلي : لما كانت الليـلة التي أصيب فيها عليّ كرم الله وجهه، أتاه ابن التياح حين طلع الفجر يؤذنه بالصلاة ، وهو مضطجع متثاقل ، فعاد الثانية وهو كذلك ، ثم عاد الثالثة ، فقام عليّ يمشي وهو يقول :

أشدد حيا زيمك الموت فإن الموت لاقيكا
ولا تجـزع من الموت إذا حـل بواديكا

فلما بلغ الباب الصغير ، شد عليه ابن ملجم فضربه ، فخرجت أم كلثوم ابنة عليّ رضي الله عنـه ، فجعلت تقول : مالي ولصلاة الغداة ، قتل زوجي أمير المؤمنين صلاة الغداة ، وقتل أبي صلاة الغداة. وعن شيخ من قريش؛ أن عليا كرم الله وجهه، لما ضربه ابن ملجم، قال فزتُ ورب الكعبة . وعن محمد بن علي ، أنه لما ضرب أوصى بنيه، ثم لم ينطق إلا بلا إله إلا الله حتى قبض

وفاة الحسن رضي الله عنه

ولما ثقل الحسن بن علي رضي الله عنهما ، دخل عليه الحسين رضي الله عنه ، فقال ياأخي لأي شيء تجزع ؟ تقدُم على رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، وعلى عليّ بن أبي طالب ، وهما أبواك ، وعلى خديجة بنت خويلد ، وفاطمـة بنت محمـد ، وهما أماك ، وعلى حمزة وجعفر ، وهما عماك . قال ياأخي ، أقدم على أمر لم أقدم على مثله

وفاة الحسين رضي الله عنه

وعن محمـد بن الحسن رضي الله عنهما قال : لمـا نزل القوم بالحسين رضي الله عنه ، وأيقن أنهم قاتلوه ، قام في أصحابه خطيبا ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : قد نزل من الأمر ماترون ، وإن الدنيا قد تغيرت ، وتنكرت ، وأدبر معروفها ، وانشمرت حتى لم يبق منها إلا كصبابة الإناء . ألا حسبي من عيش كالمرعى الوبيل . ألا ترون الحق لايعمل به، والباطل لايتناهى عنه . ليرغب المؤمن في لقاء الله تعالى ، وإني لاأرى الموت إلا سعادة ، والحياة مع الظالمين إلا جرما

الباب الخامس

فى كلام المحتضرين من الخلفاء والأمراء والصالحين

كلمة معاوية عند وفاته

لما حضرت معاويةَ بن أبى سفيان الوفاة قال : أقعدونى . فأقعد ، فجعل يسبح الله تعالى ويذكره ، ثم بكى وقال : تذكر ربك يامعاوية بعد الهرم والانحطاط ، ألا كان هذا وغصن الشباب نضر ريان ! وبكى حتى علا بكاؤه وقال : يارب ارحم الشيخ العاصى ، ذا القلب القاسى . اللهم أقل العثرة ، واغفر الزلة ، وعد بحلمك على من لم يرج غيرك ، ولم يثق بأحد سواك . وروي عن شيخ من قريش ، أنه دخل مع جماعة عليه فى مرضه ، فرأوا فى جلده غضونا . فحمد الله وأثني عليه ثم قال : أما بعد ، فهل الدنيا أجمع إلا ماجربنا ورأينا ، أما والله لقد استقبلنا زهرتها بجدتنا ، وباستلذاذنا بعيشنا ، فمالبثتنا الدنيا أن نقضت ذلك منا حالا بعد حال ، وعروة بعد عروة ، فأصبحت الدنيا وقدوترتنا وأخلقتنا ، واستلأمت إلينا . أف للدنيا من دار ، ثم أف لها من دار

ويروى أن آخر خطبة خطبها معاوية أن قال : أيها الناس ، إنى من زرع قداستحصد ، وإني قد وليتكم ، ولن يليكم أحد من بعدى إلا وهو شر منى ، كما كان من قبلى خيرا منى . ويايزيد ، إذا وفى أجلى فولّ غسلى رجلا لبيبا ، فإن اللبيب من الله بمكان ، فلينعم الغسل ، وليجهر بالتكبير . ثم أعمد إلى منديل فى الخزانة فيه ثوب من ثياب النبي صلى الله عليه وسلم ، وقراضة من شعره وأظفاره ، فاستودع القراضة أنفى ، وفمى ، وأذنى ، وعينى ، واجعل الثوب على جلدى دون أكفانى . ويايزيد ، احفظ وصية الله فى الوالدين ، فإذا أدرجتمونى فى جديدى ، ووضعتمونى فى حفرتى ، فخلوا معاوية وأرحم الراحمين

كلمة عبد الملك ابن مروان عند وفاته

وقال محمد بن عقبة : لما نزل بمعاوية الموت قال : ياليتنى كنت رجلا من قريش بذى طوي ، وأنى لم أل من هذا الأمر شيئا . ولما حضرت عبد الملك بن مروان الوفاة ، نظر إلى غسال بجانب دمشق يلوى ثوبا بيده ، ثم يضرب به المغسلة ، فقال عبد الملك : ليتنى كنت غسالا آكل من كسب يدى يوما بيوم ، ولم أل من أمر الدنيا شيئا . فبلغ ذلك أبا حازم فقال : الحمد لله الذى جعلهم إذا حضرهم الموت يتمنون مانحن فيه ، وإذا حضرنا

الموت لم نتمن ماهم فيه . وقيل لعبد الملك بن مروان فى مرضه الذى مات فيه . كيف تجدك ياأمير المؤمنين ؟ قال أجدنى كما قال الله تعالى (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَاخَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ [1]) الآية ، ومات

كلمة عمر بن عبد العزيز

وقالت فاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، امرأة عمر بن عبد العزيز . كنت أسمع عمر فى مرضه الذى مات فيه يقول : اللهم اخف عليهم موتى ولوساعة من نهار . فلما كان اليوم الذى قبض فيه ، خرجت من عنده ، فجلست فى بيت آخر بينى وبينه باب ، وهو فى قبة له فسمعته يقول (تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَيُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ [2]) ثم هدأ ، فجعلت لاأسمع له حركة ولا كلاما . فقلت لوصيف له : انظر أنائم هو ؟ فلما دخل صاح ، فوثبت فإذا هو ميت وقيل لما حضره الموت : أعهد ياأمير المؤمنين ؟ قال أحذركم مثل مصرعى هذا ، فإنه لابد لكم منه

وروي أنه لما ثقل عمر بن عبد العزيز دعي له طبيب ؛ فلما نظر إليه قال : أرى الرجل قد سقى السم . ولا آمن عليه الموت . فرفع عمر بصره وقال . ولا تأمن الموت أيضا على من لم يسق السم . قال الطبيب : هل أحسست بذلك ياأمير المؤمنين ؟ قال نعم قد عرفت ذلك حين وقع فى بطنى قال فتعالج ياأمير المؤمنين ، فإنى أخاف أن تذهب نفسك . قال ربى خير مذهوب إليه . والله لو علمت أن شفائي عند شحمة أذنى مارفعت يدى إلى أذنى فتناولته . اللهم خر لعمر فى لقائك . فلم يلبث إلا أياما حتى مات

وقيل لما حضرته الوفاة بكى فقيل له مايبكيك ياأمير المؤمنين ؟ أبشر فقد أحيا الله بك سننا ، وأظهر بك عدلا . فبكى ثم قال . أليس أوقف فأسئل عن أمر هذا الخلق ؟ فوالله لو عدلت فيهم لخفت على نفسي أن لاتقوم بحجتها بين يدي الله ، إلا أن يلقنها الله حجتها فكيف بكثير مما ضيعنا ، وفاضت عيناه ، فلم يلبث إلا يسيرا حتى مات

ولما قرب وقت موته قال : أجلسونى . فأجلسوه فقال أنا الذى أمرتنى فقصرت ، ونهيتنى فعصيت ؟ ثلاث مرات ولكن لاإله إلاالله . ثم رفع رأسه فأحدّ النظر ، فقيل له فى ذلك ، فقال : إنى لأرى خضرة ماهم بإنس ولا جن . ثم قبض رحمه الله

---

(1) الأنعام : ٩٤ (2) القصص : ٨٣

كلمة هارون الرشيد

وحكي عن هرون الرشيد أنه انتقى أكفانه بيده عند الموت ، وكان ينظر إليها ويقول (مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ [1])

المأمون

وفرش المأمون رمادا واضطجع عليه، وكان يقول : يامن لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه

المعتصم

وكان المعتصم يقول عند موته : لو علمت أن عمرى هكذا قصير مافعلت

المنتصر

وكان المنتصر يضطرب على نفسه عند موته ، فقيل له لا بأس عليك ياأمير المؤمنين . فقال ليس إلا هذا لقد ذهبت الدنيا وأقبلت الآخرة

عمرو ابن العاص

وقال عمرو بن العاص عند الوفاة، وقد نظر إلى صناديق لبنيه . من يأخذها بما فيها ليته كان بعرا

كلمة الحجاج

وقال الحجاج عند موته : اللهم اغفر لى ، فإن الناس يقولون إنك لاتغفر لى . فكان عمر بن عبد العزيز تعجبه هذه الكلمة منه ، ويغبطه عليها . ولما حكي ذلك للحسن قال : أقالها ؟ قيل نعم . قال عسى .

بيان

أقاويل جماعة من خصوص الصالحين من الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم من أهل التصوف رضي الله عنهم أجمعين

كلمة معاذ

لما حضر معاذا رضي الله عنه الوفاة قال . اللهم إنى قد كنت أخافك ، وأنا اليوم أرجوك اللهم إنك تعلم أنى لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجري الأنهار ، ولا لغرس الأشجار ولكن لظمأ الهواجر ، ومكابدة الساعات ، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر . ولما اشتد به النزع ، ونزع نزعا لم ينزعه أحد ، كان كلما أفاق من غمرة فتح طرفه ثم قال : رب ماأخنقنى خنقك ، فوعزتك إنك تعلم أن قلبي يحبك

ولما حضرت سلمان الوفاة بكى [1] ، فقيل له مايبكيك ؟ قال ماأبكى جزعا على الدنيا ، ولكن عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تكون بلغة أحدنا من الدنيا كزاد الراكب . فلما مات سلمان نظر فى جميع ماترك فإذا قيمته بضعة عشر درهما

---

(١) حديث لما حضرت سلمان الوفاة بكى وفيه عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون بلغة أحدنا من الدنيا كزاد الراكب : أحمد والحاكم وصححه وقد تقدم

---

(١) الحاقة ٢٨ ، ٢٩

ولما حضر بلالا الوفاة قالت امرأته : واحزناه . فقال : بل واطرباه ، غدا نلقى الأحبة محمدا وحزبه . وقيل : فتح عبد الله بن المبارك عينه عند الوفاة وضحك وقال (لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ [(١)]) . ولما حضر إبراهيم النخعي الوفاة بكى، فقيل له مايبكيك؟ قال : أنتظر من الله رسولا يبشرني بالجنة أو بالنار

ولما حضر ابن المنكدر الوفاة بكى ، فقيل له مايبكيك؟ فقال : والله ما أبكي لذنب أعلم أني أتيته ، ولكن أخاف أني أتيت شيئا حسبته هينا وهو عند الله عظيم

ولما حضر عامر بن عبد القيس الوفاة بكى، فقيل له مايبكيك؟ قال ما أبكي جزعا من الموت ولا حرصا على الدنيا، ولكن أبكي على مايفوتني من ظمأ الهواجر، وعلى قيام الليل في الشتاء

ولما حضرت فضيلا الوفاة غشي عليه ثم فتح عينيه وقال : وابعد سفراه واقلة زاداه

ولما حضرت ابن المبارك الوفاة قال لنصر مولاه : اجعل رأسي على التراب ، فبكى نصر فقال له مايبكيك ؟ قال ذكرت ما كنت فيه من النعيم ، وأنت هو ذا تموت فقيرا غريبا قال اسكت ، فإني سألت الله تعالى أن يحييني حياة الأغنياء ، وأن يميتني موت الفقراء . ثم قال له : لقني ، ولا تعد علي مالم أتكلم بكلام ثان

وقال عطاء بن يسار : تبدى إبليس لرجل عند الموت، فقال له نجوت. فقال ما آمنك بعد

وبكى بعضهم عند الموت ، فقيل له مايبكيك ؟ قال آية في كتاب الله تعالى ، قوله عز وجل (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ [(٢)])

ودخل الحسن رضي الله عنه على رجل يجود بنفسه فقال : إن امرا هذا أوله لجدير أن يتقى آخره ، وإن أمرا هذا آخره لجدير أن يزهد في أوله

وقال الجريري : كنت عند الجنيد في حال نزعه ، وكان يوم الجمعة ويوم النيروز وهو يقرأ القرءان ، فختم فقلت له في هذه الحالة يا أبا القاسم ؟ فقال ومن أولى بذلك مني ، وهو ذا تطوى صحيفتي

وقال رويم : حضرت وفاة أبي سعيد الخراز وهو يقول :

---

(١) الصافات : ٦١ (٢) المائدة : ٢٧

حنين قلوب العارفين إلى الذكر وتذكارهم وقت المناجاة للسر
أديرت كؤس للمنايا عليهم فأغفوا عن الدنيا كإغفاء ذى الشكر
همو مُهمو جوالة بمعسكر به أهل ودّ الله كالأنجم الزهر
فأجسامهم فى الأرض قتلى بحبه وأرواحهم فى الحجب نحو العلا تسرى
فما عرّسوا إلا بقرب حبيبهم وما عرجوا من مس بؤس ولا ضر

وقيل للجنيد . إن أبا سعيد الخراز كان كثير التواجد عند الموت . فقال لم يكن بعجب أن تطير روحه اشتياقا : وقيل لذى النون عندموته. ماتشتهى ؟ قال أن أعرفه قبل موتى بلحظة
وقيل لبعضهم وهو فى النزع . قل الله . فقال إلى متى تقولون الله ، وأنا محترق بالله
وقال بعضهم . كنت عند ممشاذ الدينورى ، فقدم فقير وقال . السلام عليكم ، هل هنا موضع نظيف يمكن الإنسان أن يموت فيه ؟ قال فأشاروا إليه بمكان ، وكان ثمّ عين ماء ، فجدد الفقير الوضوء ، وركع ماشاء الله ، ومضى إلى ذلك المكان ، ومدّ رجليه ، ومات
وكان أبو العباس الدينورى يتكلم فى مجلسه ، فصاحت امرأة تواجدا ، فقال لها موتى فقامت المرأة ، فلما بلغت باب الدار التفتت إليه وقالت . قد متّ . ووقعت ميتة
ويحكى عن فاطمة أخت أبى على الروزبارى قالت . لما قرب أجل أبى علي الروزبارى وكان رأسه فى حجرى ، فتح عينيه وقال . هذه أبواب السماء قد فتحت ، وهذه الجنان قد زينت ، وهذا قائل يقول . ياأبا علي قد بلغناك الرتبة القصوى ، وإن لم تردها. ثم أنشأيقول

وحقك لانظرت إلى سواكا بعين مودّة حتى أراكا
أراك معذبى بفتور لحظ وبالخد المورد من حياكا

وقيل للجنيد قل لا إله إلا الله . فقال مانسيته فأذكره
وسأل جعفر بن نصير بكران الدينورى خادم الشبلى ، ما الذى رأيت منه ؟ فقال : قال عليّ درهم مظلمة ، وتصدقت عن صاحبه بألوف ، فما على قلبى شغل أعظم منه . ثم قال : وضئنى للصلاة ، ففعلت ، فنسيت تخليل لحيته ، وقد أمسك على لسانه ، فقبض على يدى وأدخلها فى لحيته ، ثم مات . فبكى جعفر وقال : ما تقولون فى رجل لم يفته فى آخر عمره أدب من آداب الشريعة . وقيل لبشر بن الحارث لما احتضر : وكان يشق عليه : كأنك

كلمة بشر بن الحارث

تحب الحياة ؟ فقال : القدوم على الله شديد

وقيل لصالح بن مسمار : ألا توصي بابنك وعيالك ؟ فقال إني لأستحيي من الله أن أوصي بهم إلى غيره . ولما احتضر أبو سليمان الداراني ، أتاه أصحابه فقالوا : أبشر فإنك تقدُم على رب غفور رحيم ؛ فقال لهم : ألا تقولون احذر فإنك تقدم على رب يحاسبك بالصغير، ويعاقبك بالكبير . ولما احتضر أبو بكر الواسطي قيل له :أوصنا .فقال احفظوا مراد الحق فيكم ؛ واحتضر بعضهم ،فبكت امرأته،فقال لها ما يبكيك؟فقالت عليك أبكي فقال: . إن كنت باكية فابكي على نفسك ، فلقد بكيت لهذا اليوم أربعين سنة

كلمة سري السقطي

وقال الجنيد : دخلت على سري السقطي أعوده في مرض موته ، فقلت كيف تجدك؟ فأنشأ يقول

كيف أشكو إلى طبيبي مابي والذي بي أصابني من طبيبي

فأخذت المروحة لأروّحه فقال : كيف يجد ريح المروحة مَن جوفُه يحترق ! ثم أنشأ يقول

القلب محترق والدمع مستبق والكرب مجتمع والصبر مفترق

كيف القرار على من لا قرار له مما جناه الهوى والشوق والقلق

يارب إن يك شيء فيه لي فرج فامنن عليّ به مادام بي رمق

وحكي أن قوما من أصحاب الشبلي دخلوا عليه وهو في الموت ، فقالوا له : قل لا إله إلا الله . فأنشأ يقول

إن بيتا أنت ساكنه غير محتاج إلى السرج

وجهك المأمول حجتنا يوم يأتي الناس بالحجج

لا أتاح الله لي فرجا يوم أدعو منك بالفرج

وحكي أن أبا العباس بن عطاء دخل على الجنيد في وقت نزعه ، فسلم عليه فلم يجبه ، ثم أجاب بعد ساعة وقال : اعذرني فإني كنت في وردي . ثم ولى وجهه إلى القبلة وكبر ومات

وقيل للكناني لما حضرته الوفاة ما كان عملك ؟ فقال لو لم يقرب أجلي ما أخبرتكم به وقفت على باب قلبي أربعين سنة ، فكلما مرّ فيه غير الله حجبته عنه

وحكي عن المعتمر قال : كنت فيمن حضر الحكم بن عبد الملك حين جاءه الحق ، فقلت اللهم هوّن عليه سكرات الموت فإنه كان وكان ، فذكرت محاسنه ، فأفاق فقال : مَن المتكلم ؟

فقلت أنا . فقال إن ملك الموت عليه السلام يقول لى ٠ إنى بكل سخي رفيق ، ثم طفئ

ولما حضرت يوسف بن أسباط الوفاة ، شهده حذيفة فوجده قلقا . فقال : يا أبا محمد هذا أوان القلق والجزع ؟ فقال يا أبا عبد الله ، و كيف لا أقلق ولا أجزع وإنى لا أعلم أنى صدقت الله فى شيء من عملى ! فقال حذيفة : واعجباه لهذا الرجل الصالح ، يحلف عند موته أنه لا يعلم أنه صدق الله فى شيء من عمله

وعن المغازلى قال . دخلت على شيخ لى من أصحاب هذه الصفّة وهو عليل ، وهو يقول يمكنك أن تعمل ما تريد ، فارفق بى . ودخل بعض المشايخ على ممشاد الدينوى فى وقت وفاته فقال له . فعلَ الله تعالى وصَنع ،من باب الدعاء ، فضحك ثم قال . منذ ثلاثين سنة تعرض عليّ الجنة بما فيها فما أعرتها طرفى

وقيل لرويم عند الموت . قل لا إله إلا الله . فقال لا أحسن غيره

ولما حضر الثوري الوفاة قيل له . قل لا إله إلا الله . فقال أليس ثم أمر

كلمة الشافعى رضى الله عنه

ودخل المزنى على الشافعي رحمة الله عليهما فى مرضه الذى توفي فيه ، فقال له . كيف أصبحت يا أبا عبد الله ؟ فقال أصبحت من الدنيا راحلا ، وللإخوان مفارقا ، ولسوء عملى ملاقيا ، ولكأس المنية شاربا ، وعلى الله تعالى واردا ، ولا أدرى أروحى تصير إلى الجنة فأهنيها ، أم إلى النار فأعزيها . ثم أنشأ يقول

ولما قسى قلبى وضاقت مذاهبى ... جعلت رجائى نحو عفوك سلّما

تعاظمنى ذنبى فلما قرنته ... بعفوك ربى كان عفوك أعظما

فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل ... تجود وتعفو منّة وتكرما

ولولاك لم يغوى بإبليس عابد ... فكيف وقد أغوى صفيك آدما

ولما حضر أحمد بن خضرويه الوفاة ، سئل عن مسألة . فدمعت عيناه وقال يا بنى ، باب كنت أدقّه خمسا وتسعين سنة ، هوذا يفتح الساعة لى ، لا أدرى أيفتح بالسعادة أوالشقاوة ، فأنّى لى أوان الجواب . فهذه أقاويلهم . وإنما اختلفت بحسب اختلاف أحوالهم فغلب على بعضهم الخوف ، وعلى بعضهم الرجاء ، وعلى بعضهم الشوق والحب ، فتكلم كل واحد منهم على مقتضى حاله والكل صحيح بالإضافة إلى أحوالهم

الباب السادس

فى أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر وحكم زيارة القبور

اعلم أن الجنائز عبرة للبصير ، وفيها تنبيه وتذكير لأهل الغفلة ، فإنها لاتزيدهم مشاهدتها إلا قساوة ، لأنهم يظنون أنهم أبدا إلى جنازة غيرهم ينظرون ، ولا يحسبون أنهم لامحالة على الجنائز يحملون . أو يحسبون ذلك ولكنهم على القرب لايقدرون ، ولا يتفكرون أن المحمولين على الجنائز هكذا كانوا يحسبون ، فبطل حسبانهم ، وانقرض على القرب زمانهم . فلاينظر عبد إلى جنازة إلا ويقدّر نفسه محمولا عليها ، فإنه محمول عليها على القرب ، وكأن قد ، ولعله فى غد أو بعد غد ؛ ويروى عن أبى هريرة أنه كان إذا رأى جنازة قال . امضوا فإنا على الأثر

كلمة أبى هريرة

وكان مكحول الدمشقى إذا رأى جنازة قال . اغدوا فإنا رائحون ، موعظة بليغة وغفلة سريعة ، يذهب الأوّل والآخرُ لاعقل له . وقال أسيد بن حضير . ماشهدت جنازة فحدثتنى نفسى بشيء سوى ماهو مفعول به وما هو صائر إليه

ولما مات أخو مالك بن دينار . خرج مالك فى جنازته يبكى ويقول : والله لاتقرّعينى حتى أعلم إلى ماذا صرت إليه ، ولاأعلم مادمت حيا . وقال الأعمش . كنا نشهد الجنائز فلا ندري من نعزّى لحزن الجميع

وقل ثابت البنانى . كنا نشهد الجنائز فلا نرى إلا متقنعا باكيا

فهكذا كان خوفهم من الموت ، والآن لاننظر إلى جماعة يحضرون جنازة إلا وأكثرهم يضحكون ويلهون ، ولا يتكلمون إلا فى ميراثه وما خلفه لورثته ، ولا يتفكر أقرانه وأقاربه إلا فى الحيلة التى بها يتناول بعض ماخلّفه ، ولا يتفكر واحد منهم إلا ماشاء الله فى جنازة نفسه ، وفى حاله إذا حمل عليها . ولا سبب لهذه الغفلة إلا قسوة القلوب بكثرة المعاصى والذنوب ، حتى نسينا الله تعالى واليوم الآخر ، والأهوال التى بين أيدينا ، فصرنا نلهو ، ونغفل ، ونشتغل بما لايعنينا ؛ فنسأل الله تعالى اليقظة من هذه الغفلة ، فإن أحسن أحوال الحاضرين على الجنائز بكاؤهم على الميت ، ولو عقلوا لبكوا على أنفسهم لاعلى الميت

نظر ابراهيم الزيات إلى أناس يترحمون على الميت ، فقال لو ترحّمون على أنفسكم لكان خيرا لكم ، إنه نجا من أهوال ثلاثة . وجه ملك الموت وقد رأى ، ومرارة الموت وقد ذاق

وخوف الخاتمة وقد أمن . وقال أبو عمرو بن العلاء . جلست إلى جرير وهو يملي على كاتبه شعرا ، فأطلعت جنازة فأمسك وقال . شيبتني والله هذه الجنائز . وأنشأ يقول

تروعنا الجنائز مقبلات ونلهو حين تذهب مدبرات
كروعة ثلة لمغار ذئب فلما غاب عادت راتعات

آداب حضور الجنازة

فمن آداب حضور الجنائز التفكر والتنبه ، والاستعداد ، والمشي أمامها على هيئة التواضع كما ذكرنا آدابه وسننه فى فن الفقه

ومن آدابه حسن الظن بالميت وإن كان فاسقا ، وإساءة الظن بالنفس وإن كان ظاهرها الصلاح ، فإن الخاتمة مخطرة لاندرى حقيقتها . ولذلك روي عن عمر بن ذر أنه مات واحد من جيرانه ، وكان مسرفا على نفسه ، فتجافى كثير من الناس عن جنازته ، فحضرها هو وصلى عليها ، فلما دلى فى قبره وقف على قبره وقال : يرحمك الله ياأبا فلان ، فلقد صحبت عمرك بالتوحيد ، وعفرت وجهك بالسجود . وإن قالوا مذنب وذو خطايا ، فمن منا غير مذنب وغير ذى خطايا ؟ . ويحكى أن رجلا من المنهمكين فى الفساد مات فى بعض نواحى البصرة ، فلم تجد امرأته من يعينها على حمل جنازته ، إذلم يدر بها أحد من جيرانه لكثرة فسقه . فاستأجرت حمالين ، وحملتها إلى المصلى ، فما صلى عليه أحد ، فحملتها إلى الصحراء للدفن فكان على جبل قريب من الموضع زاهد من الزهاد الكبار ، فرأته كالمنتظر للجنازة ، ثم قصد أن يصلى عليها . فانتشر الخبر فى البلد بأن الزاهد نزل ليصلى على فلان فخرج أهل البلد ؛ فصلى الزاهد وصلوا عليه ، وتعجب الناس من صلاة الزاهد عليه ، فقال : قيل لى فى المنام انزل إلى موضع فلان ترى فيه جنازة ليس معها أحد إلا امرأة فصلّ عليه فإنه مغفور له . فزاد تعجب الناس ، فاستدعى الزاهد امرأته ، وسألها عن حاله ، وأنه كيف كانت سيرته . قالت كما عُرف ، كان طول نهاره فى الماخور مشغولا بشرب الخمر . فقال انظرى هل تعرفين منه شيئا من أعمال الخير ؟ قالت نعم ، ثلاثة أشياء . كان كل يوم يفيق من سكره وقت الصبح يبدل ثيابه ، ويتوضأ ، ويصلى الصبح فى جماعة ، ثم يعود إلى الماخور ، ويشتغل بالفسق والثانى أنه كان أبدا لايخلو بيته من يتيم أو يتيمين ، وكان إحسانه إليهم أكثر من إحسانه إلى أولاده ، وكان شديد التفقد لهم . والثالث أنه كان يفيق فى أثناء سكره فى ظلام الليل

فيبكي ويقول يارب أي زاوية من زوايا جهنم تريد أن تملأها بهذا الخبيث ؟ يعني نفسه فانصرف الزاهد وقد ارتفع إشكاله من أمره

وعن صلة بن أشيم ، وقد دفن أخ له ، فقال على قبره

فإن تنج منها تنج من ذى عظيمة وإلا فإنى لا أخالك ناجيا

بيان

حال القبر وأقاويلهم عند القبور

قال [١] الضحاك : قال رجل يارسول الله من أزهد الناس ؟ قال « مَنْ لَمْ يَنْسَ الْقَبْرَ وَالْبِلَى وَتَرَكَ فَضْلَ زِينَةِ الدُّنْيَا وَآثَرَ مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى وَلَمْ يَعُدَّ غَداً مِنْ أَيَّامِهِ وَعَدَّ نَفْسَهُ مِنْ أَهْلِ الْقُبُورِ » . وقيل لعلي كرم الله وجهه : ما شأنك جاورت المقبرة ؟ قال إنى أجدهم خير جيران ، إنى أجدهم جيران صدق ، يكفون الألسنة ، ويذكرون الآخرة

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] « مَا رَأَيْتُ مَنْظَراً إِلَّا وَالْقَبْرُ أَفْظَعُ مِنْهُ »

وقال [٣] عمر بن الخطاب رضي الله عنه . خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المقابر ، فجلس إلى قبر ، وكنت أدنى القوم منه ، فبكى وبكيت وبكوا ، فقال « مَا يُبْكِيكُمْ ؟ » قلنا بكينا لبكائك قال « هَذَا قَبْرُ أُمِّي آمِنَةَ بِنْتِ وَهْبٍ اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي زِيَارَتِهَا فَأَذِنَ لِي فَاسْتَأْذَنْتُهُ أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَهَا فَأَبَى عَلَيَّ فَأَدْرَكَنِي مَا يُدْرِكُ الْوَلَدُ مِنَ الرِّقَّةِ »

وكان [٤] عثمان بن عفان رضي الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته ، فسئل

﴿ الباب السادس فى أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر ﴾

(١) حديث الضحاك قال رجل يارسول الله من ازهد الناس قال من لم ينس القبور والبلى ـ الحديث : تقدم

(٢) حديث مارايت منظرا الا والقبر افظع منه : تقدم فى الباب الثالث من آداب الصحبة

(٣) حديث عمر خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المقابر فجلس على قبر وكنت أدنى القوم الحديث : وفيه هذا قبر آمنة بنت وهب استأذنت ربى فى زيارتها فأذن لى ـ الحديث : وتقدم فى آداب الصحبة ايضا ورواه ابن أبى الدنيا فى كتاب القبور من حديث ابن مسعود وفيه ذكر لعمر بن الخطاب وآخره عند ابن ماجه مختصرا وفيه ايوب بن هانئ ضعفه ابن معين وقال ابوحاتم صالح

(٤) حديث عثمان كان اذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته وفيه ان القبر أول منازل الآخرة : الترمذى وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه وتقدم فى آداب الصحبة

عن ذلك وقيل له . تذكر الجنة والنار فلا تبكى ، وتبكى إذا وقفت قبر ! فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ فَإِنْ نَجَا مِنْهُ صَاحِبُهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ »

وقيل إن عمرو بن العاص نظر إلى المقبرة ، فنزل وصلى ركعتين ، فقيل له هذا شيء لم تكن تصنعه ! فقال ذكرت أهل القبور وما حيل بينهم وبينه ، فأحببت أن أتقرب إلى الله بهما . وقال مجاهد : أول مايكلم ابن آدم حفرته فتقول . أنا بيت الدود وبيت الوحدة ، وبيت الغربة ، وبيت الظلمة . هذا ماأعددت لك ، فما أعددت لى ؟

وقال أبو ذر : ألا أخبركم بيوم فقرى ؟ يوم أوضع فى قبرى . وكان أبو الدرداء يقعد إلى القبور ، فقيل له فى ذلك . فقال أجلس إلى قوم يذكرونى معادى ، وإذا قمت لم يغتابونى

وكان جعفر بن محمد يأتى القبور ليلا ويقول . يا أهل القبور مالى إذا دعوتكم لاتجيبونى ثم يقول : حيل والله بينهم وبين جوابى ، وكأنى بى أكون مثلهم . ثم يستقبل الصلاة إلى طلوع الفجر . وقال عمر بن عبد العزيز لبعض جلسائه ! يافلان ، لقد أرقت الليلة أتفكر فى القبر وساكنه ، إنك لو رأيت الميت بعد ثلاثة فى قبره لاستوحشت من قربه بعد طول الأنس منك به ، ولرأيت بيتا تجول فيه الهوام ، ويجرى فيه الصديد ، وتخترقه الديدان مع تغير الريح ، وبلى الأكفان بعد حسن الهيئة ، وطيب الريح ، ونقاء الثوب . قال ثم شهق شهقة خر مغشيا عليه . وكان يزيد الرقاشى يقول : أيها المقبور فى حفرته ، والمتخلى فى القبر بوحدته ، المستأنس فى بطن الأرض بأعماله ، ليت شعرى بأي أعمالك استبشرت ، وبأى إخوانك اغتبطت . ثم يبكى حتي يبل عمامته ، ثم يقول : استبشر والله بأعماله الصالحة ، واغتبط والله بإخوانه المتعاونين على طاعة الله تعالى . وكان إذا نظر إلى القبور خار كما يخور الثور

صفة القبر

وقال حاتم الأصم : من مرّ بالمقابر فلم يتفكر لنفسه ، ولم يدع لهم ، فقد خان نفسه وخانهم

وكان بكر العابد يقول : ياأماه ، ليتك كنت بى عقيما ، إن لابنك فى القبر حبسا طويلا ، ومن بعد ذلك منه رحيلا . وقال يحيي يابن معاذ : ابن آدم ، دعاك ربك إلى دار السلام فانظر من أين تجيبه . إن أجبته من دنياك ، واشتغلت بالرحلة إليه

دخلتها وإن أجبته من قبرك منعتها . وكان الحسن بن صالح إذا أشرف على المقابر يقول : ماأحسن ظواهرك ، إنما الدواهي في بواطنك

وكان عطاء السلمي إذا جنّ عليه الليل خرج إلى المقبرة ثم يقول : ياأهل القبور ، متّم فواموتاه ، وعاينتم أعمالكم فوا عملاه . ثم يقول : غدا عطاء في القبور ، غدا عطاء في القبور . فلا يزال ذلك دأبه حتى يصبح . وقال سفيان : من أكثر من ذكر القبر وجده روضة من رياض الجنة ، ومن غفل عن ذكره وجده حفرة من حفر النار

وكان الربيع بن خثيم قد حفر في داره قبرا ، فكان إذا وجد في قلبه قساوة دخل فيه فاضطجع ومكث ماشاء الله ، ثم يقول (رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ [1]) يرددها ، ثم يرد على نفسه ، ياربيع ، قد رجعتك فاعمل

وقال أحمد بن حرب . تتعجب الأرض من رجل يمهد مضجعه ، ويسوّي فراشه للنوم فتقول : ياابن آدم ، لم لا تذكر طول بلاك ومابيني وبينك شيء ؟

وقال ميمون بن مهران : خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى المقبرة ، فلما نظر إلى القبور بكى ، ثم أقبل عليّ فقال : ياميمون ، هذه قبور آبائي بني أمية ، كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذاتهم وعيشهم ، أما تراهم صرعى قد حلّت بهم المثلات ، واستحكم فيهم البلى ، وأصابت الهوام مقيلا في أبدانهم . ثم بكى وقال : والله ماأعلم أحدا أنعم ممن صار إلى هذه القبور وقد أمن من عذاب الله . وقال ثابت البناني : دخلت المقابر ، فلما قصدت الخروج منها فإذا بصوت قائل يقول : ياثابت ، لايغرنك صموت أهلها ، فكم من نفس مغمومة فيها . ويروى أن فاطمة بنت الحسين نظرت إلى جنازة زوجها الحسن بن الحسن فغطّت وجهها وقالت :

فاطمة بنت الحسين عند وفاة زوجها

وكانوا رجاء ثم أمسوا رزية لقد عظمت تلك الرزايا وجلت

وقيل إنها ضربت على قبره فسطاطا واعتكفت عليه سنة ، فلما مضت السنة قلعوا الفسطاط ودخلت المدينة ، فسمعوا صوتا من جانب البقيع : هل وجدوا مافقدوا ؟

(1) المؤمنون : ٩٩ ، ١٠٠

فسمعوا من الجانب الآخر ، بل يئسوا فانقلبوا

وقال أبو موسى التميمى : توفيت امرأة الفرزدق ، فخرج فى جنازتها وجوه البصرة وفيهم الحسن . فقال له الحسن : ياأبا فراس ، ماذا أعددت لهذا اليوم ؟ فقال شهادة أن لاإله إلا الله منذ ستين سنة . فلما دفنت أقام الفرزدق على قبرها فقال :

أخاف وراء القبر إن لم تعافنى أشد من القبر التهابا وأضيقا
إذا جاءنى يوم القيامة قائد عنيف وسواق يسوق الفرزدقا
لقد خاب من أولاد آدم من مشى إلى النار مغلول القلادة أزرقا

وقد أنشدوا فى أهل القبور :

قف بالقبور وقل على ساحاتها مَن منكم المغمور فى ظلماتها
ومَن المكرّم منكم فى قعرها قد ذاق برد الأمن من روعاتها
أما السكون لذى العيون فواحد لايستبين الفضل فى درجاتها
لو جاوبوك لأخبروك بألسن تصف الحقائق بعد من حالاتها
أما المطيع فنازل فى روضة يفضى إلى ماشاء من دوحاتها
والمجرم الطاغى بها متقلب فى حفرة يأوى إلى حيّاتها
وعقارب تسعى إليه فروحه فى شدة التعذيب من لدغاتها

ومرّ داود الطائى على امرأة تبكى على قبر وهي تقول :

عدمت الحياة ولا نلتها إذا كنت فى القبر قد ألحدوكا
فكيف أذوق لطعم الكرى وأنت بيمناك قد وسّدوكا

ثم قالت: ياابناه، ليت شعرى بأي خديك بدأ الدود؟ فصعق داود مكانه وخرّ مغشيا عليه

وقال مالك بن دينار . مررت بالمقبرة فانشأتُ أقول :

أتيت القبور فناديتها فأين المعظم والمحتقر
وأين المدل بسلطانه وأين المزكى إذا ما افتخر

قال . فنوديت من بينها أسمع صوتا ولا أرى شخصا وهو يقول :

تفانوا جميعا فما مخبر وماتوا جميعا ومات الخبر

تروح وتغدو بنات الثرى فتمحو محاسن تلك الصور
فياسائلي عن أناس مضوا أمالك فيما ترى معتبر

قال : فرجعت وأنا باكٍ

أبيات وجدت مكتوبة على القبور

وجد مكتوبا على قبر .

تناجيك أجداث وهن صموت وسكانها تحت التراب خفوت
أيا جامع الدنيا لغير بلاغه لمن تجمع الدنيا وأنت تموت

ووجد على قبر آخر مكتوبا .

أيا غانم أما ذراك فواسع وقبرك معمور الجوانب محكم
وما ينفع المقبور عمران قبره إذا كان فيه جسمه يتهدم

وقال ابن السماك : مررت على المقابر فإذا على قبر مكتوب .

يمر أقاربي جنبات قبري كأن أقاربي لم يعرفوني
ذوو الميراث يقتسمون مالي وما يألون أن جحدوا ديوني
وقد أخذوا سهامهم وعاشوا فيالله أسرع ماتسونى

ووجد على قبر مكتوبا

إن الحبيب من الأحباب مختلس لا يمنع الموت بواب ولا حرس
فكيف تفرح بالدنيا ولذتها يامن يعد عليه اللفظ والنفس
أصبحت ياغافلا فى النقص منغمسا وأنت دهرك فى اللذات منغمس
لا يرحم الموت ذا جهل لغرته ولا الذى كان منه العلم يقتبس
كم أخرس الموت فى قبر وقفت به عن الجواب لسانا مابه خرس
قد كان قصرك معمورا له شرف فقبرك اليوم فى الأجداث مندرس

ووجد على قبر آخر مكتوبا :

وقفت على الأحبة حين صفت قبورهم كأفراس الرهان
فلما أن بكيت وفاض دمعي رأت عيناي بينهم مكاني

ووجد على قبر طبيب مكتوبا :

قد قلت لما قال لى قائل ... قد صار لقمان إلى رمسه
فأين مايوصف من طبّه ... وحذقه فى الماء مع جسّه
هيهات لايدفع عن غيره ... من كان لايدفع عن نفسه

ووجد على قبر آخر مكتوبا

ياأيها الناس كان لى أمل ... قصر بى عن بلوغه الأجل
فليتق اللهَ ربه رجلٌ ... أمكنه فى حياته العمل
ماأناوحدى نقلت حيث ترى ... كل إلى مثله سينتقل

فهذه أبيات كتبت على قبور لتقصير سكانها عن الاعتبار قبل الموت ، والبصير هو الذى ينظر إلى قبر غيره فيرى مكانه بين أظهرهم ، فيستعد للّحوق بهم ، ويعلم أنهم لايبرحون من مكانهم مالم يلحق بهم . وليتحقق أنه لو عرض عليهم يوم من أيام عمره الذى هو مضيع له لكان ذلك أحب إليهم من الدنيا بحذافيرها ، لأنهم عرفوا قدر الأعمال ، وانكشفت لهم حقائق الأمور . فإنما حسرتهم على يوم من العمر ليتدارك المقصّر به تقصيره فيتخلص من العقاب ، وليستزيد الموفق به رتبته فيتضاعف له الثواب فإنهم إنما عرفوا قدر العمر بعد انقطاعه ، فحسرتهم على ساعة من الحياة ، وأنت قادر على تلك الساعة ، ولعلك تقدر على أمثالها ، ثم أنت مضيع لها . فوطّن نفسك على التحسر على تضييعها عند خروج الأمر من الاختيار ، إذلم تأخذ نصيبك من ساعتك على سبيل الابتدار فقد قال بعض الصالحين : رأيت أخا لى فى الله فيما يرى النائم ، فقلت يافلان عشت الحمد لله رب العالمين ، قال لأن أقدر على أن أقولها ، يعنى الحمد لله رب العالمين ، أحب إليّ من الدنيا ومافيها . ثم قال : ألم تر حيث كانوا يدفنوننى ، فإن فلانا قدقام فصلى ركعتين ، لأن أكون أقدر على أن أصليهما أحب إليّ من الدنيا ومافيها

بيان

أقاويلهم عند موت الولد

حق على من مات ولده أو قريب من أقاربه ، أن ينزله فى تقدمه عليه فى الموت منزلة مالو كانا فى سفر ، فسبقه الولد إلى البلد الذى هو مستقره ووطنه ، فإنه لايعظم عليه تأسفه

لعلمه أنه لاحق به على القرب، وليس بينهما إلا تقدم وتأخر. وهكذا الموت فإن معناه السبق إلى الوطن ، إلى أن يلحق المتأخر . وإذا اعتقد هذا قلّ جزعه وحزنه ، لاسيما وقد ورد فى موت الولد من الثواب مايعزى به كل مصاب . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « لَأَنْ أُقَدِّمَ سَقْطاً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُخَلِّفَ مِائَةَ فَارِسٍ كُلُّهُمْ يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ » وإنما ذكر السقط تنبيها بالأدنى على الأعلى، وإلا فالثواب على قدر محل الولد من القلب

وقال زيد بن أسلم : توفى ابن لداود عليه السلام ، فحزن عليه حزنا شديدا ، فقيل له : ماكان عدله عندك؟ قال ملء الأرض ذهبا. قيل له : فإن لك من الأجر فى الآخرة مثل ذلك

احتساب الولد جنة من النار

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] «لاَ يَمُوتُ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثَلاَثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ فَيَحْتَسِبُهُمْ إِلَّا كَانُوا لَهُ جُنَّةً مِنَ النَّارِ » فقالت امرأة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أو اثنان ؟ قال « أَوِ اثْنَانِ »

وليخلص الوالد الدعاء لولده عند الموت ، فإنه أرجى دعاء وأقربه إلى الإجابة . وقف محمد ابن سليمان على قبر ولده فقال : اللهم إنى أصبحت أرجوك له ، وأخافك عليه ، فحقق رجائى وآمن خوفى . ووقف أبو سنان على قبر ابنه فقال : اللهم إنى قد غفرت له ماوجب لى عليه ، فاغفر له ماوجب لك عليه ، فإنك أجود وأكرم

ووقف أعرابي على قبر ابنه فقال : اللهم إنى قد وهبت له ماقصّر فيه من برّى . فهب له ماقصر فيه من طاعتك .

ولما مات ذر بن عمر بن ذر ، قال أبوه عمر بن ذر بعد ماوضعه فى لحده فقال : ياذر ، لقد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك ، فليت شعرى ماذا قلت وماذا قيل لك . ثم قال : اللهم إن هذا ذر ، متعتنى به مامتعتنى ، ووفيته أجله ورزقه ولم تظلمه . اللهم وقد كنت ألزمته طاعتك وطاعتى ، اللهم وما وعدتنى عليه من الأجر فى مصيبتى فقد وهبت له ذلك فهب لى عذابه ولا تعذبه. فأبكى الناس، ثم قال عند انصرافه : ماعلينا بعدك من خصاصة ياذر

---

(١) حديث لأن أقدم سقطا أحب الى من أن أخلف مائة فارس كلهم يقاتل فى سبيل الله : لم أجد فيه ذكر مائة فارس وروى ابن ماجه من حديث أبى هريرة لسقط أقدمه بين يدى أحب الى من فارس اخلفه خلفى

(٢) حديث لايموت لاحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيحتسبهم ـ الحديث : تقدم فى النكاح

وما بنا إلى إنسان مع الله حاجة ، فلقد مضينا وتركناك ، ولو أقمنا ما انفعناك

ونظر رجل إلى امرأة بالبصرة فقال : مارأيت مثل هذه النضارة ، وما ذاك إلا من قلة الحزن . فقالت ياعبد الله ، إنى لفى حزن مايشركنى فيه أحد . قال فكيف ؟ قالت إن زوجى ذبح شاة فى يوم عيد الأضحى ، وكان لى صبيّان مليحان يلعبان ، فقال أكبرهما للآخر . أتريد أن أريك كيف ذبح أبى الشاة ؟ قال نعم . فأخذه وذبحه ، وما شعرنا به إلا متشحّطا فى دمه . فلما ارتفع الصراخ هرب الغلام فلجأ إلى جبل ، فرهقه ذئب فأكله ، وخرج أبوه يطلبه ، فمات عطشا من شدة الحر . قالت فأردنى الدهر كما ترى

فأمثال هذه المصائب ينبغى أن تتذكر عند موت الأولاد ليتسلى بها عن شدة الجزع فما من مصيبة إلا ويتصور ماهو أعظم منها ، وما يدفعه الله فى كل حال فهو الأكثر

بيان

زيارة القبور والدعاء للميت وما يتعلق به

زيارة القبور مستحبة على الجملة للتذكر والاعتبار . وزيارة قبور الصالحين مستحبة لأجل التبرك مع الاعتبار . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] نهى عن زيارة القبور ثم أذن فى ذلك بعد . روي عن علي رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] أنه قال « كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ اَلْقُبُورِ فَزُورُوهَا فَإِنَّهَا تُذَكِّرُكُمْ الْآخِرَةَ غَيْرَ أَنْ لَا تَقُولُوا هُجْرًا » . [٣] وزار رسول الله صلى الله عليه وسلم قبر أمه فى ألف مقنع ، فلم يُرَ باكيا أكثر من يومئذ [٤] وفى هذا اليوم قال « أُذِنَ لِى فِى الزِّيَارَةِ دُونَ الاسْتِغْفَارِ »

---

(١) حديث نهيه عن زيارة القبور ثم اذنه فى ذلك : مسلم من حديث بريدة وقد تقدم

(٢) حديث علي كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فانها تذكركم الآخرة غير أن لاتقولوا هجرا : رواه أحمد وابو يعلى فى مسنده وابن أبى الدنيا فى كتاب القبور واللفظ له ولم يقل أحمد وأبو يعلى غير ان لاتقولوا هجرا وفيه علي بن زيد بن جدعان عن ربيعة بن النابغة قال البخارى لم يصح وربيعة ذكره ابن حبان فى الثقات

(٣) حديث زار رسول الله صلى الله عليه وسلم قبر أمه فى ألف مقنع فلم ير باكيا أكثر من يومئذ : ابن أبى الدنيا فى كتاب القبور من حديث بريدة وشيخه أحمد بن عمران الأخنس متروك ورواه بنحوه من وجه آخر كنا معه قريبا من ألف راكب وفيه انه لم يؤذن له فى الاستغفار لها

(٤) حديث وقال فى هذا اليوم أذن لى فى الزيارة دون الاستغفار : تقدم فى الحديث قبله من حديث بريدة

كما أوردنا من قبل . وقال [١] ابن أبي مليكة : أقبلت عائشة رضي الله عنها يوما من المقابر، فقلت يأم المؤمنين من أين أقبلت ؟ قالت من قبر أخي عبد الرحمن . فقلت أليس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنها ؟ قالت : نعم ثم أمر بها

ليس للنساء زيارة القبور في زماننا

ولا ينبغي أن يتمسك بهذا فيؤذن للنساء في الخروج إلى المقابر ، فإنهن يكثرن الهجر على رءوس المقابر ، فلا يفي خير زيارتهن بشرّها، ولا يخلون في الطريق عن تكشف وتبرج وهذه عظائم ، والزيارة سنة ، فكيف يحتمل ذلك لأجلها ؟ نعم لا بأس بخروج المرأة في ثياب بذلة ترد أعين الرجال عنها، وذلك بشرط الاقتصار على الدعاء، وترك الحديث على رأس القبر . وقال [٢] أبو ذر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « زُرِ الْقُبُورَ تَذْكُرْ بِهَا الْآخِرَةَ وَاغْسِلِ الْمَوْتَى فَإِنَّ مُعَالَجَةَ جَسَدٍ خَاوٍ مَوْعِظَةٌ بَلِيغَةٌ وَصَلِّ عَلَى الْجَنَائِزِ لَعَلَّ ذَلِكَ أَنْ يُحْزِنَكَ فَإِنَّ الْحَزِينَ فِي ظِلِّ اللهِ »

وقال ابن أبي مليكة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم [٣] « زُورُوا مَوْتَاكُمْ وَسَلِّمُوا عَلَيْهِمْ فَإِنَّ لَكُمْ فِيهِمْ عِبْرَةً »

وعن نافع ، أن ابن عمر كان لا يمر بقبر أحد إلا وقف عليه وسلّم عليه

وعن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، أن فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم كانت تزور قبر عمها حمزة في الأيام ، فتصلي وتبكي عنده

وقال النبي صلى الله عليه وسلم [٤] « مَنْ زَارَ قَبْرَ أَبَوَيْهِ أَوْ أَحَدِهِمَا فِي كُلِّ جُمُعَةٍ

انه لم يؤذن له في الاستغفار لها ورواه مسلم من حديث أبي هريرة استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي واستأذنت أن أزور قبرها فأذن لي

(١) حديث ابن أبي مليكة أقبلت عائشة يوما من المقابر فقلت يأم المؤمنين من أين أقبلت قالت من قبر أخي عبد الرحمن قلت أليس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنها قالت نعم ثم أمر بها : ابن أبي الدنيا في القبور باسناد جيد

(٢) حديث أبي ذر زر القبور تذكر الآخرة واغسل الموتى فان معالجة جسد خاو موعظة بليغة ـ الحديث : ابن أبي الدنيا في القبور والحاكم باسناد جيد

(٣) حديث ابن أبي مليكة زوروا موتاكم وسلموا عليهم وصلوا عليهم ـ الحديث : ابن أبي الدنيا فيه هكذا مرسلا واسناده حسن

(٤) حديث من زار قبر أبويه أو أحدهما في كل جمعة غفر له وكتب برا : الطبراني في الصغير والاوسط من حديث أبي هريرة وابن أبي الدنيا في القبور من رواية محمد بن النعمان يرفعه وهو معضل ومحمد

غُفِرَ لَهُ وَكُتِبَ بَرًّا » . وعن ابن سيرين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَمُوتُ وَالِدَاهُ وَهُوَ عَاقٌّ لَهُمَا فَيَدْعُو اللهَ لَهُمَا مِنْ بَعْدِهِمَا فَيَكْتُبُهُ اللهُ مِنَ الْبَارِّينَ » . وقال النبي صلى الله عليه وسلم [٢] « مَنْ زَارَ قَبْرِي فَقَدْ وَجَبَتْ لَهُ شَفَاعَتِي »

وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « مَنْ زَارَنِي بِالْمَدِينَةِ مُحْتَسِباً كُنْتُ لَهُ شَفِيعاً وَشَهِيداً يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . وقال كعب الأحبار . ما من فجر يطلع إلا نزل سبعون ألفا من الملائكة حتى يحفوا بالقبر ، يضربون بأجنحتهم ويصلون على النبي صلى الله عليه وسلم ؛ حتى إذا أمسوا عرجوا وهبط مثلهم ، فصنعوا مثل ذلك ، حتى إذا انشقت الأرض خرج فى سبعين ألفا من الملائكة يوقرونه .

المستحب فى زيارة القبور

والمستحب فى زيارة القبور أن يقف مستدبر القبلة، مستقبلا بوجه الميت، وأن يسلم ، ولا يمسح القبر ، ولا يمسه، ولا يقبله. فإن ذلك من عادة النصارى قال نافع : كان ابن عمر رأيته مائة مرة أو أكثر، يجيء إلى القبر فيقول. السلام على النبي السلام على أبى بكر. السلام على أبى، وينصرف

وعن أبى أمامة قال : رأيت أنس بن مالك أتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم فوقف، فرفع يديه حتى ظننت أنه افتتح الصلاة ، فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ثم انصرف

استئناس الميت بالزيارة له

وقالت عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٤] « مَا مِنْ رَجُلٍ يَزُورُ قَبْرَ أَخِيهِ وَيَجْلِسُ عِنْدَهُ إِلاَّ اسْتَأْنَسَ بِهِ وَرَدَّ عَلَيْهِ حَتَّى يَقُومَ »

وقال سليمان بن سحيم ، رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم ، فقلت يارسول الله ، هؤلاء الذين يأتونك ويسلمون عليك ، أتفقه سلامهم ؟ قال نعم وأردّ عليهم

ابن النعمان مجهول وشيخه عند الطبرانى يحي بن العلاء البجلى متروك

(١) حديث ابن سيرين أن الرجل ليموت والداه وهو عاق لهما فيدعو الله لهما من بعدهما فيكتبه الله من البارين: ابن أبى الدنيا فيه وهو مرسل صحيح الاسناد ورواه ابن عدى من رواية يحي بن عقبة ابن أبى العيزار عن محمد بن حجادة عن أنس قال ورواه الصلت بن الحجاج عن ابن حجاده عن قتادة عن أنس ويحي بن عقبة والصلت بن الحجاج كلاهما ضعيف

(٢) حديث من زار قبرى فقد وجبت له شفاعتى : تقدم فى أسرار الحج

(٣) حديث من زارنى بالمدينة محتسبا كنت له شفيعا وشهيدا يوم القيامة : تقدم فيه

(٤) حديث عائشة مامن رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده الا استأنس به ورد عليه حتى يقوم : ابن أبى الدنيا فى القبور وفيه عبد الله بن سمعان ولم أقف على حاله ورواه ابن عبد البر فى التمهيد من حديث ابن عباس نحوه وصححه عبد الحق الاشبيلى

الميت يرد السلام

وقال أبو هريرة . إذا مرّ الرجل بقبر الرجل يعرفه فسلّم عليه رد عليه السلام وعرفه . وإذا مرّ بقبر لا يعرفه وسلّم عليه ، رد عليه السلام

وقال رجل من آل عاصم الجحدرى : رأيت عاصما فى منامى بعد موته بسنتين ، فقلت أليس قد متّ ؟ قال بلى . فقلت أين أنت ؟ فقال أنا والله فى روضة من رياض الجنة أنا ونفر من أصحابى ، نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى أبى بكر بن عبد الله المزنى ، فنتلاقى أخباركم . قلت أجسامكم أم أرواحكم ؟ قال هيهات بليت الأجسام ، وإنما تتلاقى الأرواح . قال قلت فهل تعلمون بزيارتنا إيا كم ؟ قال نعم نعلم بها عشيّة الجمعة ، ويوم الجمعة كله ، ويوم السبت إلى طلوع الشمس . قلت وكيف ذاك دون الأيام كلها . قال لفضل يوم الجمعة وعظمه

وكان محمد بن واسع يزور يوم الجمعة ، فقيل له لو أخرت إلى يوم الإثنين . قال بلغنى أن الموتى يعلمون بزوّارهم يوم الجمعة ، ويوما قبله ، ويوما بعده

فضل يوم الجمعة

وقال الضحاك : من زار قبرا قبل طلوع الشمس يوم السبت علم الميت بزيارته . قيل وكيف ذاك ، قال لمكان يوم الجمعة

وقال بشر بن منصور . لما كان زمن الطاعون كان رجل يختلف إلى الجبانة فيشهد الصلاة على الجنائز ، فإذا أمسى وقف على باب المقابر فقال . آنس الله وحشتكم ، ورحم غربتكم وتجاوز عن سيئاتكم ، وقبل الله حسناتكم . لا يزيد على هذه الكلمات . قال الرجل . فأمسيت ذات ليلة ، فانصرفت إلى أهلى ، ولم آت المقابر فأدعو كما كنت أدعو ، فبينما أنا نائم ، إذا بخلق كثير قد جاءونى ، فقلت ما أنتم ، وما حاجتكم ؟ قالوا : نحن أهل المقابر قلت ما جاء بكم ، قالوا : إنك قد عودتنا منك هدية عند انصرافك إلى أهلك . قلت وما هي ؟ قالوا الدعوات التى كنت تدعو لنا بها . قلت فإنى أعود لذلك . فما تركتها بعد ذلك

وقال بشار بن غالب النجرانى : رأيت رابعة العدوية العابدة فى منامى ، وكنت كثير الدعاء لها ، فقالت لى يا بشار بن غالب هداياك تأتينا على أطباق من نور ، مخمرة بمناديل الحرير قلت : وكيف ذاك ؟ قالت وهكذا دعاء المؤمنين الأحياء إذا دعوا للموتى فاستجيب لهم جعل ذلك الدعاء على أطباق النور ، وخمر بمناديل الحرير ، ثم أتي به الميت ، فقيل له هذه

انتفاع الميت بالدعاء له

هدية فلان إليك . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] « مَا الْمَيِّتُ فِي قَبْرِهِ إِلَّا كَالْغَرِيقِ الْمُتَغَوِّثِ يَنْتَظِرُ دَعْوَةً تَلْحَقُهُ مِنْ أَبِيهِ أَوْ أَخِيهِ أَوْ صَدِيقٍ لَهُ فَإِذَا لَحِقَتْهُ كَانَتْ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا وَإِنَّ هَدَايَا الْأَحْيَاءِ لِلْأَمْوَاتِ الدُّعَاءُ وَالاسْتِغْفَارُ »

وقال بعضهم : مات أخ لى ، فرأيته فى المنام فقلت ما كان حالك حيث وضعت فى قبرك؟ قال أتانى آت بشهاب من نار ، فلولا أن داعيا دعا لى لرأيت أنه سيضربنى به

ومن هذا يستحب تلقين الميت بعد الدفن والدعاء له . قال[2] سعيد بن عبد الله الأزدى : شهدت أبا أمامة الباهلي وهو فى النزع ، فقال ياسعيد ، إذا مت فاصنعوا بى كما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ فَسَوَّيْتُمْ عَلَيْهِ التُّرَابَ فَلْيَقُمْ أَحَدُكُمْ عَلَى رَأْسِ قَبْرِهِ ثُمَّ يَقُولُ يَافُلَانُ ابْنُ فُلَانَةَ فَإِنَّهُ يَسْمَعُ وَلَا يُجِيبُ ثُمَّ لِيَقُلْ يَافُلَانُ بْنُ فُلَانَةَ الثَّانِيَةَ فَإِنَّهُ يَسْتَوِى قَاعِدًا ثُمَّ لِيَقُلْ يَافُلَانُ بْنُ فُلَانَةَ الثَّالِثَةَ فَإِنَّهُ يَقُولُ أَرْشِدْنَا يَرْحَمْكَ اللهُ وَلَكِنْ لَاتَسْمَعُونَ فَيَقُولُ لَهُ اذْكُرْ مَاخَرَجْتَ عَلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ وَأَنَّكَ رَضِيتَ بِاللهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِيناً وَبِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَبِيًّا وَبِالْقُرْءَانِ إِمَاماً فَإِنَّ مُنْكَراً وَنَكِيراً يَتَأَخَّرُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فَيَقُولُ انْطَلِقْ بِنَا مَايُقْعِدُنَا عِنْدَ هَذَا وَقَدْ لُقِّنَ حُجَّتَهُ وَيَكُونُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ حَجِيجَهُ دُونَهُمَا » فقال رجل يارسول الله ، فإن لم يعرف اسم أمه ؟ قال فلينسبه إلى حواء

ولا بأس بقراءة القرءان على القبور . روي عن علي بن موسى الحداد قال : كنت مع أحمد بن حنبل فى جنازة ، ومحمد بن قدامة الجوهرى معنا ، فلما دفن الميت جاء رجل

---

(١) حديث ماالميت فى قبره الا كالغريق المتغوث ينتظر دعوة تلحقه من أبيه أومن أخيه أوصديق له الحديث : أبومنصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عباس وفيه الحسن بن على ابن عبد الواحد قال الذهبي حدث عن هشام بن عمار بحديث باطل

(٢) حديث سعيد بن عبد الله الازدى قال شهدت أبا أمامة الباهلى ـ وهو فى النزع فقال ياسعيد اذامت فاصنعوابى كماأمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اذامات أحدكم فسويتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره ثم يقول يافلان ابن فلانة ـ الحديث : فى تلقين الميت فى قبره الطبرانى هكذا باسناد ضعيف

ضرير يقرأ عند القبر، فقال له احمد: ياهذا إن القراءة عند القبر بدعة فلما خرجنا من المقابر قال محمد بن قدامة لأحمد: ياأبا عبد الله، ما تقول فى مبشر بن اسماعيل الحلبي؟ قال ثقة. قال هل كتبت عنه شيئا؟ قال نعم. قال أخبرنى مبشر بن اسماعيل، عن عبد الرحمن بن العلاء بن اللاجلاج، عن أبيه، أنه أوصى إذا دفن أن يقرأ عند رأسه فاتحة البقرة وخاتمتها. وقال: سمعت ابن عمر يوصى بذلك. فقال له أحمد. فارجع إلى الرجل فقل له يقرأ. وقال محمد بن أحمد المروزى. سمعت أحمد بن حنبل يقول: إذا دخلتم المقابر فاقرءوا بفاتحة الكتاب، والمعوذتين، وقل هو الله أحد، واجعلوا ثواب ذلك لأهل المقابر فإنه يصل إليهم. وقال أبو قلابة: أقبلت من الشام إلى البصرة، فنزلت الخندق، فتطهرت وصليت ركعتين بليل، ثم وضعت رأسى على قبر فنمت، ثم تنبهت، فإذا صاحب القبر يشتكيني يقول: لقد آذيتنى منذ الليلة، ثم قال: إنكم لاتعلمون ونحن نعلم ولا نقدر على العمل. ثم قال: للركعتان اللتان ركعتهما خير من الدنيا وما فيها. ثم قال: جزى الله عنا أهل الدنيا خيرا، اقرئهم السلام، فإنه قد يدخل علينا من دعائهم نور أمثال الجبال

فالمقصود من زيارة القبور للزائر الاعتبار بها، وللمزور الانتفاع بدعائه، فلا ينبغى أن يغفل الزائر عن الدعاء لنفسه وللميت، ولا عن الاعتبار به. وإنما يحصل له الاعتبار بأن يصور فى قلبه الميت كيف تفرقت أجزاؤه، وكيف يبعث من قبره، وأنه على القرب سيلحق به، كما روي عن مطرف بن أبى بكر الهذلى قال. كانت عجوز فى عبد القيس متعبدة، فكان إذا جاء الليل تحزمت ثم قامت إلى المحراب، وإذا جاء النهار خرجت إلى القبور. فبلغنى أنها عوتبت فى كثرة إتيانها المقابر فقالت: إن القلب القاسى إذا جفا لم يلينه إلا رسوم البلى، وإنى لآتى القبور فكأنى أنظر وقد خرجوا من بين أطباقها، وكأنى أنظر إلى تلك الوجوه المتعفرة، وإلى تلك الأجسام المتغيرة، وإلى تلك الأجفان الدسمة، فيالها من نظرة لو أشربها العباد قلوبهم ما أنكل مرارتها للأنفس، وأشد تلفها للأبدان. بل ينبغى أن يحضر من صورة الميت ما ذكره عمر بن عبد العزيز، حيث دخل عليه فقيه، فتعجب من تغير صورته لكثرة الجهد والعبادة، فقال له يافلان، لو رأيتني

بعد ثلاث وقد أدخلت قبري ، وقد خرجت الحدقتان فسالتا على الخدين ، وتقلصت الشفتان عن الأسنان ، وخرج الصديد من الفم ، وانفتح الفم ، ونتأ البطن فعلا الصدر ، وخرج الصلب من الدبر ، وخرج الدود والصديد من المناخر ، لرأيت أعجب مما تراه الآن

استحباب الثناء على الميت

ويستحب الثناء على الميت ، وألا يذكر إلا بالجميل . قالت عائشة رضي الله عنها . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « إِذَا مَاتَ صَاحِبُكُمْ فَدَعُوهُ وَلَا تَقَعُوا فِيهِ » وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « لَا تَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا » وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « لَا تَذْكُرُوا مَوْتَاكُمْ إِلَّا بِخَيْرٍ فَإِنَّهُمْ إِنْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ تَأْثَمُوا وَإِنْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَحَسْبُهُمْ مَا هُمْ فِيهِ »

وقال [٤] أنس بن مالك : مرت جنازة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأثنوا عليها شرا ، فقال عليه السلام « وَجَبَتْ » ومروا بأخرى ، فأثنوا عليها خيرا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وَجَبَتْ » فسأله عمر عن ذلك فقال « إِنَّ هَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا فَوَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ وَهَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا فَوَجَبَتْ لَهُ النَّارُ وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ »

وقال [٥] أبو هريرة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ الْعَبْدَ لَيَمُوتُ فَيُثْنِي عَلَيْهِ الْقَوْمُ الثَّنَاءَ يَعْلَمُ اللَّهُ مِنْهُ غَيْرَهُ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِمَلَائِكَتِهِ أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ قَبِلْتُ شَهَادَةَ عَبِيدِي عَلَى عَبْدِي وَتَجَاوَزْتُ عَنْ عِلْمِي فِي عَبْدِي »

---

(١) حديث إذامات صاحبكم فدعوه ولا تقعوا فيه : أبوداود من حديث عائشة باسناد جيد

(٢) حديث لاتسبوا الأموات فانهم قدأفضوا الى ماقدموا : البخارى من حديث عائشة ايضا

(٣) حديث لاتذكروا موتاكم الابخير ـ الحديث : ابن أبي الدنيا فى الموت هكذا باسناد ضعيف من حديث عائشة وهو عند النسائى من حديث عائشة جيد مقتصرا على ماذكر منه هنا بلفظ هلكاكم وذكره بالزيادة صاحب مسند الفردوس وعلم عليه علامة النسائى والطبرانى

(٤) حديث أنس مرت جنازة علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأثنوا عليها شرا فقال وجبت ـ الحديث : متفق عليه

(٥) حديث أبى هريرة ان العبد ليموت فيثني عليه القوم الثناء يعلم الله منه غير ذلك ـ الحديث : أحمد من رواية شيخ من أهل البصرة عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم يرويه عن ربه عزوجل مامن عبد مسلم يموت فيشهدله ثلاث أبيات من جيرانه الأدنين بخير الاقال الله عزوجل قدقبلت شهادة عبادي على ماعلموا وغفرت له ماأعلم

الباب السّابع

فى حقيقة الموت وما يلقاه الميت فى القبر إلى نفخة الصور

بيان

حقيقـــــة الموت

اعلم أن للناس فى حقيقة الموت ظنونا كاذبة قد أخطؤا فيها . فظن بعضهم أن الموت هو العدم ، وأنه لاحشر ولا نشر ، ولا عاقبة للخير والشر ، وأن موت الإنسان كموت الحيوانات وجفاف النبات ، وهذا رأي الملحدين . وكل من لا يؤمن بالله واليوم الآخر

وظنّ قوم أنه ينعدم بالموت ، ولا يتألم بعقاب ، ولا يتنعم بثواب مادام فى القبر ، إلى أن يعاد فى وقت الحشر

وقال آخرون : إن الروح باقية لاتنعدم بالموت ، وإنما المثاب والمعاقب هي الأرواح دون الأجساد ، وإن الأجساد لاتبعث ولا تحشر أصلا

وكل هذه ظنون فاسدة ومائلة عن الحق . بل الذى تشهد له طرق الاعتبار ، وتنطق به الآيات والأخبار ، أن الموت معناه تغير حال فقط ، وأن الروح باقية بعد مفارقة الجسد إما معذبة وإما منعمة . ومعنى مفارقتها للجسد انقطاع تصرفها عن الجسد بخروج الجسد عن طاعتها ، فإن الأعضاء آلات للروح تستعملها ، حتى أنها لتبطش باليد، وتسمع بالأذن وتبصر بالعين ، وتعلم حقيقة الأشياء بالقلب . والقلب ههنا عبارة عن الروح ، والروح تعلم الأشياء بنفسها من غير آلة ، ولذلك قد يتألم بنفسه بأنواع الحزن ، والغم ، والكمد ويتنعم بأنواع الفرح والسرور ، وكل ذلك لا يتعلق بالأعضاء . فكل ماهو وصف للروح بنفسها فيبقى معها بعد مفارقة الجسد ، وما هو لها بواسطة الأعضاء فيتعطل بموت الجسد إلى أن تعاد الروح إلى الجسد ، ولا يبعد أن تعاد الروح إلى الجسد فى القبر ولا يبعد أن تؤخر إلى يوم البعث والله أعلم بما حكم به على كل عبد من عباده

وإنما تعطلُ الجسد بالموت يضاهى تعطل أعضاء الزمن بفساد مزاج يقع فيه ، وبشدة

تفع فى الأعصاب تمنع نفوذ الروح فيها ، فتكون الروح العالمة ، العاقلة ، المدركة ، باقية مستعملة لبعض الأعضاء ، وقد استعصى عليها بعضها والموت عبارة عن استعصاء الأعضاء كلها وكل الأعضاء آلات ، والروح هي المستعملة لهـا . وأعنى بالروح المعنى الذى يدرك من الإنسان العلوم ، وآلام الغموم ، ولذّات الأفراح . ومهما بطل تصرفها فى الأعضاء لم تبطل منها العلوم والإدراكات ، ولا بطل منها الأفراح والغموم ، ولا بطل منها قبولها للآلام واللذات . والإنسان بالحقيقة هو المعنى المدرك للعلوم وللآلام واللذات وذلك لايموت ، أي لاينعدم ومعنى الموت انقطاع تصرفه عن البدن ، وخروج البدن عن أن يكون آلة له ، كما أن معنى الزمانة خروج اليد عن أن تكون آله مستعملة . فالموت زمانة مطلقة فى الأعضاء كلها . وحقيقة الإنسان نفسه وروحه ، وهي باقية . نعم تغير حاله من جهتين .

إحداهما : أنه سلب منه عينه ، وأذنه ، ولسانه ، ويده ، ورجله ، وجميع أعضائه . وسلب منه أهله ، وولده ، وأقاربه ، وسائر معارفه : وسلب منه خيله ، ودوابه وغلمانه ، ودوره ، وعقاره ، وسائر أملاكه . ولا فرق بين أن تسلب هذه الأشياء من الإنسان ، وبين أن يسلب الإنسان من هذه الأشياء ، فإن المؤلم هو الفراق ، والفراق يحصل تارة بأن ينهب مال الرجل ، وتارة بأن يسبي الرجل عن الملك والمال ، والألم واحد فى الحالتين . وإنما معنى الموت سلب الإنسان عن أمواله بإزعاجه إلى عالم آخر لايناسب هذا العالم . فإن كان له فى الدنيا شيء يأنس به ويستريح إليه ، ويعتد بوجوده ، فيعظم تحسره عليه بعد الموت ، ويصعب شقاؤه فى مفارقته ، بل يلتفت قلبه إلى واحد واحد من ماله ، وجاهه ، وعقاره ، حتى إلى قميص كان يلبسه مثلا ويفرح به . وإن لم يكن يفرح إلا بذكر الله ، ولم يأنس إلا به ، عظم نعيمه ، وتمت سعادته ، إذ خلى بينه وبين محبوبه ، وقطعت عنه العوائق والشواغل ، إذ جميع أسباب الدنيا شاغلة عن ذكر الله . فهذا أحد وجهي المخالفة بين حال الموت وحال الحياة

والثاني : أنه ينكشف له بالموت مالم يكن مكشوفا له فى الحياة ، كما قد ينكشف للمتيقظ

مالم يكن مكشوفا فى النوم . والناس نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا . وأول ما ينكشف له مايضره وينفعه من حسناته وسيئاته ، وقد كان ذلك مسطورا فى كتاب مطوى فى سر قلبه ، وكان يشغله عن الاطلاع عليه شواغل الدنيا . فإذا انقطعت الشواغل انكشف له جميع أعماله ، فلا ينظر إلى سيئة إلا ويتحسر عليها تحسرا يؤثر أن يخوض غمرة النار للخلاص من تلك الحسرة، وعند ذلك يقال له (كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً [1]) وينكشف كل ذلك عند انقطاع النفس ، وقبل الدفن ، وتشتعل فيه نيران الفراق ، أعنى فراق ما كان يطمئن إليه من هذه الدنيا الفانية ، دون ما أراد منها لأجل الزاد والبلغة ، فإن من طلب الزاد للبلغة فإذا بلغ المقصد فرح بمفارقته بقية الزاد ، إذ لم يكن يريد الزاد لعينه ، وهذا حال من لم يأخذ من الدنيا إلا بقدر الضرورة ، وكان يود أن تنقطع ضرورته ليستغنى عنه ، فقد حصل ما كان يوده ، واستغنى عنه

وهذه أنواع من العذاب والآلام عظيمة ، تهجم عليه قبل الدفن ، ثم عند الدفن قد ترد روحه إلى الجسد لنوع آخر من العذاب . وقد يعفى عنه . ويكون حال المتنعم بالدنيا ، المطمئن إليها ، كحال من تنعم عند غيبة ملك من الملوك فى داره ، وملكه ، وحريمه ، اعتمادا على أن الملك يتساهل فى أمره ، أو على أن الملك ليس يدرى ما يتعاطاه من قبيح أفعاله ، فأخذه الملك بغتة ، وعرض عليه جريدة قد دونت فيها جميع فواحشه وجناياته ذرة ذرة ، وخطوة خطوة ، والملك قاهر متسلط ، وغيور على حرمه ، ومنتقم من الجناة على ملكه وغير ملتفت إلى من يتشفع إليه فى العصاة عليه . فانظر إلى هذا المأخوذ كيف يكون حاله قبل نزول عذاب الملك به من الخوف ، والخجلة ، والحياء ، والتحسر ، والندم . فهذا حال الميت الفاجر المغتر بالدنيا ، المطمئن إليها ، قبل نزول عذاب القبر به ، بل عند موته نعوذ بالله منه ، فإن الخزي والافتضاح وهتك الستر أعظم من كل عذاب يحل بالجسد من الضرب والقطع ، وغيرهما . فهذه إشارة إلى حال الميت عند الموت ، شاهدها أولو البصائر بمشاهدة باطنة أقوى من مشاهدة العين . وشهد لذلك شواهد الكتاب والسنة . نعم لا يمكن كشف الغطاء عن كنه حقيقة الموت ، إذ لا يعرف الموت من لا يعرف الحياة ، ومعرفة الحياة بمعرفة

---

(١) الاسراء : ١٤

حقيقة الروح فى نفسها ، وإدراك ما هية ذاتها [١] ولم يؤذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتكلم فيها ، ولا أن يزيد على أن يقول : الروح من أمر ربى ، فليس لأحد من علماء الدين أن يكشف عن سر الروح وإن اطلع عليه ، وإنما المأذون فيه ذكر حال الروح بعد الموت

ويدل على أن الموت ليس عبارة عن انعدام الروح وانعدام إدراكها آيات وأخبار كثيرة

عدم انعدام الروح بالموت

أما الآيات : فما ورد فى الشهداء ، إذ قال تعالى (وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ [١]) ولما [٢] قتل صناديد قريش يوم بدر ناداهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يَافُلاَنُ يَافُلاَنُ يَافُلاَنُ قَدْ وَجَدْتُ مَاوَعَدَنِى رَبِّى حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَاوَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا » فقيل يارسول الله أتناديهم وهم أموات ! فقال صلى الله عليه وسلم « وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ إِنَّهُمْ لَأَسْمَعُ لِهٰذَا الْكَلاَمِ مِنْكُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ لاَ يَقْدِرُونَ عَلَى الْجَوَابِ » فهذا نص فى بقاء روح الشقي ، وبقاء إدراكها ومعرفتها والآية نص فى أرواح الشهداء ؛ ولا يخلو الميت عن سعادة أو شقاوة

وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « اَلْقَبْرُ إِمَّا حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ أَوْ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ » وهذا نص صريح على أن الموت معناه تغير حال فقط ، وأن ما سيكون من شقاوة الميت وسعادته يتعجل عند الموت من غير تأخر ، وإنما يتأخر بعض أنواع العذاب والثواب دون أصله

وروى [٤] أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « اَلْمَوْتُ اَلْقِيَامَةُ فَمَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ »

﴿ الباب السابع فى حقيقة الموت ومايلقاه الميت فى القبر ﴾

(١) حديث انه لم يؤذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ان يتكلم فى الروح : متفق عليه من حديث ابن مسعود فى سؤال اليهود له عن الروح ونزول قوله تعالى ويسئلونك عن الروح وقد تقدم

(٢) حديث ندائه من قتل من صناديد قريش يوم بدر يافلان قد وجدت ماوعدنى ربى حقا ـ الحديث : مسلم من حديث عمر بن الخطاب

(٣) حديث القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة : الترمذى من حديث أبى سعيد وتقدم فى الرجاء والخوف

(٤) حديث أنس الموت القيامة من مات فقد قامت قيامته : ابن أبى الدنيا فى الموت باسناد ضعيف وقد تقدم

---

(١) آل عمران : ١٦٩

رؤية الميت مقعده

وقال صلى الله عليه وسلم [(١)] « إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ غُدْوَةً وَعَشِيَّةً إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنَ الْجَنَّةِ وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنَ النَّارِ وَيُقَالُ هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى تُبْعَثَ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وليس يخفى مافى مشاهدة المقعدين من عذاب ونعيم فى الحال

وعن أبى قيس قال كنا مع علقمة فى جنازة ، فقال : أما هذا فقد قامت قيامته

وقال علي كرم الله وجهه : حرام على نفس أن تخرج من الدنيا حتى تعلم من أهل الجنة هي أم من أهل النار

وقال [(٢)] أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ مَاتَ غَرِيبًا مَاتَ شَهِيدًا وَوُقِيَ فَتَّانَاتِ الْقَبْرِ وَغُدِيَ وَرِيحَ عَلَيْهِ بِرِزْقِهِ مِنَ الْجَنَّةِ »

وقال مسروق : ماغبطت أحدا ماغبطت مؤمنا فى اللحد ، قد استراح من نصب الدنيا ، وأمن عذاب الله

وقال يعلى بن الوليد : كنت أمشى يوما مع أبى الدرداء ، فقلت له . ما تحب لمن تحب ؟ قال الموت .قلت فإن لم يمت ! قال يقلّ ماله وولده . وإنما أحب الموت لأنه لايحبه إلا المؤمن والموت إطلاق المؤمن من السجن . وإنما أحب قلة المال والولد لأنه فتنة وسبب للأنس بالدنيا ، والأنس بمن لابدّ من فراقه غاية الشقاء ، فكل ما سوى الله ،وذكره، والأنس به فلا بد من فراقه عند الموت لامحالة . ولهذا قال عبد الله بن عمرو : إنما مثل المؤمن حين تخرج نفسه أو روحه مثل رجل بات فى سجن فأخرج منه ، فهو يتفسح فى الأرض ويتقلب فيها . وهذا الذى ذكره حال من تجافى عن الدنيا وتبرّم بها ، ولم يكن له أنس إلا بذكر الله تعالى ، وكانت شواغل الدنيا تحبسه عن محبوبه ، ومقاساة الشهوات تؤذيه ، فكان فى الموت خلاصه من جميع المؤذيات ، وانفراده بمحبوبه الذى كان به أنسه من غير عائق ولا دافع ، وما أجدر ذلك بأن يكون منتهى النعيم واللذّات

---

(١) حديث إذامات أحدكم عرض عليه مقعده بالغداة والعشى ـ الحديث: متفق عليه من حديث ابن عمر

(٢) حديث أبى هريرة من مات غريبا مات شهيدا ووقى فتانى القبر : ابن ماجه بسند ضعيف وقال فتنة القبر وقال ابن أبى الدنيا فتان

وأكمل اللذّات للشهداء الذين قتلوا فى سبيل الله، لأنهم ما أقدموا على القتال إلا قاطعين التفاتهم عن علائق الدنيا ، مشتاقين إلى لقاء الله . راضين بالقتل فى طلب مرضاته . فإن نظر إلى الدنيا فقد باعها طوعا بالآخرة ، والبائع لا يلتفت قلبه إلى المبيع . وإن نظر إلى الآخرة فقد اشتراها وتشوّق إليها ، فما أعظم فرحه بما اشتراه إذا رآه ، وما أقلّ التفاته إلى ما باعه إذا فارقه . وتجرد القلب لحب الله تعالى قد يتفق فى بعض الأحوال ، ولكن لا يدركه الموت عليه فيتغير ، والقتال سبب للموت ، فكان سببا لإدراك الموت على مثل هذه الحالة

فهذا عظم النعيم ، إذ معنى النعيم أن ينال الإنسان مايريده . قال الله تعالى (وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ [١]) فكان هذا أجمع عبارة لمعانى لذات الجنة

وأعظم العذاب أن يمنع الإنسان عن مراده ، كما قال الله تعالى (وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَايَشْتَهُونَ [٢]) فكان هذا أجمع عبارة لعقوبات أهل جهنم

وهذا النعيم يدركه الشهيد كما انقطع نفسه من غير تأخير ، وهذا أمر انكشف لأرباب القلوب بنور اليقين ، وإن أردت عليه شهادة من جهة السمع فجميع أحاديث الشهداء تدل عليه ، وكل حديث يشتمل على التعبير عن منتهى نعيمهم بعبارة أخرى : فقد روي عن[١] عائشة رضي الله عنها أنها قالت . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجابر « أَلاَ أُبَشِّرُكَ يَاجَابِرُ » وكان قد استشهد أبوه يوم أحد ، فقال بلى بشرك الله بالخير . فقال « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَحْيَا أَبَاكَ وَأَقْعَدَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَقَالَ تَمَنَّ عَلَيَّ عَبْدِي مَا شِئْتَ أُعْطِيكَهُ فَقَالَ يَارَبِّ مَا عَبَدْتُكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ أَتَمَنَّى عَلَيْكَ أَنْ تَرُدَّنِي إِلَى الدُّنْيَا فَأُقَاتِلَ مَعَ نَبِيِّكَ فَأُقْتَلَ فِيكَ مَرَّةً أُخْرَى قَالَ لَهُ إِنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنِّى أَنَّكَ إِلَيْهَا لاَتَرْجِعُ »

وقال كعب : يوجد رجل فى الجنة يبكى ، فيقال له لم تبكى وأنت فى الجنة ؟ قال أبكى لأنى لم أقتل فى الله إلا قتلة واحدة ، فكنت أشتهى أن أردّ فأقتل فيه قتلات

---

(١) حديث عائشة ألا أبشرك ياجابر ـ الحديث : وفيه ان الله أحيا أباك فأقعده بين يديه ـ الحديث : ابن أبى الدنيا فى الموت باسناد فيه ضعف وللترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث جابر ألا أبشرك بمالقى الله به أباك قال بلى يارسول الله ـ الحديث : وفيه فقال ياعبدى تمن على أعطك قال يارب تحيينى فأقتل فيك ثانية قال الرب سبحانه انه سبق منى انهم لايرجعون

(١) النحل : ٥٧ (٢) سبأ : ٥٤

الانكشاف عند المؤمن عقيب الموت

واعلم أن المؤمن ينكشف له عقيب الموت من سعة جلال الله ما تكون الدنيا بالإضافة إليه كالسجن والمضيق ، ويكون مثاله كالمحبوس فى بيت مظلم فتح له باب إلى بستان واسع الأكناف ، لا يبلغ طرفه أقصاه ، فيه أنواع الأشجار ، والأزهار ، والثمار ، والطيور ، فلا يشتهى العود إلى السجن المظلم . وقد ضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلا [١] فقال لرجل مات « أَصْبَحَ هٰذَا مُرْتَحِلاً عَنِ الدُّنْيَا وَتَرَكَهَا لِأَهْلِهَا فَإِنْ كَانَ قَدْ رَضِيَ فَلَا يَسُرُّهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا كَمَا لَا يَسُرُّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى بَطْنِ أُمِّهِ » فعرفك بهذا أن نسبة سعة الآخرة إلى الدنيا ، كنسبة سعة الدنيا إلى ظلمة الرحم

وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « إِنَّ مَثَلَ الْمُؤْمِنِ فِي الدُّنْيَا كَمَثَلِ الْجَنِينِ فِي بَطْنِ أُمِّهِ إِذَا خَرَجَ مِنْ بَطْنِهَا بَكَى عَلَى مَخْرَجِهِ حَتَّى إِذَا رَأَى الضَّوْءَ وَوُضِعَ لَمْ يُحِبَّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى مَكَانِهِ » وكذلك المؤمن يجزع من الموت ، فإذا أفضى إلى ربه لم يحب أن يرجع إلى الدنيا ، كما لا يحب الجنين أن يرجع إلى بطن أمه

وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن فلانا قد مات . فقال [٣] « مُسْتَرِيحٌ أَوْ مُسْتَرَاحٌ مِنْهُ » أشار بالمستريح إلى المؤمن ، وبالمستراح منه إلى الفاجر ، إذ يستريح أهل الدنيا منه

وقال أبو عمر صاحب السقيا مرّ بنا ابن عمر ونحن صبيان ، فنظر إلى قبر ، فإذا جمجمة بادية ، فأمر رجلا فواراها ثم قال : إن هذه الأبدان ليس يضرها هذا الثرى شيئا ، وإنما الأرواح التى تعاقب وتثاب إلى يوم القيامة

---

(١) حديث قال لرجل مات أصبح هذا قد خلا من الدنيا وتركها لأهلها فان كان قد رضي فلا يسره ان يرجع الى الدنيا كما لا يسر أحدكم أن يرجع الى بطن أمه : ابن أبي الدنيا من حديث عمرو بن دينار مرسلا ورجاله ثقات

(٢) حديث إن مثل المؤمن فى الدنيا كمثل الجنين فى بطن أمه اذا خرج من بطنها بكى على مخرجه حتى اذا رأى الضوء ووضع لم يحب أن يرجع الى مكانه : ابن أبى الدنيا فيه من رواية بقية عن جابر ابن غانم السلفى عن سليم بن عامر الجنائزى مرسلا هكذا

(٣) حديث قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان فلانا قد مات فقال مستريح أو مستراح منه : متفق عليه من حديث أبى قتادة بلفظ مر عليه بجنازة فقال ذلك وهو عند ابن أبى الدنيا فى الموت باللفظ الذى أورده المصنف

وعن عمرو بن دينار قال: مامن ميت يموت إلا وهو يعلم مايكون فى أهله بعده، وإنهم ليغسلونه ويكفنونه، وإنه لينظر إليهم

وقال مالك بن أنس: بلغنى أن أرواح المؤمنين مرسلة تذهب حيث شاءت

وقال [١] النعمان بن بشير: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر يقول «الاَ إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ مِثْلُ الذُّبَابِ يَمُورُ فِي جَوِّهَا فَاللَّهَ اللَّهَ فِي إِخْوَانِكُمْ مِنْ أَهْلِ الْقُبُورِ فَإِنَّ أَعْمَالَكُمْ تُعْرَضُ عَلَيْهِمْ»

وقال [٢] أبو هريرة: قال النبي صلى الله عليه وسلم «لاَتَفْضَحُوا مَوْتَاكُمْ بِسَيِّئَاتِ أَعْمَالِكُمْ فَإِنَّهَا تُعْرَضُ عَلَى أَوْلِيَائِكُمْ مِنْ أَهْلِ الْقُبُورِ»

ولذلك قال أبو الدرداء: اللهم إنى أعوذ بك أن أعمل عملا أخزى به عند عبد الله ابن رواحة، وكان قد مات، وهو خاله

مقر الأرواح

وسئل عبد الله بن عمرو بن العاص عن أرواح المؤمنين إذا ماتوا أين هي؟ قال: فى حواصل طير بيض فى ظل العرش، وأرواح الكافرين فى الأرض السابعة

وقال [٣] أبو سعيد الخدرى: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إِنَّ الْمَيِّتَ يَعْرِفُ مَنْ يُغَسِّلُهُ وَمَنْ يَحْمِلُهُ وَمَنْ يُدَلِّيهِ فِي قَبْرِهِ»

تلاقى الأرواح بعد الموت

وقال صالح المرى: بلغنى أن الأرواح تتلاقى عند الموت: فتقول أرواح الموتى للروح

---

(١) حديث النعمان بن بشير ألا انه لم يبق من الدنيا الا مثل الذباب يمور فى جوفها فالله الله فى إخوانكم من أهل القبور فان أعمالكم تعرض عليهم: ابن أبى الدنيا وأبو بكر بن لال من رواية مالك بن أدى عن النعمان من قوله الله الله ورواه بكماله الازدى فى الضعفاء وقال لايصح اسناده وذكره ابن أبى حاتم فى الجرح والتعديل بكماله فى ترجمة أبى اسماعيل السكونى رواية عن مالك بن أدى ونقل عن أبيه ان كلامنهما مجهول قال الازدى لايصح اسناده وذكر ابن حبان فى الثقات مالك بن أدى

(٢) حديث أبى هريرة لاتفضحوا موتاكم بسيآت أعمالكم فانها تعرض على أوليائكم من أهل القبور: ابن أبى الدنيا والمحاملى باسناد ضعيف ولأحمد من رواية من سمع انسانا عن أنس ان أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات ـ الحديث:

(٣) حديث أبى سعيد الخدرى ان الميت يعرف من يغسله ومن يحمله ومن يدليه فى قبره: رواه أحمد من رواية رجل عنه اسمه معاوية أو ابن معاوية نسيه عبد الملك بن حسن

التى تخرج إليهم . كيف كان مأواك ؟ وفى أي الجسدين كنت ؟ فى طيّب أو خبيث ؟

وقال عبيد بن عمير . أهل القبور يترقبون الأخبار ، فإذا أتاهم الميت قالوا مافعل فلان فيقول ألم يأتكم أو ماقدم عليكم ؟ فيقولون : إنا لله وإنا إليه راجعون ، سلك به غير سبيلنا

وعن جعفر بن سعيد قال : إذا مات الرجل استقبله ولده كما يستقبل الغائب

وقال مجاهد . إن الرجل ليبشّر بصلاح ولده فى قبره

وروى [1] أبو أيوب الأنصارى ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إِنَّ نَفْسَ الْمُؤْمِنِ إِذَا قُبِضَتْ تَلَقَّاهَا أَهْلُ الرَّحْمَةِ مِنْ عِنْدِ اللهِ كَمَا يُتَلَقَّى الْبَشِيرُ فِى الدُّنْيَا يَقُولُونَ أَنْظِرُوا أَخَاكُمْ حَتَّى يَسْتَرِيحَ فَإِنَّهُ كَانَ فِى كَرْبٍ شَدِيدٍ فَيَسْأَلُونَهُ مَاذَا فَعَلَ فُلَانٌ وَمَاذَا فَعَلَتْ فُلَانَةٌ وَهَلْ تَزَوَّجَتْ فُلَانَةٌ فَإِذَا سَأَلُوهُ عَنْ رَجُلٍ مَاتَ قَبْلَهُ وَقَالَ مَاتَ قَبْلِى قَالُوا إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ذُهِبَ بِهِ إِلَى أُمِّهِ الْهَاوِيَةِ »

بيان

كلام القبر للميت

وكلام الموتى إما بلسان المقال ، أو بلسان الحال التى هي أفصح فى تفهيم الموتى من لسان المقال فى تفهيم الأحياء . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] « يَقُولُ الْقَبْرُ لِلْمَيِّتِ حِينَ يُوضَعُ فِيهِ وَيْحَكَ يَاابْنَ آدَمَ مَاغَرَّكَ بِى أَلَمْ تَعْلَمْ أَنِّى بَيْتُ الْفِتْنَةِ وَبَيْتُ

---

(١) حديث أبى ايوب ان نفس المؤمن اذا قبضت تلقاها أهل الرحمة من عند الله كما يتلقى البشير يقولون انظروا اخاكم حتى يستريح : ابن ابى الدنيا فى كتاب الموت والطبرانى فى مسند الشاميين باسناد ضعيف ورواه ابن المبارك فى الزهد موقوفا على ابى ايوب باسناد جيد ورفعه ابن صاعد فى زوائده على الزهد وفيه سلام الطويل ضعيف وهو عند النسائى وابن حبان نحوه من حديث ابى هريرة باسناد جيد

(٢) حديث يقول القبر للميت حين يوضع فيه ويحك ياابن آدم ماغرك بى ألم تعلم انى بيت الفتنة ـ الحديث : ابن ابى الدنيا فى كتاب القبور والطبرانى فى مسند الشاميين وابو احمد الحاكم فى الكنى من حديث أبى الحجاج الثمالى باسناد ضعيف

الظُّلْمَةِ وَبَيْتُ الْوَحْدَةِ وَبَيْتُ الدُّودِ مَاغَرَّكَ بِي إِذْ كُنْتَ تَمُرُّ بِي فَذَّاذًا فَإِنْ كَانَ مُصْلِحًا أَجَابَ عَنْهُ مُجِيبُ الْقَبْرِ فَيَقُولُ أَرَأَيْتَ أَنْ كَانَ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ فَيَقُولُ الْقَبْرُ إِنِّي إِذًا أَتَحَوَّلُ عَلَيْهِ خَضِرًا وَيَعُودُ جَسَدُهُ نُورًا وَتَصْعَدُ رُوحُهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى » والفذاذ هو الذي يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، هكذا فسره الراوى

وقال عبيد بن عمير الليثي : ليس من ميت يموت إلا نادته حفرته التي يدفن فيها . أنا بيت الظلمة والوحدة والانفراد ، فإن كنتَ فى حياتك لله مطيعا كنت عليك اليوم رحمة ، وإن كنت عاصيا فأنا اليوم عليك نقمة . أنا الذى من دخلنى مطيعا خرج مسرورا ، ومن دخلنى عاصيا خرج مثبورا

وقال محمد بن صبيح : بلغنا أن الرجل إذا وضع فى قبره فعذب ، أو أصابه بعض مايكره ، ناداه جيرانه من الموتى : أيها المتخلف فى الدنيا بعد إخوانه وجيرانه ، أما كان لك فينا معتبر ؟ أما كان لك فى متقدمنا إياك فكرة ؟ أما رأيت انقطاع أعمالنا عنا وأنت فى المهلة ؟ فهلا استدركت مافات إخوانك ! وتناديه بقاع الأرض . أيها المغتر بظاهر الدنيا ، هلا اعتبرت بمن غيب من أهلك فى بطن الأرض ممن غرته الدنيا قبلك ، ثم سبق به أجله إلى القبور ، وأنت تراه محمولا تهاداه أحبته إلى المنزل الذى لابد له منه

وقال يزيد الرقاشى : بلغنى أن الميت إذا وضع فى قبره احتوشته أعماله ؛ ثم أنطقها الله فقالت . أيها العبد المنفرد فى حفرته ، انقطع عنك الأخلاء والأهلون ، فلا أنيس لك اليوم عندنا

وقال كعب : إذا وضع العبد الصالح فى القبر احتوشته أعماله الصالحة ، الصلاة ، والصيام والحج ، والجهاد ، والصدقة ، قال فتجىء ملائكة العذاب من قبل رجليه ، فتقول الصلاة : إليكم عنه فلا سبيل لكم عليه ، فقد أطال بى القيام لله عليهما . فيأتونه من قبل رأسه ، فيقول الصيام : لاسبيل لكم عليه ، فقد أطال ظمأه لله فى دار الدنيا ، فلا سبيل لكم عليه ، فيأتونه من قبل جسده ، فيقول الحج والجهاد : إليكم عنه ، فقد أنصب نفسه وأتعب بدنه ،

وحج وجاهد لله ، فلا سبيل لكم عليه ؛ قال فيأتونه من قبل يديه ، فتقول الصدقة : كفوا عن صاحبي ، فكم من صدقة خرجت من هاتين اليدين حتى وقعت فى يد الله تعالى ابتغاء وجهه ، فلا سبيل لكم عليه

قال فيقال له . هنيئا طبت حيا وطبت ميتا . قال وتأتيه ملائكة الرحمة ، فتفرش له فراشا من الجنة : ودثارا من الجنة ، ويفسح له فى قبره مد بصره ، ويؤتى بقنديل من الجنة فيستضيء بنوره إلى يوم يبعثه الله من قبره

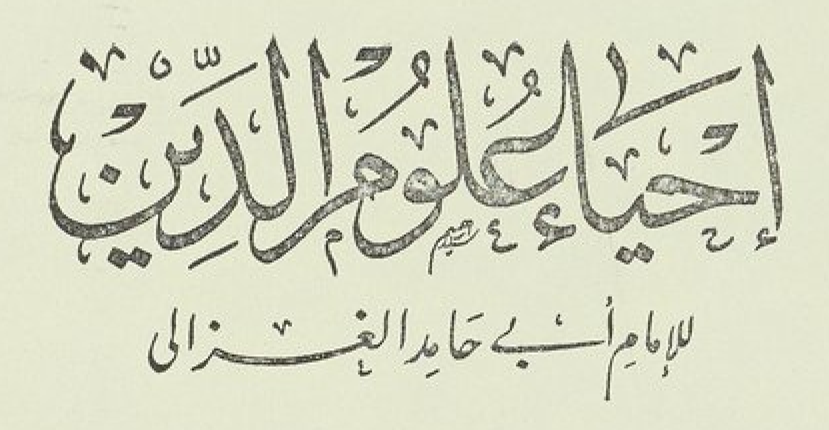
وقال [١] عبد الله بن عبيد بن عمير فى جنازة . بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إِنَّ الْمَيِّتَ يَقْعُدُ وَهُوَ يَسْمَعُ خَطْوَ مُشَيِّعِيهِ فَلاَ يُكَلِّمُهُ شَيْءٌ إِلاَّ قَبْرُهُ يَقُولُ وَيْحَكَ ابْنَ آدَمَ أَلَيْسَ قَدْ حُذِّرْتَنِي وَحُذِّرْتَ ضِيقِي وَنَتْنِي وَهَوْلِي وَدُودِي فَمَا ذَا أَعْدَدْتَ لِي؟»

---

(١) حديث عبد الله بن عبيد بن عمير بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الميت يقعد وهو يسمع خطو مشيعيه فلا يكلمه إلا قبره يقول ويحك يا ابن آدم ـ الحديث : ابن ابى الدنيا فى القبور هكذا مرسلا ورجاله ثقات ورواه ابن المبارك فى الزهد إلا أنه قال بلغنى ولم يرفعه

لجنة نشر الثقافة الاسلامية ــ ٣٠٠٠ — ١٥٠٠ - ٢٧ رمضان سنة ١٣٥٧

لجنة
نشر الثقافة الإسلامية
بدار جمعية الجهاد الاسلامى



الجزء السادس عشر

مضاف إليه
تخريج الحافظ العراقى

مطبعة لجنة نشر الثقافة الاسلامية شارع الناصرية رقم ١٣ القاهرة سنة ١٣٥٧ تليفون ٤٢٥٠٩

بيان
عذاب القبر وسؤال منكر ونكير

قال [1] البراء بن عازب : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جنازة رجل من الأنصار ، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبره منكسا رأسه ، ثم قال « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ » ثلاثا ثم قال « إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي قُبُلٍ مِنَ الآخِرَةِ بَعَثَ اللهُ مَلَائِكَةً كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ مَعَهُمْ حَنُوطُهُ وَكَفَنُهُ فَيَجْلِسُونَ مَدَّ بَصَرِهِ فَإِذَا خَرَجَتْ رُوحُهُ صَلَّى عَلَيْهِ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ وَفُتِحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ فَلَيْسَ مِنْهَا بَابٌ إِلَّا يُحِبُّ أَنْ يَدْخُلَ بِرُوحِهِ مِنْهُ فَإِذَا صُعِدَ بِرُوحِهِ قِيلَ أَيْ رَبِّ عَبْدُكَ فُلَانٌ فَيَقُولُ أَرْجِعُوهُ فَأَرُوهُ مَا أَعْدَدْتُ لَهُ مِنَ الْكَرَامَةِ فَإِنِّي وَعَدْتُهُ (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ [1]) الآية . وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِهِمْ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ حَتَّى يُقَالَ يَا هَذَا مَنْ رَبُّكَ وَمَا دِينُكَ وَمَنْ نَبِيُّكَ ؟ فَيَقُولُ رَبِّيَ اللهُ وَدِينِي الْإِسْلَامُ وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . قَالَ فَيَنْتَهِرَانِهِ انْتِهَارًا شَدِيدًا وَهِيَ آخِرُ فِتْنَةٍ تُعْرَضُ عَلَى الْمَيِّتِ فَإِذَا قَالَ ذَلِكَ نَادَى مُنَادٍ أَنْ قَدْ صَدَقْتَ وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى (يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ [2]) الآية ثُمَّ يَأْتِيهِ آتٍ حَسَنُ الْوَجْهِ طَيِّبُ الرِّيحِ حَسَنُ الثِّيَابِ فَيَقُولُ أَبْشِرْ بِرَحْمَةِ رَبِّكَ وَجَنَّاتٍ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ فَيَقُولُ وَأَنْتَ فَبَشَّرَكَ اللهُ بِخَيْرٍ مَنْ أَنْتَ ؟ فَيَقُولُ أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ وَاللهِ مَا عَلِمْتُ أَنْ كُنْتَ لَسَرِيعًا إِلَى طَاعَةِ اللهِ بَطِيئًا عَنْ مَعْصِيَةِ اللهِ فَجَزَاكَ اللهُ خَيْرًا قَالَ ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ أَنِ افْرِشُوا لَهُ مِنْ فُرُشِ الْجَنَّةِ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ فَيُفْرَشُ لَهُ مِنْ فُرُشِ الْجَنَّةِ وَيُفْتَحُ

---

(١) حديث البراء خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جنازة رجل من الانصار فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبره منكسا رأسه ثم قال اللهم انى أعوذ بك من عذاب القبر ـ الحديث : بطوله أبوداود والحاكم بكماله وقال صحيح على شرط الشيخين وضعفه ابن حبان ورواه النسائى وابن ماجه مختصر

---

(١) طه : ٥٥ (٢) ابراهيم : ٢٧

لَهُ بَابٌ إِلَى الْجَنَّةِ فَيَقُولُ اللَّهُمَّ عَجِّلْ قِيَامَ السَّاعَةِ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي قَالَ وَأَمَّا الْكَافِرُ فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ فِي قُبُلٍ مِنَ الْآخِرَةِ وَانْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا نَزَلَتْ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ مَعَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ وَسَرَابِيلُ مِنْ قَطِرَانٍ فَيَحْتَوِشُونَهُ فَإِذَا خَرَجَتْ نَفْسُهُ لَعَنَهُ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ فَلَيْسَ مِنْهَا بَابٌ إِلَّا يَكْرَهُ أَنْ يَدْخُلَ بِرُوحِهِ مِنْهُ فَإِذَا صُعِدَ بِرُوحِهِ نُبِذَ وَقِيلَ أَيْ رَبِّ عَبْدُكَ فُلَانٌ لَمْ تَقْبَلْهُ سَمَاءٌ وَلَا أَرْضٌ فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَرْجِعُوهُ فَأَرُوهُ مَاأَعْدَدْتُ لَهُ مِنَ الشَّرِّ إِنِّي وَعَدْتُهُ (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ[1]) الْآيَةَ وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِهِمْ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ حَتَّى يُقَالَ لَهُ يَاهَذَا مَنْ رَبُّكَ وَمَنْ نَبِيُّكَ وَمَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ لَا أَدْرِي فَيُقَالُ لَا دَرَيْتَ ثُمَّ يَأْتِيهِ آتٍ قَبِيحُ الْوَجْهِ مُنْتِنُ الرِّيحِ قَبِيحُ الثِّيَابِ فَيَقُولُ أَبْشِرْ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَبِعَذَابٍ أَلِيمٍ مُقِيمٍ فَيَقُولُ بَشَّرَكَ اللَّهُ بِشَرٍّ مَنْ أَنْتَ؟ فَيَقُولُ أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ وَاللَّهِ إِنْ كُنْتَ لَسَرِيعاً فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ بَطِيئاً عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ فَجَزَاكَ اللَّهُ شَرّاً فَيَقُولُ وَأَنْتَ فَجَزَاكَ اللَّهُ شَرّاً ثُمَّ يُقَيَّضُ لَهُ أَصَمُّ أَعْمَى أَبْكَمُ مَعَهُ مِرْزَبَّةٌ مِنْ حَدِيدٍ لَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهَا الثَّقَلَانِ عَلَى أَنْ يُقِلُّوهَا لَمْ يَسْتَطِيعُوا لَوْ ضُرِبَ بِهَا جَبَلٌ صَارَ تُرَاباً فَيَضْرِبُهُ بِهَا ضَرْبَةً فَيَصِيرُ تُرَاباً ثُمَّ تَعُودُ فِيهِ الرُّوحُ فَيَضْرِبُهُ بِهَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ ضَرْبَةً يَسْمَعُهَا مَنْ عَلَى الْأَرَضِينَ لَيْسَ الثَّقَلَيْنِ قال ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ أَنِ افْرِشُوا لَهُ لَوْحَيْنِ مِنْ نَارٍ وَافْتَحُوا لَهُ بَاباً إِلَى النَّارِ فَيُفْرَشُ لَهُ لَوْحَانِ مِنْ نَارٍ وَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى النَّارِ » . قال محمد بن علي : مامن ميت يموت إلا مثّل له عند الموت أعماله الحسنة وأعماله السيئة . قال فيشخص إلى حسناته ويطرق عن سيئاته

وقال (١) أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا احْتُضِرَ أَتَتْهُ الْمَلَائِكَةُ بِحَرِيرَةٍ فِيهَا مِسْكٌ وَضَبَائِرُ الرَّيْحَانِ فَتُسَلُّ رُوحُهُ كَمَا تُسَلُّ

---

(١) حديث أبي هريرة ان المؤمن اذا حضر أتته الملائكة بحريرة فيها مسك وضبائر الريحان ـ الحديث : ابن أبي الدنيا وابن حبان مع اختلاف والبزار بلفظ المصنف

---

[1] طه : ٥٥

الشَّعْرَةُ مِنَ الْعَجِينِ وَيُقَالُ أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ اخْرُجِي رَاضِيَةً وَمَرْضِيًّا عَنْكِ إِلَى رُوحِ اللهِ وَكَرَامَتِهِ فَإِذَا أُخْرِجَتْ رُوحُهُ وُضِعَتْ عَلَى ذَلِكَ الْمِسْكِ وَالرَّيْحَانِ وَطُوِيَتْ عَلَيْهَا الْحَرِيرَةُ وَبُعِثَ بِهَا إِلَى عِلِّيِّينَ وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا احْتُضِرَ أَتَتْهُ الْمَلَائِكَةُ بِمِسْحٍ فِيهِ جَمْرَةٌ فَتُنْزَعُ رُوحُهُ انْتِزَاعًا شَدِيدًا وَيُقَالُ أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ اخْرُجِي سَاخِطَةً وَمَسْخُوطًا عَلَيْكِ إِلَى هَوَانِ اللهِ وَعَذَابِهِ فَإِذَا أُخْرِجَتْ رُوحُهُ وُضِعَتْ عَلَى تِلْكَ الْجَمْرَةِ وَإِنَّ لَهَا نَشِيشًا وَيُطْوَى عَلَيْهَا الْمِسْحُ وَيُذْهَبُ بِهَا إِلَى سِجِّينٍ »

وعن محمد بن كعب القرظي ، أنه كان يقرأ قوله تعالى (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ [١]) قال أي شيء تريد؟ في أي شيء ترغب ؟ أتريد أن ترجع لتجمع المال ، وتغرس الغراس ، وتبني البنيان ، وتشقق الأنهار؟ قال لا لعلي أعمل صالحا فيما تركت . قال فيقول الجبار . كلا ، إنها كلمة هو قائلها ، أي ليقولها عند الموت · وقال [١] أبو هريرة . قال النبي صلى الله عليه وسلم « الْمُؤْمِنُ فِي قَبْرِهِ فِي رَوْضَةٍ خَضْرَاءَ وَيُرَحَّبُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا وَيُضِيءُ حَتَّى يَكُونَ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ هَلْ تَدْرُونَ فِيمَاذَا أُنْزِلَتْ (فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا [٢]) قالوا الله ورسوله أعلم قال « عَذَابُ الْكَافِرِ فِي قَبْرِهِ يُسَلَّطُ عَلَيْهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ تِنِّينًا هَلْ تَدْرُونَ مَا التِّنِّينُ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ حَيَّةً لِكُلِّ حَيَّةٍ سَبْعَةُ رُؤُسٍ يَخْدِشُونَهُ وَيَلْحَسُونَهُ وَيَنْفُخُونَ فِي جِسْمِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ »

ولا ينبغي أن يتعجب من هذا العدد على الخصوص ، فإن أعداد هذه الحيّات والعقارب بعدد الأخلاق المذمومة من الكبر ، والرياء ، والحسد ، والغل ، والحقد ، وسائر الصفات ، فإن لها أصولا معدودة ، ثم تتشعب منها فروع معدودة ، ثم تنقسم فروعها إلى أقسام . وتلك الصفات بأعيانها هي المهلكات ، وهي بأعيانها تنقلب عقارب وحيات ، فالقوي منها يلدغ لدغ التنين ، والضعيف يلدغ لدغ العقرب ، وما بينهما يؤذي إيذاء الحية . وأرباب القلوب والبصائر يشاهدون بنور البصيرة هذه المهلكات وانشعاب فروعها ، إلا أن مقدار

---

(١) حديث أبي هريرة المؤمن في قبره في روضة خضراء ويرحب له في قبره سبعون ذراعا ـ الحديث : ورواه ابن حبان

(١) المؤمنون : ٩٩ ، ١٠٠ (٢) طه : ١٢٤

عددها لا يوقف عليه إلا بنور النبوة . فأمثال هـذه الأخبار لهـا ظواهر صحيحة ، وأسرار خفيّة ، ولكنها عند أرباب البصائر واضحة . فمن لم تنكشف له حقائقها فلا ينبغي أن ينكر ظواهرها . بل أقل درجات الإيمان التصديق والتسليم

فإن قلت : فنحن نشاهد الكافر فى قبره مدة ونراقبه ، ولا نشاهد شيئاً من ذلك ، فما وجه التصديق على خلاف المشاهـدة ؟

كيفية التصديق بشيء غير مشاهد

فاعلم أن لك ثلاث مقامات فى التصديق بأمثال هذا :

أحدها : وهو الأظهر والأصح والأسلم ، أن تصدق بأنها موجودة ، وهي تلدغ الميت ، ولكنك لا تشاهد ذلك ، فإن هذه العين لا تصلح لمشاهدة الأمور الملكوتية ، وكل مايتعلق بالآخرة فهو من عالم الملكوت . أما ترى الصحابة رضي الله عنهم كيف كانوا يؤمنون بنزول جبريل ، وما كانوا يشاهدونه ، ويؤمنون بأنه عليه السلام يشاهده ؟ فإن كنت لا تؤمن بهذا فتصحيح أصل الإيمان بالملائكة والوحي أهم عليك . وإن كنت آمنت به ،وجوّزت أن يشاهـد النبي مالا تشاهده الأمة ، فكيف لا تجوّز هذا فى الميت ؟ وكما أن الملك لا يشبه الآدميين والحيوانات ، فالحيات والعقارب التى تلدغ فى القبر ليست من جنس حيات عالمنا ، بل هي جنس آخر ، وتدرك بحاسة أخرى

المقام الثانى : أن تتذكر أمر النائم ، وأنه قد يرى فى نومه حية تلدغه ، وهو يتألم بذلك ، حتى تراه يصيح فى نومه ، ويعرق جبينه ، وقد ينزعج من مكانه . كل ذلك يدركه من نفسه ، ويتأذى به كما يتأذى اليقظان ، وهو يشاهده ، وأنت ترى ظاهره ساكنا ، ولا ترى حواليه حية ،والحية موجودة فى حقه ،والعذاب حاصل ، ولـكنه فى حقك غير مشاهد . وإذا كان العذاب فى ألم اللدغ ، فلا فرق بين حية تتخيل أو تشاهد

المقام الثالث . أنك تعلم أن الحية بنفسها لا تؤلم ، بل الذى يلقاك منها وهو السم . ثم السم ليس هو الألم ، بل عذابك فى الأثر الذى يحصل فيك من السم . فلو حصل مثل ذلك الأثر من غير سم لـكان العذاب قد توفر ، وكان لا يمكن تعريف ذلك النوع من العذاب إلا بأن يضاف إلى السبب الذى يفضى إليه فى العادة . فإنه لو خلق فى الإنسان لذة الوقاع مثلا من غير مباشرة صورة الوقاع ، لم يمكن تعريفها إلا بالإضافة إليه ، لتكون الإضافة للتعريف بالسبب ،

وتكون ثمرة السبب حاصلة وإن لم تحصل صورة السبب : والسبب يراد لثمرته لا لذاته ، وهذه الصفات المهلكات تنقلب مؤذيات ومؤلمات فى النفس عند الموت ، فتكون آلامها كآلام لدغ الحيّات من غير وجود حيّات . وانقلاب الصفة مؤذية يضاهى انقلاب العشق مؤذيا عند موت المعشوق ، فإنه كان لذيذا فطرأت حالة صار اللذيذ بنفسه مؤلما ، حتى يرد بالقلب من أنواع العذاب ما يتمنى معه أن لم يكن قد تنعم بالعشق والوصال . بل هذا بعينه هو أحد أنواع ، عذاب الميت ، فإنه قد سلط العشق فى الدنيا على نفسه ، فصار يعشق ماله ، وعقاره ، وجاهه ، وولده ، وأقاربه ، ومعارفه ، ولو أخذ جميع ذلك فى حياته من لا يرجو استرجاعه منه فماذا ترى يكون حاله ؟ أليس يعظم شقاؤه ، ويشتد عذابه ، ويتمنى ويقول ليته لم يكن لى مال قط ، ولا جاه قط ، فكنت لا أتأذى بفراقه ؟ فالموت عبارة عن مفارقة المحبوبات الدنيوية كلها دفعة واحدة

ما حال من كان له واحد　　غيب عنه ذلك الواحد

فما حال من لا يفرح إلا بالدنيا ، فتؤخذ منه الدنيا وتسلّم إلى أعدائه ، ثم ينضاف إلى هذا العذاب تحسّره على ما فاته من نعيم الآخرة ، والحجاب عن الله عز وجل ؛ فإن حب غير الله يحجبه عن لقاء الله والتنعم به ، فيتوالى عليه ألم فراق جميع محبوباته ، وحسرته على ما فاته من نعيم الآخرة أبد الآباد ، وذل الرد والحجاب عن الله تعالى ، وذلك هو العذاب الذى يعذّب به ، إذ لا يتبع نار الفراق إلا نار جهنم ، كما قال تعالى (كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ [1])

وأما من لم يأنس بالدنيا ، ولم يحب إلا الله ، وكان مشتاقا إلى لقاء الله ، فقد تخلص من سجن الدنيا ومقاسات الشهوات فيها ، وقدم على محبوبه ، وانقطعت عنه العوائق والصوارف ، وتوفر عليه النعيم مع الأمن من الزوال أبد الآباد ، ولمثل ذلك فليعمل العاملون

والمقصود أن الرجل قد يحب فرسه بحيث لو خيّر بين أن يؤخذ منه وبين أن تلدغه عقرب ، آثر الصبر على لدغ العقرب . فإذاً ألم فراق الفرس عنده أعظم من لدغ العقرب ، وحبه للفرس هو الذى يلدغه إذا أخذ منه فرسه ، فليستعد لهذه اللدغات ، فإن الموت يأخذ

(١) التطفيف : ١٥ ، ١٦

منه فرسه ، ومركبه ، وداره ، وعقاره ، وأهله ، وولده ، وأحبابه ، ومعارفه ، ويأخذ منه جاهه وقبوله ، بل يأخذ منه سمعه ، وبصره ، وأعضاءه ، وييأس من رجوع جميع ذلك إليه . فإذا لم يحب سواه ، وقد أخذ جميع ذلك منه ، فذلك أعظم عليه من العقارب والحيّات . وكما لو أخذ ذلك منه وهو حي فيعظم عقابه ، فكذلك إذا مات ، لأنا قد بيّنا أن المعنى الذى هو المدرك للآلام واللذات لم يمت ، بل عذابه بعد الموت أشد ، لأنه فى الحياة يتسلى بأسباب يشغل بها حواسه من مجالسة ومحادثة ، ويتسلى برجاء العود إليه ، ويتسلى برجاء العوض منه ، ولاسلوة بعد الموت ، إذ قد انسد عليه طرق التسلى ، وحصل اليأس ، فإذا كلّ قميص له ومنديل قد أحبه بحيث كان يشق عليه لو أخذ منه فإنه يبقى متأسفا عليه ، ومعذبا به . فإن كان مخفا فى الدنيا سلم ، وهو المعني بقولهم نجا المخفون . وإن كان مثقلا عظم عذابه

وكما أن حال من يسرق منه دينار أخف من حال من يسرق منه عشرة دنانير ، فكذلك حال صاحب الدرهم أخف من حال صاحب الدرهمين . وهو المعني بقوله صلى الله عليه وسلم[1] « صَاحِبُ الدِّرْهَمِ أَخَفُّ حِسَابًا مِنْ صَاحِبِ الدِّرْهَمَيْنِ » ومامن شىء من الدنيا يتخلف عنك عند الموت إلا وهو حسرة عليك بعد الموت ، فإن شئت فاستكثر ، وإن شئت فاستقلل . فإن استكثرت فلست بمستكثر إلا من الحسرة ، وإن استقللت فلست تخفف إلا عن ظهرك . وإنما تكثر الحيّات والعقارب فى قبور الأغنياء الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، وفرحوا بها ، واطمأنوا إليها

فهذه مقامات الإيمان فى حيّات القبر وعقاربه ، وفى سائر أنواع عذابه

رأى أبو سعيد الخدرى ابنا له قدمات فى المنام ، فقال له يابني عظنى . قال لاتخالف الله تعالى فيما يريد . قال يابني زدنى قال ياأبت لاتطيق . قال قل ، قال لاتجعل بينك وبين الله قميصا . فمالبس قميصا ثلاثين سنة

فإن قلت : فماالصحيح من هذه المقامات الثلاث ؟ فاعلم أن فى الناس من لم يثبت إلا الأول وأنكر مابعده . ومنهم من أنكر الأول وأثبت الثانى . ومنهم من لم يثبت إلا الثالث . وإنما الحق الذى انكشف لنا بطريق الاستبصار أن كل ذلك فى حيز الإمكان ، وأن من ينكر

---

(١) حديث صاحب الدرهم أخف حسابا من صاحب الدرهمين : لم أجد له أصلا

بعض ذلك فهو لضيق حوصلته وجهله باتساع قدرة الله سبحانه وعجائب تدبيره ، فينكر من أفعال الله تعالى مالم يأنس به ويألفه ، وذلك جهل وقصور . بل هذه الطرق الثلاثة فى التعذيب ممكنة، والتصديق بهاواجب . ورب عبد يعاقب بنوع واحد من هذه الأنواع، ورب عبد تجمع عليه هذه الأنواع الثلاثة ، نعوذ بالله من عذاب الله قليله وكثيره

هذا هو الحق فصدّق به تقليدا ، فيعز على بسيط الأرض من يعرف ذلك تحقيقا . والذى أوصيك به أن لاتكثر نظرك فى تفصيل ذلك ، ولا تشتغل بمعرفته ، بل اشتغل بالتدبير فى دفع العذاب كيفما كان ، فإن أهملت العمل والعبادة واشتغلت بالبحث عن ذلك ، كنت كمن أخذه سلطان وحبسه ليقطع يده ويجدع أنفه ، فأخذ طول الليل يتفكر فى أنه هل يقطعه بسكين ، أو بسيف ، أو بموسى ، وأهمل طريق الحيلة فى دفع أصل العذاب عن نفسه ، وهذا غاية الجهل. فقد عُلم على القطع أن العبد لايخلو بعد الموت من عذاب عظيم ، أو نعيم مقيم ، فينبغى أن يكون الاستعداد له . فأما البحث عن تفصيل العقاب والثواب ففضول وتضييع زمان

بيان

سؤال منكر ونكير وصورتهما وضغطة القبر وبقية القول فى عذاب القبر

قال [1] أبو هريرة : قال النبي صلى الله عليه وسلم « إِذَا مَاتَ الْعَبْدُ أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا مُنْكَرٌ وَلِلْآخَرِ نَكِيرٌ فَيَقُولَانِ لَهُ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي النَّبِيِّ؟ فَإِنْ كَانَ مُؤْمِناً قَالَ هُوَ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ فَيَقُولَانِ إِنْ كُنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعاً فِي سَبْعِينَ ذِرَاعاً وَيُنَوَّرُ لَهُ فِي قَبْرِهِ ثُمَّ يُقَالُ لَهُ نَمْ فَيَقُولُ دَعُونِي أَرْجِعْ إِلَى أَهْلِي فَأُخْبِرَهُمْ فَيُقَالُ لَهُ نَمْ فَيَنَامُ كَنَوْمَةِ الْعَرُوسِ الَّذِي لَا يُوقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ حَتَّى يَبْعَثَهُ اللهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ . وَإِنْ كَانَ مُنَافِقاً قَالَ لَا أَدْرِي كُنْتُ أَسْمَعُ النَّاسَ يَقُولُونَ

(١) حديث أبي هريرة اذا مات العبد أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما منكر وللآخر نكير الحديث : الترمذي وحسنه وابن حبان مع اختلاف

شَيْئًا وَكُنْتُ أَقُولُهُ فَيَقُولَانِ إِنْ كُنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ ثُمَّ يُقَالُ لِلْأَرْضِ الْتَئِمِي عَلَيْهِ فَتَلْتَئِمُ عَلَيْهِ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهَا أَضْلَاعُهُ فَلَا يَزَالُ مُعَذَّبًا حَتَّى يَبْعَثَهُ اللهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ » . وعن [1] عطاء بن يسار قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب رضي الله عنه « يَاعُمَرُ كَيْفَ بِكَ إِذَا أَنْتَ مُتَّ فَانْطَلَقَ بِكَ قَوْمُكَ فَقَاسُوا لَكَ ثَلَاثَةَ أَذْرُعٍ فِي ذِرَاعٍ وَشِبْرٍ ثُمَّ رَجَعُوا إِلَيْكَ فَغَسَّلُوكَ وَكَفَّنُوكَ وَحَنَّطُوكَ ثُمَّ احْتَمَلُوكَ حَتَّى يَضَعُوكَ فِيهِ ثُمَّ يَهِيلُوا عَلَيْكَ التُّرَابَ وَيَدْفِنُوكَ فَإِذَا انْصَرَفُوا عَنْكَ أَتَاكَ فَتَّانَا الْقَبْرِ مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ أَصْوَاتُهُمَا كَالرَّعْدِ الْقَاصِفِ وَأَبْصَارُهُمَا كَالْبَرْقِ الْخَاطِفِ يَجُرَّانِ أَشْعَارَهُمَا وَيَبْحَثَانِ الْقَبْرَ بِأَنْيَابِهِمَا فَتَلْتَلَاكَ وَتَرْتَرَاكَ كَيْفَ بِكَ عِنْدَ ذَلِكَ يَاعُمَرُ » فقال عمر ويكون معى مثل عقلي الآن ؟ قال نعم . قال إذاً أكفيكهما

عدم تغير العقل بالموت

وهذا نص صريح فى أن العقل لايتغير بالموت ، إنما يتغير البدن والأعضاء ، فيكون الميت عاقلا ، مدركا ، عالما بالآلام واللذات كما كان ، لايتغير من عقله شيء . وليس العقل المدرك هذه الأعضاء ، بل هو شيء باطن ليس له طول ولا عرض ، بل الذى لاينقسم فى نفسه هو المدرك للأشياء . ولو تناثرت أعضاء الإنسان كلها ، ولم يبق إلا الجزء المدرك الذى لايتجزأ ولاينقسم ، لكان الإنسان العاقل بكماله قائما باقيا . وهو كذلك بعد الموت ، فإن ذلك الجزء لايحله الموت ، ولايطرأ عليه العدم

وقال محمد بن المنكدر : بلغنى أن الكافر يسلط عليه فى قبره دابة عمياء ، صماء ، فى يدها سوط من حديد ، فى رأسه مثل غرب الجمل ، تضربه به إلى يوم القيامة ، لاتراه فتتقيه ، ولاتسمع صوته فترحمه

وقال أبو هريرة : إذا وضع الميت فى قبره جاءت أعماله الصالحة فاحتوشته ؛ فإن أتاه

---

(١) حديث عطاء بن يسار قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب ياعمر كيف بك اذا أنت مت فانطلق بك قومك فقاسوا لك ثلاثة أذرع فى ذراع وشبر - الحديث : ابن أبي الدنيا فى كتاب القبور هكذا مرسلا ورجاله ثقات قال البيهقى فى الاعتقاد رويناه من وجه صحيح عن عطاء ابن يسار مرسلا قلت ووصله ابن بطة فى الابانة من حديث ابن عباس ورواه البيهقى فى الاعتقاد من حديث عمر وقال غريب بهذا الاسناد تفرد به مفضل ولأحمد وابن حبان من حديث عبد الله ابن عمر فقال عمر أيرد الينا عقولنا فقال نعم كهيئتكم اليوم فقال عمر بفيه الحجر

من قبل رأسه جاء قراءته القرءان ، وإن أتاه من قبل رجليه جاء قيامه ، وإن أتاه من قبل يده قالت اليدان والله لقد كان يبسطنى للصدقة والدعاء ، لا سبيل لكم عليه ، وإن جاء من قبل فيه جاء ذكره وصيامه ، وكذلك تقف الصلاة والصبر ناحية ، فيقول : أما إنى لو رأيت خللا لكنت أنا صاحبه . قال سفيان : تجاحش عنه أعماله الصالحة كما يجاحش الرجل عن أخيه ، وأهله ، وولده ، ثم يقال له عند ذلك : بارك الله لك فى مضجعك ، فنعم الأخلاء أخلاؤك ، ونعم الأصحاب أصحابك

وعن [١] حذيفة قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جنازة ، فجلس على رأس القبر ، ثم جعل ينظر فيه ، ثم قال « يُضْغَطُ الْمُؤْمِنُ فِي هَذَا ضَغْطَةً تُرَدُّ مِنْهَا حَمَائِلُهُ »

وقالت [٢] عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ لِلْقَبْرِ ضَغْطَةً وَلَوْ سَلِمَ أَوْ نَجَا مِنْهَا أَحَدٌ لَنَجَا سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ »

وعن أنس قال : [٣] توفيت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت امرأة مسقامة ، فتبعها رسول الله صلى الله عليه وسلم . فساءنا حاله ، فلما انتهينا إلى القبر فدخله التمع وجهه صفرة ، فلما خرج أسفر وجهه ، فقلنا يا رسول الله رأينا منك شأنا فمم ذلك ؟ قال « ذَكَرْتُ ضَغْطَةَ ابْنَتِي وَشِدَّةَ عَذَابِ الْقَبْرِ فَأَتَيْتُ فَأُخْبِرْتُ أَنَّ اللهَ قَدْ خَفَّفَ عَنْهَا وَلَقَدْ ضُغِطَتْ ضَغْطَةً سَمِعَ صَوْتَهَا مَا بَيْنَ الْخَافِقَيْنِ »

الباب الثامن

فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة فى المنام

اعلم أن أنوار البصائر المستفادة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومن مناهج الاعتبار ، تعرفنا أحوال الموتى على الجملة ، وانقسامهم إلى سعداء وأشقياء .

---

(١) حديث حذيفة كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جنازة فجلس على رأس القبر ثم جعل ينظر فيه ـ الحديث : رواه أحمد بسند ضعيف

(٢) حديث عائشة ان للقبر ضغطة لو سلم أو نجا منها أحد لنجا سعد بن معاذ : رواه أحمد باسناد جيد

(٣) حديث أنس توفيت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت امرأة مسقامة ـ الحديث : وفيه لقد ضغطت ضغطة سمع صوتها ما بين الخافقين : ابن أبى الدنيا فى الموت من رواية سليمان الاعمش عن أنس ولم يسمع منه

ولكن حال زيد وعمرو بعينه فلاينكشف أصلا ، فإنا إن عولنا على إيمان زيد وعمرو فلاندرى على ماذا مات ، وكيف ختم له . وإن عولنا على صلاحه الظاهر فالتقوى محله القلب ، وهوغامض يخفى على صاحب التقوى ، فكيف على غيره ، فلاحكم لظاهر الصلاح دون التقوى الباطن قال الله تعالى (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ [1]) فلايمكن معرفة حكم زيد وعمرو إلابمشاهدته ومشاهدة مايجرى عليه . وإذا مات فقد تحول من عالم الملك والشهادة إلى عالم الغيب والملكوت ، فلايرى بالعين الظاهرة ، وإنما يرى بعين أخرى ، خلقت تلك العين فى قلب كل إنسان ، ولكن الإنسان جعل عليها غشاوة كثيفة من شهواته وأشغاله الدنيوية ، فصار لايبصر بها ، ولايتصور أن يبصر بها شيئا من عالم الملكوت مالم تنقشع تلك الغشاوة عن عين قلبه . ولما كانت الغشاوة منقشعة عن أعين الأنبياء عليهم السلام ، فلاجرم نظروا إلى الملكوت وشاهدوا عجائبه ، والموتى فى عالم الملكوت ، فشاهدوهم وأخبروا. ولذلك [1] رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ضغطة القبر فى حق سعد بن معاذ ، وفى حق زينب ابنته . وكذلك حال أبى جابر لما استشهد ، إذ أخبره أن الله أقعده بين يديه ليس بينهما ستر

ومثل هذه المشاهدة لامطمع فيها لغير الأنبياء والأولياء الذين تقرب درجتهم منهم . وإنما الممكن من أمثالنا مشاهدة أخرى ضعيفة ، إلا أنها أيضا مشاهدة نبوية ، وأعنى بها المشاهدة فى المنام ، وهي من أنوار النبوة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] « الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءاً مِنَ النُّبُوَّةِ » وهو أيضا انكشاف لايحصل إلا بانقشاع الغشاوة عن القلب ، فلذلك لايوثق إلا برؤيا الرجل الصالح الصادق . ومن كثر كذبه لم تصدق رؤياه ؛ ومن كثر فساده ومعاصيه أظلم قلبه فكان مايراه أضغاث أحلام ولذلك [3] أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطهارة عند النوم لينام طاهرا ، وهو إشارة

﴿ الباب الثامن فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة ﴾

(١) حديث راى رسول الله صلى الله عليه وسلم ضغطة القبر فى حق سعد بن معاذ وفى حق زينب ابنته وكذلك حال أبى جابر لما استشهد : تقدمت الثلاثة أحاديث فى الباب الذى قبله

(٢) حديث الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوة : تقدم

(٣) حديث أمره بالطهارة عند النوم متفق عليه من حديث البراء اذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوأك للصلاة الحديث :

---

(١) المائدة : ٢٧

إلى طهارة الباطن أيضا ، فهو الأصل ، وطهارة الظاهر بمنزلة التتمة والتكملة لها ومهما صفا الباطن انكشف فى حدقة القلب ماسيكون فى المستقبل ، كما[1] انكشف دخول مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم ، حتى نزل قوله تعالى (لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ[1]) وقلما يخلو الإنسان عن منامات دلت على أمور فوجدها صحيحة

كلمة يسيرة فى الرؤيا

والرؤيا ومعرفة الغيب فى النوم من عجائب صنع الله تعالى ، وبدائع فطرة الآدمي ، وهو من أوضح الأدلة على عالم الملكوت ، والخلق غافلون عنه كغفلتهم عن سائر عجائب القلب وعجائب العالم . والقول فى حقيقة الرؤيا من دقائق علوم المكاشفة ، فلا يمكن ذكره ، علاوة على علم المعاملة ، ولكن القدر الذى يمكن ذكره ههنا مثال يفهمك المقصود ، وهو أن تعلم أن القلب مثله مثال مرآة تتراءى فيها الصور وحقائق الأمور ، وأن كل ماقدره الله تعالى من ابتداء خلق العالم إلى آخره مسطور ومثبت فى خلق خلقه الله تعالى ، يعبر عنه تارة باللوح ، وتارة بالكتاب المبين ، وتارة بإمام مبين كما ورد فى القرءان . فجميع ماجرى فى العالم وماسيجرى مكتوب فيه ، ومنقوش عليه نقشا لايشاهد بهذه العين . ولا تظنن أن ذلك اللوح من خشب ، أو حديد ، أو عظم ، وأن الكتاب من كاغد أو رق ، بل ينبغى أن تفهم قطعا أن لوح الله لايشبه لوح الخلق ، وكتاب الله لايشبه كتاب الخلق ، كما أن ذاته وصفاته لاتشبه ذات الخلق وصفاتهم . بل إن كنت تطلب له مثالا يقربه إلى فهمك فاعلم أن ثبوت المقادير فى اللوح يضاهى ثبوت كلمات القرءان وحروفه فى دماغ حافظ القرءان وقلبه ، فإنه مسطور فيه ، حتى كأنه حين يقرؤه ينظر إليه ، ولو فتشت دماغه جزأ جزأ لم تشاهد من ذلك الخط حرفا ، وإن كان ليس هناك خط يشاهد ولا حرف ينظر

فمن هذا النمط ينبغى أن تفهم كون اللوح منقوشا بجميع ماقدره الله تعالى وقضاه ، واللوح فى المثال كمرآة ظهر فيها الصور ، فلو وضع فى مقابلة المرآة مرآة أخرى لكانت صورة تلك المرآة تتراءى فى هذه ، إلا أن يكون بينهما حجاب . فالقلب مرآة تقبل رسوم العلم ، واللوح مرآة رسوم العلم كلها موجودة فيها ، واشتغال القلب بشهواته ومقتضى

---

(١) حديث انكشف دخول مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم : ابن أبى حاتم فى تفسيره من رواية مجاهد مرسلا

---

(١) الفتح : ٢٧

حواسه حجاب مرسل بينه وبين مطالعة اللوح الذى هو من عالم الملكوت . فإن هبت ريح حركت هذا الحجاب ورفعته ، تلألأ فى مرآة القلب شيء من عالم الملكوت كالبرق الخاطف ، وقد يثبت ويدوم ، وقد لايدوم وهو الغالب . وما دام متيقظا فهو مشغول بماتورده الحواس عليه من عالم الملك والشهادة ، وهو حجاب عن عالم الملكوت . ومعنى النوم أن تركد الحواس عليه فلا تورده على القلب . فإذا تخلص منه ومن الخيال ، وكان صافيا فى جوهره ، ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ ، فوقع فى قلبه شيء مما فى اللوح ، كما تقع الصورة من مرآة فى مرآة أخرى إذا ارتفع الحجاب بينهما . إلا أن النوم مانع سائر الحواس عن العمل ، وليس مانعا للخيال عن عمله وعن تحركه . فما يقع فى القلب يبتدره الخيال فيحاكيه بمثال يقاربه ، وتكون المتخيلات أثبت فى الحفظ من غيرها ، فيبقى الخيال فى الحفظ ، فإذا انتبه لم يتذكر إلا الخيال ، فيحتاج المعبر أن ينظر إلى هذا الخيال حكاية أي معنى من المعانى ، فيرجع إلى المعانى بالمناسبة التى بين المتخيل والمعانى

وأمثلة ذلك ظاهرة عند من نظر فى علم التعبير ، ويكفيك مثال واحد ، وهو أن رجلا قال لابن سيرين : رأيت كأن بيدى خاتما أختم به أفواه الرجال وفروج النساء . فقال أنت مؤذن تؤذن قبل الصبح فى رمضان . قال صدقت . فانظر أن روح الختم هو المنع ، ولأجله يراد الختم ، وإنما ينكشف للقلب حال الشخص من اللوح المحفوظ كما هو عليه ، وهو كونه مانعا للناس من الأكل والشرب ، ولكن الخيال ألف المنع عند الختم بالخاتم ، فتمثله بالصورة الخيالية التى تتضمن روح المعنى ، ولا يبقى فى الحفظ إلا الصورة الخيالية

فهذه نبذة يسيرة من بحر علم الرؤيا الذى لاتنحصر عجائبه ، وكيف لا وهو أخو الموت ، وإنما الموت هو عجب من العجائب ، وهذا لأنه يشبهه من وجه ضعيف أثر فى كشف الغطاء عن عالم الغيب ، حتى صار النائم يعرف ماسيكون فى المستقبل . فماذا ترى فى الموت الذى يخرق الحجاب ، ويكشف الغطاء بالكلية ، حتى يرى الإنسان عند انقطاع النفس من غير تأخير نفسه إما محفوفة بالأنكال والمخازى والفضائح ، نعوذ بالله من ذلك ، وإما مكنوفا بنعيم مقيم وملك كبير لا آخر له ، وعند هذا يقال للأشقياء وقد انكشف الغطاء (لَقَدْ كُنْتَ فِى غَفْلَةٍ مِنْ هٰذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ [1]) ويقال (أَفَسِحْرٌ هٰذَا

---

[1] ق : ٢٢

أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْلَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [١]) وإليهم الإشارة بقوله تعالى (وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ [٢]) فأعلم العلماء وأحكم الحكماء ينكشف له عقيب الموت من العجائب والآيات مالم يخطر قط بباله ، ولا اختلج به ضميره . فلو لم يكن للعاقل هم وغم إلا الفكرة فى خطر تلك الحال ، أن الحجاب عماذا يرتفع ، وما الذى ينكشف عنه الغطاء من شقاوة لازمة أم سعادة دائمة ، لكان ذلك كافيا فى استغراق جميع العمر

والعجب من غفلتنا وهذه العظائم بين أيدينا ، وأعجب من ذلك فرحنا بأموالنا ، وأهلينا ، وبأسبابنا ، وذريتنا ، بل بأعضائنا ، وسمعنا ، وبصرنا ، مع أنا نعلم مفارقة جميع ذلك يقينا ، ولكن [١] أين من ينفث روح القدس فى روعه فيقول ما قال لسيد النبيين : أحبب من أحببت فإنك مفارقه ، وعش ماشئت فإنك ميت ، واعمل ماشئت فإنك مجزي به ؟ فلا جرم لما كان ذلك مكشوفا له بعين اليقين كان فى الدنيا كعابر سبيل [٢] لم يضع لبنة على لبنة ، ولا قصبة على قصبة [٣] ، ولم يخلف دينارا ولا درهما ، ولم يتخذ حبيبا ولا خليلا . نعم قال [٤] « لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلاً لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً وَلَكِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ » فبين أن خلة الرحمن تخللت باطن قلبه ، وأن حبه تمكن من حبة قلبه ، فلم يترك فيه متسعا لخليل ولا حبيب . وقد قال لأمته (إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ [٣]) فإنما أمته من أتبعه ، وما اتبعه إلا من أعرض عن الدنيا وأقبل على الآخرة ، فإنه مادعا إلا إلى الله واليوم الآخر ، وماصرف إلا عن الدنيا والحظوظ العاجلة . فبقدر ماأعرضت عن الدنيا وأقبلت على الآخرة فقد سلكت سبيله الذي سلكه . وبقدر ماسلكت سبيله فقد اتبعته ، وبقدر مااتبعته فقد صرت من أمته ، وبقدر ماأقبلت على الدنيا عدلت عن سبيله ورغبت عن متابعته ،

---

(١) حديث ان روح القدس نفث فى روعى أحبب من أحببت فانك مفارقه : الحديث تقدم

(٢) حديث لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة : تقدم أيضا

(٣) حديث لم يخلف دينارا ولا درهما : تقدم أيضا

(٤) حديث لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر ولكن صاحبكم خليل الرحمن : تقدم أيضا

---

(١) الطور : ١٥ ، ١٦ (٢) الزمر : ٤٧ (٣) آل عمران : ٣١

والتحقت بالذين قال الله تعالى فيهم (فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى[(١)])

فلو خرجت من مكمن الغرور ، وأنصفت نفسك يارجل ، وكانا ذلك الرجل ، لعلمت أنك من حين تصبح إلى حين تمسى لاتسعى إلا فى الحظوظ العاجلة ، ولاتتحرك ولاتسكن إلا لعاجل الدنيا ، ثم تطمع أن تكون غدا من أمته وأتباعه ! ماأبعد ظنك ، وما أبرد طمعك (أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ[(٢)])

ولنرجع إلى ما كنا فيه وبصدده فقد امتدّ عنان الكلام إلى غير مقصده . ولنذكر الآن من المنامات الكاشفة لأحوال الموتى مايعظم الانتفاع به ، إذ ذهبت النبوة وبقيت المبشرات وليس ذلك إلا المنامات .

بيان

منامات تكشف عن أحوال الموتى والأعمال النافعة فى الآخرة

فمن ذلك رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم[(١)] وقد قال عليه السلام « مَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَآنِي حَقًّا فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَمَثَّلُ بِي » وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام ، فرأيته لاينظر إليّ ، فقلت يارسول الله ماشأنى؟ فالتفت إليّ وقال : ألست المقبّل وأنت صائم؟ قال والذى نفسى بيده لاأقبّل امرأة وأنا صائم أبدا

وقال العباس رضي الله عنه . كنت ودا لعمر ، فاشتهيت أن أراه فى المنام ، فما رأيته إلا عند رأس الحول ، فرأيته يمسح العرق عن جبينه وهو يقول هذا أوان فراغى ، إن كان عرشى ليهد لولا أنى لقيته رؤفا رحيما .

وقال الحسن بن على . قال لى علي رضي الله عنه . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سنح لى الليلة فى منامى ، فقلت يارسول الله ، مالقيت من أمتك ! قال ادع عليهم . فقلت اللهم أبدلنى بهم من هو خير لى منهم ، وأبدلهم بى من هو شر لهم منى فخرج فضربه ابن ملجم

---

(١) حديث من رآنى فى المنام فقد رآنى فان الشيطان لايتخيل بى : متفق عليه من حديث أبى هريرة

(١) النازعات : ٣٧ (٢) القلم : ٣٥ ، ٣٦

وقال بعض الشيوخ . رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت يارسول الله استغفر لى ،فأعرض عنى .فقلت يارسول الله إن سفيان[1] بن عيينة حدثنا عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله ،أنك لم تُسأل شيئاً قط فقلت لا . فأقبل علي فقال . غفر الله لك

وروي عن العباس بن عبد المطلب قال : كنت مواخيا لأبى لهب ، مصاحبا له ، فلما مات وأخبر الله عنه بما أخبر ، حزنت عليه ، وأهمنى أمره . فسألت الله تعالى حولا أن يرينى إياه فى المنام . قال فرأيته يلتهب نارا ، فسألته عن حاله فقال : صرت إلى النار فى العذاب ، لايخفف عنى ولا يروّح إلا ليلة الإثنين فى كل الأيام والليالى ، قلت وكيف ذلك؟ قال ولد فى تلك الليلة محمد صلى الله عليه وسلم ، فجاءتنى أميمة فبشرتنى بولادة آمنة إيّاه ، ففرحت به . وأعتقت وليدة لى فرحا به ،فأثابنى الله بذلك أن رفع عنى العذاب فى كل ليلة اثنين

وقال عبد الواحد بن زيد : خرجت حاجا ، فصحبنى رجل كان لايقوم ، ولا يقعد ، ولا يتحرك ، ولا يسكن ، إلا صلى على النبي صلى الله عليه وسلم . فسألته عن ذلك فقال : أخبرك عن ذلك . خرجت أول مرة إلى مكة ومعى أبى ، فلما انصرفنا نمت فى بعض المنازل ، فبينا أنا نائم إذ أتانى آت فقال لى : قم فقد أمات الله أباك وسود وجهه ، قال فقمت مذعورا ، فكشفت الثوب عن وجهه ، فإذا هو ميت أسود الوجه . فداخلنى من ذلك رعب . فبينا أنا فى ذلك الغم ، إذ غلبتنى عينى فنمت ، فإذا على رأس أبى أربعة سودان معهم أعمدة حديد ، إذ أقبل رجل حسن الوجه بين ثوبين أخضرين ، فقال لهم تنحوا . فمسح وجهه بيده ، ثم أتانى فقال قم فقد بيض الله وجه أبيك . فقلت له من أنت بأبى أنت وأمى ؟ فقال أنا محمد . قال فقمت فكشفت الثوب عن وجه أبى ، فإذا هو أبيض فما تركت الصلاة بعد ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم

وعن عمر بن عبد العزيز قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما جالسان عنده ، فسلّمت وجلست ، فبينما أنا جالس إذ أُتي بعلي ومعاوية ، فأدخلا بيتا ، وأجيف عليهما الباب وأنا أنظر ، فما كان بأسرع من أن خرج

---

(١) حديث ابن عيينة عن محمد بن المنكدر عن جابر ماسئل النبي صلى الله عليه وسلم شيئا قط فقال لا : رواه مسلم وقد تقدم

علي رضي الله عنه وهو يقول : قضى لى ورب الكعبة . وما كان بأسرع من أن خرج معاوية على أثره وهو يقول : غفر لى ورب الكعبة

واستيقظ ابن عباس رضي الله عنهما مرة من نومه فاسترجع وقال : قتل الحسين والله وكان ذلك قبل قتله ، فأنكره أصحابه . فقال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه زجاجة من دم ، فقال ألا تعلم ماصنعت أمتى بعدى ؟ قتلوا ابنى الحسين ، وهذا دمه ودم أصحابه أرفعها إلى الله تعالى . فجاء الخبر بعد أربعة وعشرين يوما بقتله فى اليوم الذى رآه

ورؤي الصديق رضي الله عنه ، فقيل له إنك كنت تقول أبدا فى لسانك : هذا أوردنى الموارد ، فماذا فعل الله بك ؟ قال قلت به لا إله إلا الله فأوردنى الجنة

بيان

منامات المشايخ رحمة الله عليهم أجمعين

قال بعض المشايخ : رأيت متمما الدورقى فى المنام ، فقلت ياسيدى مافعل الله بك ؟ فقال ديربى فى الجنان ، فقيل لى يامتمم هل استحسنت فيها شيئا ؟ قلت لاياسيدى . فقال لواستحسنت منها شيئا لوكلتك إليه ، ولم أوصلك إليّ

ورؤي يوسف بن الحسين فى المنام ، فقيل له مافعل الله بك ؟ قال غفر لى . قيل بماذا ؟ قال ماخلطت جدا بهزل

وعن منصور بن اسماعيل قال : رأيت عبد الله البزار فى النوم ، فقلت مافعل الله بك ؟ قال أوقفنى بين يديه ، فغفر لى كل ذنب أقررت به إلا ذنبا واحدا ، فإنى استحييت أن أقرّ به . فأوقفنى فى العرق حتى سقط لحم وجهى . فقلت ما كان ذلك الذنب ؟ قال نظرت إلى غلام جميل فاستحسنته ، فاستحييت من الله أن أذكره

وقال أبو جعفر الصيدلانى : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم ، وحوله جماعة من الفقراء فبينما نحن كذلك إذ انشقت السماء ، فنزل ملكان ، أحدهما بيده طشت ، وبيد الآخر إبريق . فوضع الطشت بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فغسل يده ، ثم أمر حتى غسلوا ، ثم وضع الطشت بين يديّ ، فقال أحدهما للآخر : لاتصب على يده

فإنه ليس منهم . فقلت يارسول الله أليس قد روي عنك أنك قلت المرء مع من أحب ؟ قال بلى : قلت يارسول الله فإنى أحبك وأحب هؤلاء الفقراء . فقال صلى الله عليه وسلم : صب على يده فإنه منهم

وقال الجنيد : رأيت فى المنام كأنى أتكلم على الناس ، فوقف علي ملك فقال : أقرب ماتقرب به المتقربون إلى الله تعالى ماذا ؟ فقلت عمل خفي بميزان وفي . فولى الملك وهو يقول: كلام موفق والله . ورؤي بجمع في النوم ، فقيل له كيف رأيت الأمر ؟ فقال رأيت الزاهدين فى الدنيا ذهبوا بخير الدنيا والآخرة

وقال رجل من أهل الشام للعلاء بن زياد : رأيتك فى النوم كأنك فى الجنة . فنزل عن مجلسه وأقبل عليه ثم قال : لعل الشيطان أراد أمرا فعصمت منه ، فأشخص رجلا يقتلنى

وقال محمد بن واسع : الرؤيا تسر المؤمن ولاتغره

وقال صالح بن بشير : رأيت عطاء السلمى فى النوم فقلت له رحمك الله ، لقد كنت طويل الحزن فى الدنيا . قال أما والله لقد أعقبنى ذلك راحة طويلة وفرحا دائما . فقلت فى أى الدرجات أنت؟ فقال مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين الآية

وسئل زرارة بن أبى أوفى فى المنام،أي الأعمال أفضل عندكم ؟ فقال:الرضا وقصر الأمل

وقال يزيد بن مذعور : رأيت الأوزاعى فى المنام ، فقلت : ياأباعمرو ، دلنى على عمل أتقرب به إلى الله تعالى . قال :ما رأيت هناك درجة أرفع من درجة العلماء ، ثم درجة المحزونين . قال وكان يزيد شيخا كبيرا فلم يزل يبكى حتى أظلمت عيناه

وقال ابن عيينة : رأيت أخى فى المنام ، فقلت ياأخى مافعل الله بك ؟ فقال كل ذنب استغفرت منه غفر لى ، وما لم أستغفر منه لم يغفر لى

وقال علي الطلحى : رأيت فى المنام امرأة لاتشبه نساء الدنيا ؛ فقلت من أنت ؟ فقالت حوراء . فقلت زوجينى نفسك . قالت اخطبنى إلى سيدى وأمهرنى . قلت وما مهرك ؟ قالت حبس نفسك عن آفاتها

وقال ابراهيم بن اسحاق الحربى : رأيت زبيدة فى المنام ، فقلت مافعل الله بك ؟ قالت غفر لى . فقلت لها بما أنفقت فى طريق مكة ؟ قالت أما النفقات التى أنفقتها رجعت

أجورها إلى أربابها وغفر لى بنيتى

ولما مات سفيان الثورى رئى فى المنام ، فقيل له مافعل الله بك ؟ قال وضعت أول قدمى على الصراط ، والثانى فى الجنة

وقال أحمد بن أبى الحوارى : رأيت فيما يري النائم جارية مارأيت أحسن منها وكان يتلألأ وجهها نورا ، فقلت لها مما ذا ضوء وجهك ؟ قالت تذكر تلك الليلة التى بكيت فيها قلت نعم قالت أخذت دمعك فمسحت به وجهى ، فمن ثم ضوء وجهى ، كما ترى

وقال الكتانى : رأيت الجنيد فى المنام ، فقلت له مافعل الله بك ؟ قال طاحت تلك الإشارات ، وذهبت تلك العبارات ، وما حصلنا إلا على ركعتين كنا نصليهما فى الليل

ورئيت زبيدة فى المنام ، فقيل لها مافعل الله بك ، قالت غفر لى بهذه الكلمات الأربع لا إله إلا الله أفنى بها عمرى . لا إله إلا الله أدخل بها قبرى ، لا إله إلا الله أخلو بها وحدى ، لا إله إلا الله ألقى بها ربى

ورئ بشر فى المنام ، فقيل له مافعل الله بك ، قال رحمنى ربى عز وجل وقال : يابشر أما استحييت منى ؟ كنت تخافنى كل ذلك الخوف ؟

ورؤي أبو سليمان فى النوم ، فقيل له مافعل الله بك ؟ قال رحمني ، وما كان شيء أضرّ علي من إشارات القوم إليّ

وقال أبو بكر الكتانى : رأيت فى النوم شابا لم أر أحسن منه ، فقلت له من أنت؟ قال التقوى . قلت فأين تسكن ؟ قال كل قلب حزين . ثم التفت فإذا امرأة سوداء فقلت من أنت ؟ قالت أنا السقم . قلت فأين تسكنين ، قالت كل قلب فرح مرح . قال فانتبهت وتعاهدت أن لاأضحك إلا غلبة

وقال أبو سعيد الخراز : رأيت فى المنام كأن إبليس وثب عليّ ، فأخذت العصا لأضربه فلم يفزع منها ، فهتف بي هاتف : إن هذا لايخاف من هذه ، وإنما يخاف من نور يكون فى القلب

وقال المسوحى : رأيت إبليس فى النوم يمشى عريانا ، فقلت ألا تستحيي من الناس؟ فقال بالله هؤلاء ناس ؟ لو كانوا من الناس ما كنت ألعب بهم طرفي النهار كما يتلاعب الصبيان بالكرة ، بل الناس قوم غير هؤلاء قد أسقموا جسمى ، وأشار بيده إلى أصحابنا الصوفية

وقال أبو سعيد الخراز : كنت فى دمشق، فرأيت فى المنام كأن النبي صلى الله عليه وسلم جاءنى متكئا على أبى بكر وعمر رضي الله عنهما ، فجاء فوقف عليّ وأنا أقول شيئا من الأصوات وأدق فى صدرى ، فقال شر هذا أكثر من خيره .

وعن ابن عيينة قال : رأيت سفيان الثورى فى النوم كأنه فى الجنة ، يطير من شجرة إلى شجرة ، يقول لمثل هذا فليعمل العاملون . فقلت له أوصنى . قال أقلل من معرفة الناس

وروي أبو حاتم الرازى ، عن قبيصة بن عقبة قال : رأيت سفيان الثورى ، فقلت مافعل الله بك ؟ فقال :

نظرت إلى ربى كفاحا فقال لى　　هنيئا رضائى عنك ياابن سعيد
فقد كنت قوّاما إذا أظلم الدجى　　بعبرة مشتاق وقلب عميد
فدونك فاختر أى قصر أردته　　وزرنى فإنى منك غير بعيد

ورؤى الشبلى بعد موته بثلاثة أيام ، فقيل له مافعل الله بك ؟ قال ناقشنى حتى أيست فلما رأى يأسى تغمدنى برحمته .

ورؤي مجنون بنى عامر بعد موته فى المنام ، فقيل له مافعل الله بك ؟ قال غفر لى وجعلنى حجة على المحبين .

ورؤي الثورى فى المنام ، فقيل له مافعل الله بك ؟ قال رحمنى . فقيل له ماحال عبد الله ابن المبارك ؟ فقال هو ممن يلج على ربه فى كل يوم مرتين .

ورؤي بعضهم فسئل عن حاله ، فقال حاسبونا فدققوا ، ثم منوا فأعتقوا .

ورؤي مالك بن أنس ، فقيل له مافعل الله بك ؟ قال غفر لى بكلمة كان يقولها عثمان ابن عفان رضي الله عنه عند رؤية الجنازة ، سبحان الحي الذى لايموت .

ورئ فى الليلة التى مات فيها الحسن البصرى ، كأن أبواب السماء مفتحة ، وكأن مناديا ينادى : ألا إن الحسن البصرى قدم على الله وهو عنه راض

ورئ الجاحظ ، فقيل له مافعل الله بك ؟ فقال :

ولا تكتب بخطك غير شئ　　يسرك فى القيامة أن تراه

ورأى الجنيد إبليس فى المنام عريانا ، فقال ألا تستحيي من الناس ؟ فقال وهؤلاء ناس؟

الناس أقوام فى مسجد الشونيزية ، قد أضنوا جسدى ؛ وأحرقوا كبدى . قال الجنيد . فلما انتبهت غدوت إلى المسجد ، فرأيت جماعة قد وضعوا رؤسهم على ركبهم يتفكرون فلما رأونى قالوا لايغرنك حديث الخبيث .

ورؤي النصراباذى بمكة بعد وفاته فى النوم ، فقيل له مافعل الله بك ؟ قال عوتبت عتاب الأشراف ، ثم نوديت ياأبا القاسم ، أَبَعْدَ الاتصال انفصال ؟ فقلت لا ياذا الجلال فما وضعت في اللحد حتى لحقت بربى .

ورأى عتبة الغلام حوراء فى المنام على صورة حسنة ، فقالت ياعتبة ، أنا لك عاشقة ، فانظر لاتعمل من الأعمال شيئا فيحال بينى وبينك . فقال عتبة : طلقت الدنيا ثلاثا ، لارجعة لى عليها حتى ألقاك .

وقيل رأى أيوب السختيانى جنازة عاص ، فدخل الدهليز كيلا يصلى عليها ، فرأى الميت بعضهم فى المنام ، فقيل له مافعل الله بك ، قال غفرلى وقال : قل لأيوب (قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّى إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ [1])

وقال بعضهم : رأيت فى الليلة التى مات فيها داود الطائى نورا ، وملائكة نزولا ، وملائكة صعودا . فقلت أى ليلة هذه ؟ فقالوا ليلة مات فيها داود الطائى وقد زخرفت الجنة لقدوم روحه

وقال أبو سعيد الشحام : رأيت سهلا الصعلوكى فى المنام ، فقلت أيها الشيخ ، قال دع التشييخ . قلت تلك الأحوال التي شاهدتها ، فقال لم تغن عنا . فقلت مافعل الله بك ، قال غفرلى بمسائل كان يسأل عنها العجز

وقال أبو بكر الرشيدى : رأيت محمدا الطوسى المعلم فى النوم ، فقال لى : قل لأبى سعيد الصفار المؤدّب .

وكنا على أن لانحول عن الهوى فقد وحياة الحب حلتم وما حلنا

قال فانتبهت فذكرت ذلك له ، فقال كنت أزور قبره كل جمعة ، فلم أزره هذه الجمعة

وقال ابن راشد : رأيت ابن المبارك فى النوم بعد موته ، فقلت أليس قدمت ؟ قال بلى

---

(١) الاسراء : ١٠٠

قلت فما صنع الله بك ؟ قال غفر لي مغفرة أحاطت بكل ذنب . قلت فسفيان الثوري ، قال بخ بخ ، ذاك من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين الآية

وقال الربيع بن سليمان : رأيت الشافعي رحمة الله عليه بعد وفاته في المنام ، فقلت ياأبا عبد الله ، ماصنع الله بك ؟ قال أجلسني على كرسي من ذهب ونثر عليّ اللؤلؤ الرطب

ورأى رجل من أصحاب الحسن البصري ليلة مات الحسن ، كأن مناديا ينادي (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ [1]) واصطفى الحسن البصري على أهل زمانه . وقال أبو يعقوب القاري الدقيقي . أرأيت في منامي رجلا آدم طوالا والناس يتبعونه فقلت من هذا ؟ قالوا أويس القرني . فأتيته فقلت وصني رحمك الله . فكلح في وجهي فقلت مسترشد فأرشدني أرشدك الله . فأقبل علي وقال : اتبع رحمة ربك عند محبته ، واحذر نقمته عند معصيته ، ولا تقطع رجاءك منه في خلال ذلك ، ثم ولى وتركني

وقال أبو بكر بن أبي مريم . رأيت ورقاء بن بشر الحضرمي ، فقلت مافعلت ياورقاء قال نجوت بعد كل جهد . قلت فأي الأعمال وجدتموها أفضل ؛ قال البكاء من خشية الله

وقال يزيد ابن نعامة : هلكت جارية في الطاعون الجارف ، فرآها أبوها في المنام فقال لها يابنية أخبريني عن الآخرة . قالت ياأبت قدمنا على أمر عظيم ، نعلم ولا نعمل ، وتعملون ولا تعلمون ، والله لتسبيحة أو تسبيحتان ، أو ركعة أو ركعتان في فسحة عمل أحب إليّ من الدنيا وما فيها .

وقال بعض أصحاب عتبة الغلام : رأيت عتبة في المنام . فقلت ماصنع الله بك ؟ قال دخلت الجنة بتلك الدعوة المكتوبة في بيتك . قال فلما أصبحت جئت إلى بيتي ، فإذا خط عتبة الغلام في حائط البيت : ياهادي المضلين ، وياراحم المذنبين ، ويامقيل عثرات العاثرين ، ارحم عبدك ذا الخطر العظيم والمسلمين كلهم أجمعين ، واجعلنا مع الأحياء المرزوقين الذين أنعمت عليهم من النبيين ، والصديقين ، والشهداء والصالحين ، آمين يارب العالمين

وقال موسى بن حماد : رأيت سفيان الثوري في الجنة ، يطير من نخلة إلى نخلة ،

---

(١) آل عمران : ٣٣

ومن شجرة إلى شجرة . فقلت ياأبا عبد الله ، بم نلت هـذا ؟ قال بالورع . قلت فما بال علي بن عاصم ؟ قال ذاك لا يكاد يرى إلا كما يرى الكوكب

ورأى رجل من التابعين النبي صلى الله عليه وسلم في المنام . فقال : يارسول الله عظني . قال نعم من لم يتفقد النقصان فهو في نقصان . ومن كان في نقصان فالموت خير له

وقال الشافعي رحمة الله عليه : دهمني في هذه الأيام أمر أمضني وآلمني ، ولم يطلع عليه غير الله عز وجل ، فلما كان البارحة أتاني آت في منامي ، فقال لي يامحمد بن إدريس ، قل اللهم إني لا أملك لنفسي نفعا ، ولا ضرا ، ولا موتا ، ولا حياة ، ولا نشورا . ولا أستطيع أن آخذ إلا ماأعطيتني ، ولا اتقي إلا ماوقيتني . اللهم فوفقني لما تحب وترضى من القول والعمل في عافية . فلما أصبحت أعدت ذلك ، فلما ترحل النهار أعطاني الله عز وجل طلبتي ، وسهل لي الخلاص مما كنت فيه ، فعليكم بهذه الدعوات لاتغفلوا عنها

فهذه جملة من المكاشفات تدل على أحوال الموتى ، وعلى الأعمال المقربة إلى الله زلفى . فلنذكر بعدها مابين يدي الموتى من ابتداء نفخة الصور إلى آخر القرار ، إما في الجنة أو في النار ، والحمد لله حمد الشاكرين

الشطر الثاني

من كتاب ذكر الموت ، في أحوال الميت من وقت نفخة الصور

إلى آخر الاستقرار في الجنة أو في النار ، وتفصيل مابين يديه من الأهوال والأخطار

وفيه بيان نفخة الصور ، وصفة أهل المحشر وأهله ، وصفة عرق أهل المحشر ، وصفة طول يوم القيامة ، وصفة يوم القيامة ودواهيها وأساميها ، وصفة المساءلة عن الذنوب وصفة الميزان ، وصفة الخصماء ورد المظالم ، وصفة الصراط ، وصفة الشفاعة ، وصفة الحوض وصفة جهنم وأهوالها ، وأنكالها ، وحياتها ، وعقاربها ، وصفة الجنة وأصناف نعيمها ، وعدد الجنان ، وأبوابها ، وغرفها ، وحيطانها ، وأنهارها ، وأشجارها ، ولباس أهلها ، وفرشهم وسررهم ، وصفة طعامهم ، وصفة الحور العين والولدان ، وصفة النظر إلى وجه الله تعالى ، وباب في سعة رحمة الله تعالى ، وبه ختم الكتاب إن شاء الله تعالى

صفة

نفخة الصور

قد عرفت فيما سبق شدة أحوال الميت فى سكرات الموت ، وخطره فى خوف العاقبة ، ثم مقاساته لظلمة القبر وديدانه ، ثم لمنكر ونكير وسؤالهما ، ثم لعذاب القبر وخطره إن كان مغضوبا عليه . وأعظم من ذلك كله الأخطار التى بين يديه : من نفخ الصور ، والبعث يوم النشور ، والعرض على الجبار ، والسؤال عن القليل والكثير ، ونصب الميزان لمعرفة المقادير ، ثم جواز الصراط مع دقته وحدته ، ثم انتظار النداء عند فصل القضاء إما بالإسعاد وإما بالإشقاء . فهذه أحوال وأهوال لابد لك من معرفتها ثم الإيمان بها على سبيل الجزم والتصديق ، ثم تطويل الفكر فى ذلك لينبعث من قلبك دواعى الاستعداد لها

وأكثر الناس لم يدخل الإيمان باليوم الآخر صميم قلوبهم ، ولم يتمكن من سويداء أفئدتهم . ويدل على ذلك شدة تشمرهم واستعدادهم لحر الصيف وبرد الشتاء ، وتهاونهم بحر جهنم وزمهريرها ، مع ماتكتنفه من المصاعب والأهوال . بل إذا سئلوا عن اليوم الآخر نطقت به ألسنتهم ، ثم غفلت عنه قلوبهم . ومن أخبر بأن مابين يديه من الطعام مسموم ، فقال لصاحبه الذى أخبره صدقت ، ثم مد يده لتناوله ، كان مصدقا بلسانه ، ومكذبا بعمله . وتكذيب العمل أبلغ من تكذيب اللسان

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم [1] « قَالَ اللهُ تَعَالَى شَتَمَنِي ابْنُ آدَمَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَشْتُمَنِي وَكَذَّبَنِي وَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُكَذِّبَنِي أَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَيَقُولُ إِنَّ لِي وَلَدًا وَأَمَّا تَكْذِيبُهُ فَقَوْلُهُ لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي »

وإنما فتور البواطن عن قوة اليقين والتصديق بالبعث والنشور لقلة الفهم فى هذا العالم لأمثال تلك الأمور . ولو لم يشاهد الإنسان توالد الحيوانات ، وقيل له إن صانعا يصنع من النطفة

﴿ الشطر الثانى من وقت نفخة الصور ﴾

(١) حديث قال الله تعالى شتمنى ابن آدم وما ينبغى له أن يشتمنى وكذبنى وما ينبغى له أن يكذبنى الحديث : البخارى من حديث أبى هريرة

القدرة مثل هذا الآدمي المصور، العاقل، المتكلم، المتصرف، لاشتد نفور باطنه عن التصديق به. ولذلك قال الله تعالى (أَوَ لَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ [1]) وقال تعالى (أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى [2])

ففي خلق الآدمي مع كثرة عجائبه، واختلاف تركيب أعضائه، أعاجيب تزيد على الأعاجيب في بعثه وإعادته. فكيف ينكر ذلك من قدرة الله تعالى وحكمته من يشاهد ذلك في صنعته وقدرته! فإن كان في إيمانك ضعف فقوّ الإيمان بالنظر في النشأة الأولى، فإن الثانية مثلها وأسهل منها. وإن كنت قويّ الإيمان بها فأشعر قلبك تلك المخاوف والأخطار، وأكثر فيها التفكر والاعتبار، لتسلب عن قلبك الراحة والقرار، فتشتغل بالتشمر للعرض على الجبار، وتفكر أولا فيما يقرع سمع سكان القبور، من شدة نفخ الصور، فإنها صيحة واحدة تنفرج بها القبور عن رءوس الموتى، فيثورون دفعة واحدة، فتوهم نفسك وقد ثبت متغيرا وجهك، مغبرا بدنك من فرقك إلى قدمك من تراب قبرك، مبهوتا من شدة الصعقة، شاخص العين نحو النداء، وقد ثار الخلق ثورة واحدة من القبور التي طال فيها بلاؤهم، وقد أزعجهم الفزع والرعب مضافا إلى ما كان عندهم من الهموم، والغموم، وشدة الانتظار لعاقبة الأمر، كما قال تعالى (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ [3]) وقال تعالى (فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ [4]) وقال تعالى (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ [5])

فلو لم يكن بين يدي الموتى إلا هول تلك النفخة، لكان ذلك جديرا بأن يتقى، فإنها

---

(1) يس: ٧٧ (2) القيامة: ٣٦ إلى ٣٩ (3) الزمر: ٦٨ (4) المدثر: ٨ إلى ١٠ (5) يس: ٤٨ إلى ٥٢

نفخة وصيحة يصعق بها من فى السموات والأرض ، يعنى يموتون بها إلا من شاء الله وهو بعض الملائكة . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [(١)] « كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الصُّورِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ وَحَنَى الْجَبْهَةَ وَأَصْغَى بِالْأُذُنِ يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ فَيَنْفُخُ » قال مقاتل : الصور هو القرن . وذلك أن إسرافيل عليه السلام واضع فاه على القرن كهيئة البوق ، ودائرة رأس القرن كعرض السموات والأرض ، وهو شاخص بصره نحو العرش ، ينتظر متى يؤمر فينفخ النفخة الأولى . فإذا نفخ صعق من فى السموات والأرض ، أي مات كل حيوان من شدة الفزع إلا من شاء الله ، وهو جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل وملك الموت . ثم يأمر ملك الموت أن يقبض روح جبريل ، ثم روح ميكائيل ، ثم روح إسرافيل . ثم يأمر ملك الموت فيموت ، ثم يلبث الخلق بعد النفخة الأولى فى البرزخ أربعين سنة ، ثم يحيي الله إسرافيل ، فيأمره أن ينفخ الثانية . فذلك قوله تعالى (ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ [(١)]) على أرجلهم ينظرون إلى البعث

وقال صلى الله عليه وسلم [(٢)] « حِينَ بُعِثَ إِلَيَّ بُعِثَ إِلَى صَاحِبِ الصُّورِ فَأَهْوَى بِهِ إِلَى فِيهِ وَقَدَّمَ رِجْلاً وَأَخَّرَ أُخْرَى يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ أَلاَ فَاتَّقُوا النَّفْخَةَ » فتفكر فى الخلائق وذلهم ، وانكسارهم ، واستكانتهم عند الانبعاث خوفا

---

(١) حديث كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن وحنى الجبهة ـ الحديث : الترمذى من حديث أبي سعيد وقال حسن ورواه ابن ماجه بلفظ أن صاحبي القرن بأيديهما أو فى أيديهما قرنان يلاحظان النظر متى يؤمران وفى رواية ابن ماجه الحجاج بن أرطاه : مختلف فيه

(٢) حديث حين بعث إلي بعث إلى صاحب الصور فأهوى به إلى فيه وقدم رجلا وأخر أخرى الحديث : لم أجده هكذا بل قد ورد أن اسرافيل من حين ابتداء الخلق وهو كذلك كما رواه البخارى فى التاريخ وأبو الشيخ فى كتاب العظمة من حديث أبي هريرة أن الله تبارك وتعالى لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطاه اسرافيل فهو واضعه على فيه شاخص ببصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر : قال البخارى ولم يصح وفى رواية لأبى الشيخ ماطرف صاحب الصور مذ وكل به مستعد ينظر نحو العرش مخافة أن يؤمر قبل أن يرتد إليه طرفه كأن عينيه كوكبان دريان : وإسنادها جيد

---

(١) الزمر : ٦٨

من هذه الصعقة ، وانتظارا لما يقضى عليهم من سعادة أوشقاوة ، وأنت فيما بينهم منكسر كانكسارهم ، متحير كتحيرهم . بل إن كنت فى الدنيا من المترفهين والأغنياء المتنعمين ، فملوك الأرض فى ذلك اليوم أذل أهل أرض الجمع ، وأصغرهم ، وأحقرهم ، يوطئون بالأقدام مثل الذر . وعند ذلك تقبل الوحوش من البرارى والجبال ، منكسة رءوسها ، مختلطة بالخلائق بعد توحشها ، ذليلة ليوم النشور من غير خطيئة تدنست بها . ولكن حشرتهم شدة الصعقة ، وهول النفخة ، وشغلهم ذلك عن الهرب من الخلق والتوحش منهم . وذلك قوله تعالى (وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ [1]) ثم أقبلت الشياطين المردة بعد تمردها وعتوّها ، وأذعنت خاشعة من هيبة العرض على الله تعالى ، تصديقا لقوله تعالى (فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا [2]) فتفكر فى حالك وحال قلبك هنالك

صفة

أرض المحشر وأهله

ثم انظر كيف يساقون بعد البعث والنشور حفاة ، عراة ، غرلا ، إلى أرض المحشر ، أرض بيضاء ، قاع صفصف ، لاترى فيها عوجا ولا أمتا ، ولاترى عليها ربوة يختفى الإنسان وراءها ، ولا وهدة ينخفض عن الأعين فيها ، بل هو صعيد واحد بسيط ، لاتفاوت فيه ، يساقون إليه زمرا . فسبحان من جمع الخلائق على اختلاف أصنافهم من أقطار الأرض ، إذ ساقهم بالراجفة تتبعها الرادفة . والراجفة هي النفخة الأولى ، والرادفة هى النفخة الثانية . وحقيق لتلك القلوب أن تكون يومئذ واجفة ، ولتلك الأبصار أن تكون خاشعة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ

---

(١) حديث يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرص النقى ليس فيها معلم لأحد منفق

---

(١) التكوير : ٥ (٢) مريم : ٦٨

بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ كَقُرْصِ النَّقِيِّ لَيْسَ فِيهَا مَعْلَمٌ لِأَحَدٍ » قال الراوى : والعفرة بياض ليس بالناصع ، والنقى هو النقى عن القشر والنخالة ، ومعلم أى لابناء يستتر ، ولاتفاوت يرد البصر . ولاتظنن أن تلك الأرض مثل أرض الدنيا ، بل لاتساويها إلا فى الاسم ، قال تعالى (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمٰوَاتُ [(1)]) قال ابن عباس يزاد فيها وينقص ، وتذهب أشجارها ، وجبالها ، وأوديتها ، ومافيها ، وتمدّ مدّ الأديم العكاظى ، أرض بيضاء مثل الفضة ، لم يسفك عليها دم ، ولم يعمل عليها خطيئة والسموات تذهب شمسها ، وقمرها ، ونجومها

فانظر يامسكين فى هول ذلك اليوم وشدته ، فإنه إذا اجتمع الخلائق على هذا الصعيد تناثرت من فوقهم نجوم السماء ، وطمس الشمس والقمر ، وأظلمت الأرض لخمود سراجها ، فبيناهم كذلك إذ دارت السماء من فوق رءوسهم ، وانشقت مع غلظها وشدتها خمسمائة عام ، والملائكة قيام على حافاتها وأرجائها ، فيا هول صوت انشقاقها فى سمعك ، ويا هيبة ليوم تنشق فيه السماء مع صلابتها وشدتها ، ثم تنهار وتسيل كالفضة المذابة تخالطها صفرة ، فصارت وردة كالدهان ، وصارت السماء كالمهل ، وصارت الجبال كالعهن ، واشتبك الناس كالفراش المبثوث ، وهم حفاة ، عراة ، مشاة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[(1)] « يُبْعَثُ النَّاسُ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً * قَدْ أَلْجَمَهُمُ الْعَرَقُ وَبَلَغَ شُحُومَ الْآذَانِ » قالت سودة زوج النبي صلى الله عليه وسلم راوية الحديث : قلت يارسول الله واسوأتاه ! ينظر بعضنا إلى بعض ؟ فقال شغل الناس عن ذلك بهم (لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ [(2)]) فأعظم بيوم تنكشف فيه العورات ، ويؤمن فيه مع ذلك النظر والالتفات . كيف وبعضهم يمشون على

عليه من حديث سهل ابن سعد وفصل البخارى قوله ليس فيها معلم لأحد فجعلها من قول سهل أو غيره وأدرجها مسلم فيه

(١) حديث يبعث الناس حفاة عراة غرلا قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الأذان قالت سودة رواية الحديث واسوأتاه ـ الحديث : الثعلبى والبغوى وهو فى الصحيحين من حديث عائشة وهى القائلة واسوأتاه : ورواه الطبرانى فى الأوسط من حديث أم سلمة وهى القائلة واسوأتاه

---

(١) ابراهيم : ٤٨ (٢) عبس ٠ ٣٧

* غرلا : أى من غير اختتان

بطونهم ووجوههم ، فلا قدرة لهم على الالتفات إلى غيرهم : قال [١] أبو هريرة رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةَ أَصْنَافٍ رُكْبَانًا وَمُشَاةً وَعَلَى وُجُوهِهِمْ » فقال رجل يارسول الله ، وكيف يمشون على وجوههم ؟ قال « الَّذِى أَمْشَاهُمْ عَلَى أَقْدَامِهِمْ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ »

فى طبع الآدمي إنكار كل مالم يأنس به . ولولم يشاهد الإنسان الحية وهي تمشى على بطنها كالبرق الخاطف ، لأنكر تصور المشي على غير رجل . والمشي بالرجل أيضا مستبعد عند من لم يشاهد ذلك . فإياك أن تنكر شيئا من عجائب يوم القيامة لمخالفته قياس مافى الدنيا ، فإنك لولم تكن قد شاهدت عجائب الدنيا ، ثم عرضت عليك قبل المشاهدة ، لكنت أشد إنكارا لها : فأحضر فى قلبك صورتك وأنت واقف عاريا ، مكشوفا ، ذليلا ، مدحورا ، متحيرا ، مبهوتا ، منتظرا لما يجرى عليك من القضاء بالسعادة أو بالشقاوة ، وأعظم هذه الحال فإنها عظيمة

صفة العرق

ثم تفكر فى ازدحام الخلائق واجتماعهم ، حتى ازدحم على الموقف أهل السموات السبع والأرضين السبع ، من ملك ، وجن ، وإنس ، وشيطان ، ووحش ، وسبع ، وطير ، فأشرقت عليهم الشمس وقد تضاعف حرها ، وتبدلت عما كانت عليه من خفة أمرها ، ثم أدنيت من رءوس العالمين كقاب قوسين ، فلم يبق على الأرض ظل إلا ظل عرش رب العالمين ولم يمكّن من الاستظلال به إلا المقربون ، فمن بين مستظل بالعرش ، وبين مضح لحر الشمس ، قد صهرته بحرّها ، واشتد كربه وغمه من وهجها . ثم تدافعت الخلائق ، ودفع بعضهم بعضاً لشدة الزحام واختلاف الأقدام ، وانضاف إليه شدة الخجلة والحياء من الافتضاح ؛ والاختزاء عند العرض على

---

(١) حديث أبى هريرة يحشر الناس يوم القيامة ركبانا ومشاة على وجوههم الحديث ـ رواه الترمذى وحسنه وفى الصحيحين من حديث أنس أن رجلا قال يانبى الله كيف يحشر الكافر على وجهه قال أليس الذي أمشاه على الرجلين فى الدنيا قادرا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة

جبار السماء ، فاجتمع وهج الشمس ، وحر الأنفاس ، واحتراق القلوب بنار الحياء والخوف ، ففاض العرق من أصل كل شعرة حتى سال على صعيد القيامة ، ثم ارتفع على أبدانهم على قدر منازلهم عند الله ، فبعضهم بلغ العرق ركبتيه ، وبعضهم حقويه ، وبعضهم إلى شحمة أذنيه ، وبعضهم كاد يغيب فيه

قال [١] ابن عمر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ حَتَّى يَغِيبَ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ » وقال [٢] أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يَعْرَقُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَذْهَبَ عَرَقُهُمْ فِي الأَرْضِ سَبْعِينَ بَاعاً وَيُلْجِمُهُمْ وَيَبْلُغُ آذَانَهُمْ » كذا رواه البخاري ومسلم فى الصحيح

وفى حديث آخر [٣] « قِيَاماً شَاخِصَةً أَبْصَارُهُمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً إِلَى السَّمَاءِ فَيُلْجِمُهُمُ الْعَرَقُ مِنْ شِدَّةِ الْكَرْبِ »

وقال [٤] عقبة بن عامر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تَدْنُو الشَّمْسُ مِنَ الأَرْضِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَعْرَقُ النَّاسُ فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَبْلُغُ عَرَقُهُ عَقِبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ نِصْفَ سَاقِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ رُكْبَتَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ فَخِذَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ خَاصِرَتَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ فَاهُ » وأشار بيده فألجمها فاه « وَمِنْهُمْ مَنْ يُغَطِّيهِ الْعَرَقُ » وضرب بيده على رأسه هكذا

فتأمل يامسكين فى عرق أهل المحشر وشدة كربهم ، وفيهم من ينادى فيقول :

---

(١) حديث ابن عمر يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه : متفق عليه

(٢) حديث أبي هريرة يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم فى الأرض سبعين ذراعا ـ الحديث: أخرجاه فى الصحيحين كما ذكر المصنف

(٣) حديث قياما شاخصة أبصارهم أربعين سنة إلى السماء يلجمهم العرق من شدة الكرب : ابن عدى من حديث ابن مسعود وفيه أبو طيبة عيسى بن سليمان الجرجانى : ضعفه ابن معين وقال ابن عدى لاأظن أنه كان يتعمد الكذب لكن لعله تشبه عليه

(٤) حديث عقبة بن عامر تدنو الشمس من الأرض يوم القيامة فيعرق الناس فمنهم من يبلغ عرقه عقبه الحديث رواه أحمد وفيه ابن لهيعة

رب أرحنى من هـذا الكرب والانتظار ولو إلى النار . وكل ذلك ولم يلقوا بعد حسابا ولاعقابا ، فإنك واحد منهم ، ولاتدرى إلى أين يبلغ بك العرق .

واعلم أن كل عرق لم يخرجه التعب فى سبيل الله من حج ، وجهاد ، وصيام ، وقيام ، وتردد فى قضاء حاجة مسلم ، وتحمل مشقة فى أمر بمعروف ونهي عن منكر ، فسيخرجه الحياء والخوف فى صعيد القيامة ، ويطول فيه الكرب . ولوسلم ابن آدم من الجهل والغرور لعلم أن تعب العرق فى تحمل مصاعب الطاعات أهون أمرا ، وأقصر زمانا من عرق الكرب والانتظار فى القيامة ، فإنه يوم عظيمة شدته ، طويـــلة مدته

صفة
طول يوم القيامة

يوم تقف فيه الخلائق شاخصة أبصارهم ، منفطرة قلوبهم ، لايكلمون ولاينظر فى أمورهم يقفون ثلثمائة عام لايأكلون فيه أكلة ، ولايشربون فيه شربة ولايجدون فيه روح نسيم . قال كعب وقتادة (يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ [1]) قال يقومون مقدار ثلثمائة عام . بل قال عبد الله [1] بن عمرو : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هـذه الآية ثم قال « كَيْفَ بِكُمْ إِذَا جَمَعَكُمُ اللهُ كَمَا تُجْمَعُ النَّبْلُ فِى الْكِنَانَةِ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ لاَ يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ »

وقال الحسن . ماظنك بيوم قاموا فيه على أقدامهم مقدار خمسين ألف سنة ، لايأكلون فيها أكلة ، ولايشربون فيها شربة ، حتى إذا انقطعت أعناقهم عطشا ، واحترقت أجوافهم جوعا ، انصرف بهم إلى النار ، فسقوا من عين آنية قد آن حرها ،

---

(١) حديث ابن عمرو تلا هذه الآية يوم يقوم الناس لرب العالمين ثم قال كيف بكم إذا جمعكم الله كما يجمع النبل فى الكنانة خمسين ألف سنة لاينظر إليكم قلت إنما هو عبدالله بن عمر : ورواه الطبرانى فى الكبير وفيه عبد الرحمن بن ميسرة ولم يذكر له ابن أبى حاتم راويا غير ابن وهب ولهم عبدالرحمن ابن ميسرة الحضرمى أربعة هذا أحدهم مصرى والثلاثة الآخرون شاميون

---

(١) التطفيف : ٦

واشتد لفحها . فلما بلغ المجهود منهم مالا طاقة لهم به ، كلم بعضهم بعضا فى طلب من يكرم على مولاه ليشفع فى حقهم ، فلم يتعلقوا بنبيّ إلا دفعهم وقال : دعونى نفسى نفسى ، شغلنى أمرى عن أمر غيرى . واعتذر كل واحد بشدة غضب الله تعالى ، وقال قد غضب اليوم ربنا غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولايغضب بعده مثله ، حتى يشفع نبينا صلى الله عليه وسلم لمن يؤذن له فيه لايملكون الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا

فتأمل فى طول هذا اليوم وشدة الانتظار فيه ، حتى يخف عليك انتظار الصبر عن المعاصى فى عمرك المختصر

تخفيف الانتظار عن المطيع لله

واعلم أن من طال انتظاره فى الدنيا الموت ، لشدة مقاساته للصبر عن الشهوات ، فإنه يقصر انتظاره فى ذلك اليوم خاصة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] لما سئل عن طول ذلك اليوم فقال « وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ إِنَّهُ لَيُخَفَّفُ عَلَى الْمُؤْمِنِ حَتَّى يَكُونَ أَهْوَنَ عَلَيْهِ مِنَ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ يُصَلِّيهَا فِى الدُّنْيَا »

فاجتهد أن تكون من أولئك المؤمنين ، فما دام يبقى لك نفس من عمرك فالأمر إليك ، والاستعداد بيديك ، فاعمل فى أيام قصار لأيام طوال تربح ربحا لا منتهى لسروره ، واستحقر عمرك بل عمر الدنيا وهو سبعة آلاف سنة ، فإنك لو صبرت سبعة آلاف سنة مثلا لتخلص من يوم مقداره خمسون ألفا لكان ربحك كثيرا ، وتعبك يسيرا

---

(١) حديث سئل عن طول ذلك اليوم فقال والذى نفسى بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة يصليها فى الدنيا : أبو يعلى والبيهقى فى الشعب من حديث أبى سعيد الخدرى وفيه ابن لهيعة وقد رواه ابن وهب عن عمرو بن الحارث بدل ابن لهيعة وهو حسن ولأبى يعلى من حديث أبى هريرة باسناد جيد يهون ذلك على المؤمن كتدلى الشمس للغروب إلى أن تغرب : ورواه البيهقى فى الشعب إلى أن قال أظنه رفعه بلفظ إن الله ليخفف على من يشاء من عباده طوله كوقت صلاة مفروضة

صفة

يوم القيامة ودواهيه وأساميه

فاستعد يامسكين لهذا اليوم العظيم شأنه ، المديد زمانه ، القاهر سلطانه ، القريب أوانه . يوم ترى السماء فيه قد انفطرت ، والكواكب من هوله قد انتثرت ، والنجوم الزواهر قد انكدرت ، والشمس قد كورت ، والجبال قد سيرت ، والعشار قد عطلت ، والوحوش قد حشرت ، والبحار قد سجرت ، والنفوس إلى الأبدان قد زوجت ، والجحيم قد سعرت ، والجنة قد أزلفت ، والجبال قد نسفت ، والأرض قد مدت

يوم ترى الأرض قد زلزلت فيه زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها ، يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم

يوم تحمل الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت السماء فهي يومئذ واهية ، والملك على أرجائها ، ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية . يومئذ تعرضون لاتخفى منكم خافية

يوم تسير الجبال وترى الأرض بارزة

يوم ترج الأرض فيه رجا ، وتبس الجبال بسّا ، فكانت هباء منبثا

يوم يكون الناس كالفَراش المبثوث ، وتكون الجبال كالعهن المنفوش

يوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد

يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ، وبرزوا لله الواحد القهار

يوم تنسف فيه الجبال نسفا ، فتترك قاعا صفصفا ، لاترى فيها عوجا ولا أمتا

يوم ترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب

يوم تنشق فيه السماء فتكون وردة كالدهان ، فيومئذ لايسئل عن ذنبه إنس ولاجان

يوم يمنع فيه العاصى من الكلام ، ولا يسئل فيه عن الإجرام ، بل يؤخذ بالنواصى والأقـــــدام

يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا ، وماعملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا

يوم تعلم فيه كل نفس ماأحضرت ، وتشهد ماقدمت وأخرت .

يوم تخرس فيه الألسن ، وتنطق الجوارح

يوم شيب ذكره سيد المرسلين ؛ إذ قال له الصدّيق رضي الله عنه ، أراك قد شبت يارسول الله . قال[1] « شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا » وهي الواقعة ، والمرسلات ، وعم يتساءلون ، وإذا الشمس كوّرت . فيا أيها القارىء العاجز إنما حظك من قراءتك أن تمجمج القرءان ، وتحرك به اللسان ، ولو كنت متفكرا فيما تقرؤه لكنت جديرا بأن تنشق مرارتك مما شاب منه شعر سيد المرسلين . وإذا قنعت بحركة اللسان فقد حرمت ثمرة القرءان ، فالقيامة أحد ماذكر فيه ، وقد وصف الله بعض دواهيها وأكثر من أساميها ، لتقف بكثرة أساميها على كثرة معانيها ، فليس المقصود بكثرة الأسامى تكرير الأسامى والألقاب ، بل الغرض تنبيه أولى الألباب ، فتحت كل اسم من أسماء القيامة سرّ ، وفى كل نعت من نعوتها معنى فاحرص على معرفة معانيها

أسامى يوم القيامة

ونحن الآن نجمع لك أساميها ؛ وهي يوم القيامة ، ويوم الحسرة ، ويوم الندامة ، ويوم المحاسبة ، ويوم المساءلة ، ويوم المسابقة ، ويوم المناقشة ، ويوم المنافسة ، ويوم الزلزلة ، ويوم الدمدمة ، ويوم الصاعقة . ويوم الواقعة ، ويوم القارعة ، ويوم الراجفة ، ويوم الرادفة ، ويوم الغاشية ، ويوم الداهية ، ويوم الآزفة ، ويوم الحاقة ، ويوم الطامة ، ويوم الصاخة ، ويوم التلاق ، ويوم الفراق ، ويوم المساق ، ويوم القصاص ، ويوم التناد ، ويوم الحساب ، ويوم المآب ،

---

(١) حديث شيبتنى هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت : الترمذى وحسنه والحاكم وصححه وقد تقدم

ويوم العذاب ، ويوم الفرار ، ويوم القرار ، ويوم اللقاء ، ويوم البقاء ، ويوم القضاء ، ويوم الجزاء ، ويوم البلاء ، ويوم البكاء ، ويوم الحشر ، ويوم الوعيد ، ويوم العرض ، ويوم الوزن ، ويوم الحق ، ويوم الحكم ، ويوم الفصل ، ويوم الجمع ، ويوم البعث ، ويوم الفتح ، ويوم الخزي ، ويوم عظيم ، ويوم عقيم ، ويوم عسير ، ويوم الدين ، ويوم اليقين ، ويوم النشور ، ويوم المصير ، ويوم النفخة ، ويوم الصيحة ، ويوم الرجفة ، ويوم الرجة ، ويوم الزجرة ، ويوم السكرة ، ويوم الفزع ، ويوم الجزع ، ويوم المنتهى ، ويوم المأوى ، ويوم الميقات ، ويوم الميعاد ، ويوم المرصاد ، ويوم القلق ، ويوم العرق ، ويوم الافتقار ، ويوم الانكدار ، ويوم الانتشار ، ويوم الانشقاق ، ويوم الوقوف ، ويوم الخروج ، ويوم الخلود ، ويوم التغابن ، ويوم عبوس ، ويوم معلوم ، ويوم موعود ، ويوم مشهود ، ويوم لاريب فيه . ويوم تبلى السرائر ، ويوم لاتجزى نفس عن نفس شيئا ، ويوم تشخص فيه الأبصار ، ويوم لايغنى مولى عن مولى شيئا ، ويوم لاتملك نفس لنفس شيئا ، ويوم يدعون إلى نار جهنم دعّا ؛ ويوم يسحبون فى النار على وجوههم ، ويوم تقلب وجوههم فى النار ، ويوم لايجزى والد عن ولده ، ويوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ، ويوم لاينطقون ، ولا يؤذن لهم فيعتذرون ، يوم لامرد له من الله ، يوم هم بارزون ، يوم هم على النار يفتنون ، يوم لاينفع مال ولا بنون ، يوم لاتنفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ، يوم ترد فيه المعاذير ، وتبلى السرائر ، وتظهر الضمائر ، وتكشف الأستار ، يوم تخشع فيه الأبصار ، وتسكن الأصوات ، ويقل فيه الالتفات ، وتبرز الخفيات ، وتظهر الخطيئات . يوم يساق العباد ومعهم الأشهاد ويشيب الصغير ، ويسكر الكبير ، فيومئذ وضعت الموازين ، ونشرت الدواوين وبرزت الجحيم ، وأغلي الحميم ، وزفرت النار ، ويئس الكفار ، وسعرت النيران ، وتغيرت الألوان ، وخرس اللسان ، ونطقت جوارح الإنسان

فيا أيها الإنسان ماغرك بربك الكريم ، حيث أغلقت الأبواب ، وأرخيت الستور

واستترت عن الخلائق ففارقت الفجور، فماذا تفعل وقد شهدت عليك جوارحك فالويل كل الويل لنا معاشر الغافلين، يرسل الله لنا سيد المرسلين، وينزل عليه الكتاب المبين، ويخبرنا بهذه الصفات من نعوت يوم الدين، ثم يعرفنا غفلتنا، ويقول (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ [1]) ثم يعرفنا قرب القيامة فيقول (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ [2]) (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا [3]) (وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا [4]) ثم يكون أحسن أحوالنا أن نتخذ دراسة هذا القرءان عملا، فلا نتدبر معانيه ولا ننظر فى كثرة أوصاف هذا اليوم وأساميه، ولا نستعد للتخلص من دواهيه، فنعوذ بالله من هذه الغفلة إن لم يداركنا الله بواسع رحمته

ابتداء الانبياء بالسؤال

صفة المساءلة

ثم تفكر يامسكين بعد هذه الأحوال فيما يتوجه عليك من السؤال شفاها من غير ترجمان، فتسئل عن القليل والكثير، والنقير والقطمير. فبينما أنت فى كرب القيامة وعرقها، وشدة عظائمها، إذ نزلت ملائكة من أرجاء السماء بأجسام عظام، وأشخاص ضخام غلاظ شداد، أمروا أن يأخذوا بنواصى المجرمين إلى موقف العرض على الجبار. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَلَكاً مَابَيْنَ شُفْرَيْ عَيْنَيْهِ مَسِيرَةُ مِائَةِ عَامٍ » فما ظنك بنفسك إذا شاهدت مثل هؤلاء الملائكة أرسلوا إليك ليأخذوك إلى مقام العرض؟ وتراهم على عظم أشخاصهم منكسرين لشدة اليوم، مستشعرين مما بدا من غضب الجبار على عباده وعند نزولهم لايبقى نبي، ولاصديق، ولاصالح، إلا ويخرون لأذقانهم خوفا من

---

(١) حديث ان لله عز وجل ملكا مابين شفرى عينيه مسيرة خمسمائة عام: لم أره بهذا اللفظ

---

(١) الأنبياء: ١، ٢، ٣ (٢) القمر: ١ (٣) المعارج: ٦، ٧ (٤) الأحزاب: ٦٣

أن يكونوا هم المأخوذين ، فهذا حال المقربين ، فما ظنك بالعصاة المجرمين ؟

وعند ذلك يبادر أقوام من شدة الفزع فيقولون للملائكة : أفيكم ربنا ؟ وذلك لعظم موكبهم ، وشدة هيبتهم . فتفزع الملائكة من سؤالهم إجلالا لخالقهم عن أن يكون فيهم ، فنادوا بأصواتهم منزهين لمليكهم عما توهمه أهل الأرض ، وقالوا سبحان ربنا ماهو فينا ، ولكنه آت من بعد . وعند ذلك تقوم الملائكة صفا محدقين بالخلائق من الجوانب ، وعلى جميعهم شعار الذل والخضوع وهيئة الخوف والمهابة لشدة اليوم ، وعند ذلك يصدق الله تعالى قوله [1] (فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ) وقوله (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ [2]) فيبدأ سبحانه بالأنبياء (يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ [3]) . فيا لشدة يوم تذهل فيه عقول الأنبياء ، وتنمحى علومهم من شدة الهيبة ، إذ يقال لهم ماذا أجبتم وقد أرسلتم إلى الخلائق ، وكانوا قد علموا فتدهش عقولهم فلا يدرون بماذا يجيبون ، فيقولون من شدة الهيبة لاعلم لنا ، إنك أنت علام الغيوب . وهم فى ذلك الوقت صادقون ، إذ طارت منهم العقول ، وانمحت العلوم ، إلى أن يقويهم الله تعالى ،

فيدعى نوح عليه السلام ، فيقال له : هل بلغت ؟ فيقول نعم . فيقال لأمته هل بلغكم ؟ فيقولون ماأتانا من نذير . ويؤتى بعيسى عليه السلام ، فيقول الله تعالى له : أأنت قلت للناس اتخذونى وأمي إلهين من دون الله ؟ فيبق متشحطا تحت هيبة هذا السؤال سنين ، فيا لعظم يوم تقام فيه السياسة على الأنبياء بمثل هذا السؤال . ثم تقبل الملائكة ، فينادون واحدا واحدا ، يافلان بن فلانة ، هلم إلى موقف العرض . وعند ذلك ترتعد الفرائص وتضطرب الجوارح ، وتبهت العقول ، ويتمنى أقوام أن يذهب بهم إلى النار ، ولاتعرض قبائح أعمالهم على الجبار ، ولايكشف سترهم على ملأ الخلائق

---

(١) الأعراف : ٦ ، ٧ (٢) الحجر : ٩٢ (٣) المائدة : ١٠٩

وقبل الابتداء بالسؤال يظهر نور العرش ، وأشرقت الأرض بنور ربها ، وأيقن قلب كل عبد بإقبال الجبار لمساءلة العباد ، وظن كل واحد أنه مايراه أحد سواه ، وأنه المقصود بالأخذ والسؤال دون من عداه . فيقول الجبار سبحانه وتعالى عند ذلك : ياجبريل ائتنى بالنار . فيجيء لها جبريل ويقول : ياجهنم أجيبي خالقك ومليكك . فيصادفها جبريل على غيظها وغضبها ، فلم يلبث بعد ندائه أن ثارت ، وفارت ، وزفرت إلى الخلائق وشهقت ، وسمع الخلائق تغيظها وزفيرها ، وانتهضت خزنتها متوثبة إلى الخلائق غضبا على من عصى الله تعالى وخالف أمره

فأخطر ببالك وأحضر فى قلبك حالة قلوب العباد وقد امتلأت فزعا ورعبا فتساقطوا جثيا على الركب ، وولوا مدبرين . يوم ترى كل أمة جاثية ، وسقط بعضهم على الوجوه منكبين . وينادى العصاة والظالمون بالويل والثبور ، وينادى الصديقون نفسى نفسى . فبينما هم كذلك إذ زفرت النار زفرتها الثانية ، فتضاعف خوفهم ، وتخاذلت قواهم ، وظنوا أنهم مأخوذون . ثم زفرت الثالثة ، فتساقط الخلائق على وجوههم ، وشخصوا بأبصارهم ينظرون من طرف خفي خاشع ، وانهضمت عند ذلك قلوب الظالمين ، فبلغت الحناجر كاظمين ، وذهلت العقول من السعداء والأشقياء أجمعين . وبعد ذلك أقبل الله تعالى على الرسل وقال : ماذا أجبتم فإذا رأوا ماقد أقيم من السياسة على الأنبياء ، اشتد الفزع على العصاة ، ففر الوالد من ولده ، والأخ من أخيه ، والزوج من زوجته ، وبقى كل واحد منتظرا لأمره

ثم يؤخذ واحد واحد ، فيسأله الله تعالى شفاها عن قليل عمله وكثيره ، وعن سره وعلانيته ، وعن جميع جوارحه وأعضائه . قال أبو هريرة [1] : قالوا يارسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال « هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِي الظَّهِيرَةِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ » قالوا لا قال « فَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ » قالوا لا قال « فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ فَيَلْقَى الْعَبْدَ

مشافهة المولى للخلائق يوم القيامة

---

(١) حديث أبي هريرة هل نرى ربنا يوم القيامة قال هل تضارون فى رؤية الشمس فى الظهيرة ليس دونها سحاب ـ الحديث : متفق عليه دون قوله فيلق العبد الخ فانفرد بها مسلم

فَيَقُولُ لَهُ أَلَمْ أُكَرِّمْكَ وَأُسَوِّدْكَ وَأُزَوِّجْكَ وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ * فَيَقُولُ الْعَبْدُ بَلَى فَيَقُولُ أَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ فَيَقُولُ لَا فَيَقُولُ فَأَنَا أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي »

فتوهم نفسك يامسكين وقد أخذت الملائكة بعضديك وأنت واقف بين يدي الله تعالى يسألك شفاها ، فيقول لك ألم أنعم عليك بالشباب ؟ ففيما ذا أبليته ؟ ألم أمهل لك فى العمر ؟ ففيما ذا أفنيته ؟ ألم أرزقك المال ، فمن أين اكتسبته ؟ وفيماذا أنفقته ؟ ألم أكرمك بالعلم ؟ فماذا عملت فيما علمت ؟ فكيف ترى حياءك وخجلتك وهو يعدّ عليك إنعامه ومعاصيك ، وأياديه ومساويك ، فإن أنكرت شهدت عليك جوارحك

مخاطبة الرب للعبد

قال أنس رضي الله عنه[1] : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك ثم قال « أَتَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ ؟ » قلنا الله ورسوله أعلم .قال « مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ يَقُولُ يَارَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ قَالَ يَقُولُ بَلَى قَالَ فَيَقُولُ فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي فَيَقُولُ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا قَالَ فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ وَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ انْطِقِي قَالَ فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ فَيَقُولُ لِأَعْضَائِهِ بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ »

فنعوذ بالله من الافتضاح على ملأ الخلق بشهادة الأعضاء . إلا أن الله تعالى وعد المؤمن بأن يستر عليه ، ولا يطلع عليه غيره .[2] سأل ابن عمر رجل فقال له : كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى النجوى ؟ فقال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يَدْنُو أَحَدُكُمْ مِنْ رَبِّهِ حَتَّى يَضَعَ كَنَفَهُ عَلَيْهِ فَيَقُولُ عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا فَيَقُولُ نَعَمْ فَيَقُولُ عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا فَيَقُولُ نَعَمْ ثُمَّ يَقُولُ إِنِّي سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَإِنِّي أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ »

---

(١) حديث أنس أتدرون مم أضحك قلنا الله ورسوله أعلم قال من مخاطبة العبد ربه ـ الحديث رواه مسلم

(٢) حديث سأل ابن عمر رجل فقال كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى النجوى الحديث رواه مسلم

---

* تربع : أي تأخذ ربع الغنيمة : يريد ألم اجعلك رئيسا مطاعا

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « مَنْ سَتَرَ عَلَى مُؤْمِنٍ عَوْرَتَهُ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » فهذا إنما يرجى لعبد مؤمن ستر على الناس عيوبهم ، واحتمل فى حق نفسه تقصيرهم ، ولم يحرك لسانه بذكر مساويهم ، ولم يذكرهم فى غيبتهم بما يكرهون لو سمعوه ، فهذا جدير بأن يجازى بمثله فى القيامة

وهب أنه قد ستره عن غيرك ، أليس قد قرع سمعك النداء إلى العرض ؟ فيكفيك تلك الروعة جزاء عن ذنوبك ، إذ يؤخذ بناصيتك فتقاد وفؤادك مضطرب ولبك طائر ، وفرائصك مرتعدة ، وجوارحك مضطربة ، ولونك متغير ، والعالم عليك من شدة الهول مظلم . فقدر نفسك وأنت بهذه الصفة تتخطى الرقاب ، وتخرق الصفوف ، وتقاد كما تقاد الفرس المجنوب ، وقد رفع الخلائق إليك أبصارهم فتوهّم نفسك أنك فى أيدى الموكلين بك على هذه الصفة ، حتي أنتهى بك إلى عرش الرحمن ، فرموك من أيديهم ، وناداك الله سبحانه وتعالى بعظيم كلامه يا ابن آدم ادن منى . فدنوت منه بقلب خافق محزون وجل ، وطرف خاشع ذليل ، وفؤاد منكسر ، وأعطيت كتابك الذى لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، فكم من فاحشة نسيتها فتذكرتها ، وكم من طاعة غفلت عن آفاتها فانكشف لك عن مساويها فكم لك من خجل وجبن ، وكم لك من حصر وعجز ، فليت شعرى بأي قدم تقف بين يديه ، وبأي لسان تجيب ، وبأي قلب تعقل ماتقول

معاتبة المولى للعبد

ثم تفكر فى عظم حيائك إذا ذكرك ذنوبك شفاها ، إذ يقول ياعبدى أما استحييت منى فبارزتنى بالقبيح ، واستحييت من خلق فأظهرت لهم الجميل ؟ أكنت أهون عليك من سائر عبادى ؟ استخففت بنظرى إليك فلم تكترث ، واستعظمت نظر غيرى . ألم أنعم عليك ؟ فماذا غرّك بى ؟ أظننت أنى لاأراك وأنك لاتلقانى ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] « مَامِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ وَيَسْأَلُهُ اللهُ رَبُّ

---

(١) حديث من ستر على مؤمن عورته ستر الله عورته يوم القيامة : تقدم

(٢) حديث مامنكم من أحد إلا ويسأله رب العالمين ـ الحديث : متفق عليه من حديث ابن عدى عن أبى حاتم بلفظ إلا سيكلمه ـ الحديث

أَلْمَا إِبْنَ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حِجَابٌ وَلاَ تُرْجُمَانٌ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « لَيَقِفَنَّ أَحَدُكُمْ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حِجَابٌ فَيَقُولُ لَهُ أَلَمْ أُنْعِمْ عَلَيْكَ أَلَمْ أُوتِكَ مَالاً ؟ فَيَقُولُ بَلَى فَيَقُولُ أَلَمْ أُرْسِلْ إِلَيْكَ رَسُولاً ؟ فَيَقُولُ بَلَى ثُمَّ يَنْظُرُ عَنْ يَمِينِهِ فَلاَ يَرَى إِلاَّ النَّارَ ثُمَّ يَنْظُرُ عَنْ شِمَالِهِ فَلاَ يَرَى إِلاَّ النَّارَ فَلْيَتَّقِ أَحَدُكُمُ النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ »

اختلاء المولى بكل عبد على انفراده

وقال ابن مسعود : مامنكم من أحد إلا سيخلو الله عز وجل به كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر ، ثم يقول ياابن آدم ، ماغرك بى ؟ ياابن آدم ماعملت فيما علمت ؟ ياابن آدم ماذا أجبت المرسلين ؟ ياابن آدم ألم أكن رقيبا على عينك وأنت تنظر بها إلى مالا يحل لك ؟ ألم أكن رقيبا على أذنيك ؟ وهكذا حتى عد سائر أعضائه

وقال مجاهد : لاتزول قدما عبد يوم القيامة من بين يدى الله عز وجل حتى يسأله عن أربع خصال : عن عمره فيما أفناه ، وعن علمه ماعمل فيه ، وعن جسده فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيماذا أنفقه

فأعظم يامسكين بحيائك عند ذلك وبخطرك ، فإنك بين أن يقال لك سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ، فعند ذلك يعظم سرورك وفرحك ، ويغبطك الأولون والآخرون ، وإما أن يقال للملائكة خذوا هذا العبد السوء فغلوه ، ثم الجحيم صلوه ، وعند ذلك لو بكت السموات والأرض عليك لكان ذلك جديرا بعظم مصيبتك ، وشدة حسرتك على مافرطت فيه من طاعة الله ، وعلى مابعت آخرتك من دنيا دنيئة لم تبق معك

صفة الميزان

ثم لاتغفل عن الفكر فى الميزان ، وتطاير الكتب إلى الأيمان والشمائل ، فإن الناس بعد السؤال ثلاث فرق : فرقة ليس لهم حسنة ، فيخرج من النار عنق

(١) حديث ليقفن أحدكم بين يدى الله تعالى ليس بينه وبينه ترجمان ـ الحديث : البخارى من حديث عدى بن حاتم

أسود فيلقطهم لقط الطير الحب ، وينطوى عليهم ويلقيهم فى النار فتبتلعهم النار ، وينادى عليهم شقاوة لاسعادة بعدها . وقسم آخر لاسيئة لهم ، فينادى مناد ليقم الحمادون لله على كل حال ، فيقومون ويسرحون إلى الجنة ، ثم يفعل ذلك بأهل قيام الليل ، ثم بمن لم تشغله تجارة الدنيا ولابيعها عن ذكر الله تعالى ، وينادى عليهم سعادة لاشقاوة بعدها . ويبقى قسم ثالث ، وهم الأكثرون ، خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ، وقد يخفى عليهم ولايخفى على الله تعالى أن الغالب حسناتهم أوسيئاتهم ، ولكن يأبى الله إلا أن يعرفهم ذلك ليبين فضله عند العفو ، وعدله عند العقاب ، فتتطاير الصحف والكتب منطوية على الحسنات والسيئات ، وينصب الميزان ، وتشخص الأبصار إلى الكتب أتقع فى اليمين أوفى الشمال ، ثم إلى لسان الميزان أيميل إلى جانب السيئات أو إلى جانب الحسنات ، وهذه حالة هائلة تطيش فيها عقول الخلائق

وروى [1] الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان رأسه فى حجر عائشة رضي الله عنها ، فنعس ، فذكرت الآخرة فبكت حتى سال دمعها . فنقط على خد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانتبه فقال « مَا يُبْكِيكِ يَا عَائِشَةُ » قالت ذكرت الآخرة ، هل تذكرون أهليكم يوم القيامة ؟ قال « وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ فِى ثَلَاثِ مَوَاطِنَ فَإِنَّ أَحَدًا لَا يَذْكُرُ إِلَّا نَفْسَهُ إِذَا وُضِعَتِ الْمَوَازِينُ وَوُزِنَتِ الْأَعْمَالُ حَتَّى يَنْظُرَ ابْنُ آدَمَ أَيَخِفُّ مِيزَانُهُ أَمْ يَثْقُلُ وَعِنْدَ الصُّحُفِ حَتَّى يَنْظُرَ أَبِيَمِينِهِ يَأْخُذُ كِتَابَهُ أَوْ بِشِمَالِهِ وَعِنْدَ الصِّرَاطِ »

وعن أنس قال : يؤتى بابن آدم يوم القيامة حتى يوقف بين كفتي الميزان ، ويوكل به ملك ، فإن ثقل ميزانه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق : سعد فلان سعادة

---

(١) حديث الحسن أن عائشة ذكرت الآخرة فبكت ـ الحديث وفيه فقال مايبكيك ياعائشة قالت ذكرت الآخرة هل تذكرون أهليكم يوم القيامة ... الحديث : أبو داود من رواية الحسن أنها ذكرت النار فبكت فقال مايبكيك دون كون رأسه صلى الله عليه وسلم فى حجرها وانه نعس واسناده جيد

لايشقى بعدها أبدا. وإن خف ميزانه نادى بصوت يسمع الخلائق: شقي فلان شقاوة لايسعد بعدها أبدا.

وعند خفة كفة الحسنات تقبل الزبانية وبأيديهم مقامع من حديد، عليهم ثياب من نار فيأخذون نصيب النار إلى النار. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم القيامة « إِنَّهُ يَوْمٌ يُنَادِي اللهُ تَعَالَى فِيهِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ [1] فَيَقُولُ لَهُ قُمْ يَا آدَمُ فَابْعَثْ بَعْثَ النَّارِ فَيَقُولُ وَكَمْ بَعْثُ النَّارِ فَيَقُولُ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ » فلما سمع الصحابة ذلك أبلسوا حتى ماأوضحوا بضاحكة. فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ماعند أصحابه قال « اعْمَلُوا وَأَبْشِرُوا فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ مَعَكُمْ لَخَلِيقَتَيْنِ مَا كَانَتَا مَعَ أَحَدٍ قَطُّ إِلَّا كَثَّرَتَاهُ مَعَ مَنْ هَلَكَ مِنْ بَنِي آدَمَ وَبَنِي إِبْلِيسَ » قالوا وما هما يارسول الله؟ قال « يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ » قال فسرّى عن القوم فقال « اعْمَلُوا وَأَبْشِرُوا فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا كَالشَّامَةِ فِي جَنْبِ الْبَعِيرِ أَوْ كَالرَّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الدَّابَّةِ »

صفة

الخصماء ورد المظالم

قد عرفت هول الميزان وخطره، وأن الأعين شاخصة إلى لسان الميزان ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌ [1]﴾ واعلم أنه لاينجو من خطر الميزان إلا من حاسب في الدنيا نفسه، ووزن فيها بميزان الشرع أعماله وأقواله، وخطراته ولحظاته، كما قال عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن

---

(١) حديث يقول الله يا آدم قم فابعث بعث النار فيقول وكم بعث النار فيقول من كل ألف تسعمائة وتسع وتسعون ـ الحديث: متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري ورواه البخاري من حديث أبي هريرة نحوه وقد تقدم

---

(١) القارعة: ٦ الى ١١

توزنوا . وإنما حسابه لنفسه أن يتوب عن كل معصية قبل الموت توبة نصوحا ، ويتدارك مافرط من تقصيره فى فرائض الله تعالى ، ويرد المظالم حبة بعد حبة ، ويستحلّ كل من تعرض له بلسانه ، ويده وسوء ظنه بقلبه ، ويطيب قلوبهم ، حتى يموت ولم يبق عليه مظلمة ولافريضة ، فهذا يدخل الجنة بغير حساب

تعلق المظلومين بالظالم ومطالبته منهم

وإن مات قبل رد المظالم أحاط به خصماؤه ، فهذا يأخذ بيده ، وهذا يقبض على ناصيته ، وهذا يتعلق بلببه . هذا يقول ظلمتنى ، وهذا يقول شتمتنى ، وهذا يقول استهزأت بى ، وهذا يقول ذكرتنى فى الغيبة بما يسوءنى ، وهذا يقول جاورتنى فأسأت جوارى ، وهذا يقول عاملتنى فغششتنى ، وهذا يقول بايعتنى فغبنتنى وأخفيت عنى عيب سلعتك ، وهذا يقول كذبت فى سعر متاعك ، وهذا يقول رأيتنى محتاجا وكنت غنيا فما أطعمتنى ، وهذا يقول وجدتنى مظلوما وكنت قادرا على دفع الظلم عنى فداهنت الظالم وما راعيتنى ، فبينا أنت كذلك وقد أنشب الخصماء فيك مخالبهم ، وأحكموا فى تلابيبك أيديهم ، وأنت مبهوت متحير من كثرتهم ، حتى لم يبق فى عمرك أحد عاملته على درهم ، أو جالسته فى مجلس ، إلا وقد استحق عليك مظلمة بغيبة ، أو خيانة ، أو نظر بعين استحقار ، وقد ضعفت عن مقاومتهم ، ومددت عنق الرجاء إلى سيدك ومولاك لعله يخلصك من أيديهم ، إذ قرع سمعك نداء الجبار جل جلاله (اَلْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَاظُلْمَ اَلْيَوْمَ [1]) فعند ذلك ينخلع قلبك من الهيبة ، وتوقن نفسك بالبوار ، وتتذكر ماأنذرك الله تعالى على لسان رسوله حيث قال (وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُؤُسِهِمْ لَايَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ وَأَنْذِرِ النَّاسَ [2])

فما أشد فرحك اليوم بتمضمضك بأعراض الناس ، وتناولك أموالهم ، وما أشد حسراتك فى ذلك اليوم إذا وقف ربك على بساط العدل ، وشوفهت بخطاب السياسة ، وأنت مفلس فقير ، عاجز مهين ، لاتقدر على أن ترد حقا ،

---

(١) غافر : ١٧ (٢) ابراهيم : ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤

أو تظهر عذرا ، فعند ذلك تؤخذ حسناتك التى تعبت فيها عمرك ، وتنقل إلى خصمائك عوضا عن حقوقهم . قال [١] أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هَلْ تَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ » قلنا المفلس فينا يارسول الله من لادرهم له ولادينار ولامتاع . قال « الْمُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِى مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي وَقَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يَقْضِيَ مَاعَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ »

المفلس من يعطى حسناته لخصومه

فانظر إلى مصيبتك فى مثل هذا اليوم ، إذ ليس يسلم لك حسنة من آفات الرياء ومكايد الشيطان ، فإن سلمت حسنة واحدة فى كل مدة طويلة ابتدرها خصماؤك وأخذوها . ولعلك لوحاسبت نفسك وأنت مواظب على صيام النهار وقيام الليل ، لعلمت أنه لاينقضى عنك يوم إلاويجرى على لسانك من غيبة المسلمين مايستوفى جميع حسناتك ، فكيف ببقية السيئات من أكل الحرام والشبهات ، والتقصير فى الطاعات ، وكيف ترجو الخلاص من المظالم فى يوم يقتص فيه للجمّاء من القرناء ، فقد روى أبو ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى شاتين ينتطحان فقال [٢] « يَاأَبَا ذَرّ أَتَدْرِى فِيمَ يَنْتَطِحَانِ ؟ » قلت لا . قال « وَلَكِنَّ اللهَ يَدْرِى وَسَيَقْضِي بَيْنَهُمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ »

وقال أبو هريرة فى قوله عز وجل (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ [١]) إنه يحشر الخلق كلهم يوم القيامة ، البهائم ، والدواب ، والطير ، وكل شيء ، فيبلغ من عدل الله تعالى أن يأخذ للجماء من القرناء ، ثم يقول كونى ترابا . فذلك حين يقول الكافر ياليتنى كنت ترابا

---

(١) حديث أبى هريرة هل تدرون من المفلس قالوا المفلس يارسول الله من لادرهم له ولامتاع الحديث : تقدم

(٢) حديث ياأباذر أتدرى فيم ينتطحان قلت لاقال ولكن ربك يدرى وسيقضى بينهما : أحمد من رواية أشياخ لم يسموا عن أبى ذر

---

(١) الأنعام : ٣٨

فكيف أنت يامسكين فى يوم ترى صحيفتك خالية عن حسنات طال فيها تعبك ، فتقول أين حسناتى ؟ فيقال نقلت إلى صحيفة خصمائك . وترى صحيفتك مشحونة بسيئات طال فى الصبر عنها نصبك ، واشتد بسبب الكف عنها عناؤك ، فتقول يارب هذه سيئات ماقارفتها قط . فيقال هذه سيئات القوم الذين اغتبتهم ، وشتمتهم ، وقصدتهم بالسوء ، وظلمتهم فى المبايعة ، والمجاورة ، والمخاطبة ، والمناظرة ، والمذاكرة ، والمدارسة ، وسائر أصناف المعاملة قال [١] ابن مسعود : قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَئِسَ أَنْ تُعْبَدَ الْأَصْنَامُ بِأَرْضِ الْعَرَبِ وَلَكِنْ سَيَرْضَى مِنْكُمْ بِمَا هُوَ دُونَ ذَلِكَ بِالْمُحَقَّرَاتِ وَهِيَ الْمُوبِقَاتُ فَاتَّقُوا الظُّلْمَ مَااسْتَطَعْتُمْ فَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَمْثَالِ الْجِبَالِ مِنَ الطَّاعَاتِ فَيَرَى أَنَّهُنَّ سَيُنْجِينَهُ فَمَا يَزَالُ عَبْدٌ يَجِيءُ فَيَقُولُ رَبِّ إِنَّ فُلَانًا ظَلَمَنِي بِمَظْلَمَةٍ فَيَقُولُ امْحُ مِنْ حَسَنَاتِهِ فَمَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى لَا يَبْقَى لَهُ مِنْ حَسَنَاتِهِ شَيْءٌ وَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ مَثَلُ سَفْرٍ نَزَلُوا بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ لَيْسَ مَعَهُمْ حَطَبٌ فَتَفَرَّقَ الْقَوْمُ فَحَطَبُوا فَلَمْ يَلْبَثُوا أَنْ أَعْظَمُوا نَارَهُمْ وَصَنَعُوا مَاأَرَادُوا وَكَذَلِكَ الذُّنُوبُ »

ولما نزل [٢] قوله تعالى (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ [١]) قال الزبير : يارسول الله ، أيكرر علينا ما كان بيننا فى الدنيا مع خواص الذنوب ؟ قال « نَعَمْ لَيُكَرَّرَنَّ عَلَيْكُمْ حَتَّى تُؤَدُّوا إِلَى

---

(١) حديث ابن مسعود ان الشيطان قد أيس ان تعبد الاصنام بأرض العرب ولكن سيرضى منكم بمادون ذلك المحقرات وهى الموبقات ... الحديث : وفى آخره وان مثل ذلك مثل سفر نزلوا بفلاة الحديث : رواه أحمد والبيهقى فى الشعب مقتصرا على آخره اياكم ومحقرات الذنوب فانهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه وان رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب لهن مثلا الحديث وأسناده جيد فأما أول الحديث فرواه مسلم مختصرا من حديث جابر أن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون فى جزيرة العرب ولكن فى التحريش بينهم

(٢) حديث لما نزل قوله تعالى انك ميت وانهم ميتون ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون قال الزبير يارسول الله أيكرر علينا ما كان بيننا الحديث أحمد واللفظ له والترمذى من حديث الزبير وقال حسن صحيح

---

(١) الزمر : ٣٠ ، ٣١

كُلِّ ذِى حَقٍّ حَقَّهُ » قال الزبير : والله إن الأمر لشديد

فأعظم بشدة يوم لايسامح فيه بخطوة ، ولايتجاوز فيه عن لطمة ، ولاعن كلمة ، حتى ينتقم للمظلوم من الظالم . قال [١] أنس : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يَحْشُرُ اللهُ الْعِبَادَ عُرَاةً غُبْرًا بُهْمًا » قال قلنا مابهما ؟ قال « لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ ثُمَّ يُنَادِيهِمْ رَبُّهُمْ تَعَالَى بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ أَنَا الْمَلِكُ أَنَا الدَّيَّانُ لَايَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ وَلِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ عَلَيْهِ مَظْلَمَةٌ حَتَّى أَقْتَصَّهُ مِنْهُ وَلَالِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ وَلِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ حَتَّى أَقْتَصَّهُ مِنْهُ حَتَّى اللَّطْمَةِ » قلنا وكيف وإنما نأتى الله عز وجل عراة غبرا بهما ؟ فقال « بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ فَاتَّقُوا اللهَ عِبَادَ اللهِ »

ومظالم العباد بأخذ أموالهم ، والتعرض لأعراضهم ، وتضييق قلوبهم ، وإساءة الخلق فى معاشرتهم ، فإن مابين العبد وبين الله خاصة فالمغفرة إليه أسرع ، ومن اجتمعت عليه مظالم وقد تاب عنها ، وعسر عليه استحلال أرباب المظالم ، فليكثر من حسناته ليوم القصاص وَلْيُسِرّ ببعض الحسنات بينه وبين الله بكمال الإخلاص ، بحيث لايطلع عليه إلا الله ، فعساه يقربه ذلك إلى الله تعالى ، فينال به لطفه الذى ادخره لأحبابه المؤمنين فى دفع مظالم العباد عنهم ، كما روي عن [٢] أنس ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس ، إذ رأيناه يضحك حتى بدت ثناياه . فقال عمر : مايضحكك يارسول الله بأبى أنت وأمى ؟ قال « رَجُلَانِ مِنْ أُمَّتِي جَثَيَا بَيْنَ يَدَيْ رَبِّ الْعِزَّةِ فَقَالَ أَحَدُهُمَا يَارَبِّ خُذْلِي مَظْلَمَتِي مِنْ أَخِي فَقَالَ اللهُ تَعَالَى أَعْطِ أَخَاكَ مَظْلَمَتَهُ

الحث على العفو وإصلاح ذات البين

(١) حديث أنس يحشر العباد عراة غبرا بهما قلنا مابهما قال ليس معهم شيء ـ الحديث: قلت ليس من حديث أنس وإنما هو عبيد الله بن أنيس رواه أحمد باسناد حسن وقال غرلا مكان غبرا

(٢) حديث أنس بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر ماأضحكك يارسول الله بأبى وأمى قال رجلان من أمتى جثيا بين يدي رب العالمين الحديث بطوله ابن أبى الدنيا فى حسن الظن بالله والحاكم فى المستدرك وقد تقدم

فقَالَ يَارَبِّ لَمْ يَبْقَ مِنْ حَسَنَاتِي شيْءٌ فقَالَ اللهُ تعَالَى لِلطَّالِبِ كَيْفَ تَصْنَعُ وَلَمْ يَبْقَ مِنْ حَسَنَاتِهِ شَيْءٌ قَالَ يَارَبِّ يَتَحَمَّلُ عَنِّي مِنْ أَوْزَارِي » قال وفاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء ثم قال « إِنَّ ذَلِكَ لَيَوْمٌ عَظِيمٌ يَوْمَ يَحْتَاجُ النَّاسُ إِلَى أَنْ يُحْمَلَ عَنْهُمْ مِنْ أَوْزَارِهِمْ » قال « فقَالَ اللهُ لِلطَّالِبِ ارْفَعْ رَأْسَكَ فَانْظُرْ فِي الْجِنَانِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فقَالَ يَارَبِّ أَرَى مَدَائِنَ مِنْ فِضَّةٍ مُرْتَفِعَةً وَقُصُوراً مِنْ ذَهَبٍ مُكَلَّلَةً بِاللُّؤْلُؤِ لِأَيِّ نَبِيٍّ هَذَا أَوْ لِأَيِّ صِدِّيقٍ هَذَا أَوْ لِأَيِّ شَهِيدٍ هَذَا؟ قَالَ لِمَنْ أَعْطَانِي الثَّمَنَ قَالَ يَارَبِّ وَمَنْ يَمْلِكُ ثَمَنَهُ؟ قَالَ أَنْتَ تَمْلِكُهُ قَالَ وَمَا هُوَ؟ قَالَ عَفْوُكَ عَنْ أَخِيكَ قَالَ يَارَبِّ إِنِّي قَدْ عَفَوْتُ عَنْهُ قَالَ اللهُ تعَالَى خُذْ بِيَدِ أَخِيكَ فَأَدْخِلْهُ الْجَنَّةَ » ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك « اتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ فَإِنَّ اللهَ يُصْلِحُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ » وهذا تنبيه على أن ذلك إنما ينال بالتخلق بأخلاق الله، وهو إصلاح ذات البين وسائر الأخلاق

العاقل يحاسب نفسه قبل أن يحاسب

فتفكر الآن في نفسك إن خلت صحيفتك عن المظالم، أو تلطف لك حتى عفا عنك، وأيقنت بسعادة الأبد، كيف يكون سرورك في منصرفك من مفصل القضاء، وقد خلع عليك خلعة الرضا، وعدت بسعادة ليس بعدها شقاء، وبنعيم لايدور بحواشيه الفناء. وعند ذلك طار قلبك سرورا وفرحا، وابيض وجهك واستنار، وأشرق كما يشرق القمر ليلة البدر، فتوهم تبخترك بين الخلائق رافعا رأسك، خاليا عن الأوزار ظهرك، ونضرة نسيم النعيم وبرد الرضا يتلألأ من جبينك، وخلق الأولين والآخرين ينظرون إليك وإلى حالك، ويغبطونك في حسنك وجمالك، والملائكة يمشون بين يديك ومن خلفك، وينادون على رءوس الأشهاد هذا فلان بن فلان، رضي الله عنه وأرضاه، وقد سعد سعادة لايشقى بعدها أبدا. أفترى أن هذا المنصب ليس بأعظم من المكانة التي تنالها في قلوب الخلق في الدنيا بريائك، ومداهنتك، وتصنعك، وتزينك؟ فإن كنت تعلم أنه

خير منه ، بل لانسبة له إليه ، فتوسل إلى إدراك هذه الرتبة بالإخلاص الصافى ، والنية الصادقة فى معاملتك مع الله ، فلن تدرك ذلك إلا به

وإن تكن الأخرى والعياذ بالله ، بأن خرج من صحيفتك جريمة كنت تحسبها هينة وهي عند الله عظيمة ، فمقتك لأجلها ، فقال عليك لعنتى ياعبد السوء ، لاأتقبل منك عبادتك ، فلا تسمع هذا النداء إلا ويسودّ وجهك ، ثم تغضب الملائكة لغضب الله تعالى فيقولون . وعليك لعنتنا ولعنة الخلائق أجمعين ، وعند ذلك تتناول إليك الزبانية وقد غضبت لغضب خالقها ، فأقدمت عليك بفظاظتها ، وزعارتها ، وصورها المنكرة ، فأخذوا بناصيتك يسحبونك على وجهك على ملأ الخلق ، وهم ينظرون إلى اسوداد وجهك ، وإلى ظهور خزيك ، وأنت تنادى بالويل والثبور ، وهم يقولون لك لاتدعُ اليوم ثبورا واحدا وادعُ ثبورا كثيرا ، وتنادى الملائكة ويقولون ، هذا فلان بن فلان ، كشف الله عن فضائحه ومخازيه ولعنه بقبائح مساويه ، فشقى شقاوة لايسعد بعدها أبدا . وربما يكون ذلك بذنب أذنبته خفية من عباد الله ، أوطلبا للمكانة فى قلوبهم ، أوخوفا من الافتضاح عندهم فما أعظم جهلك إذ تحترز عن الافتضاح عند طائفة يسيرة من عباد الله فى الدنيا المنقرضة ، ثم لاتخشى من الافتضاح العظيم فى ذلك الملأ العظيم ، مع التعرض لسخط الله وعقابه الأليم ، والسياق بأيدى الزبانية إلى سواء الجحيم . فهذه أحوالك وأنت لم تشعر بالخطر الأعظم وهو خطر الصراط

صفة الصراط

ثم تفكر بعد هذه الأهوال فى قول الله تعالى (يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا [1]) وفى قوله تعالى (فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ [2]) فالناس بعد هذه الأهوال يساقون إلى الصراط ، وهو جسر ممدود على متن النار ، أحد من السيف ، وأدق

(١) مريم : ٨٥ ، ٨٦ (٢) الصافات : ٢٣ ، ٢٤

من الشعر ، فمن استقام فى هـذا العالم على الصراط المستقيم خف على صراط الآخرة ونجا ، ومن عدل عن الاستقامة فى الدنيا ، وأثقل ظهره بالأوزار وعصى ، تعثّر فى أول قدم من الصراط وتردى . فتفكر الآن فيما يحل من الفزع بفؤادك إذا رأيت الصراط ودقتـه ، ثم وقع بصرك على سواد جهنم من تحته ، ثم قرع سمعك شهيق النار وتغيظها ، وقد كلفت أن تمشي على الصراط مع ضعف حالك ، واضطراب قلبك ، وتزلزل قدمك ، وثقل ظهرك بالأوزار المانعة لك عن المشي على بساط الأرض فضلا عن حدّة الصراط ، فكيف بك إذا وضعت عليه إحدى رجليك فأحسست بحدّته ، واضطررت إلى أن ترفع القدم الثانية ، والخـلائق بين يديك يزلون ويتعثرون ، وتتناولهم زبانيـة النار بالخطاطيف والـكلاليب ، وأنت تنظر إليهم كيف ينتـكسون فتتسفل إلى جهة النار رءوسهم ، وتعلو أرجلهم ، فيالَه من منظر ماأفظعه ، ومرتقى ماأصعبه ، ومجاز ماأضيقه

فانظر إلى حالك وأنت تزحف عليه ، وتصعد إليه وأنت مثقل الظهر بأوزارك ، تلتفت يمينا وشمالا إلى الخلق وهم يتهافتون فى النار ، والرسول عليـه السلام يقول يارب سلّم سلم ، والزعقات بالويل والثبور قد ارتفعت إليك من قعرجهنم لـكثرة من زل عن الصراط من الخلائق ، فكيف بك لو زلت قدمك ، ولم ينفعك ندمك فناديت بالويل والثبور ، وقلت هـذا ما كنت أخافه ، فيا ليتنى قـدمت لحياتى ، ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ، ياويلتا ليتنى لم أتخذ فلانا خليـلا ، ياليتنى كنت ترابا ، ياليتني كنت نسيا منسيا ، ياليت أمى لم تلدنى . وعند ذلك تختطفك النيران والعياذ بالله ، وينادى المنادى اخسؤا فيها ولاتـكلمون ، فلا يبقى سبيل إلا الصياح والأنين ، والتنفس والاسـتغاثة ، فـكيف ترى الآن عقلك وهـذه الأخطار بين يديك ، فإن كنت غـير مؤمن بذلك فما أطول مقامك مع الـكفار فى دركات جهنم . وإن كنت به مؤمنـا وعنـه غافلا ، وبالاستـعداد له متهاونا ، فما أعظم خسرانك وطغيانك ، وماذا ينفعك إيمانك إذا لم يبعثك على السعى فى طلب رضا الله تعالى بطاعتـه وترك معاصيه ؟ فلو لم يـكن بين يديك إلا هول الصراط ،

وارتياع قلبك من خطر الجواز عليه وإن سلمت ، فناهيك به هولا وفزعا ورعبا

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [(١)] « يُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَانَىْ جَهَنَّمَ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُ بِأُمَّتِهِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلاَّ الرُّسُلُ وَدَعْوَى الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ اللَّهُمَّ سَلِّمْ اللَّهُمَّ سَلِّمْ وَفِي جَهَنَّمَ كَلاَلِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ هَلْ رَأَيْتُمْ شَوْكَ السَّعْدَانِ ؟ » قالوا نعم يارسول الله . قال « فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ غَيْرَ أَنَّهُ لاَ يَعْلَمُ قَدْرَ عِظَمِهَا إِلَّا اللهُ تَعَالَى تَخْتَطِفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ يُوبَقُ بِعَمَلِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُخَرْدَلُ ثُمَّ يَنْجُو » وقال [(٢)] أبو سعيد الخدرى : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يَمُرُّ النَّاسُ عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ وَعَلَيْهِ حَسَكٌ وَكَلاَلِيبُ وَخَطَاطِيفُ تَخْتَطِفُ النَّاسَ يَمِيناً وَشِمَالاً وَعَلَى جَنْبَتَيْهِ مَلاَئِكَةٌ يَقُولُونَ اللَّهُمَّ سَلِّمْ اللَّهُمَّ سَلِّمْ فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَمُرُّ مِثْلَ الْبَرْقِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالرِّيحِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالْفَرَسِ الْمُجْرَى وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْعَى سَعْياً وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي مَشْياً وَمِنْهُمْ مَنْ يَحْبُوا حَبْواً وَمِنْهُمْ مَنْ يَزْحَفُ زَحْفاً فَأَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَلاَ يَمُوتُونَ وَلاَ يَحْيَوْنَ وَأَمَّا نَاسٌ فَيُؤْخَذُونَ بِذُنُوبٍ وَخَطَايَا فَيَحْتَرِقُونَ فَيَكُونُونَ فَحْماً ثُمَّ يُؤْذَنُ فِي الشَّفَاعَةِ » وذكر إلى آخر الحديث : وعن [(٣)] ابن مسعود رضي الله عنه ، أنه صلى الله عليه وسلم قال « يَجْمَعُ اللهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ قِيَاماً أَرْبَعِينَ سَنَةً شَاخِصَةً أَبْصَارُهُمْ إِلَى السَّمَاءِ يَنْتَظِرُونَ فَصْلَ الْقَضَاءِ » وذكر الحديث إلى أن ذكر وقت سجود المؤمنين قال « ثُمَّ يَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ ارْفَعُوا رُؤُسَكُمْ فَيَرْفَعُونَ رُؤُسَهُمْ فَيُعْطِيهِمْ نُورَهُمْ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورَهُ مِثْلَ الْجَبَلِ

أحوال الناس على الصراط

---

(١) حديث ينصب الصراط بين ظهرى جهنم فأكون أول من يجيز : متفق عليه من حديث أبى هريرة فى أثناء حديث طويل

(٢) حديث أبى سعيد يحشر الناس على جسر جهنم وعليه حسك وكلاليب وخطاطيف ـ الحديث : متفق عليه مع اختلاف ألفاظ

(٣) حديث ابن مسعود يجمع الله الاولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياماأربعين سنة شاخصة أبصارهم الى السماء ينتظرون فصل القضاء قال وذكر الحديث الى ذكر سجود المؤمنين ـ الحديث : بطوله رواه ابن عدى والحاكم وقد تقدم بعضه مختصرا

الْعَظِيمِ يَسْعَى بَيْنَ يَدَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورَهُ أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورَهُ مِثْلَ النَّخْلَةِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورَهُ أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى يَكُونَ آخِرُهُمْ رَجُلاً يُعْطَى نُورَهُ عَلَى إِبْهَامِ قَدَمِهِ فَيُضِيءُ مَرَّةً وَيَخْبُو مَرَّةً فَإِذَا أَضَاءَ قَدَّمَ قَدَمَهُ فَمَشَى وَإِذَا أَظْلَمَ قَامَ » ثم ذكر مرورهم على الصراط على قدر نورهم فمنهم من يمر كطرف العين ، ومنهم من يمر كالبرق ، ومنهم من يمر كالسحاب ، ومنهم من يمر كانقضاض الكواكب ، ومنهم من يمر كشد الفرس ، ومنهم من يمر كشد الرجل ، حتى يمر الذى أعطى نوره على إبهام قدمه يحبو على وجهه ويديه ورجليه ، تجر منه يد ، وتعلق أخرى ، وتعلق رجل ، وتجر أخرى ، وتصيب جوانبه النار . قال « فَلاَ يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يَخْلُصَ فَإِذَا خَلَصَ وَقَفَ عَلَيْهَا ثُمَّ قَالَ الْحَمْدُ لِلهِ لَقَدْ أَعْطَانِي اللهُ مَالَمْ يُعْطِ أَحَداً إِذْ نَجَّانِي مِنْهَا بَعْدَ إِذْ رَأَيْتُهَا فَيُنْطَلَقُ بِهِ إِلَى غَدِيرٍ عِنْدَ بَابِ الْجَنَّةِ فَيَغْتَسِلُ »

وقال [١] أنس بن مالك : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « الصِّرَاطُ كَحَدِّ السَّيْفِ أَوْ كَحَدِّ الشَّعْرَةِ وَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ يُنْجُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَإِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ لآخِذٌ بِحُجْزَتِي وَإِنِّي لأَقُولُ يَارَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ فَالزَّالُّونَ وَالزَّالاَّتُ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ »

فهذه أهوال الصراط وعظائمه ، فطوّل فيه فكرك ، فإن أسلم الناس من أهوال يوم القيامة من طال فيها فكره فى الدنيا ، فإن الله لايجمع بين خوفين على عبد ، فمن خاف هذه الأهوال فى الدنيا أمنها فى الآخرة . ولست أعنى بالخوف رقة كرقة النساء تدمع عينك ، ويرق قلبك حال السماع ، ثم تنساه على القرب ، وتعود إلى لهوك ولعبك ، فماذا من الخوف فى شيء . بل من خاف شيئا هرب منه ، ومن رجا شيئا طلبه ، فلا ينجيك إلا خوف يمنعك عن معاصى الله تعالى ، ويحثك على طاعته

---

(١) حديث أنس الصراط كحد السيف أو كحد الشعرة ـ الحديث : البيهقى فى الشعب وقال هذا اسناد ضعيف قال وروى عن زياد النميرى عن أنس مرفوعا الصراط كحد الشعرة أو كحد السيف قال وهى رواية صحيحة انتهى ورواه أحمد من حديث عائشة وفيه ابن لهيعة

وأبعد من رقة النساء خوف الحمقى ، إذا سمعوا الأهوال سبق إلى ألسنتهم الاستعاذة فقال أحدهم : استعنت بالله نعوذ بالله اللهم سلم سلم . وهم مع ذلك مصرون على المعاصى التى هي سبب هلاكهم ، فالشيطان يضحك من استعاذتهم ، كما يضحك على من يقصده سبع ضار فى صحراء ، ووراءه حصن ، فإذا رأى أنياب السبع وصولته من بُعد قال بلسانه : أعوذ بهذا الحصن الحصين ، وأستعين بشدة بنيانه ، وإحكام أركانه ، فيقول ذلك بلسانه وهو قاعد فى مكانه . فأنّى يغنى ذلك عنه من السبع ! وكذلك أهوال الآخرة ليس لها حصن إلا قول لا إله إلا الله صادقا ، ومعنى صدقه أن لايكون له مقصود سوى الله تعالى ، ولا معبود غيره . ومن اتخذ إلهه هواه فهو بعيد من الصدق فى توحيده ، وأمره مخطر فى نفسه

فإن عجزت عن ذلك كله فكن محبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، حريصا على تعظيم سنته ، ومتشوّقا إلى مراعاة قلوب الصالحين من أمته ، ومتبركا بأدعيتهم فعساك أن تنال من شفاعته أو شفاعتهم ، فتنجو بالشفاعة إن كنت قليل البضاعة

صفة الشفاعة

اعلم أنه إذا حق دخول النار على طوائف من المؤمنين ، فإن الله تعالى بفضله يقبل فيهم شفاعة الأنبياء والصديقين ، بل شفاعة العلماء والصالحين . وكل من له عند الله جاه وحسن معاملة ، فإن له شفاعة فى أهله ، وقرابته ، وأصدقائه . ومعارفه . فكن حريصا على أن تكتسب لنفسك عندهم رتبة الشفاعة ، وذلك بأن لاتحقر آدميا أصلا ، فإن الله تعالى خبأ ولايته فى عباده ، فلعل الذى تزدريه عينك هو ولي الله . ولا تستصغر معصية أصلا ، فإن الله تعالى خبأ غضبه فى معاصيه ، فلعل مقت الله فيه . ولا تستحقر أصلا طاعة ، فإن الله تعالى خبأ رضاه فى طاعته ، فلعل رضاه فيه ، ولو الكلمة الطيبة ، أو اللقمة ، أو النية الحسنة ، أو مايجرى مجراه

وشواهد الشفاعة فى القرءان والأخبار كثيرة . قال الله تعالى (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى [1])

---

(1) الضحى : ٥

روى (١) عمرو بن العاص ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قول إبراهيم عليه السلام (رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١)) وقول عيسى عليه السلام (إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ (٢)) ثم رفع يديه وقال « أُمَّتِي أُمَّتِي » ثم بكى . فقال الله عز وجل : ياجبريل اذهب إلى محمد فسله مايبكيك ؟ فأتاه جبريل فسأله ، فأخبره والله أعلم به ، فقال ياجبريل اذهب إلى محمد فقل له : إنا سنرضيك في أمتك ولانسوءك

شفاعته صلى الله عليه وسلم للناس عامة

وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ وَلَمْ تُحَلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَتُرَابُهَا طَهُورًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ وَكُلُّ نَبِيٍّ بُعِثَ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً »

وقال صلى الله عليه وسلم « إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ كُنْتُ إِمَامَ النَّبِيِّينَ . وَخَطِيبَهُمْ وَصَاحِبَ شَفَاعَتِهِمْ مِنْ غَيْرِ فَخْرٍ »

وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ عَنْهُ وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ بِيَدِي لِوَاءُ الْحَمْدِ تَحْتَهُ آدَمُ فَمَنْ دُونَهُ » وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ

---

(١) حديث عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلاقول ابراهيم صلى الله عليه وسلم رب انهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم وقول عيسى صلى الله عليه وسلم ان تعذبهم فانهم عبدك ثم رفع يديه ثم قال أمتي أمتي ثم بكي ـ الحديث : وفيه ياجبريل اذهب الى محمد فقل اناسنرضيك ولانسوءك في أمتك قلت ليس هو من حديث عمرو بن العاص وانما هو من حديث ابنه عبد الله بن عمرو بن العاص كمارواه مسلم ولعله سقط من الاحياء ذكر عبد الله من بعض النساخ

(٢) حديث أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي ـ الحديث : وفيه وأعطيت الشفاعة متفق عليه من حديث جابر اذا كان يوم القيامة كنت امام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم من غير فخر :الترمذي وابن ماجه من حديث أبي بن كعب قال الترمذي حسن صحيح

(٣) حديث أناسيدولدآدم ولافخر ـ الحديث: الترمذي وقال حسن وابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري

(٤) حديث لكل نبي دعوة مستجابة فأريد أن أختبيء دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة: متفق عليه من حديث أنس ورواه مسلم من حديث أبي هريرة

---

(١) إبرهيم : ٣٦ (٢) المائدة : ١١٨

فَأُرِيدُ أَنْ أَخْتَبِىءَ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ »

وقال[1] ابن عباس رضي الله عنهما ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يُنْصَبُ لِلأَنْبِيَاءِ مَنَابِرُ مِنْ ذَهَبٍ فَيَجْلِسُونَ عَلَيْهَا وَيَبْقَى مِنْبَرِي لاأَجْلِسُ عَلَيْهِ قَائِماً بَيْنَ يَدَيْ رَبِّي مُنْتَصِباً مَخَافَةَ أَنْ يَبْعَثَ بِي إِلَى الْجَنَّةِ وَتَبْقَى أُمَّتِي بَعْدِي فَأَقُولُ يَارَبِّ أُمَّتِي فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَامُحَمَّدُ وَمَا تُرِيدُ أَنْ أَصْنَعَ بِأُمَّتِكَ؟ فَأَقُولُ يَارَبِّ عَجِّلْ حِسَابَهُمْ فَمَا أَزَالُ أَشْفَعُ حَتَّى أُعْطَى صِكَاكاً بِرِجَالٍ قَدْ بُعِثَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ وَحَتَّى أَنَّ مَالِكاً خَازِنَ النَّارِ يَقُولُ يَامُحَمَّدُ مَاتَرَكْتَ النَّارُ لِغَضَبِ رَبِّكَ فِي أُمَّتِكَ مِنْ بَقِيَّةٍ »

وقال صلى الله عليه وسلم[2] « إِنِّي لَأَشْفَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِأَكْثَرَ مِمَّا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِنْ حَجَرٍ وَمَدَرٍ »

وقال[3] أبو هريرة : أتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بلحم ، فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه ، فنهش منها نهشة ثم قال « أَنَا سَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَلِكَ يَجْمَعُ اللهُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ وَتَدْنُو الشَّمْسُ فَيَبْلُغُ النَّاسُ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَالاَ يُطِيقُونَ وَلاَ يَحْتَمِلُونَ فَيَقُولُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ أَلاَ تَرَوْنَ مَاقَدْ بَلَغَكُمْ أَلاَ تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ عَلَيْكُمْ بِآدَمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ لَهُ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ وَأَمَرَ الْمَلاَئِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ أَشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ

---

(١) حديث ابن عباس ينصب للانبياء منابر من ذهب يجلسون عليها ويبقى منبري لاأجلس عليه قائماً بين يدي ربي منتصبا ـ الحديث : الطبراني في الاوسط وفي اسناده محمد بن ثابت البناني ضعيف

(٢) حديث اني لاشفع يوم القيامة لاكثر مما على وجه الارض من حجر ومدر : أحمد والطبراني من حديث بريدة بسند حسن

(٣) حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم أتي بلحم فرفع اليه الذراع وكان يعجبه فنهش منها نهشة ثم قال أنا سيد الناس ـ الحديث : بطوله في الشفاعة قال وفي حديث آخر هذا السياق مع ذكر خطايا ابراهيم متفق عليه وهذه الرواية الثانية أخرجها مسلم

أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ أَلاَ تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا فَيَقُولُ لَهُمْ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَإِنَّهُ قَدْ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ فَيَأْتُونَ نُوحاً عَلَيْهِ السَّلاَمُ فَيَقُولُونَ يَانُوحُ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ وَقَدْ سَمَّاكَ اللهُ عَبْداً شَكُوراً اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَيَقُولُ إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلاَ يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللهِ فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ اللهِ عَلَيْهِ السَّلاَمُ فَيَقُولُونَ أَنْتَ نَبِيُّ اللهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَيَقُولُ لَهُمْ إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلاَ يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَإِنِّي كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلاَثَ كَذَبَاتٍ وَيَذْكُرُهَا نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى فَيَأْتُونَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ فَيَقُولُونَ يَامُوسَى أَنْتَ رَسُولُ اللهِ فَضَّلَكَ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلاَمِهِ عَلَى النَّاسِ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَيَقُولُ إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَإِنِّي قَتَلْتُ نَفْساً لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُونَ يَاعِيسَى أَنْتَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَيَقُولُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْباً نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَأْتُونِي فَيَقُولُونَ يَامُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللهِ وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَغَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَقَعُ سَاجِداً لِرَبِّي ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ لِي مِنْ

مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئاً لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي ثُمَّ يُقَالُ يَامُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَقُولُ أُمَّتِي أُمَّتِي يَارَبِّ فَيُقَالُ يَامُحَمَّدُ أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَاحِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَبْوَابِ » ثم قال « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرَ أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى »

وفى حديث آخر هذا السياق بعينه ، مع ذكر خطايا إبراهيم ، وهو قوله فى الكواكب هذا ربى ، وقوله لآلهتهم بل فعله كبيرهم هذا ، وقوله إنى سقيم

فهذه شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولآحاد أمته من العلماء والصالحين شفاعة أيضا ، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِشَفَاعَةِ رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَكْثَرُ مِنْ رَبِيعَةَ وَمُضَرَ »

شفاعة المرء لأخيه

وقال صلى الله عليه وسلم [2] « يُقَالُ لِلرَّجُلِ قُمْ يَافُلَانُ فَاشْفَعْ فَيَقُومُ الرَّجُلُ فَيَشْفَعُ لِلْقَبِيلَةِ وَلِأَهْلِ الْبَيْتِ وَلِلرَّجُلِ وَالرَّجُلَيْنِ عَلَى قَدْرِ عَمَلِهِ »

وقال [3] أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ رَجُلاً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ يُشْرِفُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَهْلِ النَّارِ فَيُنَادِيهِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ النَّارِ وَيَقُولُ

---

(١) حديث يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتى أكثر من ربيعة ومضر : رويناه فى جزء أبى عمرو بن السماك من حديث أبى امامة إلا انه قال مثل أحد الحيين ربيعة ومضر وفيه فكان المشيخة يرون ان ذلك الرجل عثمان بن عفان واسناده حسن وللترمذى وابن ماجه والحاكم من حديث عبد الله ابن أبى الجدعا يدخل الجنة بشفاعة الرجل من أمتى أكثر من بنى تميم قالوا سواك قال سواى قال الترمذى حسن صحيح وقال الحاكم صحيح قيل أراد بالرجل أويسا

(٢) حديث يقال للرجل قم يافلان فاشفع فيقوم يشفع للقبيلة ولأهل البيت وللرجل والرجلين على قدر عمله : الترمذى من حديث أبى سعيد ان من أمتى من يشفع للفئام ومنهم من يشفع للقبيلة الحديث : وقال حسن وللبزار من حديث أنس ان الرجل ليشفع للرجلين والثلاثة

(٣) حديث أنس ان رجلا من أهل الجنة يشرف يوم القيامة على اهل النار فيناديه رجل من أهل النار ويقول يافلان هل تعرفنى فيقول لاوالله ماأعرفك من أنت فيقول أما الذى مررت بى فى الدنيا يوما فاستسقيتنى شربة فسقيتك ـ الحديث : فى شفاعته فيه واخراجه من النار أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس بسند ضعيف

يافُلاَنُ هَلْ تعرِفُنِي ؟ فيَقُولُ لاَ وَاللهِ مَاأعْرِفُكَ مَنْ أَنْتَ ؟ فيَقُولُ أنَا الَّذِي مَرَرْتَ بِي فِي الدُّنْيَا فَاسْتَسْقَيْتَنِي شَرْبَةَ ماءٍ فَسَقَيْتُكَ قَالَ قَدْ عَرَفْتُ قَالَ فَاشْفَعْ لِي بِهَا عِنْدَ رَبِّكَ فَيَسْأَلُ اللهَ تعَالَى ذِكْرُهُ وَيَقُولُ إِنِّي أَشْرَفْتُ عَلَى أَهْلِ النَّارِ فَنَادَانِي رَجُلٌ مِنْ أَهْلِهَا فقَالَ هَلْ تعرِفُنِي ؟ فَقُلْتُ لاَ مَنْ أَنْتَ ؟ فقَالَ أنَا الَّذِي اسْتَسْقَيْتَنِي فِي الدُّنْيَا فسَقَيْتُكَ فَاشْفَعْ لِي عِنْدَ رَبِّكَ فَشَفِّعْنِي فِيهِ فيُشَفِّعُهُ اللهُ فِيهِ فَيُؤْمَرُ بِهِ فيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ »

وعن أنس [١] قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ خُرُوجاً إِذَا بُعِثُوا وَأَنَا خَطِيبُهُمْ إِذَا وَفَدُوا وَأَنَا مُبَشِّرُهُمْ إِذَا يَئِسُوا لِوَاءُ الْحَمْدِ يَوْمَئِذٍ بِيَدِي وَأَنَا أَكْرَمُ وَلَدِ آدَمَ عَلَى رَبِّي وَلاَ فَخْرَ »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] « إِنِّي أَقُومُ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فَأُكْسَى حُلَّةً مِنْ حُلَلِ الْجَنَّةِ ثُمَّ أَقُومُ عَنْ يَمِينِ الْعَرْشِ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْخَلاَئِقِ يَقُومُ ذَلِكَ الْمَقَامَ غَيْرِي »

وقال [٣] ابن عباس رضي الله عنهما : جلس ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرونه ، فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون ، فسمع حديثهم فقال بعضهم : عجبا ! إن الله عز وجل اتخذ من خلقه خليلا ، اتخذ ابراهيم خليلا . وقال آخر : ماذا بأعجب من كلام موسى كلّمه تكليما . وقال آخر . فعيسى كلمة الله وروحه . وقال آخر آدم اصطفاه الله . فخرج عليهم صلى الله عليه وسلم فسلّم وقال « قَدْ سَمِعْتُ كَلاَمَكُمْ وَتَعَجُّبَكُمْ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلُ اللهِ وَهُوَ كَذَلِكَ وَمُوسَى نَجِيُّ اللهِ وَهُوَ كَذَلِكَ وَعِيسَى رُوحُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ وَهُوَ كَذَلِكَ وَآدَمُ اصْطَفَاهُ اللهُ وَهُوَ كَذَلِكَ أَلاَ وَأَنَا حَبِيبُ اللهِ وَلاَ فَخْرَ وَأَنَا حَامِلُ لِوَاءِ الْحَمْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ فَخْرَ

(١) حديث أنس أنا أول الناس خروجا اذا بعثوا ـ الحديث : الترمذى وقال حسن غريب

(٢) حديث فأكسى حلة من حلل الجنة ثم أقوم عن يمين العرش ـ الحديث : الترمذى من حديث أبي هريرة وقال حسن غريب صحيح

(٣) حديث ابن عباس جلس ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرونه فخرج حتى اذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم فقال بعضهم عجبا ان الله اتخذ من خلقه خليلا اتخذ ابراهيم خليلا ـ الحديث : رواه الترمذى وقال غريب

وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يُحَرِّكُ حَلَقَ الْجَنَّةِ فَيَفْتَحُ اللَّهُ لِي فَأَدْخُلُهَا وَمَعِي فُقَرَاءُ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا فَخْرَ وَأَنَا أَكْرَمُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ وَلَا فَخْرَ »

صفة الحوض

اعلم أن الحوض مكرمة عظيمة خص الله بها نبينا صلى الله عليه وسلم ، وقد اشتملت الأخبار على وصفه ، ونحن نرجو أن يرزقنا الله تعالى فى الدنيا علمه ، وفى الآخرة ذوقه ، فإن من صفاته أن من شرب منه لم يظمأ أبدا قال [١] أنس : أغفى رسول الله صلى الله عليه وسلم أغفاءة فرفع رأسه متبسما ، فقال له يارسول الله لم ضحكت ؟ فقال « آيَةٌ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا » وقرأ (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ [١]) حتى ختمها ثم قال « هَلْ تَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ ؟ » قالوا الله ورسوله أعلم ؟ قال « إِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فِي الْجَنَّةِ عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ عَلَيْهِ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ آنِيَتُهُ عَدَدُ نُجُومِ السَّمَاءِ »

وقال [٢] أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بَيْنَمَا أَنَا أَسِيرُ فِي الْجَنَّةِ إِذَا بِنَهْرٍ حَافَتَاهُ قِبَابُ اللُّؤْلُؤِ الْمُجَوَّفِ قُلْتُ مَا هَذَا يَاجِبْرِيلُ ؟ قَالَ هَذَا الْكَوْثَرُ الَّذِي أَعْطَاكَ رَبُّكَ فَضَرَبَ الْمَلَكُ بِيَدِهِ فَإِذَا طِينُهُ مِسْكٌ أَذْفَرُ »

وقال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول [٣] « مَا بَيْنَ لَابَتَيْ حَوْضِي مِثْلُ مَا بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَصَنْعَاءَ أَوْ مِثْلُ مَا بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَعُمَانَ »

---

(١) حديث أنس أغفى رسول الله صلى الله عليه وسلم اغفاءة فرفع رأسه متبسما فقالوا له يارسول الله لم ضحكت فقال آية نزلت على آنفا وقرأ بسم الله الرحمن الرحيم إنا أعطيناك الكوثر رواه مسلم

(٢) حديث أنس بينما أنا أسير فى الجنة اذا أنا بنهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف ـ الحديث : الترمذى وقال حسن صحيح ورواه البخارى من قول أنس لما عرج بالنبى صلى الله عليه وسلم الى السماء الحديث : وهو مرفوع وان لم يكن صرح به عن النبى صلى الله عليه وسلم

(٣) حديث أنس مابين لابتى حوضى مثل مابين المدينة وصنعاء أومثل مابين المدينة وعمان : رواه مسلم

---

(١) الكوثر

وروى [١] ابن عمر إنه لما نزل قوله تعالى (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ [١]) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هُوَ نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ حَافَتَاهُ مِنْ ذَهَبٍ شَرَابُهُ أَشَدُّ بَيَاضاً مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ وَأَطْيَبُ رِيحاً مِنَ الْمِسْكِ يَجْرِي عَلَى جَنَادِلِ اللُّؤْلُؤِ وَالْمَرْجَانِ »

وقال [٢] ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ حَوْضِي مَا بَيْنَ عَدَنٍ إِلَى عَمَّانِ الْبَلْقَاءِ مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضاً مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ وَأَكْوَابُهُ عَدَدُ نُجُومِ السَّمَاءِ مَنْ شَرِبَ مِنْهُ شَرْبَةً لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهَا أَبَداً أَوَّلُ النَّاسِ وُرُوداً عَلَيْهِ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ » فقال عمر ابن الخطاب : ومن هم يارسول الله ؟ قال « هُمُ الشُّعْثُ رُؤُوساً الدُّنْسُ ثِيَاباً الَّذِينَ لَا يَنْكِحُونَ الْمُتَنَعِّمَاتِ وَلَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السُّدَدِ » فقال عمر بن عبد العزيز : والله لقد نكحت المتنعمات ، فاطمة بنت عبد الملك ، وفتحت لى أبواب السدد إلا أن يرحمنى الله لاجرم لأدهن رأسى حتى يشعث ، ولا أغسل ثوبى الذى على جسدى حتى يتسخ

وعن [٣] أبى ذر قال : قلت يارسول الله ، ما آنية الحوض ؟ قال « وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَآنِيَتُهُ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ وَكَوَاكِبِهَا فِي اللَّيْلَةِ الْمُظْلِمَةِ الْمُصْحِيَةِ مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ آخِرُ مَا عَلَيْهِ يَشْخُبُ فِيهِ مِيزَابَانِ مِنَ الْجَنَّةِ عَرْضُهُ مِثْلُ طُولِهِ مَا بَيْنَ عَمَّانَ وَأَيْلَةَ مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضاً مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ »

---

(١) حديث ابن عمر لما نزل قوله تعالى إنا أعطيناك الكوثر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو نهر فى الجنة حافتاه من ذهب ـ الحديث : الترمذى مع اختلاف لفظ وقال حسن صحيح ورواه الدارمى فى مسنده وهو أقرب إلى لفظ المصنف

(٢) حديث ثوبان ان حوضى مابين عدن الى عمان البلقا ـ الحديث : الترمذى وقال غريب وابن ماجه

(٣) حديث أبى ذر قلت يارسول الله ماآنية الحوض قال والذى نفسى بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء ـ الحديث : رواه مسلم

---

(١) الكوثر

وعن [١] سمرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضاً وَإِنَّهُمْ يَتَبَاهَوْنَ أَيُّهُمْ أَكْثَرُ وَارِدَةً وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ وَارِدَةً » فهذا رجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فليرج كل عبد أن يكون فى جملة الواردين ، وليحذر أن يكون متمنيا ومغترا وهو يظن أنه راج ، فإن الراجى للحصاد من بثّ البذر ، ونقى الأرض ، وسقاها الماء ، ثم جلس يرجو فضل الله بالإنبات ودفع الصواعق إلى أوان الحصاد . فأما من ترك الحراثة أو الزراعة ، وتنقية الأرض وسقيها ، وأخذ يرجو من فضل الله أن ينبت له الحب والفاكهة ، فهذا مغتر ومتمن وليس من الراجين فى شيء . وهكذا رجاء أكثر الخلق ، وهو غرور الحمق ، نعوذ بالله من الغرور والغفلة ، فإن الاغترار بالله أعظم من الاغترار بالدنيا . قال الله تعالى (فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ [١])

القول
فى صفة جهنم وأهوالها وأنكالها

يا أيها الغافل عن نفسه ، المغرور بما هو فيه من شواغل هذه الدنيا المشرفة على الانقضاء والزوال ، دع التفكر فيما أنت مرتحل عنه ، واصرف الفكر إلى موردك ، فإنك أخبرت بأن النار مورد للجميع إذ قيل (وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً [٢]) فأنت من الورود على يقين ، ومن النجاة فى شك . فاستشعر فى قلبك هول ذلك المورد ، فعساك تستعد للنجاة منه . وتأمل فى حال الخلائق وقد قاسوا من دواهى القيامة ماقاسوا ، فبينما هم فى كربها وأهوالها وقوفا ينتظرون حقيقة أنبائها ، وتشفيع شفعائها ، إذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات شعب ، وأظلت

---

(١) حديث سمرة ان لكل نبي حوضا وانهم ليتباهون أيهم أكثر واردة ـ الحديث : الترمذي وقال غريب قال وقد روى الاشعث بن عبد الملك هذا الحديث عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلا ولم يذكر فيه عن سمرة وهو أصح

---

(١) فاطر : ٥ (٢) مريم : ٦٩ ، ٧٠

عليهم نار ذات لهب ، وسمعوا لها زفيرا وجرجرة تفصح عن شدة الغيظ والغضب ، فعند ذلك أيقن المجرمون بالعطب ، وجثت الأمم على الركب ، حتى أشفق البرآء من سوء المنقلب ، وخرج المنادى من الزبانية قائلا : أين فلان بن فلان المسوّف نفسه فى الدنيا بطول الأمل ، المضيع عمره فى سوء العمل ؟ فيبادرونه بمقامع من حديد ، ويستقبلونه بعظائم التهديد ، ويسوقونه إلى العذاب الشديد ، وينكسونه فى قعر الجحيم ، ويقولون له (ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ [1]) فأسكنوا دارا ضيقة الأرجاء ، مظلمة المسالك ، مبهمة المهالك ، يخلد فيها الأسير ويوقد فيها السعير . شرابهم فيها الحميم ، ومستقرهم الجحيم ، الزبانية تقمعهم ، والهاوية تجمعهم . أمانيهم فيها الهلاك ، ومالهم منها فكاك . قد شدّت أقدامهم إلى النواصى ، واسودّت وجوههم من ظلمة المعاصى . ينادون من أكنافها ، ويصيحون فى نواحيها وأطرافها ، يامالكُ قد حق علينا الوعيد ، يامالك قد أثقلنا الحديد ، يامالك قد نضجت منا الجلود ، يامالك أخرجنا منها فإنا لانعود . فتقول الزبانية هيهات لات حين أمان ، ولاخروج لكم من دار الهوان فاخسؤا فيها ولا تكلمون ، ولو أخرجتم منها لكنتم إلى مانهيتم عنه تعودون . فعند ذلك يقنطون ، وعلى مافرّطوا فى جنب الله يتأسفون . ولاينجيهم الندم ، ولايغنيهم الأسف ، بل يكبون على وجوههم مغلولين ، النار من فوقهم ، والنار من تحتهم ، والنار عن أيمانهم ، والنار عن شمائلهم ، فهم غرقى فى النار ، طعامهم نار ، وشرابهم نار ، ولباسهم نار ، ومهادهم نار . فهم بين مقطعات النيران ، وسرابيل القطران ، وضرب المقامع ، وثقل السلاسل ، فهم يتجلجلون فى مضايقها ويتحطمون فى دركاتها ، ويضطربون بين غواشيها . تغلى بهم النار كغلى القدور ويهتفون بالويل والعويل ، ومهما دعوا بالثبور صب من فوق رؤسهم الحميم ، يصهر به مافى بطونهم والجلود ، ولهم مقامع من حديد ، تهشم بها جباههم ، فيتفجر الصديد من أفواههم ، وتنقطع من العطش أكبادهم ، وتسيل على الخدود

حالة من مصيرهم جهنم

---

(1) الدخان : ٤٩

أحداقهم ، ويسقط من الوجنات لحومها ، ويتمعط من الأطراف شعورها بل جلودها . وكلما نضجت جلودهم بدلوا جلودا غيرها . قد عريت من اللحم عظامهم فبقيت الأرواح منوطة بالعروق وعلائق العصب ، وهي تنش في لفح تلك النيران وهم مع ذلك يتمنون الموت فلا يموتون

فكيف بك لو نظرت إليهم وقد سودت وجوههم أشد سواد من الحميم ، وأعميت أبصارهم ، وأبكمت ألسنتهم ، وقصمت ظهورهم ، وكسرت عظامهم ، وجدعت آذانهم ، ومزقت جلودهم ، وغلّت أيديهم إلى أعناقهم ، وجمع بين نواصيهم وأقدامهم ، وهم يمشون على النار بوجوههم ، ويطؤن حسك الحديد بأحداقهم . فلهيب النار سار في بواطن أجزائهم ، وحيّات الهاوية وعقاربها متشبثة بظواهر أعضائهم

هذا بعض جملة أحوالهم . وانظر الآن في تفصيل أهوالهم ، وتفكر أيضا في أودية جهنم وشعابها ، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم [١] « إِنَّ فِي جَهَنَّمَ سَبْعِينَ أَلْفَ وَادٍ فِي كُلِّ وَادٍ سَبْعُونَ أَلْفَ شِعْبٍ فِي كُلِّ شِعْبٍ سَبْعُونَ أَلْفَ ثُعْبَانٍ وَسَبْعُونَ أَلْفَ عَقْرَبٍ لَا يَنْتَهِي الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ حَتَّى يُوَاقِعَ ذَلِكَ كُلَّهُ »

وقال [٢] عليّ كرم الله وجهه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ جُبِّ الْحُزْنِ أَوْ وَادِي الْحُزْنِ » قيل يارسول الله وما وادي أو جب الحزن؟ قال « وَادٍ فِي جَهَنَّمَ تَتَعَوَّذُ مِنْهُ جَهَنَّمُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً أَعَدَّهُ اللهُ تَعَالَى لِلْقُرَّاءِ الْمُرَائِينَ »

﴿ القول في صفة جهنم ﴾

(١) حديث ان في جهنم سبعين ألف واد في كل وادسبعون ألف شعب في كل شعب سبعون ألف ثعبان وسبعون ألف عقرب لاينتهى الكافر والمنافق حتى يواقع ذلك كله :لم أجده هكذا بجملته وسيأتى بعده ماورد في ذكر الحيات والعقارب

(٢) حديث علي تعوذوا بالله من جب الحزن أو وادي الحزن ـ الحديث : رواه ابن عدى بلفظ وادى الحزن وقال باطل وأبونعيم والأصبهاني بسند ضعيف ورواه الترمذى وقال غريب وابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ جب الحزن وضعفه ابن عدى وتقدم في ذم الجاه والرياء

فهذه سعة جهنم وانشعاب أوديتها ، وهي بحسب عدد أودية الدنيا وشهواتها . وعدد أبوابها بعدد الأعضاء السبعة التي بها يعصى العبد بعضها فوق بعض ، الأعلى جهنم ، ثم سقر ، ثم لظى ، ثم الحطمة ، ثم السعير ، ثم الجحيم ، ثم الهاوية . فانظر الآن في عمق الهاوية ، فإنه لاحدّ لعمقها ، كما لاحد لعمق شهوات الدنيا . فكما لاينتهى أرب من الدنيا إلا إلى أرب أعظم منه ، فلا تنتهى هاوية من جهنم إلا إلى هاوية أعمق منها . قال [1] أبو هريرة كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعنا وجبة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَتَدْرُونَ مَاهَذَا؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم . قال « هَـذَا حَجَرٌ أُرْسِلَ فِي جَهَنَّمَ مُنْذُ سَبْعِينَ عَاماً الْآنَ انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا »

ثم انظر إلى تفاوت الدركات ، فإن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا . فكما أن إكباب الناس على الدنيا يتفاوت ، فمن منهمك مستكثر كالغريق فيها ومن خائض فيها إلى حد محدود ، فكذلك تناولُ النار لهم متفاوتٌ ، فإن الله لايظلم مثقال ذرة ، فلا تترادف أنواع العذاب على كل من في النار كيفما كان بل لكل واحد حدّ معلوم على قدر عصيانه وذنبه . إلا أن أقلهم عذابا لو عرضت عليه الدنيا بحذافيرها لافتدى بها من شدة ماهو فيه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] « إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ النَّارِ عَذَاباً يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَنْتَعِلُ بِنَعْلَيْنِ مِنْ نَارٍ يَغْلِي دِمَاغُهُ مِنْ حَرَارَةِ نَعْلَيْهِ »

فانظر الآن إلى من خفف عليه واعتبر به من شدّد عليه . ومهما تشككت في شدّة عذاب النار ، فقرب أصبعك من النار ، وقس ذلك به ثم اعلم أنك أخطأت

---

(١) حديث أبي هريرة كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعنا وجبة ـ الحديث : وفيه هذا حجر أرسل في جهنم ـ الحديث : رواه مسلم

(٢) حديث ان أدنى أهل النار عذابا يوم القيامة من ينتعل بنعلين من نار ـ الحديث : متفق عليه من حديث النعمان بن بشير

فى القياس ، فإن نار الدنيا لاتناسب نار جهنم ، ولكن لما كان أشد عذاب فى الدنيا عذاب هذه النار ، عرف عذاب جهنم بها . وهيهات لو وجد أهل الجحيم مثل هذه النار لخاضوها طائعين هربا مما هم فيه ، وعن هذا عبر فى الأخبار حيث قيل [١] إن نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتي أطاقها أهل الدنيا . بل صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفة نار جهنم فقال [٢] « أَمَرَ اللَّهُ تعالى أَنْ يُوقَدَ عَلَى النَّارِ أَلْفَ عَامٍ حَتَّى احْمَرَّتْ ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ عَامٍ حَتَّى ابْيَضَّتْ ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ عَامٍ حَتَّى اسْوَدَّتْ فَهِيَ سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ »

وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « اشْتَكَتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا فَقَالَتْ يَارَبِّ أَكَلَ بَعْضِي بَعْضاً فَأَذِنَ لَهَا فِي نَفَسَيْنِ نَفَسٍ فِي الشِّتَاءِ وَنَفَسٍ فِي الصَّيْفِ فَأَشَدُّ مَاتَجِدُونَهُ فِي الصَّيْفِ مِنْ حَرِّهَا وَأَشَدُّ مَاتَجِدُونَهُ فِي الشِّتَاءِ مِنْ زَمْهَرِيرِهَا »

وقال أنس بن مالك : يؤتى بأنعم الناس فى الدنيا من الكفار ، فيقال اغمسوه فى النار غمسة ، ثم يقال له هل رأيت نعيما قط ؟ فيقول لا . ويؤتى بأشد الناس ضرا فى الدنيا ، فيقال اغمسوه فى الجنة غمسة . ثم يقال له هل رأيت ضرا قط ؟ فيقول : لا

وقال أبو هريرة لو كان فى المسجد مائة ألف أو يزيدون ، ثم تنفس رجل من أهل النار لماتوا

وقد قال بعض العلماء فى قوله (تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ [١]) إنها لفحتهم لفحة واحدة ، فما أبقت لحما على عظم إلا ألقته عند أعقابهم

ثم انظر بعد هذا فى نتن الصديد الذى يسيل من أبدانهم حتي يغرقون فيه ،

---

(١) حديث ان نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى أطاقها أهل الدنيا ذكر ابن عبد البر من حديث ابن عباس وهذه النار قدضربت بماء البحر سبع مرات ولولاذلك ماانتفع بهاأحد وللبزار من حديث أنس وهوضعيف وماوصلت اليكم حتى أحسبه قال نضحت بالماء فتضىء عليكم

(٢) حديث أمر الله أن يوقد على النار ألف عام حتى احمرت ـ الحديث : تقدم

(٣) حديث اشتكت النار الى ربها فقالت يارب أكل بعضى بعضا فاذن لها بنفسين ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبى هريرة

---

(١) المؤمنون : ١٠٤

شراب أهل جهنم وطعامهم

وهو الفساق . قال[١] أبو سعيد الخدرى : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَوْ أَنَّ دَلْواً مِنْ غَسَّاقِ جَهَنَّمَ أُلْقِيَ فِي الدُّنْيَا لَأَنْتَنَ أَهْلَ الْأَرْضِ » فهذا شرابهم إذا استغاثوا من العطش فيسقى أحدهم (مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ[١]) (وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً[٢])

ثم انظر إلى طعامهم وهو الزقوم ، كما قال الله تعالى (ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ[٣]) وقال تعالى (إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّيَاطِينِ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ[٤]) وقال تعالى (تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ[٥]) وقال تعالى (إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجَحِيماً وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً[٦])

وقال[٢] ابن عباس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّومِ قَطَرَتْ فِي بِحَارِ الدُّنْيَا أَفْسَدَتْ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا مَعَايِشَهُمْ فَكَيْفَ مَنْ يَكُونُ طَعَامُهُ ذَلِكَ »

وقال[٣] أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ارْغَبُوا فِيمَا رَغَّبَكُمُ اللَّهُ وَاحْذَرُوا وَخَافُوا مَا خَوَّفَكُمُ اللَّهُ بِهِ مِنْ عَذَابِهِ وَعِقَابِهِ وَمِنْ جَهَنَّمَ فَإِنَّهُ لَوْ

---

(١) حديث أبي سعيد الخدرى لو أن دلوا من غساق ألقى فى الدنيا لأنتن أهل الأرض : الترمذى وقال انما نعرفه من حديث رشد بن سعد وفيه ضعف

(٢) حديث ابن عباس لوان قطرة من الزقوم قطرت فى دار الدنيا افسدت على أهل الأرض معاشهم الحديث : الترمذى وقال حسن صحيح وابن ماجه

(٣) حديث انس ارغبوا فيما رغبكم فيه واحذروا وخافوا مماخوفكم به من عذاب الله وعقابه من جهنم الحديث : لم أجد له اسنادا

---

(١) ابرهيم : ١٦ ، ١٧ (٢) الكهف : ٢٩ (٣) الواقعة : ٥١ - ٥٥ (٤) الصافات : ٦٤ - ٦٨ (٥) الغاشية : ٤ ، ٥
(٦) المزمل : ١٢ ، ١٣

كَانَتْ قَطْرَةٌ مِنَ الْجَنَّةِ مَعَكُمْ فِي دُنْيَاكُمُ الَّتِي أَنْتُمْ فِيهَا طَيَّبَتْهَا لَكُمْ وَلَوْ كَانَتْ قَطْرَةٌ مِنَ النَّارِ مَعَكُمْ فِي دُنْيَاكُمُ الَّتِي أَنْتُمْ فِيهَا خَبَّثَتْهَا عَلَيْكُمْ »

وقال [١] أبو الدرداء : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يُلْقَى عَلَى أَهْلِ النَّارِ الْجُوعُ حَتَّى يَعْدِلَ مَاهُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ فَيَسْتَغِيثُونَ بِالطَّعَامِ فَيُغَاثُونَ بِطَعَامٍ مِنْ ضَرِيعٍ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ وَيَسْتَغِيثُونَ بِالطَّعَامِ فَيُغَاثُونَ بِطَعَامٍ ذِي غُصَّةٍ فَيَذْكُرُونَ أَنَّهُمْ كَانُوا يُجِيزُونَ الْغُصَصَ فِي الدُّنْيَا بِشَرَابٍ فَيَسْتَغِيثُونَ بِشَرَابٍ فَيُرْفَعُ إِلَيْهِمُ الْحَمِيمُ بِكَلَالِيبِ الْحَدِيدِ فَإِذَا دَنَتْ مِنْ وُجُوهِهِمْ شَوَتْ وُجُوهَهُمْ فَإِذَا دَخَلَ الشَّرَابُ بُطُونَهُمْ قَطَّعَ مَا فِي بُطُونِهِمْ فَيَقُولُونَ ادْعُوا خَزَنَةَ جَهَنَّمَ قَالَ فَيَدْعُونَ خَزَنَةَ جَهَنَّمَ أَنِ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ فَيَقُولُونَ أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ قَالَ فَيَقُولُونَ ادْعُوا مَالِكًا فَيَدْعُونَ فَيَقُولُونَ يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ فَيُجِيبُهُمْ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ » قال الأعمش أنبئت أن بين دعائهم وبين إجابة مالك إياهم ألف عام . قال « فَيَقُولُونَ ادْعُوا رَبَّكُمْ فَلَا أَحَدَ خَيْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَيَقُولُونَ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ قَالَ فَيُجِيبُهُمْ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ قال فَعِنْدَ ذَلِكَ يَئِسُوا مِنْ كُلِّ خَيْرٍ وَعِنْدَ ذَلِكَ أَخَذُوا فِي الزَّفِيرِ وَالْحَسْرَةِ وَالْوَيْلِ »

وقال [٢] أبو أمامة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى (وَيُسْقَى

---

(١) حديث ابى الدرداء يلقى على اهل النار الجوع حتى يعدل ماهم فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام الحديث : الترمذى من رواية سمرة بن عطية عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن ابى الدرداء قال الدارمى والناس لايرفعون هذا الحديث وانما روى عن الأعمش عن سمرة بن عطية عن شهر عن ام الدرداء عن ابى الدرداء قوله

(٢) حديث أبى أمامة فى قوله تعالى ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولايكاد يسيغه قال يقرب اليه ـ الحديث : الترمذى وقال غريب

مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ [1]) قال « يُقَرَّبُ إِلَيْهِ فَيَتَكَرَّهُهُ فَإِذَا أُدْنِيَ مِنْهُ شَوَى وَجْهَهُ فَوَقَعَتْ فَرْوَةُ رَأْسِهِ فَإِذَا شَرِبَهُ قَطَعَ أَمْعَاءَهُ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ دُبُرِهِ » يقول الله تعالى (وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ [2]) وقال تعالى (وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ [3])

فهذا طعامهم وشرابهم عند جوعهم وعطشهم . فانظر الآن إلى حيات جهنم وعقاربها ، وإلى شدة سمومها ، وعظم أشخاصها ، وفظاظة منظرها ، وقد سلطت على أهلها وأغريت بهم ، فهى لا تفتر عن النهش واللدغ ساعة واحدة . قال [(1)] أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ آتَاهُ اللهُ مَالاً فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعاً أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَتَانِ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتِهِ » يعنى أشداقه « فَيَقُولُ أَنَا مَالُكَ أَنَا كَنْزُكَ » ثم تلا قوله تعالى (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ [4]) الآية

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم [(2)] « إِنَّ فِي النَّارِ لَحَيَّاتٍ مِثْلَ أَعْنَاقِ الْبُخْتِ يَلْسَعْنَ اللَّسْعَةَ فَيَجِدُ حُمُوَّتَهَا أَرْبَعِينَ خَرِيفًا وَإِنَّ فِيهَا لَعَقَارِبَ كَالْبِغَالِ الْمُوْكَفَةِ يَلْسَعْنَ اللَّسْعَةَ فَيَجِدُ حُمُوَّتَهَا أَرْبَعِينَ خَرِيفاً »

وهذه الحيات والعقرب إنما تسلط على من سلط عليه فى الدنيا البخل ، وسوء الخلق ، وإيذاء الناس . ومن وقى ذلك وقى هذه الحيات فلم تمثل له

ثم تفكر بعد هذا كله فى تعظيم أجسام أهل النار ، فإن الله تعالى يزيد فى أجسامهم طولا وعرضا حتى يتزايد عذابهم بسببه ، فيحسون بلفح النار ، ولدغ العقارب والحيات ، من جميع أجزائها دفعة واحدة على التوالى . قال [(3)] أبوهريرة

---

(١) حديث أبى هريرة من آتاه مالا فلم يؤد زكاته مثل له ماله يوم القيامة شجاعا أقرع ـ الحديث : البخارى من حديث أبى هريرة ومسلم من حديث جابر نحوه

(٢) حديث ان فى النار لحيات مثل أعناق البخت يلسعن اللسعة ـ الحديث : أحمد من رواية ابن لهيعة عن دراج عن عبد الله بن الحارث بن جزء

(٣) حديث أبى هريرة ضرس الكافر فى النار مثل أحد ـ الحديث رواه مسلم

---

[1] ابرهيم : ١٦ ، ١٧ [2] محمد : ١٥ [3] الكهف : ٢٩ [4] آل عمران : ١٧٠

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ضِرْسُ الْكَافِرِ فِي النَّارِ مِثْلُ أُحُدٍ وَغِلَظُ جِلْدِهِ مَسِيرَةُ ثَلَاثٍ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [(١)] « شَفَتُهُ السُّفْلَى سَاقِطَةٌ عَلَى صَدْرِهِ وَالْعُلْيَا قَالِصَةٌ قَدْ غَطَّتْ وَجْهَهُ » وقال عليه السلام [(٢)] « إِنَّ الْكَافِرَ لَيَجُرُّ لِسَانَهُ فِي سِجِّينٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَتَوَاطَؤُهُ النَّاسُ » ومع عظم الأجسام كذلك تحرقهم النار مرات ، فتجدد جلودهم ولحومهم . قال الحسن فى قوله تعالى (كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا [(١)]) قال تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة ، كلما أكلتهم قيل لهم عودوا فيعودون كما كانوا

بكاء أهل جهنم

ثم تفكر الآن فى بكاء أهل النار وشهيقهم ، ودعائهم بالويل والثبور ، فإن ذلك يسلط عليهم فى أول إلقائهم فى النار . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [(٣)] « يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ » وقال [(٤)] أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يُرْسَلُ عَلَى أَهْلِ النَّارِ الْبُكَاءُ فَيَبْكُونَ حَتَّى تَنْقَطِعَ الدُّمُوعُ ثُمَّ يَبْكُونَ الدَّمَ حَتَّى يُرَى فِي وُجُوهِهِمْ كَهَيْئَةِ الْأُخْدُودِ لَوْ أُرْسِلَتْ فِيهَا السُّفُنُ لَجَرَتْ »

ومادام يؤذن لهم فى البكاء والشهيق ، والزفير ، والدعوة بالويل والثبور ، فلهم فيه مستروح . ولكنهم يمنعون أيضا من ذلك . قال محمد بن كعب : لأهل النار خمس دعوات ، يجيبهم الله عز وجل فى أربعة ، فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبدا : يقولون (رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ [(٢)]) فيقول الله تعالى مجيبا لهم (ذَلِكُمْ

---

(١) حديث شفته السفلى ساقطة على صدره والعليا قالصة قد غطت وجهه :الترمذى من حديث أبى سعيد وقال حسن صحيح غريب

(٢) حديث ان الكافر ليجر لسانه فرسخين يوم القيامة يتواطؤه الناس :الترمذى من رواية أبى المخارق عن ابن عمر وقال غريب وأبو المخارق لايعرف

(٣) حديث يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ـ الحديث : مسلم من حديث عبد الله بن مسعود

(٤) حديث أنس يرسل على اهل النار البكاء فيبكون حتى تنقطع الدموع ـ الحديث : ابن ماجه من رواية يزيد الرقاشى عن أنس والرقاشى ضعيف

---

(١) النساء : ٥٦ (٢) غافر : ١١

بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلى الكبير [1]) ثم يقولون (ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا [2]) فيجيبهم الله تعالى (أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال [3]) فيقولون (ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل [4]) فيجيبهم الله تعالى (أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير [5]) ثم يقولون (ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون [6]) فيجيبهم الله تعالى (اخسئوا فيها ولا تكلمون [7]) فلا يتكلمون بعدها أبدا ، وذلك غاية شدة العذاب

قال مالك بن أنس رضي الله عنه : قال زيد بن أسلم فى قوله تعالى (سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص [8]) قال صبروا مائة سنة ثم جزعوا مائة سنة ، ثم صبروا مائة سنة ، ثم قالوا سواء علينا أجزعنا أم صبرنا

وقال صلى الله عليه وسلم [1] « يؤتى بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار ويقال ياأهل الجنة خلود بلا موت وياأهل النار خلود بلا موت »

وعن الحسن قال يخرج من النار رجل بعد ألف عام ، وليتنى كنت ذلك الرجل

ورؤى الحسن رضي الله عنه جالسا فى زاوية وهو يبكى ، فقيل له لم تبكى ؟ فقال أخشى أن يطرحنى فى النار ولا يبالى

فهذه أصناف عذاب جهنم على الجملة . وتفصيل غمومها ، وأحزانها ، ومحنها وحسرتها ، لانهاية له . فأعظم الأمور عليهم مع ما يلاقونه من شدة العذاب حسرة فوت نعيم الجنة ، وفوت لقاء الله تعالى ، وفوت رضاه مع علمهم بأنهم باعوا

---

(١) حديث يؤتى بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيذبح : البخارى من حديث ابن عمر ومسلم من حديث أبى سعيد وقد تقدم

---

(١) غافر : ١٢ (٢) السجدة : ١٢ (٣) ابرهيم : ٤٤ (٤ ، ٥) فاطر : ٣٧

(٦ ، ٧) المؤمنون : ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ (٨) ابرهيم : ٢١

كل ذلك بثمن بخس دراهم معدودة ، إذ لم يبيعوا ذلك إلا بشهوات حقيرة فى الدنيا أياما قصيرة ، وكانت غير صافية ، بل كانت مكدرة منغصة ، فيقولون فى أنفسهم واحسرتاه ! كيف أهلكنا أنفسنا بعصيان ربنا ، وكيف لم نكلف أنفسنا الصبر أياما قلائل ، ولو صبرنا لكانت قد انقضت عنا أيامه ، وبقينا الآن فى جوار رب العالمين ، متنعمين بالرضا والرضوان ! فيا لحسرة هؤلاء وقد فاتهم مافاتهم ، وبلوا بما بلوا به ، ولم يبق معهم شيء من نعيم الدنيا ولذاتها

ازدياد كرب أهل جهنم بعرض نعيم الجنة عليهم

ثم إنهم لو لم يشاهدوا نعيم الجنة لم تعظم حسرتهم ، لكنها تعرض عليهم ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِنَاسٍ مِنَ النَّارِ إِلَى الْجَنَّةِ حَتَّى إِذَا دَنَوْا مِنْهَا وَاسْتَنْشَقُوا رَائِحَتَهَا وَنَظَرُوا إِلَى قُصُورِهَا وَإِلَى مَاأَعَدَّ اللهُ لِأَهْلِهَا فِيهَا نُودُوا أَنِ اصْرِفُوهُمْ عَنْهَا لَانَصِيبَ لَهُمْ فِيهَا فَيَرْجِعُونَ بِحَسْرَةٍ مَارَجَعَ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ بِمِثْلِهَا فَيَقُولُونَ يَارَبَّنَا لَوْ أَدْخَلْتَنَا النَّارَ قَبْلَ أَنْ تُرِيَنَا مَاأَرَيْتَنَا مِنْ ثَوَابِكَ وَمَا أَعْدَدْتَ فِيهَا لِأَوْلِيَائِكَ كَانَ أَهْوَنَ عَلَيْنَا فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى ذَاكَ أَرَدْتُ بِكُمْ كُنْتُمْ إِذَا خَلَوْتُمْ بَارَزْتُمُونِي بِالْعَظَائِمِ وَإِذَا لَقِيتُمُ النَّاسَ لَقِيتُمُوهُمْ مُخْبِتِينَ تُرَاؤُونَ النَّاسَ بِخِلَافِ مَا تُعْطُونِي مِنْ قُلُوبِكُمْ هِبْتُمُ النَّاسَ وَلَمْ تَهَابُونِي وَأَجْلَلْتُمُ النَّاسَ وَلَمْ تُجِلُّونِي وَتَرَكْتُمْ لِلنَّاسِ وَلَمْ تَتْرُكُوا لِي فَالْيَوْمَ أُذِيقُكُمُ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ مَعَ مَاحَرَمْتُكُمْ مِنَ الثَّوَابِ الْمُقِيمِ »

قال أحمد بن حرب : إن أحدنا يؤثر الظل على الشمس ، ثم لا يؤثر الجنة على النار !

وقال عيسى عليه السلام : كم من جسد صحيح ، ووجه صبيح ، ولسان فصيح غداً بين أطباق النار يصيح

وقال داود : إلهى لاصبر لى على حر شمسك ، فكيف صبرى على حر نارك !

---

(١) حديث يؤمر يوم القيامة بناس من النار الى الجنة حتى اذا دنوا منها واستنشقوا روائحها ـ الحديث : رويناه فى الأربعين لأبى هدبة عن أنس وأبو هدبة ابراهيم بن هدبة هالك

ولا صبر لى على صوت رحمتك ، فكيف على صوت عذابك !

فانظر يامسكين فى هذه الأهوال ، واعلم أن الله تعالى خلق النار بأهوالها وخلق لها أهلا لايزيدون ولاينقصون ، وأن هذا أمر قد قضي وفرغ منه . قال الله تعالى (وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ [(١)]) ولعمرى الإشارة به إلى يوم القيامة ؛ بل فى أزل الأزل ، ولكن أظهر يوم القيامة ماسبق به القضاء

فالعجب منك حيث تضحك وتلهو ، وتشتغل بمحقرات الدنيا ، ولست تدرى أن القضاء بماذا سبق فى حقك

فإن قلت : فليت شعرى ماذا موردى ؟ وإلى ماذا مآلى ومرجعى ؟ وما الذى سبق به القضاء فى حق ؟ فلك علامة تستأنس بها ، وتصدق رجاءك بسببها . وهي أن تنظر إلى أحوالك وأعمالك ، فإن كُلا ميسر لما خلق له . فإن كان قد يسّر لك سبيل الخير فأبشر فإنك مبعد عن النار . وإن كنت لاتقصد خيرا إلا وتحيط بك العوائق فتدفعه ، ولاتقصد شرا إلا ويتيسر لك أسبابه ، فاعلم أنك مقضي عليك ، فإن دلالة هذا على العاقبة كدلالة المطر على النبات ، ودلالة الدخان على النار ، فقد قال الله تعالى (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ [(٢)]) فاعرض نفسك على الآيتين ، وقد عرفت مستقرك من الدارين ، والله أعلم

القول

فى صفة الجنة وأصناف نعيمها

اعلم أن تلك الدار التى عرفت همومها وغمومها ، تقابلها دار أخرى ، فتأمل نعيمها وسرورها ، فإن من بعد من أحدهما استقر لامحالة فى الأخرى . فاستثر الخوف من قلبك بطول الفكر فى أهوال الجحيم ، واستثر الرجاء بطول الفكر

(١) مريم : ٣٩ (٢) الانفطار : ١٣، ١٤

فى النعيم المقيم الموعود لأهل الجنان ، وسق نفسك بسوط الخوف ، وقُدها بزمام الرجاء إلى الصراط المستقيم ، فبذلك تنال الملك العظيم : وتسلم من العذاب الأليم

فتفكر فى أهل الجنة ، وفى وجوههم نضرة النعيم ، يُسقون من رحيق مختوم ، جالسين على منابر الياقوت الأحمر ، فى خيام من اللؤلؤ الرطب الأبيض فيها بسط من العبقري الأخضر ، متكئين على أرائك ، منصوبة على أطراف أنهار مطردة بالخمر والعسل ، محفوفة بالغلمان والولدان ، مزينة بالحور العين من الخيرات الحسان ، كأنهن الياقوت والمرجان ، لم يطمثهنّ إنس قبلهم ولا جانّ ، يمشين فى درجات الجنان ، إذا اختالت إحداهنّ فى مشيها حمل أعطافها سبعون ألفا من الولدان ، عليها من طرائف الحرير الأبيض ماتتحير فيه الأبصار ، مكللات بالتيجان المرصّعة باللؤلؤ والمرجان ، شكلات ، غنجات ، عطرات ، آمنات من الهرم والبؤس ، مقصورات فى الخيام ، فى قصور من الياقوت بنيت وسط روضات الجنان ، قاصرات الطرف عين ، ثم يطاف عليهم وعليهن بأكواب وأباريق وكأس من معين ، بيضاء لذة للشاربين . ويطوف عليهم خدام وولدان كأمثال اللؤلؤ المكنون ، جزاء بما كانوا يعملون ، فى مقام أمين ، فى جنات وعيون ، فى جنات ونهر ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، ينظرون فيها إلى وجه الملك الكريم ، وقد أشرقت فى وجوههم نضرة النعيم ، لايرهقهم قتر ولا ذلة ، بل عباد مكرمون وبأنواع التحف من ربهم يتعاهدون ، فهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون ، لايخافون فيها ولا يحزنون ، وهم من ريب المنون آمنون ، فهم فيها يتنعمون ، ويأكلون من أطعمتها ، ويشربون من أنهارها لبنا وخمرا وعسلا ، فى أنهار أراضيها من فضة ، وحصباؤها مرجان ، وعلى أرض ترابها مسك أذفر ، ونباتها زعفران ، ويمطرون من سحاب فيها من ماء النسرين ، على كثبان الكافور ، ويؤتون بأكواب وأي أكواب ، بأكواب من فضة مرصعة بالدر والياقوت والمرجان ، كوب فيه من الرحيق المختوم ، ممزوج به السلسبيل العذب ، كوب يشرق نوره من صفاء جوهره يبدو الشراب من ورائه برقته وحمرته ، لم يصنعه آدمي فيقصر فى تسوية صنعته ،

وتحسين صناعته ، فى كف خادم يحكى ضياء وجهه الشمس فى إشراقها ، ولكن من أين للشمس حلاوة مثل حلاوة صورته ، وحسن أصداغه ، وملاحة أحداقه

فيا عجبا لمن يؤمن بدار هذه صفتها ، ويوقن بأنه لايموت أهلها ، ولا تحل الفجائع بمن نزل بفنائها ؛ ولا تنظر الأحداث بعين التغيير إلى أهلها ، كيف يأنس بدار قد أذن الله فى خرابها ، ويتهنأ بعيش دونها ! والله لو لم يكن فيها إلا سلامة الأبدان ، مع الأمن من الموت ، والجوع ، والعطش ، وسائر أصناف الحدثان لكان جديرا بأن يهجر الدنيا بسببها ، وأن لايؤثر عليها ماالتصرّم والتنغّص من ضرورته . كيف وأهلها ملوك آمنون ، وفى أنواع السرور ممتّعون ، لهم فيها كل مايشتهون ، وهم فى كل يوم بفناء العرش يحضرون ، وإلى وجه الله الكريم ينظرون ، وينالون بالنظر من الله مالاينظرون معه إلى سائر نعيم الجنان ولا يلتفتون ، وهم على الدوام بين أصناف هذه النعم يترددون؛ وهم من زوالها آمنون!

قال [١] أبو هريرة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يُنَادِى مُنَادٍ يَاأَهْلَ الْجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَداً وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَداً وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَداً وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَداً فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ (وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [١])

ومهما أردت أن تعرف صفة الجنة فاقرأ القرءان ، فليس وراء بيان الله تعالى بيان . واقرأ من قوله تعالى (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ [٢]) إلى آخر سورة الرحمن . واقرأ سورة الواقعة ، وغيرها من السور . وإن أردت أن تعرف تفصيل صفاتها من الأخبار فتأمل الآن تفصيلها ، بعد أن اطلعت على جملتها وتأمل أولا :

﴿ القول فى صفة الجنة ﴾

(١) حديث أبى هريرة ينادى منادان لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا ... الحديث : مسلم من حديث أبى هرير وأبى سعيد

---

(١) الاعراف : ٤٣ (٢) الرحمن : ٤٦

عدد الجنان : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ [1]) قال (١) « جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ »

ثم انظر إلى أبواب الجنة فإنها كثيرة بحسب أصول الطاعات ، كما أن أبواب النار بحسب أصول المعاصي . قال (٢) أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ مِنْ مَالِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ دُعِيَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ كُلِّهَا وَلِلْجَنَّةِ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابٍ فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصِّيَامِ وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ » فقال أبو بكر رضي الله عنه : والله ما على أحد من ضرورة من أيها دعي فهل يدعى أحد منها كلها ؟ قال « نَعَمْ وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ »

وعن عاصم بن ضمرة ، عن علي كرم الله وجهه ، أنه ذكر النار فعظم أمرها ذكرا لاأحفظه ، ثم قال (وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا [2]) حتى إذا انتهوا إلى باب من أبوابها ، وجدوا عنده شجرة يخرج من تحت ساقها عينان تجريان ، فعمدوا إلى إحداهما كما أمروا به ، فشربوا منها ، فأذهبت ما في بطونهم من أذى أو بأس ثم عمدوا إلى الأخرى ، فتطهروا منها ، فجرت عليهم نضرة النعيم ، فلم تتغير أشعارهم بعدها أبدا ، ولا تشعث رؤسهم ، كأنما دهنوا بالدهان ثم انتهوا إلى الجنة ، فقال لهم خزنتها : سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين . ثم تلقاهم الولدان ، يطيفون بهم كما تطيف ولدان أهل الدنيا بالحبيب يقدم عليهم من غيبة ، يقولون له : أبشر أعد الله لك من الكرامة كذا . قال فينطلق غلام من أولئك الولدان إلى بعض

---

(١) حديث جنتان من فضة آنيتهما ومافيهما وجنتان من ذهب آنيتهما ومافيهما ... الحديث : متفق عليه من حديث أبي موسى

(٢) حديث أبي هريرة من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله دعي من أبواب الجنة ... الحديث : متفق عليه

---

[1] الرحمن : ٤٦ [2] الزمر : ٧٣

أزواجه من الحور العين ، فيقول قد جاء فلان باسمه الذى كان يدعى به فى الدنيا فتقول أنت رأيته ؟ فيقول أنا رأيته وهو بأثرى . فيستخفها الفرح حتى تقوم إلى أسكفة بابها ، فإذا انتهى إلى منزله نظر إلى أساس بنيانه ، فإذا جندل اللؤلؤ فوقه صرح أحمر ، وأخضر ، وأصفر ، من كل لون . ثم يرفع رأسه فينظر إلى سقفه ، فإذا مثل البرق . ولولا أن الله تعالى قدره لألمّ أن يذهب بصره . ثم يطأطىء رأسه ، فإذا أزواجه ، وأكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة ، وزرابي مبثوثة . ثم اتكأ فقال : الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، ثم ينادى مناد : تحيون فلا تموتون أبدا ، وتقيمون فلا تظعنون أبدا ، وتصحون فلا تمرضون أبدا .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « آتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَابَ الْجَنَّةِ فَأَسْتَفْتِحُ فَيَقُولُ الْخَازِنُ مَنْ أَنْتَ ؟ فَأَقُولُ مُحَمَّدٌ فَيَقُولُ بِكَ أُمِرْتُ أَنْ لَا أَفْتَحَ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ » . ثم تأمل الآن فى غرف الجنة ، واختلاف درجات العلو فيها ، فإن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا . وكما أن بين الناس فى الطاعات الظاهرة ، والأخلاق الباطنة المحمودة تفاوتا ظاهرا ، فكذلك فيما يجازون به تفاوت ظاهر .

غرف الجنة

فإن كنت تطلب أعلى الدرجات فاجتهد أن لا يسبقك أحد بطاعة الله تعالى ، فقد أمرك الله بالمسابقة والمنافسة فيها ، فقال تعالى (سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ (١)) وقال تعالى (وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢))

والعجب أنه لو تقدم عليك أقرانك أو جيرانك بزيادة درهم ، أو بعلو بناء ، ثقل عليك ذلك ، وضاق به صدرك ، وتنغّص بسبب الحسد عيشك . وأحسن أحوالك أن تستقر فى الجنة ، وأنت لا تسلم فيها من أقوام يسبقونك بلطائف لا توازيها الدنيا بحذافيرها . فقد قال (٢) أبو سعيد الخدرى : قال رسول الله

---

(١) حديث آتى يوم القيامة باب الجنة فأستفتح فيقول الخازن من أنت فأقول محمد ـ الحديث : مسلم من حديث أنس

(٢) حديث أبى سعيد ان أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف فوقهم كما تراءون الكواكب ـ الحديث :

(١) الحديد : ٢١ (٢) المطففين : ٢٦

صلى الله عليه وسلم « إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ فَوْقَهُمْ كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الْغَائِرَ فِي الْأُفُقِ مِنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ » قالوا يارسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم . قال « بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُوا بِاللهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ »

وقال أيضا [١] « إِنَّ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى لَيَرَاهُمْ مَنْ تَحْتَهُمْ كَمَا تَرَوْنَ النَّجْمَ الطَّالِعَ فِي أُفُقٍ مِنْ آفَاقِ السَّمَاءِ وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ مِنْهُمْ وَأَنْعِمَا »

وقال [٢] جابر : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَلَا أُحَدِّثُكُمْ بِغُرَفِ الْجَنَّةِ » قال قلت بلى يارسول الله صلى الله عليك ، بأبينا أنت وأمنا . قال « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرَفًا مِنْ أَصْنَافِ الْجَوْهَرِ كُلِّهِ يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا وَفِيهَا مِنَ النَّعِيمِ وَاللَّذَّاتِ وَالسُّرُورِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ » قال قلت يارسول الله ، ولمن هذه الغرف ؟ قال « لِمَنْ أَفْشَى السَّلَامَ وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ وَأَدَامَ الصِّيَامَ وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ » قال قلنا يارسول الله ومن يطيق ذلك ؟ قال « أُمَّتِي تُطِيقُ ذَلِكَ وَسَأُخْبِرُكُمْ عَنْ ذَلِكَ مَنْ لَقِيَ أَخَاهُ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ أَوْ رَدَّ عَلَيْهِ فَقَدْ أَفْشَى السَّلَامَ وَمَنْ أَطْعَمَ أَهْلَهُ وَعِيَالَهُ مِنَ الطَّعَامِ حَتَّى يُشْبِعَهُمْ فَقَدْ أَطْعَمَ الطَّعَامَ وَمَنْ صَامَ شَهْرَ رَمَضَانَ وَمِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَقَدْ أَدَامَ الصِّيَامَ وَمَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ وَصَلَّى الْغَدَاةَ فِي جَمَاعَةٍ فَقَدْ صَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ » يعني اليهود والنصارى والمجوس

وسئل [٣] رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله (وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ

متفق عليه وقد تقدم

(١) حديث ان أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما تراه النجم الطالع رواه الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث أبي سعيد

(٢) حديث جابر ألا أحدثكم بغرف الجنة قلت يارسول الله بأبينا أنت وأمنا ان في الجنة غرفا من أصناف الجوهر ـ الحديث : أبو نعيم من رواية الحسن عن جابر

(٣) حديث سئل عن قوله تعالى ومساكن طيبة في جنات عدن قال قصور من لؤلؤ ـ الحديث : أبو الشيخ ابن حبان في كتاب العظمة والآجري في كتاب النصيحة من رواية الحسن

عَدْنٍ (١) » قال « قُصُورٌ مِنْ لُؤْلُؤٍ فِي كُلِّ قَصْرٍ سَبْعُونَ دَارًا مِنْ يَاقُوتٍ أَحْمَرَ فِي كُلِّ دَارٍ سَبْعُونَ بَيْتًا مِنْ زُمُرُّدٍ أَخْضَرَ فِي كُلِّ بَيْتٍ سَرِيرٌ عَلَى كُلِّ سَرِيرٍ سَبْعُونَ فِرَاشًا مِنْ كُلِّ لَوْنٍ عَلَى كُلِّ فِرَاشٍ زَوْجَةٌ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ فِي كُلِّ بَيْتٍ سَبْعُونَ مَائِدَةً عَلَى كُلِّ مَائِدَةٍ سَبْعُونَ لَوْنًا مِنَ الطَّعَامِ فِي كُلِّ بَيْتٍ سَبْعُونَ وَصِيفَةً وَيُعْطَى الْمُؤْمِنُ فِي كُلِّ غَدَاةٍ » يعنى من القوة « مَا يَأْتِي عَلَى ذَلِكَ أَجْمَعَ »

صفة

حائط الجنة وأراضيها وأشجارها وأنهارها

تأمل فى صورة الجنة ، وتفكر فى غبطة سكانها ، وفى حسرة من حرمها لقناعته بالدنيا عوضا عنها . فقد قال (١) أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ حَائِطَ الْجَنَّةِ لَبِنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ وَلَبِنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ تُرَابُهَا زَعْفَرَانٌ وَطِينُهَا مِسْكٌ »

صفة تربة الجنة

(٢) وسئل صلى الله عليه وسلم عن تربة الجنة فقال « دَرْمَكَةٌ بَيْضَاءُ مِسْكٌ خَالِصٌ »

وقال (٣) أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْقِيَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الْخَمْرَ فِي الْآخِرَةِ فَلْيَتْرُكْهَا فِي الدُّنْيَا وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكْسُوَهُ

ابن خليفة عن الحسن قال سألت أبا هريرة وعمران بن حصين في هذه الآية ولايصح والحسن بن خليفة لم يعرفه ابن ابى حاتم والحسن البصرى لم يسمع من أبى هريرة على قول الجمهور

(١) حديث أبى هريرة ان حائط الجنة لبنة من فضة ولبنة من ذهب ترابها زعفران وطينها مسك الترمذى بلفظ وبلاطها المسك وقال ليس اسناده بذلك القوى وليس عندى بمتصل ورواه البزار من حديث أبى سعيد باسناد فيه مقال ورواه موقوفا عليه باسناد صحيح

(٢) حديث سئل عن تربة الجنة فقال درمكة بيضاء مسك خالص : مسلم من حديث أبى سعيد أن ابن صياد سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فذكره

(٣) حديث أبى هريرة من سره أن يسقيه الله الخمر فى الآخرة فليتركها فى الدنيا ومن سره أن يكسوه الله الحرير فليتركه فى الدنيا : الطبرانى فى الأوسط باسناد حسن وللنسائى باسناد صحيح من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه فى الآخرة ومن شرب الخمر فى الدنيا لم يشربها فى الآخرة

(١) الصف : ١٢

اللّهُ الْحَرِيرَ فِى الْآخِرَةِ فَلْيَتْرُكْهُ فِى الدُّنْيَا [١] أَنْهَارُ الْجَنَّةِ تَتَفَجَّرُ مِنْ تَحْتِ تِلَالٍ أَوْ تَحْتِ جِبَالِ الْمِسْكِ [٢] وَلَوْ كَانَ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ حِلْيَةً عَدَلَتْ بِحِلْيَةِ أَهْلِ الدُّنْيَا جَمِيعِهَا لَكَانَ مَا يُحَلِّيهِ اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ فِى الْآخِرَةِ أَفْضَلَ مِنْ حِلْيَةِ الدُّنْيَا جَمِيعِهَا

وقال [٣] أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ فِى الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِى ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا اقْرَؤُا إِنْ شِئْتُمْ (وَظِلٍّ مَمْدُودٍ [١])

وقال [٤] أبو أمامة . كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : إن الله عز وجل ينفعنا بالأعراب ومسائلهم . أقبل أعرابى فقال . يارسول الله قد ذكر الله فى القرءان شجرة مؤذية ، وما كنت أدرى أن فى الجنة شجرة تؤذى صاحبها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَا هِىَ ؟ » قال السدر ، فإن لها شوكا . فقال «قَدْ قَالَ اللّهُ تَعَالَى (فِى سِدْرٍ مَخْضُودٍ [٢]) يَخْضُدُ اللّهُ شَوْكَهُ فَيَجْعَلُ مَكَانَ كُلِّ شَوْكَةٍ ثَمَرَةً ثُمَّ تَتَفَتَّقُ الثَّمَرَةُ مِنْهَا عَنِ اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ لَوْنًا مِنَ الطَّعَامِ مَا مِنْهَا لَوْنٌ يُشْبِهُ الْآخَرَ »

وقال جرير بن عبد الله . نزلنا الصفاح ، فإذا رجل نائم تحت شجرة قد كادت الشمس أن تبلغه : فقلت للغلام انطلق بهذا النطع فأظله . فانطلق فأظله فلما استيقظ فإذا هو سلمان ، فأتيته أسلم عليه . فقال . ياجرير ، تواضع لله ، فإن

(١) حديث أنهار الجنة تتفجر من تحت تلال أو تحت جبال المسك : العقيلى فى الضعفاء من حديث أبى هريرة

(٢) حديث لو كان أدنى أهل الجنة حلية عدلت بحلية أهل الدنيا جميعها لكان ما يحليه الله به فى الآخرة أفضل من حلية أهل الدنيا جميعا : الطبرانى فى الأوسط من حديث أبى هريرة باسناد حسن

(٣) حديث ان فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبى هريرة

(٤) حديث أبى أمامة أقبل أعرابى فقال يارسول الله قد ذكر الله فى القرءان شجرة مؤذية قال ماهى قال السدر ـ الحديث : ابن المبارك فى الزهد عن صفوان بن عمرو عن سليم بن عامر مرسلا من غير ذكر لأبى امامة

(١) الواقعة : ٣٠ (٢) الواقعة : ٢٨

من تواضع لله فى الدنيا رفعه الله يوم القيامة . هل تدرى ما الظلمات يوم القيامة ؟ قلت لا أدرى . قال ظلم الناس بعضهم بعضا . ثم أخذ عويدا لا أكاد أراه من صغره فقال . ياجرير ، لو طلبت مثل هذا فى الجنة لم تجده . قلت يا أبا عبد الله ، فأين النخل والشجر ؟ قال أصولها اللؤلؤ والذهب ، وأعلاها الثمر

صفة

لباس أهل الجنة وفرشهم وسررهم وأرائكهم وخيامهم

قال الله تعالى (يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ [١]) والآيات فى ذلك كثيرة . وإنما تفصيله فى الأخبار ، فقد روى [١] أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « مَنْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ يَنْعَمْ لاَ يَبْأَسُ لاَ تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلاَ يَفْنَى شَبَابُهُ فِي الْجَنَّةِ مَالاَ عَيْنٌ رَأَتْ وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ »

[٢] وقال رجل . يارسول الله ، أخبرنا عن ثياب أهل الجنة ، أتخلق تخلق ؟ أم تنسج تنسج ؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وضحك بعض القوم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مِمَّ تَضْحَكُونَ مِنْ جَاهِلٍ سَأَلَ عَالِماً ! » ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بَلْ يَنْشَقُّ عَنْهَا ثَمَرُ الْجَنَّةِ مَرَّتَيْنِ »

وقال [٣] أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ تَلِجُ الْجَنَّةَ صُورَتُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لاَيَبْصُقُونَ فِيهَا

---

(١) حديث أبى هريرة من يدخل الجنة ينعم ولايبأس لاتبلى ثيابه ـ الحديث : رواه مسلم دون قوله فى الجنة مالاعين رأت الخ فاتفق عليه الشيخان من حديث آخر لأبى هريرة قال الله تعالى أعددت لعبادى الصالحين مالاعين رأت ـ الحديث :

(٢) حديث قال رجل يارسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنة أتخلق خلقا أم تنسج نسجا ـ الحديث : النسائى من حديث عبد الله بن عمرو

(٣) حديث أبى هريرة أول زمرة تدخل الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر ـ الحديث متفق عليه

(١) الحج : ٢٣

وَلاَ يَتَمَخَّطُونَ وَلاَ يَتَغَوَّطُونَ آنِيَتُهُمْ وَأَمْشَاطُهُمْ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ يَرَى مُخَّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنَ الْحُسْنِ لَااخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبٍ وَاحِدٍ يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بُكْرَةً وَعَشِيَّةً » وفى رواية ، « عَلَى كُلِّ زَوْجَةٍ سَبْعُونَ حُلَّةً »

وقال صلى الله عليه وسلم (١) فى قوله تعالى (يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ (١)) قال « إِنَّ عَلَيْهِمُ التِّيجَانَ إِنَّ أَدْنَى لُؤْلُؤَةٍ فِيهَا تُضِيءُ مَابَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ »

وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « الْخَيْمَةُ دُرَّةٌ مُجَوَّفَةٌ طُولُهَا فِي السَّمَاءِ سِتُّونَ مِيلاً فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا لِلْمُؤْمِنِ أَهْلٌ لَا يَرَاهُمُ الْآخَرُونَ » رواه البخارى فى الصحيح . قال ابن عباس . الخيمة درة مجوفة ، فرسخ فى فرسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب

وقال (٣) أبو سعيد الخدرى : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى (وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ (٢)) قال « مَابَيْنَ الْفِرَاشَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ »

صفة

طعام أهل الجنة

بيان طعام أهل الجنة مذكور فى القرءان ، من الفواكه ، والطيور السمان ، والمنّ ، والسلوى ، والعسل ، واللبن ، وأصناف كثيرة لاتحصى . قال الله تعالى

---

(١) حديث فى قوله تعالى يحلون فيها من أساور من ذهب قال ان عليهم التيجان أدنى لؤلؤة فيها تضىء مابين المشرق والمغرب : الترمذى من حديث أبى سعيد دون ذكر الآية وقال لانعرفه الا من حديث رشد بن سعد

(٢) حديث الخيمة درة مجوفة طولها فى السماء ستون ميلا ـ الحديث : عزاه المصنف للبخارى وهو متفق عليه من حديث أبى موسى الاشعرى

(٣) حديث أبى سعيد فى قوله تعالى وفرش مرفوعة قال مابين الفراشين كمابين السماء والارض : الترمذى بلفظ ارتفاعها لكمابين السماء والارض خمسمائة سنة وقال غريب لانعرفه الا من حديث رشد بن سعد

---

(١) الحج : ٢٣ (٢) الواقعة : ٣٤

(كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا [١])

شراب أهل الجنة

وذكر الله تعالى شراب أهل الجنة فى مواضع كثيرة . وقد قال [١] ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم : كنت قائما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاءه حبر من أحبار اليهود ، فذكر أسئلة إلى أن قال : فمن أول إجازة ؟ يعنى على الصراط . فقال « فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ » قال اليهودي : فما تحفتهم حين يدخلون الجنة ؟ قال « زِيَادَةُ كَبِدِ الْحُوتِ » قال فما غداؤهم على أثرها ؟ قال « يُنْحَرُ لَهُمْ ثَوْرُ الْجَنَّةِ الَّذِى كَانَ يَأْكُلُ فِى أَطْرَافِهَا » قال فما شرابهم عليه ؟ قال « مِنْ عَيْنٍ فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً » فقال صدقت

وقال [٢] زيدبن أرقم : جاء رجل من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال ياأبا القاسم ، ألست تزعم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ؟ وقال لأصحابه . إن أقر لى بها خصمته . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بَلَى وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ إِنَّ أَحَدَهُمْ لَيُعْطَى قُوَّةَ مِائَةِ رَجُلٍ فِى الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ وَالْجِمَاعِ » فقال اليهودي : فإن الذى يأكل ويشرب يكون له الحاجة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حَاجَتُهُمْ عَرَقٌ يَفِيضُ مِنْ جُلُودِهِمْ مِثْلُ الْمِسْكِ فَإِذَا الْبَطْنُ قَدْ ضَمَرَ »

وقال [٣] ابن مسعود : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّكَ لَتَنْظُرُ إِلَى الطَّيْرِ فِى الْجَنَّةِ فَتَشْتَهِيهِ فَيَخِرُّ بَيْنَ يَدَيْكَ مَشْوِيًّا »

---

(١) حديث ثوبان جاء حبر من أحبار اليهود فذكر سؤاله إلى أن قال فمن أول الناس إجازة يعنى على الصراط فقال فقراء المهاجرين قال اليهودى فما تحفتهم حين يدخلون الجنة فقال زيادة كبد النون الحديث : رواه مسلم بزيادة فى أوله وآخره

(٢) حديث زيدبن أرقم جاء رجل من اليهود فقال ياأبا القاسم ألست تزعم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ـ الحديث : وفيه حاجتهم عرق يفيض من جلودهم مثل المسك النسائى فى الكبرى باسناد صحيح

(٣) حديث ابن مسعود انك لتنظر الى الطير فى الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشويا : البزار باسناد فيه ضعيف

---

(١) البقرة : ٢٥

وقال [١] حذيفة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ طَيْرًا أَمْثَالَ الْبَخَاتِيِّ » قال أبو بكر رضي الله عنه : إنها لناعمة يارسول الله . قال « أَنْعَمُ مِنْهَا مَنْ يَأْكُلُهَا وَأَنْتَ مِمَّنْ يَأْكُلُهَا يَاأَبَا بَكْرٍ »

وقال عبد الله بن عمرو فى قوله تعالى (يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ [١]) قال : يطاف عليهم بسبعين صحفة من ذهب ، كل صحفة فيها لون ليس فى الأخرى مثله

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ [٢]) قال : يمزج لأصحاب اليمين ، ويشربه المقربون صرفا

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه ، فى قوله تعالى (خِتَامُهُ مِسْكٌ [٣]) قال : هو شراب أبيض مثل الفضة ، يختمون به آخر شرابهم ، لو أن رجلا من أهل الدنيا أدخل يده فيه ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلا وجد ريح طيبها

صفة
الحور العين والولدان

قد تكرر فى القرءان وصفهم ، ووردت الأخبار بزيادة شرح فيه . روى أنس رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال [٢] « غَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا وَلَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ أَوْ مَوْضِعُ قَدَمِهِ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى الْأَرْضِ لَأَضَاءَتْ وَلَمَلَأَتْ مَا بَيْنَهُمَا رَائِحَةً وَلَنَصِيفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا بِمَا فِيهَا » يعنى الخمار

(١) حديث حذيفة ان فى الجنة طيرا أمثال البخاتى ـ الحديث : غريب من حديث حذيفة ولأحمد من حديث أنس باسناد صحيح انطير الجنة كامثال البخت ترعى فى شجر الجنة قال أبو بكر يارسول الله انهذه الطير ناعمة قال أكلتها أنعم منها قالها ثلاثا وانى أرجو أنتكون ممن يأكل منها وهوعند الترمذى منوجه آخر ذكر فيه نهر الكوثر وقال فيه طير أعناقها كاعناق الجزر قال عمرإن هذه لناعمة ـ الحديث وليس فيه ذكر لأبى بكر وقال حسن

(٢) حديث غدوة فى سبيل أوروحة خير من الدنيا ومافيها ـ الحديث : البخارى من حديث أنس

(١)الزخرف : ٧١ (٢)التطفيف : ٢٧ (٣)التطفيف : ٢٦

وقال (١) أبو سعيد الخدرى : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى (كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (١)) قال « يَنْظُرُ إِلَى وَجْهِهَا فِي خِدْرِهَا أَصْفَى مِنَ الْمِرْآةِ وَإِنَّ أَدْنَى لُؤْلُؤَةٍ عَلَيْهَا لَتُضِيءُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَإِنَّهُ يَكُونُ عَلَيْهَا سَبْعُونَ ثَوْبًا يَنْفُذُهَا بَصَرُهُ حَتَّى يَرَى مُخَّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ »

وقال (٢) أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَمَّا أُسْرِيَ بِي دَخَلْتُ الْجَنَّةَ مَوْضِعًا يُسَمَّى الْبَيْدَخُ عَلَيْهِ خِيَامُ اللُّؤْلُؤِ وَالزَّبَرْجَدِ الْأَخْضَرِ وَالْيَاقُوتِ الْأَحْمَرِ فَقُلْنَ السَّلَامُ عَلَيْكَ يَارَسُولَ اللهِ فَقُلْتُ يَاجِبْرِيلُ مَاهَذَا النِّدَاءُ ؟ قَالَ هَؤُلَاءِ الْمَقْصُورَاتُ فِي الْخِيَامِ اسْتَأْذَنَّ رَبَّهُنَّ فِي السَّلَامِ عَلَيْكَ فَأَذِنَ لَهُنَّ فَطَفِقْنَ يَقُلْنَ نَحْنُ الرَّاضِيَاتُ فَلَا نَسْخَطُ أَبَدًا وَنَحْنُ الْخَالِدَاتُ فَلَا نَظْعَنُ أَبَدًا » وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى (حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٢))

وقال مجاهد فى قوله تعالى (وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ (٣)) قال : من الحيض ، والغائط ، والبول ، والبصاق ، والنخامة ، والمنى ، والولد

---

(١) حديث أبى سعيد الخدرى فى قوله تعالى كأنهن الياقوت والمرجان قال تنظر إلى وجهها فى خدرها أصفى من المرآة ـ الحديث : أبويعلى من رواية أبى الهيثم عن أبى سعيد باسناد حسن ورواه أحمد وفيه ابن لهيعة ورواه ابن المبارك فى الزهد والرقائق من رواية أبى الهيثم عن النبى صلى الله عليه وسلم مرسلا دون ذكر أبى سعيد وللترمذى من حديث ابن مسعود ان المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض مخ ساقها من وراء سبعين حلة ـ الحديث : ورواه عنه موقوفا قال وهذا أصح وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم

(٢) حديث أنس لما أسرى بى دخلت فى الجنة موضعا يسمى الصرح عليه خيام اللؤلؤ والزبرجد الاخضر والياقوت الأحمر ـ الحديث : وفيه ان جبريل قال هؤلاء المقصورات فى الخيام وفيه فطفقن يقلن نحن الراضيات فلانسخط :لم أجده هكذا بتمامه وللترمذى من حديث على ان فى الجنة لمجتمعا للحور العين يرفعن أصواتا لم تسمع الخلائق مثلها يقلن نحن الخالدات فلانبيد ونحن الناعمات فلانبأس ونحن الراضيات فلانسخط طوبى لمن كان لنا وكنا له وقال غريب ولأبى الشيخ فى كتاب العظمة من حديث ابن أبى أوفى بسند ضعيف فيجتمعن فى كل سبعة أيام فيقلن باصوات ـ الحديث :

---

(١) الرحمن : ٥٨ (٢) الرحمن : ٧٢ (٣) آل عمران : ١٥

وقال الأوزاعى (فِى شُغُلٍ فَاكِهُونَ [١]) قال : شغلهم افتضاض الأبكار

وقال رجل : يارسول الله ، أيباضع أهل الجنة ؟ قال « يُعْطَى الرَّجُلُ مِنْهُمْ مِنَ الْقُوَّةِ فِى الْيَوْمِ الْوَاحِدِ أَفْضَلَ مِنْ سَبْعِينَ مِنْكُمْ » [١]

وقال عبد الله بن عمر : إن أدنى أهل الجنة منزلة من يسعى معه ألف خادم كل خادم على عمل ليس عليه صاحبه

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] « إِنَّ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَيَتَزَوَّجُ خَمْسَمِائَةِ حَوْرَاءَ وَأَرْبَعَةَ آلَافِ بِكْرٍ وَثَمَانِيَةَ آلَافِ ثَيِّبٍ يُعَانِقُ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ مِقْدَارَ عُمْرِهِ فِى الدُّنْيَا »

وقال النبي صلى الله عليه وسلم [٣] « إِنَّ فِى الْجَنَّةِ سُوقاً مَافِيهَا بَيْعٌ وَلَا شِرَاءٌ إِلَّا الصُّوَرُ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ فَإِذَا اشْتَهَى الرَّجُلُ صُورَةً دَخَلَ فِيهَا وَإِنَّ فِيهَا لَمُجْتَمَعَ الْحُورِ الْعِينِ يَرْفَعْنَ بِأَصْوَاتٍ لَمْ تَسْمَعِ الْخَلَائِقُ مِثْلَهَا يَقُلْنَ نَحْنُ الْخَالِدَاتُ فَلَا نَبِيدُ وَنَحْنُ النَّاعِمَاتُ فَلَا نَبْأَسُ وَنَحْنُ الرَّاضِيَاتُ فَلَا نَسْخَطُ فَطُوبَى لِمَنْ كَانَ لَنَا وَكُنَّا لَهُ »

وقال [٤] أنس رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ الْحُورَ فِى الْجَنَّةِ يَتَغَنَّيْنَ نَحْنُ الْحُورُ الْحِسَانُ خُبِئْنَا لِأَزْوَاجٍ كِرَامٍ »

---

(١) حديث قال رجل يارسول الله أيباضع أهل الجنة قال يعطى الرجل منهم من القوة فى اليوم الواحد أفضل من سبعين منكم : الترمذى وصححه وابن حبان من حديث أنس يعطى المؤمن فى الجنة قوة كذا وكذا من الجماع فقيل أويطيق ذلك قال يعطى قوة مائة

(٢) حديث ان الرجل من أهل الجنة ليتزوج خمسمائة حوراء وأربعة آلاف بكر وثمانية آلاف ثيب يعانق كل واحدة منهن مقدار عمره فى الدنيا : أبو الشيخ فى طبقات المحدثين وفى كتاب العظمة من حديث ابن أبى أوفى الا أنه قال مائة حوراء ولم يذكر فيه عناقه لهن واسناده ضعيف وتقدم قبله بحديث

(٣) حديث ان فى الجنة سوقا مافيها بيع ولاشراء الا الصور من الرجال والنساء ـ الحديث : الترمذى فرقه فى موضعين من حديث على وقد تقدم بعضه قبل هذا بحديثين

(٤) حديث أنس ان الحور فى الجنة يتغنين فيقلن نحن الحور الحسان خبئنا لأزواج كرام : الطبرانى فى الأوسط وفيه الحسن بن داود المنكدري قال البخارى يتكلمون فيه وقال ابن عدي أرجو أنه لابأس به

---

[١] يس : ٥٥

وقال يحي بن كثير فى قوله تعالى (فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ [١]) قال السماع فى الجنة

وقال [١] أبو أمامة الباهلى : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَامِنْ عَبْدٍ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا وَيَجْلِسُ عِنْدَ رَأْسِهِ وَعِنْدَ رِجْلَيْهِ ثِنْتَانِ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ يُغَنِّيَانِهِ بِأَحْسَنِ صَوْتٍ سَمِعَهُ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ وَلَيْسَ بِمِزْمَارِ الشَّيْطَانِ وَلَكِنْ بِتَحْمِيدِ اللهِ وَتَقْدِيسِهِ »

بيان

جمل مفرقة من أوصاف أهل الجنة وردت بها الأخبار

روى [٢] أسامة بن زيد ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه « أَلَا هَلْ مُشَمِّرٌ لِلْجَنَّةِ إِنَّ الْجَنَّةَ لَاخَطَرَ لَهَا هِيَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ نُورٌ يَتَلَأْلَأُ وَرَيْحَانَةٌ تَهْتَزُّ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ وَنَهْرٌ مُطَّرِدٌ وَفَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ نَضِيجَةٌ وَزَوْجَةٌ حَسْنَاءُ جَمِيلَةٌ فِى حَبْرَةٍ وَنِعْمَةٍ فِى مُقَامٍ أَبَداً وَنَضْرَةٍ فِى دَارٍ عَالِيَةٍ بَهِيَّةٍ سَلِيمَةٍ» قالوا : نحن المشمرون لها يارسول الله . قال « قُولُوا إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى » ثم ذكر الجهاد وحض عليه

[٣] وجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : هل فى الجنة خيل فإنها تعجبنى ؟ قال « إِنْ أَحْبَبْتَ ذَلِكَ أُتِيتَ بِفَرَسٍ مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ

---

(١) حديث أبى أمامة مامن عبد يدخل الجنة الاويجلس عند رأسه وعند رجليه ثنتان من الحور العين يغنيانه بأحسن صوت سمعه الانس والجن وليس بمزمار الشيطان ولكن بتحميدالله وتقديسه الطبرانى باسناد حسن

(٢) حديث أسامة بن زيد ألاهل من مشمر للجنة ان الجنة لاخطر لها ـ الحديث : ابن ماجه وابن حبان

(٣) حديث جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال له هل فى الجنة خيل فانها تعجبنى ـ الحديث : الترمذى من حديث بريدة مع اختلاف لفظ وفيه المسعودى مختلف فيه ورواه ابن المبارك فى الزهد بلفظ المصنف من رواية عبد الرحمن بن سابط مرسلا قال الترمذى وهذا أصح وقد ذكر أبوموسى المدينى عبدالرحمن بن سابط فى ذيله على بن منده فى الصحابة ولايصح له صحبة

---

(١) الروم : ١٥

فَتَطِيرُ بِكَ فِي الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْتَ »

وقال له رجل إن الإبل تعجبني ، فهل في الجنة من إبل ؟ فقال « يَاعَبْدَ اللهِ إِنْ أُدْخِلْتَ الْجَنَّةَ فَلَكَ فِيهَا مَااشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَذَّتْ عَيْنَاكَ »

وعن [١] أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَيُولَدُ لَهُ الْوَلَدُ كَمَا يَشْتَهِي يَكُونُ حَمْلُهُ وَفِصَالُهُ وَشَبَابُهُ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] « إِذَا اسْتَقَرَّ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ اشْتَاقَ الْإِخْوَانُ إِلَى الْإِخْوَانِ فَيَسِيرُ سَرِيرُ هَذَا إِلَى سَرِيرِ هَذَا فَيَلْتَقِيَانِ وَيَتَحَدَّثَانِ مَا كَانَ بَيْنَهُمَا فِي دَارِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ يَاأَخِي تَذْكُرُ يَوْمَ كَذَا فِي مَجْلِسِ كَذَا فَدَعَوْنَا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ فَغَفَرَ لَنَا »

مساواة أهل الجنة في الهيئة

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] « إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ جُرْدٌ مُرْدٌ بِيضٌ جِعَادٌ مُكَحَّلُونَ أَبْنَاءُ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ عَلَى خَلْقِ آدَمَ طُولُهُمْ سِتُّونَ ذِرَاعًا فِي عَرْضِ سَبْعَةِ أَذْرُعٍ »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٤] « أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ الَّذِي لَهُ ثَمَانُونَ أَلْفَ خَادِمٍ

---

(١) حديث أبي سعيد ان الرجل من أهل الجنة ليولد له الولد كما يشتهي ويكون حمله وفصاله ونشأته في ساعة واحدة : ابن ماجه والترمذي وقال حسن غريب قال وقد اختلف أهل العلم في هذا فقال بعضهم في الجنة جماع ولايكون ولد انتهى ولاحمد من حديث لأبي رزين يلتذ بكم مثل لذاتكم في الدنيا ويلتذذن بكم غير أن لاتوالد

(٢) حديث إذا استقر أهل الجنة في الجنة اشتاق الاخوان الى الاخوان فيسير سرير هذا الى سرير هذا البزار من رواية الربيع بن صبيح عن الحسن عن أنس وقال لانعلمه يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم الابهذا الاسناد تفرد به أنس انتهى والربيع بن صبيح ضعيف جدا ورواه الأصفهاني في الترغيب والترهيب مرسلا دون ذكر أنس

(٣) حديث أهل الجنة جرد مرد بيض جعاد مكحلون أبناء ثلاث وثلاثين ـ الحديث : الترمذي من حديث معاذ وحسنه دون قوله بيض جعاد ودون قوله على خلق آدم الى آخره ورواه أيضا من حديث أبي هريرة مختصرا أهل الجنة جرد مرد كحل وقال غريب وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة على صورة أبيهم آدم ستون ذراعا

(٤) حديث أدنى أهل الجنة منزلة الذي له ثمانون ألف خادم ـ الحديث : الترمذي من حديث أبي سعيد منقطعا من أوله الى قوله وان عليهم التيجان ومن هنا باسناده أيضا وقال لانعرفه الا من حديث رشد بن سعد

وَثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ زَوْجَةً وَيُنْصَبُ لَهُ قُبَّةٌ مِنْ لُؤْلُؤٍ وَزَبَرْجَدٍ وَيَاقُوتٍ كَمَا بَيْنَ الْجَابِيَةِ إِلَى صَنْعَاءَ وَإِنَّ عَلَيْهِمُ التِّيجَانَ وَإِنَّ أَدْنَى لُؤْلُؤَةٍ مِنْهَا لَتُضِيءُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ »

وقال صلى الله عليه وسلم [١] « نَظَرْتُ إِلَى الْجَنَّةِ فَإِذَا الرُّمَّانَةُ مِنْ رُمَّانِهَا كَجِلْفِ الْبَعِيرِ الْمُقَتَّبِ وَإِذَا طَيْرُهَا كَالْبُخْتِ وَإِذَا فِيهَا جَارِيَةٌ فَقُلْتُ يَاجَارِيَةُ لِمَنْ أَنْتِ فَقَالَتْ لِزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ وَإِذَا فِي الْجَنَّةِ مَالَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ »

وقال كعب : خلق الله تعالى آدم عليه السلام بيده ، وكتب التوراة بيده ، وغرس الجنة بيده ، ثم قال لها تكلمى فقالت (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ [١])

فهذه صفات الجنة ذكرناها جملة ثم نقلناها تفصيلا . وقد ذكر الحسن البصري رحمه الله جملتها فقال : إن رمانها مثل الدلاء ، وإن أنهارها لمن ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من عسل مصفى لم يصفه الرجال ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، لاتسفه الأحلام ، ولا تصدع منها الرءوس ، وإن فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . ملوك ناعمون ، أبناء ثلاث وثلاثين ، في سن واحد ، طولهم ستون ذراعا في السماء ، كحل ، جرد ، مرد ، قد أمنوا العذاب ، واطمأنت بهم الدار . وإن أنهارها لتجرى على رضراض من ياقوت وزبرجد ، وأن عروقها ، ونخلها ، وكرمها اللؤلؤ ، وثمارها لايعلم علمها إلا الله تعالى ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة سنة ، وإن لهم فيها خيلا وإبلا هفافة ، رحالها وأزمتها وسروجها من ياقوت ، يتزاورون فيها ، وأزواجهم الحور العين كأنهن بيض مكنون ، وإن المرأة لتأخذ بين أصبعيها

(١) حديث نظرت الى الجنة فاذا الرمانه من رمانها كجلد البعير المقتب وإذا طيرها كالبخت ـ الحديث : رواه الثعلبي فى تفسيره من رواية أبى هرون العبدى عن أبى سعيد وأبو هرون اسمه عمارة ابن حريث ضعيف جدا وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة يقول الله اعددت لعبادى الصالحين مالاعين رأت ولاأذن سمعت ولاخطر على قلب بشر

(١) المؤمنون : ١

سبعين حلة ، فتلبسها ، فيرى مخ ساقها من وراء تلك السبعين حلة ، قد طهر الله الأخلاق من السوء ، والأجساد من الموت ، لايتمخطون فيها ، ولايبولون ، ولايتغوطون وإنما هو جشاء ورشح مسك . لهم رزقهم فيها بكرة وعشيا : أما أنه ليس ليل يكر ، الغدو على الرواح ، والرواح على الغدو . وإن آخر من يدخل الجنة وأدناهم منزلة ليمد له فى بصره وملكه مسيرة مائة عام ، فى قصور من الذهب والفضة ، وخيام اللؤلؤ ، ويفسح له فى بصره حتى ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه ، يغدى عليهم بسبعين ألف صحفة من ذهب ، ويراح عليهم بمثلها فى كل صحفة لون ليس فى الأخرى مثله ، ويجد طعم آخره ، كما يجد طعم أوله وإن فى الجنة لياقوتة فيها سبعون ألف دار ، فى كل دار سبعون ألف بيت ، ليس فيها صدع ولا ثقب

وقال مجاهد : إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن يسير فى ملكه ألف سنة ، يرى أقصاه كما يرى أدناه ، وأرفعهم الذى ينظر إلى ربه بالغداة والعشي

وقال سعيد بن المسيب : ليس أحد من أهل الجنة إلا وفى يده ثلاثة إسورة سوار من ذهب ، وسوار من لؤلؤ ، وسوار من فضة

وقال أبو هريرة رضي الله عنه . إن فى الجنة حوراء يقال لها العيناء ، إذا مشت مشى عن يمينها ويسارها سبعون ألف وصيفة ، وهي تقول : أين الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ؟

وقال يحي بن معاذ : ترك الدنيا شديد ، وفوت الجنة أشد . وترك الدنيا مهر الآخرة

وقال أيضا : فى طلب الدنيا ذل النفوس ، وفى طلب الآخرة عز النفوس . فيا عجبا لمن يختار المذلة فى طلب مايفنى ، ويترك العز فى طلب مايبقى

صفة

الرؤية والنظر إلى وجه الله تبارك وتعالى

قال الله تعالى (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ [1]) وهذه الزيادة هي النظر

---

(١) يونس : ٢٦

إلى وجه الله تعالى . وهي اللذة الكبرى التى ينسى فيها نعيم أهل الجنة ، وقدذكرنا حقيقتها فى كتاب المحبة . وقد شهد لها الكتاب والسنة على خلاف مايعتقده أهل البدعة . قال [١] جرير بن عبد الله البجلى : كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرأى القمر ليلة البدر ، فقال « إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هٰذَا الْقَمَرَ لَا تُضَامُونَ فِى رُؤْيَتِهِ فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا » ثم قرأ (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا [١]) وهو مخرج فى الصحيحين

وروى مسلم فى الصحيح ، عن [٢] صهيب قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ [٢]) قال « إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ نَادَى مُنَادٍ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ مَوْعِداً يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ قَالُوا مَاهٰذَا الْمَوْعِدُ أَلَمْ يُثَقِّلْ مَوَازِينَنَا وَيُبَيِّضْ وُجُوهَنَا وَيُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَيُجِرْنَا مِنَ النَّارِ قَالَ فَيُرْفَعُ الْحِجَابُ وَيَنْظُرُونَ إِلَى وَجْهِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَمَا أُعْطُوا شَيْئاً أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ »

وقد روى حديث الرؤيا جماعة من الصحابة . وهذه هي غاية الحسنى ونهاية النعمى . وكل مافصلناه من التنعم عند هذه النعمة ينسى . وليس لسرور أهل الجنة عند سعادة اللقاء منتهى ، بل لانسبة لشيء من لذات الجنة إلى لذة اللقاء . وقد أوجزنا فى الكلام هنا لما فصلناه فى كتاب المحبة والشوق والرضا ، فلا ينبغى أن تكون همة العبد من الجنة بشيء سوى لقاء المولى . وأما سائر نعيم الجنة فإنه يشارك فيه البهيمة المسرحة فى المرعى

---

(١) حديث جرير كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى القمر ليلة البدر فقال انكم ترون ربكم ـ الحديث : هو فى الصحيحين كما ذكر المصنف

(٢) حديث صهيب فى قوله تعالى للذين أحسنوا الحسنى وزيادة : رواه مسلم كما ذكره المصنف

---

[١] طه : ١٣٠ [٢] يونس : ٢٦

نختم الكتاب بباب فى

سعة

رحمة الله تعالى على سبيل التفاؤل بذلك

فقد [١] كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الفأل . وليس لنا من الأعمال مانرجو به المغفرة ؛ فنقتدى برسول الله صلى الله عليه وسلم فى التفاؤل . ونرجو أن يختم عاقبتنا بالخير فى الدنيا والآخرة ، كما ختمنا الكتاب بذكر رحمة الله تعالى . فقد قال الله تعالى (إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَادُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ [١]) وقال تعالى (قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَتَقْنَطُوا مِن رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ [٢]) وقال تعالى (وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا [٣])

ونحن نستغفر الله تعالى من كل مازلت به القدم ، أو طغى به القلم فى كتابنا هذا وفى سائر كتبنا ، ونستغفره من أقوالنا التى لاتوافقها أعمالنا ، ونستغفره مما ادعيناه وأظهرناه من العلم والبصيرة بدين الله تعالى مع التقصير فيه ، ونستغفره من كل علم وعمل قصدنا به وجهه الكريم ثم خالطه غيره ، ونستغفره من كل وعد وعدناه به من أنفسنا ثم قصّرنا فى الوفاء به ، ونستغفره من كل نعمة أنعم بها علينا فاستعملناها فى معصيته ، ونستغفره من كل تصريح وتعريض بنقصان ناقص وتقصير مقصر كنا متصفين به ، ونستغفره من كل خطرة دعتنا إلى تصنع وتكلف تزينا للناس فى كتاب سطرناه ، أوكلام نظمناه ، أو علم أفدناه

﴿ باب فى سعة الرحمة ﴾

(١) حديث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب التفاؤل : متفق عليه من حديث انس فى اثناء حديث ويعجبنى الفأل الصالح الكلمة الحسنة ولهما من حديث أبى هريرة وخيرها الفأل قالوا وما الفأل قال الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم

(١) النساء : ٤٨ (٢) الزمر : ٥٣ (٣) النساء : ١١٠

أو استفدناه . ونرجو بعد الاستغفار من جميع ذلك كله لنا ولمن طالع كتابنا هذا أو كتبه ، أو سمعه ، أن نكرم بالمغفرة ، والرحمة ، والتجاوز عن جميع السيئات ظاهرا وباطنا ، فإن الكرم عميم ، والرحمة واسعة ، والجود على أصناف الخلائق فائض ، ونحن خلق من خلق الله عز وجل لاوسيلة لنا إليه إلا فضله وكرمه ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى مِائَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ وَأَخَّرَ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »

ويروى أنه [٢] إذا كان يوم القيامة ، أخرج الله تعالى كتابا من تحت العرش فيه : إن رحمتي سبقت غضبي ، وأنا أرحم الراحمين . فيخرج من النار مثلا أهل الجنة

رحمة الله تسبق غضبه

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] « يَتَجَلَّى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ضَاحِكًا فَيَقُولُ أَبْشِرُوا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا وَقَدْ جَعَلْتُ مَكَانَهُ فِي النَّارِ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا »

وقال النبي صلى الله عليه وسلم [٤] « يُشَفِّعُ اللَّهُ تَعَالَى آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ جَمِيعِ ذُرِّيَّتِهِ فِي مِائَةِ أَلْفِ أَلْفٍ وَعَشَرَةِ آلَافِ أَلْفٍ »

---

(١) حديث ان لله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والانس ـ الحديث : مسلم من حديث أبي هريرة وسلمان

(٢) حديث اذا كان يوم القيامه أخرج الله كتابا من تحت العرش فيه ان رحمتي سبقت غضبي ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة لماقضى الله الخلق كتب عنده فوق العرش ان رحمتي سبقت غضبي لفظ البخارى وقال مسلم كتب فى كتابه على نفسه ان رحمتي تغلب غضبي

(٣) حديث يتجلى الله لنا يوم القيامة ضاحكا فيقول ابشروا معشر المسلمين فانه ليس منكم أحد الا وقد جعلت مكانه فى النار يهوديا أو نصرانيا : مسلم من حديث أبي موسى اذا كان يوم القيامة دفع الله الى كل مسلم يهوديا أو نصرانيا فيقول هذا فداؤك من النار ولأبى داود أمتى أمة مرحومة لاعذاب عليها فى الآخرة ـ الحديث : وأما أول الحديث فرواه الطبرانى من حديث أبي موسى ايضا يتجلى الله ربنا لنا ضاحكا يوم القيامة حتى ينظروا الى وجهه فيخرون له سجدا فيقول ارفعوا رؤسكم فليس هذا يوم عبادة وفيه على بن زيد بن جدعان

(٤) حديث يشفع الله آدم يوم القيامة من ذريته فى مائة الف ألف وعشرة آلاف ألف : الطبرانى من حديث أنس باسناد ضعيف

وقال صلى الله عليه وسلم [(١)] « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ هَلْ أَحْبَبْتُمْ لِقَائِي فَيَقُولُونَ نَعَمْ يَارَبَّنَا فَيَقُولُ لِمَ فَيَقُولُونَ رَجَوْنَا عَفْوَكَ وَمَغْفِرَتَكَ فَيَقُولُ قَدْ أَوْجَبْتُ لَكُمْ مَغْفِرَتِي »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [(٢)] « يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ ذَكَرَنِي يَوْماً أَوْ خَافَنِي فِي مَقَامٍ »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [(٣)] « إِذَا اجْتَمَعَ أَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ وَمَنْ شَاءَ اللَّهُ مَعَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ قَالَ الْكُفَّارُ لِلْمُسْلِمِينَ أَلَمْ تَكُونُوا مُسْلِمِينَ قَالُوا بَلَى فَيَقُولُونَ مَا أَغْنَى عَنْكُمْ إِسْلَامُكُمْ إِذْ أَنْتُمْ مَعَنَا فِي النَّارِ فَيَقُولُونَ كَانَتْ لَنَا ذُنُوبٌ فَأُخِذْنَا بِهَا فَيَسْمَعُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا قَالُوا فَيَأْمُرُ بِإِخْرَاجِ مَنْ كَانَ فِي النَّارِ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ فَيَخْرُجُونَ فَإِذَا رَأَى ذَلِكَ الْكُفَّارُ قَالُوا يَالَيْتَنَا كُنَّا مُسْلِمِينَ فَنَخْرُجَ كَمَا أُخْرِجُوا » ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ [(١)])

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [(٤)] « لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ مِنَ الْوَالِدَةِ الشَّفِيقَةِ بِوَلَدِهَا »

وقال جابر بن عبد الله : من زادت حسناته على سيئاته يوم القيامة فذلك الذى يدخل

---

(١) حديث ان الله تعالى يقول يوم القيامة للمؤمنين هل أحببتم لقائى فيقولون نعم ـ الحديث : أحمد والطبرانى من حديث معاذ بسند ضعيف

(٢) حديث يقول الله عزوجل يوم القيامة أخرجوا من النار من ذكرنى يوما أوخافنى فى مقام: الترمذى من حديث أنس وقال حسن غريب

(٣) حديث اذا اجتمع أهل النار فى النار ومن شاء الله معهم من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين ألم تكونوا مسلمين قالوا بلى فيقولون ماأغنى عنكم اسلامكم اذأنتم معنا فى النار ـ الحديث : فى اخراج أهل القبلة من النار ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ربما يود الذين كفروا لوكانوا مسلمين النسائى فى الكبرى من حديث جابر نحوه باسناد صحيح

(٤) حديث لله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها : متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب وفى أوله قصة المرأة من السبي اذ وجدت صبيا فى السبي فأخذته فالصقته ببطنها فارضعته

---

(١) الحجر : ٢

الجنة بغير حساب . ومن استوت حسناته وسيئاته فذلك الذى يحاسب حسابا يسيرا ثم يدخل الجنة . وإنما شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن أوبق نفسه وأثقل ظهره

ويروى أن الله عزوجل قال لموسى عليه السلام : ياموسى ، استغاث بك قارون فلم تغثه . وعزتى وجلالى لو استغاث بى لأغثته وعفوت عنه

وقال سعد بن بلال : يؤمر يوم القيامة بإخراج رجلين من النار ، فيقول الله تبارك وتعالى . ذلك بما قدمت أيديكما وما أنا بظلام للعبيد ، ويأمر بردهما إلى النار ، فيعدو أحدهما فى سلاسله حتى يقتحمها ، ويتلكأ الآخر ، فيؤمر بردهما ، ويسألهما عن فعلهما . فيقول الذى عدا إلى النار : قد حذّرت من وبال المعصية ، فلم أكن لأتعرض لسخطك ثانية . ويقول الذى تلكأ : حسنُ ظنى بك كان يشعرنى أن لاتردنى إليها بعد ماأخرجتنى منها . فيأمر بهما إلى الجنة

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « يُنادِي مُنَادٍ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَاأُمَّةَ مُحَمَّدٍ أَمَّا مَا كَانَ لِي قِبَلَكُمْ فَقَدْ وَهَبْتُهُ لَكُمْ وَبَقِيَتِ التَّبِعَاتُ فَتَوَاهَبُوهَا وَادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي »

ويروى أن أعرابيا سمع ابن عباس يقرأ (وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا [1]) فقال الأعرابي والله ماأنقذكم منها وهو يريد أن يوقعكم فيها : فقال ابن عباس : خذوها من غير فقيه

وقال [2] الصنابحى : دخلت على عبادة بن الصامت وهو فى مرض الموت ، فبكيت ، فقال مهلا لم تبكى ؟ فوالله مامن حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث ينادى مناد من تحت العرش يوم القيامة ياأمة محمد أما ما كان لى قبلكم فقد غفرته لكم وبقيت التبعات فتواهبوها بينكم وادخلوا الجنة برحمتى : رويناه فى سباعيات أبى الاسعد القشيرى من حديث أنس وفيه الحسين بن داود البلخى قال الخطيب ليس بثقة

(٢) حديث الصنابحى عن عبادة بن الصامت من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله حرمه الله على النار : مسلم من هذا الوجه واتفقا عليه من غير رواية الصنابحى بلفظ آخر

---

(١) آل عمران : ١٠٣

لكم فيه خير إلا حدثتكموه ، إلا حديثا واحد ، وسوف أحدثكموه اليوم وقد أحيط بنفسى . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « مَنْ شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ النَّارَ »

وقال [1] عبد الله بن عمرو بن العاص : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ اللهَ يَسْتَخْلِصُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِى عَلَى رُءُوسِ الْخَلاَئِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلاًّ كُلُّ سِجِلٍّ مِنْهَا مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَقُولُ أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئاً ؟ أَظَلَمَتْكَ كَتَبَتِى الْحَافِظُونَ ؟ فَيَقُولُ لاَ يَارَبِّ فَيَقُولُ أَفَلَكَ عُذْرٌ ؟ فَيَقُولُ لاَ يَارَبِّ فَيَقُولُ بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ لاَ ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ فَيُخْرَجُ بِطَاقَةً فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ فَيَقُولُ يَارَبِّ مَاهَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلاَّتِ فَيَقُولُ إِنَّكَ لاَ تُظْلَمُ قَالَ فَتُوضَعُ السِّجِلاَّتُ فِى كِفَّةٍ وَالْبِطَاقَةُ فِى كِفَّةٍ قَالَ فَطَاشَتِ السِّجِلاَّتُ وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ فَلاَ يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى آخر حديث طويل يصف فيه القيامة والصراط [2] « إِنَّ اللهَ يَقُولُ لِلْمَلاَئِكَةِ مَنْ وَجَدْتُمْ فِى قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ مِنَ النَّارِ فَيُخْرِجُونَ خَلْقاً كَثِيراً ثُمَّ يَقُولُونَ يَارَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا أَحَدًا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا بِهِ ثُمَّ يَقُولُ ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِى قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ فَيُخْرِجُونَ خَلْقاً كَثِيراً ثُمَّ يَقُولُونَ يَارَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا أَحَدًا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا بِهِ ثُمَّ يَقُولُ ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِى قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ فَيُخْرِجُونَ خَلْقاً كَثِيرًا ثُمَّ يَقُولُونَ يَارَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا أَحَدًا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا بِهِ » فكان أبو سعيد يقول :

---

(١) حديث عبد الله بن عمرو ان الله يستخلص رجلا من أمتى على رءوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعون سجلا فذكر حديث البطاقة : ابن ماجه والترمذى وقال حسن غريب

(٢) حديث ان الله يقول للملائكة من وجدتم فى قلبه مثقال دينار من خير فاخرجوه من النار فيخرجون خلقا كثيرا ـ الحديث : فى اخراج الموحدين وقوله تعالى لاهل الجنة فلا أسخط عليكم بعده أبدا أخرجاه فى الصحيحين كما ذكر المصنف من حديث أبى سعيد

إن لم تصدقونى بهذا الحديث فاقرؤا إن شئتم (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (١)) قال « فَيَقُولُ اللَّهُ تعالى شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط قد عادوا حمما فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة فيخرجون منها كما تخرج الحبة في حميل السيل ألا ترونها تكون مما يلي الحجر والشجر ما يكون إلى الشمس أصفر وأخضر وما يكون منها إلى الظل أبيض » قالوا يارسول الله، كأنك كنت ترعى بالبادية . قال « فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتيم يعرفهم أهل الجنة يقولون هؤلاء عتقاء الرحمن الذين أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه ثم يقول ادخلوا الجنة فما رأيتم فهو لكم فيقولون : ربنا أعطيتنا مالم تعط أحدا من العالمين فيقول الله تعالى إن لكم عندي ماهو أفضل من هذا فيقولون ياربنا أي شيء أفضل من هذا ؟ فيقول رضائي عنكم فلا أسخط عليكم أبدا » رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما

وروى البخارى أيضا عن (١) ابن عباس رضي الله عنهما قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال « عرضت علي الأمم يمر النبي ومعه الرجل والنبي ومعه الرجلان والنبي ليس معه أحد والنبي معه الرهط فرأيت سوادا كثيرا فرجوت أن تكون أمتي فقيل لي هذا موسى وقومه ثم قيل لي انظر فرأيت سوادا كثيرا قد سد الأفق فقيل لي انظر هكذا وهكذا فرأيت سوادا كثيرا فقيل لي هؤلاء أمتك ومع هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب » فتفرق الناس ولم يبين لهم رسول الله

(١) حديث ابن عباس عرضت على الامم يمر النبى معه الرجل والنبى معه الرجلان والنبى ليس معه أحد الحديث : الى قوله سبقك بها عكاشة رواه البخارى

(١) النساء : ٤٠

صلى الله عليه وسلم . فتذاكر ذلك الصحابة فقالوا : أما نحن فولدنا فى الشرك ، ولكن قد آمنا بالله ورسوله ، هؤلاء هم أبناؤنا فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « هُمُ الَّذِينَ لاَ يَكْتَوُونَ وَلاَ يَسْتَرْقُونَ وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » فقام عكاشة فقال : ادع الله أن يجعلنى منهم يارسول الله . فقال « أَنْتَ مِنْهُمْ » ثم قام آخر فقال مثل قول عكاشة . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « سَبَقَكَ بِهَا عُكَاشَةُ »

وعن [١] عمرو بن حزم الأنصارى قال : تغيب عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا لايخرج إلا لصلاة مكتوبة ثم يرجع . فلما كان اليوم الرابع خرج إلينا فقلنا يارسول الله احتبست عنا حتى ظننا أنه قد حدثَ حدثٌ . قال « لَمْ يَحْدُثْ إلاَّ خَيْرٌ إنَّ رَبِّى عَزَّ وَجَلَّ وَعَدَنِى أَنْ يُدْخِلَ مِنْ أُمَّتِى الْجَنَّةَ سَبْعِينَ أَلْفًا لاَحِسَابَ عَلَيْهِمْ وَإِنِّى سَأَلْتُ رَبِّى فِى هَذِهِ الثَّلاَثَةِ أَيَّامِ الْمَزِيدَ فَوَجَدْتُ رَبِّى مَاجِدًا وَاجِدًا كَرِيمًا فَأَعْطَانِى مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ السَّبْعِينَ أَلْفًا سَبْعِينَ أَلْفًا قَالَ قُلْتُ يَارَبِّ وَتَبْلُغُ أُمَّتِى هَذَا قَالَ أُكَمِّلُ لَكَ الْعَدَدَ مِنَ الأَعْرَابِ »

وقال [٢] أبو ذر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « عَرَضَ لِى جِبْرِيلُ فِى جَانِبِ الْحَرَّةِ فَقَالَ بَشِّرْ أُمَّتَكَ أَنَّهُ مَنْ مَاتَ لاَيُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ فَقُلْتُ يَاجِبْرِيلُ وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى قَالَ نَعَمْ وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى

---

(١) حديث عمرو بن حزم الانصارى تغيب عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا لايخرج الا لصلاة مكتوبة ثم يرجع وفيه ان ربى وعدنى أن يدخل من أمتى الجنة سبعين ألفا لاحساب عليهم وفيه أعطانى مع كل واحد من السبعين ألفا سبعين ألفا البيهقى فى البعث والنشور ولاحمد وأبى يعلى من حديث أبى بكر فزادنى مع كل واحد سبعين ألفا وفيه رجل لم يسم ولأحمد والطبرانى فى الأوسط من حديث عبدالرحمن بن أبى بكر فقال عمر فهلا استزدته فقال قداستزدته فأعطانى مع كل رجل سبعين ألفا قال عمر فهلا استزدته قال قداستزدته فأعطانى هكذا وفرج عبدالله ابن أبى بكر بين يديه قال عبدالله وبسط باعيه وحثى عليه وفيه موسى بن عبيدة الربذى ضعيف

(٢) حديث أبى ذر عرض لى جبريل فى جانب الحرة فقال بشر أمتك بانه من مات لايشرك بالله شيئا دخل الجنة ـ الحديث : متفق عليه بلفظ أتانى جبريل فبشرنى وفى رواية لهما أتانى آت من ربى

قُلتُ وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى قَالَ وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى قُلتُ وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى قَالَ وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى وَإِنْ شَرِبَ الْخَمْرَ »

وقال [١] أبو الدرداء : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ [١]) فقلت وإن سرق وإن زنى يارسول الله ؟ فقال (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ [٢]) فقلت وإن سرق وإن زنى ؟ فقال (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ [٣]) فقلت وإن سرق وإن زنى يارسول الله ؟ قال « وَإِنْ رَغِمَ أَنْفُ أَبِي الدَّرْدَاءِ »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] « إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ دُفِعَ إِلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْمِلَلِ فَقِيلَ لَهُ هَذَا فِدَاؤُكَ مِنَ النَّارِ »

وروى مسلم فى الصحيح عن [٣] أبى بردة ، أنه حدّث عمر بن عبد العزيز ؛ عن أبيه أبى موسى ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لاَ يَمُوتُ رَجُلٌ مُسْلِمٌ إِلَّا أَدْخَلَ اللهُ تَعَالَى مَكَانَهُ النَّارَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا » فاستحلفه عمر بن عبد العزيز بالله الذى لاإله إلا هو ثلاث مرات ، أن أباه حدّثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحلف له

وروى أنه [٤] وقف صبي فى بعض المغازى ينادى عليه فيمن يزيد فى يوم صائف شديد الحر ، فبصرت به امرأة فى خباء القوم ، فأقبلت تشتد ، وأقبل

---

(١) حديث أبى الدرداء قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن خاف مقام ربه جنتان فقلت وان زنى وان سرق ـ الحديث : رواه أحمد باسناد صحيح

(٢) حديث اذا كان يوم القيامة دفع الى كل مؤمن رجل من أهل الملل فقيل له هذا فداؤك من النار رواه مسلم من حديث أبى موسى نحوه وقدتقدم

(٣) حديث أبى بردة انه حدث عمر بن عبد العزيز عن ابيه أبىموسى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال لايموت رجل مسلم الاأدخل اللهمكانهالنار يهودياأو نصرانيا :عزاهالصنفلرواية مسلموهو كذلك

(٤) حديث وقف صبى فىبعض المغازى ينادى عليه فيمن يزيد فىيوم صائف شديدالحر فبصرت بهامرأة الحديث : وفيه الله أرحم بكم جميعا من هذه بابنها متفق عليه مختصرا مع اختلاف منحديث عمر بن الخطاب قال قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبي فاذا امرأة من السبي تسعى

(١ ، ٢ ، ٣)الرحمن

أصحابها خلفها ، حتى أخذت الصبي وألصقته إلى صدرها ، ثم ألقت ظهرها على البطحاء وجعلته على بطنها تقيه الحر ، وقالت ابني ابني . فبكى الناس وتركوا ماهم فيه . فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وقف عليهم ، فأخبروه الخبر فسر برحمتهم ثم بشرهم فقال « أَعَجِبْتُمْ مِنْ رَحْمَةِ هَذِهِ لِابْنِهَا » قالوا نعم . قال صلى الله عليه وسلم « فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَرْحَمُ بِكُمْ جَمِيعاً مِنْ هَذِهِ بِابْنِهَا » فتفرق المسلمون على أفضل السرور وأعظم البشارة

فهذه الأحاديث وما أوردناه في كتاب الرجاء يبشرنا بسعة رحمة الله تعالى ، فنرجو من الله تعالى أن لايعاملنا بما نستحقه ، ويتفضل علينا بما هو أهله ، بمنه وسعة جوده ورحمته

اذ وجدت صبيا في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار قلنا لاوالله وهي تقدر على أن لاتطرحه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لله أرحم بعباده من هذه بولدها لفظ مسلم وقال البخاري فاذا امرأة من السبي قدتحلب ثديها تسعى اذوجدت صبيا ـ الحديث ـ✲ـ

والحمد لله تعالى عودا على بدء، والصلاة والتسليم على سيدنا محمد في كل حركة وهدء ـ ويقول مؤلفه عبد الرحيم بن الحسين العراقي انني أكملت مسودة هذا التأليف في سنة ٧٥١ وأكملت تبييض هذا المختصر منها في يوم الاثنين ١٢ من شهر ربيع الاول سنة ٧٩٠ انتهى

-✲-

تم بعون الله تعالى وتوفيقه طبع كتاب إحياء علوم الدين لحجة الإسلام الإمام الغزالي في يوم الأحد ٢٦ شوال سنة ١٣٥٧

فهرست الجزء الخامس عشر

فهرست الجزء السادس عشر

كِتَابُ الإِمْلَاءِ

كتاب الأملاء

فى إشكالات الإحياء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على ماخصص وعمم ، وصلى الله على سيد جميع الأنبياء المبعوث إلى العرب والعجم ، وعلى آله وعترته وسلم كثيرا وكرم ، سألتَ يسرك الله لمراتب العلم تصعد مراقيها ، وقرّب لك مقامات الولاية تحل معاليها عن بعض ماوقع فى الإملاء الملقب بالإحياء مما أشكل على من حجب فهمه وقصر علمه ، ولم يفز بشيء من الحظوظ الملكية قدحه وسهمه ، وأظهرت التحزن لما شاش به شركاء الطعام ، وأمثال الأنعام ، وإجماع العوام ، وسفهاء الأحلام ، وذعار أهل الإسلام ، حتى طعنوا عليه ، ونهوا عن قراءته ، ومطالعته ، وأفتوا بمجرد الهوى على غير بصيرة بإطراحه ومنابذته ، ونسبوا مُمليه إلى ضلال وإضلال ونبذوا قرّاءه ومنتحليه بزيغ فى الشريعة ، واختلال ، فإلى الله إنصرافهم ومآبهم ، وعليه فى العرض الأكبر إيقافهم وحسابهم ، (سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ [١]) (وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ [٢]) (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ [٣]) (وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ [٤]) ولكن الظالمون فى شقاق بعيد ، ولا عجب فقد توى أدلّاء الطريق ، وذهب أرباب التحقيق ، ولم يبق فى الغالب إلا أهل الزور والفسوق متشبثين بدعاوى كاذبة ، متصفين بحكايات موضوعة ، متزينين بصفات منمقة متظاهرين بظواهر من العلم فاسدة ، متعاطين لحجج غير صادقة ؛ كل ذلك لطلب الدنيا أو محبة ثناء ، أو مغالبة نظراء ، قد ذهبت المواصلة بينهم بالبر ،

(١) الزخرف : ١٩ (٢) الشعراء : ٢٢٧ (٣) يونس : ٣٩ (٤) النساء : ٨٣

وتألفوا جميعا على المنكر ، وعدمت النصائح بينهم فى الأمر ، وتصافوا بأسرهم على الخديعة ، والمكر ، إن نصحتهم العلماء أغروا بهم ، وإن صمت عنهم العقلاء أزروا عليهم ، أولئك الجهال فى علمهم الفقراء فى طولهم ، البخلاء عن الله عز وجل بأنفسهم لايفلحون ، ولا ينجح تابعهم ، ولذلك لاتظهر عليهم مواريث الصدق ، ولا تسطع حولهم أنوار الولاية ، ولا تحقق لديهم أعلام المعرفة ، ولا يستر عوراتهم لباس الخشية لأنهم لم ينالوا أحوال النقباء ومراتب النجباء ، وخصوصية البدلاء ، وكرامة الأوتاد ، وفوائد الأقطاب ، وفى هذه أسباب السعادة وتتمة الطهارة ، لو عرفوا أنفسهم لظهر لهم الحق ، وعلموا علة أهل الباطل وداء أهل الضعف ودواء أهل القوّة ، ولكن ليس هذا من بضائعهم ، حجبوا عن الحقيقة بأربع ، بالجهل والإصرار ، ومحبة الدنيا وإظهار الدعوى ، فالجهل أورثهم السخف ، والإصرار أورثهم التهاون ، ومحبة الدنيا أورثتهم طول الغفلة ، وإظهار الدعوى أورثهم الكبر والإعجاب والرياء (وَاللهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ[1]) (وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ[2]) فلا يغرنك أعاذنا الله وإياك من أحوالهم شأنهم ، ولا يذهلنك عن الاشتغال بصلاح نفسك تمردهم وطغيانهم ، ولا يغوينك بما زين لهم من سوء أعمالهم شيطانهم فكأن قد جمع الخلائق فى صعيد (وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ[3]) وتلى (لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ[4]) فيالَه من موقف قد أذهل ذوى العقول عن القال والقيل ، ومتابعة الأباطيل ، (فَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ[5]) ولا تطع كل أفاك أثيم (وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ[6]) (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً[7]) (وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ[8]) (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ[9]) ولقد جئناك بحول الله وقوّته ، وبعد استخارته عما سألت عنه وخاصة مازعمت فيه من

ما يحجب عن الحقيقة

---

(١) البروج : ٢٠ (٢) سبأ : ٤٧ (٣ ، ٤) ق : ٢١ ، ٢٢ (٥) الأعراف : ١٩٩ (٦) الأنعام : ٣٥
(٧) هود : ١١٨ (٨) يونس : ١٠٩ (٩) القصص : ٨٨

تخصيص الكلام بالمثل الذى ذكر فيه الأقلام إذ قد اتفق أن يكون أشهر مافى الكتاب وأكثر تصرفا على ألسنة الصدور والأصحاب ، حتى لقد صار المثل المذكور فى المجالس تحية الداخل وحديث الجالس ، فساعدتنا أمنيتك ولولا العجلة والاشتغال لأضفنا إلى إملائنا هذا بيانا غيره مما عدّوه مشكلا ، وصار لعقولهم الضعيفة مخبلا ومضللا ، ونحن نستعيذ بالله من الشيطان ، ونستعصم به من جراءة فقهاء الزمان ونتضرع إليه فى المزيد من الإحسان ، إنه الجواد المنان

ذكر مراسم

الأسئلة فى المثل

ذكرت رزقك الله ذِكرَه وجعلك تعقل نهيه وأمره ، كيف جاز انقسام التوحيد على أربعة مراتب ، ولفظة التوحيد تنافى التقسيم فى المشهود كماينافى التكرير التعديد ، وإن صح انقسامه على وجه لايندفع ، فهل تصح تلك القسمة فيما يوجد ، أوفيما يقدر ورغبت مزيد البيان فى تحقيق كل مرتبة ، وانقسام طبقات أهلها فيها ، إن كان يقع بينهم التفاوت ، وماوجه تمثيلها بالجوز فى القشور واللبوب ، ولم كان الأول لاينفع ، والآخر الذى هو الرابع لايحل إفشاؤه ؟ ومامعنى قول أهل هذا الشان : إفشاء سر الربوبية كفر أين أصل ماقالوه فى الشرع ؟ إذ الإيمان والكفر ، والهداية والضلال ، والتقريب والتبعيد ، والصديقية وسائر مقامات الولاية ، ودركات المخالفة إنما هي مآخذ شرعية ، وأحكام نبوية ، وكيف يتصور مخاطبة العقلاء الجمادات ، ومخاطبة الجمادات للعقلاء ، وبماذا تسمع تلك المخاطبة أبحاسة الآذان ، أم بسمع القلب ؟ ومالفرق بين القلم المحسوس والقلم الالهي ؟ ، وماحد عالم الملك وعالم الجبروت ، وحد عالم الملكوت ؟ ، ومامعنى أن الله تعالى خلق آدم على صورته ؟ ، وما الفرق بين الصورة الظاهرة التى يكون معتقدها منزها مجللا ؟ ، ومامعنى الطريق فى ، فإنك بالوادى المقدس طوى ، ولعله ببغداد أوأصفهان أونيسابور أوطبرستان فى غير الوادى الذى سمع فيه موسى عليه السلام كلام الله تعالى ؟ ، ومامعنى

فاستمع بسرّ قليل لما يوحى ؟ وهل يكون سماع القلب بغير سره ، وكيف يسمع لما يوحى من ليس بنبي ، أذلك على طريق التعميم أم على سبيل التخصيص ، ومن له بالتسلق إلى مثل ذلك المقام حتى يسمع أسرار الإله ، وإن كان على سبيل التخصيص والنبوة ليست محجورة على أحد إلاعلى من قصر عن سلوك تلك الطريق ، وما يسمع فى النداء إذا سمع . أهَلْ أسمع موسى أو أسمع نفسه ؟ وما معنى الأمر للسالك بالرجوع من عالم القدرة ونهيه عن أن يتخطى رقاب الصديقين ، وما الذى أوصله إلى مقامهم وهو فى المرتبة الثالثة وهي توحيد المقربين ، وما معنى انصراف السالك بعد وصوله إلى ذلك الرفيق ، وإلى أين وجهته فى الانصراف وكيف صفة انصرافه ، وما الذى يمنعه من البقاء فى الموضع الذى وصل إليه وهو أرفع من الذى خلفه ، وأين هذا من قول أبى سليمان الدارانى المذكور فى غير الإحياء ، لو وصلوا مارجعوا ماوصل من رجع ، ومامعنى بأن ليس فى الإمكان أبدع من صورة هذا العالم ، ولاأحسن ترتيبا ، ولاأكمل صنعا ، ولوكان وادخره مع القدرة عليه كان ذلك بخلا يناقض الجود ، وعجزا يناقض القدرة الإلهية ، وماحكم هذه العلوم المكنونة ، هل طلبها فرض ومندوب إليه ، أوغير ذلك ، ولم كسبت المشكل من الألفاظ ، واللغز من العبارات ، وإن جاز ذلك للشارع فيما له أن يختبربه ويمتحن فمابال من ليس شارعا ، انتهى جملة مراسم الأسئلة فى المثل فأسأل الله تعالى أن يملى علينا ماهو الحق عنده فى ذلك ، وأن يجرى على السنتنا مايستضاء به فى ظلمات المسالك ، وأن يعم بنفعه أهل المبادى والمدارك ، ثم لابد أن أمهد مقدمة وأؤكد قاعدة ، وأؤكد وصية

أما المقدمة : فالغرض بها تبيين عبارات انفرد بها أرباب الطريق تغمض معانيها على أهل القصور ، فنذكر مايغمض منها ، ونذكر المقصد بها عندهم ، فرب واقف على مايكون من كلامنا مختصا بهذا الفن فى هذا ، وغيره ، فيتوقف عليه فهم معناه من جهة اللفظ ،

وأما القاعدة : فنذكر فيها الاسم الذى يكون سلوكنا فى هذه العلوم عليه ، والسمت الذى ننوى بمقصدنا إليه ، ليكون ذلك أقرب على المتأمل وأسهل على الناظر المتفهم

وأما الوصية : فنقصد فيها تعريف ماعلى من نظر فى كلام الناس وآخذ نفسه بالإطلاع على أغراضهم فيما ألفوه ، من تصانيفهم وكيف يكون نظره فيها واطلاعه عليها واقتباسه منها ، فذلك أؤكد عليه أن يتعلمه من ظهورها ، فشردوا عنها ، وغلقت فى وجوههم الأبواب ، وأسدل دونهم الحجاب ، ولو أتوها من أبوابها بالترحيب ، وولجوا على الرضا بالحبيب ، لكشف لهم كثير من حجب الغيوب ، (وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [1])

المقدمة

اعلم أن الألفاظ المستعملة ، منها مايستعمله الجماهير والعموم ، ومنها مايستعمله أرباب الصنائع ، والصنائع على ضربين ، علمية وعملية ، فالعملية كالمهن والحرف ، ولأهل كل صناعة منهم ألفاظ يتفاهمون بها آلاتهم ، ويتعاطون أصول صناعتهم ، والعلمية هي العلوم المحفوظة بالقوانين المعدلة ، بما تحرر من الموازين ، ولأهل كل علم أيضا ألفاظ اختصوا بها لا يشاركهم فيها غيرهم ، إلا أن يكون ذلك بالاتفاق من غير قصد ، وتكون المشاركة إذا اتفقت إما فى صورة اللفظ دون المعنى أو فى المعنى وصورة اللفظ جميعا ، وهذا يعرفه من بحث عن مجارى الألفاظ عند الجمهور ، وأرباب الصنائع ، وإنما سمينا من العلوم صنائع مافصد فيها التصنع بالترتيب فى التقسيم ، واختيار لفظ دون غيره ، وحد بطرفين ، مبدأ وغاية ، ومالم يكن كذلك فلا نسميه صناعة ، كعلوم الأنبياء صلوات الله عليهم والصحابة رضي الله عنهم ، فإنهم لم يكونوا فيما عندهم من العلم على طرق من بعدهم ولا كانت العلوم عندهم بالرسم الذى هو عند من خلفهم ، ومثل ذلك علوم العرب ولسانها ، لانسميها عندهم صناعة ونسميها بذلك عند ضبطها ، بما اشتهر من القوانين وتقرر من الحصر والترتيب ، ولأرباب العلوم الروحانية وأهل الإشارات إلى الحقائق والمسلمين بالسادة ، والملقبين بالصوفية ، والمتشبهين بالفقراء ، والمعروفين

(1) النور : ٤٦

بالرقة ، والمعزي إليهم ، والعلم والعمل ألفاظ جرى رسمهم بالتخاطب بها ، فيما يتذاكرون أو يذكرونه ، ونحن إن شاء الله نذكر مايغمض منها ، إذ قد يقع منا عند ماذكر شيئا من علومهم ، ونشير إلى غرض من أغراضهم ، فلم نر أن يكون ذلك بغير ماعرف من ألفاظهم وعباراتهم ، ولاحرج فى ذلك عقلا وشرعا ونحن بحكم مصرف التقدير وهو على كل شيء قدير

فمن ذلك السفر ، والسالك ، والمسافر ، والحال ، والمقام ، والمكان ، والشطح والطوالع ، والذهاب ، والنفس ، والسر والوصل والفصل ، والأدب ، والرياضة ، والتحلى والتخلى ، والتجلى ، والعلة والانزعاج ، والمشاهدة ، والمكاشفة ، واللوائح ، والتلوين ، والغيرة والحرية واللطيفة ، والفتوح ، والوسم ، والرسم ، والبسط ، والقبض ، والفناء ، والبقاء ، والجمع ، والتفرقة ، وعين التحلم ، والزوائد والإرادة ، والمريد ، والمراد ، والهمة والغربة ، والمكر ، والاصطلام ، والرغبة والرهبة ، والوجد ، والوجود ، والتواجد فنذكر شرح هذه على أوجز مايمكن ، بمشيئة الله تعالى ، وإن كانت ألفاظهم المصرفة بينهم فى علومهم أكثر مما ذكرنا ، فإنما قصدنا أن نريك منها أنموذجا ودستورا ، تتعلم به إذا طرأ عليك مالم نذكره لك ههنا ، إذلها مبحث وإليها سبيل فتطلبه بعد ذلك على وجهه

السفر والطريق

فأما السفر والطريق : فالمراد بهما سفر القلب بآلة الفكر فى طريق المعقولات وعلى ذلك ابتنى لفظ السالك والمسافر فى لغتهم ، ولم يرد بذلك سلوك الأقدام التى بها يقطع مسافات الأجسام ، فإن ذلك مما تشاركه فيه البهائم والأنعام ، وأول مسالك السفر إلى الله تعالى عزوجل معرفة قواعد الشرع ، وخرق حجب الأمر والنهي ، وتعلق الغرض فيها ، والمراد بها ، ومنها فإذا خلفوا نواحيها ، وقطعوا معاطنها ، أشرفوا على مفاوز أوسع ، وبرزت لهم مهامه ، أعرض وأطول من ذلك معرفة أركان المعارف النبوية ، النفس والعدو والدنيا ، فإذا تخلصوا من أوعارها أشرفوا على غيرها أعظم منها فى الانقساب ، وأعرض بغير حساب ، من ذلك سر القدر ، وكيف خفي بحكم فى الخلائق ، وقادهم بلطف فى عنف ، وشدة فى لين ، وبقوة فى ضعف ،

وباختيار فى جبر ، إلى ماهو فى مجاريه لايخرج المخلفون عنه طرفة عين ، ولايتقدمون ولا يتأخرون عنه ، والإشراف على الملكوت الأعظم ، ورؤية عجائب ومشاهدة غرائب ، مثل العلم الآلهي واللوح المحفوظ ، واليمين الكاتبة ، وملائكة الله يطوفون حول العرش ، بالبيت المعمور وهم يسبحونه ، ويقدسونه وفهم كلام المخلوقات من الحيوانات والجمادات ، ثم التخطى منها إلى معرفة الخالق للكل ، والمالك للجميع ، والقادر على كل شيء ، فتغشاهم الأنوار المحرقة ، ويتجلى لمرآة قلوبهم الحقائق المحتجبة ، فيعلمون الصفات ويشاهدون الموصوف ، ويحضرون حيث غاب أهل الدعوى ، ويبصرون ما عمى عنه أولو الأبصار الضعيفة بحجب الهوى

الحال — والحال : منزلة العبد فى الحين فيصفوله فى الوقت حاله ووقته وقيل هو مايتحول فيه العبد ، ويتغير مما يرد على قلبه ، فإذا صفا تارة وتغير أخرى قيل له حال ، وقال بعضهم ، الحال لايزول فإذا زال لم يكن حالا

المقام — والمقام : هو الذى يقوم به العبد فى الأوقات من أنواع المعاملات وصنوف المجاهدات ، فمتي أقيم العبد بشيء منها على التمام والكمال فهو مقامه ، حتى ينقل منه إلى غيره

المكان — والمكان : هو لأهل الكمال والتمكين والنهاية ، فإذا كمل العبد فى معانيه فقد تمكن من المكان وغير المقامات والأحوال ، فيكون صاحب مكان كما قال بعضهم

مكانك من قلبي هو القلب كله   فليس لشيء فيه غيرك موضع

الشطح — والشطح : كلام يترجم به اللسان عن وجد يفيض عن معدنه ، مقرون بالدعوى إلا أن يكون صاحبه محفوظا

الطوالع — والطوالع : أنواع التوحيد يطلع على قلوب أهل المعرفة شعاعها ، فيطمس سلطان نورها الألوان ، كما أن نور الشمس يمحو أنوار الكواكب

الذهاب — والذهاب : هو أن يغيب القلب عن حس كل محسوس بمشاهدة محبوبها

النفس — والنفس : روح سلطه الله على نار القلب ليطفىء شرها

السر — والسر : ماخفي عن الخلق فلا يعلم به إلا الحق ، وسر السر مالا يحس به السر

والسر : ثلاثة . سر العلم ، وسر الحال ، وسر الحقيقة ، فسر العلم حقيقة العالمين بالله عز وجل ، وسر الحال معرفة مراد الله فى الحال من الله ، وسر الحقيقة ماوقعت به الإشارة

الوصل

والوصل : إدراك الفائت

الفصل

والفصل : فوت ماترجوه من محبوبك

الأدب

والأدب : ثلاثة . أدب الشريعة وهو التعلق بأحكام العلم بصحة عزم الخدمة :
والثانى : أدب الخدمة وهو التشمر عن العلامات والتجرد عن الملاحظات
والثالث : أدب الحق وهو موافقة الحق بالمعرفة

الرياضة

والرياضة : اثنان . رياضة الأدب وهو الخروج عن طبع النفس ، ورياضة الطلب وهو صحة المراد

التحلى

والتحلى : التشبه بأحوال الصادقين بالأحوال وإظهار الأعمال

التخلى

والتخلى : اختيار الخلوة والإعراض عن كل مايشغل عن الحق

التجلى

والتجلى : هو ماينكشف للقلوب من أنوار الغيوب

العلة

والعلة : تنبه عن الحق

الانزعاج

والانزعاج : انتباه القلب من سنة الغفلة والتحرك للأنس والوحدة

المشاهدة

والمشاهدة : ثلاثة . مشاهدة بالحق وهى رؤية الأشياء بدلائل التوحيد ، ومشاهدة للحق وهي رؤية الحق فى الأشياء ، ومشاهدة الحق وهي حقيقة اليقين بلا ارتياب

المكاشفة

والمكاشفة : أتم من المشاهدة وهى ثلاثة ، مكاشفة بالعلم : وهى تحقيق الإصابة بالفهم ومكاشفة بالحال : وهي تحقيق رؤية زيادة الحال ، ومكاشفة بالتوحيد : وهى تحقيق صحة الإشارة

اللوائح

واللوائح : مايلوح من الأسرار الظاهرة الصافية من السمو من حالة إلى حالة أتم منها ، والارتقاء من درجة إلى ماهو أعلى منها

التلوين

والتلوين : تلوين العبد فى أحواله ، وقالت طائفة : علامة الحقيقة . رفع التلوين بظهور الاستقامة ، وقال آخرون : علامة الحقيقة . التلوين لأنه يظهر فيه قدرة

القادر ، فيكسب منه العبد الغيرة .

الغيرة — والغيرة : غيرة فى الحق ، وغيرة على الحق ، وغيرة من الحق ، فالغيرة فى الحق برؤية الفواحش والمناهى ، والغيرة على الحق هي كتمان السرائر ، والغيرة من الحق ضنّه على أوليائه

الحرية — والحرية : إقامة حقوق العبودية فتكون لله عبدا وعند غيره حرا

اللطيفة — واللطيفة : إشارة دقيقة المعنى تلوح فى الفهم ولا يسعها العبارة

الفتوح — والفتوح : ثلاثة . فتوح العبادة في الظاهر : وذلك سبب إخلاص القصد ، وفتوح الحلاوة فى الباطن : وهو سبب جذب الحق بإعطافه ، وفتوح المكاشفة وهو سبب المعرفة بالحق .

الوسم والرسم — والوسم والرسم : معنيان يجريان فى الأبد بما جريا فى الأزل

البسط — والبسط : عبارة عن حال الرجاء

القبض — والقبض : عبارة عن حال الخوف

الفناء — والفناء : فناء المعاصى ، ويكون فناء رؤية العبد لفعله بقيام الله تعالى على ذلك

البقاء — والبقاء : بقاء الطاعات ، ويكون بقاء رؤية العبد قيام الله سبحانه على كل شيء

الجمع — والجمع : التسوية فى أصل الخلق ، وعن آخرين معناه إشارة من أشار إلى الحق بلا خلق

التفرقة — والتفرقة : إشارة إلى اللون والخلق ، فمن أشار إلى تفرقة بلا جمع فقد جحد البارى سبحانه ، ومن أشار إلى جمع بلا تفرقة فقد أنكر قدرة القادر ، وإذا جمع بينهما فقد وجد

عين التحلم — عين التحلم : إظهار غاية الخصوصية بلسان الانبساط فى الدعاء

الزوائد — والزوائد : زيادات الإيمان بالغيب واليقين

الإرادات — والإرادات : ثلاثة . إرادة الطالب من الله سبحانه وتعالى : وذلك موضع التمنى ، وإرادة الحظ منه : وذلك موضع الطمع ، وإرادة الله سبحانه : وذلك موضع الإخلاص

المريد — والمريد : هو الذى صح له الابتلاء ودخل فى جملة المنقطعين إلى الله عز وجل بالاسم

المراد — والمراد : هو العارف الذى لم يبق له إرادة وقد وصل إلى النهاية وغيّر الأحوال والمقامات .

الهمة — والهمة : ثلاثة . همة مُنية : وهي تحرك القلب للمنى ، وهمة إرادة : وهي أول صدق المريد ، وهمة حقيقة القصور عن ملاحظة ذروة هذا الأمر والجهل . فإن الأمر إدّ والخطب جد ، والآخرة مقبلة ، والدنيا مدبرة ، والأجل قريب ، والسفر بعيد والزاد طفيف ، والخطر عظيم ، والطريق سد ، وما سوى الخالص لوجه الله من العلم والعمل عند الناقد البصير رَد ، وسلوك طريق الآخرة مع كثرة الغوائل من غير دليل ولا رفيق متعب ومكدّ ، فأدلةُ الطريق هم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء وقد شغر منهم الزمان ولم يبق إلا المترسمون ، وقد استحوذ على أكثرهم الشيطان واستغواهم الطغيان وأصبح كل واحد بعاجل حظه مشغوفا ، فصار يرى المعروف منكرا ، والمنكر معروفا ، حتى ظل علم الدين مندرسا ، ومنار الهدى فى أقطار الأرض منطمسا ، ولقد خيلوا إلى الخلق أن لا علم إلا فتوى حكومة تستعين به القضاة على فصل الخصام ، عند تهاوش الطغام أو جدل يتدرع به طالب المباهاة إلى الغلبة والإفحام ، أو سجع مزخرف يتوسل به الواعظ إلى استدراج العوام ، إذ لم يروا ما سوى هذه الثلاثة مصيدة للحرام ، وشبكة للحطام ، فأما علم طريق الآخرة وما درج عليه السلف الصالح ، وهي جمع الهمم بصفاء الإلهام

الغربة — والغربة : ثلاثة . غربة عن الأوطان من أجل حقيقة القصد ، وغربة عن الأحوال من حقيقة التفرد بالأحوال ، وغربة عن الحق من حقيقة الدهش عن المعرفة

الاصطلام — والاصطلام : نعت ، وله برد على القلوب بقوة سلطان فيستكنها

المكر — والمكر : ثلاثة . مكر عموم : وهو الظاهر فى بعض الأحوال ، ومكر خصوص وهو فى سائر الأحوال ، ومكر خفي فى إظهار الآيات والكرامات

الرغبة — والرغبة : ثلاثة . رغبة النفس فى الثواب ، ورغبة القلب فى الحقيقة ، ورغبة السر فى الحق

الرهبة — والرهبة : رهبة الغيب لتحقيق أمر السبق

الوجد — والوجد : مصادفة القلب بصفاء ذكر كان قد فقده

الوجود — والوجود : تمام وجد الواجدين وهو أتم الوجد عندهم ، وسئل بعضهم عن

الوجد والوجود

الوجد والوجود فقال : الوجد ماتطلبه فتجده بكسبك واجتهادك ، والوجود ماتجده من الله الكريم ، والوجد عن غير تمكين والوجود مع التمكين

التواجد

والتواجد : استدعاء الوجد . والتشبه فى تكلفه بالصادقين من أهل الوجد

القاعدة

القاعدة . وأما القاعدة التى ينبنى عليها هذا الفن بأسره ، فذلك اجتذاب أرواح المعانى والإشارة إلى البعد فى القرب ، قصد الاستدلال بالأقوال والأعمال والأحوال على الله تعالى ، قصدا ذاتيا لاعلى ماسلكه أرباب علوم الظاهر ، ثم التصديق بالقوّة والنظر إلى الملكوت من كوّة ، ومعرفة العلوم فى الانصراف ومصاحبة القدر بالمساعدة ، وبالمعروف ومعاطاة الوجودات الخمس ، الذاتى ، والحسى ، والخيالى ، والعقلى ، والشبهى حسبما فهم من الشرع ، وثبت معناه فى المحفوظ من الوحي ، وقلما أدرك شيء من العجز ، والعلم لا ينال براحة الجسم (وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ذَلِكَ أَمْرُ اللهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ [1]) (وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا [2])

والوصية

أيها الطالب للعلوم ، والناظر فى التصانيف ، والمستشرف على كلام الناس ، وكتب الحكمة ، ليكن نظرك فيما تنظر فيه بالله ، ولله ، وفى الله ، لأنه إن لم يكن نظرك به ، وكلك إلى نفسك ، أو إلى من جعلت نظرك به أيا كان غيره ، من فهم ، أو علم ، أو حفظ أو إمام متبع ، أو صحة ميز ، أو ما شاكل ذلك ، وكذلك إن لم يكن نظرك له فقد صار علمك لغيره ، ونكصت على عقبيك ، وخسرت فى الدارين صفقتك ، وعاد كل هول عليك (فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا [3]) وكذلك إن لم يكن نظرك فيه فقد أثبتّ معه غيره ، ولاحظت بالحقيقة سواه ، ورؤية غيره دونه تعمى القلب ، وتهتك الستر ، وتحجب اللبّ وإذا نظرت فى كلام أحد من الناس ، ممن قد شهر بعلم فلا تنظره بازدراء كمن

(1) الطلاق : ٤ ، ٥ (2) الطلاق : ٣ (3) الكهف : ١١٠

يستغنى عنه فى الظاهر ، وله إليه كثير حاجة فى الباطن ، ولا تقف به حيث وقف به كلامه ، فالمعانى أوسع من العبارات ، والصدور أفسح من الكتب المؤلفات ، وكثير علم مما لم يعبر عنه ، واطمح بنظر قلبك فى كلامه إلى غاية مايحتمل ، فذلك يعرفك قدره ويفتح باب قصده ، ولا تقطع له بصحة ، ولا تحكم عليه بفساد ، وليكن تحسين النظر أغلب عليك فيه ، حتى يزول الإشكال عنك ، بما تتيقن من معانيه ، وإذا رأيت له حسنة وسيئة فانشر الحسنة ، واطلب المعاذير للسيئة ، ولا تكن كالذبابة تنزل على أقذر ماتجده ، ولا تعجل على أحد بالتخطئة ، ولا تبادر بالتجهيل فربما عاد عليك ذلك وأنت لا تشعر ، فلكل عالم عورة ، وله فى بعض مايأتى به احتجاج ، وناهيك ماجرى بين وليّ الله تعالى الخضر وكليمه موسى ، على نبينا وعليهما السلام ، وإذا عرض لك من كلام عالم إشكال يؤذن فى الظاهر بمحال ، أو اختلال ، فخذ ماظهر لك علمه ، ودع مااعتاص عليك فهمه ، وكِل العلم فيه إلى الله عز وجل ، فهذه وصيتى لك ، فاحفظها ، وتذكيرى إياك فلا تذهل عنه

اسمع وصيتى إن تحفظ حظيت بها   وإن تخالف فقد يردى بك الخُلف

وأزيدك زيادة تقتضى التعريف بأصناف العلماء ، لكي يُعرف أهل الحقيقة من غيرهم ، فلك فى ذلك أكبر منفعة ، ولى فى وصفهم أبلغ غرض ، قال علماؤنا : العلماء ثلاثة . حجة ، وحجاج ، ومحجوج ، فالحجة : عالم بالله وبأمره وبآياته ، مهتما بالخشية لله سبحانه ، والورع فى الدين ، والزهد فى الدنيا ، والإيثار لله عز وجل ، والحجاج : مدفوع إلى إقامة الحجة ، وإطفاء نار البدعة ، قد أخرس المتكلمين ، وأخم المتخرصين ، برهانه ساطع ، وبيانه قاطع ، وحفظه ماينازع ، شواهده بينة ، ونجومه نيرة ، قد حمى صراط الله المستقيم ، والمحجوج : عالم بالله ، وبأمره ، وبآياته ولكنه فقد الخشية لله برؤيته لنفسه ، وحجبه عن الورع والزهد فى الدنيا ، والرغبة والحرص ، وبعّده من بركات علمه محبةُ العلوّ والشرف ، وخوف السقوط والفقر ، فهو عبد لعبيد الدنيا ، خادم لخدمها ، مفتون بعد علمه ، مغتر بعد معرفته ، مخذول بعد نصرته ، شأنه الاحتقار لنعم الله ، والازدراء لأوليائه ، والاستخلاف

بالجهال من عباده ، وفخره بلقاء أميره ، وصلة سلطانه وطاعة القاضي والوزير والحاجب له ، قد أهلك نفسه حين لم ينتفع بعلمه ، والاتباع له ، ومن يكون بعده قدوة به ، ومراده من الدنيا مثله فى مثل هذا ضرب الله المثل حين قال (وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث [1]) فويل لمن صحب مثل هذا فى دنياه ، وويل لمن تبعه فى دينه ، وهذا هو الذى أكل بدينه ، غير منصف لله سبحانه فى نفسه ، ولاناصح له فى عباده ، تراه إن أعطي من الدنيا رضي بالمدحة لمن أعطاه ، وإن مُنع رش بالدم لمن منعه ، وقد نسي من قسّم الأرزاق ، وقدّر الأقدار ، وأجرى الأسباب ، وفرغ من الخلق كلهم ، فنعوذ بالله من الحور بعد الكور ، ومن الضلالة بعد الهدى ، وإنما زدتك هذه الزيادة وإن ظهر لكثير أنها ليست من الغرض الذى نحن فيه ، فقصدى أن يعلم من ذهب من الناس ، ومن بقي ، ومن أبصر الحقائق ، ومن عمي ، ومن اهتدى على الصراط المستقيم ، ومن غوى ، فليعلم أن الصنفين الأولين من العلماء قد ذهبوا ، وإن كان بقي منهم أحد فهو غير محسوس للناس ولامدرك بالملاحظة

غاب الذين إذا ماحدّثوا صدقوا وظنهم كيقين إن هم حدسوا

وذلك لما سبق فى القضاء من ظهور الفساد ، وعدم أهل الصلاح والرشاد ، نعم ، وعدم الصنف الثالث على غربته ، وأعز شيء على وجه الأرض وفى الغالب مايقع عليه فى الحقيقة اسم علم عند شخص مشهور به ، وإنما الموجود اليوم أهل سخافة ودعوى ، وحماقة ، واجتراء ، وعجب بغير فضيلة ، ورياء ، يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، وهم أكثر من عمّر الأرض وصيّروا أنفسهم أوتاد البلاد ، وأرسان العوام ، وهم خلفاء إبليس وأعداء الحقائق ، وأخدان لعوائد السوء ، وعنهم يرد عتب الحكم الشائعة وانتقاض أهل الإرادة والدين ..

---

(1) الأعراف : ١٧٥ ، ١٧٦

مثل البهائم جهـال بخالقهم لهم تصاوير لم يعرف لهن حجا
كلّ يروم على مقدار حيلتـه زوائر الأسد والنباحة الحشا

(فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (١))(اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَاكَانُوا يَعْمَلُونَ (٢))أولئك كالأنعام بل هم أضـل أولئك هم الغافلون

أولوا النفاق فإن قلت اصدقوا كذبوا من السفاه وإن قلت اكذبوا صدقوا

ولنأخذ فى جواب ماسألت عنه ، على نحو مارغبت فيه ، وأستوهب الله نفوذ البصيرة ، وحسن السريرة ، وغفران الجريرة ، وهو ربى ورب كل شيء وإليه المصير

إبتداء الأجوبة

عن مراسم الأسئلة

جرى الرسم فى الإحياء بتقسيم التوحيد على أربع مراتب تشبيها لموافقة الغرض فى التمثيل به ، وذكرت أن المعـترض وسوس ، أو بالخواطر هجس ، بأن لفظ التوحيـد ينافى التقسيم ، إذ لايخلو بأن يتعلق بوصف الواحد الذى ليس بزائد عليـه ، فذلك لاينقسم لابالجنس ولا بالفصل ولا بغـير ذلك ، وإما أن يتعلق بوصف المكلفين الذين توجب لهم حكمه إذا وجد فيهم ، فذلك أيضا لاينقسم من حيث انتسابهم إليه بالعقل : وذلك لضيق المجال فيه ، ولهذا لايتصور فيه مذاهب ، وإنما التوحيد مسلك حق بين مسلكين باطلين ، أحدهما . الشرك ، والثانى : الإلباس ، وكلا الطرفين كفر والوسط إيمان محض وهو أحدّ من السيف ، وأضيق من خط الظل ، ولهذا قال أكثر المتكلمين : بتماثل إيمان جميع المؤمنـين والملائـكة والنبيين والمرسلين وسائر عموم المرسلين ، وإنما تختلف طرق إيمانهم التى هي علومهم ، ومذهبهم فى ذلك معروف ، ونحن لانلم فى هذه الإجابة كلها بشيء من أنحاء الجدال ، ومقابلة الأقوال بالأقوال ، بل بقصد إزالة غبر الإشكال ، وردّ ماطمن به أهل الضلال والإضلال

واعلم أن التقسيم على الإطلاق يستعمل على أنحاء يتوجه هٰهنا بشيء قـدح به

(١) المنافقون : ٤ (٢) المنافقون : ٢

المعترض ، أو هجس به الخاطر ، وإنما المستعمل ههنا من أنحائه ماتتميز به بعض الأشخاص ، بما اختصت به من الأحوال ، وكل حالة منها تسمى توحيدا ، على جهة تنفرد بها ، لايشاركها فيها غيرها ، فمن وجد التوحيد بلسانه يسمى لأجله موحـدا مادام يظن أن قلبه موافق للسانه ، وإن علم منه خلاف ذلك سلب عنه الاسم وأقيم عليه ماشرع فى الحـكم ، ومن وجد بقلبه على طريق الركون إليه ، والميل إلى اعتقاده والسكون نحوه بلا علم يصحبه فيه ، ولا برهان يربط به سمي أيضا موحدا ، على معنى أنه يعتقد التوحيد ، كما يسمى من يعتقد مذهب الشافعي شافعيا ، والحنبلي حنبليا ، ومن رزق علم التوحيد وما يتحقق به عنـده ، وسمى من أجله بشكوكه العارضة له ، فيسمى موحدا ، لأنه عارف به ، يقال جدلي ونحوي وفقيه ، ومعناه يعرف الجدل والفقه والنحو .

وأما من استغرق علم التوحيد قلبه ، واستولى على جملته حتى لايجد فيه فضلا لغيره ، إلا على طريق التبعية له ، ويكون شهود التوحيد لكل ماعداه ، سابقا له مع الذكر والفكر مصاحبا من غير أن يعتريه ذهول ولا نسيان له ، لأجل اشتغاله بغيره كالعادة فى سائر العلوم ، فهذا يسمى موحدا ، ويكون القصد بالمسمى من ذلك المبالغة فيه

فأما الصنف الأول : وهم أرباب النطق المفرد ، فلايضربون فى التوحيد بسهم ، ولا يفوزون منه بنصيب ، ولا يكون لهم شيء من أحكام أهله فى الحياة إلا مادام الظن بهم ، ان قلب أحدهم موافق للسانه ، كما يفرد القول عليه بعد هذا إن شاء الله عز وجل

وأما الصنف الثانى : وهم أرباب الاعتقاد الذين سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم أو الوارث أو المبلغ ؛ يخبر عن توحيد الله عز وجـل ، أو يأمر به ، و يلزم البشر قول لاإله إلا الله المنبيء عنه ، فقبلوا ذلك ، واعتقدوه على الجملة ، من غير تفصيل ولا دليل ، فنسبوا إلى التوحيد ، وكانوا من أهله بمنزلة مولى القوم الذى هو منهم ، وبمنزلة من كثّر سوادقوم فهو منهم

وأما الصنف الثالث والرابع : فهم أرباب البصائر السليمة ، الذين نظروا بها إلى أنفسهم ، ثم إلى سائر أنواع المخلوقات فتأملوها ، فرأوا ، على كل منها خطا منطبعا

فيها ، ليس بعربي ، ولا سرياني ، ولا عبراني ، ولا غير ذلك من أجناس الخطوط ، فبادر إلى قراءته من لم يستعجم عليه ، وتعلمه منهم من استعجم عليه ، فإذا هو الخط الإلهى المكتوب على صفحة كل مخلوق، المنطبع فيه من مركب ومفرد ، وصفة وموصوف وحي ، وجماد ، وناطق وصامت ، ومتحرك وساكن ، ومظلم ونيّر ، وهو الذى يسمى تارة بعلامة ، وتارة بسِمة ، وتارة بأثر القدرة ، وتارة بآية ، كما قال الشاعر : ولا أدرى عن سماع أو رؤية قلب

وفى كل شيء له آية　　تدل على أنه واحد

فلو قرؤا ذلك الخط وجدوا تفسير ذلك المكتوب عليه ، وشرحه أبدية مالكه والتصريف له بالقدرة على حكم الإرادة بما سبق فى ثابت العلم من غير مزيد ولا تقصير ، فتركوا الكتابة والمكتوب ، وترقوا الى معرفة الكاتب ، الذى أحدث الأشياء وكونها ، ولا يخرج عن ملكه شيء منها ، ولا استغنت بأنفسها عن حوله وقوته ، ولا انتقلت إلى الحرية عن رق استعباده ، فوجدوه كما وصف نفسه (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ[1]) فخلصت لهم التفرقة والجمع ، وعقلت نفس كل واحد منهم توحيد خالقها بإذنه وإيجاده عن غيره ، وعقلت أنها عقلت توحيده ، فسبحان من يسّرها لذلك ، وفتح عليها بما ليس فى وسعها أن تدركه إلا به وهو اللطيف الخبير، لكن الصنف الثالث : لم يقصر كل منهم أن يعرف نفسه موجدا لديه فيما لا يزال ، وهم المقربون، والصنف الرابع : لم يقصر كل واحد منهم أن عرف ربه موجدا لنفسه فيما لم يزل ، وهم الصديقون ، وبينهما تفاوت كثير

وأما طريق معرفة صحة هذا التقسيم : فلأن العقلاء بأسرهم لا يخلو كل واحد منهم أن يوجد أثر التوحيد بأحد الأنحاء المذكورة عنده ، فأما من عدمت عنده فهو كافر إن كان فى زمن الدعوة ، أو على قرب يمكن وصول علمها إليه ، أو فى فترة يتوجه عليه فيها التكليف وهذا صنف مبعد عن مقام هذا الكلام ، وأما من يوجد عنده فلا يخلو أن يكون مقلدا فى عقده ، أو عالما به ، والمقلدون هم العوام ، وهم أهل المرتبة الثانية فى الكتاب ،

(١) الشورى : ١١

فأما العلماء بحقيقة عقدهم فلا يخلو كل واحد أن يكون بلغ الغاية التي أعدت لصنفه دون النبوّة أو لم يبلغ ولكنه قريب من البلوغ . فالذى لم يبلغ وكان على قرب هم المقربون، وهم أهل المرتبة الثالثة،والذين بلغوا الغاية التى أعدت لهم ، وهم الصديقون ، وهم أهل المرتبة الرابعة وهذا التقسيم ظاهر الصحة إذ هو دائر بين النفي والإثبات ، ومحصور بين المبادى والغايات ، ولم يدخل أهل المرتبة الأولى فى شيء من تصحيح هذا التقسيم إذ ليس هم من أهله إلا بانتساب كاذب ، ودعوى غير صافية ، ثم لابد من الوفاء بما وعدناك به من إبداء بحث ، ومزيد شرح ، وبسط بيان ، تعرف منه باذن الله حقيقة كل مرتبة ومقام وانقسام أهله فيه بحسب الطاقة والامكان ، بما يجريه الواحد الحق على القلب واللسان

بيانه

مقام أهل النطق المجرد وتمييز فرقهم

فأقول : أرباب النطق المجرد أربعة أصناف ، أحدهم : نطقوا بكلمة التوحيد مع شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم لم يعتقدوا معنى مانطقوا به ، لما لم يعلموه لايتصوّرن صحته ولا فساده ولا صدقه ولا كذبه ولا خطأه ولا صوابه ، إذ لم يبحثوا عليه ولا أرادوا فهمه . إما لبعد همتهم وقلة اكتراثهم ، وإما لنفورهم من التعب وخوفهم أن يكلّفوا البحث عما نطقوا به ، أو يبدوا لهم مايلزمهم من الاعتقاد والعمل ، وما بعد ذلك فإن التزموها فارقوا راحات أبدانهم العاجلة ، وفراغ أنفسهم ، وإن لم يلتزموا شيئا من ذلك ، وقد حصل لهم العلم فتكون عيشتهم منغصة وملاذهم مكدرة ، من خوف عقاب ترك ماعلموا لزومه ، ومثل هؤلاء مثل من يريد قراءة الطب ، أو يعرض عليه ولكنه يمنعه عنه مخافة أن يتطلع منه ، على مايغير عنه بعض ملاذه من الأطعمة ، والأشربة والأنكحة ، أو كثير منها فيحتاج إلى أن يتركها ، أو يرتكبها على رقبه ، وخوف أن يصيبه صورة مايعلم ضرورة منها ، فيدع قراءة الطب رأسا ، سئل هذا الصنف عن معنى مانطقوا به ، وهل اعتقدوه ؟ فيقولون لانعلم فيه مايعتقد ، وما دعانا النطق إلا مساعدة الجماهير ، وانخراطا بإظهار القول فى الجمّ الغفير ، ولا نعرف

هل ماقلناه بالحقيقة من قبل العرف والنكير ، ولا شك أن هذا الصنف الذى أخبر صلى الله عليه وسلم عن حاله بمسألة الملكين ، أحدهم فى القبر إذ يقولان من ربك ؟ ومن نبيك ؟ وما دينك ؟ فيقول لا أدرى سمعت الناس يقولون قولا فقلته فيقولان له لادريت ولا تليت ، وسماه النبي صلى الله عليه وسلم الشاك والمرتاب

والصنف الثانى : نطق كما نطق الذين من قبلهم ، ولكنهم أضافوا إلى قولهم مالا يحصل معه الإيمان ولا ينتظم به معنى التوحيد ، وذلك مثل ماقالت السبابية طائفة من الشيعة القدماء إن عليا هو الإله ، وبلغ أمرهم عليا رضي الله عنه ، وكانوا فى زمنه فحرق منهم جماعة ، وأمثال من نطق بالشهادتين كثير ، ثم أصحاب نطقه مثل هذا النكير ويسمون الزنادقة ، وقد رأينا حديثا عنه صلى الله عليه وسلم فى ذلك « سَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلاَثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي الْجَنَّةِ إِلَّا الزَّنَادِقَةَ »

والصنف الثالث : نطقوا كما نطق الصنفان المذكوران قبلهم ، ولكنهم آثروا التكذيب ، واعتقدوا الرد ، واستنبطوا خلاف ماظهر منهم ، من الإقرار وإذا رجعوا إلى أهل الإلحاد أعلنوا عندهم بكلمة الكفر ، فهؤلاء المنافقون الذين ذكرهم الله فى كتابه بقوله (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ [1])

والصنف الرابع : قوم لم يعرفوا التوحيد ، وما نشؤا عليه ، ولا عرفوا أهله ، ولا سكنوا بين أظهرهم ، ولكنهم حين وصلوا إلينا أو وصل إليهم أحد منا خوطبوا بالأمر المقتضى للنطق بالشهادتين ، والإقرار بهما ، فقالوا لانعلم مقتضى هذا اللفظ ، ولانعقل معنى المأمور به من النطق ، فأمروا أن يظهروا الرضا ويفهموا بلابهلة فسكنوا إلى ما قيل لهم ، ونطقوا بالشهادتين ظاهرا ، وهم على الجهل بما يعتدون فيها ، فاخترم أحدهم من حينه ، من قبل أن يأتي منه استفهام أوتصور يمكن أن يكون له معه معتقد ، فيرجى أن لا تضيق عنه سعة رحمة الله عز وجل ، والحكم

[1] البقرة : ١٤ ، ١٥

عليه بالنار والخلود فيها مع الكفار ، تحكم على غيب الله سبحانه ، وربما كان من هذا الصنف فى الحكم عند الله عز وجل ، قوم رزقوا بعد الفهم وغيب الذهن وفرط البلادة أن يدعوا الى النطق ، فيجيبوا مساعدة ومحاذاة ، ثم يدعـوا إلى تفهم المعنى بكل وجه ، فلايتأتى منهم قبول لما يعرض عليهم تفهمه ، كأنما تخاطب بهيمة ، ومثل هذا أيضا فى الوجود كثير ، ولاأحكم على أحد مثله بخلود فى النار ، ولابعد أن هذا الصنف بأسره ، أعنى المخترم قبل تحصيله العقد مع هـذا البليد البعيد بعض ماذكره النبي صلى الله عليه وسلم فى حديث الشفاعة ، الذين أخرجهم الله عز وجل من النار بشفاعته ، حين يقول تعـالى : فرغت شفاعة الملائـكة والنبيين ، وبقيت شفاعتى وهو أرحم الراحمين ، فيخرج من النار أقواما لم يعملوا حسنة قط ، ويدخلون الجنة ، ويكون فى أعناقهم سمات ويسمون عتقاء الله عز وجل ، والحديث يطول وهو صحيح ، وإنما اختصرت منه قدر الحاجة على المعنى

وحكم الصنف الأول ، والثـانى ، والثالث ، أجمعين أن لايجب لهم حـرمة ، ولايكون لهم عصمة ، ولاينسبون إلى إيمان ولاإسلام ، بل هم أجمعون من زمرة الكافرين وجملة الهالـكين ، فإن عثر عليهم فى الدنيا قتلوا فيها بسيوف الموحدين ، وإن لم يعثر عليهم فهم صائرون إلى جهنم خالدون ، (تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ [١])

فصل

ولما كان اللفظ المنبيء عن التوحيد إذا انفرد عن العقد ، وتجرد عنه ، لم يقع به فى حكم الشرع منفعة ، ولالصاحبه بسببه نجاة ، إلامدة حياته عن السيف أن يراق دمه ، واليدان تسلط على ماله إذا لم يعلم خفي حاله ، حسن فيه أن يشبه بقشر الجوز الأعلى ، فهو لايحتمل ولايرفع فى البيوت ، ولايحضر فى المجالس ، أي مجالس الطعام ، ولا تشتهيه النفوس ، إلامادام منطويا على مطعمه ، صونا على لبه ، فإذا أزيل عنه

[١] المؤمنون : ١٠٤

بكسر أوعلم منه أنه منطو على فراغ ، أوسوس ، أوطمعه فاسد ، لم يصلح لشيء ، ولم يبق فيه غرض لأحد ، وهذا لاخفاء فى صحته ، والغرض بالتمثيل تقريب ماغمض إلى نفس الطالب ، وتسهيل مااعتاص على المتعلم والسامع فهمه ، وليس من شرط المثال أن يطابق الممثل به من كل وجه ، فكان يكون هو ، ولكن من شرطه أن يكون مطابقا للواحد المراد منه

فصل

فإن قلت . فما الذى صدّ هؤلاء الأصناف الثلاثة من أهل النطق عن النظر ، والبحث ، حتى تعلموا ، أو عن الاعتقاد حتى تخلصوا ، من عذاب الله ، وهم فى الظاهر قادرون على ذلك ، وما المانع الخفي الذى منعهم وأبعدهم عنه ، وهم يعلمون أن ماعليهم كبير مؤنة ، ولا عظيم نفقة ؟

فاعلم أن هذا السؤال يفتح بابا عظيما ، ويهز قاعدة كبيرة ، يخاف من التوغل فيها أن يخرج من المقصد ، ولكن لابد إذا وقع فى الأسماع ، ووعته قلوب الطالبين ، واشتاقت إلى سماع الجواب عنه ، أن نورد فى ذلك قدر مايقع به الكفاية ، وتقنع به النفوس بحول الله وقوته ، نعم ماسبق فى العلم القديم لاتجرى بخلافه المقادير ، فهم من ذلك بإرادة الله عز وجل ، جاء اختصاص قلوبهم بالأخلاق الكلابية ، والشيم الذئابية ، والطباع السبعية ، وغلبتها عليهم والملائكة لاتدخل بيتا فيه كلب ، كذلك قال عليه السلام ، والقلوب بيوت تولى الله بناءها بيده ، وأعدها لأن تكون خزائن علمه ، ومشارق مكنوناته ، ومهبط ملائكته ، ومغاشى أنواره ، ومهابّ نفحاته ، ومجال مكاشفاته ، ومجارى رحمته ، وهيأها لتحصيل المعرفة به ، فمتى كان فيها شيء من تلك الأخلاق المذمومة لم يدخلها الملائكة ، ولم ينزل عليها شيء من الخير من قبله ، إذ هى الوسائط بين الله تعالى وبين خلقه ، وهم الوفود منه بالخيرات والموصلون إليه وعنه ، بالباقيات الصالحات ، ولولا تلك الأخلاق المذمومة ، التى حلت فيهم وهي التى ذم الكلاب لأجلها لما احترمت الملائكة بإذن الله عن حلولها فيها

وهي لاتخلو من خير تنزل به ، ويكون معها ، فحيثما حلت حل الخير فى ذلك القلب بحلولها ، وإنما هي لها فحيثما وجدت قلبا خاليا ، ولو حينا من الدهر وزمنا نزلت عليه ، ودخلته ، وثبتت ماعندها من الخير عنده ، فإن لم يظهر على الملائكة مازعجها عنه من تلك الأخلاق المذمومة ، بواسطة الشياطين الذين هم فى مقابلة الملائكة ، ثبتت عنده ، وسكنت فيه ، ولم تبرح عنه ، وعمرته بقدر سعة البيت وانشراحه من الخير ، فإن كان البيت كثير الاتساع أكثرت فيه من متاعها ، واستعانت بغيرها ، حتى يمتلىء البيت من متاعها وجهازها ، وهو الإيمان بالله والصلاح ، وضروب المعارف النافعة عند الله عز وجل ، فإذا طرق ذلك البيت طارق شيطان ، ليسرق من ذلك الخير الذى هو متاع الملك ، ويثبت فيه خلقا مذموما لايوجد إلا فى الكلاب ، وهو متاع الشيطان ، قاتله الله وطرده عن ذلك المحل ، فإن جاء للشيطان مدد من الهوى ، من قبل النفس ولم يجد الملك نصره ، وهو عزم اليقين من قبل الروح ، انهزم الملك وأخلى البيت ، ونهب المتاع ، وخرب البيت بعد عمارته ، وأظلم نوره ، وضاق بعد انشراحه ، وهكذا حال من آمن وكفر وأطاع وعصى ، وضل واهتدى

فإن قلت : فميزلى أصناف هذه الأخلاق المذمومة ، التى صدت هؤلاء الأصناف المذكورين عن اعتقاد الإيمان ، ونفرت الملائكة عن النزول إلى قلوبهم ، بكشف معانى التوحيد ، ومنعهم من الحلول فيها ، حتى لم ينالوا شيئا من الخيرات الكائن معها

فاعلم أن الأخلاق التى لايجتمع معها الملائكة فى قلب واحد كثيرة ، والتى فى قلوب هؤلاء منها معظمها ، وهي الطمع فى غير خطير ، والحرص على فانٍ حقير

أما الصنف الأول : فإنهم رجعوا وخافوا أن تبدو لهم صحة مايشغلهم عن لذاتهم وينغص عليهم مارغبوا فيه من راحاتهم ، وتكدر لديهم منال شهواتهم ، فأبقوا أمرهم على ماهم عليه

وأما الصنف الثانى والثالث : فصدهم أيضا خوف وجزع ، وحرص على ماألفوه من تبجيل أحدهم أن يزول ، ومؤانسة أشياعهم أن تتغير وتذهب ،

ومواساة إيلافهم أن تنقطع ، واستثقالا لما يشاهدونه من أهل الإيمان أن يلتزموه وفرارا من شرائطه ، وما يصحبه من الأعمال ، والوظائف ، إذ يمتثلوه ، والكلب ماذم لصورته ، وإنما ذم بهذه الأخلاق التي هي الطمع في الخسائس ، والجزع من الصبر على مايعده من الفضائل ، حتى احترمت الملائكة أن تدخل بيتا فيه كلب

فإن قلت : فكيف آمن من كفر ، وأطاع من عصى ، واهتدى من ضل ، إذا كانت الشياطين لاتفارق قلب الكافر والعاصي والضال ، بما تثبتون من الأخلاق المذمومة التي هي كلاب نابحة ، وذئاب عادية ، وسباع ضارية ، وأصناف الخير إنما ترد من الله عز وجل بواسطة الملائكة ، وهي لاتدخل موضعا يحل فيه شيء مما ذكرنا ، وإذا لم تدخل لم يصل إلى الخير الذي يكون معها ولم تصل إليه فعلى هذا يجب أن يبقى كل كافر على حاله ، ومن لم يخلق مؤمنا معصوما فلا سبيل له إلى الإيمان على هـــــذا المفهوم .

فاعلم أن هذا يستدعي أصنافا من علم القلوب ، ولا سبيل إلى ذلك في مثل هذا المقام المعلوم ، والقول والمعنى في جواب ماسألت عنه ، أن للشيطان غفلات وللأخلاق المذمومة عدمات ، كما أن الملائكة لها عن القلوب غيبات ، ولتواتر الخير عليها فترات ، فإذا وجد الملك كما أعلمتك قلبا خاليا ، ولوزمنا ّما فرّ ودخل فيه ، وأراه ماعنده من الخير ، فإن صادف منه قبولا ، ولما عرض عليه من الخير تشوقا ونزوعا ، أورد عليه مايملأ ويستغرق لبّه ، وإن صادف منه صحوا ، وسمع منه بجنود الشياطين استغاثة وبالأخلاق الكلابية استعانة ، رحل عنه وتركه ، ولهذا قيل ما خلا لب عن لمة ملَك أو نزغة شيطان

فإن قلت : فأي بيت فهم عن النبي صلى الله عليه وسلم في الخطاب ، وأي كلب أذهل بيت القلب ، كلب الخلق أو بيت اللبن ، وكلب الحيوان

فاعلم أن الحديث خارج على سبب . ومعناه وجملته أن المقصود بالأخبار هو بيت اللبن ، وكلب الحيوان معلوم ، ولا يبتك في ذلك ، ولكن يستقرأ منه ماقلناه ويستنبط من مفهومه مانبهناك عليه ، ويتخطى منه إلى ماأشرنا لك نحوه ، ولا نكر في ذلك ، إذا دل عليه العلم ، وجملة الاستنباط ، ولم تمجه القلوب المستضاءة

ولم تصادم به شيئا من أركان الشريعة ، فلا تكن جاحدا ، ولا تجزع من تشنيع جاهل ، ولا من نفور مقلد ، فكثيرا ماورد شرع مقرون بسبب فرأى أهل الاعتبار وجه تعديه عن سببه إلى مافى معناه ، ومشابه له من الجهة التى تصلح أن يعديها إليه ، ولولا ذلك لما قال النبي صلى الله عليه وسلم « رُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ وَحَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ »

سؤال

فإن قلت : فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « لَا تَدْخُلِ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ صُورَةٌ » وعلم السبب الذى جاء هذا الحديث عليه وفيه ، فهل يعدى عن سببه ويترقى منه إلى مثل ماترقى من الحديث الآخر ، فهذا كما قيل . الحديث شجون ، وأتبعنا هذا الباب مايقرب منه ويبعد علينا التخلص عنه ، نعم . يترقى منه إلى قريب من ذلك وشبهه ، ويكون هذا الحديث منبها عليه ، وهو أن الصورة المنحوتة قد اتخذت آلهة ، وعبدت من دون الله عز وجل . وقد نبه الله عز وجل قلوب المؤمنين على عيب فعل من رضي بذلك ، ونقص إدراك من دان به حين قال مخبرا عن ابراهيم عليه السلام حيث قال (أَتَعْبُدُونَ مَاتَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَاتَعْمَلُونَ [١]) فكان امتناع الملائكة من دخول بيت فيه صورة لأجل أن فيه ماعبد من دون الله سبحانه أو ماحكي به ماهو على مثاله ، ويترقى من ذلك المعنى إلى أن القلب الذى هو بيت بناه الله ليكون مهبطا للملائكة ، ومحلا للذكر ، ومعرفة عبادته وحده دون غيره ، فإذا حل فيه معبود غير الله سبحانه وهو الهوى لم تقربه الملائكة أيضا

فإن قيل : فظاهر الحديث يقتضى منافرة الملائكة لكل صورة عموما ، وما ذكرته تعليلا ينبغي أن لايقتضى إلا منافرة ماعبد ، أو مانحت على مثاله

(١) الصافات : ٩٥ ، ٩٦

قلنا : تشابهت الصور المنحوتة كلها فى المعنى الذى قصد بها التصوير لأجله ، وهو مضارعة ذى الأرواح ، وما نحت للعبادة إنما قصد به تشبيه ذى روح ، فلما كان هذا المعنى الجامع لها وجب تحريم كل صورة منافرة للملائكة

فإن قيل : فما وجه الترخيص فيما رقم فى ثوب ، فذلك لأنها ليست مقصودة فى نفسها وإنما المقصود الثوب الذى رقمت فيه

فإن قيل : فما بال الثياب رخص فى محاكاتها بالتصوير ، وذات أنواط فى العرب مشهورة معلومة

فاعلم أن ذات أنواط إنما كانت شجرة فى أيام العرب الجاهلية تعلق عليها يوما فى السنة فاخر ثيابها ، وحلي نسائها ، لأجل اجتماعها عندها وراحتها فى ذلك اليوم ، ولم يكونوا يقصدونها بالعبادة لما كانت بغير صفة التماثيل المنحوتة والأصنام ، ولو كان ذلك ماسأل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم ذات أنواط ، حتي أنكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك عليهم ، ولو عبدت فقد عبد كثير من خلق الله تعالى ، كالملائكة والشمس والقمر وبعض النجوم والمسيح عليه السلام وعليّ رضي الله عنه ؛ ولم يعبدوا مانحت على شكل النبات ، فلم تعبد من هذه إلا ذات روح ، فما أبعد عن دركها من حرمه الله تعالى إياها ، فله الحمد وهو أهله .

بيان

أصناف أهل الاعتقاد المجرد

وأما أهل الاعتقاد المجرد عن تحصينه بالعلم ، وتوثيقه بالأدلة ، وشدّه بالبراهين فقد انقسموا فى الوجود إلى ثلاثة أصناف

أهل الإقرار

أحدهم : صنف اعتقدوا مضمون ماأقروا به ، وحشوا به قلوبهم من غير تردد ولا تكذيب ، أسروه فى أنفسهم ولكنهم غير عارفين بالاستدلال على مااعتقدوا ، وذلك لفرط بعدهم وغلظ طبائعهم ، واعتياص طرق ذلك عليهم ، ويقع عليهم اسم الموحدين

وتحققنا وجود أمثالهم كثيرا على عهد سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، والسلف الصالحين رضي الله عنهم ، ثم لم يبلغنا أنه اعترض أحد إسلامهم ، ولا أوجب عليهم الخروج منه ، والمعروف عنه ، ولا كلفوا مع قصور فهمهم وبعدهم عن فهم ذلك بعلم الدلالة ، وقراءة البراهين وترتيب الحجاج ، بل تركوا على ماهم عليه ، وهؤلاء عندى معذورون يبعدهم ، ومقبولون بما توافوا عليه من إقرارهم وعقدهم ، والله سبحانه قد عذرهم مع غيرهم بقوله سبحانه (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا[1]) ولا يخرجون عن مقتضى هذه الآيات بحال ، وسنبدي لك طريقا من الاعتبار تعرف به صحة إسلامهم ، وسلامة توحيدهم ، إن شاء الله عز وجل

أهل الاعتقاد

والصنف الثاني : اعتقدوا الحق مع ما ظهر منهم من النطق ، واعتقدت مع ذلك أنواعا من المخاييل ، قام فى مخيلتها أنها أدلة ، وطأتها براهين وليست كذلك ، وقد وقع فى هذا كثير ممن يشار إليه ، فضلا عمن دونهم ، فإن وقع إلى هذا الصنف من يزعزع عليهم تلك المخاييل بالقدح ، ويبطلها عليهم بالمعارضة أو الاعتراض لم يلتفتوا إليه ، ولا أصغوا لما يأتى به ، ويترفعوا إلى أن يجاوبوه لما يحملهم عليه من سوء الفهم ، أو رداءة الاعتقاد ، وعندهم أن جميع تلك المخاييل فى باب الاستدلال أرسخ من شوامخ الجبال ، فمنهم من يعتقد دليله مذهب شيخه الرفيع القدر ، المطلع على العلوم ، ومنهم من يكون دليله خبرا له ، ومنهم من يكون دليله بعض محتملات آية أوحديث صحيح، ولعمرى أنهم ينبغى إذا صادفوا السنة باعتقادهم ، ولم يقعوا فى شيء من الضلال ، أن يتركوا على ماهم عليه ، ولا يحركوا بأمر آخر ، بل يصدقوا بذلك ويسلم لهم ، لئلا يكون إذا تتبع الحال منهم ربما لقنوا شبهة ، أو ترسخ فى نفوسهم بدعة يعسر انحلالها ، أو يقعوا فى تكفير مسلم وتضليله ، بل هناك أسباب كثيرة

واعلم أن اعتقاد الخلائق وعلمها من أغذية النفوس ، فمن رغب فى أكملها لم يقنع بدونها ، وإذا حصل له ذلك قوي به ، ومن قنع بأيسرها ولم تطمح همته إلى ماهو أعلى من ذلك ضعف ، ولكنه يعيش عيش الطفيف ، وإنما يهلك من لا بلغة له ولا يجدها ، أو يجدها ولكنها تكون مشابهة ممن جاء بخضرة بدعة ، وسموم

(١) البقره : ٢٨٦

كفر ، فلا تذهل عما يشار لك إليه وإنما المرغوب تنبيهك والله المستعان ، وقلما بين الصنف الثانى والأوّل من التفاوت من حيث إن أولئك مقلدون فيما يعتقدونه دليلا : غير أنهم أوثق رباطا من الأولين ، لأن أولئك إن وقع إليهم من شككهم ربما شكوا ، وانحل رباط عقدهم ، وهؤلاء فى الأغلب لاسبيل إلى انحلال عقودهم ، إذ لايرون أنفسهم أنهم مقلدون ، وإنما يظنون أنهم مستدلون عارفون ، فلهذا كانوا أحسن حالا

أهل النظر مع التبلد

والصنف الثالث . أقروا واعتقدوا كما فعل الذين من قبلهم ، وقدموا النظر أيضا ، ولكنهم لعدم سلوكهم سبيله مع القدرة عليه ، ومعهم من الذكاء والفطنة والتيقظ ، مالو نظروا لعلموا ، ولو استدلوا لتحققوا ، ولو طلبوا لأدركوا سبيل المعارف ووصلوا ، ولكنهم آثروا الراحة ، ومالوا إلى الدعة ، واستبعدوا طريق العلم ، واستثقلوا الأعمال الموصلة إليه وقنعوا بالقعود فى حضيض الجهل ، فهؤلاء فيهم أشكال عند كثير من الناس فى البديهة ، ويتردد حالهم فى النظر ، وهل يسمون عصاة أو غير ذلك ، يحتاج إلى تمهيد آخر ليس هذا مقامه ، والالتفات إلى هذا الصنف أوجب خلاف المتكلمين فى العوام على الإطلاق ، من غير تفريق بين بليد ومتيقظ وفطن ، فمنهم من لم ير أنهم مؤمنون ، ولكن لم يحفظ عنهم أنهم أطلقوا اسم الكفر عليهم

إشكال

ولعلك تقول : إن مذهبهم المشهور ، أن المحل لايخلو عن الصفات إلا إلى ضدها ، فمن لم يحكم له بالإيمان ، حكم عليه بالكفر ، كما أن من لم يحكم له بالحركة ، حكم عليه بالسكون ؛ وكذلك الحياة والموت والعلم والجهل وسائر ماله من الصفات ،

الرد عليه

قلنا : فلئن صح ذلك فى الصفات التى هى أعراض ، فقد لايصح فى الأوصاف التى هي أحكام الإيمان ، والكفر والهداية والضلال والبدعة والسنة ربما كانت ليست من قبيل الأعراض ، وإنما ذكرت لك هذا فى معرض الشك ، فى شعوب ما نورد على ذلك ، ومنهم من أوجب لهم الإيمان ، ولكن أوجب لهم المعرفة وقدرها لهم ، وعجزهم عن العبادة ، ووجوب العبادة فى الشرع جار على هذا النحو ، وهؤلاء لم يخالفوا المذكورين قبلهم ، لأن أولئك سلبوا الإيمان عمن لم يصدر اعتقاده

عن دليل ، وهؤلاء أوجبوا الإيمان لمن أضافوا إليه المعرفة المشروطة فى صحة الإيمان وإنما فروا عن الشناعة الظاهرة ، فشذوا عن الجمهور بهذا الاحتمال ، وزادوا على أنفسهم أنهم ألموا بقول من جعل المعارف كلها ضرورية ، ولم يشعروا بذلك حين قالوا إنما عجزت العامة عن سرد الدليل ، وتعظم العبارة عنه ، وأنه لاتجب عليهم لأنهم إذا نبهوا وعرض عليهم ماقرب من الألفاظ ، واعتادوا من المخاطبات دلائل الحدوث ، ووجوه الافتقار إلى المحدث بعد ، لاعتقدوا وعددوا من هذه المعارف كثيرا ، ووجدوا أنفسهم عارفين بذلك

استطراد

واعلم أن من يقول إن المعارف كلها ضرورية ، هكذا يقول : إنما افتقر الناس إلى النسبية ، ولم يتمرنوا على العبارة على مواضع العلوم ، وإلا فهم إذا نبهوا عليها وتلطف بهم فى تفهيمها بالزوال إلى ماألفوه من العبارات ، وجدوا أنفسهم غير منكرة لما نبهوا عليه ، وسارعوا إلى الفيئة ، ومثال هذا كمن نسي شيئا كان معه أو إنسانا نصحه أو رآه فنسيه . وغفل عنه لأجل غيبته ثم رآه بعد ذلك فذكر ، فإنه يقال بدا لأنه كان عارفا بما غاب عنه ، لكنه ناس له أو غافل عنه ، ولولا عرفانه به ماوجد عدم الإنكار وسرعة الألفة عنه . وطائفة من المتكلمين أيضا أوجب لهم الإيمان مع عدم المعرفة المشروطة عند أولئك ، وأي الآراء أحق بالحق وأولى بالصواب ، ليس من غرضنا فى هذا الموضع ، وإنما غرضنا تبعيد ماأشاعه فى الإحياء أهل الغلول والإغلال ، فلا يفتح مثل هذا الباب وقد أبدينا من وجه ذلك فى مراقى الزلف ، مايغنى فيها بإذن الله عز وجل

فصل

فى بيان أصناف أهل الاعتقاد

تفصيل آخر من جهة أخرى ، هو من تتمة ماجري ، فلتعلم أن مامنهم صنف إلاّ وله على التقريب ثلاثة أحوال ، لايستبد أحدهم من أحدها بحكم الاعتقاد الضرورى

فأصفى الحالات لهم أن يعتقد أحدهم جميع أركان الإيمان على ما يكمل عليه في الغالب ، لكنه على طريق التفاوت كما سبق

بحوث فقهية

الحالة الثانية . أن لا يعتقدوا إلا بعض الأركان مما فيه خلاف ، إذا نفر ولم ننصف إليه فى اعتقاده سواء هل يكون مؤمنا أو مسلما أن يعتقد وجود الواحد فقط ، أو يعتقد أنه موجود حي لاغير ، وأمثال هذه التقديرات ، ويخلو عن اعتقاد باقى الصفات ، خلوا كاملا لا يخطر بباله ، ولا يعتقد فيها حقا ولا باطلا ولا صوابا ولا خطأ ، ولكن التقدير الذى يعتقده من الأركان الثلاثة موافق للحق غير منسوب لغيره

الحالة الثالثة : أن يعتقد الوجود كما قلنا ، والوحدانية والحياة ، ويكون فيما يعتقد فى باقى الصفات ، على مالا يوافق الحق ما هو عليه مما هو بدعة وضلالة وليس بكفر صريح ، فالذى يدل عليه العلم ، ويستنبط من ظواهر الشرع ، أن أرباب الحالة الأولى والله أعلم على سبيل نجاة ، ومسلك خلاص ، ووصف إيمان ، أو إسلام ، وسواء فى ذلك الصنف الأول والثانى من أهل الاعتقاد ، ويبقى الصنف الثالث على محتملات النظر كما نبهناك عليه

وأما أهل الحالة الثانية : وهي الاقتصار على الوجود المفرد ، أو الوجود ووصف آخر معه ، مع الخلو عن اعتقاد سائر الصفات التى للكمال والجلال وأركانهما ، فالمتقدمون من السلف لم تشتهر عنهم فى صورة المسألة مايخرج صاحب هذا العقد عن حكم الإيمان والإسلام ، والمتأخرون مختلفون ، فكثير خاف أن يخرج من اعتقد وجود الله عز وجل ، وأظهر الإقرار بنبيه صلى الله عليه وسلم من الإسلام ولا يبعد أن يكون كثير ممن أسلم من الأجلاف والرعيان ، وضعفاء النساء والأتباع على هذا بلا مزيد عليه ، لو سئلوا واستكشفوا عن الله عز وجل ، هل له إرادة أو بقاء أو كلام أو ما شاكل ذلك ، وهل له صفات معنوية ليست هي هو ، ولا هي غيره ، ربما وجدوا يجهلون هذا ولا يعقلون وجه مايخاطبون به ، وكيف يخرج من اعتقد وجود الله ووحدانيته مع الإقرار بالنبوة ، من حكم الإسلام والنبي صلى الله عليه وسلم

قد رفع القتال والقتل ، وأوجب حكم الإيمان أو الإسلام ، لمن قال لاإله إلا الله واعتقد عليها ، وهذه الكلمات لاتقتضى أكثر من اعتقاد الوجود مع الوحدة فى الظاهر ، وعلى البديهة من غير نظر ، ثم سمعنا عمن قالها فى صدر الإسلام أنه لم يعلم بعدها إلا فرائض الوضوء والصلاة وهيآت الأعمال البدنية ، والكف عن أذى المسلم ، ولم يبلغنا أنهم درسوا علم الصفات وأحوالها ، ولاهل الله تعالى عالم بعلم ، أوعالم بنفسه ، وهو باق ببقاء ، أوباق بنفسه ، وأشباه هذه المعارف ، ولايدفع ظهور هذا إلا معاند ، أوجاهل سيرة السلف وما جرى بينهم ، ويدل على قوة هذا الجانب فى الشرع ، أن من استكشف منه على هذه الحالة وتحققت منه ، وأبى أن يذعن لتعلم مازاد على ماعنده ، لم يفت أحد بقتله ولا استرقاقه ، والحكم عليه بالخلود فى النار عسر جدا ، أو خطر عظيم ، مع ثبوت الشرع بأن من قال لاإله إلا الله ، دخل الجنة ، ولعلك تقول : قد قال فى مواطن أخرى إلا بحقها ، ثم تقول اعتقاد باقى الصفات التى بها يكون اعتقاد جلال الله جل وعز وكماله من حقها ، نعم هي من حقها عند من بلغه أمرها ، وسمع بها أن يعتقدها ، وأما من خلا من اعتقادها ولم يقو له أن يلقاها ولم يسمع بها ففيه مرمى هذا النظر ، وعليه يقع مثل هذا الاحتفاظ ، وفى مثله يخاف أن يطلق عليه اسم الكفر ، هذا وأنت تسمع عن الله عز وجل يقول فى الآخرة أخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان ، وذكر من المثقال إلى الذرة والخردلة من الإيمان ، إلى أن أخرج منها من لم يعمل حسنة قط ، فما يدريك أن يكونوا هؤلاء وأمثالهم المرادين ، لأن التقدير وقع فى الإيمان لافى الأعمال

تفريعات عظيمة

فإن قلت : فإن من الناس وأئمة العلماء من لم يوجب الإيمان لمن اعتقد جميع الأركان إذا لم يصحبها معرفة ، ولم يقصدها دليل ، فكيف عن فاته اعتقاد بعضها أو كلها

قلنا : قد أريناك وجه الاعتراض على هذا المذهب ، ونبهناك على بعد أهله عن وجه الحق فيه ، وأنهم أرباب تعسف ، ولو استقصى مع كثير منهم القول فى ذلك ، لبدا له أنه تسبب إلى مايظهر له من تصوره عن معرفة ، شرطها فى إيمان غيره ، ولآثر من حسه الركون إلى مارأيناه أولى من رأيه وأحق بالصواب ، ولعدل عن مذهبه ثم بعد ذلك ترام

حين أخبروا عن سلب الإيمان عنهم، لم يبقوا اسم الكفر عليهم، ثم يعرضوا على الاستتابة إن كانت من مذهبه، ثم يحكم فيه بالقتل والاسترقاق، فإذا تأملت هذا لم يخف عليك عيب ماقالوه، ونقص ماقالوا إليه، فلنرجع إلى مانحن بسبيله ونستعين بالله عز وجل

أما أرباب الحالة الثالثة: وهي اعتقاد البدعة في الصفات أو بعضها، فإن حكمنا بصحة إيمان أهل الحالة المذكورة قبل هذا، وإسلامهم، حققنا أمر هؤلاء فيما اعتقدوه إذ لم يقعوا فيه بوجه قصد يقطعهم عن إيصال العذر، لأن هؤلاء قد حصل لهم في العقد ماهو شرط الخلاص والنجاة من الهلاك الدائم، وأصيبوا فيما وراء ذلك، فإن أمكن ردهم في الدنيا، وزجرهم عنه، إن أظهروا المنع عن الإقلاع، والرجوع بالعقوبة المؤلمة، دون قتل كان ذلك، وإن فاتوا بالموت لم نقصرهم في اعتقادنا عن أرباب الحالة الثانية المذكورة قبلهم، والله أعلم بالناجي والهالك من خلقه، والمطيع والعاصي من عباده هكذا ينبغي أن يكون مذهب من نظر في خلق الله تعالى بعين الرأفة والرحمة، ولم يدخل بين الله عز وجل وبين عباده، فيما غاب عنه علمه وعدم فيه سبيل اليقين، وفهم معنى قوله عز وجل (وَلَا تَقْفُ مَالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً [1])

فإن قلت: وأين أنت من تكفير كثير من الناس لجميع أهل البدع عامة وخاصة، وقول النبي صلى الله عليه وسلم في القدرية « إِنَّهُمْ مَجُوسُ هَذِهِ الْأُمَّةِ » وقوله صلى الله عليه وسلم « سَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي إِلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً » وقال عن قوم يخرجون على حين فرقة من الناس « يَقُولُونَ بِقَوْلِ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ أَوْ مِنْ قَوْلِ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ » والأحاديث الواردة فيمن اعتقد شيئا من الأهواء والبدع كثيرة غير هذه، مما توجب في الظاهر تكفيرهم بالإطلاق

التحرث في التكفير

فاعلم أنه وإن كان كفرهم كثير من العلماء، فقد أبقى عليهم دينهم، وتردد فيهم كثير أو أكثر منهم، وكل فريق منهم في مقابلة من خالفه، فليقع التحاكم عند العالم الأكبر

(1) الاسراء: ٣٦

المؤيد بالعصمة ،سيد البشر إمام المتقين صلى الله عليه وسلم ، فهو عليه الصلاة والسلام حين قال مجوس هذه الأمة أضافهم إلى الأمة ، وما حكم بأن لم يقل مجوس على الإطلاق ، وحين أخبر عن الفرق أنهم فى النار ، فما أخبر أنهم خالدون فيها ، وحين قال يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، فقد قال متصلا بهذا القول ، وتتمارى فى الفرق ، وما موضع هذا التمارى من المثل الذى ضربه فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : فمالى أراك تلاحظ جهة وتترك أخرى ،وتذكر شيئاوتذهل عن غيره ،عليك بالعدل تكن من أهله ،واستعمل التفطن تشاهد العجائب المعجبة ، وتفهم قول الله (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا [1])

فصل

ولما كان الاعتقاد المجرد عن العلم بصحته ضعيفا ، وتفرده عن المعرفة قريبا ممن رآه ألقى عليه شبه القشر الثانى من الجوز ، لأن ذلك القشر يؤكل مع ماهو عليه صونا ، وإذا انفرد أمكن أن يكون طعاما للمحتاج وبلاغا للجائع ، وبالجملة فهو لمن لاشيء معه خير من فقده ، وكذلك اعتقاد التوحيد ، وإن كان مجردا عن سبيل المعرفة وغير منوط بشيء من الأدلة ضعيفا فهو فى الدنيا والآخرة ،وعند لقاء الله عز وجل خير من التعطيل والكفر ومتى ركب أحد هذا فقد وقع فى أعظم الحرج والمنكر

بيان

أرباب المرتبة الثالثة وهو توحيد المقربين

والكلام فى هذا النوع من التوحيد له ثلاثة حدود

أحدها : أن يتكلم فى الأسباب التى توصل إليه ، والمسالك التى يعبر عليها نحوه ، والأحوال التى يتخذها بحصوله كما قدره العز بن العليمى ، واختار ذلك ورضاه وسماه الصراط المستقيم .

---

[1] البقرة : ١٤٣

والحد الثانى : أن يكون الكلام فى عين ذلك التوحيد ونفسه وحقيقته ، وكيف يتصور للسالك إليه والطالب له قبل وصوله إليه ، وانكشافه له بالمشاهدة

والحد الثالث: فى ثمرات ذلك التوحيد وما يلق أهله به ، ويطلعون عليه بسببه ، ويكرمون به من أجله ، ويتحققون من فوائد المزيد من جهته

أما الحد الأول :فالكلام عليه، والبيان له ، والكشف لدقائقه ، وتذلله للصغير والكبير مأمور به ، مشدد فى أمره ، متوعد بالنار على كتمه ، فيه بعث الأنبياء ، ومن أجله أرسل الرسل ، وبيانه للناس كافة نزلت من عند الله عز وجل على أمناء وحيه الصحف والكتب وليقع التفقه فى القلوب بتحقيقه وتصديقه ، أيدت الرسل بالمعجزات ، والأولياء والأنبياء بالكرامات ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وعليه أخذ الله الميثاق على الذين أوتوا الكتاب ليبيننه للناس ولا يكتمونه ، وفيه أنزل الله (يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَاأُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ [1]) وإياه عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله « مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ » وجميع ذلك محصور فى اثنتين العلم بالعبرة ، والعمل بالسنة ؛ وهما مبنيان على آيتين الحرص الشديد ، والنية الخالصة ، والسر فى تحصيلهما اثنان ، نظافة الباطن ، وسلامة الجوارح ، ويسمى جميع ذلك بعلم المعاملة

وعيد كاتم العلم

وأما الحد الثانى : فالكلام فيه أكثر مايكون على طريقة ضرب الأمثال ، تشبيها بالرمز تارة ، وبالتصريح أخرى ، ولكن على الجملة بما يناسب علوم الظواهر ، ولكن يشرف بذلك اللبيب الحاذق على بعض المراد ويفهم منه كثيرا من المقصود ، وينكشف له جُل مايشار إليه إذا كان سالما من شرك التعصب ، بعيدا من هوة الهوى ، نظيفا من دنس التقليد

وأما الحد الثالث : فلا سبيل إلى ذكر شيء منه ، إلا مع أهله بعد علمهم به على سبيل التذكار ، لا على التعليم إنما كانت أحكام هذه الحدود الثلاثة على ماوصفناه ،

(١) المائدة : ٦٧

لأن الحد الأوّل فيه محض النصح للخلق ، واستنقاذهم من غمرة الجهل ، والتنكيب بهم من مهاوى العطب ، وقودهم إلى معرفة هذا المقام ، وما وراءه مما هو أعلى منه مما لهم فيه الملك الأكبر ، وفوز الأبد ، وقد بين لهم غاية البيان ، وأقيم عليه واضح البرهان ، وهو يومئذ الطريق ، وأول سبيل السعادة ، فمن عجز عن ذلك كان عن غيره أعجز ، ومن سلكه على استقامة فالغالب عليه الوصول ، إن الله لايضيع أجر من أحسن عملا ، ومن وصل شاهد ، ومن شاهد علم ، وذلك غاية المطلوب ، ونهاية المرغوب والمحبوب ، ومن قعد حرم الوصول وما بعده ، (فَضَّلَ اللّٰهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً [1]) ومن غاب لم تنفعه الأخبار : ولم يفده كثير من الأحاديث ، وأيضا فإن الأخبار بما وراء الحد الأول والثانى على وجهه لو كشف للخلق كافة ، وأمكن بما أعد من الكلام وجرى بين الناس من عرف التخاطب ، كان فيه زيادة محنة ، وسبب فيه إهلاك أكثرهم ممن ليس من أهل ذلك المقام ، وذلك لغرابة العلم ، وكثرة غموضه ودقة معناه ، وعلوه فى منازل الرفعة وبعده بالجملة والتفصيل ، من جميع ماعهد فى عالم الملك والشهادة ، وخروجه عن تلك الحدود المألوفة ومباينته الكل مانشئوا عليه ، ولم يشاهدوا غيره من محسوسات ومعقولات وضروريات ونظريات ، فلما كان لايدرك شيء من ذلك بقياس ، ولا يتصوّر بواسطة لفظ ولا يحمل عليه مثل ، كما قال عز وجل (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ [2]) وحكي عن ابن عباس رحمه الله أنه قال : ليس عند الناس من علم الآخرة إلا الأسماء ، وأراد من لم ينكشف شيء له من علمها وحقائقها فى الدنيا ، وأيضا فلو جاز الإخبار بها لغير أهلها لم يكن لهم سبيل إلى تصورها إلا على خلاف ما هي عليه بمجرد تقليد ، ويتطرق إليه من أهل الغفلة وذوى القصور جحود وتبعيد ، فلهذا أمروا بالكتم إشفاقا على من حجب من العلم ولهذا قال سيد البشر صلى الله عليه وسلم « لَا تُحَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا لَمْ تَصِلْهُ عُقُولُهُمْ أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللّٰهُ وَرَسُولُهُ » وقال صلى الله عليه وسلم « مَاحَدَّثَ

مخاطبة الناس على قدر عقولهم

[1] النساء : ٩٥ [2] السجدة : ١٧

أَحَدُكُمْ قَوْمًا بِحَدِيثٍ لَمْ تَصِلْهُ عُقُولُهُمْ إِلَّا كَانَ عَلَيْهِمْ فِتْنَةً » وعلى هذا يخرّج قول المشايخ: إفشاء سر الربوبية كفر ، رزقنا الله وإياكم قلوبا واعية الخير ' إنه وليّ كل صالح ' وإذا علمت أن الحد الأوّل قد تقرر علمه فى كتب الرواية والدراية ؛ وماثت منه الطروس ، وكثرت به فى المحافل الدروس ، وهو غير محجوب عن طالب ، ولا ممنوع عن راغب ' قد أمر الجهال به أن يتعلموه ، والعلماء أن يبذلوه ويعلموه ، فلا نعيد فيه ههنا قولا ، ولما كان حكم الحد الثالث الكتم تارة ، وتسكيت الكلام عنه مع غير أهله على كل حال ، لم يكن لنا سبيل إلى تعدّ إلى محدودات الشرع فلنثن العنان إلى الكلام بالذى يليق بهذا الحال والمقام ، فنقول :

المقربون وصفاتهم

أرباب المقام الثالث فى التوحيد ، وهم المقربون ، على ثلاثة أصناف ، وعلى الجملة فكلهم نظروا إلى المخلوقات فرأوا علامات الحدوث فيها لائحة ، وعاينوا حالات الافتقار إلى الله تعالى عليهم واضحة ، وسمعوا جميعها تدل على توحيده وتفريده راشدة ناصحة ، ثم رأوا الله تعالى بإيمان قلوبهم ، وشاهدوه بغيب أرواحهم ، ولاحظوا جلاله وجماله بخفي أسرارهم ، وهم مع ذلك فى درجات القرب على قدر حظ كل واحد منهم فى اليقين وصفاء القلب ، وهؤلاء الأصناف الثلاثة إنما عرفوا الله سبحانه بمخلوقاته ، وانقسامهم فى تلك المعرفة كانقسام حفاظ تلاوة القرآن مثلا ، فمن حافظ لبعضه ويكون ذلك البعض أكثر ، أو كثيرا منه دون كماله ، ومن حافظ لجميعه لكنه متلعثم فيه ، متوقف على الانبهار فى قراءته ، ومن حافظ فى تلاوته غير متوقف فى شيء منه ' وكلهم ينسب إليه ويعد فى المشهد والمغيب من أهله ' وكذلك أهل هذه المرتبة أيضا منهم متوصل إلى المعرفة من قراءة صفحات أكثر المخلوقات ، أوكثير منها . وربما كان فيما يقرأ من الصفحات مايغم عليه ' ومن قارىء لجميعها متفهم لها ' لكن بنوع تعب ، ولزوم فكرة ، ومداومة عبرة ، ومن ماهر فى قراءتها مستخرج لرموزها ، ناقد البصيرة فى رؤية حقيقتها ، مفتوح السمع ، تناطقه الأشياء فى فراغه وشغله ، وبحسب ذلك اختلف أحوالهم ، فى الخوف والرجاء والقبض والبسط والفناء والبقاء ولامزيد على هذا المثال ، فهو أصلح لذوى الأفهام من شمس النهار وقت الزوال ،

وعلمت لم سمي أهل هـذه المرتبة مقربين ، فذلك لبعدهم عن ظلمات الجهل وقربهم من أنوار المعرفة والعلم ، ولا أبعد من الجاهل ، ولاأقرب من العارف العالم ، والقرب والبعد هٰهنا عبارتان عن حالتين على سبيل التجوز فى لسان الجمهور ، وعلى الحقيقة عند المستعملين لهما فى هذا الفن أحد الحالتين ، عماء البصيرة ، وانطماس القلب ، والخلوّ عن معرفة الرب سبحانه وتعالى ، ويسمى هذا بعد مأخوذ من البعد عن محل الراحة والمنزل الواجب ، وموضع العمارة والأنس ، والانقطاع فى مهامـه القفر وأمكنة الخوف ، ومظان الانفراد والوحشة

والحالة الثانية : عبارة عن اتّقاد الباطن ، واشتعال القلب ، وانفساح الصدر ، بنور اليقين والمعرفة والعقل ، وعمارة البيت بمشاهدة ماغاب عنه أهل الغفلة واللهو ، ولكنه يدل على أنه لم يصل

لعلك تقول أرى بعض أئمة الكلام عن لحوق هذا المقام كأن لم يضربوا فيه بسهم ، ولم يفز قدحهم منه بحظ ولاسهم ، وأراهم عند الجمهور فى الظاهر . وعند أنفسهم انهم أهل الدلالة على الله تعالى ، وقادة الخلق إلى مراشدهم ، ومجاهدون أرباب النحل المردية . والملل الضالة المهلكة ، وقـد سبق فى الإحياء أنهم مع العوام فى الاعتقاد سواء ، وإنما فارقوهم بإحسانهم حراسة عقودهم

فاعلم أن مارأيت فى الإحياء صحيح ، ولكن بقى فى كشفه أمر لايخفى على المستبصرين ولا يغيب عن الشاذين ، إذا كانوا منصفين ، وهو أن المتكلمين من حيث صناعة الكلام فقط ، لم يفارقوا عقود العوام ، وإنما فارقوهم بالجدل عن الانخرام ، والجدل علم لفظي ، وأكثره احتيال وهمي ، وهو عمل النفس ، وتخليق الفهم ، وليس بثمرة المشاهـدة والـكشف ، ولأجل هذا كان فيه السمين والغث ، وشاع فى حال النضال إيراد القطعى وما هو حكمه من غلبة الظن ، وإبداء الصحيح ، وإلزام مذهب الخصم ، والمقام المشار إليه بالذكر وشبهه ، إنما هو علم التوحيد ، وفهم الأحوال ومعرفته باليقين التام ، والعلم المضارع للضرورى ، بأن لاإله إلا الله ، إذ لافاعل غيره ، ولا حاكم فى الدارين سواه ، ومشاهدة القلوب لما حجب من الغيوب ، ومن أين للنازل طي المنازل ، ومالعلم الـكلام مثل هذا المقام

امتياز أهل الكلام عن العوام

بل هو من خدام الشرع ، وحراس متبعيه من أهل الاختلاس والقطع ، وله مقام على قدره ، ويقطع به ولكن ليس عن مطالع الأنوار ، ومدارك الاستبصار والمدار فى أوقات الضرورات والاختيار ، وبين مايراد لوقت حاجته إن دعت وخصام صاحب بدعة ومناضلة ذى ضلالة عما ينغص على ذوى اليقين العيش ، ويشغل الذهن ، ويكدر النفس ، وما أهله الذين حفظ عنهم ووقع علمه فيما مضى من الزمان إليهم ، لانقول فى أكثرهم إنهم لايحسنون غيره ، ولا يختصون بالتوحيد بمقام سواه مما هو أعلى منه ، بل الظن بهم أنهم علماء مثل ماذكرنا ، فهم نصراء لكنهم لم يبدوا من العلم فى الظاهر إلا ما كانت الحاجة إليه أمس ، والمصلحة به لتوجه الضرورة أعم وأوكد ، ولما كان نجم فى وقتهم من البدع ، وظهر من الأهواء وشاع من تشتيت كلمة أهل الحق ، وتجرأ العوام مع كل ناعق ، فرأوا الرد عليهم ، والمنازعة لهم ، والسعي فى اجتماع الكلمة على السنة بعد افتراقها وإهلاك ذوى الكيد فى احتيالهم ، وإخماد نارهم الذين هم أهل الأهواء والفتن ، وأولى بهم من الكلام بعلوم الإشارات ، وكشف أحوال أرباب المقامات ، ووصف فقه الأرواح والنفوس ، وتفهم كل ناطق وجامد ، فإن هذه كلها وإن كانت أسنى وأعلى فإن ذلك من علم الخواص ، وهم مكفيون المؤنة ، والعامة أحق بالحفظ ، وعقائدهم أولى بالحراسة ، واستنقاذ من يخاف عليه الهلاك أولى من مؤانسة وحيد ، والتصدق على ذى بلغة من العيش ، فكيف إن كان عن غناء ، وأيضا فإن علم الكلام إنما يراد كما قلنا للجدال ، وهو يقع من العلماء العارفين مع أهل الإلحاد والزيغ ، لقصورهم عن ملاحظة الحق موقع السيف للأنبياء والمرسلين عليهم السلام ، بعد التبليغ مع أهل العناد ، والتمادى على الغي وسبيل الفساد ، فكما لايقال السيف أبلغ حجة النبي صلى الله عليه وسلم ، كذلك لايقال علم الكلام والجدال أبلغ مقام من ظهر منه من العلماء ، وكما لايقال فى الصدر الأول فقهاء الأمصار ، ومن قبلهم حين لم يحفظ عنهم فى الغالب إلا علوم أخر ، كالفقه والحديث والتفسير ، لأن الخلق أحوج إلى علم ماحفظ عنهم ، وذلك لغلبة الجهل على أكثرهم ، فلولا أن حفظ الله تعالى تلك العلوم بمن ذكرنا لجهلت العبارات ، وانقطع علم الشرع ، ونحن مع هذه الحالة نعلم أنهم عارفون بالتوحيد على جهة اليقين ، بغير طريق علم الكلام

والجدل ، يتحلون بالمقامات المذكورة ، وإن لم يشتهر عنهم ذلك اشتهار ما أخذه عنهم الخاص والعام ، ومثل ذلك حالة الصحابة رضي الله عنهم بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، لما خافوا دروس الإسلام ، وأن يضعف ويقل أهله ، ويرجع البلاد والعامة إلى الكفر كما كانوا أول مرة ، فقد مات صاحب المعجزة صلى الله عليه وسلم ، والمبعوث لدعوة الحق عليه السلام ، رأوا أن الجهاد والرباط فى ثغر العدو والغزو فى سبيل الله ، وضرب وجوه الكفر بالسيف ، وإدخال الناس فى دين الله ، أولى بهم من سائر الأعمال ، وأحق من تدريس العلوم كلها ، ظاهرا وباطنا ، وإنما كانت تؤخذ عنهم علوم الشرع على الأقل ، وهم فى حال ذلك الشغل والنظر إلى حال العموم أوكد من النظر إلى الخصوص ، لأن الخصوص لهم بأنفسهم عناء ، ولهم بحالهم قيام ، والعموم إن لم يكن مشتغلا بهم ، ذائدا لهم عن هلكاتهم وسائقا بهم إلى مراشدهم وصلاحهم ، كان الهلاك إليهم أسرع ، ثم لايكون من بعد ذلك أن فسد حال العموم للخصوص قدر ، ولايظهر لهم نور ، ولايقدرون على شيء كامل من البر ، فلا خاصة إلا بعامة ، ولقد كانت رعاية النبي صلى الله عليه وسلم بحال الجماهير أكثر ، والخوف عليهم من الزيغ والضلال والهلاك أشد ، واللطف بهم فى تخفيف الوظائف والأخذ بالرفق أبلغ ، وكان أهل القوة وذوى البصائر فى الحقائق يأخذون أنفسهم بالمشقات ، وكان هو صلى الله عليه وسلم يحب أن يعمل بالعمل من الطاعة فيما يمنعه منه ، أو من المداومة عليه إلا خوف أن يفرض على أمته ، حين علم من أكثرهم الضعف ، ولم يكره لهم وفيه زيادة الأجر ، وكثرة الثواب والقرب من الله تعالى ؛ ولكن خاف عليهم أن يقعوا فى تضييع الفرض ، فيكون عليهم كفل من الوزر ، ألا ترى كيف نهى الخالق عن قيام الليل كله . وكان عثمان رضي الله عنه يقومه فلم ينهه ، ومنع السيف من كل من أراد أخذه بما شرط عليه فيه ، حتى جاء من علم منه القدرة على الوفاء بما شرط عليه فأعطاه إياه ، وقال لعائشة رضي الله عنها « لَوْلَا حِدْثَانُ عَهْدِ قَوْمِكِ بِالْكُفْرِ لَرَدَدْتُ الْبَيْتَ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ » وقال للأنصار « أَمَا تَرْوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاءِ وَالْبَعِيرِ فَتَذْهَبُونَ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى رِحَالِكُمْ » ومع ذلك فالذى حفظ عنه صلى الله عليه وسلم ، وعن الصحابة

تفضيل المصلحة العامة على الخاصة

من بعده ، وفقهاء الأمصار ، وأعيان المتكلمين من الإشارات لتلك العلوم المذكورة كثير لايحصى ، وإنما القليل من حمله اليوم عنهم ، وتفقه مثلهم فاقصد تجد ، وتصد لاقتباس الحديث والتواريخ ومصنفات العلوم توفق (وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ [١])

بيان

المرتبـــــة الرابعة

الصديقون وصفاتهم

وهو توحيد الصديقين : وأما أهـل المرتبة الرابعة ، فهم قوم رأوا الله سبحانه وتعـالى وحده ، ثم رأوا الأشياء بعد ذلك به فلم يروا فى الدارين غيره ، ولااطلعوا فى الوجود على سواه ، فقد كان بيان إشارات الصحابة رضي الله عنهم أجمعين فيما خصوا من المعرفة فى هجيراهم ، فكان هجير أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه لاإله إلا الله ، وكان هجير عمر رضى الله عنه الله أكبر ، وكان هجير عثمان رضى الله عنه سبحان الله ، وكان هجير عليّ رضي الله عنـه الحمد لله ، فاستقرى السابقون من ذلك أن أبا بكر لم يشهد فى الدارين غير الله سبحانه وتعالى ، فلذا كان الصدّيق وسمي به كما علمت ، وكان يقول : لاإله إلا الله، وكان عمر يرى مادون الله صغيرا مع الله فى جنب عظمته ، فيقول : الله أكبر ، وكان عثمان لايرى التنزيه إلا لله تعالى ، إذ الكل قائم به غير معرى من النقصان والقائم بغيره معلول ، فكان يقول : سبحان الله ، وعليّ لايرى نعمة فى الدفع والرفع والعطاء والمنع ، فى المكروه والمحبوب ، إلا من الله سبحانه ، فكان يقول :الحمدلله ، وأهل هذه الرتبة على الجملة فى حال خصوصهم فيها صنفـان ، مريدون ومرادون ، فالمريدون فى الغالب لابد لهم من أن يحلوا فى المرتبة الثالثة ، وهي توحيد المقربين ، ومنها ينتقلون وعليها يعبرون إلى المرتبة الرابعة ، ويتمكنون فيها ، ومن أهـل هذا المقام يكون القطب والأوتاد والبدلاء ، ومن أهل المرتبة الثالثة ، يـكون النقباء والنجباء والشهداء و الصالحون والله أعلم

فإن قلت : أليس الوجود مشتركا بين الحـادث والقديم ، والمـألوه والإله ،

---

[١] البقرة : ٢٦٩

ثم معلوم أن الإلٰه واحد ، والحوادث كثيرة فكيف يرى صاحب هذه المرتبة الأشياء شيئا واحدا ، أذلك على طريق قلب الأعيان ، فتعود الحوادث قديمة ، ثم تتحد بالواحد فترجع هي هو ، وفى هذا من الاستحاله والمروق عن مصدر العقل مايغنى عن إطالة القول فيه ، وإن كان على طريق التخييل للولي لما لاحقيقة له فكيف يحتج به ، أو كيف يعدّ حالا لولي أو فضيلة لبشر

كلمة فى اتحاد الصفات

الجواب عن ذلك : أن الحوادث لم تنقلب إلى القدم ، ولم تتحد بالفاعل ، ولا اعترى الولي تخييل فتخيّل مالا حقيقة له ، وإنما هو ولي مجتبى ، وصديق مرتضى ، خصه الله تعالى بمعرفته على سبيل اليقين ، والكشف التام ، وكشف لقلبه مالو رآه ببصره عيانا ماازداد إلا يقينا ، وإن أنكرت أن يكون وهب الله المعرفة به على هذا السبيل أحدا من خلقه ، فما أطمّ مصيبتك وما أعظم العزاء فيك ، حين فتشت الخلق بعيارك ، وكلتهم بمكيالك وفضلت نفسك على الجميع ، إذ لاسبب لإنكارك إن صح ، إلا أنك تخيلت أنه لم يرزق أحدا مالم ترزق ، أو يخص من المعرفة مالم تخص فإذا تقررت هذه القاعدة فصار ما كشف لقلبه لايخرج منه ، وما اطلع عليه لا يغيب عنه ، وما ذكره من ذلك لا ينساه ولا فى حال نومه وشغله ، وهذا موجود فيمن كثر اهتمامه بشيء ، وثبت فى قلبه حاله إنه إذا نام أو اشتغل لم يفقده فى شغله ونومه كما لايفقده فى يقظته وفراغه ، ولهذا والله أعلم إذا رأى الولي المتمكن فى رتبة الصدّيقين مخلوقا كان حيا أو جمادا صغيرا أو كبيرا ، لم يره من حيث هو هو ، وإنما يراه من حيث أوجده الله تعالى بالقدرة ، وميزه بالإرادة على سابق العلم القديم ، ثم أدام القهر عليه فى الوجود ، ثم لما كانت الصفات المشهورة آثارها فى المخلوقات ليست لغير الموصوف الذى هو الله عز وجل له ألهت الولي عن غيره ، وصار لم ير سواه ومعنى ذلك أنه لايتميز بالذكر فى سر القلب وخير المعرفة ولا بالإدراك فى ظاهر الحس ، دون ما كان موجودا به وصار عنه فانيا ، فبعد هذا على من أصحبه أن لايحتاج إليها مع هذا الوضوح ، ولا فهم إلا بالله ، ولا شرح إلا منه ، ولا نور إلا من عنده ، وله الحول والقوة وهو العلي العظيم

فصل

وأما معنى إفشاء سر الربوبية كفر فيخرج على وجهين

أحدهما . أن يكون المراد به كفرا دون كفر ، ويسمى بذلك تعظيما لما أتى به المفشى وتعظيما لما ارتكبه

ويعترض هذا بأن يقال لايصح أن يسمى هذا كفرا ، لأنه ضد الكفر ، إذ الكفر الذى سمى على معناه ساتر ، وهذا المفشى للسر ناشر ، وأين النشر والإظهار من التغطية ، والإعلان من الكتم ، واندفاع هذا هين بأن يقال ، ليس الكفر الشرعي تابع الاشتقاق ، وإنما هو حكم لمخالفة الأمر ، وارتكاب النهي ، فمن رد إحسان محسن ، أو جحد نعمة متفضل ، فيقال عليه كافر لجهتين

إحداهما : من جهة الاشتقاق ، ويكون إذ ذاك اسما ينبىء عن وصف

والثانية : من جهة الشرع ، ويكون إذ ذاك حكما يوجب عقوبة ، والشرع قد ورد بشكر المنعم ، فافهم ولاتذهب مع الألفاظ ، ولايغرنك العبارات ، ولاتحجبك التسميات ، وتفطن لخداعتها ، واحترس من استدراجها ، فإذاً من أظهر ماأمر بكتمه كان كمن كتم ماأمر بنشره ، وفى مخالفة الأمر فيهما حكم واحد على هذا الاعتبار ، ويدل على ذلك من جهة الشرع ، قوله صلى الله عليه وسلم « لاَتُحَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا لَمْ تَصِلْهُ عُقُولُهُمْ » وفى ارتكاب النهي عصيان ، ويسمى فى باب القياس على المذكور كفران البدن ،

وقسمة أخرى : وذلك أن العلم إن حلل إلى ماعلم من أجزائه بالاستقراء فرأس الإنسان تشابه سماء العالم ، من حيث إن كل ماعلا فهو سماء ، وحواسه تشابه الكواكب والنجوم ، من حيث إن الكواكب أجسام مشفة تستمد من نور الشمس فتضىء بها ، والحواس أجسام لطيفة مشفة تستمد من الروح ، فيضىء مسلك المدركات ، وروح الإنسان مشابهة للشمس ، فضياء العالم ، ونور نباته ، وحركة ضواربه ، وحيوانه

وحياته ، فيها تظهر بتلك الشمس ، وكذلك روح الإنسان به حصل فى الظاهر نمو أجزاء بدنه ، ونبات شعره ، وحلول حياته ؛ وجعلت الشمس وسط العالم ، وهي تطلع بالنهار ، وتغرب بالليل ، وجعلت الروح وسط جسم الإنسان ، وهي تغيب بالنوم ، وتطلع باليقظة ونفس الإنسان تشابه القمر ، من حيث إن القمر يستمد من الشمس ، ونفسه تستمد من الروح ، والقمر خالف الشمس ، والروح خالف النفس ، والقمر آية ممحوة ، والنفس مثلها ، ومحو القمر فى آن لايكون ضياؤه منه ، ومحو النفس فى آن ليس عقلها منها ، ويعترى الشمس والقمر وسائر الكواكب كسوف ، وتعتري النفس والروح وسائر الحواس غيب وذهول ، وفى العالم نبات ومياه ورياح وجبال ، وحيوان ، وفى الإنسان نبات ، وهو الشعر ، ومياه وهو العروق ، والدموع والريق والدم ، وفيه جبال ، وهي العظام ، وحيوان وهي هوام الجسم ، فحصلت المشابهة على كل حال ، ولما كانت أجزاء العالم كثيرة ، ومنها ماهي لنا غير معروفة ، ولا معلومة ، كان فى استقصاء مقابلة جميعها تطويل ، وفيما ذكرناه مايحصل به لذوي العقول تشبيه وتمثيل

فإن قلت : أراك فرقت بين النفس والروح ، وجعلت كل واحد منهما غير الآخر ، وهذا قلما تساعد عليه ، إذ قد كثر الخلاف فى ذلك

فاعلم أنه إنما على الإنسان أن يبنى كلامه على مايعلم لا على مايجهل ، وأنت لو علمت النفس والروح علمت أنهما اثنان

فان قلت : فقد سبق فى الإحياء أنهما شيء واحد ، وقلت فى هذه الإجابة إن النفس من أسماء الروح ، فالذى سبق فى الإحياء ورأيت فى هـذه الإجابة ، وهو شيء واحد لايتناقض مع ماقلناه الآن ، وذلك أن لهـا معنى يسمى بالروح تارة ، وبالنفس أخرى ، وبغير ذلك ، ثم لايبعد أن يكون لها معنى آخر ينفرد باسم النفس فقط ، ولا يسمي بروح ولا غير ذلك ، فهذا آخر الـكلام فى أحد وجهي الإضافة التى فى ضمير صورته ، والوجه الآخر وهو أن من حمل إضافة الصورة إلى الله تعالى على معنى التخصص به ، فذلك لأن الله سبحانه نبأ بأنه حي قادر ، سميع بصير ، عالم مريد ، متكلم ، فاعل ، وخلق آدم عليه السلام ؛ حيا ، قادرا ، ، عالما ، سميعا ، بصيرا ، مريدا ، متكلما ، فاعلا ، وكانت لآدم عليه

السلام صورة محسوسة ، مكنونة مخلوقة ، مقدرة بالفعل ، وهي لله تعالى مضافة باللفظ ، وذلك أن هذه الأسماء لم تجتمع مع صفات آدم إلا فى الأسماء التى هي عبارة تلفظ فقط ، ولا يفهم من ذلك نفي الصفات فليس هو مرادنا ، وإنما مرادنا تباين مابين الصورتين بأبعد وجوه الإمكان ، حتى لم تجتمع مع صفات الله تعالى إلا فى الأسماء الملفوظ بها لاغير ، وفرارا أن نثبت صورة لله تعالى ، ويطلق عليها حالة الوجود : فافهم هذا ، فإنه من أدق مايقرع سمعك ، ويلج قلبك ، ويظهر لعقلك ، ولهذا قيل لك ، فإن كنت تعتقد الصورة الظاهرة ومعناه إن حملت إحدى الصورتين على الأخرى فى الوجود ، تكن مشبها مطلقا ومعناه تتيقن أنك من المشبهين لا من المنزهين ، على نفسك بالتشبيه معتقدا ، ولا تنكر كما قيل : كن يهوديا صرفا وإلا فلا تلعب بالتوراة ، أى تتلبس بدينهم وتريد أن لا تنسب اليهم ، أى لا تقرأ التوراة ولا تعمل بها ، وإن كنت تعتقد الصورة الباطنة ، منزها مجللا ومقدسا مخلصا ، أى ليس تعتقد من الإضافة فى الضمير إلى الله تعالى إلا الأسماء دون المعانى ، فتلك المعانى المسماة لا يقع عليها اسم صورة على حال ، وقد حفظ عن الشبلي رحمة الله عليه ، فى معنى ماذكرناه من هـــذا الوجه قول بليغ مختصر ، حين سئل عن معنى الحديث ، فقال : خلقه الله على الأسماء والصفات ، لا على الذات .

فإن قلت : فكذا قال ابن قتيبة فى كتابه المعروف بتناقض الحديث ، حين قال هو صورة لا كالصور ، فلم أخذ عليه فى ذلك ، وأقيمت عليه الشناعة به ، وأطرح قوله ، ولم يرضه أكثر العلماء وأهل التحقيق .

فاعلم أن الذى ارتكبه ابن قتيبة عفا الله عنه نحن أشد إعراضا عنه ، وأبلغ فى الإنكار عليه . وأبعد الناس عن تسويغ قوله ، وليس هو الذى ألممنا نحن به وأفدناك بحول الله وقوته إياه ، بل يدل منك أنك لم تفهم غرضنا ، وذهلت عن تعقل مرادنا ، ولم تفرق بين قولنا وبين ماقاله ابن قتيبة ، ألم أخبرك أننا أثبتنا الصورة فى التسميات ، وهو أثبتها حالة للذات ، فأين من لب الجوز ، قشور تفرقع ، والذى يغلب على الظن فى ابن قتيبة أنه لم يقرع سمعه هذه الدقائق التى أشرنا إليها وأخرجناها إلى حيز الوجود ، بتأييد الله تعالى بالعبارة عنها ، وإنما ظهر له شيء لم يكن له به إلف وعلاه الدهش ، فتوقف بين ظاهر الحديث الذى هو

موجب عند ذوى القصور تشبيها ، وبين التأويل الذى ينفيه ، فأثبت المعنى المرغوب عنه ، وأراد نفي ما خاف من الوقوع فيه ، فلم يتأت له اجتماع ما رام ، ولا نظام ما اقترف فها هو صورة لا كالصورة ، ولكل ساقطة لاقطة . فتبادر الناس إلى الأخذ عنه

فصل

ومعنى قاطع الطريق فإنك بالواد المقدس طوى ، أي دم على ما أنت عليه من البحث والطلب ، فإنك على هداية ورشد ، والوادى المقدس عبارة عن مقام الكليم موسى عليه السلام ، مع الله تعالى فى الوادى وإنما تقدس الوادى بما أنزل فيه من الذكر ، وسمع كلام الله تعالى ، وأقيم ذكر الوادي مقام ما حصل فيه فحذف المضاف وأقام المضاف اليه مقامه وإلا فالمقصود ما حذف لا ما أظهر بالقول ، إذ المواضع لا تأثير لها وإنما هى ظروف

فصل

ومعنى فاستمع أى سر بقلبك لما يوحى ، فلعلك تجد على النار هدى ، ولعلك من سرادقات العز تنادى بما نودي به موسى ، إنى أنا ربك ، أي فرغ قلبك لما يرد عليك من فوائد المزيد ، وحوادث الصدق ، وثمار المعارف ، وارتياح سلوك الطريق ، وإشارات قرب الوصول ، وسر القلب ، كما يقول أذن الرأس ، ووسع الآذان ، ومايوحى أي مايرد من الله تعالى بواسطة ملك ، أو إلقاء فى روع ، أو مكاشفة تحقيقية ، أو ضرب مثل مع العلم بتأويله ، ومعنى لعلك حرف ترويح ، ومعنى ان لم تدركك آفة تقطعك عن سماع الوحي من إعجاب بحال ، أو إضافة دعوى إلى النفس أوقنوع بما وصلت إليه ، واستبداد به عن غيره ، وسرادقات المجد ، هي حجب الملكوت ، وما نودي به موسى ، هو علم التوحيد التى وسعت العبارة اللطيفة عنه بقوله حين قال له ياموسى إنى أنا الله لا إله إلا أنا ، والمنادى باسمه أزلا وأبدا ، هو اسم موسى لما سمي السالك الموجود فى كلام الله تعالى فى أزل الأزل ، قبل أن يخلق موسى لا إلى أول ، وكلام الله تعالى صفة له لا يتغير كما لا يتغير هو ، إذ ليست صفاته المعنوية لغيره ، وهو الذي لا يحول ولا يزول ، وقد ذل قوم عظم افتراحهم وهو انهم ، حملوا صدور هذا القول على اعتقاد اكتساب النبوة

وعياذ بالله من أين يحتمل هذا القول ما حملوه من المذهب أليسوا وهم يعرفون أن كثيرا ممن يكون بحضرة ملك من ملوك الدنيا وهو يخاطب إنسانا آخر قلده ولاية كبيرة وفوض إليه عملا عظيما ، وحباه حباء خطيرا ، وهو ينادي باسمه أو يأمره بما يمتثل من أمره ، ثم إن السامع للملك الحاضر معه غير المولى ، لم يشارك المولى المخلوع عليه ، والمفوض إليه فى شيء مما ولي وأعطى ، ولم تجب له بسماعه ومشاهدته أكثر من حظوة القربة ، وشرف الحضور ، ومنزلة المكاشفة من غير وصول إلى درجة المخاطب بالولاية ، والمفوض إليه الأمر ، ولذلك هذا السالك المذكور إذا وصل فى طريقه ذلك ، بحيث يصل بالمكاشفة والمشاهدة واليقين التام الذى يوجب المعرفة والعلم بتفاصيل المعلوم ، فلا يمتنع أن يسمع مايوحى لغيره من غير أن يقصد هو بذلك ، إذ هو محل سماع الوحي على الدوام ، وموضع الملائكة ، وكفى بها أنها الحضرة الربوبية ، وموسى عليه السلام مااستحق الرسالة والنبوة ، ولا استوجب التكليم وسماع الوحي مقصودا بذلك ، بحلوله فى هذا المقام الذى هو المرتبة الثالثة فقط ، بل قد استحق ذلك بفضل الله تعالى حين خصه بمعنى آخر ترقى إلى ذلك المقام أضعافا ، فجاوز المرتبة الرابعة ، لأن آخر مقامات الأولياء أول مقامات الأنبياء ، وموسى عليه السلام نبي مرسل ، فمقامه أعلى بكثير مما نحن آخذون فى أطرافه لأن هذا المقام الذى هو المرتبة الثالثة ، ليست من غايات مقام الولاية بل هو إلى مباديها أقرب منه إلى غايتها ، فمن لم يفهم درجات المقام ، وخصائص النبوة ، وأحوال الولايات كيف يتعرض للكلام فيها ، والطعن على أهلها ، هذا لا يصلح إلا لمن لا يعرف أنه مؤاخذ بكلامه ، محاسب بظنه ويقينه ، مكتوب عليه خطراته ، محفوظ عليه لحظاته ، مخلصا منه يقظاته وغفلاته فـ (مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ [1])

فإن قلت : أراك قد أوجبت له نداء الله تعالى ، ونداء كلامه ، والله تعالى يقول (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُم مَّنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ [2]) فقد نبه أن تكليم الله تعالى لمن كلمه من الرسل إنما هو على سبيل المبالغة فى التفضيل ، وهذا لا يصلح أن يكون لغيره ليس بنبي ولا رسول ، وإذا بان السبب وقصد

---

(1) ق : ١٨ (2) البقرة : ٢٥٣

بادر الشك العارض فى مسالك الحقائق فنقول : ليس فى الآية مايرد ماقلنا ، ولا يكسره لأنا ماأوجبنا أنه كامه قصدا ولا توخاه بالخطاب عمدا

وانما قلنا يجوز أن يسمع ما يخاطب الله تعالى به غيره مما هو أعلى منه أليس من يسمع كلام إنسان مثلا مما يتكلم به غير السامع فيقال فيه إنه كليمه وقد حكي أن طائفة من بنى إسرائيل سمعوا كلام الله تعالى الذى خاطب به موسى حين كلمه ثم اذا ثبت ذلك لم يجب لهم به درجة موسى عليه السلام ولا المشاركة فى نبوته ورسالته على أنا نقول نفس ورود الخطاب إلى السامعين من الله تعالى ، عكن الاختلاف فيه فيكون النبي المرسل يسمع كلام الله تعالى عز وجل الذاتى القديم ، بلا حجاب في السمع ، ولا واسطة بينه وبين القلب ، ومن دونه يسمعه على غير تلك الصورة ، مما يلقى فى روعه ، ومما ينادى به فى سمعه أو سره ، وأشباه ذلك كما ذكر أن قوم موسى عليه السلام ، حين سمعوا كلام الله سبحانه مع موسى أنهم سمعوا صوتا كالشبور وهو القرءان ، فاذا صح ذلك فبتباين المقامات أختلف ورود الخطاب ، فموسى سمع كلام الله بالحقيقة الذى هو صفة له بلا كيف ولا صورة نظم الحروف ، ولا أصوات ، والذين كانوا معه أيضا ، سمعوا صوتا مخلوقا جعل لهم علامة ودلالة على صحة التكليم وخلق الله سبحانه لهم بذلك العلم الضرورى ، وسمى ذلك الذى سمعوه كلامه ، إذ كان دلالة عليه ، كما تسمى التلاوة وهي الحروف المتلو بها القرءان كلام الله تعالى إذ هي دلالة عليه

فان قلت : فما يبقى على السامع إذا سمع كلام الله تعالى الذى يستفيد معرفة وحدانيته وفقه أمره ونهيه ، وفهم مراده وحكمه ، يلحقه العلم الضروري فيما أرى بأنه الشيء المرسل ، إلا بأن يشتغل بإصلاح الخلق دورته ، ولو كان عوضا منه أخر عنه ومقامه مقامه

فاعلم أن الذى أوجب عثورك ودوام زللك ، واعتراضك على العلوم بالجهل ، وعلى الحقائق بالخيال ، أنك بعيد عن غور المطالب ، قعيد فى شرك المعاطب ، تعيد صوب الصوت ، عتيد صخب السحاب ، إن الذى استحق به الناظر السالك الواصل المرتبة الثالثة سماع نداء الله تعالى معنى ومقام وحال وخاصـــة أعلى من تلك الأولى وأجل وأكبر ، وبينهما مابين من استحق المواجهة بالخطاب والقصد به ، وبين من لايستحق أكثر من

سماعه من يخاطب به غيره ، فهذا من الإشارة باختلاف ورود الخطاب إليهما ، مما يوجب نفورا ، وتباين ما بينهما ، فإن فهمت الآن وإلا فقد عني لاندر بحبال .

فإن قيل : ألم يقل الله تعالى (فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَسُولٍ [1]) وسماع كلام الله تعالى بحجاب أو بغير حجاب ، وعلم مافي الملكوت ومشاهدة الملائكة ، وما غاب عن المشاهدة والحس من أجل الغروب ، فكيف يطلع عليها من ليس برسول ؟

قلنا : في الكلام حذف يدل على صحة تقديره الشرع الصادق ، والمشاهدة الصورية ، أن يكون معناه إلا من ارتضى من رسول ، ومن اتبع الرسول بالإخلاص والاستقامة أو عمل بما جاء به ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال « اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ » وهل يبقى إلا ما غاب عنه أن ينكشف إليه ، وقال « إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مُحَدَّثُونَ فَعُمَرُ » أو كما قال « الْمُؤْمِنُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ » وفي القرءان العزيز (قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ [2]) فعلم ما غاب عن غيره من إمكان بيان ما وعد به ، وأراد أنه قدر عليه ، ولم يكن نبيا ولا رسولا ، وقد أنبأ الله سبحانه وتعالى عن ذي القرنين من إخباره عن العلوم الغيبية ، وصدقه فيه حين قال (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا [3]) وإن كان وقع الاختلاف في نبوة ذي القرنين فالإجماع على أنه ليس برسول ، وهو خلاف المسطور في الآية ، وإن رام أحد المدافعة بالاحتيال لما أخبر به ذو القرنين ، وما ظهر على يدي الذي كان عنده علم من الكتاب ، وأراد أن يجوز على عمر التشبه بالحقائق ، فما يصنع فيما جرى للخضر ، وما أنبأ الله سبحانه ، وأظهر عليه من العلوم الغيبية ، وهو بعد أن يكون نبيا فليس برسول على الوفاق من الجميع والله تعالى يقول (إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَسُولٍ [4]) فدل على أن في الآية حذف مضاف معناه ما تقدم

وانظر الى ما ظهر من كلام سعد رضي الله عنه ، أنه يرى الملائكة وهو غيب الله وأعلم أبو بكر بما في البطن وهي من غيب الله ، وشواهد الشرع كثيرة جدا ، يعجز

(١) الجن : ٢٦ (٢) النمل : ٤٠ (٣) الكهف : ٩٨ (٤) الجن : ٢٦

المتأول ويلهو المعاند ، هذا والقول بتخصيص العموم أظهر من الجراءة وأشهر مما نقل الكافة ويحتمل أن يكون المراد فى الآية بالرسول المذكور فيها ملك الوحي ، الذي بواسطته تنجلي العلوم وتنكشف الغيوب ، فمتى لم يرسل الله ملكا بإعلام غيب ، أو يخاطب مشافهة أو إلقاء معنى فى روع ، أو ضرب مثل فى يقظة أو منام ، لم يكن إلى علم ذلك الغيب سبيل ، ويكون تقدير الآية ، فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول أن يرسله إلى من يشاء من عباده فى يقظة أو منام ، فإنه يطلع على ذلك أيضا ، ويكون فائدة الإخبار بهذا فى الآية ، الامتنان على من رزقه الله تعالى علم شيء من مكنوناته وإعلامه أنه لاتصل إليها نفسه ، ولا مخلوق سواه إلا بالله تعالى ، حين أرسل إليه الملك بذلك ، وبعثه الله حتى يتبرأ المؤمن من حوله ومن حول كل مخلوق وقوته ، ويرجع إلى الله تعالى وحده ، ويتحقق على أنه لايرد عليه شيء من علم ، أو معرفة ، أو غير ذلك إلا بإرادته ومشيئته ، ويحتمل وجه آخر ، وهو أن يكون معناه والله أعلم ، فلايظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى ، يريد من سائر خلقه ، وأصناف عباده ، ويكون معنى من رسول أي عن يد رسول من الملائكة

فصل

ومعنى ولايتخطى رقاب الصديقين إن قلت : ماالذى أوصله إلى مقامهم ، أو جاوز به ذلك ، وهو فى المرتبة الثالثة حال المقربين ماوصل حيث ظننت ، فكيف يجاوزه ؟ وإنما خاصية من هو فى رتبة الصديقين عدم السؤال ، لكثرة التحقق بالأحوال ، وخاصية من هو فى رتبة القرب كثرة السؤال ، طمعا فى بلوغ الآمال ، ومثالهما فيما أشير اليه مثال إنسانين دخلا فى بستان ، أحدهما : يعرف جميع أنواع نبات البستان ، ويتحقق أنواع تلك الثمار ، ويعلم أسماءها ومنافعها ، فهو لايسأل عن شيء مما يراه ، ولايحتاج إلى أن يخبر به ، والثانى لايعرف مما رأى شيئا ، أو يعرف بعضا ويجهل أكثر مما يعرف ، فهو يسأل ليصل إلى علم الباقى ، وذلك من تكلمنا عليه حين أكثر السؤال عما يبعد عنه حاله ويتخلف عن مقامه إلى ماهو أعلى منه ، وكان غير مراد لذلك إما فى ذلك الوقت أو الأبد

وتلك العلوم التى كانت لاتنال بالكسب ، وإنما تنـال بالمنح ، فقيـل له لاتتخط رقاب الصديقين بالسؤال ، فذلك مما لايخطر به ، وليس هو من الطرق الموصلة إلى مقامهم فارجع إلى الصديق الأكبر، فاقتد به فى حاله وسيرته ، فمسالك ترزق مقامه ، فإن لم يكن فتبقى على حالة القرب وهي تتلو الصدّيقية ، فهذا معناه

فصل

ومعنى انصراف السالك الناظر بعد وصوله إلى ذلك الرفيق الأعلى ، إما أنه لما وصل إليه بالسؤال صرف إليه مالاق به من الأحوال ليحكم ما بقى عليه من الأعمال ، كما قال المصطفى صلى الله عليه وسلم للذى سأله أن يعلمه غرائب العلم ، « إِذْهَبْ فَأَحْكِمْ مَا هُنَاكَ وَبَعْدَ ذَلِكَ أُعَلِّمُكَ غَرَائِبَ الْعِلْمِ » وأما صفة انصرافه فإنه نهض بالبحث ورجع بالتذكر وفوائد المزيد ووجهه أن من لم يستطع المقام فى ذلك الموضع بعد وصوله إليه فذلك لتعلق خبر المعرفة بالبدن ، ومسكنه عالم الملك ، ولم يفارقه بعد الموت وطول الغيب عنه لايمكن فى العادة ، ولو أمكن لهلك الجسم وتفرقت الأوصال ، والله تعالى أراد عمارة الدنيا : وقد سبق فى علمه ولن تجد لسنة الله تبديلا ، ومعنى قول أبى سليمان الدارانى لو وصلوا ما رجعوا مارجع إلى حالة الانتقاص من وصل إلى حالة الإخلاص والذى طمع الناظر فى الحصول فيه سؤاله وتماديه إلى حال القرب منه إذا لم يصلح لذلك ولم يصف ولم يخلص أعماله

فصل

ومعنى بأن ليس فى الإمكان أبدع من صورة هذا العالم ، ولا أحسن ترتيبا ، ولا أكمل صنعا ، ولو كان وادخره مع القدرة كان ذلك بخلا ، يناقض الكرم الإلهي ، وإن لم يكن قادرا عليه كان ذلك عجزا ، يناقض القدرة الإلهية ، فكيف يقضى عليه بالعجز فيما لم يخلقه اختيارا ، وكان ذلك ولم ينسب إليه ذلك قبل خلق العالم ، ويقال ادخار إخراج العالم من العدم إلى الوجود عجز مثل ماقيل فيما ذكرنا ، وما الفرق بينهما ، وذلك لأن تأخيره بالعالم

قبل خلقه عن أن يخرجه من العدم إلى الوجود يقع تحت الاختيار الممكن ، من حيث إن الفاعل المختار له أن يفعل فإذا فعل فليس فى الإمكان أن يفعل إلا نهاية ماتقتضيه الحكمة التي عرفنا أنها حكمة ، ولم يعرفنا بذلك إلا لنعلم مجارى أفعاله ، ومصادر أموره ، وأن نتحقق أن كل مااقتضاه ويقضيه من خلقه ، بعلمه ، وإرادته ، وقدرته أن ذلك على غاية الحكمة ، ونهاية الاتقان ، ومبلغ جودة الصنع ، ليجعل كمال ماخلق دليلا قاطعاً ،وبرهانا على كماله فى صفات جلاله الموجبة لإجلاله فلو كان ماخلق ناقصا بالإضافة إلى غيره ماقدر على خلقه ، ولو لم يخلق لكان يظهر النقصان المدعى على هذا الوجود من خلقه ، كما يظهر على ماخلقه على غير ذلك ، ويكون الجميع من باب الاستدلال على ماصنع من النقصان قطعا ، وما يحمل عليه من القدرة على أكمل منه ظنا ، إذ خلق للخلق عقولا وجعل لهم فهوما ، وعرفهم ماأمكن ، وكشف لهم ماحجب وأجن ، فيكون من حيث عرفهم بكماله دلهم على نقصه ، ومن حيث أعلمهم بقدرته بصرهم بعجزه ، فتعالى الله رب العالمين ، الملك الحق المبين .

وأيضا فلا يعترض هنا ويتزر به ، إلا من لايعرف مخلوقاته ، ولم يصرف الكلام الصحيح فى مشابه ذلك أصلا فى العلم ، أو كان نسخا له ومعنى نقيس عليه غيره ، وأما انكشافه بخير ممن رزق علم ذلك كان بطلان العلم فى حق المخبر ، إذ أفشاه لغير أهله ، وأهداه لمن لايستحقه ، كما روي عن عيسى على نبينا وعليه السلام ، لاتعلقوا الدر فى عناق الخنازير ، وإنما أراد قطاع العلم غير أهله ، وقد جاء لاتمنعوا الحكمة أهلها ، فتظلموهم ، ولا تضعوها عند غير أهلها فتظلموها .

وأما سر العلم الذى يوجب كشفه بطلان الأحكام ، فإن كان كشفه من الله سبحانه لقلوب ضعيفة بطلت الأحكام ، فى حقها لمن يطلع عليه فى ذلك السر من معرفة مآل الأشياء ، وعواقب الخلق ، وكشف أسرار العباد ، وما يظن من مقدور ، فمن عرف نفسه مثلا أنه من أهل الجنة لم يصل ، ولم يصم ، ولم يتعب نفسه فى خير ، وكذلك لو انكشف له أنه من أهل النار ، كل انهما كه فلا يحتاج إلى تعب زائد ، ولا تصيبه مكابدة ، فلو عرف كل واحد عاقبته وما له بطلت الأحكام الجارية عليه ، وإن كان كشفها من مخبر

استروح الضعيف إلى مايسمع من ذلك ، فيتعطل وينخرم حاله ، وينحل قيده ، وبعد هذا فلا يحمل كلام سهل إلا على مايقدر لا على مايوجد ، ولذلك جعله مقرونا بحرف لو ، الدال على امتناع الشيء ، لامتناع غيره ، كما يقال : لو كان للإنسان جناحان لطار ، ولوكان للسماء درج لصعد عليها ، ولو كان البشر ملكا لفقد الشهوات ، فعلى هذا يخرج كلام سهل فى ظاهر العلم .

فصل

وأما خطاب العقلاء للجمادات فغير مستنكر فقديماً ندب الناس الديار ، وسألوا الأطلال واستخبروا الآثار وقد جاء فى أشعار العرب وكلامها من ذلك كثير وفى حديث النبي صلى الله عليه وسلم « أُسْكُنْ أُحُدُ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ » وقال بعضهم : اسأل الأرض تخبرك عمن شق أنهارها ، وفجر بحارها ، وفتق أهواءها ، ورتق أحواءها وأرسى جبالها ، إن لم تجبك أجابتك اعتباراً ، وإنما الذى يتوقف على الأذهان ويتحير فى قوله السامعون ، وتتعجب منه العقول ، هو كيفية كلام الجمادات والحيوانات الصامتات ، ففى هذا وقع الإنكار ، إذ اضطرب النظار ، وكذب فى تصحيح وجوده والسمع من الاعتبار ، ولكن لتعلم أن تلقى الكلام للعقلاء ، ممن لم يعقل عنه فى المشهود يكون على جهات ، من ذلك سماع الكلام الذاتي ، كما تتلقى من أهل النطق إذا قصدوا إلى نظم اللفظ ، وذلك أكثر ما يكون للأنبياء والرسل صلوات الله عليهم فى بعض الأوقات ، كحنين الجذع للنبي صلى الله عليه وسلم ، وكان حجر يسلم عليه فى طريقه قبل مبعثه

ومنها تلقى الكلام فى حسن السامع من غير أن يكون له وجود من خارج الحس ، ويعترى هذا سائر الحواس ، كمثل مايسمع النائم فى منامه ، من مثال شخص من غير مثال والمثال المرئى للنائم ليس له وجود فى سمعه ، وأما مايجده غير النائم فى اليقظة فمنها خاصة وعامة ، فقد ورد أن الحجر فى زمن عيسى ينادي المسلم يامسلم خلفى يهودي فاقتله ، وان لم يخلق الله تعالى للحجر حياة ونطقا ، ويذهب عنه معنى الحجرية ؛ أو يوكل بالحجر من يتكلم عنه ممن يستتر عن الأبصار فى العادة من الملائكة والجن ، أو يكون كلام يخلقه الله

عز وجل فى أذن السامع ، ليفيده العلم باختفاء اليهودي ، حتى يقتله وكما يقال فى العرض الأكبر يوم القيامة ، إذا نودي فيه باسم كل واحد على الخصوص ، وفى الخلائق مثل اسم المنادى به كثير ، وقد قالت العلماء : انه لايسمع النداء فى ذلك الجمع إلا من نودى ، فيحتمل أن يكون ذلك النداء يخلق للمنادى فى حاسة أذنه ليتحرك إلى الحساب وحده دون من يشاركه فى اسمه ، ولا يكون نداء من خارج ، والأمثلة كثيرة في الشرع ، وفيما سمعت غنية ومقنع .

ومنها تلقى الكلام فى العقل ، وهو المستفاد بالمعرفة ، المسموع بالقلب ، المفهوم بالتقدير على اللفظ المسمى بلسان الحال كما قال قيس :

وأجهشت للتوادد حين رأيته وكبر للرحمن حيث رآنى
فقلت له أين الذين عهدتهم حواليك فى عيش وخفض زمان
فقال مضوا واستودعونى بلادهم ومن الذى يبقى على الحدثان

وفى أمثال العوام قال الحائط للوتد لم تشقنى ؟ فقال الوتد للحائط سل من يدقنى ، فلو كانت العبارة تتأتى منها ماعبرت إلا بما قد استعير لها ، وعلى هـذا المعنى حمل كثير من العلماء قوله تعالى إخبارا عن السماء والأرض حين (قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ [1]) وفى قوله تعالى (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا [2]) ومنها تلقى الكلام من الجبال مثل قوله صلى الله عليه وسلم « كَأَنِّى أَنْظُرُ إِلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَيْهِ عَبَاءَتَانِ قَطْوَانِيَّتَانِ يُلَبِّي وَتُجِيبُهُ الْجِبَالُ وَاللهُ يَقُولُ لَبَّيْكَ يَا يُونُسُ » فقوله كأنى يدل على أنه تخيل حالة سبقت لم يكن لها فى الحال وجود ذاتي ، لأن يونس بن متى عليه السلام قد مات ، وتلك الحالة منه سالفة ، وفى هـذا الحديث منه إخبار عن الوجود الخيالي فى البصر ، والوجود الخيالي فى السمع .

ومنها تلقى الكلام بالشبه ، وهو أن يسمع السامع كلاما أو صوتا من شخص حاضر ، فيلقي عليه شبه غيره مما غاب عنه ، كقوله عليه السلام فى صوت أبى موسى

[1] فصلت : ١١ [2] الأحزاب : ٧٢

الأشعرى ، إذ سمعه يترنم بالقرءان « لَقَدْ أُعْطِيَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ »
ومزامير آل داود قد عدمت وذهبت ، وإنما شبه صوته بها ، وكما إذا سمع المريد صوت
مزمار ، أو عود فجأة على غير قصد ، يتخيل صرير أبواب الجنة وشبهها ، بما فجأ صوته
من ذلك

فهذه مراتب الوجود ، فأنت إذا أحسنت التصرف بين أساليبها ، ولم يعترك غلط فى
بعضها ببعض ، ولا اشتبهت عليك ، وسمعت عمن نظر بمشكاة نور الله تعالى إلى كاغد ،
وقد رآه أسود وجهه بالحبر ؛ فقال له ما بال وجهك وقد كان أبيض أشقر مونقا ، والآن
قد ظهر فيه السواد ، فلم سوّدت وجهك ؟ فقال : سل الحبر فإنه كان مجموعا فى المحبرة التى
هي مستقره ووطنه ، فسافر عن الوطن ، ونزل بساحة وجهى ظلما وعدوانا ، فقال :
صدقت ، ثم أنت إذا سمعت أمثال هذه المراجعات اعمل الفكر ، وجدد النظر ، وحل
الكلام إلى أجزائه التى ينتظم منها جملة ما بلغك ، فسأل عن معنى الناظر ، ومعنى المشكاة
ومعنى نور الله سبحانه ، وما سبب أنه لم يعرف الناظر الكتابة والمكتوب ، و بأي لسان
خاطب الكاغد ؛ وكيف مخاطبة الكاغد ، وهو ليس من أهل النطق ، وفيما صدق الناطق
الكاغد ، ولم صدقه بمجرد قوله دون دليل ولا شاهد ، فيبدوا لك ههنا من الناظر هو ناظر
القلب ، فيما أورده عليه الحس ؛ والمشكاة استعارة من مشكاة الزجاجة ، التى أعمرت بسراج
النار إلى خير المعرفة الملقب بسر القلب ، شبهها بها ، لأنها مسرجة الرب سبحانه وتعالى
شعلها بنوره ، ونوره المذكور ههنا عبارة عن صفاء الباطن ، واشتعال السر بطلوع نيران
كواكب المعارف الذاهبة بإذن الله تعالى ، ظلم جهالات القلوب ، ووجه إضافته إلى الله
تعالى على سبيل الإشارة بالذكر لأجل التخصيص بالشرف ، والكاغد والحبر كناية عن
أنفسهما لا عن غيرهما ، وجعلهما مبدأ طريقه ، وأول سلوكه ، إذ هما فى عالم الملك والشهادة
الذى محل جولة الناظر فى حال نظره ، وأما سبب أنه لم يعرف الكتابة والمكتوب
فلأجل أنه كان أميا لا يقرأ الكتاب الصناعى ، وإنما يروم معرفة قراءة الخط الالهى ،
الذى هو أبين وأدل على الفهم منه ، وأما مخاطبة الناظر الكاغد وهو جماد ، فسبق الكلام
على مثله ، ومراجعة الكاغد له ، فعلى قدر حال الناظر إن كان مرادا فباقى الكلام فى الحس

بما ينبئه عن المطلوب من الحق ، وهو من باب الإلقاء فى الروع فيودعه الحس المشترك المحفوظ فيه على الإنسان صور الأشياء المحسوسة ، وإن كان مريدا فيتلقاه بلسان الحال المسموع بسمع القلب بواسطة المعرفة ، والعقل ، وتصديق الناظر للكاغد فى عذره وإحالته على الحبر ، لم يكن لمجرد قوله بل بشهادة أولى الرضا والعدل ، وهو البحث ، والتجربة لم تكن ، وشهادة النفس وهذا يسلك إلى القدرة وهو آخرها ، سئل عن أجزاء عالم الملك

عالم الجبروت

وأما ماسمعته فى حد عالم الجبروت ، فذلك من القدرة المحدثة إلى العقل ، والعلم ، الموجودين فى الإنسان المستقرة فى القوة الوهمية المدركة جميع مالا يستدعى وجوده جسما ولكن قد يعرض له أنه فى جسم ، كما تدرك السخلة عداوة الذئب ، وعطف أمها ، فتتبع العطف وتنفر من العداوة .

عالم الملكوت

وأما ماسمعته فى حد عالم الملكوت ، وذلك من العلم الالهي إلى ماوراء ذلك مما هو داخل فيه ، ومعدود منه فسر القلب الذى يأخذ به عن الملائكة ، ويسمع به مابعد مكانه ورق معناه ، وعزب عن القلوب من جهة الفكر بصوره ، فأما أي شىء حقائق هذه المذكورات ، وما كنه كل واحد منها ، على نحو معرفتك لا جزاء عالم الملك والشهادة فذلك علم لا ينتفع بسماعه مع عدم المشاهدة ، والله قد عرفك باسمائها ، فإن كنت مؤمنا فصدق بوجودها على الجملة ، لعلمك أنك لا تخبر بتسميات ليس لها مسميات ، إلى أن يلحقك الله بأولى المشاهدة وتحصل خالص الكرامات ، ومن كفر فإن الله غني حميد

فصل

والفرق بين العلم المحسوس فى عالم الملك وبين العلم الالهي فى عالم الملكوت ، أن العلم كما اعتقدته مجسما ، بطيء الحركة بالفعل سريع الإنتقال بالهلاك ، مخلفا عن مثله فى الظاهر مجعولا تحت قهر سلطان الآدمي الضعيف الجاهل فى أكثر أوقاته ، متصرف بين أحوال متنافية كالعلم ، والجهل ، والعدل ، والظلم ، والشك ، والصدق ، والإفك ، فالعلم الالهي عبارة عن خلق الله فى عالم الملكوت مختص بخلاف خصائص الجواهر الحسية الكائنة فى عالم الملك : يري من أوصاف ماسمي به القلم المحسوس كليا ، مصرفا يتميز الخالق بحكم

إرادته على ماسبق به علمه فى أزل الأزل ، وإنما سمي بهذا الاسم لأجل شبهه بعمل ماسمي به ، غير أنه لايكتب إلا حقائق الحق ، والفرق بين يمين الآدمي ويمين الله عز وجل ، أن يمين الآدمى كما علمت مركبة من عصب استقصى بقاؤها ، وعضل تمضل أدواؤها ، وعظام يعظم بلاؤها ، ولحم ممتد ، وجلد غير جلد ، موصولة كمثلها فى الضعف والانفعال ، ملاقية باليد وهي عاجزة على كل حال ، ويمين الله تعالى هي عند بعض أهل التأويل ، عبارة عن قدرته ، وعند بعضهم صفة لله تعالى غير قدرة وليست بجارحة ولا جسم ، وعند آخرين إنها عبارة عن خاق لله واسطة بين القلم الالهى ، النائش الملوم ، المحدثة وغيرها ، ويين قدرته التى هى صفة له صرف بها اليمين الكاتبة بالقلم المذكور بالخط الإلهى المثبوت على صفحات المخلوقات الذى ليس بعربي ولا عجمي ، يقرؤه الأميون إذا شرحت صدورهم وتستعجم على القارئين إذا كانوا عبيد شهواتهم ولم يشارك يمين الآدمي إلا فى بعض الأسماء ، لأجل الشبه اللطيف الذى بينهما بالفعل ، وتقريبا إلى كل ناقص الفهم عساه يعقل ماأنزل على رسل الله تعالى من الذكر

فصل

وحد عالم الملك ماظهر للحواس ، ويكون بقدرة الله تعالى بعضه من بعض ، وصحة التعبير ، وحد عالم الملكوت ماأوجده سبحانه بالأمر الازلى بلا تدريج ، وبقي على حالة واحدة من غير زيادة فيه ولانقصان منه ، وحد عالم الجبروت : هو مابين العالمين مما يشبه أن يكون فى الظاهر من عالم الملك ، فخيز بالقدرة الأزلية بما هو من عالم الملكوت

فصل

ومعنى إن الله خلق آدم على صورته ، فذلك على ماجاء فى الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وللعلماء فيه وجهان :

فمنهم من يرى للحديث سببا ، وهو أن رجلا ضرب غلامه فرآه النبي صلى الله عليه وسلم فنهاه وقال « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ » وتأولوا عود الضمير على المضروب

على هذا لا يكون للحديث مدخل فى هذا الموضع لم يرده مورد آخر فى غير هذا الموطن ويكون الإيمان به إلى غير هذا المعنى المذكور فى السبب الحادث ،واثباته فى غير موطن ذلك السبب المنقول مما يعز ويعسر ، فليبق المسبب على حاله ولينظر فى وجه الحديث غير هذا مما يحتمل ويحسن الاحتجاج به فى هذا الموطن

والوجه الآخر : أن يكون الضمير الذى فى صورته عائدا إلى الله سبحانه ، ويكون معنى الحديث ، أن الله خلق آدم على صورته ، هي إلى الله سبحانه ، وهذا العبد المضروب على صورة آدم ، فاذا هذا العبد المضروب على الصورة المضافة إلى الله تعالى ، ثم ينحصر بيان معنى الحديث ، ويتوقف على بيان معنى هذه الإضافة ، وعلى أي جهة يحمل فى الاعتقاد العامي على الله سبحانه ففيها وجهان

أحدهما : أن إضافته إضافة ملك إلى الله تعالى كما يضاف إليه العبد والبيت والناقة ، واليمين على أحد الأوجه .

والوجه الآخر :أن تكون إضافة تخصيص به تعالى ، فمن حملها على إضافة الملك له رأى أن المراد بصورته هو العالم الأكبر بجملته، وآدم مخلوق على مضاهاة صورة العالم الأكبر لكنه مختصر صغير ، فإن العالم إذا فصلت أجزاؤه بالعلم ، وفصلت أجزاء آدم عليه السلام بمثله وجدت أجزاء آدم عليه السلام مشابهة للعالم الأكبر ، وإذا شابهت أجزاء جملة أجزاء جملة فالجملتان بلاشك متشابهتان ،فالذى نظر فى تحليل صورة العالم الأكبر فقسمه على أنحاء من القسمة ، وقسم آدم عليه السلام ، كذلك فوجد كل نحوين منهما شبيهين ، فمن ذلك أن العالم ينقسم إلى قسمين، أحد القسمين: ظاهر محسوس كعالم الملك،والثانى: باطن معقول كعالم الملكوت ، والإنسان كذلك ينقسم إلى ظاهر محسوس ، كالعظم واللحم والدم وسائر أنواع الجواهر المحسوسة ، وإلى باطن ، كالروح والعقل والعلم والإرادة والقدرة وأشباه ذلك

وقسم آخر : وذلك أن العالم قد انقسم بالعوالم إلى عالم الملك : وهو الظاهر للحواس ، وإلى عالم الملكوت : وهو الباطن فى العقول ، وإلى عالم الجبروت : وهو المتوسط الذى أخذ بطرف من كل عالم منها ، والإنسان كذلك انقسم

إلى ماشابه هذه القسمة ، فالمشابه لعالم الملك الأجزاء المحسوسة ، وقد علمتها والمشابهة لعالم الملكوت ، فمثل الروح والعقل والقدرة والإرادة وأشباه ذلك ، والمشابه لعالم الجبروت فكالإدراكات الموجودة بالحواس ، والقوى الموجودة بأجزائه ،

والوجه الثاني : أن يكون معناه كفرا للسامع لا للمخبر ، بخلاف الوجه الأول ، ويكون هذا مطابقا لحديث النبي صلى الله عليه وسلم « لَا تُحَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا لَمْ تَصِلْهُ عُقُولُهُمْ أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ » فمن حدّث أحدا بما لم يصله عقله ، ربما سارع إلى التكذيب ، وهو الأكثر ، ومن كذب بقدرة الله تعالى وبما أوجدتها ، فقد كفر ولو لم يقصد الكفر ، فإن أكثر اليهود والنصارى وسائر الكفار ماقصدت الكفر ولا تظنه بأنفسها ، وهي كفار بلا ريب ، وهذا وجه واضح قريب ، ولا تلتفت إلى ما مال إليه بعض من لا يعرف وجوه التأويل ، ولا يعقل كلام أولى الحكمة والراسخين في العلم ، حين ظن أن قائل ذلك أراد الكفر الذى هو نقيض الإيمان والإسلام بتعلق مخبره وتلحق قائله وهذا لا يخرج إلا على مذاهب أهل الأهواء ، الذين يكفرون بالمعاصى وأهل السنن لا يرضون بذلك ، وكيف يقال لمن آمن بالله واليوم الآخر ، وعبد الله بالقول الذى ينزه به ، والعمل الذى يقصد به المتعبد لوجهه ، الذى يستزيد به إيمانا ومعرفة له سبحانه ثم يكرمه الله تعالى على ذلك بفؤاد المزيد ، وينيله ماشرف من المنح ، ويريه أعلام الرضا ، ثم يكفره أحد بغير شرع ولا قياس عليه ، والإيمان لا يخرج عنه إلا بنبذه وإطراحه وتركه ، واعتقاد مالا يتم الإيمان معه ، ولا يحصل بمقارنته وليس في إفشاء سر الولي مايحصل به تناقض الإيمان ، اللهم إلا أن يريد بإفشائه وقوع الكفر من السامع له ، فهذا عاتٍ متمرد وليس بولي ، ومن أراد بأحد من خلق الله أن يكفر بالله فهو لامحالة كافر ، وعلى هذا يخرج قوله تعالى (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ [1]) ثم إنه من سب أحدا منهم على معنى مايجد له من العداوة والبغضاء ، قيل له أخطأت وأثمت من غير تكفير ، وإنه أيما فعل ذلك وسب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كافر بالإجماع

(١) الانعام : ١٠٨

سؤال

فإن قيل : فما معنى قول سهل رحمه الله تعالى : ونسب إليه للإلهية سر لو انكشف لبطلت النبوات ، وللنبوات سر لو انكشف لبطل العلم ، وللعلم سر لو انكشف بطلت الأحكام ، وجاء فى الإحياء على أثر هذا القول ، وقائل هذا القول إن لم يرد به إبطال النبوة فى حق الضعفاء ، فما قالوا ليس بحق ، فإن الصحيح لايتناقض ، والكامل من لايطفىء نور معرفته نور ورعه ، وهـذا وإن لم يكن من الأسئلة المرسومة فهو متعلق بها بما فرع من الـكلام فيها آنفا ، وناظر إليه إذا ماأدى إفشاؤه إلى إبطال النبوة والأحكام والعلم كفر

فالجواب إن الذى قاله رحمه الله وإن كان مستعجما فى الظاهر ، فهو قريب المسلك بادٍ للمتأمل الذى يعرف مصادر أغراضهم ، ومسالك أفوالهم الإلهية ، ومن وصل إليه اليقين الذى لولاه لم يكن نبيا ، لايخلو أن يكون انكشافه من الله بما يطلع على القلوب من أنوار الشمس ، التى هي غائبة عنها ، بأن كانت القلوب ضعيفة طرأ عليها من الدهش والاصطلام والحيرة والتيه مايبهر العقول ، ويفقد الحس ، ويقطع عن الدنيا وما فيها ، وذلك لضعفه ، ومن انتهى إلى هذه الحالة فتبطل النبوة فى حقه أن يعرفها ، أو يعقل ماجاء من قبلها إذ قد شغله عنها ماهو أعظم لديه منها ، وربما كان سبب موته لعجزه عن حمل مايطرأ عليـه ، كما حكي أن شابا من سالـكى طريق الآخرة ، عرض عليـه أبو يزيد ، ولم يره من قبل ، فلما رآه انكشف له ذلك ، وكان فى مقام الضعفاء من المريدين ، فلم يطق حمله فمات به ، وإما أن يكون انـكشافه من عالم به على وجه الخبر عنه فتبطل النبوة فى حق المخبر ، حين نهى أن لايفشى فأفشى ، أو أمر أن لايتحدث فلم يفعل ، فخرج بهذه المعصية عن طاعة النبي صلى الله عليه وسلم فيها ، فلهذا قيل فى ذلك بطلت النبوة فى حقه

فإن قيل : فلم لاتـكفروه على هذا الوجه ، إذا بطلت النبوة فى حقه بإخباره

قلنا : ما بطلت فى حقه جميعا ، وإنما بطل فى حقه منهـا ما خالف الأمر الثابت من قبلها ، ويعدّ هذا من الـكلام على تغليظ حق الإفشاء ، وقد سبق الـكلام عليه فى معنى إفشاء سر الربوبية كفر ، وأما سر النبوة الذي أوجب العلم لمن رزقها ، أو رزق معرفتها

على الجملة ، إذ النبوة لا يعرفها بالحقيقة إلا نبي ، فإن انكشف ذلك لقاب أحد بطل العلم في حقه بارتفاع المحنة له ، بالأمر المتوجه عليه بطلبه ، والبحث عنه ، والتفكر فيه ، فيكون كالنبي إذا سئل عن شيء لو وقعت له واقعة لم يحتج إلى النظر فيها ، ولا إلى البحث عنها ، بل ينتظر ما عود من كشف الحقائق بإخبار ملك ، أو ضرب مثل ، يفهم عنه أو اطلاع على اللوح المحفوظ ، أو إلقاء في روع ، فيعود مخترعاته ولم يعلم مقدار الدنيا وترتيب الآخرة عليها ، ولا عرف خواصها ، ولا تنزه في عجائبها ، ولا لاحظ الملكوت ببصر قلبه ، ولا جاوز التخوم إلى أسفل من ذلك بسره ولبّه ، ولا فهم أن الجنة أعلى النعيم ، وأن النار أقصى العذاب الأليم ، وأن النظر إليه منتهى الكرامات ، وأن رضاه وسخطه غاية الدرجات والدركات ، وأن منح المعارف والعلوم أسنى الهبات ، ويرى أن العالم بأسره أخرجه من العدم الذي هو نفي محض إلى الوجود الذي هو إثبات صحيح ، وقدره منازل وجعله لميقات ، فمن حي وميت ، ومتحرك وساكن ، وعالم وجاهل ، وشقي وسعيد ، وقريب وبعيد ، وصغير وكبير ، وجليل وحقير ، وغني وفقير ، ومأمور وأمير ، ومؤمن وكافر ، وجاحد وشاكر ، وذكر وأنثى ، وأرض وسماء ، ودنيا وأخرى ، وغير ذلك مما لا يحصى ، والكل قائم به موجود بقدرته ، وباق بعلمه ، ومنته إلى أجله ، ومصرف بمشيئته ، وذلك على بالغ حكمته ، فما أكمل جهل من لا يجدبه إلا قدماه ، ولا من يصرفه إلا استبداده ، ولا ملكه إلا ملكه فيعود المحدث قديما ، والمربوب ربا ، والمملوك مالكا ، فيعود الخلق من خلق الله كهو ، تعالى الله عن جهل الجاهلين ، وتخييل المتوهين ، وزيغ الزائغين

فصل

وأما حكم هذه العلوم المكتوبة في الطلب وسلوك هذه المقامات ، ورفق هذه الدرجات ، واستفهام هذه المخاطبات ، أهي من قبيل الواجبات أو المندوبات أو المباحات

فاعلم أن المسئول عنه على ضربين ، أحدهما : ماهو في حكم المبادي ، والثاني : في حكم الغايات ، فأما الذي هو في حكم المبادي فطلبه فرض على كل أحد ، بقدر بذل المجهود ، وإفراغ الوسع ، وجميع مايقدر عليه من العبادة ، وذلك ماتضمنه أصول علم المعاملة ، مثل

إخلاص التوحيد، والصدق فى العمل، وعدم الإجحاف بالخوف والرجاء، والتزين بالصبر والشكر، لأن هذه كلها وما يتعلق بها من علم الأمر والنهي واجبة، قال الله تعالى (فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ [1]) وقد سبق التنبيه عليه، وأما الذى هو فى حكم الغايات مثل انقلاب الهيئات، والنظر بالتوفيق بحكم الموافقة والرضا بالإثبات، والتوكل بالتجريد، وحقيقة علم معانى التوحيد وسير معانى التقرير، وأوصاف أهل أبيات اليقين، فهو درجات ومقامات، ومنازل ومراتب، ومنح يخص الله تعالى بها من شاء من عباده، من غير أن ينال بطلب ولا بحث ولا تعليم، ولو كان ذلك لما قيل للناظر السالك حين أراد الارتقاء إلى درجة أعلى من درجته بلسان السؤال، ارجع لا تتخطى رقاب الصديقين، لكنها مواهب أكرم الله تعالى بها أهل صفوته، وولايته، وهي مراتب الصدق فى العلم، وبركات الإخلاص فى العمل، فمن لم يرث من علمه وعمله المفترض عليه، فطلبه والعمل به شتان من هذه المعانى، فليس فى شيء من الحقيقة، وإن كان حقا غير أن حاله معلول، إما مفتون بدنياه، أو محجوب بهواه، وربك على كل شيء قدير :

فصل

وأما لأي شيء ذكرت هذه العلوم بالإشارات دون العبارات، وبالرموز دون التصريحات، وبالمتشابه من الألفاظ دون المحكمات، وإن كان قد سبق هذا من الشارع فيما له أن يمتحن به من كلف، ويتلو من بعيد، ولكن للعلم رجال مخصوصون فما بال من لم يجعل شارعا، ولم يبعث لنير أن يسلك ذلك

والجواب عنه أن العالم هو وارث النبي صلى الله عليه وسلم، وإنما ورث العلم ليتجمل بعمله، ويحل فيه كمحله، والنبي صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحي، علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى، وحكم الوارث فيما ورث حكم الموروث فيما ورث عنه، فما عرف فيه الحكم من فعل الموروث عنه امتثله، ومالم يصل إليه فيه شيء كان له اجتهاده، فإن أخطأ كان له أجر، وإن أصاب كان له أجران

---

(1) التغابن : ١٦

ثم إن الوارث رأى النبي صلى الله عليه وسلم يصرح بعلوم المعاملات وأشار مما وراءها بما لا يفهمه إلا أرباب التخصيص ، كما قال الله عز وجل (وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ [1]) فلم يكن للوارث تعدّ عن حكم الموروث ، كما حكي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال . إني رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاءين

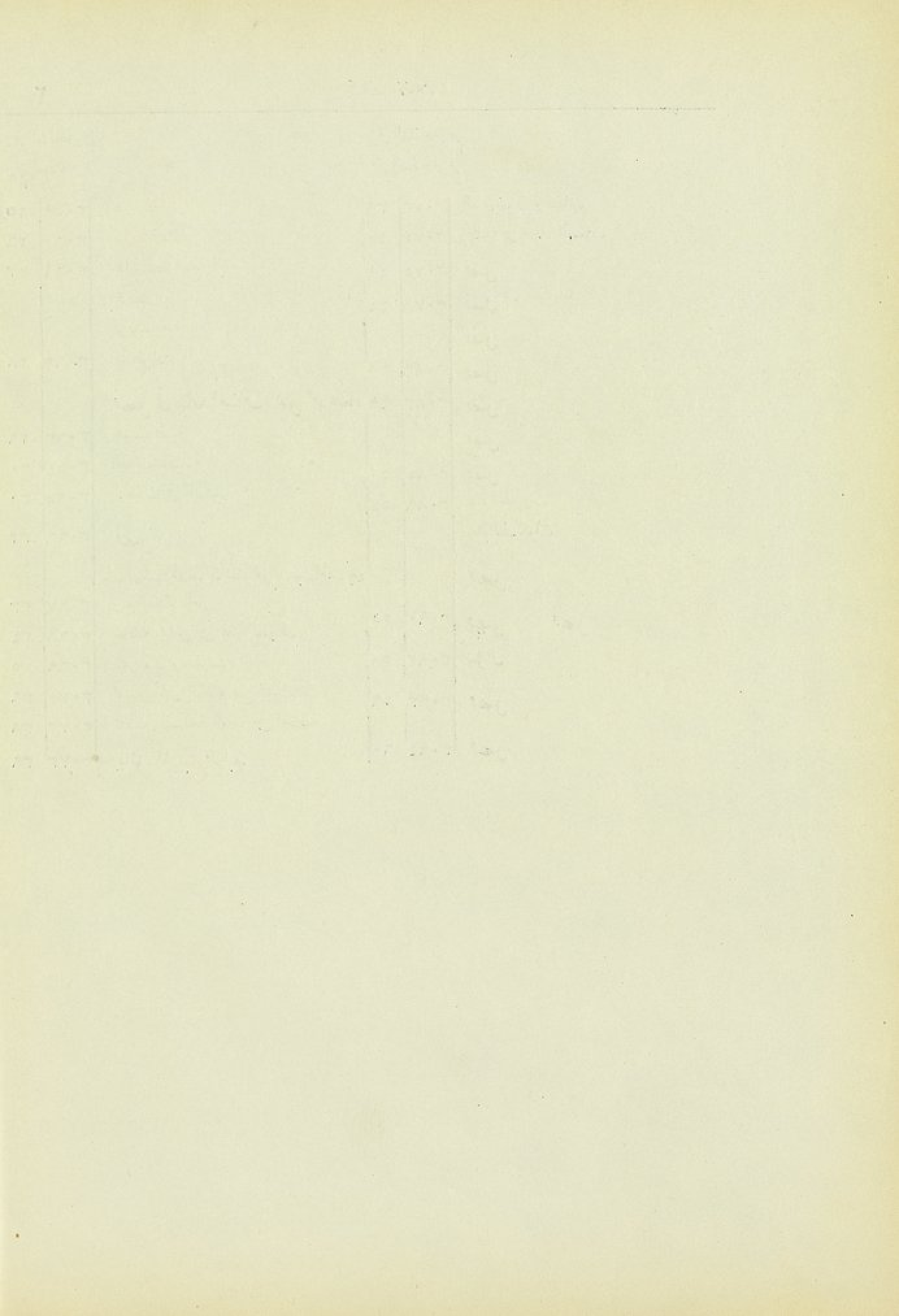
أحدهما : هو الذي بثثته فيكم ، وأما الثاني : فلو بثثته لحززتم السكين على هذا البلعوم وأشار إلى حلقه ، وبعد كل شيء ، ففي القدوة بصاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه النجاة ، وفي اتباعه الفوز بحب الله ، ويد الله مع الجماعة ، وفوق كل ذي علم عليم ، وقد أفدناك من طرائف ما عندنا . وأهدينا إليك من غرائب ما لدينا ، وإلى الله يرد العلم مما دق وجل ، وكثر وقل ، وعظم وصغر ، وظهر واستتر ، وإنما ينطق الإنسان بما أنطقه الله تعالى ، وهو مستعمل بما استعمله فيه ، إذ كل ميسر لما خلق له ، فاستنزل ما عند ربك وخالقك من خير ، واستجلب ما تؤمله منه من هداية وبر ، بقراءة السبع المثاني والقرءان العظيم التي أمرت بقراءتها في كل صلاة ، وكذا عليك أن تعيدها في كل ركعة ، وأخبرك الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم ، أن ليس في التوراة ، ولا في الإنجيل ، ولا في الفرقان مثلها ، وفي هذا تنبيه بل تصريح بأن يكثر منها بما ضمنت من الفوائد ، وخصت به من الذخائر والعوائد ، بما لو سطر لكان فيه أوقار الجمال ، فافهم وانتبه واعقل ما خلقت له واعرف ما أعدّ لك ، والله تعالى سبحانه حسيب من أراده ، وهادى من جاهد في سبيله وكاف من توكل عليه ، وهو الغني الكريم

انتهى الجواب عما سألت عنه ، وفرغنا منه بحسب الوسع من الكلام ، ونسأل الله تعالى المباعد بين حيلات قلوب البشر أن يصرف عنا حجب الكدرات والأهواء ، ومراتب الغين ، فبيده مجاري المقدورات ، وهو إله من ظهر وغبر ، وإليه يرجع من آمن وكفر ، ومجازى الخلائق بنعيم أو سقر ، والصلاة على سيدنا محمد سيد البشر ، وكافي الضرر وعلى آله السادات الغرر ، وسلم تسليما والحمد لله رب العالمين م؟

---

(1) العنكبوت : ٤٣

فهرست كتاب الاملاء



كتاب تعريف الأحياء
بفضائل الإحياء

للأستاذ الفاضل العلامة

الشيخ عبد القادر بن شيخ بن عبد الله بن شيخ بن عبد الله العيدروس

باعلوى قدس الله سره

كتاب تعريف الأحياء
بفضائل الإحياء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى وفق لنشر المحاسن وطيها فى أحسن كتاب ، وجعل ذلك قرة لأعين الأحباب ، وذخيرة ليوم المآب ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى أحيا بإحياء شريعته وطريقته قلوب ذوى الألباب ، وعلى آله الطيبين الطاهرين وجميع الأصحاب ، ماأشرقت شمس الإحياء للقلوب ، وتوجهت همة روحانية مصنفه الولي الموهوب ، إلى إسعاف ملازمى مطالعته ومحبيه بالمطلوب .

وبعد : فإن الكتاب العظيم الشان ، المسمى بإحياء علوم الدين ، المشهور بالجمع والبركة والنفع بين العلماء العاملين ، وأهل طريق الله السالكين ، المشايخ العارفين المنسوب إلى الإمام الغزالى رضي الله عنه : عالم العلماء ، ووارث الأنبياء ، حجة الإسلام ، حسنة الدهور والأعوام ، تاج المجتهدين ، سراج المتهجدين ، مقتدى الأئمة ، مبين الحل والحرمة ، زين الملة والدين ، الذى باهى به سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، وعلى جميع الأنبياء ، ورضي عن الغزالى وعن سائر العلماء المجتهدين .

لما كان عظيم الوقع ، كثير النفع ، جليل المقدار ، ليس له نظير فى بابه ، ولم ينسج على منواله ، ولا سمحت قريحة بمثاله ، مشتملا على الشريعة ، والطريقة والحقيقة كاشفا عن الغوامض الخفية ، مبينا للأسرار الدقيقة . رأيت أن أضع رسالة تكون كالعنوان والدلالة ، على صبابة صبابة ، من فضله وشرفه ، ورشحة من فضل جامعه ومصنفه ، ورتبته على مقدمة ، ومقصد ، وخاتمة .

فالمقدمة فى عنوان الكتاب ، والمقصد فى فضائله وبعض المدائح والثناء من الأكابر عليه ، والجواب عما استشكل منه وطعن بسببه فيه ، والخاتمة فى ترجمة المصنف رضي الله عنه ، وسبب رجوعه إلى هذه الطريقة .

المقدمة

فى عنوان الكتاب

اعلم أن علوم المعاملة التى يتقرب بها إلى الله تعالى . تنقسم إلى ظاهرة وباطنة والظاهرة قسمان : معاملة بين العبد وبين الله تعالى ، ومعاملة بين العبد وبين الخلق والباطنة أيضا قسمان : مايجب تزكية القلب عنه من الصفات المذمومة ، ومايجب تحلية القلب به من الصفات المحمودة ، وقد بنى الإمام الغزالى رحمه الله كتاب إحياء علوم الدين على هذه الأربعة أقسام ، فقال فى خطبته : ولقد أسسته على أربعة أرباع . ربع العبادات وربع العادات ، وربع المهلكات ، وربع المنجيات .

فأما ربع العبادات فيشتمل على عشرة كتب . كتاب العلم ، كتاب قواعد العقائد ، كتاب أسرار الطهارة ، كتاب أسرار الصلاة ، كتاب أسرار الزكاة ، كتاب أسرار الصيام كتاب أسرار الحج ، كتاب تلاوة القرءان ، كتاب الأذكار والدعوات ، كتاب ترتيب الأوراد فى الأوقات .

وأما ربع العادات فيشتمل على عشرة كتب : كتاب آداب الأكل ، كتاب آداب النكاح ، كتاب آداب الكسب ، كتاب الحلال والحرام ، كتاب آداب الصحبة ، كتاب العزلة ، كتاب آداب السفر ، كتاب آداب السماع والوجد ، كتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، كتاب أخلاق النبوة .

وأما ربع المهلكات فيشتمل على عشرة كتب : كتاب شرح عجائب القلب ، كتاب رياضة النفس ، كتاب آفة الشهوتين البطن والفرج ، كتاب آفة اللسان ، كتاب آفة الغضب والحقد والحسد ، كتاب ذم الدنيا ، كتاب ذم المال والبخل ، كتاب ذم الجاه والرياء كتاب الكبر والعجب ، كتاب الغرور .

وأما ربع المنجيات فيشتمل على عشرة كتب : كتاب التوبة ، كتاب الصبر والشكر كتاب الخوف والرجاء ، كتاب الفقر والزهد ، كتاب التوحيد والتوكل ، كتاب المحبة والشوق والرضا ، كتاب النية والصدق والإخلاص ، كتاب المراقبة والمحاسبة ،

كتاب التفكر ، كتاب ذكر الموت .

ثم قال رحمه الله : فأما ربع العبادات .فأذكر فيه من خفايا آدابها ودقائق سننها وأسرار معانيها ،مايضطر العالم العامل إليها ، بل لايكون من علماء الآخرة من لم يطلع عليها ، وأكثر ذلك مما أهمل فى الفقهيات .

وأما ربع العادات : فأذكر فيه أسرار المعاملات الجارية بين الخلق ، ودقائق سننها ، وخفايا الورع فى مجاريها ، وهي مما لايستغنى المتدين عنها .

وأما ربع المهلكات :فأذكر فيه كل خلق مذموم ورد القرءان بإماطته وتزكية النفس عنه وتطهير القلب منه ، وأذكر فى كل واحد من هذه الأخلاق حده وحقيقته ، ثم سببه الذى منه يتولد ، ثم الآفات التى عليها يترتب ، ثم المعاملات التى بها يتعرف ، ثم طرق المعالجة التى منها يتخلص ، كل ذلك مقرونا بشواهد من الآيات والأخبار والآثار .

وأما ربع المنجيات: فأذكر فيه كل خلق محمود ، وخصلة مرغوب فيها ، من خصال المقربين والصديقين التى يتقرب بها العبد من رب العالمين ، وأذكر فى كل خصلة حدها وحقيقتها ، وسببها الذى به تجتلب ، وثمرتها التى منها تستفاد ، وعلامتها التى بها تعرف وفضيلتها التى لأجلها فيها يرغب، مع ماورد فيها من شواهد الشرع والعقل .

المقصد

فى فضل الكتاب المشار إليه وبعض المدائح والثناء من الأكابر عليه والجواب عما استشكل منه وطعن بسببه فيه

اعلم أن فضائل الإحياء لاتحصى ، بل كل فضيلة له باعتبار حيثياتها لاتستقصى ، جمع الناس مناقبه فقصروا وما قصروا ، وغاب عنهم أكثر مما أبصروا ، وعز من أفردها فيما علمت بتأليف ، وهي جديرة بالتصنيف ، غاص مؤلفه رضي الله عنه فى بحار الحقائق ، واستخرج جواهر المعانى ، ثم لم يرض إلا بكبارها ، وجال فى بساتين العلوم ، فاجتنى ثمارها ، بعد أن اقتطف من أزهارها ، وسما إلى سماء المعانى فلم يصطف من كواكبها إلا السيارة ، وجليت عليه عرائس أسرار المعانى ،

فلم ترق فى عينه منهن إلا بادية النضارة ، جمع رضي الله عنه فأوعى ، وسعى فى إحياء علوم الدين ، فشكر الله له ذلك المسعى ، فلله دره ، من عالم محقق مجيد ، وإمام جامع لشتات الفضائل ، محرر فريد ، لقـــد أبدع فيما أودع كتابه ، من الفوائد الشوارد ، وقد أغرب فيما أعرب فيه من الأمثلة والشواهـد ، وقد أجاد فيما أفاد فيه ، وأملى بيد أنه فى العلوم صاحب القدح المعلّى ، إذ كان رضي الله عنه ، من أسرار العلوم بمحل لايدرك ، وأين مثله وأصله أصله ، وفضله فضله .

هيهات لايأتى الزمان بمثله   إن الزمان بمثله لشحيح

وما عسيت أن أقول فيمن جمـع أطراف المحاسن ، ونظم أشتات الفضائل ، وأخذ برقاب المحامد ، واستولى على غايات المناقب ، فشجرته فى فوارة العلم ، والعمل والعلا ، والفهم ، والذكا أصلهـا ، وفروعهـا فى السماء ، مع كونه رضي الله عنـه ، ذا الصدر الرحيب ، والقريحة الثاقبة ، والدراية الصائبة ، والنفس السامية ، والهمة العالية

ذكر الشيخ عبد الله بن أسعد اليافعى رحمة الله عليه ، أن الفقيه العلامة ، قطب اليمن اسماعيل بن محمد الحضرمى ، ثم اليمنى ، سئل عن تصانيف الغزالى فقال : من جملة جوابه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، سيد الأنبياء ، ومحمد بن ادريس سيد الأئمة ، ومحمد بن محمد بن محمد الغزالى ، سيد المصنفين ، وذكر اليـافعى أيضا ، أن الشيخ الإمام الـكبير ، أبا الحسن علي بن حرزهم ، الفقيه المشهور المغربى ، كان بالغ فى الإنـكار على كتاب إحياء علوم الدين ، وكان مطاعا ، مسموع الـكلمة ، فأمر بجمع ماظفر به ، من نسخ الإحياء ، وهم بإحراقها فى الجامع يوم الجمعة ، فرأى ليلة تلك الجمعة كأنه دخل الجامع ، فإذا هو بالنبي صلى الله عليه وسلم فيه ، ومعه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما والإمام الغزالى قائم بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما أقبل ابن حرزهم ، قال الغزالى هذا خصمى يارسول الله ، فإن كان الأمر كما زعم تبت إلى الله ، وإن كان شيئا حصل لى من بركتك ، واتباع سنتك ، فخذلى حق من خصمى ، ثم ناول النبي صلى الله عليه وسلم كتاب الإحياء ، فتصفحه النبي صلى الله عليه وسلم ، ورقة ورقة ، من أوله إلى آخره ، ثم قال والله إن هذا لشيء حسن ، ثم ناوله الصديق رضي الله عنه ، فنظر فيه فاستجاده ، ثم قال نعم والذي بعثك

بالحق إنه لشيء حسن ، ثم ناوله الفاروق عمر رضي الله عنه ، فنظر فيه وأثنى عليه كما قال الصدّيق ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بتجريد الفقيه عليّ بن حرزهم من القميص ، وأن يضرب ويحد ، حد المفترى ، فجرد وضرب ، فلما ضرب خمسة أسواط تشفع فيه الصدّيق رضي الله عنه ، وقال يارسول الله لعله ظن خلاف سنتك فأخطأ فى ظنه ، فرضي الإمام الغزالى وقبل شفاعة الصدّيق ، ثم استيقظ ابن حرزهم ، وأثر السياط فى ظهره ، وأعلم أصحابه ، وتاب إلى الله ، عن إنكاره على الإمام الغزالى واستغفر ، ولكنه بقي مدة طويلة متألما من أثر السياط ، وهو يتضرع إلى الله تعالى ، ويتشفع برسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى أن رأى النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليه ومسح بيده الكريمة على ظهره ، فعوفى وشفي بإذن الله تعالى ، ثم لازم مطالعة إحياء علوم الدين ، ففتح الله عليه فيه ، ونال المعرفة بالله ، وصار من أكابر المشايخ ، أهل العلم الباطن والظاهر ، رحمه الله تعالى .

قال اليافعى : روينا ذلك بالأسانيد الصحيحة ، فأخبرنى بذلك ولي الله عن ولي الله عن ولي الله عن ولي الله الشيخ الكبير ، القطب شهاب الدين أحمد ابن الميلق الشاذلى ، عن شيخه الشيخ الكبير ، العارف بالله ياقوت الشاذلى ، عن شيخه الشيخ الكبير العارف بالله أبى العباس المرسى ، عن شيخه الشيخ الكبير ، شيخ الشيوخ أبى الحسن الشاذلى ، قدس الله ارواحهم ، وكان معاصراً لابن حرزهم . قال : وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى ، ولقد مات الشيخ أبو الحسن بن حرزهم رحمه الله يوم مات ، وأثر السياط على ظهره ، وقال الحافظ بن عساكر رحمه الله : وكان أدرك الإمام الغزالى واجتمع به ، قال : سمعت الإمام الفقيه الصوفى سعد بن علي بن أبى هريرة الاسفراينى يقول : سمعت الشيخ الإمام الأوحد ، زين القراء جمال الحرم ، أبا الفتح الشاوى بمكة المشرفة يقول : دخلت المسجد الحرام يوما ، فطرأ علي حال وأخذنى عن نفسى فلم أقدر أن أقف ولا أجلس لشدة مابى ، فوقعت على جنبي الأيمن ، تجاه الكعبة المعظمة وأنا على طهارة ، وكنت أطرد عن نفسى النوم ، فأخذتنى سنة بين النوم واليقظة ، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم فى أكمل صورة ، وأحسن زي من القميص والعمامة ، ورأيت الأئمة ، الشافعي ، ومالكا ، وأبا حنيفة ، وأحمد رحمهم الله ، يعرضون

عليه مذاهبهم واحداً بعد واحد وهو ، صلى الله عليه وسلم يقررهم عليها . ثم جاء شخص من رؤساء المبتدعة ليدخل الحلقة ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بطرده ،و إهانته فتقدمت أنا وقلت يارسول الله هكذا الكتاب، أعنى إحياء علوم الدين معتقدى، ومعتقد أهل السنة والجماعة . فلو أذنت لى حتى أقرأه عليك ، فأذن لى ، فقرأت عليه من كتاب قواعد العقائد : بسم الله الرحمن الرحيم . كتاب قواعد العقائد وفيه أربعة فصول : الفصل الأول فى ترجمة عقيدة أهل السنة، حتى انتهيت إلى قول الغزالى،وأنه تعالى بعث النبي الأمي القرشي محمداً صلى الله عليه وسلم إلى كافة العرب والعجم،والجن والإنس ، فرأيت البشاشة فى وجهه صلى الله عليه وسلم ،ثم التفت وقال : أين الغزالى وإذا بالغزالى واقف بين يديه فقال : هاأنا ذا يارسول الله وتقدم وسلم فرد عليه السلام عليه الصلاة والسلام ، وناوله يده الكريمة فأكب عليها الغزالى يقبلها ويتبرك بها ، وما رأيت النبي صلى الله عليه وسلم ،أشد سروراً بقراءة أحد عليه ،مثل ما كان بقراءتى عليه الإحياء ، ثم انتهيت والدمع يجري من عينى من أثر تلك الأحوال والكرامات ، وكان تقريره صلى الله عليه وسلم لمذاهب أئمة السنة واستبشاره بعقيدة الغزالى وتقريرها ،نعمة من الله عظيمة ، ومنة جسيمة ، نسأل الله تعالى أن يحيينا على سنته ويتوفانا على ملته آمين

فصل

أثنى على الإحياء ،عالم من علماء الإسلام، وغير واحد من عارفى الأنام ، بل جمع أقطاب وأفراد . فقال فيه الحافظ :الإمام الفقيه أبو الفضل العراقى فى تخريجه ، أنه من أجل كتب الإسلام فى معرفة الحلال والحرام ؛ جمع فيه بين ظواهر الأحكام ونزع إلى سرائر دقت عن الأفهام ، لم يقتصر فيه على مجرد الفروع والمسائل ، ولم يتبحر فى اللجة بحيث يتعذر الوجوع إلى الساحل ، بل مزج فيه علمي الظاهر والباطن ، ومزج معانيها فى أحسن المواطن ، وسبك فيه نفائس اللفظ وضبطه ، وسلك فيه من النمط أوسطه ، مقتديا بقول علي كرم الله وجهه ، خير هذه الأمة النمط الأوسط ، يلحق بهم التالى ، ويرجع إليهم الغالى ، إلى آخر ماذكره ، مما الأولى بنا فى هذا المحل طيه ، ثم الانتقال إلى نشر

محاسن الإحياء ، ليظهر للمحب والمبغض رشده وغيه

وقال عبد الغافر الفارسي : في مثال الإحياء أنه من تصانيفه المشهورة التي لم يسبق إليها . وقال فيه النووي : كاد الإحياء أن يكون قرءانا . وقال الشيخ أبو محمد الكازروني: لو محيت جميع العلوم لاستخرجت من الإحياء ، وقال بعض علماء المالكية : الناس في فضل علوم الغزالي ، أي والإحياء جماعها ، كما سيأتي أنه البحر المحيط ، وكان السيد الجليل كبير الشأن ، تاج العارفين ، وقطب الأولياء الشيخ عبد الله العيدروس رضي الله عنه يكاد يحفظه نقلا. وروي عنه أنه قال : مكثت سنين أطالع كتاب الإحياء، كل فصل وحرف منه وأعاوده وأتدبره ، فيظهر لي منه في كل يوم، علوم وأسرار عظيمة ،ومفهومات غزيرة غير التي قبلها ، ولم يسبقه أحد ، ولم يلحقه أحد ،أثنى على كتاب الإحياء ،بما أثنى عليه، ودعا الناس بقوله وفعله إليه وحث على التزام مطالعته والعمل بما فيه ، ومن كلامه رضي الله عنه عليكم يا إخواني بمتابعة الكتاب والسنة ،أعني الشريعة المشروحة في الكتب الغزالية،خصوصا كتاب ذكر الموت ، وكتاب الفقر والزهد ، وكتاب التوبة ، وكتاب رياضة النفس ،

ومن كلامه :عليكم بالكتاب، والسنة أولا وآخرا ،وظاهراً وباطنا وفكرا واعتبارا واعتقادا ،وشرح الكتاب والسنة مستوفى في كتاب إحياء علوم الدين،للإمام حجة الإسلام الغزالي رحمه الله ونفعنا به . ومن كلامه وبعد : فليس لنا طريق ومنهاج سوى الكتاب والسنة ، وقد شرح ذلك كله سيد المصنفين، وبقية المجتهدين، حجة الإسلام الغزالي، في كتابه العظيم الشأن ، الملقب أعجوبة الزمان إحياء علوم الدين ،الذي هو عبارة عن شرح الكتاب والسنة والطريقة .

ومن كلامه : عليكم بملازمة كتاب إحياء علوم الدين ، فهو موضع نظر الله ، وموضع رضا الله ، فمن أحبه وطالعه وعمل بما فيه ، فقد استوجب محبة الله،ومحبة رسول الله،ومحبة ملائكة الله وأنبيائه وأوليائه ، وجمع بين الشريعة ، والطريقة، والحقيقة ، في الدنيا والآخرة وصار عالما في الملك والملكوت .

ومن كلامه الوجيز العزيز : لو بعث الله الموتى لما أوصوا الأحياء إلا بما في الإحياء

ومن كلامه :اعلموا أن مطالعة الإحياء تحضر القلب الغافل في لحظة ، كحضور سواد

الحبر بوقوع الزاج فى العفص والماء، وتأثير كتب الغزالى واضح ظاهر مجرب عند كل مؤمن

ومن كلامه : أجمع العلماء العارفون بالله على أنه لاشىء أنفع للقلب ،وأقرب إلى رضا الرب من متابعة حجة الإسلام الغزالى ، ومحبة كتبه ، فإن كتب الإمام الغزالى ، لباب الكتاب والسنة ، ولباب المعقول والمنقول ، والله وكيل على ماأقول .

ومن كلامه : أنا أشهد سراً وعلانية، أن من طالع كتاب إحياء علوم الدين ، فهو من المهتدين . ومن كلامه : من أراد طريق الله وطريق رسول الله وطريق العارفين بالله وطريق العلماء بالله ، أهل الظاهر والباطن ، فمليه بمطالعة كتب الغزالى ؛ خصوصا إحياء علوم الدين ، فهو البحر المحيط . ومن كلامه : اشهدوا على أن من وقع على كتب الغزالى فقد وقع على عين الشريعة والطريقة والحقيقة . ومن كلامه : من أراد طريق الله ورسوله ورضاهما فعليه بمطالعة كتب الغزالى ، وخصوصا البحر المحيط إحياءه أعجوبة الزمان . ومن كلامه: نطق معانى معنوى القرءان ، ولسان حال قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلوب الرسل والأنبياء ، وجميع العلماء بالله وجميع العلماء بأمر الله الأتقياء ، بل جميع أرواح الملائكة ، بل جميع فرق الصوفية ، مثل العارفين والملامتية ، بل جميع سر حقائق الكائنات والمعقولات ، ومايناسب رضا الذات والصفات ، أجمع هؤلاء المذكورون ، أن لاشىء أرفع وأنفع وأبهى وأبهج وأتقى وأقرب إلى رضا الرب ، كمتابعة الغزالى ومحبة كتبه ، وكتب الغزالى قلب الكتاب والسنة ، بل قلب المعقول والمنقول ، وأنفع يوم ينفخ اسرافيل فى الصور ، وفى يوم نقر الناقور ، والله وكيل على ماأقول (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ [1]) .

ومن كلامه : كتاب إحياء علوم الدين ، فيه جميع الأسرار ، وكتاب بداية الهداية ، فيه التقوى ، وكتاب الأربعين ، الأصل فيه شرح الصراط المستقيم ، وكتاب منهاج العابدين ، فيه الطريق إلى الله ، وكتاب الخلاصة فى الفقه ، فيه النور . ومن كلامه: السر كله فى اتباع الكتاب والسنة ، وهو اتباع الشريعة ، والشريعة مشروحة فى كتاب إحياء علوم الدين ، المسمى أعجوبة الزمان .

---

(١) آل عمران : ١٨٥

ومن كلامه : بخ بخ بخ لمن طالع إحياء علوم الدين ، أو كتبه ، أو سمعه .

وكلامه رضى الله عنه، فى تصانيفه وغيرها مشحون من الثناء على الإمام الغزالى وكتبه والحث على العمل بها ، خصوصا إحياء علوم الدين ، وقد كان سيدي ووالدى الشيخ العارف بالله تعالى ، شيخ ابن عبد الله العيدروس رضى الله عنه يقول : إن أمهل الزمان جمعت كلام الشيخ عبد الله ، فى الغزالى وسميته الجوهر المتلالى ، خصوصا من كلام الشيخ عبد الله فى الغزالى ، فلم يتيسر له ، وأرجو أن يوفقنى الله لذلك تحقيقا لرجائه ،ورجاء أن يتناولنى دعاء الشيخ عبد الله رضي الله عنه ،فإنه قال :غفر الله لمن يكتب كلامى فى الغزالى ، وناهيك ببشارة فى هذه العبارة ،التي برزت من ولي عارف ، وقطب مكاشف ، لايجازف فى مقال ، ولاينطق إلا عن حال ، وفى هذا من الشرف للغزالى وكتبه مالا يحتاج معه إلى مزيد (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ[1]) فإن العظيم لايعظم فى عينه إلاعظيم ،ولا يعرف الفضل لأهل الفضل إلاأهل الفضل وإذاتصدى العيدروس لتعريفه فقدأغنى تعريفه عن كل تعريف ، ووصف الشهادة منه خير من شهادة ألف ألف وحصل من الإحياء فى زمانه بسببه نسخ عديدة، حتى أن بعض العوام حصلها لما رأى من ترغيبه فيه ، وألزم أخاه الشيخ عليًا قراءته ، فقرأه عليه مدة حياته خمسا وعشرين مرة ، وكان يصنع عند كل ختم ضيافة عامة للفقراء وطلبة العلم الشريف ، ثم إن الشيخ عليا ألزم ولده عبد الرحمن قراءته عليه مدة حياته ، نختمه عليه أيضا خمسا وعشرين مرة ،وكان ولده سيدى الشيخ أبو بكر العيدروس صاحب عدن ، التزم بطريقة النذر على نفسه مطالعة شيء منه كل يوم ، وكان لايزال يحصل منه نسخة بعد نسخة ويقول : لاأترك تحصيل الإحياء أبدا ماعشت ، حتى اجتمع عنده منه نحو عشر نسخ .

قلت : وكذلك كان سيدى الشيخ الوالد شيخ ابن عبد الله بن شيخ بن الشيخ عبد الله العيدروس رضي الله عنه ، مدمنا على مطالعته وحصل منه نسخا عديدة نحو السبع ،وأمر بقراءته عليه غير مرة ، وكان يعمل فى ختمه ضيافة عامة ، فلازمته ميراث عيدروسى ، وتوفيق قدوسى . فمن وفقه الله لامتثاله والعمل بما فيه واستعماله بلغ الرتبة العليا ،

(1) ق : ٣٧

وحاز شرف الآخرة والدنيا .

وقال السيد الكبير العارف بالله الشهير على بن أبى بكر بن الشيخ عبد الرحمن السقاف لو قَلّب أوراق الإحياء كافر لأسلم ، ففيه سر خفي يجذب القلوب شبه المغناطيس قلت : وهو صحيح فإنى مع خسيس قصدى وقساوة قلبي أجد عند مطالعتى له من انبعاث الهمة وعزوف النفس عن الدنيا مالامزيد عليه ، ثم يفتر برجوعى إلى ما أنا فيه ، ومخالطة أهل الكثافات ، ولاأجد ذلك عند مطالعة غيره من كتب الوعظ والرقائق وماذاك إلا لشيء أودعه الله فيه وسر نفس مصنفه ، وحسن قصده ، والمراد بالكافر هنا فيما يظهر الجاهل لعيوب النفس ، المحجوب عن إدراك الحق أي فبمجرد مطالعته للكتاب المذكور يشرح الله صدره ، وينور قلبه ، وذلك لأن الوعظ اذا صدر عن قلب متعظ كان حريا أن يتعظ به سامعه ، وكما أن الله تعالى جعل لعباده الذين لاخوف عليهم ولاهم يحزنون ، رتبة فوق غيرهم ، كذلك جعل لما يبرز منهم ، ويؤخذ عنهم بركة زائدة على غيره لأن ألسنتهم كريمة ، وأنوار قلوبهم عظيمة ، وهممهم علية ، وإشاراتهم سنية ، حتى يكون للقرءان أثر عظيم عند سماعه منهم ، وللأحاديث بهجة وجلالة زائدة إذا أخذت عنهم ، وللمواعظ منهم تأثير فى القلوب ظاهر ، ولعلومهم وفقههم أنوار ونفع متظاهر ، حتى تجد الرجل له العلم القليل ، وبعد ذلك ينتفع به كثير ، لحسن نيته ، ووجود بركته ، وغيره له أكثر من ذلك العلم ولم ينتفع به مثله ، لأنه دونه فى منزلته ، ومن تأمل ذلك وجده أمرا ظاهرا معهودا ، وشيئاً مجربا موجودا ، فانظر إلى نفع الناس ، بكتاب الخلاف فى مذهب مالك رحمه الله تعالى ، والتنبيه فى مذهب الشافعي رحمه الله تعالى ، والجمل فى العربية والإرشاد فى علم الكلام ، وانتشارها مع أن ماحوت من العلم فى فنونها قليل ، وقد جمع غير هؤلاء فى هذه الفنون فى مثل أجرام هذه الكتب أضعاف مافيها ، مع تحقيق تحرير العبارات وتشقيق المعانى ، وتلخيص الحدود بعد هذا ، فالنفع بهذه أكثر ، وهي أظهر وأشهر ، لأن العلم بمزيد التقوى ، وقوة سر الإيمان ، لابكثرة الذكاء وفصاحة اللسان ، كما بين ذلك مالك رحمه الله تعالى بقوله : ليس العلم بكثرة الروايه ، إنما العلم نور يضعه

الله فى القلب . قلت ومما أنشده الشيخ علي بن أبى بكر رضي الله عنه، لنفسه فيه قوله :

أخى انتبه والزم سلوك الطرائق ... وسارع إلى المولى بجد وسابق
أيا طالبا شرح الكتاب وسنة ... وقانون قلب القلب بحر الرقائق
وإيضاح منهج للحقيقة مشرق ... وشرب حميا صفو راح الحقائق
وإجلاء أذكار المعاني ضواحكا ... يباهج حسن جاذب للخلائق
عليك بإحياء العلوم ولبها ... وأسرارها كم قد حوى من دقائق
وكم من لطيفات لذى اللب منهل ... وكم من مليحات سبت لب حاذق
كتاب جليل لم يصنف ... قبله ولا بعده مثل له فى الطرائق
فكم فى بديع اللفظ يجلى عرائسا ... وكم من شموس فى حماه شوارق
معانيه أضحت كالبدور سواطعا ... على در لفظ للمعانى مطابق
وكم من عزيزات زهت فى قبابها ... محجبة من غير كفؤ مسابق
وكم من لطيف مع بديع وتحفة ... حلاوتها كالشهد تحلو لذائق
بساتين عرفان ورض لطائف ... وجنة أنواع العلوم الفوائق
رعى الله صبارا تمافى جنانها ... يروح ويغدو بين تلك الحقائق
ويقطف من ذا كى جناها فوا كها ... بساحل بحر بالجواهر دافق
خضم طمى حتى علا فوق من علا ... بشامخ مجد مشرق بالحقائق
فإن لم بهذا القول تؤمن فجربن ... وأقبل على تلك المعانى وعانق
وارجع طرفا فى بديع جمالها ... وطف فى حماها منشدا كل سابق
ترى فى بدور الحي أقمار قد بدت ... بعالى جمال مدهش لب عاشق
فكم انهلت صبا وكم قشعت عمى ... وكم قد سمت فى غربها والمشارق
فيضحى براح الحب سكران مغرما ... أصم عن العذال غير موافق
ويمسى ينادبها طريحا ببابها ... منعم عيش فى الربوع الغوادق
صلاة على سر الوجود شفيعنا ... محمد المختـــار خير الخلائق
وأصحابه أهل المكارم والعلا ... وعترته وراث علم الحقائق

فصل

وأما ما أنكر عليه فيه من مواضع مشكلة الظاهر وفى التحقيق لا إشكال أو أخبار وآثار تكلم فى سندها . فأما من جهة تلك المواضع فمن أجاب عنها المصنف نفسه فى كتابه المسمى بالأجوبة ، وأسوق لك نبذة من ذلك هنا . قال رحمه الله : سألت يسرك الله لمراتب العلم تصعد مراقيها ، وقرب لك مقامات الأولياء تحل معاليها ، عن بعض ماوقع فى الإملاء الملقب بالإحياء ، عما أشكل على من حجب وقصر فهمه ، ولم يفز بشيء من الحظوظ الملية قدحه وسهمه ، وأظهرت التحزن لما شاهدته من شركاء الطغام ، وأمثال الأنعام ، وأتباع العوام ، وسفهاء الأحلام ، وعار أهل الإسلام ، حتى طعنوا عليه ، ونهوا عن قراءته ومطالعته ، وأفتوا بالهوى ، مجردا على غير بصيرة ، بإطراحه ومنابذته ، ونسبوا ممليه إلى ضلال وإضلال . ورموا قراءه ومنتحليه بزيغ عن الشريعة واختلال ، إلى أن قال (سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ [١]) ثم ذكر آيات أخرى فى المعنى ، ثم وصف الدهر وأهله ، وذهاب العلم وفضله ، ثم ذكر عذر المعترضين ، بما يرجع حاصلها إلى الحسد وإلى الجهل وقلة الدين ، بل أفصح بذلك فى الآخر حيث قال : حجبوا عن الحقيقة بأربعة : الجهل ، والإصرار ، ومحبة الدنيا وإظهار الدعوى ، ثم بين ماورثوه عن الأربعة المذكورة ، فالجهل أورثهم السخف ، إلى آخر ماذكره وأما ما اعترض به من تضمينه أخباراً وآثارا موضوعة أو ضعيفة ، وإكثاره من الأخبار والآثار ، والإكثار يتحاشى منه المتورع لئلا يقع فى الموضوع ، وحاصل ماأجيب به عن الغزالى ومن المجيبين الحافظ العراقى أن أكثر ماذكره الغزالى ليس بموضوع كما برهن عليه فى التخريج ، وغير الأكثر وهو فى غاية القلة ، رواه عن غيره أو اتبع فيه غيره متبرئا منه بنحو صيغة روي . وأما الاعتراض عليه أن فيما ذكره الضعيف بكثرة ، فهو اعتراض ساقط لما تقرر أن يعمل به فى الفضائل ، وكتابه فى الرقائق فهو من قبيلها ولأن له أسوة بأئمة الأئمة الحفاظ فى اشتمال كتبهم على الضعيف بكثرة المنبه على ضعفه

(١) الزخرف : ١٩

تارة والمسكوت عنه أخرى، وهذه كتب الفقه للمتقدمين، وهي كتب الأحكام لا الفضائل توردون فيها الأحاديث الضعيفة ساكتين عليها، حتى جاء النووى رحمه الله فى المتأخرين ونبه على ضعف الحديث، وخلافه كما أشار إلى ذلك كله العراقى، قال عبد الغافر الفارسى سبط القشيرى، ظهرت تصانيف الغزالى وفشت، ولم يبد فى أيامه مناقضة لما كان فيه ولا لما آثره إلى آخر ماذكره، ومما يدلك على جلالة كتب الغزالى، مانقل ابن السمعانى من رؤيا بعضهم فيما يرى النائم، كأن الشمس طلعت من مغربها، مع تعبير ثقات المعبرين ببدعة تحدث، فحدثت فى جميع المغرب بدعة الأمر بإحراق كتبه، ومن أنه لما دخلت مصنفاته إلى المغرب، أمر سلطانه علي بن يوسف بإحراقها، لتوهمه اشتمالها على الفلسفة وتوعد بالقتل من وجدت عنده بعد ذلك، فظهر بسبب أمره فى مملكته مناكير، ووثب عليه الجند، ولم يزل من وقت الأمر والتوعد، فى عكس ونكد، بعد أن كان عادلا.

خاتمة

فى الإشارة إلى ترجمة المصنف رضي الله عنه وعنا به ونفعنا بعلومه وأسراره
وسبب رجوعه إلى طريقة الصوفية رضي الله عنهم

أما ترجمته رضي الله عنه: فهو الإمام زين الدين، حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد ابن محمد الغزالى الطوسى النيسابورى الفقيه الصوفى الشافعي الأشعري الذى انتشر فضله فى الآفاق وفاق، ورزق الحظ الأوفر فى حسن التصانيف وجودتها والنصيب الأكبر فى جزالة العبارة وسهولتها، وحسن الإشارة، وكشف المعضلات، والتبحر فى أصناف العلوم، فروعها، وأصولها، ورسوخ القدم فى منقولها ومعقولها، والتحكم والاستيلاء على إجمالها وتفصيلها، مع ماخصه الله به من الكرامة، وحسن السيرة والاستقامة، والزهد والعزوف عن زهرة الدنيا، والإعراض عن الجهات الفانية، وإطراح الحشمة والتكلف، قال الحافظ العلامة ابن عساكر: والشيخ عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليافعى، والفقيه جمال الدين عبد الرحيم الإسنوى رحمهم الله تعالى، ولد الإمام الغزالى بطوس سنة خمسين وأربعمائة وابتدأ بها فى صباه بطرف من الفقه، ثم قدم نيسابور ولازم دروس إمام الحرمين وجد

واجتهد ، حتى تخرج فى مـدة قريبة ، وصار أنظر أهل زمانه ، وأوحد أقرانه ، وجلس للإقراء وإرشاد الطلبة فى أيام إمامه وصنف ، وكان الإمام يتبجح به ويعتد بمكانه منه ، ثم خرج من نيسابور ، وحضر مجلس الوزير نظام الملك ، فأقبل عليه ، وحل منه محـلا عظيما ، لعلو درجته ، وحسن مناظرته ، وكانت حضرة نظام الملك محطا لرجال العلمـاء ، ومقصد الأئمة والفضلاء ، ووقع للإمام الغزالى فيها اتفاقات حسنة ، من مناظرة الفحول فظهر اسمه ، وطار صيته ، فرسم عليه نظام الملك بالمسير إلى بغداد ، للقيام بتدريس المدرسة النظامية ، فسار إليها ، وأعجب الـكل تدريسه ومناظرته ، فصار إمام العراق ، بعـد أن حاز إمامة خراسان ، وارتفعت درجته فى بغـداد ، على الأمراء ، والوزراء ، والأكابر ، وأهل دار الخلافة ، ثم انقلب الأمر من جهة أخرى ، فترك بغداد ، وخرج عما كان فيه من الجاه والحشمة ، مشتغلا بأسباب التقوى ، وأخذ فى التصانيف المشهورة التى لم يسبق إليها ، مثل إحياء علوم الدين وغيره ، التى من تأملها عرف محل مصنفها من العـلم . قيل أن تصانيفه وزعت على أيام عمره فأصاب كل يوم كراس ، ثم سار إلى القدس ، مقبـلا على مجاهدة النفس ، وتبديل الأخلاق ، وتحسين الشمائل ، حتى مرن على ذلك ، ثم عاد إلى وطنه طوس ؛ لازما بيته ، مقبلا على العبادة ، ونصح العباد وإرشادهم ، ودعائهم إلى الله تعالى ، والاستعداد للدار الآخرة ، مرشد الضالين ، ومفيد الطالبين ، دون أن يرجع إلى ما انخلع عنه من الجاه والمباهاة ، وكان معظم تدريسه فى التفسير والحديث والتصوف حتى انتقل إلى رحمة الله تعالى ، يوم الإثنين الرابع عشر من جمادي الأولى سنة خمس وخمسمائة ، خصه الله تعالى بأنواع الكرامة فى أخراه ، كما خصه بها فى دنياه .

قيل وكانت مـدة القطبية للغزالى ثلاثة أيام على ماحـكي فى كرامات الشيخ سعيد العمودى نفع الله به ، وذكر الشيخ عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليافعى رحمه الله تعالى بإسناده الثابت ، إلى الشيخ الـكبير القطب الربانى ، شهاب الدين أحمـد الصياد اليمني الزبيدى ، وكان معاصرا للغزالى ، نفع الله بهما ،

قال : بينما أنا ذات يوم قاعد ، إذ نظرت إلى أبواب السماء مفتحة ، وإذا عصبة من الملائكة الـكرام قد نزلوا ومعهم خـلع خضر ، ومركوب نفيس ، فوقفوا على قبر

من القبور ، وأخرجوا صاحبه وألبسوه الخلع ، وأركبوه وصعدوا به من سماء إلى سماء إلى أن جاوز السموات السبع ، وخرق بعدها ستين حجابا ، ولا أعلم أين بلغ انتهاؤه ، فسألت عنه فقيل لى هذا الإمام الغزالى ، وكان ذلك عقيب موته رحمه الله تعالى .

ورأى فى النوم السيد الجليل أبو الحسن الشاذلى رضي الله عنه النبي صلى الله عليه وسلم وقد باهى موسي وعيسى عليهما الصلاة والسلام بالإمام الغزالى وقال : أفى أمتكما حبر هكذا ؟ قالا : لا وكان الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه يقول لأصحابه : من كانت له منكم إلى الله حاجة فليتوسل بالغزالى . وقال جماعة من العلماء رضى الله عنهم : منهم الشيخ الإمام الحافظ بن عساكر فى الحديث الوارد عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فى أن الله تعالى يحدث لهذه الأمة من يجدد لها دينها على رأس كل مائة سنة ، أنه كان على رأس المائة الأولى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، وعلى رأس المائة الثانية الإمام الشافعي رضي الله عنه ، وعلى رأس المائة الثالثة الإمام أبو الحسن الأشعرى رضي الله عنه ، وعلى رأس المائة الرابعة أبو بكر الباقلانى رضي الله عنه ، وعلى رأس المائة الخامسة أبو حامد الغزالى رضي الله عنه .

وروي ذلك عن الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه فى الإمامين الأولين أعنى عمر ابن عبد العزيز والشافعي ، ومناقبه رضي الله عنه أكثر من أن تحصر ، وفيما أوردناه مقنع وبلاغ ومن مشهورات مصنفاته ، البسيط ، والوسيط ، والوجيز والخلاصة فى الفقه ؛ وإحياء علوم الدين ، وهو من أنفس الكتب وأجلها ، وله فى أصول الفقه المستصفى ، والمنخول والمنتحل فى علم الجدل ، وتهافت الفلاسفة ، ومحك النظر ، ومعيار العلم ، والمقاصد والضنون به على غير أهله ، ومشكاة الأنوار ، والمنقذ من الضلال ، وحقيقة القولين ، وكتاب ياقوت التأويل فى تفسير التنزيل أربعين مجلدا ، وكتاب أسرار علم الدين ، وكتاب منهاج العابدين ، والدرة الفاخرة فى كشف علوم الآخرة ، وكتاب الأنيس فى الوحدة ، وكتاب القربة إلى الله عز وجل ، وكتاب أخلاق الأبرار والنجاة من الأشرار وكتاب بداية الهداية ، وكتاب جواهر القرءان ، والأربعين فى أصول الدين ، وكتاب المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى ، وكتاب ميزان العمل ، وكتاب القسطاس المستقيم

وكتاب التفرقة بين الإسلام والزندقة ، وكتاب الذريعة إلى مكارم الشريعة وكتاب مبادى الغايات ، وكتاب كيمياء السعادة ، وكتاب تلبيس إبليس ، وكتاب نصيحة الملوك ، وكتاب الاقتصاد فى الاعتقاد ، وكتاب شفاء العليل فى القياس والتعليل وكتاب المقاصد ، وكتاب إلجام العوام عن علم الكلام ، وكتاب الانتصار ، وكتاب الرسالة اللدنية ، وكتاب الرسالة القدسية ، وكتاب إثبات النظر ، وكتاب المأخذ ، وكتاب القول الجميل فى الرد على من غير الإنجيل ، وكتاب المستظهرى ، وكتاب الأمالى وكتاب فى علم أعداد الوفق وحدوده ، وكتاب مقصد الخلاف ، وجزء فى الرد على المنكرين فى بعض ألفاظ إحياء علوم الدين ، وكتبه كثيرة وكلها نافعة .

وقال يمدحه تلميذه الشيخ الإمام أبو العباس الأقليشى المحدث الصوفى صاحب كتاب النجم والكواكب .

أبا حامد أنت المخصص بالمجد ... وأنت الذى علمتنا سنن الرشد

وضعت لنا الإحياء يحيى نفوسنا ... وتنقذنا من طاعة النازع المردى

فربع عبادات وعاداته التى ... يعاقبها كالدر نظم فى العقد

وثالثها فى المهلكات وإنه ... لمنج من الهلك المبرح والبعد

ورابعها فى المنجيات وإنه ... ليسرح بالأرواح فى جنة الخلد

ومنها ابتهاج للجوارح ظاهر ... ومنها صلاح للقلوب من الحقد

وأما سبب رجوعه إلى هذه الطريقة واستحسانه لها فذكر رحمه الله فى كتابه المنقذ من الضلال ماصورته :

أما بعد : فقد سألتنى أيها الأخ فى الدين أن أبث لك غاية العلوم وأسرارها ، وغاية المذاهب وأغوارها ، وأحكى لك ماقاسيته فى استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق مع تباين المسالك والطرق ، وما استجرت عليه من الارتفاع من حضيض التقليد إلى يفاع الاستبصار ، وما استفدته أولا من علم الكلام ، وما احتويته من طرق أهل التعليم ، القاصرين لدرك الحق على تعليم الإمام ، وما ازدريته ثالثا من طرق أهل التفلسف

وما ارتضيته آخرا من طرق أهل التصوف ، وما تنحل لى فى تضاعيف تفتيشى عن أقاويل أهل الحق ، وما صرفنى عن نشر العلم ببغداد مع كثرة الطلبة ، وما دعانى إلى معاودته بنيسابور بعد طول المدة . فابتدرت لإجابتك إلى طلبتك ، بعد الوقوف على صدق رغبتك . فقلت مستعينا بالله تعالى ومتوكلا عليه ومستوفقا منه ، وملتجئا إليه

اعلموا أحسن الله إرشادكم ،وألان إلى قبول الحق انقيادكم . أن اختلاف الخلق فى الأديان والملل ، ثم اختلاف الأئمة فى المذاهب على كثرة الفرق وتباين الطرق ، بحر عميق غرق فيه الأكثرون ، وما نجا منه إلا الأقلون ، وكل فريق يزعم أنه الناجى ، (كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ [١])

ولم أزل فى عنفوان شبابى مذ راهقت البلوغ ، قبل بلوغ العشرين ، إلى أن أناف السن على الخمسين ، أقتحم لجة البحر العميق ، وأخوض غمرته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الحذور ، وأتوغل فى كل مظلمة ، وأهجم على كل مشكلة ، وأقتحم كل ورطة ، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة ، وأستكشف أسرار مذاهب كل طائفة ، لأميز بين كل محق ومبطل ، ومستن ومبتدع ، لاأغادر باطنيا إلا وأحب أن أطلع على باطنيته ، ولا ظاهريا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظاهريته ، ولافلسفيا إلا وأقصد الوقوف على فلسفته ولامتكلما إلا وأجتهد فى الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفيا إلا وأحرص على العثور على سر صوفيته ، ولامتعبدا إلا وأريد مايرجع إليه حاصل عبادته ، ولازنديقا معطلا إلا وأتجسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته فى تعطيله وزندقته ، وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبى وديدنى من أول أمرى وريعان عمرى ، غريزة من الله ، وفطرة وضعها الله فى جبلتى ، لا باختيارى وحيلتى ، حتى انحلت عنى رابطة التقليد ، وانكسرت عنى العقائد الموروثة على قرب عهد منى بالصبا ، إذ رأيت صبيان النصارى لايكون لهم نشوء إلا على التنصر ، وصبيان اليهود لايكون لهم نشوء إلا على التهود ، وصبيان الإسلام لايكون لهم نشوء إلا على الإسلام ، وسمعت الحديث المروى عن النبي

(١) الروم: ٣٢

صلى الله عليه وسلم « كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى ٱلْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ » فتحرك باطنى إلى طلب الفطرة الأصلية ، وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين ، والأستاذين ، والتمييز بين هذه التقليدات ، وأوائلها تلقينات ، وفى تمييز الحق منها من الباطل اختلافات .

فقلت فى نفسى أولا : إنما مطلوبى العلم بحقائق الأمور ، ولا بد من طلب حقيقة العلم ماهي ، فظهر لى أن العلم اليقين هو الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافا لايبقى معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط كالوهم ، ولا يتسع العقل لتقدير ذلك ، بل الأمان من الخطأ ، ينبغى أن يكون مقارنا للنقص ، مقارنة لو تحدى بإظهار بطلانه مثلا ، من يقلب الحجر ذهبا ، والعصا ثعبانا ، لم يورث ذلك شكا وإمكانا ، فإنى إذا علمت أن العشرة أكثر من الواحد ، لو قال لى قائل ، الواحد أكثر من العشرة ، بدليل أنى أقلب هذه العصا ثعبانا ، وقلبها وشاهدت ذلك منه ، لم أشك فى معرفتى لكذبه ، ولم يحصل معى منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه ، وأما الشك فيما علمته ، فلا ثم علمته ، أن كل مالا أعلمه على هذا الوجه ، ولا أتيقنه من هذا النوع من اليقين ، فهو علم لاثقة به ، وكل علم لاأمان معه ، ليس بعلم يقيني ، ثم فتشت عن علومى ، فوجدت نفسى عاطلا ، عن علم موصوف بهذه الصفة ، إلا فى الحسيات والضروريات ، فقلت الآن بعد حصول اليأس ، لامطمع فى اقتباس المستيقنات إلا من الجليات ، وهي الحسيات والضروريات ، فلا بد من إحكامها أولا : لأتبين أن يقينى بالمحسوسات ، وأمانى من الغلط فى الضروريات من جنس أمانى الذى كان من قبل فى التقليدات ، أو من جنس أمان أكثر الخلق فى النظريات ، وهو أمان محقق ، لاتجوز فيه ولا غائلة له ، فأقبلت بجد بليغ أتأمل فى المحسوسات والضروريات أنظر هل يمكننى أشكك نفسى فيها ، فانتهى بعد طول التشكك بى إلى أنه لم تسمح نفسى بتسليم الأمان فى المحسوسات ، وأخذ يتسع الشك فيها ، ثم إنى ابتدأت لعلم الكلام ، فحصلته وعلقته ، وطالعت كتب المحققين منهم ، وصنفت ماأردت أن أصنفه ، فصادفته علما وافيا بمقصوده ، غير واف بمقصودى ، ولم أزل أتفكر فيه مدة ، وأنا بعد على مقام الاختيار أصمم عزمى على الخروج عن بغداد ، ومفارقة تلك الأحوال يوما ، وأحل العزم

يوما ، وأقدم فيه رجلا ، وأؤخر فيه أخرى ، ولا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة ، إلا حمل عليها جند الشهوة حملة ، فيفترها عشية ، فصارت شهوات الدنيا تجاذبني ، بسبب ميلها إلى المقام ، ومنادى الإيمان ينادى الرحيل الرحيل ، فلم يبق من العمر إلا القليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العمل رياء وتخييل ، وإن لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد ، وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطعها ، فعند ذلك تنبعث الرغبة وينجزم الأمر على الهرب والفرار ، ثم يعود الشيطان ويقول : هذه حالة عارضة ، إياك أن تطاوعها ، فإنها سريعة الزوال ، وإن أذعنت لها وتركت هذا الجاه الطويل العريض . والشأن العظيم الخالى عن التكدير والتنغيص ، والأمر السالم الخالى عن منازعة الخصوم ، ربما التفتت إليه نفسك ، ولا تتيسر لك المعاودة ،

فلم أزل أتردد بين التجاذب بين شهوات الدنيا والدواعي ، قريبا من ستة أشهر ، أولها رجب من سنة ست وثمانين وأربعمائة ، وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار ، إذ قفل الله على لسانى ، حتى اعتقل عن التدريس ، فكنت أجاهد نفسى أن أدرس يوما واحدا تطييبا لقلوب المختلفة إلىّ ، فكان لا ينطق لسانى بكلمة ، ولا أستطيعها ألبتة ، حتى أورثت هذه العقلة فى اللسان حزنا فى القلب ، بطلت معه قوة الهضم ومرى الطعام والشراب ، وكان لا تنساغ لى شربة ولا تنهضم لى لقمة ، وتعدى ذلك إلى ضعف القوى ، حتى قطع الأطباء طمعهم فى العلاج ، وقالوا هذا أمر نزل بالقلب ، ومنه سرى إلى المزاج ، فلا سبيل إليه بالعلاج ، إلا بأن يتروح السر عن الهم المهم ، ثم لما أحسست بعجزى ، وسقط بالكلية اختيارى ، التجأت إلى الله التجاء المضطر الذى لا حيلة له ، فأجابنى الذى يجيب المضطر إذا دعاه ، وسهل على قلبى الإعراض عن المال والجاه ، والأهل والأولاد ، وأظهرت غرض الخروج إلى مكة ، وأنا أدبر فى نفسى سفر الشام حذرا من أن يطلع الخليفة ، وجملة الأصحاب على غرضى فى المقام بالشام ، فتلطفت بلطائف الحيل فى الخروج من بغداد ، على عزم أن لا أعاودها أبدا ، واستهدف بى أئمة العراق كافة إذ لم يكن فيه من يجوز أن يكون الإعراض عما كنت فيه سببا دينيا ، إذ ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى فى الدين ، فكان ذلك هو مبلغهم من العلم ، ثم ارتبك الناس

فى الاستنباطات ، فظن من بعد عن العراق ، أن ذلك كان لاستشعار من جهة الولاة، وأما من قرب منهم فكان يشاهد لجاجهم فى التعلق بى والإنكار علي، واعراضى عنهم وعن الالتفات إلى قولهم ، فيقولون هـذا أمر سماوي ، ليس له سبب إلا عين أصابت أهل الإسلام ، وزمرة العلم ، ففارقت بغداد ، وفارقت ما كان معى من مالى ، ولم أدخر من ذلك إلا قدار الكفاف ، وقوت الأطفال ، ترخصا بأن مال العراق مرصد المصالح ، لكونه وقفا على المسلمين ، ولم أر فى العالم ما يأخذ العالم لعيال أصلح منه .

ثم دخلت الشام وأقمت فيه قريبا من سنتين ، لاشغل إلا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة اشتغالا بتزكية النفس ، وتهذيب الأخلاق ، وتصفية القلب لذكر الله تعالى ، كما كنت حصلته من علم الصوفية ، وكنت أعتكف مدة بمسجد دمشق أصعد منارة المسجد طول النهار ، وأغلق بابها على نفسى ، ثم تحرك بى داعية فريضة الحج ، والاستمداد من بركات مكة والمدينة وزيارة النبي صلى الله عليه وسلم بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه وسلامه ، وثم سرت إلى الحجاز ، ثم جذبتنى الهمم ، ودعوات الأطفال إلى الوطن وعاودته ، بعد أن كنت أبعد الخلق عن أن أرجع إليه ، وآثرت العزلة ، حرصا على الخلوة : وتصفية القلب للذكر ، وكانت حوادث الزمان ، ومهمات العيال ، وضرورات المعيشة ، تغير فى وجه المراد ، وتشوش صفوة الخلوة ، وكان لايصفولى الحال ، إلافى أوقات متفرقة ، لكن مع ذلك لاأقطع طمعى عنها ، فيدفعنى عنها العوائق ، وأعود إليها ودمت على ذلك مقدار عشر سنين ، وانكشف لى فى أثناء هذه الخلوات أمور لايمكن إحصاؤها ، واستقصاؤها ، والقدر الذى ينبغى أن نذكره ، لينتفع به ، أنى علمت يقينا ، أن الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة ، وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقتهم أصوب الطرق ، واخلاقهم أزكى الأخلاق ، بل لوجمع عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ، ليغيروا شيئا من سيرتهم ، واخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا إليه سبيلا ، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم فى ظاهرهم وبطانهم ، مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به

وبالجملة : ماذا يقول القائل فى طريقة أول شروطها ، تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ، ومفتاحها الجارى منها مجرى التحرم في الصلاة ، استغراق القلب بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية فى الله تعالى ، وهو أقواها بالإضافة إلى ما تحت الاختيار . إنتهى

قال العراقى . فلما نفذت كلمته ، وبعد صيته ، وعلت منزلته ، وشدت إليه الرحال ، وأذعنت له الرجال ، شرفت نفسه عن الدنيا ، واشتاقت إلى الأخرى ، فأطرحها ؛ وسعى فى طلب الباقية ، وكذلك النفوس الزكية ، كما قال عمر بن عبد العزيز : إن لى نفسا تواقة لما نالت الدنيا تاقت إلى الآخرة ، قال بعض العلماء : رأيت الغزالى رضي الله عنه فى البرية وعليه مرقعة وبيده عكازه وركوة ، فقلت له ياإمام أليس التدريس ببغداد أفضل من هذا؟ فنظر إلي شذرا وقال : لما بزغ بدر السعادة فى فلك الإرادة وظهرت شموس الوصل

تركت هوى ليلى وسعدى بمنزل ... وعدت إلى مصحوب أول منزل
ونادتنى الأشواق مهلا فهذه ... منازل من تهوى رويدك فانزل

إنتهى كتاب تعريف الأحياء بفضائل الإحياء بحمد الله وعونه

لجنة نشر الثقافة الاسلامية — ٣٠٠٠ — ١٥٠٠ — ٥ من ذى القعدة سنة ١٣٥٧

لجنة
نشر الثقافة الإسلامية

الآن وقد أصبح كتاب إحياء علوم الدين لحجة الإسلام الأمام الغزالى بين أيدى القراء بسهولة طبعته وسلامة نظامه وتشكيل آياته وأحاديثه فليس لدى اللجنة من قول تقوله اللهم إلا كلمة التهنئة الخالصة ترسلها لكل من ساهم فى إنجازه سواء كان بعمل فنيّ قام به أو مساعدة مادية قدمها أو . . . .

ونخص بالذكر حضرات الذين عاونونا فى تشييد صرح هذا الكتاب على النحو الذى ظهر به فقد كان الدكتور محمد محجوب محمد فضل التشجيع الأول كما له سابقة تهيئة ظروف إخراجه العملية ثم مساهمته إلى حد كبير فى ترتيبه ووضع أسسه ويلى الدكتور فى الفضل حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ العلامة الشيخ عبد الحليم بسيونى أحد علماء الأزهر الشريف وكذا صاحب الفضيلة الأستاذ الفاضل الشيخ عبد العظيم جوده فياض أحد علماء تخصص المادة بكلية الشريعة ، فقد كان له فضل العناية بضبطه ومراجعة بعض ماجاء فيه من ألفاظ احتيج إلى شرحها وإلى تخريج الآيات القرآنية التي جاءت فى الاحياء

والفضل فى هذا التخريج يرجع إلى حضرة الوالد المحترم الجليل الأستاذ محمد أبو شادى وهو ذلكم الرجل الذى كمله الله بما كمل به أولياءه وأصفياءه ، فهو الذى لفت نظرنا ونحن نعمل في بدء الجزء الرابع من الكتاب إلى أن من المستحسن إذا كان فى الامكان أن نشير فى هامش خاص إلى موضع كل آية تعرض وسورتها ورقمها من تلك السورة الشريفة ، فكان لحضرته ثواب ذلك عند الله إذ سهل بهذا الاقتراح الكشف عن موضع الآيات من السور لمن يريد أن يرجع إلى جو الآية وموضعها من كتاب الله الكريم .

وإذا كان من الواجب أن نشير إلى مجهود كبير بذل بحق وكان له أكبر الأثر فيما وصل إليه العمل من ضبط فى ميعاد صدور الأجزاء ، فهو بلا مراء مجهود الأخ محمد أفندى عبد المنعم السراوى ، فقد كان لما وضعه من قواعد إدارية وأعمال فنية ومجهودات عملية أثرا فعالا أنجز الله به هذا الكتاب العظيم . ولله الحمد من قبل ومن بعد والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم .

الثلاثاء ٥ من ذى القعدة سنة ١٣٥٧

مدير اللجنة

أحمد ابراهيم السراوى







